الإليـــاذة

هوميروس

ترجمة

سليمان البستاني

الكتاب: الإلياذة

الكاتب: هوميروس

ترجمة : سليمان البستاني

الطبعة: ٢٠١٨



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

هوميروس

هوميروس الإلياذة / هوميروس

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٧٩ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٥٩٧ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٢٩١٤ / ٢٠١٧

الإليـــــاذة



الإهداء

إليك يا والدي أهدي كتابي هذا، فأنت أولى به من كل حيٍّ وميت، وما هو إلا ذرَّةٌ من فضلك وجزءٌ من عنايتك ببنيك وتفانيك بنفع ذويك وبني جلدتك، فإن عجزت عن أداء واجب الوفاء بحياتك، فلا أقلَّ من أن أُشهد الملأ على عرفاني جميلك وأنت في عالم الأرواح.

ديباجة الكتاب

هذه إلياذة هوميروس أزفُّها إلى قرّاء العربية شعرًا عربيًّا، ولقد استنفدت وسعي في نظمها وإلحامها راجيًا أن تكون مُحكَمة التعريب خليَّة من شوائب اللكنة والعُجْمة.

وقد صدَّرتها بمقدمة أتيت فيها على سيرة صاحب الإلياذة وأشرتُ إلى منظوماته ومنزلته عند القدماء ورأي المتأخرين فيه وأقوال العرب في شعره، وبحثت في الإلياذة وموضوعها وطرق تناقلها قبل الكتابة ثم في جمعها وكتابتها وسلامتها من التحريف مع ما فيها من قليل الدَّخيل والساقط والمكرَّر والمغلق، وأتيت على تحليلها وتشريحها، وبسط ما فيها من الفائدة للأدب والتاريخ وسائر العلوم والفنون والصنائع، وأوضحت ما كان من الأسباب الداعية في صدر الإسلام إلى إغفال العرب نقلها إلى لغتهم، وتطرَّقت إلى التعريب، فقصصت حكاية المعرِّب في وضع هذا الكتاب. وذكرت مناهج العرب في نقل الكتب الأعجمية والطُّرق التي يجدر بالنَّقلَة التعويل عليها، وساقني ذلك إلى النظر في التعريب الشعري، ثم إلى النظم على الإطلاق وأوزان الشعر وقوافيه ووقع كل منها في معانيه، وجوازات الشعر من مأنوسٍ ومكروهٍ إلى غير ذلك مما يُعدُّ من خصائص هذه الصناعة، وانتقلت إلى المقارنة بين الإلياذة والشعر العربي، فوطَّأْتُ لذلك بالشعر القديم وأصله، وسبب

طموسه، ومناشدات سوق عُكاظ، وشأن لغة قريش فيها وفضل القرآن في جمع أشتات اللغة وتوحيدها وإحكام بلاغتها في النظم والإنشاء، وقابلت بين لغة قُرَيش الْمُضَرِية ولغة الإِلياذة الْيُونيَّة، وفصلَّت أطوار الشعر العربي مميزًا بين طبقات الشعراء من عهد الجاهليين حتى يومنا، وأثبت مزايا كل طبقة منها مع تعيين مدَّتها وأسماء، فحولها وإيراد ما اتسع له المقام من نفيس شعرهم، ثم أشرت إلى مغامز الشعر العربي ومناهج المولَّدِين في أبواب الشعر وفنونه وأساليبه وعلوم الأدب العربية وتاريخها، وانتهيت إلى أسباب الضعف والانحطاط في شعر المحدثين وجنوح النوابغ من أبناء هذا العصر إلى سد الخلل وتعديل الخطة، وأفردت بابًا للملاحم أو منظومات الشعر القصصي مما يماثل الإلياذة، فأشرت إلى ضروب الشعر عند الإفرنج، وقابلت بين ملاحم الأعاجم والملاحم العربية من الشعر الجاهلي، وجمهرة أشعار العرب، واستطردت من ذلك إلى إلقاء نظرة على الجاهليتين؛ جاهلية العرب، وجاهلية اليونان ثم إلى ملاحم المولَّدِين، ورجعت بعد هذا إلى الحقيقة والمجاز، وما يلصق بالمعاني الشعرية من التشبيه والكناية والاستعارة والبديهيات، وما ينتابها من النقل والسرقة وتوارد الخاطر، وما قد يطرأ عليها من التغيُّر بفعل الحضارة، وأَلْمَعت إلى مسالك الأعاجم في ذلك مبينًا مزية العربية على لغاتهم في بعض الأحوال، وذيلت المقدمة بخاتمة في الشعر واللغة عارضت فيها بين العربية واليونانية، وبحثت في اتساع العربية وثروتها

القديمة، وكثرة مترادفاتها، وتعدُّد المعاني فيها للفظ الواحد مع إيضاح فائدة ذلك وضرره، وإيراد أسباب الضَّعف في تأدية ما استُحدِث من المعاني العصرية، وأشرت إلى نهج العرب بالتوسع في اللغة والاصطلاح، وختمت بخلاصةٍ موجزةٍ في ما تراءى لي من الدَّاءِ والدَّواءِ والنهضة الحديثة، ومستقبل اللغة والشعر.

وقد علَّقت على الكتاب شرحًا توخَّيت فيه الفائدة والتفكيه، ورصَّعته بزهاء ألف بيتٍ مما قاله العرب في مثل معاني الإلياذة أو حوادثها، وضمَّنته كل ما تجدر معرفته من أخلاق الأمة العربية «في جاهليتها وبداوتها وحضارتها، والمشهور من أساطيرها وعباداتها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وأدبائها، ومواقف ملوكها وأمرائها وساستها وزعمائها» إلى غير ما هنالك مما أوضحته في باب حكاية المعرِّب (ص: ٧٢).

وقد مثَّلت المتن الشعري مطبوعًا بالشكل الكامل وأودعت الشرح كثيرًا من رسوم الآلهة وغيرهم مما يحسن الاطلاع عليه.

وأضفت فهرسًا لتلك الرسوم وآخر للقوافي ومعجمًا للألفاظ اللغوية، ومعجمين آخرين لجميع مواد الكتاب من أعلام وتاريخ وعلم وصناعة وخلق وعادة وهلمَّ جرًّا.

تلك هي على الجملة محتويات الكتاب «فإن أحسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد، وإلا فحسبي أن أفتحه بابًا يلجه من وفقه الله إلى سبيل السداد».

مقدمة



هوميروس

اسمه ولقبه

اختلف المؤرخون في اسم صاحب الإلياذة، ولكنهم متفقون على أن «هوميروس» لقبٌ لُقِّب به لأمر جلل تخلل حياته فعرف به، وأهمل اسمه على نحو ما اتفق لكثيرين من شعرائنا الذين غلبت ألقابهم وكناهم على أسمائهم كطرفة بن العبد، والشمَّاخ، والنابغة والفرزدق والأخطل والمتنبي وأبي العلاء، وللكتَّاب أقوالٌ مختلفة في ذلك اللقب نظير ما لكتَّابنا من المذاهب المتضاربة في أصل تلك الألقاب والكنى؛ ولهذا حاموا حول اللفظة اليونانية وجعلوا يستنبطون من معانيها ما شاءوا، فوضعوا لكل معنى يُستخرج منها حديثًا مما يمكن وقوعه لشاعرنا، فمن قائل أنه لما كانت كلمة هوميروس (ομηροζ) بمعنى الرهينة غلب عليه هذا اللقب لوقوعه أسيرًا في حربٍ فكان من جملة الرهائن، على أن الذاهبين هذا المذهب ليسوا على بينة من تلك الحرب، فمنهم من يجعلها بين أزمير وساقس، وهو مذهب بروكلوس وعنده أن الشاعر اعتقل في ساقس، ومنهم من يقول بل أخذ إلى كولوفون، وقال آخرون: «بل وقع أسيرًا في قبضة الفرس»، ومن قائل: «إن اللفظة منحوتة من كلمتي (ομωζ ςρειν) ومعناهما «المتكلم في المجلس» أي: الخطيب أو المشير وهو قول سويداس، وكل ما يُستخرج من هذا النحت يصح أن يتفق لصاحبنا، ومن قائل أنها مشتقة من لفظة (ομηρειν) بمعنى التابع أو اللاحق أخذًا من قول فلوطرخوس أنه

لحق بالليديين من مدينة أزمير، وهناك أقوالٌ أخرى أجدرها بالذكر قول هيرودوتس وإيفوروس: «أن اللفظة مركبة من ثلاث كلمات» (ο μη ορων) بمعنى الكفيف البصر، وهو تخريجٌ حسنٌ يصحُّ التعويل عليه؛ لأنه لم يثبت في الأثر شيءٌ مما يؤيد الأقوال السابقة ولكنه ثابتٌ أن بصره كُفَّ وهو لم يكد يتجاوز سن الشباب، وقد أشار إلى ذلك في أبيات من منظومته «الأوذيسية». وفي معُجم ألكسندر «أن لفظة هوميروس مفردةٌ كان يراد بها «الأعمى» في مدينة كومة وبها لُقب الشاعر».

وأما اسمه فأشهر ما قيل فيه أنه كان ميونيذِس أي: ابن ميون؛ لأن ميون ملك ليديا تزوَّج أمه كريثيس، والطفل على يدها فدعاهُ باسمه وهو يعتقد أن أبا ذلك الطفل من الجن، وقيل: «بل كان والد هوميروس داماسوغوراس ووالدته أثرًا ومسقط رأسه مصر». وقيل: «بل كان اسم هوميروس ميليسا جينيس» وهي رواية هيرودوتس، وعليها المعوَّل كما سيجيء.

نَسَبُهُ

لا يعلم شيء ثبت عن نسب هوميروس وحسبه، وإن لدينا مما استبقاه المتقدمون أقوالا متباينة لا يمكن الأخذ بشيء منها، وصفوة ما عوَّل عليه الكتبة منها سيرتان كتبهما هيرودوتس وفلوطرخوس، ثم وجد المتأخرون بعد التمحيص أنهما لا تخلوان من تناقض يؤدي إلى الظن

أنهما لُفقتا بعد حين كقول هيرودوتس أن هوميروس نبغ في القرن السابع أي: قبل حملة الفرس الكبرى على بلاد اليونان، وقوله في تاريخه: «إن هوميروس تقدمه بأربعمئة سنة مع أنه كان يدون بنفسه سير تلك الغزوة تدوين الشاهد الحي». وليس في ما بين أيدينا من منظوم هوميروس ما يشير إلى أسرته وعترته مع أنه كان أحرص الناس على تدوين الأنساب كما يتضح لمن يتصفح الإلياذة، ولا أخاله إلا آتيًا على تلك النسبة في شيء مما فقد من شعره إذ ليس في محفوظ أشعاره ذكرٌ لأبيه، وأما أمُّه فيزعم بعض الشراح أنها هي المعنية بقوله في النشيد الثاني عشر:

كمــرأة عالــت الأطفــال عادلــة قـد أمسـكت عـود ميـزان تعادلـه

لا تخسر الصوف مثقالا تضنُّ به

وعلى هذا فلا يمكن استخلاص شيء من كتبه عن نسبه، وجميع ما لدينا من رواية السلف عنه لا يتجاوز حد الحدس، ولا سيما أن شهرته النامية ومنزلته السامية حببتا إلى كتبة كل قبيلة من اليونان أن تدَّعيه فتنازعته مدائنهم وأتي كلٌّ منهنَّ ببرهان، وأشهر تلك المدائن ثمان وهي: أزمير، وسلاميس (وتدعى اليوم كولوري) ويوس (نيو) ورودس، وخيوس (ساقس) وكولوفون، وأرغوس وأثينا، ولعله أقام زمنًا في كل منهنَّ وأخلف فيها أثرًا من شعره فكان داعيًا إلى تلك الدعوى، وإن رجلًا هذا شأنه لا بَدْع أن يدّعيه كل فريق من قومه بعد أن ادَّعاه الأجانب، فقد ذكر أفستاثيوس رواية أسندها إلى إسكندر بافيوس زعم فيها أن هوميروس

ولد في مصر قال: «كان أبوه يدعي داماساغوراس، وأمه أثرا فلما وُلد عنيت بتربيته نبيَّةٌ من ولد أوروس الكاهن، وكان يتحلَّب الشهد من ثدييها إلى فم الطفل فكان إذا أقبل الليل يتغنى بصوت كصوت تسعةٍ من الطير مختلفة الأجناس، وإذا لاح الفجر يصبح وهو يلاعب تسعًا من الوِرق، وأوعز إلى أبيه أن يبني هيكلًا للقيان منشدات السماء فبناه وقص الخبر على ابنه لما بلغ أشُدَّه، فكانت تهيجه ذكرى الحمام وترنم به في شعره».

ومهما يكن من الخبط في تلك الأقاويل، فإنَّا نتبع الفريق الأعظم من الكتبة في التعويل على النسبة التي كتبها هيرودوتس وإليك مجملها:

مولدهُ ونشوؤه

هو ابن كريثيس ابنة ميلانوفوس ولدته أمُّه على ضفة نهر ميليس في ضاحية أزمير ودعته ميليسا جينيس أي: ابن النهر ميليس، وكان في أزمير إذ ذاك معلم كُتَّاب يدعى فيميوس، فاستأجرها لغزل الصوف الذي كان يتقاضاهُ أجرةً من تلامذته، وكانت كريثيس صناع اليدين ذات رجاحة وسكينة فأُعجب بها فيميوس وخطبها لنفسه، وما زال يمنيها بالوعود حتى أجابته إلى طلبه. وكان جلُّ ما استمالها به قوله لها: إنه توسم في الغلام من الفطنة والذكاء ما جعله واثقًا أنه سيكون نابغة عصره إذا عُهد إليه بتربيته، فإذا رضيت به بعلًا لها فهو يتبنى ابنها، ويعكف على تهذيبه

وتثقيفه، وبرَّ فيميوس بوعده، فعُني به فإذا به قد فاق جميع أقرانه ثم ما انقضت بضعة أعوام إلا وهو يكاد يظهر على أستاذه.

مدرستهُ

وتوفي فيميوس ولا وارث له إلا هوميروس ثم ما لبث أن توفيت كريثيس، فخلت المدرسة لهوميروس فأقام مقام أستاذه فأُعجب به بنو أزمير، وطارت شهرته فقصدهُ الداني والقاصي، وأصبح مجلسه ديوان الأدب وكعبة الحكمة، وكانت أزمير لذلك العهد محطًّا لرحال التجار تستورد إليها الحبوب من تلك البقاع الخصبة فتمتار منها المدن المجاورة، فأصبح الغريب القادم إليها إذا فرغ من عمله أو سنحت له فرصةٌ يهرع إلى مجلس الأستاذ الفتى؛ ليلتقط درر حكمته، وممن كان يختلف إليه ربَّان سفينة من ذوي العلم والدهاء اسمه منتس يحمل الحبوب إلى أزمير من لوقاديا، فشغف بحديث ميليسا جينيس وجعل يحسن له الأسفار ويزين له مشاهدة الأمصار وهو في عنفوان الصبا قبل أن يدركه العجز؛ ليزداد حكمة واطلاعًا ووعده أن يحمله على سفينته فيتخذه خدنًا عزيزًا وإِلفًا كريمًا، وما زال به حتى حمله على مغادرة المدرسة والتدريس واللحاق به رحالة على متن البحار.

أسفارهُ

وكان ميليسا جينيس شديد المراقبة كثير البحث لا يقع بصره على شيء إلا تحرَّاه ولا طرق مسمعه خبرٌ إلا استجلاه، فطالت الرِّحلة

وهو في أثنائها يختزن الفوائد ويجمع الأخبار حتى انتهى به التَّطواف إلى إيبيريا (إسبانيا) وأقلعت منها السفينة إلى أزمير، فعرَّجت على إيثاكة (ثياكي) في الأرخبيل اليوناني، وهناك رمدت عينا ميليسا جينيس، فاضطر منتس على كُرهٍ منه أن يستبقيه فيها لدى صديق له حميم من أهل تلك الجزيرة يدعى منطور، فأنزله منطور في داره وكان مضيافًا طيب العنصر، رحب الصدر، كريم الخلق ليس في بلاده من يضاهيه شهرة بتلك الخلال، ولم تكن العلة لتمنع الفتى من البحث والتحري فظل وهو على فراش المرض يلتقط شوارد الفوائد، ومن جملتها أخبار أوذيس (أوذيسس) وأسفاره (فكانت له أساسًا بنى عليه منظومته الأوذيسية، وجعل فيها اسم منطور مرادفًا للحكمة والبر فخلد بها ذكره أبد الدهر).

وبقي ميليسا جينيس نزيل منطور إلى أن عاد الربَّان منتس إلى إيثاكة فأنزله إلى سفينته واستأْنفا الأسفار إلى أن بلغا كولوفون، فاشتد عليه الرمد حتى فقد بصرهُ جملةً وظلَّ كفيفًا إلى أن مات.

شروعه في قرض الشعر

ولما كُفَّ بصرهُ قصد أزمير وأقام فيها زمنًا ينظم الشعر، فضاقت ذات يده وبرحت به الحاجة، فعوَّل على الشخوص إلى كومة، وسار يقطع هرمُس (وهو نهر كديز أو سرابات) إلى أن بلغ به السير إلى (نيونتيخوس) وهي بلدة من مستعمرات الكوميين. قيل: إنه وقف فيها إلى حانوت تاجر جلد، فأنشد أبياتًا شكا فيها بؤس الغريب الشريد

المتضور فاقة وجوعًا، وكان ذلك أول عهده بالإنشاد على مسمع الناس، فأصابت تلك الأبيات موضع رفق وعطف من فؤاد ذلك التاجر؛ فرحب به وآواه إليه، فجلس في الحانوت وأنشد على مسمع جماعةٍ ممن حضر مقاطيع من شعره في وصف حملة أمفياراوس على ثيبة وبضع ترانيم دينية، فأَجَلَّه القوم وأكرموا مثواه، فأقام بينهم وصناعته الإنشاد.

قال هيرودوتس: «ولا يزال أهل تلك البلدة حتى يومنا يفتخرون بالإشارة إلى المجلس الذي كان ينتابه فينشد فيه، ولذلك الموضع عندهم حرمةٌ ومنزلةٌ سامية وفيه شجرة صفصاف يزعمون أنها زُرعت يوم قدم ميليسا جينيس فأقام بين ظهرانيهم».

تتمة أسفاره

أقام الشاعر بضعة أعوام في نيونتيخوس ثم قلَّ رزقه فيها فبرحها إلى كومة، وقصد الموضع الذي كان يجتمع فيه مجلس الشيوخ، وأنشد ما تيسر فارقص الحضور طربًا فطابت نفسهُ وعظمت أمانيُّه فسألهم أن يقوموا بنفقته على أن يقول فيهم من الشعر ما يُطير شهرة مدينتهم في الآفاق ويخلد لها جميل الذكر. فلم يكن في من حضر إلا من استصوب السؤال وأوعزوا إليه أن يقول قوله هذا في المجلس وهو ملتئم وهم من ورائه يعضدون. فعمل بإشارتهم، ولما اجتمع الشيوخ أدخل إلى قاعة الاجتماع، فانتصب خطيبًا وأعاد الكلام الذي ألقاه على عامَّة الناس وخرج ينتظر الجواب. فخلوا إلى شوراهم وكان معظمهم ممن يرغب في

موافقته، فإذا بواحد منهم قد قام فاعترض وقال: «لئن جنحنا إلى القيام بنفقات عميان الشعراء لَنُلقينَّ على عواتقنا زُمرًا منهم لا قِبَل لنا بهم». فأدَّى بهم ذلك إلى الانقلاب عن عزمهم.

ومن ثم لُقب ميليسا جينيس بهوميروس، ومعناها أعمى بلغة الكوميين وتنوسي اسمه، فَنَقم هوميروس على كومة وأهلها، ونظم قصيدة رثى بها حاله، واستنزل اللعنة على من يتغنى بمدحها ومدحهم من الشعراء، وغادرها إلى فوقيا على مقربة من أزمير وجعل يطرق منتدياتها فينشد فيها الأشعار.

وكان في تلك البلدة معلم كتَّاب ذميم الخلق يسمَّى ثستوريذس، فلما رأى ما كان من رواج بضاعة الشعر دعاه إلى منزله يقيم فيه ضيفًا كريمًا على أن يلقنه كل ما نظم وما سينظم من الشعر فما وسع هوميروس إلا القبول فرارًا من الفقر، فأكب ثستوريذس على النسخ حتى استتم كل منظومات هوميروس، فأقفل أبواب مدرسته وسار إلى جزيرة ساقس، وأقام فيها ينشد شعر نزيله ويدَّعيه. فبلغ هوميروس أمره فعزم على تعقُّبهِ ولم يبال بما اعترضه من مشاق فوصل الجزيرة بعد معاناة الأهوال، ونزل في بلدة من ثغورها تدعى بوليسوس فاتخذه بعض وجهائها معلمًا لأولاده، فأقام عنده وعكف على نظم الشعر ثم أذاع منظومات خلابة «كحرب الزرازير» و«حرب الضفادع والفيران» و«الكركوفة» فتناشدها الناس

وتناقلها الركبان، وكان ثستوريذس كلما علم بحلول هوميروس في مكان فرَّ منه إلى مكان آخر.

ولما رسخت شهرة هوميروس في ثغور الجزيرة سأل صاحب منزله أن يذهب به إلى عاصمتها، فشخص إليها وفتح مدرسةً يعلم فيها النظم وطرائقه فعظُم أمره وعلت منزلته، وأكبر الناس قدره فطاب عيشه واتسعت حاله بينهم، فأزوجوه بنتًا فولدت له ابنتين، وجادت قريحته فنظم وأبدع، وكان وفيًّا ذكَّارًا للجميل، فأودع شعره كل خلَّةٍ محمودة خلَّد بها ذكر المحسنين إليه ولا سيما منطور الذي عني به أثناء رمده في إيثاكة، قال هيرودوتس: «جعل هوميروس منطور في منظومته الأوذيسية رفيقًا لأوذيس، وأبرزه بمظهر من الصدق والوفاء عظيم حتى أن ملك إيثاكة استخلفه على بيته وعياله عند ما شخص في من شخص إلى طروادة».

فلهج الناس في كل قطر بذكر هوميروس حتى ملأت شهرته بلاد يونيا، وبلغت هيلاذة، فأوعز إليه أن يقصد إغريقيا، فطرب لذلك الإيعاز فأقلع إلى ساموس، وقضى فيها فصل الشتاء يتكسَّب بالإنشاد في منازل الأغنياء.

مرضُهُ ووفاتُهُ

ولما انقضى الشتاء عوَّل على السفر إلى أثينا فركب سفينة مع جماعة من أهل ساموس، فبلغوا جزيرة يوس وأرسوا في مضيق على مقربة

من الثغر ففاجأ هوميروس الداء، فنزل إلى البر وانطرح على الجرف، ولم تقو السفينة على مواصلة السير لشدة الأنواء، فأقاموا أيامًا في مكانهم وأهل الجزيرة يتهافتون أفواجًا لمحادثة هوميروس، وقد بلغ بهم الإعجاب منتهاه لما كان ينثر عليهم من غرر الأقوال ودرر الأمثال، ولكنه ما لبث أن توفي لاشتداد الداء، فاجتمع رفاقه وأهل الجزيرة ودفنوه قرب الشاطئ.

ولما مرَّت السنون وذَوت نضارة الشعر، وانحطت منزلته اجتمع أهل الجزيرة إلى قبر هوميروس، فنقشوا عليه بيتين من الشعر معناهما: إن من هذا النبات الأخضر غطاء للرأس المقدس رأس الشاعر هوميروس شبيه الآلهة الذي كان يتغنى بمدح الملوك والأبطال.

فذلكة ما تقدَّم

تلك خلاصة ترجمة هوميروس بنص هيرودوتس، وهي وإن كانت لجلائها وصراحتها وتقدم عهدها أحرى بالثقة مما سواها فإنها لم تخلُ من مظان اعتراض رماها بها المتقدمون فضلًا عن المتأخرين، ولكن جلَّ ما يعترض به مقصورٌ على العرَض لا يكاد يتناول الجوهر بشيء، قال هيرودوتس: «إن تسشوريذس عكف على نسخ منظوم هوميروس مع أنه لم يثبت قط أن اليونان كتبوا لعهد هوميروس؛ لأن الحروف الفينيقية لم تشع عندهم إلا بعد حين». على أن هذا القول لا يعبث بأساس الرواية إذ المراد إثبات أن تسشوريذس كان سارقًا فسيَّان إذًن أن يكون ناسخًا أو

مستظهرًا، وزعم بعضهم أن تلك السيرة كتبت بعد زمن هيرودوتس وعزيت إليه، فعلى فرض ثبوت هذا الزعم فلا ريب أنها كتبت بيد خبير فنسبتها إلى هيرودوتس لا تنقض حقائقها، وأما إغفال هيرودوتس أمورًا مما أثر عن هوميروس كرحلته إلى مصر، وما أشبه فليس مما يفسد الحوادث التي أثبتها إذ قلما تجد مترجمًا أو مؤرخًا يلم بأحوال مترجمه وأعماله بكلياتها وجزئياتها؛ بل ربما حصل التفاوت في نصوص كتبة الوحي والمحدثين، فإن في كل من الأناجيل شيئًا مما أغفل في غيره، وما كان ذلك لينقض شيئًا من الحقائق المسطرة فيه، ويقال مثل ذلك في السير النبوية والأحاديث.

وحاصل القول أنه كان للقدماء مزاعم كثيرة في هوميروس مما أسند إلى السلف، وتنوقل بالتواتر أو استنبط من فقرات من أناشيده، ولقد أوغل بعضهم في البحث أو الاستنباط حتى وضع سلسلة نسبة رواها سويداس وغيره تتصل من أفلُّون إلى كريثيس والدة هوميروس، قالوا: «كانت كريثيس ابنة ميون بن فرسيس وفوكميذا ابنة أفلون، وكان فرسيس أخا هسيودس الشاعر وكلاهما من ولد ذيوس بن مينالفس بن أبيفراذس بن أوفيمس بن فيلو تربس بن هرمونيذس بن أرفيوس بن واغروس من القينة قليوبة، وكان واغروس ابنًا لفيروس من الحوراء ميثونة، وفيروس ابنًا للينوس الشاعر، ولينوس هذا من ولد أفلون، وثووسة ابنة فوسيذ». تلك نسبةٌ لا يثبت منها مع ما هو متواتر من أقوال المتقدمين إلا أن اسم

والدة هوميروس كان كريثيس ولا علم لهم بأبيه، ولعل هوميروس نفسه لم يكن يعرف أباه وهو شأن كثيرين من نوابغ الأعصر الخالية، ومن جملتهم فرجيليوس نابغة شعراء اللاتين، أما سائر حلقات السلسلة، فإذا استجلي كنهها اتضح منه أنه يُرمى به إلى إعظام قدر الشاعر، وإلصاقه بأعلى نسبة يفتخر به، ووصفه بأجل وصف يزين عظام الرجال، فما في تلك السلسة إلا الشاعر والحكيم والملك والعظيم فضلا عن الآلهة كأفلون صاحب القيثار وفوسيذ رب البحار والمطربات القيان والحور الحسان، وإذا أضفنا إلى ذلك معاني سائر الأسماء كهرمونيذس من رقة النغم وحسن الإيقاع، وفيلوتربس من حب السرور، وإبيفراذس من الذكاء، وفوكميذا من الحكمة علمنا أن واضع تلك السلسلة رمى بها مرمى الأقدمين من التعبير عن الحقيقة بالرمز واللغز وتجسيم الصفات، فكأنه قال: تلك هي أوصاف هوميروس الشاعر الحكيم المطرب العظيم الرحَّالة الفهَّامة والمؤرخ العلامة إلى آخر ما هنالك من صفات الإجلال والتبجيل.

وأما سائر الروايات المخالفة لترجمة هيرودوتس فأكثره موضوعٌ لأسباب قد يمكن استجلاء بعضها بالتحري والمقابلة. ولنتخذ مثالا على ذلك زعم بعضهم أنه وُلد في مصر. فإذا علمنا أن مصر كانت لذلك العهد مورد العلم ومنهل الحكمة، ومحط ركاب الطلبة من كل فجٍّ سحيق، وعرفنا أن رجلًا كهوميروس لا بد من أن يحثه الشوق إليها فيقيم

فيها زمنًا طويلا ويخالط عامتها وسوقتها فيختبر الخلق والعادة، ويتصل بالكهان والأحبار فيدخر ويستفيد، وثبتت لدينا صحة ذلك من كثرة مآخذه عن المصريين مما نبهنا عليه في مواضعه، ورأينا تهافت القدماء على انتحال نسبة هوميروس إليهم، إذا تبينًا كل هذا ذهبت عنا غرابة هذا الزعم، ثم إذا تطرقنا إلى النظر في قولهم: «إنه ربي في حجر بيت عظيم الكهنة» على ما تقدم فلا يصعب علينا أن نرى في تلك الرواية تحريفًا لنص التوراة في نشأة موسى الكليم، وكم من رواية على هذه الشاكلة وضعت لنبي أو عظيم، فنُقلت فنُسبت إلى غيره في كل بلاد الله، وتغيرت الأسماء وتحولت المجريات إلى ما يلائم المكان والزمان والأصل واحد.

فلا غرابة بعد هذا في تشعب الأقوال عن شاعر يلهج الناس بذكره منذ نحو ثلاثين قرنًا، وأن تتباين المزاعم في اسمه ولقبه ونشأته وأسرته وسيرته في صباه وشيخوخته. فإذا ولد اختلفوا في أبيه، وإذا دبَّ اختلفوا في ربيبه، وإذا شب تنازعته الأمصار، وإذا شرع في السياحة قالوا: «رحل فقيرًا على نفقة غيره أو غنيًّا على نفقه نفسه». وإذا أنشد الشعر ذهب فريقٌ إلى أنه أنشده مترنمًا محتسبًا كامرئ القيس وعبد يغوث في الجاهلية وابن المعتز وأبي فراس في الإسلام، وقال الأكثرون: «بل تغنَّى به مستجديًّا مكتسبًا كزهير ولبيد والحطيئة ومتنبي المشرق أبي الطيب، ومتنبي المغرب ابن هاني». وهكذا ظلُّوا يتقوَّلون في مناحي حياته إلى أن تناولوه ميتًا، فأماته بعضهم كمدًا ميتة نحوينا سيبويه، قالوا:

كان شاخصًا إلى ثيبة فعرج على يوس، وإذا بفتية يصطادون سمكًا فسألهم عن مقدار صيدهم فقالوا: «أفلتنا بعدد ما أمسكنا، واصطدنا بعدد ما لم نصطد» فأُغلق عليه فهم المراد، وعظم عليه الأمر فمات قهرًا.

والخلاصة أن الترجمة المعزوة إلى هيرودوتس هي لدى التحقيق أصدق ما كتب عن سيرة حياته. وليس في ما كتب أرسطوطاليس وإسطرابون ما يندُّ عنها كثيرًا، وأما المدن اليونانية التي أدعته فللكثير منهن نصيبٌ من صحة الدعوى، قال غينيو في مقدمة معجم هوميروس لتيل وهاليز داروس:١ «أحق البلاد بهوميروس أزمير باعتبار مولده وصباه، وكومة باعتبار شروعه في قرض الشعر، وساقس باعتبار نبوغه في النظم، ويوس بالنظر إلى بقاء وفاته فيها».

تاريخ ظهوره

للمؤرخين أقوالٌ مختلفة في تعيين الزمن الذي ظهر فيه شيخ الشعراء وهي تتراوح بين بدء القرن الثاني عشر والقرن السابع قبل الميلاد، ورواية هيرودوتس القائل أن هوميروس تقدمه بأربعمائة سنة ما زالت أجدرهنَّ جميعًا بالثقة؛ لانطباقها على منقول الثقات من قدماء المؤرخين والأثر المتصل إليهم بالتواتر. فعلى هذا يكون نبوغ هوميروس في منتهى القرن العاشر أو بدء التاسع قبل الميلاد أو نحو سنة ٩٠٠ لأن مولد هيرودوتس كان في أوليات القرن الخامس ق.م. يؤيد ذلك:

(١) أن مؤرخي الرومان مجمعون على أن هوميروس نبغ قبل بناء رومية بقرن ونصف، فإذا أضفنا ذلك إلى ٧٥٣ وهي السنة التي بنيت فيها رومية كان نبوغ هوميروس نحو سنة ٩٠٣ق.م.

(٢) أن من مرويَّات شيشرون الروماني أن هوميروس كان معاصرًا ليكرغس الشارع اللقدموني، وقد أيَّد إسطرابون تلك الرواية، وقال: «إن ليكرغس قصد ساقس طمعًا بمحادثة هوميروس والأخذ عنه، وعهد ليكرغس بين القرنين التاسع والعاشر، ولا يجرح تلك الرواية قول فلوطرخوس الذاهب إلى أن ليكرغس إنما أخذ شعر هوميروس عن حفيد الشاعر، فقد يمكن أن يكون ذلك في حياة الشاعر أو بعدها بقليل».

(٣) يؤخذ من الأنساب المنقولة على قطع المرمر التي وجدت في أوائل القرن السابع عشر في جزيرة فاروس في الأرخبيل الرومي، والمحفوظة في مكتبة أكسُفورد أن هوميروس كان حيًّا سنة ٩٠٧ق.م. ولا غرو أن تكون تلك النقوش موضع ثقة؛ لأنها كتبت باعتناء حكومة أثينا، ودونت فيها أشهر حوادث اليونان من سنة ١٥٨٢ إلى ٢٦٣ق.م.

فإذا ثبت لدينا أن نبوغ هوميروس كان في أخريات القرن العاشر رجح في الظن أن بينه وبين دمار إليون التي سمى الإلياذة باسمها نحوًا

من أربعمئة سنة، وأنه كان معاصرًا لأحاب ملك إسرائيل وسوا ثاني ملوك الدولة الخامسة والعشرين في مصر، وكلٌّ من مصر وفلسطين في ذلك الحين كان في معامع الاضطراب والانقلاب، كما كانت بلاد اليونان في أبَّان سكونها بعد أن ماجت بالجالية المتدفقة إليها تدفق السيل، وهو ولا ريب زمن احتكاك الأفكار وانفجار القرائح بنفيس الأشعار.

منزلته عند القدماء

قال إسطرابون (في الكتاب الأول والفصل الثاني من جغرافيته) «إذا قيل الشاعر عُني به هوميروس». وقد لقبه في أول صفحة من الكتاب المذكور بالفيلسوف، ووضعه في مقدمة الجغرافيين، وقال في موضع آخر: «إن رائد هوميروس إنما كان الحقيقة، وأما الخيال فإنما اتخذه حلية وشَّى بها شعرهُ، فبهر بها النواظر فعلقت بها الخواطر، وهذا هو السرُّ في شغف ناشئة اليونان كافةً بمطالعة شعره».[٢] وقال في وصف أزمير: «إن من خططها ما يدعى بالهوميرويوم وفيه هيكل ونصب لهوميروس، وللأزميريين إعجابٌ به لا يفوقه إعجاب ولهذا صكُّوا نقودًا صُفرِيَّة يتداولونها وعليها اسمه ورسمه.[٣]



الهوميرويوم أو هيكل هوميروس.

وإن في مؤلفات هيرودوتس، وفلوطرخوس، وبلينيوس، وشيشرون وسائر مؤرخي اليونان والرومان ممن نبغ قبل إسطرابون وبعده ما يؤيد كلام إسطرابون أو يربو عليه، وقد روى سيمونيذس ونيوكريذس أن أهالي ساقس شادوا له معبدًا وعبدوه وتداولوا نقوده كما فعل أهل أزمير، وزعموا أن الطائفة المعروفة بالهوميرية إنما كانت من نسله قالوا ذلك تأييدًا لدعواهم فيه كما قال غيرهم: «بل هي طائفة من الشعراء تحدَّت هوميروس في النظم والإنشاد».







نقود هوميروس.

وكان أرسطوطاليس في مقدمة المعجبين بهوميروس، وقد ألصق نسبه بالآلهة فقال: «سطت طائفة من قرصان أزمير أثناء الجلاء اليوني على فتاة من جزيرة يوس، وهي حبلى من أحد الآلهة؛ فسبوها واحتملوها إلى بلدتهم فولدت الشاعر».

وكان الإسكندر المقدوني كلِفًا بمطالعة منظومات هوميروس، واستكتب منها نسخة نقحها له أستاذه أرسطوطاليس كان يحتملها معه حيثما توجه، ثم اتخذ لها غلافًا خوذة مرصعة من أسلاب دارا ملك الفرس فكانت جليسه في حله وأنيسه في ترحاله يتحدى نهج مواقعها، ويترنم ببدائعها ويتمثل بها في كل ما عنَّ له من الأقوال والأفعال، ولطالما كانت تعروه هزة الطرب إذا أنشد بعض أبياتها، ولا سيما بيته القائل بوصف أغاممنون:

مليــكٌ بــأحوال السياســة عــارفٌ   عــزوم بصــماء المعــامع جبّــارُ

ومن مأثور أقواله وهو واقف إلى قبر آخيل بطل الإلياذة: «طوباك فقد أوتيت منتهى السعادة بقيام شاعر كهوميروس يخلد ذكرك».

وإنك لا تكاد تتصفح كتابًا من كتب الأدب والتاريخ مما كان يوثق به عند قدماء الغرب إلا رأيته مشحونًا بالشواهد المنقولة عن شاعرنا مشفوعة بالإطراء والإكبار، وكانوا يقتبسون من أقواله على نحو ما يقتبس اليهود من التوراة والنصارى من الإنجيل والمسلمون من القرآن والحديث، كل ذلك مما مهَّد سبيل إحلاله عندهم ذلك المحل الرفيع حتى تنازعته البلاد وشغفت به العباد، وعني الملوك والعلماء بجمع شتات قريضه، وعكف الرفيع والوضيع على إدخاره كنزًا لا ينفد.

وكان فقهاء اليونان ومشترعوها يتجشمون الأسفار؛ لجمع ما تفرق من تلك الغرر في أطراف البلاد فينظمون عقدها ويلقونها على

العامة؛ تهذيبًا لأخلاقهم وتثقيفًا لعقولهم والملوك يبذلون لهم المال عونًا لهم على بلوغ تلك الغاية. قالوا: وأول من فعل ذلك ليكرغس لعهد هوميروس أو بعده بقليل، وحذا صولون حذوه ففعل في أثينا فعل ليكرغس في إسبرطة حتى لقد كان يضطر الشعراء أن ينشدوا قطعًا متوالية من هوميروس؛ حفظًا لها في ذهن الأمة واستبقاءً لانتساقها على السياق الذي نظمها به الشاعر. وإن لفيسيستراتوس ملك أثينا يدًا مشكورة في تبويب تلك المنظومات على النمط الذي اتصلت به إلينا، فاتخذ جماعة من كبار العلماء ووسع عليهم في الرزق ليتفرغوا لتلك المهمة، ومن جملة مرويَّات الأعصر الغابرة أنه تألفت طائفة من أدباء اليونان صرفت همها إلى النظر في الشعر الهوميري، فنقحته ونبذت منه الدخيل وألقته إلى الخلف على ما نراه عليه اليوم، وكانت تلك الطائفة مؤلفة من سبعين عالمًا مثلما تألف المجمع السبعيني الذي نقل التوراة من العبرية إلى اليونانية لعهد بطليموس فيلادلفيوس. وأما العامة فإنها تلقت تلك الفرائد تلقيها للآي المنزلة، فكانت فكاهتها في مجالسها ومرجعها في مباحثها ومرماها في تثقيف أحداثها وقبلتها في غدوها وآصالها. وما انتشر فن الكتابة حتى انتشرت في النوادي والمنازل فوق انتشارها في أذهان الخلق، فكان الساقط السافل عندهم من خلا رأسه أو منزله من شيء من منظومات هوميروس. وهم يتنافسون بحفظها ويتناشدونها كما تتناشد خاصة الفرس والجمُّ الغفير من عامتهم أقوال

الفردوسي صاحب الشهنامة وسعدي صاحب الكلستان لعهدنا هذا أو كما يتناشد أدباؤنا الحكم والأمثال المقتطعة من أقوال نوابغ الشعراء، ومما يروى في هذا الصدد أن الكيبياذس القائد اليوناني لم يتمالك وهو فتى أن انهال على أستاذه بالشتم ثم بلغت به الحدَّة أن ضربه؛ لأنه لم تكن عنده نسخة من شعر هوميروس وهو ذنبٌ في ذلك العصر عظيم، ومن هذا القبيل أيضًا ما يقال عن زويلوس الكاتب إذ تصدى لانتقاد هوميروس في القرن الرابع ق.م. فقامت الأمة وقعدت وقبضت على المنتقد وصلبتهُ ثم رجمتهُ رجمًا، ومهما يكن من صحة هاتين الروايتين ففيهما من المعنى ما لا يخفى على اللبيب.

ولا يظننَّ المطالع أن هوميروس إنما نال تلك الحظوة عند قومه وبني ملته. بل كانت هذه منزلته عند الرومان ومن وليهم من أمم الغرب، فاللاتين كانوا يترنمون بأقواله ترنمهم بشعر نابغتهم فرجيليوس، وما فرجيليوس إلا نابغة من مريدي هوميروس شغف بتلاوة شعره، وكان شاعرًا بليغًا، فنظم الإنياذة على نسق الإلياذة، وأجاد في تحدي أستاذه، وأما أمم أوروبا فإنها أقبلت على ذلك الشعر منذ نشأتها، ولم يتخلل إقبالها فتورٌ إلا عقودَ أعوامٍ معدوداتٍ في بدء النصرانية كما سنبين في باب نقل الإلياذة إلى العربية، وفي ما سوى ذلك كانت منظومات هوميروس ولا تزال عندهم في المنزلة الأولى بين منظومات البشر أجمعين، وكان بعض العامة من الإفرنج في القرون الوسطى يتخذون منها الأحراز والتعاويذ،

ويلجئون إلى استخراج المغيبات مما يستنبطون من معاني الأبيات التي تبدو لهم إذا فتحوا كتابه أيًّا كانت، وأبلغ من كل ذلك أن لفيفًا من الأطباء المشهود بعلمهم كانوا يعالجون بعض المرضى بالشعر الهوميري، فإذا استوصفوا علاجًا للحمى الرباعية أمروا بوضع نسخة من النشيد الرابع من الإلياذة تحت رأس العليل.

تلك كانت منزلة هوميروس عند اليونان والرومان ومن وليهم من أمم أوروبا.

رأي المتأخرين فيه

لم يزل الشعر الهوميري في المنزلة الأولى بين منظومات الشعراء، وليس بين كتب الأدب والتاريخ والشعر كتاب تداولته الأيدي وتناقلته الألسن، واستشهد به الأدباء والكتبة والمؤرخون ونقل مرارًا متوالية إلى معظم لغات الحضارة نثرًا وشعرًا كديوان هوميروس حتى لقد جُعل تدريسه فرضًا في كثير من مدارس القوم تلقَّنه الفتية أصلا وترجمة، ومما يذكر في هذا الصدد اعتراض بعضهم على إنفاق الساعات الطوال في إلقائه على طلبة جامعة برلين، فلما بلغ ذلك الاعتراض ولهلم الأول قيصر ألمانيا قال: «دعوا الأساتذة يكثروا من تلقين شعر هوميروس فإن الأمة التي يرسخ في ذهنها وصف صبا الأمم على ما يبسطه هوميروس لا يسارع إليها العجز والهرم». ومن أقوال رينان الفيلسوف الفرنسي الحديث: «إذا مر على عهدنا ألف عام انقرضت جميع التآليف التي بين أيدينا، ولم يبق

منها إلا كتاب واحد وهو ديوان هوميروس» وإذا كان المتقدمون قد أطلقوا عليه لقب «الشاعر» فقد لقبهُ المتأخرون «بأمير الشعراء» وما انتقاد بعض الكتَّاب فقراتٍ متفرقة من شعره إلا مَدعاةً لزيادة انتشاره واتساع شهرته.

فما سام الشمس العُلى حطّةً غمامٌ يستر أذيالها

وأما بنو الشرق فهم وإن جهل معظمهم اسم هوميروس فضلًا عن وجود منظوماتٍ له إلا أن ذوي الاطلاع من متأخريهم قدروه حق قدره كما أن بعض علمائهم في الزمان الغابر أعظموا شأنه وأجلُّوهُ، وإنَّ صفوة أدبائنا في هذا العصر شاعرون بالحاجة الماسة إلى نقله إلى العربية، ويُذكرني هذا حديثًا مع منيف باشا ناظر المعارف العثمانية قال في أثنائه: «لو أن الشاعر العربي القائل: كأني أُميروسٌ لدين محمدٍ ... عمل حقيقةً للشرق ما عمل هوميروس للغرب لما تعدانا الغرب هذا الشوط البعيد». وقد غاب عنه وعني عرفان ذلك الشاعر، ومما قاله لي السيد جمال الدين الأفغاني في محضرٍ من الأدباء: «إنه ليسرنا جدًّا أن تفعل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوا قبل ألف عام ونيفٍ. ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا بادئ بدء إلى نقل الإلياذة، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها». وسأذكر في باب «الإلياذة» سبب إغفال نقلها إلى العربية.

ذلك قول عامة المتقدمين والمتأخرين وخاصتهم في هوميروس وشعره، أما الشعر فلا سبيل إلى إنكاره لأنه موجودٌ يُتلى، وأما هوميروس نفسه فقد قامت طائفة من الباحثين في أواخر القرن الثامن عشر بزعامة وُلف الألماني، وتألبت على إنكار وجوده بتاتًا، وما لبث مذهبهم أن انتشر انتشار الشرار ثم ما لبث أن خبا خَبْوَهُ على ما سنبسطه في الكلام على الإلياذة.

قول العرب فيه

ليس في ما بين أيدينا من التآليف العربية ما يشير إلى أن ديوان هوميروس نُقل إلى لغة العرب، فهو بلا ريب لم يُعرَّب وإن كان معروفًا عند خاصة العلماء في بغداد لعهد العباسيين إذ كان يتناشده الأدباء من نَقَلة الكتب المقربين من الخلفاء بأصله اليوناني ونقله السرياني، والظاهر أن الإلياذة كانت منتشرة بين الخاصة في بلاد الفرس والكلدان في زمن الدولة العباسية؛ لأن ثاوفيلس الرهاوي الذي نظمها بالسريانية كان منجم المهدي ثالث خلفائهم كما أثبتنا في حواشي الإلياذة [٢٥]. قال ابن أبي أُصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» نقلا عن يوسف بن إبراهيم في ترجمة حنين بن إسحاق أثناء تنكُّر حنين وهو عاكفٌ على درس الطب: [٤] «فتبنَّت خرشي (جارية الرشيد الرومية) ذلك الغلام (وهو إسحاق المعروف بابن الخصي) وأدَّبته بآداب الروم وقراءة كتبهم، فتعلم اللسان اليوناني علمًا كانت له فيه رئاسة، فكنا نجتمع في مجالس أهل

الأدب كثيرًا فوجب لذلك حقه وذمامه، واعتل إسحاق بن الخصي علة فأتيته عائدًا، فإني لفي منزله إذ بصرت بإنسان له شعرة قد جللته وقد ستر وجهه عني ببعضها وهو يتردد وينشد شعرًا بالرومية لأوميرس رئيس شعراء الروم فشبهت نغمته بنغمة حنين، وكان العهد بحنين قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين، فقلت لإسحاق بن الخصي: هذا حنين فأنكر ذلك إنكارًا يشبه الإقرار، فهتفت بحنين فاستجاب لي».

فيؤخذ مما تقدم أن اليونانية كانت معروفة لذلك العهد في بغداد تقرأ وتُدرَّس حتى في بيوت الخلفاء، وأن منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلغات الأجانب ومعظمهم إذ ذاك من النصارى.

وأما سائر ما ذكر عن هوميروس في كتب العرب فليس إلا شذرات مقتطعة من كتب اليونان المعرَّبة برعاية العباسيين والمؤلفات التي وضعها كبار المُعَرِّبين والمؤلفين من الكلدان؛ كابن ماسويه، وابن الخصي، وحنين بن إسحاق، مثال ذلك قول ابن أبي أُصيبعة في عيون الأنباء: «وكان الشعراء في ذلك الزمان على ما ذكره حنين بن إسحاق أوميروس إلخ».[٥] وقوله في ترجمة أرسطوطاليس: «ومن كتبه كتاب في مسائل من عويص شعر أوميروس في عشرة أجزاء».[٦] وقوله في ترجمة جالينوس عند ذكر الكتب التي اعترض حنين بن إسحاق على نسبتها إليه: «ومنها كتاب الطب على رأي أوميرس».[٧] ومن هذا القبيل قول

البيروني: «أميروس المتقدم عند اليونانيين كامرئ القيس عند العرب».٨ ومثله قول ابن خلدون في مقدمته:[٩] «إن الشعر لا يختص باللسان العربي بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية، وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أوميروس الشاعر وأثنى عليه». ومثله قول ابن أبي أُصيبعة:[١٠] «قال أفلاطون وقد كان مارينون (أغاممنون) ملك اليونانيين الذي يذكره أوميروس الشاعر باسمه وجبروته، وما تهيأ لليونانيين في سلطانه رُمي بشدائد في زمانه وخوارج في سلطانه». ويدرج في هذا الباب قول الشهرستاني:[١١] «أوميروس الشاعر من القدماء الكبار الذي يجريه أفلاطون وأرسطوطاليس في أعلى المراتب، ويستدلُّ بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة، وجودة الرأي وجزالة اللفظ». وأما الشواهد التي أوردها الشهرستاني من كلام هوميروس في كتاب «الملل والنحل» والبهاء العاملي في «الكشكول» فلا شك أن فيها اختباطًا واقتضابًا على نحو ما جرى لكتَّاب العرب في أكثر ما استشهدوا به من كلام الأعاجم.

وقد أكثر أبو الفرج الملطي المعروف بابن العبري من ذكر هوميروس في تاريخه حتى دون حكايته مع ماجن سأله أن يهجيه طمعًا في الشهرة من وراء ذلك الهجو فأبى هوميروس؛ فتهدده بالشكوى إلى رؤساء اليونانيين فضرب له هوميروس مثل الكلب الذي نكل الأسد عن

مبارزته، فقال الكلب: «سأمضي إلى السباع فأشعرهم بضعفك» فأجاب الأسد: «لئن تعيرني السباع بالضعف أحب إليَّ من أن ألوث شاربي بدمك».[١٢]

وخلاصة القول أن هوميروس كان له شأنٌ مذكور عند نقلة الكتب من بطانة الخلفاء، ولكن إلمام أدباء العرب بأقواله كان إلمامًا ناقصًا بقي منحصرًا في أفراد معدودين من كبار الكلدان. وأما منظوماته فالثابت أنها لم تُعرَّب.

منظوماته

نقصر الكلام في هذا الباب على الإلماع إلى ما نُسب لصاحب الإلياذة من الشعر مما ثبت له ومما لم يثبت، وأما البحث في شعره من حيث هو وأساليبه وطرائق نظمه وتشابيهه واستعاراته وفائدة ذلك للعلم والتاريخ والآداب، فنستبقيه إلى الكلام على الإلياذة بُعَيْد هذا.

إن لهوميروس منظومات كثيرة لا غرو أن يكون المفقود منها شيئًا كثيرًا، فإن العلماء ما زالوا حتى الآن يعثرون حينًا بعد حين على قطع مبعثرة في عاديات القدماء من تلك القطع المختزنة في دفائن الأرض، وإن العهد لقريب بالعثور على مقاطيع مكتوبة على ورق البردي في عاديات مصر مما لم يدرج في ديوانه، على أن درة تلك القلادة إنما هي الإلياذة بلا خلاف. بل هي كانت ولا تزال درَّة عقد ما نظم الشعراء في كل عصر وبلاد مما تقدم زمن هوميروس وما تأخر عنه.

الأوذيسية

ويتلوها الأوذيسية وهي ملحمة تقصر عن الإلياذة بضعة آلاف من الأبيات يغلب على الظن أن الشاعر نظمها في شيخوخته، وموضوعها رحلة أوذيس أثناء عوده إلى بلاده بعد انتهاء حرب طروادة، والقصة بأجمعها لا تتناول إلا أربعين يومًا ولكن فيها من الحقائق وتنوع المباحث ما يكاد يعادل الإلياذة، وهي كشقيقتها في أربعة وعشرين نشيدًا، ولكنها باعتبار وقائعها تقسم إلى أربعة أقسام؛ يشتمل القسم الأوَّل منها على ما حصل لأوذيس في منتهى المدة الطويلة التي نزل بها على الإلاهة كاليبسو في جزيرة أوجيجيا، وعشاق امرأته ساعون إذا ذاك في تبديد ثروته وتقويض دعائم ملكه، وابنه تليماخوس وهو فتى يافع مهتم في إحباط مساعيهم حتى إذا أعيته الحيلة شخص بإيعاز آثينا إلاهة الحكمة إلى فيلوس وإسبرطة متطلعًا أخبار أبيه. وفي القسم الثاني وصف مغادرة أوذيس لجزيرة أوجيجيا وبلوغه بلاد الفاقيين حيث نزل وقص عليهم خبره، ثم غادرهم إلى إيثاكة مقر حكمه، وفي القسم الثالث تفصيل الخطة التي اختطها هو وابنه تليماخوس في منزل خادمه الأمين الراعي أفميوس للضرب على أيدي أولئك البغاة، وفي القسم الرابع وصف انتقامه منهم واستقراره في ملكه.

معارضة الأوذيسية بالإلياذة

إن بين الأوذيسية والإلياذة شبهًا كبيرًا في النهج والسياق مما يدل على أن الناظم واحد، فكلتاهما قائمةٌ على أساس بسيط مرجعه إلى موضوع واحد، ففي الإلياذة «كيد أخيل» وفي الأوذيسية «رحلة أوذيس» وعلى هذين الأمرين مدار جميع حوادث الروايتين بما تخللهما من القصص والتاريخ، وما وراء الطبيعة ودونها، وكل واحدة من الروايتين منحصرة الوقائع في أيام قليلة في منصرم أعوام طوال، فالإلياذة لا تتناول سوى ستة وخمسين يومًا من حصار عشر سنين، والأوذيسية لا تتجاوز في مدتها الأربعين يومًا من رحلة أوذيس، وكما أن مطالع الإلياذة يلمُّ استطرادًا بتاريخ ذلك الحصار وما تقدمه وما وليه، ويتمثل حالة البلاد بالنظر إلى التاريخ والجغرافية والدين والآداب والأخلاق والعادات، فكذلك يحيط مطالع الأوذيسية علمًا بما لقي أوذيس في تلك الرحلة منذ نزل بكاليبسو فشغفت به وأمسكته في جزيرتها سبعة أعوام، ويقف على حالة البلاد التي ألقته الأقدار إليها، وينزل إلى أعماق الجحيم، ويصعد إلى أعالي السماوات، ويطوف حول الأرضين تطواف الشاهد البصير، وكلتاهما متماسكة الأجزاء متراصة المعاني لا تقرأ نشيدًا منهما إلا أنست به نفس سائر الأناشيد، ومع هذا فقد يُعترض على وحدة الناظم بما بين اللحمتين من التباين في قوة التركيب وحدة التصور وجزالة اللفظ، فإن الإلياذة في كل ذلك فوق شقيقتها، وإنما هو اعتراض مردود

بثبوت أن الإلياذة متقدمة على الأوذيسية نظمها الشاعر في أبان عمره ومخيلته على نضارتها ومادته بمعظم غزارتها، ولكن في الأوذيسية من إصابة المرمى، وسداد الرأي، ورسوخ الحكم، وسعة العلم ما لا يقصر عما في الإلياذة.

سائر منظومه

وأما سائر المنظومات المعزُوَّة إلى هوميروس فسواء ثبتت له أو لم تثبت فلا تزيده رفعةً وشأنًا بل خيرٌ له أن لا تكون له، والراجح عند أهل التحقيق أنها من غير نظمه، وإن نسب هيرودوتس بعضها «كحرب الضفادع والفيران» و«حرب الزرازير» وجماعة «الكركوفة» وهي قصائد لا تتجاوز المئات من الأبيات، وليس فيها شيء مما يدل على أنها من نتائج تلك القريحة السيالة والذهن المتوقد. ونسبتها إلى الإلياذة والأوذيسية كنسبة بعض قصائد المتنبي المنظومة في صباه والمثبتة في أول ديوانه إلى سائر قصائده الرائعة. وقد ذهب أرسطوطاليس إلى أن هوميروس نبغ في الشعر الهزلي نبوغه في الشعر القصصي، واستدلوا على ذلك بالمنظومة «مَرْجِيتس» وهي قصيدة يصف فيها الناظم رحلة مرجيتس الغني المتغطرس، ولم يبق منها إلا أجزاء متقطعة.

ومما ينسب إليه أيضًا ثلاثة وثلاثون مزمورًا ترنم فيها بمدح الآلهة، وقص فيها بعض أخبارهم، وترسل بالابتهال إلى أفلون، وعطارد (هرمس) والزهرة، وذيميتير، والمريخ (آريس) وأثينا، وهيرا، وهرقل قلب

الأسد، وإسقليبيوس إله الطب، وهيفست إله النار، وفوسيذ وزفس، والشمس والقمر والأرض وهمَّ جرًّا.

وقد نسبوا إليه أيضًا بعض مقاطيع وأهاجي في أبيات قليلة، والأظهر أن تلك المقاطيع والزبور وأشباهها مما ألصق بديوان هوميروس لجهل رواتها أسماء أصحابها.

الإلياذة

تمهيد

الإلياذة أو الإلياس نسبةٌ يونانية إلى إليون عاصمة بلاد الطرواد، وهي الملحمة التي نحن بصددها وضعها هوميروس على أسلوب بسيط وبناها على موضوع واحد هو «غيظ آخيل أو احتدامه» ونهج بها نهجًا متناسقًا قص في أثنائه حوادث متسلسلة لا تتشعب وقائعها بتعدد الأشخاص مهما كثروا وكثرت. فهي بهذا المعنى سلسلة واحدة من أولها إلى آخرها، وهو مذهب معظم الرواة والقصَّاصين من القدماء، ولا سيما الشرقيين لميلهم إلى البسيط من القصص بخلاف رواة الأوروبيين في الأعصر الحديثة فإنهم يفرّعون الحوادث ويكثرون من تدخل الأشخاص بوقائع متشعبة مما يئول في نظرهم إلى زيادة تفكهة القارئ، ولعل المتأخرين مصيبون برأيهم هذا في الزمن الحاضر وخصوصًا؛ لأنهم بعد انتشار فن الطباعة أصبحوا في غنًى عن استظهار أقاصيصهم على نحو ما كان القدماء يحفظون رواياتهم حرفًا حرفًا عن ظهور قلوبهم. ومعلومٌ أن البسيط المتناسق أسهل حفظًا من المركب المتشعب.

ولا بد لنا قبل بسط موضوع الإلياذة من الإلماع إلى حرب طروادة تلك الحرب التي خلد هوميروس ذكرها باقتطاع شذرة منها موضوعًا لأناشيده.

كانت مملكة طروادة أثناء تلك الحرب ممتدة من جنوبي آسيا الصغرى إلى الهِلِسْبُنْطُس وهو مضيق الدردنيل، وملكها فريام وقاعدتها إليون، وتدعى أيضًا طرويا (أو طروادة) وقد عفت آثارها منذ قرون، ولكنه قد يؤخذ مما تُوصِل إليه بالبحث أنها كانت واقعة في سفح الجبل القائمة عليه الآن قرية بونار باشي.

أما بلاد الإغريق فكانت ممالك صغيرة تتحالف أحيانًا وتتشاق أخرى، وبينها وبين بلاد الطرواد صلة تجارة ونسب، وحدث أن منيلاوس ملك إسبرطة غاب عن عاصمته في مهمَّة، وأن فاريس بن فريام أوفد برسالة إلى إسبرطة، فنزل ضيفًا على منيلاوس وهو غائب وما زال بهيلانة امرأة فاريس حتى استهواها فأحبته ووافقته على الفرار معه إلى بلاده. فقامت الإغريق وقعدت لذلك النبأ. ولما أعيتهم الحيلة في استخلاص هيلانة تأهبوا للحرب، واستصرخوا جميع قبائلهم؛ ففزع إليهم القاصي والداني، وعقدوا لأغاممنون أخي منيلاوس وملك ميكينيا، فكانت الرئاسة إليه منذ نشوب الحرب إلى أن خبت جذوتها بدمار إليون، فساروا جيشًا كثيفًا يعيشون في بلاد الطرواد يخربون المدائن ويقتلون الرجال، ويسبون النساء، وينهبون الأموال إلى أن بلغوا إليون العاصمة فحصروها وأقاموا على حصارها عشر سنين. فساءت حال الفريقين، ونفدت الأرزاق وبادت المقاتلة، وكاد الإغريق ينثنون إلى أهلهم ويقنعون بسلامة من بقي منهم لو لم يوافهم داهيتهم أوذيس بخدعةٍ مكَّنتهم من فتح إليون.

موضوعها

تناول هوميروس أيامًا قلائل من السنة العاشرة لحصار إليون وبنى عليها منظومته وشرع فيها بقوله:

ربـة الشـعر عـن آخيـل بـن فـيلا أنشـــدينا وأروي احتـــدامًا وبـــيلا

إشارةٌ منه إلى أنه سيدور حول ذلك الاحتدام منذ اتقد إلى أن خمد. وهو موضوعٌ يكاد يحسبه شعراؤنا تَفِهًا لبساطته، ويعجبون لقريحةٍ علقت به؛ فأنتجت نحوًا من ستة عشر ألف شطرٍ أو شعر مع أن معلقة امرئ القيس ومطلعها ينبئ بمجموع أوسع وموضوع أجمع تقصر بجملتها عن مئة بيت. وإنك مع هذا إذا طالعت الإلياذة كلها لا تكاد ترى فيها حشوًا ولغوًا بل لا تتمالك أن تستزيد منها في مواضع كثيرة.

ومُجمل القصة أنه كان في جملة السبايا فتاةٌ جميلةٌ وقعت في سهم آخيل عنترة الإغريق، فانتزعها منه أغاممنون زعيم الزعماء، واستخلصها لنفسه فعظم الأمر على آخيل وكاد يبطش بأغاممنون لولا أن أثينا إلاهة الحكمة هبطت من السماء وصدَّته قسرًا، فانكفأ عنه واعتزل القتال هو وعشائرهُ، فحمي وطيس الحرب بين الإغريق والطرواد وأخيل في عزلته يتحرق غيظًا؛ فاشتدت عزيمة الطرواد لاحتجاب آخيل فنكَّلوا بالإغريق في مواقع كانت الغلبة في معظمها لهم، فلما ثقلت الوطأة على الإغريق أوفدوا الوفود استرضاءً لأخيل فما زاد إلا عتوًّا وكِبرًا، فوقعت هيبة هكطور زعيم الطرواد وابن ملكهم فريام في قلوب الإغريق وما زالت

تتوالى له الغلبة بعد الغلبة حتى كاد يحرق سفائنهم ويردهم خائبين. وكان لأخيل صديقٌ حميم هو فطرقل فتى جمع بين كرم الخلال وبسالة الأبطال صحب آخيل في معتزله، وهو مع هذا يتلظى أسى لنكبة قومه ويستفز أخيل للأخذ بيدهم، وأخيل كالحجر الأصم لا يرقُّ ولا يلين. ولما اشتدت الأزمة على الإغريق وكاد يقضى عليهم جعل فطرقل ينتحب كالطفل؛ فأذن له آخيل أن يتقلد سلاحه ويحمل على الطرواد بجند المرامدة قوم أخيل. فحمل عليهم حملةً مزقت شملهم وردَّتهم على أعقابهم، وإذا به خرَّ قتيلا أمام هكطور فدارت الدائرة بموته على قومه فولَّوا مدبرين وهكطور يضرب في أردافهم، ولما علم آخيل بموت فطرقل قتيلا تسعر حزنًا على حليف وده، والتهب حقدًا على الطرواد وتحول غضبه من عن الإغريق إليهم، ونهض للأخذ بالثأر فصالح أغاممنون وأغار على الطرواد فبطش بهم بطش الأسود بالحملان؛ فلاذوا بالفرار وتحصنوا في معاقلهم ما خلا هكطور فإنه برز له فقتله آخيل ومثَّل به، ولكنه ما لبث أن سكن جأشه وخبا غيظه، فانقلب ذلك الغيظ رفقًا وعطفًا إذ رقَّ لشيبة فريام فألقى إليه بجثة ابنه وسيَّرهُ آمنًا، فانتهت القصة بسكونٍ وسلام.

نظمُها وتناقلها

إذن لزم من تماسك أجزاء الإلياذة أن تكون منظومة واحدة، فلا يلزم أن تكون نظمت وأنشدت جزءًا واحدًا، ولا يؤثر على مجموعها أن

تكون أنشدت في قطر واحد أو أقطار مختلفة، فهذا نقلها العربي وما هو بالشيء المذكور إزاء الأصل اليوناني، وقد نظم في أربع من قارات الأرض. ولا فرق أن يكون الشاعر نظمها تطرُّبًا بمعانيها أو تطلُّبًا بأغانيها. تلك جميعها مباحث لا فعل لها في جوهر الإلياذة، فليس لنا هنا أن نطيل النظر فيها. وإنما يجب النظر في طريقة اتصالها على سعتها من السلف إلى الخلف.

ذهب برتلمي سنت هيلر[١٣] إلى أن اليونان كانوا يكتبون لعهد هوميروس، وهو قولٌ لم يؤيده أثرٌ حتى الساعة. ومع هذا فعلى فرض صحة هذا المذهب فإن الكتابة عندهم كانت في زمن طفولية لا تكاد تتسع إلا لتدوين ما عظم من حوادث التاريخ، وإلا لخلفت ولو أثرًا ضعيفًا كما خَلَّفت في مصر وبابل. فلا ريب إذن أنها إنما حُفظت أولًا في أذهان الرواة فتناقلوها جيلًا عن جيل.

وقد يُستغرب تناقل الإلياذة في أول أمرها استظهارًا على ما فيها من كثرة الأبيات واتساع المباحث وتنوع الأحاديث. على أنه يتضح لدى التروي أن ذلك الاتساع كان من مسهلات حفظها وعلوقها في ذاكرة المنشدين. وهو ثابتٌ أن الإنشاد مهنةٌ كانت ولا تزال شائعة بين أجيال شتى من الناس. وكان للرواة والمنشدين منزلةٌ يحسدون عليها؛ ولهذا تطالَّ إليها كل ذي علم واسع وذاكرة نيرة. وكثيرًا ما كانت باب رزق لكل

ضرير كُفَّ نظره، فتحوَّل نور بصره إلى بصيرته، فادخرت في محفوظها ما تقصر عن رسمه أقلام الخطَّاطين.

ذكر سقراط وأفلاطون وغيرهما أن المنشدين كانوا يتهافتون إلى مجتمعات الناس في أثينا وسائر مدن اليونان فينشدون ما حفظوه من الإلياذة وغيرها، وكان قيام هؤلاء المنشدين بين العامة والخاصة من لوازم كل احتفال وطني وعيد ديني. فتُقام لهم في أثينا وساقس وتيوس وأُرخمينا، ومدائن أخرى أسواق كسوق عكاظ ومربد البصرة يتناظرون فيها، وتُعدُّ لهم الجوائز السنية فيحرزها المبرِّز منهم، ويحرص عليها حرص الفائز بإكليل الغار بعد الانتصار، ولطالما كان يجنح الواحد منهم إلى التغني ببطلٍ معين أو روايةٍ مخصوصة، فيفني العمر بإلقائها حينًا بعد حين على ما هو اليوم شأن القصَّاصين في مصر، وبر الشام، والأقطار العجمية، ويؤخذ على ذلك دليلٌ من نفس هوميروس إذ أنطق أوذيس في الأوذيسية (ن ٩ — ١٢) بما يربو على ألفين ومئتي بيت نفَسًا واحدًا. على أنه لا يلزم مما تقدَّم أن راويًا واحدًا ينشد الإلياذة كلها أو يحفظها لهذا الغرض.

وقد أسهب مِتْفُرد[١٤] وغروت[١٥] وغيرهما في ذكر الأدلة الساطعة على إمكان بقاء الإلياذة محفوظة في الأذهان قبل شيوع الكتابة مما لا متَّسع لنا لنقله، وحسبنا إيراد شيء من الأدلة الحديثة منها، وما يتصل بأزماننا مما يرتاح إليه قراؤنا ولا سيما العرب منهم.

العميان وإنشاد الشعر

بحث فُورْيِل[١٦] في الأغاني اليونانية في الأعصر الأخيرة، فقال في مقدمته: «أنها لا تزال على ما كانت عليه في سالف الزمن، والغريب أنها بقيت مهنة العميان، وهي مهنةٌ تحببهم إلى الناس بل تجعل لهم مقامًا ذا نفع بالنظر إلى حالة الأمَّة وأخلاقها وتصوراتها، وشأنهم التنقل من بلد إلى آخر فيطوفون أطراف بلاد اليونان وجزرها وهمُّهم استظهار جميع ما وسعه ذهنهم من الأشعار والأناشيد القديمة والحديثة، فكلهم يعرف منها شيئًا كثيرًا، ويبلغ ما يحفظه بعضهم إلى حد الغرابة والإعجاز. فإذا ذخروا هذه الأغاني، فإنما ادخروا كنزًا ثمينًا يطوفون به فيلقونه بضاعة ذات قيمة وحيثما حلوا اجتمعت الناس إليهم، فيأخذون في الإنشاد بما وافق المقام ويتعيشون بما ينفحهم به مستمعوهم، وهم في الغالب يؤثرون الإنشاد بين عامة الناس؛ لأن العامة أكثر إقبالًا عليهم وأقلُّ تعنتًا في انتقاء المواضيع، ولا يزالون كما كانوا لعهد هوميروس يتغنون على نغم القيثارة أو الكنَّارة، وهم فئتان: فئة تنشد محفوظها من شعر الشعراء، وهي الفئة الكبرى، وفئة قليلة تنشد من محفوظها ومنظومها وهي أرفع منزلة وأوسع جاهًا، وهكذا فإن هؤلاء المطربين هم الآن كما كانوا في القدم رواة الأخبار والتواريخ وشعراء الأمة».

حفَّاظ الشعر عند سائر الأمم وخصوصًا العرب

قال غرِمّ:[١٧] «إن الألمان كانوا يسلكون هذا المسلك وإن الأناشيد الجرمانية كانت تنشد كأناشيد اليونان على نغم القيثار».

ومن قول فوريل أيضًا:[١٨] «إن الروايات والقصص كانت تنشد في فرنسا على هذا النمط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكان الراوي إذا أراد الإنشاد دعا الجماعة إلى استماع أغنية تاريخ جميلة (une belle chanson d'histoire) ثم يتغنى على نغم شبَّابة عربية ذات ثلاثة أوتار، وإذا أخذ فيه العياء ظل ينغم زمنًا بلا إنشاد. تلك كانت الوسيلة المثلى لإلقاء الروايات والأقاصيص».

ونقل إلكسندر شدزكو:[١٩] «إن حفَّاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تكاد تصدق أن ذاكرةً تعيه لكثرته، فقد يظل المنشد يتغنى بأشعار الشهنامة (وهي إلياذة الفرس) نهارًا كاملًا» وما أدراك كم بيتًا يقال في نهار.

أما العرب فلم يكن في أُمَّة من أمم الأرض شأنٌ للإنشاد أرفع منه عندهم، وهذه أخبار عكاظ والمربد تملأ الأسفار بصرف النظر عن أخبار الشعراء المنبثين في كل أصقاع البلاد العربية لا مهنة لهم إلا إنشاد الشعر. وهذه أخبار الخلفاء، وقد كان ما يجيزون به الشعراء من أبواب النفقة الطائلة مما لا يبقى معه ريب أن إنشاد الشعر كان الضالَّة المنشودة والمفخرة التي يتسابق إليها الرفيع والوضيع.

وإذا طالعت أخبار الشعراء المُترجمين في كتاب الأغاني وغيره رأيت بعضهم كهوميروس أميين لا يقرءون ولا يكتبون؛ بل ربما احتاج أبلغهم إلى قارئ صغير كما فعل طَرَفة بن العبد والمتلمس أثناء شخوصهما إلى عمرو بن هند ملك الحيرة إذ اضطرا إلى استرضاء غلام حدث ليقرأ لهما كتابًا، وكلاهما من فحول الشعراء (شرح الإلياذة ص: ٤٤٩) وهؤلاء أصحاب المعلقات والمجمهرات والملحمات كان فريق كثير منهم أميًّا.

وأما مبلغ الذاكرة عندهم فمما لا يفوقه شيء في أخبار اليونان والرومان والإفرنج، وفي أخبارهم ما لو حذف منه شيء كثير لربا باقيه على مرويَّات اليونان قديمهم وحديثهم. فإذا علمت أن أبا العلاء المعري سمع محاورة إسرائيليين بالعبرية، وهو في شأن غير شأنهما ثم طلب بعد مدة مديدة للشهادة، فأعاد تلك المحاورة وهو لا يفقه من العبرية حرفًا – إذا علمت ذلك فما ظنك تعي ذاكرته من الشعر لو توخَّى الحفظ – وإذا قيل لك أن الإلياذة مؤلفة من زهاء ستة عشر ألف بيت؛ فيصعب الأخذ بقول القائلين أنه أمكن استظهارها فما بالك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظة حمَّاد الراوية إذ امتحنه الوليد بن يزيد، ووكَّل به من يسمع إنشاده فأنشد تباعًا ألفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية. أو لو قيل لك أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزةٍ كاملة ما خلا

القصائد والمقاطيع وأخبار العرب بدوهم وحضرهم. وهذا قولٌ مهما أُنس فيه من المبالغة لا يخلو من صحة بعضها كافٍ لإثبات ما نتوخاه.

هذا وإني ممن يعتقدون انحطاط قوى الذاكرة وارتقاء قوى المخيلة في أزماننا هذه بِنَاء على الناموس القاضي بترقي القوى البشرية وانحطاطها بكثرة المزاولة وقلتها. ومع هذا فالحافظة مهما ولدت خاملة لا تلبث أن تقوى بالمثابرة على الاستظهار، فمثلها في تدرُّجها من الضعف إلى القوة مثل يد النجار والحداد وقلم الكاتب. وفي عصرنا هذا من حفَّاظ التوراة والإنجيل والقرآن مئاتٌ وألوف عرفتُ بعضهم بالذات، ولقد طالما اضطررت في حينٍ من الزمن إلى مراجعة خبرٍ أو آية في التوراة وإلى جانبي المرحوم المعلم داود الحاج، فكنت إذا ذكرت له طرفًا مما أريد أشار فورًا إلى السفر والفصل، وكثيرًا ما كان يعيّن العدد؛ فأتصفح الكتاب فإذا هو كما قال. وحفظة القرآن منتشرون في كل صقع من بلاد الإسلام، ومنهم الجم الغفير من كفيفي البصر كرواة سائر الأمم. ويقال مثل ذلك في حفظة الإنجيل من المسيحيين، ولا سيما وعَّاظ الإنجيليين.

أما رواة الشعر فهم في البلاد الشرقية أكثر منهم في أقطار الغرب حيث قضت الكتابة على الاستظهار القديم، وقد شهدت بنفسي مصداق قول شدزكو في منشدي الفرس، فإذا جلست إلى الواحد منهم

وهو ينشد شعر الفردوسي أو جلال الدين الرومي أو قصص كلستان سعدي شعرًا ونثرًا لظننته يتلو كتابًا يتصفحه حرفًا حرفًا.

وإذا جلت في بادية العرب وسمعت منشديهم ينشدون على نغم ربابتهم ألوفًا من الأشعار قلت: تلك كنارة هوميروس، وهؤلاء لا أولئك هم المنشدون الذين ذكرهم سقراط وأفلاطون، ومِثفُرد وغروت وفوريل، وغرم وشدزكو.

ولقد تيسر لي أثناء تجولي بينهم أن التقطت منهم قصائد شتى جمعتها في ديوان سأمثل منتخباته بالطبع، وكثيرًا ما كنت أسمع القصيدة من غير راوٍ فإذا هي هي.

وليس بالأمر اليسير بإزاء ما تقدم محفوظ زجَّالي مصر، وقوَّالي لبنان، وشعراء أهل الأرياف في إسبانيا والبرتغال، فقد استبقت الذاكرة بضع قصائد بل مطالع من معنى اللبنانيين مما علق بها في الصغر منذ بضعة عقود من السنين فاستنشدتها بعضهم في الصيف الماضي فإذا هي عندهم على حالها لم تزد ولم تنقص.

وقد ذكر كتاب الإفرنج كثيرين ممن عُنوا بحفظ كتابٍ أو منظومةٍ فما لبثوا أن أدركوا بغيتهم كما كولي (Maenuly) الذي أنشد نصف منظومة ملتن الإنجليزية في الفردوس الغابر. وإذا ساغ لي أن أذكر لنفسي ولرفاقي في الصغر مثلا من ذلك قلت: إننا كنا نتسابق إلى حفظ ملحمة ملتن المذكورة حتى تيسر لي مرةً سرد نشيدٍ كاملٍ منها، ونصف الثاني مع

قسم غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لولتر سكت. وكان أستاذنا العم المرحوم المعلم بطرس البستاني يشوقنا إلى حفظ ألفية ابن مالك، وما زال بي حتى استظهرتها واستنشدني منها مئتي بيت تباعًا في حفلة امتحان.

وليس ما أذكره في هذا الباب على سبيل الاستطراد شيئًا مذكورًا بإزاء محفوظ الرواة الذين لا همَّ لهم إلا اختزان الشعر والقصص في حوافظهم، فالمنظومات فيها كالمتاع المنضود في حانوت حافل بأصناف المنسوجات ينشرون منها ما شاءوا أيَّان شاءوا على نية أن يطووه إلى موضعه. وكلما نشروه مرةً زاد زهاء ورواء، وإذا تلقَّاه أحدٌ عنهم فإنما يتلقى رسمه، والأصل باقٍ في ملكهم لا تبلغه يد مشترٍ أو سارق. فأمثال هؤلاء هم الذين استبقوا للخلف منظومات هوميروس إلى أن كُتبت.

جمعها وكتابتها

إذا علمت كيف تهافت الحكماء والعظماء على تلقي الإلياذة وتلقينها للناس يوم لم يكونوا يكتبون، وعرفت كيف أكبَّ الحفَّاظ على ادخارها تبادر إلى ذهنك أنه لم تكد الكتابة تنتشر في بلاد القوم حتى أقبلوا على جمعها وتدوينها، وإن لنا في الأثر أمثلة أخرى مما تُلِيَ وانتشر قبل أن يجمع في كتاب ليحفظ ويُنقل أو نبذ فأهمل. وليس هذا خاصًّا بالشعر بل قد تُتناقل الحكم والروايات النثرية قرونًا طوالًا. وهكذا

حفظت تواريخ الجرمان والسكنديناف، ومنظوماتهم قرونًا قبل أن يدوَّن منها شيء في كتاب.[٢٠]

وهو معلومٌ أيضًا أن القرآن على غزارة مادَّته، وتشابه آياته انتشر ورسخ في حوافظ الصحابة كاتبهم وأميهم بل ربما كان أرسخ في ذهن الأميّ.

وليس لدينا شيء مما يمكن معه تعيين الزمن الذي بوشر فيه بكتابة الإلياذة، ولا شك أن فِيسيستراتُس كان من صفوة المتشتغلين بهذا العمل الخطير كما تقدم حتى لقد عثروا في بعض مخطوطات رومية على أسماء أربعة من الشعراء استعان بهم على ضبط منظومات هوميروس، وهم: أُونومَكْرِيتُس، وزوفيرُس، وأُرِفيوس، وكُنْكِيلوس، ولكن الظاهر أن نسخة فيسيستراتس لم تكن النسخة الأولى، وأنه شُرِع في كتابة تلك المنظومات منذ أواسط القرن السابع ق.م. أي قبل نحو قرن كامل، ولا ريب أن من ولي صولون إلى زمن فيسيستراتس جمعوا منها نسخًا مما ذكره علماء مدرسة الإسكندرية أو أغفلوه؛ بل لعل الكتابة في زمن صولون نفسه كانت تتسع إلى مثل هذه الغاية. وأن جميع معاصري فيسيستراتس أثنوا الثناء الجميل على ما فعل، ولكن الغريب أن علماء الإسكندرية لم يذكروا نسخته في جملة ما حسبوه من النسخ التي كانت بين أيديهم، فإما إنها لم تصل إليهم وهو محالٌ مع شهرتها، وإما إنهم كانوا يعلمون أنها إنما كانت نسخةً تقدمتها نسخٌ كثيرة؛ فأُغفلت في

جملة ما أُغفل وهو الأظهر، وكانت في الإسكندرية إذ ذاك نسخٌ شتى نقلت عن مجموعات أرُغس وخيوس (ساقس) وأكريت، وقبرص، وغيرها من مدائن اليونان مما يدل على سعة الانتشار. فعمد علماءُ الإسكندرية إلى تلك النسخ ومن جملتها النسخة التي كتبها أرسطوطاليس للإسكندر، وقابلوها بعضًا على بعض ثم وضعوا النسخة التي تداولتها الأيدي إلى هذا الزمن. وكانوا رهطًا من فحول العلماء، بل كانوا أعلم أبناء زمانهم كزينودوتُس الأفسسي، وأَرِسْطوقارنس البيزنطي، وأعلمهم طرًّا أَرِسطَرْخُس السامُثراقي وهو الذي قسم كلا من الإلياذة والأوذيسية على ما قيل إلى أربعة وعشرين نشيدًا[٢١] على عدد حروف الهجاء عندهم.

القول في سلامتها من التحريف والتصحيف

لم يُعن البشر في زمن من الأزمان بنسخ كتاب وتمحيصه وحفظه ونشره عنايتهم بالإلياذة وأختها الأوذيسية، ولا يستثنى من هذا الإطلاق إلا الكتب التي رُفعت عليها أُسس الأديان كالتوراة، والإنجيل، والقرآن، ومع هذا فلست ممن يقول بسلامة الإلياذة بجميع أجزائها من كل تحريف وتصحيف أو زيادة ونقصان، وأيُّ كتاب أجمع الناس على أنه لم تعبث به قطُّ يدُ كاتب، ولم تَنْتبهُ جائحة زمان، أفليس في بعض نسخ التوراة عباراتٌ مختلفاتٌ عنها في نسخ أخرى، وإن منها أسفارًا كاملة يعدُّها فريقٌ قانونية وينكر ذلك فريقٌ آخر، أَوَليس من يقول بضياع بضعة أناجيل، واختلاط أسفارٍ أخرى من العهد الجديد، ومن ينكر عناية

الخليفتين: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب في جمع أجزاء القرآن في صحفٍ مكتوبة، ومبلغ جهدهما وجهد الخليفة عثمان بعدهما في ضبط قراءته، والنظر في كل آية من آيه حتى إذا رأى عمر أن آخر سورة التوبة مفقود ظل يبحث عنها حتى وجدها مع أبي خزيمة الأنصاري، وفعل فعله عثمان إذ فقدت آية من الأحزاب فالتمسها ووجدها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري، وهل سد ذلك أفواه المعترضين من بعض فرق الغُلاة والمعتزلة! أو لم يتواتر أيضًا أن بعض كتبة الوحي لنبي الإسلام كعبد الله بن أبي سرح في أول إسلامه كانوا يعمدون إلى تبديل كلام بآخر.

ولكن النبيﷺ كان حيًّا؛ فأثبتوا أنه كان يضرب على أيدي أولئك المحرِّفين، ويردُّ الكلم إلى مواضعه. أما الإلياذة وقد تناشدها الرواة نحوًا من قرنين ولا ضابط لها سوى أذهان المنشدين فلم تكن ثَمَّ قوةٌ بشرية قادرة على حفظها من أولها إلى آخرها على ما نطق بها هوميروس مهما بُذل في سبيل ذلك من العناية والهمة. بل ربما لو بُعث هوميروس نفسهُ، وأنشدها مرة أخرى لما تمالك عن تغيير حرفٍ وتبديل شعر، على أنه لا ريب أن التحريف والتصحيف قليلان جدًّا في جميع ما اتصل بنا منها لما رأيت من عناية القوم بها اللهمَّ إلا أن تكون هناك أجزاء مفقودة برمَّتها مما لا يدخل تحت هذا الحكم، ومع هذا فارتباط أجزائها بلا انقطاع يدل على أنه إن كان ثمة مفقود فهو قليل، وإننا الآن

موردون استجلاء لهذا البحث أمثلة مما ذكره الشراح وما لم يذكروه من الدخيل، والساقط، والمكرَّر، والمُغْلق.

الدخيل

ذكر هوميروس في النشيد الثامن أنه عند غروب الشمس تحاجز الجيشان، فانكفأ كلٌّ منهما إلى معسكره، والطرواديون على بيّنة من الفوز في غدهم لما أُوتوه من أنباء الغيب فأقاموا ليلهم ينتظرون بزوغ الفجر لينقضُّوا على أعدائهم، ثم وصفهم ووصف نيرانهم وقال:

فبين السَّفِين الراسياتِ وزَنثُس   لوامعُ نيرانٍ بذاك المعرَّسِ

تؤجُّ لدى إليون في ألف مَقبِسٍ   يؤَججها خمسون في كل مَقبِسِ

ودونهمُ بين العجال جيادهم   وقوفٌ لدى ذاك القَضِيمِ الْمُكَدَّسِ

وهنا في بعض النسخ أربعة أبيات مفادها أنهم ضحَّوا بالضحايا فلم تقع لدى الآلهة موقع قبول لما استقر في نفوسهم من كراهة إليون عاصمة الطرواد وملكها وملته، فذهب بعض الشراح وذهبنا مذهبهم إلى أن هذه الأبيات دخيلة فأغفلوها وأغفلناها؛ لأن فوز الطرواد في ما يلي يدل على أنها في غير موضعها بل هي مناقضة للمعنى على خطٍّ مستقيم؛ لأن زفس كبير الآلهة كان في زمن موالاة للطرواد.

وفي النشيد الثالث عشر يوعز فوليداماس إلى هكطور زعيم الطرواديين أن يجمع إليه زعماء الجيش ويشاورهم في الأمر، فيقول الشاعر:

تَلقّاهُ هكطور قولا مُصيبا　　　وقال لِفولِيدَماسَ مُجيبا

وهنا في بعض النسخ بيت يقول: «أن هكطور وثب إلى الأرض من مركبته» وهو لا شك دخيلٌ من غير نظم الشاعر؛ لأن سياق الحديث يدل على أن الطرواد غادروا مركباتهم، وزحفوا مشيًا على الأقدام.

هذا وإن في الإلياذة بضعة أبيات لا أرى لها محلًا أصلًا، ولو خُيرت لحذفتها ولكنه لا سبيل إلى ذلك؛ لأنها مثبتة في كل النسخ، مثال ذلك قول إيريس إذ أنفذها زفس برسالة إلى هيرا وأثينا، فبعد أن بلَّغتهما قوله كجاري العادة قالت لأثينا: (ن ٨)

وأنت أيا شرَّ الكلاب وقاحةً　　　أَتلقَين بالريح الثقيل أبا الورى

فإنها تجاوزت حد مهمتها وفاهت بكلام بذيء لم يفُهْ به زفس، ولم يتفق للشاعر أن أتى بأمثاله فضلا عن أنه كلامٌ لا يجوز أن يوجَّه إلى أثينا ربَّة الحكمة، وحيثما ذكرها هوميروس فإنه يذكرها بالتعظيم والتبجيل.

ومثل ذلك قوله بلسان فطرقل في النشيد السادس عشر متهكمًا على قبر يون، وهو مهوٍ قتيلا من مركبته إلى الأرض:

وهكطور صاح به قائلا:　　　فيا للباقته كيف يجري

فلـــو مـــن ســـفينته واثبًـــا إلــى الــيمّ غــاص لِلجَّــة بحــرِ
لصــاد حِلِـزًّا ولـو صــدع النَّــو ءُ يكفــي الجمــاهير شــرَّ الطــوى

وفطرقل هذا على بسالته وعزته مثال الحلم، والحصافة، والدّعة، فلا يصح أن ينطق بمثل هذا التهكم على قتيل انقضى أمره، ولا سيما أنه قبل أبيات انتهر صاحبه مريون لمخاطبته عدوًّا بكلام فظٍّ فقال له:

عـلامَ أخـي ذا الكـلامُ المهـينُ وأَنــت بلوثُــك ســامي النُّهــى
أَتـــزعمُ أَن حديـــد الكـــلام يصـــدُّ الطــراودَ يــوم الصِّــدامْ
فمــاذا بـــدافِعِهِم عـــن قتيــلٍ حوالَيـــه تَصْـــطَكُّ لامٌ بِـــلامْ
ولـن يرجعـوا عنـه حتـى يضـافَ صــريعًا لــذاك الْهُمــام هُمــامْ
فللحــربِ فعــلٌ وللسّــلمِ قــولٌ وهـــذا أوانُ الـــوغى لا اللّغـــا

الساقط

ويقابل هذه الزيادة نقصانٌ قليل في إيراد بعض الروايات مثال ذلك قصة بليروفون، فإنها مبتورةٌ بترًا فسواءٌ التقطها هوميروس من التوراة، فمثَّل به يوسف الصديق أو تناولها من مصدر آخر فلا يأتي المطالع على آخرها إلا وهو متطلع إلى أسباب انحراف الآلهة عن ذلك الرجل البار، وقد أفضنا بهذا البحث في موضعه:

المكرَّر

وهناك أبياتٌ مكررة قد يمكن وضعها في ثلاث مراتب:

(١) ما كان واجب التكرار كالبلاغ الذي يلقى إلى الرسول، فيؤديه كما أُلقى إليه وهو كثير.

(٢) ما كان جائزه وهو: إما مقصود من الشاعر لبلاغته، وإما دخيلٌ بقلم النسَّاخ في أحد موضعيه لكثرة تغني الناس به، وانطباقه على المعنى في الموضعين. مثال ذلك وصف اصطدام الجيشين في النشيد الرابع إذ يقول:

تَـدفّقتِ الأجنـاد أَيَّ تـدفّقِ إلـى الحـرب تجـري فَيلقًـا إِثْـر فيلـقِ
كثـائر أمـواج البحـار تهيجُهـا مـن اللّـجِ أنـواءٌ بغيـرِ ترفـقِ
يدفع بعضًا بعضُها فوق لُجها إلى حيث فوق الجرف بالعُنف تلتقي

فبعض أبيات هذه القصيدة مكررٌ في مثل هذا الموقف في النشيد الثامن.

ومثل ذلك قوله في وصف هكطور وهو مقبل على الأعداء: (ن ١٥)

أفلّـون هاتيـك العـزائم مـانحُ وهكطـور للإبـلاءِ والحـرب جـانحُ
كمهـرٍ عتـيٍّ فـاض مطعمـهُ علـى مرابطـهِ يبتتُّهـا وهـو جـامحُ
ويضـرب فـي قلـب المفـاوز طافحًـا إلى حيث وجه الأرض بالسيل طافحُ

يـروّض فيـه إثْـرَ مـا اعتـادَ نفسـهُ ويطـربُ أن تبـدو لديـه الضحاضـحُ
وَيشــمخُ مختــالًا بشــائق حســنه يطيــر وأعــراف النواصــي ســوابحُ
وتجـري بـه مـن نفسـها خُطَواتُـه إلى حيث غصَّت بالحجور المسارحُ

فهذه الأبيات بعينها واردة بوصف فاريس في النشيد السادس:

(٣) ما كان مكروهًا والأجدر به أن يُعدَّ من باب الدخيل كقول هيرا، وهي تستمد رأفة زوجها زفس بالإغريق: (ن ٨)

ولكننـا نرثـي لحـال الأغـارِقِ يُبيــدهُمُ المقــدور تحــت اليلامــقِ
أطعنـا فـلا نـأْتي الكفـاح وإنمـا نمــدُّهُمُ بــالرأي خــوف البوائــقِ

فهذا كلام سبقت أثينا فخاطبت به زفس في نفس النشيد فما بقي محل لإعادته.

وأغرب من هذا تكرار خطاب أغاممنون في النشيد التاسع، وهو الذي يقول في مطلعهِ:

أَحبَّـايَ والأقيـال والصـيد خلتُنـي رمـاني زفـسٌ فـي حبائـل آتيـا

فهو خطاب ألقاه بنفسه في النشيد الثاني وقصد به هنا غير ما قصد هناك، ولعل ما قاله في هذا الموضع مما فُقد أصلهُ فعوَّض النسَّاخ عنه بأبيات سابقة حسبوها تليق بالمقام.

الْمُغْلَق

ولقد أغلق عليَّ فهم المراد من مخالفة أثينا لأبيها زفس مخالفة بلغت حد العصيان، وهي ربَّة الحكمة والسداد تعرف أنها لا قِبَل لها به، ويشقُّ عليها الخذلان فلا تأتي أمرًا يورثها الندم، فكيف قامت بعد هذا تتهدد وتتوعد بكلام مِلؤُه العتوُّ، ثم ما لبث أن استلأمت، وتدججت بالسلاح لتنخرط في سلك مقاتلة نهاها زفس عن الأخذ بيدهم، فصدعت بالأمر وقالت: «أطعنا فلا نأتي النزال» ثم خالفت قولها، وانتقضت عليه انتقاضًا كاد يودي بها، وحبذا لو كانت هذه الرواية في بضعة أبيات إذن ليتيسر لي أن ألتمس للشاعر عذرًا، فأجزم بكونها دخيلة ولكنها مندمجة في الرواية اندماجًا، ولا سبيل إلى إفرازها منها إلا إذا اختل نظام سياق الحديث فلا بد إذن من أن تكون من نظم الشاعر أدرجها هنا لأمر غمضت عليَّ حكمته. وخصوصًا أن الشاعر يتوخى الحقيقة في كل أقواله صريحةً كانت أو رمزية، ويرمي في كل معانيه إلى بث حكمةٍ ونشر فضيلةٍ، وليس في هذه الرواية شيءٌ من ذلك. على أنه إذا صحَّ انتقادنا، فليس بعجيب أن يشذَّ الشاعر هذا الشذوذ في مظنَّةٍ واحدة من منظومة تملأ هذا المجلد الضخم.

وعلاوةً على ما تقدم ربما لا تخلو الإلياذة من ألفاظٍ بل من أبياتٍ لعبت بها أيدي النسَّاخ، ولكنه ليس في شيء منها ما يشوه وجه تلك الخريدة العذراء فلا يزيدها تقادم العهد إلا بهاءً ورواءً، فهي كزهرة

هوميروس وقومه تتوالى عليها الأعقاب وتنقضي الأحقاب، وهي هي تلك الفتيَّة العذراء ربَّة الجمال الخلَّاب.

الرأي الوُلْفي

أو القول في كونها منظومةً واحدة أو منظومات شتى

توالت الأحقاب على الإلياذة والناس يتناشدونها ويتناقلونها وهم مُعَجبون ببلاغتها، وانتساقها مُكبرون ذكاء تلك القريحة السيالة التي تفجَّر منها ذلك المنهل العذب، فلما كان القرن الثامن عشر قامت عصابةٌ من العلماء، وأنكرت على هوميروس إنشاء الإلياذة وما يتبعها من سائر شعره، وقالت: «بل هي قصائد متفرقة لشعراء كثيرين رواها الرواة، وعني بجمعها المشغفون بمطالعة الشعر» وكان من نتيجة قولهم هذا أن هوميروس رجلٌ وهمي خلقته مخيلات الشعراء.

ذلك ما يُدعى في عرف الإفرنج بالرأْي الوُلفي نسبةً إلى وُلف العالم الألماني، وإن لم يكن هو السابق إلى بث ذلك المذهب، وإنما نُسب إليه لأنه كان أشدَّ دعاتِهِ وتيسر لهُ نشرهُ في زمن ثوران أفكار وانتقاضٍ على كل كبير، وقد سبقه إليه أفراد ذوو شأن في عالم الأدب فلم يكن لكلامهم شيءٌ من الوقع.

بدأ الخوارج على هوميروس وإلياذته وسائر منظوماته بنشر دعوتهم في أواخر القرن السادس عشر وفي مقدمتهم كازوبون[٢٢] الفرنسي

فأنكر وجود هوميروس، وكون الإلياذة من نظم شاعر واحد، فلم يكد يعبأُ بقوله أحد إلى أن مات فدُفن مذهبهُ معهُ، ثم بُعث ذلك المذهب على يد هيدلين قسّ أوبنياك[٢٣] فكان أشد من سلفه، وكأنه نبَّه أفكار العلماء إلى بحث جديد فحذا بعضهم حذوه وأشهرهم مواطنه بيرو[٢٤] ووُد[٢٥] وبنتلي[٢٦] الإنكليزيان وتبعهم فيكو الإيطالي[٢٧] فأربى بكتابته على جميع من تقدمهُ، ولكن صاحب القدح المعلَّى في هذا المضمار إنما كان وُلْف الألماني[٢٨] فشدد الحملة وما كاد ينشر مقدمته على الشعر الهوميري في أخريات القرن الثامن عشر[٢٩] حتى فشا مذهبه في ألمانيا، وانتشر منها إلى أقطار أوروبا، فهدم أركان عظمة هوميروس من أسسها، وعمَّ القول بين جميع المشتغلين بآداب اليونان أن هوميروس إنما هو هيّ بن بيّ الإغريق راويةٌ لم تلدهُ أنثى، وإنما ولدته قصائد الشعراء المندرسة أسماؤهم في غوامض الغيب، وإنَّ ما ينسب إليه من المنظوم ليس إلا مجموع قصائد عني بجمعها في زمن فيسيستراتُس في القرن السادس قبل المسيح، واشتد أزر ولف والذاهبين مذهبه بروح ذلك العصر المتطلع إلى التشبث بكل رأْيٍ جديد، والرامي إلى تقويض كل مذهبٍ تقادم عليه العهد من أصول الدين إلى أصول التاريخ حتى قواعد الإنشاء، فنسج على منواله بعض العلماء كَهين الألماني في مقدمته على الإلياذة[٣٠] وشايعه نِيبُهْر الدانمركي[٣١] وهردَر[٣٢] وغدفري هرمَن[٣٣] وولهلم مُلَّر وكثيرون غيرهم، ومعظمهم من الألمان مع أن النافخين في ذلك البوق

كانوا في بدء الأمر من الفرنسيس، وكأنهم أرادوا أن ينكروا على رجل فرد الاستئثار بتلك السلطة الفكرية؛ فوزعوها على عامة الشعراء كما أنكروا على الملوك والحكام الاستئثار بالسلطة الحاكمة؛ فنهضوا إلى توزيعها على الأمة.

ولم ينقض العقدان الأوَّلان من القرن التاسع عشر حتى خمدت ثورة الأفكار، وانثنى العلماء إلى إعادة البحث، وإمعان النظر ثم ما لبث ذلك المذهب أن تلاشى أو كاد على يد جماعة من فطاحل العلماء، وفي مقدمتهم أُتْفرِد مُلَّر[٣٤] فإنه لم يقصر بحثه على الفلسفة والخيال بل تعهد بنفسه جميع المواقع المذكورة في شعر هوميروس وغيره من كتبة الأقدمين، وكتب تاريخًا مطولًا لآداب قدماء اليونان توفي سنة ١٨٤٠ وهو يشتغل فيه، وقد أثبت بما جمع من الأدلة وجود هوميروس، وأن الإلياذة من نظمه. ولم يكن ولكر بأقل من مُلَّر تضلعًا في هذا البحث، فإنه كتب الأسفار الطوال بتاريخ اليونان، ووصف آدابهم وأفاض في الشعر الهوميري[٣٥] فتداعت على يده ويد ملر دعائم المذهب الولفي، ولكن الذي قوَّضها تقويضًا إنما كان غريغور نِتْسِش، وله في تاريخ اليونان المجلدات الضخمة والحجج المسندة إلى البينات.[٣٦]

وهكذا فإن الألمان الذين شنُّوا هذه الغارة أثاروا من جماعتهم من تصدَّى لدفعها بسواعد أشد وأدلَّةٍ أقوى، ومع هذا فلم يزل بينهم من يقول بالرأْي الولفي مع أن معظم علمائهم، ومحققي الإنكليز

والفرنسيس، ومُشايعي فيكو الإيطالي قد نبذوه منذ طويل، وإن المقام ليضيق عن ذكر أسمائهم جميعًا فضلا عن إيراد أدلتهم فنجتزئ بالإشارة إلى بعضهم ممن اشتهر بولوج هذا الباب كالأستاذ بلاكي[٣٧] في كتابه «هوميروس والإلياذة» والأسقف ثِرِوُل[٣٨] وغروت[٣٩] في «تاريخ اليونان». وغلادستُن[٤٠] في كتابه «هوميروس وعصره». وغينيو في مقدمة المعجم الهوميري[٤١] ولوبريفوست في حواشي ترجمة الإلياذة[٤٢] وبرتين في «المسألة الهوميرية».[٤٣]

وليس لنا في هذا المقام الضيق أن نفصل الأدلة التي أوردوها، ومع هذا فلا بد من إلقاء نظرة مجملة على الإلياذة؛ لاستجلاء ما إذا كان يصح القول بكونها من نظم غير واحد من الشعراء.

علمنا مما تقدم في فذلكة سيرة هوميروس ورأْي المتقدمين والمتأخرين فيه أنه لم يبق محلٌّ للريب في نظر المحققين أن شاعرًا يلقب بهوميروس نبغ في القرون الغابرة، ونظم الإلياذة والأوذيسية، وقد أجمعت النصوص التاريخية والآثار العاديَّة على أنه كان بمنزلة يقصر عن إدراك شأوها سائر الشعراء، فما بقي من ثمَّ سبيل إلى إنكار وجوده.

وإنما بقي علينا أن نعلم ما إذا كانت الإلياذة كلها من نتاج تلك القريحة الوقَّادة.

وحدتها

لقد علم المطالع اللبيب من سياق كلامنا، ولا سيما من بحثنا في سلامة الإلياذة من التحريف والتصحيف، والزيادة والنقصان أننا إذا أنكرنا على ولف مذهبه لا نتطرَّف في الإنكار إلى حد الأخذ بمذهب الدكتور شليمَنْ الألماني[٤٤] الذاهب إلى إثبات حقيقة الكلي والجزئي فيها، وإسناد كل ذلك إلى المكتشفات الأثرية، فاعتقادنا إذن مقصور على أن هوميروس هو ناظم الإلياذة، وأنه هو ناسج بردها، وناظم عقدها من أولها إلى آخرها بصرف النظر عن الحقائق التاريخية البحتة، وعما قد يتخللها من ساقط ودخيل.

قال غروت في «تاريخ اليونان»:[٤٥] «إن تعداد القبائل في النشيد الثاني لا يمكن إلا أن يكون جزءًا من كل، أي: إنه لا بد أن تكون فيه إشارةٌ إلى حوادث مقبلة، وإلا فإذا أخذ منفصلا فلا لذة فيه للسامع، والأذن لا شك تملُّ توالي تلك الأسماء والأعلام ما لم تكن النفس مرتاحة إلى أنه يُرمى بها إلى الإشارة إلى وقائع تعقبها على الأثر، وإن في آثار القوم ما يثبت أن ذلك الجدول الجغرافي كان حتى في أيام صولون شائعًا شيوعًا عامًّا حتى قيل: إن صولون نفسه عمد إلى تحشية شطر فيه؛ ليتسنى له ربح الخطر الذي عُقد رهانه بينهُ وبين الميغاريين، كما أن الميغاريين أضافوا إليه شطرًا يقوي حجتهم، ومن ثم يتضح أن اليونان

كانوا قد ألفوا قبل فيسيستراثوس بزمن طويل سماع الإلياذة منظومةً واحدةً متناسقة الأجزاء متتابعة المباني».

وهو قولٌ لا شك سديدٌ في بابه، ولكنه لا يدفع حجة القائلين: «إنه إذا صح أن تكون الإلياذة على سلامتها في ذلك الزمن قد لا يصحُّ أن تكون اتصلت إلينا على تلك السلامة». فدفعًا لهذا الاعتراض حسبنا أن نوجه نظر المطالع إلى ما أسلفنا عن عناية الأقدمين بحفظها نقيةً من الشوائب، ولا سيما في باب «جمعها وكتابتها».

وإننا موردون في ما يلي تحليلًا موجزًا لتلك المنظومة بل تشريحًا لذلك الجسم المتماسكة فقراته، المترابطة عضلاته يتضح منه أنه لا بد من أن تكون منظومة واحدة لشاعر واحد، وهو بحثٌ لم يتصل بنا نظيره في ما طالعناه من كتب القوم.

تحليلها وتشريحها

الأشخاص

خذ الإلياذة وتصفح أية صفحة شئت منها، واقرأْ حتى يقع بصرك على بطلٍ من أبطالها سواءٌ كان من مغاوير الكماة أو من عُرض الجند، ثم انتقل إلى معجم الأعلام وانظر في الصفحات التي ورد فيها ذكر ذلك الرجل، واقرأ ما وصف به فيهن جميعًا، فتتبين أنه هو هو حتى تكاد تنطق باسمه قبل أن تبلغه مهما تباينت المواقع، وتباعدت الأناشيد.

فهذا آخيل يبدو لك لأول وهلة قرمًا عنيدًا، وشهمًا حقودًا، ووليًّا ودودًا، وصارمًا عتيًّا ترتسم حسناته وسيئاته في مخيلتك من تلاوة أول جزء من أول نشيد، وتعلم أنه الفتى الغضوب بُنيت الإلياذة على وصف غضبه، فلا تقرأ نشيدًا منها سواءٌ ظهر فيها ذلك البطل أو لم يظهر إلا وتشعر أنه لا يزال محتدمًا بسعير الحقد والغيظ إلى أن يتيسر للشاعر تهيئة الأسباب المؤدية إلى إخماد تلك الجذوة في آخر الكتاب، فإذا به كما تستلزم دواعي السيادة والكرامة ساكن الجأش على رفعة نفسه، وقد جمع في صدره من كرم الخلال ما يكاد يضيق عنه أرحب الصدور، وليس في الكتاب كله عبارةٌ واحدة يشذُّ بها الناظم عن هذا المرمى، وهيهات أن يتفق هذا التناسب لغير ناظم واحد.

ثم انظر إلى هكطور فهو حيثما رأيته حامي الذمار، دفَّاع العار، عزومًا حزومًا مقدامًا عن غير طيش، ورِعًا عن صدق عقيدة ذا ذكاء ونيرة يتمسك من دينه بما لصق بمعبوداته، وينبذ ما دون ذلك من خرافات القوم. يعلم أنه عماد قومه فيسير سير الزعيم الهمَّام، ويحسن الذود والكر والإبلاء، ولا يفتأ على المثال الذي صوره به الشاعر حتى يذهب شهيد الدفاع، ويموت ميتةً يُحسد عليها.

وإذا انتقلت من هذين الزعيمين إلى سائر أبطال الإلياذة، وتأملت كل رجالها ونسائها رأيت أن الشاعر رسم لكلٍ رسمًا لا ينحرف فيه بشيء عن الوضع الذي وضعه له سيان ذلك في أول الكتاب وآخره.

- فأغاممنون الأمير الخطير والقائد الكبير.
- وآنياس البطل الورِع والحليف الباسل.
- وإياس رب بأس فعَّال غير قوَّال.
- وذيوميذ الفتى المقحام يهون له نزق الشباب ركوب الأهوال.
- ونسطور الشيخ الحكيم حنَّكته صروف الأيام.
- وأوذيس الداهية الدهماء والبلية الصماء.
- وفطرقل الفتى الكريم والخل الحميم.
- وفريام الملك الصبور والهرم الوقور.
- وفاريس العاشق المتأنق.
- وأنذروماخ الزوجة الأمينة.
- وإيقاب الأم الحنون.
- وهيلانة الفتاة الغالب هواها على قواها الشاعرة بسوء المصير.

وإذا نظرت بعد ذلك إلى غير من تقدم ممن كثر ذكره أو قلَّ تهيأت لك النتيجة نفسها.

- فاغينور في النشيد الرابع هو نفسه ذلك المحراب في النشيد الحادي والعشرين.
- وأنطيلوخ في النشيد الرابع هو نفسه ذلك الشاب العزوم المتسرع في النشيد الثالث والعشرين.

وقل مثل ذلك في ماخاوون وطبه، وهيلينوس وعرافته، وفينكس وصداقته، ومريون وأمانته، وهلمَّ جرًّا. وقد تأتي على تلاوة اسمٍ ذكر بطريق العرض، فلا ترى له شأنًا خاصًّا، ثم إذا أُعيد ذكره بعد مئات أو آلاف من الأبيات رأيته على صفته لم يتغير بشيء عما ذكر به للمرة الأولى، وقد لا يَرِد ذكره سوى مرتين أو ثلاث. مثال ذلك أذميت وأفرميذون، وأفروطسيلاس، وأفغياس، وأقطور، وأقلونُّيس، وأكماس، والقميذ وأمفيماخُس، وثرسيلوخ، وثواس، وأمثالهم كثيرون.

الأعلام الجغرافية

ثم إذا تناولت البلدان والجبال والوهاد والبحار والأنهار رأيت أنه اتبع تلك الخطة فما ناقض نفسه بكلمة مما وصف به بلدةً أو علَمًا جغرافيًّا، ودونك بعض الأمثلة:

- فارسية لاصقٌ ذكرها بنهر سليس، وزعيم جندها أسيُّس بن هرطاقس في النشيد الثاني، وفي الألف الأولى من أبيات الإلياذة وهي هي ونهرها وزعيمها بعد أربعة آلاف بيت في النشيد الثاني عشر.
- وبفراسا هي البلدة الكثيرة الأنعام، وهي موصوفة بذلك في النشيد الحادي عشر في منتصف الكتاب، ويتكرر ذكرها بنفس الوصف في النشيد الثالث والعشرين أي: بعد نحو من خمسة آلاف بيت عربي أو ثمانية آلاف شعر يوناني.

- وتينيذس البلدة المقدسة الموالية لآفلون، وهي كذلك في غير موضع.

وإن المجال ليضيق عن أمثلة ما تقدم، فإنها تفوق الحصر، وقد توخينا في الأمثلة الثلاثة السالفة الذكر بلادًا قليلة الشهرة، فإذا كانت وحدة المرمى فيها هذه فما بالك بالمدن الشهيرة كإليون.

وقل مثل ذلك في البحار والأنهار كالأوقيانس، وزنثُس، والإسكندر، وكل ما في الإلياذة من يبس وماء.

وإذا أردت إجمالًا سهلًا لهذا التفصيل، فخذ القسم الجغرافي في النشيد الثاني، واقتطع منه أية مملكة شئت من ممالكهم وأسماء زعمائها، ثم تصفَّح المعجم، فإذا رأيت تلك الأسماء قد تكرر ذكر شيء منها فإنما يتكرر بما لا يشذ عما مرَّ أمامك هذا إذا لم ينطبق عليه كل الانطباق، ولو فصلت بين الموقعين الأناشيد الطوال.

ارتباط أجزائها

ثم إذا تأمَّلت تماسك أجزاء الإلياذة وارتباطها بعضها ببعض رأيت أن ناظم النشيد الأول إنما هو ناظم النشيد الأخير، فكأنما هي مرقاة يصعد بك صاحبها درجةً بعد أخرى حتى تستقرَّ في آخرها وأنت متبين كل ما وراءك، فإذا بدأت بخصام آخيل وأغاممنون تطلعت إلى ما وراء ذلك الخصام، فيبسطه لك الشاعر بسطًا يزيد إيضاحًا كلما خطوت خطوة. فهناك جدال وخشية قتال، وحنقٌ واعتزال، ووساطة رجال، وينتهي

الأمر بما ترتاح إليه نفسك شأن القصَّاص الذي يروي لك خبرًا واحدًا بنَفَسٍ واحد.

وإذ أمعنت في تواد آخيل وفطرقل بدا لك من خلال الفصول الكبار صديقان حميمان يتوادان؛ فيترافقان، فيغضب أحدهما لغضب الآخر فيتواليان في السراء والضراء، وإذا مات أحدهما فلا تنقضي أحزان الآخر حتى انقضاء حياته، وكل ذلك بحديث طويل تتخلله أحاديث أطول تكاد تشطُّ بقائلٍ واحد عن تلك الخطة المرسومة، فما الظن لو تعدد القائلون.

وقس على ذلك جميع حوادث الإلياذة.

وإذا رجعت بعد هذا إلى أعظم مظنَّةٍ لاعتراض المعترضين وهي إلصاق النشيدين الأخيرين بالإلياذة رأيت أنهم إنما أتوا بأوهن الحجج كما أثبتنا مسهبين في مقدمة النشيد الثالث والعشرين فلا نسوق البحث هنا إلا في ما لم يسبق لنا ذكره في ذلك الموضع.

خذ الألعاب في ذلك النشيد وانظر إلى أرباب كل ضربٍ من ضروبها ترَ أنها لم تُلصق بالإلياذة إلا لكونها جزءًا طبيعيًّا منها، وإن المتبارزين فيها لم يكن يصح سواهم لوقوف كلٍّ منهم موقفه.

ففرسان السباق أفميل وهو الذي قيل في خيله في النشيد الثاني:

أَجْودُ الخيـل عنـدهم تلـك أحجا رٌ لـدى ابـن ابـن فِيـرِسِ أفْميـل

قــد تســاوت قــدًّا وســنًّا ولونًــا وجــرت كــالطيور فــوق الطلــولِ

وذيوميذوله مطهَّما آنياس، وقال عنهما الشاعر في النشيد الخامس:

وامــضِ واقتَــد مطهَّمــي آنيــاسِ خيـر مـا فـي الـدنيا مـن الأفـراسِ

وألحق نسبتهما هناك بجياد زفس أبي الآلهة. ثم لما أبرز الشاعر ذيوميذ في حلبة السباق أعاد تلك الذكرى.

ومنيلاوس وهو زوج هيلانة وأخو أغاممنون والمتسبب بحرب طروادة.

وأنطيلوخس بن نسطور الفتى الباسل صديق أخيل.

ومربون الحوذي الماهر. وهم جميعًا أجدر الفرسان بخوض ذلك الميدان.

وإنَّ ما قيل في السباق يمكن إطلاقه على النضال والطعان والحضر والصراع وغيرها.

فلسفتها وآدابها

وإذا أمعنت النظر في فلسفة الشاعر وخلائقه وآدابه رأيت أنه رمى فيها كلها إلى أمور خاصة برجل واحد، فهو وإن جارى أبناء زمانه في كثير من عاداتهم ومعتقداتهم فقد خالفهم في أمور أخرى لسلامة في ضميره ونظر بعيد في ترقيتهم، وهو حيثما جاراهم فلا ينحرف في

مجاراته، وحيثما خالفهم فقد راعى ما انطبع عليه من آداب النفس التي جعلته أرقى أهل زمانه، فعصره عصر فسق وفجور وقد شجبهما حتى في نفس الآلهة وزمنه زمن بطش بالأسرى وقد طعن بقتلتهم وحسبك في هذا الباب أن تتصفح المواضع التي أفاض بها بمدح المرأة، وأتى على إطراء صفات الأمهات والزوجات والبنات والأخوات حتى السبيَّات في قرن كانت المرأة فيه من جملة المتاع وسلعة تشرى وتباع.

وهناك أدلَّة كثيرة أفاض بها الشراح بالنظر إلى التاريخ واللغة مما يضيق دونها المقام.

سبب الريب

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل من كلمة بشأن منشأ الارتياب في آراء كثيرين من الكتبة والمؤرخين.

إن مظان الريب كثيرة في الكتب القديمة التي بين أيدينا، ووجوه الاعتراض دامغةٌ في بعضها حتى يتعذر في بعض الأحايين إرجاعها إلى أصلٍ معلوم أو مؤلف معيَّن، وعندنا من أمثال ذلك كتاب ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة العبسي وأشباههما؛ ولهذا تطرفت زمرة من المشتغلين في التاريخ والآداب إلى إنكار كل قديم، وبث الريب حتى في وجود مسميَّات وأشخاص تكرر ذكرها في التاريخ، وثبت وجودها ثبوت الشمس في رائعة النهار، فهل نعجب بعد هذا إذا تصدت فئةٌ منها إلى إنكار هوميروس وقد انطوت عليه آلاف الأعوام وهذا فوريل٤٦ الباحث

في آثار القدماء ينكر على الفردوسي هوميروس الفرس نظم الشهنامة، والفردوسي ابن الأمس بالنسبة إلى هوميروس وشهنامتهُ قبلة الفرس في غدوهم وآصالهم، وإذا سألت أصغر صغير فيهم فصَّل لك تفصيلا كيف نُظمت، ولمن نظمت، وما كان من أمر ناظمها بحياته وبعد مماته.

الإلياذة ومعارف عصرها

إذا قال الشعراء: «ما أحرى هوميروس أن يكون أمير الشعراء» قال العلماء: «وما أحرانا أن نتخذ ديوانه خزانةً نضد فيها معارف عصره من علمٍ وأدبٍ وصناعةٍ وتاريخٍ، فقد صرف الأدباءُ نظرهم عن جميع من تقدم من شعراء أمته، ولقَّبوه أبا الشعر، واتخذ العلماء والمؤرخون أقواله حجةً يرجعون إليها في استقصاء علوم القدماء».

وليس في الإمكان بسط الكلام على جميع ما أفاضوا به في هذا الباب، وإنما نلُّم به إلمامًا موجزًا مع إيراد أمثلة يسيرة نظنها وافية بالمرام. ونترك البحث في الشعر وأدبه إلى ما يلي من الفصول.

الإلياذة والتاريخ

لا شك أن هوميروس استقى من موارد طمسَ الزمانُ ذكرَها، فنقل ولا نعلم عمن نقل، ودوَّن حوادث كثيرة مما أثبتها الأثر وما لم يثبتها، ولكن ثبوت البعض يرجح في الظن ثبوت الكثير مما بقي، وقد أشرنا في الشرح إلى نبذٍ من الحوادث التاريخية التي لم يذكرها المؤرخون، فهو بهذا الاعتبار أول المؤرخين في قومه، وإن هيرودوتس الملقب بأبي

التاريخ يستمد من معارفه، ويستشهد بقوله كلما أُغلق عليه أمرٌ واضطُر إلى إثبات حجة. وإذا رجعت إلى مؤلفات جميع المؤرخين من اليونان والرومان والإفرنج رأيتها مرصَّعة ترصيعًا بالشواهد الهوميرية مما يثبت لك علو مكانته في التاريخ.

الإلياذة والجغرافية

إذا قيل: إن هوميروس هو أول مؤرخ، قيل أيضًا: إن قدمه في الجغرافيا أرسخ ومنزلته أرفع، فهو واضع هذا العلم وعَلَمُه الأسنى إذ تعهد بنفسه معظم المواقع التي ذكرها ووصفها وصفًا لم يسبقه إليه المتقدمون، ويكاد المتأخرون يقصرون عن الإتيان بمثله، وحسبك الرجوع إلى القسم الجغرافي لتعلم أنه لم يكن لجغرافي أن يلمَّ إلمامهُ بهذا الفن حتى اليوم، وإن إسطرابون أبا الجغرافيا بعدهُ يعترف له بالفضل والسبق٤٧ وجميع مباحثه مؤيدة بشواهد من الشعر الهوميري حتى لقد يمكن اعتبار جغرافيته شرحًا لمتنٍ ثلاثة أرباعه في الإلياذة وأكثر باقيه في الأوذيسية. وقد حداني حبُّ الاستطلاع يومًا إلى عد الشواهد التي أخذها إسطرابون من منظومتي هوميروس، فإذا بها مئتان وتسعة وأربعون بيتًا من الإلياذة، ومئة واثنا عشر بيتًا من الأوذيسية ما خلا الأبيات المكررة في عدة مواضع، وما أدراك ما يمكن أن يُكتب من الشرح على هذا المتن الطويل.

الإلياذة وسائر العلوم

أفردت في معجم الإلياذة بابًا لكل من العلوم التي طرق هوميروس أبوابها وألحقته بهذا الكتاب، وعيَّنت فيه الصفحات التي ورد فيها ذكر العلم المراد إرشادًا للمطالع.

وسترى منه أن الإلياذة أشبه بدائرة معارف جمعت بين سطورها جميع علوم العصر.

الطب

فإذا أخذت الطب مثلًا رأيت هوميروس أَلَمَّ بجميع علومه من جراحة، وتشريح وفسيولوجيا، وبحث في النبات والعقاقير والصيدلة والعلاج، ووصف الأمراض والأوبئة.

الفلك

وإذا طلبت الفلك وعلم الهيئة ذكر لك كل ما بلغه منهما علم زمانه، فوصف السماء والأبراج وتطرق إلى التنجيم، فبحث في تأثير طوالع النجوم، وذكر الظواهر الجوية وفعلها في الأحياء.

الحرب

وإذا تطلعت إلى الحرب والفنون والعسكرية أفاض لك بتفصيلها إفاضةً تُدهَش لها، ففصَّل لك مواقف الجيوش وحركاتها بهجومها ودفاعها، وزحفها وتعبئتها، وأبان لك أسباب الظفر ووجوه الاندحار، ووصف أركان الحرب والتمرين العسكري، والحرس والكمين والمبارزات،

وبحث في الأسرى، والأسلاب، والبدل العسكري، والتتريس والجواسيس، وديوان القضاء في المعسكر، والعيون، والأرصاد والطلائع، وبيَّن أحوال الحصار وإقامة الحصون وحفر الخنادق، ولم يغفل عن ذكر الخيم والمضارب، وأرزاق الجند وأطماعه. ولم يغادر شاردة إلا قيَّدها حتى الراية والنيران، والرقص الحربي والألعاب العسكرية.

ثم فصَّل لك أنواع القتال وأصناف الأسلحة والدروع، فوصف الشكَّة والخوَذ، والمغافر، والتروس والرماح والسيوف حتى الفؤُوس والمخاذف والحجارة.

السياسة والحكومة

وإذا تطرقت إلى السياسة بحث لك في الحكومة والملوك، وسلطتهم وما يعرض لهم وعليهم، وموقفهم تجاه الرعية وبالعكس، وحذَّر من الفوضى. وذكر خدع السياسيين وحيلهم. وأشار إلى الشرائع والمجالس والخراج والإقطاعات، وأحاط بأحوال الوفود والسفراء والتحالف، والتعاهد، والخطابة في الرعية.

الدين

وإذا رغبت في الوقوف على دين القوم أسهب لك بذكر معبوداتهم، ونسبتهم إلى العباد ونسبة الخلق إليهم، ووصفهم فردًا فردًا بين ذكرٍ وأنثى وأوضح صفة كلٍّ منهم بنفسه، وبالنسبة إلى زملائه، وهيَّأ لك مزاياهم كبارًا وصغارًا، وقسمهم إلى طبقات ودرجات مع بيان منزلة

كل طبقة على حدة، وأتى على ذكر العبادات والصلوات والضحايا والأدعية. ووصف الروح ومصيرها، وبحث في عالم الأرواح، وسائر ما يتطلع إليه الراغب في الوقوف على أحوال العبادة في ذلك الزمان.

الفنون وسائر الأعمال

وقل مثل ذلك في الفنون الجميلة من نقش وغناء، وموسيقى وتصوير، وكل منقول ومعقول من معارف الإنسان وأعماله كالحراثة والزراعة، والتجارة والمعاملات حتى العرافة، والعيافة، والكهانة، وتفسير الأحلام.

الإلياذة والصنائع

وكأن هوميروس عني عناية خاصة بصناعات زمانه، فأسهب بوصف الكثير منها إسهابًا تخال إذا قرأته أنه كان ينتمي إلى كل فريقٍ من الصنَّاع.

فبينا تراه وشَّار سفن إذا به صانع مركبات، وبينا هو نجَّار حاذق إذا به بنَّاءٌ ماهر ومهندس، ثم تخاله صيقلًا، وحدَّادًا، وحفَّارًا، ونقَّاشًا، وخرَّاطًا، وصبَّاغًا وصائغًا، وليس هو بأعمال النساء أقل إلمامًا منها بأشغال الرجال، وحسبك من هذا تطريزه وغزله، ونسجه وحياكته.

سبب حياتها وخلودها

لم يكن هوميروس أول من نظم الملاحم أو منظومات الشعر القصصي، ولا مبتدعًا لطرق إنشادها، وأساليب ترصيعها بشواهد العلم

والتاريخ، فتلك سليقةٌ أَلِفتها أمتَّه، وأكثر الأمم في غوامض أيام البداوة والجاهلية، وقد حسبوا لمن تقدم من شعراء اليونان سبعين منظومة كملحَمَتيه منهما إلياذتان الكبرى والصغرى، وأوذيسية واحدة، وقد بادت جميع تلك المنظومات، ولم يقوَ على مكافحة الزمان سوى تينك المنظومتين، فقد بقيتا كلؤْلؤَتين برَّاقتين في قلادة الأدب، وكسفتا بأشعتهما سائر ما بقي من نظائرهما، وخلَّدتا لليونان مجدًا لا يمحوه تقادم العصور، وكرور الدهور.

ولم يشع شيوعهما بين البشر شيءٌ من المنظوم والمنثور إلا كتب الدين، ولا تزالان كما كانتا منذ ثلاثة آلاف عام في المقام الأول بين نتاج القرائح.

وليس ما تقدَّم من إبداعهما خلاصة العلم والسياسة وتوابعهما من أسباب ذلك البقاء في شيء فإن طلاب العلم، ولا سيما في العصور الغابرة فئةٌ ضعيفة تطلب العلم من أبواب أخرى تتلقنها من كتب وضعت لها، والعلم كل يوم في شأن يتقلب ويتغير، وينحط ويرتقي، فما صلح منه في الأمس لا يصلح في الغد، وما كان منه في اليوم صوابًا ساطعًا أصبح بعده خطأً فادحًا، فلا بد من أن تكون ثمَّة أسبابٌ ثابتة مغرسها في النفس، ومنبتها في القلب لا تتغير بتغير زمان، ولا تتأثر بترقٍّ وحضارةٍ.

فإن هوميروس إنما نقر على أوتار الأفئدة فأثارها، ونفخ في بوق الأرواح فأطارها، ومزج الحقيقة بالخيال مزجًا يخيل لك أنهما تآلفا

فتحالفا، وسبر أعماق النفس في سذاجتها، وتحرَّى الفطرة في بساطتها، وهاج العواطف والشعائر، وتكلم بجلاء لا تشوبه مسحة التكلف، فأسهب موضع الإسهاب، وأوجز موضع الإيجاز، ومثَّل تمثيلًا ناطقًا، وفصَّل تفصيلًا صادقًا عن عقيدةٍ وإخلاص.

وإذا أضفنا إلى ذلك بلاغة الشعر، وتناسق النظم، ودقة السبك، ورقة المعنى، والسهولة والانسجام ذهبت عنك غرابة ذلك الخلود.

قال غيزو:[٤٨] «وإن ما يرى في شعر هوميروس من مزج الخير والشر، والضعف بالقوة، واتحاد الأفكار والمشاعر بمظاهر مختلفة، وتنويع الأفكار والأقوال، وبسط أحوال الطبيعة والأقدار على أنماطٍ متباينة كل ذلك يبث الأميال الشعرية بما لا يماثله مثيل؛ لأن فيه أسَّ كل أساس، وحقيقة الإنسان والعالم» وعندي أن من أقوى عوامل البقاء في الإلياذة والأوذيسية مع استجماع ما تقدم من الأسباب أن بذورهما وقعت من كفٍّ صالحة على أرضٍ صالحة إذ نظمتا بلغةٍ سهلة في عصرها، فلم يكن يغلق فهم شيء من معانيهما على أقل الناس علمًا، فشغف بهما القوم وتناولوهما وتناقلوهما، وحرصوا على ادخارهما؛ لأنهما مستودع الجمال، والمرء حريص على استبقاء كل جميل.

انتشارها ونقلها من اليونانية إلى سائر اللغات اللاتينية

كان انتشار الإلياذة بين اليونان كانتشار نور الشمس عند بزوغها، فما كان يبرق منها بارق من فم الشاعر حتى يتهافت عليه كل رفيع ووضيع، ثم ما لبث أن تطرق هذا التهافت إلى الرومان، فنقلوها إلى لغتهم وترنموا بإنشادها، وشد شعراؤهم على التقاط دررها، وتحدي معانيها حتى أقاموا على تلك المعاني دعائم منظوماتهم الكبرى وفي مقدمتهم فرجيليوس كبير شعراء اللاتين.

الهندية والفارسية

وقد روى إليانوس المؤرخ[٤٩] أن الهنود نقلوها إلى لغتهم، وأن ملوك الفرس كانوا يتغنون بها بالفارسية. ولعل الفردوسي استمد منها كثيرًا من معاني الشهنامة، واتخذ الإلياذة مثالًا لمنظومته الغراء.

السريانية

ولم تكن سائر الأمم أقل شغفًا بها، فعلق بها السريان كغيرهم، ونقلها ثاوفيلس الرهاوي إلى لغته شعرًا.

لغات الإفرنج

ولا تسل عما كان من علوق الإفرنج بها، فقد نقلت مرارًا شعرًا ونثرًا إلى كل لغة من لغاتهم حتى صارت أشهر كتاب عندهم جميعًا، وطبعت كل ترجمة منها مرارًا عديدة.

وأشهرها ترجمة جيزارُتي[٥٠] ومُنْتي[٥١] إلى الإيطالية. ومُنبيل[٥٢] إلى الفرنسوية. وفُوس[٥٣] إلى الألمانية وپوپ وجايمن وكوپر[٥٤] إلى الإنجليزية. وأصدق هؤلاء النقلة مُنْتي، وهو وپوپ أبلغهم شعرًا.

إغفال العرب نقلها إلى لغتهم

كان العرب من أحرص الملل على علوم الأدب، وأحفظهم للشعر، وأشغفهم بالنظم، ومع هذا فلقد يأخذك العجب لبقاء الإلياذة محجوبةً عنهم وهي منتشرة هذا الانتشار بين قبائل الأرض، ومنظومة بلغة ساميَّة كلغتهم يتناشدها الأدباء المقيمون بين ظهرانيهم في مقر الخلافة العبَّاسية.

وإن لذلك أسبابًا إذا تبينَّاها زال العجب لإغفالها في ما سلف مع وضوح الحاجة الماسَّة إلى تعريبها في هذا العصر، وإن مرجع تلك الأسباب إلى ثلاثة: الدين، وإغلاق فهم اليونانية على العرب، وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي.

الإلياذة والنصرانية

أشرنا فيما مرَّ إلى إقبال أمم أوروبا على الشعر الهوميري، وقلنا: «لم يتخلل إقبالهنَّ فتورٌ إلا عقود أعوام معدودات في بَدء النصرانية». فإذا خذل المسيحيون هوميروس وهو معروف عندهم، ونبذوا شعرهُ وهو متلوٌّ في مجالسهم، فما أحرى المسلمين في أوائل الإسلام أن يطَّرحوه ولا أثر له في أذهانهم، ويعرضوا عن أقواله وهم لا يعرفون منها شيئًا.

كان هوميروس في ذروة مجده في الممالك الرومانية عند انتشار الدين المسيحي، فكان لا بد من تقويض أركان الوثنية، وهي ممثَّلة أصدق تمثيل في الشعر الهوميري، فبات إغفال ذلك الشعر ضربة لازب لحداثة عهد المسيحيين بدينهم ولزوم أخذهم به موردًا صافيًا لا تشوبه أساطير السلف من عبدة الأوثان، ولكن بعض الدُّعاة غالوا في اتخاذ الطرق المؤَدِّية إلى تلك الغاية؛ فاتَّهموا هوميروس بابتداع البدع وتحريف آي التوراة؛ ليصوغ منها ما وافق مذاهب قومه من القصص المستنبطة منها كعصيان الطيطان وطردهم من الجنة، وتلبُّس فرسيُّس بصورة موسى أول أمره، ومماثلة بليروفون ليوسف الصديق، وأمثال ذلك مما أشرنا إليه في الشرح، ولهذا كانوا ينادون بتحريمها خشيةً من أن تفسد عقيدة الناشئة المتنصرة، وكان من لوازم قولهم أن هوميروس لم يكن الناقل لخرافات الأولين بل الواضع لها المنادي بها.

تلك كانت الحال بين عامَّة المسيحيين، وأما علماؤهم كالقديس إيرونيمس[٥٥] فما زالوا مكبين على تلاوة أشعار هوميروس معجبين ببلاغتها وسمو معانيها.

وما رسخت قدم النصرانية في البلاد حتى أفرجوا عن هوميروس وإلياذته وسائر منظوماته، فانطلقت تلك الخرائد من عقالها، وبرزت بحللٍ قشيبة فعادت إلى اختلاب الألباب في مجالس الآداب.

الإلياذة والإسلام

وإنَّ ما قيل عن النصرانية في نشؤها يصدق على الإسلام في قرونه الأولى، إذ لا ريب أن أئمة الأمَّة لو فرضنا وقوفهم ذلك الحين على محتويات الإلياذة لما ارتاحوا إلى بثها بين العامة؛ لئلا تكون من مفسدات الإيمان.

وزد على ذلك أن العرب لم يكادوا يخرجون من مهامه البداوة حتى ملكوا الأمصار، وانتشروا في سائر الأقطار، وأسسوا الممالك الكبار، وما استقر الملك للأمويين في الشام حتى بدت لهم الحاجة إلى استخراج كتب العلم، وما توطدت دعائم الدولة العباسية في العراق حتى نظَّم الخلفاءُ مجالس النقَلة؛ لتعريب علوم المتقدمين من الفرس والهنود واليونان، فلاح لهم أنهم أحوج إلى العلوم منها إلى الشعر والأدب، وكانت حاجتهم الكبرى إلى علم الطب، ثم إلى علم الكلام للمناضلة عن الدين؛ فعمدوا إلى تعريب طب أبقراط وجالينوس، وفلسفة أرسطوطاليس ونظائرهما، وأغفلوا الإلياذة وجميع ما يجري مجراها من كتب الشعر والأدب.

ثم إنه ليس في لغات الأرض لغةٌ يربو شعرها على الشعر العربي، ويزيد شعراؤُها عددًا على شعراء العرب وهم جميعًا مخلصو الاعتقاد في شعرهم، وَرِعين في تعبُّده، فلا يخالون في الإمكان وجود شعرٍ أعجمي يجاري قصائدهم بلاغةً وانسجامًا، ودقةً وإحكامًا.

فهذا أيضًا كان من دواعي تقاعدهم عن الإقبال على شعر الأعاجم اكتفاءً بما لديهم من درر ذلك البحر الزاخر.

على أنني أعتقد أنه لو طال زمن عظمة الدولة العباسية أو لو تأخر زمن تَبَوء المأمون أريكة الخلافة جيلين لكانت بعض مقاطيع الإلياذة تتلى الآن في أندية الأدب، ولا يطعن بهذا القول قيام دولة الأندلس بعد حين، واشتغالها في الأدب، فإن الأمويين الأندلسيين تفننوا بآداب العرب، ورقوا درجاتٍ في مرقاة الشعر، ولكنهم لم يضاهوا العباسيين في بغداد بشيء من إقبالهم على التقاط فلسفة الأعاجم وتعريب كتبهم.

وبعد هاتين الدولتين لم تقم للعرب دولةٌ حريصة نظيرهما على اختزان العلوم من مخابئها، وادخار الآداب من مناشئها، فإن كلًّا من دولة الفاطميين بمصر، ودول المغرب كانت، منصرفة إلى مشاغل أخرى فضلًا عن قلة النقلة في أزمانها من المتضلّعين في لغات الأعاجم فوق لغتهم.

نقلَة العرب

وهناك أيضًا حاجزان طبيعيان وقفا عقبةً صماء في وجه تعريب الإلياذة شعرًا في القرون الأولى، ولعلهما لا يقلّان شأْنًا عن حواجز الدين أو يزيدان وهما:

أولًا: أن معربي الخلفاء كابن الخصي، وابن حُنَين، وآل بختيشوع لم يكونوا عربًا، وإن تفقهوا بالعربية على أساتذتها، فلم يكن يسهل عليهم نظم الشعر العربي، وهم إنما كانوا بنظر العرب علماء أكثر منهم أدباء، وإن كانوا حريصين على آداب لغاتهم حتى حلَّوا جِيد السريانية بقلادة الإلياذة منظومةً شعرًا كانوا يترنمون به في مجالسهم، ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا قليلون معظمهم من الفرس الذين تفرغوا لآداب العرب، فبرَّزوا فيها كابن المقفع، وهؤلاء أيضًا لم يكونوا في عداد الشعراء.

وثانيًا: أن شعراء العرب أنفسهم لم يكونوا يحسنون فهم اليونانية، فلم يكن فيهم من يصلح لتلك المهَمَّة.

وإن قيل: إن عجز النقلة عن الإجادة في نظم الشعر العربي لم يكن مانعًا من تعريب الإلياذة نثرًا كما عُربت شهنامة الفردوسي. قلنا: «إن الارتباط بين الفرس والعرب كان أكثر منه بين العرب واليونان، وشتان بين ناظم الإلياذة وناظم الشهنامة، فذلك من عبدة الأصنام، وهذا من أدباء الإسلام، ومع ذلك فلم يقم بين العرب من تجرد لتعريب الشهنامة إلا بقيام ملك يُحسن فهم العربية والفارسية طرب بتلاوة الأصل، فأراد أن يطرب أمتهُ بتلاوة التعريب؛ فوسَّع بالرزق على رجل توسَّم فيه الكفاءة، وهيهات أن يتيسر ذلك في غير تلك الحال.[٥٦]

ثم إنه لا يخفى أن الشعر إذا تُرجم نثرًا ذهب رونقه، وبُهت رواؤُه». والظاهر أن هذا الحكم انطبق على تعريب الشهنامة، فأهملها الناس وإلا فما ذهبت ضياعًا، وبقيت أثرًا بعد عين نقرأُ عنها في كتب التاريخ، وليس في الأدباء من روى لنا منها حديثًا مذكورًا.

وخلاصة القول أنه مهما يكن من الحوائل التي كانت تصد الأدباء عن نقل الإلياذة، وتحول دون إبرازها للعامة فما بقي لتلك الحوائل أثرٌ في زمننا بل صار من لوازم العصر إلباسُها حلَّةً عربيةً تجاري لغتنا لغات أبناء الحضارة، وخصوصًا أنَّ ما فيها من أساطير دين الوثنية قد باد أثرهُ، فصار من المحتوم أن يبقى خبرهُ عبرةً للمعتبر.

التعريب

حكاية المعرِّب في تعريب الإلياذة

سألني الجمُّ الغفير من أصدقائي الأدباء كيف عرَّبتُ الإلياذة؟ وما حداني إلى تعريبها؟ فكتبت الفصل الآتي، ولعله لا يخلو من فائدة لمن قُضي عليه أن يسير في مثل هذه العقَبة.

كلفت منذ الصغر بمطالعة الشعر القَصصي، ولا سيما ما تعلّق منه بالخياليَّات وعبادات الأقدمين، ولما كانت لغتنا تكاد تكون خلوًا من ذلك الشعر، وفروض الدروس تستنزف الوقت، ولا تبقي معها بقية لقراءة ما شذَّ من مثل ذلك عن معيناتها؛ فتحول دون استقاء المياه من مواردها

كنت ألتقط ما سقط عرضًا من أفواه الأساتذة أو ورد شاهدًا في كتب التدريس، فاجتمعت لديَّ نبذ ضمَّنتها بعض قصائد لفَّقتها، ولم أُتم العقد الثاني من أعوام الحياة، ولا يطالبنني المطالع اللبيب بأمثلةٍ من تلك القصائد، فحسبي هزءُ نفسي بي دون هزئه إذ لا أتمالك من الضحك كلما خطر على البال شيءٌ مما علق في الذاكرة، فهنالك يمٌّ مختبطٌ اختلطت فيه آلهة الكلدان بآلهة اليونان والرومان، وأُنزلت معبودات مصر موضع معبودات الهند والصين، واشتبه الذكور بالإناث، والتبست الأعلام الإفرنجية بالأسماء اليونانية على نحوٍ ما دوّن الكتبة في كثير من أخبارهم عن أمم القرون الخالية، وهذا ولا بدع شأن كل كاتب تطاول إلى فنٍّ دخله من غير أبوابه.

فلما حكمت نفسي، وأصبحت متصرفًا مطلقًا في استعمال أوقات العطلة أدركت أنني لم أعرف شيئًا مع سابق الظن بسعة الاطلاع، فانتهيت إلى حيث كان يجب أن أبتدئ، فعمدت إلى تلك المنظومات، ولم أكن بعد قرأت شيئًا منها قراءة صحيحة ما خلا «الفردوس الغابر» لمِلْتُن، وقرأُت جميع ما وصلت إليه كلَّ كتاب بلغته إذا كنت من قرائها، وإلا فبترجمته إلى لغةٍ أعرفها.

وكنت كلما قرأت منظومةً من المنظومات القديمة والحديثة زاد إعجابي بالإلياذة؛ لأنها وإن كانت أقدمهنَّ عهدًا، فهي لا تزال أحدثهن رونقًا، وأبهرهنَّ رواءً وأكثرهن جلاءً، وأوسعهن مجالًا، وأبلغهنَّ جميعًا.

نسج صفوة الشعراء على منوالها فلم يبلغوا شأْوها، واستقوا من بحرها فملئوا بحارهم، ولم ينقصوها شيئًا.

فقلت: ما أحرى لغتنا العربية أن تحرر مثالا من هذه الدرة اليتيمة، فهي أولى بها ممن تناولها من ملل الحضارة، فليس في شعر الإفرنج ولغاتهم ما يوفر لها أسباب البروز بحلةٍ أجمل مما تهيئه معدَّات لغتنا، فالشعر اليوناني بلغةٍ قريبةٍ إلى الفطرة كلغتنا، والبحث في جاهلية قوم كجاهليتنا، وليس في شعراء ملَّةٍ من الملل من انطبقت معانيهم على معاني الإلياذة بالحكمة والوصف الشعري كالمتقدمين من شعرائنا.

فناجتني النفس بتعريبها مع علمي بخطورة الموقف، ووعورة المسلك وطول الشقة، وقلت: تِلك مَلهاة تقضي بها أوقات الفراغ، فإذا فتح الله وفسح في الأجل زففتها إلى القراء، وإلا فلا أقلَّ من أن أروّض نفسي بها وهي خير ما تروَّض به النفوس، وعزمت منذ نظمت أول بيت منها على أن لا أغادرها حتى آتي على آخرها.

تعريب الأصل

فخططت لنفسي خطَّةً، وقلت: لأنظمنَّ منها أمثلةً من حيث اتفق لي وأعرضها على الأدباء، فأتنسم ما يكون من وقعها في النفوس، وأتبين مواطن الخلل، فخيرٌ لي أن أتبينها قبل التوغل في العمل، فتوكلت على الله وعمدت إلى ترجمةٍ فرنسية منها كانت بين يديَّ، وألقيتها إلى جانب ترجمة إنكليزية، وأخرى إيطالية، وفتحت الكتاب الفرنسي من ثلثِهِ الأول، فإذا بأخيل وأغاممنون يتخاصمان، وأخيل ينهال على أغاممنون بالسباب والشتيمة، فنظمت الأبيات التي مطلعها:

يا مليكًا بنشوة الراح مُثقَلْ ...

فعربتها على الطريقة المألوفة في النظم، وكانت أول ما نظمت من الإلياذة. وذلك في أخريات سنة ١٨٨٧ بمصر القاهرة. ثم فتحت الكتاب من ثلثه الثاني، فإذا بي في معتركٍ عنيف في أول النشيد الخامس عشر فنظمت القصيدة التي مطلعها:

تجاوزتِ الطرواد حدَّ الخنادقِ يصـلّمهم فيهـا حسـام الأغـارقِ

فكانت قصيدةً طويلة توثَّقت بها من اتساع اللغة للمعاني والقوافي، ونهجت فيها نهجًا جديدًا مما كنت أعددته في ذهني وستراه مفصلا في باب «النظم في التعريب».

ثم فتحت الكتاب من ثلثه الأخير، فإذا بي في الصفحة الثالثة من النشيد الثالث والعشرين، فرجعت إلى أوله، ونظمت منه نحو مئة بيت رجزًا مصرَّعًا ومقفًّى على أُسلوبٍ استحسنته وحسبته وافيًا بمرامي لتعريب كل النشيد على سياقه.

فحملت جميع ما تجمَّع لديَّ من القصائد الثلاث بمسودَّاتها، وجعلت أعرضها على من زارني وزرته من الأدباء والشعراء ممن أَلِف الشعر العصري، ومن نشأَ على انتهاج الشعر القديم، فاستحسنوا وجاملوا، فزدت بمجاملتهم نشاطًا، وأنست من بعضهم ريبةٌ وخشية عليَّ من الملل والقنوط؛ لوفرة ما يتبع هذا العمل الشاق من العناء الفادح، وكثرة ما يستلزم من النفقات لو مُثّل بالطبع، وليس قراء العربية وطلّاب أمثال هذا الكتاب ممن ينشط على المجازفة بمثل تلك النفقات، وشق النفس، وضياع الأوقات: على أن ذلك كان أقل ما تجزع له نفسي إذ أقدمت وليس بي جشع للربح من وراء هذا العمل بل أنا راضٍ بالخسارة لو حصلت ليس ذلك ترفعًا عن الكسب، ولكن لغرامٍ في النفس تستسهل الصعب في سبيله.

فقلت: لقد حان إذن أوان الشروع، فرجعت إلى أول نشيد وأخذت في النقل تباعًا حتى أكملته، ونظمت نصف النشيد الثاني، وكنت أثناء النظم أقابل الترجمات بعضًا ببعض، فأرى فرقًا يصعب عليَّ

معه تبيُّن الرجحان لنسخة دون أخرى، فأوقفت النظم، وقلت: لا بد إذن من الرجوع إلى الأصل اليوناني إذ لا يصلح النقل من غير أصله.

وكانت معرفتي باليونانية قاصرةً إذ ذاك لا تكاد تتجاوز القراءة البسيطة، وبعض أصولٍ ومفردات لا تشفي غليلًا، فأخذت أبحث عن أستاذ يروي غلَّتي، فأرشدت إلى عالمٍ من الآباء اليسوعيين، وأبلغت أنه متضلعٌ باليونانية تضلُّعه بالفرنسية، وكنت أعلم أن الآباء اليسوعيين لا يسعهم التفرغ لإلقاء دروس خاصة خارج مدارسهم، فكان لا بد إذن من رضاء الأستاذ وأذن الرئيس، فوفقني الله إلى الحصول على الأمرين، فشكرت لهما هذه المنة، وجعل أستاذي يلقنني أصول اللغة، ويفسر لي فصولا من الإلياذة، وأنا مُكب على الدرس متفرغ للاستفادة، وبعد أن قضيت معه أشهرًا، وعلمت منه أنه يسعني أن أستتم الدرس وحدي، وأن أتناول تعريب الإلياذة من أصلها مع الاستعانة بكتب اللغة وتفاسيرها، فارقته شاكرًا ولبثت مدةً أجهد النفس بالمطالعة ثم استأنفت التعريب.

وكان بنفسي شيءٌ مما عرَّبته من النشيد الأول والثاني، فرجعت إلى إمعان النظر فيه ومقابلته على أصله، فرأيت خللا ألجأني إلى التنقيح والتصحيح، فكنت لا أحجم عن تغيير البيت والبيتين، وربما أعدت نظم مقاطيع برمتها، ولم يقع لي شيءٌ من هذه الإعادة في سائر الأناشيد إلا أن يكون في استبدال فقرةٍ أو شطر بغيرهما أو تغيير قافية بأخرى مما

يقع لكل ناظم، وفي ما سوى ذلك كنت أجهد النفس بإحكام البيت على قدر الاستطاعة قبل كتابته.

ولم أكد أستقر في مصر حتى حدا بي حادي الأسفار التي ألفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغفٌ بها وحنينٌ إليها، فانتهى بي التَّطواف إلى العراق بعد أن طرقت الهند، وأطراف العجم، فأقمت فيها زهاء سنتين اضطررت إلى طي الإلياذة في معظمهما، ولم يتسنَّ لي العود إليها إلا بضعة أسابيع، على أنني لم أجتمع بأديب منها إلا عرضت عليه شيئًا من منظومها وأدباءُ العراق مولعون بسماع الشعر.

ثم شخصت إلى الآستانة، واتخذتها مقامًا طيبًا لبثت فيه سبع سنوات كنت كثير التنقل في أثنائها بين الشرق والغرب، فيومٌ بسوريا، وسنة بأوروبا وأمريكا، والمرجع إلى الآستانة. وكانت الإلياذة رفيقي حيثما توجهت أختلس الأوقات خلسةً فلا تفرغ اليد من عمل إلا عدت إليها، ولطالما مرت الأسابيع والأشهر، وهي طي الحجاب ثم هببت بها من رقدتها وعاودت العمل، وكثيرًا ما حصل ذلك في رؤوس الجبال، وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد، فهي بهذا المعنى وليدة أربع أقطار العالم.

وكنت حيث حللت أتوخى الاستفادة من أهل ذلك المحل، ولا سيما في الآستانة حيث هيأ لي حسن التوفيق أن اتصلت ببعض أدباء

اليونان عشّاق هوميروس وإلياذته كاستافريذس ترجمان السفارة الإنجليزية، وكاروليذس أحد أساتذة كلية خلكي اليونانية بالآستانة، وبعضهم من قراء العربية، فكنت أشاورهم في بعض ما التبس وأُغلق، وهم لا يضنُّون وأقرأُ لهم أجزاءً من المنظوم العربي فتعروهم هزة الطرب مستبشرين بتعريب أعظم منظومة لأعظم شعرائهم.

وهكذا ظللت بين وقوف ومسير إلى أول صيف سنة ١٨٩٥ فخرجت بعائلتي إلى مصيف فنار باغجه في ضواحي الآستانة، وظللت فيها أربعة أشهر فرغت في نهايتها من عناء التعريب.

كتابة الشرح

على أنني منذ شروعي في النظم كنت أطمح إلى ما وراء ذلك إذ لو عرضت الإلياذة على قراء العربية عاريةً من الشروح لما خالوها إلا هيكلا شعريًّا لا تربو فائدته على شيء مما بين أيديهم من الدواوين وما أكثرها في لغتنا.

فرأيت أن أعلق عليها شرحًا أنتهج فيه أسلوبًا جديدًا لم ينتهجه أحد من الشراح بغية أن يأنس القارئ العربي بالرجوع في نظره إلى أخلاق أمته في جاهليتها، وبعض حضارتها والمشهور من أساطيرها وعباداتها، والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وأدبائها، ومواقف ملوكها وأمرائها وساستها وزعمائها، والإعجاب باتساع لغته في الوضع لكل معنى من المعاني الفطرية مع عجزها في الحال عن تأدية بعض الأوضاع

العصرية، وجميع ما يتناول وصف حالة العرب ولغتهم وحالتهم الاجتماعية. كل ذلك بالمقارنة والمقابلة مع ما كان من نظيره في الأمم الغابرة، ولا سيما في أمم اليونان، ويرتاح المطالع الإفرنجي من قراء لغتنا إلى الولوج في باب لا أظن أحدًا ولجه من قبل، فيبحث وينقب، ويسترشد فيرشد على ما جرى عليه في سائر الشؤُون، ونحن عن معظم ذلك غافلون.

ولهذا لم يكن لي بدٌّ من مطالعة الأسفار الطوال والمجلدات الضخمة من كتب العرب والأعاجم في الأدب والشعر والتاريخ، وإذا ألقيت نظرك على باب الشواهد في العجم في ذيل الكتاب ورأيت أنني اضطررت إلى الاستشهاد بمئتي شاعر عربي بين جاهلي، ومخضرم، ومولَّد فضلا عما نقلته من شعر الأعاجم عذرتني على ما أضعت من الوقت في شرح الكتاب إذ ربما قرأت ديوان الشاعر كله طمعًا ببيت واحد: ولو جمعت الزمن الذي صرفته في النظم لما زاد عن نصف مثله مما صرفته في تدوين الشرح.

وفي أوليات سنة ١٨٩٦ دعاني داعٍ حثيث إلى القاهرة، والنفس تشتاقها فانتهزتها فرصةً، وانتقلت بعائلتي إليها ولكن أمورًا هامَّة حالت دون تمثيل الكتاب بالطبع أخصها اشتغالي بعمل شاقٍ آخر هو «دائرة المعارف». ولكنني كنت اختلس أويقاتٍ يسيرة أرتب الشرح في أثنائها حتى انتهيت منه عام ١٩٠٢ فباشرت الطبع.

ولست بمعتذرٍ لأبناء وطني عن انقضاء كل هذا الزمن قبل إنجاز العمل الأخير، فقد أَلفنا التأَني والمطل، وإن الواحد منا ليشرع في طبع مئتي صفحة فتمر الأعوام ولا يتمُّها. على أن ابن الغرب تعتريه الدهشة لمثل هذا التراخي، وهو في بلاده لا يكاد يسمع بتأليف كتاب حتى يراه مطبوعًا تتداوله الأيدي، فلمثل هذا اللائم أقول: «إن الحالة عندنا على خلاف ما تعهد، فليس في بلادنا شركات تأخذ على نفسها طبع الكتب على نفقتها فتعد المال والرجال، بل لا بد عندنا وإن توفرت النفقات أن يتولى المؤلف في مثل هذه الأحوال طبع كتابه بنفسه، وإن استعان بصديق أو غيره على مراجعة مسودَّة فلا يغنيه ذلك عن أن يكون هو المصحح المنقح، وإذا زدت على هذا أن دواعي صحة الجسم تلجئني كل سنة إلى إيقاف العمل بضعة أشهر إذ أضطرُّ أن أبرح مصر إلى لبنان أو غيرها من بلاد الله اتَّضح أني أسرعت في طبع الإلياذة مع إبطائي في إعدادها».

المعجم والمقدمة

وفي منصرم ربيع السنة الماضية (١٩٠٣) كان الفراغ من طبع الإلياذة وشرحها، فحملت الكتاب معي إلى لبنان حيث قضيت الصيف، وانتهزت فرصة الفراغ والراحة لكتابة المعجم، وحالما وصلت القاهرة في آخر الصيف أخذت في إنشاء هذا الفصل وسائر فصول المقدمة: وهكذا فقد كان الفراغ من هذا الكتاب حيث كان الشروع فيه أي في

قاهرة مصر، وأراني كما أسلفت لك لم أدَّخر وسعًا في تحبير تعريبه وتنميقه، ولم آل جهدًا في تطبيق شرحه وتنسيقه، فإن أحسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد، وإلا فحسبي أن أفتحه بابًا يلجه من وفقه الله إلى سبيل السداد.

أصول التعريب

لقد جرى الكثيرون من نقلة لغات الإفرنج إلى العربية على أصول ابتدعوها لأنفسهم، فشطُّوا بأكثرها عن منهج الصواب، فأجروا قلمهم بل هو جرى بهم مطلق العنان يحبر ما يريد دون ما أراد الواضع، فمن متصرفٍ بالمعنى يزيد وينقص على هواه فيفسد النقل ويضيع الأصل، ومن متسرعٍ يضنُّ بدقائق من وقته للتثبت من مراد المؤلف فيلتبس عليه فهم العبارة؛ فينقلها على ما تصورت له لأول وهلة، فتنعكس عليه المعاني على كُرهٍ منه، ومن ماسخٍ يلبس الترجمة ثوبًا يرتضيه لنفسه فيتقلب بالمعاني على ما يطابق بغيته، ويوافق خطته حتى لا يبقى للأصل أثرًا، ومن عاجزٍ يجهد النفس ما استطاع وهو وإن أجهدها ما شاء غير كفوءٍ لخوض هذا العباب.

ثم يقوم هؤلاء الكتَّاب ويسمُّون ما كتبوا تعريبًا، وأولى بهم أن يسمُّوه تضمينًا أو اختصارًا أو معارضةً أو مسخًا.

ولكنهم جميعًا أولى بالعذر والعفو من فئة أخرى يأتي الواحد منها على الكتاب فينقله كله أو بعضه، ثم يعرضه على الناس تأليفًا من نتاج قريحته، وهؤلاء هم السرَقة الدجَّالون.

على أن لدينا والحمد لله رهطًا من ذوي الذمة والعلم يتوخَّون الصدق، ويتحرَّون الضبط والأحكام، ويجيدون الرسم فيأتي مثالا صادقًا، فإذا نقلوا قالوا نقلنا وإذا تصرفوا قالوا لغرضٍ تصرفنا، وإن ضمَّنوا قالوا لأمرٍ ضمَّنَّا، وإن عارضوا قالوا لسببٍ عارضنا، فهؤلاء إذا صحت كفاءتهم هم الذين يجب أن يُصَدَّق خبرهم، ويُقْتَفَى أثرهم.

معرّبو العرب

وإذا رجعنا إلى النَّقلَة الأوائل رأينا أن زمرةً كبيرة منهم كانوا من هذا الفريق الأخير، وهم على تفاوت إجادتهم في تأدية المراد ممن قصد الفائدة الحقَّة وتوخى الصدق والدقة.

وقد سلكوا في التعريب مسلكين نقلهما البهاءُ العاملي في الكشكول عن الصلاح الصفدي قال: «وللترجمة في النقل طريقان:

أحدهما طريق يوحنا بن البطريق، وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى، فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبهُ، وهذه الطريقة رديئة لوجهين:

أحدهما: أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية؛ ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها، الثاني: أن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائمًا، وأيضًا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحاق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواءٌ ساوت الألفاظ أم خالفتها، وهذا الطريق أجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحاق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية؛ لأنه لم يكن قيمًا بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي، فإن الذي عرّبه منها لم يحتج إلى إصلاح.

وإن هذين الطريقين اللذين أشار إليهما الصلاح الصفدي منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعوَّل عليهما في النقل حتى يومنا، وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح؛ أما الطريقة الأولى فهي كما قال رديئة: «إذا أُريد بها استجماع محصل المعاني» وهي أيضًا أنها تذهب بطلاوة التركيب فلا تبقي لها أثرًا، ولا تصلح للكتب التي تتداولها الأيدي من الخاصة والعامة، ولا ترتاح إليها نفس مطالع، وقلما تجد قارئًا يقوى على استتمام صفحة منها، ولكنها مع هذا مفيدة لطالب اللفظ دون المعنى؛ ولهذا جرى عليها بعض كتَّاب الإفرنج في بعض التآليف المراد بها تعليم اللغات، وانتهجوها في نقل كثير من كتب الأدب والشعر

كمنظومات هوميروس وفرجيليوس إذا أُريد بها إفادة طلَّاب اليونانية واللاتينية دون طلاب الإلياذة والإنياذة، ويشترط لصحة فائدتها أمران: أولهما: أن يكتب الأصل بلغته ومردفًا في اللغة المنقول إليها، والثاني: أن يكون بإزائها ترجمة أخرى على الطريقة الثانية التي هي طريقة حنين؛ لاستجلاء المعنى، وإلا اختلطت المعاني على المطالع وغاب عنه فهم قوة العبارة؛ لأن الجمل على الطريقة الأولى تأتي مختلة التركيب مقلوبة الوضع، فما يجب تقديمه في لغة يجب تأخيره في أخرى، وما يجب إثباته في الأصل يجب تقديره في النقل وهلمَّ جرًّا، فلا طلاوة ولا إحكام، ولا إعراب، ولا انسجام.

أما الطريقة الثانية فهي التي عوَّل عليها الجمهور لحصول الفائدة فيها من الوجه المطلوب، وهو نقل المعاني ورسمها رسمًا صحيحًا ينطبق على لغة النقل ومشرب قرَّائها، فإذا قرأ المطالع فيها كتابًا معرَّبًا، فإنما هو يقرأُه عربيًّا، ولا يقرأه أعجميًّا كما يحصل في الطريقة الأولى؛ ولهذا يصح أن يقال: «إن طريقتنا إنما هي طريقة حنين بن إسحاق والجوهري».

مسلك المعرّب في تعريب الإلياذة

علمت مما تقدم أن المعرّب تحرَّى الصدق في النقل مع مراعاة قوام اللغة، وعسى أن يكون ممن كُتب لهم التوفيق، وأقول زيادةً للإيضاح أني وطنت النفس على أن لا أزيد شيئًا على المعنى، ولا أنقص منه، ولا أقدّم، ولا أؤخر إلا في ما اقتضاه تركيب اللغة، فكنت أعمد إلى الجملة

سواءٌ تناولت بيتًا أو بيتين أو أكثر أو أقل، أسبكها بقالب عربي أجلو رواءه على قدر الاستطاعة، ولا أنتقل إلى ما بعدها حتى يخيَّل لي أني أحكمتها.

ولما كان الشعر العربي يختلف طولًا وقصرًا باختلاف أوزانه كان لا بد من حصول التفاوت في النسبة بين عدد أبيات الأصل، وعددها في النقل، وليس في اليونانية شطرٌ وبيتٌ كالعربية، فكل شطر منها بيتٌ تامٌّ كالرجز في عرف بعض العروضيين، إذ يعتبرون كل شطر منه بيتًا كاملًا، ثم إنه كثيرًا ما يحصل الترابط فيها بين بيتين وأكثر بما لا يجوز إتيان نظيره في العربية؛ ولهذا لم يكن في دائرة الإمكان أن يُنقل البيت اليوناني بيتًا أو شطرًا عربيًّا، إذ كلما كثرت أجزاء بحر الشعر العربي زاد اتساعه لاستيعاب المعاني، فالطويل والبسيط مثلا يستوعب البيت منهما ما لا يتسع له السريع والمنسرح، وهذان تامَّين يستوعبان ما لا يتسع له المجزوءُ من سائر الأبحر، فبهذه النسبة يمكن اعتبار كل بيت من الطويل والبسيط بمثابة زهاء بيتين من الأصل اليوناني، ويقرب منهما الكامل التامُّ، وكل بيتين من الخفيف والسريع، والمنسرح والرجز والمتقارب، والمتدارك والوافر، والرمل واحدَّ الكامل مقابل ثلاثة أبيات من اليونانية، فجاءت الأبيات العربية بين العشرة والأحد عشر ألف بيت نقلًا عن أصلٍ عددهُ بين الستة عشر والسبعة عشر ألف بيت.

وكنت أثناء مطالعتي ترجمات الإفرنج أنكر أمورًا كرهت أن ينكرها غيري عليَّ فاجتنبتها، مثال ذلك: تصرف البعض منهم تصرفًا غريبًا، فيبدلون معنى بآخر ولفظة بغيرها، ولهم في ذلك أعذارٌ تافهة أشرنا إليها في مواضعها، وأغرب من هذا ما يقدمون عليه من الحذف والإضافة، فقد رأيت في بعض المواضع أبياتًا كثيرة قضوا عليها بالحذف، وأبياتًا كثيرة حسَّنت لهم أنفسهم إضافتها حتى إن أحدهم حاك من أربعة أبيات أربعة وثلاثين بيتًا ضمَّنها معاني لم تخطر على بال هوميروس.

المحافظة على الأصل

فكان معظم همي أن لا أحجف مثل هذا الإحجاف، فلم أتصرف بشيءٍ من المعاني، وحافظت على الألفاظ ما أمكن فإن حذفت لفظة فهي إما من مكررات الأصل التي يحسن تكرارها في لغتها، ولا يحسن في لغتنا، وإما من الألفاظ التي يمكن استخراجها من المعنى، وقد يمكن أن تكون من الألقاب والكنى التي يستغنى عن إيرادها كل حين، وإن زدت لفظة فهي؛ إما مما يقتضيه سياق التعبير العربي، وإما قافية لا تزيد المعنى ولا تنقصه، وإن قدمت أو أخَّرت فكل ذلك في فسحة قصيرة يقتضيها السبك العربي، وكان هذا أعظم قيدٍ قيدت به نفسي.

اجتناب الوحشي والحوشي

ثم إني اجتنبت ما أمكن حوشيَّ الكلام ووحشيَّه؛ طمعًا بأن لا تحقرهُ الخاصة، ولا يغلق فهمه على العامة، وإذا اضطُررت إلى إثبات

كلمة لغوية فتلك؛ إما لفظةٌ وضعية لا يمكن استبدالها بغيرها، وإما قافيةٌ لا يمكن العدول عنها، وإما تعبيرٌ ليس ما يفضله في الكلام المأْنوس.

الألفاظ التي لا مرادف لها في العربية

وليت هذا منتهى الإشكال في تعريب الإلياذة، فقد اعترضت لي ألفاظ وتراكيب وصفية بعضها غير مألوف في العربية، وبعضها لا يقابله مرادفٌ أصلًا، فاضطررت إلى انتقاء ألفاظ يمكن إطلاقها على المعنى المراد ونبهت عليها، وإلى نهج أسلوب في التركيب الوصفي لا يختل معه نظام العربية، ودونك أمثلة يسيرة من ذلك:

لآلهة اليونان طعامٌ وشرابٌ يعبَّر عنهما بلفظتين لا مرادف لهما في العربية، فعبَّرت عن الشراب بالكوثر والسلسبيل كما أوضحت في الشرح: وعبَّرت عن الطعام بالعنبر؛ لأن هذا لفظها باليونانية (Αμβροσια) وهو عندهم طعامٌ وطيب بآن واحد كما أوضحت.

وعند القوم آلهة وشبه آلهة كثيرون لا شبيه لهم عند العرب، فلم توضع لهم أسماءٌ خاصة بهم، فحيثما أتيت على لفظة من مثل هذا رجعت إلى معنى اللفظة اليونانية، وعرَّبتها بما رادف ذلك المعنى أو قاربه، فدعوت ربات الغناء ومنشدات الآلهة «القيان» والقينة في العربية الجارية المغنية، ودعوت ربات اللطف البهجات والخرائد، فاللفظة الأولى أخذًا عن مفاد المعنى، واللفظة الثانية تشبيهًا بالكلمة اليونانية التي تماثلها في اللفظ (Χαριτες)كما أوضحت في الشرح.

وأما الموصوفات العلوية الموضوعة لمعنى معيَّن، فقد سميتها بأسمائها التي تنطبق عليها في العربية، فسميت آلهة الفتنة «فتنة» ورب الهول «هولا» وإله الشقاق «شقاقًا» والساعات «ساعات» والصلوات «صلوات» وهلمَّ جرًّا.

التراكيب الوصفية

وفي الإلياذة تراكيب وصفية ملازمة لكثيرٍ من أعلامها، وقد يكثر تكرارها فيها إلى حيث يُكره ذلك في العربية كوصف آخيل بخفة القدم، ووصف هكطور بهز الخوذة، والقول في نسطور أنه راعي الشعب، وفي زفس أنه أبو الآلهة والبشر، ففي مثل هذه الأحوال خففت التكرار وانتقيت ألفاظًا حسبتها خفيفةً على المسمع العربي فقلت: طيَّار الخطى، وهيَّاج التريكة وما أشبه.

تعريب الأعلام

ثم إنه لم يكن بالأمر السهل تعريب الأعلام بما لا يمجُّهُ الذوق العربي وخصوصًا أني أعلم أن قارئ أمثال الإلياذة لا بد أن يستثقل في أول الأمر توالي أعلام أعجمية لم يألف سمعه شيئًا منها، ولكنه إذا نفر من تلاوتها أولا لا يلبث أن يألفها بعد تلاوة قصيدة أو بعض قصيدة.

وقد كانت لي هذه الأعلام في النشيد الأول عثرةٌ في سبيل إحكام النظم، فكان لا بد من وضع أصولٍ اعتمد عليها في سائر الأناشيد وليس في كتب العرب ما يماثل هذه الأصول، وإن في كتاب

سيبويه بابًا للتعريب، ولكنه اقتصر في معظمه على تتبُّع بعض الألفاظ مما استعمله العرب من أعلام الأعاجم وغيرها، والنظر في ما ألحق منها بالبناء العربي كبَهرَج، وَجَوْرب، ودينار، وديباج، ويعقوب، وإسحاق، وما لم يلْحق به كَكُركم وخُرَّم، وخُراسان.

وجميع ما كتب الخفاجي في شفاء الغليل، وأبو حيَّان في ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، والثعالبي في فقه اللغة، والسيوطي في المزهر، وغيرهم ممن طرق هذا الباب لا يكاد يتعدَّى الألفاظ الفارسية وقليلًا من غيرها، ومحصله أيضًا أنه لم يضع العرب قواعد مطردة يمكن الرجوع إليها في مثل هذه الحال، وإذا أردنا القياس على ما جاء في الكتب العربية من الأعلام اليونانية زادت المعضلة إشكالًا، فإن أيدي النساخ قد لعبت بها كل ملعب هذا فضلا عن أنهم لم يجروا بها على نمطٍ معلوم في زمن من الأزمنة إلا في أحوال محصورة وأسماء مشهورة، وزد على هذا أن أكثر أعلام الإلياذة غير مذكور في كتب العرب، ولا ريب عندي أن المعرّبين والمؤرّخين توَخَّوا ما أمكن حسن التطبيق في تعريب الأعلام، ولكن عدم جريهم على خطة واحدة وسَنَنٍ معلوم ذهب بذلك الجهد ضياعًا، فقالوا مثلا: «أرسطاطاليس، وأرسطوطاليس، وأرسطاليس، وأرسطوليس» وبتروه أيضًا، فقالوا: «أرَسَط». وقالوا: «أسقليبيوس، وإسكولابيوس، وإسكليب، وأسقولاب» وأمثال ذلك كثيرة في النثر فما بالك لو نظمت شعرًا.

تلاعب النسَّاخ

وأما تحريف النساخ وتصحيفهم فمما لا يدركه حصر، فكثيرًا ما تقرأ فيلقوس، وفيلثوس، وفيلنوس، وقيلبوس، وقنلتوس، ويكون المراد فيلُّبس أبا الإسكندر، وتقرأ بودنطه، وتيرنطه، وبيريطه، وبورنطا والمراد البيزنطية، وخذ أي كتاب شئت من كتب التاريخ من البيروني، والمسعودي إلى ابن الأثير وابن خلدون حتى المقريزي، وانظر فيه إلى الأعلام اليونانية، فيُشكِل عليك إرجاعها إلى أصلها.

وكثيرًا ما نرى الاسم الواحد مكررًا في صفحات وهو في كل صفحة بهجاء مختلف عما قبله وما بعده، فإذا فتحت القرماني طبع بغداد صفحة ٢٣٦ وقرأت أنطياقوس، ثم رأيت أبطيحش بالباء والحاء فما أدراك أن المراد بهما أنطيوخوس إذا لم تكن هناك قرينة ترشدك.

ومن بلاء النسخ أيضًا تحويل الفكر من علَمٍ مشهور إلى علَم مشهور؛ فتضيع فائدة الرواية بجملتها كقولهم في يوليوس قيصر بولس أو بولوس، وأين بولس من يوليوس؟

ولا يصح إرجاع اللوم في خطأ النساخ إلى المؤلفين والمؤرخين إلا حيث اجتزءوا بالنقل من نسخ مُصَحَّفة، وإلا فلا ريب أن القاضي الفاضل مثلا لم يفسد شيئًا من الأسماء الإفرنجية في ما كتب عن الصليبيين، فلم يقل الاستبارية والاستنارية، كما نقل ابن الأثير وابن

خلدون بل قال: «الاسبتالية» على لفظها الإفرنجي (**hospitaliers**).

عودٌ إلى تعريب الأعلام

بقي عليَّ أن أذكر الأصول التي جَرَيْت عليها في تعريب الأعلام:

جرت للإفرنج عادةٌ في نقل كثير من الأعلام اليونانية عن الأصل اللاتيني دون اليوناني، ولا سيما في أسماء المعبودات، فإذا أرادوا أثينا آلهة الحكمة، قالوا: «مينرفا» بلفظها اللاتيني، وإذا أرادوا فوسيذ أو فوسيذون إله البحار قالوا: «نبتون» والسبب في ذلك أن معبودات الرومان كانت تماثل معبودات اليونان من أوجه شتى، ولها عند كلٍّ من الفريقين أسماءٌ توافق روح لغته ومعانيها، وإذ كان الإفرنج أقرب عهدًا بالرومان، وقد تناولوا أسماء معبوداتهم عن اللاتينية على ما دوَّنها فرجيليوس وغيره من الشعراء والكتَّاب أطلقوا تلك الأسماء على الأعلام اليونانية أيضًا لمماثلتها لها في المفاد، على أن كثيرين من محققيهم قد أخذوا يرجعون إلى الأصل ويذكرون كل علّمٍ باسم لغته.

وهكذا فعلت في تعريب المعبودات، فسميت كل معبودٍ باسمه اليوناني، وإن كان لبعضها ذكرٌ في كتب العرب، فقلت: زفس ولم أقل زاويش كما قال أبو نواس: «ولا المشتري» وإن ورد بهذا اللفظ في كتب العرب، وقلت: «هرمس» ولم أقل: «عطارد» وقلت: «آرس» ولم أقل: «المريخ» كما قال: العرب أو بهرام كما قال العرب والفرس، وذلك؛ لأن

مشتري العرب، وعطاردهم، ومريخهم، وبهرامهم هم غير أمثالهم عند اليونان، وليس لهم في كتبنا وصفٌ معيَّن ينطبق على المفاد اليوناني، ولم أتوسع في شيء من هذا الباب إلا باسم عفروذيت، فقد أُطلق عليها اسم الزهرة لقب الشبه بين الزهرتين في أساطير القومين.

وفي سائر الأعلام حفظت الأصل اليوناني مع مراعاة صحة اللفظ العربي على قدر الإمكان.

وتابعت العرب في الأسماء الشائعة، فأبقيتها على حالها، فلم أقل: «أَلِكْسَنْدَر» أو «ألكسندروس» على ما يقتضيه اللفظ اليوناني؛ بل قلت الإسكندر لإجماع العرب على كتابته بهذا الهجاء.

وجاريت الإفرنج وكثيرين من كتاب العرب بزيادة حرف الهاء في أوائل الأسماء المبتدئة بحرف علة ثقيل، فقلت: «هوميروس، وهَلْيُس، وهيرا، وهيبا» كما قالوا: «هيرودس، وهيرودوتس، وهِرَقل، وهيلانة» مع أنه لو روعي رسم الحروف اليونانية وعُلم أنه لا هاء فيها لوجب أن يقال: «إيرودس، وإيرودوتس، وإرقل وإيلانة». على أن العرب لم يراعوا ذلك في كل الأحوال؛ ولهذا قالوا: «أوميروس وأسيودس» بدل هوميروس وهسيودس.

ومثل ذلك يقال في زيادة العين في أوائل نحو عشرة أسماء، فإن ذلك يقربها إلى اللهجة العربية، فأخفُّ علينا أن نقول: عسقلاف من أن نقول: أسقلاف وعفروذيت بدل أفروذيت.

وجاريت الإفرنج وبعض العرب أيضًا في بتر بعض الأسماء، ولا سيما الطويل منها فقلت: طرطار بدل طرطاروس، وطفطام بدل طفطاميوس، ومريون بدل مريونس، وإسكمندر بدل إسكمندريوس، وفوسيذ بدل فوسيذون كما قال العرب: «هرقل» بدل «هرقليس»، و«تيوفيل» بدل «ثيوفيلوس» وخصوصًا أن ملازمة هذه السين للأعلام اليونانية كملازمة الحركة والتنوين للمعرفة والنكرة، ففي الحركة العربية غنى عنها.

الحروف التي لا مقابل لها في اليونانية

وليس في اليونانية طاءٌ ولا قاف، ومع هذا فهما كثيران جدًّا في الأعلام اليونانية واللاتينية المعرَّبة، فقالوا: «أنطيغونس، وأنطيوخس، وقبرس، وقسطنطين، وقيصر» بدلا من أنتيغونس، وأنتيوخس، وكيرس، وكنستنتين، وكيسار، وأخالهم أحسنوا بالنظر إلى انطباق تعريبهم على اللهجة العربية، فجازيت من سلك هذا المسلك وقلت بالطاء: طروادة وطرتا، وطيطان وأمثالها، وبالقاف قرونس، وقبريون، وقَليارُس، وربما اجتمع الحرفان كما في طفقير.

ويقال مثل ذلك في الصاد، فهي ليست من حروف اليونانية، ومع هذا فقد قلت: صوقوس كما قالوا: صولون وصوفيًّا.

واليونانية خلوٌ من حرف الدال، فكل دالٍ فيها ذالٌ، فراعيت في هذا الباب جودة اللفظ، وحافظت على إبقاء معرَّبات المتقدمين على

حالها فقلت: «الإسكندر، والإسكمندر، وداماس، ودردانيا بالدال، وذريون، وذيتر، وذيفوب بالذال».

الحروف التي لا مقابل لها في العربية

وفي اليونانية حروف ليست في الهجاء العربي كالثاء B فهي مقام الباء في الحروف الساميَّة، وموقعها موقع هذه أي ثانيةً في الحروف، فكما عبَّر اليونان بها عن بائنا لخلو لغتهم منها يجب أن نعبر عنها بالباء لخلو لغتنا من حرفهم، ويشمل هذا التعريف جميع الألفاظ التي يدخل هذا الحرف بهجائها، وهي كثيرة كباتيا، وبريسا، وبورس وبرياس.

وفيها حرف آخر لا مقابل له في العربية، وهو الباء الفارسية II فقد اخترت لها الفاء لقرب مخرجها إليها فقلت: «فريام، وفطرقل، وفوذالير» كما قالوا: فرسيُّس، وأفلون، وفيداس، ومن معربي القدماء من اختار لهذا الحرف الباء العربية، فقالوا: بطرس بخلاف كثيرين من معربي السريان الذين يقولون: فطرس، فعولت على هذا الوجه إلا حيثُ وقع تكرار الحرف أو ثقل اللفظ بالفاء، فأرجعته إلى الباء وقلت: «فِينُبْس وبفلغونة، وأُولِمْب» ولم أقل: «فينفس، وأولمف، وففلغونة»

ولا فرق في اليونانية بين الجيم والغين، فيعبر عنهما فيها بحرف واحد P مخرجه بين الغين العربية والجيمين، أي: الجيم المصرية والجيم السورية، فقد اخترت أن أعبر عنها بالغين، فقلت: «غلاطيا، وغرطينة»

إلا في أحوال قليلة رأيت فيها الجيم أوقع في الأذن سواءٌ كان مصريًّا أو سوريًّا كجيربنيا ومجبيس.

تنافر السين والثاء

والثاء والسين كثيرتان في الألفاظ اليونانية، وقد تجتمعان معًا فيشكل على العربي لفظهما إذا كان أولهما ساكنًا، ففي مثل هذا قلبت الثاءَ تاءً فكتبت أغستين بدل أغسثين، وأثقل من ذلك اللفظ إذا وقعت الثاء بين سينين نحو مِنِسْثِس فكتبتها منستس، وأما إذا كان الساكن الثاني، فإني أبقيته على حاله لسهولة لفظه إذ لا يصعب مثلا أن يقال ثسطور.

الپاءُ والڤاءُ

ومع أني تحاشيت الپاء الفارسية، والڤاء اليونانية في النظم فلم أتحاشهما في الشرح، فالعربية واليونانية لغتان قديمتان، وللنقلة فيهما أوضاع رأيت أن لا أتعدَّاها في الشعر إلا فيما لم يطرقوا بابه رغبةً في استبقاء الصبغة الفطرية على حالها، وأما الشرح فهو بلسان عصري، وقد اضطررت فيه إلى إيراد أعلام قديمة وحديثة وقع فيهما هذان الحرفان، فأبقيتهما على حالهما؛ دفعًا للبس كما يفعلون مثلا في اليونانية الحديثة إذا أوردوا علمًا إفرنجيًّا أحد حروفه الباء، وهي ليست موجودة في لغتهم فيعبرون عنه بحرفين MII وليس من ذلك شيءٌ في اليونانية القديمة.

طريقة ابن خلدون

وقد تعرض للقارئ أثناء مطالعته كتب الأعاجم حروفٌ كثيرة لا نظير لها في العربية، فكان قدماء الكتَّاب من العرب يكتبونها بما يقارب لفظها من حروفهم، وهو نقصٌ غير خاصٍّ بالعربية، ولكنه يتطرق إلى كل لغة من سائر اللغات، ومَنْشَؤُه من التباين في النطق بالحروف بين لغةٍ وأخرى، فمهما كانت الصور التي يرسم بها الإفرنجي أكثر حروف الحلق، وبعض الحروف العربية كالحاء والعين والقاف والضاد، فليس بالأمر السهل عليه أن يتلفظ بها على وضعها العربي، ومع هذا فقد اتخذ لها بعض الكتَّاب الحديثين صورًا فارقة تميزها بالرسم؛ دفعًا للإشكال كأن يضعوا نقطة فوق حرف k ليشيروا أنها في الأصل قاف، وليست كافًا، ونقطة فوق حرف h أو تحته ليشيروا أنها حاءٌ وليست هاءً، و d منقوطةً يعبَّر بها عن الضاد، وإذا أريد بها الطاءُ ألحقوا بها حرف h. والعين ساكنة يعبَّر عنها بضمة، ومتحركة بحرف حركتها مع الضمة المذكورة وهلمَّ جرًّا.

وليس كتَّاب العصر بأول من انتبه إلى هذا البحث، فقد قال ابن خلدون في مقدمته:

«ليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف، فقد يكون لأمَّة من الحروف ما ليس لأمة أخرى، والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفًا كما عرفت، ونجد للعبرانيين حروفًا ليست في

لغتنا، وفي لغتنا أيضًا حروف ليست في لغتهم وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم، ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف، وباءٍ، وجيم، وراءٍ، وطاءٍ إلى آخر الثمانية والعشرين، وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملا عن الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان، وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله أو بعده، وليس ذلك بكافٍ في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله، ولما كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض العجم، وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه، ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه؛ لأنه عندنا غير وافٍ بالدلالة عليه، فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه؛ ليتوسط القارئ بالنطق بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته، وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط في قراءة خلف، فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي، فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي، ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين، فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل

اسم بلكين، فأضعها كافًا، وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو ثنتين[٥٧] فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف، وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر، وما جاء من غيره، فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معًا؛ ليعلم القارئ أنه متوسط فينطق به كذلك، فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا، وغيرنا لغة القوم، فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمنه وفضله».

ذلك ما أشار به ابن خلدون منذ خمسة قرون، وهو مقتبس من كتابة أهل المصحف، فلم يعبأ الكتَّاب بكلامه أو هم لم يشعروا بحاجة ماسَّةٍ إليه إذ كادت تنطوي صحف التعريب في الأعصر المتأخرة. على أن أبناء العصر أخذوا يشعرون بتلك الحاجة، فجعل بعضهم يميز بين رسم الحروف الأعجمية البحتة.

وليس عسيرًا علينا أن نستمد من الفرس كثيرًا من الحروف التي ليست في أوضاع العربية، فتسدُّ مسدَّ ما نقص عندنا من حروف الإفرنج؛ لأن الفارسية على ما لا يخفى أقرب بوضعها ومنشئها إلى لغات الغرب منها إلى اللغات الساميَّة، فلما عدل الفرس بعد الإسلام عن حروفهم الفهلوية إلى الحروف العربية رأوا أن حروفها لا تؤدي جميع منطوق اللفظ بلسانهم، فزادوا من عندهم حروفًا لما نقص عن مدلول لفظهم في

لغة العرب، فرسموا الپاءَ والچيم، وفرقوا بين الجيم والژيم، وبين الكاف والگاف وزاد الترك الكاف الخرساء.

ولا يفوتنَّ المطالع اللبيب أننا إذا أشرنا باستعمال هذه الحروف، فإنما نشير بها في الأعلام الأعجمية المعرّبة ليس إلا، وهي على كل حال لا تصلح في الشعر إذ يجب أن يبقى على صبغته العربية؛ ولهذا استعملتها في الشرح دون المتن.

على أن النقص ليس كله في الحروف الصحيحة، ولكنه يتمشى أيضًا إلى الحركات أو حروف العلة الإفرنجية، فالحركات العربية ثلاث فقط يقابلها ثلاثة حروف علة، وليس منها شيءٌ ينطبق على لفظ **è** و**o** و**u** و**eu** و**é** وأمثالها مما هو شائع في لغات الغرب.

ولبعض كتَّاب الترك طريقةٌ حسنة في الدلالة على حركات ألفاظهم التي لا يمكن التعبير عنها بالحركات العربية، ذلك أنهم يتخذون من الفتحة فتحتين ثقيلةً وخفيفة، وكذلك من الكسرة كسرتين، ومن الضمة أربع ضمَّات اثنتين ثقيلتين، واثنتين خفيفتين يسمُّون واحدةً من كل من الثقيلتين والخفيفتين مبسوطة والأخرى مقبوضة، وباختلاف رسم هذه الحركات قائمةً أو منحيةً أو مقلوبةً فوق الحرف أو تحته تجتمع لديهم ثماني حركات يستتمون بها التعبير عن جميع ما يقتضيه منطوق لسانهم.

وليست العربية في حاجة إلى شيءٍ من ذلك للدلالة على منطوق ألفاظها فحركاتها كافيةٌ وافية، ولكن الحاجة فيها إلى ما يمثل بعض منطوق اللغات الأعجمية كما تقدم.

ولقد وضع الشيخ إبراهيم اليازجي منذ بضع سنوات أربع حركات تمثل بعض الحروف الفرنسية وهي ترسم فوق الحروف فتدل على لفظ Ui وć وo وu وeu. وقد جرى فيها على الجمع بين حركتين أو ثلاث مراعيًا بذلك مخارج الحركات كما راعى ابن خلدون مخارج الحروف.

وإن في استعمال هذه الحركات مع الحروف الفارسية مسهلًا كبيرًا للدلالة على أصل كثيرٍ من الحروف الأعجمية، وقد لا يصعب مع التوسع بها قليلًا، والاصطلاح على أوضاع لسائر حروف الأعاجم التي لا نظير لها في العربية والفارسية أن يتوصل كتاب العرب إلى الدلالة على منطوق جميع الحروف في سائر اللغات، وإن كان النطق ببعضها يظل مستحيلًا على من لم يألف قراءة اللغة المعرَّبة أعلامها، والتلفظ بحروفها الأصلية، وعلى كل حال لا يجوز الإكثار من هذه الاصطلاحات، ولا يسوغ استعمالها إلا في أحوالٍ خاصة.

النبر

وقد راعيت النَّبر، أي: موقع المد في اللفظة (**accent**) ما أمكن فقلت مثلا: آرس ولم أقل أريس إلا حيث اضطرتني ضرورة الشعر، ورجائي أن يكون ذلك قليلًا.

التصرف بالحروف والحركات

ولم أتصرف في الحروف والحركات إلا فيما ندر، ووجهتي في ذلك تقريب اللفظة لمسمع القارئ العربي دون أن أعبث بمادة الأصل كما قلت مثلا: صفيَّة تعريبًا لاسم أنثى أصلها صفِيُّو أو سفيو.

وأما حروف العلة التي نعبر عنها بحركاتٍ فقد تحاشيت تغييرها عن مواضعها كما وقع في كثير من كلام العرب في الشعر، ولا سيما المولدين منهم كقول ابن هانئ:

ونَحَتْ بنو العباس منك عزيمةً   قد كان يعرفها المليك الهرقُلُ

وكان حقه أن يقول هِرَقْل، فغلبته القافية، وأمثال هذا كثيرة في شعر المتنبي وأبي تمَّام وغيرهما.

الألفاظ المعرّبة من اليونانية

وقد نبهت على الكلمات اليونانية الأصل كالأسطول والمينا، والليمان، والنوتي، وما يشتبه في كونه يونانيًّا كالعفريت والعنبر وما يشابه اليونانية كالخريدة.

هذا جلُّ ما توخيته؛ إحكامًا لتعريب الإلياذة وحاشا أن أزعم الفلاح بكل ما توخيت أو أدعي الصلاح بكل ما تحريت، ولكنه لا يريبني أن أدَّعي إخلاص النية، وصدق الاجتهاد، فقد أتيت ما أتيت وأنا واثقٌ من نفسي أنها لم تدخر جهدًا في هذا السبيل.

النظم في التعريب

لا بد للشارع في تعريب منظومة كالإلياذة أو نظم ملحمةٍ على مثالها من أن يقف طويلًا، ويتردد برهةً قبل أن يعين أوزان منظومته وقوافيها، وليس لنا في أوضاع السلف أصولٌ نرجع إليها في مثل هذه الحال، وهيهات أن يتسنى وضع مثل هذه الأصول فيتقيد كل بحر من بحور الشعر ببابٍ من أبوابه أو تتعين كل قافية من القوافي لمعنى من المعاني، فقد نظم العرب كل معنى على كل بحر وكل قافية وأجادوا، والقريحة الجيدة نقَّادةٌ خبيرة إذا طرقت بابًا انفتح لها ملء رغبتها، فتقع على البحر والقافية وهي لا تعلم من أين تأَتَّى لها أن تقع عليهما، وإنما هو الشعور الشعري يدفعها إلى حيث يجب أن تندفع.

فالشاعر المجيد إذا تصوّر أمرًا، فإنما يتصوَّر له ذلك الأمر على كماله فتهيئُ له السليقة جمال الشكل كما هيَّأَت له جمال المعنى، فيجتمع له أحكام التناسب بين اللفظ والمعنى، والوزن والقافية، فكل بيت بنى عليه قصيدته، فهو الأساس الذي يصح أن يستند إليه ويبني عليه.

ولا يخرج عن هذه القاعدة إلا الشعر المنظوم لأغراض معلومة، ودعت الحاجة إلى تقييده بقيود لا مناص لهُ منها كالأراجيز المنظومة في العلوم، وبعض الموشحات والأغاني المربوطة بأنغامٍ معينة، فالشاعر مقيد فيها بنمطٍ لا يتيسر له العدول عنه إلى غيره.

وفي ما سوى ذلك فالشاعر مطلق اليدين يتصرف بالشعر كيف شاء، وله أن يرتضي ما تيسر له من الأوزان والقوافي، وهي في الغالب تبرز له من نفسها بشكلها الأنيق وقوامها الرشيق.

على أن قريحة الشاعر، وإن كان مجيدًا ليست كيد النسَّاج تنطلق في العمل أيَّان حركها العامل، فقد يضطرب الجنان، وينحبس اللسان، والذهن وقَّاد، وقد يكون القلم سيالًا، فيجف فيه المداد، فالإمساك عن النظم في مثل هذا الاعتقال خيرٌ من إجهاد النفس فلا يلبث العقال أن ينحل من نفسه، وإذا طال الخمول، فليشحذ الشاعر قريحته بتلاوة جيد الشعر، فهو كالجلاء للسيف الصدئ.

ولكنه قد يحصل خلاف ما تقدَّم، فتتراكم المعاني وصورها، وتتدفق التخيلات تدفقًا يكاد يذهب بها شتاتًا، فيتهيَّأُ للشاعر رسم مطلعه ببيتين أو أكثر على أبحر مختلفة، فيحار في الاختيار، ويميل إلى الاسترشاد.

ولهذا رأيت أن أذكر في ما يلي ما تيسر لي استخراجه من شعر العرب بالنظر إلى ترابط بحور الشعر بمواضيعه وأبوابه، فقد راعيت هذا الترابط في بعض الأناشيد؛ فأدَّت تلك المراعاة إلى فائدةٍ يحسن التعويل عليها في بعض الأحوال.

ولا شك أن العروضيين نظروا إلى أبحر الشعر من هذه الوجهة، ولكنهم لم يزيدوا على تسميتها بأسماء تنطبق توسعًا على مسميات مواضيع القصائد المنظومة عليها فقالوا: هذا طويل، وذاك بسيط، وذلك خفيف أو سريع وهلمَّ جرًّا، ووقفوا عند هذا الحد.

ولكنه يستفاد من هذه التسمية أن لكل بحر ساحلًا يقف عنده، ويرشد اسمه إليه فإذا قلنا: هذا بحرٌ طويل علمنا أنه لا يسوغ أن ننظم عليه الأهازيج والموشحات والأغاني، وإذا قلنا: هذا بحرٌ مقتضب أو مجتث علمنا أنهما لا يصلحان للمنظومات على إطلاقها، ولا يصح فيهما تدوين الروايات والتواريخ.

ولو أردنا أن نضع أصولًا وافية لهذا البحث لوجب أن نرجع إلى منظوم نوابغ الشعراء، ونقابل بين أبوابه وبحوره؛ فتظهر لنا أغلبية كل وجه من كل بحر، وهو بحث طويل لا يتسع له هذا المجال.

فحسبنا إذًا فتحًا لهذا الباب أن ننبه إليه، ونذكر موجزين خلاصة ما اتضح لنا بالتطبيق والمقابلة.

فالطويل بحرٌ خضمٌّ يستوعب ما لا يستوعب غيره من المعاني، ويتسع للفخر والحماسة والتشابيه، والاستعارات وسرد الحوادث، وتدوين الأخبار، ووصف الأحوال، ولهذا ربا في شعر المتقدمين على ما سواه من البحور؛ لأن قصائدهم كانت أقرب إلى الشعر القصصي من كلام المولدين، خذ مثالًا لذلك معلقات امرئ القيس، وزهير، وطرفة، ولامية الشنفري، وقصيدة عبد يغوث الحارثي التي مطلعها:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا … فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا

والبسيط يقرب من الطويل، ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني، ولا يلين لينه للتصرف بالتراكيب والألفاظ مع تساوي أجزاء البحرين، وهو من وجه آخر يفوقه رقةً وجزالة؛ ولهذا قلَّ في شعر أبناء الجاهلية، وكثر في شعر المولدين، مثال الشعر الجاهلي قول تأَبَّط شرًّا:

يا عيد ما لك من شوق وإيراقِ … ومن خيالٍ على الأبواب طرَّاقِ

وقول عبدة بن الطبيب:

هل حبل خولةَ بعد الهجر موصولُ … أم أنت عنها بعيد الدار مشغولُ

ومثال شعر المولدين قول ابن زريق:

لا تعذليه فإن العذل يوجعهُ … قد قلت حقًّا ولكن ليس يسمعهُ

وقول أبي تمَّام:

السيف أصدقُ أنباءً من الكتبِ … في حدِّهِ الحد بين الجدِّ واللّعِبِ

والكامل أتمُّ الأبحر السباعية وقد أحسنوا بتسميه كاملًا؛ لأنه يصلح لكل نوعٍ من أنواع الشعر، ولهذا كان كثيرًا في كلام المتقدمين والمتأخرين، وهو أجود في الخبر منه في الإنشاء، وأقرب إلى الشدة منه إلى الرقة ومنهُ معلقتا عنترة ولبيد، وقصيدة الحادرة قطبة بن جرول:

بكــرت سُــميَّة بكــرةً فتمتــعِ وغــدت غــدوَّ مفــارقٍ لــم يربــعِ

وإذا دخلهُ الحذذ وجاد نظمهُ بات مطربًا مرقصًا، وكانت به نبرةٌ تهيج العاطفة كقولهم:

يــا دميــة نُصــبت لمعتكِــفِ بــل ظبيــة أوفــت علــى شــرفِ

بــل درَّة زهــراءَ مــا ســكنت بحــرًا ولا اكتنفــت ورا صــدفِ

وهو كذلك إذا اجتمع فيه الحذذ والإضمار كقول المخبل السعدي:

ذكــر الرَّبــاب وذكرهــا ســقمُ فصــبا ولــيس لمــن صــبا حلــمُ

وقول الحارث اليشكري:

لمــن الــديارُ عفــون بــالحبسِ آياتهــا كمهــارق الفُــرسِ

والوافر أَلين البحور يشتد إذا شددته، ويرق إذا رققته، وأكثر ما يجود به النظم في الفخر كمعلقة عمرو بن كلثوم، وفيه تجود المراثي، ومنها كثير في شعر المتقدمين والمتأخرين كقول الخنساء:

يــذكرني طلــوع الشــمس صــخرًا واذكــرهُ لكــل طلــوع شــمسِ

وقول المهلهل:

أهــاج قــذاء عينــي الإذِّكــارُ هــدوًّا فالــدموع لهــا انحــدارُ

وحسبك من شعر المولدين مرثية أبي الحسن الأنباري:

علـوٌّ فـي الحيـاة وفـي الممـاتِ لعمــرك تلــك إحــدى المعجــزاتِ

ومرثية المتنبي:

نعـــدٌّ المشـــرفية والعـــوالي وتقتلنـــا المنـــون بـــلا قتـــال

والخفيف أخف البحور على الطبع وأطلاها للسمع، يشبه الوافر لينًا ولكنه أكثر سهولةً، وأقرب انسجامًا، وإذا جاد نظمهُ رأَيتهُ سهلا ممتنعًا لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور، وليس في جميع بحور الشعر بحرٌ نظيره يصح للتصرف بجميع المعاني، ومنه معلقة الحارث بن حلِّزة اليشكري.

والرمل بحر الرقة فيجود نظمه في الأحزان والأفراح والزهريات؛ ولهذا لعب به الأندلسيون كل ملعب وأخرجوا منه ضروب الموشحات، وهو غير كثير في الشعر الجاهلي، وأكثره في مثل ما تقدم ومع هذا فلعنترة فيه شيءٌ من الحماسة، وللحارث اليشكري قصيدةٌ وصفية إخبارية أبدع فيها ومطلعها:

عجــــبٌ خولـــــة إذ تنكرنـــــي أم رأَت خولــة شــيخًا قــد كَبِــر

والسريع بحرٌ يتدفق سلاسة وعذوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف، ومع هذا فهو قليلٌ جدًّا في الشعر الجاهلي، ومنه قول الخنساء:

وصـــاحبٍ قلـــت لـــه صـــالحٍ إنـــك للخيـــل بمســـتمطرِ

والمتقارِب بحرٌ فيه رنَّةٌ ونغمة مطربة على شدةٍ مأنوسة، وهو أصلح للعنف منه للرفق، ومنه قصيدة بشامة بن عمرو:

هجـــرتَ أَمامـــةَ هجـــرًا طـــويلا وحمَّلـــك النـــأي عبـــأ ثقـــيلا

وقصيدة ربيعة بن مقروم:

مـــن آل هنـــد عرفـــت الرســـوما بجمـــران قفـــرًا أبـــت أن تريمـــا

والفرس يصرِّعونهُ كالرجز، وعليه نُظمت شهنامة الفردوسي.

والْمُحدَث أو متدارَك الأخفش بحرٌ أصابوا بتسميته الخبَب تشبيهًا له بخبب الخيل، فهو لا يصلح إلا لنكتة أو نغمة أو ما أشبه وصف زحف جيش أو وقع مطر أو سلاح، وهو قليل في الشعر القديم والحديث.

والرجَز ويسمُّونه حمار الشعر بحرٌ كان أولى بهم أن يسموهُ عالِم الشعر؛ لأنه لسهولة نظمه وقع عليه اختيار جميع العلماء الذين نظموا المتون العلمية كالنحو والفقه والمنطق والطب، فهو أسهل البحور في

النظم ولكنه يقصر عنها جميعًا في إيقاظ الشعائر، وإثارة العواطف، فيجود في وصف الوقائع البسيطة، وإيراد الأمثال والحكم.

تلك هي الأبحر العشرة التي نظمتُ عليها الإلياذة، فقد ترى النشيد كله بحرًا واحدًا، وقصيدة واحدة، وقد تتعدد فيه الأبحر والقصائد على مقتضى ما تراءى لي من سياق الكلام.

وأما الأبحر الستة الباقية وهي المضارع والمقتضب، والمجتثُّ، والهزَج، والمديد، والمنسرح فالأربعة الأولى منها لا تصلح لقصرها لمثل الإلياذة، ولا يجود نظمها في ما خلا الأناشيد والتواشيح الخفيفة، والمديد قل من ينظم عليه وهو ثقيل على السمع، والمنسرح لم يتفق لي نظمهُ في الإلياذة لغير سبب مقصود.

القوافي والأوزان اليونانية والإفرنجية

إذا سمع العربي لفظة «شعر» علم فورًا أن المراد به بالنظر إلى اللفظ الكلام المقفَّى الموزون، ورسخت في ذهنه القافية رسوخ الوزن، وليس الأمر على هذا الإطلاق في سائر اللغات إذ ليس في اليونانية ولغات الإفرنج أبحر وتفاعيل، فإنما هذه من خصائص لغة العرب، ومن حذا حذوهم من أبناء الشرق كالسريان، والفرس، والترك، وأما بنو الغرب، فلهم أقيسة وأوزان خاصةٌ بهم، فالقياس عبارة عن عد الأجزاء أو المقاطع التي يتألف منها الشطر أو البيت، والغالب فيها أن تكون اثني عشر مقطعًا، وهو ما يسمونه بالإسكندري نسبة إلى إسكندر دوبرناي، وهو أشبه شيء برجز العرب، وهذا القياس البسيط يقوم عند الإفرنج مقام جميع أبحر الشعر وتفاعليه عند العرب، وأما الإلياذة وما جرى مجراها من الشعر اليوناني ففيه الوزن تزيد أجزاؤُهُ وتنقص بحسب التفاعيل، فهناك أسباب خفيفة وثقيلة تتألف منها أوتاد مجموعة ومفروقة تقوم مقام التفاعيل العربية، والأساس في كل ذلك طول المقطع أو قصره، وكون حرف العلة القائم مقام الحركة في العربية ممدودًا أو غير ممدود، وبعبارة أخرى يراعى في المقام الأول موضع النبرة من اللفظة.

وأما القافية فليست من لوازم الشعر في كل اللغات، فالفرنسوية لا يصلح شعرها بدون قافية والإنجليزية فيها الشعر المقفَّى وغير المقفى،

ومثلها الإيطالية والألمانية، فبهذا الاعتبار نُقلت الإلياذة إلى لغات الإفرنج بالشعر المقفى كترجمة بوب، والشعر غير المقفى كترجمة مُنتي، وأما الأصل اليوناني فهو موزون غير مقَفًّى وقافية كل بيت قائمة بنفسها لا تراعي فيها المماثلة لأية قافية كانت من القصيدة أو النشيد.

القوافي في لغة العرب

والعربية لا يصلح شعرها بدون قافية؛ لأنها لغةٌ قياسية رنَّانة يجب أن يراعى فيها القياس والرنة، وفيها من القوافي المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره في سائر اللغات، فلا يسوغ لها أن تبرز عُطُلا مع توفر ذلك الحلي الشائق، فإذا اقتصر الإفرنج على صوغ شعره كالرجز العربي لكل شطرين قافيتان متناسبتان ينتقل منهما إلى غيرهم، واضطُرَّ إلى تكرارهما بعد حين أو لو اختار أن يعري شعره من القوافي بتاتًا، فعذره في ذلك أن لغته هكذا خُلقت، بل لو أجهد نفسه في مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة، والشاعر العربي بخلاف ذلك، فإن كثيرًا من ضروب القوافي تنهال عليه انهيال الغيث، وإذا انحبست فلا تنحبس إلا لقصر باع أو لقرع بابٍ ضيق أو لتجاوزه الحد في إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة.

تناسب القوافي والمعاني

وقوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع، ويفضله غيره في موضع آخر وحسبك دليلا أن جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي

دون البعض الآخر، وإذا نظم شاعرٌ واحد قصيدتين على بحرٍ واحد بمعنى واحد، ونَفَس واحد، فلا ريب أن القافية الغناء تميل بالسامع إلى إيثارها على أختها، ولا ريب أن اختيار قافية القصيدة أبعد مثالًا من اختيار بحرها، وذلك بنسبة ما يربو عدد القوافي على عدد البحور والمرجع في ذلك إلى سلامة الذوق وغزارة المادة، فالقريحة الجيدة في غنى عن أصول توضع لها بهذا المعنى لو فرضنا من الممكن وضع مثل هذه الأصول، فهي من نفسها تقع على القافية والبحر بلا جهد ولا تردد. ومع هذا فلا بأس من إيراد بعض ملاحظات تتراءى للناظم أثناء النظم، وللقارئ أثناء المطالعة.

الشعر كالنغم الموسيقي والقافية رستهُ أو قرارهُ، فحيثما جاد النغم وتناسق إلى منتهاه حسُن وقعه في الأذن وانشرح له الصدر، وطربت له النفس، فكل نغم أطرب أرباب الصناعة وذوي الأذن السمَّاعة، فهو الحسن، وهكذا الشعر فلا يحسن وقعه في نفوس قرائه وسامعيه ما لم يكن جيدًا، وقد يُستهان بالمعنى البليغ لضعف قافية أو وقوعها في غير موضعها.

القوافي الضيقة والثقيلة

وأول ما يجدر بالشاعر اجتناب القوافي الصعبة الضيقة، فإنه يُضطر معها إلى استعمال الكلام المنبوذ والوحشي المهمل، ويضيق في وجهه باب التصرف بالمعاني على ما يتصورها، فيعضل عليه النظم وعلى

قارئه الفهم، ولنضرب لذلك مثلًا نابغة من نوابغ الشعراء أبا الطيب المتنبي. فخذ قصيدته التي مطلعها:

أَمُسـاوِرٌ أم قـرن شـمسٍ هـذا أم ليـث غـاب يقـدم الأسـتاذا

وقابلها بمعظم شعره فيبدو لك من استغلاق العبارة والتكلف ما يحملك على الظن أنها ليست من نظمه لو لم تكن مثبتة في ديوانه، وإن أردت برهانًا أقرب فانظر في محبوكات صفي الدين الحلي، وكلها منظومة في باب واحد، واقرأ الثائية، والخائية والظائية، وإن كنت صبورًا جَلدًا فأتمم قراءتها من أولها إلى آخرها، وقل لي بعد ذلك رأيك فيها.

ففي مثل هذا المأذق الضيق يضطر الشاعر إلى اتخاذ جميع البيت تتمةً للقافية مع أن الغرض من القافية أن تكون تتمةً للبيت مندمجةً في معناه، فإذا كُره في القافية وهي كلمةٌ واحدة أن تكون حشوًا للبيت، فكم يُكره أن يكون جميع البيت حشوًا للقافية ما لم يكن مبنيًّا عليها لغرض مقصود.

رنة القافية

وكما أن العرب نظموا جميع المعاني على جميع البحور، فقد كان هذا شأنهم في القوافي، فلم يقيدوا قافيةً بباب من الأبواب، وخيرٌ للقوافي أن تبقى مطلقة يتخير منها الشاعر ما شاء فتأتيه أرسالًا، فإن سلم ذوقه جاءته منقادة طوعًا فحلَّت محلَّها، وإلا فلا يسلم الذوق كرهًا.

ولكنه يجوز للباحث أن يلقي نظره على منظومات الشعراء، ويمحصها بالنقد والمقابلة، فإذا فعلنا ذلك بدا لنا مثلا: أن القاف تجود في الشدة والحرب، والدال في الفخر والحماسة، والميم واللام في الوصف والخبر، والباء والراء في الغزل والنسيب، وإنما هو قولٌ إجمالي إذا صح من باب التغليب فلا يصح من باب الإطلاق؛ لأن مناحي التحول من نغمةٍ إلى أخرى في قافية الحرف الواحد أكثر من أن تحصى، فنغمة الراء مضمومة تختلف عنها مكسورةً ومفتوحة، وهي وما قبلها متحرك غيرُها وما قبلها ساكن أو ممدود بحرف علة، ورنَّتها في بحرٍ تختلف عنها في بحر آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

وغاية ما يقال في هذا الباب أن المعاني الشعرية كاللآلئ المنثورة لا مرشد إلى إحسان نظمها في سِمطها خيرٌ من سليقة الناظم، فإن جادت الصناعة بهرت البصر وإلا جاءت ركامًا بعضها فوق بعض، وذهب خلل بنائها بنضارة روائها.

جوازات الشعر

ليس المقام مقام بحثٍ في بيان اللغة وعروضها، ومع هذا فلا بد لي من إيراد نبذةٍ يسيرة في ما رأيت اجتنابه وإتيانه من الجوازات الشعرية؛ استتمامًا لبيان النهج الذي نهجته في التعريب.

لو أراد الشاعر أن يحتجَّ لكل خطأ يرتكبه في النظم بشاردةٍ من شوارد شعر العرب لما عدم سبيلًا إلى التخلص من معظم ما يتورط فيه

عجزًا وجهلا، على أن الطويل الباع القويم اليراع تأبي نفسه أن يتورَّك على شذوذٍ فارط وقِدْحٍ ساقط، ولو كان صاحبهما من شيوخ الشعراءِ كامرئِ القيس، وزهير بن أبي سلمى. فأيُّ شاعر مجيد يرتضي جزم المضارع بغير جازم بناءً على ورود ذلك في معلقة زهير بقوله:

وإنَّ سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلمِ

ومن يُقبل على إيراد المتنافرات في شعرهِ اقتداءً ببيت فذٍّ لامرئِ القيس إذ قال:

غدائرها مستشزراتٌ إلى العُلى تضلُّ العقاص في مثَّنى ومرسلِ

بل من يقدم اليوم على قبض مفاعيلن الأولى من أحد شطري الطويل كما جاء في الشطر الثاني من بيت امرئِ القيس بآخر لفظة «عقاص»، ومثله قول طرفة:

أَمونٍ كألواح الأران نصأَتها على لاحبٍ كأنه ظهر برجدِ

وقول الشنفري وقد قبضها في الشطر الأول:

غدا طاويًا يعارض الريح هافيًا يخوت بأذناب الشعاب ويعسلُ

ولا تخلو قصيدة من شعر الجاهليين من مثله، جاز لهم ذلك لنغمةٍ كانت لهم في تلاوة الشعر يضيع معها الفرق في الطويل بين مفاعيلن ومفاعلن، وليست للمولدين تلك النغمة إلا في شيءٍ من إنشاد أهل العراق، ويضارعهم بها الفرس في إنشاد الشعر العربي والفارسي إذ

يمرُّون على ياء مفاعيلن مرًّا خفيفًا، فلا يُشعر بحذفها إذا حُذِفت وقد يسكنون اللام ولا حرج.

وقد ضبط العروضيون جوازات الشعر، ولكنَّ لكل ناظم ضعفًا من وجه، فتكثر استباحتهُ في ضروبٍ لا يستبيحها غيره، ويمتنع الواحد عما لا ينكره الآخر؛ ولهذا رأيت أن أذكر ما أنكرت، وما لم أنكر من تلك الجوازات:

استبحت صرف ما لا ينصرف حيث اقتضاه الوزن بلا تكلف إلى منعه.

قصرت الممدود قليلا، ولم أستبح مد المقصور مطلقًا.

لم أصل المقطوع إلا بهمزة أنَّ بعد لو، ولم أقطع الموصول إلَّا في أول الشطر وهذا قليل جدًّا.

لم أشدد المخفف، ولم أخفف المشدَّد إلا إذا كان حرف قافية.

لم أسكن المتحرك إلا في ضمير الغائب والغائبة بعد الواو كما في «وَهُوَ» و«هيَ» ولم أحرك الساكن إلا حيث وجب تحريكهُ في الدرج لالتقاء الساكنين أو في القافية لإطلاقها، أو ما جاز تحريكه على الإطلاق كالميم اللاحقة بالضمير نحو «هُمْ» و«كُمْ».

لم أجتنب تحريك العلم المنادى إذا اقتضاه الوزن.

لم أستجز إخلاس حرفٍ في ما سوى «أنا» وحروف العلة الساقطة طبعًا بدرجِ الكلام قبل الساكن كالواو والياء في «أولو الحكمة» و«ذوي العلم».

لم أُشبع إلا ما جاز إشباعه كهاء الضمير الغائب الساكن ما قبلها نحو منه أو وجب كالهاء المذكورة المتحرك ما قبلها نحو «به».

سكَّنت في موضع أو موضعين السين الواقعة في آخر العلَم الأعجمي نحو أوذيس؛ مجاراةً لمن يحسب أن هذا الحرف مع ملازمته لأكثر تلك الأعلام يصح اعتباره حركةً بنفسه.

وأما ما فرط في كلام العرب من غريب المسوغات كمنع صرف المتصرف، وتذكير المؤنث، وتأنيث المذكَّر، وفك المدغم فيجب أن يعتبر شاذًّا، ولا يجوز أن يقتدى بشيءٍ منه.

عيوب القافية وسنادها

لا حاجة بي إلى تقبيح عيوب القافية كالإكفاء والإجازة، والإقواء والإصراف فإن صغار الطلبة لا يجمعون في قوافي القصيدة الواحدة بين «فالح وشامخ» أو «كمين وعميد» أو «رجُلُ وحَمَلِ» أو «رأسُ ونَفْسا» وإنما أقول كلمةً في السِّناد:

فمنه ما يجب نبذهُ مطلقًا كسناد التأسيس في الجمع بين المؤَسَّس وغير المؤَسَّس، كأن تكون قافيةٌ «بتصبَّر» وأخرى «يتظاهر».

ومنه المكروه، وإن ورد قليلا في شعر البلغاءَ كسناد الإشباع أي: الجمع في القوافي بين نحو «مكارِم» و«تفاقَم» باختلاف حركة الدخيل.

ويقرب من هذا سناد الرِّدف وهو أن يكون بيت مردفًا بحرف علة، وآخر غير مردف كالجمع بين «قوم» و«حلم» وهو أكثر ورودًا في الشعر الصحيح.

ومنه الجائز الشائع وهو سناد الحذو، وسناد التوجيه أي: اختلاف حركة ما قبل الروي بين الفتحة والضمة والكسرة نحو «قَدمُ» و«قَدَم» و«قَدِم».

وهذا النوع الأخير كثيرٌ في كلام النوابغ من المتقدمين والمتأخرين، ومع هذا فقد اجتنبت في تعريب الإلياذة جميع أنواع السناد جائزها ومكروهها.

تكرار القافية

وأما تكرار القافية فليس من مذهبي وإن أجازه العروضيون، فلم أستبحه في النظم، ولم أكرر قافيةً واحدة في كل الإلياذة بلفظها ومعناها طالت القصيدة أو قصرت، ولا يستثنى من ذلك إلا حيث تكررت الأبيات في الأصل، ووجب إعادة العبارة بنصها أو حيث كان النظم رجزًا أو متقاربًا مصرَّعًا، فهنالك كل بيت قائم بنفسه تتقطع القافية بانتهائه، فإذا اتفق تكرارها بعد أبيات، فكأنما هي واقعة في قصيدة أخرى.

التجنيس

لم أَتوخَّ التجنيس في شيءٍ من النقل بل ربما نبذته إذا ظهر منه ثِقَل أو تكلف، فإنهُ أسمج شيء في الشعر إذا تسقَّطه الشاعر تسقُّطًا.

قال لي صديقٌ من علية الأدباء، وقد جرى أمامه ذكر البيت القائل:

بالـدُّنا لا تطمعـن فـي مَصْـرِفي عنهمـا فضـلا بمـا فـي مِصْـرَفَيْ

هذا بيتٌ لشاعرٍ نفاخر به الشعراءَ، فوالله لو خُيِّرت بين أن أُشنق أو يُنسب لي هذا البيت لاخترت الشنق، ينبئك هذا بمبلغ الانقباض الذي تحدثه في النفس أمثال هذا التكلف، ومع هذا فقد أَثبتُّ ما جاءَ عفوًا في الكلام بلا تلمُّس مثال ذلك:

بهمـا النُّـورُ عـن الأرض ارتفـع وغمـامُ التبـر بـالنُّور سَـطَع

وحُبـاب القَطـر فـي أَكنافـهِ كحُبـوب الـدرِّ لـلأرض وقـعْ

ذلك هو النهج الذي آليت على نفسي أن أنهجهُ في كل الكتاب، وإني أبرأ إلى الله من العصمة، فإذا فرضت مني فارطةٌ على خلاف ما ذكرت، فإنما تلك هفوةٌ زلَّ بها القلم، وجلَّ ربك ولي العصمة والسداد.

ضروب النظم في التعريب

بقي عليَّ تتمةٌ لهذا الباب أن أذكر ضروب النظم التي جريت عليها في تعريب الكتاب:

رُبَّ مـن ترجـو بـه دفـع الأذى عنـك يأتيـك الأذى مـن قبلِـه

فقد يأتي الضرر من حيث يُرجى النفع، فإن اتساع القوافي في اللغة العربية من جملة أسباب التضييق على الشعراء إذ مهما طال الشاعر باعًا، فلا يأتي على عددٍ معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائغة؛ ولهذا كان من المستحيل نظم الألوف المؤلَّفة على قافية واحدة، وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصي في العربية، وإذا فرضنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال، فالأذن تملُّ توالي النغمة الواحدة لأطيب الألحان، فهذه تائية ابن الفارض الكبرى وقلَّ من يقرؤُها مع أن حفَّاظ شعره يعدُّون بالألوف كما أبنَّا في موضعٍ آخر، وإذا لجأنا إلى الرجز في مثل هذا السياق الطويل فلدينا من سائر البحور ما يفوقهُ جزالةً في بعض المواقف، وقوةً في مواقف أخرى.

زارني صديقٌ من نوابغ شعراءِ العصر، وقال: «بودِّي نظم الحادثة التاريخية الفلانية، وهي تستغرق نحو خمسمائة بيت في سياق واحد، وإنه ليعز عليَّ أن ألتزم قافيةً لمثل هذا العدد، ولا أحب أن أنظمها رجزًا، والمقام لا يؤذن بتقطيعها قصائد» قلت: وما قولك لو جعلتها نشيدًا مسبَّعًا أو مثمنًا لا تستعيد القافية فيها إلا مرةً كل بضعة أبيات، فتتخللها

قوافي أخرى تطيب لها نفس القارئ، فلا يَملُّها ويتسع لك المجال فتتخلص من العَسف والتكلف، فاستحسن وأظنه فعل.

ولهذا نوَّعت النظم على طرق شتى متبعًا الخطة التي تقدم بسطها، ومراعيًا لكل ضرب من ضروب النظم مقامًا حسبتهُ ينطبق عليه، فربما قطعت النشيد قصائد مختلفة، وربما نظمته قصيدة واحدة، ووسَّعت لنفسي في استنباط ضروبٍ غير مطروقة، ولكنني لم أخرج بشيءٍ منها عن أصول الشعر واللغة.

فاستعملت النظم الشائع من قصائد وتخاميس وأراجيز، وسلكت مسالك أخرى دعوتها بأسماء رأيتها تنطبق عليها وهي:

المثنّى

وفيه تبنى القصيدة على قافية يُرجع إليها في كل بيتين مرة، وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على نحو ما اصطلح عليه المتأَخرون في الرباعي أو الدوبيت الأعرج ومثاله:

لــو تربَّصــت والعجــاج اســتطارا	ونجيــعُ الــدماء ســال وفــارا
وتبصَّــرت بــابن تيــذِيُسٍ لــم	تــدرِ أيُّ الجيشــين منــه أغــارا
مستشـيطًا يـنقضُّ فـوق الأعـادي	ينهـب السـهل بـين عـادٍ وغـادِ
كخلـيج يضـيق بالسـيل مجـرا	ه فيستأصـل الجسـور الكبـارا

وهكذا إلى آخر القصيدة.

والمربَّع

ومثاله:

كسا الفجرُ وجهَ الأرض ثوبًا مزعفرًا وزفسُ أبو الأهوال في أرفع الذرى

على قمَّة الأَولِمْب تُصغي مهابةً لمنطِقِهِ الأربابُ أَلّف محضرا

فقال: «ليعلَم كلُّ ربٍ وربَّةٍ بما اليوم في صدري فؤادي أضمرا

فلا ينبذنَّ الأمر عاصٍ بل أذعنوا لأنفذ ما أبرمتُ أمرًا مقدَّرا

لنصرة أي القوم من يجر منكمُ يأوينَّ منكوبًا يخضبهُ الدمُ

وإلا فمن شُمَّ الأَلمب براحتي إلى الظلمات الدُّهْم يلقى ويُرجم

إلى حيث أبواب الحديد قد استوت على عَتَب الفولاذ والقعرُ مُظلمُ

إلى هوَّةٍ بين الجحيم وبينها مجالُ كأقصى الجوِّ عن أسفل الثرى

المثمَّن أو المربَّع المسمَّط

ومثاله:

قضيض الجيش مذ ذُعرا هزيمًا كالظبا نفرا

إلى إليون حيث هناك خلف حصاره انحصرا

يُجَفِّف في ظلال قلاعِه عَرَقًا به سجت

كتائبه ويروي غلَّة فيها قد استعرا

وراءَهُم الإخاءَة والجواشن في عواتقهم

جرَوا لكنَّ هكطورًا تربَّص يرقب القدرا

لدى أبواب إسكيًّا قضاء الشُّوَم ثبَّطه

وبابن أياك آفلّونُ أحدق يصدق الخبرا:

•••

«عـــلامَ وأنـــت مـــن بشـــرٍ جريـــت تجـــدُّ فـــي إثـــري

أتجهل أنني ربٌّ فثُرتَ بلاهب الشررِ

تركتَ هناك طروادًا تفرُّ إلى معاقلها

وجئت هنا فلا لا لن تفوز تعستُ بالظفر

فلستُ بمائتٍ أبدًا» فقال آخيل متقدًا

«أَزجَّاج السهام وشرَّ آل الخلد والكبرِ

أرى أنأيتني عن سورهم مكرًا وإلَّا كم

فتىً عضَّ الحضيض قبيل ما بحصاره استترا

والموشَّح المسبَّع

ومثاله:

مـا اشـتمل الفجـر بثـوب الجسـادْ مـــن يمّـــه يبـــرز فـــوق الـــبلاد

يرمقه معبودها والعبادْ

حتى انبرت دون الخلايا ثتيس في تحف الرب هفست تميس
فأبصرت آخيل فوق الثرى معانقًا فَطْرُقل واري الفؤَادْ

•••

يشهق بالعبرة هامي الجفون وحوله أصحابه يندبون

وسطهمُ حلَّت بتلك الشجون

ويده اجترَّت وقالت: ألا مهما طما الخطب وطمَّ البلا
دع ثمَّ فطْرقْل على الترب إذ في قدر الأرباب بالغيب بادْ

والموشح المثمَّن

ومثاله:

سار هكطور حثيثًا وأَتى باب إِسكيَّة والزَّان طليلْ
فتلقَّته نساءٌ وبنات منه علمًا تتقصَّى سائلاتْ

عن بنيهنَّ وإخوانٍ ثقاتْ

وبعول وأخلَّا فأمر أن يبادرن على ذاك الاثرْ

ويصلّين لأرباب البشرْ

علّها تدفع عنهن الأذى ولزاهي قصر فريام مضى

هو صرحٌ شيدَ بالنحت الجميلْ فــوق أبــواب رواق مســتطيلْ

•••

ضــمنهُ صــفٌ بــديع المنظــرِ غــرفٌ قــد بنيــت بــالمرمرِ

كلها خمسون مُلس الحجرِ

لبنــي فريــام شــيدت مضــجعا وثَــوت أزواجهــم فيهــا معــا

ويحاذيهن صفٌّ رُفعا

فيــه بالإينــاس والرغــد ثــوى مــعَ كــل ابنــةٍ الصــهر الحليــلْ

وفيه المنظومة مبنية على قافيتين، وهما هنا الألف المقصورة، واللام كما ترى وله لازمة في أوله يبنى عليها، وتؤَسَّس قافيته في ختام الدور الأول ببيتين، وأما في سائر الأدوار فببيت واحد.

والموضح المُردَف

ومثاله:

كـان نسـطورُ لـدى كـأسِ الشـراب مصــغيًّا يســمعُ عجًّــا واصــطخاب

فلمـا خـاوون قـال: «أفكـر فمـا علّــة يــنجمُ عــن قــرْع الحــرابْ

حولَ تلك الفُلك فِتيانُ الوحي نقعُهــم يعلــو مَــه لا تَبرَحــا

واشــربِ الخمــرة صــرفًا ريثمــا هِيكميــذا لــك تحمــي المِســبحا

وتنقي الجرح من هذا الخضاب

•••

وأنـا مـاضٍ أرى مـاذا جـرى بالسُّـرى وأقتـال تُرسـا أكبـرا

كـان ثرْسـيميذُ قـد غـادرَهُ مـؤْثِرًا تُـرْس أبيـهِ نسـطُرا

وعلـى رُمـحٍ طويـلٍ قبضـا بسـتان قـاطع صُـفرًا أضـا

وإلـى البـاب عـدا مستشـرفًا فلـهُ لاح القضـا أبَـيٌّ قضـا

بني الإغريق قد جلَّ المصابْ

والمستطرَد

وهو ما تبنى القصيدة فيه على قافيتين فأكثر، يُرجع إلى كل واحدة منها كلما استُطرِد إلى الموضوع الذي قيلت في أوله، مثال ذلك محاورة آخيل وفينكس فخطاب آخيل بقصيدة سينية من المثنى:

قـال آخيـل: «يـا أَذيـسُ المـؤانسْ لِـي فاسـمعْ فـإنني لا أَلابـسْ

لِـي مقـالٌ فلـن أحـولنَّ عنـه فعِـهِ واطـرَحنَّ عنـك الوسـاوسْ

مـن يقـلْ غيـرَ مـا تـيقَّن فِكـرا كـان عنـدي مـن الجحـيم أشـرَّا

فالـذي قـد أسـررتُ هـاكم جهـارًا لجميـع الإغريـق لسـتُ بنـاكسْ

وجواب فينكس بقصيدة رائية من المثنَّى أيضًا:

فاسـتتمَّ الحـديث والقـومُ طـرًّا بوُجـومِ خـالوا التصـلّب مُـرًّا

ثـم فِيـنكْس والـدموعُ هـوامٍ لاشـتدادِ الوبـالِ قـال مُصـرًّا

إن تكـنْ عـن تحـدُّم واحتـدادِ راغبًـا عـن لقـاءِ جـيش الأعـادي

وطلبتَ المآبَ يا ابني المُفدَّى	كيفَ ألقى على بعادِك صبرا

وهكذا فكلما تكلم أحدهما رجع إلى قافيته، وقد يقع هذا الاستطراد في غير الخطاب، والجواب كأن يكون بين الخبر والإنشاء أو غير ذلك مما يقتضيه المقام.

مصرّع المتقارب

وعلاوةً على ذلك استحسنت تصريع المتقارب كما فصَّلت في الفقرة الأولى من النشيد السادس بعد المطلع الآتي:

خلَتْ ساحة الحرب من كل ربٍّ	فعجَّ العجاجُ بطعنٍ وضربِ
فمن سِيمُوِيُس إلى زَنْشْسِ	قِراعٌ السيوفِ ومدُّ القِسي

مصرَّع الرجز ومقفَّاه

وجمعت في النشيد الثالث والعشرين بين مصرَّع الرجز ومقفَّاهُ التصريع للإنشاء والتقفية للخطاب، واتَّبعت هذا النسق في كل النشيد المذكور.

الإلياذة والشعر العربي

الشعر القديم

لقد يُعجز الباحث في تاريخ الشعر العربي أن يرجع ببحثه إلى ما وراء قرنٍ قبل الهجرة، وإن مُعظم ما عزاهُ بعض الكتَّاب إلى من تقدم

ذلك العهد ليس إلا من باب التخرُّص، فلا يصحُّ وضعهُ موضع ثقة بل يجب نبذهُ والحكم بأنهُ إنما وُضع لتتمة حديث أو تنميق رواية، وكأن فطرة العرب الشعرية تدفعهم إلى ترصيع كل روايةٍ من رواياتهم بأبياتٍ ينقلونها من حيثُ تيسر لهم النقل، وإن أعياهم ذلك عمدوا إلى وضع شيء مما تجود به قرائحهم؛ ولذلك كانت جميع تآليفهم مشحونةً بالشواهد الشعرية مما يجوز الحكم بصحة نقله وما لا يجوز، فإذا ساغ لنا الآن أن نقول بصحة مآخذ الشعر الجاهلي الحديث من المهلهل بن ربيعة إلى زهير بن أبي سلمى، فإنه قيل في زمنٍ كان فيه الشعر في إبانه، وسوق عكاظ في رَيْعانها، والحفَّاظ والرواة منبثون كأسلاك البرق يدوِّنون وينقلون، ويحرصون على ادِّخار مسموعهم ومحفوظهم، والقراءة مألوفة والكتابة معروفة، والشعر بمنزلةٍ يُحسد عليها فيُختزَن اختزان الدرِّ المنضود، ومع هذا فإن بعضهُ لا يخلو من النقد والشُّبُهات، ولكن من لنا بدليلٍ واحد يثبت صحة إسناد الشعر المرويِّ عن شعراء القبائل البائدة، وكهَّانها من طسم وجديس، وعاد وثمود، ومن ذا الذي يثق اليوم مثلًا أن مهدًا الكاهنة هي القائلة يوم أنذرت قوم عاد بالهلاك:

إنـي أرى وسـط السـحاب نـارا ... تنشـــر مـــن ضـــرامها الشـــرارا

يســـوقها قـــومٌ علـــى خيـــولٍ ... تهتـــف بالأصـــوات والصـــهيلِ

وهـي عـذابٌ يـآل عـادٍ فـاعلموا ... فوحِّـــدوا الله لكـــي مـــا تســـلموا

ثـــم اســـتجيروا بـــالنبي هـــودٍ ... نبـــــيِّ رب واحـــــدٍ معبـــــودِ

فقـد أتـاكم عـن قريـبٍ داهيـه فلـــيس نبقـــي مـــنكم مـــن باقيـــه

وأقلُّ ما يقال في هذه الأبيات أنها بلغةٍ ما قطُّ نطق بمثلها قوم عاد بل هي دون لغة بني الجاهلية المشهور شعرهم بيننا.

وليست أمثال هذه الرواية بالشيءِ المذكور إزاء الشعر العربي المنسوب إلى قدماءِ الأعاجم، ثم إلى آدم أبي البشر، وأمِّنا حواء ثم إلى الملائكة وإبليس وأشباه هذا مما هو غير خليق بالذكر، ولا يجدر بالكاتب أن يتكلف عناء الإشارة بإطراحه، على أنه يجب التنبيه أن جهابذة كتاب العرب عمومًا قد أنكروا على العامة القول بصحة إسناد هذه الروايات. ومن كلام ابن عباس: «من قال أن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله».

أصلهُ

لكن الكتُّاب كسائر الناس يندفعون بسائقة الطبيعة إلى التطلع إلى أصل كل مجهول، فلما بحث كتَّاب العرب في الشعر بحثوا في أصله، وجعل كلٌّ منهم يستخرج حجَّة مما يحسنه لهُ اجتهادهُ، فقال قائلٌ منهم: «أوَّلُ من هذَّبه عديُّ بن ربيعة، واستنبط من لقبه دليلًا فقال: إنه لقب بالمهلهل؛ لأنه أوَّل من هلهل الشعر وقصد القصائد، وقال الغزل». وذهب بعضهم إلى أن أول شعراء العرب هو ربيعة، وقيل بل هو مضر، وصعد آخرون إلى ما وراء ذلك الزمن بأحقاب، فقالوا بل هو عادٌ أبو

القبيلة المشهور، وقيل بل ثمود، وقيل بل حمير، وأمثال هذه الأقوال مما لا يتجاوز الأساطير الموضوعة ويأباه العقل، ويعجز النقل عن إثبات شيء منه.

على أنه إذا ثبت لدينا فساد هذه الروايات فلا يثبت مطلقًا أن العرب لم يقولوا الشعر قبل القرن الخامس للميلاد، فإن طبيعتهم وطبيعة بواديهم وحواضرهم كانتا لعهد الهجرة، وقبلها بقرنٍ على ما كانتا عليه قبل عشرات من القرون، فقد يصحُّ الفرض أن النهضة الشعرية كانت تتفاوت ارتقاء وارتخاء بين زمنٍ وزمن، ولكنه لا يصح القول أن جذوتها لم تلتهب إلا لهذا العهد القريب، فارتقاءُ بلاغة الشعر متقدمٌ على ارتقاء بلاغة النثر لملازمة الأفكار الشعرية للفطرة البشرية، وإذا كان الشعر مدوَّنًا قبل الإلياذة بعصور في لغات الهنود والمصريين، وبلادهم معتقلة بقيود الحضارة فما بالك بالعرب، وهم في بداوتهم وجاهليتهم يطوفون في عالم الخيال فلا قيد ولا عقال يطرقون البوادي والقفار، فينقرون فيها على ما شاءوا من الأوتار، ويسامرون النجوم فلا يستر الجو عنهم شيئًا من بهائها، وهم جميعًا بين هائم وهاجعٍ، وهاجمٍ ومدافعٍ، ومنافر ومفاخر، وكل تلك الأحوال تهيج السليقة الشعرية حتى في الأفئدة الخاملة، وهم هم اليوم في باديتهم أولئك الرعاة الغزاة منذ ألفي عام والشعر على تغير لغته وزوال إعرابه ما زال أنيسهم وسميرهم في الحل والترحال، وسيظل كذلك إلى ما شاء الله.

طموسه

لا ريب بعد ما تقدم أن الشعر العربي القديم دَرَسَ أثره، وطَمس خبره، وأن ما يُنقل منه لأيامنا حديث الوضع من مخترعات الكتَّاب، ولعله يأتي زمن يتوصل فيه الباحثون في عاديَّات الأيام الخوالي إلى اكتشاف شيءٍ مما قد يكون عُلِّق منه لغَرض، ولكن افتراض حصول ذلك قليل الجدوى بالنظر إلى لغة الشعر العربي من عهد شعراء الجاهلية المعروفين حتى يومنا؛ لأنه إذا وجد شيءٌ من الشعر الراقي إلى ما فوق القرن الرابع للميلاد، فإنما يكون بلغة غير لغة امرئ القيس، وإذا كانت لغة أصحاب المعلقات ونظائرها يُشكل فهمها على معظم قرَّاء العربية مع جميع القيود التي قيدت بها اللغة من عهدهم، فما يكون مبلغ فهمنا من لغة تلك العصور، ولا ضابط لها ولا قيد.

عُكاظ

وهو معلومٌ أيضًا أن منطوق لغة العرب كان يختلف ويتباعد بتباعد القبائل؛ ولهذا كثرت المترادفات في اللغة العربية إلى ما لا نظير لهُ في لغةٍ أخرى، ولو طال الأمد على تلك الفوضى، ولم تقم سوق عكاظ لباتت لغة العرب لغاتٍ لا يتفاهم أصحابها، وانفصلت كلٌّ منها عن الأخرى انفصال العربية عن شقيقتيها العبرية والسريانية، فلما عظُم شأن السوق العكاظية، وأخذ الشعراء يؤمُّونها من أطراف البلاد يتناشدون فيها، ويتنافسون كان معظم همهم انتقاء الألفاظ الفصيحة المشهورة عند

أكثر القبائل طمعًا بكثرة المستحسنين لشعرهم، فاشتركت الألفاظ وعمت التعابير المألوفة بين الجميع، فاتَّقت اللغة شر التفرق، وأمنت ألفاظها من التبعثر بين شتيت القبائل.

وقد كان ذلك شأن العرب في اختيار الفصيح من الكلام في نظائر عكاظ كذي المجاز في الجاهلية، ومِربد البصرة في الإسلام.

القرآن ولغة قريش

إذا ثبت أن لعكاظ ونظائرها فضلًا في تمحيص ألفاظ اللغة، فالفضل العظيم في استحيائها واستبقائها إنما هو للقرآن، فهو الذي أحكم تراكيبها، وأبدع في تنسيق أساليبها، وصعد بالبلاغة إلى أوج مراقيها، بل هو الذي جمع جامعتها، وهذَّب عبارتها، ولما ارتفع منار الدين الإسلامي كانت اللغة العربية تنتشر بانتشاره على وتيرةٍ واحدةٍ في مشارق الأرض ومغاربها، ولا عبرة بما كان يعتور لغة العامة من الركَّة واللكنة بمخالطة الأعاجم، ويُعد عهد الجم الغفير من الجالية العربية بالانقطاع عن أصولها، فإن القرآن كان ولا يزال رائد الكتَّاب يرجعون إليه في مواضع الإشكال، ويتمثلون بعبارته، ويتفقهون ببلاغته، فكان من مُعجزة حفظ اللغة العربية الفصحى على أسلوب واحد منذ ثلاثة عشر قرنًا مع تفرق حَفَظتها وتشتت المتكلمين بها.

وفضل القرآن على الشعر العربي يكاد يضاهي فضله على لسان العرب؛ لأن بلاغة التعبير تهيج الفطرة الشعرية سواءٌ كانت العبارة نثرًا أو

شعرًا؛ ولهذا كثر لفظ القائلين في أوائل الإسلام أن القرآن كلامٌ شعري، فجاءَت الآية بتكذيبهم وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ فلذلك أجمع أئمة العرب على أن الشعر لا يُعدُّ شعرًا ما لم يكن مقصودًا بالوزن، فإن جاءت العبارة موزونةً على غير قصد فليست من الشعر في شيء، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والحديث، فمن الآيات القرآنية فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ، ووَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، ولَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، ومن الحديث: «هل أنت إلا إصبعٌ دُمِيَت وفي سبيل الله ما لَقيَت».

وإنَّ للإفرنج اسلوبًا نثريًّا في الكتابة يتعمدون في تنميق العبارة بما لا يجوز إتيان مثلهِ في النثر البسيط، ويتوخَّون فيه إثارة العواطف والخوض في عالم الخيال، ومذهبهم فيه بخلاف مذهب العرب إذ يعدُّونه من فنون الشعر، وإن تجرَّد من القالب الشعري، ولم يقصد به الوزن والتقفية.

وإذا كان اللسان العربي خلوًا بعرف العرب من هذا النوع من الشعر، فإن في القرآن من البلاغة ما لم يجتمع لهُ نظير في نثرٍ ولا في شعر، فلا غرو إذن أن يكون هو الناهض بهذا اللسان، تلك النهضة التي وطَّدت أركان فصاحته، وهذَّبت مقول الشعراء حتى أَربَّت بلاغة التركيب وجزالة اللفظ في شعر المخضرمين والمولَّدين ممن أكثروا من تلاوته وسماعه على مثله في شعر من تقدمهم من فحول الشعر الجاهلي —

قال ابن خلدون: «وكلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقةً في البلاغة من كلام الجاهلية؛ لأنهم سمعوا القرآن، وحفظوه، وهو في أعلى طبقةٍ من البلاغة وحفظوا الحديث أيضًا؛ ولذلك نجد شعر حسَّان، والحطيئة، وجرير، والفرزدق، وذي الرمة والأحوص، وبشَّار أبلغ من شعر امرئ القيس، والنابغة، وعنترة، وابن كلثوم، وزُهَير ونحوهم».

وخلاصة القول أن لغة الأعراب في البادية، ومنطوق سائر العرب في حواضرهم ما زالا يتراوحان بين الصعود والهبوط، والتقارب والتباعُد حتى هذبهما شعراء عكاظ، وأتى القرآن فكان فيه القول الفصل والمنهج القويم، والحجة الكبرى والأساس الوطيد.

وإذ كانت عكاظ بين نخلة والطائف في الحجاز، ولقرَيش الحجاز منزلةٌ لا تعادلها منزلةٌ بين العرب، ولهم سدانة الكعبة كان الشعراء الوافدون من اليمن، وبادية الشام، وهضاب نجد، وبُرَق تهامة، وسائر أطراف البلاد العربية يتشبهون جهدهم بلغة قريش المُضرية، وكان إذ ذاك اللغة المعوَّل عليها بين أكثر قبائل الحجاز، ونجد فقويت وما لبثت أن فازت بالغلبة في منظوم الشعراء، ثم جاءَ القرآن فأحكمها ذلك الإحكام الذي يُدهش له الأعجمي فضلًا عن العربي، وهُجر ما سواها من لغات سائر القبائل في النثر والشعر إلا بقية من الأصول النحوية والاصطلاحات التركيبية.

وكانت لغة قريش تزداد رسوخًا في أذهان الشعراء وشيوعًا بين العرب كلما دانت قبيلةٌ منهم بالدين الإسلامي بعد سماع آي القرآن، ولا سيما بعد أن قام الشعراء القُرشيون فأخذوا بأطراف البلاغة، فكان لهم القِدح المعلَّى في الشعر كما كان لهم من قبل في رفعة القدر.

وهو غير خاف أنه كان لقريش بصرٌ في الشعر في الجاهلية، ومع هذا فلم تكن لهم فيه مقامات عالية ولم يرتفع شعراؤهم بطبقتهم إلى طبقة نوابغ الشعراء من سائر القبائل؛ لأن العرب كانت تقر لهم بالتقدم في كل شيء إلا الشعر، ولما استنهضتهم بلاغة القرآن، وأقبلوا على النظم وأجادوا فيه أيما إجادة، ونبغ منهم الفحول كعمرو بن أبي ربيعة كبيرهم والحارث بن خالد المخزومي، والعرجي، وأبو دهبل، وعبيد الله بن قيس الرقيات أقرَّت لهم العرب بالشعر أيضًا.

وأما سائر قراء العربية والمتكلمين بها بعد حين من ملل الأعاجم ممن دان بالدين الإسلامي أو انتشرت بينهم قبائل العرب، فما عرفوا إلا لغة القرآن والحديث، وما تبعهما من كتب الفقه وعلم الكلام مما استُمدَّ جميعًا منهما، ومعظم ذلك من لغة قُريش، وإذا رجعنا إلى علم النحو الذي يقوم عليه عماد التركيب والتعبير في اللغة رأينا أنه إنما نشأ بفضل القرآن؛ لأنه وُضع قبل كل شيء لضبط القراءات القرآنية، ثم لما كُتبت أسفار اللغة وسائر العلوم العربية وغير العربية كان القرآن والحديث مرجعًا للاستدلال على صحة التعبير، وإحكام التركيب، وضبط المفردات،

فكانت لغة قريش في كل ذلك هي اللغة السائدة؛ فحفظها الشعراء وأصبحت في شعر المخضرمين والمولَّدين أنقى منها في شعر أبناء الجاهلية إذ قلَّ الخليط فيها من سائر لغات العرب، وهكذا صارت لغة جميع كتَّاب العربية من عرب وأعاجم، ولا عبرة بما طرأ عليها من الخلل والانحطاط وزوال الإعراب بين عامَّة المتكلمين بها، فإن الفساد يتطرَّق بمرور الزمان إلى كل لسان، وحسب العربية مزيَّةٌ على سائر اللغات الحيَّة أنه ليس بينهنَّ لغةٌ غيرها حفظت أصول شعرها وكتابتها منذ أربعة عشر قرنًا، وبقيت واحدةً في جميع أطراف الأرض بين العرب وغير العرب، والمسلمين وغير المسلمين.

مقابلة بين لغة قريش المُضَرية ولغة الإلياذة اليونية وكيف عاشت الأولى وتلاشت الثانية

قد يُفهم من عنوان هذا الفصل أننا لا نقصد فيه المقابلة بين لسانَي العرب واليونان بالنظر إلى ما بينهما من الصلة أو الشبه والاختلاف في المنشأ والوضع والاشتقاق والتركيب، فتلك أمورٌ ليس هذا موضع البحث فيها، ولكنه لا بدَّ لنا من النظر إلى سبب تلاشي لغة الإلياذة لزمن يسير من استحكامها، وبقاء لغة قريش حيةً طوال هذا الدهر.

إن سنَّة النموِّ والتحول وتفرِّع الأصل الواحد إلى أصولٍ شتَّى تشمل اللغات كسائر المخلوقات، فقد قلنا: إن لسان العرب في

الجاهلية تفرق إلى فروع كاد كلٌ منها يقوم لغةً بنفسه، ويمتنع التفاهم بين أصحابه، فجاء القرآن وأزال الخلاف، وأوثق عرى الارتباط، فسادت اللغة القرشية، وهكذا كانت لغة قدماء اليونان فروعًا كثيرة مرجعها إلى فرعين كبيرين الدُّوري واليوني يتكلمهما سكان قلب بلاد اليونان ومستعمراتهم في صقلية وبعض بلاد إيطاليا وغيرها، فهما بمثابة لغة نجد عند العرب مع ما يتبعها من أطراف الحجاز. ويلحق بهما فرعٌ ثالث هو الأيولي، وكان لغة فريق من سكان آسيا الصغرى وتساليا وتوابعهما، فمنشآت فنداروس وثيوكريتس كانت باللغة الدورية، ومنظومات هوميروس وهسيودس كانت باللغة اليونيَّة، وإن بين اللغتين على تقاربهما فرقًا يضاهي نظيره بين لغات جنوبي الحجاز ونجد واليمن، وكلما كانت تمتد فتوحات اليونان ويكثر الاختلاط كان يطرأ على تينك اللغتين تغيرٌ يبعدهما عن وضعهما، وكان كلٌ من الشعراء والكتَّاب ينطق بلغة زمانه ومكانه حتى باتت لغة كل من بني الفرع الواحد تتميز عن الأخرى بالتعبير والتركيب، فاللغة اليونية مثلًا هي التي نطق بها هوميروس في أخريات القرن التاسع للميلاد، وهي التي كتب بها ثوكيذيذس وهيرودوتس في القرن الخامس وديموسنتينس في القرن الرابع، ومع هذا فالفرق بين لغتهم ولغته غير يسير بل قد تجد فرقًا بين لغة أبناء كل قرنٍ وآخر، حتى لقد ذهب كرتيوس في تاريخ اليونان إلى أنه في زمن الإسكندر لم يكن يحصل التفاهم بين المكدونيين واليونان، وقال فلوطرخوس: «إن فيلبس

وابنه الإسكندر جنحا إلى إيثار لغة جيرتهما على لغة قومهما فعدلا إليها في بلاطهما وبطانتهما».

وعلى الجملة فقد ظلّ هذا التغيُّر يتعاظم حتى باتت اللغة اليونانية الحديثة لغة قائمة بنفسها، ولها أصولٌ بعضها أقرب إلى اللغات الحديثة منها إلى لغة الإلياذة؛ ولهذا ترى نوابغ كتَّاب اليونان العصريين مع شدة ما بهم من الغيرة على إحياء اللغة اليونانية القديمة والتشبه بها في بعض ما ينشئون لم يغنهم كل ذلك عن نقل إلياذة هوميروس وأشباهها بالترجمة إلى اللغة اليونانية الحديثة، فكأنهما لغتان منفصلتان.

وأما العربية فليس هذا شأنها، فإن أصول اللغة ما زالت على ما نطق به شعراء الجاهلية، وغاية ما يشكل فهمه على قرَّائها مفرداتٌ لم تألفها العامة، ومترادفاتٌ متشابهات وتعابير غير مأنوسة في عصرنا.

ولكن التباعد بين لغات العامة محصورٌ في الكلام العامي، فالحجازي واليمني والنجدي، والعراقي، والمصري، والسوري، والمغربي، وإن اختلفت مصطلحاتهم في كل قطر من أقطارهم فهم جميعًا يكتبون بلغةٍ واحدة على أصول لا تختلف شيئًا بين إقليمٍ وإقليم، وجميع هذه الأصول مبنيَّةٌ على أصول لغة القرآن.

وإن اختلاف منطوق العامة غير خاصٍّ بالعربية، بل هو يتناول جميع اللغات الحية حتى إذا نظرت إلى أرقاهنَّ كالفرنسية والإنجليزية رأيت فرقًا بيِّنًا في كلام العامة بين منطوق أبناء قُطرٍ وقُطر، وإن اتحدت

أصول اللغة الفصيحة بين جميع الناطقين بها من أبناء تلك اللغة وغير أبنائها، وإذا رجعنا بالتخصيص إلى اليونانية الحديثة رأيناها على توحُّد لغتها الكتابية متشعِّبة فروعًا بمنطوق عامَّة أبنائها، فلغة أثينا غير لغة إكريت، وكلتاهما تختلفان عن لغات ساقس، وقبرس، وجزر الأرخبيل، وآسيا الصغرى.

وخلاصة ما تقدم أن اللغة العربية أطول اللغات الحيَّة عمرًا، وأقدمهن عهدًا والفضل في كل ذلك للقرآن، فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيودس على علوِّ منزلتهما لم تقم للغة اليونية دعامةً ثابتة حتى في بلادها، ولم تقوَ على مقاومة التيار الطبيعي، ولكن القرآن وطَّد أركان لغة قريش في بلادهم وأذاعها في جميع البلاد العربية، وسائر البلاد التي طال فيها عهد الاحتلال الإسلامي أو كثرت مخالطة العرب الضاربين في أقطار الأرض للجهاد والتجارة.

أطوار الشعر العربي

أو طبقات الشعراء بالنظر إلى أزمانهم ومزيَّة كل طبقة منهم

هذا بحثٌ لو تعمَّدنا الإفاضة فيه لاضطررنا إلى التثبت من أحوال كل عصرٍ من عصور العرب، والنظر في شئون الشعراء وطرائفهم وفنونهم، ومناحي نظمهم، والرجوع إلى مراميهم في شعرهم، وطرق معائشهم، وبيان أنواع اقتباسهم من الأعاجم واقتباس الأعاجم منهم بالنقل والملابسة إلى غير ذلك مما يؤَدي إلى تدوين سفر طويل، ومع

هذا فلا بد من أن نلمَّ بالموضوع إلمامًا إجماليًّا؛ لئلا يفوتنا استجماع أطراف الحديث الذي توخَّيناه، وعسى أن يكون لنا في مستقبل الزمن متَّسعٌ لإعادة النظر فيه أو ينهض إليه باحثٌ من أدبائنا، فيلجه من جميع أبوابه ويوفِّيه حقه بما لا يتيسر في هذا المقام.

من الكتَّاب من يقسم الشعراء بالنظر إلى أزمانهم إلى ثلاث طوائف أو طبقات أولها شعراء الجاهلية ثم المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ثم المولَّدون وهم سائر الشعراء، ومنهم من يزيد طبقةً رابعة وهي طائفة المحدثين، فيحصر المولّدين في فئة قليلة من أبناء أوائل الإسلام كالفرزدق وجرير والأخطل، ويجعل جميع من أتى بعدهم في عداد المحدثين.

وإننا ناحون في بحثنا نحو أصحاب التقسيم الأخير بالتسمية دون الترتيب، ومستدركون ما يجب استدراكه؛ لاختلاط الطبقات الثلاث الأولى بعضها ببعض وواضعون حدًّا فاصلًا بين كل طائفةٍ وأخرى، وباحثون في تماسك هذه الحلقات، وأسباب ترقي الشعر العربي حينًا من الدهر، ثم انحطاطه في كلام المحدثين حتى أيام النهضة الأخيرة غير مغفلين في كل ذلك أوجه المقابلة مع منظوم صاحب الإلياذة.

النهضة الجاهلية

ليس بالأمر السهل تعيين الزمن الذي بدأت فيه نهضة الجاهليين لاندثار منظوم الشعراء مما تقدم على الشطر الأخير من القرن الخامس

للميلاد أو ما تقدم على الهجرة بقرنٍ ونصف قرن، على أنه لا ريب أن النهضة الجاهلية المتصلة بالإسلام بدأت قبل الهجرة بقرنين أو أكثر؛ لأننا إذا قرأنا شعر المهلهل والشنفرى، والمثقَّب العبدي والبراق بن رَوحان، وغيرهم ممن تقدم على الهجرة زهاء قرن وربع أو ما يُنيف رأينا فيه من البلاغة وحسن الانسجام ما لا يجوز الحكم معه أنهم كانوا في طليعة شعراء العرب بل لا بد من أن يكونوا نسجوا على منوال نوابغ سبقوهم، ولكن لنا من وجه آخر مساغًا للحكم أن تلك النهضة لم تستحكم إلا في القرن الأول قبل الهجرة، ولم تبلغ أوج علاجها إلا في بضعة عقودٍ من السنين الملاصقة للإسلام، ودليلنا على ذلك أن شعر مُعظم المتأخرين في الجاهلية كلبيد بن ربيعة، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة العبسي، والأعشى، والنابغة الذبياني أرقى من شعر معظم المتقدمين عليهم في الزمن كالبراق وأبي دؤاد، والحارث بن عباد وأمثالهم، ولا يضعف هذا الحكم نبوغ بعض المتوسطين بين الفريقين كامرئ القيس، وطرَفة بن العبد، والحارث بن حلِزة اليشكري، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم ممن لاصق الأوَّلين، ونبغ في منتصف القرن السادس للميلاد فكانوا نبراس تلك النهضة، وقادة زمامها إذ يتيسر لنا بهذا الاعتبار أن نعين زمن استحكام النزعة الشعرية في نحو ذلك العهد أي: سنة **٥٣٢** للميلاد أو قبل الهجرة بتسعين عامًا، وهو زمن نبوغ امرئ القيس أول أبناءِ الفريق المتوسط بين متقدمي الجاهليين ومتأخريهم.

ومما يؤيد هذا القول أن كتَّاب العرب قَسَّموا الشعراء إلى طبقات باعتبار جودة الشعر، كما قسموهم إلى طبقات بالنظر إلى التاريخ، فجعلوا أصحاب الطبقة الأولى من متأخري الجاهليين ومتوسطيهم كأصحاب المعلقات جميعًا، والنابغة، والأعشى الأسدي، وعديٍّ بن زيد، وعبيد بن الأبرص، وأميَّة بن أبي الصلت، وعدُّوا سائر من تقدمهم في الطبقة الثانية إلا المهلهل، فإنهم اختلفوا بين أن يكون من الثانية أو الأولى.

الحدُ الفاصل بين شعراء الجاهلية والمخضرمين

إذا حسبنا لاستحكام النزعة الشعرية الجاهلية تسعين عامًا، وجعلنا طليعتها امرأ القيس، فإننا نحسب لطور الشعر الجاهلي بأسره مئة وخمسين عامًا أولها سنة ٤٧٢ للميلاد وآخرها سنة الهجرة النبوية، وزعيم جنده عديُّ بن ربيعة الملقَّب بالمهلهل، وهو معلومٌ أن بعض شعراء الجاهلية أدركوا صدر الإسلام، وماتوا في زمن النبي كزهير، وهو الذي قيل فيه أن النبي نظر إليه يومًا وعمره مئة سنة، فقال: «اللهمَّ أعذني من شيطانه» قيل فما قال بعد ذلك شيئًا من الشعر، ومنهم من مات في زمن الخلفاء الراشدين كعمرو بن معدي كرب، ومنهم من عمَّر حتى انقضت دولة الراشدين، وقامت دولة بني أمية؛ كلبيد المتوفي في خلافة معاوية، وعمره على ما قيل مائة وخمس وأربعون سنة، فأمثال

هؤلاء يحصل الإشكال في تعيين طبقتهم، فتلتبس بين طائفتي الجاهليين والمخضرمين.

وقد قيل في تفسير المخضرم هو من ذهب نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام، أو هو من أدرك الجاهلية والإسلام على الإطلاق تشبيهًا بالناقة المخضرمة التي قُطع طرف أذنها كأن ما ذهب من عمره في الجاهلية ساقطٌ لا يعتدُّ به، وقلَّ من ينطبق عليه القول الأول من فحول شعراء الجاهلية كلبيد العامري الذي عمَّر طويلًا في الجاهلية والإسلام، وأما الذين أدركوا الجاهلية والإسلام فكثيرون؛ كزهير، والخنساء، والحطيئة ممن نبغ في الجاهلية، وأبى ذؤيب العجلي، وكعب بن زهير، وحسَّان بن ثابت ممن نبغ في الإسلام؛ ولهذا نظر البعض في تعيين الطبقة إلى القرب والبعد من الإسلام، فكان زهير عندهم جاهليًّا، ولبيد مخضرمًا، وربما وضعوا لبيد في طبقتين، فقالوا: «هو جاهلي ومخضرم» وعندنا أنه إذا صح أحد هذين القولين بالنظر إلى الشاعر وصفته، فلا يصحُّ شيءٌ منهما بالنظر إلى الشعر وصبغته، وإلا لوجب أن نجعل معظم المخضرمين في طبقة الجاهليين أيضًا، فتختلط الطبقتان مع أن لكل منهما مزيَّةً خاصةً بها على ما سنبينه في ما يلي.

فلذلك وجب اعتبار الصبغة الشعرية في أقوال أمثال هؤلاء، فمن قال الشعر قليلًا في الإسلام أو لم يقله عُدَّ جاهليًّا كزهير، ومن ربا قوله في الإسلام بعد أن أسلم وحفظ القرآن ككعب ابنه فهو مخضرم، ويقال

مثل ذلك في حسَّان بن ثابت شاعر النبي فهو زعيم المخضرمين، وإن قضى نصف عمره في الجاهلية، وقال فيها الشعر الحسن.

على إنني لا أعلم بأي مساغٍ يُعدُّ لبيد والخنساء من المخضرمين، فأما لبيد فإن جميع شعره ولا سيما معلقته من لباب الشعر الجاهلي، ولم يرووا له في الإسلام إلا بيته القائل:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

وقيل: إن الخليفة عمر استنشده أيام خلافته من شعره، فانطلق وكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها، وقال: «أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر» فسُرَّ عمر بجوابه، وأجزل عليه العطاءَ.

وأما الخنساء فجميع شعرها قبل الإسلام وبعده فخرٌ ورثاءٌ، ونفسه واحدٌ وصبغته واحدةٌ، وكله جاهليٌّ ولا وجه لعدها بين المخضرمين إلا أن نحسب من الشعر حماسياتها النثرية المسجَّعة كقولها لأبنائها يوم وقعة القادسية: «يا بنيَّ إنك أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما هجنت حسبكم، ولا غيَّرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية، اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجلّلت نارًا على

أرواقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها، تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة».

فإن في هذا الكلام مسحةً من بلاغة المخضرمين، ولكننا قد قدمنا أن العرب لا تعد هذا الكلام من الشعر في شيء؛ لأنه غير مصوغ في القالب الشعري، وإن كانت معانيه شعرية، فالخنساء ولبيد وأمثالهما في عُرْفِنا يجب أن يعدوا من شعراء الجاهلية بالنظر إلى شعرهم، وإن صح أن يُحسبوا من المخضرمين بالنظر إلى امتداد حياتهم.

وهو ثابتٌ أيضًا أنه في أوائل الإسلام حصلت فترةٌ في الشعر، فاسكتت الشعراء ثم هبُّوا إليه هبَّة جديدة، وألبسوه ثوبًا قشيبًا، قال ابن خلدون: «إن الشعر كان ديوانًا للعرب فيه علومهم وأخبارهم، وكان رؤساء العرب ينافسون فيه، وكانوا يقفون في سوق عكاظ لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشبان وأهل البصر، حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فسكتوا عن الخوض فيه زمانًا ثم استقر ذلك، وأونس الرشد في الملة، ولم ينزل الوحي في تحريمه وسمعه النبي، وأثاب عليه فرجعوا إلى دينهم منه».

فهذه الفترة التي ذكرها ابن خلدون وغيره من مؤَرخي العرب هي الحدُّ الفاصل بين الطَّور الأول والطَّور الثاني من أطوار الشعر العربي،

فجميع ما تقدمها شعرٌ جاهلي، ويلحق به قليلٌ مما تأخر عنها من قول شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام وأسلموا، وبقي شعرهم على صبغته الجاهلية الصرفة كعبدة بن الطبيب كلما سنثبت في الفصل التالي بإيراد مثالٍ من شعره في الإسلام.

الطبقة الأولى أو شعراء الجاهلية

خاض العرب في الجاهلية عباب بحر الشعر، وولجوا كلَّ بابٍ من أبوابه فوصفوا وترسلوا، وتغنَّوا وتغزَّلوا، ومدحوا وهجوا، ورثَوا ودونوا الأخبار، وضربوا الأمثال ووضعوا الحكم، وتنافروا وتفاخروا وشاعرهم مندفعٌ في كل ذلك بسائقة الطبيعة يفكر في محسوسٍ بين يديه، ومنظورٍ أمام عينيه، وعاطفةٍ بين جنبيه، وشعيرةٍ تختلج في صدره، وصورةٍ مرسومةٍ في مخيلته منعكسةٍ عن طرُق معيشته وفطرته. لا يتطلَّع إلى ما وراءَها ولا يتكلف الزخرفَ والتنميق.

وكانوا يسددون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يخطئونها، ويقولون الشعر عن شعورٍ حيٍّ، ولا يتخطَّون إلى ما وراء مشهودهم ومعقولهم فجاءَ شعرهم مثالًا صادقًا لبداوتهم وحضارتهم، حتى لو اندثرت جميع أخبارهم وآثارهم، وما بقي إلا شيءٌ من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفًا كاملًا لجميع أحوالهم كما استخرج الباحثون كثيرًا من غوامض جاهلية اليونان من شعر هوميروس.

ويسري هذا الحكم على جميع شعراء الجاهلية من عبدة الأوثان واليهود والنصارى، ومن أدرك الإسلام وأسلم أو لم يسلم، وهم في ذلك سواءٌ في اليمن ونجد، والحجاز، والعراق وبوادي الشام، وسائر أطراف بلاد العرب، فالشاعر منهم إما بدويٌّ عريقٌ في البداوة، وإما حضريٌ لاصقٌ بأبناءِ البادية، وكلاهما متخلقٌ بأخلاق الجاهلية ينزع إلى رسم الحقيقة رسمًا ناطقًا، فإذا روى حادثةً بسطها بسطًا جليًّا، وألمَّ بها إلمامًا واضحًا يغنيك عن التخرص والتنقيب نظير ما فعل هوميروس في إيراد كل حوادثه، وإليك مثالًا قول المهلهل بعد وقعة السلَّان إذ حضرها مع أخيه كُليب، وفرَّ ابن عنق الحية من وجهها:

لو كان ناهٍ لابنِ حيَّة زاجرًا	لنهاهُ ذَا عن وَقْعةِ السُّلَّان
يومٌ لنا كانت رئاسةُ اهلهِ	دون القبائل من بني عدنانِ
غصبت معَدٌّ غثُّها وسمينُها	فِيهِ مُمالاة على غسَّان
فأزالهم عنَّا كُليبٌ بطعنةٍ	في عَمْرِ بابلَ من بني قحطانِ
ولقد مضى عنها ابن حيَّة مُدْبرًا	تحتَ العجاجةِ ولحُتوفُ دوانِ
لما رآنا بالكُلابِ كأننا	أسدٌ مَلاوِثَةٌ على خفَّانِ
ترَكَ التي سحبت عليه ذيولها	تحت العجاج بذلّةٍ وهوانِ
ونجا بمهجتهِ وأَسلمَ قوْمَهُ	مُتسرْبلينَ وواعِف المرَّانِ
يمشون في حلَقِ الحديدِ كأنهم	جُربُ الجمال طُلينَ بالقطرانِ

نِعـمَ الفـوارِس لا فـوارسٌ مـذحجٍ		يـومَ الهيـاجِ ولا بنـو هَمـدانِ
هزمـوا العِـدَاةَ بكـل أسـمرَ مـارنٍ		ومُهنَّـدٍ مثـل الغـدير يمـاني

وإذا وصف شيئًا فإنه يستجليه على علَّته، ويستتم تبيان حالته على طبيعته كقول عبدة بن الطبيب يصف ناقته ويشبهها بالثور الوحشي المتذعر أمام الكلاب:

تَرَى الْحَصَى مُشْفَترًّا عن مَنَاسِمِهَا		كمـا تُجلْجِـلُ بالوَغْـلِ الغَرابِيـلُ٥٨
كأنَّهـا يـومَ وِرْدِ القـوم خامِسَـةً		مُسافِرٌ أَشْعَبُ الرَّوْقَيْنِ مَكْحُولُ٥٩
مُجْتـابُ نِصْـعٍ جَدِيـدٍ فَـوْقَ نُقْبَتِـهِ		ولِلْقَـوَائِمِ مـن خـال سـراويل٦٠
مُسَـقَّعُ الوَجْـهِ فـي أَرْسـاغِهِ خَـدَمٌ		وفوقَ ذاكَ إِلى الكَعبَيْنِ تَحْجيلُ٦١
بَـاكَرَهُ قـانِصٌ يَسْـعَى بأَكْلُبِـهِ		كأَنَّهُ مِن صِلاَءِ الشَّمْسِ مَمْلُولُ٦٢
يَـأْوِي إِلـى سَـلْفَعٍ شَـعْثَاءَ عارِيَـةٍ		في حِجْرِها تَوْلَبٌ كالقِرْدِ مَهْزُولُ٦٣
يشـلي ضـوراي أَشْـباهًا مُجَوَّعَـةً		فلـيس منهـا إذا أَمْكَـنَّ تَهْلِيـلُ٦٤
يَتْـبَعْنَ أَشْعَثَ كَالسِّرْحانِ مُنْصَلِتًا		لـهُ علـيهنَّ قِيـدَ الـرُّمْحِ تَمْهِيـلُ ٦٥
فَضَـمَّهُنَّ قلـيلًا ثـمَّ هـاجَ بهـا		سُـفْعٌ بآذَانِهـا شَـيْنٌ وَتَنْكِيـلُ٦٦
فاسْتَثْبَتَ الرَّوْعُ في إِنْسِانِ صادِقةٍ		لـم تَجْرِ من رَمدٍ فيها المَلاَمِيلُ٦٧
فانْصَاعَ وانْصَعْنَ يَهْفُو كُلّها سَدِكٌ		كـأَنَّهنَّ مـن الضُّـمْرِ المَزَاجِيـلُ٦٨
فـانْقَضَّ يَـنْفُضُ مَـدْرِيَّيْنِ قـد عَتُقَـا		مُخَاوِضٌ غَمَرَاتِ الموتِ مَخْذُولُ٦٩
شَـرْوَى شَـبِيهَيْن مَكْرُوبًـا كُعُوبُهُمـا		في الجَنْبَتَيْن وفي الأَطْرافِ تأْسِيلُ٧٠

كِلاَهمـا يَبْتَغِـي نَهْـكَ القِتَـال بـهِ | إنَّ السِّلاَحَ غَدَاةَ الرَّوْعِ مَحْمولُ ٧١
يُخَالِسُ الطِّعْنَ إيشاغًا على دَهَشٍ | بِسَلْهَبٍ سِنْخُهُ في الشَّأْنِ مَمْطُولُ[٧٢]
حتَّى إذا مَضَّ طَعْنًا في جَواشِنِها | ورَوْقُـهُ مـن دم الأجـواف مَعْلُـولُ ٧٣
وَلَّى وَصُرِّعْنَ في حَيْثُ اَلْتَبَسْنَ به | مُضَــرَّجاتٌ بـأَجْرَاحٍ ومَقْتُـولُ
كأَنَّـه بعْـدَ مـا جَـدَّ النَّجَـاء بـهِ | سَـيْفٌ جَـلاَ حَـدّه الأَصْـنَاعُ مَسْـلُولُ
مُسـتَقْبِلَ الـرِّيحِ يَهْفُـو وَهْـوَ مُبْتَرِكٌ | لسانُهُ عن شِمالِ الشِّدْقِ مَعْدُولُ ٧٤
يَخْفِـي التُّـرَابَ بـأَظْلافٍ ثمانيـةٍ | في أَرْبَعٍ مَسُّهُنَّ الأَرْضَ تَحليـلُ ٧٥
لـهُ جنَابـانِ مِـن نَقْـعٍ يُثَـوِّرُهُ | فَفَرْجُهُ مِن حَصَى المَعْزَاءِ مَكْلُولُ ٧٦

وهذا الشعر وإن كان مقولًا في أوائل الإسلام، فقائلهُ جاهليٌّ وليس في شعر أبناء الجاهلية ما يفوقه تمثيلًا لنزعتهم الشعرية، ومثله قول بشر بن عوانة في الأسد:

أَفَـاطِمُ لَـوْ شَـهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ | وَقَـدْ لاَقَـى الهِزَبْـرُ أَخَـاكِ بِشْـرَا ٧٧
إِذًا لَرَأَيْـتِ لَيْثًـا زَارَ لَيْثًـا | هِزَبْـرا أَغْلَبًـا لاقـى هِزَبْـرَا ٧٨
تَبَهْـنَسَ ثـم أحجـم عَنْـهُ مُهْـرِي | مُحَـاذَرَةً، فَقُلْـتُ: عُقِـرْتَ مُهْـرَا ٧٩
أَنِـلْ قَـدَمَيَّ ظَهْـرَ الأَرْضِ إِنِّـي | رَأَيْـتُ الأَرْضَ أَثْبَـتَ مِنْـكَ ظَهْـرَا
وَقُلْـتُ لَـهُ وَقَـدْ أَبْـدَى نِصـالًا | مُحَـدَّدَةً وَوَجْهًـا مُكْفَهِـرَّا
يُكَفْكِـفُ غِيلَـةً إِحْـدَى يَدَيْـهِ | وَيَبْسُـطُ لِلْوُثُـوبِ عَلَـيَّ أُخْـرَى

يُـــدِلّ بِمِخْلَـــبٍ وَبِحَـــدِّ نَـــابٍ وَباللَّحَظـــاتِ تَحْسَـــبُهُنَّ جَمْـــرَا

وَفـي يُمْنَـايَ مَاضِـي الحَـدِّ أَبْقَـى بِمَضْـــرِبِهِ قِـــراعُ المَـــوتِ أَثْـــرَا

أَلَـمْ يَبْلُغْـكَ مَـا فَعَلَـتْ ظُبـاهُ بِكَاظِمَـــةٍ غَـــدَاةَ لَقِيـــتَ عَمْـــرَا

وَقَلْبِي مِثْـلُ قَلْبِـكَ لَـيْسَ يَخْشَـى مُصَـــاوَلَةً فَكَيْـــفَ يَخَـــافُ ذَعْـــرَا؟!

وَأَنْـــتَ تَـــرُومُ الأَشْـــبَالِ قُوتًـــا وَأَطْلُـــبُ لابْنَـــةِ الأَعْمـــامِ مَهْـــرَا

فَفِـــيمَ تَسُـــومُ مِثْلـــي أَنْ يُـــوَلِّي وَيَجْعَـلَ فـي يَـدَيْكَ الـنَّفْسَ قَسْـرَا؟

نَصَحْتُكَ فَـالْتَمِسْ يـا لَيْـثُ غَيْـرِي طَعَامًـــا؛ إِنَّ لَحْمِـــي كَـــانَ مُـــرَّا

فَلَمَّـا ظَـنَّ أَنَّ الغِـشَّ نُصْـحِي وَخـــالَفَنِي كَـــأَنِي قُلْـــتُ هُجْـــرَا

مَشَـى وَمَشَـيْتُ مِـنْ أَسَـدَيْنَ رَامـا مَرَامًـــا كَـــانَ إِذْ طَلَبَـــاهُ وَعْـــرَا

هَـزَزْتُ لَـهُ الحُسَـامَ فَخِلْـتُ أَنِّـي سَـــلَلْتُ بِـــهِ لَـــدَى الظَّلْمـــاءِ فَجْـــرَا

وَجُـــدْتُ لَـــهُ بِجَائِشَـــةٍ أَرَتْـــهُ بِـــأَنْ كَذَبَتْـــهُ مَـــا مَنَّتْـــهُ غَـــدْرَا ٨٠

وَأَطْلَقْـــتُ المَهَنَّـــد مِـــنْ يَمِينِـــي فَقَـــدَّ لَـــهُ مِـــنَ الأَضْـــلاَعِ عَشْـــرَا

فَخَـــرَّ مُجَـــدَّلًا بِـــدَمٍ كَـــأنيَّ هَـــدَمْتُ بِـــهِ بِنـــاءً مُشْـــمَخِرا

وَقُلْـــتُ لَـــهُ يَعِـــزُّ عَلَـــي أَنِّـــي قَتَلْـــتُ مُنَاسِـــبي جَلَـــدًا وَفَخْـــرَا

وَلَكِـــنْ رُمْـــتَ شَـــيْئًا لَـــمْ يَرُمْـــهُ سِـــوَاكَ، فَلَـــمْ أُطِـــقْ يالَيْـــثُ صَـــبْرَا

تُحـــاوِلُ أَنْ تُعَلِّمنِـــي فِـــرَارًا! لَعَمْـــرُ أَبِيـــكَ قَـــدْ حَاوَلْـــتَ نُكْـــرَا

فَـلاَ تَجْـزَعْ فَقَـدْ لاقَيْـتَ حُـرًّا يُحَـــاذِرُ أَنْ يُعَـــابَ فَمُـــتَّ حُـــرًّا

فَـإِنْ تَـكُ قَـدْ قُتِلْـتَ فَلَـيْسَ عَـارًا فَقَـــدْ لاَقَيْـــتَ ذا طَـــرَفَيْن حُـــرًّا

وهذا هو بالنفس نسق هوميروس في استتمام مزايا موصوفاته، وإن هذه الإفاضة في التمثيل ضعفت كثيرًا في شعر المخضرمين ومن وليهم.

وقد كان ذلك أسلوب الجاهليين في جميع ما مثَّلوه بشعرهم مما يتناول أحوال الحرب والسلم، والعادة والخلق، والمعيشة في الإقامة والتسيار.

وإذ كان محسوسهم خشنًا ومطالعاتهم غير ممتدَّة كثيرًا إلى ما وراء الحروب، وأخبار القبائل كان معظم شعرهم في ما وافق ذلك المحسوس وتلك المطالعات، فأَفاضوا في وصف البوادي والقفار، وأكثروا من وصف معيشتهم وأحوالها ومدح الكرم والوفاء وقرى الضيف، وأسهبوا في ذكر ما لديهم وحواليهم من سلاح وخيلٍ وإبل، وما أشبه من معدَّات زمانهم ومكانهم.

ومع هذا فإن لغتهم وإن كانت فيها شيء كثير من خشونة معيشتهم، فقد كانت متسعة للغرام، والحِكَم الرائعة، والحماسة ووصف الشعائر والأخلاق، فتلك جميعها أمورٌ منطبعة في فطرة الجاهلي انطباعيًّا في نفوس أعرق الخلق في الحضارة، بل ربما كانت أصفى وأنقى في أذهان أبناءِ البادية، فأيُّ شعر في الفخر والحماسة أسمى من قول السموأل:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللّؤْمِ عِرْضُهُ   فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمل عَلَى النَّفسِ ضيمها فَلَـيْسَ إِلَـى حُسْـنِ الثَّنَـاءِ سَـبِيلُ

تُعَيِّرُنَـــا أنَّـــا قليـــلٌ عديـــدنا فقلـت لهـا إنَّ الكـرامَ قليـلُ

ومـا قـلَّ مـن كانـت بقايـاه مثلنـا شـبابٌ تسـامى للعلـى وكهـولُ

ومـا ضَـرَّنَا أنَّـا قليـلٌ وجارنـا عزيـزٌ وجـار الأكثـرين ذليـلُ

لنـا جبـل يحتلـه مـن نجيـره منيـع يـرد الطّـرف وَهُـوَ كليـلُ

رسـا أَصـله تَحـت الثـرى وسـما بِـهِ إِلَـى الـنَّجْم فـرع لَا ينَـال طَوِيـلُ

هـو الأبلـق الفـرد الـذي شـاع ذكـرهُ يعـزُّ علـي مـن رامـه ويطـولُ

وَإِنَّـا لقـوم مَـا نـرى الْقَتْـل سُـبَّة إذا مَـا رَأَتْـهُ عَـامر وسـلولُ

يقـرب حـب الْمَـوْت آجالنـا لنـا وتكرهـه آجـالهم فتطـولُ

وَمَـا مَـاتَ منـا سـيد حتـف أَنفـه وَلَا طـل منـا حَيْـثُ كَـانَ قَتِيـلُ

تسـيل علـى حـد الظبـات نفوسـنا وَلَيْسَت على غير الظبات تسيلُ

صُـفُونا فَلـم نكـدر وأخلـص سـرنا إنـاث أطابـت حملنَـا وفحـولُ

علونـا إلـى خيـر الظهـور وحطنـا لوقـتٍ إلـى خيـر البطـون نـزولُ

فـنحن كمـاء المـزن مـا فـي نصـابنا كَهَـامٌ ولا فينـا يُعَـدُّ بخيـلُ

وننكـر إن شـئنا علـى النـاس قـولهم ولا ينكـرون القـول حـين نقـولُ

إذا سـيدٌ منَّـا خـلا قـام سـيدٌ قئـولٌ لمـا قـال الكـرام فعـولُ

ومـا أخمـدت نـارٌ لنـا دون طـارقٍ ولا ذمَّنـا فـي النـازلين نزيـلُ

وأيامنــــا مشــــهورةٌ فــــي عــــدونا   لهــا غــررٌ معلومــة وحجــولُ

وأســيافنا فــي كــل شــرقٍ ومغــربٍ   بهــا مــن قــراع الــدارعين فلــولُ

مُعَــــوَّدَةٌ أن لا تســــلَّ نصــــالها   فتُغْمَــد حتَّــى يُسْــتَبَاح قتيــلُ

سـلِي إن جهلـتِ النـاس عنـا وعـنهمُ   فلــيس ســواءً عــالمٌ وجهــولُ

فــإن بنــي الريــان قطــب لقــومهمْ   تــدورُ رَحــاهم حــولهم وتجــولُ

وأي قول في الحكمة أحسن من قول زهير:

وأَعْلَـمُ مَـا فـي اليَـوْمِ وَالأَمْـسِ قَبْلَـهُ   وَلَكِنَّني عَنْ عِلمِ ما في غَدٍ عَمِ

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشواءَ مَنْ تُصِبْ   تُمِتْـهُ وَمَـنْ تُخْطِـئ يُعَمَّـرْ فَيَهْـرَمِ

ومــن لا يصــانع فــي أمــور كثيــرة   يضــرّس بأنيــاب ويوطــأ بمنســم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يَفـرْه ومـن لا يتـق الشـتم يشـتم

ومـن يـكُ ذا فضـل فيبخـل بفضـله   علـى قومـه يسـتغن عنـه ويـذمم

ومـن يـوف لا يـذمم ومـن يهـد قلبـه   إلـى مطمـئن البـر لا يـتجمجم

ومــن هــاب أســباب المنايــا ينلنــه   وإن يـرق أسـباب السـماء بسـلم

ومن يجعـل المعـروف فـي غيـر أهلـه   يكــن حمــده ذمًــا عليــه وينــدم

ومــن يعــص أطــراف الزجــاج فإنــه   يطيـع العـوالي رُكبـت كـل لهـذم

ومــن لا يــذد عــن حوضــه بســلاحه   يهـدم ومـن لا يظلـم النـاس يظلـم

ومـن يغتـرب يحسـب عـدوًّا صـديقه   ومــن لا يكــرم نفســه لا يكــرَّم

ومن لم يزل يسترحل الناس نفسه ... ولا يعفها يوما من الذل يندم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلمِ
وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وَإنَّ سَفاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ ... وإنَّ الفَتى بَعْدَ السَّفاهَةِ يَحْلُمِ
سأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا وَعُدْتُمُ ... وَمَنْ أكثر التِّسْآلَ يومًا سَيُحْرَمِ

وإليك مثالًا في الغزل من يتيمة سوَيد بن أبي كاهل اليشكري:

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا ... فَوَصَلْنَا الحَبلَ منها ما اتَّسَعْ٨١
حُرَّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا وَاضِحًا ... كشُعَاعِ الشمسِ في الغَيْم سَطَعْ٨٢
صَقلَتْهُ بِقَضِيبٍ ناضِرٍ ... مِنْ أَراكٍ طَيِّبٍ حتى نَصَعْ٨٣
أَبْيَضَ اللّوْنِ لَذِيذًا طَعْمُهُ ... طيب الريق إذا الريقُ خَدَعْ٨٤
تَمْنَحُ المِرآةَ وَجْهًا وَاضِحًا ... مثلَ قَرْنِ الشمسِ في الصَّحْوِ ارْتَفَعْ
صَافِيَ اللّوْنِ وطَرْفًا سَاجِيًا ... أَكْحَلَ العَيْنَيْنِ ما فيه قَمَعْ٨٥
وقُرُونًا سَابِغًا أَطْرَافُها ... غَلّلَتْها رِيحُ مِسْكٍ ذِي فَنَعْ٨٦
هَيَّجَ الشَّوْقَ خَيَالٌ زَائرٌ ... مِن حَبيبٍ خَفِرٍ فيهِ قَدَعْ٨٧
آنِس كان إذَا ما اعْتادَنِي ... حالَ دُونَ النَّوْمِ مِنِّي فامْتَنَعْ
وكذَاكَ الحُبُّ ما أَشْجَعَهُ ... يَرْكَبُ الهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَزَعْ

فأَبِيــتُ الليــلَ مــا أَرْقُبُــهُ	وبِعَيْنَــيَّ إِذَا نَجــمٌ طَلَــعْ٨٨
وإِذَا مــا قلــتُ لَيْــلٌ قــد مَضَــى	عَطَــفَ الأَوَّلُ مِنــهُ فَرَجَــعْ
يَسْــحبُ الليــلُ نُجُومًــا ظُلَّعًــا	فَتَوَالِيهَــا بَطيئَــاتُ التَّبَــعْ
ويُزَجِّيهــا عَلَــى إِبْطائِهــا	مُغْــرَبُ اللَّــوْنِ إِذَا اللَّــوْنُ انْقشَــعْ٨٩
فَـدَعانِي حُـبُّ سَـلْمَى بَعْـدَ مـا	ذَهَــبَ الجِــدَّةُ مِنِّــي والرَّيَــعْ٩٠
خَبَّلَتْنــي ثُــمَّ لمَّــا تُشْــفِنِي	فَفُــؤَادِي كــلَّ أَوْبٍ مــا اجتَمَــعْ
ودَعَتْنِــي بِرُقاهَــا إِنَّهــا	تُنــزِلُ الأَعْصَــمَ مِــن رَأْسِ اليَفَــعْ
تُسْـمِعُ الحُـدَّاثَ قـولًا حَسَـنًا	لــو أَرَادُوا غَيــرَهُ لــم يُسْــتَمَعْ
كَـمْ قَطَعْنـا دُونَ سَـلْمَى مَهْمَهًـا	نــازِحَ الغَــوْرِ إِذَا الآلُ لَمَــعْ
فــي حَـرُور يَنْضَـجُ اللَّحْـمُ بهـا	يأَخُــذُ السَّــائِرِ فيهــا كالصَّــقَعْ٩١

وهم وإن لم يبلغوا في الغزل رقة المتأخرين، فلهم بوصفه سذاجةٌ لقول كثيرًا من المعنى في الكلام القليل، ولا سيما أثناء مزجه بذكر الحروب كقولهم في ما ينسب إلى عنترة:

ولقــد ذكرتــكِ والرمــاح نواهــلٌ	مني وبيض الهند تقطر من دمي
فــوددتُ تقبيــل الســيوف لأنهــا	لمعــت كبــارق ثغــرك المتبســمِ

تلك كانت على الجملة منازعهم في شعرهم، وذلك هو نتاج قرائح الجاهلية، وأنت ترى أن أصحاب تلك القرائح لم يكونوا أبناء

جاهلية جهلاء من الجهل بل ما أحراهم أن يكون أُطلق عليهم ذلك لشيوع عبادة الأوثان بينهم، ولعلَّ هذا هو المراد بما جاء في سورة المائدة: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ إذ قالوا في تفسيرها الملة الجاهلية.

وقد أوردنا من قولهم فضلًا عما تقدم أمثلةً شتى من مرادفات أقوال هوميروس في شرح الإلياذة.

ومدة هذا الطور الشعري زهاء مئة وخمسين عامًا، ومن صفوة فحوله امرؤ القيس وطرفة بن العبد، والحارثة بن حِلزة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة العبسي، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة وهؤُلاء هم أصحاب المعلقات، والنابغة الذبياني، والمهلهل والأعشى الأسدي وعديٌّ بن زيد، وعبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم وأميَّة بن أبي الصلت والسموأل والشنفري ودريد بن الصمَّة.

ومزيته البساطة والبداهة، واقتفاءُ الفطرة، وتمثيل الحقيقة في رسم الطبيعة، فهو في جميع ذلك أعلى طبيعةً من شعر المتأخرين من العرب، ولا يفوقه شيءٌ من شعر المتقدمين من سائر الأمم حتى اليونان والرومان.

الطبقة الثانية أو شعراء المخضرمين وشعراءُ الدولة الأموية

علمتَ أن النهضة الشعرية كانت في رَيعانها عند ظهور الإسلام، فجاء القرآن وأسكت الشعراء، وما أسكتهم إلا ليزيد نهضتهم استحكامًا ويملأ حوافظهم ببلاغته الخلَّابة، فاندفعوا اندفاع السيل المنهمر،

وأذهانهم ملأى بما ادخرت من الشعر الجاهلي، وما ضمَّت إليه من البلاغة القرآنية، فاجتمعت لهم بداهة الفكر، وسموُّ التصوُّر ودقة التعبير.

وقد ألحقتُ شعراءَ الدولة الأموية بالمخضرمين

أولًا: لأن النفحة القرآنية أثارت نفوسهم إثارتها للمخضرمين؛ لقرب عهدهم بها، فنَفَس حسَّان ونفَس الفرزدق واحد، وجرير يماثل كعب بن زهير، ومثله الأخطل وإن كان نصرانيًّا، بل ربما علت طبقة شعراء الدولة الأموية عمن تقدمهم من المخضرمين في البلاغة لشبوبهم عليها وتأصُّلها في نفوسهم.

وثانيًا: لأن الشعراء كانوا أعزَّ نفسًا وأرفع شأنًا في الدولة الأموية منهم في الدولة العباسية وما وليها، وسببه أن الدولة الأموية قامت على كُره من الفريق الأعظم من المسلمين، فكانت في حاجة إلى استمالة الشعراء، فدلُّوا وعزُّوا ولم يهينوا كما هانوا بعد ذلك الزمن إذ باتوا يطلبون الزلفى تقرُّبًا من الخلفاء وبطانتهم طمعًا بمال وجرًّا لمغنم، وشتان ما كرامة المتزلّف والمترفع، فحسَّان مدح النبي ولكنه مدحه شغفًا بمناقبه، وتصح المشاكلة بينه وبين الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين، ولكنها لا تصحُّ بينهما وبين مُدَّاح معظم المولَّدين والمُحدثين.

وثالثًا: لأن شعراء العرب حتى أواخر الدولة الأموية لم يألفوا ترف الحضارة المتسرب إليهم من الرومان والفرس بالمخالطة، فبقيت مسحة

الفطرة الجاهلية ظاهرة في شعرهم، فهم والمخضرمون طبقةٌ واحدة لا يتخللها فاصل.

ثم إنه بالنظر إلى معنى لفظة المخضرم في عُرف كتَّاب العرب لا ينكر إطلاقها على شعراء الدولة الأموية؛ لأنهم قد يعنون بها كل متوسط بين عصرين كما أطلقوها على مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية يريدون بهم الذين أدركوا الثانية من شعراء الأولى، فلا بأس علينا بهذا الاعتبار أن نطلقها توسعًا على شعراء الدولة الأموية لتوسط كثيرين منهم بين الخلفاءِ الراشدين ودولة بني أمية، والتصاق الباقين بهم.

فيبقى علينا النظر في المتأخرين من شعراءِ بني أمية الذين أدركوا دولة بني العباس، فأمثال هؤلاء يقال فيهم ما تقدم في متأخري الجاهليين الذين أدركوا الإسلام، فمن ربا شعرهُ في دولة الأمويين، وبقيت فيه صبغة المخضرمين كان مخضرمًا، ومن ربا شعره في دولة العباسيين، فكان قولهُ أميل إلى الرقة منه إلى البلاغة كان مولَّدًا، ولا يخرج عن هذا التعريف إلا نوابغ قليلون كبشَّار بن بُردْ الذين عاصر الدولتين، ولبس الحلتين، وفصَّل من الشعر ما شاءَ لما شاءَ فكان من أبلغ المخضرمين بقوله:

أبـــي طلـــل بـــالجزع أن يتكلمـــا ومـــاذا عليـــه لـــو أجـــاب متيمـــا

وبـــالجزع آثـــار بقـــينَ وبـــاللوى ملاعـــب لا يعـــرفن إلا توهُّمـــا

ومن أرق المولَّدين شعرًا بقوله:

لمستُ بكفي كفَّه أبتغي النَّدى ولـم أدرِ أن الجـود مـن كفِّـه يعـدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى   أَفدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي

ومثل بشَّار في المخضرمين مثل النابغة الجعدي في الجاهليين، فللنابغة شعرٌ جاهليٌ عريقٌ في البداوة، وهو القائل أيضًا:

الحمـــد لله لا شـــريك لـــهُ   مـن لـم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل في النهار وفي الليـ   ـل نهارًا يفرِّج الظلما

الحافظ الرافع السماءَ على الأر   ض ولم يبنِ تحتها دعما

الخالق البارئُ المصوِّر في الأَر   حام ماءً حتى يصير دما

وليس في شعر المخضرمين شيءٌ ينطبق على المعاني القرآنية ويمثل بلاغتها كهذه الأبيات.

وقد كان شعر المخضرمين آية في علو الطبقة ومتانة السبك يربو بهما على ما تقدم عنه، وما تأخر من سائر الشعراء، ولكن مبلغهم من الرقي في الحضارة أضعف فيهم نزعة المتقدمين الفطرية، فقصروا فيها عن المتقدمين، ولم يمكنهم من التأَنق في المعيشة بما استتب للعرب بعدهم من مزيِّنات العمران، فلم يدركوا شأو المولدين بالرقة والتصرف بالمعاني، وفي ما سوى ذلك كان شعرهم غاية الغايات.

ولا فرق في ذلك بين شعراء النبي والخلفاء الراشدين كحسان بن ثابت وكعب بن زهير، وشعراءِ الدولة الأموية كذي الرمة وعبيد الراعي بل

ربما كان شعر الدولة الأموية أعرق في البلاغة كما تقدم، وفي ما يلي من أمثلة شعرهم ما يؤيد هذا القول.

قال حسان يمحد النبي ويفتخر:

الله أكرمنا بنصر نبيهِ ... وبنا أقام دعائم الإسلامِ
وبنا أعزَّ نبيهُ وكتابهُ ... وأعزَّنا بالضرب والإقدامِ
في كل معترك تطير سيوفنا ... فيه الجماجم عن فراخِ الهامِ
ينتابنا جبريل في أبياتنا ... بفرائض الإسلام والأحكامِ
يتلو علينا النور فيها محكمًا ... قسمًا لعمرك ليس كالأقسامِ
فنكون أول مستحلّ حلالهِ ... ومحرِّمٍ لله كل حرامِ
نحن الخيار من البرية كلها ... ونظامها وزمامُ كل زمامِ
الخائضو غمرات كل منيةٍ ... والضامنون حوادث الأيامِ
سائل أبا كربٍ وسائل تُبَّعًا ... عنا وأهل العتر والأزلامِ
إنا لنمنع من أردنا منعه ... ونجود بالمعروف للمعتامِ
وترد عادية الخميس سيوفنا ... ونقيم رأس الأصيد القمقامِ
فلئن فخرت بهم لمثل قديمهم ... فخر اللبيب بهِ على الأقوامِ

ودونك مثالًا من مشوبة كعب بن زهير التي مطلعها: بانت سعاد ... وقد وجَّهها إلى النبي يعتذر إليه، فأمَّنه بعد أن كان أهدر دمه.

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهم ... إنك يا ابن أبى سلمى لمقتولُ

وقــال كـــلّ خليـــل كنـــت آملـــه لا ألهينّــك إنّــي عنــك مشــغولُ

فقلــت خلّــوا ســبيلي لا أبــالكمُ فكـلّ مـا قـدّر الـرحمن مفعـولُ

كـلّ ابـن أنثـى وإن طالـت سـلامته يومـا علـى آلـة حـدباء محمـولُ

نبّئـــت أنّ رســـول الله أوعـــدني والعفــو عنــد رســول الله مــأمولُ

مهلا هـداك الـذي أعطـاك نافلـة ال قــرآن فيهــا مــواعيظ وتفصــيلُ

لا تأخــذنّي بــأقوال الوشــاة ولــم أذنـب وإن كثـرت فـيّ الأقاويـلُ

لقــد أقــوم مقامــا لــو يقــوم بــه أرى وأسـمع مـا لـو يسـمع الفيـلُ

لظـــلّ ترعـــد إلا أن يكـــون لـــه مـــن النبـــي بـــإذن الله تنويـــلُ

فقد جمع في هذه الأبيات القليلة بين الاعتذار والحكمة، والمدح والفخر بأبدع أسلوب، وأبلغ عبارة.

ومن قول الأخطل في الهجو:

وكنـــت إذا لقيـــتُ عبيـــد تـــيمٍ وتيمًـــا قلـــتُ أيُّهـــمُ العبيـــدُ

لئـــيم العـــالمين يســـود تيمًـــا وســـيدهم وإن كرهـــوا مَســـودُ

وقد زعم الأخطل أنه أهجى العرب بهذين البيتين.

ومن أمثلتهم في النسيب قول ذي الرمة:

ألا يـا اسـلمي يـا دار مـي علـى البلـى ولا زال مـنهلًا بجرعائـك القطـرُ

لهـــا بشـــرٌ مثـــل الحريـــر ومنطـــقٌ رخـيم الحواشـي لا هـراء ولا نـزرُ

وعينـــان قـــال الله كونـــا فكانتـــا فعولان بالألباب ما تفعل الخمرُ

ومَن أبلغ من الإمام علي بن أبي طالب إذ قال مبتهلًا لله تعالى:

لك الحمد يا ذا المجد والجود والعلا تباركت تعطي من تشاءُ وتمنعُ

إلهي وخلاقي وحرزي وموئلي إليك لدى الإعسارِ واليسرِ أفزعُ

إلهي لئن خيبتني أو طردتني فمن ذا الذي أرجو ومن أتشفعُ

إلهي لئن جلّت وجمت خطيتي فعفوك عن ذنبي أجلُّ وأوسعُ

إلهي لئن أعطيت نفسي سؤْلها فها أنا في روض الندامة أرتعُ

إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي وأنت مناجاتي الخفية تسمعُ

إلهي فلا لقطع رجائي ولا تزغ فؤَادي فلي في باب جودك مطمعُ

إلهي أجرني من عذابك إنني أسيرٌ ذليلٌ خائفٌ لك أخضعُ

إلهي فآنسني بتلقين حجتي إذا كان لي في القبر مثوىً ومضجعُ

إلهي لئن عذّبتني ألف حجةٍ فحبل رجائي منك لا يتقطعُ

إلهي إذا لم ترعني كنت ضائعًا وإن كنت ترعاني فلست أَضيعُ

إلهي إذا لم تعف عن غير محسنٍ فمن لمسيء بالهوى يتمتعُ

إلهي لئن قصرت في طلب التقى فلست سوى أبواب فضلك أقرعُ

إلهي اقلني عثرتي وامسح حوبتي فإني مقرٌ خائف أتضرّعُ

إلهي لئن خيبتني أو طردتني فما حيلتي يا رب أم كيف أصنعُ

إلهـي حليـف الحـب بالليـل سـاهرٌ ينـاجي ويبكـي والمغفـل هجَّـعُ
وكلهــــم يرجــــو نوالــــك راجيًــــا لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمعُ
إلهــــي يمنينــــي رجــــائي ســــلامةً وقــبح خطيــاتي علــيَّ يشــنعُ

وإن من أصدق الأمثلة على علو طبقة هذه الطائفة من الشعراء قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين التي قيل: إن أهل البيت لم يمدحوا بمثلها؛ ولهذا أوردناها بطولها وهي:[٩٢]

هَـذَا الّـذِي تعـرفُ الْبَطْحَـاء وطأتـه وَالْبَيْــت يعرفُــهُ والحــلُّ والحَــرَمُ
هَــذَا ابــنُ خيــرِ عبـادِ الله كلِّهــمُ هَــذَا التقــيّ النقــيُّ الطـاهرُ الْعلــمُ
إِذا رَأَتْــهُ قــريشٌ قَــالَ قَائِلهَــا إِلَــى مَكَــارِمِ هَــذَا يَنْتَهِــي الْكَــرمُ
ينمي إِلَى ذرْوَة العزِّ الّتِي قصرت عَــن نيلهـا عَـرَبُ الإِسـلامِ والعجـمُ
يكَــاد يُمْســكه عرفــانَ رَاحَتــه ركــنُ الحطـيمِ إِذا مَـا جَـاءَ يسْـتَلمُ
يغضـي حَيَـاء ويُغْضِـى مـن مهابتـه فــلَا يكلّــم إِلَّا حــينَ يبتســمُ
مَـنْ جـدُّه دَان فضـلُ الأنبيـاءِ لَـهُ وفضــلُ أمتــه دانــتْ لَــهُ الْأُمَــمُ
ينشـقُّ نـورُ الْهـدى عَـن نـورِ غرَّتـه كَالشَّمْسِ ينجابُ عَن إشراقها الظّلمُ
مشــتقةٌ مــن رَسُــول الله نَبْعَتُــهُ طابــتْ عناصــرُهُ والْخِــيمُ والشِّــيمُ
هَـذَا ابـنُ فاطمـةٍ إنْ كنـت جاهلَـه بجــدِّه أنبيــاءُ اللّــه قــد ختمــوا
اللّــه فضَّــله قِــدْمًا وشــرَّفه جــرى بـذاكَ لَـهُ فِـي لَوْحِـهِ الْقَلَـمُ

وليس قولك من هذا بضائرهُ　　العربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ
كلتا يَدَيْهِ غياثٌ عمَّ نفعهما　　يستوكفانِ وَلَا يعروهما الْعَدَمُ
سهلُ الخليقةِ لَا تُخشى بوادره　　يزينُهُ اثْنَانِ حسن الْخلق وَالْكَرمُ
حمَّال أثقالِ أقوامٍ إِذا فدِحُوا　　حُلْو الشَّمَائِل تَحلو عِنْده نعمُ
ما قال لا قط إلا في تشهده　　لولا التشهد كانت لاءَه نعمُ
لَا يُخْلِفُ الوعدَ ميمونٌ نقيبته　　رحبُ الْفِناءِ أريبٌ حينَ يعترمُ
عمَّ البريةَ بالإحسانِ فانفصلت　　عَنهُ القتارة والإملاقُ وَالعدمُ
من معشرٍ حبُّهم دينٌ وبغضهمُ　　كفرٌ وقربهمُ مَنْجًى وَمُعْتَصَمُ
إِن عدَّ أهلُ التقى كَانُوا أئمتهم　　أَو قيلَ مَنْ خَيْرُ أهلِ الأَرْض قيلَ هُمُ
لَا يَسْتَطِيع جوادٌ بُعْدَ غايتهم　　وَلَا يدانيهم قومٌ وإنْ كَرموا
هم الغيوث إِذا مَا أزمةٌ أَزَمَتْ　　والأَسْدُ أَسْدُ الشَّرى والبأسُ مُحْتَدِمُ
لا ينقص الْعُسْرُ بسطًا من أكفهمُ　　سيان ذَلِكَ إِن أَثروا وَإِن عدموا
يُسْتَدْفَعُ السوءُ والبلوى بِحبِّهمُ　　ويستزادُ بِهِ الْإِحْسَان وَالنعَمُ
مقدَّمٌ بعد ذكرِ الله ذكرهمُ　　فِي كلِّ بدءٍ ومختومٌ بِهِ الْكَلمُ
يَأْبَى لَهم أَن يحلَّ الذمُّ ساحتَهم　　خيمٌ كريمٌ وأيدٍ بالنَّدى عصمُ
أيّ الْخَلَائق لَيست فِي رقابِهم　　لأوليةِ هَذَا أَو لَهُ نعمُ
من يعرف الله يعرفْ أوَّليةَ ذَا　　فالدّين من بَيت هَذَا ناله الْأَمَمُ

فهذا جلُّ ما يمكن إيراده في مثل هذا الموضع من شعر أبناء هذه الطبقة ومزيته، كما ترى بلاغةٌ في المعنى، ومتانةٌ في التعبير، وإحكام في التركيب مع مَيلٍ إلى الرقة، وتلك أيضًا من مزايا الإلياذة، فإن بلاغة الأصل لا تفوقها بلاغةٌ في الكلام اليوناني، فإن ظهر تقصيرٌ في التعريب فتبعتُهُ على المعرب دون المنشئ، وإن فيها من متانة التعبير ما لا يفوقه شيء في شعر جميع الأمم، ولا سيما في مشاكلة الألفاظ للمعاني، وحكاية الأصوات مما أشرنا إليه في مواضعه.

ومدة هذا الطور الشعري مئة وخمسة وثلاثون عامًا تبتدئ من الهجرة، وتنتهي بقيام الدولة العباسية.

وعروة وصله من الطور الأول أو طبقة الجاهليين النابغة الجعدي وأمثاله، ومع الطور الثاني أو طبقة المولدين بشَّار بن بُرد.

وفحوله في صدر الإسلام حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن نُوَيرة، والعباس بن مرداس، والنمر بن تولب، وأبو ذؤيب العجلي، وفي عصر الدولة الأموية القطامي، والأخطل النصرانيان، وجرير الخطفي والفرزدق وعبيد الراعي، وذو الرمة، والكميت بن زيد، وأرطأة بن سمية، والأعشى بن ربيعة والأعشى التغلبي.

الطبقة الثالثة المولّدون أو شعراء عصر العباسيين

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ للهجرة (٧٥٠م) والسلطنة الإسلامية موطدة الدعائم مشيدة الأركان، وغزاة العرب ضاربون في المشارق والمغارب يقوضون ما تداعى من مباني الفرس والرومان، فينبذون الأنقاض البالية، ويشيدون على أساس الحزم دولةً قيض الله لها أن تكون دولة العزَّة والسلطان في ذلك الزمان، فامتلأت خزائن الخلفاء بكسب المجاهدين وجباية الأموال، وتسرب ما فاض منها إلى بيوت المقرَّبين وصنائعهم من أميرٍ وفقيرٍ، وعميد وشريد، فذاقوا حلو حضارة الدولتين الهاويتين، وتبدلوا مرقعة عمر ذلك الدثار الرثّ الذي ضمَّ بين رُدينه عماد الإسلام والمسلمين ببزَّة الخز والديباج، وعُلالته من لبنٍ وتمرٍ، وأيسر الإدام بشهي طعامٍ لُماظته الفالوذج والسكباج، وذلك الرَّحل على بعيرٍ قارحٍ يمتطيه الخادم والمخدوم، وهما سواءٌ في شرع الإسلام بالسروج الموشَّاة على الجياد المطهمة تحفُّ بها مواكب الحشم والغلمان، فعلت القصور ووُشيت الخدور، وزها الرياش، وانبسط المعاش، والشعراء من أفراد تلك الأمة يرقون رُقيَّها في معارج العمران.

زعموا أن شاعرًا بدويًّا من رعاة الماشية ممن دبَّ وشبَّ بين الكباش والنعاج قدم حاضرةً عامرةً، فأكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين:

أنت كالدَّلو لا عدمناك دلوًا ... من كثير العطا قليل الذنوبِ

أنت كالكلب في الحفاظ على الو د وكالتيس في قراعِ الحروبِ

فهمَّ بعض أعوان الأمير بقتله، فقال الأمير: «خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنًا، وقد لا نعدم منه شاعرًا مجيدًا». فما أقام بعض سنين في سعة عيش، وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق الآخذ بمجامع القلوب، وهو في زعم بعضهم صاحب الأبيات التالية:

يا من حوى ورد الرياض بخدِّه وحكى قضيب الخيزران بقدِّهِ

دع عنك ذا السيف الذي جرَّدته عيناك أمضى من مضارب حدِّهِ

كلُّ السيوف قواطع إن جردت وحسام لحظك قاطعٌ في غمدهِ

إن رمت تقتلني فأنت مخيرٌ من ذا يعارض سيدًا في عبدهِ

ومهما يكن قدر الصحة من هذه القصة المرويَّة على أساليب مختلفة، فإن فيها إشارة بيِّنة إلى تأثير الأحوال بأفكار الرجال، وفعل الحضارة بقرائح الشعراء.

وهذا كان شأن الشعراء في زمن الدولة العباسية، فإنهم رتعوا في أرجاء ذلك الملك الفسيح متربعين بعد شظف العيش على الطنافس الوثيرة في المنازل الأنيقة أمام الحدائق الغناء، وخلفاؤهم يصعدون بالأمة في سلم المدنية يحرصون على استثمار ذلك الفتح المبين؛ فيدَّخرون ما تلقَّوه عمن تقدمهم، ولا يألون جهدًا في إحكامه وإلقائه حتى بهروا الغرب

بما تجمع لديهم من ذخائر السلف النفيسة، وإن التحف الغراء التي كان هارون الرشيد ينفح بها شارلمان من غرر تلك الكنوز، ومن جملتها ساعته التي تلقاها سلطان المغرب آية من الآيات لا تبقي مجالًا للريب في مبلغ الثروة العباسية، واستحكام النهضة وسريانها من العراق إلى مصر والشام والأندلس، وسائر البلاد التي طرقها المسلمون.

فلا بدع، وكل ذلك مشهود الشعراء أن تتثقف أذهانهم وتتروَّض نفوسهم، وتتسع مداركهم، ويرق تصوُّرهم ويمرحوا في روضٍ من الشعر أريض يجولون فيه جولةً لم تتوفر أسبابها لسلفائهم.

ولهذا لم يكن لشاعرٍ جاهلي أو مخضرم أن يبدع إبداع الرقاشي بقوله:

نبهــت نــدماني المــوفي بذمتــه ... مـن بعـد أتعـاب طاسـاتٍ وأقـداح

فقـال خـذ واسـقني واشـرب وغـن لنـا ... يـا دار مثـواي بالقـاعين فالسـاحي

فمــا حســا ثانيًــا أو بعــض ثالثــةٍ ... حتـى اسـتدار وردَّ الـراح بـالراحِ

أو يرق رقَّة أبي نواس بقوله:

ومسـتطيلٍ علـى الصـهباء باكرهـا ... فـي فتيـة باصـطباح الـراح حـذّاقِ

فكــل شــيءٍ رآه ظنــه قــدحًا ... وكـل شـخص رآه قـال ذا السـاقي

فلا ريب أن هذين القولين أوقع في النفس من قول عنترة:

ولقـد شـربت مـع النـدامى بعـد مـا ... ركـد الهـواجر بالمشـوف المعلـمِ

بزجاجــة صــفراء ذات أســرةٍ ... قرنــت بــأزهر بالشــمال مفــدمِ

فإذا أبدع عنترة بهذا الوصف في زمانه بين قومٍ يهيمون في الفلوات على ظهور الإبل بين مضارب البادية، فإنه لا يطرب جلساءَ أبي نواس والرقاشي في محافل الأنس، ومغاني التأَنق والعيش الرغيد.

وقد بلغ المولّدون الدرجة القصوى من التصرف بالمعاني، وجزالة اللفظ ودقة السبك، فصعدوا بالشعر درجةً لم يبلغها المتقدمون، وهيهات أن يدركها المتأخرون، وكان هذا ديدن الفريق الأعظم منهم في جميع الأبواب التي طرقوها، فأيُّ غزلٍ أرق من قول أبي نواس:

حامل الهوى تعبُ … يستخفه الطربُ

إن يكن يحق له … ليس ما به لعبُ

تضحكين لاهيةً … والمحبُّ ينتحبُ

كلما انقضى سببٌ … منك جاءَني سببُ

تعجبين من سقمي … صحتي هي العجبُ

وقول البحتري:

كيف أغدو من الصبابة خلوًا … بعد ما راحت الديار خلاءُ

قف بها وقفة تردُّ عليها … أَدمعًا ردَّها الهوى انضاءُ

إن للبين مِنَّةً لا تؤَدَّى … ويدًا في تُماضرٍ بيضاءُ

حجبوها حتى بدت لفراقٍ … كان داءٌ لعاشقٍ ودواءُ

أضحك البين يوم ذاك وأبكى … كلَّ ذي صبوةٍ وسرَّ وساء

فجعلنا الوداع فيه سلامًا وجعلنا الفراق فيه لقاءُ

ووشت بي إلى الوشاة دموع الـ ـعين حتى حسبتها أعداءَ

وأي تشبيه أبدع من قول ابن المعتز في القلم:

قلمٌ ما أراهُ أم فلكٌ يجـ ـري بما شاءَ قاسمٌ ويسيرُ

راكعٌ ساجدٌ يقبل قرطا سًا كما قبَّل البساط شكورُ

وقولهُ:

من لي بقلبٍ صيغ من صخرةٍ في جسدٍ من لؤلؤٍ رطبِ

جرحتُ خَدَّيه بلحظي فما برحتُ حتى اقتصَّ من قلبي

ومثله قول ابن الرومي في قوس الغمام:

وساقٍ صبيحٍ للصبوح دعوته فقام وفي أَجفانهِ سنَةُ الغمضِ

يطوف بكاسات العقار كأَنجم فمن بين منقضٍ علينا ومنفضِ

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفًا على الجو دُكًا والحواشي على الأرضِ

يطرِّزها قوس السحاب بأَخضرٍ على أحمرٍ في أصفرٍ إثر مبيضِ

كأذيال خودٍ أقبلت في غلائلٍ مصبَّغةٍ والبعض أقصر من بعضِ

وأيُّ كلام في المدح أطلى من قول ابن هانئ:

قد طيَّب الافطار طيب ثنائه من أجل ذا تجد الثغور عذابا

لـــم تـــدنني أرضٌ إليـــك وإنمـــا جئــتُ الســماءَ ففتّحــت أبوابـا
ورأيــت حــولي وفـدَ كـل قبيلـةٍ حتـى توّهمـت العـراق الزابـا

ومن تُرى أعلى كعبًا بالحكمة والزهد من أبي العلاء، وهو القائل:

غيـر مجـدٍ فـي ملتـي واعتقـادي نـوح بـاكٍ ولا تـرنم شـادِ
وشـبيهٌ صـوتُ النعـي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل نادِ
أبكـتْ تلكـمُ الحمامـة أم غنّـ ـتْ على فرع غصنها الميّادِ
صـاح هـذي قبورنـا تمـلأ الرُّحـ بَ فأين القبورُ من عهد عادِ
خفّف الوطء ما أظنّ أديم أل أرض إلاّ من هذه الأجسادِ
وقبـيحٌ بنـا وإن قـدم العهـ ـد هـوانُ الآبـاءِ والأجدادِ
سر إن استطعتَ في الهواء رويدًا لا اختيالًا على رفاتِ العبادِ
ربّ لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا ضاحك من تزاحمُ الأضدادِ
ودفـينٍ علـى بقايـا دفـين فـي طويـل الأزمـان والآبـادِ
فاسـأل الفرقـدين عمّـن أحسّـا مـن قبيـل وآنسـا من بـلادِ
كـمْ أقامـا علـى زوال نهـار وأنـارا لمـدلجٍ فـي سـوادِ
تعـبٌ كلهـا الحيـاةُ فمـا أعـ ـجبُ إلاّ من راغبٍ في ازديادِ
إنّ حزنًا في ساعة الموت إضعا فُ سرورٍ في ساعة الميلادِ
خلـق النـاس للبقـاءِ فضـلّت أمـةٌ يحسـبونهم للنفـادِ

إنمـــا ينقلـــون مـــن دار أعمـــا ... لٍ إلـــى دار شـــقوةٍ أو رشـــادِ

ضـجعة المـوت رِقـدَةٌ يسـتريح الـ ... ـجسم فيها والعيش مثل السهادِ

ومن أبدع إبداع أبي الطيب بالتصرف بالمعاني، وجمع شتاتها، ويكفيك قولهُ:

غـابَ الأميـرُ فغـاب الخيـرُ عـن بلـدٍ ... كـادت لفقـد اسـمهِ تبكـي منـابرهُ

قـد اشـتكتْ وحشـةَ الأحيـاء أربعـهُ ... وخبَّـرت عـن أسـى المـوتى مقـابرهُ

حتـى إذا عُقـدتْ فيـه القِبـابُ لـهُ ... أَهَـــلَّ للهِ باديـــه وحاضـــرُهُ

وجـــدَّدت فرحًـــا لا الغـــمُّ يطـــرُدُهُ ... ولا الصـــبابةُ فـــي قلـــب تجـــاورهُ

إذا خلـت منـك حمـصٌ لا خلـت أبدًا ... فـلا سـاقها مـن الوسـمي بـاكرهُ

دخلتَهـا وشُـعاع الشـمسِ متقـدٌ ... ونـورُ وجهـكَ بـين الخلـق بـاهرُهُ

فـي فيلـق مـن حديـد لـو قـذفت بـه ... صـرف الزمـان لمـا دارت دوائـرهُ

تمضـي المواكـب والأبصـار شاخصـة ... منهـا إلـى الملـك الميمـون طـائرهُ

قـد حـرن فـي بشـر فـي تاجـه قمـرٌ ... فـي درعـه أسـد تـدمَى أظـافرهُ

حلـو خلائقـه شـوس حقائقـه ... تحصـى الحصـى قبـل أن تحصـى مآثرهُ

تَضـيقُ عـن جَيشـه الـدّنيا ولـوْ رَحُبـتْ ... كصـدره لـم تـبن فيهـا عسـاكرهُ

إذا تغلغـل فكـرُ المـرءُ فـي طـرفٍ ... مـن مجـدهِ غرقـت فيـه خـواطرهُ

تحمـي السـيوف علـى أعدائـه معـهُ ... كـأنهنَّ بنـوهُ أو عشـائرهُ

إذا انتضـاها لحـرب لـم تـدع جسـدًا ... إلَّا وبـاطنُ للعـينِ ظـاهرهُ

فقــد تــيقَّن أن الحــق فــي يــده وقــد وثقــن بــأن الله ناصــرهُ

تــركن هــام بنــي عــوفٍ وثعلبــةٍ علــى رؤُوس بــلا نــاسٍ مغــافرُهُ

فخاض بالسيف بحر الموت خلفهمُ وكــان منــه إلــى الكعبــين زاخــرهُ

حتى انتهى الفرسُ الجاري وما وقعت في الأرض من جيف القتلى حوافرهُ

وأي حنين أوقع في النفس وأعظم إيثارًا للعاطفة، وأصدق رسمًا لرقة شعر المولدين من فراقية أبي الحسن علي بن زريق البغدادي، وإن لنا من سموِّ معاني القصيدة التالية وجزالة ألفاظها عذرًا على إيرادها كلها مثالًا على شعر النوابغ من أبناء هذه الطبقة:[٩٣]

لا تعذليــه فــإن العــذل يولعــه قـد قلـت حقًّـا ولكـن لـيس يسـمعهُ

جـاوزت فـي نصـحهِ حـدًّا أضـرَّ بـه مـن حيـث قـدَّرتِ إنَّ النصـح ينفعـهُ

فاســتعملي الرفــق فــي تأديبــه بــدلًا من عنفه فهو مضنى القلب موجعهُ

قـد كـان مضـطلعًا بالخطـب يحملـه فضـلعت بخطـوب البـين أضـلعهُ

يكفيــه مــن لوعــة التشــتيت أن لــه مــن النــوى كـل يـومٍ مـا يروّعـهُ

مــا آب مــن ســفرٍ إلا وأزعجــه عــزمٌ إلــى ســفرٍ بــالرغمِ يزمعــهُ

تــأبى المطالــب إلَّا أن تكلفــه للـرزق سـعيًا ولكـن لـيس يجمعـهُ

كأَنمــا هــو فــي حــلٍ ومرتحــلٍ موكــلٌ بفضــاءِ الله يذرعــهُ

إذا الزمــان أراه فــي الرحيــل غنــى ولـو إلى السـند أضـحى وهو يقطعهُ

ومــا مجاهــدة الإنســان واصــلةٌ رِزقًــا ولا دعــة الإنســان تقطعــهُ

قـد قَسَّـم الله بـين النـاس رزقهـمُ ... لا يخلـقُ الله مـن خلـقٍ يضـيعهُ
لكـنهم كلفـوا حرصًـا فلسـت تـرى ... مسـترزقًا وسـوى الغايـات يقنعـهُ
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت ... بغـيٌ ألا إن بغـي المـرءِ يصـرعهُ
والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه ... عفـوًا ويمنعـه مـن حيـث يطعمـهُ
أسـتودع الله فـي بغـداد لـي قمـرًا ... بـالكرخِ مـن فلـك الأزرار مطلعـهُ
ودعتـه وبـودي لـو يـودعني ... صـفو الحيـاة وإنـي لا أُودعـهُ
وكـم تشـفع بـي أن لا أُفارقـهُ ... وللضـرورات حـالٌ لا تشـفعهُ
وكـم تشـبث بـي يـومَ الرحيـل ضـحىً ... وأدمعـي مسـتهلَّاتٌ وأدمعـهُ
لا أكـذبُ الله ثـوبُ العـذر منخـرق ... منـي بفرقتـه لكـن أرقعـهُ
إنـي أوسـع عـذري فـي جنايتـه ... بـالبين عنـه وقلبـي لا يوسـعهُ
أعطيـت ملكًـا فلـم أحسـن سياسـته ... وكـل مـن لا يسـوس الملـك يخلعـهُ
ومـن غـدا لابسًـا ثـوب النعـيمِ بـلا ... شـكرٍ عليـه فعنـه الله ينزعـهُ
إِعتضـت مـن وجـه خلّـي بعـد فرقتـه ... كَأسـاً أَجَـرَّعُ مِنهـا مـا أَجَرَّعُـهُ
كـم قائـل لـي ذقـت البـين قلـت لـه ... أَلـذنب والله ذنبـي لسـت أدفعـهُ
هـلَّا أقمـت فكـان الرشـد أجمعـهُ ... لـو أننـي حـين بـان الرشـد أتبعـهُ
لـو أننـي لـم تقـع عينـي علـى بلـد ... فـي سـفرتي هـذه إلَّا وأَقطعـهُ
يـا مـن أقطـع أيـامي وأنفـدها ... حزنًـا عليـه وليلـي لسـت أهجعـهُ
لا يطمـئنُّ بجنبـي مضـجع وكـذا ... لا يطمـئنُّ بـه مـذ بنـت مضـجعهُ
مـا كنـت أحسـب أن الـدهر يفجعنـي ... بـه ولا أن بـي الأيـامَ تفجعـهُ

حتى جرى الدهر فيما بيننا بيدٍ غبراءَ تمنعني حقي وتمنعهُ

وكنت من ريب دهرٍ جازعًا فرِقًا فلم أوقَّ الذي قد كنت أجزعهُ

بالله يا منزل القصر الذي درست آثاره وعفت مذ بنت أربُعهُ

هل الزمان معيدٌ فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعهُ

في ذمة الله من أصبحت منزله وجاد غيث على مغناك يمرعهُ

من عنده لي عهد لا يضيع كما عندي له عهد صدق لا أضيعهُ

ومن يصدع قلبي ذكرهُ وإذا جرى على قلبه ذكري يصدعُهُ

لأصبرن لدهرٍ لا يمتعني به ولا بيَ في حال يمتعهُ

علمًا بأن اصطباري معقبٌ فرجًا فأضيق الأمر إن فكرت أوسعهُ

علَّ الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمين تجمعني يومًا وتجمعهُ

وإن تغُل أحدًا منا منيَّته لا بد في غده الثاني سيتبعهُ

وإن يدم أبدًا هذا الفراق لنا فما الذي بقضاء الله نصنعهُ

وإن المقام ليضيق عن الاستزادة من هذه النفائس، فإن ما أوردناه منها ليس إلا ذرَّة من دُرَّة.

نظرةٌ في شعر المولّدين

لم يكن لفريقٍ من الناس أن يدعي الكمال حتى الشعراء، والمولدون مع بلوغهم من البلاغة، وإحكام الصنعة أقصى الدرجات

فإنهم يؤاخذون، ولا سيما المتأخرين منهم على مغامز ترجع إلى خلالٍ أربع:

الخُلَّة الأولى: اقتضاب الوصف الشعري فلا تبرز الحقيقة جليَّة على فطرتها في كثيرٍ من شعرهم، ويستثنى من ذلك الحكَم والأمثال، وكذلك الأبحاث العلمية التي ليست من لباب الشعر، ويندر أن شاعرًا يعمد إلى وصفٍ فيستتمهُ ويرسمهُ رسمًا جليًّا كاملًا كما رأيت في أسد بشر، وثور عبدة، فترى الأفكار متزاحمة والمعاني متلازَّة في منظوماتهم، فتختلُّ اللُّحمة بينها، وتأتي متراكمة، فيفوت السامع شيء كثير مما تصوِّروه وقصَّروا في تصويره، فهم بهذا الاعتبار قد عدلوا عن منزع الفطرة، وأبعدوا عن البداهة الجاهلية، وتحوَّلت معهم المقاصد الشعرية إذ بات مرماهم فيها جرَّ المغانم، ودفع المغارم.وإن كلامنا في كل ذلك إجماليٌّ لا يؤخذ منه خلو شعر المولدين جميعًا من بدائع الوصف التام، وإجادة التصوير فقد تجد في شعر المولدين ما يضاهي منحى الجاهليين، وإن رمت مثالًا لذلك فاقرأ قصيدة المتنبي التي مطلعها:

فـي الخـدِ إن عـزم الخلـيط رحـيلًا   مطـرٌ تزيـد بـه الخـدود نحـولا

الخُلَّة الثانية: تبذُّ لهم في المديح حتى جعلوا الشعر صناعة للتكسب، ومهنة للاسترزاق فكاد يمتهن الشعر، وتنحط طبقة الشعراءِ في عيون عظماء الأمة، ولو تتبعت أقوال فحولهم؛ كالبحتري، وأبي تمام، والمتنبي ما رأيته يتعدَّى المدح للمحسن إليهم، والهجاءَ للممسك عنهم،

بل ربما هجوا ممدوحهم، ومدحوا مهجوَّهم؛ طمعًا وتشفيًا كما كان شأن المتنبي مع كافور. ولا يستثنى منهم سوى أفرادٍ خرجوا ترفُّعًا من موقف الذلَّة والمسكنة، إما لسعةٍ في حالهم، ورفعة في درجتهم الموروثة كابن المعتز، وأبي فراس، فذلك من أبناءِ الخلفاءِ، وهذا من نسل الأمراء، وإما لحكمة فطروا عليها، وأَنَفة في طباعهم وزُهد في نفوسهم كالمعري، وما أقل أمثاله بين المتقدمين والمتأخرين؛ ولهذا كان المعري يرجح كثيرًا في ميزان الرجال على المتنبي وأمثاله مع أن الرجحان بيِّن للمتنبي في ميزان الشعراء.

الخُلَّة الثالثة: ابتذال الغزل ووصف الغرام حيث لا محرك إليه إلا التوطئة للمديح، فجاءَ أكثر ما نُظم من هذا القبيل غير مثير للعاطفة، ولا مؤَّثر في النفس، وإن كثُر فيه الحنين والأنين بخلاف ما يقصد به شخص معين كما رأيت في قصيدة ابن زُريق. وهو ثابتٌ أن التوطئة بالغزل ليست من بدَع المولَّدين بل هي خطةٌ درج عليها الشعراء من أيام الجاهلية، على أن الجاهليين لم يبتذلوها ولم يتعمدوها إلَّا في أحوال مخصوصة كان يزدان بها شعرهم، ولم يصف شاعرهم في أكثر المواقف إلا غرامًا برح به كما ترى في غزليات امرئ القيس وعنترة، وإذا تعدَّى تلك الخطة فلم يتعدَّاها إلا قليلًا، بخلاف المولدين إذ كانوا يتكلفون الغزل تكلفًا كأنه من لوازم الاستهلال.

والظاهر أن كثيرين من ذوي الرؤية والنقد كانوا ينكرون تلك الطريقة حتى في إبَّان الزمن العباسي.

قال الإبشيهي: «مدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء٩٤ فأعطاه سبعين ألفًا، وخلع عليه خلعًا سنية حتى أنه لم يستطع أن يقوم، فغار الشعراء منه فجمعهم وقال: يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض إن أحدكم يأتينا ليمدحنا، فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتًا فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره» قد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إنــي أمنــتُ مــن الزمــان وصَــرفِهِ ... لمــا علقــتُ مــن الأميــر حبــالا

لــو يســتطيع النــاس مــن إجلالــه ... جعلــوا لــه حــرَّ الوجــوه نعــالا

إن المطايــا تشــتكيك لأنهــا ... قطعــت إليــك سباســبًا ورمــالا

فــإذا وردنَ بنــا وردنَ خفائفًــا ... وإذا صــدرنَ بنــا صــدرنَ ثقــالا

وإذا أردت دليلًا محسوسًا على صحة هذا النقد فخذ قصيدتين من مختار شاعرٍ واحدٍ وطأ الشاعر بالغزل في إحداهما، وولج الموضوع توًّا في الأخرى فتبدو لك فورًا مزية مطلع الثانية على الأولى.

فمن مختار ابن هانئ قصيدته في مدح المعز ومطلعها:

فمــن فــي مــأتمٍ علــى العشــاقِ ... ولبســن الحــداد فــي الأحــداقِ

وبكــين الــدماءَ بــالعنم الرطــ ... ــب المقنــى وبالخــدود الرقــاقِ

وقصيدته في المعز أيضًا ومطلعها:

مـا شـئت لا مـا شـاءت الأقـدارُ ... فــاحكم فأنــت الواحــد القهــارُ

وكأنمـــا أنـــت النبـــي محمـــدٌ   وكأنمـــــا أنصـــــارك الأنصـــــارُ

ومن مختار المتنبي قوله في سيف الدولة مستهلًا:

لعينيــك مــا يلقــى الفــؤاد ومــا لقــي   وللحــب مــا لــم يبــق منــي ومــا بقــي

ومـا كنـت ممـن يـدخل العشـق قلبـه   ولكــن مــن يبصــر جفونــك يعشــقِ

وقوله في مطلع آخر قصيدة قالها وهي في سيف الدولة أيضًا:

فـدى لـك مـن يقصـر عـن هـداكا   فــــلا ملـــــكٌ إذن إلا فـــــداكا

وإن قلنـا فـدى لـك مـن يسـاوي   دعونـــــا بالبقـــــاء إن قلاكـــــا

أفلا تُراك تؤثر مطلع رائية ابن هانئٍ وكافية المتنبي على قافيتيهما.

ولا يجب أن يستفاد مما تقدم أننا ننكر التوطئة على الإطلاق، فإنها إذا جادت ووقعت في موضعها ووافقت موضعها، فإنها تشق شغاف القلب وتذكي شرارة النيرة، فتهيم بها البصائر كما يقع لسامع قصيدة أبي تمام التي مطلعها:

الســـيف أصـــدق أنبـــاء مـــن الكتـــب   فـي حـده الحـد بـين الجـد واللعـبِ

بـيض الصـفائح لا سـود الصـحائف فـي   متـــونهنَّ جـــلاء الشـــك والريـــبِ

فقد أراد مدح المعتصم العباسي على إثر فوزه ذلك الفوز المبين، وتنكيله بجيوش الروم وفتحه عُمورية، فوطَّأ لمدحهِ توطئة استهلها بما تقدم، وما أجملها توطئة لمثل ذاك المديح.

ومما يُحمد عليه المولدون بهذا المعنى توطئتهم للرثاء بالزهد وأشباهه.

الخُلَّة الرابعة: تجاوزهم في المجون وبذاءَة التعبير إلى ما لا يستبيحه أدب المجالس، ويغضُّ من قدر الشعر ومنزلة الشعراء، وهذا أيضًا ليس من بدع المولّدين بل سبقهم إليه شعراء الجاهلية والمخضرمون حتى أودعه امرؤ القيس معلقته، وفي أهاجي جرير والأخطل والفرزدق ما لا يُعد مفخرة لأمثال أولئك الفطاحل، ولكن الجاهليين كانوا يأتونه عفوًا على البداهة، فاستمسك به المخضرمون وأوغلوا فيه إيغالًا أدَّى بالمولدين إلى التفنن به تفننهم في سائر ضروب الشعر، وفحشوا فيه فحشًا فاضحًا، ومن ذا الذي يقرأ أهاجي أبي تمام لمقران، والمتنبي لابن كيغلغ، ومجونيات الصفي الحلي، ولا ينكر أن تشان بدائع منظوماتهم بتلك السفاسف الهجينة، وأغرب من هذا أن كثيرًا من تلك البذاءات ممتزجٌ بدررٍ من المعاني تضيق عنها أرحب القرائح، فإذا قرأت قصيدة المتنبي التي يستهلها بقوله:

لهوى النفوس سيرة لا تُعلم   عرضًا نظرت وخلت أني أَسلمُ

فإنك ترى فيها من غرر المعاني، وأبكار الأفكار ما جرى أكثره مجرى الأمثال، وتنوقل جيلًا بعد جيل في أندية الأدب وحسبك منها قوله:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

والنـاس قـد نبـذوا الحفـاظ فمطلـق ينســى الــذي يــولي وعــافٍ ينــدمُ

لا يخـــدعنك مـــن عـــدوٍ دمعـــه وارحــم شــبابك مــن عــدوٍ تــرحمُ

لا يسـلم الشـرف الرفيـع مـن الأذى حتــى يــراق علــى جوانبــه الــدمُ

والظلـم مـن شـيم النفـوس فـإن تجـد ذا عفــــة فلعلــــة لا يظلــــمُ

ومــن البليــة عــذل مــن لا يرعــوي عــن جهلــه وخطــاب مــن لا يفهــمُ

ومع هذا فإنك لا تتمالك من الإنكار على الشاعر خلط هذه النفائس بتلك الخسائس.

وأقبح من كل ذلك تشببهم بما لم يشرعه الله، ولم يسق إليه الطبع، ولم يفش قبلهم في شعر الجاهليين وإنما هو بدعةٌ اقتبسوها بملابسة المدنية الجديدة، فما أوغل إمامهم أبو نواس في ذلك النهج البذيء حتى هبوا إلى تحديه.

والظاهر أن ذلك التراخي كان مندمجًا بروح العصر فانتهجه الشعراءُ، وسلك مسلكهم صفوة الأدباء كالبديع الهمذاني والحريري، وسمَّوه أحماضًا كأنه فكاهةٌ مستملحةٌ يتطلبها كل أديب أريب؛ ولهذا قال الحريري في مقدمة كتابه: «وما قصدت بالأحماض فيه إلا تنشيط قارئيه».

ذلك ما يعاب عليه المولدون ما خلا رهطًا منهم سما أدبا، وتهذب عقلًا ونفسًا.

أما إلياذة هوميروس فهي على ما وصلت إلينا نقيَّةٌ من تلك المغامز لا يؤاخذ صاحبها على شيء من هذا الخلال الأربع، أما الخُلَّة الأولى فلأن الشاعر جاهلي وحيثما تصفحت شعره رأيته أبدع في الوصف ورسم الحقائق، وأما الثانية والثالثة، فلأنهما مخالفان لطبعه، وذلك بادٍ في كل منظومه، وأما الرابعة فقد تحاشاها الشاعر لسموٍ في أدبه مع ما كان فاشيًا في عصره من الاستسلام للشهوات كما أثبتنا في ترجمته؛ ولهذا جاءت إلياذته نقية لا يتخللها شيءٌ مما تحظر قراءَته حتى على الغادة العذراء.

مناهج المولدين في أبواب الشعر وفنونه وأساليبه

لم يقتصر المولَّدون من الشعر على نظمه بل نظروا فيه ومحَّصوه، وانتقدوه، وعارضوه بعضًا ببعض، وبحثوا فيه بحثًا علميًّا، ووضعوا أصوله وبوَّبوا فصوله، وجمعوا مختاره، وعينوا فنونه ووازنوا بين الشعراء، وكتبوا في كل ذلك الأسفار الطويل بين نثرٍ وشعرٍ مما لا يتسع له بحثنا.

وقد جعلوا الشعر بالنظر إلى معناه أبوابًا حصرها أبو تمام في عشرة، وأبلغها ابن أبي الإصبع العدواني إلى ثمانية عشر، وهي: الغزل، والوصف، والفخر، والمدح، والهجاء، والعتاب، والاعتذار، والأدب، والزهد، والخمريات، والرثاء، والبشارة، والتهاني، والوعيد، والتحذير، والملح والسؤال، والجواب، وزادوا عليها الزهريات، والحكم، والمجون، والحماسة، وهي أشرفها عندهم وأجادوا في كل ذلك.

وتفننوا في الشعر تفننًا لم يعرفه الأوائل إلا قليلًا، فأفاضوا في التشطير، والتخميس، والمعمى، والأحجية، واللغز، والدوبيت الفارسي الذي خالفوا فيه أوزان الشعر العربية.

وأكثر من كلِف منهم بذلك متأخروهم كالحريري، وابن الفارض، وصفي الدين الحلي، وأن تخميس الصفي لحماسية السموأل من أجود ما قيل بهذا ومطلعها:

قبيحٌ بمن ضاقت عن الرزق أرضُهُ وطولُ الفلا رحبٌ عليه وعرضُهُ

ولم يُبل سربالَ الدجى منه ركضهُ إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضُهُ

فكل رداء يرتديهِ جميلٌ

وفي ديوان ابن الفارض كثير من الدوبيت واللغز كقوله:

يا ليلة وصلٍ صبحها لم يلحِ من أوَّلها شربتُهُ في قدحي

لما قصُرت طالت وطابت بلقا بدرٍ محني في حبهِ من منحي

وقوله ملغزًا في بقله:

ما اسمُ قوتٍ لأهلهِ مثل طيبٍ تحبهُ

قلبهُ إن جعلتهُ أولًا فهو قلبهُ

وللحريري ألغاز وأحاجي، ومعميات، وأحسنها بل أحسن ما قيل بهذا المعنى يائيتهُ الطويلة التي مطلعها:

عندي أعاجيب أرويها بلا كذبٍ عن العيان فكنوني أبا العجبِ

وأما التاريخ الشعري فلا نعلم لهُ شيوعًا عند المولدين، وإنما هو من فنون المحدثين أو المتأخرين، ولكنه بلا ريب مأخوذ عن أصلٍ قديم جدًّا؛ لأن الحساب بالحروف أقدم من جميع الشعر العربي المعروف، وقد استعمله اليونان والعبريون والرومان قبل العرب، ولكنهم لم يلصقوه بالشعر، على أن جميع هذه الفنون ليست إلا من فكاهات الشعر، ولا يجب أن تعد من بدائع النظم.

أما الموشح الأندلسي فهو من محاسن الاستنباط الشعري، قيل اخترعه مقدم بن معافر شاعر الأمير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث للهجرة، وقيل في أصله أقوال أخرى لا محل لذكرها، كانوا ينظمونه على أساليب شتى أشهرها جعل اللازمة بيتين، وكل دور بعدها خمسة أبيات كقول الخطيب الأندلسي:

جـادك الغيـث إذا الغيـث همـا	يـا زمـان الوصـل بالأنـدلسِ
لـم يكـن وصـلك إلا حُلمًـا	فـي الكـرى أو خلسـة المختلسِ

دور

إذ يقـول الـدهر أسـباب المنـى	تنقـلُ الخطـو علـى مـا ترسـمُ
زمـرٌ بـين فـرادى وثُنـا	مثلمـا يـدعو الوفـود الموسـمُ
والحيـا قـد جلّـل الـروض سـنا	فسـنا الأزهـار فيـه تبسـمُ
وروى النعمـان عـن مـاء السـما	كيـف يـروي مالـكٌ عـن أنـسِ

فكســاه الحســن ثوبًــا مُعلمــا　　　يزدهـــي منـــهُ بـــأبهى ملـــبسِ

كانوا ينهجون هذا النهج في طوال الموشحات، ولهم في ما سوى ذلك طرقٌ كثيرة تغنَّوا عليها، وخالفوا فيها أوزان الشعر المشهورة، وتراهم ينقرون في بعضها على أوتار الأفئدة كما ترى في قول ابن أبي بكر الأبيض في مطلع موشح:

مــا لــذَّ لــي شــرب راحِ　　　علــى ريــاض الأقــاحِ

لـــولا هضـــيم الوشـــاحِ　　　إذا آســى فــي الصــباحِ

أو فـــــي الأصـــــيلْ　أضـــــحى يقـــــولْ　مـــــا للشـــــمول

لطمــــــت خــــــدَّي

وللشـــــــــــــمال　هبَّـــــت فمــــالْ　غصــــن اعتــــدال

ضـــــمه بــــــردي

ممــــا أبــــاد القلوبــــا　　　يمشــي لنــا مســتريبا

يـــا لحظـــهُ ردَّ ثوبـــا　　　ويـــا لمـــاه الشـــنيبا

بـــــــرد غليــــــلْ　حـــــبٍ عليــــلْ　لا يســـــــــتميلْ

فيـــه عـــن عهـــدي

ولا يـــــــــــزال　فـــي كـــل حـــالْ　يرجـــو الوصــــال

وهـــو فـــي الصـــدِ

وقول عبادة القزاز:

بـــدر تـــم. شـــمس ضـــحا　　　غصـــن نقـــا. مســـكُ شـــم

مـــا أتـــم. مـــا أوضـــحا   مـــا أورقـــا. مـــا أنـــم

لا جـــرم. مـــن لمحـــا   قـــد عشـــقا. قـــد حـــرم

ومما يذكر للمولدين استطرادًا ضروبٌ كثيرةٌ من الشعر العامي كالمواليا وفي أصله أقوالٌ أشهرها: أن هارون الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم أحدٌ بشعر، فرثت أحدى جواريهم جعفرًا بشعر غير مُعرَب حتى لا يُعد شعرًا، وجعلت تقول بعد كل شطر يا مواليا قالت:

يـا دار أيـن ملـوك الأرض أيـن الفـرس   أيـن الـذين حموهـا بالقنـا والتـرس

قالت نراهم رمم تحت الأراضي الدرس   سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرسْ

هذا الذي يقوله المؤرّخون في أصل الشعر العامي، والذي نراه أنه أقدم من ذلك العهد بل نخاله معاصرًا للشعر الجاهلي، وللبغداديين أيضًا من هذا النوع القُوما، قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان سمي بذلك من قول المغنين «قوما نسحر قوما» وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث، وتفرع عنه فروع دعوها الزهري والخمري وغيرهما، ولهم غير ذلك من الشعر العامي مما لا محل لذكره.

وللأندلسيين كثيرٌ من هذا النوع مما تفرع عن الموشح، ومما تغنت به العامة كالزجل وفروعه عروض البلد، والمزدوج والكاري والملعبة والغزل ولا تزال بقايا كل ذلك في جميع البلاد التي غلبت فيها العربية، وأخصها الزجل المصري والزهيري البغدادي والمعنّى السوري، ولا يدخل في عدادها القصيد البدوي؛ لأنه من بقايا الشعر الجاهلي الفصيح.

وأحرز المولدون أيضًا قصب السبق في الحكم والمواعظ، وجمع شوارد الأمثال وأول رافع منهم لذلك اللواء أبو العتاهية فإنه نظم فيها أرجوزة طويلة قيل إنه ضمنها أربعة آلاف مثل، وهي من بدائع نظمه ومنها قوله:

حسبك مما نبتغيه القوتُ … ما أكثر القوت لمن يموتُ

الفقر في ما جاوز الكفافا … من اتقى الله رجا وخافا

هي المقادير فلمني أو فذر … إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

لكل ما يؤذي وإن قل ألم … ما أطول الليل على من لم ينم

من جعل النَّمَّام عينًا هلكا … مُبلغك الشرَّ كباغيه لكا

إن الفراغ والشباب والجده … مفسدةٌ للمرءِ أي مفسده

ما زالت الدنيا لنا دار أذى … ممزوجة الصفو بألوان القذى

الخير والشر بها أزواجُ … لذا نتاجٌ ولذا نتاجُ

من لك بالمحض وليس محضُ … يخبثُ بعضٌ ويطيب بعضُ

لكل إنسانٍ طبيعتانِ … خيرٌ وشرٌ وهما ضدان

وجرى كثيرون من شعراء المولدين مجرى أبي العتاهية في جمع الحكم والأمثال في القصائد الغرَّاء، فمنهم من نظمها مجرَّدة عما سواها من المقاصد كأبي الفتح البستي في النونية المعروفة التي مطلعها:

زيادةُ المرء في دنياه نقصانُ … وربحهُ غير محض الخير خسرانُ

وكلّ وجِدان حظٍ لا ثبات لهُ … فإن معناه في التحقيق خسرانُ

ومثلها لامية ابن الوردي:

اعتــزل ذكــر الأغــاني والغــزلْ   وقــل الفصــل وجانــب مــن هــزلْ

ودعِ الـــذكر لأيـــام الصـــبا   فلأيـــام الصـــبا نجـــمٌ أَفـــلْ

ومنهم من أودعها قصائد قيلت لمقاصد معلومة كما فعل ابن دُرَيد في منظومته المعروفة بالمقصورة الدريدية، وقد أراد بها مدح الشاة ابن ميكال وولديه ومطلعها:

يـا طبيـةً أشـبه شـيءٍ بالمهـا   ترعـى الخزامـى بـين أشـجار النقـا

إمَّـا تَـرَي رأس حـاكي لونـهُ   طـرَّة صـبح تحـت أذيـال الـدجى

فكـل مـا لاقيتـهُ مغتفـرٌ   فـي جنـب مـا اسـأره شـحط النـوى

ومن هذا القبيل قصيدة الطغرائي المعروفة بلاميِّة العجم، إذ قالها لغرضٍ في نفسه، ومزج فيها الحكم بالفخر كما ينبئك مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل   وحِليـة الفضـل زانتنـي لـدى العطـلِ

مجدي أخيرًا ومجدي أوَّلًا شرَعٌ   والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفلِ

وأبناء هذا الفريق الأخير من الشعراء يتجاوزون حد الحصر، ويندر أن ترى شاعرًا لم يودع شعره شيئًا من الحكم والأمثال بل كان كثيرون منهم يوطئون بها للمدح والهجاء، والوصف والرثاء، فتقوم لديهم مقام التوطئة بالغزل.

ويقال في الجملة: إن المولدين مع تبذُّلهم في المدح طرقوا جميع أبواب الشعر مما تقدم ذكره، ولكنهم قلَّما اقتصر الشاعر منهم في القصيدة الواحدة على بابٍ واحد بل كانوا يمزجون مزجًا يُمَلُّ أحيانًا، ولكنه يُطرب أحيانًا كثيرة ولا سيما في القصائد الطويلة التي لا بد من تفكيه سامعها بما يثنيه هنيهة عن مرمى الشاعر، وربما جمع شاعرهم بين الغزل والحكم والأمثال، والزهريَّات والفخر، والمدح في قصيدةٍ واحدة وأطربك في كل ما قال لبلاغته، وطلاوة شعره وحسن تصرفه، وحسبك مثالًا من ذلك قصيدة ابن الرومي المسماة حديقة الشعر، وهي التي مدح بها إسماعيل بن بلبك في ما ينيف على مئتي بيت، فبينا تخاله مستهلًا بزهريةٍ، فيقول:

أجنت لك الوجد أغصانٌ وكثبانُ ... فيهن نوعان تفاحٌ ورمانُ
وفوق ذلك أعنابٌ مهدَّلةٌ ... سودٌ لهنَّ من الظلماءِ ألوانُ
وتحت هاتيك عنَّابٌ تلوح به ... أطرافهنَّ قلوب القوم قنوانُ

إذا بك تراه متغزلًا، فيقول:

غصون بانٍ عليها الدهرُ فاكهةٌ ... وما الفواكه مما يحمل البانُ
ونرجس بات ساري الطلَّ يضربه ... وأقحوانٌ منيرُ النَّور ريَّانُ
أَلِفن من كل شيءٍ طيبٍ حسنٍ ... فهنَّ فاكهة شتى وريحانُ

فإذا أسكرك بنشوة تلك الصهباءِ وقف خطيبًا واعظًا، فقال:

ثمار صدقٍ إذا عاينت ظاهرها ... لكنها حين تبلو الطعم خطبانُ

بـل حلـوة مـرَّةٌ طـورًا يقـال لهـا　　شـهدٌ وطـورًا يقـول النـاس ذيفـانُ

... ...　　... ... ...

تلـك الغصـون اللـواتي فـي أكمَّتهـا　　نعـــمٌ وبـــؤسٌ وأفـــراحٌ وأحـــزان

يبلـو بهـا الله قومًـا كـي يبـين لـهُ　　ذو الطاعـة البَـرُّ ممـن فيـه عصـيانُ

ومـا ابـتلاهم لإعنـاتٍ ولا عبـثٍ　　ولا لجهـــلٍ بمـــا يطويـــه أبطـــانُ

لكـن ليثبـت فـي الأعنـاق حجتـهُ　　ويحســن العفــو والــرحمن رحمــنُ

ثم إذا تخلص إلى المدح أودعهُ المعاني الشائقة، والحكم الرائعة، وإذا انتقل منه إلى العتاب وطلب النوال ألبس ذلك جلبابًا بهيًّا، واختتم بما لا يصلح سواه أن يكون تاجًا لتلك الغادة الهيفاءِ فقال:

وإن أبيــت فحســبي منــك عارفــةٌ　　إن امتــــداحك عنــــد الله قربــــانُ

والحـر يسـغب دهـرًا وهـو ذو سـعةٍ　　والعـفُّ يطـوي زمانًـا وهـو سـغبانُ

وللـــبلاءِ انفـــراج بعـــد أزمتـــهِ　　ورعبـــة الـــدهر أعجـــاف وأســـمانُ

وللإلـــه ســـجالٌ مـــن فواضـــلهِ　　كـــل امـــرئٍ ناهـــلٌ منـــه وعـــلَّانُ

أن لا يُعنـي علـى دهـري أخـو ثقـةٍ　　مـــن العبـــاد فـــإن الله معـــوانُ

أو يبطـل الحـق عنـد النـاس كلهـم　　فلـــيس للحـــق عنـــد الله بطـــلانُ

خـذها أبـا الصـقر بكـرًا ذات أوشـيةٍ　　كـالروض ناصـي عـرارا فيـه حـوذانُ

وأسـلم لراجيـك مسـعودًا وإن تربـت　　ممـــن يعاديـــك آنـــاف وأذقـــانُ

وهكذا فإنه يظل يرتقي بك درجةً بعد أخرى، وهو يهيجك طربًا حيثما وقف بك ويحوم حول مطلبه حتى يلجئك إلى استتمام سماعه فلا تشعر إلا وقد أتيت على قصيدته برمَّتها، وأنت مشغوف بطلاوتها فقلت: «هلَّا زادني منها رحمه الله».

وهذا المنزع بعينه هوميروس في إلياذته، ولو لم تكن حديقة ابن الرومي خليةً من أخبار الشعر القصصي لقلت هي شطر من تلك الملحمة التي خلب بها هوميروس عقول رواته وقرَّائه، وكأني بابن الرومي وفيه لمحةُ من كنيته التي كان يعيَّر بها في زمانه إلى جرثومةٍ في أصله أو عرفانه كانت تحمله على تحدِّي هوميروس في كثيرٍ من أساليبه ومعانيه وتشبيهاته.

وللمولدين أقوالٌ ساحرةٌ في التشابيه والكنايات والاستعارات، وكانوا كلما أبعدوا عن الحقيقة فقصروا فيها عن الجاهليين أوغلوا في الخيال، ففاقوا المتقدمين بسعة التصوِّر وضروب المجاز.

علوم الأدب عند المولّدين

ليس من شأننا هنا التعرض لجميع ما تنطوي عليه علوم الأدب في عرف بعض العلماء من نحوٍ وتصريفٍ، ولغةٍ واشتقاقٍ وأمثالها بل نقصر الكلام على ما كان منها خاصًا بالشعر كالعروض أو ملازمًا له كالبديع والبيان.

فالمولّدون هم الذين فتحوا باب البحث في صناعة الشعر، وقيَّدوا شوارده، وفصَّلوا قواعده، وشاركهم في ذلك النحاة والأدباء وعلماء اللغة، فضبطوا الأوزان ووزنوا المعاني، وصيروا قرض الشعر علمًا بعد أن كان ملكةً لا ضابط لها إلا القياس السماعي.

وقد كان ذلك القياس يكفل استبقاء تلك المَلَكَة أيام كان العرب في معتصمهم يتخالطون في البوادي والحواضر، وتجمعهم سوق عكاظ كل عام، فتُقَوِّمَ ما اعوجَّ من منطقهم، ولا يخالطهم الأعاجم مخالطةً تعبث بلسانهم على أن إيغالهم في أطراف المعمور، وانتشار لغتهم انتشارًا لم يكن انتشار اليونانية واللاتينية بإزائه شيئًا مذكورًا، وامتزاجهم بسائر الملل كل هذا أحدث انقلابًا ألجأهم إلى تقييد أصول الشعر على إثر تقييد أصول اللغة.

العروض

فكان أول ما استلفت نظرهم ضبط الأوزان، فوضع الخليل بن أحمد علم العروض نحو سنة ١٥٠ للهجرة أي: في أوائل العصر العباسي عصر المولِّدين.

ويقول بعض المتقدمين من كتَّاب العرب: «إن العروض علمٌ خاصٌ بالعربية، وأن الخليل استنبطه، ولم يسبقه إليه أحدٌ في لغةٍ أخرى مع أن أرسطوطاليس ضبط قواعده للغة اليونان، وله فيه تأليفٌ يعوَّل عليه» ولأكثر اللغات قواعد ضابطة لأصول الشعر وعروضه، ويؤخذ من

قول ابن خلّكان في ترجمة الخليل أنه ألمَّ باليونانية، وفك معمَّى أرسل إليه فيها، ولكنه لا يثبت من كل ذلك أن الخليل وقف على كتاب أرسطوطاليس في العروض واعتمد عليه، وخصوصًا أن العروض العربي مختلف في جميع أوضاعه عن عروض اليونان، ومن جرى مجراهم، وعلى كلٍ فإن للخليل فضلًا على الشعر العربي يضاهي أبي الأسود الدُّؤلي على نحو اللغة بل يربو عليه؛ لأنه لم يكن للخليل مرشدٌ إلى استنباطه، ولا شريكٌ فيه، ولا يكبُر على الخليل أن يكون مستنبطًا بلا دليلٍ سابق يسترشد به؛ لأن الاستنباط كان في طبعه، وله مما خلا العروض استخراجاتٌ كثيرة تدلُّ على سعة عقل لمَ يقدرها ابن المقفَّع قدرها إذ قال: «علم الخليل أكبر من عقله».

والغريب أنه كاد يبلغ بهذا العلم حد الكمال منذ فكر فيه وضعه إذ قيَّد جميع البحور التي انتهجها العرب، ولم يُزَد عليها من بعده إلا بحرٌ واحد هو المُحدَث أو الخَبب، ويقال له: المتدارَك أيضًا؛ لأن الأخفش تداركه على الخليل، ولا عبرة بما استعمل المولَّدون من الأوزان الفارسية كمنقول الفاريابي والدُّوبيت، وما عدلوا به عن الأوزان المألوفة في الموشحات والأغاني، وما زادوا فيه من تقييد العلة والزحاف، فذلك عرضٌ ينفسح للتسوع فيه مجالٌ رحب؛ ولهذا يصحُّ أن يقال: إن علم العروض خُلق كاملًا؛ لأن الخليل أحكم تمثيل جميع القوالب الشعرية وتطبيقها على جميع منظوم العرب في الجاهلية.

البديع

رأيت أن المولدين تفننوا في الصناعة الشعرية، ونهجوا مناهج لم يسبقهم إليها الجاهليون والمخضرمون، وتلاعبوا بالألفاظ والمعاني، فمست الحاجة بعد صوغ تلك القوالب إلى توشيتها والنظر في إحكام زخرفها، فوضعوا علم البديع بفرعيه اللفظي والمعنوي، فكان اللفظيُّ ألصق بالشعر منه بالنثر، والمعنوي يتناول جميع فنون الإنشاء من شعرٍ ونثرٍ على حدٍّ سواء.

وأول من كتب في البديع فيما نُقل إلينا شاعرٌ كُلِفَ بأنواع التشابيه والاستعارات، فكان قوله فيهما حجة الكتَّاب والشعراء ألا وهو ابن المعتز العباسي، ولم يكن بين المولدين من هو أولى منه بوضع هذا الفن، فكتب في صنعة الشعر، ووضع رسالة في البديع كانت أساس هذا العلم، وذلك في أوائل الشطر الأخير من القرن الثالث للهجرة أي: بعد أن وضع الخليل علم العروض بأكثر من قرن.

ولا بدع أن يكون واضع هذا العلم شاعرًا، وإن كان العلم بنفسه غير خاصٍ بالشعر كالعروض، فالعلماءُ والشعراءُ يتعاونون على إحياء الأدب، فالشاعر صنَّاجة جيش العلماء، والعالم نبراس جند الشعراء.

وهكذا فإننا نعدُّ من مآثر المولّدين وضع علمين عربيين استنبطاهما استنباطًا بالنظر إلى العربية، وهما: العروض، والبديع اللفظي.

البيان

أما البيان بما يشمل من علم المعاني والبديع المعنوي فليس من وضع العرب بحصر المعنى، وإن كانوا طبقوه على التراكيب العربية، فقد استمدُّوا أصوله من اليونان والسريان والفرس كما استمدوا المنطق من كتاب أرسطوطاليس وغيره من علماءِ المتقدمين، وكان للفرس في البيان اليد الطولى، ولجعفر البرمكي كلامٌ فيه ما زال يُنقل عنه، على أن للمولدين فيه النظر العالي والفضل الواسع بما أحسنوا في تبويبه، وأحكموا في ترتيبه حتى ألبسوه حلةً عربية، ومع هذا فلم يبلغ حتى يومنا درجة الكمال التي بلغها العروض والبديع اللفظي.

فهذه علومٌ ثلاثة وضعها المولّدون إحكامًا للصناعة الشعرية وأساليب الإنشاء، وليس من شأننا أن نتطالَّ إلى ذكر سائر العلوم التي لها علاقةٌ بالشعر قريبةٌ أو بعيدة، فهي كثيرة ولا سيما في هذا العصر حيث لا غنى للشاعر عن الإلمام، ولو قليلًا بكثير من العلوم.

أطوار شعر المولَّدين ومزاياه

كانت مخالطة المسلمين للأعاجم في عصر العباسيين على خلاف ما كانت عليه لعهد الدولة الأموية، فإن الأمويين كانوا لأغراضٍ ليس من شأننا البحث فيها يترفعون في أغلب الأمور عن الأجانب، فظلوا على قربهم منهم بعيدين عنهم بالمجالسة والمحادثة والامتزاج، فخفي عنهم كثيرٌ مما كانت معرفته غير ضارة، وأما العباسيون فاختلطوا

بالأعاجم اختلاطًا مكّنهم من استطلاع خفاياهم وقرّبوا إليهم كل ذي جاهٍ وسياسةٍ، وعلمٍ وأدب، وأجزلوا العطاءَ لكل عضوٍ مفيد في ذلك الملك الواسع سواءٌ كان عربيًّا مسلمًا أو يهوديًّا عبرانيًّا أو نصرانيًّا سريانيًّا أو فارسيًّا أو يونانيًّا، فأحاطوا بكل معارف زمانهم وأَلِف أبناء دولتهم أنواع معيشة البشر، فاتسعت على أثر ذلك معارف الشعراء وتفننوا في صناعتهم على وجوه لا عهد للمتقدمين بها.

وهذا كان شأنهم في جميع البلاد التي ملكوها، والشعراءُ على مذهب ملوكهم يقتبسون من كل وادٍ ونادٍ، فعمَّت النهضة الشعرية وكانوا جميعًا فيها سواء.

ولكن زمن تلك النهضة طال كثيرًا واتسع نطاقها اتساعًا عظيمًا، فظهر فرقٌ في منظوم الشعراء بالنسبة إلى الزمان والمكان، وهو ما نريد إجمال الإشارة إليه.

على أنه لا يجب أن يؤخذ من قولنا أن المولدين يُقسمون بالنظر إلى الأزمنة والأمكنة إلى طبقاتٍ تنفرد كلٌّ منها بمزية خاصة بها إذ قد ترى شاعرين بينهما قرون، ونهجهما واحد، وأساليبهما متفقة، ومعانيهما متقاربة، وقد نشأ كلٌّ منهما في بلاد، فإنما نحن ناظرون إذن إلى النزعة الغالبة في كل عصرٍ وقُطر.

فإذا أمعنت في شعر المولدين بالنظر إلى الزمان رأيت شعار المتقدمين منهم الرقة والرواء، وظل هذا شأنهم حتى أواخر القرن الثالث

للهجرة أي: نحو ١٧٠ عامًا، والباعث الأعظم لذلك ولوجهم في ترف العيش، ونضارة الحضارة، وهم وإن ظلَّ كثيرون منهم في عيشٍ خشن إلا أن من لم يتمتع منهم فقد نظر وخبر، وقد يَفْضُل وصف الرقيب وصف الحبيب، وأوَّل من مهَّد ذلك السبيل مخضرمو الدولتين؛ كبشَّار بن بُرد، ومروان بن أبي حفصة، وتابعهم خلفاؤُهم كأبي العتاهية وأبي نواس والبحتري، وما زالوا على ذلك حتى قام ابن المعتز، وابن الروي، وبهما خُتم ذلك العصر الزهي عصر الرونق والبهاء، فإذا قرأت شعر جميع من تقدم ذكرهُ رأيته يسيل عذوبةً وسلاسةً، وقد تميز برقته وانسجامه.

وتبعتهم الطبقة الثانية من المولدين، وكانت أدمغة الشعراء قد امتلأت حكمةً وفلسفةً مما نضج من ثمار العلم، فأوغلوا في المعاني الدقيقة وتطلبوا الأفكار السامية وصاغوا للتشبيه قوالب شائقة من الكناية والاستعارة، فوسعوا أبواب المجاز وأخذوا بناصية الخيال فقربوه من الحقيقة، وشعارهم في كل ذلك سمو التصور، وكان هذا ديدنهم من المتنبي وأبي فراس الحمداني وابن هاني، وأبي العلاء المعري، وأبي إسحاق الصابي، وأبي إسحاق البستي، والشريف الرضي حتى الخفاجي، وابن زيدون الأندلسي في مدة زهاء ١٧٠ عامًا كمدة الطبقة الأولى.

ثم أتت الطبقة الثالثة في أواخر القرن الخامس للهجرة، والشعر بحكم البناء موطد الأركان والعلوم البيانية مفصلة القواعد، فعمدوا إلى تنميق الشعر والتفنن بزخرفة وتوشيته بأنواع البديع، والمجيدون منهم

يحكمون رصف المعنى الدقيق باللفظ الرشيق، ولكن بعضهم أفسدوا بهجة المعاني بتوخي التجنيس، ومع هذا فقد كان منهم نوابغ لا يكادون ينحطُّون منزلةً عمن تقدمهم كالطغرائي (وهو متوسط بين هذي الطبقة والطبقة الثانية) وابن خفاجة الأندلسي وابن قلاقس الإسكندري، وابن النبيه المصري، وابن الفارض، والبهاءُ زهير المصري، والشاب الظريف، وصفي الدين الحلي خاتمتهم، وطالت مدة هذه الطبقة من المولدين نحو ٢٦٠ عامًا أي: إلى حوالي سنة ٧٣٠هـ، فكان عصر المولدين جميعًا ستمئة عام.

وأما بالنظر إلى المكان فأبناءُ البلاد العربية ظلوا جانحين إلى البساطة الجاهلية؛ لانطباع تلك الأخلاق في نفوسهم، وبرز المصريون في الرقة والعذوبة لدماثةٍ في خلقهم، ورقةٍ في طبعهم، وغلبت البلاغة والمتانة في العراقيين لشدَّةٍ في فطرتهم وملابستهم لأهل البادية، ومال الأندلسيون وسائر أهل المغرب إلى التفنن بأساليب الشعر، ووصف الغياض والرياض لنضارة أرضهم، ووقف السوريون بين المصريين والعراقيين، فجمعوا بين رقة الأولين وبلاغة الآخرين، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ فريقٍ منهم في إحكام صنعته.

طبقة المُحْدَثِين أو المتأخرين

ليس في عصر المتأخرين ما يستوقف النظر، فهو عصر الانحطاط والتقليد فإن الدول العربية كانت قد دالت، وتغلب الأعاجم

على ممالك الإسلام، ولولا القرآن لبادت لغة قريش المضرية كما تقدم وبانت في عداد اللغات الميتة، وقامت في إثرها لغاتٌ لا يتفاهم أصحابها، والعباسيون وهم أصحاب ذلك اللواء الخافق بين المشرقين كانوا قد هبطوا من سماء مجدهم لقرونٍ خلت، ولكن أسس العلم أرسخ من أسس الدول، فالدول تدول وملكها يزول، وتبقى معالم حضارتها وعرفانها، ولولا ذلك لانطفأت جذوة النهضة العباسية في أواخر القرن الثالث للهجرة حين لم يبق للعباسيين من حقيقة السلطان إلا طيف خيال، ولكان شاعرهم ابن المعتز آخر من أسلم تلك الراية البيضاءَ بيد الجلَّاد الذي تولَّى قتله، ولكن قاهر الدول ومبيدها يذل دون إبادة معارفها؛ ولهذا تعاقبت الأحقاب وشرارة النهضة العباسية لاهبة تتضرَّم في أفئدة الشعراء تضرُّمها في عقول العلماء، ولم تخمد إلَّا بعد أن بلغت الحد المقضي لكل مفطورٍ ومنظور.

ومع هذا فإن تلك الجذوة ما زالت ترسل قبَسًا تذكو به قريحة شاعرٍ حينًا بعد حين حتى لا تخلو الأرض في زمنٍ من شعراء العرب، وحسبك النظر إلى ابن نُباتة المصري في القرن الثامن، وابن حجر العسقلاني في القرن التاسع، وعبد الباقي المعروف عند الترك بملك شعراء الروم في القرن العاشر، وابن معتوق الشهاب الموسوي في القرن الحادي عشر، وعبد الغني النابلسي في القرن الثاني عشر.

ويقال مع ذلك إجمالًا أن الانحطاط في الشعر العربي أخذ يظهر قبل انقضاء عصر المولدين، وبات التقليد شعار المتأخرين، وحبذا لو كان تقليدًا صحيحًا بل هو شوَّه وجه الشعر، ولا سيما في القرنين الأخيرين إذ بات شاعرنا، ولا إلمام له بأحوال عصره فضلًا عن أحوال المتقدمين يتحدَّى امرأ القيس، فيضرب في البوادي والقفار، وهو في بيتٍ موصد الأبواب، ويسوق الظعن وهو على متن قطار البخار، ويترنم ببهجة الرقمتين وينيلهما من كرمه صفات جنة عدن، ولا يدري أنهما مطمئنان من الأرض في بادية قفرة تقتله أشعة الشمس إذا وقف إليهما ساعة واحدة، وهو لو فطن يتنقل في موطنه في روضٍ أريض، وجناتٍ تجري من تحتها الأنهار، حتى لو أردت أن تستدل من شعرهم على شيء من حالة مجتمعهم لأعياك ذلك، وغاية ما يرتسم في ذهنك صورٌ مشوَّهة لا يُعلم لها رأسٌ من ذيل.

ولما كانت الكنانة فارغة من سهام المعاني عمدوا إلى قذف الألفاظ مزوَّقة بحليةٍ يتسترون من ورائها وما هم بمتسترين، حتى كأن قدماء العروضيين كانوا ينظرون إليهم عندما وضعوا للشعر ذلك التعريف الناقص، فقالوا: «هو الكلام المقفَّى الموزون» ولم يزيدوا.

الشعر العصري

لم يبق للشعر بعد تلك الرقدة الطويلة إلَّا أن يهبَّ هبةً جديدة بطورٍ جديد، وروح حية، وفي الأمة والحمد لله بقيةٌ متأهبةٌ لولوج ذلك

الباب الرحب، وهي شاغرةٌ منذ نصف قرن بوجوب مجاراة الزمان، وعالمةٌ أن التصدي لمصادمة تيَّار الترقي غرور عاقبته الزيغ والخذلان؛ ولهذا شرع النوابغ من أبناء هذا العصر في تعديل الخطة، فكانت لهم اليد البيضاء، وأسفر جهدهم عن إبراز الشعر الرقيق بالثواب الأنيق، وما هو إلا قَبسٌ فاض من غرَّة هلالٍ سيتكامل بفضلهم بدرًا إن شاء الله.

الملاحم أو منظومات الشعر القَصصي

بحث العرب في أبواب الشعر وضروبه وفنونه، ودعوها جميعًا بأسماء تنطبق عليها، ولكنه لم يتصل بنا أنهم وضعوا اسمًا لمنظومات الشعر القصصي من نظائر الإلياذة إلا أن يكون ذلك ما استحدثه أهل المغرب، وسمَّاه بعضهم بالملاحم، وهو عندهم كالملاعب بالشعر العامي ما تضمن من المنظوم أحوال أمةٍ أو قومٍ وفُصلت فيه وقائع الحروب والتاريخ، ولعلهم أخذوا ذلك من التحام القتال، والملحمة في اللغة: الوقعة العظيمة، وربما قُصد بها الإحكام من لَحَمَ الأمر بمعنى: أحكمهُ؛ لأن من ألقاب صاحب الشريعة الإسلاميَّة «نبيُّ الملحمة» وقالوا في تفسيرها: «نبيُّ القتال أو نبي الصلاح، وتأليف الناس كأنه يؤَلف أمر الأمَّة.

ويقول العرب أيضًا: أَلحم فلانٌ الشعر، وحاكه بمعنى: نظمه تشبيهًا لبيت الشِعر ببيت الشَّعر، وبالثوب المَحُوك كأنهم يريدون الإشارة

إلى تأليف أجزائه بإحكام اللُّحمة بينها، ومنه الملحمات لمختاراتٍ سبعٍ من قصائدهم سيأتي ذكرها.

ومهما يكن من النسبة المعنوية بين لفظ المُلحمات والشعر القصصي، فالنسبة بينه وبين الملاحم أظهر؛ ولهذا سمَّينا إلياذة هوميروس وأشباهها بالملاحم تفاديًا من استحداث لفظة لم يسبق لها استعمال بين الكتَّاب.

ضروب الشعر عند الإفرنج

قلنا: أن العرب قسموا الشعر من حيث المعنى إلى أبوابٍ كالغزل والمدح، والهجاء والرثاء إلى آخر ما هنالك من أبواب الشعر، وهو معلومٌ أن في شعر جميع الأمم شيئًا من هذه المعاني. ولكن الإفرنج ينهجون في تقسيم أبواب الشعر نهجًا آخر يجارون فيه العرب بالبحث في أكثر هذه الأبواب وغيرها مما لم يذكره العرب، ويخالفونهم بالرجوع إلى حصرها جميعًا في بابين: الشعر القصصي، وهو الذي عبَّرنا عن منظوماته بالملاحم والشعر الموسيقي، وهو ما نُعبر عن منظوماته بالقصائد أو الأغاني، ويسمون الأول «إيبك» والثاني «لِيريك». وكلا الفظين يونانيُّ الأصل، فالأول من إيوس (επος) بمعنى الغناء أو (επο) أيو بمعنى الكلام، والثاني من ليرا (λυρα) بمعنى القيثارة أو الكنَّارة أو آلة طرب أخرى تشبه العود المعروف عندنا، ومعناهما يحصر المعنى واحد كما ترى إذ يُرجع بهما في الأصل إلى المقصود من الشعر

في أقدم أزمانه، وهو التغني بألحانه والتطرب بمعانيه والتلهي بإنشاده، ولكنهم فصلوا في الاصطلاح بين البابين، وجعلوا لكلٍ منهما مزايا خاصة به، وضمَّنوهما سائر أنواع الشعر، ذلك أنه لا بد في الشعر من أن يُرمى به إلى أحد أمرين؛ إما بسط أحوال العالم بمظاهره البارزة، وإما التعبير عن شعائر النفس الخافية عن الأبصار، وإبراز التصورات الكامنة في الصدور، ومُعظم ما يقال من الشعر لا يخرج عن إحدى هاتين الحالتين، فالشاعر القصصي بهذا الاعتبار يعبر عن شعائر غيره، والشاعر الموسيقي إنما يعبر عن شعائر نفسه.

فإذا نظرنا على هذا القياس إلى الأصل الشعري في بعض أسفار التوراة واتخذناها مثالًا جاز لنا أن نُلحق سفر أيوب بالشعر القصصي، ونعتبره ملحمةً من صفوة الملاحم، ونلحق الزبور ونشيد الأنشاد بالشعر الموسيقي، وهما من أبدع الأغاني والقصائد التي نطق بها البشر.

وقد ألحقوا بهذين البابين بابًا ثالثًا دعوه «دراما» من لفظة ذراما اليونانية (δραμχ) بمعنى العمل أو الصنعة، وهو ما نستحسن التعبير عنه بالتمثيلي؛ لأنهم يقصدون به غالبًا منظوم الروايات التمثيلية، وهو متوسط بين القسمين السابقين، ولكل من هذه الأقسام الثلاثة فروعٌ لا محلَّ لإيرادها.

إلا أنه لا يترتب على ما تقدَّم أن منظومات الشعراء يجب أن ينتمي كلٌّ منها إلى قسمٍ من هذه الأقسام، ويلصق به غير متجاوزٍ إلى ما

سواه، بل قد يكثر التداخل بينها، ولا سيما في منظوم البلغاءِ، فإلياذة هوميروس ملحمةٌ من الشعر القصصي بالنظر إلى ما تضمنته من سرد الوقائع والأخبار، وما تجاوزت به إلى ما وراء الطبيعة من شئون الآلهة وملابستهم للبشر في أعمالهم، وإيضاح حقائق الفضائل والرذائل بطريق الإخبار، ولكن فيها قطعًا من أبدع ما قيل في الشعر الموسيقي، وحسبك منها رثاء آخيل لفطرقل، وتفجعه عليه في مواضع مختلفة منها، وأن وداع هكطور لزوجته في النشيد السادس ما زال على قِدمه المثال الذي ينسج على منواله أرباب الشعر التمثيلي، وليس بين المتقدمين ولا المتأخرين من أدرك شأوه، وأجاد إجادته فيه مع كل ما أحسنَ راسين الفرنسي في روايته «انذروماخ».

ويقارب هوميروس في الضرب على جميع الأوتار شكسبير الإنكليزي، فالمشهور عنه أنه من أنصار الشعر التمثيلي، ومع هذا فإذا أخذت مثلًا رواية «هَمْلِتْ» رأيت فيها من معاني القصائد والملاحم ما يوقفك دهشة وإعجابًا، وقل مثل ذلك في رواية «السيد» لكُرنَي الفرنسي «وأنذروماخ» السالفة الذكر، وفوست لغوته الألماني، وأشباه ذلك من منظوم نوابغ الإيطاليين وغيرهم.

وهو معلومٌ أيضًا أن الشائع عن العرب بين الإفرنج أنهم لم يضربوا إلا على وتر الشعر الموسيقي، ولم يتخطَّوا في النظم إلى ما وراء

القصائد والأغاني، ولكنه قولٌ مبالَغ فيه بل زعمٌ موهومٌ فيه كما سنبين في باب «ملاحم العرب».

ملاحم الأعاجم

قد يتبادر إلى الذهن أن رسم الظواهر أقرب إلى الفطرة وأيسر تناولًا من رسم الخوافي الكامنة في النفس؛ ولهذا كان الشعر القصصي في أكثر الملل متقدمًا على الشعر الموسيقي وفنونه، والصواب أن الأغاني والقصائد أَقدم من الملاحم والملاحم أقدم من التمثيليَّات لأن أَقدم ما نطق به الإنسان من الشعر إنما كان أَغنية يتطرب بها، أو أنشودةَ تقذفها النفس إشعارًا بعاطفةٍ من نحو حب ودعاء وغيظٍ ورجاء، أو ملهاة ينشدها الكبير ليتلهَّى بها الصغير، فهذه القطع الصغيرة تقدمت بلا ريبٍ على المنظومات الطويلة من أشباه الإلياذة إذ لا تتوفر معدات نظم الملاحم إلا في الشعوب الراقية بعد أن تألف نظم المقاطيع القصيرة مئاتٍ من الأعوام، ولكن قد يمكن أن يكون ارتقاء الشعر القصصي متقدمًا على ارتقاءِ الشعر الموسيقي، وأن تقدم الموسيقى بالوضع كما أن ارتقاء بلاغة الشعر متقدمة على بلاغة النثر، وإن كان النثر متقدمًا بالوضع. أما التمثيليات فهي من نتاج الملاحم فجاءَت متأَخرة عنها بالطبع؛ لأنهُ كان أَيسر على الشاعر في غابر الأزمان أن ينطق بلسان جميع ممثَّليه كما هي الحال في الملاحم من أن يجعل كلًا منهم ينطق بلسان نفسه في محل مُعدٍّ لذلك كما هو الواقع في التمثيليَّات.

والشعراء في جميع الملل يجارون المؤَرّخين في تدوين الوقائع، وهم وإن قصروا عن المؤرخين في تعيين المواقيت وتفصيل الحوادث إلا أنهم يسبقونهم في تعريف الشعائر والأخلاق، ووصف أحوال المجتمع البشري وتبيان علاقة الخالق بالمخلوق؛ لهذا لم يكن في الأمم قديمها وحديثها أمَّةٌ أدركت شأوًا مذكورًا في الحضَارة إلا وقام نوابغ الشعر القصصي يبسطون أحوالها، ويجيدون الرسم بنافذ الكلام بما يفوق إجادته بقلم الرسَّام.

فلقدماء المصريين شعرٌ كثير يستدلُّ عليه من عاديَّاتهم، وإن كان الزمان قد أباد ملاحمهم الطويلة، فإن في ما وجد من القطع المتبعثرة بين الآثار ما يدلُّ على أنها كانت ذات شأنٍ خطير، وحسبك منها شعر نبتاهور.

وللهنود ملاحم بقي بعضها ولا تزال «المهابهارتا» آية في بابها وقد تُرجمت منها قطعٌ كبيرة إلى لغات الإفرنج.

وللعبرانيين ملاحم لا يزال بعضها في التوراة، ولقدماءِ الجرمانيين والسكنديناڤيين ملاحم كانوا يحلّونها محلًّا رفيعًا.

واليونان كانوا منذ القدم مشغفين بالشعر القصصي، ولهم فيه منظوماتٌ كثيرة قبل ملحمتي هوميروس أشرنا إليها في موضعها.

والرومان ساروا على إثر اليونان، فأبدعوا في هذا الفن وقد أشرنا مرارًا إلى إنياذة فرجيليوس.

وقام الإفرنج على أثار تينك الدولتين، وتغنَّوا قرونًا بمنظومات رولان في فرنسا، وهيلدبراند ونيبولنغن في ألمانيا إلى أن قام نوابغ المتأخرين كدنتي الإيطالي، وملتُن الإنكليزي ومن حذا حذوهما.

ثم إذا انثنينا إلى ملل الإسلام من غير العرب رأينا أنها ليست بالأقل حظًّا من هذا الفن، وهذه شهنامة الفردوسي في أخبار ملوك العجم مما يعجب به وُيحسد عليه، وقد ذكرناها في غير موضع من هذا الكتاب.

وإن للفرس اليد الطولى في هذا الفن، ولهم فيه غير ملحمة الفردوسي منظومات كثيرة كشهنامة القاسمي الكونابادي التي نظم فيها وقائع الشاه إسماعيل وأهداها إلى الشاه طهماسب، وجعلها نظيرةً لتيمورنامة الهاتفي، ومثلها شاهية مجد الدين البابري النسائي في وقعة الخوارزمي.

وللترك أيضًا يدٌ في الشعر القصصي كمنظومة شهودي في أربعة آلاف بيت، وإن أغرب ما روي في هذا الباب ما نقل عن شهنامة الشاعر التركي الملقب بالفردوسي الطويل، قالوا: إنه نظمها في مليون وستمئة ألف بيت، وكتبها في ثلاثمئة وثلاثين مجلدًا فلما عُرضت على السلطان

بايزيد العثماني أمر بانتخاب ثمانين مجلدًا، وإحراق الباقي فتألَّم المؤلف، وترك بلاد الروم وذهب إلى خراسان، فمات فيها كمدًا.[٩٥]

ملاحم العرب

إذا قلنا: إن العرب نظموا الملاحم، فلسنا بزاعمين أن في لغتهم شيئًا يماثل إلياذة هوميروس، وشهنامة الفردوسي، وفردوس ملتُن بالشعر الحي، ولكن إذا صحَّت الأدلة المؤَدية إلى أن أيوب كان عربيًّا، ولا أخالها بعيدة الاحتمال كان ذلك السفر البديع المحفوظ في التوراة ملحمةً عربية الأصل متقدمةً بوضعها على ملاحم اليونان والرومان.[٩٦]

ولكن الأخذ بهذا القول ليس مما يضم دُرَّة يتيمة إلى خزائن الأدب العربية، فيزيد في مفاخر العرب أو يفيد لغتهم فائدة تذكر لهم وتؤَثر عنهم، فالأصل العربي في عالم الغيب وهو على فرض المحال لو وجد لما كان فيه من عربية مُضَر شيءٌ يعوَّل عليه، ولما وُجد بين العرب من يفكُّ منه عبارةً واحدة؛ لاختلاف أوضاع اللغة ومبانيها في ذلك العهد البعيد، فهي بهذا الاعتبار آرامية أو عربيةٌ أخرى أقرب إلى عبرية التوراة منها إلى عربية قريش.

ومن يعلم بالنظر إلى أيوب نفسه إلى أي فريق من القبائل كان ينتمي، وما كانت حالة العرب والعربية في أيامه، ومن كتب أو استكتب ذلك السفر من قومه أو غير قومه، والحاصل أن إلماعنا إلى ذلك السفر إنما هو قبيل التذكرة والحرص على الإشارة إلى أمرٍ خطير.

ثم إذا رجعنا إلى الشعر القديم المنسوب إلى قدماء العرب في اليمن ونجد والحجاز، فلا نلبث أن نتحقق أنه من النظم الموضوع حديثًا لغرضٍ كما أوضحنا، وزد على هذا أنه لا يربو على عددٍ معلوم من المقاطيع، وليست جميعها على شيءٍ من الشأن في الشعر قصصيًّا كان أو موسيقيًّا، وأيضًا فلا فائدة من الإلماع إلى ما سبق من النظم في اللغة اليمنية الحميرية التي هُذِّبت وكُتِبت قبل لغة قريش بقرون، فالبحث إذن يجب أن يكون في الشعر الباقي باللغة العربية المضرية.

نظرةٌ في الجاهليتين جاهلية العرب وجاهلية اليونان

إن أقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي الجلي مقولٌ معظمه في مثل المواقف التي قال فيها هوميروس إلياذته، فهنالك شياطين وجنيَّات تلقن الشعراءَ فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس، وفي مثل ذلك يقول الأعشى:

دعـوت خليلـي مسـحلًا ودعـوا لـه　　　جهنَّـامَ جـدعًا للهجـين المـذمَّم

وجهنام تابعة عمرو بن قطن، ولكلٍ من فحول شعراء الجاهلية جنيَّةٌ أو شيطان يلقنه الشعر، وهنالك ملوكٌ كبار على قبائل صغار تتكاثف وتتحالف؛ دفعًا لعار وأخذًا لثأر، فتثور حرب البسوس بين بكر وتغلب، وتتلاحم عبس وفزارة على إثر سباق داحس والغبراء، ويكادون يفنون بعضهم بعضًا كما كاد يفنى الطرواد واليونان وحلفاؤهم، وهنالك أيامٌ تتصاول وتتجاول فيها قبائل منهم، فيشتهر أمرها ويذيع ذكرها كيوم الكلاب، ويوم الجفار، ويوم النسار ويتغنى الشعراء بحديثها تغني هوميروس بيوم القناطرة ويوم الأيتول والكوريت، وما أشبه ذلك مما يفوق الحصر.

وإذا نظرت إلى الأشخاص دُهشت لما يبدو لك من الشبه في الأحوال والأقوال، فمن بطلٍ كعنترة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت آخيل يُغاظ مثله، فيعتزل القتال فينكل العدو بقومه حتى يهبَّ من عزلته، فيفعل فعل آخيل في عودته، ومن خطيبٍ كنسطور يقف واعظًا

موقف قس بن ساعدة، فيرشد ويرغب ويرهب، ومن أخوةٍ وأخوات، وأزواج وزوجات، وبنين وبنات، وآباء وأمهات يقولون ويفعلون في جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان مما ستراه بالمقابلة في تعاليق الشرح، ولو اتسع لنا المقام لما عدمنا سبيلًا إلى إبراز نظيرٍ لكلٍ من رجال الإلياذة ونسائها.

وإذا حوَّلت نظرك إلى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت مع سبق اليونان في حلبة الحضارة مشاكلةً باهرة في حالة المعيشة الفطرية، والسذاجة الخلقية، والحرية الجاهلية: سراةٌ كأكسيل يتسابقون إلى قرى الأضياف كحاتم الطائي، ويبنون بيوتهم على مضرب السبل في قارعة الطريق، وأمراء كآخيل وفطرقل يأمرون وينهون، ولديهم الحشم والجوار، ومع هذا فهم بيدهم يتولَّون توزيع الزاد على الأضياف، وينحرون الذبيحة بمُداهم على نحو ما نحر الأمير الكندي ناقته للعذارى، وأبناء ملوك كولد فريام لا تعيبهم مع غناهم رعاية المواشي، وتربية الأنعام كما قال خالد بن الوليد لماهان الأرمني: «وأما ما ذكرت من فقرنا ورعينا الإبل والشاة، فما منا من لم يرعَ، وأكثرنا رعاة ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع».[٩٧] وسبايا تشرى وتباع، وأسرى تُقتل وتفتدى وتسرَّح بإحسان إلى غير ذلك مما لا نهاية له وسترى منه جانبًا غير يسير مفصلًا بالمقابلة في مواضعه.

ملاحم الجاهليين

ليس في وقائع عرب الجاهلية وأيامهم ما يضاهي خطورةً وقائع الحرب الطروادية، ولكن تلك الوقائع لا تخلو بنفسها من شأن نسبي مذكور، فلا بد إذن من اتخاذ إحداها مثالًا للمقابلة، وإن أوَّل ما يستلفت الأنظار حرب البسوس.

تلك حربٌ تناقل العرب أخبارها، وتناشدوا شعرها على مرِّ القرون حتى أيامنا هذه، وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالبٌ منها لصوغ الملاحم التامة كالإلياذة، ومع هذا فإن جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصي منه إلى الموسيقي، فكل قصيدة منها قطعةٌ من ملحمة، ولكن تلك القطع غير ملتئمة؛ لفقدان اللحمة بينها فهي كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها، وبقيت ملقاة في أرضها غير مرصوصة بالبناء، ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها رأيتهم جميعهم شعراءَ، فكليب يقول الشعر، ومثله زوجته جليلة وأخوه مهلهل، وكذلك مرّة شاعر، وابنه جساس شاعر، وكلُّ ذي شأن في القصة من غريب وقريب شاعر كالحارث بن عُباد، وجحدَر بن ضبيعة، فمجموع شعرهم أشبه من هذه الوجه بالشعر التمثيلي؛ لأن لكل حادثة شاعرًا ينطق بها بخلاف نهج شعر الملاحم كالإلياذة إذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع.

وقد يخال الباحث في هذا التقارب، ثم ذلك التباعد بين منظوم الجاهليتين أنه ربما كانت قصة حرب البسوس ملحمة في أصلها، ففقدت منها أجزاء أدَّت إلى تفرق ما بقي، ولكنه يتضح لدى الإمعان أن ذلك لم يكن، وإن العرب في الجاهلية لم ينظموا الملاحم الطويلة المحكمة العرى مع توقُّد القرائح، وتوفر معدات الفصاحة في اللغة؛ لأن ذلك النسق في النظم لم يكن في طبعهم فلم يتخطَّوا إلى ما وراءَ الطبيعة، وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون إلى التوحيد، وكان التسليم للأحكام العلوية من سننهم قبل الإسلام، فلم يوغلوا في التخيلات الشعرية إلى النظر في أحوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرُّع البحث الواحد إلى أبحاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية، وكلُّ ما يرى من الشبه بين أحوالهم وأحوال قدماءِ اليونان إنما هو من المظاهر التي ألفت بينها طرق المعيشة الجاهلية، وإذا نظرت إلى حالة اليونان بما كانت عليه مع تلك الخشونة من الانتظام والدربة رأيت أنهم كانوا أيام حرب طروادة أقرب شبهًا بالعرب في أيام الخلفاء الراشدين، ثم كانوا في أيام هوميروس أي في زمن نظم الإلياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغًا لم يكن للعرب في جاهليتهم منه إلا النزر اليسير، فلم يسع أبناءَ الجاهلية أن يتجاوزوا بنظمهم أحوال فطرتهم وطرق معاشهم، فكانوا ينتقلون بالشعر من باب إلى آخر انتقالهم من حيٍ إلى حيٍ يجيدون في كل ما

يقولون، ولكنهم لا يطيلون المقام، فلا يشيدون المنازل الفسيحة المشيدة الأركان.

وليس من اللازم أن يكون شعر جميع الأمم على نسق واحد بل ربما كان هذا التباين من الأسباب المؤَدية إلى إبراز أنواع الجمال كافةً على اختلاف صوره وأشكاله، فالشاعر القصصي من اليونان وخلفائهم كان إذا قص حادثةً رواها كلها شعرًا، وأما الشاعر العربي فينشد الشعر حيث يحسن وقعه، وأكثر ما يكون ذلك في الوصف والخطاب والجواب، ويقول الباقي نثرًا، وفي هذه الطريقة نوعٌ من التفكيه المأنوس، وهي طريقة شعراء البادية حتى يومنا، جلستُ مرةً إلى حلقة شاعر منهم ينشد على نغم ربابته، فشرع في مقدمةٍ نثرية قصيرة حتى بلغ إلى وصف حسناء، فجعل يتغنى بالشعر على نغم آلة الطرب، فلما استتم قصيدته رجع إلى الكلام النثري بضع دقائق حتى بلغ وصف وقعة بين قبيلتين، فرجع إلى الإنشاد وهكذا ظل يتراوح قوله بين نثر وشعر نحو ثلاث ساعات، وذلك أيضًا شأن القصَّاصين في كثير من الحواضر العربية.

فلا سبيل إذن للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بعرف الإفرنج، ولكن للجاهليين نوعًا آخر من الشعر القصصي مما يعز وجوده في سائر اللغات، وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في حوادث مخصوصة، فجميع شعراء الجاهلية وبعض المخضرمين قد سلكوا هذا المسلك وأجادوا فيه، ولو تصفحت كتاب الأغاني،

ومفضليات الضبي، وأمثالهما من كتب الأدب والشعر رأيتها ملأى بهذه المنظومات الغراء، وحسبنا بيانًا لذلك أن نلقي في سبيلنا نظرةً على جمهرة أشعار العرب.

جمهرة أشعار العرب

هو كتابٌ ألفه أبو زيد محمد بن أبي الخطَّاب القرشي المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة، وشرح فيه المنظومات التي اختارها العرب من نفائس شعر الجاهليين والمخضرمين، وجعلوها سبع رتبٍ في كلٍ منها سبع منظومات، وقد أوردها المؤَلف ببعض خلاف في الترتيب عن المتواتر المشهور، فجعل النابغة والأعشى بين أصحاب المعلقات، وحذف معلقة الحارث اليشكري فكانت المعلقات ثماني والمجمهرات ستا، وهي في ما يلي مرتبة على ما هو شائع بين كتَّاب الأدب والتاريخ.

المعلقات ودعيت كذلك أخذًا من قولهم أنها كانت معلقة بأركان البيت، وأصحابها: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والحارث بن حلزة، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، وعنترة العبسي.

والمجمهرات ولعلها دُعيت كذلك تشبيهًا لها بالناقة المجمهرة، وهي في اللغة المتداخلة الخلق كأنها جمهور الرمل أي: إنها عالية الطبقة محكمة السبك، وأصحابها: النابغة الذُّبياني، وعُبيد بن الأبرص، وعديٌّ بن زيد، وبشر بن أبي خازم، وأميَّة بن أبي الصلت، وخداش بن زهير، والنَّمر بن تَولَب.

والمُنتقيات أي: المختارات، وأصحابها: المسيَّب بن علس، والمرقَّش، والمتلمِّس، وعروة بن الورد، ومهلهل بن ربيعة، ودريد بن الصمة، والمتنخل بن عويمر الهذلي.

والمُذَهَّبات أي: المكتوبة بماء الذهب، وأصحابها: حسان بن ثابت الأنصاري، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن عجلان، وقيس بن الخطيم الأوسي، وأحيحة بن الجلّاح، وأبو قيس بن الأسلت، وعمرو بن امرئِ القيس.

والمراثي: وأصحابها: أبو ذؤيب الهذلي، ومحمد بن كعب الغنوي، وأعشى باهلة، وعلقمة بن عبدة الحميري، وأبو زُبيد الطائي، ومتمم بن نويرة، ومالك بن ريب النهشلي التميمي.

والمشوبات، وهي التي شابها الكفر والإسلام، وأصحابها: النابغة الجعدي، وكعب بن زهير، والقطامي، والحطيئة والشماخ بن ضرار، وعمرو بن أحمر، وتميم بن أبي مقبل.

والمُلحَمات، ولعلهم أرادوا بهذه التسمية الإشارة إلى إحكام نظمها، وإلحام شعرها كما تقدم، وأصحابها: الفرزدق، وجرير الخطفي، والأخطل التغلبي، وعبيد الراعي، وذو الرّمّة، والكميت، والطرمَّاح بن حكيم الطائي.

فهذه تسع وأربعون منظومة لتسعة وأربعين شاعرًا إذا تصفحتها تبينت لك في كثير منها مزايا هذه الملاحم القصيرة المختصة بلغة العرب، ولا سيما ما قيل منها في الجاهلية كالمعلقات، فإنك ترى فيهن من سرد الحوادث وتفصيل الوقائع، وتمثيل المشاهد وبداهة الفكر ما يعدُّ في أعلى طبقات الشعر القصصي، وفيهن أيضًا من بديع التصور والسذاجة، وحسن التصرف البديهي، وإجادة الرصف، وإبداع الوصف، وإحكام التشبيه ما يسمو بهنَّ إلى أرفع درجات الشعر الموسيقي، فهن بهذا المعنى قد جمعن بين محاسن الطريقتين في الشعر العربي كما جمعت إلياذة هوميروس بين أطراف المحاسن في الشعر اليوناني.

فالمعلقات إذن رأس الملاحم العربية، وأقربهن إلى منظومات الشعر القصصي على ما يراد به في العُرف معلقة الحارث بن حلزة؛ لإفاضته في وقائع بكر وتغلب، وتغنيه بفوز قومه ونكال عدوه، ومفاخر عشيرته على ما يماثل تغني هوميروس في الإلياذة، وتليها بهذا المعنى معلقة عمرو بن كلثوم ثم معلقة زهير.

ويلحق بالمعلقات باعتبار أنها ملاحم عربية مجمهرة بشر بن أبي خازم، وأمية بن أبي الصلت، ومنتقيات مهلهل بن ربيعة، ودُريد بن الصمة، والمتنخل بن عويمر، ومذهبة قيس بن الخطيم، ومشوبة النابغة الجعدي، وملحمات الفرزدق، والكميت والطرماح.

وأنت ترى أن معظم أصحاب الملاحم من الجاهليين، وإن أحسنها المعلقات وجميع أصحابها من أبناء الجاهلية، وقد عرا الشعر القصصي بعدهم ضَعفٌ أَلمعنا إليه فلا حاجة إلى التكرار.

ملاحم المولَّدين

إذا قصَّر المولّدون عن الجاهليين بالبداهة الفكرية، فقد رأيت أنهم فاقوهم بسموِّ التصوُّر والرقة، وصعدوا فوقهم درجات في سلم البلاغة بفضل القرآن، ولو لم تتغير مناحي شعرهم لما تقدم بسطه من الأسباب لأبدعوا في جميع الأساليب الشعرية، ولكنهم لم يستتموا الاقتباس، وإلَّا فلو استرشدوا ببعض السور القرآنية كسورة يوسف، وسورة مريم وسورة الأنبياءِ مما يعد نبراسًا نيِّرًا للملاحم لفاقوا الجاهليين بالشعر القصصي كما فاقوهم بالشعر الموسيقي.

ومع هذا فإن للمولدين نوعًا من الملاحم خاصًّا بهم، وهو المقامات المسجَّعة بما يتخللها من الشعر كمقامات الهمذاني والحريري، ولكن التجرد فيها للإغراب في اللفظ يحول الفكر فيها عن التصرف بالمعنى على أن للفظ أحيانًا رنَّاتٍ مطربةً بنفسها، وهذا النوع من الإنشاء من خصائص اللغة العربية، وإن كثرة القوافي في اللغة تسوق إلى التسجيع حتى لقد يكون ذلك حيث لا مسوِّغ له كالأبحاث العلمية، والتفاسير القرآنية حتى كتب التاريخ التي لا يستحسن فيها الإكثار من الشعر والسجع.

ويلحق بالمقامات القصص التي يمتزج بها الشعر والنثر كقصة عنترة العبسي، وكثيرٍ من القصص التي تتداولها العامة في جميع البلاد العربية.

وإن من أحسن ملاحم المولدين ملحمةً نثرية جمع فيها صاحبها شتيت المعاني، وأوغل في التصوُّر حتى سبق دنتي الشاعر الإيطالي، وملتُن الإنكليزي إلى بعض تخيلاتهما ألا وهي رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية منها ينحطان بها عن درجة أمثالها من ملاحم الأعاجم، وأما المنظومات الإخبارية، والأراجيز التاريخية التي يقصد بها تدوين الأخبار، فهي كثيرة في كل عصرٍ من عصور العرب في الشعر الفصيح والعامي، وقد باد مُعظم ما قيل منها في الجاهلية، وهي أشبه شيء بالأراجيز العلمية، وكتب التواريخ المسجَّعة كتاريخ العتبي، وليست في الغالب إلا سلسلة حوادث مصوغة في القالب الشعري البسيط لا تتناول إلا القليل من بديع التصور الذي يهيج النفس، ولا مجال فيها للخيال، ومن هذا القبيل أرجوزة ابن عبد ربه[٩٨] في إخبار الملك الناصر عبد الرحمن الأندلسي التي مطلعها:

سبحان من لم تحوِهِ أقطارُ ... ولم تكن تدركه الأبصارُ

ومن عَنَت لوجهه الوجوهُ ... فما لهُ ندٌّ ولا شبيهُ

فهذه وأمثالها مما لا يعد من نفائس الشعر القصصي ولا الموسيقي.

وقد شاعت هذه الطريقة في بلاد المغرب، ونظموا فيها الموشحات المعروفة بالملاعب بالشعر العامي وأبدعوا في بعضها إبداعًا يكاد يلصقها بالشعر الفصيح كملعبة الكفيف المكناسي في السلطان أبي الحسن المريني.[٩٩]

هذا جلُّ ما يمكن إيراده بالإيجاز عن ملاحم العرب، وهي كما ترى جامعةٌ بين أعلى طبقات الشعر وأدناها.

الحقيقة والمجاز

التشبيه والكناية والاستعارة

نظر هوميروس إلى الحقائق نظرة الباحث الخبير، فتجلت له من وراء حجاب الخيال، وأمعن في أحوال الطبيعة حسيَّها ومعنويها، فبرزت له بأبهى مظاهرها، فاستوحى قيانه، فأوحين إليه وحي الآلهة للأنبياء.

عمد إلى الرسم غير متكلف ولا متأنق والصدق مرماه، والبداهة دليله فسلك سبيلًا عدلًا غير ذي عوجٍ، فما تعثَّر ولا أضلته المجاهل.

رأى أن الحقيقة في غنى عن التستر والتبرُّج، فذلك يخفي جمالها، وهذا يشوب كمالها، فأبرزها على فطرتها فإذا بها فتانةٌ للقلوب، خلَّابةٌ للبصائر.

علم أن معارضة الأشباه والنظائر من مزيلات الأوهام المقربات إلى الإفهام فأكثر من التشبيه والمقابلة حتى ألمَّ بكل أحوال البشر،

وسائر المخلوقات، وإن أحسن شيء في تشبيهاته حلولها جميعًا محلها، فإذا تجلت له الصورة رسمها بصراحةٍ واتساق غير مداجٍ، ولا محاذر فأطنب وأوجز، وصعد وهبط على ما يقتضيه الموقف.

فإذا وصف فارسين متساويين شدةً وبأسًا شبههما بليثين كما قال في هكطور وفطرقل، وهما يقتتلان حول جثة بطلٍ طروادي:

... وهكطـــور عـــن خيلـــه نـــزلا وفـــي طلـــب الجثـــة اقتـــتلا ...

كليثـــــين بينهمـــــا ظبيـــــةٌ بهـــا فتكـــا فـــوق طـــود عـــلا ...

وإذا وصفهما وقد ذلَّ أحدهما للآخر شَبَّه أحدهما بالليث، والآخر بالظبي كقوله في متيلاوس وفاريس:

كاليـــــث يضـــــورُهُ الســـــغبُ والظبـــــيُ لديـــــهِ يضـــــطرِبُ

فعليـــــه منقضًـــــا يثـــــبُ ولـــــو القناصـــــون اقتربـــــوا

بضـــــــــــــراء تقبـــــــــــــل للصـــــــــــــد

وإذا بدت له الشدَّةُ قبل النزال، وحب البروز من الاعتزال رأى أن الجواد العتي المنقطع على مربطه أقرب إلى تلك الصفة من الليث، فحلَّه من عقاله وأجراه جري جواد امرئ القيس.

وإذا نزل به إلى ساحة القتال، فانهزمت من وجهه الأبطال عدل عن التشبيه بالحيوان الفرد إلى ما هو أوقع في النفس، فمثَّله بالسيل الجارف.

وأبرز لك بالتشبيه الصادق جميع صفات البشر، وما يقابلها من صفات الحيوان بجميع حالاته، فنظر إلى الكبير منها والصغير، والقوي والضعيف، والوحشي والداجن، فوصف الأسود، والذئاب، والخرانيص، والمها، والظبي، والأيلة وغير ذلك مما يستذلَّه الإنسان، والخيل، والحمير، والبغال، والكلاب، والبقر، والمعز، والغنم، وغير هذا مما دخل في حظائر الناس.

وتناول الطيور من النسور والعقبان إلى البط والأوز، والرهو والغرانيق، والزرازير والحمام، وانعطف إلى الزحافات والدبابات، والديدان، وانتهى إلى الهوام والحشرات، فوصف الأفاعي وشبَّه بالصراصر والزنابير، والنحل والذباب، وإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.

ولقد عابه بعض المتسرِّعين على التشبيه بصغار الحيوان، ولكنك إذا نظرت إلى كل ما قال فيها علمت أنه إنما ذكر الشيء الحقير؛ ليستخرج منه الأمر الخطير وتلك عبرةٌ يجب أن يُنظر إليها بعين الإعظام والإكبار، فأي تشبيهٍ لعصبةٍ تذود عن حوضها، وتتفانى في الدفاع عن العرض والمال أوقع من قوله قول الشنفرى مشبهًا بالنحل والزنابير:

مثـــل الزنـــابير ذبـــت عـــن خشـــرمها   والنحـــل لا يتخلَّـــى عـــن خليَّتـــهِ

وأي تمثيلٍ لجيشٍ كثيف يمور، وجندٍ من حول زعمائها تدور أصحُّ من قوله قول عنترة مشبهًا بالذُّباب:

خلّـوا بضـفته فـي عـدةٍ غمضـت	يصـلون نـار انتقـام داخـل الكبـدِ
مثـل الـذّباب إذا حـان الربيـع وقـد	حامـت بعنَّـة راعـي العنـز والنَّقـدِ
تهافتـت تبتغـي الألبـان هاجمـةً	علـى القصـاع بـلا حصـر ولا عـددِ
وكـل سـيد قـومٍ قـام منفـردًا	بهـم كـراعٍ بمـا يسـتاق منفـردِ

ثم إنه نظر إلى الطبيعة، فتناول بتشبيهاته منها كل ما يلوح للناظر، ويروق الخاطر، فوصف النار من القبس والشرار إلى الحريق الذي يلتهم الغاب، ويدمر المدن الكبار، ووصف الأهواء والأنواء من النسيم العليل إلى الزوبعة، والعاصفة، والإعصار الوبيل، وجميع المهاب من صبا ودبور، وجنوب وشمال، والسحب والأمطار من البخار المتصاعد حتى الغيم المتلبد، ومن القطر إلى الغيث المدرار، والسيل الهدَّار، وأحاط بالبروق والرعود، وظواهر الجو من قوس قزح حتى الشهب الثواقب، وضرب في الفيافي وصعد الجبال، فمثَّل بالتشبيه جميع ما فيها من شجر، وغاب، وصخر، وتراب، ووصف الورقة الجافة، والشجرة الشمَّاء، وارتقى إلى عالم الأفلاك، واتخذ ما شاءَ لموصوفاته من شمسها وقمرها، وثوابتها، وسيَّاراتها، ثم خاض عباب البحر فأخذ بناصية حيتانه، ونينانه، وسائر سكانه من حيوان وجان، وتلقى عجاجه، واستقبل أمواجه، ومثله صافيًّا وساكنًا ومشتدًّا، ومربدًّا ومزبدًا مرعدًا، وجال

الأقطار وعبر الأنهار، فولج جوف الأرض فمثَّل ما فيها، وما تحتها، وما فوقها وما يكنفها من ماءٍ وهواءٍ.

وإذ فرغ من ذلك مد بصره إلى أحوال البشر، فأخذ يقابلها بعضًا ببعض فما ألهاه الملك الوقور، والزعيم الجسور عن الجندي الفقير والطريد الكسير، وما أغفل عاملًا ولا صانعًا، ولا تاجرًا، ولا زارعًا، وتطرق إلى الشئون البيتية فما غادر أبًا، ولا أمًّا، ولا زوجًا، ولا زوجةً، ولا أخًا، ولا أختًا، ولا ابنًا، ولا ابنةً، وألمَّ بكل قريب ونسيب، وبحث في أطوار الحياة، فمثَّل حالة الشيخ، والكهل، والشاب والطفل، وهو في كل ذلك مستنفرٌ إلى الخير منفرٌ من الشر يشتد موضع الشدة، ويرق موضع الرقة، فيقف بك تارةً ترقب العواصف والأنواء، وقد اكفهرَّ الجوُّ واضطرب اليمُّ، ومادت الجبال، وزلزلت الأرض زلزالها، ثم ينثني بك طورًا، وقد هاج العاطفة، واستنزل الحنان بالتمثيل النافذ، والتشبيه السهل الممتنع، فترى وصفه في معظم ذلك غريب الصنعة قريب التناول، فأي وصف للائذ أصدق من لياذ الطفلة بأمها إذ يقول:

شـــهقتَ كطفـــلٍ جـــرت تســـرع	ومـــــن دونهـــــا أمهـــــا تهـــــرعُ
فتعلـــــق فـــــي ذيـــــل أثوابهـــــا	ومقلتهـــــا صـــــــبًا تهمــــــعُ
وترســـــل طرفًـــــا بلـــــيلًا إليهـــــا	عســــــاهُ بــــــذلّتها يشــــــفعُ
وتجـــــذبها وهـــــي ضـــــارعةٌ	لتحملهـــــا فتكـــــفَّ البكـــــا

وأي تمثيل أصدق وأرقُّ من قوله مشبهًا موت فتىً غض الإهاب في مقتبل الشباب، وقد مال رأسه على صدره وهو يُحتضر:

فــرأس الفتــى لمــا بمجنتــه منـــي ... بمغفـــره المســـرود أثقـــل ينحنـــي

كزهـــرة خشـــخاش بيـــانع روضـــةٍ ... يثقلهـــا طـــلٌّ الربيـــع فتنثنـــي

ومن مزايا شعره أنه كان يطلق عنان التصور في التشبيه، فلا يوقف القول إلا حيث وقف الخيال، فقد يتناول تشبيهه أبياتًا، وتندرج طيه تشبيهات أخرى، وقد يشبِّه في شطر أو بعض شطر، وهذا أيضًا من مزايا الشعر الجاهلي التي أسلفنا أنها ضعفت في المولدين، وإن أجادوا الرسم كابن المعتز ما خلا أفرادًا قليلين تناولوا المعاني، فألمُّوا بجميع أطرافها كابن الرومي.

وكان مبغضًا للإغراب باللفظ والمعنى لا يقول إلَّا ما ترضاه الخاصة وتفهمه العامة، ينتحي مجاراة الفطرة وإنطاق الطبيعة يسعى إلى الحقيقة، ولا يتوخَّى المجاز، فلا يتطلبه في شعره، ولا يتجنبه إذا عبَّر عن فكره؛ ولهذا كان كالجاهليين من العرب كثير التشبيه قليل الكنايات والاستعارات لا يأتي المجاز إلا مرسلًا، فجاءَ جميع ما ورد منه في شعره آية في بابه على قلته كقوله: وأغمض عينيه ستر المنون، وقوله: أو تفغر الحرب المهدمة الفما. وأمثال ذلك من الاستعارات البسيطة السهلة.

البديهيَّات

أما بديهياته فحدث عنها ولا حرج، فلقد تراه يخوض بحر المعاني، فينثر ما التقط منها من أبكار الأفكار، ثم يلفت يمينًا وشمالًا فيدرك بعين بصيرته ما طرق فكر سامعيه، فمدُّ بصره إلى مخيلة ذوي الألباب منهم، ويستخرج ما ارتسم في أذهانهم بسياق الحديث فيعبر عنه ببداهة ترتاح إليها النفس ويطمئن الخاطر، فإذا أتى مثلًا على وصف وقعةٍ التحم فيها القتال، وتلاحمت الرجال وتعالى الصياح، وتألق السلاح علم أنه يخيل للسامع شيءٌ من البديهيات المطروقة فقال له:

والأرض تحـــت الرَّجـــل والعجـــلِ ــــــــ مـــادت لثقلـــة هاتـــه الملـــلِ

أو قال:

وكـــأن الســـهول طـــارت شـــرارًا ــــــــ بمســـير الإغريـــق فـــوق الســـهولِ

أو قال:

وفـوق الصـدور الطامحـات تألّقـت ــــــــ صـــوارمهم والســـمر أي تـــألّق

وأمثال ذلك من المعاني التي لا يحتاج فيها إلى شحذ ذهن وإعمال فكرة، وهي مع هذا ليست مما يستهان فللمعنى البديهي إذا حلَّ محله خف على الطبع، وقد يؤثر بحسن وقعه على كثرته تأثير المعاني المبتكرة على قلتها.

النقل والسرقة وتوارد الخاطر

يسوقنا واجب الاستطراد في هذا البحث إلى مؤاخذة بعض الباحثين في الشعر العربي إذ يضعون البديهيات موضع المبتكرات، فينكرون على كل شاعر متأخر أن ينتحل معنى سبق إليه، فيخلطون بين السرقة وتوارد الخاطر، فلهذا لا نرى رأي صاحب «الإبانة عن سرقات المتنبي» بقوله: إن ابن الرومي، وأبا الهندي، ومحمد بن هاشم العاري، والمتنبي تناقلوا بعضُ عن بعض معنى طول الليل، فقال ابن الرومي:

فكـــأنَّ ليلتنـــا علـــيَّ لطولهـــا ثبتـت تمخَّـض عـن صـباح الموقـفِ

وقال أبو الهندي:

يـا ليـل هـل لـك مـن صـباح أم هـــل لنجمـــك مـــن بـــراح

وقال العاري:

ســـهرت ليلـــي فنـــوم العـــين متبـــولُ كـأن ليلـي بيـوم الحشـر موصـولُ

وقال المتنبي:

مـن بعـد مـا كـان ليلـي لا صـباحَ لـه كـــأن أوَّل يـــوم الحشـــر آخـــرهُ

فهذا من المعاني البديهيَّة التي تتوارد فيها خواطر الشعراء وغير الشعراء، وإنما الفرق في التصرف فيها أَفلا ترى أن كلا من الأربعة تصرف تصرفًا مخالفًا للآخر.

ومثله قول صاحب «الموازنة بين أبي تمَّام والبحتري» أن أبا تمام كان ناقلًا لما قال:

كـــأن بنـــي نبهـــان يـــوم وفاتـــهِ نجـوم سـماءٍ خـرَّ مـن بينهـا البـدرُ

أخذهُ من قول جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك:

أمســى بنــوه وقــد جلّــت مصــيبتهم مثـل النجـوم هـوى مـن بينهـا القمـرُ

أو من قول مريم بنت طارق وهي ترثي أخاها:

كنــا كــأنجم ليــلٍ بينهــا قمــرُ يجلـو الـدجى فهـوى مـن بينهـا القمـرُ

وما أحرى هذا المعنى أن يكون شائعًا في أمَّةٍ صفا جوُّ أرضها، وسامرت القمر والنجوم طول ليلها، فليس هذا كلهُ من باب النقل، وإنما النقل في مثل ما استشهد به صاحب الإبانة من قول المتنبي:

حتـى رجعـت وأقلامـي قوائـل لـي المجـدُ للسـيف لـيس المجـد للقلـمِ

أكتـب بنـا أبـدًا بعـد الكتـاب بـه فإنمـــا نحـــن للأســـيافِ كالخـــدمِ

فهو مأخوذ من قول ابن الرومي:

كـذا قضـى الله للأقـلام مـذ خُلقـت أن السـيوف لهـا مـذ أُرهفـت خـدمُ

ومثله لما استشهد به صاحب الموازنة من قول أبي تمام:

مضــوا وكــأن المكرمــات لــديهمِ لكثــرة مــا أوصــوا بهــنَّ شــرائعُ

فإنه منقول عن أبي نواس إذ قال:

ســـنَّ للنـــاس النـــدى فنـــدَوا فكـــأن البخـــل لـــم يكـــنِ

وأما شعراء اللاتين والإفرنج فلم يحاذروا مثل هذه المحاذرة في نقل أمثال هذه المعاني، ولا سيما بالنظر إلى الإلياذة، فإنهم أغاروا عليها غارة شعواء فطوقوا بمعانيها أجياد منظوماتهم من الملاحم إلى التمثيليَّات إلى القصائد، فنقلوا ونسخوا ومسخوا، وسلخوا واقتبسوا وعارضوا، وضمَّنوا وتصرفوا وهم في الغالب لا يضمرون السرقة بل يفاخرون أن يعلم أنهم تحدَّوا هوميروس حتى لو نظرت إلى تلك المنظومات لرأيت المعاني الهوميرية مزدحمة فيها بتصرُّف أو بغير تصرف، ولا سيما مما أبعد فيه هوميروس ببصره، فاستنبطه بالتصور من المماثلات البديعة أو استخرجهُ بالتشبيه من مكنونات الطبيعة كقوله في مثل معنى امرئ القيس بوصف جواده:

كجلمـــود صـــخرٍ قـــد انتزعـــا | وفـــي الصـــدر هكطـــور منـــدفقُ
وهـــــبَّ الطـــــراود والتصـــــقوا | مـــن الشـــم ســـيلٌ بـــه انـــدفعا
لـــــه الغـــــاب مرتجـــــة ترتجـــــف | إلـــى القعـــر حيـــث بعنـــفٍ يقـــفْ

فنقله فرجيليوس إلى «إنياذته» اللاتينية فقال (ن١٢).

As veluti montis saxum de vertice praeceps

Quum ruit avulsum vento, seu turbidus imber

Proluit, aut annis solvit sublapsa vetustas،

Fertur in abruptum mango mons improbus actu،

Exsultatque solo; silvas, armenta, tirosque

Involvens secum... :

وأخذه عنه تاسو الإيطالي فقال «في أورشليمه»: (ن١٨)

Qual gran sasso tal hor, che o la vecchiezza

Solve da un monte, o svelle ira de'venti

Ruionosa dirupa, e porta, e spezza

Le selve, e con le case anco gli armenti

Tal giù trahea de la fubline altezza

L'horribil trave e merli, e arme, e gente،

Diè la torre a quel moto une, o duo crolli؛

Tremar le mura, e rimbombaro i colli.

ومثله قوله بلسان زفس بعد مشاجرة بينه وبين أخيه فوسيذون أسفرت عن ارعواء فوسيذون واستكانته:

ففوسيذ في بطن العباب قد التجا ومن نار غيظي في حزازته نجا

وإلا لأهمت فاتكات أكفنا بنا عرقًا يهمى به كل عارقٍ

وكـــان اصـــطدامٌ بـــالعوالم يحـــدقُ ويـــزعج أربـــاب الجحـــيم ويقلـــقُ

فيـــا نِعـــم مســـعاه لـــهُ ولعزَّتـــي فإنـــا كُفينـــا فلـــق تلـــك الفلائـــقِ

فأخذه مِلتُن الإنكليزي لوصف ارتداد جبريل عن إبليس، فقال في «فردوسه»:

...Not only Paradise

In this commotion, but the starry cope

Of heav'n, perhaps, and all the elements

At least had gone to wrack, disturb'd and torn

With violence of this conflict, had not soon

Th' Almighty, to prevent such horrid fray, etc

وكثيرًا ما نقلوا عنه التصورات الغريبة، والمعاني الطويلة المتشعبة بأصولها وفروعها، وتصرفوا فيها كما نقل فولتير الفرنسي نجوى زفس للطرواد إذ قال:

كتيبـــةٌ تلـــك ضـــمَّت جلّهـــم عـــددا جنـــدًا تمـــدُّ إلـــى كيـــد العـــداة يـــدا

كـــادت تجـــوز حفيـــر القـــوم عـــابرةً إذا بطيـــرٍ لهـــا تحـــت الســـماء بـــدا

فاستوقفت جزعًا في الجرف حائرةً	تطيرًا وهو عن يسرى السرى وَردا
نسرٌ مخالبه في الجو قد نشبت	بأفعوان خضيبٍ تحت قبضتهِ
فالأفعوان وفيه لم يزلْ رَمقُ	ما بين أظفاره في الجو يصطفقُ
حتى عليه التوى بالعنف يلسعهُ	في بارز الصدر حيث التفت العنقُ
فصاح عن ألمٍ مرٍّ وأفلتهُ	وراح تحت مهبِ الريحِ ينطلقُ
والأفعوانُ هوى للأرض مختضبًا	حيًّا وطروادةُ ارتاعت لرؤيتهِ

فقال فولتير منصرفًا ومتفننًا في مقدمة منظومته «كاتيلينا»:

Tel on voit cet oiseau qui porte le tonnerre،

Blessé par un serpent élancé de la terre؛

Il s'envole, il entraîne au séjour azure

L'ennemi tortueux don't il est entouré.

Le sary tombe des airs. Il déchire, il dérore

Le repile acharné qui le combat encore؛

Il le perce; il le tient sous ses ongles vainqueurs؛

Le monster, en expirant, se débat, se replie؛

Il exhale en poison les restes de sa vie؛

Le rejette en fureur, et plane au haut des cieux

وإن أمثال هذه المنقولات عن المعاني الهوميرية مما يملأ الأسفار، ولم يُعب عليها هؤلاء الشعراء إلا من تعمَّد السرقة، وشفَّ نهجه عن ادعاءِ الابتكار على نحو ما نرى الكثيرين من المتطفلين على الشعر في هذا العصر.

فعل الحضارة في استهجان المستحسن واستحسان المستهجن في التشبيه والمجاز

إن ممَّا بُهت له بعض المتأخرين من نقلة الإلياذة، وأشكل عليهم في لغاتهم تشبيه الإنسان في بعض أحواله بأنواع من الحيوان ينظرون إليها بعين المهانة، ويضعها هوميروس موضع العزة والكرامة، وهذا ولا ريب من نتائج طول العهد بالحضارة، ولا أعلم أهي حسنةٌ لهذه الحضارة تُمدح عليها أم سيئةٌ تؤاخذ عليها، وإنما اعلم أن في أصنافٍ كثيرةٍ من الحيوان مزايا يعز على الإنسان أن يتصف بأحسن منها، ولا أذكر حيوانًا تقادم العهد على وضعه موضع الحس والهوان كالكلب، فقد عرَّض هوميروس بذكره مرارًا للسباب والتحقير، وهكذا فعل أكثر الكتَّاب من المتقدمين، وفي شعر العرب، وكلام مؤرخيهم وأدبائهم من هذا المعنى ما لا يدركه حصر، فلا يكادون يشيرون إلى شخص يريدون إزدراءه أو شتمه إلا قالوا «هذا العلج الكلب» و«هذا الكلب البذيء» وما أشبه، فكأنهم

تناسوا جميع ما في هذا الحيوان الأمين من كرم الخلال، وأغاروا على شيءٍ من الدناءَة فيه، وإن كان لم يستأثر بها دون سائر الحيوان ناطقًا كان أو غير ناطق، ومع ذلك فقد وفَّى هوميروس كل صفة حقها، فهو إذا وصف الكلب بالبذاءة فما أغفل سائر ما فيه من الخصال، فأطرأ أمانته ومهارته في تقفي القنيصة، وبسالته في تأثر الضواري، وفعل فعله شعراء الجاهلية مما عرضناه بشعر هوميروس في موضعه.

وأما ما بقي من الحيوانات فقد اقتطع منها هوميروس صفاتٍ حميدةً وصف بها كبار قومه وكرامهم، وهو ما أردناه بقولنا: «إنه أشكل على بعض كتَّاب الإفرنج، وثقل عليهم نقله إلى لغاتهم». فإذا شبَّه رجلًا صبورًا بالحمار رأيتهم يتثاقلون بنقل الكلمة بل ربما أكلوا الحمار برمَّته كما فعل پوپ في النشيد الحادي عشر، وعذرهم في ذلك أنه يشوِّه وجه ترجمتهم، وإذا شبه هوميروس عظيم القوم بالثور عظم عليهم الأمر وحسبوها ورطةً يجب التملص منها، وربما بدَّلوا حيوانًا بحيوان، فجعلوا الخنازير دببةً، والكلاب ذئابًا، وهم يزعمون أنهم لطَّفوا المعنى ولا أخالهم فعلوا.

ولستُ بمنكرٍ أن الانقلاب الذي طرأ على مفاد التعبير عندهم قد أصابنا منه شيء كثير، فليس منا من يستحسن تشبيه كريمٍ قوي الجنان رابط الجأش بالحمار، ولا تشبيه باسلٍ مغوار بالخنزير على أن

اليقين أن أبناء الجاهلية من كل قومٍ لم يكن هذا شأنهم أيام كانت الفطرة تأخذ بالظاهر ولا تتكلف التأويل، وتتشبث بالحقيقة مهما ثقلت.

وحسبنا أن نرجع إلى أيام جاهليتنا، وما وليها من مُقتبَل الإسلام ونتصفح معاجم لغتنا فنرى أن هوميروس لم يأتِ شيئًا فريًّا، قال في أساس البلاغة: «الثور الفحل من البقر والسيد، وبه كنّي عمرو بن معدي كرب». ومما يذكر هنا استطرادًا أن الثور لا يزال لقبًا مكرَّمًا في السودان، ويقال مثل ذلك في الجَدَع بمصر، وهي من الجَذَع، وفي محيط المحيط الجذع من البهائم قبل الثني والشاب الحدث، ومنه قول دُرَيد:

يـــا ليتنـــي فيهـــا جَـــذَع　　　أخـــــبَّ فيهـــــا وأضـــــعْ

وفي كتب اللغة الكبش الحمل وسيد القوم وقائدهم، والمنظور إليه فيهم ومنه قول لبيد:

بكتائـــب رجـــعٍ تعـــود كبشـــها　　　نطـــح الكبـــاش كـــأنهن نجـــومُ

وقول أسد بن ناعصة:

ولـــرب كـــبش كتيبـــة غادرتـــه　　　يكبـــو لجبهتـــه صـــريعًا أطحـــلا

متنجعًـــا قـــد دق فـــي حيزومـــه　　　صـدر القنـاة علـى الفـرار مجـدَّلا

والقرم الفحل ثم استُعمل للسيد العظيم على التشبيه له بالفحل، وقد اجتمعا في قول المتنبي بمدح سيف الدولة:

ولكنـــا نـــداعب منـــك قرمًـــا　　　تراجعـــت القـــروم لـــهُ حقاقـــا

أي: نمازح منك سيدًا صارت الرجال بالنسبة إليه كالنياق بالنسبة إلى فحول الجمال.

والرُّت الخنزير الذكر، وأجرى مجازًا على الباسل المقدام، فيقال: هو رتٌّ من الرتوت، وهو من رتوت الناس أي: من عليّتهم وسادتهم «أساس».

والقبُّ الجمل والرئيس والملك، والفنيق الفحل المكرَّم من الإبل لا يؤذى، ولا يُركب، والسيد المسنّ من المعز والرئيس، والأصيد الملك والبعير الذي فيه داء الصيد، وهلمَّ جرًّا.

ويقال مثل ذلك في بعض ما برز من أعضاء الحيوان كالناب والخرطوم، والأنف والقرن، فهي وإن كانت مما قد يستهان به الآن لم يوضع أكثرها في الكلام عن الناس إلا للرفعة والسيادة، فإذا راجعت كتب اللغة قرأت: الخراطيم أسياد القوم، أنياب القوم ساداتهم، ومنه قول الشاعر:

كنت لهم في الحدثان نابا ... ألقى العدى وضيغما وثَّابا

ولم أكن هردبة وجَّابا (أساس)

القرن السيد تشبيهًا بقرن الثور لبروزه، أنف القوم سيدهم، ومنه قول الحطيئة في بني أنف الناقة:

قومٌ هم الأنف والأذناب غيرهُمُ ... ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

ولا عبرة بما قيل إن العرب كانت تعيِّر بني أنف الناقة بذاك اللقب.

وليس النعت بهذه الأوصاف مما خُصَّ به بنو الجاهلية بشعرهم، بل اتصل منه شيء بشعراء التابعين والمولّدين حتى أنه ليندر أن ترى شيئًا من هذه الألفاظ في كلام المؤَرِّخين كقول العتبي في السلطان محمود بن سبكتكين، وأقبل كالفحل الفنيق، ولا تكاد تجد مؤَرخًا لا يقول قول ابن خلدون: «وكان فحل ذلك الشول، وكبش تلك الكتائب إلخ» وأمثال هذه الألفاظ لا تثقل على مسمع العربي حتى يومنا، بل لا يزال بعضها مما يحلى به جيد الكلام.

وإننا بهذا الاعتبار نقسم هذه الألفاظ إلى أربعة أقسام: ما أُهملت حقيقته وجازه كالرَّت والقَبَّ، فلا نرى من يستعملها لإنسانٍ ولا لحيوان.

وما بقيت حقيقته ومجازهُ كالفحل والكبش فهما وإن كانا موضوعين للحيوان، فقد يوصف بهما الإنسان وصف تكريم، فنقول: «هو فحلٌ من فحول الشعراء، وكبشٌ من كباش الهيجاء».

وما أُهملت حقيقته وبقي مجازه كالجَدَع عند العامة في مصر، فهي إنما تستعمل للإطراء، وإن كانت لا تزال على معناها الوضعي في أماكن أخرى.

وما أهمل مجازه، وبقيت حقيقته كالثور والحمار وهو أكثرها، فما منا من يرضى أن يلقب حمارًا، ولو قيل له ذلك كان لقب مروان بن محمد الخليفة الأموي الحازم، لُقِّب به على ما أجمع المؤَرخون؛ لصبره ورِباطة جأشه وشجاعته، قال القرماني: «ويقال في المثل فلانٌ أصبر من حمار في الحروب، وهو أيضًا اللقب الذي لقب به يعقوب ابنه يساكر في التوراة، وليس من يسرَّه أن يكنى بالثور، وإن كانت تلك كنية عمرو بن معدي كرب سيد العرب، وما من أحد يرتاح أن يقال له أنف الناقة، وإن وضع الحطيئة ذلك اللقب موضع رفعة وإجلال، وقد تأبى أن يعرَّف أحدنا بالجمل، وإن عُرِّف به ابن عم النبي حمزة بن عبد المطلب، على إننا من وجه آخر لا نرى غضًّا من قدر من يُلَقَّب بالسرحان، وإن كان ذلك لقب الذئب أو يكنى بأبي خالد، وإن كانت تلك كنية الكلب».

مزية العربية على لغات الإفرنج في هذا الباب

لما كنت قد آليت على نفسي أن لا أحرّف الكلام عن مواضعه، وأن لا أعبث بوصفٍ أو تشبيهٍ، فأميل به عن أصله الوضعي تفاديًا من ثِقَل على الآذان عمدت إلى نهجٍ بقي بالمرامين: استبقاء الأصل على وضعه، ونبذ الألفاظ التي باتت بعرف الحضارة من باب الحوشي الساقط في المدح، فلا يُمدَح بها كبيرٌ ولا صغير، وفي لغتنا والحمد لله متسعٌ فسيحٌ لمثل هذا المجال بخلاف لغات الإفرنج التي لا محاد لكتَّابها عن استعمال اللفظة بعينها، وإلا اضطرُّوا إلى تبديلها أو إغفالها أصلًا.

فإذا عرض لي مثلًا تشبيه رجلٍ باسلٍ بالخنزير الذكر ينفسح لي بابٌ في كتب اللغة لانتقاء كلمة أخرى، فأقول الرُّت أو الخرنوص فلا أغير شيئًا من المعنى، وأكفي مئونة أنفة القارئ، وإذا اضطررت إلى استعمال لفظة الحمار بمقام المدح، وهو تشبيه شبه به إياس البطل الباسل عمدت إلى كلمة أخرى فقلت «الجأب» وهو الحمار عينه.

وإذا آنست رنة خشنة على الأذن بذكر الكلاب بهذا اللفظ قلت: «النواهس» و«الغضف» و«الضراءُ» وما أشبه.

وإذا خشيت هجنة بأن يقال: قطيع البقر قلت: «الصوار» وهو هو.

ولزيادة الإيضاح أضرب لك مثلًا واحدًا مما سترى أشباهه بمطالعة الإلياذة:

أطرأ الشاعر بسالة هكطور في واقعة فشبهه وهو يتعقب الأعداء بالكلب الذي يتأثر الأسد المذعور أو الخنزير البري، فقال:

وهكطور صدر الجيش يجري ويلغب ... ويكسأ في الأرداف من يتعقَّبْ

كأغضف هولٍ قد تأثر ضيغمًا ... تذعَّرَ أو خرنوص بر يكبكبُ

فأراني لو قلت: ككلبٍ كبيرٍ قد تأثر ضيغمًا أو خنزيرًا الخ لما زدت على المعنى ولا أنقصتُ، ولكن شتان ما وقع هذا التعبير، وما ذاك على المسامع.

الخاتمة

في الشعر واللغة

الشعراء

قال بعضهم:

للسادة الشعراء فضلٌ ثابتٌ ... ولهم مقامٌ شامخٌ ومكانُ

وهم سلاطين الكلام ألا ترى ... كلَّ امرئٍ منهم لهُ ديوانُ

نظر صاحب هذين البيتين إلى الشعر العربي من حيث إنه دليل البلغاء وحجة اللغويين، وشاهد الخطأ والصواب، ولكنه لو أراد الزيادة لقال: إن سلطان الشعراء يمتدُّ إلى ما فوق ذلك، وإن الشعر ريحانة النفوس ومبدد البئوس، وقد كان في غابر العهد سجل الحكمة، ومنهل النغمة، ومحط الفخار، ومطمح الأبصار، وأن شاعرًا واحدًا كان يرفع

قبيلةً ويخفضها، ويعزُّها ويذلُّها فينفذ كلامه في الإحساس، ولا نفوذ أحكام الآمر المستبد بالناس، وأن سلطة الشعراء في الجاهلية كانت تباري سلطة الرؤَساء، والقبائل تستثمر سلائق الفتيان أيان توسمت فيها الذكاء استثمار بني الحضارة كل غرسٍ زهي، وفرعٍ زكي، فإذا نبغ فتاهم، وقال قولًا نافذًا تباشر به الكهول والشبان والشيوخ والولدان، وخرجت النساء بالمزاهر وغنين ورقصن، وقلنَ أزف الفرج فقد صينت الأعراض، وحفظت الأنساب، وارتضت الأحساب وحُمي الذمار وتخلدت الآثار، وطارت البشائر فأقبلت الوفود من سائر العشائر كأنهم في يوم نصرٍ عظيم.

ولطالما قال شاعرهم أبياتًا، فتناقلتها الركبان وأومضت وميض البرق فبهرت الأنظار، وقضت الأوطار. قالوا: إن الأعشى الأكبر كان يأتي سوق عكاظ في كل عام فيتجاذبه الناس في الطريق للضيافة طمعًا بمدحه إياهم في سوق عكاظ، فمرَّ يومًا ببني كلاب، وكان فيهم رجل يقال له المحلّق فقير الحال، ضيق المعاش، وله ثماني بنات لا يخطبهنَّ أحد لمكان أبيهنَّ من الفقر، وخمول الذكر، فقالت له امرأتهُ ما يمنعك عن التعرض لهذا الشاعر وإكرامهِ، فما رأيت أحدًا أكرمهُ إلَّا وأكسبه خيرًا، فقال: ويحك ما عندي إلا ناقتي، فقالت يخلفها الله عليك، فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحدٌ من الناس، وكان الأعشى كفيفًا يقودهُ ابنه، فأخذ المحلق بخطام الناقة، فقال الأعشى: من هذا الذي غلبنا على الخطام

فقال: فتى شريفٌ كريم، ثم أتى بهِ منزلهُ وأكرمهُ، ونحر الناقة وجعلت البنات يدرنَ حولهُ، ويبالغن في خدمته، فقال: ما هذه الجواري حولي، فقال المحلق: بنات أخيك، وهنَّ ثمان نصيبهنَّ قليل، فقال الأعشى: هل لك حاجة، فقال: تُشيد بذكري فلعلي أُشهر فتخطب بناتي، فنهض الأعشى من عنده ولم يقل شيئًا، فلما وافى سوق عكاظ أنشد قصيدته التي أنشأها في مدحه، وهي التي يقول فيها:

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ | إلى ضوء نار بالبقاع يحرَّقُ
تشبُّ لمقرورين يصطليانها | وبات على النار الندى والمحلّقُ

فاشتهرت القصيدة، ولم تمضِ على المحلق سنة حتى زوَّج بناته، ويسرت حالهُ وإن في كتب العرب من أخبار شعراء الجاهلية ما لا تُعد هذه الرواية بجانبه أمرًا خطيرًا.

وكان المولَّدون مع تبذّل الجم الغفير منهم، وانحطاط منزلتهم عن شعراء الجاهلية ينالون بشعرهم أبعد المطالب. روى ابن خلّكان أنه قدم بين يدي المأمون نصر بن منيع، وكان قد أمر بضرب عنقهِ، فقال نصر يا أمير المؤمنين: اسمع مني كلماتٍ أقولها، فقال: قُل فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرةً | عصفور برٍ ساقهُ التقديرُ
فتكلم العصفور تحت جناحهِ | والصقر منقضٌ عليه يطيرُ
إني لمثلك ما أتممُ لقمةً | ولئن شويت فإنني لحقيرُ
فتهاون الطير المدلّ بصيده | كرمًا وأفلت ذلك العصفورُ

فعفا المأمون عنه.

وأما الأموال التي كان يستدرها الشعراءُ بشعرهم فمما يفوق التصوُّر، وهم وإن كانوا يجازون بها أحيانًا محاذرةً من هجوهم، وإلجامًا لألسنتهم، فكثيرًا ما كانوا ينالونها بما أطربوا، وأرقصوا، وخلبوا العقول. ذكروا أن ابن باجَّة التجيبي آخر فلاسفة الإسلام بالأندلس أنشد أبا بكر الصحراوي صاحب سرقسطة موشَّحًا في مدحه، فأطربه حتى كاد يفقده الرشد فما بلغ قوله:

عقـــــد الله آيــــــة النصـــــرِ لأميــــر العـــــلا أبــــي بكــــرِ

حتى شق الممدوح ثوبه من شدة الطرب، وحلف لا يمشي ابن باجَّة إلا على الذهب، فخاف الشاعر عاقبة الأمر، فجعل في نعله ذهبًا ومشى عليه.

تلك كانت منزلة الشعراء عند العرب في سالف الزمن، وتلك هي أيضًا منزلتهم في سائر الملل، فإن في أخبار شعراء الفرس ما يضاهي أخبار شعراء العرب، وقد علمت أن اليونان ما زالوا يصعدون بهوميروس حتى أخرجوه من مصاف البشر، وأحلوه بين الآلهة، وبنوا له المعابد. وكانوا يتعاكظون ويتنافرون، ويتنافسون، ويتحمسون على نحو ما كان يفعل العرب في سوق عكاظ، وشعراؤهم في كل ذلك كخيل الرهان «فالسابق السابق منها الجواد». ذكروا أن فنذاروس الشاعر الموسيقي الذي نبغ بعد هوميروس بأربعة قرون كان إذا جلس للإنشاد في الحفلات

الأولمبية وغيرها تحمَّس له الشعب، وشقت نعرتهم كبد السماء، وكلَّلوه بأكاليل الظفر، فلما مات أخذوا الكرسي الذي كان يجلس عليه في موقف الإنشاد ووضعوه بين أنصاب الآلهة وشاد له أهل ثيبس هيكلًا، وأقاموا له فيه نصبًا، وهو بعدُ حي، ولما اكتسح الإسكندر بلدة ثيبس، ودمر بيوتها أمر أن لا يُمس بيت فنداروس بسوء.

وكم من شاعر أثار خواطر أمَّة بأسره،ا فاستنفر وأجيب واستصرخ فتألبت له جيوش الكلام، فغلبت كتائب الحسام، وفي الأثر أن صاحب الشريعة الإسلامية كان ينصب لحسَّان بن ثابت منبرًا في المسجد يقوم عليه ينافح عنه، فكان ذلك على قريش أشد من وقع النبل، وإن حسَّانًا قال له: «لأسلك منهم (أي: من قريش) سلَّ الشعرة من العجين، ولأفرينَّهم فري الأديم» فصبَّ على قريش من هجائه شآبيب شرٍّ، فقال له: «شفيت يا حسان وأشفيت» ثم قال: «حسان حاجزٌ بيننا وبين المنافقين».

وليس العهد ببعيد بما كان من نفوذ سهام الشعر البليغ في بلاد المغرب من عهد بيرُن إلى هذه الأيام.

ولسنا بآملين في هذا العصر أن يثب شعراؤنا إلى تلك المنصة الشامخة، وإنما نطمع أن يظلوا سائرين بنهضتهم سيرًا حثيثًا، ويجاروا تيار الترقي فلا يطمو عليهم، ولهم في ذلك الفوز والفلاح، وللأمة الخير والصلاح.

اتساع العربية للشعر

قال أبو بكر الخوارزمي: «من روى حوليَّات زهير، واعتذارات النابغة، وحماسيَّات عنترة، وأهاجي الحطيئة، وهاشميات الكميت، ونقائض جرير، وخمريَّات أبي نُواس، وتشبيهات ابن المعتز، وزهريات أبي العتاهية، ومراثي أبي تَمَّام، ومدائح البحتري، وروضيَّات الصنوبري، ولطائف كشاجم، ولم يخرج إلى الشعر فلا أشبَّ الله قرنه» وهو كما ترى قول متحمْسٍ مولَع بالشعر، وقد أنالته الفطرة منه حظًّا وافرًا، وإلا فالخروج إلى الشعر متعذرٌ على من لم يكن ذلك في طبعه، على أن هذا القول صادقٌ على من كان الشعر في سجيَّته، فإن مطالعة نفيس الشعر تشحذ الذهن، وتهذب اللفظ وتجلو المعنى، فتستقيم بذلك وجهة الشاعرة المطبوع.

واللغة العربية شعريَّةٌ بطبعها؛ لتفرُّع مفرداتها، وتنوُّع اشتقاقاتها القياسية على أسلوبٍ لا يُرى له مثيل في اللغات الآرية، والقوافي مزدحمة فيها ازدحامًا يسهل النظم، وهي بخلاف ما يزعم بعض الأعاجم جزلة التركيب محكمة الانسجام، وفيها من طرق الحذف والتقدير، والتقديم والتأخير ما ينفسح معه المجال للشاعر لصوغ عبارته على قوالب شتى، وتلك مزيةٌ تمدح عليها اللغة في الشعر، وإن عيبت في النثر حيث يُقصد الجري على نمطٍ واحدٍ جلي، وهي على الجملة متسعة للشعر أكثر منها

للنثر، فشعرها منذ القديم أرفع طبقةً من معظم نثرها، وجيده أسهل مثالًا من جيد النثر حتى لقد تجد النثر شعرًا في كثيرٍ من الأحوال.

ولا شك أن الزمان قد طوى كثيرًا من ألفاظها الوضعية، ولكن ما بقي منها فوق حاجة الشعراء لتأدية المعاني الفطرية والأفكار البديهية، والأوصاف الخلقية والحقائق الحِكَمية، وسائر ما توحى تدوينه قدماء الشعراء كهوميروس، وفنذاروس، وفرجيليوس وهوراس، فهي بهذا المعنى لا تقصر بشيء عن لغة الإلياذة اليونانية المشهورة بجزالة تركيبها، ورقتها وانسجامها، وإحكام وضع المفردات فيها.

مقابلتها باليونانية

ولا ترجح اليونانية على العربية إلا باتساعها لمشاكلة الألفاظ للمعاني، وتوفر أسباب النحت فيها لصوغ الألفاظ المركبة، وفي ما سوى ذلك لا أخال لها رجحانًا بل ترجح العربية في اتساع المفردات، وتشعُّب طرُق التركيب، والخروج بقياس الاشتقاقات إلى ما لا نهاية له من المعاني.

ثروتها وألفاظها الوضعية

ولقد بدا لي أثناء التعريب من ثروة العربية في الألفاظ الوضعية القديمة ما أغناني عن الانحراف بالمعنى على نحو ما اضطُرَّ إليه بعض نقَلة الإفرنج على ما تقدَّم في الفصل السابق، ورأيت من المماثلة بين اللغتين في دقة الوضع ما يُدهش له الناظم والناثر، وينبئك ذلك أن

العرب لم يغفلوا وضع شيء من الألفاظ الدالة على جميع مطالعاتهم ومحسوساتهم حتى أصبحت مفردات اللغة في زمنهم رابيةً على حاجة التعبير، ولا سيما في الحسيات، وما هذا النقص البادي الآن في إحكام التعبير، وخصوصًا في المعنويّات إلا نتيجة إهمال الخَلف اقتفاء آثار السلف.

وهو معلومٌ أن الإلياذة نظمت في زمنٍ كانت أحوال المعاش فيه قريبةً لأحواله بين قدماء العرب؛ ولهذا كان على المعرّب أن يقابل معانيها بما رادفها من لغة العرب بلا انحرافٍ ولا تأويل، واللغة متسعةٌ لذلك، فإذا وصف الناظم السلاح، وهو سلاح العرب ففي اللغة لفظةٌ بل ألفاظٌ للدلالة على كل ما قال من الشكَّة أي: السلاح الكامل إلى الحجر فلا يُعدم الناقل وسيلةً للتعبير عن كل ما ذكر من السيوف، والمدى ومناصلها وأغمادها، والرماح والزِّجاج، وكعوبها وأسنتها وصعادها، والدِّلاص والأبدان والدروع وحلقها، وزردها وقُتُرها، والخوذ، والترائك والمغافر وبيضها وقوانسها وعذباتها، والتروس والجواشن وحرابيها وحمائلها وهُدَّابها، والقسي وما لازمها من النبل المقذَّذ، والسهم المريش والوتر والفُوق والفَرض والسرية والنيزك، وسائر ما أهمل أو كاد يهمل من معدَّات الهجوم والدفاع كالفأس والمخذفة والفطيس، وإذا أتى على ذكر الخيل فما من لغةٍ أوسع من العربية بأوصافها، وتمثيل عدوها وجريها وتطبيقها، وتقريبها وحُضرها وارتفاعها، وإذا ذكر الحروب وعليها مدار

الإلياذة، فلم تتفنن أمةٌ فوق العرب بوصف القتال والنزال، والمجاولة والمصاولة، والمشق والرشق والحذف والقذف، والمماصعة والنفح بالمناصل والضرب بالمغاول، والوخز بالعوامل، وقس على ذلك جميع ما تناول وصف الأحوال المعاشية والروابط القومية، والأحكام العرفية، والمناظر الطبيعية من وهادٍ وهضاب ومطرٍ وسحابٍ، وبحرٍ وبر، وزرعٍ وضرعٍ، وماءٍ وهواءٍ، وأرضٍ وسماء بل قد تجد خزانة العربية أجمع، وثروتها أوسع بما حوت من الألفاظ المفردة التي لا يعبَّر عنها في لغات الأعاجم إلا بعبارات، وإني موردٌ لك الآن أمثلةً ما عُبر عنه في اليونانية بكلمتين فأكثر، ويتيسر رده في النقل العربي إلى كلمةٍ واحدة في الأفعال والأوصاف والموصوفات، ذلك كالسَّلهب للجواد الطويل، والأجيد للجواد الطويل العنق، والأجرد للفرس القصير الشعر، والقبُّ للخيل الضامرة، والقياديد للخيل الطويلة، والتَّبيع والتبيعة لولد البقرة لحولٍ واحدٍ، والحولي لابن سنة من ذوات الحوافر وغيرها، والسديس للذي أتم خمس سنين، والجبهاء للعريضة الجبهة. والأكبس لمن أقبلت جبهته، وأدبرت هامتهُ من الناس، والطَّحُور للقوس البعيدة المرمى، والزِّجاج والمطارد للرماح القصيرة، والثلَّة لجماعة الغنم والمعز، والرَّعيل للقطعة من الخيل، والصوار لقطيع البقر، والدسيع لمفرز العنق من الكاهل، والوتيرة لما بين المنخرين، والبأديل للحم بين الأبط والثندوة أو

لحم الثدي، وصرَّح بمعنى رمى ولم يُصِب، وأمثال ذلك مما سترى منه في الإلياذة شيئًا كثيرًا.

الحقيقة والمجاز في بعض ألفاظ اللغتين

ومن جميل المشاكلة بين اليونانية والعربية في الأصل والتعريب على نمطٍ واحدٍ جري بعض الألفاظ مجرى واحدًا باللغتين في الحقيقة والمجاز، فمن ذلك ما تشترك فيه معها لغاتٌ كثيرة كإطلاق لفظة الشيوخ (γεροντες) بطريق المجاز على الزعماء وكبار القوم، ومنه ما لا يكاد يتعدَّاهما إلى غيرهما كاستعمال لفظة (خيتي) (Χαιτη) للشعر وورق الشجر، ويقابلها الفرع بالعربية.

الفرق بينهما في نسج العبارات

وبين اليونانية والعربية فرقٌ كبير في نسج العبارات وتركيب الجمل من حيث التقديم والتأخير، وصيغ الاشتقاق والجموع والحروف، والنحت وتركيب الأسماء، ولكن نهج كل لغة حسنٌ في بابه، وأسباب الفصاحة متيسرة لأبناء كل لغة إذا أحكموا الرصف على نهجهم.

المترادفات وتعدد معاني اللفظ الواحد

ولكن للعربية مزيتين في مفرداتها تقصر اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها فيهما، وهما كثرة المترادفات في الألفاظ الدالَّة على المعنى الواحد، وتعدد المعاني للفظة الواحدة، فقد ذكروا عشراتٍ ومئاتٍ من

الألفاظ الموضوعة لمسميات معيَّنة من الحيوان كالأسد والحية، والبعير والناقة والفرس والثور، والكلب والهر والمأكولات كالتمر واللبن والعسل، والمشروبات كالماء والخمر، والسلاح كالسيف والرمح، والصفات كالطويل والقصير، والكبير والصغير، والشجاع والجبان، والكريم والبخيل، وغير ذلك من مألوفهم كالنور والظلام، والشمس والقمر، والسحاب والمطر، والتراب والحجر، ولهم مثل ذلك في الأفعال، فقد عدَّ أحدهم أكثر من ألف فعل يمكن إطلاقها على معنى واحد، ويقابل ذلك تعدد معاني اللفظ الواحد، فإذا تصفحت معاجم اللغة، وقرأت باب الخال والحال، والعين، والعجوز وأمثالها تولَّاك العجب لكثرة معاني كل كلمةٍ منها.

ولقد يعلم اللبيب أن كل تلك المترادفات لم توضع في اللغة على نية الوضع بل وقع ذلك اتفاقًا: إما لمنقولٍ عن الأعاجم، وإما لاختلاف المدلولات في لغات القبائل المتباعدة، وأما للمح صفةٍ مقصودة يتغير بها المعنى تغيرًا طفيفًا لا يُشعر به لوحدة المسمى، فالخمرة مثلًا إنما سميت كذلك لاختمار موادَّها، فإذا قيل الراح لُمح إلى الروح والارتياح أو الرحيق نُظر إلى صفائها وطيب رائحتها، أو السلسبيل قُصدت سهولة مساغها وهلمَّ جرًّا، ولكن هذه المميِّزات فُقدت في الاستعمال، وأصبحت المترادفات متشابهةً يقوم كلٌ منها مقام الآخر مع أنه لا يوجد في الأصل ترادفٌ تامٌ في مفردات اللغة إلا في ما

صدر عن لغتين لقبيلتين مختلفتين؛ كالليث والورد للأسد أو نُقل من لغة الأعاجم إلى العربية مع بقاءِ اللفظ العربي فيها كالمينا من اليونانية للفرضة البحرية.

وإن للناظم فائدةً من هذا الاتساع إذ يتيسر له أن يلتقط من هذه المترادفات ما وافق بحره وقافيته، فقد اتفق لي أثناءَ التعريب أن استعملت كثيرًا من أسماء الأسد كالليث والغضنفر، والضرغام والقسورة، والهزبر والورد والضيغم، ولكن هذه الفائدة لا تذكر في جنب ما يلقيه هذا التراكم من العثرات في سبيل المنشئِ الناثر والطالب الراغب في الإحاطة بأوابد اللغة وشواردها حتى لقد يرتبك بها الشاعر في بعض الأحوال، ومن ذا الذي تحثُّه الدعوى إلى زعم الإلمام بجميع هذه المترادفات بل أي حافظةٍ تعي خمسمئة اسمٍ للأسد، ومئتين للحية، ومئتين وخمسين للناقة، وما عسى أن تكون الجدوى من وجود أربعمئة اسمٍ للداهية، ونعم القول قول الثعالبي: «إن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي». فأمثال هذه المترادفات عبءٌ ثقيل على كاهل اللغة، فإنما يحسن حفظها في مطوَّلات المعاجم للرجوع إليها في استجلاءِ غوامض الكلام والشعر القديم ضنًّا بذلك الذخر الثمين أن يتشتت وتذروه عوامل الغموض والنسيان، ولكنه لا يجدر بالطلَّاب والكتاب أن يتشبثوا بوحشيها ومهملها؛ لئلا تستغلق عبارتهم، وتجهد قريحتهم على غير جدوى، فيَتعبون ويُتعبون، وتثقل روحهم على روح المطالع.

الألفاظ المهملة

وقد جرت للعرب منذ القديم عادةٌ حميدة في مجاراة الزمان وسنن الطبيعة، وإهمال ما تقادم العهد على نبذه، فكانوا يتحاشون في شعرهم ونثرهم إيراد الألفاظ المهملة في عصرهم، وفي روايات الأصمعي كثيرٌ من كلام الأعراب المتوغلين في البداوة مما لم يكن يفهمه أهل زمانه؛ لإهمال النطق به والعدول عنه إلى مرادفٍ أسهل وأطلى، وأيضًا فإنهم لم يكثرون من استعمال الألفاظ الدالة على معاني مختلفة إلَّا في ما شاع من معانيها مطَّرحين ما غمض منها أو احتاج إلى تأويل؛ ولهذا كان شعر المولدين أقرب مما سواه إلى فهمنا، لقرب عهده منا وخلوه من كثيرٍ من غوامض الكلام، ويتلوه شعر المخضرمين ثم شعر الجاهليين، فحسبنا أن نتبع خطتهم فنبلغ بالنظر إلى عصرنا ما بلغوا بالنسبة إلى عصرهم، فيسقط ما قضى عليه الزمن بالسقوط ويبقى ما صلح للبقاء.

عجز العربية عن تأدية المعاني الحديثة

يؤخذ مما مرَّ أن العربية قد خُصَّت بثروةٍ في مفرداتها واتساعٍ في طرق تعبيرها تفاخر بهما سائر اللغات القديمة والحديثة، ولكن تلك الثروة وذلك الاتساع قد يمسيان بالإهمال وسوءِ الاستعمال ضيقًا وفقرًا، فإذا شكونا الزيادة فما أحرانا أن نشكو النقصان، فقد مرَّت القرون وتعاقبت الأجيال واللغات الحديثة جاريةٌ مع العلم والحضارة جري الشقيق الشفيق، والعربية كانت حتى هذا الزمن القريب ثابتةً في موقفٍ

واحد كأن باب الاجتهاد قد أوصد في وجهها، وليس في سنن الخلق ما يوجب ذلك الإيصاد بالنظر إلى اللغة، بل إذا تتبعنا خطة السلف من عهد الجاهليين إلى انقضاءِ العصر العباسي رأينا أبناءَ هذه اللغة عاملين على تمحيصها وتهذيبها، وإبداعها كل ما بدر وصدر من نتاج العلم أو اقتضته ملابسة سائر الملل، فكانت في مقدمة اللغات اتساعًا لكل مادةٍ ومعنى، ولم تكن تضيق عبارة ناظمٍ ولا ناثر عن تأدية كل مقادٍ عصري، فما بالها وهي لا تزال ذلك البحر الزاخر تضيق الآن عن كثير من التعبيرات العلمية والصناعية والسياسية، ولا مسميات فيها لكثيرٍ من أسماءِ الاختراعات، والآلات الحديثة والأدوات البيتية، أَفكان يرضى قدماءُ العرب بهذا النقص، وقد وضعوا الأسماء العديدة لخشبات الصنَّاع والقدور والقصاع، والدلاءِ وحبالها والناقة وعقالها والملوك، والزعماء والعوارف والوفود والفيوج، والأحلاف والأحزاب والأنصار والطلائع والسرايا والعهود والمواثيق، وسائر ما دعتهم إليه حاجةٌ أو عرف.

ولا ينحصر هذا النقص في ما تقدَّم بل يمتد إلى كثير من المعاني العصرية والتعبيرات الخيالية، والتصورات التي استحدثها الزمان، فالعربية في حاجة إلى نظرٍ في كل ذلك، وهو أمرٌ طبيعيٌ لا مناص منه إذ لو نُشر هوميروس، وامرؤ القيس، وأرادا تمثيل جميع هذه الأحوال بلغتيهما لاضطربت عبارتهما، وأشكل عليهما التعبير، ولو ركب النابغة سفينة

البحار لما أجاد بوصفها إجادته بوصف سفينة البر، أي: ناقته الضاربة في فيافي البيداء.

نقل الألفاظ الأعجمية واستحداث الألفاظ العربية

وكان شغف العرب بلغتهم يدفعهم إلى الحرص عليها، ومباراة الأعاجم بها فما بدت لهم ثغرةٌ إلا وسدُّوها ولا حليةٌ إلا وزينوها بها حتى أنه لم يكن يثقل على طباعهم أن ينقلوا إليها مئات من الألفاظ الأعجمية، ثم ردُّوها إليهم ألوفًا مؤلفة، بل لم يستنكفوا من التصرف ببعضها، وصوغ الأفعال منها وتصريفها، وإن كانت غير مصرَّفة في الأصل، فقالوا «فلسفة» و«تفلسف» و«زنديق» و«تزندق» و«طِراز» و«طرَّز» و«دهقان» و«دهقن وتدهقن».

ولكن هذا الأخذ عن الأعاجم لم يكن إلا نزرًا يسيرًا بجانب ما استخرجوه من مفردات لغتهم، وطبَّقوه على المعاني المستحدثة، ولا سيما في العلوم التي لم يكن لها أثرٌ في الجاهلية، والاصطلاحات التي اقتضاها انتظام أحكامهم وتوغلهم في الحضارة، فإنهم لما شرعوا في وضع العلوم العربية؛ كالصرف والنحو، والمعاني والبيان، والبديع والعروض، والدينية كعلم الكلام والتفسير والفقه والحديث، والعلوم الطبيعية والرياضية، وسائر ما نقلوه من كتب الأعاجم كالفلسفة والمنطق، والطب والفلك، والحساب والهندسة والجبر، والكيمياء شرعوا في كل ذلك، وليس في لغتهم إلا شبه شيءٍ مما يشير إلى مدلولاته، فما كان

أيسر عليهم من أن يستخرجوا من لغتهم أوضاعًا استكملوا بها جميع مدلولاتهم العلوم العربية والدينية، ومعظم مدلولات العلوم الطبيعية، واتسعت لغتهم لكل ذلك حتى عوَّل الأعاجم على كثير من موضوعاتهم، ونقلوها إلى لغاتهم «الجبر، والسمت، والقلي، والنظير، والكحول، والسموم».

نهج العرب وتوسعهم في اللغة

ولما اتسعت أحكام سياستهم، وتغيرت طرق معاشهم، وازدادت تصوراتهم بما رأوا، وسمعوا، وقرءوا، وكتبوا وضعوا أسماء وأفعالًا لكل ما استحدث لديهم من طعام وشراب، ولباس، ومتاع، ونظام حكومة، وطريق سياسة، وتوسعوا في المعاني الشعرية والأساليب الإنشائية، فكانت اللغة تجاريهم في النمو والسعة.

اصطلاحاتهم

وإن أردت التثبت من توسعهم في ذلك الاستحداث، فدونك كتب اللغة فلا تكاد تجد صفحة منها خاليةً من الاصطلاحات الموضوعة بعد الإسلام، وإليك أمثلةً منها:

الدَّور الحركة، وعود الشيءِ إلى ما كان عليه ... والدَّور عند الحكماءِ والمتكلمين والصوفية هو توقُّف كل من الشيئين على الآخر ... وقياس الدَّور عند المنطقيين هو أن تؤخذ نتيجة القياس وتضم إلى عكس إحدى مقدمتيه ... والدّور في الحميَّات عند الأطباءِ عبارةٌ عن

مجموع النوبة أو زمانها ... والدور عند الموسيقيين القطعة المستقلة من الشغل ... وعلم الأدوار علم الموسيقي ... والدور عند الشعراء القطعة من الموشح ونحوه...

الدرجة المرقاة ... ودرجات الأمزجة عند الأطباء مراتبها في الشدة والضعف ... والدرجة عند أهل الجفر وأرباب علم التكسير تطلق على حرفٍ من حروف سطر التكسير ... وعند أهل الهيئة تطلق على جزء من ٣٦٠ جزءًا من منطقة الفلك ... ودرجة الكوكب عندهم هي مكانه من فلك البروج، ومنها درجة طلوع الكوكب، ودرجة غروب الكوكب، ودرجة ممر الكوكب ...

الحال ... عند الحكماء كيفية مختصةٌ بنفس أو بذي نفس ... وتطلق عند الأطباء على ثلاثة: أمور الصحة، والمرض، والحال المتوسطة ... وعند الأصوليين على الاستصحاب ... وعند السَّالكين على ما يَرِدُ على القلب من طرب أو حزن أو بسط وقبض ... وعند النحاة على لفظٍ يدلُّ على الحال أي الزمان ... وعند أهل المعاني على الأمر الداعي إلى التكلم على وجهٍ مخصوص ...

وإن من تصفح كتاب «التعريفات» أو الكشَّاف للتهانوي يرى أن تعريف قسمٍ من هذه الاصطلاحات قد اضطر العلماء إلى تأليف المجلدات الضخمة.

والحاجة أم الاختراع، فلما كان أبناء هذه اللغة مشتغلين بها كانوا يتقدمون فتتقدم، ويرتقون فترتقي، فلما وقفوا وقفت، وانحصرت سجلاتها في خزائن أفرادٍ من العلماء معدودين، وما كان وقوفها لعجزٍ فيها أو نفاد في معدن جوهرها الوضاح، ولكنها عوامل قاهرة أصابت أهلها، فأقعدتهم معظم هذا الزمان، وما هبَّت نسمات النهضة الأخيرة في مصر وسوريا حتى أسرع أبناء القطرين إلى استخراج تلك الكنوز الدفينة، ولو تتابعت التآليف العلمية التي فتح لها محمد علي وخلفاؤه أرحب الأبواب، وتواصل تدريس العلوم العالية بها، أو لو لم تُصَب سوريا بما أصيبت به مصر من ضرورة التقاعد عن وضع المؤلفات العلمية؛ لانتقال الدروس في تلك العلوم إلى اللغات الأجنبية لما أعوزنا الآن تعبيرٌ في علمٍ من العلوم أو فنٍ من الفنون، ولما رأيت ناشئة هذا العصر إذا احتاجت إلى تعبيرٍ علمي عمدت إلى لسان أعجمي.

النهضة الأخيرة ومستقبل اللغة والشعر

ولكن تيار الأفكار إذا اندلع بأمة قضَّ السدود، وتجاوز الحواجز، فإن أبناء العربية شاعرون أن حياتهم بحياة لغتهم، وقد علموا الآن أنهُ لا مُعين لهم غير أنفسهم على بلوغ أمنيتهم منها، فإذا أخلصوا النية فلا حائل يصدهم عن النهوض بها، ولا ننكر أنهم أعادوا الكرَّة فوثبوا بها وثبةً جديدة في هذه الآونة المتأخرة، وهذه سجلاتهم

وجرائدهم قد صعدت في مرقاة الكمال درجاتٍ لا عهد لهم بها قبل أعوام، وأصبح الكثير من اصطلاحاتها الحديثة «كالمجلة والجريدة والصحافة والمنطاد» مقبولًا عند الخاصة والعامة كأوضاع القدماء، وإن في مؤلفات الكتَّاب والأدباء ما يعدُّ لهم فخرًا في هذا الموقف الحرِج، وأعظم من كل ذلك انتشار الميل إلى المدارس الوطنية، فلغة البلاد لا تحيا إلا بمدارس البلاد.

والشعر من توابع اللغة ولوازمها، فإذا ارتفع شأن اللغة فبشر الشعراءَ، على أن مطلب الشعراء يختلف عن مطلب العلماءِ والمؤَلفين، فحاجة الشاعر أيسر وموادُها أوفر، وذخيرته في دماغه، فإذا جلاها العلم كانت له، ولبني لغته موردًا صافيًا ومنهلًا عَذبًا، وفي الأمة والحمد لله فطاحل خرجوا عن جادة التقليد البحت، فمالوا ميل الزمان وأخذوا يسعون إلى استجلاء المعنويَّات سعي رصفائهم إلى استجلاء الحسيات، وما هي إلا جولةٌ وأختها مدةً من الزمن حتى تستعيد صناعتهم مقامها الشامخ، ومجدها الباذخ.

هوامش

(١) Guignant. Dict d'Homére et des Homérides par N.Theil et Hipp. Hallez d'Arros. Paris ١٨١٤.

(٢) إسطرابون كتاب ١ فصل ٢.

(٣) إسطرابون كتاب ١٤ فصل ١.

(٤) عيون الأنباء جزء ١ ص: ١٨٥.

(٥) عيون الأنباء جزء ١ ص ٣٦.

(٦) عيون الأنباء جزء ١ ص ٦٩.

(٧) عيون الأنباء جزء ١ ص ١٠١.

(٨) الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان محمد البيروني الخوارزمي. طبع باريز ص: ٨٦.

(٩) ابن خلدون. باب أشعار العرب وأهل الأمصار.

(١٠) عيون الأنباء جزء ١: ١٨٥.

(١١) كتاب الملل والنحل جزء ٢: ١٥.

(١٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري طبع بيروت ص: ٦١.

(١٣) Barthélemy Saint–Hilaire, Iliade d'Homére traduite en vers français.

(١٤) Mitford, History of Greece p.١٣٥.

(١٥) Grote, History of Greece Vol. II p.١٤٥.

(١٦) Fauriel, chants populaires de la Gréce moderne.١٨٢٤.

(١٧) Grimm, Deutshe Heldensage, p. ٣٧٣.

(١٨) Romans de chevalerie, Revue des deux mondes, XIII. P.٥٥٩.

(١٩) Alexander Chodzko, specimens of the popular poetry of Persia, London ١٨٤٢. Introd. P.١٣.

(٢٠) Grote, History of Greece Vol. II p.١٤٩.

Mariners accounts Vol. II p.٣٧٧.

(٢١) American Cyclopaédia Vol. VIII p.٧٨٠.

(٢٢) Casaubon, ١٥٥٩–١٦١٤.

(٢٣) Hedelin, Abbé d'anbignae, ١٦٠٤–١٦٧٢.

Conjectures académiques sur l'Hiade, Paris ١٧١٥.

(٢٤) **Perrault, ١٦١٥–١٦٨٨.**

(٢٥) **Wood, ١٦٣٢–١٦٩٥.**

(٢٦) **Bentley, ١٦٦١–١٧٤٢.**

(٢٧) **Vieo, ١٦٦٨–١٧٤٤–Milan ١٨٣٧.**

(٢٨) **Wolf, ١٧٥٧–١٨٢٤.**

(٢٩) **Prolegomena, ١٧٩٥.**

(٣٠) **Heyne, Leips. ١٨٠٢.**

(٣١) **Niebuhr, ١٧٧٦–١٨٣١.**

(٣٢) **Herder, ١٧٤٤–١٨٠٣.**

(٣٣) **Hermann. ١٨٠٦.**

(٣٤) **Ottfried Muller, ١٧٩٧–١٨٤٩.**

(٣٥) **Welker, der epische Cyklus, ١٨٣٥–١٨٤٩.**

(٣٦) **Gregor Nitzsch, ١٧٩٠–١٨٦١.**

(٣٧) **Professor Blackie, Homer and the Hind.**

(٣٨) Bishop Thirwall, History of Greece.

(٣٩) George Grote, History of Greece.

(٤٠) Gladstone, Treatise on Homer and the Homeric age, ١٨٨٣.

(٤١) Guignault, Notice sur Homére.

(٤٢) Leprévost, Notes sur Iliade.

(٤٣) G. Bertin, la question Homérique ١٨٩٧.

(٤٤) Heinrich Schlieman, Ithaque, le Péloponnése et Troie, Paris ١٨٦٩؛

Trojanishe Alterthümer ١٨٧٤؛

Atlas Trojanischer Alterthümer ١٨٧٥.

(٤٥) Grote, History of Greece, Vol II p. ١٥٧.

(٤٦) Fauriel, l'origine des épopées chevaleresques, ١٨٣٦.

(٤٧) إسطرابون الكتاب الأول.

(٤٨) Guizot, Cours d Histoire moderne, ٧me Vol. Ip. ٢٨٥.

(٤٩) Aelian, I. ١٢ Cap. ٤٨.

(٥٠) Cesarotti.

(٥١) Monti.

(٥٢) Monbel.

(٥٣) Voss.

(٥٤) Pope, Chapman, William Cowper.

(٥٥) Saint Augustin, Confess. I. I. Cap. ١٤٠.

(٥٦) نقل شهنامة الفردوسي إلى العربية الفتح بن علي البغدادي الأصبهاني نثرًا للملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر الأيوبي، وأتم ترجمتها سنة ٦٧٩. (كشف الظنون)

(٥٧) قال ابن خلدون: «بنقطة الكاف واحدة من فوق» لأنه مغربي، وأهل المغرب ينقطون القاف بنقطة واحدة من فوق، والفاء بنقطة من أسفل، وأردف ذلك بقوله: «أو ثنتين» للدلالة على نقط القاف في غير بلاد المغرب.

(٥٨) المشفتر المتفرق، ويجلجل يُحرَّكُ، فيذهب دقائقه ويبقى جلاله، والوغل الرديء.

(٥٩) الخامسة واردة الخمس، والمسافر الخارج في أرض إلى أخرى، وأراد به الثور الوحشي، وأشعب الروقين الذي انشعب قرناه.

(٦٠) المجتاب اللابس، والنصع الأبيض، شبه الثور لبياضه بلابس ثوب أبيض، ونقبته لونه، والخال برود فيها خطوط سود وحمر.

(٦١) السفعة سواد يضرب إلى الحمرة، والخدم جمع خدمة وهي الخلخال.

(٦٢) مملول أي: كأنه منشو في ملة، وهي الرماد الحار.

(٦٣) يأوي أي: الصائد إلى امرأته، والسلفع الجرئية البذئة، والتولب ولد الحمار شبَّه ابنها به.

(٦٤) يشلي بدعو، والضواري الكلاب المضرَّاة، والتهليل أن لا يصدق الحملة يقال قد هلَّ الفارس إذا قصَّر.

(٦٥) يعني الكلاب، وأراد بالأشعث القانص، والسرحان الذئب، والمنصلت المنجرد في أمره، وقيد الرمح قدره.

(٦٦) السفع السود، قوله: «بآذانها شَيْنٌ» أي: آذانها مقطعات ببراثنها، وذلك لقولهم: إن الكلب إذا عدا فاجتهد في عدوه، قطع أذنه بمخالبه لدنوها منها.

(٦٧) أي: لما نظر الثور إلى الكلاب قد هاجت به ثبت الروع في عينه لما عاينه، وقوله: صادقة أي: صلبة صحيحة النظر لا تكذبه، والملاميلُ: جمع ململول، وهو المكحالُ يريد أنه لم يكن بعينه رمد يجري له فيها ململول.

(٦٨) يهفو أي: كأنه يطير فوق الأرض من الخفة، وانصاع أخذ ناحية، والسدك الملازم، يقول كل الكلاب ملازم للثور لا يفارقه، والمزاجيل المزاريق يُزجل بها.

(٦٩) أي: فاهتز الثور حميةً وانفًا من الفرار من الكلاب، والمدريان القرنان. وعتقًا صلبًا. ومخذول أي: لا عون له.

(٧٠) شروى الشيءُ مثله، وقوله: «شبيهين» يعني: القرنين شبههما بالرمحين، والمكروب الشديد الفتل، وأصل ذلك في الحبل، ثم قيل لكل ممتلئ شديد مكروب، وأراد بالجنبتين الجنبين. والتأسيل الاستواء والطول.

(٧١) كلاهما أي: كلا القرنين، والنهك الشدة والاستقصاء.

(٧٢) أي: يطعنها مخالسة لكثرتها، والإيشاغ الخفة، والسلهب الطويل، وسنخ الشيء أصله، والشأن ملتقى كل قبيلتين من قبائل الرأس الأربع. والممطول الممدود.

(٧٣) مض أوجع وأحرق، والجواشن الصدور، والمعلول الذي سقي الدم مرة بعد مرة أخذ من العلل وهو الشربة الثانية، وإنما قال دم الأجواف؛ لأن الثور تعمد مقاتل الكلاب.

(٧٤) المبترك المعتمد في سيره لا يترك جهدًا، وقوله: «مُسْتَقبل الريح» يستروح بها جوفه لحرارة التعب.

(٧٥) يخفي التراب يستخرجه لشدة عدوه، وقوله: «مسهنَّ الأرض تحليل» أي: على قدر تحلَّة اليمين كأنه أقسم ليمسن الأرض.

(٧٦) الجنابان الناحيتان يقول: قد ارتفع له من جانبيه غبار من شدة عدوه، والمعزاء الأرض ذات الحصى أي: أنه لشدة عدوه يرد الحصى على فرجه، فكأنه إكليل له، وهذا غاية شدة العدو.

(٧٧) الخبت: المطمئن من الأرض وفيه رمل، والهزبر: الأسد.

(٧٨) الأغلب من صفات الأسد للمبالغة في الغلب.

(٧٩) تبهنس: تبختر.

(٨٠) الجائشة النفس. يتهكم على الأسد، ويقول: أظهرت لهُ أني جدت له بنفسي، ولكن نفسي كذبته تلك الأمنية، وفتكت به.

(٨١) الحبل بمعنى الوصل أو العهد والميثاق، وما اتسع أي: بقدر امتداده.

(٨٢) الشتيت الثغر المفلج.

(٨٣) أراد بالقضيب الناضر المسواك.

(٨٤) يقال: خدع ريقه إذا تغير.

(٨٥) الساجي القليل التحرك، والقمع كمد في لحم الموق.

(٨٦) القرون الذوائب، وغللتها: دخلت فيها، والفنع: الكثرة.

(٨٧) الخفر الحياء، والقدع الرد يقال: قدعته أي: رددته.

(٨٨) ويروى: ويعنيني أي: يتعبني بقول: إنه ساهرُ ليس ينام، فهو يراعي النجوم.

(٨٩) المغرب الأبيض يعني: بياض الصبح، وانقشع ذهب، ويزجيها يسوقها.

(٩٠) الربع: أول الشباب.

(٩١) الحرور: الريح الحارة، والصقع: حرارة تصيب الرأس.

(٩٢) قال الفرزدق هذه القصيدة يوم حج هشام بن عبد الملك الأموي، وطاف بالبيت وأراد أن يستلم الحجر الأسود فلم يصل إليه لكثرة الزحام، فنُصب له منبر فجلس عليه وحوله جماعة من أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين يريد الطواف، فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى الناس له حتى استلم الحجر، فقال رجل من أهل الشام: «من هذا الذي قد هابه الناس هذه المهابة» فقال هشام: «لا أَعرفهُ» مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضرًا، فقال: أنا أعرفه، وأنشد بعد ذلك هذه القصيدة، فغضب هشام وحبس الفرزدق بعسفان فعلم زين العابدين وأرسل إليه أربعة آلاف درهم، فردَّها الفرزدق، وكتب إليه إنما مدحتك بما أنت أَهْلٌ له فأعادها زين العابدين، وقال: «تعاون

بها على دهرك، فإنَّا أهل بيت النبي إذا وهبنا شيئًا لا نستعيده». وقالوا: «كفى بالفرزدق أن يكون قال هذه القصيدة حتى يدخل الجنة».

(٩٣) كانت له ابنة عمٍّ كلف بها أشد الكلف، ثم ارتحل عنها من بغداد لفاقةٍ علتهُ، فقصد أبا الخيبر عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس ومدحهُ بقصيدة بليغة، فأعطاه عطاءً قليلًا، فقال ابن زريق: «إنا لله وإنا إليه راجعون سلكت القفار والبحار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاءَ». ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما من بُعْد المسافة، وتحمل المشقة مع ضيق ذات يدهِ، فاعتل غمًّا ومات، قالوا: وأراد عبد الرحمن بذلك أن يختبره، فلما كان بعد أيام سأل عنه، فتفقدوه في الخان الذي كان فيه، فوجدوه ميتًا وعند رأسه رقعةٌ مكتوبٌ فيها هذه القصيدة.

(٩٤) المستطرف ص: ٢٧١

(٩٥) كشف الظنون. ولغات تاريخية ٤: ١٥٨.

(٩٦) يقول كثيرون من كتَّاب العرب أن سفر أيوب كُتِب بالعربية شعرًا، ثم نقله موسى إلى العبرية، ولكنهم لا يأتون بحجة تؤَيد هذا القول، ولعلهم قالوا ذلك بالتواتر أو نقلًا عن مصادر مجهولة لعهدنا، وإن في تواريخ العرب أخبارًا ووقائع وأنسابًا كثيرة منقولة عن كتب قديمة مفقودة، وهكذا يختلط الصحيح منها بالفاسد، ويتعذر الرجوع إلى الأصل، وأما أنصار هذا الرأي من علماء العصر فلهم أدلةٌ ترجح بالبحث صحة قولهم، فلا ريب أن أيوب كان من أبناء البادية العربية، وإن تعذَّر حتى

الآن تعيين الخطة التي أقام فيها، وفي ذلك يقول هان وإيوَلد وشلتمن: «إن وقائع هذا السفر تمثل الحياة البسيطة على حقيقتها، وتوضح بالرسم الصادق معيشة الشيخ العربي للقبيلة البدوية» ثم إن هذا السفر أقرب إلى العربية من سائر أسفار التوراة العبرية، وقد أشار رينان في مقدمته «لسفر أيوب» إلى كثرة الكلمات الآرامية فيه.

(٩٧) واقدي ١: ١٥٦.

(٩٨) العقد الفريد ج٢: ٢٨٨.

(٩٩) ابن خلدون ١: ٥٣١

النشيد الأول

خصام آخيل وأغاممنون

مُجْمَلهُ

لما اكتسح الإغريق «اليونان» بلاد الطروادبين عاثوا في مدائنهم، وسبوا نساءهم، وحصروا إليون عاصمة بلادهم عشر سنوات على ما مرَّ بك في المقدمة، وكان في جملة السبابا فتاتان فتَّانتان تدعى إحداهما خريسييس «أوخريسا» والأخرى بريسييس «أوبريسا» أجمع زعماء الجيش على تمليك الأولى منهما لأغاممنون ملك ملوكهم، والثانية لآخيل ملك المرميذونة وبطل الإغريق على الإطلاق، فحمل خريس كاهن أفلون ما غلا وعز من المتاع والمال إلى معسكر الإغريق فكاكًا لابنته خريسا، وبذلك افتتح هوميروس أناشيدهُ.

فجنح الزعماء إلى إجابة ملتمس الكاهن الشيخ، ولكن أغاممنون أغلظ له المقال ورده خائبًا، فانثنى من حيث أتى يستغيث الآلهة أفلُّون، فأغاثه وضربهم بوباء «فغدت جندهم تخرُّ فلولًا» فثقل عليهم الرزء ولم يفقهوا له سببًا، فهاجت الحمية صدر آخيل، ودعاهم إلى مجلس شوراهم للمفاوضة في استطلاع كنه الأمر، فلما اجتمعوا أنبأهم العرَّاف كلخاس أن أفلون ناقم منهم لخيبة كاهنه، وأنه لا سبيل إلى استرضائه ما

لم يستلينوا قلب الشيخ برد فتاته إليه، فعظم الأمر بادئ بدء على أغاممنون، ثم ما لبث أن لان وأذعن لحكم كلخاس على أن تساق إليه سبية أخرى بدلًا منها، فعارضه آخيل واشتد الخصام بينهما حتى كاد آخيل يفتك بأغاممنون لولا أن أثينا «إلاهة الحكمة» هبطت من السماء وصدته قسرًا، ثم توسط بينهما نسطور الحكيم إخمادًا للفتنة فما زادا إلا احتدامًا، وارفض الجمع على غير وفاق واعتزل آخيل القتال.

وأما أغاممنون فلم يزدد إلا اغترارًا واعتزازًا بما لهُ من السيطرة على سائر الأنصار، فأمر بإرسال خريسا إلى أبيها، وبعث فقبض على بريسا سبيَّة آخيل، وأحلَّها في خيمه في جملة ما ملك، فشق الأمر على آخيل، وتظلَّم إلى أمه ثيتيس (إحدى بنات الماء) فأسمعت صوت تفجعه من لجة البحر، فشقت العباب إليه، واستقصَّته الخبر ورقيت إلى زفس أبي الآلهة تلتمس الأخذ بيد آخيل، والانتقام له من الإغريق، فوعد زفس بخذلهم وإعلاء شأن الطرواد إلى أن يطيب آخيل نفسًا، ففطنت هيرا زوجة زفس لما جرى من الحديث بينه وبين ثيتيس، وفي نفسها حزازة على الطرواد فهمَّت بالاعتراض عليه، فأوسعها وعيدًا وزجرًا وبادر هيفست، وسوَّى الخلاف وأدار السلاف، فظل الأرباب في طرب ونعيم إلى أن خيم الظلام، فتوسد كل مضجعه ونام.

تستغرق وقائع هذا النشيد اثنين وعشرين يومًا، تسعة أيام مدة الوباء ويومًا مدة اجتماع الزعماء ونزاع الملكين، واثني عشر يومًا مدة إقامة زفس بين

الأثيوبة، ومجرى الحوادث أولًا في معسكر الإغريق، ثم في بلدة خريسا، وأخيرًا في الألمب.

النشيد الأول

رَبَّـةَ الشعرِ عن آخيل بن فيلا	أنشدينا واروي احتدامًا وبيلا١
ذاك كيدٌ عمَّ الأخاء بلاهُ	فكرام النفوس ألفت أفولا٢
لأذيسٍ أنفذن منحدراتٍ	وفرى الطيرُ والكلابُ القيولا٣
ثم ما شاء زفس من يوم شَبَّت	فتنةٌ بالشقاق تنذر أولى٤
بين أتريذ سيد القوم ثارت	بصلاها والمجتبى آخيلا٥
أيّ ربٍ قضى؟ فما غير فيـ	ـبُوس وزفس ونكَّلًا تنكيلا٦
فابن لاطونة بأتريذ رام الـ	سُّوءَ مذ سامهُ جفاءً ثقيلا٧
فدهى جيشه بشر وباءٍ	فغدت جنده تخر فُلُولا
مذ أهان المليك كاهنه الهمَّ	خريسًا لمَّا أتى الأسطولا٨
يفتدي بنتهُ بِغُرّ الهدايا	وجميع الإغريق يدعو ذليلا
سيما العاهلين من ولد أترا	ولقد قال صولجانًا أثيلا٩
عسجديًّا أعلام ذي النَّبل فيبو	س عليه بدت تجرُّ ذيولا١٠
قال: «فرعي أترا وقوم أخايا	مَن حذيتم طرًّا حذاءً جميلا
منحتكم آل الألمب اعتزازًا	قهر فريام ثم عودًا جليلا١١
فبفيبوس فرع زفس المعلّى	من سهام الرَّدَى يهيل هُمُولا١٢

إقبلـــوا فـــديتي وردُّوا فتـــاتي» فجميـــع الإغريـــق ضـــجوا قبـــولا١٣

آثـروا حفـظ حرمـة الشـيخ فـيهم وارتضـــاء الفكـــاك منـــه بـــديلا

غَيْـــر أن المقـــال ســـاء أغاممـــ ـــنُون أتـــرًا فـــردَّه مخـــذولا

قـال: «يا شيخُ فاحذر القرب من فلـ ـكي ســواءٌ رجعــت أم أنــت بــاقي

لـيس فـي الصـولجان هـذا ولا فـي ذي عصـــابات رَبَّـــه لـــك واقـــي١٤

لـن تنـال الفتـاة بـل سـوف تبقـى بـــبلادي أرغـــوس مثـــل البـــواقي

تـدرك العجـز وهـي تنسـج قطنًـا ضـــمن صـــرحي بغربـــةٍ وانســـحاق

وتلـي مضـجعي فقـم واخـشَ غيظـي إن تـــرم آمنًـــا لحـــاق الرفـــاق

ذعـر الشـيخ فـانثنى واجمًـا فـي جـرف بحـر يعـجُّ فـي الآفـاق١٥

ثـــم فـــي عزلـــةٍ دَعَـــا ودُعـــاه لابـــن لاطونـــةٍ أفلـــون راقـــي

«رب يـا ذا قـوس اللّجـين استجبني حـــق مـــولى تنيـــذس إحقـــاقي١٦

يـا ولـي السـمنث يـا عـون كـلّا وخـــريس يـــا رب خـــذ بنطـــاقي١٧

إن أكـن قـد زيَّنـت هيكلـك الوهَّـا ج أو مــــا ضــــحيّت بـــالإحراق

ولســـوق السّـــخال والثـــور زكَّيــ ـــت فســـالت بشـــحمها المهـــراق

فبأبنـــاء دانـــو نبلـــك الصُّـــ ـــمُّ لتفتـك بـدمع هـذي المـآقي»١٨

فـــرغ الشـــيخ فاســـتجاب أفلـــو ن بـــأعلى الأولمـــب وانقـــض حـــالا

حـــاملًا وهـــو مزمهـــر علـــى كتــ ـــفيه قوسًـــا وجعبـــة ونبـــالا١٩

حانقًـا كُلّمـا خطـا ارتجـت النَّبـ ـــل عليـــه كالليـــل بـــالهول مـــالا

ورمـى الفلـك مـن بعيـدٍ بسـهم مـــن لجـــين فزلزلـــت زلـــزالا

ضــرب الغضــف والبغــال فــألقى شـــرَّ ســـهمٍ فجنـــدل الأبطـــالا٢٠
فتولـــت نيـــران موتـــاهم إثـــ ـــر وبـــاءٍ بالفتـــك تســـعًا تَـــوَالى٢١
شـــهدت ثـــمَّ ربَّـــة الأذرع البيـــ ـــضاء هيـــرا دم الأراغـــس ســـالا٢٢
فعلـــيهم حنَّـــت فألهمـــت القـــرْ مَ أخـــــــــيلًا أن ادرأن الوبـــــــــالا
فـــدعاهم للرَّبـــع عاشـــرَ يـــومٍ واســـتوى قائمًـــا عجـــولًا فقـــالا:٢٣
«أرانـا أيـا أتريـذ والخطـب قـد عـرا نخوضُ على الأعقاب ذا اليوم أبحرا٢٤
نتيـه ولات الحـين والـرُّزء فـادحٌ وهـذا الوبـا والحـرب قـد أفنيـا السُّـرى
فسـل قائفًـا أو كاهنًـا أو مفسـرًا رؤى الخلـق إذ زفس رؤى الخلـق سـيَّرا
علـى مـا أفلّـون مـن الجـيش نـاقمٌ يَقُـــل أفبالقربـــان والنـــذر قصَّـــرا
عسـاه يزيـل السـخط إن ننتقـي لـه مـن العنـز والحمـلان ذبحًـا مكفـرا»
فلمـا انتهـى آخيـل هـبَّ ابـن ثسـطرٍ أجـل ذوي العرفـان كلخـاس وانبـرى٢٥
ففيبـــوس أولاه النُّهـــى وبهديـــه لسـاحل إليـون بأسـطولهم سـرى
خبيـرٌ يعلـم الغيـب مـاضٍ وحاضـرٍ ومســتقبلٍ فانســاب فــيهم محــذرا
«أتـأمروني آخيـل أن أكشـف الـذي يغـيظ إلاهًـا ينفـذ النَّبـل أسـطرا
سـأفعل إن تقسـم بـأن تـدفع الأذى بكفـك والإفصـاح عنـي مجهـرا
سيغضـب قـولي سـيدًا ذا خطـورةٍ لديـه الأخـائيون تعنـو كمـا تـرى٢٦
ولـيس لمـرءٍ يغضـب الملـك حيلـةٌ وإن كظـم السـلطان غيظًـا وأضـمرا٢٧
فـلا بـد أن يقـتصّ وهـو سـجيةٌ فهـل لـك إنقـاذي إذا الأمـر أظهـرا؟»

فقال أخيل: «فا أمنَّ وهات ما لديك من الإنذار بالغيب مخبرا
بحق أفلون مقرب زفسنا ورب بما أولاك جئت معبرا
فما اختلجت نفسي بصدري ومقلتي بعيني من الإغريق لا تخش منكرا
ونفس أغاممنون قيل قيولنا إذا كنت تعني لن تمسَّ وتعثرا ٢٨
فلما اطمأن الشيخ قال: «فما على ذبائح أو نذرٍ هوى السخط مسعرا
ولكن أتريذًا على الكاهن اعتدى وأمسك عنه بنته وتجبَّرا
فإن لم تؤب فالويل فيكم فخيمٌ وليس يُداني الجبر منكم مكسرًا
لترجع لأهليها بلا فديةٍ ولا بديلٍ وتؤتون الذبيح المسطَّرا
فيعطى خريسًا ثم نستدفع الأذى ونستعطف الربَّ الغضوب لما جرى
فقام أغاممنون ذو الطول مغضبًا يميِّزه الغيظ العنيف تسعرا
وقال وعيناه تطاير منهما شرار لكلخاس الولي معزِّرا
«أيا منبئ السوء الذي لم يفه لنا بخير ولكن ظل بالشر منذرا[٢٩]
بقولٍ وفعلٍ لم تقم قط حكمةً وها أنت للأسرار جئت مفسرا
تقول إله النبل قد شد صائلا لأنني لم أرض الفداء المقررا
ولم تدر أنني جانحٌ لبقائها وقد فضلت زوجي كليتمنسترا[٣٠]
فليست بحسن القد والخد دونها ولا بسمو العقل والفعل مخبرا
ومهما يكن من ذا فأخلي سبيلها إذا كان خيرًا للجنود لتظفرا
أود زوال السخط عنهم وإنما أروم جزاءً أرتضيه فأصبرا ٣١
فيبدو لي الإغريق أني لم أكن بلا سلبٍ كي لا أهان وأصغرا ٣٢

وكلكم فينا شهودٌ بأنني … حرمت نصيبي والقضاء تقدرا»

فقال المجتبى آخيل: «مهلًا … أيا أتريذ يا سامي المقامِ٣٣

أأطمع كل مخلوق أترجو … مكافأة الأراغسة العظامِ

فليس لهم وتعلم بيت مال … يضم كنوز أموال ركامِ

فما نلنا من المدن اللواتي … دككنا شاع بين ذوي السهامِ

وكيف يليق سهم الجند نجبو … وقد نالوا على هامٍ وهامِ

فعد وأرجعنَّ فتاة قومٍ … أثاروا غيظ رشَّاق السهامِ

وموعدنا إذا إليون دكت … بنعمة زفسنا مولى الأنامِ

بأضعافٍ مثلّثةٍ وأوفى … نجيزك فاعتبر حرج المقام

فصاح يجيب: «يا آخيل يا من … حكى الأرباب دع هذي المسالك٣٤

فلست بخادعي أبدًا وإني … تراني غير منقادٍ لقالك

أرد سبيتي وذهاب سهمي … وسهمك فائزٌ خطرا ببالك؟٣٥

نعم أرضى إذا ضمنت سرانا … لذلك لي جزاءً مثل ذلك٣٦

وإلّا خلتني أعتاض قسرًا … بمال أياس أوذس أو بمالك

هناك أحلّه خيمي بنفسي … ومن وافيت فليحنق هنالك

سنبحث، واقذفوا فورًا هنا في … غرابٍ في عباب البحر حالك٣٧

نراه بالأرادم والضحايا … وذي الحسناء فوق اللج سالك٣٨

يسير أياس إيذمن أذيس … به أو أنت أعجبهم بحالك٣٩

عســــانا بــــالتزلّف والضــــحايا لــــرب النبــــل نــــدرئ المهالــــك»
فقــــال أخيــــل يشــــزره غضــــوبًا: «أيــــا طمعًــــا تــــدثر بالشــــنارِ
وهــل فــي القــوم بــد فتــى خــداعا تغــــرُّ هنــــا فيبــــدر فــــي بــــدارِ
علمــــت بــــأنني لــــم آت بغضًــــا بــــــأقوام الطّــــــراودة الكبــــــارِ
فقــــط علــــي لــــم يغــــوا بســــوءٍ ومــــا ســــلبوا خيــــولي أو ثيــــاري
ومــــا نهبــــوا بــــأم الــــبهم فثيــــا وذات الخصــب زرعــي فــي ديــاري٤٠
ففيمــــا بيننــــا لجــــج عمــــاقٌ وغابــــاتٌ علــــى الشــــم القفــــارِ
وإليونًــــا أممناهــــا التماسًــــا لمــــا يرضــــيك نأخــــذها بثــــارِ
ونــــدفع عــــن منــــيلا شــــر بــــؤس وعنــــد وقــــد جزيــــت بالاحتقــــارِ
ورمــــت ســــبيةً مــــا نلــــتُ إلا ببطشــــــي إثــــــر إعــــــلاء الغبــــــارِ
حبانيهــــا الأخــــاءُ وأنــــت مــــنهم أيــــا كلبًــــا يصــــول بطــــرف عــــارِ
فــــإن نمــــرح بطــــروادٍ زمانًــــا وعثنــــــا بالمــــــدائن بــــــالبوارِ
وأمســــينا نقســــم مــــا ســــلبنا فلــــي نــــزرٌ وتحظــــى بالخيــــارِ
فحظــك قــد تراخــى عنــه حظــي وبــــاعي حمّلــــت ثقــــل الطــــواري
وأرضــــي قســــمتي وأســــير فيهــــا لفلكــــــي مفعمًــــــا شــــــرر الأوارِ
ســــأقلع راجعًــــا ولــــديَّ خيــــرٌ أعــــــاود مــــــوطني وأحــــــل داري
وأشــهد لســت تلقــى بعــد خــذلي كنــوز المــال فــي جــرف البحــارِ»٤١
فقــــال: «إذن وقــــد رمــــت انهزامًــــا فقــــر فلســــت ملتمسًــــا بقاكــــا
فلــي بســواك عــزوة خيــر رهــط أجلّــــوني وزفــــسٌ لــــي ســــواكا

وفيما بين كل قيول زفس ... أنا لم أقل قط فتى قلاكا
فلم تألف سوى شغب وقالٍ ... وإن تبسل فربّ قد حباكا ٤٢
بفلكك عد لأهلك في سراكا ... وسد بين المرامد مُشتهاكا ٤٣
لئن تغضب وإن تذهب سواء ... فليس بمزعجي هذا وذاكا ٤٤
وزد قهرًا بأني مذ خريسا ... بغى عني فبوس لها انفكاكا
أسيرها بصحبي في سفيني ... وفي نفسي أسير إلى حماكا
فتاتك منك أعتاض اقتدارًا ... فتعلم ما مداي وما مداكا ٤٥
ويخشى من سواك هنا بوجهي ... مفاخرتي فلا يهوى هواكا»
فأحزن آخيل وقد ضاق صدره ... ونازعه في صدره عاملًا فكرِ
أعن جنبه يستلُّ ماضي عضبه ... ويأخذ في تشتيتهم عائل الصَّبرِ
ويصرع أتريذًا على الفور أم يرى ... سبيلًا لكظم الغيظ في أهون الأمرِ
رأى وإذا من جنة الخلد أهبطت ... أثينا وجرته بأشعاره الشقرِ ٤٦
رسولة هيرا تلك من لكليهما ... تبرُّ ولا تختار برًّا على برِّ
ولم يرها من زمرة الجمع غيره ... بدت خلفه والعين حمراء كالجمرِ
تحقق مرتاعًا ثبوتَ هبوطها ... فبادر يشكو شدة الأمر والوزرِ:
«أيا ابنة رب الترس زفس أجئتني ... هنا لتري كيد ابن أترا وتستقري
فأنبئ والإنباء ظني صادقٌ ... سيلقى بما قد غرَّهُ حتف مغترِّ»
أجابته زرقاء اللّواحظ: «إنما ... أتيت لأسري الغيظ عنك عسى يسري

بإيعـــاز هيـــرا مرتضـــاة كليكمـــا بعثت فحل الشر وادفع لظى الشر٤٧

وفـي كفـك الفتاكـة أغمـد حسـامها وقابـل أغـاممنون مـا شـئت بـالزجر

وأصـدقك الوعـد اليقـين فخـذ بـه فسوف تنال الجبر من بعد ذا الكسر

ثلاثـــة أضـــعاف الـــذي ســـينالُهُ ستحرز يومًا فانتصح واستمع أمري»

فقــال: «أرانــي يــا إلاهــة مجبــرًا على الطوع مهما كان في النفس من قهر

فـذلك خيـرٌ مـن يطـع سـادة العُلـى يُثـبْ ولـهُ مـن بعـدُ أجـرٌ علـى أجـرِ»

وأغمـــد تعلـــو كفُّـــهُ فَـــوقَ قبضـــةٍ لجينيـة نصـل الحسـام الـذي يفـري

فســـارت أثينـــا للألمـــب لقومهـــا بـدارة رب التـرس فـي قمـة القصـر

وغـــيظ أخيـــل ظـــلَّ غيـــر مســـكنٍ ومـال علـى أتريـذ بالشـتم والنَّهْـرِ:٤٨

«يـا مليكًـا بنشـوةِ الـراحِ مثقـلْ يـا لحـاظ الكـلاب يـا قلـب إيـل٤٩

لـم تكـن قـطّ كـفءَ خـوض المنايـا بـين قـوم الإغريـق إن يعـل قسـطل

لـــم تقـــد قـــط صـــيدهم بكمـــين كـــل هـــذا يريـــك موتًـــا معجَّـــل٥٠

هـــو خيـــرٌ علمـــت أن تســـترد الـــ ـــسهم ممـــن يصـــد قولـــك إن ضـــلْ

أنـت ذا الشـعبَ قـد فرسـت بظلـمٍ حيـث بـين الأنـذال كنـت المفضَّـلْ

كنـت لـولا هـذا أأتريـذ فـي ذا الـ ـــحين تلقـــي هونًـــا أخيـــرًا وتخـــذلْ

لــــك منـــــي نبـــــوءة ويمـــــين أثقـــلت فـــي ذا الصـــولجان المبجَّـــل[٥١]

محجـــنٌ لـــن يزهـــو لـــه ورقٌ مـــذ راح عـن جذعـه علـى الشـم يفصـلْ

كيــف يزهــو وقــاطعُ الحــد عــرًّا هـ وهيهـــات بعـــد ذلـــك يخضـــلْ

إي وذا الصـــولجان وهـــو ولـــيٌ لجمـوع الإغريـق فـي العقـد والحـلْ

بــين أيــديهم ينــاط وهــم حقَّــ ـــاظ شــرعٍ لــزفس فــيهم تنــزَّلْ

قســمي وهــو ألــوة لــك كبــرى ســوف يبكــي أخيــل جــيش منكَّــل

حــين هكطــور فيــه يــبطش بطشًــا وتــــروم الــــذياد عنـــه فتفشـــلْ

فبـك الـنفس تصـطلي وهـي حنقـى منـك إذ كـدت خيـر شـهمٍ وأبسـل»

وإذ انتهـى ألقـى أخيـل إلـى الثـرى بــالمحجن المــزدان فــي قتــر الذَّهب٥٢

واحتـــلَّ مجلســـه وأتريـــذٌ علـــى كرســـيه متســـعرٌ بلظـــى الغضـــب

فانســاب بينهمــا الموفــق نســطرٌ والشـهد مـن شـفتيه بـالنطق انسـكب٥٣

وهـو الخطيـب أخُـو الفصـاحة والنهـى فــي فــيلسٍ فــأراد إخمــاد الشــغب

قـد كـان يحكـم ثالـث الأجيـال فيـ ـها بعد أن جيلين عاصر واصطحب٥٤

مـــــتجللًا برزانـــــةٍ ورصـــــانةٍ فـي مجمـع الإغريـق مُنتصـبًا خطـب

«ربَّـــاه أي رزيـــةٍ صـــماء قـــد هجمـــت علـــى أرض الأخائيينـــا

لا شــك فريــامٌ وكــلُّ بنيــه والــ ـــطروادة البـــاقون يبتهجونـــا

إذ يعلمــون لمــا اختصــامكما أيــا مـــن فقتمـــا بأسًـــا عـــلا ويقينـــا

فاستعصـــما بنصـــائحي فكلاكمـــا دونـــي حئـــولًا جمَّـــةً وســـنينا

ولقـد صـحبت بمـا مضـى صـيدًا أشـ ـدَّ وقــد رَعَــوا لــي حرمــةً وشــئونا

لـم ألـق قـطُّ ولـن أرى فـي ذا الـورى بــين الرجــال كفيــر ثــو أو كينــا

أو إكســذٍ أوثــيس بــن أغــيس مــن قــد كــان مثــل الخالــدين رزينــا

أوذريـــس راعـــي الـــورى والمُجْتَبَـــى فـــوليفمٍ قـــومٍ خلـــوا صـــلدينا

كـــانوا أشـــدَّ العـــالمين وقـــاتلوا   قومًــا شــدادًا فــي النــزال شــبينا٥٥
وعلــى قنــاطرة الجبــال ســطوا ولــم   يــذروا لهــم أثــرًا يُــرى مأمونــا٥٦
وصـــحبتهم واســـتقدموني جملـــةً   مـــن مـــوطني فيلـــوس ملتمســـينا
فنجـــدتهم جهـــدي وألقيـــت الزمـــا   ن بمـــثلهم فـــي الـــروع كـــان ضـــنينا
وبكـــل شـــوراهم إذا رأبـــي بـــدا   تخـــــذوه بالإجمـــــاع متفقينـــــا
لكمـــا بهـــم مثـــل أطيعـــاني إذا   وخـــذاه رأيًـــا صـــائبًا ورصـــينا
فاحـــذر أيـــا أتريـــذ غصـــب فتاتـــه   مهمـــا علـــوت أماجـــدًا وقرونـــا
هــي لابــن فــيلا قــد حبــاه بهــا بنــو   إغريقيـــا حقًّـــا لـــه مضـــمونا
وتجــاوزن آخيــل عــن ملــك حــوى   شـــأنًا عـــلا شـــأن الملـــوك ركينـــا
ولـــئن تفـــق بأسًـــا وأمـــك ربـــةً   كانـــــت فـــــزفسٌ زاده تمكينـــــا
وهـــو الأشـــد قـــوىً وأكثـــر عـــدةً   وانبـــذ أيـــا أتريـــذ عنـــك ضـــغونا
وأخيــل صــاف وراعنــي فلقــد غــدا   فــي ذا الــوغى حصــن الأخائيينــا»٥٧
فقـال أغـاممنون: «يـا شـيخ حكمـةً   نطقـــت ولكـــن ذا المقاتـــل يســـتعلي
يــروم امــتلاك الأمــر والنهــي إنمــا   بعلمـــي مـــن لا يتَّقيـــه ولا يـــدلي
وإن تكـــن الأربـــاب أولتـــه شـــدة   فهـل هـم أبـاحوا أن يهين أولي الفضـل»
أجـــاب أخيـــل للحـــديث مقاطعًـــا   «بـــأمرك مـــر غيـــري فلـــم يمتثـــل مثلـــي
فـــإن رحـــت منقـــادًا لقـــول تقولـــه   إذًا فـــادعني نـــدلًا وأوضـــع مـــن نـــدل
ولكـن لـي قـولًا صـريحًا فخـذ بـه: لأجـــل فتـــاتي لســـتُ منتضـــيًا نصـــلي
ولـــن أتصـــدَّى للـــدِّفاع لأيكـــم   لســـلبكم بـــالعنف مـــا نلـــت بالعـــدل

ومـن دُونِهـا احـذر أن تمـد يـدًا لمـا حـوت سـفني وافعـل إذا تقـت للفعـل

يـر الجيـش مـا تبـدي ورمحـي عـاجلًا يسـيل دمـا كالسـود فابـل إذا تبلـي»

كـذا انفصـلا بعـد اختصـام وحـدة وفض اجتماع الحشد من بعد ذا الفصل

فآخيـل فـي فطرقـل والصـحب قـافلا إلى فلكه والخيم في منتهى السهل٥٨

وأتريـذ ألقـى للعبـاب سـفينةً بعشـرين ملاحًـا تنقَّـى بـلا مهـل

وفيهـا خريسـا والضـحايا لفيـبس وربَّانهـا أوذيـس ذو الفضـل والعقـل

ومـذ مخـرت أتريـذ نـادى بجنـده وضـوءًا وتطهيـرًا فقـاموا إلـى الغسـل

ولبَّـوهُ والأقـذار فـي البحـر أفرغـوا وقادوا الضحايا خيرة الثور والسَّخل٥٩

وأذكوا لها في الجرف نارًا تصاعدت دُخانًـا إلـى الزَّرقـا روائحهـا تُغْلـي

بـذا اشـتغلوا طـرًّا وأتريـذ لـم يـزل بهاجسـه فـي كيـد آخيـل ذا شـغل

دعـا أورباتًـا ثـم تلثيبيـوس مـن لـه لـم يـزالا أصـدق الصـحب والرسـل

وقـال: «اذهبـا اقتـادا بريسـا بزنـدها إلى هنـا مـن خـيم آخيـل ذي النُّبـل٦٠

وإن هـو يـأبى جئتـه بعصـابةٍ بنفسـي فيـزداد انخـذالًا علـى خـذل»

سـارا يسـوقهما الأمـر العنيـف علـى البحـر المخـوف علـى رغـم علـى ألـم

بـين المرامـدة الغضـى أخيـل بـدا لـدى سـفينته السـوداء والخـيم

رآهمـا فتلظـى واحترامهمـا والخوف صدَّاهما عن واجب الكلم٦١

فاسـتوقفا وجـلًا والقلـب أنبـاه فقـال مبتـدرًا بالبشـر والسَّـلم

«يأمر سلي زَفس والناس أدنوا عجلًا مـا الـذنب ذنبكمـا إن تقصـدا علمـي

أتريــذ يبغــي بريســا فــاأتين بهــا فطرقـل يـا مجتبـى زفـسٍ فهيـت قـم

ليأخــذاها وعنــد الخالــدين وعنــ ـد النـاس والمعتـدي فليشـهدا قسـمي

لـئن تولّـت سـرى الإغريـق نازلـةٌ واستدفعوا العار واضطروا إلى هممي٦٢

... ...

لا شـك أودى بـه الغيظ المشـوم فلـم يــذكر ولــم يتــروَّ الأمــر بــالحكم

حتــى إذا قــاتلوا فــي ظـل فُلكهــم ظـل الأخـاءة فـي أمـن وفـي سـلم»

فقــام فطرقــل يمضــي أمــره وأتــى بهــا بقلــب بنــار البــث مضــطرم

تســلّماها وســارا وهــي مكرهــةٌ لفلـك ملـك المكينيـين ذي العظـم٦٣

فغــادر الربــع آخيــل وســار إلــى الجرف الخلي يفيض الدَّمع كالديم٦٤

وصـاح يبسـط ذرعًـا وهـو يحـدق فـي بحـر طغـى مسـتمدًّا رحمـة الـرَّحم:٦٥

«أمـاه ثيتـيس مـذ أولـدتني وقضـى زفـسٌ بقصـر حيـاتي فليصـن شـيمي٦٦

علـي ضـن بنـذر المجـد حيـث أغـا ممنـون فـي طولـه يسـطو علـى قسـمي»

هبَّـت وقـد سـمعت مـن لُجهـا صـعدًا مثــل الــدخان مــن الأمــواج كالنَّســم

مـن قـرب نيـرا أبيهـا الشـيخ طـائرةً علــت فألفتــه يُهْمــي دمــع محتــدمِ

فعانقتـه وصـاحت: «يـا بُنـيَّ عـلا م ذا البكــاء فــبح بالضــيم لا تَجِــمِ»

قــال والــنفس صــعَّدت زفــرات «لـيس تجـدي لمـا علمـت الإعـادَهْ٦٧

قــدس إتيــون ثيبــةً مُــذ دهمنــا وارتفــدنا منــه أجــلَّ ارتفــاده٦٨

وزِع الكســب هــا هنــا وخريســا نــال أتريــذ غــادةً أيَّ غــاده

فاتانــا خــريس كــاهن فيبــو س مثيــر الســهام يلقــي المقــادَهْ

يفتـــدي بنتـــه بغـــرٍّ الهـــدايا وبيُمنـــــاه صــــولجان السِّـــــيادَهْ
صـــولجانٌ مـــن عســـجدٍ وعصـــابا تُ أفلـــــون فوقـــــه ميَّـــــاده
فاتانـــا مســـــتنجدًا مســـــتجيرا راجيـــا مـــن جميعنـــا إنجـــاده
«ســيما العــاهلين مــن نســل أتــرا» فجميـــع الإغريـــق حقُّـــوا مـــراده٦٩
آثــروا حفــظ حرمــة الشــيخ فــيهم وقبـــــول النَّفـــــائس الوقَّـــــاده
فـــابن أتـــرا استشـــاط يطـــرده مـــن بيننـــا موريًـــا عليـــه احتـــداده
ذعـــر الشـــيخ وانثنـــى بـــدُعاء وفبـــــوس اســـــتجابه واســـــتجاده
فرمانـــا ســـهمًا فبـــدَّدنا والـــ أســـهم الـــدُّهم أنفـــذت بـــدَّاده
طفقـــت جنـــدنا تخـــر ركامًـــا بعضـــها فـــوق بعضـــها منقـــاده
فقـــه الأمـــر كـــاهنٌ ذو ســـدادٍ واحتـــــدام الإلاه أدَّى مفـــــاده
فطلبـــت استرضـــاءه فـــانبرى أتـــ ـــريذ حـــالًا يبـــدي عَلَـــيَّ اشـــتدَادَه
وأعَـــدَّ الوعيـــد ثـــم قضـــاه وأراد الإغريـــــق منـــــع الزِّيـــــادَهْ
فأعـــــدوا ســـــفينةً ســـــيَّروها بخريســـــا إلـــــى أبيهـــــا مُعَـــــاده
ثـــم ســـاروا وأوفـــدوا بنـــذورٍ شـــائقاتٍ للـــرَّبّ خيـــر وفـــاده
وبــذا الحــين قــام مــن خيمــي الرســ ـــلُ بســـهمٍ أوتيـــت حـــقَّ الجـــلادَه
لابـــن أتـــرا يستصـــحبون بريســـا أنجـــدي ابنًـــا عليـــك ألقـــى اعتمـــاده
أنصـــفيه إذا اســـتطعت وســـيري لِلْعُلـــى فـــي ألمـــب ربِّ العبـــاده
واســـتغيثي إن كنـــت حقًّـــا بقـــولٍ أو بفعـــلٍ خلبـــتِ يومًـــا فـــؤاده

بـــاعتزاز ســـما بقصـــر أبـــي كـــم   مـــرة قـــد رويـــت خيـــر إفـــاده
عنـــدَ مـــا فُوسِـــذ وَهِيـــرا وآثيـــ   ـــنا اســتطالوا علــى ولــي الإبــادَهْ٧٠
وتجـــاروا لغـــل زفـــس الـــذي يـــر   كـــم غـــيم العلـــى ويـــدجي اســـوداده
لـــم يكـــن بـــين عصـــبة الخُلْـــد إلَّا   ك يقيـــــه مــــــن ورطــــــةٍ مرتـــــاده
فابتـــدرت الأغـــلال بالحـــلِّ والجـــ   ـــبار حـــالًا دَعَـــوْت يبـــدي جهـــاده٧١
«مئـــة أذرعًـــا لـــه وهـــو يـــدعى   بريـــارا فـــي عُـــرف أهـــل الســـعاده
ولـــدى النـــاس إيجيـــون يُســـمَّى»   مـــن فســـيح الأولمـــب رام افتقـــاده
مـــن أبيـــه أشـــدُّ بأسًـــا وعنـــد ابـــ   ـــن قـــرون أقـــام يـــوري زنـــاده٧٢
فاقشـــعر الأربـــاب منـــه هلوعًـــا   وارعـــووا عـــن مكيـــدة نقَّـــاده٧٣
أقصـــدي زفـــس ذكريـــه بهـــذا   قَبِّلـــي ركبتيـــه وارجـــي مـــداده
ليبيـــد الإغريـــق بـــالجرف قـــر   ب الفلـــك قهـــرًا وينجـــد الطـــرواده
ليـــروا طـــيش ملكهـــم وهـــو يـــدري   أنـــه قـــد أصـــاد شـــرَّ إصـــاده٧٤
وابـــن أتـــرا يـــرى بمجـــد عـــلاه   حَـــطَّ مجـــد المِحْـــرَاب أيَّـــان قـــادَه»
قالـت وأهمـت دمـوع الحـزن: «والهفـا   وهـــل ولـــدتك كـــي تشـــقى وتشـــقيني
مـا ضـر لـو كنـت عنـد الفلـك مغتبطًـا   لـم تلـق ضُـرًّا وتـذرف دمـع مشـجون
فقـد ولـدتك أشـقى الخلـق وأسـفي   فـــي طـــالع السَّـــوءِ للأحـــزان والهـــونِ
تكـــاد تبلـــغ آجـــالًا مُعَجَّلـــةً   ولـــم تـــزل بـــين مرغـــوم ومحـــزونِ
نعـــم إلـــى قمـــه بـــالثلج ضـــافيةٍ   فـــوق الألمـــب سأمضـــي ســـاعة الحـــين
أشـكو إلـى زفـس قـذَّاف الصـواعق مـا   تشـــكو عســـى يرعـــوي رِفقًـــا ويـــدنيني

وأنــت ظــل عــن الإغريــق معتــزلًا بقــرب فلكــك لا تلــوي علــى لــين

بالأمس للأوقيانس سار زفس مع الـ أربــاب فــي دعــوةٍ جُلّــى التــزايين

يقضـي برحلتـه اثنـي عشـر يـوم صـفا بــالأثيبيين فــي رهــط العــرانين٧٥

فركبتيــه متــى يــأتي أقبــل فــي قصـر النحـاس عسى يصـغي ويكفينـي»

وغادرتــه بقلــب لاهــب حنقًــا لغصــب غادتــه الميســاء مفتــون

هــذا وأوذس مــاض فــي ضــحيَّته إلـى خريسـا وذاك الثغـر مـذ وصـلا٧٦

طـوى الشـراع إلـى قعـر السـفينة والـ ـحبال حـلَّ وحـالًا أنـزل الـدَّقلا٧٧

وقـام يجـذف للمرفـا ويطـرح مـر سـاة ويوثـق شـد الجمـل معـتقلا٧٨

فـأخرج الـذِبْحَ والحسـناء تتبعـه إلــى مقــام فبــوسٍ فــانثنى وتــلا ٧٩

«أيــا خــريس أغــاممنون أرســلني لــرد بنتــك واســتدراك مــا حصــلا

لفيــبسٍ بضــحايانا نقرِّبهــا جئنـا عسـاه يزيـل السُّـخط والعلـلا»

آوى إليــه ابنــة رَقَّــت عواطفــه لهــا وباشــرت الإغريقــة العمــلا

صَـفُّوا علـى المـذبح الـزدان ذبحهـم ذرُّوا الشـعير وكــل كفَّــه غَسَــلا٨٠

وللســماء خــريس مــدَّ فــي لَهَــفٍ يــد الضَّــراعة يــدعو الــرب مبــتهلا

«يـا رب كـلا وذا قـوس اللجـين ويـا مــوليَّ بقوَّتــه تِينِيذسًــا وصــلا٨١

ويـا ولـي خـريس قـد أجبـت دعـا دعوتــه وبلــوت القــوم شــرَّ بــلا

أجـب سـؤالي وعـن أبنـاء دَانَـوس أزل وبــاءً علــى أعنــاقهم ثقــلا»٨٢

كـذا دعـا وأفلّـون اسـتجاب وهـم دعــوا وذرُّوا شــعيرًا طــاهرًا فضــلا

والـذابح الـذبح أعلـى رأسـه وكـذا مـن بعـد تجريـده أفخـاذه عـزلا٨٣
بالشـحم غشّـى حواشـيها وأتبعهـا الأحشـاء داميـةً مـن فوقهـا وشـلا
فأضـرم الشـيخ خشـبانًا مقطّعـةً والخمـر صـبَّ عليهـا والصـلا اشـتعلا
وحولـه بسـفافيد مخمّسـةٍ أطرافهـا فتيـة الإغريـق والنـبلا
حتـى إذا ذابـت الأفخـاذ واجتعلـوا باقي الحشا اقتسموا اللحم الذي فضلا٨٤
ثـم اشـتووه وهبـوا للطعـام ولـم يكـن بهـم قـط شـاك لـم ينـل جُعـلا
لمـا اكتفـوا بكئـوس الـرَّاح طافِحَـةً داروا وفتيـتهم قـد رتّلـت جـذلا
ظلـوا نهـارهم يبغـون بـالنَّغم الــ ـشادي تقبُّـل ربّ مـنهم انـتفالا٨٥
وعظّمـوه بأنشـادٍ لـه نُظِمَـت فطـاب نفسًـا بطيـب اللحـن واجتـذلا٨٦
حتـى إذا أبـرزت وَرْدِيَّ أَنْمُلهـا بنـت الصـباح وذات الفجـر مُـنْجلا٨٧
عـادوا لقـومهم والـريح مسـعفةٌ لهـم بفـيض إلـه ذبحهـم قـبلا
هبـوا إلـى نشـر مبـيض الشـراع علـى أكنـاف سـارية ثـم انثنـوا عجـلا
راحـوا ومـركبهم شـق العبـاب علـى تلاطـم المـوج يـدوي حولـه قلـلا
كـادوا يطيـرون حتـى قـومهم بلغـوا فللرصـيف اسـتجروا المركـب العجـلا
القـوة بـين عِضَـاداتٍ مثبتـةٍ وبـين فلـكٍ وخـيم فُرِّقـوا جُمُـلا٨٨
وظـل أخيـل حانقًـا عنـد فلكـه بعيـدًا عـن الشـورى افتخـار البواسـل
يـؤجج فـي أحشـائه نـار عُزلـةٍ ووجـدٍ لضـجَّات الـوغى والجحافـل٨٩
وفـي فجـر ثـاني عشـر يومًـا مقامـهُ أتى زفس في رهط الخلود الأفاضل٩٠
ولـم تـك ثيتـيس لتنسـى وعودهـا فشـقَّت عبابًـا حـال بـين المراحـل

تجاوزت الجو الفسيح إلى السما ... إلى حيث زفسٌ بالجبال العواطل

على القمة العليا بهن قد استوى ... بعيدًا عن الباقين جم المخايل٩١

تدنَّت إليه وانْبَرَت مستجيرةً ... ومست بيمنى ذقن مولى العواهل

ومالت بيسراها تقبِّل ركبةً ... وتلتمس الحسنى بكل الوسائل

«أبا الخلق زفسًا إن صدقتك خدمةً ... بقولي وفعلي بين رهط الأماثل٩٢

أجر ولدي أدنى الرجال إلى الرَّدى ... فقد حطَّهُ أتْرِيذ حطَّة خاذل

وأعدمه سهمًا فلا تطرحه يا ... حكيمًا تجلّت فيه غُرُّ الشمائل

أفز جيش طروادا ليعظم قدرُهُ ... ويُنْزِله الإغريق أسمى المنازل»

فأبطأ رَكَّام الغيوم ولم يجب ... على الرِّكب انقَضَّت وصاحت «الأصل

وماذا الذي تخشى فخل تعلّلا ... وقل أو أشر بالوعد أو رفض نائلي

فأعلم بين الخالدين مذلّتي» ... فقال مبينًا زفرة المتثاقل:٩٣

لذلك عبر ضيق إن نمي هنا ... لهيرا انبرت لي بالجفا والقلاقل

فتوغر صدري إذ بكل نميمةٍ ... بمجتمع الأرباب تثقل كاهلي

وتزعم أني للطّراود ناصرٌ ... فَهُبي ولا تنظرك هبةً عاجل

سأنظر فيما تبتغين وهاكها ... إشارة وعد بالإجابة قائل

ففيها بدار الخلد عهدٌ مصدقٌ ... وثيق وطيد لن يمس بطائل»

وحرَّك جفنه فمادت شعوره ... وزلزل عرش الخلد أقوى الزلازل٩٤

بعد هذا الحديث سار الإلاهان ... فثيتيس للعباب العسوف

من أعالي الأولمب غاصت وزفسٌ … عاد للصرح في المقام المنيف

نهضت أرباب العلى لأبيها … حرمةً واختشاء هولٍ مخيف

حل في عرشه وهيرة بالمر … صاد كانت ما بين تلك الصفوف٩٥

أبصرتْهُ يلقي ابنة الشيخ نيرا … ذات رجل اللّجَين بالمعروف

فعليه مالت سريعًا بعزمٍ … وتلقته بالكلام العنيف

«من ترى أيها الإلاه المُدَاجي … قمت تدني إليك طيَّ السُّجوف٩٦

قد كرهت استيداع سرك عندي … إن أغب رمت سر غير أَليف»

قال ربُّ الأرباب والناس طرًّا … «لا ترجي استطلاع كل صروفي

لا تطيقين لا وإن كنت زوجي … غير عرفان حقك المألوف

ذاك لا خالدٌ ولا بشرٌ قب … لك يروي له أقلَّ الحروف

وحذار السؤال عمَّا أرى أن … أتبقَّى بعلمي الموقوف»٩٧

رمقته بطرف عين مهاةٍ … ثم قالت: «وما الذي ترويه٩٨

أنا لا أطلب التفحص عما … تَبْتَغي أجر أنت ما تشتهيه

إنما خشيتي من ابنة شيخ الـ … بحر أن تعتلي بمكرٍ وتيه

وافت الفجر والتقتك بلثم الـ … رُّكبتين ابتغاء أمرٍ بديهي

ويقينًا أشرت بالوعد أن يحـ … ظى أخيل بكلِّ ما يبتغيه

وبمرأى الإغريق في فلكهم تر … دي أُلوف الأبطال كي ترتضيه»٩٩

قال: «غاليت في مراقبتي ويـ … ـك وأكثرت ثقلة التَّمويه١٠٠

لن تنالي بذاك إلا نُفُوري … بل تذوقين طعم خذل كريه

ولـئن كنـت قـد صـدقت بمـا قلـ ـــت لأستحســـنن مـــا أجريـــه

فــالزمي الصــمت فــي مكانــك إيَّــا ك خلافًـــا وهـــاك أمـــري فَعِيـــهِ

لــيس يُنْجِيــك مــن ثقيــلِ ذِراعــي فــي ألمبــي جميــع مــن حــل فيــه»

جلَسَــتْ أصــمتت وخــارت فــؤادًا وبنـــو الخلـــد بلبلـــوا بلبـــالا١٠١

فتصــــدى الحــــدَّاد ذو الشــــأن هيفسـت لتسـكين أمـه ثـم قـال:١٠٢

«فــدح الأمــر إن تكونــا لأجــل النــ ـــاس بـــالأرض تُنْشـــبان القتـــالا

وإذا مــــا أوْسَـــــعْتُما جفـــاءً كيـــف نبغـــي الصـــفا ونـــنعم بـــالا

لــك نصــحي مهمــا تعــي حكمــةً أن تتقيـــــه وأن تلينـــــي المقـــــالا

خشـــيةً أن يشـــتدَّ زجـــرًا فتمســـي كـــأس أفراحنـــا بـــذاك وبـــالا

هكــذا شــاء قاصــف الرعــد وهــو الــ أعظــم الفــائق الجميــع كمــالا١٠٣

وهـــو كفـــوء لهـــدِّ كـــل قوانـــا بعـــروش قـــد أعظمتنـــا جـــلالا

ســـكني غيظـــه بعـــذب الأحاديـــ ـــث فيرضـــى عنَّـــا ويحســـن حـــالا»

ثـــم زجَّـــى لهـــا وقـــد قـــام كأسًـــا طفحــت قــال: «هــاك خمــرًا زلالا١٠٤

همـــدي الـــرَّوع كلمـــا اشـــتد إنـــي مشـــــفق أن يســـــومك اســـــتذلالا

لســـت كفـــأ مهمـــا علقـــت بقلبـــي لـــــدفاعٍ أراه أمـــــرًا محـــــالا

ســـاقَني العـــزم مـــرَّة لانتصـــارٍ لـــك فـــاجترَّني برجلـــيَّ حـــالا

ورمـــى بـــي مـــن الســـماء فدحرجـــ ـــت نهـــاري حتَّـــى ســـنا الشَّـــمس زالا

فـــوق لمنـــوس خـــائر العـــزم أهْبِطْـــتُ لـــدى السِّـــنت فالنقطـــت معـــالا:١٠٥

ببهـي اليـدين مـن بعـد أن هشـّ   ـت وبَشَّـت تناولتهـا فمـالا

وأدار السُّـلاف دورًا علـى البـا   قـين يسـقي يميـنهم فشـمالا

مقـبلًا يسـتقي مـن الـدَّن صـرفًا   وهـو يجـري ويحسـن الإقبـالا

فعـلا الضـحك بيـنهم إذ رأوه   هارعًـا فـيهم بقصـرٍ تعـالى١٠٦

لبثـوا يؤلمـون يـومهم بيـ   ـن طعـامٍ يُـؤتى وحـظٍ تـوالى

وفيـوس بضـرب قيثـاره والـ   ـحُورُ ينشـدن بهجـةً وجمـالا

وإذِ الشَّـمْس بالخبـاء تـوَارَت   كـلُّ ربٍ مضـى يـروم اعتـزالا

نهضـوا للمنـام ضـمن صـروحٍ   شـاد هيفسـت بالسـنا تـتلالا١٠٧

وكـذا زفـس رام مضـجعه حيـ   ـثُ لَذِيـذ الهُجُـوع يلقـي الظِّـلالا

وإلـى جانبيـه مـن فـوق عـرشٍ   عسـجديٍ هيـرا تشـوق اعتـدالا

هوامش

(١) الاحتدام الوبيل: هو الغضب الشديد المشئوم، شرع الشاعر في استنشاد الإلاهة (θεχ) والمراد بها إلاهة الشعر والقريحة، وبنى منظومته على كيد آخيل بن فيلا أشد أبطال القوم بأسًا.

كان اليونان في جاهليتهم ورعين في عبادتهم مخلصين في معتقدهم يجنحون إلى التماس عون آلهتهم في كل شأن من شئونهم، ويعتقدون الوحي والإلهام؛ ولهذا شرع الشاعر في استمداد المعونة من ربة الشعر؛ لتبث فيه روح النظم والإنشاد بل زاد على ذلك بأن جعلها

هي المنشدة، فمكانها هي صاحبة الفضل، وهو إنما كان ناقلًا يملي على الملأ ما يتلقنه من فيض روحها، وهنا منتهى الورع وسلامة الاعتقاد، هذا فضلًا عما تجد النفس من الارتياح بالاستكانة والاستسلام إلى عضد قوي يتوكأ عليه، فتصرف عنها إليه عبء العناية بالعمل أثناء القيام بأمر خطير، ولقد حذا حذو هوميروس سائر الشعراء في جاهلية اليونان والرومان، ولا سيما في مطولاتُ ملحماتهم كقول فرجيليوس كبير شعراء اللاتين: **Musa, mihi causas memora ...** ولما انتشرت النصرانية في البلاد الأوروبية، وانصرف أهلها إلى عبادة إله واحد هو رب الشعر والشعراء، وكل معقول ومحسوس لم يبق لربات الأغاني والأناشيد محل في عقيدتهم، ومع ذلك فإن فريقًا منهم ظل يستمد عونهن على سبيل الاستعارة، فكان شاعرهم كأنما يستغيث خصلة من صفات الباري عز وجل ألا وهي فيض الغوث الإلهي، وعلى هذا قال تاسو في فاتحة منظومته «أورشليم المحررة»: **O Musa, tu spira al petto mio celesti ardori** وقال مِلتُن الإنكليزي في «الفردوس الغابر» **Sing heavenly Muse** فاستنشدا ربة الأغاني وعرفاها بالمنشدة السماوية، وهلمَّ جرًّا.

أما العرب في جاهليتهم فلم يكونوا على شيء من هذا التزلف إلى معبوداتهم، ولا إلى جنيات الشعر اللائي كن بزعمهم يوحين إليهم،

ولم يكن شاعرهم يستنشد إلا سليقته مستحثًا فطرته الشعرية ليس إلا، فإن امرأ القيس وقف موقف المنشد والمستنشد بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وهكذا يقال في استهلال طرفة:

لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ   لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ

وقس عليهما، على أنه لما جاء الإسلام، ورسخت صحة الدين في أذهان العرب أخذوا يفتتحون مصنفاتهم ومؤلفاته بالبسملة عملًا بالحديث القائل: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» «أو أقطع أو أجذم» ثم يأتون بالحمدلة، والصلاة والسلام على النبي، فإنك لا تكاد تجد مؤرخًا أو مؤلفًا أو شاعرًا نظم في علم أو فن إلا رأيته نحا هذا النحو إلا في قصار المنظومات كقصائد المدح، والهجاء، والغزل، والرثاء، فليست كلها بأمور ذات بال.

(٢) الإخاء أو الآخائيون قبيل من الناس يُظن أنهم قدموا من ثساليا، ونزلوا ببلاد الأرغوليذة، وكانوا أثناء حرب طروادة أعز اليونان شأنًا؛ ولهذا كثيرًا ما يطلق هوميروس اسم الآخائيين على جميع اليونان من باب التغليب.

(٣) آذيس: إله الجحيم، والقيول: الزعماء والأبطال، كانوا يعتقدون أنه لا بد لنفس الميت من الانحدار إلى جحيم، فإن كان من أهل الهناء عبر النهر العظيم على صراط مستقيم إلى ديار النعيم، وإن

كان من أهل الشقاء لبث في عذاب مقيم، بعد أن ذكر الشاعر كيد آخيل أتى على وصف وبال ذلك الكيد على الجيش، فبدأ بالشر الأهون، وهو هلاك أبطاله، وانتهى بالشر الأعظم، وهو وقوع الطير والكلاب بجثث القتلى، ولم يكن بالممكن أن يأتي بأبلغ من هذا الوصف؛ لأنهم كانوا يؤثرون دك معاقلهم وتدمير مدنهم، وفناء مقاتلتهم عن بكرة أبيها على عار بقاء قتلاهم في العراء خصوصًا أنهم كانوا يعتقدون أن إحراق الجثة ودفنها يسهلان على الميت اجتياز السبيل إلى مقام السعادة، وأشعار العرب مشحونة بمثل هذا المعنى أي: عبث الطير والوحوش بجثث القتلى نجتزئ منها بذكر شيء من شعر عنترة قال:

تقلبـــه وحـــش الفــــلا وتنوشـــه   من الجو أسراب النسور القشاعمِ

وقال:

تحـــوم عليـــه عقبـــان المنايـــا   وتحجـــل حولـــه غربـــان بـــينِ

وقال:

وبالسيف قد خلفت في القفر منهم   عظامًا ولحمًا للنسور الكواسرِ

وقال:

كـم فـارس غـادرت يأكـل لحمـه   ضـاري الـذئاب وكاسـرات الأنسـرِ

ولكن العرب لم يروا رأي اليونان فما افتراس الكواسر شلو القتيل غضاضة عليه، ولا دون ذلك عقبة تقف في سبيلهِ إلى الجنة، بل ربما كانت تلك أمنية البطل المحراب، قال العبسي:

فيـــا رب لا تجعـــل حيـــاتي مذمـــة ولا مـــوتتي بـــين النســـاء النـــوائح
ولكـــن قتـــيلًا يـــدرج الطيـــر حولـــه وتشـرب عقبـان الفـلا مـن جـوانحي

وقد وضع هوميروس الكلاب موضع الوحوش لسببين: أولهما: قصد المبالغة في ما نالهم من الهوان، والثاني: مراعاة موقفهم في الحرب، فإنهم إنما كانوا يقاتلون حول بلدة آهلة بالسكان، فلم يكن للوحش من سبيل إلى بلوغ القتلى والجنود محدقة بهم من كل جانب.

(٤) زفس كبير آلهتهم وهو المشتري، ولم أر له ذكرًا بلفظه اليوناني في شعر العرب، وهو زاويش أبي نواس بقوله:

صـورة المشـتري لـدى بيـت نـور الـ ـليل والشـمس أنـت عنـد انتصـابِ
لـيس زاويـش حـين سـار أمـام الـ ـحوت والبـدر إذ هـوى لانصـبابِ
منـك أسـخى بمـا تشـح بـه الأنفـ ـس عنـد انتفـاض در الحـلابِ

ولكن أبا نواس أخذ هذا التعبير عن الفرس دون اليونان يؤيد ذلك قوله بعد هذه الأبيات:

لا وبهـــرام تســـتقل بـــه العقـــ ـــرب بالليـــل رائـــدًا بالحســـابِ
منـــك أمضـــى لـــدى الحـــروب ولا أه ـول في العين عند ضرب الرقابِ

وبهرام الفرس هو أريس اليونان إله الحرب

وقال: إن غضب آخيل إنما كان بمشيئة زفس، وقد فسر فلوترخوس كلمة زفس (Διος) هنا بمعنى القدر ليدرأ عن أبي الآلهة

شائبة القضاء بفتنة بين عباده، ويرد على ذلك بأن زفس هو رب القدر ولا قدر إلا بقضائه، وأحسن ما يمكن من التخريج في هذا المعنى أن يقال أنه تجاوز عن إخماد تلك الفتنة بل أذن في شبوبها عقابًا لليونان؛ لتغاضيهم عن إجحاف أغاممنون بحق آخيل على ما سيأتي.

(٥) ذكر هنا أن تلك الفتنة كانت بين أتريذ وآخيل، وأتريذ أو أتريذس كنية أغاممنون زعيم زعماء اليونان، ومعناهما ابن أترا أو أتراوس، وهي صيغة يونانية للإعلام، وقد تطلق أيضًا هذه الكنية على منيلا أو منيلاوس أخي أغاممنون، وكلاهما حفيد أترا لا ولده، والعرب تكني بالجد والجدة، ومن فوقهما كقول الفرزدق في زين العابدين:

هــذا ابــن فاطمــة إن كنــت جاهلــه بجــده أنبيــاء الله قــد ختمــوا

ولم يكن زين العابدين ابن فاطمة بل حفيدها، ولم يكن النبي جده بل جد أبيه، ونقول السموأل بن عادياء، وعادياء جده لا أبوه، وقد لقب آخيل هنا وفي غير موضع بالمجتبى؛ إما إعجابًا به، وإما إشارة إلى إعراقه بسمو النسب فإن فيه شيئًا من دم الآلهة على ما سيأتي، والكنى والألقاب كثيرة في الشعر اليوناني ككثرتها في الشعر العربي، وأكثرها للتعظيم.

(٦) لما فرغ من استنشاد الآلهة، وأتى على ذكر الموضوع والعلة والنتيجة، وقف مستفهمًا عن الإله المسبب لتلك النوائب، قال أفستاثيوس: «ثم توارى الشاعر كأن كل ما يلي من الحديث موحى إليه به

من إلاهة الشعر، وتراه في سياق النظم يستنشدها حينًا بعد حين؛ لئلا تغرب عن ذهن القارئ». ا هـ، وكأنها أخذت تقص عليه، فقالت: إن السبب فيبوس إله الشمس، وهو المعروف أيضًا باسم أفلون، وعطفت عليه زفس؛ لأن فيبوس وسائر الآلهة لا يستطيعون أمرًا ما لم يؤازرهم زفس عليه.

(٧) ابن لاطونة هوفيبوس، يقول: إنه رام بأغاممنون سوءًا لما لقيه منه من الجفاء.

(٨) الهم الشيخ الهرم، أي: إن السبب في غضب الآلهة إهانة الملك أغاممنون لكاهن خريس.

(٩) ولدا أترا هما: أغاممنون ومنيلا كما تقدم، وقلَّ حمل.

(١٠) العسجد الذهب، إن في قدوم الكاهن رافعًا بيده صولجان إلهه إشارة إلى أنه أتى بهيئة المستجير، وقد كان من عاداتهم أن يتخذوا صوالج تقام في هياكل معبوداتهم، فصولجان القمر كان فضيًّا، وصولجان أفلون كان ذهبيًّا.

(١١) الأولمب أو الأولمبس: جبل كان فيه مقام زفس، ومجلس شورى الآلهة، اشتهر بهذا الاسم ثلاثة جبال: أولها: السلسلة الممتدة بين تساليا ومكدونيا، وتعرف الآن قمتها العليا باسم لاشا، وهي التي كان

فيها منتدى الآلهة، والثاني: هو المدعو الآن كشيش طاغ وراء مدينة بورصة «عمُّوريَّة». والثالث: هو جبل الأطاغ الواقع بين بولي وأنقرة.

(١٢) قال أفستاثيوس: «إن في خطاب الكاهن خريسيس «أو خريس» حد الإعجاز في البلاغة، فإن جيش اليونان كان قادمًا من بلاد شتى بعضها ملكية، وبعضها شوروية، فاسترضاهم جميعًا بقوله: «فرعي أترا وقوم أخايا» بأن جعل خطابه موجهًا للملوك وعامة الشعب «واحتذاء الحذاء الجميل صفة من صفات اليونان في شعر هوميروس» ثم أدى بعبارة موجزة أبلغ ما يمكن أن يقال في هذا المقام، فإنه دعا لهم بالنصر ومعاودة الأوطان، وهما غاية أمانيهم واستحلفهم بإلهه أفلون استحلافًا يشير إلى ما سيحل بهم من الأرزاء الشداد إذا أصروا على عنادهم».ا ه، ولا يخفى ما يتضمن هذا الاستحلاف من الوعيد الخفي، وأفلون أو فيبوس كان ابن زفس؛ لأن الآلهة عندهم كالبشر بعضٌ أبناء بعض.

(١٣) بعد أن فرغ الكاهن من خطابه قال: «فجميع الإغريق ضجوا قبولا» وإجماعهم هذا يدل على أنهم حكموا حكمًا صوابًا، وأن أغاممنون إنما جار وتعسف، وهم مع ذلك لم يقاوموه خوفًا من اختلال نظام الجند؛ لأنه كان القيل الأعظم.

(١٤) قد استطال أغاممنون على أفلون بكلامه في هذا البيت، وسيعلم القارئ أن هذا الإله كان مظاهرًا للطرواد، فلم يكن من العجب أن يحط اليونان بسورة الغضب شيئًا من كرامته، وخصوصًا لأن فريق

أنصارهم من الآلهة كان يحثهم أحيانًا على العبث بكرامة الفريق الآخر حتى أثينا إلاهة الحكمة أمرت ذيوميذ «في النشيد الخامس» أن يطعن الزهرة ربة الغرام.

(١٥) إن في ذعر الشيخ ووجومه وانثنائه راجعًا من حيث أتى، وهو لم ينبس ببنت شفة لجوابًا بليغًا على كلام أغاممنون، فإن هذا الصمت أوقع في النفوس من كل جواب، وحسب القارئ أن يتصوره راجعًا على تلك الحال، والبحر يعج كأنه يناجيه بما في نفسه، فيعلم ما كان عليه من الكآبة وانقباض الصدر، ورب صمت أبلغ من خطاب.

(١٦) ذو قوس اللجين لقب من ألقاب أفلون إله الشمس، وقد يلقب برشَّاق النبال أو زجَّاج السهام، ولا يخفى ما بين هذا اللقب وأشعة الشمس التي يمثلها أفلون من النسبة المعنوية، تينيذس جزيرة تجاه ساحل طروادة على مقربة من مدخل الدردنيل كانت فيها معابد لأفلون، ويسميها الترك بوزجه أطه أي: الجزيرة الشهباء.

(١٧) خذ بنطاقي أي: أعني وأجرني، ولي السمنث أو السمنثي لقب آخر لأفلون كان يطلقه عليه أهالي تينيذس وسواحل بلاد طروادة، وكان في أرض طروادة بلدة تدعى سمنثا إلَّا أن اليونان كانوا يرجعون بأصل هذه التسمية إلى اشتقاق آخر، قال إسطرابون: «أنه من كلمة (Σμινθιοι) ومعناها الجرذان». ذلك أن آل طفقير لما نزحوا من أكريت إلى البر المقابل أوحى إليهم أن ينزلوا حيث يبادر السكان إلى

استقبالهم، فأتت الجرذان ذات ليلة وسطت على حمائلهم وجلود تروسهم، فقالوا: إن الآية قد فسرت، وأقاموا حيث كانوا وشادوا هيكلًا لأفلون ولقبوه بالسمنثي، كلًّا بليدة كانت قرب ثيبة وخريسا كان فيها معبد لأفلون الكلي، وهو لقب آخر له، وخريسا بلدة كانت في منتهى خليج أذرميتة عند مصب كيليوس على مقربة من ثيبة كان فيها خريس كاهنًا لأفلون، وهي غير خريسا الجزيرة المحاذية للمنوس.

(١٨) أراد بأبناء دانوس جماعة اليونان، بعد أن استعطف الإله بألقاب التبجيل، وذكره بما تستوجبه عبادته وخدمته له من الرعاية ناشده أن ينتقم له لما يذرف من دموع الكآبة، وهذا أول دعاءٍ في شعر هوميروس، وسنرى في البيت التالي أنه لم يكد يفرغ الكاهن من دعائه حتى استجيب، وقد نهج في كل شعره هذا المنهج لينبه القارئ على وجوب الصلاة، وفائدة الورع، وصحة العبادة وهو نهج حسن، واعتقاد رصين راسخ في كل دين.

(١٩) مزمهرّ: محتدم غيظًا.

(٢٠) الغضف الكلاب.

(٢١) قيل: إنه في السنة العاشرة لحصار طروادة تفشَّى وباء في معسكر اليونان، فسرى بين الناس والحيوانات، أما بين الناس فلعله كان من شدة الحر وفرط العناء، وأما بين الحيوانات فلعله كان من ذلك ومن فساد الأطعمة وقلتها، فصاغها هوميروس بقالب جميل، فجعل المسبب

أفلون إله الشمس وأشعتها نباله، وأسهم الرزايا ونبال المنايا استعارة لطيفة واردة في كثير من الشعر القديم والحديث، قال أبو الطيب:

رمــــاني الـــــدهر الأرزاء حتـــــى فــؤادي فــي غشــاءٍ مــن نبــالِ
فصـــــرت إذا أصــــابتني ســــهامٌ تكســرت النصــال علــى النصــالِ

ومن كلام داود النبي: «فيرميهم الله بسهم وضرباته تكون بغتة» «مز ٦٣» وزاد في حسن التعبير ودقة المأخذ، فجعل الخطب النازل عقابًا لأغاممنون على كفره به، وإهانته لكاهنه كل هذا حثًّا على البر والتقوى، أما كون الكلاب والبغال سرى إليها الداء قبل الناس ففيه نظر دقيق، قال الموسيوداسيه: «إنها لطريقة حسنة لردع البشر عن السوء، فلهم في ضرب الحيوان موعظة يتعظون بها لو اتعظوا، فيتوبوا ويرعووا قبل أن يحل بهم السخط، وتنكبهم النوائب فترضى العناية عنهم فلا تسومهم العذاب، فإن ضربات مصر أنزلها الباري عز وجل على هذا النمط، فضربت الخيل والحمير وغيرها من عجماوات الحيوان، فلما لم يعتبر المصريون ضربهم الله بأنفسهم».

(٢٢) هيرا امرأة زفس وظهيرة اليونان، والأراغس اليونان من باب التغليب كما قيل الأخائيون في غير موضع، وكما نطلق عليهم الآن اسم اليونان، وما هم كلهم بيونان.

(٢٣) إن في انتداب هيرا لآخيل دون سواه من الزعماء لعقد المجلس لحكمة يفقهها القارئ إذا علم أن كلام الشاعر رمزي. قال

فلوترخوس: «إن آخيل كان أعلم الملوك بحالة الوباءِ لما سبق له من درس الطب على خيرون». وزاد أفستاثيوس: «إن هيرا أوحت إلى آخيل ما أوحت؛ لأنه كان أعلمهم بفساد الهواء، وهي إلاهة الهواءِ كما سترى في ترجمتها». واسم الهواء باللغات الإفرنجية مشتق من اسمها اليوناني (**Ηρη**).

(٢٤) لما حشد آخيل رؤساء الجند قام فيهم خطيبًا فوجه كلامه إلى أغاممنون لثلاثة أسباب؛ أولها: أنه زعيمهم، والثاني: أنه كان المتسبب بهذا الوباء، والثالث: أن اليونان لم يقدموا على هذه الحرب إلا انتصارًا له ولأخيه منيلا، فذكر ثقل الرزءِ عليهم حتى كادوا يضطرون إلى القفول على لجة البحر وهيهات، ثم طلب استطلاع كنه السر في غضب أفلون، ولا سبيل إلى ذلك باعتقادهم إلا بالعرافة والكهانة، وتفسير الأحلام، وهي عادة جرى عليها القدماء في كل الملل والنحل، وأمثلتها كثيرة في التوراة، وكانت شائعة في جاهلية العرب وحسبك منها أخبار شق وسطيح، وكان العراف عند العرب ساحرًا ومنبئًا بالغيب وطبيبًا أيضًا. قال الشاعر:

جعلت لعرَّاف اليمامة حكمة   وعراف نجد أن هما شفياني

ومن قولهم في استفحال الأمر وبلوغ درجة القنوط: «إذا سال بك الغراف لا ينفعك العراف». وأخيرًا عمد آخيل إلى ذكر الوسيلة التي

كانت في ظنه حسنة لاسترضاء الإله، فقال: عساه أن يرضى إذا كفّرنا عما سلف، فضحينا له بخيار العنز والحملان.

(٢٥) كان كلخاس بن ثسطر عرَّافًا وناخذاة أي: دليلًا لهم في البحر، فلهذا كان معزز الجانب لشدة ما بهم من الحاجة إليه، فإنه لم يحمل مع من حمل على بلاد الطرواد في أول الأمر، فضلوا الطريق وأبحروا إلى ميسيا ظنًّا منهم أنها طروادة، وأخذوا يعيثون فيها ثم ما لبثوا أن تبين لهم الخطأ فرجعوا عنها، وذهب أغاممنون بنفسه إلى ميغارة، فأتى بكلخاس لما كان يؤثر عنه من معرفة سلك البحار، فقاد سفنهم في الربيع الثاني إلى حيث كانوا قاصدين.

(٢٦) يشير إلى أغاممنون.

(٢٧) قال ابن الوردي:

جانب السلطان واحذر بطشه لا تعاند من إذا قال فعل

(٢٨) أشار كلخاس إشارة لطيفة إلى أغاممنون، وأما آخيل في جوابه فصرح تصريحًا؛ لأنه كان ملكًا مثله، ولا يفضله أغاممنون إلا بالرئاسة الوقتية، وفي كلام آخيل في هذا الموضع دلالة واضحة على ما سيرد من وصف بأسه وعلو جانبه من وجه، وحقده وجفائه، وقلة رعايته لرئاسة الرؤساء من وجه آخر.

(٢٩) كان أغاممنون حاقدًا على كلخاس؛ لأنه أنبأه قبل بضع سنين بأن سيضطر إلى التضحية بابنته أفيجينيا؛ ولهذا لقبه بمنبئ السوء ووصفه بما يلي، على أن أغاممنون مع غيظه وحدته كان أحلم من أجاب ملك إسرائيل بما أنبأه ميخا بمآله «فقال ليوشافاط ألم أقل لك أنه لا يتنبأ عليَّ بخير بل بشر «٢ أي ١٧:٨» ثم أمر بسجنه وقال: «قوتوه خبز الضيق وماء الضيق إلى أن أرجع بسلام» «٢ أي ١٨:٢٦».

(٣٠) أن في قول أغاممنون هذا اعترافًا بحبه لها قال ذلك؛ ليتنصل بعض التنصل من ذنبه، وليكون له من حبه شافع بإمساكها عن أبيها، ثم أردف هذا الاعتراف بقوله: «فأخلي سبيلها» ليزداد فضله بالإفراج عنها مع شغفه بها، قاله بوب.

(٣١) أي: إنه اشترط عليهم أن يعوضوه بدلًا منها.

(٣٢) الظاهر أنهم كانوا يفاخرون بإحراز السبايا والأسلاب؛ لأنها تدل على بسالة محرزيها، ولا يقابلها عند العرب إلا المفاخرة بالأسرى والقلائع أي: الخيل التي يرمى عنها فارسها في ساحة القتال، فإن إحرازها كان محط الفخار في جاهلية العرب ولا يزال، وربما فخروا أيضًا بالسبي كقول الشاعر:

وعـــادوا بالغنـــائم حـــافلات وعـــدنا بالأســـارى والســـبايا

أما سائر المكاسب فقلما كان العرب يحرصون على حفظها بل ربما كانوا يجودون بها كلها، ثم افتخروا أنهم لم يبقوا على شيءٍ منها، وحسبوا أن الأثرة بها وصمة عار ذميم، قال عنترة:

أنــا إذا حمــس الــوغى نــروي القنــا ونعـــفٌ عنـــد تقاســـم الأنفـــالِ

وقال:يا عبل لا تخشي علي من العدى يومًــا إذا اجتمعــت علــي جموعهــا

فيكـــون للأســـد الضـــواري لحمهـــا ولمـــن صـــحبنا خيلهـــا ودروعهـــا

وهكذا كلام كله يشير إلى أن البطل الباسل كان يترفع عن اختصاص نفسه بما حق له من سلب العدو، قال أبو تمام:

هيهــات زعزعــت الأرض الوقــور بــه عــن غــزو محتســب لا غــزو مكتســبِ

إن الأســـود أســـود الغـــاب همتهـــا يوم الكريهة في المسلوب لا السلبِ

أما السبايا قبل الإسلام فكانت عندهم في جملة المتاع، ولم يرد عن ملك منهم ظفر بسبية، فقال: إنها خير من زوجه الحليلة، كما قال أغاممنون، وإن شغف بحب السبية فوق شغفه بالزوجة، ولم يرفع قدر السبيات عند العرب إلا في صدر الإسلام بعد أن كثر السبي من الروم والفرس، وكان منهن نساءٌ محمودات ولدن أولادًا نبغوا في الإسلام؛ كالسبيتين الفارسيتين اللتين كانتا لولدي أبي بكر الصديق وعمر الفاروق، واسكلا التي أخذت للمهدي من طبرستان، فكانت أم ولده إبراهيم وغيرهن كثيرات، ووجه المقابلة فيما تقدم أن اليونان كانوا أوفر حكمة، وأكثر رعاية للنساء، وأما العرب فكانوا آبى نفسًا، وأسخى طبعًا.

(٣٣) لم نر شاعرًا أكثر من هوميورس مراعاة لحق كل ذي حق في كلامه، فإنه وإن كان المقام مقام مهاجاة بين آخيل وأغاممنون فإن كلًا منهما يلقب الآخر بما يظنه فيه من المحمدة والمذمة، فهو ينطق بلسان الطبيعة بلا تكلف، فترى آخيل يعترف لأغاممنون بسمو المقام، ثم يصفه بالطمع الشديد، وأغاممنون يندد بآخيل ويسلبه ما عز لديه، وهو مع هذا يشبهه بالآلهة كما سترى في جوابه، قال عنترة:

إذا جحـــد الجميـــل بنـــو قـــرادِ وجـــازى بـــالقبيح بنـــو زيـــادِ

فهـــم ســـادات عـــبس أيـــن حلـــوا كمـــا زعمـــوا وفرســـان الـــبلادِ

(٣٤) كثيرًا ما يشبه هوميروس رجاله بالأرباب لصفة يمتازون بها فآخيل وهكطور لبأسهما، وأوذيس لحكمته، وفاريس لجماله، وهلم جرًّا، وعلى هذا جرى شعراء العرب في التشبيه بالملائكة والأنبياء.

قال ابن هاني:

وكأنمـــا أنـــت النبـــي محمـــدٌ وكأنمـــا أنصـــارك الأنصـــارُ

وقال أبو الطيب المتنبي:

يـا أيهـا الملـك المصـفى جـوهرًا من ذات ذي الملكوت أسمى من سما

(٣٥) جملة سهمك فائز حالية معترضة بين المبتدأ والخبر، والمعنى هل خطر ببالك أن ترد سبيتي التي كانت سهمي ويبقى سهمك بيدك.

(٣٦) سرانا: جيوشنا.

(٣٧) الغراب الحالك: السفينة السوداء.

(٣٨) الأرادم: الملَّاحون، والحسناء خريسا فقد رضي أغاممنون هنا أن يسيرها إلى أبيها.

(٣٩) تستعمل العرب هذا التعبير بهذا المعنى فتقول: «فلان عجيب الحال وأمره عجب وعجيب». قالوا: سئل إسحاق الموصلي عن المخلوع فقال: «كان أمره كله عجبًا».

(٤٠) ففيما مسقط رأس آخيل، وكانت قاعدة مملكة فيلا أبيه، وإليهم الأبطال.

(٤١) كان آخيل معتزًا ببأسه فتهدد أغاممنون بالقفول إلى أوطانه موقنًا أنه إذا غادر ساحة القتال يندحر اليونان، فيذل أغاممنون فيشفي حزازة صدره منه، وما أحسن قول عنترة في هذا المعنى:

سيذكرني قومي إذا الخيل أصبحت　　　تجـول بهـا الفرسـان بـين المضـاربِ

وأحسن منه قوله:

سـيذكرني قـومي إذا الخيـل أقبلـت　　　وفـي الليلـة الظلمـاء يفتقـد البـدر

وقوله:

سـتذكرني المعـامع كـل وقـتٍ　　　علـى طـول الحيـاة إلـى الممـات

(٤٢) أراد أغاممنون بقوله هذا أن يحط من شأن آخيل؛ لأن الفضل بكونه باسلًا لرب أولاه البسالة لا له، وفيه مع هذا اعتراف صريح بشدة بأسه، أما قوله بفاتحة جوابه: «إذا وقد رمت انهزامًا» فهو كلام لم يكن يعتقده أغاممنون، ولم يقله إلا تحقيرًا لآخيل في أعين الجند، وتخفيفًا لوجدهم عليه شأن الخصم الذي يتظاهر بالإزراء بخصمه مع ما يكنُّه له من الإعظام.

(٤٣) المرامد أو المرميذونة قوم آخيل كانوا كالآخائيين من البلاسجة، قال كلاڤيه في تاريخ جاهلية اليونان أن آخيل كان لهذا السبب أول ملوك اليونان بعد إغاممنون.

(٤٤) أراد أن يزيد آخيل علمًا بقلة عبئه به ويزيده كيدًا بهذا العلم، قال أبو العلاء:

أقل صدودي أنني لك مبغض وأيسر هجري أنني عنك راحل

(٤٥) يرى المطالع أن الفتنة تشتد شيئًا فشيئًا بين الملكين، وكلما طال المجال خشنت اللهجة، واذَّكر آخيل بطشه وأغاممنون علو منزلته بما له من السيطرة العامة، فإنه طلب بادئ بدء بدلًا من خريسا بلا تخصيص، ثم زاد حنقًا فخصص سبايا إياس وأوذيس وآخيل، ولما تناهى به الغيظ عمد إلى طلب سبية آخيل دون سواها.

لست أدري أهي سنة في خلق الله أم تحامل من المشترعين والشعراء أن تُعزى نشأة الفتن والشرور إلى ربات الجمال، وبنات جنسهن منذ أغوت أمنا حواء أبانا آدم، فقد علمنا أن غادة حسناء كانت العلة في تلاحم أمتين عظيمتين وهي هيلانة زوج منيلا، وإن شئت فقل زوج فاريس، وإن عذراء أخرى كانت السبب في انهيال غضب الآلهة على اليونان، فكادوا يبيدون بالوباء وهي خريسا، ثم ما لبثوا أن تفاقم الخطب عليهم بسبب فتاة ثالثة هي سبية آخيل، وسنرى في ما يلي أن معظم الفتن التي ثارت بين الأرباب نشأت عن مكامن صدر الأنثى حتى في السماء، نرى هذا في شعر هوميروس مع أنه لم يوف شاعر ما وفَّى من حق بنات الجنس الجميل بكل أحوالهنَّ، ومدح أخلاقهنَّ وإثبات فضائلهن، وهن بنات وأخوات وأزواج، وأمهات أحرارًا ورقيقات، على أن هوميروس كان مصورًا قصر عن شأوه في وصف أحوال الطبيعة كل شاعر ورسام، فألمَّ بها من كل أطرافها ومثل ما حسن منها وما ساءَ، وللمعجبين بوليَّات المحاسن أن يقولوا دفاعًا عنهن في هذا الموضع، وأشباهه أنه لما كان الجمال مطمح بصر الرفيع والوضيع، وللنساء منه النصيب الأوفر كان هو منشأ للنزاع، فما بعد ذلك جريرة لصاحب ذخر ثمين يتنازع الناس على إحرازه، فإن كان ثمة إثم فهو إثم المتنازعين من الرجال.

(٤٦) أشعار جمع شَعر. وأثينا: إلاهة الحكمة.

(٤٧) زرقاء اللواحظ صفة لأثينا، والزرقة شعار السعة ونسبتها المعنوية للحكمة ظاهرة، وهيرا امرأة زفس، وإلاهة الهواء يلقبها بيضاء الذراعين إشارة إلى النقاءِ.

(٤٨) إن في هبوط إلاهة الحكمة على آخيل وحديثها معه لتمثيلًا رمزيًّا بديعًا لحالة ما يتناوب الغضوب تباعًا من الحمق والتروي، كاد يدفعه ضيق الصدر في أول الأبيات إلى الفتك بأغاممنون وجماعته حتى انتضى حسامه وهو لا يشعر بما فعل، فإذا بأثينا هبطت من السماء ولم يرها سواهُ أي: إنه انتبه عند انتضاءِ السيف أنه إنما يأتي منكرًا، فتأنَّى وناجته نفسه بوجوب الإرعواء لما له من المكانة بينهم، فلا بد أن يضطروا إلى بأسه لدفع الأعداء، فيزيد شأنه علوًّا وينحط خصمه في أعين قومه، فسكن جأشه وأغمد سيفه، ثم غادرته أثينا أي: الحكمة، فعاوده الغيظ ولكن سورته كانت قد همدت بما استبقت فيه من الأثر، فأجتزأ عن البطش بالسباب كما سترى.

(٤٩) كل فئة من الناس تشبه بما حولها من مكنونات الطبيعة، فبلاد اليونان كثيرة الجبال والهضاب والغاب، فتكثر فيها الأيلة؛ ولهذا أكثر شعراء اليونان من تشبيه قلب الجبان بقلب الأيل كما أكثر العرب؛ لانبساط بلادهم وكثرة الظباء والنعام بها من التشبيه بالظبي والنعامة كقول الشاعر:

أسـد علـيَّ وفـي الحـروب نعامـة فتخـاءُ تفـزع مـن صـفير الصـافرِ

وقول أبي تمام:

إن يعـد مـن حرهـا عـدو الظلـيم فقـد أوسـعت جاحمهـا مـن كثـرة الحطـب

والظليم فرخ النعامة، وأما لحاظ الكلاب فكناية عن البذاءة والقحة.

(٥٠) بعد أن وصف أغاممنون بالسكر والبذاءة والجبن زاد كلامه إيضاحًا بقوله «لم تقد قط صيدهم بكمين» إذ كانوا يتخيرون أبسل المقاتلة ليكمنوا للعدو، فترصد الأعداء على هذه الصفة كان عنوان البأس والشجاعة؛ لأنه يقضي على فئة قليلة بمقاتلة جيش كبير.

(٥١) اعترض بعض الشراح على هوميروس بجعل آخيل يقسم بالصولجان، ولا يقسم بزفس أو غيره من الآلهة محتجين عليه أن الصولجان قطعة من خشب لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، وهو اعتراض في غير محله، ولا أرى له قسمًا أوفى بالمرام من هذا القسم في هذا الموضع، فقد تقدم أن إلاهة الحكمة غادرته، فلم يكن له أن يوجه نظره إلى الآلهة، فكان من البديهي أن يقسم بشيء محسوس يملأ بصره، ولم يكن ثمة إلا الصولجان، فأقسم به وهو شعار الملك والقوة عند اليونان كما كان عند كثير من الأمم، ولنا في سفر احشويرش في التوراة شاهد بين عليه، فكأنه أقسم بما له من القدرة والعظمة، هذا فضلًا عما هناك من

حسن التمثيل بقوله بعد هذا: «هيهات يخضل» أي: إن عصا الملك التي قطعت من شجر الجبال، وعريت من ورقها لا يعاودها رونقها وزهاؤها، وهكذا لن يتمكن بيننا التواد بعد قطع علائق التصافي وحسن الولاء، ثم إن القسم بالمحسوس أسهل منالًا وأقرب من القسم بغير المحسوس سواءٌ أريد به قوة غالبة أو لم يرد، فقد كان حلف العرب بالبيت والركن، والحطيم وزمزم أكثر منه بمعبوداتهم وأصنامهم.

(٥٢) القتر جمع قتير المسامير، لم يذكر الشاعر أصولجان آخيل كان بيده أم صولجان أغاممنون، ولا أخاله إلا صولجان أغاممنون، وإن كان بيد آخيل؛ لأن قوله: «وهو ولي لجموع الإغريق» يدل على أنه كان صولجان صاحب السيطرة الكبرى، فلما كان آخيل هو المنتدب لحشد المجلس كان له أن يتناول صولجان السيادة من صاحبه، فإن أوذيس تناوله منه في النشيد الثاني عندما أخذ يطوف على زعماء الجيش.

(٥٣) إن تشبيه نطق نسطور بالشهد لأشهى من الشهد، وقد استعاره من هوميروس كتبة الإفرنج، وهو وارد كثيرًا في كلام العرب شعرًا ونثرًا أخذًا عن الطبيعة مأخذ هوميروس نفسه.

فمن ذلك قول الصاحب بن عباد للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز:

بالله لفظك هذا سال من عسل أم قد صببت على أفواهنا العسلا

وقول الثعالبي للأمير أبي الفضل عبد الله الميكالي:

سبحان ربي تبارك الله ما أشبه بعض الكلام بالعسلِ

مثل كلام الأمير سيدنا نظمًا ونثرًا يسير كالمثلِ

ويقولون: كلامٌ له من الهواء رقته، ومن الماء سلاسته، ومن السحر نفثته، ومن الشهد حلاوته، وما أشبه.

(٥٤) فسر البعض كلمة (Ιένεχ) بمعنى قرن فيكون عمر نسطور زهاء الثلثمائة سنة وهو غير معقول، ولكن الأكثرين يفسرونها بمعنى جيل من الناس، وَهُوَ الصَّوَابُ وَمُعَدَّل مدة الجيل نحو ثلاثين سنة. قال بعضهم: إن عمره أثناء حروب طروادة كان نحوًا من ستين أو أكثر قليلًا، على أن عقيلة داسيه أتت بحجة أخرجت منها أنه كان خمسًا أو ستًا وثمانين ذلك أن قدَّرت المدة المنقضية بين حرب القناطرة التي ذكرها بخطابه، وحرب طروادة هذه بخمس أو ست وخمسين سنة، ولم يكن عمره إذ ذاك بأقل من عشرين تضاف إليها عشر سني الحرب، فتبلغ ما تقدم، وهذا يقرب من قول هيرودوتس إذ يجعل سني الجيل ثلاثًا وثلاثين سنة، فيكون عمر نسطور بين الثمانين والمئة.

ومن غريب الاتفاق في الخطأ أن بعض كتاب العربية يقيمون الحيل مقام القرن كما جرى لبعض مفسري اليونانية.

(٥٥) شبين جمع شبة، وهو البطل الباسل.

(٥٦) القناطرة جمع قنطورس أو قنطير، وهو مخلوق خرافي كان يأوي إلى أكم تساليا، وأجمها زعموا أنه له شطر إنسان قائمًا على شطر حصان كما ترى في الرسم، والأصل في هذه الخرافة أن القوم كانوا فرسانًا محنكين فما زال أصحابهم يبالغون في إطرائهم حتى ألصقوا الفارس بالفرس، وهم إنما كانوا في بدء أمرهم كبني عمران بقول المتنبي:

الثـــابتين فروســـة كجلودهـــا فـــي ظهرهـــا والطعـــن فـــي لباتهـــا

فكأنهـــا نتجـــت قيامًـــا تحـــتهم وكـــأنهم ولـــدوا علـــى صـــهواتها



القِنْطُورُس أو القِنْطِير.

والقنطورس أيضًا أحد الأبراج الثمانية والأربعين التي رسمها بطليموس، ونقلها عنه العرب، فغيروا رسمه ومثلوه بهيئة دب ممتطٍ

حصانًا، ولا ريب أن لفظة القنطير عند العرب بمعنى الداهية مأخوذة من هذه المادة.

(٥٧) شبه آخيل بالحصن وقد شبَّه به إياس في ما يلي، والعرب تشبه بالحصن والمعقل أما للدلالة على علو الهمة بالذود والكفاح على ما يراد هنا كقول العبسي عنترة.

أنـــا الحصـــن المشـــيد لآل عـــبسٍ إذا مـــا شـــادت الأبطـــال حصـــنا

وأما للدلالة على الحكمة وأصالة الرأي اللتين تقومان مقام الحصون، كقول الزمخشري من إنشاد أبي زيد.

كهـــولٌ معقـــل الطـــرداء فـــيهم وفتيـــــان غضـــــارفة فـــــروعُ

لا شيء أليق بالمقام من توسط نسطور خطيب اليونان وحكيمهم بين الملكين المتخاصمين، ولا كلام أبلغ ولا أرق من كلامه، شرع أولًا في إعظام البلاء والتهويل بشماتة الأعداء، ثم ذكرهما أنه أرشد منهما فيجدر بهما الانقياد إليه لما مرَّ عليه من سني الاختبار الطوال، ولما مر له من النصح والإرشاد لأقيال ليسوا دونهما عزوة واقتدارًا، وفصل تفصيلًا ليطول بهما المجال فيتلطف الغضب، ثم تزلف إلى كل منهما بما يرضيه غير مؤثر أحدهما على الآخر، ولم يكن من تصد الشاعر أن يكون هذا الخطاب فاصلًا كل نزاع، وإلا لانتهت القصة عند هذا الحد، ولكنه لم يكن حسنًا أيضًا أن يذهب كلام الخطيب ضياعًا، فكان له شيءٌ من حسن الوقع في نفسيهما، فإن أغاممنون أجابه بقوله: «يا شيخ

حكمةً نطقت» وقال آخيل بعده: «لأجل فتاتي لست منتضيًا نصلي» فيتضح من ثم إن الشر قد هان بفضل نسطور، وراح كل منهما في سبيله، فمضى آخيل إلى سفنه واعتزل القتال، وأخذ أغاممنون في استرضاء أفلون؛ دفعًا للوباء عن الجيش كما سيجيء.

(٥٨) فطرقل رفيق آخيل وصديقه الحميم.

(٥٩) المراد بالسخل هنا العنز، أراد أغاممنون أن يستتم البر في استرضاء أفلون، فبعث بضحايا في السفينة الذاهبة إلى أبي خريسا في البر المقابل لطروادة، وضحى بضحايا أخرى في معسكره، ولم يكونوا يضحون إلا وهم على وضوءٍ كسائر الملل المستنيرة بشيء من نور المدينة في تلك القرون المظلمة.

(٦٠) بريسا ابنة بريسيس كاهن زفس في لزنيسة، سباها اليونان في من سبوا من تلك البلدة عندما اكتسحوها في طريقهم، فكانت عند اقتسام السبايا سهم آخيل.

(٦١) لا يماثل بلاغة صمت أبي خريسا، وهو راجع مذعور على جرف البحر إلا صمت رسولي أغاممنون أمام آخيل، قال أفستاثيوس: «إن الشاعر تنصل هنا من تبعات كثيرة كانت لزمته لو تكلما، فإنهما لو بلغا رسالتهما لاضطرا إما أن يبلغاها ببعض الانكسار، وفيه غض من شأن أغاممنون، وإما أن يبلغاها كما أمرا، وفي ذلك وسيلة لإثارة غيظ آخيل، على أنهما بصمتهما قضيا مهمتهما، ولطفا من غضب آخيل، فأمر

بتسليمها إليهما كأنه سامح غير مجبر». ا ﻫ، قلت: وفي هذا زيادة إعظام لهيبة آخيل في قلب الصديق والعدو، واستطراق إلى مدح أخلاقه وشهادة بأنه مع شدة قسوته لا يخلو من الحلم وسعة الصدر كما يتضح من خطابه لهما.

(٦٢) كأنه أراد أن يقسم هنا أنه إذا نكل العدو بقومه لا يبسط يده للذود عنهم، ففكر أنه تجاوزٌ منه في الحقد، فقطع الكلام، ورجع إلى تعنيف أغاممنون بكلام أشبه بالعتاب منه بالسباب.

(٦٣) ملك المكينيين أغاممنون، لم تكن بريسا تجهل مكانة أغاممنون، ومع هذا فإنها لم تذهب إليه عن طيبة خاطر بل «سارت مكرهة» ولم يغرها حوله وطوله؛ لأن الحب طائر لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير، فقد وجدت في قلب آخيل الصلد مرتعًا لينًا رحبًا، فأقام حبها فيه واستطاب المقام، وزد على ذلك أن آخيل كان فتىً في ريعان شبيبته، وأغاممنون كهلًا قضي على شبابه، وأي فتاة لا تؤثر الشباب على الكهولة؟

(٦٤) لم يكن يجدر بآخيل بعد فوز خصمه وتسليمه بتسيير بريسا صاغرًا على ما كان عليه من حدة المزاج، وعلو الشأن، وشدة البأس وشغفه بها إلا أن يطلب العزلة في البراح، ويطلق لنفسه العنان، فتهيج بما أكنت من الجأش، فهام على جرف البحر وتفجرت عبراته على ما رأيت، قال بعضهم: «لم يكن يليق ببطل كآخيل أن يذرف

الدمع» وهو قول من لم تمر نسمات العواطف على فؤاده بل نقول: إنه لم يكن يليق به إلا أن يبكي؛ لأنه وإن كان بطلًا باسلًا، فقد كان شهمًا غيورًا محبًّا محسنًا، وقد اجتمعت لديه دواعٍ كثيرة بعضها يكفي لشق أصاب الصدور إذا لم تفض منها الدموع، فتوسع ضيقها وتخمد لهيبها، والبكاء سنة جرى عليها كل الشعراء، وفطرة تعجز عن مقاومتها بسالة الأبطال، أفلا ترى بكاء بطل العرب عنترة العبسي القائل:

يا عبل لولا الخيال يطرقني   قضيت ليلي بالنوح والسهرِ

أو لم يفتتح شيخ الشعراء الكندي معلقته بالبكاء بقوله: قفا نبك الخ، أو لم يجمع الناس على أن الدمع ملطف للأحزان، ومخفف لحرارة الأشجان، كقول أبي تمام في وصفه:

واقعًا بالخدود والبرد منه   واقع بالقلوب والأكباد

ومن هذا القبيل قول امرئ القيس:

وإن شفائي عبرة مهراقة   فهل عند رسم دارسٍ من معوَّلِ

وقول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة   من الوجد أو يشفي نحبيّ البلابل

وقول الفرزدق:

فقلت لها إن البكاء لراحة   به يشتفي من ظن أن لا تلاقيا

أو لم يجعل بعض الشعراء البكاء محجة يتسابق إليها، ومحمدة يرغب فيها كقولهم:

ولـو قبـل مبكاهـا بكيـت صـبابة بسـعدي شـفيت الـنفس قبـل التنـدم

ولكـن بكـت قبلـي فهـيج لـي البكـا بكاهـا فقلـت الفضـل للمتقـدمِ

أولا تراهم أيضًا وصفوه في كل أحواله حتى ذكروه في السرور كقول الصفي الحلي:

طفـح السـرور علـيَّ حتـى أنـه مـن عظـم مـا قـد سـرني أبكـاني

أما شعراؤنا المتأخرون فقد أساء أكثرهم التقليد في هذا كما أساؤه في غيره، حتى إنك تكاد لا تجد في بعض أشعارهم إلَّا بكاءً واستبكاءً وتباكيًا يضحك الباكي.

(٦٥) الرحم القرابة. لم يبق لآخيل بعد أن عانى ما عانى إلَّا أن يشكو ظلامته لذات رحمه أمه ثيتيس.

(٦٦) ثيتيس إحدى بنات الماء من صغار الآلهة تزوجت فيلا، فأولدها آخيل وموطنها مع أبيها نيرا وأخواتها في قعر البحر، إن كلام آخيل في هذا البيت يشير إلى قصة سيرد ذكرها في النشيد التاسع؛ مفادها أن آخيل كان عالمًا أنه قدر له في القضاء المحتوم أما أن يعيش عمرًا مديدًا في سعة ورفاءٍ وخمول ذكر، وأما أن يهلك في عنفوان الصبا، ويعيش في شقاءٍ ونصب ويخلد ذكره، فاختار قصر الحياة مع المجد

الأثيل غير طامع في طويل العمر ورغد العيش، ولا يخفى ما في هذا الاختيار من العزة والإباء، وما أحسن قول العبسي:

لا تسقني كأس الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

كأس الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزلِ

(٦٧) انتقد بعض الشراح على هوميروس إعادة الحديث في مواضع من شعره، لعلهم مصيبون في هذا الموضع خاصةً لافتتاح آخيل كلامه بقوله: إن أمه كانت عالمة بواقعة الحال «فلا تجدي الإعادة» ولكن له شافعًا بهذا التكرار بما زاد القارئ علمًا به من تاريخ دخول خريسا في حيازة أغاممنون، وهي حادثة لم يسبق ذكرها، وأما سائر ما ورد من التكرار في ما يلي، فأكثره واقع في محله أما لأنه كلام رسل بُلِّغ كما قيل، وإما لأنه كلام أعيد لزيادة وقعه في النفوس.

(٦٨) ارتفد بمعنى كسب. ثيبة أو ثيڤاس، ويقول العرب: طيبة أو طيوة بقلب الثاء طاء، والڤاء باء أو واوًا اسم لعدة مدن. حسب إسطفانوس البيزنطي تسع مدائن بهذا الاسم أشهرها قاعدة بيوتيًا مسقط رأس فنذاروس، وأفامينتذاس، وطيبة مصر الشهيرة عاصمة صعيد مصر، وأما ثيبة المرادة هنا فهي عاصمة مملكة إيتيون أبي أنذروماخ امرأة هكطور وهي واقعة في كيليكيا الطروادية، وكانت عندهم من جملة المدائن المقدسة؛ ولهذا دعاها بقدس إيتيون.

(٦٩) حقوا: أوجبوا.

(٧٠) قال بعض الشراح: «إن في تذكير زفس بخروج فوسيذ وهيرا وآثينا عليه لدهاء عظيمًا؛ لأن ثيتيس إذا أعادت على زفس تلك الذكرى هاجت فيه عاطفة الانتقام من هؤلاء الآلهة الذين تعاونوا في سالف الزمن على غله، وهم هم نصراء اليونان، فإذا نكَّل زفس باليونان، فكأنه نكل بهم، فأعز آخيل بذلهم وأدى واجب الوفاء لثيتيس التي كفته بدهائها شرهم.

(٧١) المراد بالجبار بريارا المذكور في البيت التالي، كان أشهر الطيطان وأشدهم بأسًا، قال هوميروس: إنه كان ذا مئة ذراع، وذكر ڤرجيليوس (ن ٦) أنه كان له خمسون رأسًا وخمسون فمًا تقذف بالنيران المضطرمة، وهو الذي استصرخته ثيتيس لنجدة زفس لما تألب عليه الآلهة قبل أن رسخت قدمه في حكم العالمين.

(٧٢) قرون أو قرونس: زحل وهو أبو زفس.

(٧٣) ذهب الشراح مذاهب شتى في هذه الخرافة، فقال قوم: إن اليونان لما كانوا قد أخذوا طرق عبادتهم عن الملل السابقة لهم في المدنية كالمصريين، والآشوريين والفينيقيين كان هذا الحديث مزيجًا من اعتقادات هذه الملل، وقال آخرون: إنهم كانوا يلمُّون بعض الإلمام بما جاءَ في التوراة عن عصيان بعض الملائكة، فحفظوا الرواية مشوَّهة، فصاغوها باعتصاب بعض الآلهة على زفس زعيمهم، وأما الذين يرون كل

كلام هوميروس رموزًا تشير إلى حقائق راهنة فيئولون الآلهة بالعناصر التي تمثلها، فيقولون: إن تلك العناصر كانت متألبة على زفس ممثل الرقيع فتغلب عليها، وربما كانت وساطة ثيتيس بنت الماء إشارة إلى ما للعنصر المائي من الشأن في توازن الكون.

(٧٤) الإصاده: الأذى.

(٧٥) العرانين: الأسياد والمقصود الآلهة، في هذين البيتين إشارة إلى خطة قديمة في عبادة الأثيوبيين ذكرها أفستاثيوس، وقال: «إنه كان لهم عيد سنوي يحتفلون به اثني عشر يومًا يضحون فيه بالضحايا لزفس، وسائر الآلهة». وقول هوميروس أن زفس ذهب في دعوتهم لا يفيد أنه آكلهم على ظاهر العبارة بل يريد أن يظهر اهتمامه بهم أثناء احتفالهم بعبادته، وقد أوضح في ما يلي أن الآلهة لا يوآكلون البشر.

(٧٦) خريسا البلدة التي تقدم ذكرها، انتقل الشاعر هنا من حديث آخيل وأمه إلى مقابلة أوذيس رسول اليونان لخريس كاهن أفلون، وفي الأبيات التالية وصف تاريخي لا مثيل له في ما لدينا من آثار الأقدمين عن طريقة التضحية للآلهة كما سترى.

(٧٧) الدقل: سارية السفينة.

(٧٨) الجمل: حبل السفينة.

(٧٩) الذبح الذبيح.

(٨٠) كانت العادة أن يذر الشعير على رأس الضحية محمسًا وممزوجًا بالملح.

(٨١) كل هذا البيت ألقاب لأفلون مر ذكرها.

(٨٢) أبناء دانوس اليونان.

(٨٣) كانت العادة أن يوجهوا رأس الضحية إلى السماء إذا ضُحي بها للآلهة العليا، وإلى الأرض إذا ضحى بها للآلهة السفلى أو آلهة الجحيم.

(٨٤) اجتعلوا: اقتسموا.

(٨٥) انتفل: تبرَّأ.

(٨٦) كانت العادة أن يعزلوا الأفخاذ ويغشوها بطبقتين من الشحم، ويضعوا فوقها قطعة صغيرة من كل عضو من أعضاء الذبيح، ثم تضرم النار تحتها وهي على المذبح حتى إذا اشتعلت أخذوا يصبون الخمر على اللهيب حتى تحترق بجملتها ضحية، ويدعونها العنيرة وأول نتاج الأبل ويدعونه القرع، ولم يزالوا على ذلك إلى أن أبطله الإسلام.

(٨٧) منجلًا أي: مستبينًا.

(٨٨) خيم جميع خيمة، وجمل زرافات.

(٨٩) يتحرق آخيل للطعن والضرب تحرُّق عنترة بقوله:

أحن إلى ضرب السيوف القواضب وأصبو إلى طعن الرماح اللواعبِ

وقال:

فتى يخوض غبار الحرب مبتسمًا ... وينثني وسنان الرمح مختضب

وقال:

وأفرح بالسيف تحت الغبار ... إذا ما ضربت به أَلِف ضربه

(٩٠) انقضت هذه الأيام الاثنا عشر بلا حرب، وهي أطول مدة يمر عليها هوميروس في الإلياذة، ولا يصف ما جرى بها، ولكنه لم يفت القارئ أن اليونان كانوا مشتغلين أولًا بمصابهم، ثم بإنفاذ الرسل والهدايا والضحايا إلى خريسا كل هذا مع اضطرارهم إلى إحراق جثث موتاهم ودفنها استغرق تلك الأيام، أم الطرواد فكانوا في موقف الدفاع، واغتنموها فرصة للم شعثهم، وتحصين معاقلهم.

(٩١) المخايل: التصورات.

(٩٢) أبو الخلق، وأبو الآلهة والبشر، والأب مطلقًا كنًى يطلقها هوميروس على زفس (المشتري) مع أن زفس نفسه في أساطيرهم كان ابن قرونس (زحل) ولكن دولة قرونس كانت قد دالت في ذلك الزمن.

(٩٣) كان اليونان يمثلون آلهتهم تمثيلًا محسوسًا (على نحو من اعتقاد المشبهة من فرق الإسلام التي كانت تشبه الخالق بالمخلوقات، وتمثله بالحادث) وينسبون إليهم جميع ما يروى عن البشر من العواطف وحاسات: اللين، والغضب، والحلم، والظلم، والحب، والبغض، والغيرة،

والاستكانة، فإذا وصف هوميروس حديثًا أو واقعة بين الأرباب علمنا منها وصفًا دقيقًا للفطرة البشرية في بعض شئونها، وفي ما يلي من الحديث أبدع تمثيل لحالة الزوجة التي تغار على زوجها، وتتطرق إلى استطلاع مكنونات ضميره، فتغضب فتلين فتدل فتذل، والزوج الذي يتثاقل من تشوُّف امرأته إلى ما وراء ما يحق لها عرفانه، فيحاذر، فيلاطف، فيقسو، فيصالح، وقد اتخذ الشراح هذا الموضع وسيلة للإسهاب في انتقاد طباع النساء إلا أن عقيلة داسيه، وهي منهن أوَّلت الحديث تأويلًا فلسفيًّا، فاعترضت على هيرا زوجة زفس، ولكن اعتراضها كان دينيًّا فلامتها على إزعاج زوجها من حيث أنه ممثل العناية الإلهية، فلم يكن لها أن تتطلب التطلع إلى أحكامه، على أنني أميل إلى الاستمساك بظاهر العبارة بلا تأويل ولا تخريج، فأرى من ثمَّ إن هوميروس لم يقصد إلا الإتيان على وصف أخلاق النساء والرجال، فأظهر كلًّا من الحسن والقبيح في موضعه، وهو وإن كان قد أبان محل الانتقاد في طبائع النساء فقد أثبت لهن الفضل في مواضعه؛ لأنه كان أميل الناس إلى رفع شأن المرأة، وقد أحلها محلًا لم يُحلّها فيه أحد قبله ولا بعده إلى ما يقارب أيامنا هذه، وحسبك بهذا شاهدًا على بصيرته الوقادة وعارضته النقَّادة، ورحم الله الأديب القائل:

إنما المرأة مرآة بها كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهي ملكْ

(٩٤) اصطنع فيداس نصبًا لزفس كان آية من آيات الصناعة، فسئل عما أرشده إلى إبداعه ما أودعه من مظاهر الجمال والجلال، فقال كلام هوميروس في هذا الموضع.

(٩٥) يعلم القارئ من هذا البيت كيف لا تألو المرأة جهدًا من مراقبة زوجها، فتعلم من حركاته وسكناته ما لا يخطر له على بال، وإن كان على حذر منها، فإنه قال قبلا لثيتيس «هبي ولا تنظرك» مع أنها كانت حاضرة ناظرة.

(٩٦) سؤالها هنا من قبيل التجاهل؛ لأنها كانت عالمة أنه إنما حادث ثيتيس.

(٩٧) استعطفها وتهددها معًا شأن الزوج الذي يعترف بحق امرأته، ويحب أن تنتهي عما وراء ذلك.

(٩٨) عين مهاة في الأصل (Βοωπις) أي: عين بقرة على الإطلاق. عبرت عنها بالمهاة أي: البقرة الوحشية، وهو تشبيه كثر حتى ابتذل في شعر العرب، قال علي بن الجهم:

عيون المهى بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ولقد يشبه العرب بعيون البقر الأهلية أيضًا كقول أبي تمام:

بيض فهن إذا رمقن سوافرًا حور وهن إذا رمقن صوارُ

ولا عجب أن يستحسن اليونان عيون البقر الأهلية بحضارتهم استحسان العرب عيون البقر الوحشية في بداوتهم، بل العجب أن كثيرين من شراح الإفرنج استقبحوا هذا التشبيه؛ لبعد عهدهم برعاية الماشية حتى أن البعض من المتشيعين لشاعرنا بالغوا في تأويل أصل الكلمة، وجعلوا لها معنىً لم يتصوره هوميروس، ولا بدع أن يشبه شعراء الجاهلية بهذا التشبيه، وشعراؤنا من متأخري العرب المقلدين لا يكادون يشبهون العيون الحسان إلا بلحاظ المهى والغزلان حتى لقد يتوسعون فيجعلون كل الفتاة كل المهاة.

(٩٩) كان لهيرا باعث آخر غير الغيرة على تعنيف زفس ذلك إنها كانت ميالة إلى اليونان تخشى أن ينكل زفس بهم؛ ارتضاءً لثيتيس، وهذا شافع آخر لها بتطفلها عليه.

(١٠٠) لما رأى زفس أنه لا سبيل إلى إسكاتها باللين عمد إلى القسوة والإشعار بما له من السلطان، فكأنه يقول قول الشنفرى:

ولا جبأ أكهى مربَّ بعرسه ... يطالعها في أمره كيف يفعلُ

(١٠١) لم يغادر هوميروس شاردة من أحوال الخلق إلا دونها، فإنه بعد أن وصف نزاع الزوجين قال في التوطئة لتراضيهما: «وبنو الخلد بلبلوا بلبالًا»، فليتصور القارئ رب بيت عظيم نازع امرأته على مرأى حشمه وأتباعه، فكل ذلك البيت يبلبل بلبالًا عظيمًا، وهذا كلام يزيد قوة تعبيره وقعًا لزيادته في رونق الحديث، وإثباته واقعة حقة لا بد منها وفتحه

الباب لوساطة المتوسطين بين المتخاصمين هذا فضلًا عما يظهر من أبهة زفس وعظمته.

(١٠٢) هيفست إله النار والحرارة، وهو ڤولكانوس الرومان، ومنه اتخذ العرب كلمة بركان لجبل النار، قال إفستاثيوس: إن الذين يئولون كلام هوميروس تأويلًا رمزيًّا يرن هيفست أولى الآلهة بالتوسط بين الإلهين المتخاصمين؛ لأن زفس يمثل السماء، وهيرا تمثل الهواء، فإذا اضطرب الهواء أربدت السماءُ، ولا يحصل التوازن إلا بفعل الحرارة التي يمثلها هيفست، وقد كانوا يعتقدون أن مولده في السماء؛ لأنها مبعث الحرارة، قالوا: وكان سقوطه في جزيرة لمنوس؛ لكثرة ما فيها من البراكين، ويرسمونه أعرج إشارة إلى ما ناله من التشويه بسقوطه، أي: لتغير حالة الحرارة بانبعاثها إلى الأرض.

(١٠٣) قاصف الرعد لقب من ألقاب زفس.

(١٠٤) لم تكن خمر الآلهة كخمر البشر بل كانت شرابًا سماويًّا يأمن شاربه الموت.

(١٠٥) أراد هيفست أن يهوّن على هيرا مصابها، فذكرها بمصابه وعجزه هو وسائر الآلهة عن مقاومة زفس، فنفعتها الذكرى، ورام إذهاب ما لديها من بقية سورة الغضب «فزجى لها الكأس» فنال بغيته، السنت جيل من الناس آوى إلى ثراقة، وخرجت جالية منه فاحتلت لمنوس، قاله إسطرابون، وزعم بعض الكتاب أن ألسنت طائفة هندية

هجرت بلادها منذ بضعة آلاف عام، وأتت فاستقرت في أوروبا، ومنها نشأت قبائل الزنكانة الرحّل (المعروفين في مصر باسم الغجر، وفي سوريا باسم النوَر، ويدعون كواولة في العراق، وبوهيميين في أوروبا) وهو قول لا يؤيّده دليل.

(١٠٦) أفرغ هيفست كل حيلته في نزع آثار الكآبة والاضطراب من ذلك المجلس مع مراعاته حرمة زفس، فلم يخاطبه بشيءٍ إجلالًا له بل وجه خطابه إلى هيرا أمه، وناولها الكأس وانثنى يسقي الباقين بنفسه متطفلًا على مقام الساقي؛ ليهيج بواعث الزهو والضحك بوقوفه موقفًا لم يكن يجدر به؛ لعرجه ودقة ساقيه، وضخامة جسمه.

(١٠٧) كان يلقب هيفست بالحدَّاد والصانع الحاذق، وهو الذي شاد قصور الآلهة في السماء، قال بوب: «إن قول المنجمين باثني عشر برجًا تحلها السيارة مأخوذ من قول هوميروس: إن هيفست بنى لكل إله بيتًا».

النشيد الثاني

سياسة أغاممنون وإحصاء سفن الإغريق وبلادهم وقبائلهم ورؤسائها مُجْمَلهُ

ظل زفس فاكرًا ليلته في التنكيل باليونان؛ إعلاء لشأن آخيل «فعن له إرسال طيفٍ مموهٍ» يحث أغاممنون على أن يشد بخيله ورجاله على الطرواد بغية أن يناله وجيشه الفشل فيرجعون إلى استعطاف آخيل، فاغتر أغاممنون وطمع في فتح إليون وآخيل بمعزل عن القتال، على أنه لم يكن على يقين من انقياد الجند إلى إشارته إذ كان مشفقًا من فتور هممهم على إثر الوباء والسؤم من طول مدة الحصار، وتثبط آخيل بقومه، فلما كان الصباح عمد إلى حيلة يختبر بها عزيمتهم، فجمع القوَّاد وكشف لهم عما داخله من الريبة، ثم قال لهم: إن في عزمه أن ينادي بالرحيل والانقلاب إلى الأوطان؛ ليرى ما يكون من أمر الجند؛ فإذا أنس منهم رغبة في معاودة الديار وترك الحصار بادر القواد إلى صدهم والهجوم بهم، فلما وافقوه على رأيه بلسان نسطور عقد المجلس العام، وخطب في الجند مناديًا بالقفول، وما انتهى حتى جرى كل فريق إلى سفنه يتأهب للإقلاع بها، فاعترضهم أوذيس عملًا بأمر أثينا، واجتر صولجان السيادة من يد أغاممنون وطاف فيهم يستنهض الهمم ويقوي العزائم بالوعد والوعيد، ولم ينثن حتى عاد بهم إلى مجلس شوراهم، فتصدى له ثرسيت السفيه بنفثات خبثه ولؤمه، فزجره أوذيس، وضربه

ضربة أوهنت قواهُ، وغادره عبرة للمعتبر، والجمع يضج مستوصبًا العقاب، ولما انتظم عقد المجلس نهض أوذيس، فخطب وأطنب بذكر الأيمان ومواعيد الآلهة لهم بالظفر، ثم تلاه نسطور فشدد، وأرشد وأشار بحشد الجيش كتائب يزحف بكل قبيلة منها أميرها، ولما ثبتت قدمهم وذكت هممهم أصدر أغاممنون أمره بالتأهب للقتال، فضحوا بضحاياهم وتناولوا طعامهم، وقاموا إلى السلاح، وهنا أخذ الشاعر في سرد أسماء الملوك والأمراء وتعداد سفائنهم، وذكر بلادهم وقبائلهم، أما زفس فلم يكن غافلًا عما يعملون، فبعث بإيريس إلى فريام ملك طروداة توقفه على ما كان من عزم الإغريق، فعبأ هكطور جند الطرواد وأنصارهم على هضبة محاذية لإليون، وتربص فيهم إلى أن تلتحم الحرب، ثم ختم هوميروس نشيده بسرد قبائل الطرواد وحلفائهم.

لا يستغرق هذا النشيد إلَّا قسمًا من اليوم الثالث والعشرين، ومجرى وقائعه في معسكر الإغريق على جرف البحر ثم في معسكر الطرواد.

النشيد الثاني

دجـا الليـل والأربـاب والنـاس نـوَّمٌ ولكــنَّ زفسًــا نابــذٌ ســنة الكــرى[1]

بـــإعزاز آخيـــل وإهـــلاك جملـــةٍ لـــدى ســـفن الإغريـــق ظـــلَّ مفكـــرا

فعـــنَّ لـــه إرســـال رؤيـــا خبيثـــةٍ لأتريـــذ تغريـــه بـــأمرٍ تصـــوَّرا

فنــادى أنيروسًــا وقــال: «ألا فطــر أيــا أيهــا الطيــف المــداجي مبشــرًا٢
إلــى سـفن الإغريــق لــج خيمـةً بهــا أقــام أغــاممنون أنبــئ بمــا تــرى٣
أعــد كلّمــا أُلْقِيْــه: فلـيمض مقــدمًا على الحـرب وليعـدد لـذاك المعسـكرا
تآلفـــت الأربــــاب طــــرًّا وفــــوزه علــى بلــد الطــروادة اليــوم قُــدِّرا
وهيــرا اســتلانتهم فــأجمع رأيهــم علــى رزء إليــون وبــالًا مكــرَّرا»
فطــار ولــم يلبــث أن اجتــاز فُلْكهــم لخِــيم أغــاممنون بالغيــب مخبــرا
فألفــاه فــيمن حولــه نوَّمًــا دنــا لــدى رأســه واحتــاز هيئــة نســطرا
وقــال وقــد حاكــاه إذ كــان عالمًــا لديــه ابــن نـيلا خيــر شـيخٍ مــوقرا: ٤
«لــم يــا ابــن أتــرا القــرم تهجــع مــا ذا شــأن مــوليً يملــك الأمــرا
مــن قــد تــولّى أمــر أمتــه أنَّــى ينــام الليلــة الحــرى
فــاحفظ كلامــي زفــس بــي لــك مــن قاصــي أعاليــه لقــد أسـرى
مالــت إلــى الإغريــق رأفتــه فــأراد أن تســتدفع الضُّــرَّا
فــي كــل مــن والاك تزحــف إذ قــد حــان فــتح البلــدة الكبــرى٥
أربابنــا طــرًّا قــد اتفقــوا ولقــول هيــرا أذعنــوا طُــرّا
وعلــى بنــي الطــرواد زفــس قضــى بالويــل فــاخبر أمــره خبــرا
وحــذار أن تنقــاد للوســن الــ ــحالي فتنســى بعــده قســرا»
كــذا أغــراه بالوعــد احتيــالا وغــادره يــرى مــا لــن ينــالا
فــلاح لــه ومــا أغــواه يعلــو بــذاك اليــوم إليــون احــتلالا
ولــم يعلــم نوايــا الــرب لمــا عليــه قــدر الحــرب السِّــجالا

أعَـــدَّ لجملـــة القـــومين بؤسًـــا وأرزاءً إذا اشــــــتبكوا اقتتــــــالا

أفــاق وصــوت رب الطيــف يــدوي حواليـــه فهـــبَّ وقـــام حـــالا٦

تـــدثَّر فـــي شـــعارٍ ذي بهـــاءٍ وأردف حلـــةً تزهـــو جمـــالا٧

وأوثـــق خفَّـــهُ الزاهـــي وألقـــى علـــى كتفيـــه سَـــيفًا قـــد تَـــلالا

وأمســـك صـــولجانًا خالـــديًّا لأهليـــه ونحـــو الفلـــك مـــالا٨

وأمَّـــت ربَّـــة الفجـــر المعـــالي لـــــزفس والميــــامين امتثــــالا٩

تبشـــرهم بطـــرِّ الصُّـــبح لمَّـــا أغـــاممنون بـــين القـــوم جـــالا

ونـادى فـي الـدُّعاة بـأن يصـيحوا بـأعلى الصَّـوت للشـورى ارتحـالا

فلبُّـــوه وأقبلـــت الســـرايا الـــــشكاة إليـــه تنتضـــل انتضـــالا١٠

وقـد عَقَـدَ الشُّـيُوخ قبيـل هـذا بجانـب فلـك نسـطور احتفـالا١١

بهـــم أتريـــذ نـــادى مستشـــيرًا لمـا زعمـوا مـن الأمـر احتمـالا:١٢

«ســمعًا أصــيحابي رأيــت دجــىً طيــف الكــرى والليــل قــد صــرَّا

فـــي شـــكل نســـطورٍ وهيئتـــه متمـــثلًا لـــي قـــال مـــذ خـــرَّا

«لـم يـا ابـن أتـرا القـرم تهجـع مـا ذا شـــأن مـــوليً يملـــك الأمـــرا

«مـــن قـــد تـــولى أمـــر أمتـــه أنـــى ينـــام الليلـــة الحـــرَّى

«فـاحفظ كلامـي زفـس بـي لـك مـن قاصـــي أعاليـــه لقـــد أســـرى

«مالـــت إلـــى الإغريـــق رأفتـــه فـــأراد أن تســـتدفع الضُّـــرا

«فـــي كـــل مـــن والاك تزحـــف إذ قـــد حـــان فـــتح البلـــدة الكبـــرى

«أربابنـــا طـــرًّا قـــد اتَّفقـــوا ولقـــول هيـــرا أذعنـــوا طـــرا
«وعلـى بنـي الطـرواد زفـس قضـى بالويـــل فـــاخبر أمـــره خبـــرا»
مـــنْ ثَـــمَّ عنـــي غـــاب محتجبًـــا لكننـــــي أهببـــــت مضـــــطرا
أو كيــف نغــري الجنــد فــي عجــلٍ حتـــــى يكـــــروا للّقـــــا كـــــرًّا
فأنـــــا ســـــأبلوهم وأدفعهـــــم بـــــالقول فـــــوق ســـــفينهم فـــــرًّا
وعلـــــيكم أنـــــتم بجهـــــدكم تستنهضـــــون العـــــزم والصـــــبرا»
فكـــذا انتهـــى واحتـــلَّ مجلســـه وبهـــم رقـــى نســـطور منتصـــبا
هـــو ملـــك فيلـــوس التـــي رَكَمَـــت بـــرق الرمـــال ببشـــره خَطَبـــا
«لـــو غيـــر أتريـــذٍ رؤاه روى يـــا معشـــر الحكَّـــام والنُّجبـــا
لرغبـــت عـــن تصـــديقه عَلَنًـــا وزعمـــــت أن بزعمـــــه كـــــذبًا
لكـــنَّ مـــولى القـــوم كلِّهـــم بـــالنفس رؤيـــا الـــنفس قـــد رقبـــا
هيُّـــوا نـــرى أنَّـــى يُتـــاح لنـــا أن نـــدفع الإغريـــق كـــي تثبـــا»
ومضـى مـن النـادي كـذاك مضـى بعصـــاه كـــل مـــن ملـــوكهم١٣
دانـــوا لمرشـــدهم وأقبلـــت الـــ ـــأجناد للشـــورى بحشـــدهم١٤
كالنحـــل مـــن كهـــفٍ خشـــارمها هرعـــت بجمـــع فـــاج مـــزدحم١٥
تحكـــي عناقيـــدًا علقـــن علـــى نـــور الربيـــع بزاهـــر الأكـــم
هـــم هكـــذا انـــدفعوا إليـــه زرا فـــاتٍ فمـــن فلـــكٍ ومـــن خـــيم
وأمـام جـرف البحـر قـد طفقـوا متعـــاقبين لمجمـــع الأمـــم
ورســـول زفـــس شـــهرة انتـــدبت فسـعت تجـوب بعزمهـا بهـم١٦

فتهـــافتوا والربـــع مضـــطرب والأرض تشـــكو ثقلـــة القـــدم
وعـــلا الضـــجيج وتســـعة بعـــلا أصـــــواتهم نهضـــوا لكفهـــم
واســـترعووا الأســـماع للنـــبلا ءِ محكمَّـــي زفـــسٍ قيـــولهم١٧
حتـــى إذا بالجهـــد قـــد جلســـوا والصـــمت يســـمع وقعـــة الكلـــم
وافـــــى أغـــاممنون منتصـــــبًا بالصـــولجان الفـــائق العظـــم١٨
«هـــو صـــنع هيفســـت وفيـــه حبـــا زفـــس العظـــيم بغـــابر القـــدم
فأباحـــــه زفـــــس القاتـــــل أر غـوص الرسـول الأصـيد الحكـم١٩
وَفِلُـــبس أوْلـــى هِـــرْمِسٌ هبـــةً فحبـــا بـــه أتـــرا أخـــا الهمـــم٢٠
فبموتـــه أبقـــاه خيـــر جـــدا لثيســـتس المشـــهور بـــالنِّعم٢١
فـــإلى أغـــاممنون جـــاء بـــه يقضـــي بـــه أحكـــام محـــتكم
فـــي آل أرغوليـــذةٍ وكـــذا بجزائـــرٍ وفـــرتْ بقـــربهم»
فعليـــه بـــين القـــوم متكئًـــا خطـب المليـك بكـل جمعهـم:٢٢
«إلـيكم مقـالي يـا بنـي دانـوٍ فقـد رمـاني زفـسٌ فـي حبائـل آتيـا٢٣
وقـد كـان والانـي بإيمـاء رأسـه بأنَّـا بـإليونٍ نَـدُكُّ المراميـا٢٤
ولا ننثنـــي للأهـــل إلا بســـبيها فمـان ومـا أغْـوَاه فيمـا رمانيـا٢٥
فقـدتُ صـناديد الرِّجـال وقـد قَضـى علـيَّ إلـى أَرْغُـوس أرجـع خاسـيا٢٦
نعـم ذاك أمـر شـاءه الآمـر الـذي يقـوِّض أركـان الـبلاد العواليـا
ولا شـك يسـري ذكـر خـذلتنا إلـى بنينـا ومـن يحيـا السـنين الأواتيـا

إذا علمـــوا أنَّـــا بـــوَفْرَة جيشـــنا وشـــدَّته جئنـــا نـــؤُمُّ الأعاديـــا

ولـــم نجـــن إلَّا خيبـــةً وعديـــدهم قليـــلٌ وأغفلنـــا الصـــعاب التواليـــا٢٧

فلـــو عُـــدَّ إغريـــق وطـــروادةٌ علـــى تصـــافٍ وكـــلٌ قومـــهُ أمَّ جاريـــا

وقســمت الإغريــق بالعشــرات والــ ــكئوس بنـو إليـون أجـرت ضـوافيا

لــداروا جميعًــا بالمُــدَام ولــم ينــل كثيـرٌ مـن العشـرات مـنهم سـاقيا٢٨

كــذا دُوننــا كــانوا عــدَادًا وإنَّمــا بنجَّــادهم يلقــون عوْنًــا مُباريــا٢٩

فمــن كــل فــجٍ كــل أيهــم فاتــك أتـــاهم وبـــالعزم الشَّـــديد التقانيـــا

فصــدُّوا جُنُــودي رَاغِمــين تَجَلُّــدي ومـــا لبثـــوا طـــروادةً لـــن أفاجيـــا

فتســـعة أعـــوامٍ مضـــت لحصـــارنا ســـفائننا كـــادت تُســـام تَـــدَاعيا٣٠

ولم أدرك الأمر الذي جئت أبتغي وأزواجنـــا لازلـــن عنَّـــا نوائيـــا

بأصـــرحنا بـــين البنـــين وأهلنـــا يـــرمن ولا يـــبلغن منَّـــا التَّـــدانيا

فهيئـــوا أطيعـــوني الهزيمـــةُ مغـــنمٌ بعودتنـــا إنـــي أرى زفـــس قاضـــيا٣١

وأصـــدُقُكم وعـــدًا يقينًـــا فلـــن نـــرى لإليـــون فتحًـــا فيـــه نلقـــى الأمانيـــا»

بلبـــل النطـــق قلـــب مـــن لـــم يكونـــوا بيـــنهم فـــي شـــورى الملـــوك حضـــورا

عـــج بـــالجميع منتـــداهم كمـــا فـــي الـــ ـــبحر تبـــدي الأمـــواج عجًّـــا كبيـــرا

إذ بإيقـــــارةٍ صـــــبًا وجنـــــوب بهمـــا غـــيمُ زفـــس عنفًـــا أثيـــرا٣٢

أو كمـــا ترفـــع الـــدبور بـــأرضٍ ســـنبل الـــزرع مائـــدًا موتـــورا٣٣

هكـــذا بلبلـــوا وراحـــوا شـــتاتًا بـــين مـــاضٍ للفلـــك يجـــري مغيـــرا

بقـــوى صـــوته يصـــيح وتعلـــو هُ غُيُـــومُ الغبـــار منـــه نُشُـــورا

وكـــذا بـــين راغـــبٍ هـــم يُدْنيـــ ـــها إلـــى البحـــر ســـاعيًا مغـــرورا

وصـــــديد الـــــذين للعـــــود تـــــاقوا خــــرق الجـــــو بهجـــــةً وحبـــــورا

يعجلـــون التنظيـــف فـــي تُـــرع الـــ ـــفلك وجـــر الأركـــان عنهـــا عُبُـــورا٣٤

ثـــم أولًا هيـــرا لعـــادوا وإن خـــطّ قضـــــــاء بفـــــــوزهم مســـــــطورا

قالـــت لآثينـــا: «أيـــا ذات القُـــوَى أســـفًا أيـــا ابنـــة زفـــس رب الجُنَّـــة٣٥

أيُغـــادر الإغريـــق منهـــزمين فـــو ق البحـــر للأوطـــان شـــرَّ هزيمـــة

يـــــدعون فريامًـــــا يفـــــاخر معجبًـــــا بذويـــه فـــي هيلانـــة المســـبية٣٦

مـــن بعـــد أن هلكـــت أراجلهـــم لـــدى إليـــون هـــدرًا والمنـــازل شـــطت

عجـــلًا إلـــيهم أمســـكي كـــلًّا بليـــ ـــن القـــول لا يمضـــي لهـــم بســـفينة»

فبحينهـــا انـــدفعت مـــن الأولمـــب للـــ ـــسفن السِّـــراع فبلغـــت فـــي لحظـــة

وجدت عُبُوسًا أوذسًا من قد حكى زفسًـــا بنـــور حجـــاهُ لـــم يُسْـــتَلفت٣٧

لـــم يعتمـــد مســـودَّ مركبـــه ومنـــ ـــه الـــنفس غاصـــت فـــي عبـــاب الكآبـــة

وقفـــت ونادَتـــه: «أيـــا ابـــن ليـــرتس أكـــــذا تؤمُّـــــون الـــــدِّيار بذلـــــة

تـــــدعون فريامًـــــا يفـــــاخر معجبًـــــا بذويـــــه فـــــي هيلانـــــة الأرْغِيَّـــــة٣٨

مِـــنْ بعـــد أن هلكـــت أرَاجلُكـــم لـــدى إليـــون هـــدرًا والمنـــازل شـــطَّت

عَجَـــلًا إلـــى الأجنـــاد أمســـكهم بليـــ ـــن القـــول لا يمضـــى لهـــم بكتيبـــة»

فـــي الحـــال أدرك صـــوتها طـــرح العبـــا ءَ لأوربـــات الفـــيج عـــالي الهمـــة٣٩

وإلـــى أغـــاممنون أســـرع جاريًـــا واجتـــرَّ منـــه صـــولجان السَّـــطْوَة٤٠

ثم انبرى بين السفائن والجَا ... بين الملوك وبين أهل الإمرة

ويبادر الأقيال إن مرُّوا به ... مستوقفًا ومُحرِّضًا بالرِّقَّةِ

«أو كيف صاح يليق كالأنذال تر ... تعدون خوفًا فارتدع لنصيحتي

أرجع جُنُودك إن أتريذًا له ... أربٌ ليبلونا بكل طريقة

ولقد جهلت مرامهُ ولسوف تلـ ... ـقاهُ يُعَاقبنا بشرٍّ عُقُوبة

فَتَرَوَّ واحذر غيظه إذ لم نكن ... طرًّا لديه بين أهل الندوةِ

من كان مولى زفس ليس يذله ... بل صانه بكرامةٍ ومَوَدَّة» ٤١

وإذا رأى أحد الرَّعاع مصوِّتًا ... بالصَّولجان عليه مال بضربة ٤٢

وله يقول: «اجلس ولا تُبْدِ الحَرَاك ... أيا جبانًا قد خلا من نَخْوَة

أفكنت من أهل الوغى والرأي فسـ ... ـتمثل بمن يعلو وَعِندك فاثبتِ

أو جملة الإغريق أقيالٌ فلا ... أشقى مآلًا من تَسَلُّط جُمْلةٍ ٤٣

لا يستقيم الأمر إلا إن يكن ... فردٌ يُخوَّل صولجان الصَّولة» ٤٤

فلنرضخن إذًا لِمَن زفس ارتضى ... للملك والأحكام بين الأمة

فكذا بفصل القول خاطبهم وعا ... د الجيش للشورى بأعلى ضَجَّة

تركوا السفائن والخيام مهروليـ ... ـن بكل جمعهم ولم يتشتَّت

كالموج في جرف البحار يعجُّ والـ ... ـلَّمج الدَّوِي به بقاصف عجّة

ثم استكانوا في مجالسهم سوى ... ثَرْسِيت لم يذعن لذاك ويَسْكت

سفهٌ لَهُ قذف الشتائم ديدن ... وخصومة الحُكَّام أقبح خطَّة

وقحٌ تجاوز كلَّ حدٍ وهو إن ... يستضحك القوم استطال ببهجة

لـم يَـرْعَ قـطّ مقامـه وغـدا بهـم		خُلْقًـا خَلْقًـا شـرَّ أهـل الحملـةِ٤٥
قـد كـان أكـبس وهـو أحـول أعـرج		وشـعوره كـادت تعـدُّ بشـعرة٤٦
كتفـاه قُوِّسـتا لضـيق صـدره		وبصـدره لـم يحـو غيـر ضـغينة
يختـصُّ أوذس وابـن فـيلا حقـده		أبـدًا بكـل تحامـلٍ وشـتيمةِ٤٧
والآن مـال علـى أغـاممنون بالـ		ـقذف الشـديد مُعَنفًـا بتعنُّـتِ
فنفوسـهم منـه اشـمأزَّت وهـو لـم		يعبـأ وخاطبـه بـأهجن لهجـة
«قـل يـا أغـاممنون مـا تشـكو إذا		ولقـد جمعـت لـديك أجـزل ثـروة
وبـدائع الغـادات مـن سـبيٍ بهـا		نحبـوك إن نفتـك بأيَّـة بلـدة
أطمعـت فـي ذهـبٍ يأتيـك مـن		إليـون مُلـتمسٌ قبـول الفديـة
إن مـا أتَيْتُـك أو أتـى غيـري لـه		بـابن يُكبَّـل بـالقيود الجمّـة٤٨
أم هـل تـروم أسـيرةً أخـرى لهـا		تبـدي غرامـك إن خلـوت بعزلـة٤٩
لا لا فلـيس يليـقُ كـلُّ الجـيش للـ		ـبلوى يسـاق بميـل رأس الأسـرة
وأعـاركُنَّ أيـا نسـاءُ ولا أقـو		ل أرَاجـلًا فلـنقفلنَّ بخزيـة٥٠
وليبـق ذا الملـك الغـرور وذُخْـرُهُ		فيـرى بـذلك مـا لنـا مـن عـزوة
فقـد اعتـدى تـوًّا علـى مـن فاقـهُ		بأسًـا وآخيـلٌ تقاعـد بـالتي
لـو كـان ذا قلـبٍ لكنـت لقيـت فـي		أثـر اعتـدائك منـه آخـر حِطَّـة»
فعلـى أغـاممنون راعـي الشـعب ثِـر		سـيتٌ أثـار كـذا أُوار نميمـةِ
فلـه انبـرى أوذيـس يلهـب صـدرُهُ		غيظًـا وخاطبـهُ بقـول مُبكِّـت

«صه يا رعاعة من تكون لتبتغي لدد الملوك بنطق أخبث صيِّت ٥١

فلأنت أوضع قادم في جُنْد أتـ ـريذٍ لدى إليون فاخسأ واصمت

أفكنت كفأ للخطاب مندَّدًا بالصيد تنتدب الملا للعودة ٥٢

أو من ترى منَّا بقسمته دَرَى أو ما يكون مآل تلك الرَّجْعة

وعلى أغاممنون فاك فَغَرت إذ أبناء دانوسٍ حَبَتْه بتحفة ٥٣

نبأي فخذ مُصَدَّقًا فلئن أر الـ ـتهذار منك كما رأيت بمُقْلَتي

لا ظلَّ رَأسِي فوق كتفي عالقًا لا كنت والد تيلماخ يتيمتي

إن لم أجرّدك العباءة والدِّثا رَ إلى بقايا كُلِّ آخر سُترة

من ثمَّ بادره وأوهن ظهره ـشُّورى تردد أنةً في أَنَّة»

برزت بمنكبه دماء بثورها بالصولجان بضربةٍ دمويةِ

بسذاجة البُلَدَاء ينظر حوله فأكبَّ يبكي واستكنَّ برعدة

فتساق فوق الفلك مُختضبًا من الـ ويكفكف الدَّمع السَّخي بِتشمُّت ٥٤

وجماعة الإغريق لم يتمالكوا عن فرط قهقهةٍ لتلك الخيبة

يتداولون بقولهم: «لله كم قد حاز أوذس من جليل مزية

بالحزم في الآراء والتَّدْبير في الـ ـهيجاء أيَّان انبرى لمهمةً

لكنه لم يأت أجمل حكمةً من ردعه سفهًا يصول بفتنة

لا شك أخمد نفسهُ بنكالها عن أي تثريب الملوك بكلمة»

وأقام هدام المدائن أوذسٌ بعصا السيادة واقفًا بعزيمة ٥٥

وتليه آثينا بهيئة صارخ يدعو جموعهم بكل سكينة ٥٦

حتـى جميـع صـفوفهم علمًـا تحيـ ـط برأيـه فـأتى بأفصـح خطبـة٥٧

«تحمّلُـك الإغريـق كُـلَّ ملامـةٍ أأتريـد إمَّـا اليـوم خابـت وعودهـا

لـديك لقـد آلـوا قبيـل ارتحـالهم لإليـون لا يثنـون عزمًـا يُبِيـدُها

وهـا هـم كولـدٍ جـزَّعٍ وأرامـل تنـاهى حنينًـا للـبلاد هُجُودهـا

لتلـك إذن بَلْـوَى تفـاقم ضـرُّها ومـا اليـأس إلا أسـها ومعيـدها

ولا شك يغتمون إن يمض شهرهم بفلكهـم والنـوء ظـلَّ يُميـدها

فكيـف وقـد باتـت حئـول اغتـرابهم سـنين طـوالا تـمَّ تسـعًا عديـدها

وأزواجهـم عـنهم نـأين فـلا أرى ملامًـا إذا البأسـاء شـطت حـدودها

ولكـن كـل العـار فـي عـودة السُّرى بخيبـتهم مهـلًا فسـوف نعُودُهـا٥٨

لنبلـو صـحبي صـدق كلخـاس منبئًـا بمـا قـد علمـتم آيـة وأعيـدها

شهدتم وما مُتُّم وفي الأمس خلت ذا قـديمًا سـرايانا اسـتتمَّت جنودهـا

وهيَّـأت الأسـطول فـي بحـر أفلـسٍ لأمَّـة فريـامٍ يُعَـدُّ وَعِيـدها٥٩

إلـى سـاجةٍ عظمـى لـديها تفجَّـرَت مـن المـاء عـينٌ فـاض سـيلًا برودُهـا

رفعنـا علـى طهـر المـذابح جُمْلـة مئـات الضـحايا واسـتطار وقودهـا

إذا أفْعُـوَان هائـلٌ قـد بـدا لنـا بمعجـزةٍ مـن أمـر زفـس ورودهـا

مـن المـذبح الـدَّامي استطال مخضَّبًا إلـى السَّـاجةِ الشَّـماءِ وَثْبًـا يريـدها

وفـي رأسـها عصـفورةٌ وفراخهـا ثمانيـةٌ مـا كـاد يَنْقُـفُ عُودهـا

إليهـا سـريعًا هَـمَّ مُـزْدَردًا علـى تغاريـدها والأم شُـقَّتْ كُبُودُهـا

ترددت أنَّات الأسى وترف في ... جوانبه حتى اشرأب يصيدها

ولمَّا فَرَاها تسعة صار صخرة ... بحكمة مبديها استتب جُمُودها

فزدنا عجابًا والتشاؤم رابنا ... ولكن لكلخاسٍ تجلّت عقودها

فقال: «تولّتكم من الأمر دهشةٌ ... ولكن خفايا السِّرِّ وافت وفودها

«يرينا بهذا زفس معجزةً بها ... لنا نصرةٌ في الغيب خُطَّ خلودها

«كما أفعوان الضير أمسك تسعةً ... من الطير مغتالًا وأنتم شهودُها

«كذاك لدى إليون تسعة أحؤُلٍ ... نخيب فيأتي عاشرٌ ونسودها»

وقد كادت الأنباءُ تكمل فالبثوا ... يسيرًا وإليون تحط سعودها»

فهلهلت الإغريق والفلك ردَّدَت ... هلاهل سرٍّ للسماء صُعُودها

فبادر نسطور الوقور مخاطبًا ... «هذرتم كولدٍ طال جهلًا قُعُودها ٦٠

كأنكم لم تشهدوا قط مصرعًا ... وأقسامنا هل تضمحل عهودها؟

فأين الضحايا والقرابين أحرقت ... بأيمان صدقٍ موثقاتٌ بُنُودها

وأين مدامٌ قد أرقنا وأيمنٌ ... بها قد تواثقنا أباد وجُودها؟

لقد طال منآنا وكلُّ قتالنا ... ببطل أقاويلٍ بعيدٌ مفيدها

تقلّد أيا أتريذ بالحزم مثلما ... عهدتك وليعل الحروب وصيدها

ودع حانقًا أو حانقين تعمَّدا ... مغادرة الهيجاء أنت عميدها

فلن يرجعا ما لم نخب أو تتح لنا ... مواعيد رب التُّرس صدقًا يشيدها

وعندي يقين أننا عندما على ... سفائننا للفتك جئنا نقُودُها

لنا سلفًا بالرأس أومأ مُعْلِنًا ... بشائر نصر قاصفاتٌ رعودها ٦١

فـلا تفكـروا بـالعود مـا لـم تقوَّمـوا لهيلانـــةٍ ثـــأرًا لبـــؤسٍ يكيـــدها

فيظفـــر كـــلٌ مـــنكم بســـبيَّةٍ وتـــدمر إليـــون وتحـــرز غِيـــدُها

ومـن تـاق للأوطـان فليـأت فُلْكـه فـيعلم أن الـنفس حـان خُمُودهـا٦٢

فخـذ بشـعار الحـزم أتريـذ مُثْبِتًـا نصـائح أحكـامٍ لـديك أُجيـدُها

لتنـتظم الأجنـاد بـين قبائـل يُـوَلّى عليهـا بالمعـامع صـيدُها٦٣

فـتعلم مـن مـنهم أشـد تثبتًـا ومـن قـلَّ عَزْمًـا إذ يـدنَّى بعيـدها

وتعلـم مـا إليـون مَنَّـع حصـنها أوهـنٌ بجنـدٍ أم قضـاءٌ يـذودها

هنالـك أتريـذ قـال خطيبًـا «لقـد فقـت يـا شـيخ كـل خطيـب٦٤

فلـو لـي بنُصـرة زفـس وفـالا س ثُـمَّ فيـوس الإلاه الغضـوب٦٥

بمـا بـك مـن حكمـةٍ عشـرةٌ لـذلك إليـون تحـت ضـروبي٦٦

ولكنمـا رافـع الجـوب يشـقي فـؤادي بكـل شـقاق مريـب٦٧

فبينـي شـبَّ وبـين أخيـل خـلافٌ وإنـي أصـلُ الشـبوب

ولـو أننـا فـي صـراط سـوي لأرغمـت طـروادةً عـن قريـب

فقومـوا إلـى الـزاد صـحبي ومـن ثـم للكـرِّ نمضـي ونشـر اللهيـب

أعـدُّوا تروسًـا وحـدُّوا قنيًـا وزيـدوا غـذاء خيـول الكـروب

وبالعجـل افتقـدوا المركبـات فـذا اليـوم يـوم إلـه الحـروب

فهبـوا ولا تفكـروا بسـواها فـلا فتـرة بعـد ذاك الهبـوب

إلـى أن تحُـول جيـوش الـدَّياجي فيـرفضُّ بالقسـر كـل صـخوب

ورَشْـــحُ الصُّـــدور يَســـيلُ علـــى مَجِـــنٍّ عـــلا فـــوق درعِ خضـــيب

وتخـــدر أيـــديكم فـــي قناهـــا وللخيـــل فـــي ذاك مُـــرُّ النصـــيبِ

فتســـبح مـــن عيِّهـــا عَرَقًـــا بجـــرِّكم فـــي عجـــال الخُطُـــوبِ

ومـــن يتنـــاء فـــذاك حَـــذَار طعـام الكـلاب وطيـر السُّـغوب٦٨

فلمـا انتهـى ضَـجَّ الجميـع تحمُّسًـا دويًّـا كعـج البحـر بـالجرف يقصـفُ

كنـوطس إذ مـن كـل صـوبٍ وهبَّـةٍ لأعلى حزيز الصَّخر بالموج يَقْذفُ٦٩

وســاروا شــتاتًا هــارعين لخــيمهم بهـــا أضـــرموا نـــارًا ولـــم يتوقفـــوا

طعـــامهم نـــالوا وزكَّـــوا تقادمًـــا لأربـابهم كـل لمـن كـان يـألف٧٠

وقـــد ســـألوهم كـــف رزءٍ وبيـــنهم إلـــى زفـــس أتريـــذ غـــدا يتزلّـــف

فضـحى بثـورٍ مُربـع بعـد أن دعـا لأدبتـــه صـــيد الســـرى فتـــألفوا٧١

وأوَّلهـــم نســـطور ثـــم إذومـــن وآيـــاس آيـــاسٌ قلـــيلًا تَخَلّفـــوا

تـلا ذيميـذ ثـم أوذيـس مـن غـدا بحكمـــة مـــولى الخالـــدين يعـــرَّفُ

وجـاء منـيلا القـرم مـن غَيْـرِ دعـوةٍ لمـا بأخيـه مـن عنـا الـنفس يعـرفُ٧٢

لـدى الثَّـور قـاموا ثـم ذرُّوا شـعيرهم وفـيهم أغـاممنون يـدعو يهتـف٧٣

«يـا مـن تفـرَّد فـي مجـدٍ وفـي عظـمٍ يـاراكم الغيـم يـا مـن فـي الرَّقيـع عـلا

لا تحجـب الشـمس والظلمـاء تعقُبُهـا حتـــى بفريـــام نصـــرًا نبلـــغ الأمـــلا

أدُكَّ شـــائق قصـــرٍ شـــاده وأرى الـــ ـــلهيب يلـــتهم الأبـــواب محـــتملا

ودرع ذي الـبطش هكطـورٍ أمزِّقُهـا بصـــدره ونـــذيق القـــوم شـــرَّ بـــلا

وحولـــه فتيـــةٌ تـــنقضُّ ســـاقطةً فتكـدم التُّـراب مـن أصْـحابه النُّـبلا»

لكنمـا ابـن قـرونٍ لـم يصـل أمـلًا   آوى الضـحية لكـن أثقـل العمـلا٧٤

بـل زاد محنـتهم ويـلًا ومـا عرفـوا   دعـوا وذرُّوا الشـعير الرَّافـع القُـبَلا

والـذَّابح الـذَّبح أعلـى رأسـه وكـذا   مـن بعـد تجريـده أفخـاذه عـزلا

بالشـحم غشَّـى حواشـيها وأتبعهـا الـ   ـأحشاء داميـةً مـن فوقهـا وشـلا

وأضـرموا النـار خشـبانًا مُقَطَّعـةً   سـعيرها بسـفافيد الحشـا اشـتعلا

حتـى إذا ذابـت الأفخـاذ واجتعلـوا   باقي الحشا اقتسموا اللحم الذي فضلا[٧٥]

ثـم اشـتووه وهبـوا للطعـام ولـم   يكـن بهـم قـط شـاك لـم ينـل جُعـلا

لما اكتفوا قام نسطور الوقور على الـ   ـأقدام مُنْتَصـبًا بـالقول مُـرْتجلا

«أتريـذ مـولى المـوالي فلنهُـبَّ إلـى   فعـلٍ يخوِّلنـا الـرَّبُّ الـذي فَعَـلا

لِتَهْـتفنَّ دُعـاة الحـرب جامعـةً   لـدى السَّـفائن أبطـال الـوَغَى عَجَـلا

ولنجـرينَّ جميعًـا نحـو فـيلقهم   نهـيج فتنـة رب الحـرب والجـذلا»

فـي الحـال لَبَّـى أغـاممنون منتـدبًا   كـل الـدعاة لحشـد الجنـد والعُمْـد

بـأجهر الصـوت نـادوهم ومـا لبثـوا   أن أقبلـوا مسـتتمي العَـدِّ والعُـددِ

والصـيد مـن حـول أتريـذٍ مكتبـةٌ   صـفوفها وأثينـا فـوق كُـلِّ يـد

مُثِيـرةً خطـوات الجنـد نافخـةً   بين النفوس اقتحام الهول والشدد٧٦

ترنـو بمـائيّ عَيْنَيهـا مُشَـدَّدةً   قُلُـوبهم وبـدت بـالمجوب الخلـد٧٧

أهدابـه مئـةٌ كـلٌ لقـا مئـةٍ   مـن العُجُـول ولا تنحـلُّ للْأبـد٧٨

دارت عليـه مُـدَلَّاةً وَقَـد سُـبِكتْ   مـن عسـجدٍ خـالص بـالنُّور مُتَّقـدِ

حتـى سـعوا وأوَار الحـرب لاح لهـم أشـهى مـن العَـوْد لـلأزواج والوَلـدِ
تمضـي فيـالقُهُم فـي أذرُعٍ سـطعت فـوق الرَّقيـع لأعلـى قُبَّـة الجلـد
كالنـار مُلْهِبـةً غابًـا علـى جبـلٍ والنُّـور منبعـثٌ منهـا علـى أمـد
وغَادَروا الخيم والفلك السِّراع وفي ذاك الفضـا انتشـروا فـي حُلَّـةِ الـزَّرَد
كمـا تكـاثف طيـرُ البـر مـن بجـعٍ ومـن أوزٍّ ورهـوٍ بـالغ الجيـد٧٩
تَعَـجُّ فـي مَـرْجِ أسـيُوسٍ بكيسـطرٍ من كل فجٍ عصاباتٍ على الجُدَدِ٨٠
تسـاجلت بعـرارٍ خـارقٍ فَـدَوَت تلك الرِّياض له في حشد مُحْتَشِد٨١
وللحـوافر وقـعٌ والنعـال لهـا خفقٌ يفتت جسم الجلمد الأجد٨٢
حتـى بسـاحل إسـكا مَنْـدَرٍ وَقَفُـوا عـداد أوراق روضٍ بـالرَّبيع نـدي
حَلّـوا بضـفَّته فـي عـدَّةٍ غمضـت يصلون نار انتقام داخل الكَبدِ٨٣
مثـل الـذَّباب إذا حـان الربيـع وقـد حامت بعُنَّة راعي العنز والنَّقَد٨٤
تهافتـت تبتغـي الألبـان هاجمـةً علـى القصـاع بـلا حصـرٍ ولا عـدد
وَكُـلُّ سَـيِّد قـومٍ قـام منفـردًا بهـم كـراعٍ بمـا يسـتاق منفـرد
في الحال يجمع شَتَّاهم إذا امتزجت بـين الألـوف بـأرض البـر إن يُـرد
وبيـنهم بشـعار الفخـر مُتَّشـحًا أتريـذ قـام بمجـدٍ بـاذخ العَمَـد
وقـد حكـى زفـس عَيْنَيْـهِ وهامتـه فوسـيذ صـدْرًا وآريسًـا قُـوَى جَسَـد
في ذلك اليوم قصَّاف الرعود قضى أن لا يضـاهيه بـين الجُنـد مـن أحـد
فكـان كالفحـل مـا بـين الصِّوار متـى يقـم شـموخًا علـى قطعانـه يَسُـد٨٥

وهو يتضمن أيضًا أسماء الملوك والرؤساء

يا قيان الأولمب لي قلن من كا ... ن بذاك الوغى رءوسًا وجندا؟[٨٦]

فلأنتن بالخفا عالماتٌ ... للإلاهات كُلُّ علمٍ أعدًّا

إنما نحن شهرة الأمر نروي ... عن خفايا الأصول نَقْصُرُ حدًّا

ضِقْتُ ذَرعًا لو لي فؤاد نحاسٍ ... وبصوتي مهما تعمدت جُهْدا

لا ولو لي تصيح عشرة لسنٍ ... لم أطق للجموع ذكرًا وسردا

بيد أن القيان من نسل رب الـ ... ـجوب يؤتينني إذا شئن رفدا

لست أحصي إذن سوى عدد الفلـ ... ـك وكل القواد بالحرب عَدًّا[٨٧]

والبيتيُّون بأمر ليطس ... إفروثوينورٍ وفينيلاوس٨٨

وأركسيلاس وإكلورينس ... وبعضهم من أهل وعر أولس

إغْرَاي إسكُولس سَخينُس هِيريا ... ومن هضابٍ زدن في إتيونيا

وثسبيا وسهل ميكاليسا ... هرمة إيرثريةٍ إيليسا

وبعضهم من قوم إيليونا ... أو كاليا هيلا وفيتيونا

وميديونا زاهر المقام ... كذاك ثسبا مجمع الحمامِ

وكوفسٍ كُوْرُونيا أَتْريس ... وهاليرتا روضة المستأنس

وهيفثيبس المباني الشتَّى ... ومن فلاطيا وإغليسنتا

وقدس أُنْخستا التي فيها زَكَّت ... غاب أفلّون التي تباركت

وأرنيا ذات الكروم المخصبة ... وميديا ونيسة المقرَّبةْ

ومنتهـــــى البلـــــدان أنثيـــــدونا وقـــد أتـــوا فـــي ســـفنٍ خمســـينا

كـــل بهـــا عشـــرون شـــهمًا ومئـــه مـــن فتيـــةٍ مقدمـــةٍ مُلَبَّئَـــهْ ٨٩

وأســــــفليذون وأرخــــــومين مـــن ميـــنسٍ قَيْلُهُمـــا يلمـــين

كـــذا أخـــوه عســـقلاف جهَّـــزا فلكًـــا ثلاثـــين عليهـــا بـــرزا

لآرس فَرْعـــــــان بالخفـــــــاء وأســــتيوخا الغـــادة العـــذراء

بقصـــر أكتـــر بـــن آزيـــا همـــا قـــد ولـــدا بعـــد القـــران لهمـــا

مـن بعـد أن سـاق اشـتداد الحُـبِّ لخـدرها القاصـي إلـه الحـرب ٩٠

وقــــــوم فوقيــــــا بأربعينــــــا ســــفينة يســــرى البيوتيينــــا

جميعهـــا ســـوداء فيهـــا يـــرؤس أفســـــــتروفوس وإســـــــخيذيس

كلاهمـــا ابنـــا ذي العلـــى إيفيـــتس فـــرع نبُـــولس قـــد أتـــوا مـــن دَولـــس

ووعـــر فيـــثُسٍ ومـــن فانوفـــة وقـــدس إكريســـا وقِيباريْســـة

وأنموريــــــا وهيمبــــــولس ومـــن قفـــيس الســـاحل المقـــدس

وفئـــة مـــن نهـــر ليلايـــا أتـــت وغـــادرت ضـــفافه بمـــا أزدهـــت

وقــــــوم لقريــــــا بأربعينــــــا ســــفينة جـــــاءوا مســـــلّحينا

بـــأمر آيـــاس بـــن ويـــلا الفـــائق بطعنـــه كـــلَّ ســـرى الأغـــارق

وهـــو أخـــو الخفـــة فـــي الشـــجعان لأمتـــه درعٌ مـــن الكتَّـــان ٩١

لكنـــه لـــدى أيـــاس القـــرم إبـــن تلامـــون صـــغير الجســـم

وجنـــده مـــن قيـــنسٍ أوفنطـــة قليـــارسٍ بيســـا ومـــن إسْـــكَرْفِة

كــذاك مــن ترفــا ومــن إثــرونس   علــى ضــفاف نهــر بُــوَّغْريس
وأوجيــا ذات الريــاض المؤنســه   ممَّــا وراء أوبيــا المُقدَّســـهْ
وجنـــد أوبيـــا بأربعينـــا   ســـفينةً ســـوداء هـــم آتونـــا
وهـــم جميعًـــا عصـــبة الأبانتـــهْ   ذوي القـــوى المجرَّبـــات الثابتـــهْ
مـــوطنهم هســـتية الكـــرُوم   والبلـــد المعمـــور فـــي ديـــوم
كـــذاك إيرتريـــة وخلكـــس   وفرضـــة بحريَّـــةٌ قـــرنش
ومـــن كرســـتةٍ ومـــن ســـتيرا   دانـــوا إلـــى أمـــر أليفينـــورا
وهـو ابـن خلكـودون عـالي الجنـب   أميـرهم مـن نسـل ربِّ الحـرب
وهـــم ذوو الغـــدائر المسترســـلهْ   تلـوه بالبـأس وفـرط العجلـهْ٩٢
يبغـــون شَـــقَّ الصَّـــدْرِ بالـــدُّرُوع   بأســـلٍ عاليـــة الفُـــرُوع
وجهـــزت ســـفائنٌ خمســـونا   مصـــبوغةٌ ســـوداءُ مـــن آثينـــا
ألمـــوطن البهـــي لابـــن الأرض   مريـد آثينـا وصـافي العِـرْض٩٣
ربيبهـــا المـــأثور إيرخثـــاوس   فـي الهيكـل المعمـور بالنفـائس
حيـث بحـول الحـول فتيـانهم   حبًّـا بهـا يُـذبحُ قربـانهم
يرؤســـها أمهـــر هـــادٍ يهـــدي   يـوم النـزال عجـلات الجنـد
ويـــنظم القـــوم ذوي التُّـــروس   وهـــو منســـتس بـــن فيتيـــوس
لـم يحكـه مـن دون نسـطور أَحَـد   بـل فاقـه نسـطور سـنًّا وانْفـرد
وجُهِّـزت مراكـبٌ إثنـا عشـر   فيهـا أيـاس بـن تلامـون أَمَـرْ
وقـد أتـت فـي قـوم سـالامينا   ووليـت فلـك الأثينيِّينـا

وجند أرغس ماس إيُّونا وأترزينا ثم هرميونا

كذا ترنثا البلدة المسوَّره وآفدورة الكروم النَّضره

كذاك إيجينا وآسينا التي على خليج قدمًا شُيِّدت

جميعهم من فتية اليونان قيولهم ذِيُومذ الطعان

وإسْتِنِيْل بن قفانوس الجري كذاك أُرْيال بن ميكست السَّري

من نسبة يُعْزَى لطاليونا وشدَّة يحكي المخلّدينا

سفُنُهم سودٌ ثمانون وقد ولّوا ذيومذ الأمير المُعْتَمَد

ووافدو ميكينيا البهيَّه وأرنيا قورنثس الغنيَّه

وقوم هيفيريسيا فلينا وروض آريثيريا إجيونا

والجند من إكلُونيا النفيسه كذاك من ديار غُونُويسه

وقُطر هيليقا وما قد جاوره كذاك إغيالا البلاد العامره

وأرض سِكُيُونا التي فيها حكم أذرست أوَّلًا على تلك الأمم

جميعهم جاءوا على فُلكٍ ميه بهمَّةٍ على الجميع مُرْبيه

وهم أَجلُّ القوم بأسًا وعَدَد بهم أغاممنون بالأمر انفَرَدْ [94]

قد ماس بالشِّكة بافتخار لما حوى من عظم اقتدار

بسفنٍ ستِّين جُنْدُ ميسه أرض الحمام وكذا فاريسه

ووعر لقدمونيا العميقه كذا سرى إسبرطة الأنيقه

بريسيا كذا هلوس البحر وأوجيا ذات ابتسام الثَّغر

أوتيليـــــــا أمكليــــــــا ولاءس | دانـــت إلـــى أخيـــه مينـــيلاوس
فـــي عزلـــةٍ يهيئـــون العُـــدَّه | ونفســــــه بيـــــنهم مُشْـــــتَدَّه
يســـــتنهض الهِمَّـــات والحَميَّــــه | للـــذب عـــن هيلانـــة المســـبيَّه٩٥
جيرينيــــا بطلهـــــا المشــــــهور | والفـــارس الســـامي النُّهـــى نســـطور
ســــــفنه كبيـــــرةٌ تســــــعينا | كانـــت بهـــا جـــاء مـــع الباقينـــا
بقــــوم فيلـــــوس وإيفيجينيــــــا | قيفـــــارسٍ فتيليـــــــا آرينيــــــا
وأرض مجـــــرى ألفــــسٍ ثِرْيُونـــا | وآفيـــا العظمـــى هلـــس دُرْيُونـــا
حيـــث لنســـلِ زفـــسٍ القيـــان | ثـــــاميرسٌ قـــد لاح باطمئنــــان
يعـــودُ مـــن منـــزل أفـــريتيس مـــن | أَوْخاليـــا وغـــــيظهن مكـــــتمنْ
لأنــــه ادَّعـــى بإحســـان الـــنَّغَم | أكثـــر مـــنهنَّ ومـــن كُـــلِّ الأمـــم
ضــــــربْنَه بكيـــــدهنَّ بـــــالعمى | ثـــم اســـتلبن مـــن حجـــاه النَّغمـــا
أنســــــينه نفــــائس الأشـــــعار | ومهنـــة الضَّـــرب علـــى القيثـــار٩٦
وقـــــوم أرقاديـــــة الآتونــــــا | مـــن لحـــف طـــودٍ أجـــدٍ كيلينـــا٩٧
بقـــرب قبـــر أفتـــيس مـــن فـــازوا | حيـــثُ بـــدا يـــوم الـــوَغى البِـــرازُ
وأهـــــل أرخــــومينسٍ ذات الـــنَّعم | كـــذا أنســـفا حَيْـــث هَبَّـــاتُ النَّسَـــم
وريفيــــــا سِـــــــتْراتيا وفينيــــــا | كـــــذاك إســــــتمفالسٍ منتينيــــــا
وتيجيـــــا فرَّاســـــيا يقـــــودهم | أغـــــافنور أنكـــــوس عميــــــدهم
وهـــــم صــــــناديد محنَّكونــــــا | جـــاءوا علـــى ســـفائنٍ ســـبعينا
أرســـــلها أتريـــــذ عونًـــــا لهـــــم | إذ جهلـــوا صـــناعة الفلـــك هُـــمُ٩٨

ومــــن بـــأرضٍ وليـــت هرمينيـــا   أليســـيا والـــوعر فـــي أولينيـــا

بفراســـيا ثـــم الأليـــذا الواســـعهْ   كـــذاك مرســـينوس تلـــك الشاســـعهْ

كُلُّهـــم مـــن إيفيـــا قـــد ركبـــا   وقـــد أعـــدوا أربعـــين مركبـــا

لكـــل عشـــرةٍ أميـــرٌ يـــرؤس   إبـــنُ عمارنقـــا الفتـــى ذِيُـــورس

كـــذا ابـــن أقطيـــاط ثلفيـــوس   وأمفمـــاخ الفـــارس العبـــوس

إبـــن أريـــت المنتمـــي لأكتـــر   كـــذا فلكســـين الحقيـــق المخبـــر

إبـــن أَغَسْـــتينَ بْـــنِ أفْغياســـا   ذي الطّـــول والكُـــلُّ تســـامى باســـا

ومـــيجس الـــذي أتـــى مهزومـــا   قِـــدمًا إلـــى ديـــار ذو لخيومـــا

غيظًـــا علـــى أبيـــه فـــيلاوس مـــن   كـــان حبيـــب زفـــس فـــي ماضـــي الـــزمن

بـــأربعين مركبًـــا ســـوداء   بقـــومٍ مـــن يلـــي أليـــذا جـــاء

مـــن جـــزر قدســـية الـــدِّيار   قاصـــية فـــي شاســـع البحـــار

بإيخنـــاذة غـــدت مشـــهوره   ودُلْخيـــوم البلـــدة المعمـــوره

ومـــن يحـــاكي زفـــس بـــالرَّأي الأغـــر   أذيـــس فـــي مراكـــب إثنـــي عشـــرْ

مـــن صـــفحتيها صـــبغت بـــالأحمر   أتـــى بهـــا بمـــا لـــه مـــن عســـكر

مـــن قـــوم إيتاكـــا وكيفالينيـــا   ذات السُّـــرى الـــبهم وإكروكيليـــا٩٩

ومـــن أغيليفـــا ومـــن زاكنـــشس   وعبرهـــا ونيـــرتس وســـامس

وأربعـــون مركبًـــا سُـــوْدًا أتـــت   بقـــوم إيتوليـــة ممـــن حَـــوَتْ

مـــن أولـــنس ووعـــر كاليْـــدُونا   والثغـــر خلكـــيس وإفلورونـــا

كذاك من مقاتلي فِيلينا　　　زعيمهم ثُوَاس أنذرمُونا

إذ وينس وولده الأمجاد　　　وميليغر كلهم قد بادوا١٠٠

وجند إقريطش ذات المئة　　　مدينةٍ بإيذُمِيْنٍ أَتَتِ١٠١

ملكيهم والطاعن الشديد　　　كذاك مريون الفتى العنيد

جاءوا من المدائن الكبار　　　غُرْطِينة المتينة الحصار

إغنوسة ميليتس ولكْتُس　　　ليكستسٍ ريتيةٍ وفستس

وقومهم من سائر البلاد　　　على ثمانين أتوا عِدادِ

وتسع سفن بجنود رُوْدُس　　　من لِنْدُسٍ إيليسس كامِيْرُس

من كل ليثٍ للوغى مُندفق　　　قد قَسِمُوا إلى ثلاث فِرَقِ

وابن هرقل قَيْلُها الكبير　　　أطلوفليم الطاعن المشهور

وأستيوخا أمه من إيفرس　　　سبى أبوه في ضفاف سلَّيس

لما غزا مدائنًا عظيمه　　　فيها بنو زفس العُلى مقيمه

فظل في صرح أبيه ممتعا　　　حتى إذا بعزمه ترعرعا

خال أبيه لكمنيوس قَتَل　　　وكان ذاك الشيخ قارب الأجل

ففرَّ من أبنائه وحفده　　　بالبحر في أتباعه وعُدَده

حتى إذا عانى مشقَّات الأسى　　　دفعه البحر لأرض رُوْدُسا

جعلها ثلاثة أقسامًا　　　بكل قسم فئة أقاما

وزفس رب الخلق قسام القسم　　　أولاهم الودَّ وأَجْزل النِّعم

وفي ثلاثٍ ببني سيما أتى　　　إبن شروفس وأغلايا الفتى

نيريس أجمل أهل الحملة   إلا ابن فيلا القَرْمَ عالي الهمة

لكنَّه طَبْعًا ضعيف الباس   ولم يكن إلا بنزر الناس[١٠٢]

وفي ثلاثين ملا فيلبُّس   وأنطفوس ولدي ثسَّالس

من كان من رهط الهرقليينا   من جُزْرٍ كالِدْنيةٍ آتونا

ونيسرس إكرانثس كاسوس   كذاك أرض أورفيلس كوس

تتلوهم أرغوسة الفلاسجه   بسفنٍ خمسين سارت هائجه

قد عرفوا باسم الهلانيينا   أو مر مدُونٍ أو أخائيِّينا[١٠٣]

مع أهل آلوفا وإطراخينا   وإفثيا ثم الألُوسيِّينا

كذا هِلَاس موطن الحسان   زعيمهم آخيل عالي الشان

قد غادر الحرب بما قد آلى   فاعتزلوا الكفاح والنزالا

وظل عند الفلك مشتدَّ الأرق   على بريسا مضمرًا كل الحَنَق

وكان من لرنيسةٍ سباها   بشرِّ حربٍ عمَّمتْ بلاها

ودَكَّ ثيبة وفرعي إيبنس   جندل مينيسًا وإيفسترُفُس

الباسلين من بني سيلفيس   فظل نائيًا بذاك المجلس

لكنه بعيد هذي المُدَّه   ينهض للحرب بكل شِدَّه

بني فلاقا وفراسا الخضرا   قدس ذميتيرا الرياض الغَرَّا[١٠٤]

وجند إفتيلُون ذَاتِ الزَّهر   وأنترون فوق جرف البحر

وأهل إيْتُونا الوفيرة النعم   بأربعين مركبًا سودًا نظم

إفروطســـيلاس الفتـــى المحـــراب | لكنَّـــــه قـــــد ضَـــمَّهُ التُّـــرابُ
وهــو ابــن إيفكلــوس صــاحب الغــنم | إبـــن فلاخـــس بـــن آريـــس الـــنقم
قـــد كـــان أوَّل الصَّـــناديد الأولـــى | علـى العـدى انقضُّـوا فـألفى الأجَـلا
وفـــي فلاقـــا بيتـــه لـــم يَكْمُـــل | وعرســه تبكيــه مــلء المقــل١٠٥
وجنـــده بفـــرط حـــزنهم لقـــد | ولّـــوا فذرقسًـــا أخـــاه المعتمـــد
لكنـــه أقـــل حســـنًا وكبـــر | وإن يكـــن ممـــن ببأســـه اشـــتهر
وأهـــــل بيبيـــــا وإغلاميـــــرا | وهوربيبيـــــــاس ثـــــــمَّ فيـــــرا
ســـفنهم أتـــين إحـــدى عَشْـــرَهْ | أفْمِيْـــلُ أذميـــتَ ولـــيُّ الإمـــره
وهــو ابــن ألكســتا مجيــدة النَّســا | أجملهـــن بنـــات فَلْيَســـا١٠٦
بســـبع فلْـــكٍ أهـــل أوليزونـــا | ثومـــا كيـــا ميليبيـــا مثيونـــا
زعيمهـــا فِيلُكتِتـــيس النَّابِـــل | كـــل بخمســـين أتـــت تناضـــل
جمـــيعهم فـــاقوا بضـــرب النبـــل | لكـــن مـــولاهم شَـــتِيت الشَّـــمل
يلقـــى بلمنُـــوْسَ عنـــا النَّكـــال | مُلْقًـــى بجـــرح حيَّـــة عُضـــال
وســـوف يذكرونـــه طُـــرًّا علـــى | سُـــفُنهم وهـــو يقاســـي العلـــلا
شـــقَّ علـــيهم أمـــره كثيـــرا | لكـــنهم رامـــوا لهـــم أميـــرا
لـــذاك ولّـــوا أمـــرهم ميـــدونا | إبـــن ســـفاح وِيلُـــسٍ ورينـــا
وجنـــد إترمكـــاو إيتـــوم الأصـــم | أوخاليــا حيــث أريــت قــد حكــم
بـــإمرة ابنـــي أســـقليب الآســـي | مخـــاون وفولـــذير البـــاس
أشـــهر مـــن أتقـــن علـــم الطـــب | علـــى ثلاثـــين جـــروا للحـــرب

وجـــيش أرمينـــا كـــذا أســـتيريا | وأرض مجـرى السـيل فـي هيفيريـا
وشـامخ الطِّيطـان مُبْـيض القمـم | بـأربعين مركبًـا سـودًا عَـزَم
وأورفيـــل بيـــنهم زعـــيم | إبـــن أبيمـــون الفتـــى العظـــيم
وجنـــد أرغيســـا وأولوســـونا | أرثـــا وغرتونـــا وإيليونـــا
فوليفـــت زعيمهـــا ذو البـــأس | ابـــن فريثـــوّس ســـليل زفـــس
وهـــو ابـــن هيفوذاميـــا الحســـناء | قـــد وَضَـــعته وأبـــوه نـــائي
يقـــتص مـــن مـــردة القنـــاطره | ويلتقـــيهم بالنبـــال المـــاطره١٠٧
طـــردهم مـــن أرض فِيليُونـــا | إلـــى شـــوامخ الأثيكيِّينـــا
لـــم يَنْفَـــرد فُوليفـــت بـــالأمر بـــل | لِيُنـــتس ابـــن آرسٍ مَعْـــهُ اســـتقل
إبـــن كـــرُولُنٍ ســـلَيل كينـــا | بســـفنٍ ســـوداء أربعينـــا
وغُـــونِيُس بجنـــد كيفـــوس علـــى | مراكـــب اثنـــين وعشـــرين تـــلا
بفتيـــة الإينـــان والفريبـــه | ممـــا يلـــي دُودُونـــة القريبـــه
ومـــن ربـــى جـــدول طيطارســـيُس | ذاك الـــذي ينصـــبُ فـــي فينـــيس
بموجـــه الفِضِّـــي لا يمتـــزج | إذ ذاك مـــن لـــج الســـتكس يخـــرُجُ
«مـــن الســـتكس مُثْقِـــل الأيمـــان» | لـــذا طفـــا كالزيـــت للعيـــان١٠٨
ثـــم فروثـــو بـــن تنثـــر يـــدونا | بمـــن أتـــى مـــن غـــاب فيليونـــا
وجـــرف فينـــاوس مـــن أهـــالي | مغنيســـــيا بـــــأربعين تـــــالي
فهـــذه أماثـــل الـــبلاد | وجملـــة الملـــوك والقُـــوَّاد

•••

قَيْنَـــــة الآن أنشــــديني وقـــــولي   من سما في تلك السُّرى والخُيُول[١٠٩]

أجــود الخيــل عنــدهم تلــك أحجــا   ر لــدى ابــن ابــن فيــرس أفميــل

قــد تَســاوَتْ فَــدًّا وســنًّا ولونًــا   وجــرت كــالطّيور فــوق الطّلــول

فــي ربـــى فيريــا أفلّـــون ربَّــا   هــا لنشــر الهــول الرهيــب الوبيــل

وأشـــد الأبطـــال بأسًـــا أيـــاس بـ   ـــن تلامـــون بعـــد بـــأس أخيــل

فـــابن فـــيلا قـــد فاقـــه بكثيـــر   ومـــن الخيـــل حـــاز كـــلَّ أصـــيلِ

ظَــلَّ مــا بــين فُلكــه فــاكرًا فــي   كيـــد أتريـــذ لارتـــواء العليـــل

وذووه الكُـــرات يرمـــون والمـــز   راق والنبـــل فـــوق جُـــرْفٍ طويـــل

بعجـــالٍ قـــد ســـترت فـــي خيـــام   وخيـــول فـــي الحنـــدقوق الجزيـــل

ورءوس الأجنـــاد تـــاهوا شـــتاتًا   غيـــر ملفـــين للـــوغى مـــن ســـبيل

كـــفٌّ مـــولاهم وزحـــف ســـواه   أثقلاهـــم بكُـــلِّ حُـــزْنٍ ثَقِيـــل١١٠

وكـــأن الســـهول طـــارت شـــرارًا   بمسير الإغريق فوق السهول١١١

رجَّــت الأرض تحــت وَقْــع خُطَــاهم   رجَّ آريـــم يـــوم هـــول مَهُـــول

عنـــدما زفـــس بالصَّـــواعق يرمـــي   غاضـــبًا قبـــر تـــيفُس المَقْتُـــول١١٢

قـــوم طـــروادة شـــيوخٌ وفتيـــا   ن بشـــوراهم ببحـــث جليـــل١١٣

تحــت أبــواب قصــر فريــام قــاموا   وإذا بغتـــــة بـــــأدهى رســـــول

مــن لــدى زفــس بــالبلاغ أتَــتْهُم   نفـــس إيـــريس كالنســـيم العجـــول

وابــن فريــام فولــت حارسًــا كــا   ن علـــى قبـــر أيســـتيس النبيـــل

رامــه الشَّــعْب راصــدًا ثــمَّ يرعــى قــوم أرغـوس خـارج الأسـطول ١١٤

لِيُـــــوَافي مخبــــرًا إن رأى أمـــــ ــــرًا خطيـــرا بعـــدوه المكفـــول

شَـــابَهَتْه صــوتًا وشـــكلا وقالــت لأبيــــه بأصـــــدق التَّمثيـــــل

«أيهــا الشــيخ والحــروب شــداد كمصـــافٍ تلهـــو بقـــالٍ وقيـــل

كـــم ولجــت الهيجــاء لكنَّمــا أعــ ــداؤنا اليــوم مــا لهــم مــن مثيــل

هجمـــوا كالرِّمـــال أو ورق الأشـــ ـجار هكطـور هـاك فاسـمع مقـولي

فســـرايا الأحـــلاف عنـــدكم مخــ ـــــتلفاتٌ بألســـــنٍ وعقـــولِ

فليُكتِّـــب ذويـــه كـــلُّ نزيـــل (ولــك الأمــر فــوق كــل نزيــل)»

فعلــى الفــور فــضَّ هكطــور جمعًــا ولــذا الصــوت لــم يكــن بجهــولِ

هـــرع الجنـــد للســـلاح جميعًـــا وجميــع الأبــواب تحــت القفــول

فتحوهـــا ســـاعين بـــين عجـــالٍ ورجـــال بـــين القنـــا والنُّصـــول

زَعَقَـــاتٌ مـــن دونهُـــنَّ صـــديدٌ بعجـــــيجٍ وهيعــــةٍ وصـــــهيل

وترامـــوا بـــذلك الســـهل حتـــى قنَّــــةٍ شــــرفت بمجـــدٍ أثيـــلِ

قـــد دعاهـــا الأربـــاب قبـــر مـــرينٍ والمـــلا باتيـــا لجهـــل الأصـــولِ

ثـــم هكطـــور قـــام يـــنظمُهُم بيـــ ـــــن أصــــيلٍ بقومـــه ودخيـــلِ

وعلـــى رأســـه تـــوُّج سَـــنَاءً خـــوذة وهـــو صـــاحبُ التَّبْجِيـــل

آل طـــــروادةٍ لديـــــه أقــــاموا لضـــرام الـــوَغَى بصـــبرٍ مَعُـــولِ

وَهُـــمُ أوفَـــرُ القبائـــل عـــدًّا واقْتِـــدارًا أشـــدُّ كُـــلِّ قَبيـــلِ

أحلاف الطرواديين

وآنيـــــاس الـــــدردنيين أمَـــــر　　وهـو ابـن أنخيس أخـو الـذكر الأغـرْ

وأمـــــه الزُّهـــــرة المجيـــــده　　والـــت أبـــاه فـــوق طـــور إيـــدهْ

وليـــه ابنـــا أَنْطنُـــور بالعَمَـــل　　أرخـــيلُخ ثُـــمَّ أكامـــاسُ البَطَـــل

ومـــن بزيليـــا بلحـــف إيـــده　　فـــي منتهـــى طـــروادة الشـــديدهْ

مـــن أغنيـــا أرض بهـــا أيســـيفُس　　يجـــري أتـــوا يـــأمُرُهم فنـــذرس

ألنَّابـــل المـــرد ابـــن ليقاوُونـــا　　وقوسُـــهُ مـــن فَضْـــلِ آفُلُّونـــا

وســـاكنو أذرســـتيا وفيتيـــا　　وآفســـا وشـــامخات تيريـــا

بولـــدي ميـــرفس مـــن فرقـــوتس　　أمفـــيسٌ ثـــم الفتـــى أذْرَسْـــتُس

وجـــاء أمفـــيس للطعـــان　　مســـتلئمًا درعًـــا مـــن الكَتَّـــان

أبوهمـــا عـــن مُلْتَقـــى الإغريـــق　　نهاهمـــا بعلمـــه الحقيـــق

لكـــن مقـــادير الـــرَّدى سُـــقْنهما　　لـــذاك أصْـــمَمْن لـــه أذنيهمـــا

وقـــوم فرقـــوتس وآبيدوســـا　　وأرض إفـــرقطيم سستوســـا

وَقُـــدْسُ آرِســـبا التـــي ســـلّيس　　يجـــري بهـــا أميـــرهم آســـيس

وهـــو ابـــن هرطـــاقس فـــورًا لبَّـــى　　علـــى جيـــاد الخيـــل مـــن آرســـبا

ومـــن لريســـا زُمَـــرُ الفلاســـجه　　طعنـــة الرمـــاح جـــاءت عارجـــه

بـــأمر فرعـــي آرس ابنـــي ليـــثس　　طفطـام هيفـوتٍ كـذا فـيلاوس١١٥

وأكمـــاس والفتـــى فيـــرُوُّس　　قد قدما من حيث هلّسبُنطُس١١٦

يحيط في قوم الثراقيينا ... وأوفموسٌ بن إتريزينا

مريد زفس وابن كيَّس تالي ... بقوم كِيْكُونِية الأبطال

ثم فرخمس بالفيُونيينا ... حدب القسي قوم آميدُونا

حيث يرى أكسِيُس العريضُ ... في سفح هاتيك الرُّبى يفيضُ

وفيلمين الشهم ذو البأس الأشد ... بالبفلغونة الأنيتيِّين جدْ

ذوي البغال الشمس ملء البر ... وجيش سيسامُوس معهم يجري

وجند أغيالة والبهيَّه ... ضفاف فرثينيس الزَّهيَّهْ

كذاك إكرامنا وإيريثنس ... وإيفستْرُوْفُ الفتى مَعْ أُدْيُس

بقوم هاليزونة القصيَّة ... من أرض آليبا مقرِّ الفضَّة

وجاء بالميسة إخرُوميسُ ... كذلك العَرَّاف أونُومُوسُ

وليس في عَرَافة الانباء له ... نفعٌ يرى إذ سوف يلقى أجَلَه

ياكيذ يلقاه ووسط النهر ... دماؤه بين الدماء تجري١١٧

وبالفريجة انبرى فرقيس ... كذلك الكاهن أَسْكينُوس

من أرض أسكينيةٍ محمُولا ... كلاهما للحرب صبرًا عِيلا

بوَلَدَي تاليْمَنٍ أنْطيْفُس ... ومستل من قوم هور غيغس

أتت جماهير الميونيينا ... في سفح إتمُولُوس ناشئينا

وقاريا ذات لسان البربر ... جاءت أهاليها وفودًا تَنْبَرِي

من طود إفثيروس جمّ الغاب ... وشامخ الميكال للسَّحاب

وضفتي ميندر ميليتس ... بأمر أمفيماخس ونستس

مـــن نســـل نميُـــون وذاك الأوَّل بِحُلـــل النُّضـــار جـــاء يرفـــل
تبرُّجًـــا فـــي ســـاحة الهيجـــاء لحمقـــه كالغـــادة العـــذراء
لكـــن ذا العســـجد لا يقيـــه مـــن بطـــش آخيـــل إذا يأتيـــه
يصـــرعه مجنـــدلًا بـــالنهر مســـتلبًا منـــهُ جزيـــل التِّبـــر
وغايـــه النجـــدة لِيقيُونـــا قـــد فزعـــوا بـــأمر سَـــرْفِيدُوْنا
كـذاك معصـوم الحجـى إغْلُـوكُس مـن بـرقٍ تـروى بمـاءٍ زنـشس١١٨

هوامش

(١) أتينا على نهاية النشيد الأول، وقد خيَّم الظلام وتوسد كل مضجعه ونام، وإذا بنا في استهلال النشيد الثاني في مشهد من أجل المشاهد: نرى الناس وأربابهم نيامًا إلا زفس ممثل العناية الإلهية لا يهجع ولا يكرى بل يتدبر شئون الخلق.

وشتان على ما سنرى ما رب الوثنيين وربنا عز وتعالى الذي «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ» فإن زفس يتنعم بلذيذ الرقاد إذا شاء، فنُئوِّل ذلك باستراحة البارئ تعالى من عناء الفكرة بأمر الخلق كما نصت التوراة عن استراحته في اليوم السابع على أنه من لنا بتأويل رقاد زفس في النشيد الرابع عشر، وقد استولى عليه الهجوع على غرة منه؟

(٢) أونيروس رب الطيف، وإن شئت فقل علم للطيف كما تقول ثعالة علم للثعلب، وذؤالة علم للذئب، لقد أسهب الشراح في الكلام

على هذا التعبير، فمن منتقد مكفر لهوميروس، وقائل أنه لم يكن يجدر به أن ينزل زفس منزلة لا تليق بأبي الآلهة والبشر بإرسال طيف كاذب يخدع أغاممنون بما لا يكون، ومن مدافع يدرأ عنه تبعة هذا القول بشرح ما يلي من الوقائع، ونفي الخداع عن الطيف؛ لأن الحرب انجلت ذلك اليوم عن انتصار اليونان لا عن انكسارهم، أما نحن فلا نرى في السياق إلا وصفًا شعريًّا تقتضيه قوة الربط، وحسن التسلسل، وهب أن في إنفاذ الطيف الغرار منتقدًا أفلا ترى أكثر الأديان تعترف أن الخير والشر من خلقة البارئ عز وجل، فنستعيذ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وأن الله قد يسلط الآفات على البشر، وإذا أراد بقوم سوءًا خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ أوليس في كتب اليهود والنصارى والمسلمين ما يقرب من هذا كتسلط الروح الخبيثة على نفس أيوب ليبلوه بها ربه؟ ولنا شاهد آخر من التوراة ذكره داسيه في شرح أرسطاليس، وغروت في تاريخ اليونان، وفيه من المماثلة لطيف الإلياذة ما يبعث على الظن أن هوميروس لم يكن مستنبطًا بل ناقلًا، وهو هذا: «فقال الرب من يغوي آحاب ملك إسرائيل حتى يصعد ويسقط في راموت جلعاد، فقال هذا كذا، وقال ذاك كذا، ثم خرج روح ووقف بين يدي الرب، وقال، أنا أغويه، فقال له الرب: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه، فقال: إنك تغوي وتقتدر فاخرج واصنع هكذا» ٢ أي ١٨ : ١٩. هذا كلام رمزي قاله ميخا النبي على

سبيل المجاز؛ ردًا على كذبة الأنبياء، فصاغه هوميروس بقالب الحقيقة كجاري عادة اليونان في تجسيم ما وراء الطبيعة.

(٣) كانت سفن اليونان مدناة إلى الشاطئ والخيام على مقربة منها يعبر منها مشيًا إلى السفن، فلم يكن ثمة فاصل يذكر وإلَّا لاستغربنا قوله: اذهب «إلى سفن الإغريق ولج خيمة بها أقام أغاممنون» فسفن الإغريق في الإلياذة عبارة عن معسكر اليونان كمضارب خيامهم.

(٤) كان ابن نيلا الشيخ نسطور أكثر الناس حرمة لدى أغاممنون، فظهور الطيف بهيئته زاده هيبة وزاد كلامه رسوخًا.

(٥) أي: إليون عاصمة بلاد الطرواد.

(٦) لا شيء أشبه من هذه الرؤيا بحالة الرؤى الطبيعية، فإن الطيف نزل على رأس الرائي متخذًا هيئة شيخ وقور، وكلمه كلامًا ينطبق كله على حدسه وأمانيه إذ كان يرجو رحمة زفس، فيعينه على فتح إليون، ويطمع في ما لهيرا زوجة زفس من الشأن في مجتمع الأرباب، ويعلم أنها ظهيرته ونصيرة قومه، فما كان أقرب ليقينه من أنها تستميل سائر الآلهة إلى نصرة الإغريق، ثم إن الطيف غادر أغاممنون فاستيقظ وما هو بمستيقظ؛ لأن دوي ذلك الصوت لا يزال في أذنيه وحواليه. وكان ذلك عند طرِّ الفجر كما سترى بعد أبيات، وهو كما تقول العرب ميقات أصدق الأحلام، كل هذا تمثيل صادق على خرافته بديع على بساطته.

(٧) إذا أتى شاعرنا على ذكر أمر رأيته وصفه على علاته، ومر على دقائقه بلا تكلف كما ترى هنا في وصفه أغاممنون يلبس ثيابه، ويشك في سلاحه بعد أن هب مذعورًا من رقاده، فإنه يشرح ذلك بإسلوب يخيِّل لك أنك تراه على تلك الحال، فيجعل لشعره في مواضع كهذه رونقًا لم يكن له شيءٌ منها لو شانته مسحة التكلف.

(٨) قال صولجانًا خالديًّا؛ لأنه من صنع الآلهة كما سيجيء عما قليل في هذا النشيد.

(٩) الميامين الآلهة.

(١٠) السرايا الشكاة: الجند المسلحة. تنتضل: تتسابق وتتفاخر.

(١١) الاحتفال الاجتماع،الشيخ باليونانية (Ἱέροντος) ومعناه فيها الرجل المسن، وهي كلمة تطلق أيضًا على الأمير والزعيم كما تطلق في العربية والعبرية، وسائر اللغات السامية، وهو المراد بها هنا كما سترى بعد فض المجلس، فإنه استعاض عنها بالملوك كأنهما كلمتان مترادفتان.

(١٢) نهض أغاممنون من رقاده مصممًا على الائتمار بأمر الطيف، فبث الدعاة ينادون بعقد المجلس العام أي: الذي تحضره كل الجند، ثم عقد ريثما يحتشد الجيش مجلسًا خاصًّا مؤلفًا من الشيوخ؛

ليفاوضهم بما كان من أمر الرؤيا ويستشيرهم بما عسى أن يفعل، وسنرى في خطاب أغاممنون حيلة من حيل السياسيين الذين يعلنون ما لا يسرون؛ لينالوا ما يؤملون، قال ديونيسيوس: وأعجب بقوله الجم الغفير من الشراح.

«لم يكن أغاممنون يطمع في شيء طمعه في دفع الجيش إلى قتال عنيف، ومع هذا فقد كان يخشى أن تعييه الحيلة على أثر اعتزال آخيل، ويشفق أن تعصي الجنوب أمره لو أمر تشفيًا منه لما نالهم من الغيظ لاحتجاب آخيل عنهم، فعن له توصلًا لبغيته أن يعقد مجلس الشيوخ، ويسبر ضمائر الجند بحثهم على معاودة الأوطان ومغادرة الحرب، فينهض سائر الأمراء ويثنون عزمهم عن الرحيل، وإذا اعتُرض بأنهم لو تمسكوا بإنفاذ مضمون أمره لأخفق بمسعاه، فالجواب أنه يتطلع ببصيرته إلى وراء ما كانوا يبصرون، ولم يكن جل اعتماده على الخطاب الذي ألقاه لرد عزيمتهم بل خشي أيضًا إنهم ربما كانوا ناقمين عليه أمرًا كتموه إياه، فلم يكن له مناص من تبيُّن ميلهم قبل دفعهم إلى ساحة الحرب، ففتح لهم الباب لإعلان ما تكنُّه ضمائرهم، وأسرَّ بخفايا أفكاره إلى الأمراء؛ تلافيًا لسوء العقبى، ففاز فوزًا مبينًا، ولم تكد الجنود تهم بركوب البحر حتى أوقفها نسطور وأوذيس».

(١٣) لم يكد ينتهي نسطور من كلامه حتى فض مجلس الأعيان، وسار تتبعه الملوك إلى مجلس الشورى، ولم يفه أحد منهم

بحرف لما كان له من هيبة التسلط بقوة الصدق والإقناع لا بقوة السيطرة وعلو المنزلة، ولا شك أن أغاممنون آثر عقد مجلسه بقرب مضارب نسطور توصلًا إلى تلك النتيجة.

(١٤) فرغ من وصف المجلس الأعلى، فشرع يصف اجتماع المجلس الشوروي العام، وحسبنا في الإشارة إلى ما أودع كلامه من التمثيل البليغ أن نستلفت نظر المطالع إليه منذ بعث أغاممنون دعاته إلى الجند إلى أن انتظم عقد المجلس، وما تخلل ذلك من اندفاعهم من الفلك والخيام كالنحل المتطائر من خلاياه، وتعاقبهم متهافتين زرافات إلى دار الندوة، وسعي الشهرة بين صفوفهم، وعلو ضجيجهم بادئ بدء، وقيام تسعة منادين يكفونهم عن الجلبة والغوغاء، واستتباب الهدوء والسكينة حتى باتوا كلهم آذانًا واعية، ووقوف الخطيب بصولجانه، وكل هذا بكلمات قلائل لا تتخللها لفظة حشو وترتسم في ذهن القارئ والسامع رسمًا يكاد يكون حيًّا.

(١٥) هذا أول تشبيه مفصل ورد في الإلياذة، وسترى في ما يلي من كثرة التشابيه وتنوعها، ودقتها وبلاغتها ما يدلك على أنه لم يقم بين الخلق شاعر سبر غور الطبيعة سبر هوميروس، ولك هنا الشاهد الأول على صحة هذا القول، وهو تشبيهٌ علق به كثير من الشعراء بعد هوميروس، وفي مقدمتهم ڤرجيليوس. ولا أخال أحدًا من الشعراء رواة

إلياذة هوميروس أبدع بهذا المعنى إبداع الشنفرى على خلو ذهنه منها، قال يصف نفسه وقومه:

... ...	دعـــا فأجابتـــه نظـــائر نحـــلُ
مهلهلـــةٌ شـــيب الوجـــوه كأنهـــا	قـــداح بكفتـــي ياســـر تتقلقـــلُ
أو الخشـرم المبعـوث حثحـث دَبـرهُ	محـــابيض أرداهـــن ســـامٍ معســـل
مهرتـــةٌ فـــوهٌ كـــأن شـــدوقها	شـــقوق العصـــي كالحـــات وبســـلُ
فضـــج وضـــجت بـــالبراح كأنهـــا	وأيـــاه نـــوح فـــوق عليـــاء ثكـــلُ

(١٦) كان اليونان لعهد هوميروس يمثلون الصفات بموصوفات حية تحسب في مصاف الآلهة أو دونهم، ولكنها خالدة مثلهم كالفتنة والهول، والرعدة والشهرة، وهي أسماء تدل على مسمياتها، فشهرة هنا علم حي؛ ولهذا جردناها من أداة التعريف، ومنعناها من الصرف.

(١٧) أي: إن التسعة المنادين استرعوا سمع الجند للأمراء الذين حكمهم زفس عليهم.

(١٨) أطال الشاعر هنا الكلام على صولجان أغاممنون، وما أطاله عبثًا بل أراد أن يثبت فضلًا عن الرواية الخرافية علو منزلة أغاممنون؛ لأن الصولجان عنوان السيادة والملك على الإطلاق، فليس لأغاممنون إذن مزية على سائر الملوك بصولجانه إلَّا أن تكون ثمَّ مزية على كل صوالجهم، فذكر أنه صنع رب تناقلته الآلهة ثم حبت به أتراوس

جد أغاممنون، فهو إذن ملك ورث الملك كابرًا عن كابر، وأدلي إليه بعصا السيادة من زفس ملك الملوك ورب الأرباب.

(١٩) قاتل أرغوص هو هرمس رسول زفس الوارد ذكره في البيت التالي، وهو عطارد العرب، أما أرغوص فهو شخص خرافي كان له مئة عين ناظرة إذا نام أغمض نصفها فقط، وقيل بل لم يكن يغمض إلَّا عينين إذا هجع، وحدث أن زفس هام بابنة أيناخوس النهر، فثارت عليه هيرا بغيرتها فاضطر إلى مسخ عشيقته بقرة، فعهدت هيرا بحراستها إلى أرغوص فاستماله هرمس يومًا بصوت قيثارته، وظل يعزف حتى استولى عليه سبات عميق، فقام إليه وقطع رأسه، فاقتلعت هيرا عيونه وألقتها على ذيل الطاووس، فآل أمر الطاووس إلى ما نراه عليه اليوم، إن بين أرغوص هذا، وأرغوس مملكة أغاممنون فرقًا ظاهرًا بالتهجئة اليونانية ولفظ الواو، ونظرًا لتعذر إبراز هذا الفرق في التعريب كتبنا إحدى الكلمتين بالصاد والأخرى بالسين.

(٢٠) فيلُبس أو أتراوس جد أغاممنون.

(٢١) ثيستس ابن فيلبس وأخو أتراوس، قلنا المشهور بالنعم، وفي الأصل الخراف.

(٢٢) يقول: إن أغاممنون قام يخطب واقفًا وهو متكئ على عصاهُ أو صولجانه، تلك كانت خطتهم في الخطابة، وهي خطة خطباء جاهلية العرب إذ كان يقف الخطيب على المنبر حيث يوجد منبر، وإذا

خطب في العراء علا نشزًا من الأرض أو خطب على الراحلة، ولا بد له من أن يأخذ بيده العصا أو المخصرة أو القوس، وقد يخطب وبيده القناة، قال معن بن أوس المزني:

فـلا تعطـي العصـا الخطبـاء يومًـا وقـــد تكفـــي المقـــادة والمقـــالا

وقال جرير بن الخطفي:

مـــن للقنـــاة إذا مـــاعيَّ قائلهـــا وللأعنـــة يـــا عمـــرو بـــن عمَّـــارِ

وقال كُثيّر:

إذا قرعـــوا المنـــابر ثـــم خطبـــوا بـــأطراف المخاصـــر كالغضـــابِ

(٢٣) آتي (Ἀτζ) الداهية والنازلة والقدر جعلها بعض المترجمين نكرة، ففسروها بمعناها، وجعلها آخرون علمًا جريًا على عادة هوميروس في تجسيم الصفات، فنقلوها بلفظها وفعلنا هنا فعلهم، هذا خطاب ألقاه أغاممنون على مسمع كل الجيش، وكله سياسة ودهاء ينبئك بقوة الخدعة عند ذوي المقامات الذين يعلنون على رءوس الملأ عكس ما يذيعون بين خاصتهم، ويستندون إلى أوهن الحجج؛ ليفنِّد السامع كلامهم بكلامهم، فتقوم العامة إلى مخالفتهم، وهي إنما تقوم لتعضيد مطالبهم، وعندما يرجعون في ظاهر الأمر إلى القول بقول الجمهور يفوزون بمأربين: أحدهما: التظاهر بإرضاء أمتهم، والرجوع عن مآربهم لإبلاغها مآربها، والثاني: إنفاذ نفس رغائبهم المكتومة.

(٢٤) إذا كان زفس قد والى أغاممنون بدك إليون عاصمة بلاد الطرواد، فالواجب أن يقيم حتى يدكها لا أن ينادي بالقفول إلى الأوطان، فكأنه يقول لهم: إذا حثثتكم على العودة، فإنما أفعل عن جزع وسآمة لا عن تبصر وتروٍّ.

(٢٥) ذكرهم بطمع الكسب والسبي، ثم ادعى أن زفس مان عليه وخدعه، وهما حجتان أوهن من الأولى على صدق ظاهر الدعوى، فكأنه يقول: إذا غادرنا الحرب فاتتنا فرصة المكاسب، ثم إن تطاوله على زفس برميه إياه بالمين والخداع يقلل من ثقة الجمهور بكلامه، ويحمله على عدم الأخذ به، وهو الأمر الذي يرمي إليه ببصره.

(٢٦) لا دليل يؤيد نقض زفس لعهده، والقضاء على اليونان بالرجوع خاسئين، وهذا كلام آخر أتى به عمدًا غير سديد.

(٢٧) مهما اجتمع لديهم من الأسباب لمغادرة إليون وشأنها، فعار العودة وخلود المذلة إلى جيل فجيل موجبان ما فوقهما موجب للبقاء، وزد على ذلك ما رماهم به من الحين والإحجام بقوله: إن الأعداء قليل عديدهم؛ لأن رجوعهم عن فئة قليلة يزيدهم منقصة ومذلة، فهو يريد أن يحقر أعداءهم في أعينهم فلا يبقى لهم سبيل إلى الرجوع عنهم.

(٢٨) أي: لو قام الطرواديون في حالة أمن وسلم مقام السُّقاة لليونان لما نال كل عشرة من اليونان ساقيًا واحدًا من الطرواد، فهم إذن لا يبلغون عشرهم عدًّا.

(٢٩) قوله في ما تقدم أن الأعداء لا يبلغون عشر اليونان لا يشمل إلا الطرواديين؛ لأنه استثنى هنا حلفاءهم، وسيأتي ذكر عدد الجيشين بوجه التقريب.

(٣٠) هنا حجَّة أخرى واهنة على الإقلاع؛ لأن السفن المتداعية إلى الخراب لا تصلح لركوب الجند.

(٣١) بعد أن ملأ آذانهم بمهيجات الإقدام أمرهم بالإحجام، فأطاعوا أمره لسؤمهم، ولكنه هيأ لهم سبيل الرجوع عن عزمهم والإذعان لكلام أوذيس، وهو نوع من أنواع الإيهام البياني البديع.

(٣٢) أيقارة جزيرة بين ساموس وبتموس في الأرخبيل الرومي تدعى الآن نيكاريا، وريح الصبا أي: الشرقية، وريح الجنوب في شعر هوميروس (Ερνο) و(Νοτος) أفروس ونوطوس، وهما علمان أو كما تقول العرب ملكان يحملان الريح إلى حيث يدفعها زفس من الغيوم التي يركمها في الجو.

(٣٣) الدبور الريح الغربية، واسمها زفيروس (Ζέρυρο) وكثيرًا ما نراها في الإلياذة ريحًا عاصفة، وأما في الأوذيسة، فقد أشير بها أحيانًا إلى النسيم اللطيف بالنسبة إلى موقع البلاد التي ذكرت فيها؛ ولهذا صارت زفير (Zúphyre) بالإفرنجية مرادفةً لمعنى النسيم على الإطلاق لا لمعنى الريح، شبه اندفاع الجند إلى السفن بعج الأمواج إشارة إلى الجلبة والضجيج، ثم بسنبل الزرع إشارة إلى اتجاههم وجهة

واحدة، ولنا هنا مغزيان آخران، وهما: أولًا: اضطرابهم لخطاب أغاممنون إذ سمعوا منه ما لم يكن بحسبانهم، فكانوا كاليم الذي تتقاذفه الأمواج، ثم ارتياحهم إلى الرحيل، فمالوا ميلة الزرع الذي تحني رأسه هبة النسيم.

(٣٤) كانت حربهم في البر على مقربة من جرف البحر، وكانت سفائنهم لاصقة بالشاطئ ومستندة إلى عمد وأركان على ضحضاح رقيق من الماء، فكان لا بد لهم من عمل شاق قبل تهيئتها للإقلاع بها.

(٣٥) الجنة الترس، ورب الجنة لقب آخر من ألقاب زفس كراكم الغيم، وقاصف الرعد، إن في إرسال هيرا لآثينا سببين: أولهما: إن أثينا كانت من الآلهة الموالية لليونان، والثاني: أنها إلاهة الحكمة إشارة إلى أن الحكمة اقتضت أن يرجع الجيش عن عزمه؛ لأنه لم يكن من الصواب والحزم أن يغادروا إليون بعد أن حصروها تسع سنوات، وأفنوا الجم الغفير من مقاتلتها وجيشهم لا يزال كثير العدد وفير العُدد.

(٣٦) فريام: ملك طروادة.

(٣٧) أوذيس ملك إيثاكة، ووالد تليماخ، وهو بطل أوديسة هوميروس كان أدهى اليونان كما كان نسطور أحكمهم.

(٣٨) الأرغية نسبة إلى أرغوس أي: اليونانية.

(٣٩) الفيج: الرسول، والسفير، والساعي، كان أوربات أحد فيجي الإلياذة المشهورين، وهما: أوربات، وتلثيبيوس.

(٤٠) لا يستغربنَّ المطالع تجرُّؤ أوذيس على اجترار عصا الملك من يد أغاممنون، فإنه كان داهية اليونان، وبطلًا من أبطالهم المغاوير، وملكًا من ملوكهم فكان له على أغاممنون الدالة الكبرى، وكان في ذلك الحين يسعى في إنفاذ مأرب هو واحد في نفس كليهما، فلم يكن بالكثير على أغاممنون أن يلقي إليه بها من تلقاء نفسه؛ ليرى الجند أن أوذيس يخاطبهم بلسان داهيتهم من وجه وسطوة زعيم زعمائهم من وجه آخر، ثم إن الواقف على أحوال جاهلية الأمم يعرف ما لتلك العصا أو ذلك الصولجان من الهيبة في القلوب، ولقد يذكرني هذا بعصا شيوخ المنتفق في بادية العراق، وبعض حواضرها لعهد قريب لَا يتجاوز الثلاثين عامًا حيث كانوا إذا أرادوا قضاء لبانة أو جبي مال ألقوا بعصا من عصيهم تعرف بعصا الشيخ إلى أحد أتباعهم، فكان حاملها نافذ الأمر، مرعي الجانب كيف توجه، ولو كان عبدًا رقًّا.

(٤١) قال لبيد:

رأيت التقى والحمد خير تجارة ... رباحًا إذا ما المرءُ أسبح ثاقلا

(٤٢) نرى أوذيس يجول بين الصفوف ويكيل لكل بكيله، فيكلم كرام القوم بما لا يمس كرامتهم، ويخاطب لئامهم بقرع العصا، فيجدح لكل من سويقه، ولله در أبي الطيب القائل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

(٤٣) من كلام الأفوَه الأودي حكيم الجاهلية قوله:

ولا ســـــراة إذا جُهَـــالهم ســـادوا فـــإن تولـــت فبالأشـــرار تنقـــادُ
إذا تـــولى ســـراة النـــاس أمـــرهم نمـا علـى ذاك أمـر القـوم فـازدادوا

(٤٤) قال ديونيسيوس: إن جميع ملوك اليونان لأول عهدهم كانوا مقيدين بمجلس شوروي سواءٌ اتصل إليهم الملك بالأرث أو الانتخاب كما يتضح من شعر هوميروس وغيره، فإن في ما رأيناه من نزاع آخيل وأغاممنون، وما سنراه من الوقائع المتوالية، ولا سيما استطالة ثرسيت على أغاممنون بعد أبيات من هذا النشيد حجة قوية على أن الملك لم يكن مستبدًّا بأمره ورأيه بين أصحابه وأتباعه بل كان «يشاورهم في الأمر» كما فعل خلفاء العرب في صدر الإسلام، وكما نَصَّتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، ولم يكن الملوك فضلًا عن هذا يأنفون من مخاطبة عامة الجند، وتلقي اعتراضهم وتحاملهم بالصبر الجميل كما لم يأنف الفاروق عمر من قوله على المنبر: «يا أيها الناس من رأى منكم فيَّ عوجًا فليقومه» ولم يغضبه قول واحد من عامتهم «والله لو رأينا فيك عوجًا لقومناه بسيوفنا» فقال: «الحمد لله الذي أراني من يقوّم عوج عمر بسيفه»، ومثل هذا قول أبي بكر الصديق في خطبته يوم بويع بالخلافة: «وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني» ولقد زعم بعض الشراح استدلالًا بهذا البيت أن هوميروس كان يميل إلى الملك الاستبدادي المطلق، وهو زعم تؤيد فساده كل إنشاد الإلياذة، فإنه إنما عنى بحصر صولجان السطوة بيد فرد واحد زمن

الحرب كما يستفاد من سياق الحديث، وهي خطة متبعة في كل الأزمان إلى يومنا حيث يكون القائد الأكبر واحدًا لا غير مهما تعددت أركان حربه بتعبيرنا الحديث، وحقيقة الحال أن أغاممنون لم يكن زعيم ملوك اليونان إلَّا أثناء الحرب لا قبل ولا بعد، وقد قام بأعباء قيادة الجند والرئاسة الدينية على ما يظهر من تولّيه شئون العبادات كما كانت الخلافة والإمامة بيد واحد عند العرب، وانحصار كلتا المزيتين بيده لم يغنه شيئًا من اعتراض المعترضين، والرضوخ لرأي سديد يبدو من غيره وإن كره، ولكننا نراه في ساحة القتال يتهدد الجبان النكس بالقتل مستبدًّا لا معارض له إذ يصبح حينئذٍ الآمر الناهي المطلق، وفي كل ما تقدم أدلة قاطعة على انتساق النظام العسكري عندهم، ووضع الحرية والانقياد موضعهما.

ويجدر بنا أن نبين في هذا الموضع أن تلك كانت طريقة العرب في تولية الزعامة الكبرى لواحد منهم إذا تعددت القبائل المتحالفة على الحرب، وسنذكر طرق تحالفهم في موضعها من النشيد الثالث، وحسبنا هنا أن نقول أنهم كانوا حيثما اجتمعت عدة قبائل منهم على حرب نهجوا هذا النهج، فرأسوا عليهم أميرًا واحدًا يأمر وينهى فيهم جميعًا، فإذا انتهت حربهم لم تبق له مزية على سائر الأمراء، وكان من عادتهم أن يقترعوا بين أهل الرئاسة، فمن خرجت عليه القرعة ولوهُ الإمارة كبيرًا كان أو صغيرًا، ولكن حيثما اتفق أن يكون بينهم أمير أحرز المقام الأول

بمكانته وسنه ونسبه، وأقرَّ الجميع له بالسبق كانوا يولونه بالإجماع بلا اقتراع ولا نزاع، كما ولَّوا حرب بن أمية على قبائل قريش في حرب الفجار.

ثم إنه ليأخذنا العجب من إغفال العرب نقل الإلياذة إلى العربية مع إنها نقلت إلى لغات لم تكن شيئًا مذكورًا بجانبها، قال ابن العبري في «مختصر تاريخ الدول» طبع بيروت صفحة ٤١: «وخربت مدينة إليون الخراب الذي هو من أعظم الرزايا عند قدماء اليونانيين، وقد رثاها أوميروس الشاعر في كتابين نقلهما من اليوناني إلى السرياني ثاوفيل المنجم الرهاوي» (توفي سنة ٧٨٥م وكان منجمًا للخليفة المهدي). وقال صفحة ٢١٩–٢٢٠: «وكان ثاوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى، وله كتاب تاريخ حسن، ونقل كتابي أوميروس الشاعر على فتح مدينة إيليون في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون الفصاحة». ولقد أكثر العلماء من البحث والتنقيب، فلم يعثروا على أثر لترجمة الرهاوي، قيل: «إن العلامة السمعاني الماروني عثر على نسخة منها، فحملها في ما حمل إلى رومية من نفائس المخطوطات في أواسط القرن الثامن عشر، وأصابته عاصفة في البحر فطغت المياه على السفينة، فعطلت كثيرًا من تلك النفائس ومن جملتها منظومات الرهاوي» ولم يتصل بنا منها غير هذين الشطرين اللذين يؤلفان البيت الذي نحن بصدد، وهما منقولان عن السمعاني.

[illegible]

[illegible]

وقد ذكر يعقوب برساخو المعروف باسم الأسقف ساوير «المتوفى سنة ١٢٤١م» وغيره من العلماء عبارات متقطعة ردها البعض إلى إلياذة الرهاوي، وهذا جل ما يعلم عنها.

(٤٥) كان زهير بن أبي سلمى مدَّاحًا لهرم بن سنان، فاشتهر أمر هرم وذاع ذكر محامده في مشارق بلاد العرب ومغاربها، ولا يزال كذلك منذ نيف وثلاثة عشر قرنًا، وقد سأل الخليفة عمر أحد أولاد زهير «ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك» فقال: «قد أبلاها الدهر» قال عمر: «ولكن الحلل التي كساها أبوك هرمًا لم يبلها الدهر». وهجا نصير الدين الطوسي المعروف بالفردوسي، والملقب بهوميروس الفرس السلطان محمود الغزنوي بقصيدته المشهورة التي مطلعها.

أيـا شـاه محمـود كشـور كشـاي	زكـس كرنترسـي بتـرس أز خـداي
وتعريبـه: أيا شـاه محمـود غـازي البـلاد	خـف الله إن لـم تخفـك العبـادْ

فبذل له الأموال الطائلة؛ استرضاءً له لعله يتوصل إلى إخفاء تلك القصيدة وإبادتها لئلا تخلد في بطون التواريخ، فخشي ذلك الغازي

الفاتك بالألوف وآلاف الألوف، ورَيقة تنمي عنه خبر السوء، وهي خارقة من خوارق قوى الشعراء الفطاحل، وهذا شاعرنا لم يذكر أحدًا بمليح أو قبيح إلا خلد ذكره بل جعل اسمه مرادفًا للخلة التي ميزه بها، فصار آخيل مرادفًا للبأس، ونسطور للحكمة، وأوذيس للدهاء، ولم يكن هوميروس هجَّاءً بما اتصل إلينا من شعره، ولكنه جمع في هذا الموضع من المعايب في ثرسيت ما يجعل السامع يشمئز من مجرد ذكره حتى صارت هذه الكلمة في كثير من اللغات مرادفة لقبيح الوجه، وفاسد القلب، والسفيه الغرور السفيل الفخور، ويغلب إطلاقها على الحسود الذميم، والنمام اللئيم، والسليط الزنيم.

(٤٦) الأكبس من أدبرت جبهته، وأقبلت هامته، زاد على معايبُ خُلقه معايب خَلقه؛ ليزيده حطة في ذهن السامع، فيعلم موضع حقارته في عين الجند، والقبح أقبح ما يكون بصاحب الوجه القبيح، ولله در القائل:

أيــا مليــح الوجــه كــن محســنًا لا تجمعـــن الــــزَّين بالشَّـــين

ويــا قبــيح الوجــه كــن محســنًا لا تجمعـــن بـــين قبيحـــينِ

(٤٧) لا شيء أدل على بذاءة الطبع، والحسد من التحامل والتطاول على أبعد الناس همة كآخيل، وأوفرهم ذكاءً وعقلًا كأوذيس، وكلام الشاعر هنا توطئة لاشمئزاز الجند منه، ولكننا لا نرى ثرسيت مكترثًا لذلك بل جل همه أن يضحك القوم ولو هزؤًا به، وهذا يمثل لك

حالة من نضب ماء الحياء الحياء من وجهه، فلا يبالي أساء الناس أم سرهم، وما أحسن قول أبي تمام بهذا المعنى.

يعـيش المـرءُ مـا اسـتحيا بخيـر ويبقـى العـود مـا بقـي اللحـاءُ

فـلا والله مـا فـي العـيش خيـر ولا الـدنيا إذا ذهـب الحيـاءُ

إذا لـم تخـش عاقبـة الليـالي ولـم تسـتحي فافعـل مـا تشـاءُ

(٤٨) أي: هل لا تزال تطمع في الذهب يأتيك فكاكًا لأسير ألقيه أنا أو غيري بين يديك، إن في هذا الكلام لمنتهى القحة من رعاعه كثرسيت إذ ادعى بأسًا فوق بأس أغاممنون، ورماه بمذمتين طمعه في الكسب والنهب، وخلوه من الشأن في إحراز الأسرى إذ ليسوا لديه بشدة بأسه بل ببسالة جنده وأتباعه.

(٤٩) في هذا الكلام إبهام بل إيهام مقصود، فإنه أشار إلى سبية علق بها أغاممنون، ولم يقل أهي خريسا التي اعترف بشغفه بها أم بريسا التي لم يعلم أحد بعد شيئًا من منزلتها عنده، ولكن الظاهر من خبث النية أنه أراد كلتيهما، واتخذ من حب أغاممنون للأولى حجة على لزوم غرامه بالثانية متذرعًا بذلك إلى إثارة الغيظ بأفئدة أصحاب آخيل، وإلقاء الفتنة بينهم وبين أغاممنون، والفتنة محجة يسعى إليها الحسود بخيله ورَجْلِه، وسنرى في النشيد التاسع أن ثرسيت وجه إلى إغاممنون هذه التهمة زورًا وبهتانًا؛ لأن أغاممنون أثبت بالأيمان المغلظة أنه لم يدر في خلده قط أن يقربها.

(٥٠) لما كان ثرسيت ساعيًا بكليته إلى الغض من شأن الملك تناهت به القحة إلى رمي الجند بأعظم صفات الجبن، فخاطبهم خطاب النساء؛ ليهيجهم حنقًا على زعيمهم، ولكنه ساء فألًا بل هو دهاء عظيم من شاعرنا أن جعل لأغاممنون خصيمًا كثرسيت تثقل رؤيته كما يثقل منطقه على كل الجيش، ومن استقبحت صورته وفعله استقبحت رأيه، وإن كان صوابًا، فقد رأى الشاعر أنه لا بد من معارض يقف في وجه أغاممنون، فلو جعله رجلًا من ذوي المكانة وأصالة الرأي لوقع كلامه وقعًا سيئًا في نفس الجميع، فلم يكن أوفى بالمرام من نمَّامٍ حسود لا يشفع بأقواله شيءٌ من مظاهر أعماله.

(٥١) الصيت: الشديد الصوت.

(٥٢) الصيد جمع أصيد، وهو السيد والرئيس.

(٥٣) أبناء دانوس والدانويون اليونان.

(٥٤) التشمت الخيبة، لقد جمع الشاعر بثرسيت أقبح الصفات، ومثلها كلها أصدق تمثيل، فأبدع هنا بوصف حالة الجبان الرعديد الذي إذا استقوى شمخ وتمادى في الغرور والكبر، وإن استضعف ذل ذلة الأنذال، وهكذا فإن ثرسيت لما أنس من الجيش ارتياحًا لمغادرة القتال، والقفول إلى الأوطان بلغت منه القحة ما بلغت ظنًّا منه أن الجيش ظهيره والموقف نصيره، فلما تصدر له أوذيس ولم يكن في الجمع من يذود عنه بدأ جبنه بأقبح مظاهره، وقد ختم الشاعر

هذا المشهد بقهقهة الجمع كما ترى في البيت التالي، وهي خاتمة تنبئك بما في طبيعة الجندي من الاشمئزاز من تشدق المتبجحين، وقلة العبء بفلسفة المتفلسفين، والشماتة بخيبة الغرور المختال، وفيها أيضًا إشارة إلى أن نفوسهم طابت عن الرحيل، فمالوا إلى القتال ترفعًا عن أن يقفوا منقادين لرأي حقير، ولسان حالهم يقول:

إذا وقــع الــذباب علــى طعــام رفعــت يــدي ونفســي تشــتهيهِ

وتجتنــب الأســود ورود مــاءٍ إذا كــان الكــلاب ولغــن فيــهِ

لا بأس أن نذكر هنا أمرًا تنبه إليه بعض الشراح، وهو أنه لم يرد ذكر لثرسيت بعد هذا الموضع في كل إنشاد الإلياذة كأن هذا الإضراب عن ذكر اسمه مقصود من الشاعر لوضعه في أدنى درك الحقارة، وأبلغ من هذا أنه لم يذكر نيريوس الجميل إلا مرة واحدة أيضًا، ثم تناساه كأنه نزَّل جمال الجسد إذا عرا عن محامد الأخلاق وعزة النفس منزلة قبح الصورة والسيرة وفساد السريرة، أفيفطن لهذا صاح الصور قباح السير؟

(٥٥) هدام المدائن لقب لأوذيس؛ لأنه كان يفعل بدهائه ما لا تقوى عليه حراب الجيوش، وهو الذي مكن اليونان من فتح إليون عاصمة طروادة.

(٥٦) كثيرًا ما نرى أثينا إلاهة الحكمة موآزرة لأوذيس إشارة إلى أن الرجل الرصين لا يأتي أمرًا إلا عن حكمة وتروٍّ.

(٥٧) لقد أسهب الشراح بوصف بلاغة الشاعر، وحسن تصرفه، ودقة سياسته في هذا النشيد، واستشهد علماء فن الخطابة بما ورد فيه من الخطب المتوالية، وكلها واقع في موقع ليس لشاعر أن يجعلها في أليق منه، فقد مر الكلام على ما حوى نطق أغاممنون من الحنكة والدهاء، ولم يكد ينتهي حتى انبرى أوذيس بدهاءٍ أعظم أتى به من وجه آخر، فشرع أولًا في استنهاض همم الزعماء، فحرضهم بالرقة واللين وغالى بخطارة موقفهم، فأصاب محل الضعف فيهم ونال بغيته منهم، وانثنى ثانيًا على عامة القوم وسفلتهم، فزجرهم زجرًا وردهم إلى سواء السبيل، وثلَّث بردع ثرسيت بدربة، وحذق أطلق بهما لسان الجميع بالثناء عليه، فكان له بكل ذلك أحسن توطئة لهذا الخطاب الرابع الذي يلقيه على مسمع الجمع كافة؛ ليحسن لهم المُقام ويوطد ثقتهم بالفتح المبين، وصدق النبوءات المشيرة إلى فوزهم في عامهم، ومن دهاء أوذيس في خطبه أنه إذا تطلَّع إلى بغية يتطلبها من الزعماء وجه كلامه إلى عامة الجند، وإذا قصد الجند خاطب أمراءهم فإنه لما قال للعامة: «لا يستقيم الأمر إلا أن يكن فردٌ يخول صولجان الصولة» أراد أن يفقه الرؤساء هذا القول فلا يتجاوز كل حده، ولما شرع هنا في ملامة أغاممنون قصد إبلاغهم جميعًا ما يترتب على خمولهم وتثبطهم من العار والحطة، وهذا منتهى البلاغة في الإيهام.

(٥٨) لا يخفى ما في كل هذا الكلام من حسن التدبر، فإنه تظاهر بعذرهم على سؤمهم وضجرهم، وقد استمهلهم من وجه ديني، فكأنه فرض عليه الثبات بحكم القدر المحتوم، وإن ساءهم حينًا، والرضوخ للأقدار يسهل احتمال الأزمات الشداد.

(٥٩) أفلس ثغر كان قديمًا في بيوتيا تجمعت فيه سفن الإغريق عند الحمل على طروادة، ومحله الآن بلدة مكروفاثي، أشار بذلك إلى تشاغلهم بالفتنة بين آخيل وأغاممنون.

(٦٠) لقد يتبادر إلى الذهن أنه لم يبق بالجيش حاجة إلى خطاب نسطور بعد أن هاج حميتهم أوذيس على أنه سيتضح للمطالع أن الشاعر نهج في كل هذا النشيد نهجًا بديعًا، فأنطق كلا من رجاله حكمة لا تصلح إلا له، ولا يصلح إلا لها فقضى كل منهم وطره، وتألبوا جميعًا على إدراك المطلب العام، وهكذا فإن أغاممنون استطلع ضمائر القوم فسبر غورها، وأوذيس شدد عزائمهم وقادهم بحبال دهائه إلى طلب القتال، فبقي على نسطور وهو صاحب القول الفصل، والشيخ الذي أجمع الناس على إجلال قدره أن يستفزهم براسخ هيبته إلى الإقدام عاجلًا على مهاجمة الأعداء، فكرر وذكر، ونصح وزجر، ونهى وأمر، ووعد وأوعد، وهي مقادة لم تكن لتلقى إلا إليه، وخطة لا يعول بها إلا عليه.

(٦١) كانوا إذا استوحوا خفية من زفس، وقصفت الرعود على أثر استيحائهم استبشروا بتحقيق أمنيتهم كما جرى لهم قبل أن حملوا على بلاد الأعداء كرر لهم نسطور ذلك لترسخ الذكرى.

التفاؤل والتشاؤم من غرائز البشر، وقد عجزت الحضارة والعلم من سمو مبلغهما عن استئصال شأفته، ولقد يحسب ذوو الأماني والحاجات حتى في عصرنا أنهم إذا ابتلوا بأمر أو راموا غرضًا تحوَّلت إليه أنظار القوى العلوية والسفلية، وعني به الحي والجماد فبات كل ما يحيط بهم رموزًا وأدلة تشير إلى ذلك الغرض، فلا لوم بعد هذا على جاهلية القوم إذا تفاءلوا أو تشاءموا بما يتراءى لهم من نجم وبرق، وطائر وحيوان، ذكر هوميروس في مواضع من إلياذته تفاؤلهم وتشاؤمهم بالرعد والبرق والطير، ولكن كل ما ذكره من هذا القبيل ليس إلا نذرًا قليلًا بجانب ما اتصل بنا من أسباب التفاؤل والتشاؤم عند قدماء العرب مما بادت آثاره وما لم تبد، من ذلك أنهم إذا كانوا حول مريض وسمعوا داعيًا يقول: «يا سالم» استبشروا بسلامة مريضهم، وإذا كان أحدهم طالبًا لحاجة وسمع قائلًا يقول: يا غانم أو يا ظافر أيقن بالفوز والظفر، وتلاعبوا بالألفاظ تيمنًا وإشفاقًا فسمُّوا الملسوع سليمًا، والتهلكة مفازة، والموت أبا يحيى وهلم جرًّا، واتخذوا من الأصوات والحركات دلائل ونبوءات، فقالوا: إن اختلاج العين يبشر بلقاء الحبيب ومنه قولهم:

ظلت تبشرني عيني إذا اختلجت ... بأن أراك وقد كنا على حذرِ

وقالوا: إن اليد اليمنى إذا نبضت دلت على شيءٍ يدفع إليها فتأخذه، وإذا نبضت اليسرى دلت على شيءٍ يؤخذ من صاحبها، وإذا سمع طنين في الأذنين كان في ذلك إشارة إلى قرب بلوغ نبأ من الأنباء، وإذا كان الطنين في الأذن اليمنى دل على نميمة، وهو يدل في اليسرى على مدح وثناء، وهذا من المزاعم الباقية، وفيها يقول أهل العراق: «الأذن اليمين عدو مبين، والأذن اليسار صديق سار». وكان بعضهم يتطيرون بالأبل ومنه قولهم:

زعمــوا بــأن مطــيهم ســبب النــوى　　　والمؤذنـــات بفرقـــة الأحبـــابِ

ولكل ما تقدم وأمثاله أسبابٌ بعضها مجهول وبعضها معلوم، فالتشاؤم بالبوم شائع في أكثر بلاد الله، وسببه أنه يأوي في الغالب إلى المحلات الخربة، والتشاؤم بالعطاس عند العرب قيل: إن سببه دويبة مكروهة يقال لها العاطوس، وهو من المزاعم البائدة عند العرب، ولكنه شائع كل الشيوع بين فريق عظيم من عامة العجم، ويقيدونه بالعدد، فإذا أقبل تاجرهم مثلًا على شراء سلعة فعطس تشاءَم، فعدل عن الشراء فإذا عطس بعدها ذهب الشؤم وحل اليمن مكانه فعاد إلى عزمه، ولم تكن تخلو هذه الاعتقادات مع ما يخالطها من فاسد الوهم من أمور معقولة ترجع إلى حكمة ثابتة من ذلك تشاؤمهم من نومة الضحى، ويسمونها نومة الخرق يعتقدون أنها تورث الخوف والغم، ولا يكون صاحبها إلا بليدًا ومن نومة العصر ومن عواقبها في اعتقادهم الجنون ومنه قولهم:

ألا إن نومـات الضـحى تـورث الفتـى　　　خبـــالًا ونومـــات العصـــير جنـــونُ

ومما يُدرج في هذا الباب ما رواه ابن خلدون إذ قال: «زعم بعض الخواص من المسلمين أن المدينة إذا كثر فيها غرس التاريخ في الدور تآذنت بالخراب حتى أن كثيرًا من العامة يتحاشى غرسه فيها، وقيل مثل ذلك في الدفلى أيضًا، وسببه كونه من الترف الذي ينشأ عن زيادة الحضارة؛ لأن هذه الأشجار لا تكون إلا للزينة، وهي تسبب الخراب؛ لأن زيادة الترف تكون سببا للجبن والرخاوة اللذين يعقبهما الانقلاب وذل العبودية».

وقد أباد الإسلام كثيرًا من هذه الاعتقادات وأضعف كثيرًا، ولكنه لم يحرّم التفاؤل على إطلاقه ومن المرويات المأثورة: «تفاءلوا بالخير تجدوه» وهي حكمة لا تخفى على اللبيب، ومن هذا القبيل ما روي في الحديث: «توقع خيرًا تلق خيرًا، وتوقع شرًّا تلق شرًّا» أما الطيرة فهي محرمة، وفيها ورد الحديث: «لا طيرة في الإسلام» وسنأتي في النشيد الثاني عشر على بيان أمرها.

(٦٢) هنا يتهدد نسطور المتخلف منهم بالقتل، وإن كان شيخًا عاجزًا وهم لا شك يتلقون كلامه مكبرين لعلمهم أنه لا يعدم فتىً ذا بأس ينفذ أمره إذا أمر.

(٦٣) لما استتم نسطور الكلام في مخاطبة الجيش رجع فوجه الخطاب إلى أغاممنون قاضيًا بالكر العاجل؛ لئلا تفتر الهمم بطول

الانتظار، ورسم لهم خطة الهجوم بكليمات جمعت من الحكمة شيئًا كثيرًا، وحسبنا قوله لتنتظم الأجناد بين القبائل يُوَلَّى على كل قبيلة منها زعيمها، ثم دفعه إياهم إلى التخاطر بالبسالة والإقدام بقوله: فتعلم من منهم أشد تثبتًا الخ، فإنه لم يكن يصلح في ذلك الموقف الخطير أن تكون زعماء القبائل إلا منها؛ لأن الجيش وإن كان واحدًا، فلم يكن مؤلفًا من ملة واحدة بل من ممالك شتى تجمعها جامعة الاتحاد، فلا يرتاح كل قبيل منهم إلا الائتمار بأمر أمير غير أمير بلاده، ثم إنه فضلًا عن المطمع العام كانت كل فئة منهم تطمع بالتميز ببأسها، فتحرز فضلًا صرفًا لها لا يمازجه منزع أجنبي، وهكذا كانت قبائل العرب قبل الإسلام إذا تحالفت بقيت تحت زعامة أمرائها كما سنبين بُعَيْد هذا عند تعداد قبائل الأحلاف، وقد ظلت العرب على هذا النهج إلى أن جاء الإسلام وجمعتهم جامعة الدين، فصاروا كأنهم قبيلة واحدة تسعى وراء مطلب واحد فلم يبق بهم من حاجة إلى مراعاة تلك الحال في كل حين.

(٦٤) لما فرغ أوذيس من خطابه صوَّب الجيش كلامه، فخرق صوتهم الجو، ولما انتهى نسطور صمت الجميع، ولم يكن ذاك الدوي بأجمل من هذا الصمت، فإن الشاعر قد وفى كلًّا حقه؛ لأن أوذيس كان على دهائه بطلًا مغوارًا، فتحمس الجيش لحماسته، ونسطور كان حكيمًا جليلًا وشيخًا يكاد يدركه العجز، فصمتوا هيبة وإجلالًا، وقام أغاممنون بأداء فرض الثناء عليه بعبارة تشف عن إعظامه قدره، وإكباره سداد رأيه،

ولا يفوتنَّ المطالع ترقي بلاغة الشاعر في خطب رجاله من أغاممنون إلى أوذيس إلى نسطور إلى أغاممنون فكأنها سلسلة متماسك بعضها ببعض، كلما نظرت إلى حلقة منها شاقك حسنها، وإذا نظرت إليهنَّ جميعًا عجبت لحسن الارتباط، وتناسب كل واحدة مع أختها، ولا غرو فهذا شأن هوميروس في أكثر شعره.

(٦٥) فالاس آثينا إلاهة الحكمة.

(٦٦) يقول: إنه لو أتاح لي الآلهة أن يكون في جيشي عشرة حكماء نظيرك لكنت ذللت طروادة، حسبنا بهذا القول دليلًا على مكانة أصالة الرأي عندهم، فإن زعيم الزعماء آثر عشرة حكماء على فيلق جرار، وهذا الكلام وإن كان يخالف من وجه قول بعض الشعراء العرب كأبي تمام القائل:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

فهو ينطبق كل الانطباق على قول الأكثرين ومنهم أبو الطيب القائل:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أولٌ ولها المحل الثاني

وسنرى في النشيد التاسع بيتًا تكاد تجزم إذا قرأته أن أبا الطيب عرَّب بيته هذا عنه، وهو قوله:

فلم تؤت بأس الكف والبأس أولٌ ... وأوتيت فخر الملك والعز ثانيا

(٦٧) الجوب الترس، ورافع الجوب زفس، أراد أغاممنون أن يُذهب بقية ما في صدور القوم من الوجد عليه لاعتدائه على آخيل، فاعتذر قبيل استنهاضهم للتأهب وألقى على زفس «أو القدر» تبعة ذلك الخصام كأنه اضطر إليه بقوة غالبة، ومن ثم استطرق إلى إصدار الأوامر وتخلصن بتوعد المتنبائي منهم بالقتل تأييدًا لقوة الزعامة وسطوة الملك، فوقف أولًا موقف الخطيب وتدرج منه إلى موقف القائد الآمر الناهي كما سترى من سياق الخطاب.

(٦٨) السغوب الجوع كالسغب.

(٦٩) نوطس ممثل الريح الجنوبية كما تقدم، وحزيز الصخر: مجتمع الصخور الغليظة، أي: إن اندفاعهم إلى مضاربهم كان كاندفاع الموج تقذف به الريح لأعالي الصخور.

(٧٠) لا يستفاد من هذا البيت أنهم كانوا على عبادات مختلفة، فإنهم كانوا جميعًا يدينون لجميع الآلهة، ولكن لكل فئة منهم ميلًا خاصًا لرب من الأرباب، وكل رب له ولاء خاص لفئة أو لبلاد، فاختلافهم بعبارة أخرى إنما هو كاختلاف بعض النصارى في تشفع قديس دون آخر في ظروف معلومة، وهم مخلصون الاعتقاد بصلاح الجميع أو كاختلاف المسلمين في الانتماء إلى طرائق ومذاهب مخصوصة مع إجماعهم غالبًا على أنهن جميعًا على صراط سوي.

(٧١) المربع من الثيران الذي بلغ الخامسة من سنه.

(٧٢) لما كان أتريذ أي: أغاممنون كبير القوم كان يجدر به أن يضحي لزفس كبير الآلهة، وأن يجتمع على مائدته كبار الأمراء بدعوة خاصة منه، فحضر نسطور وأيذومين والإياسان الخ، وقد رتبهم الشاعر ترتيبًا لم أر أحدًا من الشراح فطن له مع ما فيه من دقة المراعاة، فجعل أولهم نسطور إجلالًا لشيبه، وقفَّى بايذومين؛ لأنه كهل له حق التصدر على الفتيان إياس بن تيلامون، وإياس بن ويليوس وذيوميذ، أما أوذيس فإنما وضع بعد الشبان، وإن كان كهلًا يضاهي الأرباب بحكمته كما قال الشاعر؛ لأنه كان بمثابة أخ لأغاممنون لعظم ما له عليه من الدالة، وما لذاك به من الثقة، فكان يليق والحالة هذه أن يتأخر لغيره مجاملة كما تأخر منيلا وأغاممنون عن الجميع، ولا يسعني قبل الانتقال من هذا البحث وجل قُرَّائي عربٌ، ومن كرام العرب إلا أن أنتقد قول الشراح الذين عابوا هوميروس على جعله منيلاوس يحضر مأدبة لم يدعَ إليها، فقالوا: إن في قدومه طفيليًا غضاضة من شأنه، وهو قول لا يقوله إلا الناشئ بين قوم وهنت فيهم عرى الإخاء، وهو والعياذ بالله من شوائب التمدن الحديث، أما الواقف على أحوال جاهلية الملل وبداوتها حتى وعريق حضارتها في بلاد المشرق كجزيرة العرب يعترف معي أنه لو جعل هوميروس منيلاوس في عداد المدعوين لأتى شيئًا منكرًا، ولو فرضنا أن في إغفاله دعوته تقصيرًا فقد أبدى الشاعر نوعًا من العذر بقوله: إن منيلًا

لم يكن ليطالب أخاه بتلك الدعوة؛ لعلمه بكثرة مشاغله، وهب إنه لم يقل ذلك وليته لم يقله، فلا محل للوم الشاعر، فإن نساء بادية العرب وحواضرها كانت تقول في انتياب الشدد «الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود» إشارة إلى أنه لا يقوم مقام الأخ مخلوق، أفإذا أولم الأب وليمة وابنهُ في ربعه كما كانت الحال في مضارب الإغريق يعد الابن طفيليًّا إذا قدم من حيث لم يُدعَ، فكيف إذن والأخ في بلاد المشرق وجاهلية كل الأمم أن لم يكن أكثر دالة من الابن فهو بمنزلته أو يقاربه؟ ولا يدخل هنا الحنو الوالدي بشيءٍ.

(٧٣) قد أتينا في شرح النشيد الأول على ذكر طرائفهم بالتضحية لآلهتهم فلا حاجة إلى الإعادة، وقد كرر الشاعر في ما يلي بعض أبياته من ذلك النشيد.

(٧٤) ابن قرون زفس.

(٧٥) اجتعلوا: اقتسموا.



التضحية عند اليونان.

(٧٦) لم يكن يجدر بهوميروس وهو الذاهب إلى أن العون الإلهي، مصدر كل عمل خطير إلَّا أن يختتم هذا الباب بتوسط الإلاهة أثينا، وقد فعل، فبعد أن تثبطوا عن القتال وقدح زعماؤهم زناد فكرتهم ودهائهم، وأفرغ خطباؤهم جعبة نصاحتهم وبلاغتهم، فبلغوا منهم المرام لم ير الشاعر أصلح من ربة الحكمة ورقيبة المعارك للهبوب بهم هبة واحدة، فأبرز صورة من أبدع الصور الشعرية.

(٧٧) المجوب الترس، وقد لقبه بالخالد؛ لأن كل ما ينتمي إلى أبناء الخلود خالد لا يعتريه فساد ولا اضمحلال، ولا يخفى ما في إبراز أثينا على تلك الصورة من العظمة والسمو، وسنرى في النشيد الخامس وصف هذا المجن ببلاغة يقف لها الشعراء هيبة وإجلالًا، ولم ينزع الشاعر في هذا الموضع إلى بلوغ سمو ذلك الوصف؛ لأنه إنما وقف هنا بالإلاهة موقف المشير المثير لا كما وقف بها هناك موقف المغوار الجبار.

(٧٨) أي: إن كل هدب من أهداب الترس المدلاة من حواشيه تساوي قيمتها مئة عجل.

(٧٩) الحيد طول العنق. قال عنترة:

كـأن السـرايا بـين قـوٍّ وقـارةٍ عصـائب طيـرٍ ينتخـين لمشـربِ

(٨٠) الجدد الشواطئ. كيسطر أو كيسطروس نهر ينصب قرب أفسس في نواحي أزمير، واسمه الآن كوجك مندر.

(٨١) تساجلت الطير تسابقت، والعرار صياح بعض الطيور.

(٨٢) الأجد القوي.

(٨٣) في عدة غمضت أي: في عدد وافر لا يدرك قدره.

(٨٤) العنة الخظيرة، والنقد صغار الغنم، والمراد به هنا الغنم على الإطلاق.

(٨٥) الصوار القطيع من البقر، أتم الشاعر هنا تأهيب الجيش للقتال، وهبَّ بهم هبوبًا متتابعًا كالجذوة التي تضطرم عن شرارة، فتظل تلتهب حتى تلتهم نيرانها كل ما تناولت، وما كدنا نراهم على أهبة القفول حتى رأيناه يتذرع بألف وسيلة؛ لاستنهاض هممهم، وما زال حتى وقف بهم في ساحة القتال جيشًا منتظمًا متألبًا للكر بقلب واثق بالظفر غير هيَّاب، كل ذلك بنسق يشف عن مجرى طبيعي لا يشوبه تكلف ولا عناء، أما التشابيه المتعاقبة ولا سيما في الأبيات الأخيرة ففي كل منها مرآة تنعكس عن صور الطبيعة بأبهى المشاهد، فترى الشاعر يرسم للمطالع والسامع كل ما انجلى لحواسه فيشركه بلذة مرئياته ومسموعاته وتصوراته حتى لا تفوته منها فائتة، فإنه عند قيامهم مدججين بالسلاح

شبه بريق أدرعهم بالنور المتدفق من غاب ملتهبة على رءوس الجبال بما يشبه نار عبيد بن الأبرص بقوله:

ودنـــا يضـــيء ربابـــه غابًـــا يضـــرمه حريقـــهْ

وعند تهافتهم إلى المعسكر شبههم بالطيور المتساجلة بمرج أسيوس كما شبه سلعة ابن الخرشب الأنماري خيل قومه بالعقبان الخدارية بقوله:

ولو أنها تجري على الأرض أدركت ولكنهـــا تهفـــو بتمثـــال طـــائرِ

خداريـــةٍ فتخـــاء ألثـــق ريشـــها ســـحابةُ يـــوم ذي أهاضـــيب مـــاطرِ

ثم شبه جلبتهم بعرار تلك الطيور وهو مشهد لا شك شهده فاثر في نفسه فما ضن به بل ألقاه إلى راوي شعره، وقد انتُقد عليه في هذا التشبيه؛ لأن الطيور المتساجلة على هذا النمط لا تكون على انتظام يليق بجيش زاحف على العدو، وفات المنتقد أن ذلك التهافت إنما كان قبل انتظام عقد الجيش، وأن تلك الطيور نفسها بعد هبوبها تنتظم أسرابًا، وكأني بالمنتقد لم يتأن بقراءته حتى يأتي على آخر هذه الأبيات، أو يبلغ أول النشيد الثالث حيث يصف الشاعر انتظام الجيش وسكونه ودربته بما يشف عن إلمام تام بمواقف الجند في ساحة القتال.

ثم ما عتم بعد هذا أن شبه كثرتهم بورق الربيع؛ زيادةً لهيبتهم هذه، وهنا أيضًا توطئة لتعداد فرقهم كما سترى.

وزاد بوصف أقدامهم فقال: إنهم كالذباب المتهافت على الألبان بحظائر الرعاة في الربيع، وقد عيب على هذا القول؛ لأنه وإن كان صادقًا في حد نفسه فهو دون سائر التشابيه سموًا خصوصًا؛ لأن المقام مقام مدحٍ وإعجابٍ، وهذا الانتقاد على هوميروس قديم العهد ذكره أفستاثيوس وغيره، على أن الشاعر كما تقدم كان يمثل الطبيعة على علاقتها وفي ذلك سر طلاوة شعره، أفلا ترى أن عنترة ترنم بذكر الذباب ترنم هوميروس، فأورد معنى الشعر اليوناني وزاد عليه بقوله:

وخلا الذباب بها فليس ببارحٍ غردًا كفعل الشارب المترنمِ

هزجًا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

ومن هذا القبيل قول الآخر في البعوض:

إذا البعوض زجلت أصواتها وأخذ اللحن مغنياتها

لم تطرب السامع زامراتها صغيرة كبيرة أداتها

تقصر عن بغيتها بغاتها ولا يصيب أبدًا رماتها

رامحة خرطومها قناتُها

ورب تعبير تمجه الأنفس في عصرنا كان في أيامه مقبولًا ومستحسنًا، فمن منا اليوم إذا أتى على وصف أدبة أقيمت للغيد الحسان يتشبه بشيخ شعراء العرب بقوله:

ويــوم نحــرت للعــذارى مطيتــي فيــا حبــذا مــن رحلهــا المتحمــلِ

فظــل العــذارى يــرتمين بلحمهــا وشــحم كهــداب الــدمقس المفتــلِ

مع أننا إذا تلونا شعر امرئ القيس أخذتنا هزة الطرب والإعجاب، ولا يفوتنك أيضًا أن ما يصلح للتعبير في لغة لا يصلح في أخرى، على أنه وإن ساغ للمترجم أن يلطف العبارة، فلا يسوغ له أن يبدل معنى بآخر أو يغفلها أصلًا، فإن بوب مثلًا استهجن لفظ «الذباب» فوضع موضعها الحشرات مع أني أرى «الحشرات» أثقل على سمعنا من الذباب في الشعر، وربما كانت أخف منها على آذان الإنكليز، وهو العذر الذي يلتمس له، وأما هبس الذي أغفل العبارة برمتها وأكل بترجمته الذباب كله، فأي عذر يلتمس له اللهم إلا أن يكن أراد التلخيص والتقليد لا الترجمة الصحيحة.

وبعد أن تكامل الجند شرع الشاعر في تنظيمهم كل فئة بإمرة زعيمها، وأي تشبيه أصدق من الرعاة التي تتبين خرافها من بين القطعان والقطيع الذي يحن إلى التحيز إلى راعيه، ولم يفته بعد كل ما ذكر أن يختم المقال بوصف القائد العام أغاممنون، فوصفه وصفًا بالغًا في الأبهة والكمال، وشبهه بأعاظم الآلهة، وانتقى له من كل إله أعظم صفة فيه

وجسَّمها جريًا على سنن الميثولوجيا، فجعل له هامة زفس وعينيه، وزفس زعيم الآلهة ففي ذلك إشارة إلى الرئاسة، وفي الهامة والعينين رمز إلى الحكمة وبُعد النظر، وفوسيذ إله البحار والصدر إشارة إلى السعة، وفيه رمز إلى اتساع سلطته، وأريس إله الحرب اتخذ له منه قوة الجسد، وتشبيه البشر بالآلهة كثير في شعر اليونان، ومثله التشبيه ببعض صفات الأنبياء والأولياء بشعر العرب كقولهم في القصيدة المنسوبة إلى يزيد، وما أخالها إلا للوأواء الدمشقي صاحب الدالية التي مطلعها:

نالت على يدهالها حكم لقمان وصورة يوسف ... ونغمة داوودِ وعفة مريم

ولي حزن يعقوب ووحشة يونس ... وأسقام أيوب وحسرة آدم

واختتم الشاعر بتشبيه أغاممنون بالفحل القائم بين الصوار، وهو تشبيه مألوف لجاهلية الأمم، قال وحشي بن حرب الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب: «وخرجت أنظر حمزة وهو في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه، فما ضرب واحدًا وأخطأ، فهززت حربتي ودفعتها عليه فوقعت بين كتفيه وخرجت من بين يديه» «قرماني»

(٨٦) القيان جمع قينة المغنيات، كنَّ في اعتقادهم بنات زفس مقامهنَّ معه يطربن الآلهة في مجالسهم، وكان الشعراء يستوحونهن في إنشادهم، ويستمد المطربون عونهن في التلحين والتوقيع، فهن ربات الشعر واللحن والإنشاد، يخاطبهن هوميروس تارة بصيغة الجمع كما فعل في هذا الموضع، وتارة بصيغة المفرد كما سيأتي بعد أبيات من هذا

النشيد، وقد لا يسميهن فيقول الإلاهة، ويعني بها إحداهنَّ كما مرَّ بنا في بدء الإلياذة، ولا يخفى أن كلمة موسيقى للفن المعروف مشتقة من موسا، وهو اسم القينة باليونانية.



شكل ١: القيان.

(٨٧) حيثما نظرت إلى شعر هوميروس رأيت فيه صدق الورع والحث على الاستغاثة بالقوى العلوية عند الإقبال على عمل خطير، وها هو قد أقبل على تعداد جيوش الإغريق وزعمائهم، وبلادهم وسفائنهم، وسرد مستطردًا مميزات البلاد من جبل وواد، وغور، ونجد، وروض، وغاب، ونسب كثير من القواد، وحسبهم وصفاتهم وسلاحهم، وفكَّه القارئ بشيءٍ من القصص الذي كانت تتداوله الألسن ويتناوله الاعتقاد من أساطيرهم، ذلك أمر جلل لم يقم بمثله أحد قبله حتى ولا بعده، ولهذا كان أثرًا تاريخيًّا فريدًا في بابه لا يزال يعوَّل عليه منذ بضعة آلاف من السنين، وكأنه أدرك ما سيكون له من الشأن، فأطال الاستغاثة وأبدع

وأبان عجز البشر مهما أوتوا من الحكمة والقوة عن إتيان عظائم الأمور ما لم تبذل لهم العناية عونها، وهو إبداع في وصف عظمة الخالق وضعف المخلوق، وكَرَّم الله وجه علي بن أبي طالب إذ يقول:

إلهي لئن خيبتني أو طردتني فما حيلتي يا رب أم كيف أصنعُ

إلهي لئن خيبتني أو طردتني فمن ذا الذي أرجو ومن أتشفعُ

وما لبث بعد هذه الاستغاثة أن أفاض فيما أراد كأن وحيًا هبط على مدركته، فكتبت على ذاكرته وهو لا يكتب فرسم جغرافية بلاده رسمًا شعريًّا لم يُسبق إليه ولم يُلحق.

ولقد يجد المطَّلع على أيام العرب بعض الشبه بين هذا الترتيب في قبائل الإغريق والطرواد، وترتيب أخلاف العرب وعشائرهم بحسب نص كتبتهم ومؤرخيهم، وإن كان هوميروس يتعدَّاهم بمراحل بما أضاف إلى نبأ التاريخ والجغرافية من زخرف الشعر الذي يقتضيه موقفه، قال ابن الأثير في يوم الفجار الثاني: «ثم إن قيسًا جمعت جموعها ومعها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها منهم كنانة جميعها، والأحابيش وأسد بن خزيمة، وفرقت قريش السلاح في الناس فأعطى عبد الله بن جدعان مئة رجل سلاحًا تامًا، وفعل الباقون مثله، وخرجت قريش للموعد على كل بطن منها رئيس، فكان على بني هاشم الزبير بن عبد المطلب، ومعه رسول الله ﷺ «وعمره عشرون سنة» وأخوة الزبير أبو طالب وحمزة والعباس، وعلى بني أمية وأحلافها حرب بن أمية، وعلى بني عبد الدار

عكرمة بن هاشم، وعلى بني أسد بن عبد العزَّى خويلد بن أسد ... وعلى الأحابيش الحُلَيس بن يزيد وسفيان بن عويف هما قائداهم، والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة من كنانة، وعضل والقارة والديش من بني الهون بن خزيمة، والمصطلق بن خزاعة سموا بذلك لحلفهم بني الحارث والتحبش التجمع، وعلى بني بكر بلعاء بن فيس ... وكان على جماعة الناس «كلهم» حرب بن أمية لمكانه من عبد مناف سنًّا ومنزلة».
ثم أتى على تعداد قبائل قيس ورؤسائها كما فعل بذكر قريش.

(٨٨) ليس في هذا المجال فسحة لتراجم أعلام هذا النشيد، وسنستوفيها إن شاء الله في كتاب نفرده للتراجم الهوميرية، وحسبنا هنا أن نبين للمطالع اللبيب مواقع البلاد على خريطة ذيلنا بها هذا الفصل، وحيثما وجد اختلاف بين الأسماء القديمة والحديثة فقد أشرنا إليه،

(٨٩) لما كان قصد الشاعر تفصيل المقال عن جند الإغريق قبيلًا قبيلًا شرع كما رأيت في أول هذه الأبيات فذكر البيوتيين، وأسماء قوَّادهم الخمسة ومدائنهم، ووصف بعضها بصفات عرفت بها توخينا أن لا نزيد فيها ولا ننقص منها شيئًا لضيق عبارة أو ضرورة شعر، ثم انتهى بذكر عدد سفنهم، فقال: إنها خمسون وفي كل منها مئة وعشرون، فيكون مجموعهم ستة آلاف، وقد أضرب عن ذكر عدد المقاتلة في سائر السفن إلا سفن فيلوكتيتس، فقال: إن في كل منها خمسين مقاتلًا، قال تيوكذيذس المؤرخ: إن هوميروس قد اكتفى بذكر عدد المقاتلة في

أكبر السفن وأصغرها، فبناءً على هذا القول إذا أخذنا المعدل الوسط، وهو خمسة وثمانون «بين الخمسين والمئة والعشرين» وضربناه في مجموع السفن، وهو ألف ومئتان علمنا أن مجموع الجيش كان بالغًا مئة ألف وألفين.

(٩٠) من أساطيرهم أن يلمين وعسقلاف زعيمي جند أسفليذون وأرخومين من بلاد مينوس كانا ولدي أريس إله الحرب إذ هام بحب أمهما أستيوخا، وهي عذراء فاقترن بها خفيةً، وأولدها الولدين المذكورين، وأبناء أريس وغيره من الآلهة ليسوا بالنزر القليل في شعر هوميروس، وفي ذلك رمز إلى تميزهم بصفة من الصفات كالبسالة في هذا الموضع.

(٩١) درع الكتان كانت نسيجًا متينًا من الكتان يرجح أنهم كانوا يطلونها بالقير أو مادة نظيره، ولعلها دلاص العرب وغيرهم من أمم المشرق، روى الإبشيهي في المستطرف في قصة براز أبي الوليد بن فتحون مع العلج الرومي أنه قال للمستعين الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كتان، واستوى على سرج فرسه إلخ.

(٩٢) كانت عادة تلك الفئة من الإغريق أن تقاتل صدرًا لصدر بالرماح، وأن يرسل أبطالهم شعورهم على كواهلهم من الوراء، ويقصُّوا النواصي من الأمام حتى لا تأخذهم بها الأعداء في الصراع، وفي إرسال الشَّعْر على هذا الوجه نزعة إلى إظهار البأس والشدة إذ لم يكن من شيمهم أن يولُّوا ظهورهم لعدو، فيمكنوه من القبض على نواصيهم. تلك

عادة جرى عليها العرب في جاهليتهم، وظلت في البدو بعد الإسلام حتى أيامنا هذه شهدناها في كثير من القبائل.

على أن بدو العرب الآن يطلقون في الغالب كل شعر الرأس، ويضفرونه غدائر يسمونها قصائب يرسلونها وراء ظهورهم، فإذا أقدموا على الكفاح حلُّوها وأطاروها فوق رءوسهم، فتنتشر على هاماتهم كالرايات يعتزُّون بها ويتنافسون، وكأن في طيرانها فوق رءوسهم محمَّسًا يستفزهم للبطش وتكرار الكرة، وفي هذا المعنى يقول أحد شعرائهم:

ساق الكحيلا والبنات تصيح　　فــل القصــايب واطعــن الفرســان

(٩٣) المراد بأثينا في هذا البيت إلاهة الحكمة، وفي البيت السابق البلد المشهور، وقد دعيت المدينة باسم الإلاهة تبركًا، وبني لها فيها هيكل عظيم لا تزال أثارة قائمة، وكانوا يحتفلون كل عام بعيد عظيم يضحون لها فيه بالضحايا الكثيرة، وفي خرافاتهم أنه لما ألقت الأرض إيرختاوس حملته أثينا إلى ذلك الهيكل، وعنيت بتربيته إلى أن شبَّ، فحكم البلاد.

(٩٤) لما كان أغاممنون زعيم الزعماء كان يجدر به أن يكون قائد أعظم فرقة وأبسلها، وهكذا فالتناسب ظاهر في كل شعر هوميروس.

(٩٥) مينيلاوس أخو أغاممنون كما لا يخفى، وزوج هيلانة التي من أجلها ثارت الحرب؛ ولهذا جعل الشاعر في وصفه ووصف قومه

تحرقًا لم يجعله في غيرهم؛ لأنهم إنما كانوا قادمين للذب عن العرض، والأخذ بالثأر، ومن سواهم للنجدة وطلب الفخار.

(٩٦) قد رمى الشاعر بإثبات هذه الأحدوثة إلى ثلاثة مقاصد: أولها: إيراد حكاية مروية في زمانه، والثاني: تفكهة القارئ بعد أن أطال في سرد الأعلام، والثالث: أن يجعلها عبرة للغرور الفخور.

(٩٧) الأجد: القوي الشديد.

(٩٨) كانت مدائن أرقاديا بلادًا برَّية بعيدة عن البحر فلم يكن لهن عمارة بحرية، فأمد أغاممنون قومها بأسطول من عنده، وكان أغاممنون في زمنه أقوى الجميع عمارة؛ لكثرة جزائره، فولوه الزعامة لأنه كان سلطان البحار في زمنهم كما هي إنكلترا في زمننا هذا.

(٩٩) البهم: الأبطال الأشداء.

(١٠٠) ميليغر هو ابن وينيوس ملك كاليدونيا، وألثيا ابنة ثستيوس له قصة غريبة أوردها الشاعر في النشيد التاسع.

(١٠١) إقريطش هي إكريت أوردناها هنا بلفظها الوارد في ابن خلدون وغيره من مؤرخي العرب.

(١٠٢) صرَّح الشاعر أن نيراوس أو نيريوس أجمل الجند وأصبحهم وجهًا ما خلا ابن فيلا آخيل، ولكن شتان بين جمالٍ في وجه ذي بأس صنديد، وجمالٍ في وجه ذي عجز رعديد، وكأن الشاعر أنف

من المقابلة بينهما، فذكر نيريوس هنا مضطرًّا عند سرد أسماء الزعماء، ثم أغفله في سائر إنشاده «راجع صفحة ٢٧٠ من الشراح»

(١٠٣) لم يكن اسم الهيلانيين لعهد هوميروس قد أطلق على جميع اليونان، وإنما كان يطلق على سكان أفثيا نسبة إلى هيلانة ابنة ذو قليون، لوپر يڤوست.

(١٠٤) ذيميتيرا إلاهة الزراعة، وهي سيريس الرومان، وكأن فراسا لنضارتها دُعيت قدسًا لها.

(١٠٥) يستفاد من قوله «بيته لم يكمل» إما أنه أراد الظاهر من مفاد العبارة طبقًا لعادتهم في ذلك الزمن من بناء بيت عند الزواج، وأما إن ذلك الفارس غادر امرأته إيّما، ولم يخلف ولدًا، تقول العرب بنى علي أهله وبأهله أي: عروسه إذا تزوجها وأصله أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قبَّة ليلة دخوله بها، فقيل للمتزوج يوم زواجه بانٍ، ثم كثر فعم استعماله لكل ذي زوجة ولعل بنيان اليونان من هذا القبيل.

(١٠٦) ذكر الشاعر ألكستا أم القائد أفميل، ولقبها بالمجيدة تعظيمًا لما يؤثر عنها من حميد الخلال، وتفانيها بحب زوجها أذميت حتى أنها ماتت عن طيبة خاطر فداء عنه.

(١٠٧) القناطرة جمع قنطورس، وهو شخص خرافي أثبتنا رسمه (ن١) وللقناطرة وقائع كثيرة مع البشر في أساطيرهم، وسيأتي ذكرهم غير مرة.

(١٠٨) معنى هذه الأبيات الثلاثة أن جدول طيطارسيس ينصب في نهر فينيوس، ولا يمتزج بمائه بل يطفو عليه كالزيت لأنه «أي طيطارسيس» فرع من الستكس، ويستفاد من هذا الكلام أن الستكس نهر الجحيم من أنهر بلاد ثساليا كطيطارسيس مع أنه لم يعلم قط بوجود نهر بهذا الاسم في تلك البلاد، فيرجع إذن في الظن أنهم كانوا يعتقدون أن طيطارسيس كان متصلًا بالستكس تحت الأرض، وأما وصفه الستكس بكونه مثقل الأيمان؛ فلأنه فضلًا عما كان له من الرهبة في قلوب البشر كان أرباب السماء أنفسهم يعظمون الإقسام به ويتقونها.

(١٠٩) لما فرغ من تعدد السفن والجيوش أراد أن يستطرد إلى التنويه بأعظم الأبطال وأكرم الخيل، فاستنشد ربة الشعر كجاري عادته، ولقد يعجب المطالع العريق في الحضارة لجمع الشاعر بين الإنسان والحيوان أي: بين الفرس والفارس كما فعل هنا، على أن الملم بأحوال ذلك الزمان ينكر على شاعرها أن لا يفعل ذلك، وعندنا حتى اليوم في بادية العرب شاهد محسوس على ما تقدم، فالفرس في البادية روح الفارس، وقد يتخلى البدوي عن زوجه وولده، ويضن بفرسه؛ لأنه عونه على قضاء الحاجات، ورفيقه في الغزوات، وملاذه عند اشتداد الأزمات.

وسترى في ما يلي من شعر هوميروس ما كان للفرس من علو المنزلة عند اليونان، حتى لقد نراه في مقام الصديق الحميم يجذل لطرب صاحبه، ويتفجع لأساه، ويستبسل في سبيل إنقاذه، وزد على هذا أنه قد أنطقه بلسان البشر، وساواه بعليَّة الناس بأن جعل منه فئة من نسل الأرباب أنزل عليها شيئًا من أنباء الغيب.

(١١٠) قد صوَّر الشاعر في الأبيات الخمسة الأخيرة آخيل وجنوده وزعماء جيشه بصورة شائقة، فجعله معتزلًا ومستغرقًا في هاجسه حنقًا ناقمًا على أغاممنون، وجنوده، وهم معتزلو الكفاح لاهون بالألعاب الحربية التي يتأسى بها الجندي الباسل إذا تعذر عليه خوض معامع القتال، وهو يصبو إليها، ولم يفته أن يذكر العجال المسترة في ظل الخيام والصافنات الجياد الراتعات في مراعي الحندقوق النضرة، وأبدع من هذا كله وصف رؤساء الجند، واشتداد الأسى بهم لأنهم وهم أبناء الوغى باتوا «غير ملفين للوغى من سبيل» فتاهوا شتاتًا في ذلك الفضاء؛ لاتطربهم ألعاب الجند كأنهم يترنمون بقول عنترة إذ يقول:

واســـــمعاني نغمـــــة الأســـــ ـــــــياف حتــــــى تطربــــــاني
أطــــرب الأصـــــوات عنـــــدي رنـــــــة الســـــــيف اليمـــــاني
وصـــــليل الـــــرمح فـــــي يـــــو م طعـــــــــانٍ أو رهـــــــــانِ

وقد تقدم لنا ذكر ما يماثل هذا المعنى من قول عنترة (ن ١).

(١١١) قال يزيد بن مالك الغامدي:

يشرن بسهل الأرض مما يدسنه   عجاجًا وبالحرَّان نار الحباحب

(١١٢) تيفس هذا جبار أمه الأرض وأبوه طيطان، قيل كان له مئة رأس، وهو من الجبابرة الذين اعتصبوا على زفس، ولما أوقع بهم زفس نجا بنفسه ثم استأنف الكرة، ففتك به زفس تحت صخور آريم المذكورة في البيت السابق، وهو جبل في كيليكيا «من بر الأناضول».

وما أحسن قول عنترة في معنى هذه الأبيات الثلاثة:

وترى بها الرايات تخفق والقنا   وترى العجاج كمثل بحر مزبد

وبوارق البيض الرقاق لوامع   في عارض مثل الغمام المرعد

وحوافر الخيل العتاق على الصفا   مثل الصواعق في قفار الفدفد

(١١٣) بقي على الشاعر بعد أن وصف معسكر الإغريق أن يصف معسكر الطرواد، ويأتي على تعداد قبائلهم ففعل كما سترى.

(١١٤) المراد بقوم أرغوس جميع اليونان كما تَقَدَّم.

(١١٥) ليثس مضاف إلى طفطام، وهيفوت بدل من ابني.

(١١٦) في الإلياذة أربعة أبطال باسم أكماس، وأكماس المذكور في هذا البيت هو الذي يقتله إياس بن تلامون في النشيد السادس.

(١١٧) ياكيذ كنية آخيل أي: ابن أياك وهو اسم جده، والمراد بالنهر نهر زفس الذي طغى على آخيل، وكاد يهلكه لو لم يغثه هيفست إله النار كما سيأتي في النشيد الحادي والعشرين.



بلاد اليونان القديمة

(١١٨) لم يذكر الشاعر ما يشير إلى عدد الطرواد وحلفائهم كما ذكر ما أشار إلى عدد الإغريق، ولكنه استدرك ذلك في آخر النشيد الثامن حيث قال: إن نيرانهم بلغت الألف عدًّا، وحول كل منها خمسون، فمجموعهم إذن خمسون ألفًا.

النشيد الثالث

براز منيلاوس وفاريس

مُجْمَلهُ

تقدم الجيشان وكاد يلتحم القتال بينهما، فإذا بفاريس برز من بين الطرواديين وطلب مبارزة أشد الإغريق بطشًا، فبادر إليه منيلاوس يتحدم غيظًا، فأخذت فاريس الرعدة لمرآه، وقفل راجعًا فتلقاه أخوه هكطور بالتقريع والتأنيب، فاشتدت عزيمة فاريس وطلب إلى أخيه أن ينادي بإعادة البِرَاز على شريطة أن يتفق الفريقان على أن لا يبرز إلى ساحة القتال إلا فاريس وندُّه منيلاوس، فمن ظفر منهما أحرز الغلبة لنفسه ولقومه واستأثر بهيلانة، فتنتهي الحرب وتحقن الدماء ففعل هكطور ووافقه الإغريق، وكانت الربة إيريس ترقب حركات الجيش فأسرعت إلى هيلانة بزي حبيبة لها، وأطلعتها على دخيلة الأمر، فبادرت هيلانة إلى باب أسكية حيث لقيت الشيوخ، فدهشوا لجمالها واستطلعها الملك فريام طلع زعماء العدو، ثم أتته الرسل تستقدمه من قِبل الجيشين، فذهب مستصحبًا أنطينور فتعاهدوا وتواثقوا على أن لا يستأنف القتال بعد غلبة أي الخصمين، وانثنى فريام الشيخ راجعًا خشية من رؤية مشهد قد تدور الدائرة فيه على ابنه، فالتقى حينئذ الخصمان وكاد فاريس يخر قتيلًا لو لم تبادر الزهرة فتنقذه وتحمله سالمًا إلى

صرحه حيث ألقته ونادت هيلانة تمتع كلًا منهما بمرأى الآخر، فسخطت هيلانة عليه بادئ بدء، ولكنها لم تلبث أن هاجتها الزهرة بهزة الغرام، فأنستها وأنسته ما لقي من ذلة الإنكسار، أما منيلاوس فظل يتقصى أثر فاريس، ولما لم يظفر به نادى أغاممنون بثبوت الظفر لأخيه وطلب إنفاذ العهدة.

كل وقائع هذا النشيد جرت كالنشيد السابق في اليوم الثالث والعشرين ومجراها في ساحة القتال ثم داخل طروادة.

النشيد الثالث

نَظَـــم القُـــوَّاد ســـرى الجنـــد   بحمـــا الجيشـــين علـــى الحـــد

زحـــف الطـــروادة عـــن بعـــد   بصـــــديد عـــــالٍ مُشْـــــتدٍّ١

ودوي يَقْصِف كالرَّعد٢

كـــــالرَّهو إذا اشـــــتدَّ المطـــــر   والقُـــــــرُّ مَوَاطنَـــــــه يَـــــــذَرُ٣

فـــي الجـــوِّ تَعَـــجُّ لـــهُ زمَـــر   فـــــوق الأقيـــــانس تنتشـــــر

للبغمة محكمة الحشد٤

فـــيعم الفتـــــك بحملتهـــــا   أمـــــا الإغريـــــق بجملتهـــــا

فعشـــــت بثقيـــــل ســـــكينتها   آلـــــت والـــــنفس بحِـــــدَّتها

تتعاضد وارية الزَّند

والســـهل طـــوَوْه علـــى الأثـــر   والقســـطل مـــن عـــجِّ الزُّمَـــر

قد أضحى حجَّاب البصر   عن أكثر من مرمى حجر

ككثيف ضبابٍ مُرْبد

كضباب نوطس قد نشرا   في قُنَّة طوادٍ فاستترا

ولرؤيته الراعي ذُعِرا   لكِنَّ اللص به نظرا

خيرًا من ليلٍ مسودِّ[٥]

جد الجيشان وقد هَرَعا   حتى هَمَّا أن يَجْتَمعا

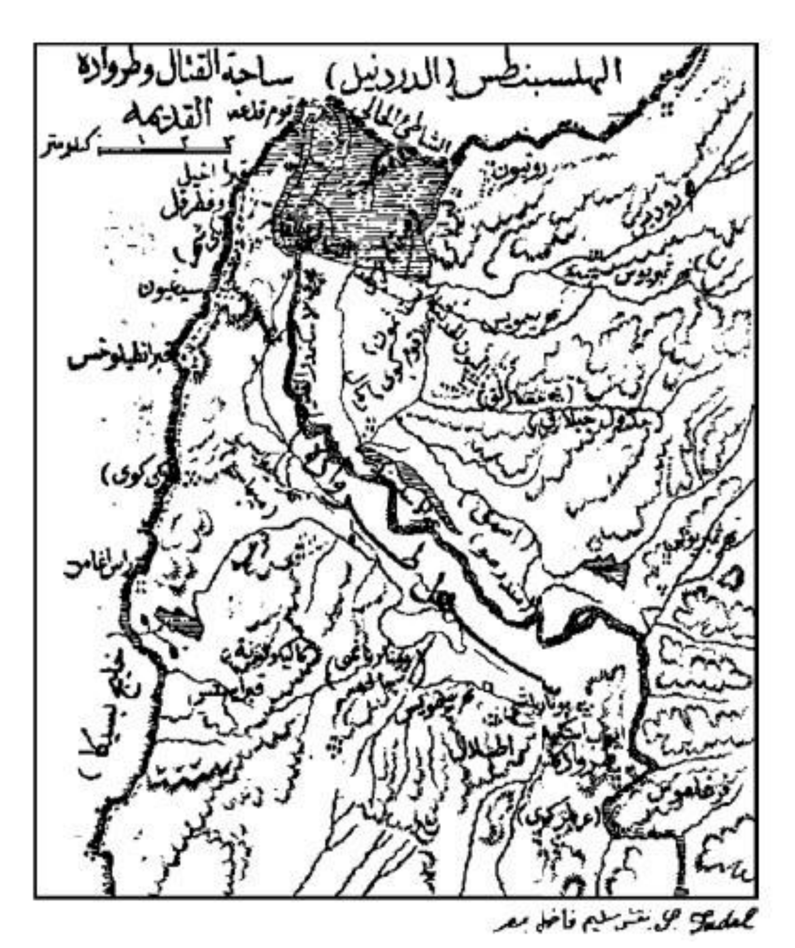
فإذا فاريسٌ قد طَلَعا   وجميل مُحَيَّاه سَطَعا

وَعَدا يَسْتَهْدفُ للطَّرْدِ[٦]

يختال بحسنٍ جبَّاذ   بالقوس وسيفٍ جذاذ

وبفروة فهدٍ بذاذ   بيديه قناتًا فولاذ[٧]

يَتَقدَّم مُسْتَبِقَ الوفدِ



ويســــير بعُجْــــب المُختـــــال　　　　يـــــدعو لبـــــرازٍ قَتَّـــــال٨

عُمَـــــدَ الإغريــــق الأبطـــــال　　　　فـــرآه مَنِـــيلا فـــي الحـــالِ

فبدا يتهلّل بالرَّغد

كالليـــــث يضـــــوِّره السَّــــغَب　　　　والظَّبـــــيُ لديــــه يَضـــــطَرِبُ

فعليـــــــه مُنقضًّـــــــا يثـــــــب ولـــــو القنَّاصـــــون اقتربـــــوا

بِضِراءٍ تُقبل للصَّدِّ٩

بالعــــدة مــــن أعلــــى العَجلَــــهْ بالشـــــدة بــــــادر بالعَجَلَـــــهْ

لا يبغـــــــــي إلا أن يَصَـــــــــلَهْ يَقْـــتَصُّ لجُـــرْمٍ قـــــد فَعَلَـــه

ومضى يَتَوقَّد بالحقد١٠

نظـــــر الإســـــكندر وامتقعـــــا فنجـــــا لمعســـــكره هَلَعـــــا

كـــــالغُرِّ لــــــه فــــوْرًا طلعـــــا صـــلٌ فـــي الغــاب قــد انــدفعا

فيعود بقلبٍ مُنهَدِّ١١

فأتـــــاه هكطـــــورٌ يجـــــري ويقـــــول بطـــــرفٍ مُحمـــــرِّ

«فـــاريسُ يـــا وجــــه الشَّــــرِّ يـــــا زيـــــر نســـــاءٍ مُغتـــــرِّ

بجمالٍ يَلْهُو بالوجدِ

يـــا لَيْتَـــك عُمْـــرَك لـــم تولـــد أو مـــت وبضـــعك لـــم يُعْقَـــدْ١٢

ولعنـــــدي خيـــــرٌ أن يلحـــــد خـــــوَّارُ العـــــزم ولا ينكـــــدْ

بشماتة أعداه اللّدِّ

فَلفيـــف أخـــايَ الشُّـــعرَ تـــرى بـــك هـــزءًا قهقـــه إذ نظـــرا١٣

ظَنُّــوك لحُســنك ليــث شَــرى فــإذا بــك خــوَّارٌ فُطِــرا

بشعائر رعديدٍ وغد

أجمعــت الصــحب مــن الــوطن وطويــت البحــر علــى الســفن

وولجــت بــلادًا لــم تطــن وســبيت فتــاةً لــم تشــن

لأماثل أبطالٍ أسدِ

لِتُــذل أبــاك وأوطانــك والشــعب وتكشــف أهْوانــك

وتســر بجــبن قــد شــانك قومًــا عرفــوك وبهتانــك

وبلوك على غير العهدِ

أخشــيت منــيلا القهَّــارا وَعَرَفــت وأكْثَــرْتَ العــارا

لمــن المســبيَّة والثَّــارا مــن يطلــب منــك وقــد ثــارا

جنان عزَّامٍ صلدِ

أفــلا أثْبَــتَّ لــه باســكْ فــي الحــرب فأخمــد أنفاســك

ورأيــت العــود ونبراســك وشــعورًا قــد زانــت راســك

لــو لــم يكــن الطــرواد أُولــي جـــبنٍ لَكسَـــوْك بـــلا مَهَـــل

ثوبًـــا مـــن صـــخرٍ مُبْتـــذل لِوَبَالـــك والخطـــب الجَلَـــل١٥

ودواهي الأَرْزَاء الأَدِّ»١٦

فأجـــاب أخـــوه ذو المَـــدَد: «بـــالحق نطقـــت ولـــم تـــزدِ

لـــك قلـــبٌ كالصَّـــخر الأَجَـــدِ وبِصَـــدْرِك نَفْسُـــكَ لَـــم تمـــدِ

جهدًا تزداد على جهدِ

كـــالأفؤس تفـــذ فـــي الخشـــب بـــــذراعي قَطَّـــاع الحَطَـــب

وَشَّـــار الفلـــك المقتضـــب لقـــواه تُضـــيف قـــوى القُضُـــب١٧

بمجامع مَصْقُول الحَدِّ

لكـــن مـــا اللـــوم إذا الزُّهـــره حبـــت الإحســـان لمـــن ذَخَـــرَهْ

فـــالرَّبُّ إذا أســـدى غُـــرَرَه لا خيـــرة فـــي أمـــرٍ أَمَـــرَه

فلنا الإذعان لما يُسْدِي

وإذا مـــا رمـــت تـــرى شـــاني قـــل فليَتَخَـــلَّ الجيشـــان

فـــأجول بهـــذا الميـــدان ومنـــيلا دون الأقـــران

والجيش حَرَاكًا لا يبدي

فالفاتـــــك يُحْـــــرزُ هيلانـــــه وكنـــــوزًا تبـــــرز بُرْهانَـــــه

والكُـــــلُّ يُثقِّـــــل أيْمَانَـــــه والنصـــــل يُـــــرّدُّ إلـــــى الغمـــــدِ

بوفاقٍ لا خللٌ شانهْ

يبقـــى الطـــروادة فـــي الحُـــبِّ بـــــبلادهم ذات الخصـــــب

يمضـــي الإغريـــق بـــلا حـــرب لغـــــواني آخـــــاي الشُّـــــنْب

وصوافن أرغوس الجُرْدِ»١٨

فـــاض هكطـــور قَلْبُـــهُ بجبـــورٍ وتَـــــدَنَّى لســـــاحة الميـــــدان

وبمزراقـــــه أمـــــال ذويـــــه وقفـــــوا بالوقـــــار والإذعـــــان

وعَلَيـــه الإغريـــق أمْطَـــرَت النَّبـــ ـــل ووبـــل الحجـــار مثـــل الـــدُّخان

صـــاح يســـتوقف الجمـــوع أغامـمـ ـــنون: «مهـــلًا يـــا عُصْـــبَة اليونـــان

فكـــأنِّي بـــدا لهكطـــور أمـــرٌ يرتأيـــه لنـــا علـــى الإعـــلان»١٩

سكن الجأش قال هكطور: «سمعًا لمقـــالي يـــا أيهـــا الجيشـــانِ٢٠

هـــاكم مـــا فـــاريس يلقـــى علـــيكم وهـــو تـــدرون أس هـــذا الهـــوان

كلكـــم للحضـــيض ألقـــوا ســـلاحًا وإلـــــى الحـــــرب يبـــــرز القرنـــــان

هــــو والباســــل العـــزوم منــــيلا عــــن جميـــــع الجنــــود يقتــــتلان

كــل مـــن فـــاز منهمــا يُحْــرِز الــ ــــــمال وهيلانــــــة بغيـــــر طعــــــان

ويُـــآلي الجيشـــان بـــالأمن والوفـــ ــــق لطـــــول الزمـــــان يتَّحــــدان»

صـــــمتوا جملـــــةً فقـــــال منــــيلا بصــــــراخٍ عــــــالٍ وثبـــــتِ جنــــــان

«فلــي الآن ســمعُكم لــيس مــنكم مــــن يعــــاني بلوعـــــةٍ مــــا أعــــاني

بــين فـــاريس ذا الخصـــام وبينـــي قــــد دهـــــاكم بفاجعـــــات الزمــــــان

هــــو بـــادٍ وللـــوغى أنـــا صـــادٍ إنمـــا رمـــت كـــف حـــربٍ عَـــوَان

مـــن يســـقه القضـــاءُ للحتـــف منَّـــا فليذقـــــــه وأنـــــــتم بأمـــــــان٢١

ولطُـــــروادةٍ بكبشـــــين يُـــــؤتى واحــــــدٌ أبــــــيض وأســـــود ثــــــاني

قربـــــةً تُســـــتباح للشـــــمس والأر ض ومنَّــا كــبشٌ لــربِّ المَثَــاني٢٢

ويــــوافي المَلِيـــك فريـــام بالنَّفـــ ـــس لعقــد الوفــاق فــي ذا المكــان

فبنـــــوه لا يتَّقـــــون زمامًــــا والتراخـــــــى طبيعــــــةُ الفتيـــــان

رُبَّمـــا ينقضـــون ميثـــاق زفـــسٍ إنمـــا الشـــيخ لا يُخَيـــب الأمـــاني

فيُرَاعــي الماضــي ومســتقبل الأمــ ـــر ليلقــى الســلامة الطَّرفــان»٢٣

ســرَّ هــذا الحــديث كُــلِّ فريــقٍ رغبـــــةً فـــــي ادِّراء ذا الحَـــــدَثانِ

فتـــــدانوا بالمركبـــــات وصـــــفوا عُــدَد الحــرب بالحضــيض دَوَانــي

ولِفِريــامَ أرســل النَّــدب هكطــو ر بفيجـــين ثـــمَّ يســـتقدمان٢٤

ويقُـــودان ذبحهـــم وأغامــــ ـــنون يبغـــي تتمـــة القُربـــان

فلتلثيبيـــوس أوعـــز فاجتـــا ز إلـــى فلكهـــم بغيـــر تـــواني

ولهيلانـــــةٍ تـــــراءت إريـــــس تبتغيهـــا مـــن قاصـــيات الجنـــان٢٥

وتَزَيَّنـــت بـــزي أجمـــل بنـــت لحميهـــــا بِحُســـــنها الفَتَّـــــان

«لا وذيقـــا وزوج هيليقَـــــوُون فـــرع أنطينـــور الرَّفيـــع الشـــأن»

وَجـــدتها بالصَّـــرْحِ تنســـج ثوبًـــا بحواشـــــي البرفيـــــر والأرجـــــوان

ويـــرأس الخيـــاط ترســـم فيـــه واقعـــاتٍ أبلـــت بهـــا الفئتـــان٢٦

«قــوم إغريقيــا أولــوا لا درع الحصـ ـــد وطُـــرْوَادَ أصـــلب الفُرســـان»٢٧

فتفـــانوا بهـــا عليهـــا وربُّ الـــ ـــــحزب أورى زنادهـــا للتَّفـــاني

قالـت: «الآن يأسـنا الحـور قـومي فَتَـــرَين العُجـــابَ مـــرأى العيـــان

عيلـــت الأُمَّتَـــان للحـــرب صـــبرًا كادتـــــا بالقتـــــال تشـــــتبكان

وهمـــا الآن لا نكـــال ولا حـــر ب يـــأمن بالصـــمت جالســـتان

بقنـــــاةٍ بـــــالأرض أركزتاهـــــا وبجـــــــنٍ عليـــــــه تتَّكئـــــــانِ

بيـــد أن الإســـكندر الآن حتمًـــا ومـــــيلا إلـــــى اللقـــــا يُبـــــرزانِ

مـــن يفـــز أنـــت زوجُـــهُ ومنـــاهُ وعليـــك الرهـــان كُـــلَّ الرهـــان»

ثـــم أذكـــت بهـــا حنينًـــا ووجـــدًا لمنـــــيلا والأهـــــل والأوطـــــانِ

باضـــــطراب تبرقعـــــت بنقـــــابٍ ناصـــعٍ تصـــطلي لظـــى الأشـــجان

من خباها في الصرح سارت وأهمت عَبَـــرَاتِ الشـــجى ودمـــع الحنـــانِ

وليتهـــا أثـــرا ابنـــة النـــدب فتشـــا وكليمينيـــــا العيـــــون الحســـــان

جـئن أبـواب إسـكيا حيـث وافـى رهـط أدهـى الشـيوخ والسـلطان٢٨

مـــع فريـــام فَنْـــتُس وَثَميـــتٌ مـــع قَليطـــوس لَمفـــس هيكتـــانِ

وإلـــــيهم أوكـــــالغون وأنطيـــــ ـــنورُ كنـــزا الحجـــى وذخـــرا البيـــان

فكُــــرُور الأيَّـــام أوْلَـــتهم عجـــــ ـــزًا ولكـــن حزمًـــا وعـــذب لســـانِ

فــي أعــالي مشــارف البــرج قــاموا يرتـــــــــأون الآراء بالتبيــــــــانِ

مثلمـا فـي الغـاب الصَّراصـرُ تُبْـدي بخفاهـــا صـــرًّا رقيـــق المغـــاني

أبصــــروها فقــــال بعـــضٌ لـــبعض «يــا لطيــب الثنــا ولطــف المعــاني

لـيس بـدعًا إن كـان هـذا سـناها وعليهــــا تَلَاحَمـــــت أمتَّـــــان

بــــرزت رَبَّــــةً بوجــــهٍ صـــبيحٍ غيـــر أن الـــبلاء بالويـــل دانـــي٢٩

فلتعــد للسَّــفين مــن ثــمَّ نُكفــى وبنينــــا دَوَاهِـــــي الخــــــذلان»

فـــدعاها فريـــام قـــال: «بقربـــي إجلســي الآن يــا ابنتــي بائتمــاني٣٠

وانظــري فـــي السَّـــرَاةِ أول بعـــلٍ لــــك قِـــدْمًا وَسَـــائِرِ الإخـــوَان

لـــم تكـــوني بـــالحق جانيـــةً بـــل قَـــدَر الأربـــاب العظـــام الجَـــاني

ذاك فوق الإغريق قد هال سُخَّطا وبوبــــل الوبــــال قـــــد أبلانـــــي

أخبرينـــي مـــن ذا الـــذي يتـــراءى لـــي أخـــا عـــزةٍ وذا عنفـــوان

بيــنهم مــن أراه أضــخم جســمًا منــه لكــن أنَّــى لــذا الحُســن ثــاني

لاح مـــن فَـــرْطِ هيبـــةٍ ووقـــارٍ لـــي قـــيلًا موطَّـــد الأَرْكـــان»

أجابـــت وزادت بالحيـــاء تَجِلَّـــةً «وفي وجهها لاحت من البؤس أكدار»

«لديك حمي المحبوب رُعبًا وحُرْمةً لَتُـــوجِلني نـــاري ويخجلنـــي العـــارُ

ألا مـا طلبـت المـوت لمَّـا بـإثْرَتي نأي الأهل والإخوان والبنت والجار ٣١

تَـرَكْتم واعتضـت بابنـك عـنهم ودمعـي مـا طالـت حيـاتي مـدرار ٣٢

ومهمـا تشـأ فاسـأل ألـبِّ مُطِيعـةً فهـــذا أغـــاممنون أصـــيدُ قهـــار

مَلِيـك بـأحوال السِّياسـة عـارِفٌ عـــزومٌ بصـــماء المعـــامع جبـــارُ ٣٣

لقـد كنـت بـالإعزاز عِـرْسَ شَـقِيقه ولكـنَّ ماضـي الحكـم كـالحلم طيَّـارُ»

فأحـدق فيـه الشَّـيْخ يُعظـم قـدره وقـال: ألا كـم قـد أطاعتـك أنفـار

فطوبـاك أنعـم إن حظـك وافـرٌ لأسـمى أعـالي المجـد سـاقتك أقـدار

شخصت إلى ذات الكروم فريجبيا وقـدمًا بهـا أطـرا ومغـدون مغـوار ٣٤

يَقُـودان أحصـاب الفَيَـالق نُـزَّلًا بجـدَّة سـنغاريس والجـيش جَـرَّارُ ٣٥

صــحبتهم لمــا الأمازونــة اعتــدت عليــهم ببــأس لــم يروعــه إكتــار٣٦

ولكــنَّهم لــم يبلغــوا قــطُّ عــدَّةً جيوشًـا مـن الإغريـق فـي إثرنـا ثـاروا»

ومشـــيرًا لأوذسٍ قـــال: «مـــن ذا دون أتريــــــــذ لاح بالجُثْمَــــــــان

وهــو أوفــى ظهــرًا وأوســع صــدرًا ويخـــوض الصـــفوف كالـــدِّهقان٣٧

عَنْــهُ أَلْقــى ســلاحهُ وبهــم جــا ل مطــــاع الإيعــــاز والسُّـــلطان

مِثْــلَ كَــبْشٍ بَهِــيٍّ صُــوفٍ أثِيــثٍ يَتَســـامى فـــي أَبْـــيَضٍ القُطْعـــان

أجابـــت: «لهـــذا أوذسٌ بدهائـــه وإيتاكــة الصَّــيْداء تلــك لــه دار٣٨

خبيــرٌ علــى كــل الأمــور مقلــبٌ له سطعت من محكم الرَّأي أنْوَار٣٩

«نعـم» قـال أنطينـور «حقًّـا صـدقتنا لأوذس لـــم يبـــرح ببـــالي تـــذكارُ

أتــى ومنــيلا قومنــا قبــل مرســلًا يــرى مــا لنــا فيمــا ســبيناك أعــذار

وفـي منزلـي بالرحـب والأنـس أنـزلا لحزمهمـا عنـدي مـدى الـدهر آثـار

لكـم قـد أفاضـا بيننـا فـي فصـاحةٍ إذا دار للأبحــــاث والنُّطـــق أدوارُ

منــيلا إذا مــا قــام أوســع مَنْكبًــا وأوذس إن يجلـــس وقـــارٌ وإبـــرار

وإن خطبـا يجـري منـيلا مبيِّنًـا أدلتـه جريًـا ومـا ثـمَّ إضـمارُ

يجـول علـى لُـبِّ الحـديث مُجانبًا شُـذُوذًا ومِصْـدَاق الشَّـوَاهد يَخْتـار

ويجتنـب الإكثـار إمَّـا كَرَاهـة وإمَّـا لِرَعـي السـن يُلْجِيـه إجبـار ٤٠

ولكـن أوْذِس وَهْـوَ أرشـدُ فيهمـا إذا قـام هبَّـت مـن معاطِفِـه النَّـار

فمحجنـه لا يَلْتَـوِي أي ليـةٍ وتطـرقُ منـه بالتَّوقُّـد أبصـارُ

تخـال فَتًـى بالخَطْـب غيـر مُحَنَّـكٍ وشَـطَّ بـه عـن مـنهج العقـل تَيَّـار

ولكـن إذا فاضـت منافـث نطقـه وصـوت جهيـرٌ بالنَّفـائس زَخَّـارُ ٤١

تَنَـاثَرَ مـن فيـه النهـى بـردًا همـى «وسـيفُ حِجَـاه بالبلاغـة بتَّـارُ» ٤٢

يقصـر عنـه كـلُّ نـدبٍ فـلا تـرى إذن عجبًـا فـالنُّطقُ للقـدِّ سَـتَّارُ» ٤٣

قـال فريـام مومئًـا لأيـاسٍ «وأخـو الحسـن ذا القـويُّ الجنـانِ

بقـوى منكبيـه والْهَامـة الشَّـ ـمَّاء قـد فـاق سـائر الأقـران»

فقالـت: «أيـاسٌ حصـنهم وتُجاهـه إذومـين فـي أجنـاد إكريـت أمَّـارُ

تـراه كـربِ قـام فـي زعمائهـا تحـيط بـه مـن نُخْبـة الصـيد أنصـارُ

وكـم حـل فينـا قبـل ضـيفًا مكرَّمًـا　　وبعلـي منـيلا مكـرم الضـيف مَيَّـارُ

وهـا هـم جميعًـا سـل أنَبِّئـك عـنهم　　لـديك بـدا مـنهم عميـدون كبَّـارُ

ولكـن شـقيقَيَّ الـوَدُودِين لا أرى　　هما كستر الرَّوَّاض إن شُقَّ مضمارُ ٤٤

وفُـولُكُس صَـرَّاع كـل مصـارعٍ　　أمـن لقـدمونا لـم يسـيرا بمـن سـاروا

أم احتجبا في الفلك خوف تعرُّضٍ　　لعـارٍ لـه فـي مـسِّ عرضـي أوزار؟»٤٥

وما علمت والأرض في وطنٍ خلا　　تَضُـمُّهُمَا والعُمـرُ كـالطَّيْفِ مَـرَّارُ

فـي السـاعة عـاد الفَيْجـان　　حمـلا لثبـوت الأيمـان

حملـين لـذاك القربـان　　مـع نحـي مـدامٍ مـلآنِ

مصنوعٍ من خير الجلد

فتقـدم إذيـوس السَّـاعي　　بـالكوب الصـافي اللَّمَّـاعِ

وكئـوس نضـارٍ سـطَّاع　　فـدنا للشـيخ المُلْتَـاع

ودعاه لإبرام العقدِ

«يـا فـرع لوميـذون إلـى　　دار الهيجـاء فقـم عجـلا

للعهـــد دعتـــك ســـرى النـــبلا لتُضــــــحِّي فــــــاريسٌ حمـــــــلا

ومنيلا من دون الجندِ

فالفاتـــــك يُحْـــــرِز هيلانــــــهْ وكنــــــــوزًا تبـــــــرز برهانـــــــه

والكـــــــلُّ يُثَقِّـــــل أيمانــــــه بوفـــــــاقٍ لا خلـــــــلٌ شـــــــانه

والنَّصلُ يردُّ إلى الغِمدِ

يبقـــى الطـــروادة فـــي الحـــب بــــــــبلادهم ذات الخصـــــــب

يمضـــي الإغريـــق بـــلا حـــرب لغـــــواني آخـــــاي الشُّـــــنبِ

وصوافن أرغوس الجُردِ»

تفطـــر قلـــب فريـــام ولكـــن أشـــار بشـــد مَرْكبـــة المســـيرِ

علاهـــا والأَزِمَّـــة فـــي يديـــه وجـــد مُسَـــارعًا مـــع أَنِطنـــورِ

فجـــازا بـــاب إســـكيةٍ وجـــدًّا بـــذاك الســـهل فـــي جهـــد المغيـــر

ولمـــا بلغـــا لمُعَسْـــكَرَيْهم بهـــا نـــزلا علـــى الـــرَّوض النَّضِـــير

وراحـــا بـــين صـــفيَّهم وكـــلٌ يـــروم هنـــاك إجـــلال الأميـــر

وأتريـــذٌ وأُوذِس فـــي وقـــارٍ وقـد نهضـا لـدى الملـك الوقـور٤٦

فأحضـــرت الفيـــوج الـــذبح عَهْـدًا　　على الميثـــاق فـــي تلـــك الثغـــور

وصـــبوا فـــوق أيـــدي الصـــيد مـــاءً　　وقـــد عمـــدوا إلـــى مـــزج الخُمُـــور

نضـــى أتريـــذ مشـــمَلَهُ المُـــدَلَّى　　بِعُـــروة غمـــد قرضـــاب كبيـــر٤٧

وجـــز الصـــوف عـــن رأس الضـــحايا　　فـــوزَّع بـــين أقيـــال حضـــور

ومَـــدَّ يديـــه للعليـــاء يـــدعو　　علـــى لهـــفٍ دُعَـــاء المســـتجير

«ألا أأبًـــا عـــلا فـــي شـــم إيـــذا　　ولـــي المجـــد والشـــرف الخطيـــر

ويـــا شمسًـــا عليمـــة كـــل فعـــلٍ　　ويـــا ذي الأرض يـــا كُـــلَّ النهـــورِ

ويـــا مـــن كـــل حَنَّـــاثٍ لـــديهم　　يُضَـــرَّم بالممـــات لظـــى السَّـــعير

علينـــا فاشـــهدن وذاك عهـــدٌ　　عقـــدناه ولـــم يـــك عهـــد زور

إذا فـــاريس فـــاز علـــى منـــيلا　　وأرداه بِمِنْصَـــلِهِ الشَّـــهير

لـــه هيلانـــة تبقـــى ومـــا فـــي　　خزائنهـــا مـــن المـــال الكثيـــر

ونحـــن وفلكنـــا هـــذي ســـراعًا　　نعـــود بهـــا علـــى لجـــج البُحُـــور

وإن فـــاريس جَنْدَلـــه منـــيلا　　إلينـــا يُرْجَعـــان بـــلا فتـــور

ونعطـــي جزيـــةً تبقـــى فخـــارًا بـــــذكراها لنـــا أبـــد الـــدهور

وإن نكلـــوا فلـــن أجتـــاز حتـــى أفـــوز بمنتهـــى أربـــي العســـير»

ووارى النصـل فـي عُنُـق الضَّـحايا فراحـــت تقشـــعر بـــلا شُـــعُور

وتخــبط خافقـــاتٍ فـــي دماهـــا وقـــاموا بالقـــداح إلـــى العصـــير

أراقوهـــــا مُطَفَّحــــــةً وكـــــلٌ مـــن القـــومين يهتـــف بـــالزَّفير:٤٨

«أيـــا زفـــس العظـــيم وكـــل ربٍ أبيـــــدوا كـــــل حَنَّـــــاثٍ غـــــرورٍ

يُـــراقُ دماغُــــهُ وبنيــــه طُــــرًّا إراقتنـــــا لــــذا الـــراح الغزيـــرِ

ويملـــك عرســـه بعـــلٌ غريـــبٌ» ولكـــن زفـــس لـــم يـــكُ بالنَّصـــير

وصـاح يقـول فِرْيَـام: «فهـا قـد عزمتُ على التَّحَجُّب ضِمْنَ سُورِي٤٩

لـئن أشـهد بـراز حليـف روحـي تفطَّـرَ بـي خشـى قلبـي الكسـيرِ

فـــزفس وكـــل آلهـــة البرايـــا هـــم أدرى بـــولّاج القبـــور»

ومـن ثَـمَّ امتطـى والـذِّبح ألقـى بمركبـه وعـاد إلـى القصـور٥٠

وأنطينـــور يصـــحبه وســـارا إلـــى إليـــون بالجـــد الـــوفير

وهكطـــور ابنـــه وأذيـــس قامـــا وقاســـا فســـحة البـــون القصـــير

ووســـط تريكـــةٍ قـــدحين رجَّـــا لـــيعلم مـــن لـــه حـــقُّ البُـــدُور٥١

فمـــدَّ يـــد الضَّـــرَاعة كـــلُّ فـــردٍ مـــن الأجنـــاد بالصُّـــوت الجهيـــر

«ألا يـا زفـس يـا مـولى المَـوَالي ولـــيَّ المجـــد والشـــرف الخطيـــر

أبانـا مَـنْ عــلا فـي شـم إيـذا أبـــــد أيَّـــــا بلانـــــا بـــــالثُّبُور

مـــن الخصـــمين أيًّـــا ثـــار منـــه بنـــا شَـــرَرُ النَّوائـــب والشـــرور

وأحكـــم بيننـــا رُبُـــطَ التصـــافي وزج بـــه إلـــى شـــرِّ المصـــير»٥٢

فــدعوا وهكطــورٌ بهــم مستقســمًا رج السِّـــهام مُحَـــوِّلًا نظراتـــه٥٣

فبـــدا لـــديهم ســـهم فـــارسَ أوَّلًا ليكـــــون أوَّل طـــــاعنٍ بقناتـــــهِ

جلســوا وَعُــدَّتهم بجانــب جيشــهم والخيـــل موقفـــةٌ علـــى جنباتـــه

فأعـــدَّ شـــكَّته ابـــن فريـــام وفـــي رجليـــه أوثـــق خِفَّـــه بصـــلاته

بعُـرى اللُّجـين أناطَـه واعتـاض دِرْ ع أخيـــه ليقـــاوُوْن عـــن نَتَراتـــه٥٤

وتقلــد الســيف الصَّــقيل مُرَصَّــعًا بقتيـــره الفضـــي فـــي صَـــفَحَاتِهِ٥٥

وأضــاف جُنَّتَــه ومِغْفَــرَه الــذي	ســبحت نواصــيه علــى حلقاتــهِ٥٦
وأجــال فــي يُمنَــاه أعظــم عاســلٍ	بِقُــوَى المَعَاصِــمِ دار فــي راحاتــه٥٧
وافــى مَنــيلا بالســلاح مُكفَّــرًا	واســتلأما كــلٌّ لــدى لُحماتــهِ٥٨
فَتَقَــدَّما ولِحــاظ كــل مبــارزٍ	شَــفَّت بــواري الغــيظ عــن غُصَّــاتهِ
وقفــوا لــدى مــا خطَّطــوا وكلاهمــا	بقناتــه يُضــوي قلــوب قلاتــهِ٥٩
فرمــى ابــنُ فريــام المثقَّــف فــالتوى	بمجــنٍّ أتريــذٍ علــى نَبَوَاتــهِ
فــي الحــال بــادره منــيلا مُرْســلًا	رشــقاته مَشْــفُوعةً بصــلاته
«يا زفس خذ بيدي لأنقم من فتىً	عرضــي يدنســه بتشــويهاته
واسحقه سحقًا في يدي يَكُ عَبْرةً	لنزيــل ســوءٍ عــقَّ فضــل قراتــه٦٠
ورمــى بعاســله فأنفــذ خارقًــا	ظهــر المجــن وبطــن فضفاضــاته٦١
حتــى تَخَلَّــل نافــذًا بــدثاره	فلــوى المناكــب فــائزًا بنجاتــهِ
فاســتلَّ أتريــذ صــقيل حســامهِ	فــوق التَّريكــة موقنًــا بمماتــه
فَتَكَسَّــر الصَّمْصَــام وســط يمينــهِ	وأطــار فــوق جبينــه شــذراتهِ٦٢

حنقًا أشار إلى السماء مُخاطبًا زفسًا يُؤَنِّبُهُ على عثراته:٦٣

«من كل آل الخلد مثلك لم يكن يا زفس معتسفٌ بمقدوراتهِ

فدكدت أفتك ظافرًا بأخي الخنا فإذا بعضبي طار في كسراتهِ

وإذا برُمحي قد طعنت به ولم أدركه في رمحي وفي طعناته»

وانقض يجذبُهُ بخُوذَتِهِ وفي عنفٍ تقهقر مسرعًا خطواته

واجترَّه والسَّير يُمْسِك ذَقْنَهُ فاسْتُمْسكت أنفاسُه بلَهَاتِه

قد كاد يبطش فيه لو لم تبتدر قبريس تقطع بالخفا قدَّاتِه٦٤

فخلت لديه خوذةٌ مقطوعةٌ فرمى بها فَتَدَحْرَجَتْ لِسَراتهِ

فخلا بها أصحابه وهو انثنى بشحيذ نيزكه إلى وثباته

لكِن عَفْرُوذيت وهي قديرةٌ من فورها وصلت حبال حَيَاته٦٥

حجبته في ركم الضَّباب محلَّةً إيَّاه بالأطياب في حُجُرَاتِهِ٦٦

ومضت إلى هيلانةٍ فإذا بها بالبرج جالسةً على شرفاتهِ

فدنت إليها والبنات شواخصٌ في زيٍّ خادمة على علَّاتهِ

حاكـت عجـوزًا قُرِّبـت مـن قومهـا حاكـت بنسـج الصـوف مَحْبُوكاتـه٦٧

وبثوبهـــا العُطْـــرِي جَرَّتهـــا وقـــد صـــاحت بهـــا: «فـــاريس فـــي خلواتـــهِ

يـــدعوك وهـــو تَزَينـــهُ فـــي غرفـــةٍ ضَـــمَّتكما ببـــديع حســـن صـــفاتهِ

حتـــى تَخَـــالي أنـــه مـــا كـــان فـــي حـــربٍ بهـــا يلقـــى أشـــدَّ عُدَاتـــهِ

لكنـــه فـــي مَـــرْقصٍ متأهـــبٌ للـــرقص أو قـــد عـــاد مـــن ســـاحاته»٦٨

عَرَفَـــتْ هيلانـــة جازعـــةً ربَّـــة الحُـــبِّ بِحَـــرِّ الحـــرب

دِقَّـــة الجيـــد ولحـــظٌ لاهـــبٌ ومشـــوق الصـــدر لـــم تحتجـــب

فلهـــا قالـــت: «ومـــا أغـــراك أن تخـــدعيني بَعْـــدُ حَسْـــبي نُـــوبي٦٩

أبـــا فريجيـــةٍ بعـــد فتـــىً تطرحينـــي عِنْـــدَه بالوَصَـــب

أم رُبـــى إميونـــةٍ فيهـــا بـــدا لـــك محبـــوبٌ رفيـــع الحســـب

أخـــداعًا يـــا ظلومًـــا جئتنـــي ومنـــيلا نـــال فَخْـــرَ الغلـــب٧٠

يبتغـــي ردي لأوطـــاني فمـــا آه أشـــقاني وأدهـــى نصـــبي٧١

أنـــا لا أبغـــي فريسًـــا أبـــدًا أنـــت أشـــربت هـــواه فـــاذهبي

غــادري الأولمــب والقــوم العلــى واتبعيـــــه واحرســـــيه واصـــــحبي

واحملـي منـه الأسـى يرضـك عِـر سًـــا لــــه أو أمــــةً لـــم تطـــبِ

لـــــك لا لســـــتُ إذن تابعـــــةً غيـــد إليـــون إذن يشـــمتن بـــي

لــــن أحلَّــــن فراشًــــا حلَّـــهُ وأنـــال الخـــزي طـــول الحقـــبِ

حســـبي العـــار ومـــا حُمِّلْتـــهُ مـــن لظـــى النـــار وحَـــرِّ اللَّهَـــب»

حَنِقَـــت قِبْـــرِيسُ مِمَّـــا قابَلَـــت قالــت: «اخْشَــي أن تهيجــي غضـبي

واحـــذري منِّـــي الجفـــا راغبـــةً عــــن ودادٍ لِقَلًـــــى مُنْقَلِـــــبِ

لــيس هــدُّ الوفــق أمــرًا عســرًا ولــك البلــوى وضــيق المــذهب»٧٢

وَجِلَـــت هيلانـــةٌ واضـــطَرَبَت وَتَـــــرَدَّت بِبَهِـــــيِّ النُّقُـــــب

إثرهـــا صـــامتةً ســـارتْ وقـــدْ حجبتهـــــا بكثيـــــف السُّـــــحب

جاءتـــا فـــاريس فـــي منزلـــه والجــــواري بانتظــــار الطلـــــبِ

ســـرن عنهـــا وأســـيرت نحـــوه وهـــو فـــي الغرفـــة ماضـــي اللَّغـــبِ

أجلســـتها رَبَّـــةُ العشـــق علـــى مجلـــــسٍ دانٍ لـــــه مُقْتَـــــربِ

حَوَّلــت عـــن وجهـــه أنظارهـــا ثـــم قالـــت باللســـان الـــذَّرب:٧٣

«أيـــن مـــا تـــزعم مـــن بطـــشٍ بـــه فُقْـــتَ إقـــدَامَ منـــيلا الأشـــهب

وادَّعيـــت السَّـــبْق فـــي طعـــنٍ وفـــي شـــدَّةِ البـــأس وضـــرب القُضُـــبِ

آه لـــو جنـــدلت فـــي ســـيف فتـــىً كـــأن بعـــلًا لـــي وكـــلَّ الأربِ

آه لـــو ترجـــع... لا فـــاحرص وإن تَتَعـــرَّض للقـــاه تَخِـــب٧٤

خشـــيتي يُوقِعُـــك الطَّـــيْش بـــه فَتُـــوَافي طعنـــة المُعْتَطِـــب»

قـــال: «يكفـــي مُنْيَـــة الـــنَّفس فقـــد هضـــت نفســـي بعنيـــف العتـــب

فأثينـــا شـــدَّدَت ســـاعدهُ وســـتُؤتى النصـــر يومًـــا عُضُـــبي

لـــي بـــآل الخلـــد أقـــوى عـــزوةٍ إنمـــا الآن أوان الطَّـــربِ

لـــم أكـــن قـــطُّ كمـــا الآن أنـــا بفـــؤادٍ خـــافقٍ مضـــطربِ٧٥

لا ولا يـــوم رمانـــا الحُـــبُّ مـــن لقـــدمونا فـــوق بحـــرٍ لَجِـــب

وخلونـــا فـــي رُبـــى إكرانيـــا عـــن عـــذول مُـــزْعِج مرتقـــبِ

لـــم تَشُـــقني قـــط هبَّـــات الهـــوى لهبًـــا أشـــغف مـــن ذا اللهـــب»

هـــاج نـــار الوجـــد فيهـــا راقيًـــا   لســـــــريرٍ لهمـــــــا منتصـــــــبِ

تبعتـــــه والكـــــرى شـــــاقَهُما   بأمـــانٍ فـــوق فُـــرْشٍ قشُـــبِ ٧٦

ظـــل أتريـــذ كـــوحشٍ كاســـرٍ   يَتَحـــــرَّى بشـــــديد العجـــــب ٧٧

لـم يكـن بـين بنـي الطُّـرواد والـ   ـــجيش مـــن شـــاهد إِثْـــرَ العَقِـــبِ

لـــــو رأوه أنبـــــاؤا إذ مقتـــــو   هـ كمَقْـــتِ المـــوت كـــلُّ الرتـــبِ ٧٨

فأغـــــاممنون نـــــادى صـــــارخًا   بهـــم يـــدعو لســـمع الخُطَـــب

«آل طـــــرواد ومـــــن والاهـــــم   دردنيـــــين ومـــــا مـــــنكم غبـــــي

لمنـــيلا النَّصْـــر أبصـــرتم فهيـــ   ـــــلانةً ردُّوا بـــــذخر الـــــذَّهبِ

واحبونـــا جزيـــةً تُنْمـــي لِمَـــن   بعـــدنا الفَـــوْز ونُجْـــحَ الطَّلَـــب»

ضَـــجَّت الإغْرِيـــق مُسْتَحســـنة   بحماهـــــا ضـــــجَّة المطلـــــبِ

هوامش

(١) الصديد: الصياح.

(٢) مر بنا في أواخر النشيد الثاني أن كتائب الفريقين تكتبت متأهبة للقتال، وافتتح الشاعر بزحف كل فئة منهما على الأخرى، ولم

يفته أن يصف كل فريق منهم بما أثر عنه من الأخلاق والعادات، ومَثَّل بالمقابلة حالة الجيشين، فوصف الإغريق بالصمت والسكون كما سيأتي ووصف هنا الطرواد بالصديد الشديد، فشف كلامه عن حقيقتين: أحداهما: إيثار قومه الإغريق على جماعة الطرواد، والثانية: إثبات الفرق بين أمة مبرّزة في زمنها على ما جاورها من الأمم، فاستتب نظام الجند عندها وتآلفت عناصرها، وإن كانت في الأصل مختلفة كأمة الإغريق، وأمة أخرى ملتفة من شذاذ العشائر لم تبلغ من الحضارة مبلغًا يذكر كالقبائل المتألبة لنجدة الطرواد، ويؤيد هذا القول ما رواه قدماء مؤرخي اليونان من ذم الجلبة في الحروب، وقولهم: إن ذلك إنما كان شأن البرابرة، على أن البعض يزعمون أن المراد بالصديد هنا ربما كان قرع الطبول أو نفخ الأبواق؛ لأن النقر على الآلات والعزف بها استنفارًا للمقاتلة أمر قديم في كل الملل، إلَّا أنه لو كان هذا الزعم صحيحًا لما أغفل هوميروس في شعره ذكر الآلات الموسيقية إبان القتال، وهو كما علمت حريص على التنويه بما جلَّ وما قلَّ.

ثم إن العزف والنفخ بآلات الطرب والاستنفار والضرب والنقر عليها، وإن كانت كلها أمور نشأت في أقدم العصور فقد لا نرى لها أثرًا في حروب بعض الأمم كالعرب، مع أنها كانت شائعة بين مجاوريهم ومخالطيهم كالفرس واليهود، وذلك لأن الشعر كان ولا يزال في بداوتهم أعظم مثير لعواطفهم يتغنَّون به في غزواتهم، فتجيش هممهم وينبعثون

إلى ساحة القتال ثملين بخمرة الحمية والإقدام، وإذا أضفت إلى ذلك أناشيد العذارى والأمهات رأيت أنه اجتمع للبدوي من بواعث الاندفاع ما لا يعد دوي الطبول ونغم الآلات بجانبه شيئًا. ولهذا لبثت قبائل العرب بعد الإسلام تتغنى بالشعر في حروبها، ولم تتخذ شيئًا من آلات الأعاجم في الحروب إلا بعد أن انقضت دولة الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية، فأخذ العباسيون فيما أخذوا عن العجم قرع الطبول والنفخ في الأبواق.

(٣) القر: البرد، ويذر: يترك.

(٤) شبه الطرواد بزحفهم على الأعداء بطير الرهو المنتشرة في الجو وفي ذلك إشارة إلى صياحهم من وجه وإلى انتظامهم من وجه آخر؛ لأن تلك الطير إذا ارتفعت في الجو علا عرارها وسارت سيرًا منتظمًا، وفي قوله للبغمة إشارة إلى اعتقادهم بوجود أمة من الأقزام بهذا الاسم لا يربو طول الواحد منها على ذراع كانوا يقولون بوجودها في بلاد إثراقة. قال لوپر يفوست يرجح في الظن أنها إنما كانت أمة الفيخينة الأثيوبية لتشابه الاسمين؛ ولأن الفيخينيين كانوا قصار القامات، وتقصد الغرانيق بلادهم لتشتو فيها فيجتمعون عصابات عديدة ينفرونها لتنجلي عن مواطنهم.

(٥) نوطس ريح الشمال كما تقدم. بعد أن ذكر في المخمس السابق انتشار الغبار من عج الزمر حتى بات كالضباب الذي يحجب النظر إلى ما وراء مرمى حجر، استطرد فشبه ذلك الغبار بالضباب الذي

تنشره ريح الشمال على رءوس الجبال، ثم تدافعت في مخيلته التصورات فوصف وهو يسوق الحديث سوقًا موجزًا معجزًا ما يكون لذلك الغبار من الهيبة في قلوب الرعاة؛ لأنه قد يحجب عنهم مرأى الضواري فتفاجئهم على غرةٍ منهم، وما يكون من الجذل في قلوب النصوص فيتذرعون بالتستر به إلى نيل بغيتهم على حد قول الشاعر. مصائب قوم عند قوم فوائدُ

كل هذا بتصرف بديع لا يخفى على المطالع اللبيب.

(٦) الطرد هنا الكر والقتال.

(٧) الجباذ الجذاب، والجذاذ القاطع، والبذاذ الكاسر.

(٨) إذا التزم هوميروس إيثار صفة عن رجل بأناشيده فإنما يلتزمها فيها كلها تمييزًا له عمن سواه، فترسخ في ذهن المطالع أيَّان تصوره، وما أحسن ما وصف به فاريس في هذا المكان، فأتى فيه بطباق لا يخرج في شيءٍ عن صفاته، ففاريس كما علمت هو الذي سبى هيلانة على رضى منها، ولا يحسن بمن كان سبَّاء للنساء خلَّابًا لعقولهن إلا أن يوصف بالجمال والتأنق وحسن البزَّة؛ ولهذا لم يغفل هوميروس عن إظهاره بهذا المظهر حتى في موقف الحرب.

(٩) الضراء جمع ضروة، الكلاب ضريت للصيد.

(١٠) العجلة الأولى بمعنى المركبة، والثانية بمعنى السرعة، إن بين جند الإغريق أبطالًا أشد ساعدًا وأقوى عزيمةً من منيلاوس، ولكن بروز منيلاوس لفاريس لم يكن منه بدٌّ؛ لأنه زوج هيلانة سبية فاريس وهو سداد في رؤية الشاعر عظيم بأن افتتح القتال بين المتسبب في شبوب نيران الحرب والمطالب بالثأر، ولا غرو أن ترى هنا منيلاوس متحدمًا غيظًا لرؤية عدوه الألد وثالب عرضه، ومنقضًّا عليه كالليث المتضور جوعًا، فيتحفز للفتك بفريسته غير عابئ بما يقف في وجهه من ظبي الحراب، وتألُّب الرعاة والكلاب.

(١١) قد يتبادر إلى الذهن أنه لم يكن يجدر بفارس كفاريس (الإسكندر) أن يبرز إلى ساحة القتال ويستهدف للأبطال، ثم ما يلبث أن ينهزم لرؤية فارس ليس في عداد مغاويرهم، على أنه يتضح للمتأمل أن الشاعر إنما أتى حكمة أشار إليها إشارة خفية، فإن فاريس لا يظهر في نشيد من أناشيد هوميروس بمظهر الجبان المهياب، بل حيثما برز فهو من خيرة الأبطال، ويؤيد ذلك عوده بعد هنيهة لبراز منيلاوس كما سترى، أما هزيمته الآن فقد فسرها الشاعر تفسيرًا رمزيًّا بقوله أنه فر فرار من يذعر لرؤية صل يفاجئه في الغاب، فبروز منيلاوس إليه ذكره بلا ريب بما أتى من المنكر بسبي هيلانة وكأنه كان له من نفسه زاجر قوي فربَّكه في أمره، وثناه عن قتال رجل أحسن إليه فتلقى إحسانه بالكفران.

(١٢) البضع العرس أو الزواج. يقول: «ليتك لم تولد قط أو مت قبل أن يعقد لك على هيلانة».

(١٣) الشُّعر أي: الطوال الشعر إشارة إلى عادة الإغريق في إطلاق شعورهم.

(١٤) يعير هنا هكطور أخاه فاريس ضربةُ على عود، وجمال شعره وصباحة محياه والمحاسن التي أودعتها فيه الزهرة إلاهة الجمال، ومن أحسن تعاليق عقيلة داسيه على شعر هوميروس قولها في هذا الموضع أنه يستحسن طول الشعر بين الإغريق، والإنشاد على نغم القيثارة بيد آخيل، ويجعل هكطور يستهجن كلا الأمرين في أخيه، قالت: والسبب في هذا أن الإغريق إنما كانوا يطلقون الشعر لإرهاب العدو، وفاريس لاستلفات أنظار الغيد الحسان، وآخيل كان ينشد على نغم قيثارته قصص الأبطال، وفاريس يتلو أغاني العشاق فما كان من ثم محمدة عند الإغريق كان مذمة في فاريس بنظر هكطور.

(١٥) قد اختلف الشراح في قوله: «لكسوك ثوبًا من صخر» فقال قوم: إنه يريد أن يقول لرجموك بالحجارة، واعتُرض على هذا القول بأنه لا دليل على أنهم كانوا يرجمون، وقال آخرون: بل أراد أن يقول لقتلوك أو لدفنوك؛ لأنهم كانوا يقيمون الحجارة على قبورهم، ومهما يكن من هذا الاختلاف فالمراد أنه تمنى له الموت تشفيًّا منه.

(١٦) هذا أول كلام نطق به هكطور في الإلياذة، وهو كلام يشف عن غيظ وأنفة لا بدع أن تكون في زعيم ذلك الجيش الباسل، وسنراه في ما يلي في أكثر المواقع، وأحرج المواقف جامعًا بين أخلاق الجندي الفتاك، والزعيم الحكيم، والابن البر والزوج الرفيق، والأب الشفيق حتى لقد ذهب البعض أن الأولى أن تسمى الإلياذة باسمه لا باسم إليون قاعدة بلاده، فهو وحده في جيش الطرواد يماثل بصفاته كل ما حسن في زعماء جيش الإغريق؛ لأن لأولئك ملوكًا كثيرين أخذ هوميروس على نفسه أن يميز كلًّا منهم ببعض صفات الرجال ليمثل للسامع أخلاق كبار النفوس على اختلافها، وأما الطرواد فكأن هكطور يجمع فيهم بين كل هذه الخلال ولا عيب فيه إلا أنه يحارب في فئة معتدية، وهو عيب يشفع فيه كونه سيق إلى الحرب مُكْرَهًا فاضطر إلى الذود عن وطنه وأهله.

(١٧) الوشار والأشار النشار، ووشَّار الفُلْك بمعنى بناء السفن؛ لأن العرب على سواحل بحر عمان وشط العرب يقولون حتى أيامنا: «وَشَرَ السفينة» بمعنى بناها وإن كان أصل الوشر بمعنى النشر ليس إلَّا.

(١٨) كل كلمة من كلام فاريس تشف عن حقيقة حال الفتى الجامع بين الرقة والتأدب الملازمين للعاشق، وهو مع ذلك غير خلو من الهمة والإقدام اللذين لا بد منهما؛ لاسترضاء ربات الجمال، فإن هكطور يتلقاه بالقول العنيف فيجيبه بالكلام اللطيف، ويرد اعتراضه بدعة الأخ

الأصغر، وحذق العشاق الذين يبلغون مرادهم بعبارات مؤثرة مقنعة، ففي قوله: إنه لا لوم عليه لما خولته الزهرة من المواهب واستطراده بقوله: «لا خيرة في ذلك الأمر» دفع عن نفسه أولًا مثلبة أخيه وحجُّه ثانيًا بأنها هبات علوية تجب لها الرعاية والاحترام، وهناك هبَّت به الحمية فطلب وساطة هكطور بتخلي الجيشين عن القتال، وبروزه فذًّا لقرنه منيلا كأنه تنبه إلى ما فرط منه فأراد أن يتلافى ويكفِّر فيفتدي بلاده بنفسه، ويرفع عنها أوزار الحرب، وهو كلام كله غرر ودرر.

(١٩) قابل الشاعر في هذه الأبيات بين هكطور وأغاممنون، فجعلهما بمنزلة واحدة كلًّا في قومه، فأثبت ما كان لهما من المكانة في قلوب الجميع، فإن هكطور استوقف جماعته بإشارة بمزراقه فوقفوا طوع أمره، واندفع إلى جيش الإغريق غير نابس بحرف طربًا بما لقي في أخيه من ثبوت الجأش، فما أضاع ثانية بالجواب، ولا ابتدر قومه بالخطاب، فقال بصمته أقولًا كثيرة. وأغاممنون أوعز بكلمات قلائل إلى صحبه الملتهبين غيظًا على هكطور وآل بيته، فصدهم عن الفتك به وهو قادم إليهم رسولًا لا مقاتلًا، ولم يكن من عادتهم انتهاك حرمة الرسل.

(٢٠) لقد تساءل بعض الشراح عما إذا كان يمكن التفاهم بين تلك الأمم المختلفة في هذا المقام، فليس في إنشاد هوميروس ذكر للمترجمين مع أنه بعيد النظر دقيق الفكرة في كل ما أنشد، فلم يكن من الممكن أن يغفل أمرًا كهذا، والجواب أنه لا يبعد أنهم كانوا يتفاهمون؛

لأن الطرواد على ما جاء في رواية ديونيسيوس كانوا إغريقي المنشأ، ومسقط رأس دردانوس ملكهم الأول في أرقادية، وعندهم كثير من الأسماء اليونانية كهكطور وإنخيسس، وأنذروماخ وأستياناس، ومهما يكن من صحة ذلك، فالشعر يفترض التفاهم بين كل الناس حتى بين الأرض والسماء، وليس بمستبعد أن يفهم زعماء القومين كلٌّ لسان الآخر؛ لأن كل فئة منهم كانت قبل الحرب كثيرة التردد على الفئة الأخرى، فإن فاريس نزل ضيفًا على منيلاوس وسلفاء ذيوميذ وغلوكوس كانوا على تواد وتحالف، وزد على ذلك أن بينهم قرابة ونسبًا وبيعًا وشراءً، وأنه مر تسع سنوات ونيف على إقامة الإغريق على حصار إليون كل هذا مما يعد كل فريق منهم للإلمام بلسان الفريق الآخر.

(٢١) يشف كلام منيلاوس عن مكامن صدره ويمثله تمثيلًا ناطقًا، فهو صاحب العرض المثلوب المستقتل لدرء العار والأخذ بالثأر، وهو البطل الدقيق الإحساس المتألبة جميع الجيوش لنجدته، فلم يكن أولى منه بأن يندفع ويقول:

مــن يذقــه القضــاءُ للحتــف منــا فليذقـــــهُ وأنـــــتم بأمـــــانِ

ولما وطَّنَ نفسه على أن يقتل في الذود عن قومه، والذود عن عرضه أو أن يقتل خصمه ويضع عن صحبه أوزار الحرب والاغتراب أراد أن يكون على ثقة وطمأنينة، فاستطرد إلى طلب إبرام عهدة محكمة تعقد بحضرة فريام الملك الشيخ؛ ارتياحًا منه إلى بر الشيوخ بعهادهم

واستخفافًا بميثاق من أبنائه؛ لأنه لم يكن يأمن جانبهم، وكيف يأمن ومنهم الغادر به المنتهك حرمته.

(٢٢) كانت عادة الطرواد أن يضحوا بكبش أبيض للشمس، وبشاة سوداء للأرض وينتقون الكبش أبيض رمزًا إلى النور والشمس عندهم إله ذكَر يكنى بأبي النور، وأما الأرض فهي أم البشر ومرضعتهم؛ ولهذا ينتقون لها شاة سوداء رمزًا إلى التراب، وقد جعل تتمة الضحية كبشًا ثالثًا من الإغريق لأحكام الوفاق، ورب المثاني أي: القوات كناية عن زفس، ومن جملة صفاته عندهم أنه رب العهاد والضيافة.

(٢٣) ما أكثر ما قال العرب جاهليُّهم ومولّدهم بهذا المعنى أي: إيثار الحكمة عن الشيوخ، والطيش عن الشبان، وإليك أمثلة من ذلك.

قال النابغة الذبياني:

على حين عاتبتُ المشيب على الصبا فقلت ألمَّا تصحُ والشيب وازعُ

وقال المسيب بن علس:

فرأيت أن الحلم مجتنب الصبى وصحوت بعد تشوق ورُواعِ

وقال سُويد بن أبي كاهل اليشكري:

كيف يرجون سقاطي بعدما لاح في الرأس بياض وصلَعْ

وقال أعرابي:

ألا قالت الخنساءُ يوم لقيتها كبرت ولم تجزع من الشيب مجزعًا

رأت ذا عصا يمشي عليها وشيبةً تقنع منها رأسه ما تقنعا

فقلـت لهـا لا تهزئـي بـي فقـلَّ مـا يسـود الفتـى حتـى يشـيب ويصـلعا
وللقـارح اليعبـوب خيـر علالـة مـن الجـزع المجـرى وأبعـد منزعـا

وقال طريح الثقفي:

والشـيب للحلمـاء مـن سـفه الصبا بـدل تكـون لـهُ الفضـيلة مقنـعُ
إن الشـباب لـه لـذاذة جـدَّةٍ والشـيب منـه فـي المغبـة أنفـعُ

وقال أبو الحسن العكَوَّك:

وأرى الليـالي مـا طـوت مـن قـوتي ردتـه فـي عظتـي وفـي إفهـامي

وقال العتبيّ:

قالـت عهـدتك مجنونًـا فقلـت لهـا إن الشـباب جنـون بـرؤه الكبـرُ

وقال الشريف الرضي:

وشـيب الفتـى صـبح يبـين عـواره ويرمـق فيـه بـالعيوب وينظـرُ
وإن ضـلالي فـي النهـار لهجنـة وإن ضـلالي فـي دجـى الليـل أعـذرُ

وقال أبو تمام:

فـلا يؤرقـك إيمـاض القتيـر بـه فـإن ذاك ابتسـام الـرأي والأدبِ

وقال ابن هانئ:

ولخيـر عـيش أنـت لابسـه عـيش جنـى ثمراتـه الكبَـرُ

وقال الجلال السيوطي:

أمـــا الشـــباب فظلمـــة للمهتـــدي ... وبـــه ضـــلال الجاهـــل المتمـــردِ

هذا قليل من كثير أثبتناه مثالًا لغزارة مادة الشعر العربي في الحكم والمواعظ، وحسب المطالع أن يتخذه شاهدًا يكفينا مئونة هذا التوسع في أمثاله من سائر المواضع.

(٢٤) بفيجين أي: برسولين.

(٢٥) إيريس رسولة الآلهة عامةً وزفس خاصةً، وهي برأي بوزانياس مشتقة من كلمة (Ερις) ومعناها الشقاق والفتنة؛ لأنها كانت تحمل رسائل الحرب كما كان هرمس (عطارد) يحمل رسائل السلم.

إن هوميروس هو الذي علم الكتبة والشعراء أن يتفننوا بكتاباتهم؛ ترويضًا للفكر فينتقلون بالمطالع من باب إلى آخر انتقالًا طبيعيًّا لا تمل معه كتاباتهم، وها هو الآن قد انتقل بنا إلى بحث من أسمى مباحث إلياذته ألا وهو بروز هيلانة المسبية، ولقد يتوهم راوي تاريخ تلك الحرب أنها إنما كانت امرأة متصفة ببذاءة النفس، والاستسلام للهوى الفاضح حتى يكاد يعجب لتلاحم أمتين بسببها، فدفعًا لتلك المظان وزيادةً لخطورة ذلك الموقف قد أبرزها الشاعر بمظاهر يغتفر عندها ذنبها ويعظم قدرها بما فطرت عليه من فرط الجمال وطيب الخلال، فمثَّل بها المرأة الجامعة بين كل ما يدركه التصور من جمال الخلق والخُلق، وهي مع ذلك لا يؤمن عليها من هفوة فضَّاحة تلقي بها وبذويها إلى وهدة

المهالك القتَّالة، ولا شك أن الشاعر وقف هنا في أحرج المواقف حتى يتسنى له أن يحبب إلى سامعه فتاة يقضي العقل بنبذها وتحقيرها؛ ولهذا بالغ في وصف حسنها الفتان وأطراها بكلام موجز نافذ كالسهم فقال:

لــيس بــدعًا إن كــان هــذا ســناها   وعليهـــــا تلاحمـــــت أمتـــــانِ

وأنطق بهذا الكلام كل شيخ هرم قوَّض الدهر ظهره، فما بالك بالفتى الغض الشباب، وأودع فيها من الحذق ما جعلها ترسم وقائع الحرب بإبرتها على نسيج رقيق، وجعلها مثالًا لرقة العواطف متوجعة لما فرط منها تتمنى الموت كفَّارة وتجتنب الرجال عفة وطهارة، فتخرج متبرقعة وجِلة كما قال الشنفرى:

لقــد أعجبتنــي لا ســقوطًا قناعهــا   إذا مــا مشــت ولا بــذات تلفَّــتِ

وهي تحن إلى الأهل والأوطان، وتذرف عبرات الشجى ودمع الحنان، وكأن الشاعر لم يكتف بكل ما سلف تخفيفًا من هفوتها، فصوَّر لمطالعه أنها إنما أتت ما أتت من المنكر مكرهة بالقضاء والقدر لا مختارة تتولى أمر نفسها، وسترى في ما يلي عند ذكرها ما يكاد ينسيك أنها الجانية في ذلك الشر المتسببة في تفاقم الأمر.

(٢٦) قالت عقيلة داسيه بأحسن ما تصور هوميروس بجعله هيلانة ترسم تاريخ الحرب على ذلك النسيج حتى لقد يخالج الفكر أن هوميروس ملك بالأرث ذلك النسيج البديع، فأنشأ إلياذته على صورته ومثاله.

(٢٧) الحصد: المُحكمة.

(٢٨) أبواب إسكيا هي أبواب مدينة إليون عاصمة الطرواد.

(٢٩) لم يبق للشيوخ بعد أن تمادت بهم الدهشة لجمالها إلا أن شبهوها بالإلاهات الخالدات، ولو اعتقد أبو الطيب المتنبي اعتقادهم لقال قولهم ولم يقل:

بــدت قمــرًا وماســت خــوط بــانٍ وفاحـــت عنبـــرًا ورنـــت غـــزالا

وما أحسن قول الآخر بمعنى هوميروس:

تقـــول إذا بـــدا ملـــكٌ كـــريم كســـاهُ الله هيكـــل آدمـــيِّ

وأقرب من ذلك إلى معنى هوميروس قول عنترة:

ســجدت تعظــم ربهــا فتمايلــت لجلالهـــا أربابنـــا العظمـــاء

وكأنهم انتبهوا إلى تماديهم في الشغف بالجمال، وقد أحنى الدهر ضلوعهم وفطنوا للمخاطر المحدقة بهم من كل صوب، فأفاقوا من تلك الدهشة وهي لا تكون في الشيوخ إلا هنيهةً، فقالوا خير لنا أن نتخلى عنها ونكفي نحن وأبناؤنا شرها.

(٣٠) بعد أن غادر الشاعر فتيان الجند وكهولهم في المعسكرين لم يغفل عن ذكر الشيوخ الذين قضت عليهم الأيام بالعجز، فوضعهم كما تقدم في مشارف البرج يتطلعون بأبصارهم، وبصائرهم إلى ما عسى أن ينجلي من وراء تلك الأزمة، وقال: إنهم كانوا يرتئون الآراء، وشبههم

بالصراصر التي تصرّ مختفية في الغاب، وهو تشبيه عابه عليه فريق من الشراح وأعجب به الفريق الآخر، على أنه يلوح للمتأمل في حالة الشيخ واحتجابه عن موقف النزال وارتياحه إلى هرم نظيره يجاذبه أطراف الحديث أنه تشبيه في محله فهو كالصرصر المتواري عن العيان يروقه صوته، ويشعر بضعفه فلا يبرح مكانه اتقاء المخاطر، ثم تدرج الشاعر إلى النطق بلسان فريام الملك، فجعله يفوه بكلام تنجلي به حقيقة حاله، فهيلانة كنته فخاطبها باللين والتؤدة، وهوَّن عليها مصابها بإحالة جريرتها على القدر المحتوم وتوجع لمصابه، فلما آنس فيها الطمأنينة أخذ يسألها عن سراة القوم ترويحًا لنفسه وتأسيًا بما يطرق فكره من سابق الذكرى، وهذه حقيقة حال الشيخ الشفيق، والحم الوديع والمصاب بغصص العيش المتحمل مصابه بالورع والاستسلام، والذي لا يزال على كبر سنه يتشوف إلى استطلاع خفايا الأمور.

(٣١) بإثرتي باختياري.

(٣٢) إن في قيام فريام في أعالي البرج يتطلع إلى الجنود المنتشرة في ذلك السهل لمشهدًا من أجمل المشاهد حسب اللبيب أن يتصوره؛ ولذلك نسج على منواله كثيرون من الشعراء ورسمه الرسامون، وتفننوا فيه وأبدعوا اقتداءً بأبي الشعراء، ولا يخفى ما في استهلال هيلانة من الرقة، وما في توجعها من بواعث الرفق بها والتغاضي عن سابق خطأها.

(٣٣) كان الإسكندر المقدوني المعروف بذي القرنين يردد هذا البيت تباعًا، ويعتبره أبلغ بيت في منظومات هوميروس كلها ويتخذه منهجًا وشعارًا، قال أبو تمام:

ملكٌ له في كل يوم كريهة   إقدام غرٍ واعتزام مُجرَّبِ

(٣٤) أطرا أو أطراوس ملك الفريجبيين، وأخو مغدون وإيقاب امرأة فريام.

(٣٥) سنغاريس نهر في فريجبيا والجدة الشاطئ.

(٣٦) الأمازونة قوم من مقاتلة النساء اختلف المؤرخون اختلافًا كثيرًا في شأنهن زعموا أنهنَّ اكتسحن بلادًا كثيرة وبلغن بفتوحاتهنَّ بلاد أشور وبنين عدة مدائن، وفي جملتها أفسس وأزمير، وكانت لهنَّ ملكات تدبر شئونهنَّ وتقودهن في الغزوات ومنهنَّ ثالستريس التي قابلت الإسكندر، قيل كنَّ يخالطن الرجال حتى إذا علقن منهم تركنهم، فإذ ولدن استبقين البنات دون البنين، وكنَّ يحرقن ثديهن الأيمن لئلا يعوقهن في رماية النبال؛ ولهذا سمين بالأمازون (Αμαζων)

ومعناها «بلا ثدي».

(٣٧) الدُّهقان والدِّهقان الرئيس معرب دِهْكَان بالفارسية، ومعناها زعيم الفَّلاحين أو شيخ القرية.

(٣٨) الصيداء الأرض الغليظة، وهي كلمة فينيقية وبها لقبت مدينة صيدا في سورية.

(٣٩) قال الكميت:

لا ينقض الأمر إلا ريث يبرمه ولا تعرَّب إلا حوله العربُ

وقال آخر:

يصير بأعقاب الأمور كأنما تخاطبه في كل أمر عواقبه

وأمثال ذلك كثيرة في شعر الجاهلية والإسلام.

(٤٠) قوله: «وأما لِرَعي السّن» يعني: مراعاةً لأوذيس الذي هو أسن منه.

(٤١) قال أعرابي في الرشيد:

جهير الرواء جهير الكلام جهير العطاس جهير النغم

ويخطو على الأمر خطو الظليم ويعلو الرجال بخلق عمم



(٤٢) أشرنا في ما تقدم «ن١» إلى جري شعراء العرب مجرى هوميروس في تشبيه الكلام السهل المنسجم بالشَّهْد وأمثاله، وأما فصاحة النطق وبلاغة التعبير فكثيرًا ما يشبهونها بالدر والياقوت وأشباههما كقول الصاحب بن عباد:

فلـــو أن ألفاظـــه جُسَّـــمت   لكانــت عقــود نحــور الغــواني

وقول عبد الله بن حامد الحامدي:

إنـــي أرى ألفاظـــك الغـــرا   عطلـــت الكـــافور والـــدرَّا

وأحسن من هذين قول أبي إسحاق الصابي للوزير المهلبي:

لك في المجالس منطق يشفي الجوى ويسوغ في أذن الأديب سلافهُ
فكأن لفظك لؤلؤ متنخلٌ وكأنما آذاننا أصدافهُ

وأما تشبيه الكلام بالبرَد المنهمر كما جاء في قول هوميروس، فقلما نرى له مثيلًا في الشعر العربي، ولعل أقرب مثال له قول يزيد بن سياه الأصبهاني وقد أجاد:

إذا ارتجل الخطاب بدا خليج بفيه يمدهُ بحر الكلامِ
كلام بل مدام بل نظامٌ من الياقوت بل حببُ الغمامِ

وهذه الرقة وهذا التفنن في التعبير من مميزات شعر المولدين.

(٤٣) لا شيء أجمل من هذه المقابلة بين أوذيس ومنيلاوس وقد تصرف الشاعر تصرفًا لطيفًا بإصدارها عن أنطينور لا عن هيلانة مع أنها هي القائمة بإرشاد فريام حميها إلى معرفة الزعماء وأوصافهم، على أن الشاعر كفاها هنا مئونة الخجل الذي كان يأخذها لو اضطرها فريام إلى الإشارة إلى بعلها، أما أنطينور فلم يكن في إشارته إلى منيلاوس محذور، فوصفه وصف خبير كما تقدم وأطرأ فصاحتهما على اختلاف المنهجين، فإذا قرأت هذا الوصف علمت من إيجاز منيلاوس وجريه على تبيين أدلته بلا إضمار ولا إكثار أنه الملك الرفيع النسب العلي الشأن القليل الالتجاء إلى الحيلة والدهاء، ورأيت من توقد ذهن أوذيس، والتهاب عينيه، ونفوذ بلاغته، وتفوقه بأساليب الحديث ما ينبئك بدهائه، ويدلك على حسن سياسته وقوة عارضته، وزاد الشاعر على وصفهما متكلمين

وصفهما صامتين ففضل منيلاوس قائمًا لاتساع منكبيه، وأوذيس جالسًا لهيبته في القلوب، ومدحه قائمًا أيضًا وإن كان في قامته قِصر؛ لأن نفثات بلاغته تسد مسد ضخم الهامة وطول القامة.

(٤٤) الرواض أي: رواض الخيل.

(٤٥) كستور وفولكس المذكوران هما أخوا هيلانة لأمها؛ لأن أباها كان زفس وأما أبوهما، فكان تنداروس وأم الجميع ليذا، وكانا قد هلكا ولم تعلم هيلانة بذلك، وفي ذكر هيلانة لأخويها مرميان أولهما: التنويه بحنوها ورقة عاطفتها، والثاني: استلفات النظر مرة أخرى إلى ما كانت عليه من الخجل والوجل، وضيق الصدر، وهنا انتقل بنا الشاعر إلى مشهد جديد، وهو قدوم الرسولين إلى فريام بقرار الجيشين.

(٤٦) القيام للقادم تعظيمًا وإجلالًا عادةً مرعية منذ القدم، وأما قول الأعشى:

ولمـــا أتانـــا بعيـــد الكـــرى سجدنا لـــه ورفعنـــا العمـــارا

فقد يمكن أن يكون المراد من السجود فيه الانحناء سواء كان المنحني قائمًا أو قاعدًا جريًا على عادة الفرس أو الركوع، وهو من الغرابة بمكان أو القيام؛ لأن السجود ورد في اللغة أيضًا بمعنى الانتصاب، وفي هذا البيت موضع أشكال آخر بقوله: «رفعنا العمارا» فرفع العمار بلا ريب من علائم التجلَّة والإكرام، فبقي النظر في معنى العمار، وله في اللغة معانٍ أشهرها الريحان الذي تزيَّن به مجالس الشراب، وكان الفرس

إذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئًا منه وحيوه به، وإذا كان العمار هنا جمع عمارة بمعنى العمامة كان المراد أنهم كانوا يكشفون رءوسهم، فيكون العرب قد سبقوا الإفرنج إلى رفع القبعة للتحية، وعندنا الأولى أن يراد بالعمار الريحان، ومنه قول النابغة الذبياني:

رقـــاق النعـــال طيـــبٌ حجـــزاتهم   يحيـــون بالريحـــان يـــوم السباســـبِ

(٤٧) نضى بمعنى انتضى، والمشمل السيف القصير والقرضاب السيف مطلقًا.

(٤٨) شرح لنا لشاعر في ما تقدم طريقة تعاقدهم وتعاهدهم، واتخذ منها وسيلة أخرى لبث روح الورع، ووجوب استمداد الغوث الإلهي فهم يضحون ويدعون وكل فئة واثقة بما عندها من صدق الأيمان، تلك كانت سنتهم في ذلك الزمان وشعائر الدين في أبَّانها، وقد كانت للعرب طرائق في تحالفهم تقرب من هذه صورةً وشكلًا، ولكنها تخالفها معنى وحقيقةً إذ كانت عرى الدين عندهم منحلة، ولم تشتد إلا بالإسلام بعد انقضاء زمن الجاهلية، وأما قبل ذلك فكانوا إذا دعوا أو ضحوا مروا على الأمرين مرور المضطر بحكم العادة المقتبسة، وإنا موردون أمثلة ثلاثة من حلف المطيبين ولعقة الدم ملخصة من التواريخ العربية، قالوا: اجتمع بنو عبد مناف، فأخرجت لهم أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب جفنة مملوءة طيبًا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند باب الكعبة، وقالوا من تطيَّب بهذا فهو منا، ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا هم

وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على نفوسهم، وتطيب مع بني عبد مناف بنو زهرة، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر، فالمطيبون خمس قبائل من قريش، وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم، وهم بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي على أن لا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضًا، وأخرجوا جفنة مملوءة دمًا من دم جزور نحروها، ثم قالوا: من أدخل يده في دمها فلعق منه، فهو منا فجعلوا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها فسمُّوا لعقة الدم (ويقال لهم الأحلاف أيضًا) ولما تعاقد الفريقان على ما ذكر، وكادا يقتتلان إذ تداعيا للصلح على أن تكون حجابة الكعبة واللواء والندوة لبني عبد الدار، والسقاية والرفادة لبني عبد مناف، ودخلوا دار الندوة، وتعاقدوا وكتبوا بينهم كتابًا: باسمك اللهم هذا ما تحالف عليه بنو هاشم، ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على النصرة والمواساة ما بلَّ بحر صوفة، وما أشرقت الشمس على كبير وهب بفلاة بعير وما قام الأخشبان واعتمر بمكة إنسان.

(٤٩) أتى هوميروس في الأبيات السالفة على بيان التضحية للتواثق بين قومين، وأكثر ما كتب عن القدماء بهذا المعنى إنما هو مأخوذ من هذا الموضوع، وقد تشبه الرومان باليونان فلم يختلفوا عنهم اختلافًا يذكر، أما العرب فهم وإن كانت احتفالات تواثقهم تقارب هذا النسق من وجه، فلا يسعنا أن نحكم أنهم أخذوا منها شيئًا عن اليونان بل

كل مآخذهم كانت عن العبرانيين وعن الكلدان الذين اقتدى بهم اليونان في كثير من عباداتهم ثم عن الفرس، ولكن خصوصًا عن اليهود. راجع ما تقدم لنا بهذا المعنى (ن١).

(٥٠) لما قضى فريام مهمته قفل مسرعًا؛ إشفاقًا من مشاهدة قتال قد ينتهي بمصرع ابنه.

(٥١) التريكة: الخوذة، والقدحين أي: السهمين لكل من فاريس ومنيلاوس سهم وضعًا في الخوذة؛ ليستقسم بهما فيُعلم من الطاعن الأول.

(٥٢) يظهر من دعاء الجنود كافة أن نفوسهم سئمت الحرب بعد التحامها بينهم أكثر من تسعة أعوام، فتمنوا هلاك أي من الخصمين تسبب في ذلك البلاء الفادح، وهنا إشارة أخرى إلى ما كان الجميع عليه من صحة الاعتقاد بنفوذ الحكم الإلهي بالقسط والعدل.

(٥٣) كان الاستقسام عند العرب على نحو هذا النمط، وسيأتي بيانه في النشيد السابع.

(٥٤) النترات: الدروع، وليقاوون أخو هكطور لأبيه كان آخيل قد أسره، وباعه في لمنوس فافتدى نفسه ورجع إلى طروادة، ووقع ثانية في قبضة آخيل فقتله كما سيأتي في النشيد الحادي والعشرين.

(٥٥) القتير مسامير الدروع والتروس، وسائر أنواع السلاح.

(٥٦) الجنة: الترس، والمغفر الخوذة، ونواصي المغفر عبارة عن عذبات القونس التي كان يجعلها العرب على خوذهم تشبيهًا بالفرس.

(٥٧) العاسل: الرمح.

(٥٨) استلأما لبسا اللأمة أي: الدرع، لحماته أقاربه أو جماعته.

(٥٩) قلاته أي: مبغضيه. يعني: أن أجناد الجيشين وقفوا عند الحد الذي خط لهم لا يتعرضون للمبارزين.

(٦٠) قراته أي: مضيفيه، قال بعض الشراح: إن هوميروس لم ينطق فاريس بالدعاء إلى زفس بل أنطق منيلاوس؛ لأنه البريء المهان يلتمس إنفاذ العدل ويشكو ظلامته، وأما فاريس فليس له ظلامة يشكوها فلبث صامتًا.

(٦١) الفضفاضة: الدرع.

(٦٢) لو قرأت هذا البيت في اليونانية للاح لك في مماثلة ألفاظه ما يكاد يسمعك صوت تكسر السيف، وهذه المماثلة كثيرة في شعر هوميروس واللغة اليونانية تسهلها على الشاعر البليغ، ولقد تقفينا آثاره في بعض المواضع. ولما لم تكن هذه المماثلة مما يقيد بالترجمات لاختلاف مميزات التعبير بين اللغات، فنظننا أصبنا الغرض أحيانًا،

وأخطأناه أو قاربناه أخرى وأتينا اعتباطًا بمماثلة حكاية الأصوات في مواضع لم يقصدها الشاعر والحكم في كذلك ذلك للمطالع اللبيب.

(٦٣) من تصور حالة منيلاوس واليأس والحنق اللذين أخذا به عند ما كاد يفتك بعدوه ومحرق مهجته، فخانه السيف والرمح لا يعجب لتماديه بالكفر واستطالته على زفس نفسه بالكلام، وخصوصًا أن لوم الآلهة عند اليونان لم يكن بالكفر الفاحش.

(٦٤) قبريس هي الزهرة أي: إنها قطعت السير الممسك بالخوذة تحت الذقن.

(٦٥) عفروذيت هي الزهرة أيضًا.

(٦٦) كثيرًا ما نرى هوميروس يشير إلى الحقائق إشارة رمزية زيادةً لرونق كلامه، ومراعاةً للتصور الشعري وفقًا لمعتقدات زمانه، فيحل الآلهة محل البشر في كل عمل خطير لتزول الغرابة، ويقرب تقدير الإمكان، فلهذا لا يبقى محل للاستغراب إذا عاد منيلاوس بالخيبة بعد أن كاد يقتل فاريس ثلاثًا أي: بسيفه ورمحه وذراعه، ولم يوسط الشاعر الآلهة إلا عند بلوغ الأزمة حدها إذ لم يكن يحلو للسامع بعد أن قيل له أن السيف تكسر من تلقاء نفسه أن يقال له أن قدة الخوذة انقطعت من تلقاء نفسها، فجعل القاطع الزهرة، ولا أجدر منها بملازمة فاريس الذي وقف حياته على الحب والغرام، وقول الشاعر بعد ذلك: «أنها حجبتهُ في ركم الضباب» إشارة إلى الغبار المتصاعد من اصطدام الجيشين على أثر نكبة

فاريس، فكأن الشاعر قال ضمنًا أن الطرواد لم يبرُّوا بعهدتهم، فلما رأوا ما رأوا من الخطر المحدق بابن ملكهم هجموا فأنقذوه وحالوا بينه وبين منيلاوس، وهنا نرى الشاعر يذهب بنا من موقع الحرب إلى منزل الحب، ويرينا بإبداع تصوير تنازع العقل والقلب.

(٦٧) حاكت الأولى بمعنى شابهت، والثانية من الحياكة.

(٦٨) قلنا: إن الزهرة أي: الحب كانت ملازمة لفاريس، فكان من اللازم أيضًا أن تكون ملازمة لهيلانة، ومن غريب تفنن الشاعر أنه يظهرها كل حين بالمظهر الطبيعي الذي لا يمكن أن يحل غيره محله، والذي يرينا من وجه آخر أن الفطرة مهما اعتراها من الرونق والبهرجة، فالأساس واحد لا يتغير؛ ولهذا لما كانت الزهرة على وشك جمع الشمل بين فاريس وهيلانة أبرزها بهيئة عجوز من خصائص هيلانة والعجائز أدهى الخلق بالتوسط بين العشاق، وأنطقها وهي تدعوها إلى غرفته بكلام لو نطقت به فتاة غضة الشباب لألفيناه خلوًا من كل رواء، ولقد يتصور المطالع أن هيلانة لم يكن يروقها أن ترى فاريس عائدًا منكوبًا من حومة الوغى، فكلمتها العجوز أو الزهرة بما يختم على نيرتها ويهيج عاطفتها فصورته لها بهيئة الفتى المتأهب للرقص في محفل حافل أو الذي يعود من المراقص الزاهية، وهو بكلتا الحالتين بأبهى ما يتجلى به لنواظر الحسان.

(٦٩) مهما اشتد الوجد بالمرء، وضرب الغرام على بصيرته فلا بد له من آونة يعود فيها إليه صوابه، ويتطلب الخروج عن منهج الضلال، وهذه هي حالة هيلانة في موقفها هذا، فإنها لم تفتر بقول ربة الجمال لتنبهها حينًا إلى ما أتته من الخطأ الفاحش، فاشمأزت من ذكرى ما اجترحت وعنفت الإلاهة بالكلام الثقيل كأنها تلوم النفس على تماديها بالهوى الفضاح.

(٧٠) إن فوز منيلا فتح عيني هيلانة وزادها ندمًا على ندم، وإن النساء تعشق الفعال كما تعشق الجمال، وقد سبق لها أن عشقت الفارسين، فكان من البديهي أن تؤثر أطولهما باعًا وأشدهما ذراعًا، نقول هذا وإن كانت عقيلة داسيه قالت: إن هيلانة تذكرت منيلاوس؛ لأنه عشيقها الأول ومهما انتاب قلب النساء من الحب، وخمدت جذوة الهيام بالحبيب الأول فلا بد من اضطرامها حينًا بعد حين، فنرى من ثم أن هوميروس كان عالمًا بما عند النساء من الوجد المقيم للحبيب القديم، ومهما يكن من القولين فقلب النساء حليف الفائز الظافر، وقد كان ظفر منيلاوس ما بكتها على هجرانه وحرقها ندمًا على سلوانه.

(٧١) إن في إقامة منيلاوس على حبه لهيلانة بعد رغبتها عنه لمهيجًا آخر لوجدها، ومنبهًا ومبكتًا يحملها على الندم والتشوق إلى الرجوع إليه، ولكنها علمت ما دون ذلك من الأهوال، فندبت حظها

وانكفأت باللوم على الزهرة تشفيًا منها شأن العاجز الطامع في مطلب لا يناله فيتأفف، ويلقي تبعة عجزه على من سواه.

(٧٢) أي: إنه لا يصعب علي أن أجعل الخطب يتفاقم بين الطرواد والإغريق فيعبثون بعهدتهم وتزيدين نكالًا على نكال، إذا برَّح بالعاشق هيام ورأى من نفسه زاجرًا عنه، ثم قوي القلب على العقل انتحل له من نفسه أسبابًا تجيز له الانقياد لهواه، فكأن هيلانة بعد أن تنبهت هنيهة لسوء فعلتها انتحل لها الغرام أسبابًا تثبتها على محبة فاريس، فإنها أبصرت بذكائها أنه لم يكن لها من سبيل إلى منيلاوس، وأنه لا بد من أن يطول زمن الحرب وينكث الطرواد عهدهم، ويهيجوا الإغريق غيظًا لتملص فاريس من بين أيديهم فالرضا والحالة هذه بالحبيب القريب أولى، وتهدد الزهرة لهيلانة عبارة عن إشفاقها من أن يفدح الأمر وتطول مدة الكر والفر، وكلما انقضت السنون وقد مضى منها تسع لحصار طروادة أذبلت الزُّهرة زهرة جمالها، فيأتيها زمن سنطفئ فيها نار حبها في قلبي فاريس ومنيلاوس، وذبول وردة الحسن أعظم مصيبة تتوقعها الرشيقة القد، النضرة الخد.

(٧٣) قلنا: إنه تم التنازع بين قلب هيلانة وعقلها، وتمت غلبة القلب على العقل، فأتت غرفة فاريس ولم يزل في نفسها بقية من الحنان إلى حبيبها الأول، فبادرته بالكلام العنيف وهو كلام لم يكن لها بد منه حتى لو أمحت ذكرى منيلاوس من فؤادها؛ لأن من دهاء النساء أن

تتوقع زلة من الرجال؛ ليعنفنهم عليها استزادةً من سلطانهن وكسرًا لشوكة الرجل وتعززه بقوته، فهذا الكلام وإن كان في حد نفسه أغلظ تعنيف فهو ينتهي كجاري العادة بالدل اللطيف.

(٧٤) ترى هنا أنها بعد أن تمنت له الموت بلسانها لم يكن قلبها ليطاوعها فما عتَّمت أن قطعت عبارة الشماتة، فوصلتها بخطاب الإشفاق إما لأنها رأت أنها أفرطت في اللوم، وإما لأنه عيل صبرها على كتمان حبها أو لكلا الأمرين.

(٧٥) لم يكن في الإمكان أن يتصور شاعر جوابًا لفاريس أوقع من هذا الجواب، فبدأ بالاعتذار، وألقى على أثينا تبعة الإنكسار، وجعلها تأمل النصر القريب ولم يكتف بكل ذلك، فإذهابًا لبقية ما في صدرها من غائلة الاستضعاف وفتور الحب أتاها من باب المداعبة والمغازلة اللتين تخفيان عن العيون العيوب، فتذرع بأقوى حيل الرجال ووقع على منفذ الضعف فيها ففاز ببغيته.

(٧٦) أظهر لنا الشاعر في هذا النشيد عاشقين كلاهما على خطأ، ولقد أكثر الشراح من تفنيد أخلاقهما فمن مقبح أعمال فاريس، ومن مستهجن لتصرف هيلانة، ولقد رأيت فيما تقدم المنهج العجيب الذي نهجه الشاعر تخفيفًا لما يؤخذ عليهما، وكأني به قد كان أرفق الشعراء والكتاب وسائر الرجال من قبل ومن بعد بحالة النساء، وأعرفهم بما يجب أن يكون لهن من المنزلة في المجتمع البشري، ومهما أحجم

قارئ شعره عن الاعتراف بما يجب أن يكون للنساء من المنزلة لا بد له من أن يعترف من هذه المقابلة أن هوميروس كان يرمي ببصره إلى إعلاء شأنهن، ويعتقد مع التنويه بمعايبهن بأن فيهن المنزع الأعظم للتحلي بجمال الوصف كما تحلين باللطف والظرف، فهيلانة على كل علتها وسابق هفوتها تظهر بعواطف أرق ونيرة أدق من حبيبها فاريس على غضاضته وبسالته، ولا بد لي قبل الانتقال من هذا الموضع أن آتي على ذكر أمر، وإن ساءني ذكره، وهو المقابلة بوجيز العبارة بين آداب الشاعر اليوناني والشاعر العربي في الجاهلية وبعد الجاهلية، فلست أذكر أن هوميروس جمع بين محبوبين في إلياذته مع كثرة كلامه عن العشق والعشاق إلَّا في موضع آخر غير هذا الموضع، وقد أتى على ذلك بكلام تقرأه، ولا تخجل من قراءته الفتاة في خدرها، أما شعراء العرب فحيثما عنَّ لهم ذكر الحبيب والمحبوب، وإن ظلوا بعيدين عن ذكر الوصال أفحش أكثرهم في الكلام، وإذا وصفوا الوصل ذكروه بكلام بذيء يخجل الرجل من تلاوته فضلًا عن المخدرات، وحسبنا مثالًا على ذلك مراجعة معلقة امرئ القيس شيخ شعراء العرب وقوله:

وقالت وقد مال الغبيط بنا معًا ... ...

وفي كتاب ألف ليلة وليلة من أمثلة ذلك ما لا يحصى.

(٧٧) لما أفرغ الشاعر كنانته بمشهد فاريس وهيلانة رجع بنا إلى ساحة الحرب، فأرانا أتريذ أخا منيلاوس كالوحش الكاسر الذي تؤخذ

فريسته من بين يديه فيتحدم غيظًا منقضًّا في طلبها، ولا بدع أن يندفع أغاممنون ذلك الاندفاع لذهاب الفريسة والغنيمة من يده.

(٧٨) لا عجب أن نرى فاريس ممقوتًا في هذا المكان كما تمقت الموت جميع أصناف البشر؛ لأنه كان المتسبب في هلاك الأمتين، وزد على ذلك أن الجيشين أملا حينًا من الزمن أن تنتهي الحرب ببروزه لبراز منيلاوس، فإذا به قد احتجب فخاب أملهم؛ ولهذا قال الشاعر إنهم لو رأوه لأنبئوا بمقامه ليؤخذ بجريرته فيقتل، وتضع الحرب أوزارها.

النشيد الرابع

نقض العهدة والوقعة الأولى

مُجْمَلهُ

جلس الآلهة للنظر في أمر الحرب، فاستحسن زفس إلقاء الصلح، فعارضته هيرا تأبى إلا التنكيل بالطرواديين وتدمير عاصمتهم، فوافقها زفس على شرط أن يهدم فيها بعد ما شاء من المدائن المستظلة بظلها، وأنفذ أثينا إلى جيش الطرواد تستفزهم إلى العبث بالعهدة، فتزيت بزي أحد أبناء إنطنيور ودفعت فنداروس على إطلاق سهمٍ، فاندفع وأطلق سهمًا على منيلاوس فجرح جرحًا ظنه أغاممنون قاضيًا، ولكنه ما لبث أن شفي بعناية النطاسي مخاوون، وما وقف جيش الطرواد عند تلك الخيانة بل انقضوا هاجمين على الإغريق، فتربص الإغريق وهاجت أغاممنون الحمية، فخاض الصفوف يستحث همم الزعماء ويؤنب المتثبطين منهم، والتحم القتال فاستظهر جيش الإغريق وكاد يقضي على الطرواديين لو لم يبادر أفلُّون ويستنهض الهمم، وقاتل الفريقان قتال المستبسل اليئس حتى «كسا أديم الأرض تيار الدماء».

مجرى وقائع هذا النشيد في السهل أمام طروادة، وكلها جرت في اليوم الثالث والعشرين، وهو اليوم الذي جرت فيه وقائع النشيدين السابقين، والنشيدين التاليين أيضًا حتى أواخر النشيد السابع.

النشيد الرابع

قد أقام الأرباب من حول زَفسٍ ... مجلسًا في ذاك البلاط المُذَهَّب

بكُئُوس النُّضار دارت عليهم ... هيبيا والسّلاف بالدُّور يُسْكب[1]

فبإليون أحدقوا من علاهم ... وبمرٍّ الكلام زفس تَعَتَّب

قال مُذْ رام أن يُحدِّم هيرا ... «ذا منيلا بربَّتين تحجَّب

تلك هيرا الأرْغيَّة احْتَضَنَتهُ ... وأثينا لفوزه تتعصَّب[2]

وبمرآه سُرَّتا من بعيدٍ ... إنما عفرذيت فاريس تصحب

تدرأ الموت عنه بالبشر والآ ... ن وقتهُ الرَّدى وقد كاد يَنْشَب

إنما النَّصر لابن أتْرا يقينًا ... فهلموا نقضي بما يترتَّب

أنُسيل الدِّماء والحرب نوري ... أم نرى حقنها على الصلح أقرب

فإذا السِّلم رُمْتُم ظل فريا ... م بإليون في ذويه مُهيَّبْ

وبهيلانةٍ يسيرُ منيلا ... فيسود السَّلام والدَّمُ يُحْجَب»

تَسَعَّرتا وقد دَنَتا مقاما ... فهمهمتا وقد بغتا انتقاما

فآثينا اشمأزت من أبيها ... وكاد يبزُّها الحنق اهتضاما[3]

على حَسَرَاتها كَظَمَت وهيرا ... أبت صبرًا وأغْلَظَت الكلاما[4]

تقول ولم تُطِق إخماد نارٍ ... تؤجج جوفها الغالي اضطراما

«بغيت علي يا ابن قرون هلَّا ... بغيت تبيد آمالي انصراما

وتحبط بُغْيَتِي وتُخِيب جهدي ... وخيلي أوهنت جسدًا وهاما

علــى فريــام قــد سُــقْتَ السَّــرايا تجـــرع آلـــه المـــوت الزُّؤامـــا
فـــنجهم ومـــا الأربـــاب طُـــرًّا براضـــيةٍ (وإن صـــمتوا احترامـــا)
فقــال وقــد غــلا حَنَقًــا: «ومــاذا يســـومك يـــا ظلـــومهم احتـــداما
عليــك فمــا جنــوا حَتَّــى ترومــي دمـــــاءهم اعتســـــافًا واعتزامـــــا
ألا لـــو حصـــنهم أعليـــت يومًـــا وهضـــت اللّحـــم تَفْـــرِينَ العظامـــا
ولـــم تُبْقـــي لملّـــتهم رُسُـــومًا لبلـــغ حقـــدك الحـــد التَّمامـــا
إليــك زِمــامهم مــا شِــئت فاقضــي لـــئلا يـــورث المنـــع اختصـــاما
ولكـــن عِـــي مقـــالي واســـمعيه إذا مـــا رمـــت أنفـــذت المرامـــا
وإن مـــا شـــئت إيقاعًـــا بقـــومٍ وددت فـــلا تَسُـــومِيني احْتِكامـــا٥
وهبتــك مــا ســألت بطيــب نفــسٍ وإن أك قـــد تكلّفـــتُ الحرامـــا
فتحــت الشــمس والزهــر الــدَّراري مـــدائنُ جمـــةٌ حـــوت الأنامـــا
ولــيس لــدي مــن إليــون أوفــى وفريـــــامٍ وأهليـــــه ذمامـــــا٦
ففـــوق مـــذابحي أبـــدًا أقـــاموا ذبـــــائحهم مشـــــربةً مـــــداما
وظـــل دخانهـــا للجـــوِّ يعلـــو وبالعـــدل اســـتباحوها اقتســـاما»
فقالـــت: «إن لـــي مـــدنًا ثلاثًـــا عَلِقـــت بِهـــن قلبًـــا مُسْـــتَهاما
وهُـــنَّ عَلمـــتَ إسْـــبَرْطا وأرغـــسْ ومِيْكينـــا التـــي زَهِـــت انتظامـــا
فـــإن مـــا شـــئت دمِّـــرهُنَّ إنِّـــي أبيـــت لهُـــنَّ عونًـــا والتِزَامـــا٧
ولـــيس بنـــافِعي صـــدِّي لعلمـــي بأنـــك قـــد تملّكـــت الزِّمامـــا

ولكنِّـــي حَكَيتـــك بانتســـابي | لِـــذاكَ فَضَـــلْت أرْبابًـــا كِرامـــا
وَقَــدْ عظَّمــت بَــيْنَ بنــي قُــرُونٍ | وإن كـــانوا جمـــيعُهُمُ عِظامـــا٨
فــإني بنــتُ ذاك وعــرس زفــسٍ | مليـك الكـون فـارع لـي الـذِّماما٩
فعَمَّـــا أبْتَغِـــي حِينًـــا تَجَـــاوز | وعمَّـــا تبتغـــي أرضـــى دَوَامـــا
يَــرُومُ بَنُــو الخُلــود بِنَــا اقتــداءً | فَمُـــر تَـــنْقَضَّ آثينـــا اقتحامـــا
تعيــث بعهــدة الجيشــين لكــن | ليـــنقض آل طـــرواد السَّـــلاما»١٠
لان زفـــسٌ لِقَوْلِهـــا ثُـــمَّ قـــالا | لأثينـــا: «هيـــي أجيبـــي السُّـــؤالا
لِـــيَقُمْ قـــائم الشِّـــقاق ويَحْنَـــثْ | جـيش طـروادةٍ بمـا قـد آلـى»١١
فَهْـيَ والحـرب قصـدها ومُنَاهـا | لبـــت الأمـــر تبتغيـــه امتثـــالا
خَرَقـــتْ مُهْجَـــةَ الرَّقيـــع إلـــيهم | كشـــهابٍ فـــي الجَـــوِّ أجَّ اشـــتعالا
لِسَـــفينٍ أو جـــم جـــيشٍ يريـــه | زفـــس شـــؤمًا مقرَّبًـــا أو فـــالا
بشـــــــرارٍ مُنثَّـــــــرٍ بـــــــأوارٍ | يخمـــدُ الـــرَّوْع أو يَهـــيج الوَبـــالا
وجلـــوا جـــازعين مـــذ أبصـــروها | وبهـــم هـــاجس الظُّنُـــون تعـــالى
«أبســـيل الـــدماء زفـــس مشـــيرٌ | أم لـــربط الإخـــاء بـــالوفق مـــالا»
وهــي فــي هيئــة ابــن أنطينُــرٍ لــو | ذُوْق حَلَّـت تحكيـه شـكلًا وحـالا
وتــوارت فــي جــيش طــروادة فــي | طَلَـب الشَّـهْم فنـدروس انْتِحـالا
فَرَأَتْـــهُ بقومـــه مـــن رُبَـــى إيـــ | ـسيف من قُلّدوا التُّروس الثقالا١٢
فَتَـدَانَّت إليـه قالـت: «ألا اسـمع | يـا ابـن ليقـاون العظـيم المقـالا
حَقِّـــق الظَّـــنَّ وابْتَـــدِر لمنـــيلا | وارمـــه تكســـبنَّ فَخْـــرًا ومـــالا

ومقامًــا عنــد الطّــراود يعلــو وامتنانًــا لــن يعــرفنَّ الــزَّوالا

ســيَّما عنــد ذلــك الملــك فاريــ ــس إذا مــا قتلــت أثريــذ حــالا

ثــم ناهيــك بالــذي هــو يحبــو ك هبــاتٍ تثقّــلُ الأحْمَــالا١٣

فَتَوَكَّــــل أرَاك وادع أفلــــو ليقيــامن بــالعزم هــالَ النِّبــالا١٤

والضَّــحايا الأبكــار فَانْــذُر ذبيحًــا تنتقيهــا نقيَّــةً أحْمَــالا١٥

ذاك فــي زيليــا بقصْــرِك لمَّــا بانتصــارٍ تغــدو لهــا ترحــالا»

خَدَعَتْــه فــاغْتَرَّ واجْتَــرَّ جهــلا هائـل القـوس مـن جفيـرٍ تَـدَلّى١٦

كــان بــين الجبــال يَقْــنِصُ قَــبْلا فلديــه تــيسٌ مــن الصَّــخْر ولّــى

فرماه بصدره مفتلًّا

طــول قَرْنَيْــه بالغًــا كــان قَــدْرا مــن قيــاس الأَشْــبَارِ سَــتَّة عشــرا

منهمــا عنــد صــانعٍ ذاع ذكــرا أكمــل القــوس آلــةً لــيس تبــرا

طَرَفَيْها بِخَالِصِ التِّبر حَلّي١٧

فأتاهــــا موقعًــــا باعتنــــاء وعلــــى الأرض مــــدَّها باتكــــاء

وذَوُوه بمَنْعـــــــةٍ واتِّقـــــــاءِ خَشْــيَةً أن تُبْلــي سُــرَى الأَعــداء

ومنيلا ما نال جَرْحًا وقَتْلا

ثُــمَّ مــن واسِــعِ الكنانــة أخْــرَجْ سَــهْمَ بُــؤسٍ مقــذَّذًا يَتَرَجْــرَج١٨

فَــوْقَ مَــتْنِ الْأوتــار بــالفُوق أَوْلَــج وانْثَنــى يَنْــذُرُ الــذَّبِيح المُــدَبَّج١٩

مُذْ يُوَافي بِلادَه مُحْتَلًّا

ثُمَّ فَـرْضَ المـريش بِـالْعُنف أَمْسَـكْ وإلـــى صـــدره السَّـــريَّة أضْـــنَكْ٢٠

قُوِّســـت قَوْســـه ولـــم تَتَفَكَّـــك فَرَمـى رُنِّـت وفـي السَّـهم نَيْـزَك٢١

في فسيح الفضاء قد غلَّ غَلَّا

يــا منـــيلا طوبـــاك أهْـــلُ الخُلُـــود دَفَعُـــوا عَنْـــك كُـــلَّ بُـــؤْسٍ شَـــدِيدِ

فأثينـــا وقتـــك سَـــهْمَ الحديـــد مثلمـــا الأم وابْنُهـــا فـــي هُجُـــود

عنه جَمْعَ الذِّباب تَدْفَعُ مهلا

هـــي بـــالنَّفْس وَجَّهَتْـــهُ فَمَـــالا لِعُـــرى عَسْـجَد الحَمائـل حـالا٢٢

حيـث ثقـل النُّضَـار كالـدِّرع حـالا إنمـــا السَّـــهْمُ قطـــع الأوصـــالا

فَلّها والجَّا وفي الدِّرع حلَّا

وجـــرى نافـــذًا لجـــوف حـــزام قـــد وقـــاه مـــن غـــابر الأيَّـــام

شـــــقَّه خارقًـــــا إلـــــى الآدام ولـج الجلـد وهـو بـالجرح هـامي

بدم أسودٍ تعكَّر شكلا

ضـرَّج الفَخْـذَ ثُمَّـت الساق خَضَّـب وبَهِـــي الـــرِّجلين لونًـــا مُحَبَّـــب

مثلما برفيرٌ على العاج يسكب غيـــد قريـــا وإيميونـــة تَرْغـــب

فيه صبغًا للخيل حَلْيًا يُدَلّى٢٣

فيـــه قَـــدْ زِنَّ مَنْـــزلًا بادِّخـــارِ لـــم يَنَلْـــه إلَّا عَزيـــز المنـــار

فهـو فخـر الفرسـان آل الفخـار ومنـــال الملـــوك يـــوم الطـــواري

ليس يرجوه بينهم من ذلَّا

فأغـــــاممنون دنـــــا وتحقَّـــــق ذلـك الجُـرْح كـاد بـالنَّفْس يَشْـرَقْ

ومنـــيلا ببـــادئ الأمـــر أشـــفق فـــرأى النصـــل مـــائلًا كـــاد يزلـــق

فَتروَّى مستبشرًا مُهْتَلَّا

ضَـجَّ قـوم الإغريـق يطلـب حقًّـا وأخـــوه استشـــاط غيظًـــا وَرِقَّـــا

يـــده ممســـكًا أفـــاض وألقـــى: «يـــا شـــقيق الفـــؤاد قـــل أَلِتَلْقَـــى

حَتْفَك اليوم رُمْتَ ذا الوَفْقَ شُغْلا٢٤

وَرَضِـــيت النِّـــزال فيـــهِ تُنَـــادي وَحْـــدَكَ الآنَ فـــي بَنِـــي طُـــرْوادِ

قـــد رمـــوا عـــن تجبُّـــرٍ وعنـــاد وبنكـــثٍ داســـوا ســـداد العهـــاد

إنما النَّكث سوف يُمْطِر خَذلا

وَفْقُنـــا والأَيْمَـــان والخَمْـــر حاشـــا ودمـــاءُ الكبـــاش أنْ تَتَلاشـــى٢٥

فـإذا زَفْـسُ غَـضَّ طرفًـا ومـا شـا يوقـع اليـوم سـوف يَـنْهَضُ جَاشَـا

ويسيل الدِّماءَ مِنْهُمُ وَبْلا٢٦

سـوف يَلْقَـوْن عَنْـهُ شَـرَّ العِقَـابِ ويلقـــون منـــه قَطْـــعَ الرِّقـــاب

وبَنُـــوهم وأهلُهُـــم بانتِحـــابِ تَجْـرَعُ المَـوْتَ فـي شـديد العَـذاب

فعلى ذا عقلي وقلبي دلَّا

وكَـــأنِّي بـــزفس غِـــيظَ وأَنَّـــا ثُـــمَّ هـــاجَ الـــبَلا ورَجَّ المجنَّـــا٢٧

هُـــوَ للنَّـــاس حُرمـــة العهـــد سَـــنَّا خرقوهـــا فســـوف يـــنقم عنَّـــا

وبإليون يهبط الويل ثقلا

وإذا مـــا لَقِيْـــت مَوْتًـــا عَجُـــولا ولأرغـــوس أغتـــدي مخـــذولا

تَتَلظّـى نفســي شــجى يــا منــيلا إذ جنــود الإغريــق والصَّــبْرُ عــيلا

وطنًا عزَّ يذكُرُون وأَهْلا

لا يُجِلّــون منــك عَظْمًــا دَفينــا ظَــلَّ مُلْقًــى لــدى حمــا إليُونــا

وبهيلانـــــة العـــــدى خالونـــــا فلنـــا الخَيْبَـــةُ العَظِيمـــة هُونـــا

ولهم نَاطِقُ الشَّماتَةِ عَذْلا

ويقولـــون عنـــد قبـــرك لُؤْمـــا آغــاممنون هكــذا انحَــطَّ عزمــا

ظـل فـي النَّحـر كيـده الـدَّهر حتمـا قـــاد جيشًـــا عَرَمْرَمًـــا مُـــذْلَهما

فانْثَنَى مُفْعَمًا وبالًا وأجلى

عــاد عــن حربنــا بفُلْــك خــوالي لــم ينــل غيــرَ خَيْبَــةِ الآمــالِ

وأخُـوُه فـي التُّـرب والعَظْـمُ بـالي لُجَّــةَ الأَرْضِ إنْ يَكُــنْ ذا مــآلي

فابلعيني واخفي ادِّكاري أصلا»

فَمَنِــيلا بِعَــزَّة الــنَّفس سَــكَّن رَوْعَـه قـال: «فاحـذر الجيش يُحـزن

فِـيَّ ذا السـهم قَـطّ لـم يـتمكَّن قـد وقتنـي العُـرى ودِرْعـي المُـبَطَّن

وحزَام الحَدِيد أوْقَفَ نَصْلا»٢٨

قـال: «عـلَّ المقـال بالفـأل صـحَّا ولْنَــــرُم آســـيًا ليســـبر جرحـــا

وليُخَفِّــف ببلســم البُــرْءِ بَرْحــا فعســانا نَلْقَــى لِمَسْــعَاه نُجْحــا»

ثم نادى بِتَلثبيُّوس: رحلا٢٩

لمخــاوون أســقليب النِّطاســي سـرو وأحضـرهُ مسـرعًا خَيـرَ آس٣٠

لمنـــيلا المُقَـــدَّم النِّبـــراس فيــرى جــرح نابــل ذا بــاس٣١

نال فَخْرًا ونحن قهرًا ونكلا»

سـمع الفَـيْجُ منـه أمـرًا وَلَبَّـى — بـين قـوم الإغريـق يَنْهَـب نهبـا

يتقصَّـى مسـتطلعًا مُشْـرئبًا — فـرآه بـالعزم يَشْـتَدُّ قلبـا

بين أصحابه مُجَلًّا معلّى

فأتـاه مُقَطَّـع الأَنفـاس — قـال: ذا الطّـول لَـبَّ يـا خيـر آس

لمنـيلا المُقـدَّم النِّبـراس — فتـرى جُـرْح نابـلٍ ذا بـاسِ

نال فخرًا ونحن قهرًا ونكلا»

رَقَّ قَلْـبُ الطَّبيـب حزنًـا ولجَّـا — يصـحب الفـيج بالفيـالق فجّـا

ألفيـاه كـالرَّبِّ والجَمْـعُ عَجَّـا — حَوْلَـه فـي أماثـل الصِّـيد ضـجًا

فَلَهم فرعُ أسقليب تَجَلّى٣٢

سحب السَّهم من رباط الحمائل — كسـر النصـل وهـو بـالرَّأس مائـل

حلّهـا ثُـمَّ حـلَّ دِرْعَ الغَلائِـلْ — وحِزامًـا دُون المَقَاتـل حائِـل

بُذِل الجَهْدُ فيه بالصُّنْع بذلا

سَـبَرَ الجـرح والـدم امـتصَّ جـرًّا — وعليـه شـافي البَلاسـم ذَرَّا

ذاك سِـرُّ خيـرون قبـلُ أسـرَّا — لأبيـه فكـان مـن ثَـمَّ ذُخْـرا

عَمَّ كُلَّ الأنام خَيْرًا وَفَضْلا٣٣

قـوم الأغـارق قـد لَهَـوا بجـريحهم — وعلـيهم زَحَفَـت قـوى الأعـداء٣٤

فَتَقَنَّعـوا بِسِـلاحهم وتقـدَّموا — مسـتلئمين لسـاحة الهيجـاء

أَفَـلا رَأَيْـتَ مَلِـيكهُم قـد هَـبَّ لا مُتقاعـــدًا بِتَقَـــاعُسِ الجُبَنـــاءِ٣٥
بـل سـار يبـرح مـتن مركبـةٍ زَهَـت بنحاســـها لمواقـــع الإجـــراء
ألقـــى أزمَّـــة ضـــابحات جيادهـــا لأريمـــذونٍ نُخْبَـــةِ الأَمنـــاء٣٦
وإليـــه أوعـــز أن يظـــل بِقُرْبـــه لِيَلِـــه حـــين مَشَـــقَّةٍ وعَيـــاء
وَمَضَـى عَلَـى قَدَمَيْـه ينفـذ أَمْـرَهُ بِمَواقِـــفِ النُّـــبَلاء والأَمَـــراء٣٧
بـالحزم يُثْبِـتُ عَـزْمَ كُـلِّ كَتِيْبَـةٍ نهضـــت ببـــأسٍ ثابـــتٍ وَبَـــلَاءِ:
«يـا أيُّهـا الإغريـق لا تَتَـرَدَّدُوا بُـرج النِّفـاق عِمـادُهُ تَتَهَـدَّمُ٣٨
أعْـدَاؤنا نَقَضُـوا العهـاد خِيانـةً وعــن الخيانــة إن زفــس لَيَــنْقم
وَلَسَـوف تَفتـرس الطَّيـور لحـومهم وجميـــع أنقـــاض الـــبلاد تُقَصَّـــم
ولسـوف تحـرز فُلْكُنـا أزواجهـم وبنـــيهم وديـــارهم تَتَـــرَدَّم»٣٩
ويَميـل بـالتَّعْنِيف مُحْتَـدمًا علـى مـن ذَلّ تَحْـتَ الأزمـة الـلَّأْواء:٤٠
«يـا أيهـا الجنـد الأولي زعمـوا الـبلا وتَـذَلّلوا بقـوىً غـدت تَتَفَصَّـمُ
أفـلا خجلـتم مـذ وجلـتم رِعـدةً كالإيَّـل الـواهي يُـرَاعُ ويـرغم
وإذا تَمَلّكـه العيـاءُ بِجَرْيـه بـالبَرّ يلبـث جازعًـا يَتَهَضَّـم
حَتَّـى مَ يُقْعِـدُكُم تَبَـاطؤ كُـمْ فَهَـل رَمْـتُم لِفُلْكِكُـمُ العِـدى تَتقـدَّم
وعَلَـيْكم تَـنْقَضُّ فـي جُـرُفٍ طَغـا ليُمـدَّ مـن زفـسٍ إلـيكم مِعْصَـم»
خـاض الصُّفُوف يَجُوب في دفَّاعها لحمَّـا بنـي إقـريطش النُّجَبـاء
ألقـاهم بـدروعهم وإذومـنٌ يشـتد كـالخِرْنَوص فـي البيـداءِ٤١
سـاق الطَّليعـة يَسْـتَجِيش مُخلِّفًـا مريـون عنـد السَّـاقة الجَـأْواء٤٢

فاهْتَزَّ من طربٍ لشدَّة بأسه   وعليه قام يُفِيضُ خَيرَ ثَناءِ
«حُيِّيتَ مِنْ بَطَلٍ أُجِلُّ معظَّمًا   يوم الوحي وبِكُلِّ ما يتجشَّمُ
وإذا الولائم أولمت وغَدَت على الـ   ـزُّعماء أقْداح التَّفاخر تقسم
فلسهمهم حدٌّ وسهمك طافحٌ   وكذاك سهمي لا يُحَدُّ ويحسمُ
تتناول الأقداح مهما شِئْتَها   حتى تَطِيب وأنت عَنْها تُجحِم٤٣
زَحْفًا تعَوَّدت الفَخَار سَجِيَّةً   أَبْدًا وأَنْتَ الفَائِزُ المتَحَكِّمُ»
فأجاب: «يا أتْرِيذُ سَوفَ أَبرُّ بالـ   ـعهد القديم وسابق الإِيماءِ٤٤
وأنا ظَهِيرُك فادعونَّ إلى الوَغى   لِتَشُبَّ حَالًا سائِرُ النُّصَراءِ
آلى العُداةُ فأخْلَفوا فليجرعوا   مضضًا جزاء الخلف بالإيلاء»
جذلًا مضى أتريذ مُندفعًا على   هَبَّ النَّسِيم لسائرِ الزُّعَماءِ
أَلْفى الاياسين اللذين تَدَجَّجا   وهنا المُشاة كَغَيْمةٍ سَوْداء
دلفوا بجحفل فِتْيةٍ فتَّاكةٍ   بمناصلٍ وعواملٍ صَمَّاءِ
كَغَمَامةٍ قاريَّةٍ سَبَحَت على   وَجْهِ البحار بشدَّة الأنْوَاء٤٥
فتلوح للرَّاعي فَيَخْفُقُ سائقًا   سِرْبَ الشِّياه لأكْهُفِ الظَّلماء
فارتاح أتريذ وقال مُخَاطِبًا   لهما بحرِّ الهَول والأَرزاءِ
«إيهٍ زعيمي رَهْطِ دُرَّاع الْحديـ   ـد فإنَّ مثلكما يكرُّ ويُقدمُ
حسبي بِنَفْسِكُمَا تُثِيرُ إلى الوَغى   هِمَمَ الجُنُود بهمةٍ تَتَجهم
لو آهِ زَفسُ وآله مَنُّوا وما   احْكَمْتُما كل الكتائب أحْكمُوا

لَتَهدَّمت إلْيُونُ تحت ذراعنا ... عجلًا وشُمُّ عمادها تتحطّم»٤٦

ثُمَّ انْثَنَى لِسوَاهم فَبَدا له ... بذويه نَسْطُرُ أفْصَحُ الخُطَبَاءِ

قَدْ قَام ينظم جَيْشَه مُسْتَنْهضًا ... وهنا بياسٌ نُخْبَة الصُّلَحَاء

والملك هِيمُون خروميسٌ السـ ... ـتر فيلغون وسائر النجداء

جعل الطّليعة خيله وعجالهُ ... ومُشَاتهُ في سَاقةٍ شَهْباء

والقَلْبَ أوْدَع كل نِكْسٍ واهنٍ ... عاف اللِقاء لِيَلْتَجي للقاء٤٧

وبدا يحثُّهم لكل كريهةٍ ... والصبر في السَّراء والضرَّاء

«لا تقحموا بعجالكُم وتَبَدَّدوا» ... مستهدفين لغارةٍ شعواءِ٤٨

وحَذَار تغترُّون في بأسٍ لكم ... ومهارةٍ في الحَثِّ والإعْداءِ

بكتائب الأَعْداء تَنفَردُون أو ... أن تنكصوا بجبانةٍ لِوَراء

فبذا يَهُون على العَدُوِّ نَكَالكم ... وبذاك أعظم شدةٍ وعناءِ

وبأيّكم كَبَتِ الجِيادُ وقد لَجَا ... لِسواه منكم مُقْبلًا لِنَجَاء

بالرُّمح فليلق العُدَاة فإنَّمَا ... هذا يقينًا أصْوَبُ الآراء٤٩

أسلافنا هَدَمُوا كذا بدَهَائِهم ... أسوار كل مدينةٍ شَمَّاء»

طَربَ المَلِيك لِحَزْم نَسْطُور الذي ... خبرت مخابره بِطُول بَقَاءِ

فإليه مَالَ مُخَاطِبًا برعَايَة ... «يا شيخ صدرك بالبسالة مُفْعمُ

لا كان دَهرٌ منك جِسْمَك مُوهنٌ ... وقِوَامَ عَزْمِكَ مُخْمصٌ ومُهَضِّمُ

يا لَيتَ سَاقَك مِثلُ قَلْبِك شدَّةً ... ولئن هَرمْتَ وذَلّ قرمٌ يهرمُ

مَنَحَتْك أرْباب العُلى بَأسَ الصِّبا ... وأولي الصِّبا طُول البَقا مَنَحَتْهُمُ»٥٠

فأجاب نسطُرُ: «قد هَرِمت وحبَّذا لـو كُنْـتُ بَعْـدُ بشـدَّة الأَعْضَـاء

زمنًـا أروثليـون فيـه مُجنـدلًا ألقيـت مُخْتضـبًا ببحـر دمـاء٥١

لكنَّمـا لـم تحـب آلهـة الـورى كُـلَّ الْأَنَـام بجُمْلَـةِ الآلاء

فلـئن مرحـت شـبيبتي بتشـدُّدي فَلَقَـد هَرِمـت وخُفِّضَـتْ نُعَمَـائي

أدع الطِّعـان وشـأنه لأولـي القُـوَى وأولـو القـوى واعُـون صَـوْتَ نِـدائي»

وأتـى الاثينيـين قـوم منسـتسٍ ذي السـبق بالإعـداء والإجـراء

ويلـيهم بُهْـمُ الكفـاليِّين مَـن دَانـوا لأَوْذس أحْكَـمِ الحكُمَـاء

فـإذا هُمَـا لـم يسـمعا لَجَبَ الـوَحي والجـاش زعـزع سـائر الأنحـاءِ

وتَرَبَّصَـا حتَّـى علـى الأعـدا يَكُـرُّ سـواهما بسـرية خَرْسـاء

فَسَـعى يُؤَنِّـب عاتبًـا بملامـةٍ واسـتنكر المسـعى بالاسـتبطاء:٥٢

«لـم يـا ابـن فيتيس ونيت وأنت يـا قَلْـبَ الـدَّهاء أَراكَ لا تَتَقَـدَّم٥٣

فَلِـمَ التَّخَلُّـف رِعْـدَةً لِسـواكُما والقـوم خِرْصـان العَوامـل قوَّمـوا

قـد كنـت آمُلُ فـي الصُّـدور أراكمـا بِسُـرَاكُما وأراكـم أعْجَـزْتُمُ٥٤

أفلـم تكونـا والـولائم اوْلِمَـت للصـيد أول مـن يعـزُّ ويكـرم

فهنـاك ترتميـان بـاللَّحم الشُّـو يِّ وضـافيات الكـأس حـين تُقَـدَّم

وهنـا يَسُـرُّكما بـأنَّ كَتَائبًـا عَشَـرًا أمامَكُمـا تكُـرُّ وتهجُـمُ

فعـلامَ عـن قـرعِ القنـا أَقْعِـدتما ومَوَاقـفُ الأَعْـداءِ ضَـرَّجها الـدَّمُ»

فأجـاب أوذس مُغْضَبًا: «أفـلا تـرى رجمًـا عَلَـي حكمـت بالإبطـاء

فلسوف تنظُرُ إن وَدَدْت قِتَالَنا   بطلائع العُظَمَاء والنبلاء
وترى أبا تلماخ في صدر العدى   وهنا أراك خبطت بالخُيلاء»
فأجابه متبسَّمًا مُذ خَالَهُ   قد غِيْظَ بالحُسْنَى والاسْتِرْضَاءِ:٥٥
«مَهْلًا أيا ابن لَيرتَ لَسْتُ مُنَدِّدًا   فَلَقَد بَلَوْتُك حِكْمَةً تَسْتَعْصِم
وقد اسْتَوَينا بُغْيَةً وَشَعَائرًا   جُلّى فَدُونَك ذُرْوَةً تَتَسَنَّمُ
وتَعَدَّ عمَّا اشْتَدَّ من عتبي عسى   بالرِّيْح يذهب بائدًا يَتَخَرَّمُ
ولئن تسُؤك من المقال صلابةٌ   فَلَسَوْف أَرْتُقُ ما فَتَقْتُ وأَلْئِمُ»٥٦
واستأنف السَّيْرَ السَّريع مطوفًا   لذيومذٍ ذي العزَّة الأَبَّاءِ
ألفاه مُنْتَصِبًا بظهر عِجَاله   في عُزْلَةٍ عن مَوْقِف الإبلاء
وبقربه إستينلٌ فَلَحَاهما   لومًا لذا الإجحام والإغضاء
«أسفًا خَلِيْفَة تيذيوس أراك من   دُون الفَوارس جازعًا تَتَلَملَمُ
هلَّا اقْتَفَيْت أباك في عَزْمٍ به   قد كان قَبْلَ أولي العزائم يَعْزمُ
لم أَلْقَه لكِن رَوَيْت لمن رأى   عنه فِعالًا بالفخار تُعظَّم
ولقد أتى ميكينيا وفُلينكٌ   ذو البأس ضيفًا للجحافل يَنْظم
لحصار ثِيْبَة يَجْمَع الأجْنَاد في   حُلَفَائه والْجَيْشُ ثُمَّ عَرَمْرَمُ
رَغِبا بنَجْدتهم فما بخلوا بها   لَكِنَّ زَفْس على الخِلَاف مُصمّمُ
فأراهُمُ للشُّؤم مِنْهُ إشَارَةً   وَلوى الْعَزِيمةَ عن مرامٍ أبرموا
نَكَصًا وَلَمَّا بُلِّغا آسُوْفِسًا   والخَيْزُرَانُ بضفَّتيْه مُخَيِّم
فبدا لدى الإغريق أمر مُهَمَّةٍ   فَبِتِيذيُس خَيرًا رأوا وتوسَّمُوا

بعشـوه سـار فَجَـاءَ أبْنـا قَـدْمسٍ فـي صـرح إتيكـلٍ ومُـدَّ المطعـم
مـا راعَـهُ أنْ كـان مُنْفَـرِدًا لـدى قَـوْمِ العِـدى وبـدا ببـأسٍ يُفْحـمُ
بـاراهم واحتـاز أعظـم نُصـرةٍ ولـه بآثينـا النَّصِـير الأَعْظَـمُ
فَتَحَـدَّموا غَيْظًـا عليـه وأكمنـوا خمسين أَحْمَسَ بالحديد اسْتَلأموا
وبِرأْسـهم ذو العَـزْم لِيْفُـوفُنْطُسٌ وميـون ذُو الطَّـول الشَّـديد الأَيْهَـمُ
أفْنـاهُمُ عـن بَكْـرَة الآبـاء لا نـاجٍ نجـا إلَّا ميـونٌ مـنهم
أبقـاه إذعانًـا لأربـاب العُلـى فلـذاك تيـذيسٌ وهـذا الإبـنمُ
مـا كـان مِثْـلَ أَبيـه إبَّـان الـوَغى وأبُـوهُ لـم يـك مِثْلَـه يَـتَعَظَّمُ»٥٧
فَـوَعَى ذيوميـذُ الْمَلَامـة صَـامِتًا رَعْيًـا لِحُرْمـة سَـيِّد الرُّؤَسـاءِ
لكنَّمـا إسـتينلٌ لـم يرعهـا وأجـاب مُبْتَـدرًا بـلا استحياء:٥٨
«هـلَّا صَـدَقَت بِمـا نَطَقْـتَ وإنَّـا قـومٌ أشـدُّ قُـوىً مـن الآبـاءِ
وَلَقَـدْ وثقنـا بالمقامـات العُلـى شُـمِّ النُّفُـوس قَلِيلَـةِ الْإحْصَـاء
آباؤُنـا هَلَكـوا بِسُـوءِ سَـرِيرةٍ ومنـالُ زَفْـسٍ صـادِقُ الأَنْبَـاءِ
حنقًـا ذيوميـذٌ أتـاه معنِّفًـا أقصـر فمـا الآبـاء كالأبنـاء»٥٩
ما كنـت ذا جهـلٍ لأَخْنَقَ إنْ مَضَى «إجلس حليف الصَّمْتِ والإصغاءِ
إنْ نَالنَـا النَّصـر العظـيم فَمَجْـدُهُ أَتْرِيـذُ يـنهضُ همَّـة العُمـداءِ
وإذا ذَلَلنـا بانكسـار جُنُودنـا هـو فـائق الأوْصـاف والأَسـماء
فلنعتصـم بالبـأس ولنُقْـدِم إذا فَعَلَيْـه أَعْظَـمُ لَزْبَـةٍ دَهْمَـاء٦٠

ثـم انْبَـرَى مـن فـوق مَرْكَبـةٍ لـهُ مُجنِّبـين غَوَايَـةَ الأهـواء»

ولقـد فَتَحْنَـا ثِيْبَـةً بفيـالِقٍ لـلأرض بالإقـدامِ والغُلَـواء

فَعَـلا لصَلْصَـلَة السِّـلاح بِصَـدْرِهِ صـوتٌ يُهَـيِّج حَوْبَـةَ الحَوْبَـاءِ٦١

تـدفَّقت الأجنـاد أيَّ تـدفّق إلـى الحـرب تَجْـرِي فَيْلَقًـا إثْـر فيلـقِ

كثـائر أمـواج البحـار تَهيْجُهـا مـن الـريح أنـواءٌ بغيـر ترفـق

يـدفِّعُ بَعْضًـا فَـوْق لُجِّهـا إلى حيث فوق الجُرْفِ بالعُنفِ تَلْتَقي٦٢

فَتَنْقَضُّ أعلى الصَّخر عن زَبَدٍ غَثا تَغَرْغَـرَ عـن قصـف الهـدير المُصـفقِّ

بهـم أوليـاء الأمـر يسـمع أمـرهم وهم لا هوى نفسٍ ولا صوت منطقِ

تخـالهم بُكْمًـا لأوَّل وهلـةٍ وقـد نظمـوا نَظْـم الخبيـر المُحَقّـق

وفـوق الصُّـدور الطَّامِحـات تألَّقـت صـوارمهم والسُّـمر أيَّ تـألّق٦٣

ولكنَّمـا الأعـداء قـام ضَـجِيجُهُم كَسِـرب شـياهٍ بالحظـائر قُلَّـقِ

إذا ما اسْتُدرَّت والكباشُ ثَغَت لها لَهُـنَّ رَنَـتْ تَثْغُـو بأنَّـة مُشْـفِقِ٦٤

فـأوْزَاعُهُم مِـنْ كُـلِّ فـجٍّ تـألَّفُوا بِعِـدَّة لُسـنٍ واخـتلاف تَخَلُّـق

تشـوقُهُم طَـوْرًا أثينـا إلـى الـوغى وطـورًا إلـه الحـرب أدهـى مشـوِّق

ومـن حَوْلـه هـولٌ ورِعْـدَةُ فتنـةٌ شـقيقتُه إلـف الشِّـقَاق المفَـرِّق٦٥

نعم هِيَ إنْ تَنْشَأ هُزالٌ وإن نمت إلـى قُبَّـة الزَّرْقـاءِ بـالجوّ تَرْتَقِـي٦٦

بمُجْتَمَـع القَـوْمَيْن طافـت مُجَـدَّةً مُمَـزِّق جَمـع الشَّـمل كـل مُمَـزَّق

ولمَّـا تـدانوا والنُّفـوس سَـواخِطٌ تَحَرَّقَـت الأجْنَـادُ أيَّ تَحَـرُّق

طعـانٌ تلاقت في صُـدُورِ تـدجَّجت وكـرٌّ يُـوَاري يلمقًـا فـوق يلمـق٦٧

وزفـــرة مقتـــولٍ وَنَعْـــرةُ قاتـــلٍ	بســـيل دمـــاءٍ بالأسِـــنَّة مُهْـــرَقِ٦٨
يُلاطِمُهُـم داعـي الكفـاح مُشَـدِّدًا	كشـــؤبوبِ مـــاءٍ بالسَّـــحائب رَيِّـــق
بِسَـيلين مـن شـمِّ الجبـال تَحَـدُّرًا	يفـيض بِسَـفْحٍ عـن مجاريـه ضَـيِّقِ
زُعـابٌ طغـا يَبْـدُو بِهائـلِ مَنْظَـرٍ	لـراعٍ لـدى قاصـي الشَّـوَامخ مُحْـدِقِ
عـجَّ العجـاج وكـان أول طـاعنٍ	أنطـــيلخٌ بطلائـــع الطَّـــرواد٦٩
طعـن ابـن ثالسـياس إيخُوفُوْلسًـا	فـي خـوذةٍ سُـبكتْ لصـدِّ صِـعادِ٧٠
نَفَـذَ السِّـنان بفـوده لِدماغِـه	فــانْغَضَّ طَرْفــاهُ بِغَيْــر رَشَــادِ٧١
فـي سـاحة الهيجـاء كـالطَّود ارتمى	فأغـــذَّ ألفينـــور الإســـآدِ٧٢
واجتــرَّه مــن أخْمَصــيه لِخَلــوةٍ	يَبْغــي اســتلابَ سِــلاحهِ الوقَّــادِ
مـــا نـــال إلَّا خَيْبَـــةً وبِـــدَارُهُ	فـي الحـين عـاد عليـه شـرَّ مَعَـاد
فـالتُّرس مـال بميلـه عـن خصـمه	وهنـــاك آغينُـــور بالمِرْصـــاد
فـانقضَّ يَطْعَنُـهُ بأسـمَرَ عاسـلٍ	فلـــواه مَطْرُوحًـــا كَلِيـــل فُـــؤَاد
فاشْـتَدَّ مُعْتَـرَك الجُيُـوش مُغِيـرَة	كالـــذئب أفـــرادٌ علـــى أفـــرادِ
فسـطا أيـاس علـى ابـن أنثيمـينٍ	«يفـــعٌ ترعـــرع فـــانبرى لطِـــرَاد
نسـبًا لسـمويسٍ دُعـي سِمويْسسًـا	مـــذ فـــاز فـــي شـــاطيه بـــالميلاد
زمنًـا أتـى مـن طـود إيـذا أهْلُـهُ	ليـروا قطـاعهم بـذَاكَ الـوادي»٧٣
مـا نـال أهْلُـوْه جـزاء عنـائهم	وقَضَـــى الحيـــاة قصِـــيرَةَ الآمـــاد
بقنـا ابـن تيلَامُـون قُـوِّض عَيْشُـهُ	لمـــا عـــلا بـــالقوم وقـــع جـــلاد

خــرق الســنان لمنكبيــه صــدره كـــدم الحضـــيض مـــذبَّل الأوراد
ملقــى حكــى صفصــافةً ممشــوقةً والــرَّأس غـــضٌ يـــانع الأفنـــاد
ربيـت علـى عـذب الميـاه فَقُطِّعت آصـــالها بقواطـــع الحـــدَّاد
منهــا يــروم عجــال مَرْكبــةٍ زَهَــت فتجــفٌ مُلْقــاةً علــى الأجْـدَاد ٧٤
فرمـى ابـن فريـام الفتـى أنطـيفسٌ بقناتـــه للقاتـــل المرتـــاد٧٥
فَنَبَـت وَلَكِـن أَنْفِـذَت فـي لُـوْقسٍ ذي البـأس صـاحب أوذس الشَّـدَّادِ
قـد كـان يحتمـل القتيـل لسـلبه فمضـــت بحالبـــه كـــوري زنـــادِ
سقط القتيلُ إلى الحضيض ولوقسٌ وَرَد الـــرَّدى مـــن جملـــةِ الـــوُرَّاد
فـــانقض بـــالزَّرد المؤلـــق أوذسٌ لطـــلاب ثـــأر أليفـــه وذِيـــاد
قصـــد الطَّلائـــع دانيًـــا متشـــوِّفًا وأطـــار صـــعدتهُ علـــى الأجنـــاد
فتبعثـروا لكنهـا سُـلْكى مَضَـت لـــذميكوونٍ بـــالحُتُوف تُنَـــادي٧٦
نغـــلٌ لِفِريـــامٍ أتـــى مـــن آبـــذس يجـــري إليـــه علـــى ســـراع جيـــاد
وَخَضَـت بصُـدغيه فـراح مُجَنْـدلًا بصَلاصِـــلٍ تَحْـــتَ السِّـــلاح شـــدادِ
نَكَــصَ الطَّــراود للــوراء تقهقــرًا وكـــذاك هَكْطُـــرُ عُمْـــدَة الأمجـــادِ
وتقـــدَّم الإغريـــق بـــين هلاهـــلٍ وســـعوا بجمـــع مشـــتَّت الأجْســـاد
مـــن فـــوق فرغـــامٍ أفلّـــونٌ رأى فـــــدعاهم لتصـــــلبٍ وِعنـــــاد
«يـا قـوم إليـون الكـرام تقـدَّموا فَلَقَــد دعــا داعــي الــرَّدى البــدَّادِ
لا تستذلّوا فالعدى ليسوا من الـ ـــفُولاذ والجُلْمُـــودِ يـــومَ جِـــلادِ
ليكـــلَّ وقـــع نصـــالكم وقنـــيّكم وأخيـــلُ لـــيس بجُمْلَـــة الأعـــداد

ما زال بين الفُلك مُحتدمًا على ... ما نالهُ من شدَّة الأضداد»٧٧

وبجحفل الإغريق آثينا انبرت ... بين الصفوف بعزمها المُعتاد٧٨

راحت تَهِيْج نُفُوسهم وتُثِيرُها ... وتَحُثُّ ذا الإمساك والتَّرْداد

وإذا بِصَخْرٍ من يدي فِيرُوُّسٍ ... مولى الثِّرَاقةِ بالأغارق غادي

فأصاب رِجل ذيُوْرُسٍ بشظيَّةٍ ... سحقت فَمَدَّ يَدَيْه لاسْتِنْجَاد

للأرض أُلْقِيَ يَسْتَغِيْثُ بقَومِهِ ... لكنَّ فِيرُوُّس تَقَدَّم عادِي

أحشاءه بالرمح شق فمزقت ... وعلى الرمال بدت لدى الأنداد

فَعَدا تواس على العدو بطعنةٍ ... يبغي انتقامًا واري الأحقاد

ولجت بأعلى ثديه في صدره ... وقفت على رئةٍ بنصلٍ بادي

فدنا وأخرجها وسلَّ حسامه ... وبجوفه واراه غير ممادِ٧٩

نال المراد بسلب نورِ حياتِهِ ... وبكسب سلبٍ لم يفز بمراد

فذووه من وسموا بعقص غدائرٍ ... طَلَبُوه مندفعين للأنْدَادِ

فَنَشَاطُهُ وثَبَاتُهُ ما أغنيا ... أن عاد منثنيًا بغير تهادي

فكذا ثوى النِّدَّان مَولَى إيفيا ... وثِراقةٍ قَتْلًا بذاك النَّادي

وَعَلَيها تَنْهال من قَوْمَيْهما ... أجساد قتلى باشتباك أعادي

لو كان بين صفوفهم راءٍ يرى ... ويَجُول بين مواقفِ الأشْهَادِ

وَوَقَتْه فالاس الحتوف وقد مضى ... متوشحًا من حفظها بِبِجاد

لرأى الحراب نوافذًا وخوارقًا ... ورأى السهام غَوَادِيًا وصَوَادي

والهَـوْلُ شُـدِّدَ والتَّفَـنُّن مُحْكَـمٌ　　لا تَعْتَرِيـه لومـة النُّقَّـاد
وكسـا أديـم الأرض تيـار الـدِّما　　وَعَدِيـدُ قَـتْلَاهُم بـلا تَعْـدَادِ ٨٠

هوامش

(١) هيبيا هذه إلاهة الصبا، وهي ابنة زفس وهيرا كانت ساقية الآلهة تدير عليهم مدامة لا كمدامة البشر بل هي راحٌ عبرنا عنها بالسلاف يخلد شاربها فلا يقوى عليه الموت، ولما أقام زفس غنيميذ ساقيًا للآلهة كما سيأتي ظلت في خدمة زفس وأزوجها من هرقل البطل عندما أدخلهُ في مصاف الآلهة، ومغزى هذه الخرافة أن القوة في الغالب رفيقة الصبا، وإن إبراز رَبَّة الصبا ساقية في مجتمع الأرباب يشير إلى أن أبناء العلى يتمتعون بشباب أبدي وسعادة لا تزول.

(٢) يقول تهكمًا هيرا الأرغية نسبة إلى أرغوس حيث كان الناس يعظمونها ويجلونها، وينازعون أهالي ساموس دعوى ولادتها عندهم، ولقد أقام لها أهل أرغوس تمثالًا قال بوزانياس في وصفه أنه عظيم الحجم صنع جميعه من الذهب والعاج يمثلها وعلى رأسها أكليل عليه البهجات والساعات، وبإحدى يديها رمانة وبالأخرى صولجان على طرفه طائر طيطوي.

(٣) الضمير في «تَسَعَّرتا» و«دَنَتَا» يعود إلى أثينا وهيرا، ولا غرو أن يغيظهما استتباب الأمن وعقد الصلح الذي تظاهر زفس بالميل إليه في آخر كلامه؛ لأن ذلك يمنعهما من الإيقاع بالطرواد وتدمير بلدتهم،

أما زفس وهو باطنًا نصير الطرواد فلم يكن يود أن يعبثوا بالعهدة بل كان يؤثر أن يأذن بقتل فاريس على أن تدمر بلاده، ومغزى هذا الاجتماع أن القوة العلوية لا تحب الشر، ولكنها تأذن به إذا تَصَلَّب قلب الشرير على إتيانه.

(٤) إن في صمت أثينا وكظمها الغيظ، وانبراء هيرا وتصدِّيها لزفس لحكمةً من حكم الشاعر، فإن أثينا هي ابنة زفس فليس لها من الدالة عليه ما لهيرا زوجته، وزد على ذلك أنها ربَّة الحكمة والرصانة، فهي خليقة بالصبر جديرة بالتروي، وخصوصًا أنها تعلم أن بجانبها امرأة جريئة الجنان، ذربة اللسان تكفيها مئونة العناء، وهنا لنا مثال آخر من كلام هيرا على ما للمرأة من السلطة على زوجها مهما سمت منزلته، وعلت كلمته.



شكل ١: «مجلس الآلهة» في صدره زفس على عرشه وبيده صولجان المُلْك، وإلى جانبه هيرا زوجته.

(٥) يشير زفس إلى أنه إذا أتاها بغيتها ومكَّنها من إليون، فلا بد من أن ينتقم منها يومًا ويوقع بصنائعها ومحبيها كما ألجأته إلى الإيقاع بخصائصه الطرواد، أي: إن المرأة إذا أحرجت زوجها على إنفاذ مآربها فلا ينفذها عن طيبة خاطر بل يتربص إلى إحقاق حقه وإنقاذ رغائبه عند سنوح الفرص.

(٦) الذمام هنا بمعنى الحق.

(٧) ينبئك مفاد هذا البيت بكيد المرأة وحقدها إذا اشتد بها الغيظ إذ تتخلى عن ألف صديق للإيقاع بعدو واحد، فقد رضيت هيرا بتدمير كل المدن التي وقفت نفسها على عبادتها توصلًا إلى تدمير بلدة واحدة لم تكن راضية عنها.

(٨) قرون أو قرونس هو أبو زفس كما تقدم وأبو جميع الآلهة، وهو زحل العرب، وساتُرنُس اللاتين والإفرنج.

(٩) الزمام هنا الحرمة.

(١٠) لم تكتف هيرا باستئذان زفس بتهيئة الغلبة للإغريق بل رامت أن يحيق بالطرواد خراب الدِّيار وشرّ العَار، فيكونون هم المنكوبين بالجهاد والناكثين للعهاد.

(١١) قد انتُقِد على هوميروس قوله في هذا الموضع: إن زفس أمر أثينا أن تجعل جيش الطرواد يحنث بما كان قد آلى به، وهذا الانتقاد

قديم ذكره أفلاطون وسقراط وكثيرون بعدهما إذ لا يخلق بأبي الآلهة أن يأمر بنكث العهاد، وليس من قصدنا أن نتشيع لشاعرنا، وندَّعي له الكمال وسبحان الكامل، ولكنه عيبٌ يشفع فيه مجرى الحوادث والقدر المحتوم بتدمير إليون إذ لو برَّ الطرواد بعهدتهم لانتهت الحرب وسلمت إليون وكذب القدر، وهو محال في اعتقادهم، فلهذا تصرف الشاعر هذا التصرف؛ إنفاذا لأحكام القضاء، ثم أننا نعلم أن المعتقدات الحية تحكم بالحرية المطلقة من قَبَلِ الخالق للمخلوق، فيأذن له بارتكاب الأثم لا لأنه يسر بارتكبه ولكن لأن المجترم الجريمة سبق فصمم بنفسه على اجترامها، وهذا الإذن يصدر من الخالق دفعًا لتقييد الأعمال، وإحقاقًا لمبرة ذوي المبرات إذ لا يأتونها حينئذٍ إجبارًا بل طوعًا واختيارًا، ولا بد أن يفترض زفس هنا عالمًا بالغيب، فأذن بفعلة الطرواد؛ لأنهم كانوا مزمعين أن يفتعلوها فعملهم سابق لعلمه وعلمه لا يمنع عملهم، ذلك هو قول علماء الكلام واللاهوت في الشر البادي من الإنسان، فهَوَ معلوم بسابق علم الهك، وصادر بإذنه وليس بأمره.

(١٢) إيسيفوس جدول صغير في بلاد طروادة لا يجري إلا بضعة أميال ثم ينصب في بحر مرمرا.

(١٣) قال فلوترخوس: «إن هوميروس إذا أراد أن تستخدم الآلهة بشرًا لإنقاذ رغائبها جعلها تتخذ من البشر من يصلح لإنفاذ تلك الرغيبة، فإن أثينا إذا قصدت إقناع الإغريق بأمر من الأمور وجهت به أوذيس

لشهرته بالحكمة والدهاء، وإذا طلبت الفتك بالطرواد عمدت إلى بطل كذيوميذ». وقد أكثر الشراح من الأسباب التي حملت أثينا على انتقاء فنداروس دون غيره للحمل على منيلاوس، ومحصلها أن آثينا لم تستحث جنديًّا من جنود طروادة نفسها؛ لأنهم كانوا يكرهون فاريس كما مر بنا في النشيد السابق فلا يقدمون لأجله على أمر يوليهم العار فوق اختيارها من ثَمَّ من بين حلفاء الطرواد على فنداروس؛ لأنه كان زعيم فئة مشهورة بالخداع والخيانة، وهو رجل طماع بخيل يتفانى في طلب المال، وهو يعترف بنفسه في النشيد الخامس أنه إنما أتى راجلًا خوفًا على خيله واستثقالًا من نفقة علفها أثناء الحصار.

(١٤) إذا رأيت في شعر هوميروس اسم إله أو إلاهة مضافًا إلى اسم بلد أو بلاد كما قال هنا: «أفلون ليقيا» فاعلم أن السبب في ذلك أن تلك البلاد قائمة بعبادة خاصة لذلك الإله أو يكون له فيها معبدٌ وما أشبه.

(١٥) الأحمال جمع حمل بمعنى الكبش.

(١٦) الجفير الكنانة، كثيرًا ما نرى هوميروس يذكر مضارب الحسام، ومرامي السهام بكلماتٍ موجزة، وقد نراه كما في هذا الموضع يسهب في رمية واحدة، فيذكر القوس والمادة التي صنعت منها وطولها وصانعها وزخرفها، ثم مدها وتحوط صحب حاملها، ثم سهمها ووترها وإطلاق السهم وحالة القوس بعد ذلك وذهاب النبلة بالفضاء الفسيح،

وما هذا الإسهاب وذاك الإيجاز إلا مراعاة للمقام، فسهم فنداروس هنا يتأتى عنه تلاحم جيشين عرمرمين والذوق الشعري يأبى إلا أن يكون له مزية تميزه عن سائر النبال فتفنن الشاعر بوصفه على هذا الأسلوب البديع؛ تفكهة للسامع وإرساخًا للذكر في الفكر لئلا يمر عليه مرًّا فينساه.

(١٧) يتأنَّق الشَّاعر بذكر مادة القوس تأنُّق أوس بن حجر بقوله:

ومبضــوعة مـــن راس فـــرع شـــظيةٍ بطـــودٍ تـــراهُ بالســـحاب مكلـــلا

ويترنم بمدح صانعها ترنم ذي الإصبع حرثان العدواني بمدح صانع نباله:

قـــــوم أفواقهـــــا وترَّصـــــــها أنبـــــل عـــــدون كلهـــــا صـــــنعا

ثـــم كســـاها أحـــم أســـود فيـــــ ـــــنانًا وكـــان الـــثلاث والتبعـــا

(١٨) المقذذ المريش من السهام.

(١٩) الفوق فرض القوس يوضع عليه السهم.

(٢٠) المريش السهم: ذو الريش والسرية الوتر.

(٢١) النيزك نصل السهم معرب نيزه بالفارسية، ومعناه السهم، لعل في هذا المُخَمَّس شيئًا من المشاكلة اللفظية، قال الشَّمَّاخ في وصف القوس:

إذا أنــبض الرامــون عنهــا ترنَّمــت تـــرنم ثكلـــى أوجعتهـــا الجنـــائزُ

وقال الرقاشي في وصف النبال:

مجلـــوزة الأكعـــب فـــي اســـتواء ... ســـــالمة مـــــن أبـــــن السيســـــاء

فلـــــم تـــــزل مســـــاحل البـــــراء ... تأخـــــذ مـــــن طرائـــــق اللحـــــاء

حتـــــى بـــــدت كالحيـــــة الصـــــفراء ... ترنـــو إلـــى الطـــائر فـــي الســـماءِ

بمقلـــــــة ســـــــريعة الأقـــــــذاء ... ليســـــت بكحـــــلاء ولا زرقـــــاء

(٢٢) الحمائل نجاد السلاح أي: إن السهم حل فيها ولم يحلَّ في مقتل.

(٢٣) شبه الدم المنفجر من جرح منيلاوس والمنصب على ساقه ورجليه بالبرفير الأحمر المنصب على العاج الأبيض، وهو تشبيه لطيف استطرد منه إلى إفادة تاريخية بقوله: إن غيد قريا وإيميونة كن يحسنَّ صنع العاج بالبرفير، ويصطنعن من ذلك حليًّا لجياد الأمراء والملوك والفرسان المبرَّزين، وصناعة الصبغ بالبرفير أو الأرجوان تناولها اليونان من الفينيقيين.

(٢٤) لا أحرج من موقف أغاممنون في هذا المكان ولا كلام أوقع بالنفس من كلامه، فإنه القائد الباسل والزعيم الأكبر والأخ الشفيق الواقف إلى جانب حليف من حلفائه، وبطل طامع بافتداء الجيش بنفسه وأخ حبيب لديه، وهو جريح لا يعلم مآل جرحه، فكان من البديهي أن يستشيط غيظًا، ويذوب حزنًا ويتفطر فؤاده شفقةً وحنانًا، فأمسك بيد أخيه وكلمه الكلام المنبعث من عاطفة الرئيس الأنيس، والشقيق الشفيق

المضطرب البال الهائج البلبال، وكأنه ألقى على نفسه تبعة الإيقاع بأخيه، فأخذه الندم على إبرام ذلك الوفاق ثم رأى له منفذًا بالتأسي فلجأ إلى الورع وإخلاص الاعتقاد، فعلل الأمل أنه لا بد من أن ينتقم له زفس من أعدائه الذين عبثوا بحرمة إيمانهم وعهودهم، وكأن ذلك لم يرو غليله فبعد أن أفرغ جعبة الأماني انثنى إلى تأمل ذلك الجرح، فخشي أن يودي بأخيه فييأس الإغريق، ويقفلون راجعين إلى أوطانهم فتشمت الأعداءُ، ويخيب الآمال وينال أغاممنون وذويه عارٌ وبيل لا يمحوه كرور الأجيال، فتمنى عندئذ الموت بل أشر من الموت ذلك أن يمحي اسمه ورسمه، فمهما أجهد شاعر نفسه لينطق أخًا بمثل هذا النطق، فهيهات أن يبلغ المرام، وهوميروس نفسه لو تكلف أن يجري غير المجرى الطبيعي لما أتى بهذه البلاغة.

(٢٥) أي: الأيمان التي تواثقوا بها، والخمر التي أراقوها، والكباش التي ضحوا بها إثباتًا لأيمانهم.

(٢٦) يذكر أغاممنون تواثق الإغريق والطرواد، ويتهدد الأعداء بعقاب زفس بما يشبه قول زهير بن أبي سلمى:

ألا أبلــغ الأحــلاف عنــي رســالةً وذبيــان هــل أقســمتم كــل مقســمِ

فــلا تكــتمن الله مــا فــي نفوســكم ليخفــى ومهمــا يكــتم الله يعلــمِ

يــؤخر فيوضــع فــي كتــاب فيــدخر ليــوم حســابٍ أو يعجــل فيــنقمِ

ومن هذا القبيل قول الحارث بن حلزة اليشكري يذكر حلف بكر وتغلب لما جمعهما عمرو بن هند بذي المجاز، وأصلح بينهما وأخذ منهما الوثائق والرهون:

فـــاتركوا الطـــبخ والتعاشـــي وأمـــا	تتعاشـــوا ففـــي التعاشـــي الـــداءُ
واذكـروا حلـف ذي المجـاز ومـا قـدَّ	م فيـــــه العهـــــود والكفـــــلاءُ
حـــذر الجـــور والتعـــدي وهـــل ينـــ	ـــقض مـــا فـــي المهـــارق الأهـــواءُ
واعلمـــــوا أننـــــا وإيـــــاكم فـــــي	مـــا اشـــترطنا يـــوم اختلفنـــا ســـواءُ

(٢٧) كان زفس إذا أراد بقوم سوءًا رج مجنه إنذارًا بالويل.

(٢٨) إنه كما دل كلام أغاممنون على احتدامه وحزنه ورأفته يدل كلام منيلاوس على عزة الجندي الباسل والأخ المدرك عواطف أخيه فكان أول كلامه أنه حذَّر أخاه من التمادي بالحزن لئلا يضطرب الجيش ثم سكن روعه بقوله أن جرحه لم يكن قتَّالًا.

(٢٩) تلثيبيوس أحد سفيري أغاممنون كما تقدم.

(٣٠) مخاوون بن أسقليب بطل من أبطال اليونان واحد طبيبيهم المشهورين والآخر أوريفيل.

(٣١) النَّابل رامي النبل.

(٣٢) المراد بفرع أسقليب ماخوون الطبيب، كان أسقليب هذا (وقد يقال أسقليبيوس وأسكولابيوس) إله الطب تلقى العلم عن أستاذه

خيرون وفاقهُ فيه، كانوا يمثلونه بهيئات مختلفة وفيها كلها رسم أفعوان كبير، وقد اختلفوا في المراد من الأفعوان، فقيل هو للدلالة على تجدد الصحة كما يتجدد جلد الحية عامًا بعد عام، وقيل بل للدلالة على الحكمة التي يجب أن يتصف بها الأطباء اقتداء بالحية المتصفة بالتيقظ والدهاء، وذهب بلينيوس إلى أن الداعي إلى ذلك إنما كان كثرة اعتمادهم على الأدوية التي كانت تؤخذ من أجزاء جسمها.

(٣٣) كان خيرون من أبناء قرونس (زحل) فمسخ حصانًا واعتزل إلى الغابات والجبال، وتعلم فيها علم النجوم وخصائص العقاقير، وكان يأوي إلى كهف في جبل فليون، ومن ثم صار هذا الكهف أشهر مدرسة في بلاد اليونان، ترى من الأبيات الأخيرة أن علم الجراحة لم يكن عند اليونان في حداثته بل كان بالغًا مبلغًا عظيمًا، فسبر الجرح وامتصاص الدم منه، وذر البلاسم عليه كلها أمور تشاهد حتى في أيامنا إلا امتصاص الدم بالفم الذي كان أطباء العباسيين يعالجون به.

(٣٤) لا يستغربنَّ القارئ بعد أن رأى ما رآه من عبث الطرواد بعهدتهم، وإطلاق فنداروس سهمه على منيلا أن يراهم زاحفين زحفة واحدة على الإغريق ليأخذوهم على غرة، وهم لاهون بجريحهم؛ لأنهم رأوا في ذلك السهم المنطلق من غير يد فاريس إشارةً إلى أن الحرب لم تقف عند ذلك الحد.

(٣٥) إن في هذا الانتقال من الخبر إلى الإنشاء أو الخطاب تنبيهًا للمطالع وتجديدًا لرواء الشعر، وقد أكثر الشراح من تخريجه وتوجيهه والتكهن بما يعود عليه ضمير المخاطب في: «رأيت» و«لا نخالهُ» إلا انتقالًا بيانيًّا تحول فيه الشاعر من مشهد إلى آخر على هذا الاسلوب أو تجريدًا بديعيًّا انتزع من نفسه فيه مخاطبًا يخاطبه.

(٣٦) أوريميذون أو أفريميزون حوذي أغاممنون، والضابحات الَّلاهثات.

(٣٧) يمثل لنا هوميروس في ما يلي القائد المتيقظ الذي يخوض الصفوف ويتفقد بنفسه مواقف جنده؛ ليستنهض العزائم ويعنف المتثبطين عن القتال، ويتذرع بالحكمة لتأليف قلوب الكتائب مخاطبًا كل زعيم بما وافق مقامه وموقفه، ومهيئًا سبل الهجوم والدفاع، وقد أبدى الشاعر من التفنن وحسن التصرف ما يجعل القارئ يأتي على كل مقالته ولا يملها وإن طالت ويرى في كل سطر منها أمرًا جديدًا ينبه خاطره ويوقد فكرته.

(٣٨) إن من أعظم آفات الشعر العربي جري الشعراء على التزام قافية واحدة في طوال قصائدهم إلَّا ما كان منها من بحر الرجز؛ ولهذا لا نرى شعراء العرب مع كثرة أشعارهم وجزالة مبانيها، ورقة معانيها قد زادوا في منظوماتهم التاريخية على بضعة عشر بيتًا في منظومة واحدة، وأحسن ما عندنا من هذا القبيل المعلقات السبع ومجموع أبياتها كلها لا يربو على نشيد من أناشيد هوميروس مع أنهم لو نوَّعوا قوافيهم لكان لهم في

لغتهم بحر للشعر لا يدرك قراره، فالقصيدة إذا طالت على قافية واحدة إما أن تضيق قوافيها على الناظم، فيقتضبها، وأما أن تطول على القارئ فيملها، وإن كانت كلها غررًا غراء خذ مثالًا لذلك تائية ابن الفارض الكبرى فإنها على ما جمعت من غرابة التفنن والجزالة والرقة لا نكاد نرى لها قارئًا، مع أن حفاظ سائر منظوماته يعدون بالألوف؛ ولهذا مع التزامنا أن لا نكرر قافية في قصيدة واحدة بل في الأناشيد كلها قد تصرفنا في بعض المواضع، واتخذنا طرقًا جديدة نخالها تفي بالمقصود للنظم التاريخي سنشير إليها في مواضعها، وأما في هذا الموضع وأمثاله فقد التزمنا قافية لكل حديث، وفي ذلك ما فيه من التخفيف على مسمع القارئ والتلطيف من نغمة القافية الواحدة، فجعلنا هنا الخبر على قافية الهمزة كما رأيت في الأبيات السابقة، وكما سترى في سياق الحديث وخطاب أغاممنون على قافية الميم.

(٣٩) قال عنترة:

يا بني عامرٍ ستلقون برقًا ... من حسامي يجري الدماء سجاما

وتصيح النساء من خيفة السبـ ... ـي وتبكي على الصغار اليتامى

(٤٠) اللَّأواء الشديدة.

(٤١) الخرنوص والخنَّوص ولد الخنزير، أغفل كثيرون من نقلة الإفرنج هذا التشبيه لثقل لفظة الخنزير في لغتهم كثقله في لغتنا، على

أننا لما كنا آلينا على نفسنا أن لا نغفل شيئًا في التعريب أثبتناه مع اجتناب اللفظ الهجين، ولا ريب أن القدماء كانوا يكثرون من تشبيه الرجل الشديد بخنزير البر، قال في أساس البلاغة: «الرت الجريء من ذكور الخنازير ثم استعمل لرئيس القوم ومقدامهم، وقالوا: هو رتّ من الرتوت.

(٤٢) مريون حوذيُّ أيذومين ورفيقه، كان من جملة خطَّاب هيلانة قبل الحرب ولما تواثقوا جميعًا على أن يذودوا عن البعل الذي تختاره لنفسها، ووقع اختيارها على منيلاوس برَّ مريون بقسمه، وحمل في من حمل على الطرواد وكان رامحًا جليلًا، ونابلًا نبيلًا.

(٤٣) كانت العادة في الولائم ومعاطاة الشراب أن تتساوى القسمة بين المدعوين، فلا يتناول أحدهم ما يربو على حصة غيره إلا إذا امتاز بمأثرة تذكر، وفي كلام أغاممنون هنا إشارة إلى أن أيذومين كان من رؤساء الأقيال، ومغاوير الأبطال.

(٤٤) جعل إيذومين سابق إيمائه برأسه لأغاممنون بمقام الحلق والتواثق، والإيماء بالرأس واليد والحاجب من أقدم اصطلاحات البشر للدلالة على أغراض مقصودة، وهي سابقة للنطق ومرافقة للصوت، وأمثال ذلك كثيرة في الشعر العربي. قال القناني:

فقلنا السلام فاتَّقت من أميرها ... وما كان إلا ومؤها بالحواجب

وقال آخر:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا   وإن نحن اوبأنا إلى الناس وقفوا

وقال غيره:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها   إشـــارة محـــزونٍ ولـــم تـــتكلمِ

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبًا   وأهـــلًا وســـهلًا بالحبيـــب المتـــيمِ

(٤٥) قارية أي: سوداءُ كالقار.

(٤٦) يرى القارئ أن هوميروس لا يتجاوز في شيءٍ صفة شخص من موصوفيه فلما مر أغاممنون على أيذومين خاطبه، فأجاب وسمع جوابه فأيذومين كهل وخطه الشيب، وملك ترفع عن العيب فسمع الخطاب وأدى الجواب، وأما الأياسان فهما بطلان فتَّاكان وفعَّالان لا قوَّالان فاجتزأ أغاممنون بما قال لهما، وانثنى غير منتظر جوابًا.

(٤٧) إن في ترتيب جيش نسطور على هذا النسق، وفي كلامه لهم ما يدلنا على إلمام هوميروس بمقتضيات النظام العسكري، فلا أصلح للقتال من أن تكون الخيل طليعة والمشاة ساقة، والقلب من ضعفاء القوم حتى لا يهولهم المكر ولا يسهل عليهم المفر، فانتظام الجند في الحرب بلغ منذ القدم مبلغًا عظيمًا ولم يرو هوميروس تنسيق هذا النظام إلا عن نسطور؛ لأنه أحكم الزعماء وأسنهم وهي حكمة من حكمه، وقد روي عن أنيبال القرطجني أنه جرى هذا المجرى في واقعة

زاما فأودع قلب جيشه كل عاجز جبان، ولا عجب أن يبلغ نظام الجند هذا الشأو منذ القدم والحرب كانت شاغل الأمم، ومدرجة المجد والفخار، ولنا من تاريخ العرب لأوائل الإسلام أثار جمة تشهد بمعرفتهم بفنون الحرب في زمن الجاهلية حتى لقد تراهم يدعون الفيلق التام بالخميس دلالة على أنه مؤلف من خمسة أقسام، وهي: الطليعة، والساقة والقلب، والميمنة، والميسرة.

(٤٨) إذا ورد ذكر الخيل والفرسان في شعر هوميروس، فليعلم القارئ أنها المركبات وركابها؛ لأن حرب الفرسان على ظهور الخيل لم تكن معروفة عند اليونان أيام حصار طروادة.

(٤٩) أي: أن من كبت به خيله وسقط من مركبته ولجأ إلى مركبة غيره، فلا يعترضه بسوقها بل يقاتل برمحه دون التعرض لأمر آخر، وقد اختلف النقلة كثيرًا بترجمة هذه العبارة، فاخترنا هذا المعنى لأنه أقرب إلى الصواب على ما يلوح لنا.

(٥٠) قوله منحتك دعاء له، وكذلك قوله: منحتهم.

(٥١) إذا شاخ المرء وعجز عن الكفاح وكلت ذراعه، فإنما يتأسَّى بما سلف له من البطش في غضاضة الشباب، وهكذا ذكر نسطور هنا أورثليون الجبار الذي قتله بصباه في حرب الأرقاديين والفيليين.

(٥٢) ينجلي دهاء أوذيس في كل زمان حتى في الأزمات الشداد، فإنه وإن كان بطلًا مقدامًا لم يرَ من الصواب أن يكون أول من كرَّ على العدو بل تربص هنيهةً وتبصَّر.

(٥٣) ابن فيتيوس هو منستس، وأشار بقلب الدهاء إلى أوذيس.

(٥٤) أراكم بصيغة الجمع أي: أنتما وسراكما.

(٥٥) لم يكن أغاممنون ليعنف أوذيس تعنيفه لغيره لما كان يعلم من بأسه وسداد رأيه بل أنكر عليه بادئ بدء تقاعده، فلما استجلى حقيقة الأمر ورأى من أوذيس الوجد عليه جعل يسترضيه ويعتذر إليه شأن القائد الحكيم الذي إذا أساء الظن انتهر، وإن عرف الحق اعتذر.

(٥٦) انثنى أغاممنون عن أوذيس، وهو يقول قول طريح بن إسماعيل الثقفي:

أبغي وجوه مخارجي من تهمةٍ ... زمَّت علي وسد منها المطلعُ

جزعًا لمعتبة الوليد ولم أكن ... من قبل ذلك في الحوادث أجزعُ

ولانزعنَّ عن الذي لم تهوهُ ... إن كان لي ورأيت ذلك منزعُ

إن كنت في ذنب عتبت فإنني ... عما كرهت لنازع متوزعُ

(٥٧) ما أكثر ما قال العرب قول أغاممنون بمدح الأباء وذم الأبناء كقولهم:

يفاخرون بأجداد لهم سلفوا ... نعم الجدود ولكن بئس من خلفوا

حتَّى لربما رأيت شاعرهم يوجه الملامة بنفسه إلى نفسه، وقومه كمعن بن أوس المزني القائل:

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا في ديارهم الصنيعا

إذا الحسب الرفيع تواكلته بُناةُ السوء أوشك أن يضيعا

قد عيب على الشاعر إنطاق أغاممنون بهذا الخطاب الطويل في هذا الموقف الضيق، ولكن مطالع هوميروس يعلم أنهم في جاهليتهم كانوا أثناء الحروب يتذكرون كل حين سالف وقائعهم، ويعظمون الأبناء بأعمال الآباء والعكس بالعكس، هذا فضلًا عما في هذا الكلام من الحث والاستنهاض وإثبات أثر تاريخي قلما يعثر عليه في مكان آخر، وعندي أنه لو عيب الشاعر على توجيه الملام لذيوميذ لكان أولى؛ لأن ذيوميذ أبرز من البسالة كل أيام تلك الحرب ما تعجز عنه فحول الأبطال، فلم يكن ممن يلام لتقاعس أو إهمال على أنه يظهر أن الشاعر أتى بهذا اللوم عن قصد زيادةً في إجلال أغاممنون، وإعظام سداده إذ كان شعاره المساواة ونبذ المحاباة.

(٥٨) إن في صمت ذيوميذ واستطالة إستينيل ما يدل على أن ذا القدر يحترم ذا القدر، وإن الكلام البذي لا يصدر من الصدر النبيل، ففعل ذيوميذ يغنيه عن قوله، وأما إستينيل فلم يرع حرمة رئيسه؛ لأنه لم يكن من ذوي الحرم المرعية، وتجاوز أغاممنون عن جوابه دليل على قلة عبئه به فلم يعامله كما عامل أوذيس قبل قليل.

(٥٩) لا أعرف شاعرًا أو فارسًا من شعراء العرب وفرسانهم مدح نفسه وهجا سلفاءه كاستينيل اللهم إلا أن يكون الحطيئة، ولكن الحطيئة كان ذميمًا دميمًا هَجَّاءً من فطرته لم ينجُ من مثالبه قريب ولا بعيد، فهجا أباه وأمه وزوجته وبنيه، ومات وهو يهجو نفسه ويقول:

لا أحـــدٌ الْأَم مـــن حُطَيَّـــه هجـــا البنـــين وهجـــا المريـــهْ

وأما الفخار بمدح النفس فكثير في الشعر العربي كقول أبي الطَّيب:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبجـــدِّي فخـــرت لا بجـــدودي

ولكنك ترى شاعرنا العربي إذا قال قولًا كهذا يستدركه بما ينفي عنه مظنة أزدراء الآباء والأجداد كقوله بعد هذا البيت:

وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريدِ

(٦٠) ما أحسن ما قال جحدر بن معاوية العكلي بما يقارب معنى هذه الأبيات الثلاثة:

ولا تشـــتم المـــولى تتبـــع إذاتـــهُ فإنـــك إن تفعـــل تســـفهْ وتجهـــلِ

ولا تخذل المولى لسوءِ بلائه متى تأكل الأعداءُ مولاك تؤكلِ

ومثله قول عبيد بن أيوب العتبي:

ولا تخذل المولى إذا ما ملمةُ ألمَّت ونازل في الوغى من ينازلهْ

وأحسن منه قول الفضل بن عبد الرحمن العباسي:

وعطفًا على المولى وإن كان بينه   وبينـك فـي بعـض الأمـور معاتـبُ

ومن ذا الذي ترجو الأباعد نفعهُ   إذا هـو لـم تسـلم عليـه الأقـاربُ

(٦١) الحوبة الهمة والحوباء النفس، لا أدل على كبر ذيوميذ وعزَّة نفسه من صمته عن جواب أغاممنون وانثنائه بالتعنيف على زميله، ثم تَرَجُّله وتهيئوه للكفاح، وهنا أتى بنا الشاعر إلى مشهد عظيم ألا وهو زحف الجيشين للقتال واصطدامهما لأول مرة، وجعل توطئة كلامه في وصف الزحف فأبدع فيه إبداعًا هيهات أن يؤتى بمثله.

(٦٢) تفنن شعراؤنا بالتشبيه بالأمواج المتدافعة، فعارضوا بها شتيت المعاني من المهيب المخوف إلى القريب المألوف، فممن تهيب بها تهيُّب هوميروس عنترة العبسي بقوله يصف الجيوش:

تموج كموج البحر تحت غمامة   قد انتجت من وقع ضرب الحوافرِ

وأبو دهبل الجمحي بقوله يصف الليل:

وليلـــة ذات أجـــراس وأروقـــةٍ   كـــالبحر يتبـــع أمواجًـــا بـــأمواج

وأبدع ما استخرجته مخيلة شاعر بهذا المعنى قول امرئ القيس:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله   علـــيَّ بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــي

فقلـت لـه لمـا تمطـى بصـلبه   وأردف أعجـــازًا ونـــاءَ بكلكـــل

ألا أيها الليل ...... الخ

ومن تحبب بها إلى ممدوح المسيب بن علس بقوله:

ولأنت أجود من خليج مفعمٍ   متراكم الآذيّ ذي دفّاعِ

ومثله البحتري بقوله: «وهو مأخوذ عن أبي دهبل»:

إلى فتى يتبع النعمى نظائرها   كالبحر يتبع أمواجًا بأمواجِ

(٦٣) روى الزمخشري عن أبي النجم:

وصارمات في الأكف قضبا   تخالهن في الأكف شهبًا

وقال ذو الرُّمَّة:

وقد جرَّد الأبطال بيضًا كأنها   مصابيح تذكو في الذبال المفتلِ

وقال عنترة:

وتلمع فيها البيض من كل جانبٍ   كلمع بروق في ظلام الغياهبِ

(٦٤) شبه الطرواد بالنعاج التي يختلط صوتها في حظائرها عندما يستدر لبنها، وهناك الحملان تثغو لأماتها، والأمات تنظر إلى حملانها، فتثغو لها فيكون ثمة لجب وضوضاء، قابل الشاعر هنا بين إقبال الإغريق على الطرواد وزحف الطرواد على الإغريق مقابلة أعرب فيها عن انتظام الجند في الجيشين، فهيأ لنا الإغريق قومًا يزحفون سكوتًا لا كلام بينهم إلا لأولياء أمرهم، والجند تصغي وتطيع يخالهم الناظر بكمًا، وهم يتدفقون تدفق الأمواج التي تثيرها العواصف على الجرف، فتنقض على الصخور ويتصاعد زبدها بينا أن أعداءهم في هرج ومرج

لقلة ما ألفوا من الزحف كما ترى ذلك مفسرًا في البيت التالي حيث قال: إنهم أوزاع متألفون من كل فج وناد، ومتخلقون بشتيت الأخلاق، وهو وصف دقيق يؤيده التاريخ إذ كانت أمم التحالف اليوناني متقاربة الأخلاق متألفة الطباع واللغات بخلاف نجداء الطرواد الذين لم تكن لهم جامعةٌ يعرفون بها قبيل الحرب، ولما انتهى من وصف الزحف استطرد إلى ذكر مهيجاته بصورة رمزية كجاري عادته، ومن ثَمَّ وصف اصطدام الجيش بالجيش، وأخذ في التفصيل بما ينبئك بما له من طول الباع بمعرفة أطوار الكر والدفاع.

(٦٥) الهول والرعدة والفتنة أعلام مجسمة في شعره؛ ولهذا أعربناها إعراب الأعلام.

(٦٦) لا قول أصدق من هذا القول في وصف الفتنة، فإنها في بدء أمرها كلمة خفيفة أو حركة ضعيفة لا يكاد يعبأ بها، فإذا نمت لا حدَّ لتناهيها في العظم، ومهما وصفها الواصفون فلا يأتون بأحسن من هذا الوصف، قال طرفة بن العبد:

قد يبعث الأمر الكبير صغاره ... حتى تظل له الدماء تصببُ

وقال مسكين الدَّارِمي:

ولقد رأيت الشر بين الـ ... ـحي تبدأهُ صغارُهْ

ولو أنهم يأسونه ... لتنهنهت عنهم كبارُه

وقال ضوء بن اللجلاج:

ألـم تـر أن الشـر ممـا يهيجـه أصـــاغرهُ حتـــى يـــتم فيكبـــرا

وإن كمـــين العـــرّ يخفـــي دواؤهُ علـــى أهلـــه حتـــى يبـــين فيظهـــرا

(٦٧) اليلمق الترس.

(٦٨) لم يبق شاعر من الإفرنج لم يعجب بهذا الكلام، وتناقلوه خلفًا عن سلف ولا نرى عجبًا أن يأتي به شاعر مطبوع؛ لأنه يتبادر إلى كل بصيرة وقادة، وأمثاله كثيرة في منظومات العرب الذين لم يعرفوا شيئًا من أقوال هوميروس. ولله در أبي الفوارس إذ يقول:

وكـررتُ والأبطـال بـين تصـادمٍ وتهـــاجم وتحـــزبٍ وتشـــددِ

وفـوارس الهيجـاء بـين ممـانعٍ ومـــدافعٍ ومخـــادعٍ ومعربـــدِ

والبـيض تلمـع والرمـاحُ عواسـلٌ والقـــوم بـــين مجـــدَّل ومقيـــدِ

وموسـد تحـت التـراب وغيـرهُ فـوق التـراب يـئن غيـر موسـدِ

والجـو أقـتم والنجـوم مضـيئةٌ والأفـــق مغبـــر العنـــان الأربـــدِ

(٦٩) أنطيلوخ هو ابن نسطور، وكان من جملة طلاب هيلانة.

(٧٠) الصعاد جمع صعدة بمعنى الرمح.

(٧١) الفود مقدم الرأس.

(٧٢) الفينور هو ابن خلكودون، وكان أيضًا من طلاب هيلانة.

(٧٣) قطاع جمع قطيع للماشية.

(٧٤) الأجداد جمع جدَّة وهي الشاطئ.

(٧٥) المرتاد: الطالب.

(٧٦) الطعنة السلكى المستقيمة.

(٧٧) لما كان آخيل بطل أبطال اليونان، وكان في أكثر الإلياذة معتزلًا القتال رأى الشاعر ونعم ما رأى أن يعيد ذكراه حينًا بعد حين؛ ليظل راسخًا في ذهن السامع، ولا يذكره مرة إلا بما يعلي مكانته ويجل قدره، فتراه هنا قد آثره مفردًا على الجيش مجتمعًا، وأنطق بهذا الكلام الإله أفلون بما جعل له من الهيبة فوق ما يحرز من الفخار لو انتصر في عدة مواقع.

(٧٨) حيثما نرى إلهًا منحازًا إلى فئة رأينا آخر منحازًا إلى الفئة الأخرى، فهنا أفلون بين الطرواد يشير إلى ثبوت الجأش، وأثينا بين الإغريق إلى الإقدام والتروي.

(٧٩) مماد: ممهل.

(٨٠) يضع هوميروس نفسه موضع الشاعر وسامع الشعر، فيأبى على نفسه أن يدع سبيلًا إلى مل شعره؛ ولهذا تراه كلما أتى على وصف واقعة أو حادثة أيًا كانت تورث الملل إذا طالت يفكه سامع شعره بنكات وتشابيه واستعارات تجتذبهُ إلى الإمعان فيها، وحسبك شاهدًا ما ختم به

هذا الفصل فإنه بعد أن هيَّأ الجند للقتال، وأتى على كل وصف بما تقتضيه الحال فأوجز في ذكر الزحف، وأسهب بعض الإسهاب الذي لا بد منه في معترك القومين ختم كلامه، ولخص مقاله بكلام جزل ترتاح النفس في البقاء عليه، فَصَوَّر ما يتجلى لعين الناقد البصير لو تسنى له أن يجول بين هاتيك الصفوف في مأمن من الحتوف، قال عنترة:

عنــاجيجٌ تخــب علــى رحالهــا   تثيــر النقــع بــالموت الــزؤامِ

إلــى خيــل مســوَّمة عليهــا   حمــاة الــروع فــي رهــج القتــام

عليهــا كــل جبــارٍ عنيــدٍ   إلــى شــرب الــدماء تــراه ظــامي

بأيــديهم مهنــدة وســمرٌ   كــأن ظباتهــا شــعل الضــرامِ

فجــاءوا عارضًــا بــردًا وجئنــا   حريقًــا فــي غريــق ذي اضــطرامِ

وأسكت كل صوت غير ضربٍ   وعترســة ومرمــيٍّ ورامِ

النشيد الخامس

بطش ذيوميذ

مُجْمَلهُ

اندفع ذيوميذ إلى ساحة القتال بإيعاز آثينا، فقاتل قتال الأسود، وكان آريس إله الحرب عاملًا على نجدة الطرواد، فحملته أثينا على مغادرة ميدان الكفاح فاصطدم الجيشان، واستظهر الإغريق وجرح ذيوميذ بسهم أطاره عليه فنداروس، ولكن الجرح لم يكن قاضيًا.

فاندفع ثانية وفتك بالأعداء فتكًا ذريعًا، فاجتمع آنياس وفنداروس على قتال ذيوميذ، فجندل ذيوميذ فنداروس وكاد يفتك بآنياس لو لم تبادر أمه الزهرة، وتحلق طائرة به، وكانت أثينا قد جعلت لزيوميذ قوة التمييز بين الآلهة والبشر وأغرته بطعن الزهرة أيان تسنى له ذلك، فأطار عليها سهمًا وجرحها في يدها فأسرعت إلى الأولمب، وشكت إلى أمها ما نالها من تحامل ذيوميذ عليها، فطيبت قلبها ولأمت الجرح، وبادرت أثينا وهيرا فشكتا الزهرة إلى زفس حتى لا يتأثر لشكواها، وما لبث ذيوميذ بعد ذلك أن قصد الإيقاع بأفلون، فزجره أفلون ونادى بآريس لنجدة الطرواد فتزيا آريس بزي بشر وأسرع فاستنهض همم الطرواد فهاجت الحمية هكطور وعاد آنياس سالمًا، واصطدم الجيشان وجرت الدماء سيلًا من الفريقين، وكان أشدهم بطشًا هكطور بين

الطرواد، وذيوميذ بين الإغريق، وكان آريس نصيرًا للطرواد في تلك المعمعة ففازوا الفوز المبين، ففزعت هيرا وآثينا للإغريق فصعدتا إلى السماء واستأذنتا زفس فأذن لهما بصد هجمات آريس، فحثت أثينا ذيوميذ على الفتك به فطعنه وجرحه، فصعد يشكو أمره إلى زفس فأنَّبه وعنفه ثم أمر بالتئام جرحه، وعادت من ثم أثينا وهيرا إلى مقام زفس.

مجرى وقائع هذا النشيد كالنشيد السابق، وهي حلقة من حلقات يومه أيضًا.

النشيد الخامس

حبــت فــالاس ذاك اليــوم عزمًــا	وبأسًـــا لابـــن تيـــذيُس مَنِيعـــا ١
لــيعظُمَ فــي بنــي الإغريــق شــأنًا	ويبلـــغ فـــيهم الشـــرف الرَّفيعـــا
وفـــوق صِـــفَاح مغْفـــرِهِ أفاضـــت	وفـــوق مجنِّـــه قَبَسًـــا بـــديعا
فَشَـــــبَّ بِرَأْسِـــــه وبِمَنْكبَيْـــــه	شـــعاعٌ فـــاض منـــدفقًا ســـطيعا
ككوكبــة الخَرِيــف قــد اســتحمَّت	بلُـــجِّ البَحْـــرِ وامتطـــت الرَّقيعـــا ٢
وألقتـــه إلـــى حيـــث الأعـــادي	تُكتَّـــف مـــن كتائبهـــا الجموعـــا
«وكـــان بزمـــرة الطـــرواد شـــيخٌ	وفيـــر المـــال لـــم يُـــدْنَس صـــنيعا
بـــذارس عرَّفـــوه وكـــان إلفًـــا	لهيفســـــتٍ وكاهنـــــه المُطيعـــــا
كـــذا ولـــداه إيـــذيس وفـــيغس	ضـــروب الحـــرب قـــد بلـــوا جميعـــا»

فكرًّا فوق مركبةٍ عليه — وأقدم راجلًا يطس الرُّبوعا٣

وبادر فيغسٌ لمَّا تَدَانَوا — إلى مزراقه طعنًا مَرُوعا

فعن كتفيه مُنعطفًا يَمينًا — مضى ونبا ولم يسل النَّجيعا

فزجَّ ذيومذٌ بشحيذ نصلٍ — فشقَّ الصدر واخترق الضُّلُوعا

فَخَرَّ إلى الحضيض وَخَارَ عَزْمًا — أخوه ففرَّ مُنْهَزِمًا هَلُوعا

فغادر متن مركبه ولولا — إلهُ النَّار أدْرَكَهُ صَرِيعا

فَهِيفستٌ هُنا واراه حَتَّى — يُخَفِّف عَن حشا الشيخ الصُّدُوعا

وصاح ذيومذٌ بذويه هَيُّوا — إلى السفن الجياد خذوا سَرِيعًا٤

فَجَلَّ الخطبُ بالطرواد لمَّا — عَنَا بطليهما جُهدًا أُضِيعا

فذا مُلْقًى تخضَّب من دماهُ — وذا لاوٍ بخيبته رُجوعا

بَكَفٍّ إله الحرب فالاس أمسكت — وقالت: «إلى مَ الفتك يا سافك الدِّما

ويا هادم الأسوار يا باعث الفنا — ألا ما تركنا الحرب للنَّاس مَعْلمًا

بشأنهم دَعْهُم ونحن بمعزلٍ — ومن شاء زفس فليعزَّ مُحكما

بذا نَتَوَقَّى غَيْظَهُ» وَمَضَت به — لضقَّة إسكامندر حيث أحجما

فَوَلَّت لدى الإغريق طروادة العدى — وكل زعيمٍ منهم اجتاح أيهما

فكان أغاممنون أوَّل فاتكٍ — بأوذيسٍ من للهليزونة انتمى

فألقى إليه طعنةً وهو مدبرٌ — بمركبةٍ يبغي الهزيمة مَغْنَما

فَقُوِّض مبتتًّا إلى الصَّدر ظَهْرُهُ — فَجُندِل مَصْرُوعًا على الأرض وارْتَمَى

فَصَلَّت عليه شكَّةٌ وإذُومنٌ — على ابن الميوني بورس كرَّ مُقْدِما

فمن أرْض طَرْنا كان فَسْطُس قد أتى فَرَاحَ ونُورُ الطَّرف بالحتف أظْلَما

لقد كاد يعلو مَتْن مركبِهِ على رجاء نجاةٍ والحمام تَقَدَّما

على كتفٍ يُمْنَى تولّته طَعْنَةٌ فألْقَتْه في تُرب الحضيض مُيَمَّما

فَبَادَرَ أصحابُ المَلِيكِ إذومنٍ لنزع سلاحٍ عنه كسبًا مُسَهمًّا

ورام منيلا إسكمندر ستْرُفٍ فبادره طعنًا برُمحٍ تَقَدَّما

«لقد كان بالأنضاد هَوْلًا مروعًا لوحش الفلا والرَّمي بالنَّبل أَحْكَمَا

وقد علّمته أرطميس فنونها فلم يغن بأسٌ فيه بالشُّمِّ قَدْ سما[5]

فمن منكبيه أولج الرُّمح نافذًا إلى الصَّدر لمَّا للفرار تَجَشَّما

أكب على وجه الحضيض بوجهه ومن فوقه صوت الحديد تَهَزَّما

وأقبل مِرْيونٌ وراء فركلسٍ وبادره طعنًا بردفٍ تهشَّما

فأنفذ تحت العظم نصلٌ مُمزَّقصا مثانَتَه فانقض يجثو مُهَمْهِما

هو ابنُ السَّرِي هَرْمُوْنذَ الصَّانع الذي أَجَلَّتْه فالاسٌ وزادته أنْعُما

وقد عَلَّمَتْه شائق الذوق وابنه حكاه وأعمال اليدين تَعَلَّما

فأتقن صُنعًا فُلك فاريس جُمْلةً فكانت عليهم وبل شرٍ مُعَممَّا

وفارقه نور الحياة ولم يكن ليفقه أنباء السماء مُقَدَّما

وفيذيس وافاه ميجيسُ طاعنًا فَذَالا بِمَسْقي السنان تفصَّما[6]

فَمَرَّ سنانُ الرُّمح بالفَكِّ خارقًا ثناياه واقتبَّ اللِّسان مُصَرَّما

فَخَرَّ يعضُّ النصل في التُّرب خابطًا ومُهْجَة أنطيْنُور بالحزن أَضْرَما

«هـو ابـنٌ لـه مـن غيـر زوجٍ حليلـةٍ ... وعنـد ثيـانو زوجـه الحـلِّ قـد نمـا
فحُبًّـا بـأنْطِينُور مثـواه أكْرَمَـت ... فَشَـبَّ ربيبًـا كـالبنين مكُرَّمًـا»
تـلاه ابـن ذولفُيـون كـاهن زنـشٍ ... ومـن كـان كالأربـاب فـيهم مُعَظَّمـا
تـأثَّرَه أوريفـلٌ وهـو قافـلٌ ... فلـم يجـده أن يُسْتذَلّ وَيُهْزَمـا
فأدركـه يبتـتٌّ بالسَّـيْفِ كَتْفَـهُ ... فَمَـاتَ ولـم يُـدْرِك مَرامًـا تَوَهَّمَـا
لـو تَرَبَّصْـتَ والعَجَـاج اسْـتَطارا ... ونجيـع الـدِّماء سـال وفـارا٧
وتَبَصَّـرت بـابن تيـذيسٍ لـم ... تـدر أيُّ الجيشـين منـهُ أغـارا
مُسْتَشِـيطًا يـنقض فـوق الأعـادي ... ينهـب السـهل بـين عـادٍ وغـاد
كخلـيج يضـيقُ بالسَّـيل مَجْـرَا ... هـ فيستأصـل الجُسُـور الكبـارا
ويقـضُّ السـدود والزُّبـد يـدفع ... ومبـاني الحُـرَّاث منـه تُزعـزع
وتلاشـى آمـالهم بعبـابٍ ... سـاقه زفـس فوقـه مِـدْرارا٨
فصـفُوُف العَـدَى وإن زِدْنَ عَـدًّا ... ضِـقْنَ ذَرْعًـا عَـنْ صَـدِّهِ اليَـوْم صَـدًّا
شُـتِّتُوا حيـث ثـار يُعْمـلُ سُـمْرًا ... فاريـاتٍ وصـارمًا بتَّـارا
سـاء صـنديد ليقيـا أن رآه ... يخـرُقُ الجَـيْشَ صَـائِلًا بِقُـواهُ٩
فَعَلَيْـه مُسَـدِّدا مـد قوسًـا ... وإِلَيـه أمَـرَّ سَـهْمٍ أطَـارا
لخلايـا الـدُّرُوع سـار وأَوْلـجْ ... وَبِيُمْنَـى الكتفـين غـار يُهَمْلِـج
فَجَـرَت تَخْضِـب الـدروع دمـاءُ ... ودعـا فنـدروس ينمـي الفخـارا
«يـا خيـار الفرسـان قـوم الـولاء ... بـادروا قـد أدميـت خيـر أخـائي
إن يكـن صـادقًا دعـاء ابـن زفـس ... لـي فبالسَّـهم سوف يَلْقى البَـوَارا»١٠

إنمـا الجـرح لـم يكـن قتَّـالا　　والجـريح انثنـى يـروم العجـالا

جـاء أسْـتِينْلًا وقـال: «أخـي بـا　　دِرْ وأخـرج سـهمًا بكتفـي غـارا»

فـإلى الأرض واثبًـا مـال يجتـر　　ذلـك السَّـهْم والنَّجِيـع تَفَجَّـر ١١

قـام يـدعو ذيُومـذٌ ودمـاهُ　　صـبغت حلَّـةُ الـزُّرُود احمـرارًا

«إن تكـوني يـا بنـت ربِّ التُّـروس　　زدتنـي البـأس يـوم قَـرْعِ البُنُـوس١٢

وأبـي قَبْـلُ عنـه لـم تَتَخَلَّـى　　لا ترومـي عـن مبتغـاي اسـتتارا

قربـي مـن مرمـى حرابـي غـرورًا　　صـال وليلـق مـن ذراعـي الثُّبـورا

قـد رمـاني وظـنَّ يَفْخـر أَنِّـي　　مـن سـنا الشـمس لـن أرى الْأَنْـوَارا»

فأصـاخت وَجَـدَّدت فيـه حَزْمًـا　　ونشـاطًا وشَـدَّدَت مِنـهُ عَزْمًـا

وإليـه مَالَـت تَقُـولُ: «ألا كـ　　ـرَّ علـى موقـف العِـدى تَكْـرارا

فيـك أنزلـت كُـلَّ بـأس أبيكـا　　وأزلـتُ الغَمـامَ حَتَّـى أُرِيكـا

فالحِجـابُ انجلـى فَتَعْرِفُ مـن تلـ　　ـقى أإنسًـا أم خالـدًا قَهَّـارا١٣

فلـئن خِلْـتَ خَالـدًا جَـاءَ يَبْلُـو　　فاجْتَنِبْـهُ مـا أنـت لِلصَّـدِّ أهْـلُ

غيـر قبـريس إن تلـح لـك فاطعنـ　　ـها ولا ترهـب انتقامًـا وثـارا» ١٤

وتـوارت عنـه فهَـبَّ مُغِيـرًا　　مـذ أثـارت للبطش فِيـهِ سَعِيرا

ثَلَّثَـت عَزْمَـه فَكَـرَّ يُحَـاكي　　بأعاديـه ضَـيْغمًا هَصَّـارا

كَهِزبـر بـين المراعـي يفـاجي　　واثبًـا فـوق راتِعـات النِّعـاج

يبتليـه الرَّاعـي بسـهمٍ فَتَـزدا　　د قـواه وينثنـي لا يُجَـارى

يَتَخلّــى الرَّاعــي ســحيق الفُــؤَاد ولمـــــأواه يلتجـــــي بارْتِعَـــــاد
فَتُـــــراع الشـــــياه مرتميـــــاتٍ جازعـــاتٍ ينفـــرن منـــه نَفَـــارا
عائثًــا عابثًــا منــى الــنفس يقضــي ثُـــمَّ عــــنهنَّ بالمفـــاوز يَمْضِـــي
هَكَـذَا فــي العــدى ذيُومِيــذُ أَلْقــى رَوْعَــه كالأَسُــود لَــيْسَ يُبَــارى١٥
فبهيفيـــــــــرنٍ وأسْـــــــــتِينُوُس بادئًــا حــام حَــوْلَ قَتْــلِ النُّفُــوس
فَرَمــى عُنْــقَ ذاك بالسَّــيْفِ والبــأ ديل بـالرَّأس عن عُرى الجِيد طَارا١٦
وعلـــى ذا بالثَّـــدي مَـــدَّ قنـــاه فرمـــاه ثـــم انثنـــى لســـواهُ
وعلـــى ابنـــي أفريـــذماسٍ أبـــاسٍ وفليــــذ كـــأس الحتـــوف أدارا
«لـم يفـده أن كـان شـيخًا خبيـرًا مـــن رؤى الخلـــق يَفْقَـــه التَّعْبِيـــرا
لـم ينـل مـا أغنـاه عـن مصـرع ابنيـ ـــه علــى حــين للقتــال أســارا»
بهمـــا فاتكًـــا ذِيُوميـــذ أتْبَـــع زنثسًــا مــع ثــوُوْن وَانْسَــاب يَهْــرَعْ
بهمـــا للهـــلاك ألقـــى وأَبْقَـــى لِفنُـــــبْسٍ أبيهمـــــا الإِدْبَـــــارا
فَهُمـــا عَـــــزَّ عُمْــــرِهِ ومُنَـــــاه وارثَـــا كُـــلِّ ذُخْـــرِهِ وَغِنَـــاهُ
لــم يُؤَمِّــل سِــوَاهُما مــن وَلِــيٍّ وبـــه العَجْـــزُ أنْشَـــبَ الْأَظْفَـــارا
بقـــي اليـــأس والتَّحـــرُّق فيـــه حظَّـــه والأمـــوال حَـــظَّ ذَوِيـــه١٧
وَذِيُوميْـــذُ حَظَّـــه الفتـــك فانقــ ـضَّ علــى ابنــي فريـام يُهِمـي التَّبَـارا
نَحْـــوَ إيخيمـــون وأخْـــرُ ميُـــوس شَــبَّ كاللَّيــث فــوق قَطْـعِ الــرُّءُوس
ذاك لما في الغاب يسحق عُنْقَ الـ ـــثَّور سَـــحْقًا وينثنـــي مُمْتَـــارا١٨
هَـــبَّ يَرْمِيْهمـــا بِمَرْكَبَـــةٍ قَـــدْ رَكِباهـــا وَعُـــدَّةَ الْحَـــرْب جـــرَّد

وإلــى صَــحْبِهِ أشــار بــأن ســو　　قــوا إلــى الفلــك خَيلَهــا إلا حــرارا

فــرأى آنيــاس فَتْكًــا ذَرِيْعــا　　منــه بــالقوم راح يجــري سَــرِيعًا ١٩

تحت وقع القَنا وَوَقْع السِّهام انـ　　ــساب يبغــي ابْــن لِيْقَــوُوْن اغْتِــرَارا

فأَتَــاهُ مِــن بَعْــدِ جهــدٍ جَهِيــدِ　　مستجيشًــا بالبــأس بــين الجُنُــود

قــال: «يـا فنـدروس حَتَّـى مَ قَوْسًـا　　وســهامًا قـــد ادَّخـــرت ادِّخـــارا

وإلــى مَ احْتويــت مجــدًا قــديمًا　　هــلْ هُنْــا مَــن حكــاك شَــأْنًا عظيمًــا

وأَشَــدُّ الرُّمَــاة فِــي لِيْقِيــا هَــلْ　　بـــكَ قِيْسُـــوا مَهَـــارةً واشْـــتَهَارا

دُوْنَـك القَـرْمَ ذا الـذي غـاب عنِّـي　　نـــور عرفانـــه أحقَّقـــت ظنِّـــي

وَلِــزَفسٍ بســـطت كفًّــا وأنْفَــذْ　　ت لــه ســهمك المــريش اهْتِــوارا ٢٠

كـم رقـابٍ رمـى وكـم مـن ركـاب　　قــد لــوى مــن بواســل الأتــراب

فعســى لا يكــون ربًّــا مغيظًــا　　لــم نقــدِّم لــه الضــحايا الكثــارا

إنَّ غَـيظَ الأَرْبـابِ أدْهـى الشُّـرُور»　　قــال: «يــا آنيــاس خَيْــرَ مُشِــيرِ ٢١

إن يكــن صــادقًا مَقَــالي وظَنِّــي　　فــــأرى ذا ذِيُومِــــذَ الجَبَّــــارا

ذاك حتمًــا مِجَنُّـــهُ والقَتِيـــرُ　　هــــذه خَيْلُــــهُ السِّــــراع تُغِيــــرُ

هــذه الخُــوْذَةُ المُثَلَّثَــةُ الأطــ　　ــراف لكــن لا أجْــزِمنَّ ائْتِــرَارا ٢٢

فهـــو إمَّـــا ربُّ ذِيُوْمِيْـــذَ مَثَّـــلْ　　أو إلــى جانبيــه فــي الغــيم أقْبَــلْ

فَيَلِيــهِ ويــدفع الصــمَّ عنــه　　ويقيــــه ويرفـــع الأخطــــارا

كــاد ســهمي يُذيقــه الحَتْـفَ لمـا　　غـار فـي الكتـف والـدَّم الجَـمَّ أهمـى

خلْتُـــهُ للْجَحِـــيم يَمْضِـــي وَلكِـــن   كَـــــرُّهُ الآن كَـــــذَّبَ الأَفكـــــارا

آه أيـــن العجـــالُ أيـــن جِيـــادي   راجـــلًا جئـــت طامِعًـــا باشـــتدادي

وعلـــى الرُّحـــب مَرْكَبـــاني إحـــدى   عشـــرة فوقهـــا ســـدلتُ السِّـــتارا

ولكــــــلٍ مُطَهَّمـــــــان وأكثـــــــر   تقضـــم الـــدَّوم والشَّـــعير المُقَشَّـــر

لـم أعِ النُّصـح مـن أبـي الهـمِّ لمَّـا   قـــد تجشَّـــمْت لِلْـــوَغَى الأســـفارا

قـال فاذهـب وكُـنْ بِصَـدْر الكُمَـاة   وعلـــــى القـــــوم كُـــرَّ بالمركبـــات

فهـــو بـــالحقِّ قـــد أشـــار ولكـــن   قـــد رأيـــت العُـــدُول عَمَّـــا أشـــارا

قلت تَضوَى الجِيادُ في تي الديار   لامتنـــاع الكـــلاء تحـــت الحصـــار

راجـــلًا جئـــت أرئـــس القـــوم مغتـــ   ـــرًّا بقـــوسٍ منهـــا لقيـــت الشـــنَّارا

قـــد رميـــت العميـــد أتْرِيـــذ عَنْهـــا   وذِيُوميـــــذ نَالَـــــه الجُـــــرْح منهـــــا

فجـــرت منهمـــا الـــدماء ولكـــن   فيهمـــا البـــأس زاد والجـــأش ثـــارا

ســاد لا شــك طــالعُ السُّــوءِ لمَّــا   قـــد تناولـــتُ هـــذه القـــوس وَهمـــا

ولإليـــون قُمْـــتُ حبًّـــا بهكطـــو   ر بقــــومي إلـــــى الـــــوَغى أمَّــــارا

فلـــئن جئـــت زوجتـــي وأليفـــي   وصـــــروحي بعاليـــــات السُّـــــقُوف

لا تخلّــى عــن قطــع رأســي عــدوٌّ   إن بخبــــري لــــم أنفـــذ الأخبـــارا

هــذه القــوس شــرَّ سَــحْقٍ سأســحق   ولجـــوف النِّيـــران ترمـــي فَتُحْـــرَق

راح كـــالرِّيح نَفعُهـــا فـــي لا تُجـــ   ـدي ائتمـارًا كمـا علمـت اختِبـارا»٢٣

قـــال: «يـــا فنـــدروس مهـــلًا وهيَّـــا   بعجــــــالي لكَبْحِـــــــه نتهيَّـــــــأ

فَهـــي أولـــى للصَّـــدِّ أقْبِـــل وبـــادر   نَتَـــــــرَبَّص لِمُلْتَقَـــــــاه ابْتِـــــــدَارا

فجيــادي لســوف تَخبْــرُ خُبْــرا جَرْيهــا فــي السُّــهول كــرًّا وفــرًّا

وإذا زفــس شــاء نصــر ذيوميــ ــذ بهــا عــن منالــه نَتَــوارى

فخـذ السـوط ثـم أجـر الخيـولا وأنــا للكفــاح أبغــي ســبيلا

وإذا تبتغــي النــزال فلــي الخيــ ــل فمـا شئت فاتَّخـذه اختيـارا» ٢٤

قـال: «يـا آنيـاس عنـدي أحـرى أن تسـوق الجيـاد مـذ كنـت أدرى

خشــيتي لا تَنْقَــاد لــي ولصَــوْتي إن دُفعنــا إلــى الفِــرَار اضــطرارا

جامحــاتٍ تُغِيــر بــين الجنــود فَيُــوافي ذيومــذٌ بالحَديــدِ

وكلينــا يَجْتَــاحُ والخيــلَ يَقْتــا د فسـقُها فأنـت أكْفـى اختبـارا٢٥

ولــيَ الطعــن بالقنــا والحــراب» ثــمَّ ســاقا بشــدَّةٍ واصْــطِخَابِ

لذيوميـــذ قـــال إســـتينلوسٌ عنــد مــا أقــبلا يشُــبَّان نــارا

«يـا حليـف الفـؤاد نِـدَّيْن ألْقـى نهضــا الآن يطلُبانــك حقَّــا

آنيــاس بــن عفْرُذِيْــتَ وأنْخِيــ ــس كــذا فَنْدَرُوسًــا المِغْــوَارا

فــاتَّقِ الآنَ فاجِعــات المَنَايــا لا تكــن فــي مُقــدَّمات السَّــرايا

وَخُطَــى الجُــرْدِ فَلْنُــؤَخر» فَوَافَــا هـ ذيوميــذ بالمَقَــال ازْوِرارا

«لا تُحــدِّثني بــالفرار فــإني لا إخــال المــرام تبلــغ مِنِّــي

لــيس شــأني وشــأن أهلــي قبلــي أن نُــوَلِّي يــوم الــوغى الإدبــارا

لــي عــزمٌ لا ينثنــي للخطــوب جـل عـن سـوق مركبـات الرَّكـوب

هاكهــا راجــلًا أصــول مكــرًّا وأثينــا قــد حرَّمــت لــي الفــرارا

لـــن تُنَجِّيهمـــا الجيـــاد جَمِيعـــا إن نَجـــا ذا فـــذَاكَ أُلْقِـــي صَـــرِيعا

إنَّمـــا لـــي بـــالأمْر غيـــر مَـــرامٍ فـــادَّكِرْه إذا بطشـــت ادِّكـــارا

لَهُمَـــا إنْ أَذَقْـــتُ كـــأْسَ الحِمَـــامِ وأثينـــا بـــذاك أَعْلَـــت مَقَـــامي

ألـقِ حَـالًا صُـرُوع خَيْلِـي فـي مـر كبتـــي واجـــرينَّ منهـــا ائتشـــارا٢٦

وامـــض وافتـــد مُطَهَّمِـــي آنيـــاس خيـــر مـــا فـــي الـــدنيا مـــن الأَفْـــراس

نُتِجـا مـن جيـاد زَفْـسَ التِّـي للمـ ـــلك أطـــروس أَهْـــدِيَت تَـــذْكارا

عـــن غنيميـــذٍ ابنـــه المَرْفُـــوعِ عوضًـــا نـــال أصـــل خيـــر الفـــروع٢٧

رام أنْخِـــيْسُ نَسْـــلَها فَبَغَاهـــا خِفْيَـــةً حيـــث أَلْقَـــحَ الأَحْجَـــارا

ســـتَّةً أَنْتجـــت فَـــزَوْجَيْن أبْقـــى وإلـــى آنيـــاس ذا الـــزَّوج أَلْقـــى

هاكَـــهُ يَنْهَـــب السُّـــهُول انْتهابًـــا آه لـــو منـــه أبلـــغ الأوطـــارا»

هـــذا حـــديثهما انتهـــى وعليهمـــا بطـــلا الطـــرواد بالعجاجـــة أقـــبلا

حتَّـى إذا وقفـا علـى مرمـى القنـا دُفـــع ابـــن ليقـــاوون يُنْشِـــدُ أوَّلا

إن طـاش سَـهْمِي يـا ذيوميـذ ففـي ظبـة السِّـنان لـك الحمـام مُعَجَّـلا»

ورمـــى القنـــاة فأولجـــت بمجنِّـــه وتخلَّلتـــه إلـــى الـــدُّرُوع تخلّـــلا

فَغَـــرَ ابـــن ليقـــاوون فـــاه كأنَّـــه رَعْـــدٌ دَوَى مستبشـــرًا مُـــتَهَلِّلا

«ولجت حشـاك فأنت حَتْمًـا هالـك وأنـــا أنـــا نِلْـــتُ المَفَـــاخِر وَالعُـــلا»

قـال ابـن تيـذيُس: «هنـا ربُّ الـوغى يسـقى الـدِّما مـن جـوف مفـريِّ الكلـى

إن فـــاز بعضُـــكُما وَفَـــرَّ مُوَلِّيـــا مـــن صـــولتي لا فـــوز لِلثَّـــاني ولا»

وعليـه صـوَّب طعنـة قـذفت بهـا تفـري وتيرتـه فـلاس مـن العلـى٢٨

خرقت ثناياه وجذع لسانه … للحي حيث بَدَت فَخَرَّ مُجَنْدَلا٢٩

فتصلصلت نثراته بسلاحه … والخيلُ شَبَّتْ تَقْشَعِرُّ تَجَفُّلا

فانْقَضَّ يَحْمِي آنياس رَفِيقَهُ … خوفًا عليه من العدى أن يحملا

متدججًا كاللَّيث حام عَلَيْهِ لا … يَخْشَى ولا تلويه جَمْهَرَةُ الملا

وعليه مَدَّ قناته ومجنَّه … بهديده متشوِّفًا مُتَبَسِّلا

عمد ابن تِيْذيُس لهائل صَخْرَةٍ … في عصرنا بطلان لَنْ يَتَحَمَّلا٣٠

حَنِقًا رماه بها بغير تَكَلُّف … بالفخذ يَسْحَقُ حُقَّهُ مُتَعَجِّلا

برز الأديم ومُزِّقت عضلاته … فجثا على وجه الحضيض مُثَقَّلا

مُسْتَقْبِلًا وجه الثرى بذِراعه … والحتف إثر سقوطه مُسْتَقبلا

فَارْبَدَّ ناظِرُهُ ولولا أُمه … قبريس مُبْصِرَةٌ لأدركه البلى

عَشِقَت أباه قَبْلُ وَهْوَ بأَرْضِهِ … يَرْعى العُجُولَ فَرَاودته تَمَحُّلا

والآن عطف الأَمَّهَات على ابْنِها … عَطَفَت تبادر حيث مصرعه انْجَلى

ألقت عليه بضَّ أذْرُعها وقد … خشيت عليه طعن مطلب قلا

سترته في بُرْدٍ زَهِيِّ خُوِّلت … رصدًا يصدُّ العاليات الذُّبَّلا٣١

ومضت به من ساحة الهيجاء تحـ … ـمله عن الأعداء تطلُبُ مَعْزَلا

وَوَعى ابن قافانيْس ذِيُومذٍ … فاستوقف الأفراس ثُمَّ تَرَجَّلا٣٢

وَسَعى إلى خيل الصريع يَحُثُّها … حَتَّى بها بين الأغارق أدْخلا

وَدَعا أحب رِفَاقَه ذِيْفيلسًا … لِدَةٌ له حاكاه مَعْنًى مُجْمَلا

لِلْفُلْـكِ سَـيَّره بهـا وهـو انثنـى لحثيـث مَرْكَبَـةٍ لَـهُ مُسْـتَعْجِلا

أخـذ الصُّـروع السَّـاطعات بِكفِّـه واسـتاق بـالعنف الجيـاد مُجَفِّـلا

ومضـى يـروم ذِيُوْمِـذًا وذيومـذ فـي إثـر قبـريس يشـقُّ الحَجفَـلا

مُتَقَصـيًّا يَجْـرِي ويعلـم أنَّهـا ليسـت علـى بـأسٍ يَـرُوْعُ مهـوِّلا

ليسـت كإينيَّـا مهدمـة الفنـا أو مثـل آثينـا وربَّـات الـبلا

وإذا بهـا فـي لُـبِّ أوْزَاع العِـدَى فَعَـدا إليهـا طاعنًـا مُسْترسـلا٣٣

نفـذ السِّـنان بِبُردهـا الـبهج الـذي نسجت لها البهجات حتَّى تَـرَفلا٣٤

وجـرى لمعصـمها اللَّطيـف فَفُطِّرَت بَشَـرَاتُهُ بِـدَمٍ عليـه تَهَـيَّلا

بـدم نقـيٍّ بـل عصـيرٍ رائـقٍ بِعُـرُوق أرْبَـاب العِبـاد تَسَلْسَـلا

فهـم ولا خبـز ولا خمـر لهـم خَلَـدُوا وَمِـنْ دَمِنَـا وجـودُهُمُ خَـلا٣٥

صَـاحَت وَأَفْلَـتَ آنِيـاسُ فَقَلَّـه بيَدَيْـهِ فِيْـبُسُ بالسَّـحابِ مُظلِّـلا

وَمَضَـى بـه طَمَعًـا بِحِفْـظِ حَياتِـهِ وذِيُوْمِـذٌ بجهيـر مَنْطِقِـهِ تَـلَا

«يا بِنْتَ زفسَ كفى فكُفِّي وارْعَوِي لـن تَخْـدَعِي إلَّا النِّسَـاء الخُمَّـلا

فلـئن رجعت إلى الحروب فَـذِكْرُها سـترين يُوْلِيـك الوَبَـال الأَثْقَـلا»

مضت وفي قَلبها من غَلْبها غُصَصٌ مـا بـين مضـطرب أمسـى وملتهـب

وناصـع الجسـم دامٍ كـادَ يُلْبِسُـهُ ثَوبَ السَّوَادا اشتداد الغَيْظِ والكَرَبِ

فبادرتهـا تُجَـارِي الـرِّيح طـائِرَةً إيـريس تَـدْفَعُها عـن مضْـرَبِ القُضُـب

إذا بـآريس يسـرى القـوم تحجبـه والـرمح والخيـل أرْكَـام مـن السُّـحُب

أحنـت علـى رُكْبَتَيْـهِ تَبْتَغِـي عَجَـلًا خَـيْلًا لَـهُ مُلْجَمـات خـالص الـذَّهَب

قالت: «أخي أعرنيها لتذهب بي ... لِمَرْتَع الخُلْدِ إنَّ الجُرْح بَرَّح بِي
أنالنيه ابن إنسيٍّ أخُو قِحَةٍ ... لا يَنْثَنِي جَزَعًا حَتَّى لِزَفسَ أبي»
فقال: «دونك أفراسي ومركبتي» ... حلت بها بفؤاد خار مكتئب
وإيرس وصُروع الخيل في يدها ... تستاقها وهي أجرى من سنا الشُّهب
حتى إذا لذُرَى شُمّ الأَلمب عَلَت ... فاستوقفتها وحلّتها من القَتَب
وبادَرَتها بقُوت الخُلد وانْطَلَقَتْ ... لأمِّها قبْرسٌ تَحنُو على الرُّكَب ٣٦
هَشَّت لها واسْتَضْمَّتها لمهجتها ... ذِيُونَةٌ تَسْتَقِصُّ الأمر بالعَجَبِ
«وأيُّ رَبٍّ كما لو كنت جانيةً ... جنى عَلَيْك كَمَا ألْقاك أيُّ غَبي»
قالت: «فَمَا كان رَبًّا جَلَّ بَلْ بَشرًا ... ذاك ابن تِيْذيسٍ مُسْتَمطِر النُّوبِ
لأنّني آنياس رُمْتُ نَجْوَتَهُ ... أعَزّما لي بأهل الأرْض من نَسَبِ ٣٧
فالدَّانَويُّون بالطِّرواد ما اجتزءوا ... حتى إلينا انْثَنَوا بالبيض والشُّهُبِ»
قالت ذيونة: «صبرًا كم لنا مَثَلٌ ... بالناس يَبْلُونَ أهْلَ الْخُلْدِ بالنَّصَبِ
فإسوَةٌ لكِ آريسٌ وَهَيْبتُهُ ... عامًا وشهرًا ثَوَى في السِّجْن لم يُهَبِ
أَلْقاهُ فيه ابن ألويسٍ أتُوس كذا ... أخوه إفْيَلْطُس بالذِّل والحرب
وكبَّلاه بأغلال الحديد وما ... أجْدَاه من غضب يشتدُّ أو صخب
وكاد يَهْلِكُ لو لم تُنْم مخْبَرَه ... إيريب إذ صانَهُ هِرْمِيس بالحُجُبِ ٣٨
وهيرَةٌ فابن أمْفِترونَ أَلّمها ... بشرٍّ سَهْمٍ بأعلى الثَّدي مُنتشب
ونفس آذيس ذاك القرم أورثه ... مر العذاب بسهم عنه لم يخب

أطـاره دون أبـواب الجحـيم لـه عمـدًا فـنكص ملتاعًـا علـى العقـب
فـأم صَـرْحَ أبـي الأربـاب زَفْـسَ أخـا بـؤسٍ بِنَبْـلٍ بِعَظـم الكتـف مُنْتَصِـب
فــذرَّ بَلْسَــمَه فيُــون يبرئــه مذ كان من خالدي الأَذْهارِ والْحَقب٣٩
فيـا لويـل بنـي الإنسـان إن حملـوا على بني الخلد عن حمق وعن غضب
فـالاس أغْـرت ذِيُوميـذا عَلَيْـك ولـم يعلـم لصُـنْعِ يَدَيْـهِ أيَّ مُنْقَلَـب٤٠
لم يَدْرِ أنَّ على الأرباب من كَسَبَت يـداه شـرًّا إلـى الْأوطـان لـم يَـؤُبِ
فـلا يَهُـشُّ لَـهُ مـن فَـوْقِ رُكْبتـه طفـل يقـول بلطـف يـا أبـي أجـب
فليخش بطش أخي بأس أشد قوًى وصــولة منــك يســتقريه بالطَّلَــب
ولْيَفكِــرَنَّ بأغْيَــالا حليلتــه ذات الجمـال وذاتِ العَقْـل والحَسَـب٤١
وســنى تؤرِّقهــا الرُّؤيــا فَتُقْلقهــا فَتَســتفيق بقلــب ريــع مُضْــطَرِبِ
مـن ثَـمَّ تُـوقِظ فـي لهـف جَوَاريهـا وينتحـبن بـدمع فـاض مُنْسَـكب»٤٢
وطهـرت بيـديها الجـرح فانفرجـت آلامهــا واســتكنت ثِقْلــة الوَصَــب
لكــن أثينــا وهيــرا مــذ تَعَمَّــدتا إغضاب زَفس لما في النَّفس مِنْ أَرَبِ
قالت أثينا: «أبي هل لا يسوءك أن أقول ما كان في ذا الجرح من سبب
لا شـك قبـريس رامـت دفـع غانيـة وجـد الصـبِّ مـن الطِّـرواد ذي نشـبِ
فأنشــبت بعــرى الإبريــز راحَتُهــا فَمَزَّقتهـا فرامـت نحلـة الكَـذِب»٤٣
أصاخ يَبْسم واسْتَدعى الجريح على رفـق وقـال لهـا: «يـا مُنْيَتِـي احتسـبي
دعــي لآرس وآثينــا الحــروب ولا تُعنــي بغيــر لذيــذ الحــبِّ والطَّــرب»
لهم في السَّما هذا الحديث وفي الثَّرَى ذِيُوْميــذُ لا يَنْفَــك إِيْنَــاس يَطْلُــب

تَحَدَّم يبغيه ويعلم أنما   يقيه أفلّون ولم يك يرهب
ثلاثًا عليه كر يأمل قَتْلَه   وشكَّته الغَرَّاء بالعنف يَسْلُب
وَلكن ثلاثًا ترسُ فيبُوس صَدَّه   ورابعةً قد كاد يسطو ويَضربُ
فقال له والصوت يدوي رَعيدُهُ   ويعلو مُحَيَّاه العَبُوس تَقَطُّب
«مهٍ فتربَّص يا ابن تيذيس فَعَن   بني الخلد للإنسان قد عزَّ مَطْلَب
فَشَتَّان بين الناس والتُّرب أسكنوا   وقوم بني الإسعاد والنُّور ألهبوا»
فَكفَّ ذِيُوميذ وما كاد ينثني   مَخَافة يَشْتَد الإله ويغضب ٤٤
وسار أفلون بأنياس مسرعًا   لمعبده في طود فرغام يذهب
فوافته أرْطَامِيْس في بلسم الشِّفا   وذيتا بإكسير المحاسن يسكب
وما شاء فيبوس يشيع انقلابه   فأرسل طيفًا مثله يَتَقَلَّب ٤٥
ومن حوله بين الفريقين مُزِّقت   مُسَرَّدة حصداء وافتُلَّ مجوب ٤٦
وَمِن ثَمَّ فِيبُوس إلى آرس انثنى   يحُثُّ خطاه لِلْوَغى ويثرِّب
«أيا ممطر الأهوال يا باعث الرَّدى   ويا هادم الأسوار حتَّى مَ ترقُبُ
ألا ما اندفعت الآن فوق امرئ عتا   يكاد على زفس يَصُول ويصخبُ
تأثَّرَ قِبْريسًا وأدمى يمينها   وأقبل نحوي بعد ذلك يَقْرَب»
فأغراه ثم اختار فرغام معزلًا   وآريس للطرواد راح يُؤنِّبُ[٤٧]
فماثل آكاماس شكلا وهيبةً   وصاح: «ألا فاسطوا على القوم واضربوا
إلى مَ التراخي والعدى فتكها أبدًا   أفالجبن حتى دكَّة الحُصْنِ تَرْكَب

فأنيـاس والفتَّـاك هكْطُـور قَـدْ حَكـى طَــرِيح بســيَّال الــدِّماء مُخَضَّــب

ألا مـا أخَـذْتُم مـن عـداكم بثـأره وأنقـــذتموه فاستجيشـــوا وصَـــوَّبوا»

فَهَاجَـت بِهِـم كُـل النُّفـوس حَمِيَّـة وأقبــل سَــرْفِيدون بــالعنف يَخْطُــب

«أيْـنَ هكطــور هِمَّــة لَـكَ قِـدمًا أيــــن بـــأسٌ وَبَـــاعُ عَـــزْمٍ متـــين

قـد زعمـت الحُصُـون تَحْمي ولا أنـ ــصار لا جـيش بــل بـآل الحُصُــون

أيــن هُــم أيــن لسـت ألقـى كَميًّـا كـــالكلاب التـــووا لأســـد العَـــرِين

إنَّمـــا نَحْـــن نَجْـــدَةٌ وَعَلَينـــا أنـــت ألْقَيْـــت كُـــلَّ ثقـــل المنـــون

أنــت تـدري فــي أي بــونٍ بــلادي ليقيـــا أرض زَنْـــثُس المَيْمُـــون

فبهـــا زوجتـــي تخلّيْـــتُ عَنْهـــا وغُلامـــي وذُخْـــرُ مـــالٍ ثمـــينِ

وهنـــا لـــيس لـــي متـــاعٌ ولا مـــا ل فأخشـــى أنَّ العـــدى يَســـلبُوني

كُـلٌّ هـذا مـا كـفَّ بـالبَطْشِ كفِّـي وأَرَاكَ اعْتَزَلْـــتَ بـــادِي السُّـــكون

فلمــاذا لا تُــنْهِضُ العــزْم والأَعْــرا ض تَحْمِــي مِــنْ هَــوْلِ هُــون مُبــين

أفــــلا خِلْـــت أن ثَـــمَّ شـــراكًا كامنــــات لكـــــم وأيَّ كمـــــون

وبهـــا تؤخـــذون أخـــذًا ذَرِيعًـــا وتُـــدَكُّ الحُصُـــون فـــوق المُتُـــون

زُعَمَـــاء الْأَنْصَـــار دُونَــك فـــادْفَع عـــنهم بالثَّبـــات ســـوء الظُّنُـــون

ذاكَ ذاكَ اعتبـــر نَهـــارًا ولـــيلا نُصــب عَيْنَيــك فلــيكن كُــلَّ حــين»

لمهجــة هكطــور الحــديث مُؤَلِّمًـا جرى جري سهم بالمفاصل يَنْشَبُ٤٨

ترجَّــل مُصــطكَّ السِّــلاح مُطَوِّفًـا وفـــي يـــده سُـــمْرُ القنـــا تَتَلَهَّـــب

يشـــدِّدُ همَّـــات الفَـــوَارس منهضًـــا عـــزيمتهم حتـــى انْثَنَـــوا وتَصَـــلَّبوا

فَكَرُّوا ولكن الأغارق جملة … على صدهم بالعزم طرًّا تألّبوا

فلم يك في القومين خامل همة … ولم يك فيهم من يراع فيهرب

وعند اشتباك الجيش بالقضب والقنا … جرت مقربات الحملة الأرض تنهب

وقد كست الإغريق ثوب عجاجة … فتحت الخُطى وقعٌ ومن فوق غَيْهَب ٤٩

كأن مَذَاري ذِيمتير بِبَيْدَرٍ … تثير سحيق التِّبن والحَبُّ يرسب

فتذري السحيق الريح ثم تهيله … غبارًا كثيفًا وهو أبيض أشهب ٥٠

كذا اندفع الإغريق من تحت قَسْطَل … علاهم وآرِس للعدى يَتَعَصَّب

أطاع أفُلّونًا وشدَّد عزمه أحـ … ـتجاب أثينا فاستقر يُكَوْكب ٥١

وأرسل من فوق الجُيُوش غَمَامَةَ … تُظَلّل دُرَّاع الحديد وتحجُبُ

وَلَمَّا علا وقع القنا انْقَضَّ عائثًا … إلى ساحة الهيجاء أنياس يلجب

به جاء فِيْبُوس سليمًا من الأذى … شديدًا حديدًا يستجيش ويلغب

فخف وأحيا خفق أكباد قومه … وحف به من صفوة الصيد موكب

فلم يسألوا علمًا ولم يتساءلوا … ودون التَّحَرِّي من لظى الحَرْب أضْرُب

عَوَاصِفُ فِيْبُوس وَصَعْقَة فِتْنَة … وآرس ووبلٌ بالذَّوَابل صَيِّبُ

وآياسُ آياسٌ وأَوْذِس ذيُومِذ … يَهُزُّهم داعي الكفاح وَيُطْرِب

يُنَادُون بالإغريق لِلْحَرْب نَهْضَةً … إذا هم لِكَرٍّ أو لصد تكتَّبُوا

فَلِلصَّدِّ دُفَّاعُ الجُنُود تَثَبَّتُوا … صَنَاديد لم يخشوا ولم يَتَهَيَّبُوا

كَأَنَّهم والجَرُّ صافٍ رَقِيْعُهُ … غَمَائِمُ مِنْ فَوْق الشّوامخ تَقْطِب

وقـد هَجَـعَ الأنـواء لا ثـم ثمـأل تشـور ولا الأنـواء فـيهنَّ تَلْعَـب٥٢

يجـوب أغـاممنون بـين صـفوفهم يصـيح وأعقـاب الخطـى يتعقَّـب

«شـدَّدوا عـزمكم وكونـوا رجـالا فـوطيس الـوغى عظـيم الشُّـؤون

ولـيقم بعضـكم بحرمـه بعـض فلكـم بالوفـاق خيـر قـرين

والتَّـأَخِّي بـين النُّفـوس نَصِـيرٌ ولحفـظ الـرُّؤوس أقـوى ضَـمِين

للجبـان المهـزوم مـوتٌ وعـارٌ والهُمـام العَـزُوم رَفْـعُ الجبـين»٥٣

قـال هـذا وانقـضَّ يطعـن ذيقـو ن بـن فِرْغـاسَ بادئًـا بـالهجوم

تـرب أنيـاس كـان وهـو لـديهم كـابن فِرْيَـامَ ذُو مقـامٍ قـديمٍ

للنِّجـاد السِّـنان أوْلـج يفـري الـ ـتُّرس حَتَّـى حَشـا الفُـؤَاد الصَّـمِيم

فـالتوى تحـت طعنـةٍ وكُلُـوم وصـليل السِّـلاح فـوقَ الكَلِـيم

كـر نحـو الإغريـق يطلـب ثـأرًا آنيـاس كـرور ليـث غشـوم

ثـم أردى أرْسِـيلُخُوس وإكريـ ـثُوتًا ابنـي ذِيُـوكَليس الحكـيم

وحفيـدي أرسـيلُخُوس الـذي كـا ن أخـا صـولة وملـك جسـيم

وهـو ابـن للنَّهـر ألفـاس أبقـى لابنـه ثـروة الغنـا المركـوم

نشـأا فـي فيـرس وألفـاس فيهـا فـاض فـي فيليـا بخيـر عمـيم

توأمـا شـدة حـديثان لكـن بلـوا بـالنزال كـل العلـوم

ركبـا لجـة البحـار انتصـارًا لمنـيلا وعرضـه المثلـوم

سـدل المـوت فـوق عينيهمـا السـ ـتر بحكـم المَنَيَّـة المَحْتُـوم

شـبه شـبلين قـد غـذت لَبْـوَةٌ فـي أكـم الغـاب فـوق طـود عظـيم

عبشـا فيـه فـي شـياه سِـمانٍ وعُجُـول بمنعـة ونعـيم

واسـتطالا حتـى الرُّعـاة أعـدَّت لهمـا الحتـف بالسِّـنان القَـوِيم

هويـا مثـل أرزتـين علـى التُّـر ب بجـذع مقـوَّض محطـوم٥٤

فمنـيلا انبـرى يُجيـل قنـاه شـائكًا فـي سـلاحه الموسـوم

سـاقه آرس لأنيـاس يبغـي لمنـيلا شـرًّا لسـبق الغَـرِيم

بيـد أن ابـن نسـطر أنطِلُوخًـا هـبَّ فـي إثـره هُبُـوب النَّسـيم

خشـية أن يمـس بالضـيم والآ مـال تفنـى بقتـل ذاك الـزَّعيم

فمضـى والقرنـان كـادا اشـتباكًا يقرنـان القنـا بصـدر الجُسُـوم

فـالتوى ثـمَّ عَـزْمُ أنيـاس لَمَّـا لقـي اثْنَـيْنِ فـانْثَنَى للتُّخُـوم٥٥

دفعـا جثـة القتيلـين للقـو م وعـادا بصـولة وهـزيم

جنـدلا قيـل بفلغونـة فيليـ ـمين روَّاع كـل شَـهْمٍ عَـزُوم

فمنـيلا عليـه مـال بطعـن وأقـرَّ السَّـنان بـالبلعوم

وابـن نسـطور صـدَّ خادِمـه ميـ ـذون مـذ رام نجـوة المهـزُوم

وَرَمـاه بفهـر صـخر شـديد فتـوارى بزنـده المقصـوم

فاسـتطارت أعِنَّـة الخيـل منـه سـابحات تخُـبُّ فـوق الأديـم

فعليـه بالسَّـيف بالصُّـدغ ثنَّـى فثنـاه لـلأرض حـد الصَّـرُوم٥٦

ناشـرًا للهـواء رِجْلَيـه لكـن رأسـه تَحْـتَ رَمْلِهـا المركُـوم

ظـل حتـى جِيَـاده بِخُطاهـا طرحتـه لـلأرض دَامـي الكُلُـوم٥٧

وابن نسطور ساقها لحماه   مَغْنَمًا من أجل أصلٍ كريمِ

تَحَدَّم هكطُورٌ لما هُوَ باصرُ   فصاح مغيرًا واقتفته العساكر

وفي صدرهم ربُّ الوغى يستحثهم   وإنْيُو تثير الشَّغب والشَّغب ثائرُ ٥٨

وآريس هكطُورًا يلي فَهْوَ تَارَةً   ظهير وطورًا دُونه مُتَظَاهِرُ

يجيل قناة أثقلت كُلَّ كاهل   وَيَفْعَل ما لا تستطيع القَساوِر

ولكن ذيوميذ الإله له انجلى   فأحجم كرَّات الإله يُحاذر

كطاو بُطُون البِيد صَدَّتْهُ عَنْوَة   سُيُول غَثَت عنها تزوغ النواظر

فيعلوه إشفاق وتغشاه خشية   فينكص مُنْهَدَّ القوى وهو حائرُ ٥٩

قال صَحبي: «هَكطور هولا ظَنَنْتُم   بِقَناه وَالعاسل المسنون

فاتَكُمْ أَنَّهُ أوان الوَغى لم   يخل يومًا من مُرشدٍ ومعينِ

هاكم آرِسًا بهيئة إنس   حوله حام كالنَّصير الأمين

فارجعوا والصُّدور مُنْقَلِباتٌ   للعدى واتَّقوه واتَّبعوني» ٦٠

وخفَّت بنو الطرواد زحفًا بصدرِهم   يصادم هكطور العدى ويُصَادِر

فَأَرْدى مَنَسْتيسًا ونَخْيالسًا معًا   بمركبة قلّتْهما وهو سائر

فهاجت بآياس العواطف فانبرى   يطير قناةً فَرْعُها مُتَطاير

فاصمى ابن إسْلاغُوس أمفيُّس الذي   بفيسوس قد فاضت عليه الذَّخائر

بَغَى نصرة الطرواد والحتف ساقه   إلى حَيْثُ شكَّت بالنِّجاد الخَوَاصر

فأهوى وأهوى طامعًا في سلاحه   أَيَاس فَصَدَّته السِّهام المواطِر

على جثة المقتول أثبت رجله   يجر سنين النصل والفتك دائر

وكـــف يبـــاري بـــالمجنِّ نِبـــالَهُم مَخَافَـة أن يلهـو فَتَـدْها الجَمـاهرُ٦١

وعند التحام الحرب ساقت يد القضا لســـــرفيدن إطلــــوفُلِيم يُبــــادر

نظيـران فـي زفـس ابنُـهُ وحفيـده ســليل هِرَقْـــل والقـــرين المنـــاظر

وَلَمَّــا عَلَــى مرمــى القُنِّــي تـدانيا عليـــه الهِرَقْلـــيُّ اســـتطال يفـــاخر

«أيُّ جهـــل مشـــير ليقيـــة أغـــ راك حتـــى اســـتهدفت أيُّ جنـــون

أنــت والكــر فيــه مـذ كنـت غـرًّا قـــد تَوَرَّطْـــتَ وَرْطَـــةَ المَغْبُـــون

مـان مـن قـال أنـت مـن نسـل زَفْسٍ أيـــن أبنـــاء زفـــس مـــن ســـرفدون

بهرقـــل أبـــي كفـــاك مثـــالا قلــب ليـــث وهـــول كـــل القـــرون

قبـل أنبئـت كيـف جـاء قـديمًا طامعًـــا فـــي جيـــاد لوميـــذون٦٢

بســـفين ســـتٍّ ونـــزرٍ قليـــلٍ أمطـــر الويـــل فـــي حمـــا إليـــون

أيـن شـتَّان أنـت والحتـف أفنـى منــك قومًــا وأنــت بــادِي الشُّــجُون

لـيس فـي رفـدك الطـراود جـدوى ولــئن صــلت فــالرَّدى بيمينـــي»٦٣

قـــال ســـرفيدون ومَيَّـــزه الغيـــ ـظ: «نعــم بالحــديث قــد أنبئــوني

فهرقـــل قـــد دك إليـــون لا بـــل دكهـــا حمـــق لَوْمِـــدون الرَّعـــون

لهرقـــل مـــا بـــرَّ بالوعـــد لكـــن متـــع الخيـــل عنـــه منـــع الضَّـــنين

ورمـــاه وكـــان قبـــل دعـــاه مـــن بعيـــد بســـهم شـــتم مُهِـــين

إنمـــا أنـــت والسِّـــنان بِكَفِّـــي سـوف تُصْـمَى بَـرَأس نَصْـلِي السَّـنين

ولـــرّبِّ الجحـــيم نفســـك تزجـــي ولـــي الفخـــر بالمنـــار المصـــون»٦٤

وكـلٌ رمـى بـالزُّج يحكـم رَشْـقَه … فبـالعنق مـزراق وبالفخـذ آخـر

فمـزق أفْطُـوْلِيم بالنصـل عنقـه … فعـض الثَّـرى تَـنْغَضُّ مِنْـهُ النَّـواظرُ

ومـزق سَـرْفِيدُون لِلْعظـم حُقَّـه … وَلَـوْلا أبـوه بادرتـه البَـوَادِر٦٥

فأصحابه اجترُّوه مِن ساحةِ الوَغَى … لساعَتِهِم والنَّصل في الجسم غائر

وقـد شـغلوا عـن نزعـه لـذهولهم … فأركـب بـالآلام والعَـزْمُ خـائر

كـذاك ارتمى الإغريق فوق قتيلهم … يرومونـه فـيهم وأوذس نـاظر

فَهَـبَّ بـه الغـيظ العنيـف فهاجَـهُ … وردَّد فكـرًا ردَّدتـه الخَـوَاطِرُ

أيطلـب سـرفيدون أم جُنْـد قومِـهِ … لِتَفْتُـك فـيهم مـن يديـه البَـوَاتر

فعـن سـرفدون أشـغلته يـد القضـا … فمـال إلـى حيـث التقتـه العشـائر

وسـاقته فـالاس لمجتمـع العـدى … ومـا راعـه مـنهم نصـال شَـوَاجر

فَجَنَـدل كِيـرَانُس أَلَسـتر هلْيُسـا … وإخْـرُو ميوسًـا وهـو كالليـث كاسِـرُ

وألكنـدرا إفْـرِيتنيس نويمنـا … صـناديد لبقيُّـون صـيدٌ جَبـابِرُ

وكـاد يزيـد الفَتْـك لـو لـم يثـب إلـى … طلائعهـم هكطـور والنقـع فـائر

رأى فجـرى يلقـى الصـدور مـدجَّجا … فضـاقت بهـم عـن مُلْتَقـاه المَعَـابِرُ

وعن سَرْفِدون غُصَّة الكرب انجلت … فنـادى برفـق والـدموع بـوادِرِ:٦٦

«أغثني ابن فريام ولا تُوْقِع العِدَى … عَلَـيَّ فـإني بالمنيـة شـاعر

ولـن يتلقَّـاني علـى الرحـب مَـوطني … وزوجـي وطفلـي والكـرام الأكـابر

فـدعني بـإليون أمـت ذا كرامـة … وثمـة لـي فـي لجـة القبـر سـاتر»

فـأعرض هكطـور وفـي القلـب غُصَّـة … تحـث خطـاه وهـو للفتـك طـائر٦٧

تسير دعاة الموت طوع حُسَامه   ومن كَفِّه جَمْرُ الرَّدَى مُتَنَاثر

وأصحاب سرفيدون في الحال أسرعوا   لزانة زفس فيه والزَّانُ ناضرُ

فبادر فِيْلَاغُون إِلْفُ وَدادِهِ   وأخرج نصلًا أغفلَتْه البَصَائر

فَغَشَّت على أبصاره ظُلم الرَّدى   وخُيِّل أن قد فارقته المَشَاعر

فَهَبَّت لبُرْياس من الريح نَسْمَةٌ   فأنعش وارفضَّت تَزُول المخاطر٦٨

ودارت على الإغريق في دارة الوغى   بآرس وهكطور الدَّوَاهي الدَّواثر

ولكنهم بالصبر طُرًّا تدرَّعوا   وكل على دفع العدو مُثَابِرُ

فلم يك فيهم ناكصٌ نحو فُلْكه   ولا لِلقا الأعْدَاء بالصَّدِّ جاسِرُ

وتحت الدِّفاع الثَّبْت مَهْلًا تَقَهقروا   يروعهم أن المهدِّم حاضر٦٩

فأثخن آريس وهكطور فيهم   فمن أوَّل القتلى ومن هو آخر؟٧٠

فأولهم تثراس نِدُّ ذوي البقا   فأورست روَّاض الجِياد المُكابر

فإتريخ أونومٌ هلين أُرسْبُسٌ   وكلهم ذاق الرَّدى وهو صاغر

فأورسبسًا لم يجد وافر ماله   وملك على أكناف كيفس وافر

ففي هيلةٍ قد كان حيثُ ثوَى الغنا   وبحر البيوتيين بالمال زاخر

فدارت عليه عندهم أكؤس الصَّفا   (ودارت عليه بالنِّزال الدَّوائر)

رأت هِيْرَةُ الفتك بالقوم دارا   وجيش الأغارق سيم البَوَارَا٧١

وصاحت بفالاس: «يا للمصاب   أيا بنت زفس وشر المآب

فإنا منيلا جزافًا غررنا   بوعد ولكننا ما بررنا

جزمنــا بــأن لا يعــودن مــا لــم ينـــل مبتغـــاه وإليـــون تهـــدم

نعــم ســوف يَحْــبِط وَعْــدٌ وعهــدُ إذا ظـــل رب الـــوغى يســـتبدُّ

فهيِّــي الحقــي بــي لــه نَتَصَــدَّى فَمِنَّـــا يُلاقـــي اقتـــدارًا أشـــدَّا

وَفَــالاسُ أحــرَص مــن أن تُحــرَّص فَهَبَّـــت وَلَبَّـــت ولـــم تَتـــربَّص

وهيـــرة قامـــت علـــى العجلـــهْ تقـــود الجيـــادَ إلـــى العَجَلَـــهْ

وقـــد أوثقـــت ناصـــع العـــدد علـــى لبـــب ســـاطع العســـجد٧٢

وقوَّمـــت الجِـــذْعَ هيبـــا إليهـــا تضـــم الـــدَّواليب مـــن طَرَفَيْهـــا

فـــذاك حديـــد متـــين صـــقيل وهـــذي نحـــاس نقـــي جميـــل

تـــدور علـــى عارضـــات ثمـــان تطوقهـــــا حلقـــــات ثمـــــان

ومـــن فـــوق أطواقهـــا الذَّهبيـــه عصـــابات صـــفر بـــديع المزيَّـــه

لقـــد أحكمـــت دائـــرات عليهـــا تقـــرُّ العيـــون ارتياحًـــا إليهـــا

ومحوَرُهـــا مـــن لُجـــين بـــديع ومـــن فـــوق ذلـــك عـــرش رفيـــع

يقــوم علــى حلــق مــن نُضَــار وصـــافي لجـــين صُـــفُوفًا يـــدار

وفــي الصــدر قوســان حيــث خــرج عمـــود بمضـــمده قـــد ولـــج٧٣

فــذا مــن حلــي الــذهب اللامعــه وذاك مـــن الفضـــة النَّاصـــعه

وشــدَّت عصــابات صــافي الــذهب وهيـــرة تَصْـــلَى أوار الغَضَـــب

وفـــالاس أحشـــاؤها تتـــأجَّج فقامـــت علـــى فورهـــا تتـــدجَّج

أماطـــت نقابًـــا لطيفًـــا عليهـــا بـــديع المحاســـن صُـــنع يَـــدَيها

وألقتــه بــالعنف فــي صــرح زفــس بأعتابـــه عـــن حـــزَازةِ نَفْـــس

وقامت ومُهْجَتُها اضطَرَمَت ... لدرعِ أبيها بها استلأمت

وألقت على منكبيها يميد ... مجنًّا يبيد قلوب الحديد

وأهدابه الدُّهم فيه تحوم ... وفيه من الرُّعب كلُّ الرُّسُوم

وفيه الشِّقاق وفيه القُوَى ... وفيه اللّحاق مَهُولًا ثوى

وفيه كذا هَامَة المارد ... أبي الهول والأروع الواحد ٧٤

وألقت على الرَّأس أعظم مِغْفر ... لزفس نضارا تألّق أحمر

له طرر أربع باتّقاد ... يقي مئة من جيوش البلاد

ولما استَتَمَّت عَلَت تَرْكَبُ ... براحتها عامل أشْهَبُ

طويل ثقيل متين القناة ... يحطم فيلق قوم العُتاة ٧٥

وهيرة ساطت جياد الأَثير ... فراحت بلبِّ الرَّقيع تطير

لأبواب أقصى السَّما سَبَحَت ... فمن نفسها لهُما انفتحت

وأعلت صريفًا يَهِزُّ الجبال ... وثمَّة ساعاتُها باتّصال ٧٦

وقوف بها أبدًا حضَّر ... على كل ذاك الفضا تَخْفُر

فَتَركم غيمًا فيعلو القتام ... وتقشعه فيبيد الظلام

فشقَّ السحاب وبُلِّغتا ... مقامًا به زفس قد ثبتا

بأعلى الألمب على ذروته ... يجلله المجد في عزلته

هنا وقفت هيرة بالجياد ... وراحت إلى زفس تُنَمِي المراد

«إلى مَ تُرَى يا وليَّ الخلود ... مظالم آرس تَجُوز الحدود

ألست ترى كم دما قد سفك وكم بالأغارق ظُلْمًا فتَك

وهذا دمي كاد حزنًا يفور وقبرس وفِيْبُس بملء السُّرُور٧٧

لقد بلواه أليف النفاقْ يسوقانه وهو طبعًا يُسَاقْ

ألا فا أذنَنَّ بأن أتأهَّب وأدفعه بالدماء مخضَّب»

فقال: «عليك بفالاس تَكْبَح مظالِمَهُ فَهْيَ أولى وأصلح

فتلك التي عوَّدته النكال ومُرَّ العذاب بيوم النزال»٧٨

فسُرَّت وَسارَت بأحداسها تشق الرقيع بأفراسها

سراعًا تطير كَبَرْق أَضا لأدنى الثَّرى مِن أعالي الفَضا

فما نظر النَّاظر المعْتَلي على صخرة فوق بحر جلي

من الجو حتى الحصى الرَّاكِدَه تَخَطّاه في عدوة واحده٧٩

فما لبثت أن رَسَتْ بالمَقَر إلى حيثُ سِيقَت كَلَمح البَصَر

وحلت لدى الحُصن بالرَّبَّتين على ثغر مُجْتَمَع الجدولين

وسِمْويسُ أَخْرَجَ من تُرْبَتِه وتحت ضبابٍ كثيفٍ أحلّت

وحول ذيوميذ كُلٌّ يذود لها خَالِد النَّبْتِ في ضَفَّتِه٨٠

هنا هيرة استوقفتها وحلت ببأس ولا بأس جيش الأسود

وعزم ولا عزم خرنوص برْ يَصُول ويَسْطُو ويُبْدي العِبَرْ

فهيرا عليهم هنا أقبلت وهيئة إستنتر مَثَّلَت

بصوت جهير كقرع الحديد له صوت خمسين صوتًا شديد٨٢

وصاحت: «فواعار جيش جبان وجيه الوجوه ضعيف الجنان

نعم حين كان أخيل يقف   بكم كان جيش العدى يرتجف

ولم يك من منهم يجسر   إلى باب دردنس يعبر

وهاهم وراء الحُصُون انْبَرَوا   لكم وإلى فلككم قد جَرَوا»

ففيهم نيار الحَمِيَّة ثارَت   وفالاسُ نَحْوُ ذيُومِيذَ سارَت

فوافته معتزلا بالجياد   يرطِّب جرحًا قواه أباد

على صدره عرق يرشح   به كله جالسًا يسبح

يزيح على عيه بيديه   حمائل ترس ثقيل عليه

ويمسح جرحًا به فَنْدَرُوس   رماه بأثناء قرع البؤوس

فمدت إلى نير مركبته   يدًا ثم مالت لِتَخْطِئته

«أذا بابن تيذيس عُلِمَا   فشتان شتان بينهما

نعم ذاك كان قصيرًا صغيرا   ولكنَّه كان صلبًا جسورا

تهيج به نفسه للقتال   ولو عنه يومًا حظرت النِّزال

فلم يك بين بني أرْغُس   سواه يؤم بني قَدْمُس

إلى ثَيْبَةٍ وَحْدَه أرسلا   سفيرًا فراح وما هُوِّلا

فقلت اتقي بأس تلك القُرُون   وكن بالمآدب إلف سكون

فلم يملك النَّفس عَمَّا تَعَوَّد   وَرَاحَ برازهُمُ يتعمَّد

وفاز عليهم بنصر مبين   وكنت له خير عون مكين

فذاك أبوك وأنت بعكسه   كأنك أنتجت من غير جنسه

فإمـــا العَيَـــاء أبـــاد قَوَاكـــا وإمـــا جَزِعْـــتَ لبـــأس عَـــدَاكا
أقيـــك الـــرَّدى وأليـــك وأنْهِـــض قَـــوَاك وأنـــت عـــن الحـــرب مُعْـــرِضْ»
فقـــال: «نعـــم كـــل ذا أعلـــمُ وعنـــــك الحقيقـــــة لا أكـــــتمُ
فـــلا عَـــيَّ لا جُـــبْنَ قَلْبِـــي يُخَـــامر ولكِنَّنِـــــي قَـــــد أطَعْـــــتُ الأوَامِـــــر
أمـــا قلـــت إن تلـــق قبـــريس فاضـــرب وعـــن غيرهـــا مـــن بنـــي الخلـــد أضْـــرِبْ
وهـــــاك إلـــــه الْـــــوَغى أبـــــدا يقاتـــــل بـــــالنَّفس صَـــــدْرَ العِـــــدى
لـــــذاك أمَـــرْت الجُنُـــود تَقَهقـــر ويبقـــى هنـــا للـــدفاع المعســـكَرْ٨٣
فقالـــت: «إذا يـــا أعـــز البشـــر إلـــيَّ فَـــدُونَك فصـــلَ الخَبَـــرْ
فـــلا تَخْشَـــه الآن حيـــث اســـتقرَّا ولا غيـــــرَ رَبّ وكـــــل لـــــي أمـــــرا
تقـــدم إليـــه لقـــرب المجـــال بخيلـــــك واطعنـــــه غيـــــر مُبَـــــال
ولا تَـــرْعَ ربًّـــا عتـــا لا يَبَـــرُّ ولـــيس علـــى حالـــة يســـتقرُّ٨٤
فَمِـــن قبـــلُ واثقنـــا بـــالعُهُود بصـــــدر ســـــراياكم أن يـــــذود
وهـــا هـــو بـــين الطـــراود قامـــا يصـــول ولـــم يَـــرْع ذاك الـــذِّماما»
ومـــن بعـــد ذا دَفَعَـــت إســـتنيل فَهَـــبَّ إلـــى الأرض حـــالا يَمِيـــل٨٥
وقامـــــت بمجلسِـــــهِ مُغْضَـــــبَه حـــــذاء ذيوميـــــذ بالمركبـــــه
فأثقـــل يـــرتج جـــذع يميـــد بربـــــة بـــــأس وقـــــرن شـــــديد
مضـــت بالأزِمَّـــة والســـوط تجـــري تـــروم لـــربِّ الـــوَغَى شَـــرَّ قَهْـــرِ
وكـــان ابـــن أوْخســـيوس البطـــل بـــــريفس أَشَـــــدَّ الأتُـــــول قتـــــل
وبـــادر والـــدَّم يخضـــبه يصـــــول وفـــــالاس ترْقُبُـــــه

فخوذة آذيس ألقت عليها ... لتخفى عليه وَيَبْدو لَدَيها٨٦

وغير ذيوميذ ما نظرا ... فأبقى القتيل طريحَ الثَّرى

وكرَّ كذاك ذيوميذ كر ... وكل سلاح البراز شَهَر

فأرسل ربُّ النزال السنان ... يَمُرُّ على النِّير فوق العنانِ

ولكن فالاسَ مدَّت يدا ... وعنه أطَاشَتْه فابْتَعَدا٨٧

وذوميذ بالرُّمح حالا طعن ... فألقته في خصر رب المِحَن

فتحت الحِزَام الأديم تخضَّب ... وهم ابن تيذيس الرُّمح يسحب

فصاح أريس بصوت دَوَى ... يزعزع أركان ذاك الفضا

كعشرة آلاف قرنٍ يصيح ... معًا فوق ذاك المجال الفسيح٨٨

فخار الفريقان واضطربا ... وآريس بالسُّحُب احتجبا

رآه ذيوميذ وهو يطير ... بقلب الغمائم بادي الزَّفِير

بُخارًا تَقَتَّم تحت الغُيُوم ... تَهُبُّ به عاصفاتُ السَّمُوم

فأدرك أولمبسًا بالعجل ... وجاء إلى زفس جم الوجل

وقَرَّ لديه يريه دماه ... يبثُّ له حَنِقًا مشتكاه

«أترضى ولي البرايا بما ... ترى من فظائع آل السَّما

على بعضنا بعضنا يفتري ... جزافًا لأجل بني البشر

ولوم الجميع عليك استقر ... لأنك أنتجت رَبَّة شَرْ

أليفة حمق حَلِيفة نكر ... وليست لغير المفاسد تجري

فكـل أهـالي السَّـما لـك تخضـع   أنــت لهـــا كلمـــا شــئت تــردع

ســـوى فـــالس عـــن مجازاتهـــا   تجـــــاوزت تُغْفـــــل زلَّاتهـــــا

فلســـت لهـــا أبـــدًا تنتهـــر   ومـــن نفســـها هـــي لا تَعْتَبِـــر

وتطمـــــع مغتـــــرة بأبيهـــــا   لأن قـــــواه الشـــــداد تقيهـــــا

فهـا هـي تغـري ابـن تيـذيس أن   يصـــول علينـــا ويرمـــي ويطعـــن

فأقبـــل يطعـــن قبـــريس باليـــد   وصـــال علـــيَّ كـــربٌ مخلـــد

ولـو لـم أطـر بخفيـف القـدم   لألقيـت بـين رفـات الـرمم٨٩

وإلا وعنـــي الحمـــام منـــع   لعانيـت آلام مـن قـد صـرع» ٩٠

فـأطرق زفـس مغيظًـا وقـال   «عتـــوت ولا تســـتقر بحـــال

فـلا تشـك أمـرك بعـد إليـا   فإنـــك أبغـــض ربٍّ لـــديا

فـدأبك مـا زال بـين الأنـام   شـــقاقًا ومفســـدة واختصـــام

فأمـك هيـرا وعـرق العنـاد   سـرى لـك منهـا وهـذا الفسـاد

يثقلنـــي ردعهـــا وإخالـــك   تقفَّيتهـــا وبـــذاك وبالـــك

ولكننـي لسـت أرضـى عـذابك   لأن لزوجـي وصـلبي انتسـابك

فلـو كنـت مـا أنـت مـن غيـر رب   لأهبطـت مـن قبـل أدنـى الرتـب

وسـفلت بالـذل والهـون عـن   بنـي أورنـس مـن قـديم الـزمن» ٩١

وفيون نادى فبلسمه   على الجرح ذر فألأمه

ففـي الحـال والمـوت لا يعتـري   بنـي الخلـد فـي لحـظ طـرف بـري

كمـا يخثـر اللـبن المخـتلج   عصـير مـن التـين فيـه مـزج

وهيبـــا علـــى عجـــل غســـلته	وفـــــاخر ملبســــــه ألبســــــته
وبالعُجب والتيه والكبر أقبل	إزاء أبيــــه لـــــدى عرشــــه حــــل
ومــــذ أخمـــــدت نـــــار فتنتــــه	وخفـــــــت شـــــــرارة وطأتـــــــه
أثينـــــــا وهيـــــــرة أســـــــرعتا	ونحــــو أعـــــالي الســــما علتـــا٩٢
فقلــت اتقــي بــأس تلــك القُــرُون	وكـــــن بالمـــــآدب إلـــــف ســـــكون
فلــم يملــك الــنَّفس عَمَّــا تَعَــوَّد	وَرَاحَ بــــــــــــــرازهُمُ يتعمَّـــــــــــد

هوامش

(١) إذا أراد هوميروس أن يبرز تصوَّره لسامع شعره وراويه، فإنما يبرزه بصورة رائعة ونهج يشوق، فإذا تعددت المواقع سلك في كل موقعة مسلكًا جديدًا، وأبرز كل بطل من أبطاله على ما يوافق صفاته التي آلى على نفسه أن يصفه بها ليتم التناسب بين كل أجزاء الأناشيد، فحيثما رأينا آياس مثلًا فهو كالطود الراسخ لا يتزعزع، وحيثما رأينا أغاممنون فهو ذو المقام الرفيع العلي الشأن، وأوذيس الداهية المقدام والنابغة الهمام، وذيوميذ السهم المنطلق والسيل المندفع، وهلم جرًّا، على أنه يربط كل ذلك بسلسلة تتماسك حلقاتها تماسكًا يجعلك لا تنسى واحدة منهنَّ، وينوّع لك الحوادث وتشابيهها مهما كثرت، فلا يكاد يقتل فارسين مقتلًا واحدًا أو يغير إغارتين متماثلتين كأَنَّه طمع في أن لا يدع لمتأخرٍ مجال الابتداع فوق ما ابتدع، وقد رأى هنا أن يميز ذيوميذ في واقعة هذا

النَّهار، فأظهره بمظهر من البأس ليس فوقه مظهر، ولكي يقرّب كلامه إلى التصديق أفاض عليه عون فالاس أي: أثينا، فلم يبق من ثم محل للاعتراض إنه أتى أفعالًا تعجز عنها أفراد البشر، وهذا نتيجة أخرى من نتائج اعتقادهم أن المرء منفردًا غير مرموق بعين العناية لا يقوى على دفع ضرٍّ وإتيان أمر، وأن لتلك العناية غايات لا يدركها البشر، فالاستسلام لها واجب في كل زمان ومكان.

(٢) مهما أخذ الشُّراح هذا الكلام على ظاهره، وقالوا إن النور كان يتدفق من ذيوميذ، فلا أرى في هذا التشبيه البديع إلا إشارة إلى لمعان شكته، وهو كثير في كلام الشعراء، ولكن المطرب في كلام هوميروس تخلصه بوصف تلك الكوكبة ممتطية رقيع السماء، وهي صاعدة من عباب البحر، ولم أر في شعر العرب ما يقارب هذا المعنى إلا قول دريد:

تقول هلالٌ خارج من سحابة إذا جاء يعدو في شليل وقونس

«الشليل ثوبٌ يُلبس تحت الدرع والقونس بيضة الخوذة»
والمراد بكوكبة الخريف الشعري اليمانية أو العبور كان لها شأن عظيم في مراقب الكلدان، وبنت عليها جميع الأمم القديمة خرافات كثيرة، وفي كتب العرب أنها هي والشعرى الشامية أو الغميصاء أختان أقبل عليهما سهيل من ناحية اليمن، وأقبلتا من ناحية الشام حتى انتهى الفريقان إلى شاطئ المجرة (المدعوة عند عامة سوريا بدرب التبَّان) وهي عندهم نهر

السماء العظيم، فخطبهما سهيل فأجابتا فعبرت إليه الشعرى اليمانية؛ ولهذا سميت العبور ولم تستطع الشامية أن تعبر فجعلت تبكي حتى غمصت عيناها فسميت بالغميصاء، وأصل هذه الخرافة من الكلدان.

(٣) قوله: أقدم أي: ذيوميذ.

(٤) لما خلت المركبة من راكبيها؛ فيغس القتيل، وإيذيوس المنهزم باتت مغنمًا لذيوميذ، فأمر صاحبه بسوق جيادها إلى سفنه.

(٥) أرطميس إلاهة الصيد فهي أحكم الرماة.

(٦) القذال مؤخر الرأس.

(٧) قد نهجنا في الأبيات التالية أحد المناهج المبتكرة كما أسلفنا في المقدمة.

(٨) لما راق الشاعر أن يتغنى بذكر بسالة ذيوميذ في هذا النشيد تفنن بالوصف والتشبيه تفننًا لا يدرك شأوه، وحسبك تشبيهه إياه هنا بالسيل المندفق، وهو تمثيل مرَّ على قرائح الكثيرين من الشعراء الذين قرءوا الإلياذة، وقلدوا والذين تبادر ذلك إلى ذهنهم عن غير رواية أو تقليد، ولولا معلقة امرئ القيس لقلنا إنه لم يحسن شاعرٌ إحسان هوميروس بتهيئة ذلك السيل، وقد ضاق عنه مجراه في الخليج، فاستأصل الجسور الكبار المعترضة له، وقض السد ودفع الزبد، وكأن قريحة الشاعر نفسه فاضت فيضان ذلك السيل، فلم تقف عند ذلك

الحد فجعلته يقوض مباني الزراع، ويستطرد إلى ذكر سببه المنبعث من زفس إشارة إلى أن كل قوة سماوية أو أرضية إنما تنبعث من قدرة القدير.

ومهما كان من بلاغة هذا الوصف فهو لا يفضل بشيء وصف امرئ القيس إذ إذ ألمَّ بمعاني هوميروس، وزادها رواءً وتفصيلًا، ولم يغفل منها إلا ذكر اليد العليا القاضية بكل أمر، وهو إغفال عامٌّ في الشعر العربي الجاهلي. قال:

أَصَاحِ تَـرَى بَرْقـاً أُرِيـكَ وَمِيْضَـهُ	كَلَمْـعِ اليَـدَيْنِ فـي حَبـي مُكَلَّـلِ
يُضِـيءُ سَـنَاهُ، أَوْ مَصَـابيحُ رَاهـبٍ	أَمـال السَّـليطَ بِالـذّبَالِ المُفَتَّـلِ
قَعَدْتُ لـه وصـحبتي بَـيْنَ ضَـارِجٍ	وبَـيْنَ العُـذَيْبِ، بُعْـدَ مـا مُتَـأَمَّلي
علـى قَطَـنٍ بِالشَّـيْمِ أَيْمَـنُ صَـوْبِهِ	وأَيْسَــرُهُ علــى السِّــتَارِ فَيَــذْبُلِ
فَأَضْــحَى يَسُــحُّ حَــوْلَ كُتَيْفَــةٍ	يَكُـبُّ على الأَذْقَـانِ دَوْحَ الكَنَهْبُـلِ
وَمَـرَّ علــى القَنَــانِ مِــنْ نَفَيَانِــهِ	فَـأَنْزَلَ مِنْـهُ العُصْـمَ مِـن كـلّ مَنـزِلِ
وَتَيْمَـاءَ لَـمْ يَتْـرُكْ بِهَـا جِذْعَ نَخْلَـةٍ	وَلاَ أُطُمًــا إلاّ مَشِــيْدا بِجَنْــدَلِ
وَأَلْقَــى بِصَــحْراءِ الغَبِـيْطِ بَعَاعَــهُ	نُزُولَ اليَمَانيْ ذي العِيَابِ المُحجلِ
كَــأَنَّ ثَبِيــراً فــي عَــرَانِينِ وَبْلِــهِ	كَبِيــرُ أُنَــاسٍ فــي بِجـادٍ مُزَمَّــلِ
كَـأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيمِـرِ غُـدْوَةً	مِـنَ السَّـيلِ والغُثّـاءِ فَلْكَـةُ مِغْـزَلِ
كَــأنَّ مَكَــاكِيَّ الجِــواءِ غُدَيَّــةً	صُـبِحْنَ سُـلافاً مِـن رَحيـقٍ مُفَلْفَـلِ
كَـأَنَّ السِّـباعَ فيـهِ غَرْقَـى عَشِـيَّةً	بِأَرْجَائِـهِ القُصْـوَى أَنَـابِيْشُ عُنْصُـلِ

شرع في وصف البرق السابق للغيث، فقال: إنه يتألق ويميل وميضه كاليدين تتراوحان في حبي أي: سحاب متراكم صار أعلاه لأسفله إكليلًا، فينبعث منه النور انبعاثه من مصباح الراهب أشبع فتيلته زيتًا، قال: وقعدت وأصحابي أتأمله بين العذيب وضارج، ثم استطرد إلى ذكر السحاب والمطر المنهمر بعد البرق، فقال: إنه امتد من جبلٍ قطن يمينًا إلى جبلي الستار، ويذبل يسارًا فشمل مسافة عظيمة، وأخذ ينصب سيلًا من الجبال والآكام، فيقتلع أشجار الكنهبل العظام، ويلقيها على رءوسها لشدة تدافعه، ووقع على جبل الفنان مما تناثر وانتشر من رشاش هذا الغيث ما أنزل عنه الأوعال المعتصمة فيه لشدة انصبابه، ولم يغادر نخلة في قرية تيماء ولا بناءً فاستأصل النخيل، وهدم الأبنية الشماء إلا ما كان منها مشيدًا بالصخر، وكان جبل ثبير والمطر يتدفق عليه كسيد قوم ملتف بكساء مخطط لكثرة ما كان عليه من الغثاء والزبد، وكانت ذروة رأس المجيمر كفلكة المغزل لما أحاط بها من الإغثاء، ولما استتم وصف الغيث وسوابقه أتى على وصف لواحقه، فقال نزل بصحراء الغبيط نزول التاجر اليماني المحمل عيابًا أي: انبت فيها من الكلاء وضروب الأزهار وألوان النبات ما يشبه ضروب الثياب المختلفات الألوان التي ينشرها التاجر اليماني، وهو يعرضها للبيع، وانتهى بوصف ما في تلك البقاع من طائر وحيوان، فقال: إن طير المكاكي كانت (لحدة ألسنتها وتتابع أصواتها، ونشاطها في تغريدها) كمن شرب صباحًا أجود الخمر من

الرحيق المفلفل الذي يشحذ الذهن واللسان، وأما السباع الغرقى فكانت كأصول البصل البري (لكثرة ما تلطخت به من الطين والماء الكدر)

(٩) صنديد ليقيا هوفنداروس بن ليقاوون.

(١٠) المراد بابن زفس أفلُّون؛ لأنه كان ولي فنداروس.

(١١) كان ذيوميذ راجلًا كما مر، فلهذا ترجل رفيقه حتى يجتر السهم من كتفه.

(١٢) بنت رب الترس هي أثينا التي هيَّأته لذلك اليوم؛ ولهذا وجه دعاءه إليها.

(١٣) كان الآلهة إذا اختلطوا بالبشر أو تمثلوا لهم بهيآتهم تشابهوا عليهم، فلا تنجلي حقيقتهم إلَّا لمن أرادوا أن يتجلوا له فلو لم تفتح أثينا أي: الحكمة عيني ذيوميذ لما تسنى له في ذلك العجاج أن يفرق بين العابد والمعبود، وإن من معتقد الإنسان في أكثر الأزمان أن عينيه لا تتفتحان للتمييز بين ما يعلم وما لا يعلم إلا بمشيئة فائقة وعناية خاصة، وقد جاء في التوراة من أمثال ذلك: أن الله عز وجل فتح عيني هاجر فرأت عين الماء، وفتح عيني بلعام فرأى ملاك الرب واقفًا في طريقه وسيفه مسلول بيده، وفي القرآن: يغشي الله على البصائر والأبصار ويفتحها أيان شاء.

(١٤) قبريس هي الزهرة، ولا بدع أن نرى أثينا ناقمة عليها؛ لأن قبريس ربة الهوى، وأثينا ربة الحكمة والتمادي بالهوى والحكمة أمران لا يتفقان، وإن كان مصدرهما واحدًا، كما أن قبريس هي أخت أثينا لأبيها، وكلاهما ابنتا زفس أبي الأرباب والبشر، فكأنها قالت له صن حكمتك، وانبذ هوى نفسك، وافتك به وبنيي جنسه.

(١٥) قد انتُقد على هوميروس كثرة تشبيهه بالأسود، وفات المنتقدين أن يروا تفننه في تلك التشابيه إذ لا تكاد تراه يشبه بالأسد مرة على مثل ما سبق له التشبيه به، وهذا التنويع يذهب بلا ريب بخطورة الانتقاد، ويعرب عن غزارة مادة قلما توجد في شخص واحد.

(١٦) البأديل ما بين العنق والترقوة.

(١٧) لا نكاد نرى قتيلًا يقتل حتى نرى له مصرعًا مؤثرًا في النَّفس، وأي تأثير يحصل لقارئ الشعر أعظم من تأثره لشيخ عاجز، واسع الجاه، كثير المال، عدم ابنين لا أمل له بثالث من بعدهما، وهذا أيضًا من حكمة الشاعر؛ تخفيفًا من التثاقل الذي يلم بالمرء لدى تلاوة فصول الوقائع الطوال التي تخر فيها الأبطال من كل جانب.

(١٨) هنا تشبيه آخر بالأسد وهو على ما ترى لا يماثل بشيء تشبيهه السابق.

(١٩) كان آنياس زعيم الدردنيين، وهو بين الطرواد وحلفائهم في المقام الأول لا يفوقه بالبسالة والهمة إلا هكطور، فشأنه في ذلك الفريق كشأن آياس وذيوميذ بين الإغريق إذ جمع بين ثبوت جأش آياس، وخفة ذيوميذ، وهو الذي بنى عليه ڤرجيليوس منظومته الكبرى، وهيأه بالهيئة التي مثله بها هوميروس إلا أنه زاد في الإسهاب والإطناب، ومن عقب آنياس هذا كان في زعم بعض المؤرِّخين مؤسسو دولة الرومان.

(٢٠) الاهتوار: الهلاك.

(٢١) هذا أول كلام نطق به آنياس، وهو يشف عن ورعه وتقواه إذ أنه لما حثَّ فنداروس على إطلاق سهمه على ذيوميذ نبَّه إلى بسط كف الضَّراعة لزفس، ثم سأل مرتابًا ما إذا كان ذلك البطل المغوار من غير بني البشر.

(٢٢) ائترارًا أي: مجازفةً.

(٢٣) كان فنداروس زعيم الليقيين من أرمى الرماة في عصره؛ ولهذا دفعه آنياس إلى رمي ذيوميذ بسهم قد يكفيه مئونة الكر عليه، فيدخر بأسه لسائر الأبطال، وفنداروس هو مثال العاجز المتبجح، والبخيل المقتر الذي يلتمس عذرًا يستر به عيوبه، فهو ذو ثروة طائلة وسعة حال، أتى بنفسه راجلًا لئلَّا يسأم ثقلة خيله واعتذر بامتناع الكلاء، ثم لما لم ينل وطره من أغاممنون وذيوميذ إذ رماهما ألقى تبعة ذلك على قوسه، وتوعدها بالسحق والحرق، وهي حماقة لا يفوقها إلا حماقة

الكسعي في جاهلية العرب إذ خرج لصيد المهى ليلًا فمرَّ أمامه سبعة منها، وكان كلما مر واحد رماه فيتطاير شرر سهمه من صخر يقع عليه، فحنق على قوسه وكسرها ظنًّا منه أنه أخطأ مرماه فلما رجع في اليوم التالي إلى ذلك المحل رأى أنه لم يخطئ شيئًا منها بل كان السهم ينفذ من الحيوان إلى الصخر، فندم ندامةً ضرب بها المثل، وأعظم من هذه الحماقة حماقة البفلغوني الذي روى أفستاثيوس أنه أخطأ مرماه مرارًا متوالية، فتمادى به اليأس حتى شنق نفسه.

(٢٤) تعلم من كل كلمة ينطق بها آنياس ما كان عليه من الإقدام الصحيح، وقلة الأثرة وصغر الدعوى، فهو مع علمه بأنه أطول باعًا من فنداروس خيره بسوق الجياد أو الجلاد، ولم يجزم بالنصر لنفسه كسائر الأبطال؛ ولهذا مدح جياده بجريها كرًّا وفرًّا وربما أراد بذلك ايضًا أن يخفف من هيبة الملتقى على فنداروس.

(٢٥) يعلم من هذا الموضع وما أشبهه أن فصائل الفرسان كانوا يقاتلون ركوبًا على مركباتهم زوجًا زوجًا أحد الفارسين لسوق الخيل، والثاني للطعان والإبلاء، والقتال على هذا النمط أشبه شيء بقتال البدو في بلاد العرب إذ يمتطون الإبل أزواجًا، فالرَّادف يصاول والرَّديف يقاتل.

(٢٦) الائتثار: التأثر والتقفي.

(٢٧) في أساطيرهم أن غنيميذ بن أطروس ملك طروادة كان بديع الجمال طاهر الخلال، فخرج يومًا للقنص على جبل إيذا فنزل عليه

زفس بهيئة نسر، واختطفه إلى السماءِ، فأقام في الأولمب، واتخذه زفس ساقيًا؛ ولهذا سمي الدلو وهو البرج الحادي عشر، ويقال في أصل تلك الخرافة أن أطروس كان قد أرسل ابنه غنيميذ إلى ليديا؛ ليضحي لزفس، وكان طنطال ملك تلك البلاد يلقب بزفس، فأساء الظن بغنيميذ وأصحابه وحسبهم عيونًا أتوا متجسسين فقبض عليهم، وأمر الغلام فقام يسقيه على الطعام.

(٢٨) الوتيرة: ما بين المنخرين.

(٢٩) قلنا: إن هوميروس يكاد ينوع قتلاته بما يقارب عدد القتلى، وذلك من حسن التصور الشعري، على أنه لا بد من التنبيه إلى أمر آخر، وهو اعتناؤه بتطبيق الطعان على ما يوافق التصديق والحقائق، ولا نخال عالمًا من علماء الأقدمين كان أعرف منه بالتشريح إذ لو أخذت كل طعنة سواءٌ أصابت مقتلا أو لم تصب رأيته وصفها وصف الطبيب اللبيب الذي يلم بوظائف كل عضو من أعضاء الجسد.



شكل ١: زفس بهيئة نسر يرفع غنيميذ إلى السماء.

(٣٠) تزعم عامتنا زعم عامة اليونان في زمن هوميروس من أنه كلما طال عهد الإنسان تراخت قواه، وصغر جسمه، وقل عرضه وطوله وهو زعم ينبذه علماء الجيولوجيا والإنثربولوجيا فإن بين حرب طروادة وهوميروس نحو خمسمائة عام، فإذا تناقصت في أثنائها قوة الرجل الواحد إلى رجلين، فمن البديهي أن لا تكون قوى رجالنا الآن شيئًا مذكورًا، ولا تفوق أعمارها أعمار الهررة وصغار الحيوان، أما المحاذفة

بالحجارة فمن أقدم ما جرى عليه الناس من قبل عهد التاريخ، والظاهر أنه حينًا بعد حين تهزهم الفطرة إلى العود على البدء، وفي براز داود وشاول ما ينبئ أن الحجر كان من خيرة أنواع السلاح، قالت شاعرة بني حنيفة:

فإن تمنعوا منا السلاح فعندنا ... سلاح لنا لا يشترى بالدَّراهمِ

جلاميد إملاءُ الأكف كأَنَّها ... رءوس جبال حلَّقت بالمواسم

(٣١) لقد تساءل القوم كيف يصح أن هذا البرد يقي آنياس من طعان الناس، ولا يقي الزهرة نفسها كما سترى عما قليل، ولا جواب على ذلك إلَّا أنه كان حرزًا يدفع الموت، ولا يقي من الجراح.

(٣٢) ابن قفانيس هو رفيق ذيوميذ ورديفه.

(٣٣) لقد مر أن الزهرة غيبت فاريس عن موقع القتال، ولم يصبهما أذى وأما هنا فلم يكن الأمر كذلك بل أبصرها ذيوميذ، ولم يحفل بها بل تحامل عليها وطعنها؛ لأن أثينا فتحت عينيه فأبصرها وأثارت جأشه فرماها، وفي هذا رمز لطيف إلى أن المتذرع بالحكمة يقوى على كبح الشهوات مهما اشتد به الهوى.

(٣٤) أردنا بالبهجات الفتيات الثلاث المدعوات خاريتيس (Χαριτες) باليونانية وغراسيه (Gratiae) باللاتينية و(Graces) بالفرنسية والإنجليزي، قالوا: كنَّ بنات زفس وأفرينومة وفي رواية بل بنات

أفلون والزهرة، وشأنهن ترويح النفوس وإجلاء البئوس، كنَّ يرئسن حفلات الولائم والأعياد، وكان اليونان يقسمون بهنَّ ويفتتحون الولائم بشرب نخبهنَّ، وكنَّ على الجملة مثال الجمال الباهر، والسرور الطاهر.

(٣٥) لما كان آلهة اليونان بهيئة البشر بالمظهر الخارجي، والعواطف والإحساس والمطعم والمشرب كان لا بد لهم من مميزات تميزهم في كل هذه الأحوال، فهم يأكلون ولكنهم لا يذوقون الخبز، ويشربون وليس لهم خمر ولا مسكر كمسكرنا، ويجري الدم في عروقهم ولكن لا كجريه في عروق الإنس، فهم كائنات السماء، والسماء وسكانها لا يعتريها الفساد فلا تزول ولا تنقضي أيامها ولا أيام كائناتها، وهنا إشارة إلى أن الأرض وما عليها من حي وغير حي عرضة للزوال، ومجلبة للفساد والاضمحلال.



البهجات.

(٣٦) أم قبريس أي: الزهرة هي ذيونة المذكورة في البيت التالي، وهي ابنة الأوقيانوس وتيثيس، وأما أبو الزهرة فهو زفس، والانحناء على الركب لا يفهم منه أنها جثت، وإنما يراد به أنها انحنت على ركبتي أمها، وهي عادة ذلك الزمان في استعطاف الصغير للكبير،

أما السجود للصلاة والتضرع، فيظهر أنه لم يكن معروفًا عندهم إذ لا نراهم يصلون ويدعون إلَّا باسطين أكف الضَّرَاعَة، وهم وقوف.

(٣٧) لأن آنياس كان ابنها على ما مرَّ.

(٣٨) ليس المراد بالهلاك الموت، وإنما العذاب الشديد، وهو تعبير شعري من وجه وديني من وجه آخر، وأمثلة ذلك كثيرة في التوراة والإنجيل والقرآن إذ يعبَّر بالهلاك عن العذاب.

(٣٩) كان فيون باعتقادهم في زمن هوميروس طبيب الآلهة، يزعم البعض أن الأصل في هذه الخرافة أنه كان نطاسيًّا ماهرًا نشأ في بلاد مصر، ويذهب آخرون إلى أنه لقب أفلون؛ لأن الشمس تبرئ السقام وتخفف الآلام وقد صار من ثم علمًا لكل طبيب، كل هذه إشارات إلى روايات كانت متواترة في أزمانهم، ومحل تفصيلها في كتاب التراجم، على أنه يحسن بنا هنا أن نذكر أنها جميعها رموز إلى أمور طبيعية، فقد ذكرت ذيونة هنا تسلط البشر تسلطًا وقتيًّا على ثلاثة من الآلهة وهم: آريس وهيرا وأذيس، فالأول إله الحرب، ويتسنى للناس كسر شوكته إذا كثرت رويتهم، وقلت نهمتهم، ثم هيرا امرأة زفس المعروفة بالخدعة والدل، وكلاهما يدينان ويذلان في بعض الأحوال، والثالث إله الجحيم وهو عبارة عن الشر، فيمكن كبح جماحه واتقاء جناحه، وليس لنا من جملة هذه الأمثال مثل لقهر أثينا ممثلة الحكمة وأشباهها؛ لأن الحكمة لا تضل ولا تذل.

(٤٠) علمت ذيونة أن أثينا هي التي أغرت ذيوميذ، وأَمَّا الزُّهْرة على كونها آلهة ففاتها عرفان ذلك؛ لأنها ممثلة الهوى والهوى فضَّاح تضطرب لديه الأفكار فلا تنفتح به الأبصار.

(٤١) لم تكن أغيالا كما قال الشاعر ذات عقل رجيح؛ لأنه مذكور في تواريخ تلك الأيام أنها خانت زوجها، وهامت بغيره أثناء غيابه، ولما ألقت الحرب أوزارها وعاد ذيوميذ على أمل أن يحظى بلقيا الزوجة الأمينة والرفيقة المعينة، فإذا بها قد ألقت بمقادة الحب إلى شخص غريب علق به قلبها، فاضطر ذيوميذ إلى الفرار من بلاده فكأن الزهرة انتقمت منه بما لها من السلطة على القلوب، فإما أن يكون هوميروس جاهلا لتلك الرواية لعدم شيوعها في زمانه، وإما أن يكون قال ما قال وهو يصفها قبل تلك الخيانة.

(٤٢) لم يكن لوالدة أن تسكن روع ابنتها بأرق من هذا الكلام، والشاعر كجاري عادته يسهب مكان الإسهاب، ويوجز موضع الإيجاز، فالمقام مقام تعزية وتسكين ولا يسكن جأش المصاب بكلمات قلائل، فلهذا أتت أولا على ذكر آلهة أعز جانبًا من ابنتها أصيبوا بأشد من مصابها، ولم تبق لها موضعًا للهفة والقنوط، ثم أعادت الكرة على ذيوميذ فتنبأت لها بما سيناله من العقاب الشديد، ولا سيما بحرمانه البنين لذة الحياة الدنيا، وتلك شر رزية يخشاها الآباء، وسنرى من كلام فينقس في

النشيد التاسع شدة تلهفهم على العقب فكأنها ذرَّت لها بلسم الشفاء وفرجت عنها كربة العناء.

(٤٣) لا بدع أن تبادر أثينا وهيرا، فتسبقان قبريس إلى زفس فتكلمانه بما هو مأثور عنها من التحرش بالغلمان والفتيات لتخففا من غيظه إذا اغتاظ، وتلتمسان بالهزل طمس حقيقة لا تخفى عليه، وإنما يشوقه هزلهما فيصبر عنهما؛ ولهذا نراه باسمًا في البيت التالي كأنه تجاوز عنهما إلى ما هو أعظم شأنًا في تلك الحال.

(٤٤) لم يتحامل ذيوميذ على أفلون تحامله على الزهرة؛ لأنه إنما كان مندفعًا بصولة أثينا، وهي لم تأذن له إلا بطعن الزهرة، أما تصديه لأفلون فلم يكن بالأمر المعقول؛ لأنه إله ذو بطش شديد، وإذا نظرنا إلى الأمر من وجه رمزي، فذلك أيضًا غير معقول؛ لأن أفلون ممثل الشمس والقدر ومقاومتهما أمر محال في كل حال.

(٤٥) إن في إرسال هذا الطيف تعبيرًا شعريًّا لطيفًا يشير إلى أنهم لم يعلموا بتغيبه.

(٤٦) المسرَّدة الحصداء الدرع المحكمة، والمجوب الترس.

(٤٧) فرغام أو فرغاموس قلعة إليون، وقد تطلق على البلدة نفسها.

(٤٨) لم يتجرأ أحد من قوم هكطور تجرُّؤ سرفيدون عليه في هذا المقام، فعيَّره بما لم يكن يصبر له لو صدر من طروادي، ولكنه كلام مفحم لا يرد عليه، ولا يكذَّب ولا يعاب، وزد على هذا أن هكطور وصحبه كانوا في حاجة كبيرة إلى حلفاء يقاتلون معهم جنبًا لجنب، ولا مطمع يغريهم على الاستبسال، فإذا غادروا الحرب كان البلاء كل البلاء على الطرواد والحلفاء لا يمسُّون بأذى كما قال سرفيدون:

وهنـا لـيس لـي متـاع ولا مـا ... لٌ فأَخشـى أن العـدى يسـلبوني

أو كقول الطغرائي:

فـيم الإقامـة بـالزوراء لا سـكني ... فيهـا ولا نـاقتي فيهـا ولا جملـي

ولهذا لم يكن لهكطور جواب أوقع من الصمت والاجتزاء عن القول بالفعل.

(٤٩) قال عنترة:

ويطربنـي والخيـل تعثـر بالقنـا ... حُـداة المنايـا وارتهـاج المواكـبِ

وضـربٌ وطعـن تحـت ظـل عجاجـةٍ ... كجنح الدجى من وقع أيدي السلاهب

(٥٠) ذيمتير إلاهة الزراعة والخصب وقد مر ذكرها، وهي سيريس اللاتين أو الإفرنج كانوا يمثلونها وبيدها سنبلة أو زهرة خشخاش وما أشبه، لم أر للغبار تشبيهًا أبدع من هذا التشبيه، ولعله وارد في شعر

العرب وخفي عنا أو أنه لم يحفل به شعراؤهم لقلة اشتغالهم بالزراعة في باديتهم.

(٥١) احتجاب أثينا إشارة إلى شدة الالتحام واختلال النظام كما أن انسدال الغمامة فوق الجيش في البيت التالي إشارة إلى اكفهرار الغبار.

(٥٢) لما وصف الجنود المتثبتة في مكانها متهيئة للكفاح، وشبهها بالغيوم المتلبدة فوق الجبال هيأ للتصور منظرًا مهيبًا قلما يراه سكنة السهول، ثم استطرد فمثل للتصور ذلك المشهد أثناء هجوع الأنواء؛ لأنها في عرفهم كما علمت أشخاص مجسَّمة تهجع وتستفيق، فإذا هجعت فقد تبقى تلك الغيوم راسخة كالجبال فوق الجبال يتهيب لمنظرها الرائي، قال بعضهم: رمز الشاعر بقوله: «الأنواء فيهن تلعب» إلى ما سيكون من تمزق شمل الإغريق في تلك الواقعة، وهو تصور حسن قد يمكن أن يكون قصده الشاعر إلا أنه لا يبعد أن يكون من جملة المتممات اللاصقة بأكثر تشابيه هوميروس.



شكل ٢: ذيميتر.

(٥٣) كل كلمة من هذا الخطاب على إيجازه تقوم مقام العبارات الطوال، والجمل الفخيمة في خطب الملوك والأقيال لا سيما أن الساعة ساعة حرب لا سبيل فيها إلى إطالة الكلام، ولم يكن غير أغاممنون لينطق بمثل هذا النطق، وإن وجد بين القوم من هو أبعد منه نظرًا وأوفر حكمة؛ لأنه ليس إلا للزعيم الأكبر بعد التلطف بالمقال أن يعد البطل المقدام بحسن المصير، ويتوعد النكس الجبان بالموت والعار، وهذا من مميزات شاعرنا إذ لا يكاد يصدق في كلامه منطق رجل

إلا إذا كان من ذلك الرجل، وما أشبه خطاب أغاممنون هذا بكلام الإمام علي بن أبي طالب يوم قام يخطب في الناس قبل واقعة صفين، قال: «وَطِّنوا أنفسكم على المنازلة، والمجاولة، والمزاولة، والمناضلة، والمعانقة، والمكارمة، والملازمة، وأثبتوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين».

ولعنترة بمعنى البيت الأخير:

لعمرك إن المجد والفخر والعلى ... ونيل الأماني وارتفاع المراتب

لمن يلتقي أبطالها وسراتها ... بقلب صبور عند وقع المضارب

ويبني بحد السيف مجدًا مشيدًا ... على فلك العلياء فوق الكواكب

ومن لم يروي رمحه من دم العدى ... إذا اشتبكت سمر القنا بالقواضِبِ

ويعطي القنا الخطيَّ في الحرب حقه ... ويبري بحدِّ السيف عرض المناكب

يعيش كما عاش الذليل بغصة ... وإن مات لا يجري دموع النوادب

وكل ذلك يجمعه قوله في موضع آخر:

من لم يعش متعزِّزًا بسنانهِ ... سيموت موت النذل بين المعشر

(٥٤) لا يغفل شاعرنا هنيهة واحدة عن تفكهة القارئ بما ترتاح إليه النفس؛ ليرسخ في ذهنه كل ما أودع شعره من الحكمة وحسن التمثيل، ولو سرد تباعًا أسماء قاتليه ومقتوليه لكان نظمه خلوًّا من

الطلاوة التي اشتهر بها، وإذا قص قصة أو روى رواية، فإنما يختار لها الوضع الذي لا يمكن أن تكون في سواه، ولنا على هذا مثالٌ مقتل الأخوين هنا فقص قصتهما بنسق مؤثر، وختمها بتشبيهين بالغين في الدقة والهيبة، فكأنما اضطر راوي شعره إلى حفظ تلك الذكرى.

(٥٥) مهما اعترض شعر الإلياذة من الأقاصيص الخرافية، فهو برموزه وحسن سبكه وارتباطه منسوج على منوال لا يأباه العقل، فإن منيلاوس لم يكن من أكفاء أنياس فلما انبرى له لم يكن ذلك إلا بسوق آريس إله الحرب أي: بثوران نار الحمية في رأسه، فغيبت عن بصره سوء المصير، فكان من ثم من الحزم أن يتقدم أنطيلوخ لمعاونته على أنياس خصوصًا أن الحرب أولاها وأخراها كانت انتصارًا لمنيلاوس، فلو قتل فيها لتصرمت الآمال، وضعفت عزائم الرجال وانتهت بنكبة الإغريق، ثم إنه لم يكن في ارتداد أنياس شيءٌ من العار؛ لأنه أصبح أمام بطلين مغوارين إذا قوي على أحدهما فلا قبل له بكليهما، قيل لعنترة العبسي: «أنت أشجع العرب وأشدهم بطشًا فقال: لا، قيل له: كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس؟ قال: إني أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل مدخلا إلا إذا رأيت لي منه مخرجًا، واعتمد الضعيف الساقط فأضربه ضربةً يطير منها قلب الشجاع، فأنثني عليه فآخذه والحرب خدعة».

(٥٦) الصروم: السَّيف.

(٥٧) الكلوم الجراح، يخطر على بال شاعرنا ما لا يدور في خلد شاعر، ولا تكاد تعجب بوصف أو تشبيه إلا ويبدو لك على الإثر ما هو أحسن منه أو مثله بحيث إذا خُيِّرت في التفضيل لاحترت في الانتقاء، وحسبك شاهدًا هنا مقتل هذا الرجل الناشر رجليه للهواء، وحسن التخلص بطرحه إلى الأرض مدفوعًا بجياده.

(٥٨) أنيو زوجة آريس إله الحرب، وقيل: بل أخته كانت حوذيَّته تشد الخيل إلى مركبته، وترافقه أو تذهب منفردة لإثارة الحروب، فكانوا يمثلونها منتفشة الشعر ملتهبة البصر، تجري وبيدها سوطٌ مخضب بالدماء.

(٥٩) لما كان الفوز للإغريق في ما تقدم، وكان لا بد من إظهار بسالة هكطور وجيشه وانثنأهم على العدو، وتنكيلهم به لم يكن أجمل من تصرف الشاعر بإظهار هكطور في صدر جيشه يليه إله الحرب، ورفيقته القهارة وفيه توطئة حسنة لالتواء الإغريق التواء غير مذموم، وانجلاء الأمر لهم بواسطة ذيوميذ؛ لأن أثينا كما تقدم فتحت عينيه ليميز بين الآلهة والناس، فأحجم إحجامًا لا يشوهه عار كمن يطوي بطن البيداء فتصده سيول لا قبل له باجتيازها «فينكص منهد القوى وهو حائر».

(٦٠) لما انجلت لذيوميذ حقيقة الأمر كان من الحكمة أن ينذر قومه بالخطر المحدق بهم، ويحثهم على التقهقر غير منقلبين على أعقابهم بل موجهين صدورهم للأعداء كجاري عادة الشجعان في ذلك

الزمان وفي كل زمان حتى لا تختل بوجوههم خطة الدفاع، ولا تنالهم طعان العدو في ظهورهم خشية العار، وقد كان من عاداتهم أن المطعون في ظهره ينبذ نبذًا من بين جماعته، وإذا مات لم يجز دفنه، وذلك عندهم منتهى العقوبة لما أسلفنا من شدة حرصهم على إحراز القبور ووصف معتقدهم فيها.

(٦١) كثيرًا ما نراهم في ساحة القتال يعكفون على الأسلاب في ثوران المعمعة طمعًا بالمال والفخار؛ لأنها كانت الدليل القاطع على بأس صاحبها، وسنرى ذلك بأوضح بيان في النشيد الثالث عشر أثناء مفاخرة أيذومين ومريون بما حوياه من سلاح الأعداء، ولم يكن ذلك شأن العرب كما قدمنا (ن ١). قال العبسي:

ونشرت رايات المذلة فوقهم   وقسمت سلبهم لكل غضنفر

(٦٢) لوميدون هو ابن إيلوس وأبو فريام تولى طروادة ثلاثة وعشرين عامًا، وهو الذي حصنها بالحصون المنيعة، وأقام السدود وقاية لها من موج البحر، وفي أقاصيصهم أن أفلون أعانه في بناء المعاقل، وفوسيذ إله البحر في بناء السدود، ولما انتهى عمل الإلهين، ولم يبر لوميدون بوعده لهما فشا الوباء في المدينة، وطغى عليها البحر، فلجأ الطرواد إلى استخارة الآلهة، فأوحي إليهم أنه لا مناص لهم ولا نجاة ما لم يعدّ ملكهم ابنته فريسة للنون العظيم أو التنين، فرضخ الملك مضطرًّا ففزع له هِرَقْل وقتل التنين، فنجت الفتاة على ما يقرب من قصة

مارجرجس، وحنث لوميدون بيمينه وأخلف وعده مع هرقل، فلم يعطه الجياد التي وعده بها، فانتقم هرقل ودمر البلدة.

(٦٣) بدأ أطلوفيم خطابه بالتهكم على سرفيدون إذ دعاه مشير ليقية إشارة إلى أنه كان قوالًا أكثر منه فَعَّالا؛ لأنه كما نقل پوپ عن سبوندانوس كان زعيم قوم مضت عليهم أزمان وهم راتعون بأمن وسلام لا يلجون الحروب ولا تفاجئهم الخطوب، وانتقل الخطيب من ثم إلى المفاخرة بحسبه ونسبه، وأشار إلى خراب إليون للمرة الأولى إذ دمرها هرقل انتقامًا من لوميدون ملكها.

(٦٤) لم ينكر سرفيدون مقال ندِّه، وإنما أنكر عليه أن ما جرى جرى ببأس هرقل، فألقى التبعة غضًّا من شأن هرقل على لوميدون نفسه كأنه أصيب بما أصيب عقابًا من الآلهة.

(٦٥) أبوه زفس كما تقدم، والمراد أنه لو لم تحط به العناية فيبادر صحبه إليه لهلك.

(٦٦) لقد صدق من قال: إن الشاعر لا يكون شاعرًا إلا إذا كان عالمًا، وإن لم يكن ذا علم وافر، فلا أقل من أن يلم ولو إلمامًا قليلا بعلوم زمانه، ويلوح لك من شعر هوميروس أنه كان طبيبًا وجَرَّاحًا، وفلكيًّا وصانعًا، ومؤرخًا وجغرافيًّا، وبالجملة فإنه وعى في صدره كل علوم عصره، ولك هنا مثال بأنه لم ينطق بلسان سرفيدون عند ما أصابته الطعنة بل لام قومه إذ لم يبادروا إلى إخراج النصل من حُقِّه، ثم صمت برهة وجعله

يشعر بشدة الألم، ويستغيث وكل هذا ينطبق الانطباق التام على حالة الجريح الذي يشتد به الألم بعد فترة.

(٦٧) إن في سبب إعراض هكطور عن جواب سرفيدون خلافًا في نظر الشراح، ولعل الأقرب إلى الصواب أن الساعة ساعة كفاح لم يكن له أن يضيع منها لحظة في الكلام، ولم يكن بوسعه أن يزيد على ما فعله أصحاب سرفيدون بإسراعهم به إلى الزانة.

(٦٨) وهذا أيضًا من دقائق مطالعات الشاعر إذ أن الجريح يشعر بأشد الألم عند انتزاع السهم من جرحه، فإذا لم يكن الجرح قتالا فنسمات الريح تنعشه وتخفف آلامه.

(٦٩) المهدم إله الحرب.

(٧٠) يثر الشراح من التساؤل كلما انتزع هوميروس مخاطبًا من نفسه فمن قائل: إن السؤال موجه إلى إلاهة الشعر، ومن قائل غير هذا القول، ولا أخاله إلا نوعًا من التجريد البياني كان يستحسنه اليونان كما يستحسنه العرب حتى جعلوه من أنواع البديع. راجع (ن ٤).

(٧١) لما طال على القارئ مشهد القتال ثنى الشاعر نظره إلى ما كان بين الآلهة من الفزعة للفريقين، فشرع في تهيئة هيرا زوجة زفس وفالاس أي: أثينا ابنته على ما يأتي، سنبين في أول النشيد السادس مطالعتنا بشأن هذا النسق من النظم.

(٧٢) اللبب ما يشد من السيور في صدر اللبَّة من صدر الدابة، والمراد به هنا السيور على الإطلاق، يخال لك لدى كل وصف من أوصاف هوميروس أنه إنما يصف علمًا وقف نفسه له أو صناعة دأب عليها حياته بطولها، ولنا هنا في وصف العجلة ما يكاد يدلنا على أنه صانع عجال مع كونه شاعر ما تقدمه وما تأخر عنه من القرون الطوال.

(٧٣) المضمد النير تقرن إليه الجياد.

(٧٤) أي: إن كل ما مرَّ مرسوم عليه رسمًا ويفعل فعله جسمًا.

(٧٥) قال پوپ: «إن تصور أثينا متدججة بسلاح زفس يشير إشارة بديعة كما قال أفستاثيوس إلى أنه لا شيء ثمة إلا حكمة القدر، قال: وكان القدماء يشيرون إلى هذا الموضع بعلامة كنجمة تمييزًا لما فيها من سمو المرمى، ولا ريب أن في كل هذا السياق بلاغة وعظمة تحار لهما الأفكار، وتقصر عنهما مدارك كل ذي تصور إلا هوميروس، ولا شيء في أقواله أصرح شهادة من هذا الموضع بالقول الشائع منذ القدم أنه «لا رجل سواه أبصر هيئة الآلهة ولا أحد سواه أظهرهم للناس» فلا وصف أجمل وأبدع مما وصف به مركبة هيرا وسلاح أثينا، وترس زفس بما فيه من رسوم الشقاق والهول والرعدة، وكل نكبات الحرب التي إنما تنتاب الناس على أثر غضبه عليهم، وما أعظم ذلك الرمح الذي به يحطم زفس بقوته وحكمته الفيالق المتأهبة والكتائب المتكتبة، ويغض من كبرياء الملوك الذين يسيئون إليه، على أننا لا نعجب من تناهي عظمة

هذه التصورات لدى تأملنا بما بينها من الشبه وبين ما ماثلها في الكتب المقدسة حيث يمثل الإله القدير شاكًّا في سلاح النقمة، وهو منحدر بعظمته لينتقم من أعدائه، وفي مزامير داود ذكر كثير للمركبة والقوس وترس الله».

(٧٦) الإشارة إلى مداخل النعيم والجحيم بالأبواب كلامٌ قديم في كل الأديان فللسماء أبواب في التوراة والإنجيل والقرآن. ويرمز بالباب أيضًا إلى الواسطة والوسيلة كما جاء في الحديث: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها». وعلى ذلك بنى البابيون مذهبهم توسعًا بهذا المعنى، أما الساعات الواقفة بباب السماء، فالمراد بها الفصول تتناوب واحدًا بعد واحد.

(٧٧) قبريس الزهرة، وفيبوس أفلون نراهما مواليين لإله الحرب؛ لأن الهوى والقدر حليفان له، وأما الحكمة أي: أثينا فلا.

(٧٨) لا شك أن فالاس أي: الحكمة أصلح من هيرا للوقوف في وجه رب الحرب؛ لأن وقوف هيرا في وجهه لا يأتي بمعنى، وهكذا نرى أن هوميروس نطق بكل ما نطق عن قياس ومنطق، فسنراه بعد أبيات وقف بهيرا تصيح دون أثينا؛ لأنها تمثل الهواء والصوت أشد وقعًا بفم هيرا منه بفم أثينا.

(٧٩) لا يعجبن القارئ لهذه المبالغة بسرعة طيران الجياد السماوية بمن عليها، فإنها هي من نتاج السماء تطير بآل السماء، وكم

من مثل لنا يشبه تلك السرعة بخطوات الملائكة بل وغير الملائكة من الجن في روايات العرب وغيرهم حتى لقد نُسبت لأبينا آدم في بعض الكتب خطوات تقارب هذه الخطى أو تزيد كخطوته من جنة عدن إلى جزيرة سرنديب (سيلان)، وأما عفريت سليمان فمن معجزاته فوق ما طرق مخيلة هوميروس، وأما سرعة الخيل فقد تفنن شعراؤنا في وصفها تفننًا لا تذكر بجانبه أقوال شعراء اليونان، ومن تلاهم أحصيت منها مرة نحو خمسين وصفًا، وبقي أمامي شيءٌ كثير، وإني موردٌ هنا أمثلة قليلة من أنواع مختلفة. قال سلمة بن خرشب الأنماري:

هــويّ عقــاب عــردة أشــأزتها   بــذي الضــمرات عكرشــة دروم

شبه فرسه بالعقاب المنقضة على الأرنب، والظاهر أن ابن خرشب كان مولعًا بهذا التشبيه فقد سبق له نظيره. (ن ١). وقال أعرابي:

جاء كلمع البرق جاش ماطره   تســـبح أولاه ويطفـــو آخـــره

فمـــــــا يمـــــــــس الأرض منــــــــــه حــــــــافره

•••

وقال مزرَّد أخو الشماخ:

متى يـر مركوبًا يقـل بـاز قـانص   وفـي مشـيه عنـد القيـاد تسـاتل

تقـول إذا أبصـرته وهـو صـائم   خبـاء على نشـز أو السيد ماثـلُ

شبه الفرس بطير الباز، وبالسيد أي: الذئب، وهو صائم أي: قائم وهذا كثير في كلام العرب، ومنه قول الحصين بن الحمام المرّي:

وأجرد كالسرحان يضر به الندى ومحبوكـة كالسـيد شـقاء صـلدما

وقال عنترة:

ولي فرسٌ يحكي الرياح إذا جرى لأبعـد شـأوٍ مـن بعيـد مـرامِ

يجيب إشارات الضمير حساسةً ويغنيـك عـن سـوطٍ لـه ولجـامِ

كل ما تقدم من كلام شعراء الجاهلية، وليس المولدون دونهم إلمامًا بهذه الأوصاف وما أرق ما قال علي بن الجهم:

فوق طرف كالطرف في سرعة الشـ ـد وكالقلـب قلبـه فـي الـذكاء

مـا تـراه العيـون إلا خيـالا وهـو مثـل الخيـال فـي الانطـواء

(والطرف المهر) ومثل ذلك قول المتنبي:

يذرى اللقان غبارًا في مناخرِها وفـي حناجرهـا مـن آلـسٍ جُـرَعُ

يريد أن تلك الخيل تشرب من نهر آلس، وتبلغ اللقان قبل أن تستتم بلع الماء، وبين المحلين مسافة بعيدة، وللمتنبي بيت آخر وعى معنى هوميروس بعينه وهو:

يقـبلهم وجـهَ كـل سـابحة أربعهـا قبـل طرفهـا تصـلُ

أي: إنها تضع قوائمها وراء منتهى بصرها، وهذا هو المراد بقول صاحب الإلياذة.

(٨٠) سِمْوِيسُ نهر تجاه إليون كان إلهًا من آلهة الطرواد.

(٨١) يقال في حمام الجنان، وطيور الجنان ما تقدم لنا في القول عن سرعة الطيران أنها قديمة في معتقدات الأوائل، وقال بها المصريون قبل اليونان وزعموا أنها لم تكن تبقي من أثر إذا وقعت على الأرض، وكثيرًا ما تمثل الملائكة بصور الحمام، ويرمز بها إلى الدعة والخفة والوفاء كما جاء في قصة الطوفان وغيرها.

(٨٢) قلنا: إن هيرا أي: الهواء أصلح لاستنفار الجيش، وإنما ماثلت إستنتور؛ لأنه كان نفير القوم، وكان لذوي الصوت الشديد في ذلك الزمان منزلة هامة في الجيش يقومون مقام الرسل والسفراء، ويؤدون ما تؤديه الطبول والآلات في هذه الأيام، وكانت الملوك والقواد تستخدمهم في الحروب وتفاخر بشدة صديدهم وهديدهم.

(٨٣) تَقَهْقَر أي: تتقهقر وهو كثير في شعر العرب كقول المعري:

تحاشي الرزايا كل خفٍ ومنسمٍ وتلقى رداهن الذرى والكواهلُ
وترجع أعقاب الرماح سليمةً وقد حطّمت في الدار عين العواملُ

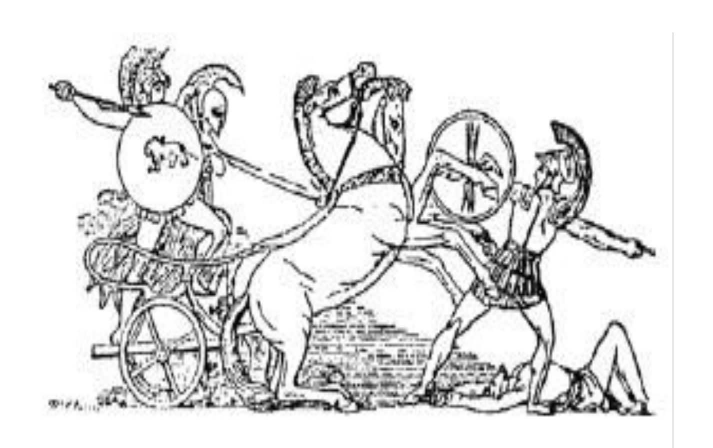
(٨٤) ذلك أصدق وصف للحرب، فهي لا تستقر على حال، ولا تراعي جانب العدل ولا تقف على حد ولا تلوي على جهد.

(٨٥) إستنيل هو حوذي ذيوميذ أو رديفه دفعته إلى الأرض لتحل محله، وتلي ذيوميذ بالكفاح فلا يقهره بعد ذلك قاهر.

(٨٦) آذيس إله الجحيم، وخوذته هي التي نعبر عنها في كتبنا بقبع المارد يخفي لابسه على كل الناس فيرى ولا يُرى، وقد ذهب اليونان هذا المذهب؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن كل ميت يحل دار الظلمات حينًا من الزمن، فينحدر إلى مملكة آذيس ويتوارى عن الأبصار ومن ثم تأصل فيهم الاعتقاد وأخذوا يرمزون بخوذة آذيس إلى الاختفاء والاحتجاب.

(٨٧) يأوّل مدَّ يد فالاس لإطاشة السنان بتذرع ذيوميذ بالحكمة والحنكة لإطاشته عنه.

(٨٨) يأوّل كل ذلك باشتداد الكفاح وارتفاع الصديد الشديد، وقد يمثلون ذيوميذ بطعن آريس على نحو هذه الصورة.



ذيوميذ يطعن آريس إله الحرب.

(٨٩) لا يؤخذ من قوله هذا أنه يمكن أن يدركه الموت؛ لأن الخلود من لوازم الألوهية، ولا يمتنع عليهم مع ذلك أن يعانوا العذاب حينًا من الزمن.

(٩٠) لا عجب أن يبث إله الحرب هذه الشكوى من ربة الحكمة، ويعزو إليها ما تخلق به من قبيح الخلال، فهي التي تتولى قهره وتكيد نحره، ومن اتصف بسيئة فإنما يصف بها أبعد الناس عنها.

(٩١) في أساطيرهم أن جميع الأرباب من ذرية أورانوس ممثل السماء، قالوا: ولدته الأرض، ثم تزوجها فولدت له ثمانية عشر ولدًا ومنهم قرونس (زحل) أبو زفس (المشتري)، ثم تألب قرونس وبعض إخوته عليه فخلعوه.

(٩٢) لما أجلت الإلاهتان رب الوغى عن ساحة القتال، أي: لما فترت عزائم الطرواد لم يبق ثمة داع لبقائهما على نصرة الإغريق فرجعتا إلى السماء.

النشيد السادس

اجتماع غلوكوس بذيوميذ ووداع هكطور لزوجته أنذروماخ

مُجْمَلهُ

خلت ساحة الحرب من كل رب وثــار العجــاج بطعــن وضــرب

وما كادت تخلو حتى استظهر الإغريق وولى الطرواد منهزمين، فأوقفهم هكطور وجرى مسرعًا إلى إليون يسأل أمه الملكة أن تستمد عون الإلاهة أثينا، وتسترضيها بالضحايا والنذور دفعًا لهجمات الإغريق وبطلهم المغوار ذيوميذ، ولما احتجب هكطور برز لذيوميذ غلوكوس زعيم الليقيين، وقبل أن يصطدما استطلع كل منهما طلع الآخر، فأدَّى بهما ذلك إلى أن تعارفا واذّكرا ما كان بين ذويهما من التواد والتصافي بحقوق الضيافة فتصافحا وافترقا على غير قتال، أما هكطور فإنه دخل إليون، وسأل والدته أن تذهب بكبيرات العقائل فيتشفعن أثينا ففعلت، وصعد من ثم إلى حجرة أخيه فاريس، فلقيه مع هيلانة، فمال عليه بالتقريع والتونيب واستحثه على معاودة الكفاح، ثم سعى يطلب امرأته أنذروماخ فلم يجدها في منزلها، وأنبئ أنها ذهبت ترقب حركات الجيش من فوق الأبراج فجرى عاديًا، إليها فلقيها مع طفله وجرى له معها حديث ذو

شأن ثم ودعها وانصرف يجري إلى ساحة القتال، وكان فاريس قد شك في سلاحه فلحق به وخرجا مندفعين إلى السهل.

مجرى حوادث هذا النشيد في اليوم السابق ومشهد وقائعه بين نهري سيمويس وإسكندر، ثم في إليون.

النشيد السادس

خلت ساحة الحرب من كل رب	فعــج العجــاج بطعــن وضــرب ١
فمــن ســمويس إلــى زنــثس	قــراع الســيوف ومــد القســي
فبـــادر بـــالقوم أول بـــاد	أيــاس يشــق صــفوف الأعــادي ٢
ففــرج أول هــم وبــاس يصــ	ــرع ابــن إفســورس أكمــاس ٣
أشــد الثراقــة بأسًــا شــديد	وجبـــار هـــول وقـــرم عنيـــد
لـــواه أيـــاس بطعنتـــه	فغـــارت بقلـــب تريكتـــه
وشقت إلى المخ عظم الجبين	فجنــدل ميتًــا غضــيض الجفــون
تــلاه ابــن نثراكســيل الأغــر	نزيـــل أرســـبا الغنـــي الأبـــر
ففي مضرب السبل كان يطوف	يغيــث العبــاد ويقــري الضــيوف
وفـــوق الطريـــق بنـــى داره	ليكـــــرم بـــــالقرب زُوَّارَهُ ٤
أعــان ولــم يجــده مــا أعانــا	ولــم يــك مــن عنــه يلقــى الطعانــا ٥
بســيف ابــن تيــذيس صــرعا	وخادمـــه كلســـيوس معـــا

وخــر أفلــط كــذاك ذريــس بعامــل فريــال صــدر الخمــيس
فــراح وأبقاهمــا بــالزفير علــى أســفوس وفيــذس يغيــر
حفيـدي حليـف العلـى لومـدونا وفــرعين مــن بكــره بقليونــا
نشــا خفيــة بقليــون بحجــر فتــاة أَحَــبَّ أبــوه بســر
ولمــا ترعــرع ســاق الشــياه فرامتــه إحــدى بنــات الميــاه٦٥
فــدان لبربــارة قلبــه وعــن تــوأمين انجلــى حبــه
فبأســهما ابــن مكســت أبــادا ونــال ســلاحهما مســتفادا
وفــوليفتيس رمــى أســتيالا وأوذيــس بــالرمح مــال وصــالا
جـرى يطعـن الفرقسـي فـذيت وطفقيــر آريتــوون يميــت
وأصـمى ابـن نسـطور أنطيلخس بنافــذ عاســله ابلــرس
وأتريــذ مــولى المــوالي قتــل إلاتــوس قــرم فداســا البطــل
وفــيلاق ولــى يــروم الفــرارا فنــال بطعــن لطــوس البــوارا
وميلنثيــوس رمــى أورفيــل وأذرســت حيًّــا دهــاه منيــل
فجـيش الطـراود والفتـك دار يهــم قــد ترامــوا ببــاب الــديار
وأذرسـت شـبت تغيـر الخيـول بــه جامحــات بتلــك الســهول
بغصــن مــن الأثــل والكبكبــه تباريــه أنشــبت المركبــه
فســحق مضــمدها والجيــاد أغــارت وقــد أفلتــت للــبلاد
وأذرســت لــلأرض مــذ صــرعا إزاء محالاتهــا وقعــا٦٧

فأدركــه وهــو يجــري منيــل … بــرمح طويــل وســيف صــقيل
علــى ركبتيــه ترامــى ذلــيلا … وقــال: «ألا فــاعف وارض بــديلا
فــإن كنــوز أبــي بادخــار … حديــدًا وصــفرًا وصــافي نضــار
فـإن تعـف عنـي فأُقتـاد حيـا … لفلكـــك يولـــك كنـــزًا مهيـــا»
فــرق وكــاد إلــى صــحبه … يشــير إلــى الفلــك تمضــي بــه
إذا بأخيــه يشــق الصــفوفا … ليوليــه عــذلا ولومًــا عنيفًــا
«تعسـت منــيلا وأنـت تـلام … عــلام رحمــت أولاء اللئــام
بـأي خنًـى لـم يسـيئوا إليكـا … وأي أســى لــم يهيلــوا عليكــا
أجـل فليبيـدوا ويفـن الجميـع … فتــاهم وشــيخهم والرضــيع
ولا يـنج نـاج وتبـل الجسـوم … ولا يعــل قبــر وتمــح الرســوم»٨
أصــاخ منــيلا لــه وارعــوى … وأذرســت صــد بكــل القــوى
وفـي خصـره آغممنـون ألقـى … ســنانًا يشــقق أحشــاه شــقًّا
وداس علــى صــدره واســجره … ونســطور صــاح يشــدد أمــره:
«أيــا دانويــون آل الطــراد … مــوالي أريــس رقيــب الجــلاد
فمــنكم لا يتخلــف كمــي … علـى السـلب والكسـب كـي يرتمـي
فيقفــل للفلــك فيمــا ادخــر … فيلهــو وذا اليــوم يــوم الظفــر
أبيــدوا الرجــال بــدار النــزال … فيخلــو المجــال وَثَــمَّ المنــال»٩

فهاجـت بهـم نفثـات الحميـه　　وماجـت تجـيش النفـوس الأبيـه

وكـاد الطـراود والعـزم خـارا　　يولـون نحـو الـديار فـرارا

ولـولا أخـو هكطـر هيلنـوس　　أجـلّ العـوارف يثنـي الـرءوس١٠

لَوَلّـوا ولكـن أتـى هكطـرا　　وأنيـاس يبغيهمـا منـذرا

«ألا مـذ تحملتمـا الفادحـات　　ومـذ كنتمـا رأس كـل الكمـاة

بسـل القواضـب بـأس شـديد　　وحـل المصـاعب رأي سـديد١١

قفا استوقفا الجند عند الحصون　　لـئلا تـولي اتقـاء المنـون

وطوفـا بهـم بحفيـف القـدم　　أثيـرا القـوى واسـتحثا الهمـم

مخافـة أن يـدفعوا بالأسـى　　مـولين حتـى حجـور النسـا

فإمـا التجلـد منـا بـدا　　أمنـا شـماتة لُـدِّ العـدى

ونحـن إذا الجـاش بـالجيش ثـارا　　لبثنـا نـذود ونحمـي الـذِّمارا

فـلا نجـوة مـن دواعـي الضـروره　　وإن بلـغ العـي منـا أخيـره

وإن نهـض العـزم بـين الجميـع　　أهكطـور فـاجري سـريعًا سـريع

إلـى أمنـا طـر وقـل تـذهب　　جميـع النبـيلات تصـطحب

وتمضـي إلـى قمـة القلعـة　　لهيكـل فـالاس بالسـرعة

وتفـتح فـي الحـال أبوابـه　　وتـدخل بالـذل أعتابـه

وتحمـل أبهـى نقـاب لـديها　　ليسـبل فيـه علـى ركبتيهـا

وتنـذر عنـد انـدفاع البليـه　　تقـود اثنتـي عشـرة للضـحيه

تبـائع مـا قرنـت تحـت نيـر إذا هـي منـت بـدرء الشـرور١٢
وحنـت لـدمع النسـا والبنـين ومنـت علينـا بحـرز أمـين
وصـدت ذيوميـذ روع البلاد نـذير البلا وانـدكاك العمـاد١٣
نعـم هـو ظنـي أشـد العدى وأطـولهم صـولة ويـدا
ولسـت أحاشـي كـذاك أخـيلا وإن كـان لِلرَّبَّـةِ ابنًـا جلـيلا
فهـاك تـراه تَحَـدَّمَ نـارا وَأَذْكـى الأَوَارفَلَـيْسَ يُجَـارى»
فمـا كـاد يكمـل قـولا وقـع لمهجـة هكطـور حتـى انـدفع
وهـب يغيـر مـن العجلـه وعدتـه ترسـل الصلصـله
يهـز القنـا وبخـوض الصـفوف يهـيج النفـوس لقـرع الحتـوف
فهـاج الطـراود بأسًـا ومـاجوا وتحـت خطـاهم عَـجَّ العجـاج
فَصُـدَّ الأغـارق قـتلا وزحفـا وكفـوا عـن الطعـن والضـرب كفـا
وخـالوا وقـد بلـغ البـأس حـده بنـي الخلـد قـد رفـدوهم بنجـده
وهكطـور والقـرع يعلـو صـديده بهـم صـاح كالرعـد يـدوي هديـده
«أقـوم الطـراود جنـد البئـوس ونجـادهم مستجيشـي النفـوس
فهـا أنـا أقصـد أبراجنـا لألقـى الشـيوخ وأزواجنـا
لكـي ينهضـوا وبنـذر الضـحيه يُـآلوا ادراءً لهـذي البليـه
فـلا تبـرحن كعهـدي بكـم بتصـعيدكم وبتصـويبكم»١٤

ولمـا انتهـى راح تَـوًّا يسـير علـى قدميـه وكـاد يطيـر
وأهـداب مجوبـه الأسـحم مـن الـرأس تضـرب للقـدم١٥
فشـق غلـوكس صـف الرجـال كـذاك ذيوميـذ يبغـي القتـال١٦
وعنـد التلاقـي وقـد بلغـا خـلال الجيـوش مرامـي الـوغى
ذيوميـذ بـادره بالسـؤال «فمـن أنـت قـل يـا أشـد الرجـال
فإنـك مـا لحـت لـي قـط قـبلا وسـمر العوامـل تفتـل فـلا
وإنـي إخالُـكَ فُقْـتَ الجميعـا لأنـك لـم تخـش فتكـي الـذريعا
فويـل أب لـم يهبنـي ابنـه فـلا شـك يهلكـه حزنـه
فـإن كنـت مـن قـوم آل الخلـود فقـل وأصـدقني حتـى أعـود
فليكـرغ قـاوم آل السـما فمـا قـام قائمـه بعـد مـا
تقفـى مراضـع رب الخمـور علـى طـود نيسـا خـلال الصـخور
فـروعهن بسـوط الفنـا فأسـقطن مـن يـدهن القنـا
وريـع ذيـونيس منـه وغاصـا إلـى لجـة البحـر يبغـي الخلاصـا١٧
فضـمته ثيـتس إلـى صـدرها تخولـه الأمـن فـي بحرهـا
وليكـرغ مـن ثـم كـل إلـه يعـيش بـدار النعـيم قـلاه
وزفـس بـلاه بكـف البصـر وأهلكـه عبـرة للبشـر١٨
أنـا لسـت أبغـي لقـاء الأولـى أنيلـوا الصـفا فـي الـديار العلـى١٩
فـإن كنـت تغـذي نتـاج التـراب فأقبـل وذق مـن ذراعـي العـذاب»

فقال: «علام اقتصصت الخبر ... ونحن كأوراق هذي الشجر

فبعضًا يبيد الهواء وبعض ... على منبت بائد النبت غض

ففي كل عام نبات أبيدا ... به الغاب تنمي ربيعًا جديدا

وكلٌّ على إثر كلٍّ مشي ... فجيلٌ تلاشى وجيلٌ نشا ٢٠

ولكن إذا شئت مني الحسب ... فإني ممن سما وانتسب

فإيفيريا بلد من بلاد ... بأطراف أرغوس أرض الجياد

بها كان سيسيف أدهى الأنام ... سليل أيولا عزيز المقام

وكان غُلُوْكُسْ له ابنًا كما ... لهذا بَلِيرُوْفُنٌ قد نما

ففاق بليروفن بالجمال ... وممتدح البأس كل الرجال

وقد كان فيض زفس انتصارا ... لإفريط فاحتل تلك الديارا ٢١

ودانت له كل تلك الأمم ... كذاك بليروفن ذو العِظم

ولكن إفريط أضمر شرًّا ... له إذ رآه ترفع قدرا

فبادر يطرده مستبدا ... وزوجة إفريط رامته وَجْدا

وعن نفسه راودته فأعرض ... عفافًا وللعرض لم يتعرض

له أضمرت أنتيا كل شر ... وقالت لإفريط تهمي العبر

«فموتن أوفليمت من أراد ... بأهلك سوأ سحيق الفؤاد»

تحدم إفريط لكن خشي ... نذيرًا خفيًّا ولم يبطش

وخـــط علـــى رقعـــةٍ مهـــرا   رســوم الحمــام كمــا أضــمرا٢٢

وســـيره لحميـــه المبجـــل   بليقيـــة بالكتـــاب ليقتـــل٢٣

فســـار وآل العلـــى حـــرس   عليـــه لحيـــث جـــرى زنـــشس

تلقــاه بالبشــر مــولى الــبلاد   وأكـــرم مثـــواه ضـــيفًا وزاد

فتســـع ليـــال كـــذا عبـــرت   عجـــول بعـــدتها نحـــرت٢٤

ولمــا انجلــى عاشــر العشــره   بـــوردي أنملـــه النضـــره

بــدا ملــك ليقيــة بالخطــاب   فــألقى الرســول إليــه الكتــاب

فلمـــا تناولـــه وتـــلاه   لقتــل الخميــرة حــالا دعــاه٢٥

مروعــة مــن بنــات الخلــود   علــى قمــم الشــم قســرًا تســود

لهـا رأس ليـث علـى ذيـل أفعـى   علـى جسـم تـيس مـن المعـز يرعـى

ومـــن فمهـــا نفثـــات الأوار   تقـــاذف نـــارًا تثيـــر الشـــرار

ولكـــن بـــآل العلـــى وثقـــا   وكـــل وجـــود لهـــا محقـــا

وثنـــى بقتـــل رجـــال البئـــوس   عظـامِ السـليمة شـمٍّ الـرءوس٢٦

وثلـــث يفتـــك والمرهبـــات   أمازونـــة الهـــول حتفًـــا أمـــات٢٧

ومــا كــاد يفــرغ حتــى أقــيم   لـــه فـــي الطريـــق كمـــين عظـــيم

فأفنـــاه طـــرًّا ولـــم يـــذر   لـــه ذلـــك اليـــوم مـــن أثـــر

فريـــع المليـــك وكـــف الأذيـــه   وأيقـــن عزوتـــه علويـــه

وأعـــلاه مســـتبقيًا بـــالجلال   وأنكحـــه ابنتـــه باحتفـــال

وشاطره الحكم والشعب رام   يقيم لديهم عزيز المقام
لذا أقطعوه هبات غزيره   جنانًا حسانًا وأرضًا وفيره
وقد ولد ابنين إيسندرا   كذا هفلوخ الرفيع الذرى
ولوذمية المجتباة ومن   بها هام زفس شجًا واقترن
ومنها نشا سرفدون المعلى   ولكن بليروفن سيم ذلا[٢٨]
فراح يهيم على آلس   بعيدًا عن الناس والمؤنس[٢٩]
فحُطّ لدى ساكني الخلد قدرا   وساموه بعد الترفع قهرا
فإيسندرا آرس قتلا   بحرب السليمة روع الملا
ولو ذمية أرطميس قلتها   ولم تعد من بعد أن جندلتها[٣٠]
وظل هفولوخ حَيًّا لنا   فذاك أبي وهو أرسلنا[٣١]
فقد حثني أن أخوض المجالا   وألقى بصدر الجيش الرجالا
وأعلى منار جدودي الأولَى   أنيلُوا الفخار وشادوا العلى
فهم دوخوا كل قرن عتا   بليقية وبإيفيريا
فذا نسب فيه يعتز مثلي   وهذا إذا شئت أصلي وفصلي»[٣٢]
فكف ذيوميذ مستبشرا   وأركز عاسله في الثرى
وقال: «إذن لك حق الإخاء   عليَّ وإني حليف الولاء
أتدري لأَونفس جدِّي قديما   بَلِيرُوفُنٌ كان ضيفًا كريما

وعشـــرين يومًـــا لـــه خلـــت　　　أقـــام علـــى الرحـــب والســـعة
وقــد أحكمــا للوفــاق الوثــاق　　　قبيــــل حلـــــول أوان الفـــــراق
فجــدي أهــداه أبهــى نجــاد　　　توشـــــت ببرفيرهـــــا المســـــتفاد
وجـــدك كـــأس نضـــار أغـــر　　　إلـــى الآن فـــي منزلـــي تـــدَّخر
وإنــي أبــي تيــذيس مــا رأيــت　　　ولكننـــــي عنـــــه هـــــذا رويـــــت
فقد كنت في المهد لما الأخاءه　　　بثيبـــة بـــادت ومنهـــا الإســـاءه
فإنـــا ترانـــا حليفـــي وداد　　　ومـــا بيننـــا لا يحـــل الجـــلاد
فأنـت بـأرغوس ضـيفي الجليـل　　　وفـــي ليقيـــا لـــك إنـــي نزيـــل
كفاني ما في العدى من رجال　　　أصـــول عليهـــا فتلقـــى الوبـــال
سواء بنو الخلد ساقت لباسي　　　أو اجتحتهـــا مســـتطيلا بنفســـي
وأنـــت كفـــاك بقـــرع الـــبلا　　　رجـــال تـــروم لهـــا مقـــتلا
وخـذ للوفـاق سـلاحي دلـيلا　　　وهـــات ســـلاحك عنـــه بـــديلا
لِـــيُعْلَمَ أَنَّـــا نُرَاعـــي العهـــود　　　وحرمـــــة آبائنـــــا والجـــــدود»
هنـــاك ترجـــل كـــل فريـــق　　　وبعـــد التصـــافح عهـــد وثيـــق
وزفـس غلـوكس رشـدًا سـلب　　　فنـــال نحاسًـــا وأعطـــى ذهـــب٣٣
فشـــكته مئـــة مـــن عجـــول　　　تســـاوي وذي تســـعة لا تعـــول٣٤
ســـار هكطـــور حثيثًـــا وأتـــى　　　بـــاب إســـكية والـــزان ظليـــل

•••

فتلقتـــــه نســـــاء وبنـــــات منـــه علمًـــا تتقصـــى ســـائلات

عن بنيهن وإخوان ثقات٣٥

وبعـــــول وأخـــــلا فـــــأمر أن يبــــادرن علـــى ذاك الأثـــــر

ويصلين لأرباب البشر

علهـــا تـــدفع عـــنهن الأذى ولزاهـــي قصـــر فريـــام مضـــى

هو صرح شيد بالنحت الجميل فـــوق أبـــواب رواق مســـتطيل

ضـــمنه صـــف بـــديع المنظـــر غُـــرف قـــد بنيـــت بـــالمرمر

كلها خمسون ملس الحجر

لبنـــي فريـــام شـــيدت مضـــجعا وثـــوت أزواجهـــم فيهـــا معـــا

ويحاذيهن صف رفعا

فيـــه بالإينـــاس والرغـــد ثـــوى مـــع كـــل ابنـــة الصـــهر الحليـــل٣٦

•••

لبنـات الملـك شـيد اثنـا عشـر منـــزلا طـــرا بمصـــقول الحجـــر

بسقوف شائقات للنظر٣٧

ثـم هكطـور إلـى الـدار ارتقـى حيـــث بـــالأم علـــى الفـــور التقـــى

عجلا تمضي إلى لاووذقا

أجمـل الغـادات فـي ذاك الفنـا فعليـــه أقبلـــت تـــوًّا تميـــل

•••

أمســكته بيــد وهــي تقــول وعــلام الآن غــادرت الســهول٣٨

وإلينا عدتَ تبدو بقفول

آه مـا أدهـى الأغـاريق الأُولَـى دهمونــــا بمعـــــدات الْبِلَــــى

إنما أعلم تبغي عجلا

ترتقـي مـن قمـة البـرج الـذرى حيـث تـدعو زفـس للخطـب الجليـل

•••

فاسـترح حينًـا وبـالراح أعـود لتزكِّيهــــا لأربــــاب الخلــــود

ثم تُسقَى فهي ريحان الكبود

تــنهض العــزم وتفنــي التعبــا بقـــواك العـــيُّ أَدرِي ذهبـــا٣٩

بذياد عن رفاق نجبا»

قـال: «يـا أمـاه تـنحط القـوى بارتشـافي الآن شـهد السلسـبيل٤٠

وكــذاك النــذر حتمًــا حرِّمــا بيــــد دنســـها ســـفك الـــدما

أيجيز النذر لي زفس كما

أنـا مخضـوب وغشـاني الغبـار فبــدار الآن فــي الحــال بــدار٤١

واقصدي هيكل فالاس المزار

فهـي الملجـا لهـا النصـر انتمـى واصـحبي الغـادات والطيـب الثقيـل

•••

واحملـي أغلـى وأعلـى برقـع لــك فــي القصــر العظــيم الأرفــع

وعلى ركبتها فيه ضعي

وانـــذري أن ترجعـــي مبتـــدره بالضـــحايا الغـــر ثنتـــي عشـــره

من تباع بكر مدَّخره

إن تشـأ أن تـدرأ اليـوم الأذى وعشـــار الولـــد والأهـــل تقيـــل

ورأت تـدفع عـن قـدس الـبلاد بطـــل البـــول وهـــدام العمـــاد٤٢

فرع تيذيوس رواع العباد

فـاذهبي أنـت ولـوذي بـالنقى وأنـــا فـــاريس أدعـــو للقـــا

عله يسمع نصحًا صدقا

آه لـــو تدفعـــه الأرض إلـــى جوفهـا أَشـفِي مـن الـنفس الغليـل

•••

آفـــة أوجـــده زفـــس لنـــا علـــة حتـــى يزيـــد الشـــجنا

أنا إن يهلك يزل عني العنا»٤٣

لبـت السـؤل وصـاحت بـالجوار لينـــــادين نبـــــيلات الـــــديار

وأتت غرفتها حيث استطار

عـابق الطيـب ومنشـور الشـذى فـــوق أزر زانهـــا الوشـــي الجميـــل

•••

نســـجتها غيـــدُ صـــيدا نقبـــا والفتـــى فـــاريس منهـــا جلبـــا

عندما هيلانة قبل سبى٤٤

فانتقــت مقنعــة قــد وضــعت فوقهـــا مثـــل الـــدراري ســـطعت

وفرت ألوانها واتسعت

ومضت إيقاب في جل النسا تقصد المعبد في البرج الأثيل

•••

وثيانو بنت كيسيس الصفي زوج أنطينور الفارس في

عجل قامت إلى الباب الخفي

فتحته إذ لتلك الربة جعلت كاهنة عن ثقة٤٥

فرفعن اليد بالولولة

نحو فالاس وسلمن الردا لثيانو ربة الخد الأسيل

•••

فلها ألقت به فوق الركب ودعت طالبة درء النوب

«يا ذمار الدار يأكل الأرب

اسحقي رمح ذيوميذ الألد واصرعيه عند أبواب البلد

فنضحي لك إن تحمِ الولد

ونسانا من تباع تنتقي باثنتي عشرة بالشكر الجزيل»٤٦

•••

هكذا كان الدعا لكن أبي لرجاهن استماع الطلب

إنما هكطور لم ينقلب

بل سعى يجري إلى الإسكندر حيث وافاه بقصر أزهر

شاده قرب المقام الأكبر

حيــث فريــام وهكطــور ثــوى　　فــي أعــالي قمــة البــرج الطويــل

•••

شــاده أمهــر أربــاب الحــرف　　بــــرواق عرصــــات وغــــرف

فإليه فيه هكطور ازدلف

بقنــاة حــدها القــاري انتشــر　　بلغـــت طـــولا ذراعًـــا وعشـــر

وعليها فَتْخَةُ التبر الأغر٤٧

فلديـــه ثـــم فـــاريس بـــدا　　يصــقل الشــكة والــدرع الصــقيل

عنــده هيلانـــة بـــين الإمـــاء　　تنفـــذ الأمـــر بحـــذق واعتنـــاء

قال هكطور: «أيا أَسَّ البلاء

بئس ما أفرغت من هذا الغضب　　والأعـــادي بلغـــت منـــا الأرب

ثارت الحرب وأولتنا الحرب

أنت لو خلت فتى عنها التوى　　ســمته التعنيــف بالســيف الســليل

كـــر أو لا فأعادينـــا الثقـــال　　تضرم الحصن وتجتاح الرجال»٤٨

قال والأرباب حاكى بالجمال

«بملامــي قــد أصــبت الغرضــا　　فاتخـــذ قـــولي صـــدقًا فُرضـــا

أنا لم أحنق بل اخترت الرضا

إن أكــن غــادرت كــرات الــوغى　　فلكــي أصــلى لظــى قلبــي العليــل

•••

زوجـي الآن أَلَانَـتْ لـي المقـال		تبتغـــي عـــودي إلـــى دار النـــزال

صدقت ظني والحرب سجال

فانتظرني الآن أشكك في السلاح		أو تقـــدمني إذا شـــئت الـــرواح

فأوافيك سريعًا للكفاح»٤٩

صـامتًا هكطـور ذا القـول وعـى		ونــــدا هيلانــــة شــــهدًا يســـيل

•••

«آه هكطـور أخـي كـل الشـرور		والرزايـا الــدهم مــن أجلــي تثــور

آه لو كانت رحى الريح تدور

يـــوم مـــيلادي وتيـــار الأوار		للجبـــال الشـــم بـــي كـــالطير طـــار

أو رمى بي فوق أمواج البحار

قبـل أن أخـذل مـن دون المـلا		وأعـــاني ثقلـــة الخـــزي الوبيـــل٥٠

إن هـــذا قـــدر الأربـــاب فـــي		حكمهـــا لكنهـــا لـــم تنصـــف

كان أولى أن تراعي شرفي

فيكـــون الآن لـــي بعـــل أشـــد		كاشـــف العـــار وَدَرَّاءُ الشـــدد

إن فاريس هوى النفس اعتمد

سـوف يلقـى شـر أعمـال جنـى		وأرى الإصـــلاح أمـــرًا مســـتحيل

•••

فاســترح حينًــا فــأنواع العنــا		شـــملتك الآن مـــن شـــرِّي أنـــا

وشجا فاريس زاد الشجنا

هكـــذا زفـــس علينـــا قـــدرا لنظـــل الـــدهر هُـــزْأً للـــورى»

قال: «يا هيلانة لست أرى

لي عن الجري إلى القوم غنى ما لهـم عنـي إذا غبـت بـديل

•••

حرضـي زوجـك أن يلحـق بـي وأنـا أمضـي لقصـري الأرحـب

لأري فيه أعز النسب

زوجتـي حينًـا وطفلـي المرضـعا لسـت أدري هـل قضـي أن أرجعـا

أو يد الإغريق تفري الأضلعا»

ثـم جـد السـير للقصـر علـى عجـل يلقاهمـا قبـل الرحيـل٥١

•••

خـاب مـا أمـل إذ لـم يجـد زوجـه الحسـناء بيضـاء اليـد

فهي مع جارية والولد

ذهبـت ترقـب بـالبرج الأثـر تصـعد الأنفـاس عـن هـامي العبـر

داس بالأعتاب واقتص الخبر: ٥٢

«أيـن يـا هـذي النسـا قلـن لنـا أنـذروماخ مضـت أي قبيـل

هـل إلى بعض بيـوت الأخـوات أو نسـاء الإخـوة المستعصـمات

أو إلى الهيكل تلقي الدعوات

مـع بنـات الحـي تبغـي المـددا حيــث يســتمددن بالــدمع اليــدا

من أثينا خوف كرات العدى»

قلن: «لم تذهب إلى الأهل ولا ذهبــت قلــب أثينــا تســتميل

قـد بغيـت الحـق والحـق يقـال فهــي فــي الســور ببلبــال وبــال

علمت في قومنا حل الوبال

فرأيناهـا جـرت نحـو الحصـون جــري مــن داهمــه مــس الجنــون

تصحب المرضع والطفل الحنون»

فـانثنى هكطـور مـن حيـث مضـى وعلـى الفـور جـرى والصـبر عيـل٥٣

بــين أســواق بمرصــوف البنــا أســرع الســير وللبــاب دنــا

فهنا زوجته ذات الغنا

بنــت إيتيــون الشــهم الأبــر (مــن بإيفلاقيــا ذات الشــجر

قبل في ثيبا تعلّى واستقر

والكليكيــين بالعــدل رعــى) أقبلــت تصــرخ بالقلــب الــذليل

معهـا المرضـع والطفـل الرضـيع ســاطعًا بالحســن كــالنجم البــديع

أستيا ناسًا يسميه الجميع٥٤

إذ أبــوه ذاد عــنهم أجمعــا إنمــا هكطــور والبــر رعــى

إسكمندريوسًا الطفل دعا٥٥

فإليــه باســمًا سِــرًّا رنــا وانبــرت زوجتــه الــدمع تهيــل

«يا شقي البخت ذا البأس الوخيم سـوف يلقيـك بلجـات الجحـيم

ولي الإرمال والطفل يتيم

سوف تلقاك جماهير عداك وتلقيك مضاضات الهلاك

فلمن أبقى إذا مت سواك

آه لو أُلْقَى إلى جوف الثرى قبل أن تلقى على الأرض قتيل

•••

إن تموتن الأسى يخلد لي وعنا النفس ودمع المقل

لا أب أسلوبه لا أم لي

فأبى آخيل ذو البطش قتل عندما ثيبا الكليكيين حل٥٦

إنما الأرباب أولته الوجل

فارعوى منقلبًا عما توى ولحر السلب لم يبغ سبيل

•••

أحرق الجثة في شكتها ثم واراها إلى تربتها

في ضريح شاد في جيرتها٥٧

حوله غيد الجبال الشامخات نسل رب الترس سَحَّاقِ الرُّفَات٥٨

قَدْ غَرَسْنَ الدُّلْبَ حُبًّا بالممات

إخوتي سبعة أبطال كذا دفعةً بادوا وما لي من خليل

•••

ذلك القرم دهاهم في الحقول بين أسراب شياهٍ وعجول

وانثنى من بعد ذا الخطب يصول

ولأمــي الأمــر بــالحكم خــلا فتقفاهـــــا لتعمـــــيم الـــــبلا

ساقها للأسر في ما أرسلا

أجزلـــــت فــــديتها لكنمــــا أرطمــــيس اتبعـــت شـــر آخيـــل

•••

رشــقتها بســهام الغضــب٥٩ أنـــت أمـــي وأخـــي أنـــت أبـــي

أنت بعلي أنت كل الأرب

أنت كل الأهل لي إذ أنت حي آه فــارحم وانعطــف رفقًــا علــي

آه فارفق بي وبالطفل لدي

(أنـا لا أطمـع أن تـأبى الـوَحَى وعـــن الهيجـــاء جبنًـــا تســـتقيل

إنمـا أرغـب أن تحمـي الـذمار وتقـــي نفســـك مـــن شـــر البـــوار)

فَهُنَا السور تداعى للدمار

فبغـــاه كـــل ذي عـــزم وبـــاس كذيوميـــــذ وأتريـــــذ أيـــــاس

وثلاثًا كاد يندكّ الأساس

لست أدري هـل أتـوه عـن هـوى أولهــم قــد كــان فــي الــوحي دليــل

•••

قـرب تـين البـر فـوق البـرج قـر وتحفـــظ فيـــه مـــن شـــر أمـــر

فلك النجو (وللجيش الظفر)

ولي السلوى وللطفل الرجا» ٦٠ قـال: «مـا يشـجيك يـوليني الشـجا

إنما الموقف أضحى حرجا

نـزل الـروع وبـي العـزم أبـى أن يكـون الـروع فـي القلـب نزيـل

•••

بين أقوامي وربات السدول ٦١ لست أرضى العار إن تعل النصول

أو عن الهيجاء يثنيني الخمول

وأنـا دومًـا بصـدر الفيلـق شـأن فريـام وشـأني أتقـي

وأقي قومي بحدِّ المحقق

آه لكـن فـؤادي والحجـى ينبئـاني أن صمصـامي كليـل

•••

سـوف تنـدك بـإليون القـلاع وتوافينـا الملمـات الفظـاع

كل هذا منه قلبي لا يراع

لا إذا أمـي فـي التـرب ثـوت أو أبـي مـن دمـه السـمر ارتـوت

أو رميم الإخوة الأرض احتوت

لا إذا الطـرواد بـادوا وإذا خـرق الزرقـاء للجـو العويـل

بيد أن الخطب كل الخطب آه أن تكـوني فـي سـبيات العـداه

تذرفين الدمع عن مر الحياه

تستقين المـاء كالعبـد الأسـير مـن مسـيس أو ينـابيع هفيـر

تنسجين القطن والقلب كسير

كـــل بـــؤس كـــل رزء وعنـــا   كلـــه إن حـــل ذا الـــرزء قليـــل

كله لا شيء إن صح الصحيح   ولـــديهم كنـــت والـــدمع يســـيح

والذي يلقاك بي هزأً يصيح

«تلكـم زوجـة هكطـور الشـديد   خيـر مـا فـي القـوم مـن قـرم عنيـد

كم له قرع بذراع الحديد»

«تـل صـدر الجـيش تـلّا وهُنـا   ســبيت زوجتـــه وهـــو تليـــل»٦٢

فتصـــيحين وتصـــلين الســـعير   تســـتجيرين ولكـــن مـــن يجيـــر

إن يكن هكطور في الترب قرير

فلـــك الـــرق وأنـــواع العـــذاب   يـــا لحـــود الأرض وارينـــي التـــراب

قبل أن يدهمني هذا المصاب

وأنلنـــي أيهـــا الخطـــب الـــبلا   قبلمـــا زوجـــي للســـبي تُنيـــل»٦٣

•••

ثـــم مـــد اليـــد للطفـــل فصـــد   جازعًـــا لمـــا رأى تلـــك العـــدد

من نواص سابحات وزرد

وبصـدر المرضـع الطفـل ارتمـى   فلديـــــه أبـــــواه بَســـــمَا

وبرفق عنه هكطور رمى

ذلـــك المغفـــر والطفـــل بـــدا   بيديـــه بـــين تقبيـــل يجيـــل

ودعـا يسـأل أسـياد الأنـام: «أنـت يـا زفـس وأربابًـا عظـام
عونكم أسأله في ذا الغلام

فلـيكن مثلـي هَصَّـار الأسـود وهـو فـي إليـون بالبـأس يسـود
وإذا من موقف الحرب يعود

فليقـل فـوق أبيـه قـد سـما سـل سـيف الفـوز يـا نعـم السـليل

•••

وليجنـدل كـل جبـار أبـي فـائزًا منـه بحـر السـلب
تتلقاه بيادي الطرب

أمـه جاذلـة ممـا تـرى»٦٤ ثـم ألقـاه لهـا مستبشـرا
وهي ضمته لصدر عطرا

بسـمت باكيـة وهـو رنـا مشـفقًا ينظـر للطـرف البليـل

•••

ثم ناداها وقد رام العجل «لا يشـق الأمـر لا يعـن الوجـل
ليس موت قبل إدراك الأجل٦٥

كـل صـنديد ورعديـد جبـان مـذ تبـدى بوجـود للعيـان
ليس ينجو من تقادير الزمان

ولكـل عمـل فامضـي كفـي واطلبـي أعمـال ربـات السـديل

•••

فلـك النسـج وفتـل المغـزل ولنـا إعمـال سـمر الـذُّبَّل٦٦

وأنا الإيقاعُ بالأبطال لي»

لــبس المغفــر حــالا ووثــب ومضــت تلفــت مــن حيــث ذهــب

تذرف العبرة والقلب التهب

دخلـت للصـرح يوليهـا الشـجا زفــرات أشــجنت كــل الــدخيل

•••

فعــلا بــين جواريهــا النحيــب حــين أبصــرن بهــا ذاك اللهيــب

عمَّت الأحزان في القصر الرحيب

هــو حــي وتعمــدن الحــداد إذ تــوقعن لــه وقــع الصــعاد٦٧

لم يؤملن له حسن المعاد

لــم يقــل بعــد أبادتــه العــدى إنمــا نحــن كمــا لــو كــان قيــل٦٨

مضى وبعالي الصرح فاريس جانح إلى الحرب منه تستطير الجوانح٦٩

بعــدة فــولاذ تــألق نورهــا جرى وهو بين الطرق كالبرق رامح

كمهر عتي فاض مطعمه على ربائطــه يبتتهــا وهــو جــامح٧٠

ويضرب في قلب المفاوز طافحًا إلى حيث قلب الأرض بالسيل طافح

يـروّض فيـه إثـر مـا اعتـاد نفسـه ويطـرب أن تبـدو لديـه الضحاضـح

ويشـمخ مختـالا بشـائق حسـنه يطيـر وأعـراف النواصـي سـوابح

وتجـري بـه مـن نفسـها خطواتُـه إلى حيث غصت بالحجور المسارح[٧١]

كذا كان فاريس وقد جد مسرعًا عليـه كنـور الشـمس تزهـو الصـفائح

فأدرك هكطورًا عن الأهل قد نأى تحـــث خطـــاه للكفـــاح القـــرائح
فقـال: «أخـي إنـي أرانـي مبطئًـا فعزمـــي مرجـــوح وعزمـــك راجـــح»
فقال: «أيا فاريس ما كان منصف ليبخســك القــدر الــذي أنــت رابــح
فأنت أخو البأس الشديد وإنما بوجــدك قــد تثنيــك عنــه الجــوارح
ويلتـاح قلبـي إن لحتـك جنودنـا وأنت مدار الخطب والخطب فادح[٧٢]
فَهَيٍّ فليس الآن للبحث موضع سنبســـطه إن لـــم تبـــدنا المـــذابح
وإن شاء زفس أن يقيض نصرة ويـــدفع أقوامًـــا شـــدادًا نكـــافح
سـترفع أقـداح المسـرة والتُّقـى وتـــذكي لأربـــاب الأنـــام الـــذبائح»

هوامش

(١) ذكرنا في المقدمة أننا توخينا النظم على أساليب مختلفة لأسباب أوردناها، وقد حذونا في القسم الأول من هذا النشيد حذو الفرس بتصريع بعض بحور الشعر كالرجز، وأكثر ما يكون ذلك عندهم في المتقارب لطلاوته وملاءمته لمفردات لغتهم، حتى إن الفردوسي الملقب بهوميروس الفرس نظم كل شهنامته وهي أطول كثيرًا من الإلياذة على هذا البحر الذي صدَّرنا به نشيدنا، ولا يخفى أن الفرس بعد الإسلام أخذوا أوزان الشعر عن العرب، ولكنهم تصرفوا فيها على ما تقتضيه مباني ألفاظهم فاستباحوا من العلل والزحافات ما لا تستبيحه لعدم

اضطرارنا إليه في الشعر المتين، على أنه ليس هناك مانع يمنع من التفنن في النظم بما لا يخرج عن الأصول الموضوعة إلا من وجه عدم الشيوع، فقد سبق لعرب الأندلس والشعر في أبَّان دولته أن ذهبوا فيه كل مذهب، ولم يكن في الخلف من عاب وانتقد، بل كانوا كمنتزع الغلّ من عنقه، وكنا كمن يأبى إلا أن يغلّ وتثقله القيود.

أما التصريع من غير الرجز على ما تقدم فهو وإن كان قليلا جدًّا في الشعر العربي، إلا أن له نظائر في منظومات الأندلسيين وبعض شعراء المتأخرين ممن خالط العجم، كقول البهاء العاملي من الوافر:

ألا يـــا خائضًـــا بحـــر الأمـــاني　　هـــداك الله مـــا هـــذا التـــواني

أضــعت العمــر عصــيانًا وجهــلا　　فمهـــلا أيهـــا المغـــرور مهـــلا

مضــى عصـر الشـباب وأنـت غافـل　　وفي ثوب العمى والغيّ رافل ... إلخ

(٢) لا يكاد يعتزل الآلهة ميدان الوغى إلا ونرى اليونان ظهروا على أعدائهم، يريد الشاعر أن يبين بذلك مصداق الحقائق التاريخية التي تنبئُ أن الظفر كان حليف قومه في كل المواقع، وقد برز هنا آياس كجاري عادته، كالطود الراسخ لا يواليه إله في واقعة من الوقائع، فكله عزم وبأس ليس بالحكيم الموالي لأثينا، ولا العشَّاق الموالي للزهرة، ولا الظالم المتقلب الموالي لآريس، فهو قائم برأسه وابن جده وبأسه.

(٣) أكماس هذا هو الذي يمثل هيئته آريس في النشيد السابق، وكفى بذلك مدحًا له ولأياس أيضًا؛ لأنه إنما جندل بطلا من خيرة الأبطال.

(٤) إننا نرى من كرم هذا الفارس، ونوع ذلك الكرم ما لا يعجب له أحد من قراء الشعر العربي، وإن كان موضع عجب لقراء الشعر الإفرنجي لبعد عهدهم بأخلاق الجاهلية، واليونان أيام هوميروس شعب جاهلي، لا بدع أن يكثر فيه هذا النوع من الجود، ويتفاخر ذووه بالقرى وإكرام أبناء السبيل، وإننا لا نكاد نقرأ قصيدة من الشعر العربي الجاهلي وغير الجاهلي إلا رأيناه مشحونًا بذلك الفخار، ومن قولهم بمعنى كلام هوميروس، وفيه زيادة لطيفة:

نصبوا بقارعة الطريق خيامهم ... يتسابقون بها إلى الضيفان
ويكاد موقدهم يجود بنفسه ... حبَّ القرى حطبًا على النيران

ومثل ذلك قول المسيَّب:

أحللت بيتك بالجميع وبعضهم ... متفرِّق ليحل بالأوزاعِ

وقول زهير:

بسط البيوت لكي يكون مظنة ... من حيث توضع جفنة المسترفدِ

ومما يخرَّج على هذا المعنى قول حاتم الطائي:

وأَبرزُ قدري بالفضاءِ قليلها ... يُرى غير مضنونٍ بها وكثيرها

وليس على ناري حجاب يكنها   لمســـتوبصٍ لــيلا ولكـــن أنيرهـــا

ولا نظن أمة من الأمم غالت بقرى الضيف وإكرامه كالأمة العربية، حتى نسبتْ تلك السُّنَّةُ إلى جدها إبراهيم وإليه أشار الحريري بقوله:

وحرمة الشيخ الذي سن القرى   وأســـس المحجــوج فــي أم القُــرى

وأم القرى مكة، وقد روى هيرودوتوس وغيره من المؤرخين شيئًا عن نوابغ الكرم في سائر الملل، ولكنه لا يُذكر إزاء ما يروى عن سخاء العرب، حتى لو أخذنا ترجمة كل فرد من مشاهير أبناء الجاهلية، ومن بعدهم لرأيناه يصح أن يضرب به المثل المضروب بحاتم الطائي.

(٥) إن في هذه الكلام ما يهيج الرأفة على القتيل، وينبئ بقلة وفاء الناس ونكران الجميل؛ إذ كان ينبغي أن رجلا عرفت له الأيادي البيضاء تتهافت الفرسان لنجدته فتقيه شر الوبال، ولهذا انتُقد على هوميروس في هذا المكان وهو انتقاد غير ثبت؛ لأنه يرمي في كل شعره إلى وصف الحالة الطبيعية، وهي قلما توفي القسط والوفاء، ومع هذا فموت خادمه إلى جانبه كما ترى في البيت التالي يدلك على أن الشاعر لم تفته فائتة، فجعل لصاحب الجود رفيقًا وفيًّا يليه حتى الممات.

(٦) بنات المياه كان مسكنهن في قعر البحر، ومنهن ثيتيس أم أخيل.

(٧) المحالات: الدواليب.

(٨) لما صار أدرست في قبضة منيلا ترامى لديه ذليلا، وأطمعه بالمال فكاكًا لنفسه، فكاد منيلا يعفو عنه لو لم يبادر أغاممنون، ويعنف أخاه على رفقه بعدوٍّ يجب قتله، كل هذا يلوح فظًّا في بابه للمتحضر العريق، على أنه في حد نفسه تمثيل صادق لأطوار ذلك الزمان، حيث كان الانتقام أمنية الأماني، فالدية والفكاك والإطماع بالمال كلها أمور لم يكن في بعض الأحوال يسد شيءٌ منها مسد دم المطلوب بالثأر، وفي أخبار العرب قبل الإسلام وبعده من أشباه ذلك شيءٌ كثير حسبنا أن نذكر لكل زمن منه مثالا: أُسر عبد يغوث الحارثي من سادة بني مذحج في يوم الكلاب الثاني فقتل، ولم يغنه أن قال قول أذرست:

أمعشر تيمٍ قد ملكتم فاسجحوا ... فإن أخاكم لم يكن من بوائيا

فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدًا ... وإن تحربوني تحربوني بماليا

ولما انقرضت دولة الأمويين، واستتب الأمر للسفاح العباسي دخل شبل بن عبد الله على عبد الله بن علي عم السفاح، وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلا على الطعام فأقبل شبل وقال قول أغاممنون:

لا تقيلن عبد شمس عثارًا ... واقطعنّ كل رقلةٍ وغراسِ

ذلّها أظهر التودد منها ... ريَّها منكم كحر المواسي

ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي

أنزلوهـــا بحيـــث أنزلهـــا الله بــــدار الهـــوان والاتعـــاسِ
واذكـروا مصـرع الحسين وزيـدًا وقتـــيلا بجانـــب المهـــراس
والقتيـل الـذي بحـرّان أضـحى ثاويًـــا بـــين غربـــةٍ وتناســـي

فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم، وقد رأف منيلا بأدرست رأفة السفاح بسليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي، حتى دخل عليه سديف الشاعر وأنشده:

لا يغرَّنــك مــا تـرى مــن رجـال إن تحــــت الضــــلوع داءً دويّـــا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا تـــرى فـــوق ظهرهـــا أمويًّـــا

فأمر السفاح بسليمان فأخذ وقتل، ولم يكن الأنبياء في الأزمان الغابرة أرأف بالعدوّ من سائر الناس، فقد جاء في التوراة أن صموئيل النبي سخط على شاءول الملك لإبقائه على أجاج ملك العمالقة.

(٩) لا نرى أزمة اشتدت إلا انبرى لها نسطور، فأنفذ بقوله ما يعجز عنه بفعله، وله لكل مقام مقال لا يصلح إلا له، فالموقف موقف اصطدام والتحام، فلا أحكم من أن يقبِّح لهم التخلف عن الإبلاء للتهافت على سلب الأشلاءِ، ولما كان لا بد أيضًا من أطماع الجند بشيءٍ فقد أشار في آخر خطابه إلى أنهم لا يعدمون فرصة للكسب والنهب بعد أن ينالوا الظفر فيخلو لهم المجال، وهي حكمة من حكم

هوميروس شغف بها وبأمثالها قُرَّاؤهُ من الملوك والقواد. قيل: إن الإسكندر الكبير كان يتمثل بها، ومن جملة كلام علي بن أبي طالب لرجاله في واقعة صفين قوله: «ولا تأخذوا شيئًا من أموالهم». إلا أنه أراد بذلك كمال التعفف دون التخلف إلى حين، ومما يزيد هذه الموعظة شأنًا ووقعًا ما نراه من اندحار جيشٍ برمته وتقصيره عن بلوغ غايته لتهافته بسائقة الطمع على الكسب وإحراز المال، وحسبنا من الأمثلة التاريخية الكثيرة تلاشي بعض حملات الصليبيين لانقطاعها في طريقها على سلب الأموال.

(١٠) كان هيلينوس أخو هكطور في جيش الطرواد بمقام كلخاس العرَّاف في جيش الإغريق.

(١١) كثيرًا ما نرى سداد الرأي ملازمًا للبأس والحزم، مما ينبئك بما كان له من علو المنزلة عندهم، حتى لقد فضل الشاعر الرأي السديد على البأس الشديد في غير هذا الموضع. (راجع ن ٢).

(١٢) التبائع جميع التبعية، وهي ولد البقرة لحول واحد، أشار هيلينوس على هكطور أن يحمل أمه على أن تنذر النذور وتضحي بالضحايا لفالاس.

(١٣) كان هيلينوس يعلم بعرافته وكهانته ما لا يعلم هكطور، ولهذا عرف أن أثينا كانت موالية لذيوميذ كما تقدم في النشيد الخامس، فرأى أنه لا بد من استعطافها بالنذور والضحايا لتتخلى عن ذيوميذ،

فتخف وطأته عن الطرواد، ولم ينبئ هكطور بكل ما علم، وإنما أشار إشارة هي بمقام الأمر الديني، ولهذا سنرى هكطور ملبيًّا على الفور مطيعًا.

(١٤) قد انتُقد على هوميروس أن جعل هكطور يغادر ساحة القتال في ذلك الموقف الحرج، وهو اعتراض غير سديد؛ لأنه إنما ذهب بمهمة لم يكن بد من قضائها، ولم يكن في القوم أحد غيره يصلح للقيام بها، ومع هذا فلم يبرح مكانه حتى أثار بهم نار الحمية وأملهم بالفرج القريب.

(١٥) المجوب: الترس، تلك إشارة إلى شدة عدّوه، ويحسن بنا أن نذكر هنا أن مجانهم كانت على نوعين؛ أحدهما مجانّ الزعماء، التي كانت تستر كل الجسم فلا يبقى محل للعجب من أن تضرب أهدابها من الرأس إلى القدم، والثانية لسائر الجند وهي أصغر حجمًا.

(١٦) انتقل بنا الشاعر أثناء غياب هكطور إلى مشهد براز لا نظير له في كل الإلياذة، وسنأتي عند ختامه على النظر فيه.

(١٧) ذيونيوس إله الكرمة والخمرة والسرور، وهو باخوس اللاتين يمثلونه بهيئة فتى بيده عنقود أو سنبلة وقائمًا وقاعدًا وعريانًا ولابسًا بصور شتى.

(١٨) كان ليكرغوس المشار إليه ملك ثرافة، وكان في زعمهم مقاومًا لعبادة إلاه الخمر، فسخط عليه الإله وسلب حجاه، فجُن وقتل ابنه وقطع ساقي نفسه متوهمًا أنهما فسيلتا كرمة، ثم قامت عليه رعيته وقطعته إِربًا إِربًا. والرواية التاريخية هي أن ليكرغوس لغرض من الأغراض أمر باستئصال دوالي الكرم من بلاده، فقلت الخمور فكانوا يضطرون إلى مزجها بالماء، ومن ثم نشأ زعمهم أن ثيتيس إحدى بنات الماء ضمته إلى صدرها إشارة إلى مزج الماء بالخمر.



شكل ١: ذيونيوس.

(١٩) لعل القارئ يستغرب هذا الكلام من ذيوميذ، مع أنه لم يُرَعْ لمنظر الزهرة ولا لهول إله الحرب، ولكنه لم يؤت تلك الجسارة إلا بإغراء أثينا أما الآن وقد غابت عنه فعاودته التقوى ورهبة الآلهة.

(٢٠) لقد أكثر الشعراء في كل زمان من ذكر تعاقب الأجيال من الناس بكل برهان وقياس، ولكنه لم يكن فيهم من أتى بأجمل من هذه المقابلة وأصدق، لأنها مع قرب منالها وبساطتها تهيئ للناظر إليها حالتي الاضمحلال والتجدد وفقًا لما يقول العرب: «لو دامت لغيرك لما وصلت لك». وأكثر الشعر العربي الوارد لهذا المعنى يرمي إلى التلاشي والتبدد أكثر منه إلى النمو والتجدد كقول المتنبي:

يدفن بعضنا بعضًا ويمشي | أواخرنا على هام الأوالي

وقول المعري:

خفف الوطء ما أظن أديم الـ | أرض إلا من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن قدم العهـ | د هوان الآباء والأجدادِ
... ... | ... ...
ودفين على بقايا دفين | في طويل الأزمان والآبادِ

وقد جاء في التوراة ما يقارب المعنى الذي أورده هوميروس: «كل جسد يبلى مثل الثوب؛ لأن العهد من البدء أنه يموت موتًا، فكما

أن أوراق شجرة كثيفة، بعضها يسقط وبعضها ينبت، كذلك جيل اللحم والدم بعضهم يموت وبعضهم يولد». (سيراخ ١٤: ١٨ و١٩).

(٢١) ترى من هذا البيت أن إفريط أو فريتس (بلفظهم) كان ملكًا قهَّارًا، أفلا يلوح لأول وهلة أن لفظة عفريت العربية منقولة عنها؟

(٢٢) لا دليل ثابت على أن الكتابة كانت معروفة عندهم لذلك العهد، ولكنهم كانوا يتفاهمون بإشارات مخصوصة يخطُّونها على رقاع أو قداح، كما خط إفريط رسوم الموت على هذه الرقعة إشارة إلى أنه يجب أن يقتل الرسول، وسنرى في النشيد السابع أنهم لدى استقسامهم خط كل من المقترعين خطًّا على قِدْحه يميزه به عما سواه.

(٢٣) حمو إفريط هو سوباتس ملك ليقية. إن أمثال هذه الوسيلة للفتك بعدو أو بغيض كثيرة الورود في أخبار الأقدمين، وقد لا يخلو منها عصر، وبها غدر عمرو بن هند ملك الحيرة بطرفة بن العبد صاحب المعلقة المعروفة باسمه، ذلك أنه وفد على عمرو مع خاله المتلمس، فأكرمهما عمرو وأقاما عنده أيامًا، وحدث أن أخت الملك أشرفت عليهم وهم في مجلس الشراب، فرآها طرفة فقال شعرًا فيها فحقد عليه عمرو وكان قد بلغه قوله فيه:

فليت لنا مكان الملك عمرٍو   رغوثًا حول قبتنا تدورُ
لعمرك إن قابوس بن هندٍ   ليخلط ملكه نوكٌ كثيرُ

فعزم عمرو على قتل طرفة تشفيًّا منه، وعلى قتل المتلمس اتقاء هجائه، وخاف أن تجتمع عليه قبائل بكر بن وائل إن قتلهما ظاهرًا، فدعاهما وكتب لهما كتابين إلى المكعبر عامله على البحرين وعمان، فلقيا بطريقهما غلامًا يرعى غنيمة ولما علما منه أنه يحسن القراءة فض المتلمس كتابهُ ودفعهُ إليه فإذا فيه: «باسمك اللهم من عمرو بن هند إلى المكعبر، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وأدفنه حيًّا». فألقى الصحيفة في النهر وقال: يا طرفة معك والله مثلها، فقال طرفة: كلَّا ما كان ليكتب لي مثل ذلك، وسار بالكتاب حتى أتى المكعبر وقُتل. (الأغاني ودائرة المعارف).

(٢٤) أقام بليروفون تسع ليال ضيفًا على ملك ليقيا، فنحر له تسعة عجول جريًا على عادة الجاهلية من عدم استبقاء شيء من أُدبة إلى أُدبة أخرى، ونحر العجول عندهم كنحر الجزور عند العرب، فهي إنما تنحر للضيف الجليل كما تنحر الكباش والنعاج لسائر الأضياف، وما بقي من طعام الضيفان يوزع على الحي، وإذا بقيت بعد ذلك تطرح ولا تدَّخر إلى يوم تالٍ، وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

رحلنا وخلينا على الأرض زادنا   وللطير من زاد الكرام نصيبُ

ومن مرويات المتنبي وليست في ديوانه:

وإذا أتاه طعامهُ لغدائه   رُفعت له الأستارُ والأبوابُ

وتهافت الغلمان من جيرانه   فتسامع المعترُّ والمهتابُ

(٢٥) الخميرة (Χιμαιρχ) ومعناها في الأصل جدي معز (ومنها Chirnére بالإفرنجية للوهم والخيال)، مخلوقات خرافية كان مقامها في جبل خميرة في ليقية، وكانوا يزعمون أن لها رأسَ أسد يتقاذف الأوار من فيه على جسم تيس من المعزى، له ذيل أفعى، وكثيرًا ما كانوا يرسمونها برأسين؛ رأس تيس، ورأس ليث. فلما اضطر بليروفون إلى قتلها استنجد أثينا فمكنته من القبض على فيغاسوس الجواد الطيَّار، فركب وفتك بها وهو طائر. والأصل في هذه الخرافة أن جبل خميرة في ليقيا كان في قمته بركان تتقاذف النيران من فوهته، وتحتها مراعٍ نضرة ترتع فيها الماشية، وفي سفحه الأفاعي السامة تؤذي المارة من الناس.

(٢٦) السليمة: شعب ليقي تلاشى واضمحل. وانقراضه لغير سبب بيِّن في التاريخ حمل الرواة على الاعتقاد بأن ذلك إنما جرى على يد بليروفون؛ لأنه أحسن الجهاد في تلك البلاد.

(٢٧) الأمازونة: قوم من مقاتلة النساء مر ذكرهن ورسمهن. (ن ٣).

(٢٨) لم يذكر هوميروس سببًا لما نال بليروفون من الذل والهوان بعد ذلك العز ورفعة الشأن، فخطأه بعض الشراح لهذا الإغفال على أن بعضهم التمس له عذرًا بقوله: إن ناقل هذه الرواية، إنما كان من عقبه وعزيزٌ على الولد أن يذكر أمرًا ربما كان فيه غضاضة من شأن جده، وهو عذر ظاهر التمحل، والصحيح ما سنبينه في الصفحة التالية.

(٢٩) نهر آلس هو الذي عبره سيف الدولة أثناء غزوته الروم، وذكرهُ المتنبي بقوله:

يذري اللقان غبارًا في مناخرها ... وفي حناجرها من آلسٍ جرَعُ

والمعري بقوله:

بنات الخيل تعرفها دلوكٌ ... وصارخة وآلس واللقانُ

وفيه قال أبو فراس مخاطبًا سيف الدولة بن حمدان من القسطنطينية:

وما كنت أخشى أن أبيت وبيننا ... خليجان والدرب الأصمُّ وآلس

وله ذكر كثير في غزوات الإسلام أيام المعتصم، وفيه يقول أبو تمام مخاطبًا أبا سعيد الثغري الطائي أحد قواد المعتصم:

فإن يك نصرانيًّا النهر آلسٌ ... فقد وجدوا وادي عقرقس مسلما

(٣٠) كانوا ينسبون الموت الفجائي لأرطميس؛ لأنها ربة السهام، وربما نسبوا لها أيضًا انتشار الأوبئة تشبيهًا لها بالنبال المتساقطة.

(٣١) لا أظن قارئًا يطالع هذه القصة إلا ويرى الشبه الساطع بينها وبين قصة يوسف الصديق الواردة في التوراة والقرآن، وإن اختلف المآل بين يوسف وبليروفون، فيلوح للمطالع أن انحراف الآلهة عن

بليروفون، إنما هو ذيل ملصق أتى به الشاعر توطئة لما ألم ببليروفون وولده من الخطوب الكبار، ولم يذكر لأنه ليس هنالك سبب معقول لرغبة الأرباب عن رجل اتصف بكل محمدة مأثورة وخلة مشكورة، فالقصة على ما هي مبتورةٌ بترًا يشوه محاسن خاتمتها، وليس في كل منظومات هوميروس إغفال كهذا، ولا يشفع فيه ما تقدم في الصفحة السابقة، أو كون الرواية كانت كثيرة التواتر في زمانه، فلم تكن به حاجة إلى زيادة إيضاح؛ لأنه أفاض وأجاد في ذكر محامد بليروفون، فكان من لوازم السياق أن يشير ولو إشارة خفيفة إلى سبب انقلاب الآلهة وإعراضهم عنه، فلا أحسب إذن إلا أن هوميروس أتم إيراد قصته، وكان ذيلها في جملة ما سقط من قلم النساخ، والغريب أن الشراح فيما قرأت لم ينتبهوا إلى هذا النقص، أما تتمة الرواية على ما جاء في غير الإلياذة فهي أن بليروفون طغا أخيرًا وتجبر، فحاول الوثوب إلى السماء على ظهر جواده الطيار، فسخط زفس عليه وسلط ذبابة فلصقت بالجواد فأجفل ورمى فارسه عن ظهره، فسقط إلى الأرض، وكان ما كان من خاتمة أمره، وأما ما بقي فأكثره يتفق في معناه مع قصة يوسف وإن اختلف في الاسم والمبنى، فبليروفون كيوسف بديع الجمال كريم الخلال وأفريط يكاد يماثل فوتيفار اسمًا وجسمًا، وزوجته أنتيا تضارع زليخا التي قيل فيها: امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ وأعرض عفافًا هنا كما أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ هناك فقالت لزوجها هنا: فموتن أو فليمت من أراد بأهلك سوءًا سحيق

الفؤاد كما قالت هناك: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فوافقها أفريط على التنكيل به كما ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ فساء فألهم هنا؛ لأن آل العلى حرسوه فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ثم شوطر الملك، وأقطع كما، ولي يوسف على خزائن مصر وولي أحكامها، وسير بليروفون برسالة تقضي بقتله فلم يخن، فيفضها أو يذهب غير مذهب، كما حمل الوفاء يوسف على التحفظ بمال مولاه. ولا شك أن هذه القصة كان أمرها شائعًا في مصر في زمن هوميروس كما هو شائع في أيامنا تتمثل بها الخاصة ويتغنى بها السوقة في مصر وسوريا والعراق، وهو محقق أن هوميروس زار بلاد مصر أو نقل من الثقات كثيرًا من المعتقدات. ولا يخفى ما يعتري الروايات بالانتقال من الزيادة والنقصان، فإذا تأملنا هذه الرواية رأيناها باقية أكثر نقاء من غيرها.

(٣٢) لا بدع أن نرى هوميروس حريصًا على حفظ أنساب قومه، فذلك منزع جاهلية القوم، ونعم المنزع إذا لم يثبط عزيمة صاحبه، وينفخ فيه ريح الغرور كما جرى لإخواننا العرب لعهدنا هذا، والتوراة والإنجيل مشحونان بذكر الأنساب، وللعرب كلف خاص بتدوين أنسابهم حتى لقد يرتقون بأسلافهم من جد إلى جد حتى يبلغوا آدم أبا البشر مع أن من مرويات الحديث: «لا تتجاوزوا عدنان بأنسابكم». وقلما تجد شاعرًا عربيًّا يخلو نظمه من مفاخرة بعشيرته.

قال الفرزدق:

أُولئـك آبـاءِي فجئنـي بمـثلهم إذا جمعتنـا يـا جريـرُ الجوامـعُ

وقال النابغة الجعدي:

بلغنـا السـماء مجـدنا وجـدودنا وإنـا لنرجـو فـوق ذلـك مظهـرا

وقال سليم بن محرز:

وعمـي جبـارٌ وجـدي مالـكٌ همـا رفعـا البيـت الطويـل نصـايبه

لنـا وأحلَّانـا بـأرفع منـزلٍ من المجد لا يستطيعه من يطالبه

ومثله قول لبيد:

من معشرٍ سنت لهم آباؤهم ولكـل قـوم سـنة وإمامهـا

لا يطبعـون ولا تبـور فعـالهم إذ لا يميـل مـع الهـوى أحلامهـا

ومع هذا فلم يعدم العرب في كل عصر شعراء يقولون قول ابن الوردي:

لا تقـل أصـلي وفصـلي أبـدًا إنما أصل الفتى ما قد حصل

ومثله قول راكان شيخ العجمان الشاعر البدوي العصري:

يفتخـر حاشـاك بـالعظم الـرميمْ مفخـر البـزُّونْ بالسـبع الغشـومْ

والبزون: الهر.

(٣٣) حبذا لو جعل الشاعر تلك المقايضة عن طيبة نفس وعلو جناب من غلوكس لا عن فقد رشد، فلقد كان ذلك أليق بالمقام، على أن بعض الشراح فسروا سلب الرشد بترفع العقل، وحبذا لو كان الأصل يجيزهُ لهم.

(٣٤) لا تعول، أي: لا تزيد. إنما عبر هوميروس بهذا التعبير عن الثمن؛ لأنهم كانوا يتبادلون المتاع تبادلًا في ذلك الزمن، فلم يكن لديهم نقود مسكوكة بل كانت توزن المعادن وزنًا. لقد لقي هنا أعداء هوميروس مجالًا متسعًا للانتقاد عليه، فولجوه من كل باب وأطالوا البحث فيه بما يضيق دونه المقام، وجل مستندهم أنه لا يعقل مع حمو وطيس الوغى أن يقف فارسان بين الجيشين، ثم يتجاذبان الحديث الطويل العريض، فيقصان القصص ويتفاخران ويتخاطران، والناس وقوف وقد عيلوا صبرًا. نعم يصدق هذا الاعتراض على شاعر ينظم في هذا الزمان، ولكنه لا يخلو من التحامل على راوية روى أحدوثة جرت قبل آلاف من السنين بين قوم هذه سنتهم، ولا نكاد نرى مؤرخًا أو شاعرًا قديمًا إلا أثبت تلك السنة، وهذه أخبار جاهليتنا وغزوات الإسلام الأولى ملأى بمثل هذه المخاطبات في المبارزات يتنافر في أثنائها المتبارزان ويتناشدان الأشعار، ولربما أدَّى بهما ذلك التنافس إلى التعارف والتحاجز كما جرى لغلوكس وذيوميذ، ومن أمثاله ما ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين عن بروز أبي

حُمَيد عبد الرحمن بن عوف الرواسيّ بوقعة دير الجماجم؛ إذ خرج إليه رجل من أهل الشام فقال كلٌّ منهما متحمسًا: أنا الغلام الكلابي. فقال كلٌّ واحد لصاحبه: مَن أنت؟ وإذا هما ابنا عمٍّ فتحاجزا. كل هذا مع ما في حديث ذيوميذ وغلوكس من الفوائد الجمة والآثار التي لا تخرج عن جادة السياق، وإن أتت بصورة معترضة يخفف من وطأة الانتقاد، ولا ريب أن المطالع يرتاح نفسًا إلى تلاوة شيءٍ من هذا القبيل بعد عناء المعارك المتصلة، فيتهيأ للإتيان على الحلقة الباقية من حوادث هذا النشيد، وهي حلقة صغيرة جمعت من وصف شعائر البشر رجالا ونساءً كبارًا وصغارًا، ما لم تحوه مخيلة شاعر في ألوف الأشعار، ولا وصفه كاتب في طويل الأسفار.

(٣٥) لا بدع أن تهرع النساء فيتهافتن حول الزعيم الأكبر، وهو قادم من مواقف القتال، فهنَّ فوق ما فُطرن عليه من حب التطلع والتشوف، مفارقاتٌ بعولا وإخوانًا وأقرباء وأولياء لا يسعهنّ إلا استطلاع أخبارهم، وهي سنَّةٌ لا بد منها في كل عصرٍ ومِصْرٍ، وعندنا من أمثالها ما لا يقع تحت حصر، من ذلك ما روى الواقدي وغيره عن خولة بنت الأزور؛ إذ خرج أخوها فيمن خرج من دمشق إلى أجنادين أثناء فتوح الشام قال: «فلما رجع القوم إلى مكانهم أقبلت خولة على المسلمين، وجعلت تسألهم رجلا رجلا عن أخيها».

وليس في الإلياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب، وإن كنَّ شاطرنَ الرجال كثيرًا من الأعمال، كغسل الموتى، وإعداد المعدات، وإقامة الصلوات، وربما استخففن بقفول، كما سترى عما قليل في كلام إيقاب والدة هكطور، أو عنفن على خمول، كما سيأتي في كلام هيلانة عن زوجها فاريس، ولم يكن بهن حاجة إلى ما وراء ذلك؛ إذ لم تكن رجالهم تقاتل في البيداء، كما هي الحال في بادية العرب حيث تتبع النساء الرجال فتستنفر وتفزع وتسقي وتداوي، حتى لقد يجهزن على القتلى، كما جرى لهن في بعض أيام العرب المشهورة كوقائع بكر وتغلب في حرب البسوس، وربما خضن بأنفسهن ميدان القتال خفيةً وجهرًا فقد رُوي أن خولة السالفة الذكر لما لم تقف لأخيها على أثر، وعلمت أنه أسير العدو تسلحت وتلثمت واندفعت متخفية في صدر الفرسان، وكان من بأسها ما دُهش له خالد بن الوليد وسائر قواده، وفي روايات العرب أخبارٌ يؤخذ منها أن كثيرات من نساء حمير والتبابعة كن في الجاهلية يركبن ركوب الفرسان، ويقاتلن ويغزون ويهاجمن ويدافعن، أتى الواقدي على ذكر عجائز من بقاياهنَّ رافقن جند المسلمين في صدر الإسلام إلى الشام، وكنَّ لامتناع السلاح عليهن يأخذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، ويقاتلن بها قتال الفارس المقدام، وكنَّ إذا انهزم رجالهن وقفن في وجوههم، وأرجعنهم على أعقابهم بكل وسيلة لينةً كانت أو فظة، وكن

يعنفنهم وينشدنهم الشعر، ويقلن لهم لستم ببعولة لنا إن لم تمنعوا عنا، ومن قولهن في بعض تلك المواقف:

نحـــن بنـــات طـــارقِ   إن تغلبـــوا نمـــالقِ

أو تـــدبروا نفـــارقِ   فـــراق غيـــر واثـــقِ

هـــل مـــن كـــريم عاشـــقِ   يحمـــي عـــن العواتـــقِ

ونُقلت عن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بعض أخبار على هذا النمط قبل إسلام زوجها وبعده، ففي غزوة أحد شتمت زوجها لتقاعدهِ عن صد المسلمين، ثم لما أسلم وكان في الشام في جند خالد قابلته وهو منهزم، فضربت وجه حصانه بعمودها، وأسمعته الكلام المؤلم.

وعلى الجملة فقد كان لنساء العرب في الحرب شأنٌ لم يكن لنساء الإغريق، ومن وليهم، وأما ما جاء في الإلياذة وغيرها من كتب اليونان عن الأمازونة، فإنما هو حادثة منفردة في بابها، سيقت النساءُ فيها إلى الحرب بحكم الاضطرار لتلاشي الأبطال، وانقراض الرجال فلا يبنى عليها قياس.

(٣٦) إن إقامة الأصهار في بيوت الأحماء من الأمور القديمة المألوفة في كل الملل، فإن يعقوب أقام في منزل حميه لَابَان، والدمُّون بن عبد الملك الحضرمي تزوج إلى ثقيف في وجّ (الطايف)، وأقام بينهم وصار منهم، وهلمَّ جرًّا.

(٣٧) قد يقف مطالع الشعر عند دقائق ليست من لوازم النظم، ومع ذلك فإن نفسه تتطلع إلى استجلائها، فإذا كان الناظم دقيق الفكرة بعيد النظر دوَّنها، وكفى القارئ مئونة الحدس والتخمين، فهنا قصر ملك كبير ورد ذكرهُ في الإلياذة، فوصفه الشاعر بكلمات رسمت صورته في الذهن، وملأَت ذلك الفراغ، وهي مزية يسؤنا أن شعرنا العربي يوشك أن يكون غفلا منها لشغف أصحابنا بالشعر الصرف، والإيغال في ضروب الخيال بما لا يتسع معه المجال لهذه الحقائق، خذ مثلا القصور والمعاقل والحصون الوارد ذكرها في شعر العرب، فغاية ما تعلم عنها أنها بديعةٌ منيعةٌ متينةٌ حصينة، ولا تكاد تعلم شيئًا عن موقعها ووضعها واتساعها وهيئة بنائها ومادتها، وإذا ورد شيءٌ من ذلك فإنما يكون بوضع مجمل وأسلوب مبهم لا يصح أن يؤخذ منه رسمٌ صادق، ويطلق هذا الكلام على أكثر ما جاء في كلام العرب من هذا الوجه سواءٌ ورد على طريق العرض، كقول المخبل السعدي في المشقَّر:

ولئن بنيت لي المشقر في هضب تقصر دونهُ العصمُ
لتنقبن عني المنية إن الله ليس كحكمه حكمُ

وقول أوس في ريمان:

ولو كنتُ في ريمانَ يحرس بابه أراجيل أحبوش وأغضفُ آلفُ
إذن لأتتني حيث كنت منيتي يخب بها هادٍ إلى الموت قائفُ

أو كان مقصودًا بالذات، كقول السموأل في الأبلق:

بنى لي عاديا حصنًا منيعًا ... وماء كلما شئتُ استقيتُ

وأوصى عاديا يومًا بأن لا ... تهدم يا سمؤال ما بنيتُ

وقوله في موضع آخر:

لنا جبلٌ يحتلهُ من نجيرهُ ... منيعٌ يردُّ الطرف وهو كليلُ

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكرهُ ... يعزّ على من رامهُ ويطولُ

وكم من شاعر تغنى بذكر الخورنق والسدير قصري الملك النعمان في العراق، وصرح الغدير لبني غسان بالبلقاء، وقصر غمدان للملك شرحبيل الحميري في اليمن، ومارد والأبلق حصني السمؤال، ولكن من لنا باستخراج رسم تلك المباني من شعر الشعراء، وقد بسطنا الكلام على هذا الإغفال وأسبابه في المقدمة فلا حاجة إلى الإعادة.

(٣٨) ألا ترى من هذا الكلام أن النساء كن أحرص على شرف ذويهن منه على حياتهم، أو لا ترى من إمساك إيقاب والدة هكطور بيده، ومخاطبتها له بنوع من التعنيف، إنها إنما استغربت قفوله مع كل شوقها إليه وحنانها عليه، لم تكن أمهات ذلك الزمان أقل حنانًا على بَنِيهنَّ من أمهات أيامنا، ولكنهنَّ كنَّ على رقة عواطفهن ذوات صبر تقتضيه لوازم الخشونة في المعيشة، وأنفة تستلزمها المنافسة بسمو أفعال الرجال ممن ينتمي إليهن وينتمين إليه. وليس في كلام إيقاب من سمو المرمى فوق ما

يروى لكثيرات من نساء العرب، ذهبت الخنساء بنفسها مع بنيها وهي عجوز لما سار المسلمون لفتح فارس، فحضرت وقعة القادسية (في خلافة عمر). فشَدَدَتْهم وقالت: «اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت نارًا على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، فتظفروا بالمغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة». فتقدموا واحدًا بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية الخنساء حتى قتلوا عن آخرهم وكانوا أربعة، فلما بلغها الخبر قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة». (الأغاني وابن زيدون ودائرة المعارف).

(٣٩) هذا مذهب الجم الغفير من الناس، ومنهم ماربولس القائل: «قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان». قال لبيد:

تجور بذي اللبانة عن هواه ... إذا ما ذاقها حتى يلينا

ترى اللحز الشحيح إذا أَمرت ... عليه لمَالِه فيها مُهينا

وقد ابتذل العرب الشعر في وصف الخمرة ومنافعها، حتى دوّنت فيها الأسفار؛ كحلبة الكميت، وخمريات أبي نواس، مع قولهم بعد الإسلام بتحريمها، وكأنهم اتخذوا مما يجد البعض من لذتها في هذه الدنيا مع القول بتحليلها في الآخرة وسيلة إلى التسامح بالتهافت على مدحها حقيقةً، كما هو شأن المدمنين، ومجازًا كما سلك ابن الفارض

وغيره من المتصوفة، ومع هذا فقد ذهب كثيرون من الشعراء مذهب هكطور بذم الخمرة، كقول بعضهم:

تركت النبيذ وشرَّابهُ وصرت صديقًا لمن عابهُ

شراب يضل سبيل الهدى ويفتح للشر أبوابهُ

أما قول هكطور: «يا أماه، تنحط القوى بارتشافي الآن شهد السلسبيل». فالظاهر إما أنه كان يعتقد ذلك اعتقادًا، يوافقه عليه العدد الوافر من أطباء الأبدان فضلا عن أصحاب الأديان، وإما أنه قال ذلك بالنظر إلى حالة موقفه وعيه ورغبته في سرعة الإياب، ولم يكن له على كلتا الحالتين أن يلهو بشرب الراح وهو مخضب بدم القتلى، ومعفر بغبار الكفاح.

(٤٠) أي: السلسبيل الحلو، كالشهد.

(٤١) طهارة الأجسام واجبة كطهارة البواطن في كثير من الأديان القديمة والحديثة، فبطلانها يفسد الصلاة والضحية، بل ويمنع الأجر والنذر كما يستفاد من كلام هكطور، وقد زعم بعض الشراح أن القول بغسل الدم قبل التضحية، وما ماثلها من العبادات يشير إلى تحريم القتل، ولو كان الأمر كذلك لما عُدَّ غيرهُ من المدنسات، كما يستفاد من كلام هوميروس في عدة مواضع.

(٤٢) أعاد هكطور على أمه كلام أخيه هيلينوس.

(٤٣) أتى هكطور ليقضي مهمة واحدة فقضى ثلاثًا؛ أولاها: إنفاذ وصية هيلينوس، والثانية: دفع فاريس إلى الحرب، والثالثة: وداع امرأته وطفله، وكل ذلك بسرعة الهمام الحزوم، الذي لا يغفل أمرًا واجبًا، ولا يضيع لحظة لا يجني منها فائدة لنفسه أو لبني جنسه.

(٤٤) صور وصيدا مشهورتان في العهد القديم بحسن الصناعة، وإتقان المنسوجات من لباسٍ ورياشٍ، وكانت لهما علاقة متصلة مع بلاد اليونان، وللنساء فيهما مهارة بالنسج والخياطة والحياكة، سبى فاريس هيلانة من إسبرطة، وليست صيدا على طريق الذاهب منها إلى بلاد الطرواد على أن بعض الرواة (وعنهم روى هوميروس) يذهبون أنه لم يسلك الطريق العدل خوفًا من أن يظفر به الإغريق إذا تتبعوه، فأتى فينيقية، وبلغها ليلا فسبى ونهب ثم انقلب راجعًا، وذهب فريق من المؤرخين إلى أنه عاد توًّا ولم يعرج على مكان، ومن رأي بعض علماء العصر أن صيدا هذه غير صيدا السورية، بل بلدة أخرى بهذا الاسم كانت على ساحل البحر الأحمر.

(٤٥) كانت الكهانة للنساء عند اليونان كالرجال، وإن كنَّ أقل عددًا، وللرومان كاهنات مشهورات كالكبيلات، ولقد تعاطين الكهانة أيضًا عند العرب، وأشهرهن طُرَيفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر، التي أنبأت بانفجار سد مأرب وسيل العرم، وما لبثت نبوتها أن تحققت، وهي التي استخلفت شقًّا وسطيحًا يوم أشرفت على الموت، فدعت بهما

وتفلت في فميهما، وأخبرت أنهما يسخلفانها، ومنهن الزرقاء بنت زهير التي استشارها بنو خزيمة لما نزلوا هجر، فقالت: «مقام وتنوخ، فأولد مولود، واتفقت فروخ، إلى أن يجيء غراب أبقع، أصمع أنزع، عليه خلخال ذهب، فطار فألهب، ونعق فنعب، يقع على النخلة السحوق بين الدور والطريق، فسيروا على وتيرة، ثم الحيرة الحيرة». قال صاحب الأغاني (١١: ١٦٢): فسميت تلك القبائل تنوخ لقول الزرقاء، ثم لما تمت نبوءاتها ارتحلوا من هجر إلى الحيرة. ومنهن زبراء الكاهنة، وسلمى الهمدانية، وعفيراء الحميرية.

وللعرب أيضًا حكيمات مشهورات كانوا يأتمرون بأمرهنَّ ويستشيرونهنَّ في المعضلات؛ كصخر بنت لقمان، وهند بنت الحسن، وجَمعة بنت حابس، وابنة عامر بن الظرب وغيرهنَّ.

(٤٦) كان هيلينوس يعلم بعرافته أن ذيوميذ من موالي أثينا، فلم يوعز إلى هكطور إلا أن يستميل أثينا فيحملها على دفعه دون صرعه، وبلَّغ هكطور الرسالة بلاغ الرسول الأمين، أما النساء فلما أشير إليهن بذلك لم يقفن عند هذا الحد بل تمادى بهنَّ الكيد إلى الدعاء بسحق رمح ذيوميذ وإلقائه صريعًا، وهو تمثيل بديع لفطرتهنَّ نتحاشى الإطالة في وصفه، وحسبنا كلام إحدى نوابغهن عقيلة داسيه مترجمة هوميروس قالت: قلما يعتدل النساء بدعائهن على أعدائهنَّ؛ ولذا قليلا ما يستجاب لهن دعاءٌ، وهو لا شك تحاملٌ لطيفٌ منها على بنات جنسها.

(٤٧) الفتخة: الحلقة.

(٤٨) كان هكطور عالمًا ببواطن فاريس وبوادره عارفًا كما عرف سائر الجند أنه اعتزل الكفاح مضطرًا بغلبة منيلاوس، ومع هذا فلم يفه بكلمة تذكره بسابق فشله بل كلمه بما يشف عن اعتقاده أن فاريس ساخط على قومه، فاعتزلهم حقدًا عليهم فغادر تعنيفه عما جنى وعنفه على ما لم يجن فخفف عنه وطأة الخجل ونال منه ما أمل، وهيأ بنفسه استرضاء الجيش بعودة فاريس على أهون سبيل، وهذا دهاء من هكطور اتفق الشراح على استحسانه، وهو مثل صالح للمؤدب والخل النصوح يعلمان منه أن التعنيف الفظ وكشف مواقع الضعف قد يؤديان إلى ما لا يحمد، مع أن التونيب اللطيف الذي لا يكسر شوكة الإحساس، ولا يزيل حجاب الحياء يؤدي إلى المطلوب بأقرب السبل، وأقوم المسالك.

(٤٩) تناسى هكطور خيبة أخيه والتمس له عذرًا لتقاعده كما تقدم، فهب فاريس على الإثر مضطرمًا بنار الحمية لملاقاة ما فات.

(٥٠) لا نسمع كلمة لهيلانة، ولا نرى لها حركةً إلا وملؤها الندم الممزوج برقة الإحساس، فنتمحَّل لها عذرًا بإلقاء تبعة ما جنت يداها على القضاء المحتوم، وحسبنا بتمنيها الموت والاحتجاب عن عالم الوجود دليلا على شدة بؤسها وفرط غمها، تلك حاسة فطرية في من برّحت به تصاريف الزمن، أو خالها انتابته وهي بعيدة عنه، مثال الأول قول أيوب الصديق: «لا كان نهار ولدت فيه ولا ليل قيل فيه قد حُبل

برجل ليكن ذلك النهار ظلامًا، ولا رعاه الله من فوق ولا أشرق عليه نور ... لِمَ لَمْ أمت من الرحم ... لماذا صادفت ركبتين تقبلانني وثديين ترضعانني إلخ». (أيوب ٣: ١). والمثال الثاني: ما جاء في القرآن عن لسان مريم عليها السلام: قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا وربما صدق على المثالين قول الشاعر الفارسي:

مــرا أي كاشــكي مــادر نميــزاد وكرميــزاد كــس شــيرم نميــداد

ومعناه:

ليــت أمــي لــم تضــعني أو إذا وضــعتني ليتنــي لــم أَرضــع

(٥١) شرع الشاعر هنا في سرد تلك الرواية الفريدة في بابها عن وداع هكطور لزوجته أنذروماخ، ولقد أفاض الكتبة في تبيان محاسنها بما يضيق دونه مقامنا، حتى لقد أفرد لها بعضهم المؤلفات الحسان، وأبدوا في كتاباتهم من الملاحظات ما لم يبق معه مجال للإسهاب نخص منها بالذكر رسالة رولين (Trailé des études (Rollin. ولا بدع، فهذه الرواية على تقادم عهدها لا تزال الطراز المعلم يتوخى الكتبة إدراك شأوه في كل زمان ومكان، وهي مع كل ما كتب عنها من الشروح والحواشي غنية عن كل شرح وبيان، وما على المطالع اللبيب إلا أن يتصفحها حتى يستجلي بنفسه جميع محاسنها بلا مرشد ولا دليل، وهوميروس كسائر عظام الرجال، ونوابغ العقل، والكمال تطاولت إليه يد

كل منتقد حسود وعدو لدود على أن المتشيع له والمتفاني في تخطئته اضطرا هنا معًا إلى الانحناء هيبةً ووقارًا لجلال هكطور وكمال أنذروماخ.

(٥٢) أيُّ توطئة أجمل من هذه التوطئة للقاء الزوجين، فهو يسعى متقصيًا كالبرق الخاطف غير لاهٍ عن دواعي الذود عن الوطن، لا يطمع إلا في التزود بنظرة قبل الهلاك، وهي تجري مخلوبة الفؤاد تستطلع من المشارف غير عابئة بتهافت نسوة البلاد إلى المعبد، فكأنما زوجها معبودها الأعظم لا مطمع لها في الدنيا والآخرة إلا بسلامته وسمو مكانته.

(٥٣) لم يثبط هكطور شغفه بامرأته عن ادكاره حرج موقفه ووجوب عودته فورًا فانثنى من حيث أتى متصبرًا، ولم يضع الوقت بالبحث عنها، ثم جمعته بها الصدفة دون زيادة التحري، ولا يخفى ما في ذلك من تنبه الشاعر إلى توفية حقوق الهمم الشماء والعواطف الغراء في آن واحد.

(٥٤) أستياناس، أي: ملك المدينة. كذا دعا الطرواد المولود اعترافًا بفضل الوالد.

(٥٥) إسكمندريوس نهر طروادي كان من جملة معبوداتهم، ويدعى أيضًا زنثس، أي: الأصفر؛ لصفرة مائه، ويقال له الآن: «قرق كوزلر»، أي: الأربعون عينًا، سمى هكطور ابنه باسمه تبركًا به. إنه لأمر طبيعي في كل ملة أن يرمي بالأسماء إلى مغامز مقصودة، أو آلهة معبودة،

أو صفات محمودة، أو رجال معدودة، وقد جرى العرب جري غيرهم، فقالوا: عبد اللات، وعبد العزَّى، وعبد مناف، وعبد شمس، وعلي، وعباس، وهمام، وهلمَّ جرًّا، على أنهم تفردوا بأمر قلَّ من جاراهم فيه وهو التسمية بمستقبح الأسماء؛ ككلب، وكليب، وذئب، وذؤيب، وضبع، وضبيعة، وزبالة، ومرار، ولقد تأول الناس في ذلك تأويلات مختلفة أحسنها ما رُوي من حديث أعرابي؛ إذ سئل فقيل له: لماذا تسمون عبيدكم بأحسن الأسماء؛ كجوهر، ومرجان، ولؤلؤ، ومسرور، وأبناءكم بأقبحها؛ كغضبان، ومرار، وكلب، وذئب؟ فقال: عبيدنا لنا وأبناؤنا لأعدائنا.

(٥٦) لما كان آخيل موضوع الإلياذة ترى الشاعر يبرزه حينًا بعد حين، أثناء احتجابه بمظاهر كلها عظيمة حتى لا يغيب عن ذهن السامع بل يزداد تشوقًا إلى رؤيته وتشوفًا إلى إحقاق الخبر بالخُبر.

(٥٧) إحراق الجثة بسلاحها دليل على الرعاية والاحترام؛ وخصوصًا لأن غاية مفخر الأبطال في ذلك الزمن إحراز أسلاب القتلى، وأعظم من ذلك دليلا على إجلال أخيل لقتيله أبي أندروماخ بناؤهُ له ضريحًا، وهو عندهم الغاية والنهاية في الإكرام والتجلة.

(٥٨) كانوا يعتقدون بوجود بنات حسان في قعر البحار، وفوق الجبال القفرة، ووسط الغاب والآجام، وربما أطلقوا اسم بنات الغاب على بنات الجبال في بعض الترجمات، وهن جميعًا من المخلوقات

المؤلهة، واعتناؤهن بزرع الشجر حول ضريح ميت دليل على علو مكانته.

(٥٩) أي: إنها لم تلبث أن ماتت. كانت أرطميس (Αρτεμις) ويسميها اللاتين ديانا (Diana, Diane)

ربَّة العفة والطهارة والقنص، وكانت ترمي النساء بنبالها فتقتلهنَّ، كما كان أخوها أفلون يرمي الرجال، ويُرمز عنها بالقمر كما يُرمز عن أفلون بالشمس، ذكرها هوميروس مرارًا، وهي موالية للطرواد، وقاتلت في من قاتل معهم من الآلهة كما سيجيئ. كانوا يمثلونها بعذراء طويلة القامة متردية بثوب قصير، وإلى جانبها غزالة أو كلب، وكثيرًا ما كانوا يرسمونها وبيمينها قوس ووراءها طائفة من العذارى الحسان.

(٦٠) لقد طرقت أندروماخ كل باب يطرق لإمساك هكطور عن الإلقاء بنفسه إلى التهلكة دون أن تعبث بهمته ومنزلته، فهاجت فيه عواطف الحنان، وذكرته بما ألمَّ بآل بيتها من المحن، ومثلت له حبها له وتعلقها به وحذرته من عواقب مقتله إذا قتل، ولم يكن بالشيء اليسير أن يغادر امرأته أيّمًا وطفله يتيمًا، ثم حسنت له أن يقي ثغرة السور من هجمات الأعداء، وذلك موقف لا يقفه إلا الأبطال الأشداء، فلا يكون فيه غضٌّ من شأنه، كما قال هوميروس ضمنًا وقلناهُ بالتعريب صراحةً خلافًا لما توخيناه من نبذ التصرف، وعلى الجملة فقد أنطقها الشاعر بما

ليس في التصور أن تنطق بأحسن منه، زوجةٌ قدرت قدر الرجال وتوفرت لديها رقة العواطف وطيب الخلال.

(٦١) وفي الأصل بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب. ينبئنا هذا وذكر مقانع إيقاب قبيلةُ، وبرقع هيلانة، وبراقع النساء والربات في مواضع أخرى أنهن استعملن النقاب لذلك العهد، ويؤخذ من كل هذا الحديث أنهم كانوا يحرصون على إحراز الاستحسان من ربات الجمال حرصهم على إحراز المكانة بين الرجال، وذلك أمر فطري لم تكد تعبث به والحمد لله معدَّات الحضارة، ولو لم يكن للنساء من فضل على الرجال إلا دفعهم للبروز لديهنَّ بأسمى المظاهر لكفى. أفلا ترى أنهنَّ وإن كنَّ في الجاهلية لم يشددن إلا قليلا على الفرسان بالصارم والسنان، فقد شددن من وراء رجالهن عليهم بالمنطق الفتاك واللحظ الفتان، واستنفرتهم استنفارًا لا يستنفرهُ صديد الفيالق وهديد الفرسان، أو لا تخال داود والبنات يغنين حوله بعد فتكه بجالوت أو جليات: أملأ فؤادًا بهن منه بتطواف الجند، وتسنم ذرى المجد. أو لا تحس من السموأل خشية من ذرابة منطقهن فوق خشيته من المناصل والعوامل، حتى ادَّرأ ازدراءَهنَّ بكل ما خوله الله من بلاغة المنطق، وفصاحة اللسان، وأجهد النفس في دفع مظان «معيّرته». ولو كان المعيّر ذكرًا لخلته اجتزأ له بالمجافاة أو المهاجاة، ثم إذا تصفحت ديوان عنترة لا تكاد تجد له قصيدة تخلو من أبيات يوجه فيها الخطاب إلى عبلة، فيقول قول هكطور

لأنذروماخ، ومما يحسن إيراده هنا قول عبد يغوث بن وقاص فارس بني الحارث وهو يتغنى ساعة موته:

وقد علمت عرسي مليكة أنني ... أنا الليث مَعْدوًّا عليَّ وعاديا

وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا ... لبيقًا بتصريف القناة بنابيا

وعادية سوم الجراد وزعتها ... بكفي وقد أنحوا عليَّ العواليا ... إلخ



أرطميس.

(٦٢) تل: صرع، والتليل: المصروع.

(٦٣) أوَ ليس من فضل النساء أيضًا أن يسعرن أفئدة الرجال بنار الحمية والتفاني بحب الأوطان؟ أوَ لا ترى هكطور أبسل من في القوم يجد من نفسه مصبرًا على هلاك أبيه وأمه وإخوانه وخلانه، ولا يجد صبرًا على سبي امرأته، ولو بعد مماته؟ فكيف لا يتفانى بعد هذا، ولا تخط آيُ البسالة على صدره كل معجزة تحار لها الأبصار وتتفتح لها أبواب الأقدار؟! وللعرب من هذا القبيل شئون يوقف عندها إعجابًا. قال عنترة:

فالقتــل لــي مــن بعــد عبلــة راحــةٌ	والعــيش بعــد فراقهــا منكــودُ
لهفـــي عليـــك إذا بقيـــت ســـبيةً	تــدعين عنتــر وهــو عنــك بعيــدُ
يــا عبــل قــد دنــت المنيــة فانــدبي	إن كــان جفنــك بالــدموع يجــودُ
يــا عبــل إن تبكــي علــيَّ فقــد بكــى	صــرف الزمــان علــيَّ وهــو حســودُ
يــا عبــل إن ســفكوا دمــي فَفَعَــائِلِي	فــي كــل يــوم ذِكْــرُهُنَّ جديــدُ

(٦٤) قبَّل هكطور طفله ودعا له دعاء الأب الشفيق، ولم يفته عند استتمام الكلام أن يدعو بما يطيب قلب أمه، كل هذا تمثيل تام لما اتصف به من صدق النية وحسن الطوية، أما دقائق ذلك المشهد من أولها إلى آخرها فحسب المطالع أن يمعن النظر فيها كما قدمنا، فلا تخفى عليه خافية من بدائعها وتنسيق وقائعها.

(٦٥) من الآيات القرآنية: أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ومن كلام الإمام علي بن أبي طالب: «الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب».

وللشعراء أقوال كثيرة بهذا المعنى، قال الكميت:

فطأ معرضًا أن الخوف كثيرةٌ وإنك لا تبقي لنفسك باقيا

أي: لا تتّق شيئًا فالموت يأتي في حينه.

ومثله قول الآخر:

فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامهُ وما لامرئ عما قضى الله مرحلُ

قال المعري:

والنفس تبغي الحياة جاهدةً وفي يمين المليك مقودها

فلا اقتحام الشجاع مهلكها ولا توقي الجبان مخلدها

لكل نفس من الرَّدى سببٌ لا يومها بعدهُ ولا غَدِهَا

(٦٦) اختتم هكطور كلامه بتنبيه زوجته إلى تعهد شئونها، وهو كلامٌ على ما فيه من الرقة يشير إلى إنكار الرجال على النساء تطلعهنَّ إلى أعمالهم. قال الخليفة الهادي لأمه وقد دخلت عنده في حاجة: «ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزلٌ يشغلك أو

مصحف يذكرك أو بيتٌ يصونك؟ إياكِ إياكِ لا تفتحي بيتك لمسلم ولا ذمي».

(٦٧) الصعاد: جمع صعدة الأَسنَّة.

(٦٨) قال عنترة:

لقــد ودعتنــي عبلــةٌ يــوم بينهــا   وداع يقــين إننــي غيــر راجــعِ

(٦٩) لم يكد هكطور يتعدى الأبواب حتى لحق به فاريس، وكله جذوة ملتهبة همة وإقدامًا. قال أفستاثيوس: لقد وقع نصح هكطور وتعنيفه موقعًا حسنًا، وهي خطة اتبعها الشاعر، فأبان حسن الوقع لكل تعنيف لطيف حل محله وأصاب محجة الصواب. نقول: ولقد وهم من قال: إن الغرام مفسدة للحزم والإقدام، وإن فاريس كان نكسًا جبانًا. أجل إن هوميروس مثله تمثيلا يصدق على أمثاله في كل زمان فهو رقيق الفطرة، دقيق الفكرة، جميل يحب الجمال، ويتطلب الكمال إذا ابتنى منزلا فإنما يتخير له أجمل موقع وينتدب لبنائه «أمهر أرباب الحرف»، وإذا ادخر سلاحًا فيحرص على جلائه «ويصقل الشكة والدرع الصقيل»، وإذا طرب ولهًا فإنما يطرب على نقر القيثار، ويحسن ضرب الأوتار وتلاوة الأشعار، وإذا لبس السلاح فإنما يشك بعدة «يتألق نورها»، فهو إذن معدن لطف وظرف لا يشوبه إلا أنه كما قال الشنفري: «مرب بعرسه» وليست هذه بالشائبة الكبرى، فهذا عبسينا يتغنى حتى في حومة الوغى بعبلة ومحاسنها. وهذا مهلهلنا لم يشبه أن كان معاقر صهباء وزير

نساء، ولا بأس أن نستطرد هنا إلى وجه الشبه بين أخوي اليونان، وأخوي العرب فهكطور كليب حامي الذمار ودرَّاء العار، وهو الأخ الأكبر، وفاريس كالمهلهل المثير الأوار والآخذ بالثأر، وهو الأخ الأصغر. على أن الإلياذة تنتهي بمقتل هكطور كما بدأت حرب البسوس بقتل كليب، والتاريخ ينبئنا بما جرى بعد حين من قتل آخيل قاتل هكطور بسهم أطارهُ عليه فاريس.

(٧٠) كأن عطارد بن قرَّان كان يتصوَّر هذا المعنى البديع، فأتمَّ الطباق بقوله:

كأني جوادٌ ضمَّه القيد بعد ما   جرى سابقًا في حلبةٍ ورهانِ

ولقد علق الشعراء من قراء هوميروس بهذا التشبيه الجميل حتى نقله بعضهم إلى لغاتهم حرفًا بحرف، وفعلوا مثل ذلك في نقل كثير من معانيه دون أن يبينوا مأخذها، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تبدو ولو بعد دهر.

(٧١) الحجور: جمع حجرة، أنثى الخيل. لم أر في ما قرأت من شراح هوميروس من انتبه إلى مشاكلة هذا التشبيه لأخلاق فاريس، فإنه وإن كان المراد هنا وصف همة فاريس ليس إلا، فقد أتى فيها الشاعر بطباق تام بين المشبه والمشبه به؛ إذ جعل غايتيهما التزلف والتحبب إلى الأنثى.

(٧٢) لقد أتى هكطور في هذا البيت والبيت السابق على وصف أخيه وصفًا تامًّا مع الإلمام بكل تاريخ الحرب، وهو كلامٌ حقٌّ جمع بألفاظ قليلة ومعاني كثيرة، فأعرب له عن وده له وحرصه على حفظ كرامته، وذكَّره بعيوبه وسابق ذنوبه وحثه على الحرب، والكفاح بما يوافق مشربه ويلائم مذهبه، ولم يمسس شعائره بشيء يؤلمه مع مراعاة الصدق في كل ما قال.

النشيد السابع

براز هكتور وآياس

مُجْمَلهُ

لما بلغ هكطور وفاريس معسكر قومهما اضطرمت جذوة الحرب، وكادت تدور الدائرة على الإغريق، فخشيت أثينا عاقبة الأمر وهمت بإغاثتهم، فلحق بها أفلون نصير الطرواد فاتفقا على إيقاف القتال في ذلك اليوم، على أن يبرز هكطور مناديًا بطلب أشد اليونان بأسًا لبرازه، فأوحيا إلى هيلينوس العرَّاف أن يوعز بمآل وفاقهما إلى هكطور، فتفدم وطلب بطلا من أبطال اليونان فأخذهم الذهول والصمت، فقام منيلاوس ورماهم بالجبن والوهن وعقبه نسطور الشيخ بكلام مؤثر، فبرز منهم تسعة فاقترعوا فأصابت القرعة آياس، فشك بسلاحه وبرز لهكطور ولم يزالا بين كفاح وصدام حتى فصل بينهما الظلام، فافترقا وانحاز كل جيش إلى معسكره، فقام بين الإغريق نسطور الشيخ ونادى بإيقاف رحى القتال ريثما تدفن جثث القتلى، وقام في معسكر الطرواد أنطينور يستحثهم على التجاوز عن هيلانة وأموالها للإغريق حقنًا للدماء، فعارضه فاريس في رد هيلانة وإنما سمح بأموالها وزيادة، فبعث الملك فريام بالرسل إلى الإغريق يبلغهم مفاد كلام فاريس، ويطلب الهدنة لدفن الموتى فلما بلغت الرسل وبلَّغت الرسالة أَبَى ذيوميذ إلا الحرب فأقر الإغريق على الهدنة، فدفن كل من الفريقين قتلاه، ثم شرع الإغريق عملا

بمشورة نسطور بحفر خندق وبناء معقل لصد هجمات الطرواد، فلم يرق ذلك لفوسيذ وقام يندد بالإغريق بمجمع الآلهة، فأسكته زفس، وصرف الجيشان بعض ليلهما بالإيلام والطعام، ثم جنحا إلى الهجوع.

ينتهي اليوم الثالث والعشرون في هذا النشيد ببراز هكطور وإياس، واليوم الرابع والعشرون بعقد الهدنة، والخامس والعشرون بدفن القتلى، والسادس والعشرون ببناء المعقل وحفر الخندق، ومشهد الوقائع جميعه في ساحة القتال.

النشيد السابع

كذا قال هكطور ثم جرى … إلى الباب يصحب إسكندرا[1]

بصدريهما النفس تلهب جمرا … لكيد الأغارق طعنًا ونحرا

وجيشهما والحشا يلهب … للقياهما هزه الطرب

كنوتية شقت اليم شقا … بملس المجاذيف والأمر شقا[2]

وخارت قواها ومن فضل رب … لها هبت الريح خير مهب

ففازوا بما أملوا ثم ثاروا … بإثرهما واستطار الغبار

فمينستس مَنْ بأرنا ولد … لآريش الملك المعتضد[3]

وفيلومذا ذات عين المها … بصمصام فاريس غزمًا وهى[4]

وآيون بالعنق تحت الترائك … بمزراق هكطور ألفى المهالك

وإيفينس بن ذكسيس عمد … إلى خيله والأوار اتقد

فقيل بني ليقيا زجه   وغيب في كتفه زجه
فعن خيله للحضيض التوى   غضيض العيون فقيد القوى
فجند الأغارق حلت عراهم   وفالاس فوق الألمب تراهم
إلى قدس إليون حثت خطاها   وفيبوس من فرغموس اقتفاها
لقد كان يرقبها ويريد   لقوم الطراود نصرًا مجيد
ولما لدى الزانة التقيا   على الفور بادر مبتديا:٥
«علام من الأفق يا بنت زفس   هبطت بغيظ وحدة نفس
أرفدا لقوم الأغارق حالا   بحرب إلى الآن تجري سجالا
لخطب طراودنا لم ترقي   فسمعًا فدونك أصلح حق
«بنا اليوم هي نكف القتال   ومن بعد ندفعهم للنزال
إلى أن نشاهد يومًا أخيرا   لإليون مذ رمتما أن تبورا»٦
فقالت: «نعم إنما ذا مرامي   فقل كيف تأمل كف الصدام»
أجاب: «فهكطور نحو البَراز   نحث ليدعو العدى للبِراز٧
فلا شك بالغيظ يحتدمونا   ومن جندهم بطلا يدفعونا»
فأقنعها وهلانس تحقق   بكنه حجاه القرار المصدق٨
ولما استتما المقال فحالا   تقدم نحو أخيه وقالا
«أهكطور مَنْ زفسَ بالعقلِ حاكى   ألا ما استمعت مطيعًا أخاكا
فقومك أَجلِس وقوم العدى   وبين الفريقين قم مفردا

وسل يرسلوا لبراز مهول ... إليك فتى من أشد القيول

فقد جاءني صوت آل العلى ... بأنك ما آن أن تُقْتَلا» ٩

فَسُرَّ الفتى وجرى قابضا ... من الوسط اللهذم الوامضا ١٠

وسكن جيش الطراود قربه ... كذا آغممنون أَجْلَسَ صحبه ١١

وسر الإلهان مما تجلى ... وشكل عقابين في الحال حلا

به نزلا فوق زانة زفس ... بها ينظران لطرس فطرس ١٢

وكان الجنود بتلك السهول ... جلوسًا صفوفًا كثافًا تهول

عليها الترائك فوق التروس ... وسمر العوامل تنمي البئوس

كيمٍّ عليه النسيمُ انتشر ... فأرجفَ واربدَّ يوهي النظر ١٣

وهكطور نحو البراح اتجه ... وصاح: «أجند الطراود مه

ويا قوم آخاي سمعًا فإني ... أفيض لكم ما يجول بظني

أرى بيننا زفس قاض العهادا ... وللكلِّ هيَّا الرزايا الشدادا

إلى أن تدكوا قلاع الحصون ... أو الحتف تلقوا تجاه السفين

فبينكم خير جند الأغارق ... فهل بطل لبرازي تائق

فيخرج بالبأس منتدبا ... يصادم هكطورًا المجتبى

وإني أبرم معه العهود ... وزفس على ذاك خير الشهود

فإن يُعْمِلَنَّ بي اللهذما ... يفر بسلاحي له مغنما

إلى الفلك يمضي به رغدا ... ويلقي إلى صحبتي الجسدا

فيمضي لبيتي أفواجهم ... ويذكونه هم وأزواجهم ١٤

وإن نـــال منـــي مـــر الحمـــام	وأولانــــي النصـــر رب الســـهام
بشـــكته نحـــو إليـــون أهـــرع	لحيـــث ببيـــت أفلـــون ترفـــع١٥
وأدفـــع جثتـــه غيـــر خـــائن	إلـى قومـه الشُّـعرِ فـوق السـفائن
ففـي جـرف بحـر هـلاذا الفسـيح	يوارونـــه فـــي مشـــيد الضـــريح
وإمـــا بمســـتقبل الـــزمن	تمـــر الأنـــام علـــى الســـفن
يقـــال هنـــا قبـــر قـــرم عنيـــد	بعامـــل هكطـــور قـــدمًا أبيـــد
فيخلـــد مجـــدي ويعلـــو منـــارا»	فظـــل الأغـــارق طُـــرًّا حيـــارى١٦
ســـكوتًا فـــلا للّقـــا تَجْسُـــر	ومـــن رد بغيتـــه تنفـــر١٧
فقـــام منـــيلا يـــؤجج نـــارا	حشـاه وصـاح يفـيض احتقـارا:١٨
«نســاء أنـــادي ولـــيس رجـــالا	فـــوا أســـفا أمرنـــا أيـــن آلا١٩
فـــوا عارنـــا إذ بأبطالنـــا لـــم	يكـــن مَـــنْ إلـــى هكطـــر يتقـــدم
عســاكم تـــرابٌ ومـــاءٌ جميعـــا	فكلكـــم بـــات جبنًـــا هلوعـــا٢٠
ولـــيس لكـــم مـــن فـــؤاد وشـــان	وهـــا أننـــي بـــارز للطعـــان
ومـــا النصـــر إلا لآل العلـــى	فَيُؤْتِوَنَـــــــه منـــــــــةً وولا»
وشـــك يجيـــل الســـلاح الجمـــيلا	ولكـــن أبيـــت الـــردى يـــا منـــيلا
لقـد كـاد يصـميك هكطـور لـو لـم	تثبطـــك صـــيد الجمـــوع وتـــرحم
ومـــولى المـــوالي أخـــوك الأبـــر	بيمنـــاك أمســـك ثـــم انتهـــر
«مقـــرب زفـــس منـــيلا أرى	هـــذوت وجئـــت إذن منكـــرا

فمهما بك النفس هاجتك فارهب   فتى من سواك ترى يتهيب

ونفس آخيل الذي لا سبيلا   إلى أن تقاس به وتصولا

لقد كان يجزعه أن يسابق   لملقاه يوم اصطكاك اليلامق٢١

فَهِيٍّ اجلسن وألق العدد   فيغري الأغارق قرمًا أشد

وإن يكف في الحرب وقعًا أليمًا   فيخرج من ذا البراز سليما

فلا شك بالأنس يلوي الركب   وإن كان ليس يهاب النوب»٢٢

فدان منيلا لنصح أخيه   وكف وطابت نفوس ذويه

وشكته جردوا وانتصب   على الفور نسطور ثم خطب:٢٣

«ألا أي رزء فوا حربا   بلاد الأخاءة قد نكبا

ألا كم يغص خطيب المرامد   حكيمهم الهِمُّ فيلا المجاهد٢٤

إذا ما درى أن هكطور أخمد   بئوس الأغارق جبنًا وأقعد

إلا قبل كم كان بادي الطرب   بمغناه يقتص مني النسب

فأنمي له أصل كل الأغارق   ونسبتهم من قديم ولاحق

ألا لو رآكم على ما أرى   لمدَّ يدًا لموالي الورى

ليسألها أن تزج بنفسه   لآذيس زَجًّا لشدة بؤسه٢٥

أيا زفس يا آثنا يا أفلو   ألا ما أعدتم شبابي فأبلو٢٦

كيوم بأسوار فِيًّا فظيع   وحول سُرى يردنوس السريع٢٧

لدى نهر قيلادن الحرب ثارت   وأبطال أجناد فيلا أغارت

تصادمها بشديد الكفاح   صناديد أرقاديا بالرماح

وإيرثليـــون زعـــيم العـــدى شـــديدًا لـــدينا كـــرب بـــدا
عليـه سـلاح المليـك المجيـد إريشـوس ذي الصـولجان الحديـدي
إريشـوس مـن كـان يلقـى الجموعـا بـه لا يجيـل القنـا والفروعـا
لـــذاك بفطيســـه ذاع ذكـــرا ولكـن ليكـرغ أصـماه غـدرا٢٨
لـــدى معبـــر حـــرج بالقنـــاه رمـــاه وفطيســـه مـــا وقـــاه
فخـــــر وقاتلــــه ســــلبا ســــلاحًا لــــه آرس وهبــــا
فظـــل بـــه العمـــر يســـتلئم إلـــى حـــين أقعـــده الهـــرم٢٩
فأعطـــاه إيرثليـــون الهمـــام فكـــان بـــه ينبـــري للصـــدام
ويـــدعو ولا بطـــل يفـــدُ وكـــل الصـــناديد ترتعـــد
فأقـدمت تـدفعني الـنفس وحـدي وإن كنـت إذ ذاك أحـدث جنـدي
فأولـت أثينـا ذراعـي انتصـارا وجنـدلت أعلـى كَمـيٍّ منـارا
فَخَـرَّ لـدى قـدمي بالحضـيض عُـتُلًّا غليظًـا طـويلا عـريض
فلـو كنـت أواه غـض الشـباب لأدرك هكطـور منـي العجـاب
وأبســل مــا بكــم مــن رجــال أراهـم أبـوا وَقْـعَ هـذا النـزال»
فلمـا اسـتتم الحـديث المهينـا لديـه انبـرى تسـعة يبرزونـا
فـأولهم أول القـوم سـؤدد زعـيمهم آغممنـون عربـد
تـلاه ذيوميـذ روع الرجـال كـذاك الأياسـان هـول القتـال
فهـب إذومـن ثـم فتـاه مريـون عـد إلـه الكمـاه

فأوريفـــــل فثـــــواس فــــأوذس فصــدهم الشــيخ بالبشــر يُــؤْنِس: ٣٠

«علــــيكم إذن بالقـــداح تُجَـــال فَمَــنْ قِدْحَــهَ فــاز خــاض المجــال ٣١

يســــر الأغـــــارق إن أقــــدما ويجـــــذل نفسًـــــا إذا سَــــلِمَا»

فكـــــل فَتًـــى قِدْحَـــهُ ضَـــرَبا بخــــــوذة أتريــــــذ منتصـــــبا

وجيشــــــهم كلــــــه رفعـــــا لآل الخلــــود أكــــفَّ الــــدعا

«أيــا زفــس إمــا أيــاس وإمــا ذيوميـــــذ أو لا فأتريــــذ حتمـــــا»

ونســـطور تلـــك الأقـــاديح رج فســــهم أيــــاس لديـــــه خــــرج

وتلــك أمــاني الجنــود جميعــا فطــاف بــه الفــيج يجــري ســريعا

يمينًــا جــرى يقصــد الصــيد قصــدا لهــم يبــرز القــدح فــردًا ففــردا

فلــم يــك مَــنْ بالنصــيب اعتــرف هنــــــاك إزاء أيـــــاس وقـــــف

فلمـــا تناولـــه ثـــم أحــــدق برســم بــه كــان مــن قبــل نَمَّــقْ ٣٢

تهلـــــل مستبشــــرًا ورمـــــاه إلـــى قدميــــه ونـــادى الكُمَــــاهْ

«أُصَيْحَابُ ذا السهم سهمي فَسُرَّا فـــــؤادي وإنـــــي آمـــــل نصـــــرا

أنـــا عـــدتي أبتغـــي مســـرعا وأنـــتم لـــزفس أفيضـــوا الـــدعا

ســـكوتًا لـــئلا لطـــرواد يُنْمَـــى وإن شــــــئتم عَلَنًــــــا فَنِعِمَّــــــا

فلســنا لنخشــى جِــلادَ الأعــادي ولا بـــأس لا مكـــر يَلْـــوِي فـــؤادِي

فمــا كنــت فــي ســلميس لأربــو يـــروع حشـــاي بـــرازٌ وحـــربُ» ٣٣

وكــل الأغــارق قامــت تصــيح وتشــخص نحــو الفضــاء الفســيح

«أيــا أبتــا زفــس رب المعــالي أليـــف الكمـــال عظـــيم الجـــلال

علــى طــود إيــذا أيــا مــن تجلــى أنــل نصــرك اليــوم آيــاسَ فضــلا

وأمــا لهكطــور تــأبى الشَّــنارا فــدع يَسْــتَوِ الــبطلان اقتــدارا» ٣٤

وإذ كــان جيشــهم يتضــرع فآيــاس حُصــنُ الأخــاءة أدرع

وَشَــكَّ بِزاهــي الســلاح الصَّــقِيلِ وَأَقْبَــلَ جَبَّــارَ رَوعٍ ثَقِيــلِ

يجيــل القنــاة لحــر الــوطيس ويَبْسِــمُ عــن ثغــر وجــه عبــوس

يَسِــيرُ كــربِّ القتــال العَســوف لوقــع خطــاه ارتجــاج مَخُــوف

كــآريس يمشــي علــى قــوم إنــس إلــى الويــل ســيقوا بفتنــة زفــس

ففاضــت قلــوب الأغــارق سُــرَّا وخــار فــؤاد الطــرواد طُــرَّا

ونفــس حشــا هكطــر خفقــا ومــن هــول ذا الملتقــى قَلِقــا

ولكــن تــربص حتــى الجِــلاد ولــم يلــو مــذ كــان أول بــاد

فأقبــل آيــاس فــي كبــره بتــرس كبــرج علــى صــدره

بهــيلا لــه الصــانع الأمهــر تخيــوس حــدف يفتخــر ٣٥

علــى ســبعة مــن جلــود البقــر غشــاءٌ مــن الصُّــفر يــوهي النظــر

ولمــا إليــه دنــا وقفــا وصــاح بهكطــور: «أقبــل كفــى

فســوف تــرى مــا بفــرد لفــردِ يجــيش الأخــاءة مــن فتــك أُسْــدِ

وإن كــان آخيــل قلــبُ الأســد وخَــرَّاقُ قلــب العــدو الألــد

علــى أغممنــون قــد حقــدا وَعَنَّــا لــدى فلكــه انفــردا

ففينــا للقيــاك جــم غفيــر فأقبــل إلــيَّ وأور الســعير»

أجـاب: «أيـا مـن لـزفس انتمـاه ويـا ابـن تلامـون قَيْـلِ السـراه
مـه لا تخـل بـي رعونـة ولـد وَعَجْـزَ نسـاء جَـزِعْنَ لصـدٍّ
ألفـتُ القتـالَ وذبـح الرجـال علـى قَـدمي وفـوق العِجـالِ
يسـاري بِـالتُّرْسِ مثـلُ يمينـي ورقصي في الحرب يعلي شئوني٣٦
ولـم يـك شـأني غـدرًا أراكـا بـل الحـرب صـدرًا لصـدرٍ فَهَاكَـا»
وهَـزَّ المثَقَّـفَ يطعـن طعنـا مِجَـنَّ أَيـاسَ فَغـارَ وَرَنَّـا
فشـقق فـولاذه والجلـود لسـابعها فاسـتقر يَمِيـدُ
فأرسـل آيـاس رمحًـا شـديدا علـى جـوب هكطـور يفـري الحديـدا
فبـالترس للـدرع للثـوب أَوْلـج وقـد كـاد شـق الكمـي يضـرِّج
ولكـن هكطـور أهـوى وحَـاد وإلا لغَالَتـهُ أُخْـتُ النَّـآد٣٧
وكلهمـا اجتـذب اللهـذما وحملـق ينظـر محتـدما
كليـث يمـزِّق لحـم الرجـال وخرنـوص بـرٍّ بعيـد المنـال
فطعنـةُ هكطـور لـم تَنْجُـبِ ولكـن لواهـا قفـا المِجْـوَبِ
فقـر أيـاس ومـا انقلبـا وبـالرُّمحِ مـن فـوره وثبـا
فأَنْفِـذَ بـالترس مُرتعِـدا إلـى العُنـق يجـري دمًـا أسـودا
وهكطـور عـن حزمـه مـا انثنـى ولكـن لوجـه الحضـيض انحنـى
تنـاول أسـودَ صـخرٍ أصـم غليظًـا بـه مستشـيطًا هجـم
وعـن كـفِّ بـأس أصـاب مِجَنَّـه فَـرُنِّنَ فـولاذه أيَّ رَنَّـه
وصـيخود صـخر أشـد رفـع أيـاس فذبذبـه ودفـع

بعـــزم رحـــاه بقـــدر الرحـــى علـــى تـــرس هكطـــور فانطرحـــا
ومـــن صـــلب ركبتـــه الـــدمُ ســـالا فأنهضـــه الـــرب فِيـــبُسُ حـــالا٣٨
فجـــرد كـــلٌّ حســـامَ الهـــوانِ وكـــادا علـــى القـــرب يشـــتبكان٣٩
ولكـــن رســـولا العلـــى والبشـــر أُسِـــيرا يكُفَّـــان شـــرًّا أمـــر
حكـــيم الأخـــاءة تَلْثِبْـــيُسُ وفضـــــل الطـــــراود إِيْـــــذِيُسُ
فبينهمـــا أســـبلا الصـــولجانا وثانيهمـــا صـــاح يلقـــي الأمانـــا: ٤٠
«كفـــى يـــا بنـــي فكلكمـــا لـــدى راكِـــم الغـــيم قَـــدْرًا سَـــما
وكلكمـــا باســـل وأَذِيـــع فخاركمـــا بلســـان الجميـــع
ولكنمـــا الليـــل جـــاء بســـتره فحســـبكما اليـــوم طوعًـــا لأمـــره»٤١
أجـــاب أيـــاس: «فهـــذا يقـــال لهكطـــور فهـــو مُشـــيرُ القتـــال
فـــإن يطعنـــك أُطِعْـــكَ امتثـــالا» فقـــال ابـــن فريـــام هكطـــور حـــالا
«أجـــل إن ربـــا أيـــاس اجتباكـــا ومجـــدًا وبأسًـــا وفضـــلا حباكـــا
وقـــد فقـــت بـــالطعن كـــل الأغـــارق فـــدعنا مجـــال الكفـــاح نفـــارق
فســـوف نصـــول ولـــن نَجْبُنَـــا ليقضـــي ربٌّ قضـــى بيننـــا
ويـــولي مـــن شـــاء عـــز الظَّفـــر فـــذا الليـــل خـــيم فـــوق البشـــر
وشـــأن الأنـــام احتـــرام الظـــلام فيرجـــع كـــلٌّ عزيـــزَ المقـــامِ
فَـــرُح يبـــتهج بـــك قومـــك طـــرا لـــدى الفلـــك والصـــحب تجـــذل فخـــرا
وتطـــربُ طـــروادةُ بمـــآبي رجـــال الـــوغى وذوات النقـــاب

فيــدخلن بــي هرًّعًــا داعيــات | معابـــد آل الخلـــود الثقـــات
وهـــيّ نبـــادل قبيـــل القفـــول | نفـــيس الهـــدايا وكـــل يقـــول
كفـــاح شـــديد أوان التلاقـــي | وود وطيـــد قبيـــل الفِـــراق»٤٢
وأعطـــى أيـــاس حســـامًا صـــقيل | عليـــه قتيـــر لجـــين جميـــل
وعمـــدًا وزاهـــي نجـــاد ونـــالا | حزامًـــا بفرفيـــره قـــد تـــلالا٤٣
وكـــلٌ تجـــاه ذويـــه انقلـــب | وبـــين الطـــراود فـــاض الطـــرب
رأوا أن هكطـــور بعـــد الإيـــاس | ســـليمًا نجـــا مـــن ذراع أيـــاس
بـــه نحـــو إليـــون ســـاروا وســـارا | أيـــاس إلـــى القـــوم يزهـــو افتخـــارا
فخفـــوا لخيمـــة ســـيدهم | بـــه يـــدخلون بســـؤددهم٤٤
فضـــحى لهـــم بســـديس لـــزفس | وهـــم ســـلخوه بِبِشْـــرٍ وأُنْـــسِ٤٥
ومـــن حولـــه اجتمعـــوا يقطعونـــا | وفـــوق ســـفافيدهم ينظمونـــا
ويلقـــون فـــي جـــاحم وهجـــا | إلـــى أن جميـــع الشـــوا نضـــجا
فـــأخرج منـــه ومُـــدَّ الطعـــام | وكـــل حـــوى ســـهمه بالتمـــام
وأتريـــذ أكـــرم مغتبطـــا | أيـــاس فأعطـــاه صـــلب المطـــا٤٦
ولمـــا أزالـــوا الظمـــا والســـغب | بهـــم نســـطر بالســـداد خطـــب
فـــذاك الـــذي قبـــل أعلـــى المنـــارا | فبـــالحلم والحكـــم فـــيهم أشـــارا
«أأتريـــذ يـــا زعمـــاء القبيـــل | بأقوامنـــا الشـــعر كـــم مـــن قتيـــل
نجـــيعهم ســـال فـــي إســـكمندر | وأرواحهـــم للجحـــيم تحـــدَّر
عليـــك إذن ببـــزوغ الشـــفق | تنـــادي بكـــف قتـــال ســـبق٤٧

ونحن بجملتنا بالعجال   نقوم بثيرانها والبغال٤٨

ونجمع كل قتيل فتك   به في تصادمنا المشتبك

ونحرقهم قرب فلك السراة   ونجمع منهم عظام الرفات

فتحمل ذكرًا لأبنائنا   إذا ما قفلنا لأرجائنا

ونبني ضريحًا لهم يقصد   على السهل حيث علا الموقد٤٩

لديه نُشَيِّدُ سورًا رفيعا   يقي جيشنا والجنود جميعا

ونحكم أبوابه لتجول   بهن متى ما تشاء الخيول

ومن حوله خندق يمنع   جيوش الطراود إن يُدْفَعوا» ٥٠

فكلهم صرحوا برضاهم   وأبناء طروادة بحماهم

بشماء إليون قد جمهروا   بأبواب فِرْيامَ واأْتَمَرُوا

فهاجوا وماجوا بلغط عظيم   فصاح بهم أنطنور الحكيم: ٥١

«أطروادة يا بني دردنوس   ويا حلفاء وكل الرءوس

إليكم حديثًا يخالج صدري   فهيوا بنا نُجْرِ أصوب فكر

فنرجع هيلانة الأَرْغُسِيَّةْ   بأموالها خوف شر البَلِيَّةْ

فإنا بأيماننا لم نَبَرَّا   وإن نمتنع أخش شَرًّا أَمَرَّا»

فقام يجيب فريس الأغر   وزوج هلانة ذات الغفر: ٥٢

«أجل أنطنور شططت بما   يشق عَلَيَّ بأن أعلما

لقد كان أجدر أن تنبذا   حديثًا ورأيًا يماثل ذا

وإلا فـإن كنـت رمـت السـدادا فـآل العلـى سـلبوك الرشـادا
وأشـهد رواضـة الخيـل أهلـي بـأني لـن أسـمحن بـأهلي٥٣
ولكـن أموالهـا وأزيـد عليهـا فـإني سـريعًا أعيـد»
فقـام بهـم ببهـي الجـلال أخـو الفضـل فريـام يبـدي المقـال
«أطـروادة يـا بنـي دردنـوس ويـا حلفـائي وكـل الـرءوس
إلـيكم حـديثًا يخـالج صـدري ألا فانهضـوا للعشـا طـوع أمـري
فـذا حينـه وأقيمـوا الحـرس يطوفـوا بكـم لانقضـاء الغَلَـس
ويـذهب قبـل بـروز الغزالـه إلـى الفلـك إيـذيس بالرسـاله
إلـى الأَتْـرِذَيْنِ بهَـذا الكـلام مقالـة فـاريس أس الخصـام
ويسـألهم هدنـة نبتغيهـا لنحـرق قتلـى المعـامع فيهـا٥٤
وبعـد نصـول ولـن نجبنـا ليقضـي ربٌّ قضـى بيننـا
ويـؤتي مـن شـاء عـز الظفـر» أصـاخوا ارتياحًـا لأَمْـرٍ أَمَـرْ٥٥
عشـوا بالسـلاح وبعـد الشـفق لفلـك العـدى إيـذيوس انطلـق
إذا بهـم ضـمنهم مجلـس لـدى الفلـك أتريـذهم يـرأس
فصـاح يقـول بصـوت ثقيـل «أأتريـذ يـا زعمـاء القبيـل
بـإمرة فريـام والمـؤتمر أتيـت إلـيكم لأنمـي الخبـر
مقالـة فـاريس أس الشـقاق عسـى أن تـروق فيلقـى الوفـاق
فـإن الكنـوز التـي سـلبا ويـا ليتـه قبـل ذا نكبـا
وممـا حـواه حـلالا يزيـد عليهـا بهـن سـريعًا يجـود

ولكـــن زوج النبيـــل منـــيلا فعنهـا علـى رغمنـا لـن يحـولا
ويســألكم هدنـــة نبتغيهـــا لنحـــرق مـــوتى المعـــامع فيهـــا
وبعـــد نصـــول ولـــن نجبنـــا ليقضـــي ربٌّ قضـــى بيننـــا
ويـؤتي مـن شـاء عـزَّ الظفـر» فطـرا سـكوتًا وعـوا ذا الخبـر
فصـاح ذيوميـذ فـيهم: «حـذار لإليـون هـذا أوان الـدمار٥٦
فنـابي الكنـوز وإن عُـدَّتِ وهيلانـــة ولـــئن رُدَّتِ
لقـد أزف النصـر والطفـل يعلـم علـى هـامهم عـن قليـل سـتهدم»
فلـم يـك إلا مـن استحسـنا وأتريـذ تصـويبه أعلنـا
«سـمعت إذن إيـذيوس الخطـاب فهـذا الجـواب وعـين الصـواب
ولكننـي سـامح بزمـان لتحـرق مـوتى الـوغى بأمـان
بحـرمتهم فلـيقم كـل عسـكر ويسترضـهم بلهيـب تُسَـعَّر٥٧
وزفـس شـهيد علـى تـي العهـود» ومـد عصـاه لآل الخلـود٥٨
وإيـذيس لحمـاه رجـع وقـد غـص بـالنبلا المجتمـع
يعـالون طـرا للقيـاه صـبرا فبلـغ مـا كـان أمـرًا فـأمرا
فهبـوا وبعـض لجمـع الشـعل وبعـض بقتلـى الرجـال اشـتغل
كـذاك الأراغـس قـرب السـفين جـروا جـريهم باجتهـاد مكـين
ولمـا مـن الـيم فـوق البحـار بـدت تتجلـى عـروس النهـار
وتبـرز صـاعدة للسـماء وفـوق الفدافـد تلقـي السـناء

تلاقى الجميع بذاك المجال … يكادون لا يفرقون الرجال

جسوم لقد شوهتها الجراح … ورهج العجاج بدار الكفاح

فبالماء في مهل غسلوها … وبالدمع في عَجَلٍ حملوها٥٩

ولكن فريام حَظْرًا حَظَرْ … على قومه أن يهيلوا العبر

سكوتًا ولب الفؤاد التهب … أسى جمعوها لكُدْس الحطب

ومذ فنيت بأجيج اللهيب … لإليون عادوا بقلب كئيب

كذاك الأغارق بين الوجوم … مضوا يجمعون جميع الجسوم

ولما عليها قضى الحرق … تجاه سفينهم انطلقوا

وفي بُهْرَة الليل قبل السَّحر … أسيرت من الخيم خيرُ الزمر

ومن فوق موقدهم للجثث … جميعًا على السهل شادوا جدث

وسورًا لديه عليه القلل … وأرتجة لعبور العَجَل٦٠

يليه حفير عميق وسيع … على صفحتيه وشيع منيع

وأما بنو الخلد آل الظفر … فقد بهتوا لاقتدار البشر٦١

فمن حول زفس لقد رقبوا … فقام بهم فوسذ يصخب

«مِن الناس مَن بعد يا زفسُ يرفع … لآل العلى مُقْلتيه ويَضْرع٦٢

ألم تر قوم أخاي الأُولى … بنوا قرب سفنهم معقلا

ومن حوله خندقوا مغفلينا … لقوم الخلود الضحايا المئينا

نعم ذكر هذا الصنيع البديع … إلى حيث فاض السَّنا سيذيع

ويغفل سور بمصر يجل … للوميذ شِدتُ أنا وأفلو»

ولكـــن زفـــس وقـــد أنفـــا أجـــاب: «أربَّ البحـــار كفـــى

أيـا مـن يزعـزع قلـب الثـرى شـــططت بمـــا جئتـــه مخبـــرا

ليـأبى الـذي عنـك جهـدًا يُقصِّـر منـالا وطَـولا بـذا الفكـر يفكـر

ومجـدك سـوف يعـم الفلـق ويمتـد مـا امتـد نـور الشـفق

فمهـلا لـئن عـاد بالسـفن لفيـف الأراغـس للـوطن

فمعقلهـم دُكَّ دكًّـا فيُلقـى إلـى لجـه البحـر يمحـق محقـا

وفـي السـاحل اركـم رمـالا تقـر عليـه تبـد عينـه والأثـر»

كـذا اأتمـروا فـي القيـام الأجـل وقبـل المغيـب أتـم العمـل

وقـد نحـر القـوم تحـت الخيـام عجـولهم يبسـطون الطعـام

وكـان ابـن إيسـون راعـي الأمـم وإيفيسـفيلا فتـاة الـنعم

أخـو الملـك أفنـوس مـن لمـنس أتـت فُلْكُـهُ لِبنـي أرغُـسِ

مـن الخمـر صِـرفًا بهـا ألـف عـين هديـة ود إلـى الأتـرذين

فجـيش الأغـارق عينًـا بعـين شـرى الخمـر مـن ذينـك السـيدين

فـبعض بصـفر مُـدامًا أُنيـل وبعضـهم بجديـد صـقيل٦٣

وبعـض شـرى بجلـود البقـر وبعضـهم بعجـول ذخـر

وبعضـهم بالسـبايا شـرى وليلـتهم قضـيت بـالقرى

لهـم فـي الخيـام الطعـام يعـد كـذاك لطـروادة فـي البلـد

ولكـن زفـس وقـد غـيظ حقـدا بهـم زعـزع الليـل برقًـا ورعـدا

فهـــدَّهم الرُّعـــب والكُــلُّ قـــام	يريـــق علـــى الأرض كـــأس المـــدام
ويخشـــى ارتشـــاف عصـــير العنـــب	إلـــى أن يزكـــي لـــزفس القـــرب
ولمـــا انتهـــوا جملـــة قصـــدوا	مضـــــاجعهم حيثمـــــا رقـــــدوا

هوامش

(١) بسطنا الكلام في أول النشيد السادس على هذا النسق من النظم.

(٢) النوتية هم الملاحون، وهي لفظة يونانية (Ναυτησιν) عربت والأصل فيها (Ναυτησιν) (نوطس)، وهي ريح الشمال سمي الملاحون بها لموافقة مهبها لهم. لا بدع أن يكثر هوميروس من التشبيه بالبحار ورياحها، فبلاد قومه محاطة بالمياه وأكثرها جزر يكنفها البحر من جهاتها الأربع، ذلك كما أكثر العرب من ذكر المفاوز والمهامة والسباسب، وجعلوا لها مئات من الأسماء والصفات.

(٣) أرنا مدينة كانت في بيوتيا. قال إسطرابون: هي التي سميت بعدئذ أكريفيون. وقال بوزانياس: بل خيرونية. وزعم آخرون أن البحر طغى عليها وأغرقها.

(٤) ذكرنا في حواشي النشيد الأول مطالعة بشأن التشبيه بعيون المها فحسبنا هنا الإشارة إليها. كان فاريس أول مندفع في تلك المعمعة

حتى تقدم أخاه هكطور، وهنا دليل آخر على أنه ليس بالمحجم المهياب كما ادعى المعترضون.

(٥) الزانة هذه: هي الزانة الشهيرة على باب اسكيا. لم يكن للآلهة دخل في وقائع النشيد السابق، أما الآن وقد حمي الوطيس فلم يرَ الشاعر بدًّا من إطلاق العنان للتصور الشعري جلاءً لرونق الشعر، فعاد بأثينا وأفلون كما ترى، وإذا نظرنا إلى ظهورهما من وجه رمزي فيكون المراد أن أثينا ممثلة الحكمة والبسالة تهيئُ الغلبة لليونان بانحيازها إليهم، وأفلون ممثل القدر يصدها عن تشتيت شمل الطرواد، والمغزى أنه مهما عظمت الحكمة واشتد البأس فلا سبيل لهما إلى صد القضاء المحتوم.

(٦) قوله: رمتما، أي: أنت (أثينا) وهيرا. لم يصرح الشاعر بذلك ولكنه يستفاد من جعله الفعل بصيغة المثنى المؤنث، ولا حليفة لأثينا أشد من هيرا تحرقًا لكيد الطرواديين.

(٧) البَراز الأولى بمعنى البراح، والثانية بمعنى المبارزة.

(٨) هيلانوس أخو هكطور، وكان عرَّافًا كما تقدم وكاهنًا لأفلون، فيفترض إذن أن أفلون أوحى إليه بما كان.

(٩) حبذا لو استغنى الشاعر عن الشطر الأخير، ولعله دخيل في شعره؛ لأن في أنباء هكطور بسلامته غضًّا من بأسه، وهو البطل الصنديد يشق الصفوف، ولا تروعه الحتوف.

(١٠) اللهذم الوامض: الرمح اللامع.

(١١) تقدم أنه لم يكن لهم طبول يُجرون الجند ويوقفونهم على أصواتها، فكان من ثم لا بد لهم من إشارات يتفاهمون بها، فيستدل إذن أن القبض على وسط الرمح إشارة إلى الكون، ولما رأى أغاممنون أن هكطور أوقف الطراود بادر إلى تسكين جأش الإغريق لعلمه أنه بدا لهكطور أمر ذو شأن يبثه له، وهكذا سكن الجيشان. يذكرني ذلك ما شهدت مرة في بادية العراق؛ إذ كنا في الزهيرية ولفيف من المنتفق في نحو مئة فارس وثلاث مئة هاجن بين رادف ومردوف تتبعهم الأنعام الكثيرة، فأصحبنا يومًا والربع في جلبة والأوتاد تنزع والمضارب ترفع، فعلمت أنه تراءى لرجل بينهم يدعى تويسًا هو زرقاؤهم بنظره، وجهينتهم بخبره «زولٌ بعيد» لا يعلم أهو «عدوٌّ أم صديق»، فاضطرونا إلى التأهب في من تأهب حتى إذا ركب الفرسان وساروا جيشًا أنفذوا طليعةً تستطلع الخبر تجري بخيلها «هَذْبًا»، وسائرنا من ورائها «نكد كدًّا» إلى أن صارت الطليعة على مقربة من الزول الذي أخذ يتراءى لنا فحولت أعنة خيلها، وأخذت تغير يمينًا بشمال بعد أن كانت تسير شرقًا بغرب، فسكن جأش الجيش وقالوا: طليعتنا «تعرض لنا»، ففهمنا أنه ليس ثم

مطمع غزو وكسب ولا منزع قتل وسلب، ولم نلبث أن تحققنا الخبر بالخبر؛ إذ كان ذلك الزول البعيد قطيع نوق وجمال لعشيرة حليفة يصحبها رعاة قلائل فأمنوهم وسيروهم.

(١٢) تهيأ أفلون وأثينا بهيئة عقابين، ووقعا على الزانة التي بباب أسكيا يراقبان منها حركات الجيشين. وحلول الآلهة وأتباعهم بل والبشر أيضًا بهيئة الطيور معتقد قلما يخلو منه دين من قديم الأديان.

(١٣) إذا أكثر هوميروس من تشبيه الفيالق بالبحار، فإنما لديه لكل مقام مقال. فلا تكاد ترى تشبيهًا كالآخر بمجمل دقائقه في كل الإلياذة، وما أصدق تشبيهه هنا للجيش الجالس صفوفًا تتألق أسلحته في ذلك الفضاء بالبحر، ينتشر عليه النسيم، فلا هو بالبحر الهائج تعبث به الأنواء، ولا هو باليمِّ الراكد لا أثر عليه لحركة الهواء، وما أحسن ما قال العبسي في نقيض هذا المعنى:

وسارت رجالٌ نحو أخرى عليهم الـ ـحديد كما تمشي الجمال الروائحُ
إذا ما مشوا في السابحات حسبتهم سيولا وقد جاشت بهنَّ الأباطحُ

(١٤) يذكونه: يحرقونه.

(١٥) سنرى في النشيد العاشر أن أوذيس وذيوميذ يرفعان سلاح دولون نذرًا لأثينا، وهنا هكطور ينذر رفع سلاح خصمه لأفلون، فأثينا نصيرة الإغريق وأفلون نصير الطرواد: «وكل قوم بما لديهم فرحون».

(١٦) ذكر إسطرابون نُصبًا أقيم لأياس وآخر لأخيل في تلك الأرجاء، وقد عفت آثارهما وآثار غيرهما بمرور الأزمان، ولو لم يكن شيء سواهما يخلد ذكر هكطور لتنوسي اسمه وعفا رسمه. قال أفستاثيوس: وأما شعر هوميروس فأرسخ من الأنصاب، لا يعبث به كرور الأحقاب، بل هو قائم أبد الدهر يخلد الذكر والفخر. (راجع ن ٢).

(١٧) إن تهيب الإغريق من البروز لهكطور لأشبه شيء بارتياع الإسرائيليين لرؤية جلياد قبل أن برز له داود، وقد يتبادر إلى الذهن أنهم كانوا في غنى عن هذا النهيب؛ إذ كان بإمكانهم أن لا يجيبوه إلى طلبه، ولا يمسهم العار؛ لأن الطرواد كانوا الداعين إلى البراز أول مرة كما تقدم في النشيد الثالث، ثم لما نالتهم الغلبة نقضوا الميثاق، فلم يكن لهم بعد هذا أن يتطلبوا البراز. على أنه يتضح للمتأمل أن هكطور لم يجنح إلى حسم الخلاف بتلك المبارزة، كما جنح فاريس للمرة الأولى وجل ما دعاهم إليه أن ينفذوا إليه بطلا يبارزه، فيقتله أو يقتل ويبقى الخلاف على حاله، وأوضح ذلك بأجلى بيان بفاتحة كلامه؛ إذ قال: إلى أن تدكوا إلخ فكانت من ثم هذه المبارزة على نوع يختلف عن تلك لا موضع لذكرها بإزائها فتلك عامة تتناول الجيشين، وهذه خاصة منحصرة ببطلين.

(١٨) لم يكن منيلاوس من مغاوير الأبطال قوة، ولكنه لم يكن دونهم رباطة جأش وعلو همة، ولولا ذلك لما جدر بجميع الإغريق أن

يتألبوا للأخذ بثأره، فلا بدع إذن أن يكون أول متكلم بل لا يصلح غيره لافتتاح الخطاب.



منيلاوس.

(١٩) إن تشبيه الرجل الجبان بالمرأة لأمر قديم مألوف، حتى لقد يزيد العرب على ذلك فيجعلون الجبن كالبخل محمدة في المرأة مذمة في الرجل، والشجاعة كالكرم مذمة في المرأة محمدة في الرجل. وما أبلغ ما قال الإمام علي في خطبته لما أغار سفيان بن عوف الأسدي على الأنبار، وعليها حسان البكري فقتله وأزال الخيل عن مسارحها، وكان ذلك في خلافة علي فخرج حتى جلس على باب السدة، فخطب

في القوم. ومن جملة ما قال: «يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام أطفال وعقول ربات الحجال، وددتُ أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم، وإني لم أركم ولم أعرفكم معرفة، والله حرت وهنًا ووريتم والله صدري غيظًا، وجرعتموني الموت أنفاسًا وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان». (ابن الأثير).

ومن قول عبد الرحمن بن دارة الفزاري:

أيـا راكبًـا أمـا عرضـت فـبلغن — مغلغلـة عنـي القبائـل مـن عكـلِ
لـئن أنـتَمُ لـم تثـأروا بـأخيكم — فكونـوا نسـاءً للخلـوق وللكحـلِ
وبيعـوا الردينيـات بـالحلي واقعـدوا — عـن الحـرب وابتـاعوا المغـازل بالنبـلِ

(٢٠) أي: عساكم أن تبيدوا، أو كقول العرب: أن تصيروا هباءً منثورًا.

(بعض أبطال الإلياذة على ما في آثارهم): أغاممنون، أخيل، نسطور، أوذيس، ذيوميذ، فاريس.

(٢١) اليلامق: التروس، لو برز منيلاوس لهكطور لقُتل لا محالة، ولقد علمنا ما كان من شغف أغاممنون بأخيه عند ما أصابه سهم فنداروس في النشيد الثالث، فلا غرو إذن إذا تصدى له وصده عن البروز لهكطور، ولما كان عالمًا بتفانيه على اقتحام الأحوال ضرب له آخيل مثلا لعله يرعوي ويرضخ؛ لأن جميع الأبطال كانت تعترف له بسبق

البأس، فإذا كان آخيل يذل لهكطور فمن الحماقة أن ينبري له منيلاوس، وقد بالغ أغاممنون تلك المبالغة تسكينًا لغيظ أخيه ودفعًا لخشية العار عنه لا لحقيقة يعتقدها.

(٢٢) المقصود بليّ الركب الجلوس لا السجود حمدًا وشكرًا. (راجع ٥).

(٢٣) هذا نسطور الحكيم مفرج الأزمات والناطق بالآيات البينات، يفعل بقوة اللسان ما يعجز عنه السيف والسنان، فستراه يبدل إحجامهم إقدامًا، ورهبتهم رغبة، وليس في القوم خطيب سواه يصلح لكل مواقفه، ولا سيما لهذا الموقف؛ لأنهم جميعًا كهول وفتيان فمن ذا الذي يجسر منهم أن يحرض القوم على النزال، ولا يكون المبادر إليه بنفسه، أما نسطور فيتأفف كالأب الحزين ويتأسف كالمعلم الأمين، وكلهم آذان وقلوب يحذر ويذكر ويطيل العتاب، ويتحسر على زمن الشباب، ويقص قصص صباه، ويعيد ماضي ذكراه، فيبتدئ ولقاء هكطور لديهم أفدح الخطوب، ولا يكاد ينتهي حتى يبيت أمنية النفوس وريحانة القلوب.

وما أشبه موقف نسطور الشيخ الوقور بموقف عمرو بن معدي كرب يوم اليرموك. قال الواقدي: كان قد مر له من العمر مئة وعشرون سنة، فلما نظر إلى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه: يا آل زبيد، يا آل زبيد، تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كأس الردى، أترضون

لأنفسكم بالعار والمذلة؟! فما هذا الانزعاج من كلاب الأعلاج، أما علمتم أن الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين، فإذا نظر إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أيدهم بنصره وأيدهم بصبره، فأين تهربون من الجنة؟ أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار؟! قال: فعند ذلك تراجعوا وشدوا على القوم حملة واحدة.

(٢٤) فيلا أبو آخيل، تخيره نسطور مثلا لشاسع شهرته، وتذكيرًا لهم بآبائهم النائين عنهم في أوطانهم.

(٢٥) أي: لتمني الموت؛ لأنه لا بد لكل ميت من أن ينحدر إلى أذيس إله الجحيم كما تقدم.

(٢٦) قلما نرى شيخًا يقول قول حكيم الجاهلية زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأمِ

أو قول لبيد:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لَبيدُ

بل معظم الشيوخ يقولون قول نسطور: ألا ليت الشباب يعود يومًا

ولكن نسطور تمنى الشباب للكر والإبلاء، لا للأنس والصفاء، كما قال شاعرنا: فأخبره بما فعل المشيبُ

(٢٧) السرى: الجداول أو صغار الأنهار، ويردنوس: نهر سمي على رواية إسطرابون باسم البطل يردنوس المدفون على إحدى ضفتيه.

(٢٨) الفطيس: المطرقة.

(٢٩) الاستلآم في الأصل: لبس اللأمة، أي: الدرع، ويطلق توسعًا على لبس السلاح.

(٣٠) جعل الشاعر أول البارزين آغاممنون مراعاة لمقامه، وتلا ذيوميذ أخفهم قدمًا، وأنفذهم حزمًا، ثم الأياسان أبطشهم وأربطهم جأشًا، وجعل خاتمتهم أوذيس أدهاهم والتأني من الدهاء.

(٣١) تلك كانت الوسيلة المثلى لإرضاء الجميع، وحسم النزاع باختيار بطل منهم بالاقتراع.

(٣٢) كلا الأياسين من صناديد الرجال، وحينما ذكر الشاعر أياس مفردًا فالمراد به أياس الأكبر بن تلامون. كان كل من المستقسمين يرسم إشارة على قدحه؛ إذ لم يثبت أنهم كانوا يكتبون لذلك العهد، ولهذا خفي رسم قدح أياس عليهم جميعًا.

من أمثال العرب: كل امرئٍ أَعْرَفُ بوَسْمِ قِدْحِه. وهو يضرب للعارف بقدر نفسه، الواثق بما بين يديه؛ لأنهم كانوا يسمون قِداحهم بعلامات يعرفونها بها على نحو ما رأيت في استقسام اليونان. ولكن العرب في أداني أيام الجاهلية كانوا يقرأون ويكتبون بدليل كتابتهم

للمعلقات وغيرها. ولهذا يصح عندنا ما روي عما كانوا يكتبون على قداح الاستخارة، وعلى الأزلام التي كانوا يضربونها في الميسر، أما طريقتهم في إجالة القداح فكانت كطريقة اليونان، يجمعون القداح في خريطة يضعونها في يد رجل عدل، يسمونه المجيل أو الضريب، كما جمعت هنا في خوذة آغاممنون ووضعت في يد نسطور (وقد مر في النشيد الثالث أن الطراود وضعوها في يد هكطور)، فترى من ثم أنه لم يكن يعهد بها إلا لرجل ذي شأن لِتُؤْمَنْ غائلة الانحياز إلى فريق دون آخر، ولهذا قالت العرب: لقمان بن عاد أضرب الناس بالقداح؛ لأنه كان موكلا بها لنقاوة ذيله وأمن جانبه.

أما إجالة القداح في الميسر، أي: المقامرة التي حرمها القرآن، فليس لها من أثر في الإلياذة.

(٣٣) هذا إياس الملقب بحصن الأخاءة يفوه بأول كلام، وهو وإن لم يكن في زمرة الخطباء المفوهين فإيجازه إعجاز، وصدقه بلاغة، وقوله بفعله، وهيبته بهيئته، وسترى بعد أبيات من رسوخ قدمه وهو مقبل باسمًا عابسًا جبارًا قهارًا ما يشهد لك أن الرجال بأفعالها لا بأقوالها، فلا تعجب حينئذ إذا تهللت له قلوب الأولياء، وتخلعت لمرآه أفئدة الأعداء.

(٣٤) رأينا قبيل هذا أن الجيش تمنى بدعائه أن يبرز في استقسامهم قدح أياس، وإلا فقدح ذيوميذ أو أغاممنون، فاستجاب زفس

الدعاء الذي اجتمعت عليه الأمة، وهذا دعاءٌ آخر يدعوه الجند وضعه الشاعر هنا تنبيهًا إلى أنه سيستجاب أيضًا.

(٣٥) قال امرؤ القيس:

لهـا جبهــةٌ كســراة المجــنّ　　　حذّفــه الصــانع المقتــدرْ

وقال الحصين المرّي يذكر دروع قومه وصنّاعها:

علـيهن فتيـانٌ كسـاهم محـرقٌ　　　وكـان إذا يكسـوا أجـاد وأكرمـا

صفائح بصرى أخلصتها قيونها　　　ومطـردًا مـن نسـج داود مبهمـا

هيلا بلدة في بيوتيا، خربت قبل زمن إسطرابون، وقال آخرون: بل كانت في قاريا. وتيخيوس صانع جلود قيل: كان في كوما فلما برّح الفقر بهوميروس شخص إلى تلك البلدة، وامتدحها ببضعة أبيات فأنزله تيخيوس في بيته، وأكرم مثواه فخلد هوميروس ذكره شكرًا وامتنانًا. قال اليازجي:

لــئن أفادونــا بأكْرُومــة　　　مــن ملقــح يبلــى ومــن منــتجِ

فقــد حبونــاهم بمــا ذكــره　　　يبقــى بقــاء الجبــل الأصــلجِ

(٣٦) من مفاخر العرب الكفاح باليمين واليسار، ولقد لقب المأمون الحسين بن طاهر بذي اليمينين؛ لأنه ضرب بحسامه رجلا فقدَّه شطرين، وكانت الضربة بيساره، وفي مثل ذلك يقول المعري:

إذا سَــئِمَتْ مهنــدهُ يمــينٌ　　　لطـول الحمـل بدَّلـه الشـمالا

وله بما يخرَّج على هذا المعنى قوله:

وليس بشاغل اليمنى حسامٌ ... وليس بشاغل اليسرى عنانُ

ويظهر من هذا السياق أن اليونان كانوا يتنافسون بخفة الأعضاء في الضرب والطعن وقلة العبء بمواقف الكفاح وثقل السلاح، وهو كثير في كلام العرب. قال عمرو بن كلثوم:

كأن سيوفنا منا ومنهم ... مخاريق بأيدي لاعبينا

والمخاريق جدائل يلعب بها الصبيان. وقال قيس بن الخطيم:

أجالدهم يوم الحديقة حاسرًا ... كأن يدي بالسيف مخراق لاعبِ

ومثله قول معقر بن حمار:

وحامي كل قوم عن أبيهم ... وصارت كالمخاريق السيوفُ

وأما الرقص الحربي فكان كثيرًا في بلاد اليونان بعد زمن هوميروس، والظاهر أنه كان شائعًا في أيامه أيضًا وقبلها أثناء حرب طروادة، قال عقيل بن بلال بن جرير:

يمشي إلى حدِّ السيوف وقد رَأى ... سببُ المنيةِ مشيةَ المختالِ

(٣٧) النآد: الداهية، والمراد بها المنية، وهي في الأصل (Κηρχ) إحدى ربات الجحيم الثلاث، اللائي ينسجن أعمار البشر فيقطعن حبل الحياة عند حلول الأجل يمثلهن الشاعر دائمًا أعلامًا. قال أبو العلاء:

فَـرَمَتْهُ بـِهِ عـلى جـانِبِ الكُـرْ　　　سِــيّ أَمُّ الــلّهَيْمِ أَخْــتُ الــنّآدِ



ربات الجحيم.

(٣٨) أي: إن الجرح لم يكن قتالا، ولم يكن في القضاء أن يقتل يومئذ فنهض سليمًا.

(٣٩) قلنا: إن عادة المبارزة قديمة الشيوع، ولهذا ورد ذكرها مرارًا في الإلياذة، ولقد أعجب ببراز هكطور وأياس كل قرائه من شعراء الرومان والإفرنج، فضمنوها شعرهم ونسبوها إلى أبطالهم، فانتحلها ڤرجيليوس، وتلاه طاسو وڤينيلون وملتُن وڤولتير وغيرهم، وجاء نظيرها في

شهنامة الفردوسي، وقد رأينا أن البطلين تبارزا بكل أنواع السلاح من الرمح إلى الحجر، وكان الرجحان فيها كلها لأياس، تلك أثرة من الشاعر لابن ملته.

(٤٠) يلقب الشاعر تلثبيوس وإيذيوس برسولي العلى والبشر إلماعًا لما كان للرسل من الحرمة والرعاية، فمكانتهم دينية ودنيوية معًا، لا يمسهم أحد بسوء، ولهم أمر يكاد يكون مطلقًا يستشارون ويشيرون، وبلسانهم يعقد الصلح وتشهر الحرب، ويراقبون نظام المجامع ويرافقون جيوش المحاربين والأفراد المتبارزين، وعلى الجملة فقد كانت لهم منزلة لا تفضلها منزلة الكهنة والعرافين.

(٤١) لما كان النهار أصلح للقتال، ولا يبلغ آخره إلا والعناء أجهد القوى، جرت العادة بالكفِّ ليلًا، واليونان كجاري عادتهم يقدسون الأوصاف والموصوفات والأخلاق والعادات، ويجسمونهنَّ تجسيمًا، ولهذا جرت عادتهم أن يقولوا بوجوب الانقياد والطاعة لأمر الليل والظلام، كأنهما شخصان ناطقان.

(٤٢) لقد غلبت أثرة الجنس على الشاعر في تنسيق هذه المبارزة، وحفظ معها شأن المتبارزين فجعل ظاهر الفوز لأياس، مع أن هكطور كان الداعي إلى البراز وأول من صوَّب الطعان، ولما توسط الفيجان وأسبلا الصولجان جعل المتكلم منهما فيج الطرواد إظهارًا لميلان الكفة إلى الإغريقي، وتخفيفًا من وطأة الغلبة على الطروادي، ولما

انفصلا إذعانًا للأمر تكلم الإغريقي بما يشف عن علو همة وقلة اكتراث، وأجاب الطروادي جواب البطل المقدام لا تذلله العثرات، ولا يغض بقوله من قدر خصمه؛ إذ كلما علا شأن عدوك علا شأنك بصدامه، ولم يقر له بالسبق؛ إذ فضله على الإغريق دون الطرواد، ولم يرض بالفراق إلا على موعد تلاق وأعلن أن مغادرته ساحة القتال إنما كانت اضطرارًا دينيًّا لا مفر منه ولا مناص، وتبادُل السلاح في آخر المشهد يتم رونقه، ويزيد هيبته، وينبئ بما تنطوي عليه تلك الأفئدة الصلبة من رقة الشعور، وإباء النفس، والإعجاب ببسالة البطل المغوار، وإن كانت في العدو القهار.

(٤٣) كانت تلك المقايضة وبالا على كليهما، فأياس انتحر (بعد الإلياذة) بسيف هكطور، وهكطور شُدَّ (في الإلياذة) بحزام أياس إلى مركبة آخيل.

(٤٤) المراد بسيدهم: أغاممنون.

(٤٥) السَّدِيس: الثور ابن خمس سنين.

(٤٦) المطا: الظهر، إيلام الولائم للأبطال يتناول كل جيل من البدو والحضر، وما تلك إلا وسيلة لإعلاء شأن ذي الشأن، وإشعاره بما تكنه له الضمائر من التكرمة والإعجاب، وهي مكافأة معنوية جليلة الرموز توازي الكنوز، وإلا فما قرة العيون بإملاء البطون، أقول هذا ردًّا على معترض يعجب أن يكافأ بطل أعلى شأن أمته بقطعة من اللحم لا تغنيه من شيءٍ، أما الحكمة في إفراز صلب الظهر للنزيل الجليل،

فالأظهر أنها منبعثة عن الاعتقاد بأنه مقر القوة والبأس، ومن غريب توارد الخواطر الفطرية أن عرب البادية لا يزالون يألفون حتى يومنا تلك العادة، على أنهم بدلا من الظهر يدفعون إلى الضيف صدر الذبيحة أو كتفها.

(٤٧) يسأل نسطور أغاممنون أن يهادن العدو، ولا يزيد على قوله له أن يكف القتال؛ لأن الإغريق هم المهاجمون فإذا كفوا عن العدو كف العدو عنهم.

(٤٨) لا ريب أن هذه العجال التي تجرها البغال والثيران هي غير تلك التي تجري بها الأبطال في ساحة النزال، ولعلها من نوع عجال الأثقال المذكورة في رحلة ابن بطوطة، ولا تزال مستعملة في كثير من البلاد.

(٤٩) لا سبيل إلى البحث في منشأ عادة الدفن؛ إذ كادت تنشأ مع نشوء الإنسان، وربما كان المراد بها أولا مواراة الأشلاء عن الضواري والكواسر، أما إحراق الجثث فتُشْكِل على الباحث معرفةُ الأصل الذي أخذها عنه اليونان والرومان من بعدهم؛ إذ إن المصريين والفينيقيين والعرب وأمثالهم ممن خالط اليونان كانوا يدفنون ولا يحرقون، ولعلها بقية من عادات قبائل البلاسجة الذين قدمت طائفةٌ منهم بلاد اليونان بعد أن برحتْ الهند منذ عهد عهيد، ولا عبرة بما قيل، إنهم كانوا يفعلون ذلك خشية من وقوعها بيد عدو ينتهك حرمتها.

أما الضريح الذي أشار نسطور بإقامته، فهو أول ضريح عام ورد ذكره في التاريخ، وإن كانت الآثار قد أثبتت وجود المدافن العامة منذ آلاف السنين، على أن الظاهر أن ذلك الضريح لم يكن إلا نصبًا يقام تذكارًا لا مدفنًا بدليل قول نسطور: إنهم يجمعون العظام ويحملونها عند عودتهم إلى أوطانهم ذكرًا لأبنائهم، ولا بد من القول أيضًا: إن إحراق الموتى لم يكن السبيل الوحيد لمواراتهم الموتى، بل ربما دفنوا الميت جسمًا تامًّا كما دُفن أياس وأغاممنون بعد حين.

(٥٠) تذرع نسطور بدفن الموتى إلى بناء السور، وهي ذريعة كلها حكمة ودهاء؛ إذ تخفى الغاية عن الأعداء فلا يفاجئونهم أثناء العمل خصوصًا، وهم كالإغريق حريصون على دفن رفات قتلاهم، فكأنما هي فريضة دينية دنيوية تتوق إلى قضائها كلُّ نفس ويلهو بالاشتغال بها كل فريق. إن إشارة نسطور ببناء السور وحفر الخندق بتلك الشدة لأشبه شيء بإشارة سلمان الفارسي بعد غزوة أُحُد؛ إذ أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وقال له: في بلادنا يفعلون كذا. فكان أول خندق حُفر في الإسلام.

(٥١) حيثما انفرد الطرواد والإغريق في منتدياتهم رأيت الإغريق في سكون وانتظام، حتى أبان الشقاق والخصام، ورأيت الطرواد في هرج ومرج حتى في ساعة الفرج، كأن هوميروس أراد أن لا يفوت سامع شعره فضل قومه على أعدائهم، ولقد تقدم في أول النشيد الثالث ما كان من

هيئة الجيشين يزحفان للقتال. ولنا هنا مثال آخر في حالة السلم، ثم لا يفوتنك الفرق بين خطاب نسطور، وكله حكمة وحزم، وخطاب أنطينور حكيم الطرواد وكله مع حكمته شؤمٌ وقنوط.

(٥٢) الغفر: الشعر الناعم. وهنا مثال آخر للفرق بين إجلال الإغريق لحكمائهم وتمرد الطرواد.

(٥٣) أهلي الثانية، أي: زوجي.

(٥٤) يسألهم، أي: يسأل الإغريق.

(٥٥) إن من موبقات الطبيعة تعامي الآباء عن هفوات الأبناء، واستسلامهم إلى مطالبهم؛ ولهذا انقاد فريام بضعف الأبوَّة إلى إجابة مطلب ابنه، فجنى على نفسه ودولته ورعيته، وأخذ على عاتقه تبعة تهوُّر فاريس، كما تَلَبَّس مرَّة بجريرة ابنه جساس قبل حرب البسوس. قال ابن الأثير: «ولما قتل جساسُ كليبًا انصرف على فرسه يركضه، وقد بدت ركبتاه فلما نظر أبوه مرة إلى ذلك قال: لقد أتاكم جساس بداهية ما رأيته قط بادي الركبتين إلى اليوم، فلما وقف على أبيه قال: ما لك يا جساس؟ قال: طعنتُ طعنةً يجتمع بنو وائل غدًا لها رقصًا. قال: ومن طعنت لأمك الثكل؟ قال: قتلتُ كليبًا. قال: أفعلت؟! قال: نعم. قال: بئس والله ما جئت به قومَك. فقال جساس:

تأهب عنك أَهبة ذي امتناعٍ	فإن الأمر جلَّ عن التلاحي
فإني قد جنيتُ عليك حربًا	تغصّ الشيخ بالماء القراح

فلما سمع أبوه قوله خاف خذلان قومه لما كان من لائمته إياه، فقال يجيبه:

فإن تك قد جنيتَ عليَّ حربًا ... تغصُّ الشيخ الماء القراحِ

جمعتُ بها يديك على كُليبٍ ... فلا وكلٌ ولا رث السلاحِ

سألبس ثوبها وأذود عني ... بها عار المذلة والفضاحِ

ثم إن مرة دعا قومه إلى نصرته فأجابوه».

أما صمت هكطور في هذا المجلس ففيه حكمة كبيرة؛ إذ هو أخو فاريس فلا يسعه إلا أن ينصره ظالمًا أو مظلومًا، كما نصر همَّام جساسًا أخاه، وهو سيد القوم، فلا يسعه أن يجرهم إلى الوبال فلجأ إلى الصمت، وتوارى تحت ذيل أبيه، ثم إن الشاعر أنطق فريام بطلب الهدنة مع أنها أمنية نسطور وقومه، وهو حسن تصرف كفى به جماعة الإغريق مئونة ذلك الطلب، بل أنالهم فضل المنة على العدو بإجابة ملتمسه.

(٥٦) لم يكن في خطباء القوم أجدر من ذيوميذ بهذا الجواب، فصمت أغاممنون من قبيل صمت هكطور، وصمت الباقون مراعاة له ولأخيه منيلاوس لدوران الحديث على هيلانة، وأما ذيوميذ فهو الشهم الغيور والفتى الفخور يقتحم الأهوال ولا يبالي، وهو فضلا عن ذلك عدو الزهرة وأشياعها.

(٥٧) كانوا يعتقدون أن نفوس الموتى تسخط على الأحياء، إذا لم يبادروا إلى دفن جثثها.

(٥٨) رفع العصا إشارة إلى الشهادة والإشهاد، كرفع السبابة في الإسلام.

(٥٩) عجل: جمع عجلة.

(٦٠) الأرتجة: الأبواب.

(٦١) أي: لبناء السور وأبوابه ووشيعه وحفر خندقه بيوم واحد.

(٦٢) كان فوسيذ مبغضًا للإغريق، فلا عجب إذا سخط لزيادة منعتهم واستفزَّ زفس للسخط عليهم، وأسخطه أيضًا أنه إله البحار، والسور أقيم في وجهه. ثم هاج حسد أفلون زميله بتنبيهه إلى المقابلة بين هذا السور والسور الذي شاداه في مصر، واستنزل غضب زفس باستلفات نظره إلى إغفال القوم تأدية فروض العبادة، فوعده زفس خيرًا وعهد إليه بدك السور ومحو آثاره بعد جلاء الإغريق، والمغزى أن ذلك المعقل لم يكن ليقف في وجه الأمواج المتدفقة من اليم والحرارة المنبعثة من الشمس، هذا إذا ثبت أن اعتراض فوسيذ وجواب زفس غير دخيلين في الإلياذة، فإن أريسطوفانس وأريسطرخوس وغيرهما حذفوا من هذا النشيد حديث الآلهة برمته، وأما أرسطاطاليس فأثبته وقال: إن هوميروس إنما أتى به عن حكمة غراء؛ لأنه لما كان مضطرًّا إلى تهيئة هذا

المعقل تنميقًا لشعره وتنويعًا لوقائعه هيأهُ على تلك الصفة، ثم إنه خشية من انتقاد العقب لخلو الأرض من كل أثر له أدار هذا الحديث بين الآلهة فمحقه محقًّا، فإذا صح هذا القول فهو من غريب تصوراته وعجيب تفننه.

(٦٣) قولنا: «ألف عين» يراد به ألف وزنة أو مكيال عينًا، وهي في الأصل «ألف متر من الخمر الصرف» وكلمة متر (Μετρον) باليونانية يراد بها قاعدة الأوزان والمكاييل على الإطلاق، وهذا دليلٌ آخر على أن النقود لم تعرف في ذلك الزمن، بل كانوا يتبادلون عينًا بعين صفرًا وحديدًا وجلودًا وعجولا، والسبايا من جملة السلع، ولم يشع استعمال النقود إلا بعد أن مضت عدة قرون على حرب طروادة بل على منظومة هوميروس، ولسنا نعلم زمن الشروع في التعامل بها ببلاد العرب، ولكننا نعلم أنهم تداولوها في الجاهلية. قال عنترة:

ولقد شربت مع الندامى بعد ما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلَمِ

أي: بالدينار، وهم كانوا يتداولون حينئذ نقود الفرس والرومان.

النشيد الثامن

الوقعة الثانية

مُجْمَلهُ

لما طرَّ الفجر عقد زفس مجلس الآلهة وخطب فيهم مكثرًا من الوعيد والتهديد قاضيًا بألَّا يتحرش أحدٌ منهم لنجدة أي الفريقين. فالتمست أثينا أن يأذن لها بمؤازرة الإغريق برأيها ليس إلَّا. فأذِن لها واعتلى مركبته وسار إلى جبل إيذا يسرِّح أنظاره بين إليون ومعسكر الجيوش. فالتقت الفئتان واحتدم الأوار إلى منتصف النهار. فتناول زفس قسطاسه الذهبي فرجحت كفة الطرواد فأرعد وأبرق فهدَّت الإغريق الرعدة والْتَوَوْا يتعقبهم الطرواد إلى معقلهم. وكاد نسطور يهلك لو لم يبادر ذيوميذ إلى إغاثته. فأرهب زفس ذيوميذ بالصواعق فانهزم من وجه هكطور فاستظهر هكطور وزاد إقدامًا. فاستغاثت هيرا بفوسيذ طلبًا لنجدة الإغريق فأعرض عنها. وأخذ أغاممنون يستنهض همم الإغريق ويتضرع إلى زفس ففاز الإغريق هُنَيْهَةً بمعجزة منه، وأبلى ذيوميذ وطفقير بلاء حسنًا ثم جُرح طفقير فوجهه صحبه إلى السفن، فانثنى زفس إلى إغاثة الطرواد ففازوا فوزًا مبينًا. فطارت هيرا وأثينا إلى نصرة الإغريق فوجه زفس إليهما إيريس فعادتا صاغرتين، ورجع زفس إلى الأولمب واجتمعت الآلهة من حوله فأنبأهم بما أعد في قضائه المحتوم من اشتداد الأزمة على الإغريق حتى يخمد غيظ آخيل ويرجع إلى مقاتلة الأعداء. ولما خيم

الظلام انفصل الفريقان وأقام هكطور العيون والرقباء على الأعداء حتى لا ينهزموا ليلًا فأنار الطرواد المقابس وقضوا ليلهم بسلاحهم ريثما يصبح الصباح فيعيدوا الكرة على أعدائهم.

تستغرق وقائع هذا النشيد يومًا كاملًا وهو اليوم السابع والعشرون لافتتاح إنشاد الإلياذة. ومجرى معظم الحوادث على مقربة من شاطئ البحر والباقي في أندية زفس.

النشيد الثامن

كسا الفجر وجه الأرض ثوبًا مُزَعْفَرَا وزفس أبو الأهوال في أرفع الذرى[1]

على قمة الأولِمب تُصْغِي مهابة لمنطقه الأرباب أَلّفَ مَحْضَرَا

فقال: «ليعلم كل رب وربة بما اليوم في صدري فؤاديَ أضمرا

فلا يَنْبِذَنَّ الأمر عاصٍ بل اذْعَنُوا لِأُنْفِذَ ما أبرمتُ أمرًا مُقَدَّرَا

•••

لنصرة أَيِّ القوم من يَجْرِ منكمُ يَئُوبَنَّ منكوبًا يُخَضِّبُهُ الدَّمُ

وإلا فمن شُمِّ الأَلِمْبِ براحتي إلى الظلمات الدُّهْمِ يُلْقَى وَيُرْجَمُ[2]

إلى حيث أبوابُ الحديد قد استوت على عتب الفولاذ والْقَعْرُ مظلم

إلى هُوَّةٍ بين الجحيم وبينَها مجال كأقصى الجو عن أسفل الثرى

•••

فتدرون كم بالطَّوْلِ أسمو وأَشْرُفُ وإن شئتمُ فَابْلُوا الحقيقة تعرفوا

وأَرْخُوا مـن الزَّرْقَـا سلاسـلَ عَسْـجَدٍ وكلكـــمُ فـــي منتهاهـــا تَـــأَلّفُوا
فلـن تبلغـوا مـن زَفْـسَ وهْـوَ ولـيكم منـــالًا وإن تُعْنَـــوْا وإن تتكلفـــوا
ولكننـــي أيَّـــانَ شـــئتُ جَرَرْتُهَـــا ومـن دونكـم أَجْتَـرُّ أرضًـا وأبحُـرا٣
ومـن حـول أُولِمْبِـي الرفيـع أديرهـا يُعَلَّـقُ فيهـا الكـون وهـو أسـيرها
فـيعلم كـل الجـن والإنـس مبلغـي مـن الطَّـوْلِ والأكـوان أنـي أميرهـا» ٤
أصـــاخوا سُـــكوتًا حرمـــةً وتهيُّبًـــا فقالـــت أثينـــا يســـتفيض زفيرهـــا
«أجـل أبتـا يـا قَـيِّمَ القـوم جملـةً قـــواك علمنـــا لـــن تـــدين وتُقْهَـــرا

•••

ولكننـــا نرثـــي لحـــال الأغـــارِقِ يبيـــدهمُ المقـــدور تحـــت الْيَلَامِـــقِ٥
أطعنـــا فـــلا نـــأتي النـــزال وإنمـــا نمُـــدهمُ بـــالرأي خـــوف البوائـــق٦
وإلا فهـذا السـخط يجتـث أصـلهم» فـــبشَّ لهـــا يرنـــو مثيـــرُ الصـــواعق
وقـال: «لـئن راعتْـك منـي صـرامة فعنك جميل الرفق لست لِأَذْخَرا»٧

•••

ولاحت تَزِينُ الخيل من تحت مضمدِ حـــوافرُ فـــولاذ وأعـــراف عســـجد
بمركبـــة غـــرَّاءَ نـــاط صـــروعها وفـي حلـة الإبريـز حـل بِسُـؤْدُدِ٨
وفـــي يـــده ســـوط النضـــار يســـوقها مـــن القبـــة الزرقـــاء لـــلأرض تغتـــدي
فبُلِّـغَ إيـذا جَمَّـةَ السَّـيْحِ مَـنْهَلًا وأَمَّ الضـــواري واســـتقرَّ بغرغـــرا٩

•••

هنـاك لـدى غـابٍ أجِلَّـتْ وهيكـل لـه فـاح نشـرًا أوقـف الخيـل يعتلـي

ومُذْ حلها بين الضباب أحلّها ... وحل بكبر المجد أرفع منزل

يميل إلى الطّرْوَادِ حينًا وتارة ... إلى سفن الإغريق وهو بمعزل

ففي عَجَلٍ نال الأغارق زادهم ... وفي الخيم هَبُّوا للسلاح تَحَضَّرَا

•••

كذاك أعاديهم وإن قل عَدُّهم ... تَقَنَّعَ في إليون يبرز جندهم

يُحَرِّقُهُمْ داعي الضرورة لِلْوَغَى ... لتحفظ أعراض وتسلم وُلْدُهُمْ

فَفُتِّحَتِ الأبواب واقتحموا الوغى ... مشاة وفرسانًا يُرَوِّعُ وَفْدُهُمْ

ولما تَدَانَوْا والنفوس سَوَاخِطٌ ... تدفَّقت الأجناد تَصْلَى تَسَعُّرَا[١٠]

•••

طِعانٌ تلاقت في صدور تدجَّجَت ... وقرع به سود اليلامق ضُرِّجَتْ

وزفرة مقتول ونَعْرَةُ قاتل ... وسيل دماء فوق أرض ترجرجت

فزال ضحى الأقداس والنقع فائرٌ ... بحرب على القومين نارًا تأجَّجَتْ[١١]

وعند انتصاف الشمس في كبد السما ... لقِسْطَاسِهِ التِّبْرِيِّ قام مُحَرِّرَا[١٢]

•••

وألقى به قِدْحَيْنِ للموت والشقا ... لكل من القومين سهمًا مُحَقَّقَا

فسهم بني الإغريق مال إلى الثرى ... وسهم بني الطرواد للجو حَلَّقَا[١٣]

فأرعد من أطواد إيذَا هَدِيدُهُ ... وما بين دُرَّاعِ الأغارق أبرَقا

فَهَدَّتْهُمُ من شدة الهول رِعْدَةٌ ... وأجدرهم بالبطش ولّى وأدبرا[١٤]

•••

فَإِيذُومِنٌ عاد وأَتْرِيذُ هارب ... وفر أياسا البأسِ والجيشُ لَاجِبُ

ولكـــنَّ نســـطورًا تشـــبَّط مُحْرَجًـــا بصــرع جــوادٍ ســاق وهــو يُرَاقِــبُ

بمقتــل بــادِي العُــرْفِ فــي أُمِّ رأســه إلـى الْمُـخِّ فيـه نَبْـلُ فَـارِيسَ نَاشِـبُ

فشـــب وأهـــوى خابطًـــا متمرِّغًـــا وشَـبَّتْ جميـع الخيـل منـه تَـذَعُّرا

•••

فبالسـيف نسـطورٌ عـدا يقطـع الْقِـدَدْ وهكطـور تحت العَـجِّ في خيلـه وَفَـدْ

وقد كاد سيف الحتف بالشيخ يرتوي ولكـــن ذِيُومِيـــذٌ لنُصـــرته عمـــدْ١٥

رأى فبـأعلى الصـوت صـاح بـأُوْذِسٍ «إلى أين يـا ذا المكـر جبنًا أرى تُـرَدْ

ألـم تخـشَ أن الطعـن يُصْـمِيكَ مُـدْبِرًا فولَّيْــتَ بــين القــوم تبغــي تَسَــتُّرَا

•••

فـذا شَـيْخُنَا قِـفْ عنـه ذا القَرْمَ نـدفعُ» فجَدَّ يسوق الخيل لِلْفُلْكِ لا يعي١٦

وأمـــا ذِيُومِيـــذٌ وإن ظـــل مفـــردًا فَخَفَّ لصدر الجيش عن جأشٍ أَرْوَعِ

ولمـــا أتـــى نســـطورُ كَـــفَّ حَثِيثَـــهُ وقال: «أجل يا شيخُ بأسك قد نُعِي

يصول عليك الْمُرْدُ في حَوْمَةِ الْوَغَى ولسـتَ علـى بـأس الشـباب لتصـبرا

•••

فَتِبْعُـكَ ذو عجـز وخيلـك قَصَّـرَتْ فللصحب أَوْدِعْهَا فمركبتي جرت١٧

وَهَـيِّ اخْتَبِـرْ جُـرْدًا بِـأُطْرُوسَ ثُقِّفَـتْ سـراعًا إذا كـرَّت وإن هـي أدبـرت

ببأســي مــن إينــاس مــن قبــلُ نِلتهــا بهـا حسبنا جريٌ بحرب تسعَّرت١٨

فـــيعلم هَكْطُـــورٌ بـــأن مُهَنَّـــدِي بيُمنـاي للفتـك الـذريع تضـوَّرا»١٩

•••

فـــأذعن نسْـــطُورٌ وأَسْـــتِينِلٌ قفـــلْ وأَفْرُمِـذُونٌ بالجيـاد علـى العجـل٢٠

وقُـرْبَ ذِيُومِيـذٍ مضـى الشـيخ يعتلـي		يسـوط وأطـرافَ الْأَعِنَّـةِ قـد سَـدَلْ
ولَمَّـا لـدى هكطـورَ فـي الحـال بُلِّغَـا		أطـار ذيوميـذُ السـنان فعنـه زَلْ
وأُنْفِـذَ فـي ثـديِ ابـن ثِيـبَسَ أَنْيُـفٍ		فخـرَّ علـى وجـه الحضـيض مُكَـوَّرَا

•••

فـأرمض هكطـورٌ ببَـثٍّ يُبَـرِّحُ		على تِبْعِـهِ والخيـل شبَّت تُطَمِّحُ ٢١
وغـادره يبغـي غلامًـا يسـوقها		فبـادره أَرْخَفْطُلِـيمُسُ يَسْـرَحُ
وكـادت سُـرَى الطـرواد تجـري هزيمـةً		لإِلْيُـونَ كالخرفـان والخطـب يُفـدح
ولكـن زَفْسًـا وهـو شـاهد وَهْـنِهِمْ		أمـام ذيوميـذ الصـواعقَ أمطـرا

•••

فدمـدم يَـدْوِي الرعـدُ والبـرقُ أومضـا		بنـار مـن الكِبريـت تلهَـب فـي الفضـا
ففـي نيرهـا الخيـل اقشـعرَّت تهيُّبًـا		وأفلـت نسـطور العنـانَ مُمَعَّضَـا
وصـاح: «فـرارًا يـا ذِيُومِيُّـذٌ ألا		ترى نصر زفس عنك ذا اليوم مُعْرِضَا
لهكطـورَ أولاه ومـن ذا يَصُـدُّهُ		سـيخلو لنـا يـومٌ يشـاءُ فنُنْصَـرَا»

•••

فقـال: «تَحَرَّيْـتَ الحقيقـة إنمـا		فـؤادي ونفسـي بالعـذاب تضـرما
لَأَجْـدَرُ بـي أن تَفْـتَحَ الأرضُ جوفَهـا		فتبلعَنـي مـن أن أَذِلّ وأُهْزَمَـا ٢٢
ويصـرخ هكطـورٌ لـدى جنـد قومـه		«ذِيُومِيُّذٌ في الفُلك من بأسيَ ارتمى»
فقـال: «وأنَّـى يـا ابـن تِيـذِيُّسٍ تـرى		يتـاح لـه أن يسـتعزَّ مُعَيِّـرَا

•••

يُكَذِّبُـهُ قـوم الدرادنـة الأُلَـى		بَلَـوْكَ وأبنـاءُ الطـراود والمـلا ٢٣

تُكَــذِّبُ غــاداتٌ تَــأَيَّمْنَ بعــدما حملـت علـى أزواجهــنَّ مُجَنْــدِلَا»

ورد رءوس الخيـــل منهزمًـــا بـــه وفوقهمـــا وَبْـــلُ النبـــال تهـــيَّلَا٢٤

وهكطـــور هَيَّـــاجُ الترائـــك مقبِـــل بإثرهمـــا يُنْمِـــي الفخـــار مظفَّـــرا

•••

«ذِيُومِيذُ في الإغريق كم كنت ترفع مقامًـا ويزجـي الـزاد والكـأس تُتْـرَعُ

فسـوف تُسَـامُ الـذّلّ بـين جمـوعهم لـوهنٍ بـه كالغِيـد قـد بِـتَّ تَهْلَـعُ

خســئت فلــن تعلــو معاقلَنــا ولا عقائلَنــا فــوق الســفائن تــدفَعُ

فهيهــات لــن تســتأثرنَّ وســاعدي سَيُولِيكَ من قبلُ الحمامَ الْمُسَطَّرَا»

•••

فـــردَّد تيـــارًا يهـــيج بالـــه أيُغْفِلُـــهُ أم ينثنـــي لنزالـــه

ثلاثًـــا علـــى الأمـــرين ردَّد فكـــرَه وزَفْـــسُ ثلاثًـــا راعـــدٌ بجبالـــه

يشـير إلـى الطـرواد بالنصـر معلنًـا وهكطـــور يَـــدْوِي صـــوتُه برجالـــه

«أيـا أيهـا الطَّـرْوَادُ يـا قـوم لِيقِيَـا ويـــا دردنيـــون النجيـــعُ تفجَّـــرا

•••

فكونـوا رجـالًا واستجِيشـوا بشـدة فقـد لاح لـي زفـسٌ يميـل لنصـرتي

يُخَـــوِّلُنِي نصـــرًا مبينًـــا وعـــزة وإهـــلاك أقـــوام الأعـــادي الْمُلِمَّـــةِ

بَنَـــوْا مَعْقِـــلًا غَثًّـــا فيـــا لِضـــلالهم بمـــا زعمـــوا فيـــه انثنـــاءَ عزيمتـــي

فخيلـــيَ تجتـــاز الحفيـــرَ مغيـــرة ودونَكـــمُ منـــي الـــبلاغَ المقـــرَّرا

•••

«فإنْ أَدْنُ من فُلْكِ الأغارِق فاقذِفوا عليهـــا لهيـــب النـــار لا تتوقفـــوا

فتفنَــى ويعلــو للرقيــع هصيصُــها ويُفنِـــيهم طُـــرًّا سِــنانٌ ومرهَــف»

وصـــاح بـــآذانِ الجيـــاد يحثُّهـــا «أيـا زَنْـثُ يـا فُـوذَرْغُسُ المتشـوِّف

ويـا إِيـتِنٌ يـا لَمْفُـسُ الْكَـرُّ كَـرُّكُمْ به إيه هذا اليوم قد رُمْتُ مُخْبَرَا٢٥

•••

فكم رُضـتُكْمْ جَهـدي ابتغاء رضـاكم وكـــم أنــــذروماخُ تمنَّـــت مُنـــاكم

وكـم بُرَّهـا كالشـهد قـد ذخـرت لكـم تُـراقُ عليهـا الخمـر آنَ غِـذاكم٢٦

بـذلك كـم قبلـي رعـتْكُم وإن أكـن حلـيلًا لهـا غضًّـا فحُثُّـوا خطـاكم

فيـــا حبـــذا كَـــرٌّ يُـــذِلّ عُـــداتَنا فنغـنمَ تحـت النقـع مِجْـوَبَ نَسْـطُرَا

•••

مـن الـذهب الإبريـز ذا التُّـرسُ كلّـه وشــــهرته حتــــى الســــماءِ تُجِلّــــهُ

ومـن ثَـمَّ عـن كِتْفِـي ذِيُومِيـذَ لأَمَـةً حبـاه بهـا هِيفَسْـتُ وهـي تُظِلّـهُ٢٧

فـإن نغتـنم هـذين لا شـك يلتجـئ بليلتنـــا للفُلـــك جـــيش نُذِلّــهُ»

أمـــانيُّ هكطـــورٍ كمـــا شـــاء بثَّهـــا وهيـرا لـذاك الخطـب هاجـت تَحَسُّـرَا

•••

على عرشـها اهتـزَّت فقلقلـتِ السـما وصـاحت بفوسـيذَ العظيم تَحَدُّمَا:٢٨

«وهَـلَّا أيـا مـن زعـزع الأرض بأسـه جزِعـــت لأرزاءِ الأراغـــس مُرْغَمَـــا

فكـم لـك أزكـوا فـي أَلِيقَـا وَإِيغَـسٍ قـرابينهم يبغـون قُرْبَـكَ مَغْنَمَـا٢٩

فإن نَعْتَصِبْ في صحبهم من ذوي العلى فـلا ريـبَ أَنَّـا لـن نُصَـدَّ ونُـدْحَرَا

•••

فَهَـيٍّ بنـا نَـنْقَضُّ فـي كَبِـدِ العِـدَى ومـن فـوق إيـذا زَفْسُ يُحْـرَجُ مُفْـرَدَا»

فقــال لهــا والغــيظُ مَيَــزَّهُ: «لقــدْ شــطتِ ومنِّــي لا تنــالين مقصــدا
أَبَيْـــتُ لِقَـــا زفـــسٍ وإن تتـــأَلَّفُوا جميعًــا عليــه فهــو أعظــم سُــؤْدُدَا»
فــذاك حــديث فــي بنــي الخلــد دائــرٌ وقــد ثقُلــت تشــتد وطــأةُ هكطُــرا

•••

يصـــول كـــآريسٍ وزَفْـــسُ يديلـــه وجـيشُ العـدى يَصْـطَكُّ بـادٍ قُفُولُـهُ
لدى الفلك حتى الحُصْنِ دون حفيرِه تُســـاق انهزامًـــا رجلـــه وخيولـــه
وقــد كــادت النيــران تحــرق فُلْكَــهُ فحثَّـــتْ أغـــاممنون هيـــرا دليلـــه
فخاض صـفوف الخيم والفلـك رافعًا بســاعده بُــردًا مــن الخــزِّ أحمــرا٣٠

•••

توسـطَ فـي الأسـطول حتـى إذا عـلا خليـــة أُوذِيـــسٍ بـــه تُحْـــدِقُ المـــلا
وأشـــراع آخيـــلٍ وآيـــاسَ أُرْسِـــيَتْ علـــى طرفيـــه شـــدة وتبسُّـــلَا٣١
عـلا صـوته يَـدْوِي: «أيـا عصـبةً وهـت جَنَانًـــا وإن أبـــدت بيانًـــا مُجَمَّـــلَا
ألا أيــن ذيَّــاك التــبجح قــد غــدا وأيـــن عـــرى عـــزمٍ أراه تفطَّـــرا

•••

فــأُفٍّ لكــم هــلَّا ذكــرتم مُقــامَكم بِلِمْنُــوسَ والــزادُ الشــهيُّ أمــامكم٣٢
بلحـــم ســـمين ترتمـــون وأَكْـــؤُسٍ تُــديرون عجبًــا راشــفين مــدامكم
علـــى مئـــة يـــنقض أو مئتـــي فتـــى فتــاكم زعمــتم مُنْتَضِــينَ حســامَكم
وعــن هَكْطُــرٍ فَــذًّا عجِزنــا وخِلْتُــهُ ســـيُلهِب نـــارًا فُلْكَنَـــا متنمِّـــرا

•••

أيــا زَفْـسُ هـل مثلـي مليـكٌ تـذلّلا ومــن سُــدَّةِ المجــد الأثيــل تنــزَّلا٣٣

وحقِّـك مُـذْ أقلعـتُ لا جئـت مُقْلِعًـا على مركبـي جـمٍّ الأرادم مُقْـبِلَا ٣٤
شـحومَ عُجُـولِي قـد دفعـتُ وسُـوقَها لِتُحْـرَقَ أنَّـي شـادَ قومـك هـيكلا
فمَهِّـدْ لنـا سـبلَ النجـاة هزيمـة ولا تُسَـلِّمَنَّا للعـدوِّ فيَغْـدُرَا»

•••

فـأرفقَ زفـس راحمًـا عبراتِـه وأومـأ يـؤتي الجـيشَ بُشـرى نجاتـه
وأرسـل خيـر الطيـر نَسـرًا مطوِّقًـا بمِخلبـه ظبـيٌّ بأسـنى سِـماته
وأسـقطه فـي قـرب هيكلـه الـذي لـذي الـوحي زَفْسٍ قـدَّموا قُرُبَاتِـهِ ٣٥
ومـذ أبصـر الإغريـق ذلـك قوَّمـوا عـزيمتَهم يبغـون فتكًـا مـدمِّرا

•••

أمـامهم طُـرًّا ذيوميـذُ أطلقـا أَعِنَّتَـهُ يجتـاز بالخيـل خنـدقا ٣٦
يَـؤُمُّ العـدى صـدرًا لصـدر ورُمْحُـهُ بيمنـاه أحشـا آغِـلَاوُسَ مَزَّقَـا
بعاتقـه واراه يبـدو لصـدره علـى حين رَدَّ الخيـل يجتنـب اللِّقَـا
فخَـرَّ صـريعًا خابطًـا بدمائـه بصلصـلة يَرْبَـدُّ لونًـا ومنظـرا

•••

فشُـدُّوا القـوى وَالْأَتْـرِذَانِ تقـدَّما كـذاك الأَياسـانِ اللـذان تحـدَّما
وإيـذُمِنٌ مـع تِبْعِـهِ مِـرْيُنَ الـذي حكـى شـدة آريـس مسـتنزِفَ الـدِّما
فـأُورِيفُلوسُ بْـنُ الفتـى إيفِـمٍ تـلا وتاسـعهم طِفْقِيـرُ والقـوسَ أحكمـا
يواريـه آيـاسٌ وراء مِجَنِّـهِ فيرفعـه حينًـا فحينًـا ليبصـرا

•••

فيُحـدق فـي قـرم مـن القـوم دونـه ويرشُـقُه رشـقًا يُعِـدُّ منونَـه ٣٧

ويــأتي أخــاه مســتظلًا بتُرْسِــهِ كطفـل لحجـر الأم أبـدى حنينـه٣٨

ويصــدر فــيهم ســيدًا بعــد ســيد فجنــدل أَرْسِــيلُوخَ يفــري وتينَــه

فَأُرْمِينَسًـا ثــم الفتــى أو فِلِسْتَسًـا وأتبعــه أَخْرُومِيُــوسَ وذِيتُــرَا

•••

وألحــق لِيقُوفُنْطُسًــا وأَمُوفَنــا ومَيلَانِفًــا تنتــابهم غُصَــصُ الفنــا

فــأُطْرِبَ أَتْرِيــذٌ وقــام تُجَاهَــهُ يُبَجِّلُــهُ بــين العســاكر معلنًــا

«أيـا ابـن تِلَامُـونَ الحبيـب وغـرة الـ ـجنود أَسِــلْ وَبْــلَ النَّبــال مُرَنِّنَــا

عسـى منـك يُـؤتَى الـدَّانَوِيُّونَ نصـرهم ويعلــو أبــوك الهِــمُّ شــانًا ومَشْـعَرا

•••

نشــأت بمغنــاه عزيــزًا مُسَــوَّدَا وإن كنت من نسل السبيَّةِ مولدا٣٩

فــزده ســنا مجــدٍ وإن بــان بَوْنُــهُ ودونــك مــن أَتْرِيــذَ عهــدًا مؤيَّــدَا

لـئن نلـتُ مـن زفـس وفـالاسَ نصـرة فبعــديَ قبــل القــوم تظفــرُ بالجــدَا

بِمَرْكَبَــةٍ فــي خيلهــا أو مَنَصَّــةٍ مُثَلَّثَــةٍ أو غــادةٍ حسـبما تـرى»٤٠

•••

فقــال: «وهــل داعٍ لإنهــاض هِمَّتِــي وكُلِّــيَ عــزم نــاهض للمُلِمَّــةِ

سـأفتك مـا أوتيـت فتكًـا ولـم تـزل طَرُوحِيَ تُصْمِي مذ هببتُ بشدتي٤١

ثمانيــةً أنفــذتُ فــي فتيــة العــدى وعـن كـل سـهم خَـرَّ شـهمُ سَـرِيَّةِ٤٢

ولكـن هـذا الكلـب قـد عـاث طاغيًـا ونَبْلِــيَ عنــه لا يــزال مقصــرا»٤٣

•••

وأحـدق فـي هكطـور يرمـي مسـدِّدا ســريته والقلــب منــه توقَّــدا٤٤

فأخطــأه والســـهمُ أرْسِـــلَ صـــادرا إلــى صـــدر غُرْغِثْيُـــونَ ينفــذ مبعِــدا

(هـــو ابـــن لفريـــامٍ وقَسْـــطَانِرا التـــي بهــا جــاء قِــدْمًا مــن أَسِــيمَا مُصَــعِّدَا

ورام بهـــا زَوْجًـــا وفيهـــا تَـــوَفَّرَتْ محاســـن ربَّـــات الخلـــود تَـــوَفَّرا)

•••

فـــرأس الفتـــى لمَّـــا بمحنتـــه مُنِـــي بمِغْفَـــرِهِ الْمَسْـــرُودِ أُثْقِـــلَ ينحنـــي

كزهـــرة خشـــخاش بيـــانع روضـــةٍ يُثَقِّلُهَـــا طَـــلُّ الربيـــع فتنثنـــي[45]

فثَنَّـــى علـــى هكطـــور طفقيـــرُ رميَـــه فصـــرَّح تثنـــي الســـهم كـــفُّ أَفُلَّـــن[46]

وأُنْفِـــذَ فـــي أَرْخِفْطُلِـــيمَ بثَدْيِـــهِ فأهوى غضيض الجفن منفصم العُرَى[47]

•••

فهكطـــور صُـــدَّتْ طامحـــاتُ خيولِـــه وأَرْمِـــضَ ملتاعًـــا لقتـــل زميلـــه

فغـــادره مُلْقًـــى علـــى فـــرط بَثِّـــهِ وأعـــرض عنـــه ســـاعيًا لبديلـــه

فـــألفى أخـــاه قِبْرِيُـــونَ إزاءه فأصـــعده يعلـــو محـــل فتيلـــه[48]

وألقـــى لـــه صـــرع الأعنـــة واثبًـــا إلـى الأرض بالصـوت المُـرَوِّع مُجْهِـرَا

•••

تنـــاول جُلْمُـــودًا وأقبـــل مســـرعًا يـــروم بـــه طفقيـــرَ قـــتلًا مُصَـــدِّعَا

وأخـــرج طفقيـــرٌ لَجِيفًـــا مقـــذَّذًا وأوفقـه فـي القـوس للرَّمْـيِ مُزْمِعَـا[49]

وبـــالوتر اجتـــرَّ المَـــرِيشَ لكتفـــه إلى حيث عرقُ العُنق بالصدر أُودِعَا[50]

فأدركــه الجلمــودُ فــي المقتــل الــذي بغى عنه أن يرمي السَّرِيَّةَ مُصْدِرَا[51]

•••

فراحتـــه شُـــلَّتْ وقـــد قُطِـــعَ الـــوتر وأُجْثِيَ والقوس استطارت على الأثر

فبـــادر آيـــاسٌ يقيـــه بتُرْسِـــهِ وطفقيــرُ بالأنفــاس يشــهق والزُّفَــرْ
وبـــادر مِيكِسْـــتٌ وآلَسْـــتَرٌ معًـــا يَقِلَّانِـــهِ للفُلــك مضــطربَ البصــر
وزفـــس ارتضـــى طـــروادة فتـــأثروا أعـــاديَهمْ حتـــى الحفيـــرِ تـــأثَّرَا

•••

وهكطورُ صدر الجيش يجري ويَلْغَبُ ويَكْسَــأُ فــي الأرداف مــن يتعقــب
كَأَغْضَــفِ هــول قــد تــأثر ضــيغمًا تَــذَعَّرَ أَوْخِزْنَــوْصَ بــر يُكَبْكِــبُ٥٢
فينشـــهه فـــي صـــفحتيه وســـاقه وينظــر هــل يلــوي خُطَــاهُ ويلجَــب
فَوَلّـــوْا لديـــه جـــائزين وشـــيعهم وخنــدقَهم والســيف يَبْتَــتُّ أظهــرا

•••

وســـائرهم دون الســـفين تربَّصُـــوا يُثَبِّـــتُ بعضًـــا بعضـــهم ويُحَـــرِّضُ
ويـــدوي بهاتيـــك البقـــاع دعـــاؤُهم وهكطـور دون القـوم بالخيـل يعـرض
ويقـــدح مـــن عينيـــه نـــارًا كأنهـــا بمقلـــة غرغـــونٍ وآريـــسَ تـــومض
فهـاج بِهِيـرا هـائج الغـيظ والأسـى وصـاحت بآثينـا: أرى الخطـب أسـفرا

•••

أيـا بنـت زفـسَ الـدانويون فـي نكـدْ فهـلَّا مـددناهم وإن أبطـأ المـدد٥٣
بهـم رامـت الأقـدار سـوءًا وخلـتُهم يبيـــدهم قـــرم بشـــدته انفـــرد
أجـــل إنَّ هكطـــورًا عتـــا متنمِّـــرًا عليهم وجاز الحدَّ واشتد واتَّقَدْ»٥٤
فقالت أثينا: «كاد سيف العدى لدى معســـكره يُلقيـــه ميتًـــا مُعَفَّـــرَا

•••

ولكـن أبـي قـد سـاء فعـلًا ومقصـدًا وقـــاومني غـــدرًا وأفـــرط واعتـــدى

وقد فاته كم قبلُ صنتُ حبيبه هرقل ابنه في حكم إفرست مجهدا

يصعد أنفاسًا ويندُب ضارعًا فيرسلني زفسٌ ملاذًا ومرشدًا

فلو أنَّنِي أُنَبِّئْتُ قبلُ مرامَه لظل هرقل في الجحيم مُحَقَّرَا

•••

ولكنني أنقذته حين أرسلا بهيبة إفرست كئيبًا مذلّلا

لأبواب آذيسٍ ليقتاد كلبه وليَّ المنايا من أريبَا مكبَّلا٥٥

وذا زفس يجفوني وثيتيس يرتضي تقبّله من ركبتيه توسُّلَا٥٦

وتلعب بين العارضين يمينها لينصر آخيل العتي المُدَثِّرا

•••

ولا بد من يوم ينادي ابنتي أثينا أَزَرْقَا المقلتين صَفِيَّتِي

ولكن بنا قُومي فخيلَكِ هَيِّئِي لأحضر في مغناه للحرب شِكَّتِي

فأنظر هيَّاج الترائك هكطُرا أيطرب إذ نبدو بصدر السرية٥٧

لحوم بني طروادة وشحومُها لطير الفلا والكلب بالسَّيفِ تُبْتَرَى»[٥٨]

•••

وهيرةُ بيضاء الذراعين هَبَّتِ إلى الخيل تكسوها نُضَارِيَّ عَدَّةِ

وألقت أثينا في بلاط وليها نقابًا بديعًا شائقًا هي وَشَّتِ

بدرع أبيها اسْتَلأَمَتْ وتَدَجَّجَتْ بشِكَّتِهِ تُصلى أوار الحمية

بها ركبت في كفِّهَا عامل له طويل ثقيل العود يحطم عسكرا

•••

وهيرا تسوط الخيل والخيل تسرَح لأبواب دار الخلد في الجو تسبَحُ

فمــن نفســها دارتْ علــى عتباتهــا وأعلــت صــريفًا هــائلًا وهــي تُفْـتَحُ

(تحـف بهـا السـاعاتُ وهـي رقيبـةٌ علــى قبــة الأفــلاك لا تتزحــزحُ

تُكَثِّــفُ فيهـا الغـيم والجـو مظلـمٌ وتقشــعه عنهــا فيبــرز نَيِّــرَا) ٥٩

•••

فجاوزتـا الأبـواب بالخيـلِ مركبـا ومـن طـور إيـذا زفـسُ ينظـر مغضبـا

فصــاح بــإيريس: «اذهــبنَّ لترجِعَــا ولا تأتيــاني فاللقــاءُ تصــعَّبا

وإلا فقــد آليــتُ والقــول حــازم لأحطــم بــالنير الجيــاد مثرِّبــا

وأرميهمــا مــن فــوق عــرش مــبطن بمركبــة أذرو ســحيقًا مُكَسَّــرَا

•••

وصــاعقتي تــنقض يــذكو التهابُهَــا وعشــرة أعــوام يــدوم عــذابُها

فــتعلم آثينــا نكــالًا ينالهــا بصــدِّ أبيهــا مــذ عراهــا ارتيابهــا

وإنــي علــى هيــرا أقــل تحــدُّمًا فقد ألفت صَدِّي وزال احتجابُها» ٦٠

فطــارت إريــسٌ كالريــاح بــأجنُحٍ نُضَــارِيَّةٍ نحــو الْأَلِمْــبِ تحــدُّرا ٦١

•••

فألفتهمــا فــي صــدر أبوابــه العُلَــى وقالـت: «إلـى أيـن الحثيـثُ تنصُّـلا

عــلام تهيجــان اضــطرامًا وزفــس لا يتــيح لنــا بــين الأغــارق مــدخلا

وإلا فقــد آلــى بحــتمٍ مؤكَّــدٍ لــيحطم بــالنيرِ الجيــادَ مُفَلِّــلا

ويرميكمــا مــن فــوق عــرش مُــذَهَّبٍ بمركبــة يــذرو ســحيقًا مُبَعْثَــرَا

•••

وصــاعقة التنكيــل يــذكو التهابُهَــا وعشــرة أعــوام يــدوم عــذابُها

فـــتعلمُ آثينـــا وأُوغِـــرَ صــــدرُها لصـــدِّ أبيهـــا كيـــف كـــان انقلابهـــا

وهيـــرا عليهـــا دون ذلـــك غيظُـــه فقـــد ألفـــت كبـــرًا وزال احتجابهـــا

وأنـــتِ أيـــا شـــر الكـــلاب وقاحـــة أتلقين بـالرمح الثقيل أبا الورى» ٦٢

•••

ومـذ بَلّغَـتْ إيـريس عـادت لحينهـا وهيـــرا اســـتكنَّت ثـــائراتُ ظنونِهَـــا

فقالـت لآثينـا: «أنـا لسـت أرتضـي علـى زفـس نعتـو للمـلا وشـجونُها

لتَحْـيَ وتفنـي كيفمـا خُـطَّ حظهـا وما شاء زفس فهو مولى شؤونها»٦٣

ورَدَّتْ رءوس الخيـل والسـاعُ سـرمدًا بـأبواب دار الخلـد تلبـث حُضَّـرَا٦٤

•••

فجَرَّدْنَهَـــا حـــالًا وأوثقنهـــا لـــدى مــذاودها المــلأى طعامًــا مُخَلَّــدَا

ومركبـــة الأقـــداس أَتْكَأْنَهَـــا إلـــى حيــاطٍ زهــت حسـنًا يـروق تَوَقُّـدَا

وحلـــت تهـــيج الرَّبَّتَـــانِ كآبـــةً بعرشـي نُضَـارٍ فـي بنـي الخلـد مَقْعَـدَا

وزفـسُ إلـى الأولمـب فـي طـور إيـذةٍ لمجتمـع الأربـاب فـي ركبـه جـرى

•••

فحـل فُسَـيْذُ الخيـلَ يمضـي بسـرعةٍ بمركبـــة الجبَّـــار فـــوق منصـــةِ

وســترًا مــن الكَتَّــانِ أسـبل فوقهـا وزفـس اعتلـى تخـت النُّضَـارِ بعِـزَّةِ

وتحـت خطـاه ارتـجَّ ذيالِـكَ الفضـا وعـــن منتـــداه الرَّبَّتَـــانِ بعزلـــة

وُجُومًـــا وصَـــمْتًا تطرقـــان وإنمـــا بنـــور حجـــاه كُنْـــهُ فكرِهمـــا درى

•••

فقـال: «لـم الشـكوى وفـرطُ التَّبَاعُـدِ ولـم تُجْهَـدا نفسًـا بحـرب الطِّـرَاوِدِ

تَعَمَّــــدْتُمَا إهلاكهــــم ودمــــارَهم ولكــن طَـوْلِي امتـد واشـتدَّ سـاعدِي
فـلا ينثنـي عزمـي لكـلِّ بنـي العلـى وقـد خُرْتُمَـا قبـل اشـتداد المشـاهد
وإلا لسَــحَّتْ راعــدات صَــوَاعِقِي فصـدَّتْكُمَا عـن منـزل الخلـد أدهُـرَا»

•••

فأصـعدتا الأنفـاسَ عـن جمـرة الشـجا تَرُومَــانِ للطِّــرْوَادِ محقًّــا مُرَوَّجًــا
وأخفـت أثينـا ثـائرَ الغـيظ تلتظـي حــزازة صــدرٍ مستشــيطٍ تَوَهَّجَــا
ولكــن هيــرا تلــك لــم تقـوَ سـاعةً على كظـم غيظٍ في حشـاها تلجلجا
فقالـت: أبيـتَ الـوهنَ يـا ابـن قُـرُونُسٍ قُـوَاكَ علمنـا لـن تـدين وتَصْـغُرَا٦٥

•••

ولكننــا نرثــي لحــال الأغــارق يبيـدهم المقـدور تحـت المخـافق٦٦
أطعنــا فــلا نَــاتِي الكفــاحَ وإنمــا نَمُــدُّهُمُ بــالرأي خــوف البوائــق
وإلا فهـذا السـخط يجتَـثُّ أصـلَهم» فقــال لهــا رب الغيــوم الــدَّوَافِقِ
«إذا بــزغ الفجــر المنيــر رأيتِنِــي أُسِــيلُ دَمَ الإغريــق دونَــكِ أنهُــرَا

•••

وهكطـور لا يَنْفَـكُّ يرمـي ويرتمـي إلـى أن يَهُـبَّ القـرم آخيـل فـيهم
ومـن حـول فَطْرُقْـلَ القتيـلِ تلاحُـمٌ لدى الفلك بالقومين يَسْرَبُ بالدَّمِ٦٧
بـذا قضـتِ الأيـام يَنْفُـذُ حكمُهـا ولسـت أُبَـالِي مـا تَحَـدَّمْتِ فـاعلَمِي
ولــيس بعِبْئِــي أن تَــؤُمِّي مَغِيظَــةً وراء الثـرى والبحـر أعمـاقَ طَرْطَـرَا

•••

هنالـك لـو تمضـين حيـث قُـرُونُسُ يقــيم وبــالإذلال يافِــثُ يجلــس

ولا الشمسُ في الآفاق تنشر نورَها ولا نسمات الريح تُحْيِي وتُؤْنِسُ٦٨

لما رابني مذكنت شرَّ سليطة» أصاخت لذاك القولِ لا تتنفس

وما لبثت أن حلّتِ الشمسُ بحرَها وذيلُ الدجى في الأرض بات مُجَرَّرَا

•••

فبرح بالطرواد مرأى غيابها وأطربت الإغريقَ بُشْرَى احتجابها

وهكطورُ نحو النهر ساق جيوشه بعيدًا عن الفلك العظام مضى بها

وألّفَ فيهم مجلسًا حيث لا دِمَا تُدَنِّسُ ذيَّاك الفَلا بانصبابها

تَرَجَّلَتِ الفرسان تُصْغِي لقوله فقام خطيبًا آمرًا ومؤمِّرَا

•••

يميل على رمح يُعَادِلُ طُولُهُ ذِرَاعًا وعشرًا عَزَّ شكلًا مثيلُه

تُطَوِّقُهُ من خالص التبر فَتْخَةٌ بنصل نحاسي يهول صليلُه

«ألا يا بني الطروادِ يا قوم دردنٍ ويا حلفائي دونكم ما أقوله

حسبتُ بأني اليوم أدخل ظافرًا بلادي وأُفْنِي القوم والْفُلْكَ مُظْهَرَا٦٩

•••

ولكنَّ وفد الليل أسبل ستره عليهم وأنجاهم فلا تعصِ أمره

فحُلّوا جياد الكر يُزْجَى عليقُها وهَيُّوا بنا للزاد ننظرُ أمره

ومن قدس إليونٍ عجول سمينةٌ تُسَاقُ وخِرْفَانٌ تُوَفِّرُ ذخرَه٧٠

وعودوا إلينا من منازلكم وقد حَملتم مع الخبز الْمُدَامَ المكرَّرا

•••

وزيدوا وقود النار تعلو تأجُّجَا إلى الجو للفجر المنير مدى الدُّجَى

لــئلَّا يـــرى القـــوم الفـــرار غنيمـــة فيبغون متنَ البحر في الليل مخرَجَا

فـإن ركبـوا صُــبُّوا علـيهم سـهامكم وسُـــمْرًا تُغَشِّـــيهِمْ خضـــابًا مُضَـــرَّجَا

بأوطـــانهم هـــم يلأمـــون جِـــرَاحَهُمْ وغيـــرهم بـــالحرب لـــن يَتَهَـــوَّرَا

•••

ويـا أصـــفيا زَفْـــسَ الْفُيُـــوجَ تعهـدوا بـإليون حـزمَ الْوُلْـدِ والشـيبَ شَـدِّدُوا

وســـــوقوهم طُـــرًّا لظاهرهـــا علــــى الحصون التي آل العلى قَبْلُ شَيَّدُوا٧١

وكـل النسـاء الجازعـات يُقِمْـنَ فـي منـــازلهن النـــارُ للصـــبح تُوقَـــدُ

فلـــيس بـــإليونٍ جنـــود وخشـــيتي تفاجئهـا الأعـداء فـي سِـنَةِ الكـرى

•••

فحســـبكم ذا القـــول منـــي مُرْشِـــدًا وإنـــي ببـــاقي الأمـــر أُنَبِّـــئُكُمْ غـــدًا

ســـأدعو وزفـــسٌ لا مـــراء وآلُـــهُ ينيلـــونني نصـــرًا فـــأظفر بالعـــدى

كــلابٌ بَغَوْنَـا فـوق سـود سـفينهم يســـوقهم داعـــي المنايـــا تعمُّـــدَا

فـأحيُوا الـدُّجَى والفجـرُ إن لاح نـورُه هَبَبْنَـــا وكَثَّفْنَـــا القنـــا والسَّـــنَوَّرَا٧٢

•••

تـرى أذيوميـذٌ إلـى السـور سـائقي أم الحتـفَ يَلقـى مـن حـدودِ مخافِقي

غـــدا ســـوف يبلـــو بأســـه وكـــأنني بـــه لـــورود الحتـــف أوَّل ســـابق

يُجْنَـدَلُ فـي صـدر الرجـال وحولـه صـناديدُ خـرَّتْ باصـطدام الفيـالق

فـــلا زارنـــي شـــيبٌ يُلِـــمُّ بعارِضِـــي ولا نظـرت عينـاي مَوْتًـا مُـؤَخَّرَا٧٣

•••

ويـا ليتنـــي أوتيـــت علمًـــا بسُـــؤْدُدِي كما قد وَثِقْتُ اليوم بالنَّصْرِ في غَدِ

وأعلُـو كمـا تعلـو أثينـا بمجـدِهَا وأسمو سُمُوَّ الشمس في كل معهد» ٧٤

فلما انتهى شَقَّ الفضاء ضجيجُهم لِمَا كان من وقع الحديث الْمُنَضَّدِ

وحَلّوا وِثَاقَ الخيل يُسْبِحُهَا العيا وشَدُّوا الْعُرَى قرب العِجَالِ تَحَذُّرَا

•••

وجاءت سمانُ الضأن في الحال والبقر وخمرٌ وخبز في المنازل مُدَّخَرْ

وأَوْرَوْا وقودَ النار تُعْلِي دخانَها إلى الجو ريحُ السهل تحت سنا القمر

ومن فوق هاتيك البطاح تألّفَتْ جُمُوعُهُمْ من حولها زُمَرًا زُمَرْ

جُلوسًا وشُكَّاكًا بصلد سلاحهم مدى الليل يرجون السناءَ المبشِّرا٧٥

•••

فبين السفين الراسيات وزَنْشُسٍ لوامع نيرانٍ بذاك الْمُعَرَّسِ

تُؤَجُّ لدى إليون في ألف مَقْبِسٍ يؤججها خمسون في كل مقبس٧٦

ودونهم بين العجال جيادهم وقوف على ذاك القضيم المكدَّسِ

شعيرٌ نَقِيٌّ فوق أسمر حنطةٍ بها مرحت حتى الصباح تفجَّرا

•••

كأن النجوم الغُرَّ والبدر ساطع بقُبَّةِ أفلاك السماء لوامع

مُؤَلّقَةٌ لا غيم يحجب نُورَهَا ولا رَهَجٌ حالٍ ذَرَتْهُ الزوابع

فتَنْعَكِسُ الأنوار في كل سبسب وغَوْرٍ ونجد والعيونُ هواجع

هوامش

(١) فصلنا في المقدمة أسباب تنويعنا النظم في ترجمة الإلياذة. وقد نحونا في هذا النشيد وبضعة أناشيد أخرى نحوًا جديدًا عسى أن يروق المطالع اللبيب: من محاسن لغتنا العربية اتساعُها لتأدية المعاني الفطرية وإن ضاقت دون الكثير من التعبيرات العصرية. وهي بهذا المعنى مخالفة للغات الإفرنج؛ فتَفْضُلُهُنَّ في التعبير الجاهلي والوصف الفطري القديم، ويَفْضُلْنَهَا في التعبير المدني والوصف العصري الحديث. ولهذا كانت أصلح منهنَّ لترجمة منظومة كالإلياذة كما أَبَنَّا في المقدمة. والداعي إلى هذا التنبيه افتتاح الشاعر نشيده بقوله: «كسا الجو وجه الأرض ثوبًا مزعفرا» فإن بعض نَقَلة الإفرنج استصعبوا تأدية هذا المعنى بلغتهم شعرًا؛ بناءً على أن لفظة الزعفران لا تقع وقعًا حسنًا في نظمهم، فاضْطُرُّوا إلى استبدالها بلفظة الوَرد وما ماثلها، فحادوا بالمعنى عن وضعه المقصود مع كل ما فيه من بلاغة التشبيه. فعربيتنا والحمد لله لا تضطرنا إلى مثل هذا التكلف. وشعراؤنا الأقدمون تفنَّنوا في وصف الطبيعة تفنُّنًا لم يسبقهم إليه السابق ولم يَفُقْهُمْ فيه اللاحق. ونفس هذا التشبيه وارد في الكثير من شعرهم. قال المعري وأبدع:

طلعتُ عليهم واليوم طفلٌ كأن على مشارفه جِسادا

والجساد هو الزعفران كما لا يخفى. وفي بيت المعري زيادة في المعنى على بيت هوميروس في هذا الموضع. ولكنه دون قول هوميروس في مطلع النشيد التاسع عشر إذ يقول:

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد   من يمِّه يبرز فوق العباد ... إلخ

وقد أراد الشاعر بالجساد الزعفران الأحمر دون الأصفر وهو كثير في بادية العرب.

قال المعري وهو يريد بلا ريب اللون الأحمر:

أقائـدها تغـص الجـو نقعًـا   وفـوق الأرض مـن عَلَـقٍ جسـادُ

وقـد أدمـت هواديهـا العـوالي   وأنضـبها التطـاول والطـرادُ

ومثله قول عنترة:

ومـا راعنـي يـوم الطعـان دهاقـةٌ   إلـى مثـل مَـنْ بـالزعفران يضـرجُ

وليس بقليل أيضًا ذكر الزعفران الأصفر في الشعر العربي كقول عبد الكريم النهشلي يصف الخيل:

وصـفر كـأن الزعفـران خضـابها   ومـن طـرر الأقمـار أوجههـا الغـرُّ

(٢) الاعتقاد بأن موضع العذاب مظلم مُدْلَهِمٌّ قديم في كثير من الأديان ولعل اليونان أخذوه عن المصريين.

(٣) لا صورة شعرية في كل منظومات هوميروس تناولتها أيدي الشراح تناولها لهذه الصورة البديعة. وقد رمى بها الشاعر على ظاهر العبارة إلى المغالاة بعظمة زفس واقتداره. فعلق بها المفسرون فقدحوا زناد الفكرة وتأولوها تآويل ضربوا بها كل مضرب. قال أفلاطون: رمز الشاعر بتلك السلسلة الذهبية إلى الشمس فبأشعتها يتماسك الكون وتحيى الطبيعة. وروى أفستاثيوس أن زفس في معتقد بعض الأقدمين إنما هو الجلد والسلسلة الشمس فإذا أمسك زفس بها عجزت الأرباب طُرًّا عن زحزحتها أما هو فلا أهون عليه من أن يجتذبها ويجتذبهم مع البِحار والأرضين ويُبْطِلَ حركة العالم كما أن الجلد يخفف الحرارة من أشعة الشمس ولولا ذلك لجفَّفت مياه البحار فتصاعدت بخارًا وطردت الرطوبة من جوف الأرض فوقفت حركة العالم وتلاشت كل قواه. وزعم الْقَدَرِيُّونَ أن المراد بزفس القضاء المحتوم لا مرد له مهما تَأَلَّبَ عليه من قوى السموات والأرض. وذهب آخرون إلى أن حلقات السلسلة عبارة عن أيام العالم تتعاقب بنور الشمس إلى أن تنتهي أما زفس وهو الجلَد فلا يعبث ولن يعبث به عابث ولا باعث. وجاء في الرموز الهوميرية لهيرقليذ أنه أشير بالسلسلة إلى دوران الكواكب حول الأرض. وارتأى پوپ عكس الرأي الأخير أي إن في تلك الصورة رمزًا إلى دوران الأرض والسيارة حول الشمس؛ فهوميروس إذن هو الذي أرشد كوبرنيك إلى معرفة النظام الشمسي. وهو قول بعيد الاحتمال بُعْدَ الشمس. ولو أذن

لنا أن نستنبط مغزى رمزيًّا لاستنبطناه وألقينا دلونا بين الدلاء ولكننا نعترف بالعجز عن إدراك مراد الشاعر لو كان في الأمر مراد خفي. وإذا توخى هوميروس الرمز في بعض أقواله جريًا على عادة أسلافه وقدماء المصريين فليس من اللازم أن يكون كل كلامه رمزًا ولغزًا. ثم إنه بصرف النظر عن التأويل والتفسير نراه قد أوضح رجحان زفس على سائر المعبودات ورسم لذلك الرجحان صورة شعرية يحار الشعور لتصورها فلِمَ نخرِّجها تخريجًا علميًّا ونُخسرها الرونق الشعري؟ ولِمَ لا نقول قول لوبريڤوست إن الشاعر لم يقصد بما قال إلا ما قال على ظاهره وكفى به إعجازًا وإيجازًا.

(٤) كان هوميروس يُدَوِّنُ أساطير زمانه ويتحرى صدق الرواية وكلامه الحجة الوثقى في تاريخ بلاده وآدابها وعلومها ومعتقداتها. ولقد مَرَّ بنا الجانب الأوفر من معتقدهم الخرافي ممَّا نبَّهنا عليه في مواضعه. على أننا لم ننبه إلى أنهم مع وفرة أضاليلهم كانوا يذهبون إلى أن العظمة والجلال والقدرة والكمال لإله واحد. فنسبة سائر الآلهة إليه كنسبة المخلوق إلى الخالق. ولا ريب أن هذا الاعتقاد قرَّب على أفهام عقبهم إدراك مواعظ بولس الرسول وهو يدعوهم إلى النصرانية ويُمَثِّلُ لهم من الربوة المحاذية للأكروبول في أثينا ومن مواقف أخرى عظمة الخالق ووحدته إذ يؤخذ ممَّا تقدَّم أنهم وإن كانوا مشركين كل الإشراك في الصورة فقد كانوا موحِّدين كل التوحيد في المعنى.

(٥) اليلامق، جمع يلمق: التروس وهي مُعَرَّبَةُ عن يلمه بالفارسية.

(٦) لم يكن أحد أحق من أثينا بالجواب على كلام زفس فالحكمة تلطف سؤرة الغضب وتخفف وطأة القضاء وإن لم ترده. ولو بقي الجميع صامتين لانقطعت حلقة ذلك المجلس.

(٧) كان كلام أثينا عبارة عن استعطاف واسترحام، فهش لها زفس وبش. ولا يخفى على المتأمل في كل أناشيد الإلياذة أن للدعاء والصلاة دخلًا فعالًا في تفريج الأزمات واستدرار الخيرات. وحيثما بُوشِرَ في أمر بلا صلاة ونذر فالعاقبة بلاء عميم وشر عظيم.

(٨) إن زفس على عظمته يشد جياده بيده إلى مركبته، وهنا إشارة إلى أنه لا يَكِلُ أمره إلى أحد.

(٩) غرغار أو غرغروس هو القمة الجنوبية من جبل إيذا في بلاد طروادة كانت مشهورة بخصبها وكثرة مياهها وهيكلها المقام لزفس واسمها الآن قازطاغ (جبل الأوز).

(١٠) لا يخفى أن معنى هذا البيت والبيتين التاليين مر في النشيد الرابع. ولا عجب إذا كلف هوميروس به فكرَّره وهو من مكررات الإلياذة التي وردت لِمَعَانٍ لا تكاد تقوم إلا بها. ولعل للحُفَّاظِ يدًا في تكرارها.

(١١) إن السبب في تقديس ضحوة النهار أو ما تقدم الظهيرة هو أنهم كانوا ينذرون ويقربون في خلال تلك المدة «أفستاثيوس».

(١٢) القسطاس الميزان. ليس هوميروس بأول من قال بوزن الحق لأعمال الخلق فهو مُعْتَقَدٌ قديم جاء مرارًا في نص التوراة واعتقاد اليهود وهو خير مميز يمثل به العدل ويتحقق به القسط حتى لقد يجعله النصارى في رسومهم من لوازم الحشر والمسلمون يعلمون أنه عز وعلا خلق الإنسان وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ

(١٣) يظهر من كلام هوميروس أن الكفة الراجحة ليست بالكفة الرابحة؛ والسبب في ذلك حسبما روى أفستاثيوس أن الأرض مقر الشقاء ودار الفناء فميلان الكفة إليها يؤدي إلى ما خلق عليها. وأما السماء فهي دار الحياة والهناء فارتفاع الكفة إليها نعيم وبقاء. هذا مُعْتَقَدُ اليونان بنص هوميروس والرومان بنص ڤرجيليوس. وقد فسَّر هوميروس ذلك في النشيد الثاني والعشرين إذ قال: إن كفة هكطور هبطت إلى الجحيم؛ أي إن

طالع سعده توارى وراء طالع نحسه. وأما الإسرائيليون



محارب يوناني.

فالظاهر أنهم اعتقدوا العكس كما يُسْتَفَادُ من سفر دانيال إذ قال دانيال لبلشصر: قد وزنت فوجدت خفيفًا (أو ناقصًا). وجرى ملتن في «فردوسه» هذا المجرى فجعل الكفة ترتفع بإبليس دليلًا على الخفة والخفة بعكس الرجحان مجلبة للذل والهوان. وليس في الإنجيل ما يثبت ذلك أو ينقضه. وأما المسلمون فيقرءون فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ وهو مطابق لاعتقاد الإسرائيليين.

(١٤) ما أحسنها وسيلة اتخذها الشاعر لاندحار الإغريق. لم يكن يجدر بهم أن يَلْتَوُوا لعدو هو دونهم دُرْبَةً وعددًا إلا أن تكون هناك قوة فوق قوة البشر فجعل التواءَهم لزفس دون الطرواد. ولم يكن زفس ليردهم على أعقابهم حتى ظهر بأعظم مظاهر عظمته وجبروته فأرعد من جانب الطور وأبرق، وأخذتهم الصعقة فكانت تلك الهزيمة لهم مجلبة عز وفخار لا مدعاة ذل وشنار.

وكأني بهوميروس لمَّا شرع في نظم هذا النشيد كانت قريحته مَلْأَى مما التقطه من الاعتقادات الْمُنْبَثَّةِ في مصر وسائر بلاد المشرق أخذًا عن العبرانيين ومن عاصرهم فنقلها مزيجًا مشوبًا بما خالطه من خرافات القوم؛ فالوحدة والميزان والإرعاد والإبراق كلها أمور ليست من مستنبطاته، والوعيد بطرح المرَدة من أعالي النعيم إلى درك الجحيم ليس إلا بقية اتصلت إليه من تمرد إبليس وإهباطه من الجنة.

(١٥) لقد نبهنا الشاعر بوقوف نسطور مُضْطَرًّا بقتل جواده إلى جملة أمور يجدر التنبه إليها. أولها: أن نسطور على عجزه وهرمه كان يقاتل كالفتيان أي إن الشيوخ لم يكونوا ليجتزءوا بموقف المشير الخبير بعيدين عن زعازع المعامع. والثاني: أنه مع انصباب الأهوال وضعضعة الأحوال لم يعدم نصيرًا يذود عنه ويخرج به حيًّا سليمًا؛ إشارةً إلى أنهم مع شدة الهول لم ينهزموا انهزام المرتاع أضاع شعوره وضل سبيله. والثالث: أن ذلك النصير المجير إنما كان الفتى الغض الشباب يقتحم مستبسلًا غمرات المنون، فلا هو بالمبالي بشديد المصاب ولا بالهياب من رعيد الأرباب.

(١٦) لم يكن أوذيس ليقف مثل ذلك الموقف الحرج وهو الكهل الداهية الذي كان أعرف الناس بسوء مصير المتمردين على الأرباب «فجد يسوق الخيل للفلك لا يعي».

(١٧) التبع: التابع.

(١٨) مر بيان ذلك في النشيد الخامس.

(١٩) هذا كقول النمري:

ومُصلتاتٍ كأن حقدًا منها على الهامِ والرقابِ

ومثله قول أبي تمام:

كأنما وهي في الأكباد والغةٌ وفي الكلى تجد الغيظ الذي تجدُ

(٢٠) أستنيل: حوذي ذيوميذ، وأفرومذون: حوذي نسطور، قفلا بمركبة نسطور.

(٢١) طَمَّحَ الْفَرَسُ: رفع يديه والمقصود هنا التَّجَفُّلُ.

(٢٢) لشعرائنا تصرف كثير بهذا المعنى. فمن ذلك قول أبي خراش:

مخافــة أن أحيــا بــرغم وذلــةٍ ولَلْمَوْتُ خيرٌ من حياة على رغمِ

أخذه أبو فراس فقال:

ولا خيـر فـي دفـع الـردى بمذلـةٍ كمــا ردهُ يومًــا بســوءته عمــرو

وأحسن منهما قول الحُصين بن الحُمام المرّي:

فلســت بمبتــاع الحيــاة بذلــةٍ ولا مُبْتَـغٍ مـن رهبـة المـوت سُـلّمَا

ولكــن خــذوني أي يــوم قــدرتمُ علــيَّ فحــزُّوا الــرأس أن أتكلمــا

(٢٣) الدرادنة قوم آنياس سكنة دردانيا وأقدم أبناء تلك البلاد. سُمُّوا بذلك نسبة إلى دردانوس بن زفس وإلِكترا. نشأ في أرقاديا وابتنى دردانيا في آسيا الصغرى وهي مدينة كانت على مقربة من الدردنيل وكلا الاسمين منسوب إلى دردانوس المذكور.

(٢٤) لم تكن كل صواعق زفس لتكبح جماح ذيوميذ حتى وقعت عليه صاعقة الفصاحة من منطق نسطور؛ فانثنى وما كاد ينثني بل كان المُنثني نسطور. وهذا منتهى غرائب الاستبسال من وجه وغاية عجائب الأقوال من وجه آخر، لقد اتفق الناس على أن مهرة المصوِّرين والرسامين استخرجوا من هوميروس الجانب العظيم من مواضيع صورهم. فتصوَّر الوقائع وصورها لهم بأبدع ما تتخيله المدارك، فرسموها عنه على أهون منال. وأي مثال لاشتداد أزمة الحرب أوقع في النفس من هذا المثال. هنالك زفس على قمة الطور مُتَّشِحًا بعدة الاقتدار مُسْتَلْئِمًا بشكة النضار تتعالى طوع أمره الغيوم المكفهِرَّة وتتوالى الصواعق المزمهرة فيستر مركبته منها بما شاء وينفذ باقيها إنذارًا بالويل والبلاء ويرعد ويبرق فيبدد قومًا ويشدد آخرين فينجو من فسح له في الأجل المقدور. وهنا هرم وقور وفتى جسور، يتحجب الأول لحول الأقدار، ولا يتهيب الثاني لهول الأخطار، يتدرع بالبأس ولو ريع كل الناس، وزُلْزِلَتِ الأرض زلزالها، تنقض الصاعقة بين قدميه، وتزبئر لها جلود الإنسان والحيوان، وهو كفلذة الحديد لا يحيد ولا يميد، إلى أن أدركه إرشاد ذلك الشيخ ببلاغته فنفذت فيه ولا نفوذ الآيات البينات، وارعوى لها ولا ارعواءَه لزعزعة الأرضين وتفتُّح السموات.

(٢٥) هذه أسماء جياد هكطور ومعناها على ترتيبها: الكُميت والطيار (سريع الخطى) والأشقر والساطع. ولا عجب إذا خاطبها

هوميروس؛ فالشاعر يخاطب الجبال والوهاد والحي والجماد، وأي موقع أحق بهذا الخطاب من بطل مغوار ثمل بخمرة الانتصار، وقد شام برق الأمل بالضربة القاضية على عدوه بعد أن عيل وقومه صبرًا وكادوا يهلكون؟ بل أي مقام أولى من هذا المقام بادِّكاره سابق عنايته وتحوطه بها ادخارًا لها لمثل هذا اليوم. وما أحلى تلك الذكرى لديه وهي ملازمة لذكرى أنذروماخ وبها يفدي كما رأيت أمه وأباه وإخوته وذوي قرباه والأرض ومن عليها، وكم من مثل لنا بشعراء جاهليتنا يخاطبون خيلهم وتخاطبهم كقول عنترة:

فقلت لمُهري والقنا يقرع القنا تَنَبَّـهْ وكـن مسـتيقظًا غيـر نـاعسِ

فجاوبني مُهري الكريمُ وقال لي أنا من جياد الخيل كن أنت فارسي

(٢٦) البُرُّ: الحنطة، ينبئنا هذا بما كان للخيل عندهم من المنزلة حتى تُعد بنات الملوك ونساؤهم علفها بأيديهن وبما كان من تحبب الزوجات المخلِصات إلى بعولتهن.

(٢٧) هي اللأمة التي غنمها من غلوكوس في النشيد السادس وكانت ذهبًا.

(٢٨) كان الآلهة الموالون للإغريق كثيرين ذوي صولة وبأس، ومع هذا فلم يكن منهم من يجسر على التصدر بطلب المدد لهم إلا

هيرا؛ ذلك لأنها زوجة زفس ودالة الزوجة فوق كل دالة، ولا سيما إذا كانت كما هيأ لنا الشاعر هيرا جريئة الجنان ذربة اللسان.

(٢٩) أليقا: مدينة عظيمة بناها يون من أجداد اليونان في بلاد الإخاءة وخربت بزلزلة. وإيغس: بُليدة كانت على مقربة منها وكان في كل منهما معبد لفوسيذ وتمثال عظيم.

(٣٠) المراد برفع هذا البُرْدِ الأحمر بيد زعيم القوم استلفات الأنظار لأمر جلل. وشيوخ باديتنا لا يزالون يتشحون بهذا البرد الأحمر ولعله بقية توارثوها من عهد الجاهلية وهو كما لا يخفى شعار الملك والسلطان.

(٣١) الخلية: السفينة العظيمة، والأشراع: جمعة شرعة وهي السفينة أيضًا، صرح الشاعر بالمراد من إرساء سفن إياس وآخيل على طرفي الأسطول بقوله: شدة وتبسلًا لأنهما أشد القوم بأسًا؛ فكان من الحكمة أن يكونا في أحرج المواقف. وأما إرساء سفن أوذيس في منتصف الأسطول فالحكمة فيه كما قال الشراح: أنه أدهى القوم وأخدعهم والحرب خدعة، فلزم أن يتوسط ليكون أقرب الجميع إلى الجميع ليسهل عليه بث الآراء والأخذ بالحنكة والدهاء.

(٣٢) لمنوس أو لمني: جزيرة في الأرخبيل الرومي تجمَّع بها جيش اليونان وهم قاصدون بلاد الطرواد، وقد اشتهرت بمرفئها، حتى إن اسمها يفيد معنى المرفأ. وليؤذن لنا أن نبدي ملاحظة وإن انحرفنا

بالبحث قليلًا: فالمينا للمرفأ في العربية واللومان والليمان للسجن ألفاظ مُعَرَّبَةٌ عن كلمة لمني اليونانية، فموضع الأخذ ظاهر لفظًا ومعنًى، وليس في مواد العربية ما يستخرج منه هذا المعنى. وأما اللومان فالسبب في استخراج اسمه من كلمة بمعنى المرفأ: أنهم كانوا يحجرون على الأسرى وبعض المسجونين في بعض الفرض أي في بعض المواني، فقولهم أُرْسِلَ فلان إلى المينا أو اللومان كقولهم أُرْسِلَ إلى سجن الثغر. ولقد بحثت في كتب اللغة فلم أر من وجَّه هذا التوجيه إلا أن «محيط المحيط» نبَّه إلى تعريب اللومان ولكنه لم ينبه إلى تعريب المينا.



آريس إله الحرب.

(٣٣) من كلام أحد الخلفاء العباسيين:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما عزَّ ممتنعًا عليهِ

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا وما من ذاك شيءٌ في يديهِ

(٣٤) الأرادم: الْمَلَّاحُونَ.

(٣٥) كان النسر أصدق الطيور في طِيرتهم. يفسره الشراح هنا بهكطور، والظبي بالرعدة أو الجيش المهزوم، وسقوطه قرب هيكل زفس إشارة إلى أن زفس يقيهم شر البلاء، وذو الوحي أو رب الوحي: لقب من ألقاب زفس لأنه في معتقدهم علَّام الغيوب لا يعلم منها سائر الآلهة والأنبياء إلَّا بإذنه، كانت الطيرة عندهم أشبه شيء بها عند العرب، وستأتي على البيان في النشيد الثاني عشر عند ذكر السانح والبارح. ولقد وهم من ظن أنها عقيدة عفت آثارها ولم يبلغ عصرنا إلا أخبارها، فهي لا تزال عند قبائل الطغة في الهند ولعل منشأها من تلك البلاد.

(٣٦) لما كان ذيوميذ آخر الْمُوَلِّينَ لم يكن يجدر به إلا أن يكون أول المُقْبِلِينَ. وهنا انقلبت حالة الإغريق من الإدبار والدفاع إلى الهجوم والإيقاع.

(٣٧) كان طفقير كما تقدم أخا إياس بن تلامون لأبيه وكان أرمى الإغريق كما كان فاريس أرمى الطرواد، ولقد رأى الشاعر ويا نعم ما رأى أن يُفْرِدَ لنا هنا نبذة في رمي النبال تنويعًا لمجرى القتال، فأبرز لنا طفقير

غير مدرَّع كسائر الجند يتوارى تحت مجن أخيه. ولقد ذهب أفستاثيوس وبعض الشراح إلى أنه برز كذلك لئلا تربكه اللأمة، على أنه يُستفاد من كلام هوميروس نفسه في النشيد الثاني أن الرماة لم يكونوا يستلئمون إلا إذا اضطروا للقتال في الطلائع كفاريس وإلا فهم في الغالب في الساقة بعيدين عن مشتجر الرماح وقرع السلاح فلا حاجة بهم إلى حمل ثقيل هم عنه في غنى.

(٣٨) لم يكن شاعرنا — وهو أعلم الناس بعواطف الناس — ليجهل أن تلاوة قصص الحروب تقسي القلوب؛ فلهذا تراه يلطفها حينًا بعد حين بكناية أو رواية أو تشبيه رقيق يهيج العاطفة ويلين تلك الخشونة، وحسبك مثالًا هذا التشبيه الذي يسحق تلك الصلابة ويرتفع بالفكرة من حضيض المشقة والمخاوف إلى سماء الرقة والعواطف. وإنه ليعجزك من وجه آخر أن تحكم أالفخر لطفقير بسداد مرماه وكيد أعدائه أم لأياس الذي أسبل عليه ذلك الستر المنيع، كانت العرب تترامى على هذا النمط في بعض الأحوال فيترس فارس لفارس، فقد جاء في أخبارهم أنه لما كانت الواقعة بين توبة بن الحمير وثور بن أبي سمعان كان عبد الله أخو توبة يترس له كما كان إياس يترس لطفقير. (أغاني ج ١٠: ٧٠).

(٣٩) لقد نطق أغاممنون بما يجدر بكبار القواد، ولم يُغْضِ من شأن طفقير بذكر نسبه على مسمعه؛ لأنه لم يكن يعيبهم أن يكونوا أبناء السبايا، بل ربما كان في الأمر زيادة فخر ببأس آبائهم، إذ لم يكن يسبي

السبايا إلا كل قرم باسل، وأم طفقير طروادية من خيرة الطرواد وهي ابنة لومذون وأخت فريام، سباها هرقل وكانت سهم تلامون جزاء بسالته وإبلائه، فطفقير إذن يوناني الأب طروادي الأم.

علمت مما تقدم من خطاب أغاممنون لخريس الكاهن في النشيد الأول أن السبابا مهما شَرُفْنَ أصلًا وعَلَوْنَ قدرًا كُنَّ في أحوال كثيرة بمنزلة الإماء ولكن هذا الغض من قدرهن لم يكن ليحط من شأن ولدهنَّ بخلاف أبناء الإماء عند العرب؛ فإنهم إنما كانوا بمنزلة العبيد الأرقاء كأمهاتهم إلا إذا أنجبوا وأَتَوْا أمرًا عظيمًا. وهذا عنترة بن شداد فارس العرب القائل عن نفسه:

أنا العبد الذي خبرت عنه

قضى زمن صباه وهو عبد أبيه لا ابنه ولم يحسبه في عداد أبنائه بعد إتيانه المعجزات حتى اضطر إلى استنفاره في يوم شدة فقال له كلمته المشهورة: «كرَّ وأنت حر». راجع ما قلناه بهذا الصدد (ن١) حيث أَبَنَّا ما كان للإسلام من الفضل في رفع شأن السبايا. قال مسكين الدارمي:

وكـائن تـرى فينـا مـن ابـن سـبية ... إذا التقـت الخـيلان يطعنهـا شـزرًا

فمـا زادهـا فينـا السـباءُ مذلـةً ... ولا خبـزت خبـزًا ولا طبخـت قـدرًا

ولكــن خلطناهــا بخيــر نســائنا ... فجـاءت بهـم بيضًـا غضـارفة زهـرا

(٤٠) المنصة قطعة مما كان يتهادى به سيأتي وصفها في النشيد التاسع.

(٤١) الطروح: القوس الشديدة القذف البعيدة المرمى.

(٤٢) شهم سرية: أي سيد قومه.

(٤٣) الكناية والتشبيه بالكلب للشتيمة والاحتقار مما ورد غير مرة في الإلياذة. وإن ثقلت هذه اللفظة على آذان بعض النقلة فليعلموا أن الشتم والتحقير لا يكونان باللفظ الرقيق والكلام الرشيق. قال الأخطل:

أيشتمني ابن الكلب أَنْ فاض دارمٌ عليه ورادي صخرة ما يَرُومُهَا

(٤٤) السرية السهم والنصل.

(٤٥) بمغفره: أي بخوذته، حسبنا أن نستلفت نظر القارئ إلى هذا التشبيه فهو يشرح عن نفسه ما لا يناله قلم الشراح.

(٤٦) صرَّح: أخطأ؛ أي إن أفلون حوَّل السهم عن هكطور.

(٤٧) لا يظل القارئ يعجب لإخطاء طفقير هكطور مرارًا متوالية مع كل رمايته إلى أن يبلغ هذا البيت؛ فيعلم أن الواقي شر تلك السهام إنما كان أفلون رب السهام.

(٤٨) كان قبريون ابنًا طبيعيًّا لفريام فهو إذن أخو هكطور لأبيه.

(٤٩) اللجيف المقذذ: السهم الحاد وأوفقه أي وضعه بالفُوق وهو فرض القوس.

(٥٠) المريش: السهم الملصق عليه الريش ليحمله في الهواء.

(٥١) أي أصابه الحجر في عِرْقِ عنقه المتصل بالصدر كما جاء في البيت السابق.

(٥٢) يكبكب: يصرع. والأغضف: الكلب الكبير، إن هذا التشبيه مع ما يظهر فيه من أثرة هوميروس لقومه بديع في نفسه يمثل تلك الهزيمة وذلك التعقب أصدق تمثيل يناله التصور، ولا سيما إذا عرف القارئ أنهم كانوا يُضَرِّئُونَ الكلاب لذلك العهد كما يضرئونها اليوم في بوادي أواسط آسيا وكردستان والعجم وبعض بادية العرب، فتنقض على وحوش الفلوات ولا انقضاض الليوث. فإذا ذُعرت السباع للنباح والصياح ولَّت مدبرة ولكن إدبار الباسل الحذر، فتلتوي حينًا بعد حين محدقة بالفريسة والرعاة والحماة. وما أحسن ما قال بهذا المعنى أوس بن حجر وهو يصف الثور الوحشي والكلاب تتبعه:

ففاتهنَّ وأزمعن اللحاق به ... كأنهنَّ بجنبيه الزنابيرُ

حتى إذا قلت نالته أوائلها ... ولو يشاء لنجته المشابيرُ

كرَّ عليها ولم يفشل يمارسها ... كأنه بتواليهنَّ مسرورُ

يشلها بذليق حده سلبٌ ... كأنه حين يعلوهنَّ موتورُ

ثـم اسـتمرَّ ببـاري ظلـه جـزلًا   كأنـه مرزبـان فـاز محبـورُ

وعلى هذا فلا يدري القارئ أيكبر اقتحام الطرواد أم انهزام الإغريق وهذه خطة جرى عليها الشاعر في أكثر إنشاده، فهو مع إعظامه بسالة الطرواد فميلُه إلى الإغريق بَيِّنٌ حتى في وصف انكسارهم واندحارهم. ولقد لامه بعض الشراح على هذا الميل ولا أرى اللوم سديدًا لأنه لما كان الإغريق أوفر عددًا وأكمل عُددًا، وكان لا بد لتقهقرهم من باعث قوي كان لا بد من التماس عذر لهم وإلا لظهروا بمظهر الأنكاس الجبناء.

(٥٣) الدانويون: الإغريق على ما تقدم.

(٥٤) لما يئست هيرا من معاضدة فوسيذ انثنت إلى أثينا ولم تشرع أولًا باستنفار أثينا لأنها كانت على ثقة من انحيازها إلى الإغريق.

(٥٥) تحرير هذه الأحدوثة أن زفس كان أقسم بتولية مُلك أرغوس وميكينيا لأول مولود يُولَدُ في زمن معلوم. وكان راميًا بضميره إلى هرقل ووالدته إذ ذاك في شهرها التاسع. فاحتالت عليه هيرا واستوثقت منه بقَسَمٍ أنه ليبرنَّ بيمينه ثم أولدت والدة أفرستَ للشهر السابع من حملها قبل مولد هرقل فاضطر زفس إلى توليته الملك وكان هرقل من جملة أتباعه. فخشي أفرست صولة هرقل وألقاه باثنتي عشرة تهلكة ففاز هرقل ونجا منهنَّ جميعًا. تلك خرافة سابقة لعهد هوميروس ذكرها هنا

وفي النشيد التاسع عشر على أنه لم يذكر من الاثنتي عشرة مكيدة التي كِيدَتْ لهرقل إلا انحداره إلى الجحيم لاقتياد كلب أذيس. وكاد حينئذٍ يهلك لو لم تبادر أثينا إلى إغاثته بأمر زفس.

(٥٦) تقبيل الركبتين للاستعطاف لا يزال معمولًا به في بادية العرب وبعض البلاد الشرقية، مرَّ بك أن ثيتيس أم آخيل كانت تود أن تثقل الوطأة على الإغريق إعلاءً لشأن ابنها وأخذًا بثأره منهم فإذا رجع إليهم بعد ذلك ونُكبت الأعداء كان كل الفضل فضله.

(٥٧) السرية: الكتيبة من الجيش، والترائك: جميع التريكة وهي الخوذة، وهياج الترائك: صفة من صفات هكطور لأنه كان إذا اشتد حرك رأسه يمنةً ويسرةً فتتراوح عذبات خوذته.

(٥٨) لا سبيل إلى توجيه خطاب أثينا وكلهُ عتوٌّ وعصيان إلا أن يقال إنها إنما تكلمت بسائقة الهمة لا بسائقة الحكمة لأنها تمثل الحكمة والبأس معًا. أو أن يقال أنها انخدعت لكلام هيرا وقد يُخدع الحكيم.

(٥٩) لقد وردت معاني هذه الأبيات في النشيد الخامس.

(٦٠) لا بدع أن يشتد سخط زفس على أثينا دون هيرا، فتلك ربة الحكمة ويُنكر على الحكمة أن تأتي أمرًا إدًّا. وهذه زوجة مَثَّلَهَا الشاعر كثيرة الدلِّ قليلة الانقياد وقد ألف زفس تمردها فما هو بالمتأثر

لها ذلك التأثر. إذ يسخطك من العاقل ما لا يسخطك من الجاهل وإنما تعظم عليك فعلة العظيم.

(٦١) إيريس كما رأينا رسولة الآلهة عمومًا وزفس خصوصًا فطارت بأمره إلى الأولمب لأنه كان لا يزال على إيذا.

(٦٢) تجاوزت إيريس حدها في إبلاغ الرسالة إذ زادت عليها كلامًا لم يفُه به زفس. فكأنها ملكتها فرصة للتشفي من أثينا لحزازة في صدرها أو لعل كل هذا البيت دخيل وهو في الأصل بيتان.

(٦٣) لم تكن طاعة هيرا عن رغبة واختيار بل عن رهبة واضطرار، وما وقفت عند حد الخضوع بل أعلنت ما لا تُكِنُّ. وذلك شأن المخاتل الذي لا يسير في سبيل سَوِيٍّ. وهي على ما ترى باتت لا تبالي بأوليائها الإغريق والحقيقة أنها إنما قالت ما قالت مداهنةً ورياءً يشهد عليها قولها وفعلها في ما يلي. أما أثينا فكفى بِصَمْتِهَا دليلًا على سمو عاطفتها فهي تأبى أن تبوح بما لا تفكر وتخشى أن تناضل حيث لا يجدي النضال.

(٦٤) الساع أو الساعات كناية عن الفصول والأوقات كما مر في النشيد الخامس وقد جَسَّمَهُنَّ الشاعر كجاري عادته.

(٦٥) هذا نفس الكلام الذي نطقت به أثينا في مبتدأ هذا النشيد، وقد التمس بعض الشراح للشاعر أعذارًا لا أراها بموقع سداد.

ولا أخال العذر معقولًا إلا أن تكون هيرا أرادت التستر بكلام أثينا علمًا بمكانتها في نفس زفس وإلقاءً لتبعة التمرد عليها فأرادت الإيهام بأنها تابعة غير متبوعة. أما زفس فلم ينخدع وأجابها بغير جوابه لأثينا.

(٦٦) المخافق: السيوف.

(٦٧) ينبئنا الشاعر هنا بما سيكون، ولا أوقع من أن يكون هذا النبأ من لدن زفس. وقد اختلفت آراء الشراح في ما أشبه هذه الأنباء. فمن مُدَّعٍ أنها تذهب بجانب من رونق القصة لعلم القارئ بها. ومن قائل بالعكس أنها تزيد طلاوة السياق بما تزيد من تشوق المطالع إلى الإتيان تفصيلًا على ما أُشير إليه بالإيجاز.

(٦٨) قرونس هو زحل، خلعه ابنه زفس وأنفذه إلى أعماق الطرطار أو الجحيم يقيم مع الطيطان أو الأبالسة. ومنهم يافت بن أورانوس وأبو الأطلس. ومنهم هيفريون أبو الشمس والقمر والفجر ولم تظهر كلمة هيفريون في التعريب لأنها في الأصل تفيد معنيين: فإما أن تُعْتَبَرَ الكلمة بلفظها علمًا فيقال: الشمس ابن هيفريون (على تذكير الشمس) وإما أن تُعْتَبَرَ بمعناها فيقال: الشمس الساترة فوقنا وقد اخترنا المفاد الثاني.

(٦٩) مظهر: منصور.

(٧٠) كل بلدة ذات معابد شهيرة كانت تُدْعَى قدسًا ومقدسة.

(٧١) كانوا يعتقدون أن حصون إليون من أبنية الآلهة كما مر.

(٧٢) السنوَّر: الدروع. قال لبيد العامري:

وجـاءوا بـه فـي هـودجٍ ووراءَهُ كتائب خضر في نسيج السَّنَوَّرِ

(٧٣) دعاءٌ لنفسه بالخلود مع دوام الشباب.

(٧٤) تمنى أن يكون واثقًا ببلوغه مجد أثينا وسمو الشمس ثقته بما سينال من النصر المبين، وهذا منتهى التحمس والادعاء، يُشعر من خطاب هكطور بالفرق بين حكم الإغريق وحكم الطرواد فهنا الأمرة المطلقة بكل عواملها وهناك الشورى بكل فضائلها وإن كان الأمر للملوك. ثم إن هكطور مع كل حماسته وحسن سياسته لا يذهل لحظةً عن يقينه وعبادته فهو الجندي الخالص العقيدة يوقن أن النصر من عند ربه يؤتيه من يشاء.

(٧٥) في بعض نسخ الأصل أربعة أبيات هنا رأينا أن نُغْفِلَهَا اتباعًا لمن أغفلها ومفادها أنهم ضحوا بالضحايا المئين فلم تقع لدى الآلهة موقع القبول لما استقر في نفوسهم من كراهة إليون وملكها وملته. ولا نظنها إلا دخيلة في النسخ التي أثبتتها لأن اندحار الإغريق في ما يلي يدل على أنها ليست في موضعها.



قرونس —— زحل.

(٧٦) يستفاد من عدد المقابس أنهم كانوا خمسين ألفًا ويدخل حلفاؤهم في هذا الإحصاء؛ لأن أرصاد اليونان طرقت في الليل معسكرًا واحدًا عسكر فيه الطرواد وحلفاؤهم. فجيشهم إذن دون نصف الإغريق عددًا.

(٧٧) اتفق الشراح على الإعجاب بهذا التشبيه حتى قال بعضهم: إنه أرق ما جادت به قريحة شاعر في وصف بهاء الليل. إلا أن بعضهم اعترض أن القمر وهو بدرٌ لا تنجلي الكواكب حوله للنظر؛ ولهذا ذهبوا إلى أن الكلمة في الأصل لا تفيد البدر بل القمر على الإطلاق. ولو فطن الشاعر لهذا الاعتراض أو أراد أن يعبأ به لما زاد وصف الساطع على القمر فَسِيَّانِ إذن عنده أن يكون بدرًا أو لا يكون. وعلى هذا فإن في التعبير تسامحًا قد يشفع له سمو التصور وبلاغة الوصف.

قال البحتري وكأنه أراد معارضة هوميروس:

وحسن دراريِّ الكواكب أن تُرى طوالع في داجٍ من الليل غيهبِ

ومثله قول جرير بهذا المعنى:

سرى نحوهم ليلٌ كأن نجومه قناديل فيهن الذبال المُفَتَّلُ

وقول مسكين الدارمي:

وأقطع الخرق بالخرقاء لاهيةً إذا الكواكب كانت في السما سُرُجا

ومثله قول امرئ القيس:

نظرت إليهم والنجوم كأنها مصابيح رهبان تُشَبُّ لقفَّالِ

النشيد التاسع
إرسال الوفد لاسترضاء آخيل

مُجْمَلُهُ

وهنت عزائم اليونان بعد اندحارهم في اليوم السابق ففاوض أغاممنون الزعماء وارتأى العودة إلى الأوطان، فعارضه ذيوميذ ثم نسطور فأقاموا الحرس وأولم أغاممنون للزعماء. فقام نسطور فيهم خطيبًا يحثهم على استرضاء آخيل بالاعتذار والهدايا، فأذعن أغاممنون لكلام نسطور وأتى على تعداد ما يعد من التحف لآخيل على شريطة أن يرعوي ويلين. فأرسلوا وفدًا إلى آخيل برأسه أوذيس فخفُّوا إليه وألفوه ينشد على نغم قيثارته. فاحتفى بهم وأَوْلَمَ لهم، ولما فرغوا من الطعام خطب أوذيس في مجلس آخيل فذكره بوصايا أبيه وأطمعه بوعود أغاممنون واستحلفه أن يرفق بقومه الإغريق وإن كان موغر الصدر على أغاممنون. فما كان من آخيل إلا أن استشاط حنقًا وأبى الإقدام على الحرب لمعاضدة الإغريق. فانبرى أستاذه فينكس وأعاد عليه ذكر صباه وما كان له من العناية به حتى أصبح بمثابة ابن له، وأطال من الاسترضاء والاستصغار والالتماس والاعتذار وتلاه آياس الأكبر فلم يغنهم كل ذلك من شيء بل ظل آخيل مصرًّا على عناده. فعادت الرسل واستقص أغاممنون منهم الخبر فأنبَئوه

بما كان، فانتصب ذيوميذ وكلمهم كلامًا هاج حميتهم فصرفوا النظر عن آخيل ونزعوا إلى الراحة والهجوع.

يستغرق هذا النشيد والنشيد التالي ليلة واحدة ومشهد وقائعه على جرف البحر عند مرسى السفن.

النشيد التاسع[1]

تَمَنَّعَ في الطرواد يخفُر جندُهم وفرط الأسى والبث هد الأخائيا

يُساق لهم من موقف الخلد رعدة يلازمها داعي الفرار مباريا[2]

وتخفُق أحشاهم كما اللّجُّ خافق إذا لقي البحر الرياح السوافيا

ومن بطن إثراقا دبورٌ وشمأل معًا هبَّتَا فيه هبوبًا مفاجيا[3]

فتركُم دُهْمُ الموج من فوق يَمِّهِ وتقذفها حتى تجوزَ الشواطيا[4]

وأتريذ والتبريح ينتاب لُبَّهُ يطوف بهم يدعو الدعاة تواليا

ويأمر بالشورى بأن يهمسوا بها بأسمائهم للصِّيد واجتاز عاديا

وبلغ صدر الجند حتى إذا بَدَوْا جلوسًا وصمت الحزن بَرَّحَ باديا[5]

على قدميه قام والدمع هامرٌ تدفَّق من عينيه كالسيل هاميا

كشؤبوب ماءٍ شُقَّ من قلب صخرة وفي زفرات الحزن صاح مناديا

«أحبَّاي والأقيال والصيد خلتُني رماني زفسٌ في حبائل آتيا

وقد كان والاني بإيماء رأسه بأنَّا بإليونٍ نَدُكَّ المراميا

ولا ننثني للأهل إلا بسَبْيِهَا فمانَ وما أغراه فيما رمانيا

فقدتُ صناديد الرجال وقد قضى
علـيَّ إلـى أرغـوسَ أرجـعُ خاسـيا

نعم ذاك أمرٌ شاءه الآمر الّذي
يُقَـوِّضُ أركـان الـبلاد العواتيـا

فهَيُّـوا أطيعـوني الهزيمـةُ مغـنمٌ
بعودتنـا إنـي أرى زفـسَ قاضـيا

وأصـدقكم وعـدًا يقينًـا فلـن نـرى
معاقـل إليـونٍ رُكامًـا فوانيـا»٦

أصاخوا وطال الصمت فوق وُجُومِهِمْ
فصـاح ذيوميـذٌ أخـو البـأس عاليـا

«شـطت أَأَتْرِيـذٌ وأول منكـرٍ
لقولـك ذا لا تَحْـنَقَنَّ أرانيـا

فـذا حـق شُـورانا وقبـلُ بهمتـي
عَبِثْـتَ وقـد أعلنـتَ عزمـيَ واهيـا

بـذا شـهد المـردان والشـيب جملـةً
علـى أن زفسًـا قسَّـم الـرزق وافيـا

فلـم تـؤت بـأس الكـفِّ والبـأس أولٌ
وأوتيـت فخـر الملـك والعـزِّ ثانيـا٧

أأحمـق هـل خلـتَ الأراغـس أُوهِنُـوا
فإن رمت عَـودًا دونك السبل هاهيا

وذي السفنُ اللائي عزمت بِهِنَّ مِن
مِكِينَـا تراهـا بالجـدود رواسـيا٨

وسـائرُنا لـن نبـرحنَّ بأرضـنا
إلـى أن نـرى هـذي الحصـونَ بواديـا

وإن آثَـرَ الكـلُّ انهزامًـا وعـودة
فـإني وَأَسْـتِينِيلُ نكفِـي الأعاديـا

نقـاتلهم حتـى نفـوزَ بـدكها
وينصـرني ربٌّ لحـربٍ دعانيـا٩

فضـجت لـه الإغريـق ضـجة مُطْرَبٍ
وقـام بهـم نسـطور يخطـب تاليـا

«سـموتَ ذيوميـذٌ ببأسـك مثلمـا
برأيك بالأتراب قد كنت ساميا١٠

فمـا لـك فـي الإغريـق لومـةُ لائـم
ولكـنَّ فصـل القـول مـا زال خافيـا

فأنت فتًى لو قيس عمرك لم يكن
لأحـدث أبنـائي الصـغار مسـاويَا

على أنك اخترت الحصافة منهجًا وصيد السُّرَى خاطبتَ بالحق عانيا
وإني وحسبي الشَّيْبُ دونك مفخرًا سيجمع أطراف الحديث كلاميا
ولن ألتقي بالقوم حتى زعيمِهم أخي المجدِ أَتْرِيذٍ لقولي لاحِيا
فلا شرع لا مأوى ولا أسرة لمن بِفِتْنَتِهِ في القوم يُفسد عاثيا ١١
فقد خيم الليل البهيمُ فهَيِّئُوا طعامكم ولنُحْكِمَنَّ التصافيا
ويخفُر من فتياننا حرسٌ على حفير خططناه لدى السور صاحيا
لك الأمر أتريذٌ أقمهم وأولمن لشيبك منهم تأخذ الرأي شافيَا
فخيمُك فاضت بالرحيق تسوقه سفائن إثراقا بها جاء ضافيا
وعندك ما تبغي لخيرِ وليمة وعدةُ غلمان تناهت تناهيا
وعند التئام القوم تجمع رأيهم وتتبع ما قد كان بالقصد وافيا
فما أحوج الإغريق للرأي والعدى أُوَارُهُمُ أضحى لدى الفلك واريا
فَلَيْلَتُنَا هذي وَوَا حَظَّ من رأى سنَهْلِكُ فيها أو ننالُ الأمانيا» ١٢
أصاخوا ولَبَّوْا ثم هبَّت خفارةٌ بشِكَّتِهَا منهم تَجِدُّ المساعيا
يقودهم من نخبة الجند سبعة ثَرِيسِيمُ نسطورَ الملقب راعيا
وَيَلْمِينُ عَسْقَالَافُ مِنْ وِلْدِ آرِسٍ وَمِرْيُونُ ذِيفِيرٌ كذاك أَفَارِيَا
وَلِيقُومُ قُرْيُونٍ وكلٌّ مُؤَمَّرٌ على مئة منهم تَقِلُّ العواليا
فحلوا انتظامًا بين سور وخندق وأَذْكَوْا لإعداد الطعام المذاكيا ١٣
وأتريذُ وافى بالشيوخ لخَيْمِهِ لمأدَبة فاضت طعامًا مُوَافِيَا
فلما بأيديهم قَضَوْا من أمامهم وكلُّ الظما والجوع أُجْلِيَ نائيا

بـدا مـن بهـم فـاق اختبـارًا وحكمـةً نبـــيلهم نســـطور يخطـــب باديـــا
«أَأَتْرِيـذُ مـولى الصيـد أول مـن جـرى وآخــر مــن يجــري إليــه مقاليــا١٤
توليتَ مـن زفـس عصـا الملـك واليًا شعوبًا سمت عَدًّا ونِلْتَ المعاليا١٥
لـك الـرأي والإصـغاء والأمـر تنتقـي بآرائنـــا مـــا شـــئت تأتيـــه راضـــيا
وتنفـــذ قـــولًا قالـــه أيُّنـــا إذا مضـى عـن فـؤادٍ ظـل بـالخير سـاعيا
فرأيـي أرانـي لسـتَ تـؤتى نظيـره ومـا هـو فـي ذا الحـين جـالَ بباليـا
أردّدُهُ منـــذ اســـتلبت أخيلَنـــا بَرِيســا علــى رغــم الأراغــس باغيــا
تـولَّاك كيـد الـنفس كبـرًا فلـم تُصِـخْ لحُكْمِـي وقـولٍ فيـه جئتُـك ناهيـا
وقمـتَ وأغلظـتَ المقـال لسـيد سـما شـرفًا حتـى بنـي الخلـدِ راقيَـا
ومهمـا يكـن مـن بُعْـدِ مَنْـآهُ فلنجـدْ ســبيلًا لنستصــفيه يــأتِ مصــافيا
نلـــينُ لـــه قـــولًا بـــه نَسْـــتَلِينُهُ ونُتْحِفُـهُ منَّـا الصـلات السَّـوانيا»١٦
فقـال أغـاممنون: «أخطـأتُ إنمـا أصـــبتَ بتثريبـــي ولســـتُ بمنكِـــر
فـإن فتًـى زفـس اصـطفاه وزادنـا وبـــالًا لِمَنْـــآهُ يُقـــاسُ بعســـكر
عَثـا بـي داعـي الشـر حتـى أهنتُـه وعَلِّـــيَ إن أســـتغفر الـــذنبَ يغفـــرِ
ســـأُتحفه غُـــرَّ الهـــدايا وكلكـــم شـهود علـى قـولي بحافـل محضـري
مناضـد سـبعًا لـم تـرَ النـار جُـدَّدًا وعشـرين طَسًّـا سـاطعاتٍ لمنظـر١٧
ومــن ذهــبٍ يغلــو شــواقل عشــرة وخيـرَ جيـاد تُحْـرِزُ السـبق ضُـمَّرٍ١٨
فيحرزهـا اثنَـيْ عَشْـرَ أجـرد سـلهبًا حبتني كُنُوزًا في السباق المُكَرَّرِ١٩

كنـوزًا إذا مـا نالهـا أيُّمـا امـرئٍ ترفـع عـن شـكوى شـجيَّةٍ مُعْسِـرِ

وسـبع غـوانٍ فُقْـنَ حسـنًا وصـنعةً من الـلاءِ فـي لسبوس نـال بـأبترِ ٢٠

وقـد كُـنَّ لـي سـهمًا وذلـك عنـدما تـولى عليهـا بالطِّعـان المـدَمر

كـذاك بَرِيسَـا مُقْسِـمًا ومُـثَقِّلًا بـأني إليهـا القـربَ لـم أتصـور

فهـذي صِـلاتي اليـوم يُحْرِزُهَـا وإن ننـل دَكَّ إليـون بحكـم مُقَـدَّرِ

نضـارًا وصـفرًا يُـؤْتَ مـلءَ سـفينةٍ وعنـد اقتسـام السَّـبْيِ بالغيـد يظفـرِ

بعشـرين حُسـنًا فُقْـنَ غيـر هِلَانَـةٍ لـه بانتقاهـا خيـرةُ المتخيـر

وإمـا رجعنـا للخصـيبة أرغُـسٍ يكـونَنَّ صِـهْرِي بالمقـام الْمُـوَقَّرِ

يُجَـلُّ كأورسـتَ الحبيـبِ الـذي نشـا بأرغـد عـيشٍ فـي يسـار مُـوَفَّرِ ٢١

ثـلاثٌ بنـاتي هـن أَخْرِيْسَـثِيْمةٌ ولَوْذِيـقُ أَفْيَانَـاسُ مـن يـرضَ يَخْتَـرِ

ولسـت ببـاغ مهرهـا وأزيـدُها جدًا لـم يجُد فيه أبٌ منذ أدهر ٢٢

فينزلهـا فـي دار فـيلا وفـوق ذا مـدائن سـبع فـوق بَـرٍّ معمـر

فـريس النقـى إيـرا الزهـور وإنْيُفـا وقَـرْذَمِلا أنْثَـا الفجـاج المنـوِّرِ ٢٣

وإيفيـةُ الحسـناءُ فيـداسُ كرمـةٍ إزاء فلـوسَ الكـلُّ فـي جُـرْفِ أَبْحُـرِ

يُجَـلُّ بأهليهـا كـرَبٍّ خُطُـورَةً ويؤتونـه جَـمَّ الخَـراج المُقَـرَّرِ

غنيمًـا وأبقـارًا تنـاهَى عديـدُها فتلـك هِبَـاتِي فَلْـيَلِنْ ثـم يحضُـر

فكـلُّ مَغِـيظٍ غيـر آذِيـسَ يرتضـي لذاك قلاهُ الخلقُ عن شر مخبر ٢٤

كفـى حنقًـا مـذ كنـتُ أعظـمَ رِفْعَـةً وأكثـر أيامًـا ليَـذْعَنْ ويُقْصِـرِ» ٢٥

فقـال لـه نسـطور: «يـا سـيد الـورى أجـل جُـدْتَ فيمـا لا يهـان ويُسْـتَقَلْ

فهــيِّ بنــا نَــدْعُ الــدعاةَ ليــذهبوا … لخيمــة آخيــلِ بْــنِ فِـيلا بـلا مَهَــلْ

أنـــا أتنقَّـــاهم ففيـــنكس قائـــد … لهـم معـه يمضـي أياسُ الفتـى البطـلْ

كذا المُجْتَبَى أُوذِسْ وفَيْجَانِ هُذْيُسٌ … وأُورِيـبَطٌ وَلْنَغْسِـلَنَّ علـى عجـلْ٢٦

وبالصـمت فَأْمُرْ نَسْتَغِثْ زفسَ علّه … يرق» فضجَّ الجمع واستصوب العمل

فصب على الأيدي الفُيُوجُ قراحُهم … وفتيـانهم بـالخمر فـي أكـؤس تُقَـلْ

يَمُــزُّونَ منهــا طافحــاتٍ وبعــد ذا … يــديرونها دَوْرًا بكلهـــم اتصـــل٢٧

ولمَّــا أراقوهــا علــى الأرض قربــة … وفـوق مـرام الـنفس رشـفُهُم اكتمـل

عدا رسلُهُم من خيمة الملك عاجلًا … فقلّـب نسـطور بهـم محـدِق المُقَـلْ

وحَـــثَّهُمُ فــــردًا ففـــردًا وسِــــيَّمَا … أُذِيسَ ليسترضُوا أخيل الذي اعْتَزَلْ

فســار رسـولَا القـوم فـيمن تلاهمـا … على جَدِّ بحرٍ عَجُّ أمواجِه اقتتلْ٢٨

محـــيطَ البرايـــا يســـتغيثان عَلَّـــهُ … يُبَـدِّدُ حقـدًا بـابن آيـاك قـد نـزل٢٩

ولمــا إلــى خــيمِ الْمَرَامِــدِ بُلِّغَــا … إذا بأخيـل يُطْـرِبُ الـنفس عـن ملـلْ

بقيثــارةٍ غنــاءَ قــد شــاق صُــنْعُهَا … يُـــنَغِّمُ فـــي ذكـــر الجبـــابرة الْأَوَلْ

بقـــوس لُجَـــيْنٍ طُوِّقَـــتْ وأُنِيلَهَـــا … من الكسب مُذْ في دَكِّ إِيتُونَةَ استقلْ

يقابلـــه فَطْرُقْـــلُ بالصـــمت ريثمـــا … مليًّا تطيب النفس من ذلك الزجل٣٠

إذا بـــأُذِيسٍ يـــرئِسُ الوفــد داخــل … ففـي دَهَـشٍ مـن فـوق مجلسـه انتقل

وفـي يـده القيثـارة انسـاب ناهضًـا … كـذلك فَطْرُقْـلٌ علـى القـدم امتثـل

فصـافحهم قـال: «السـلام ومرحبًـا … فـلا شـك وافيـتم لأمـر لكـم جَلَـلْ

ومهمـا يكـن مـن نفرتـي فَلَأَنْـتُمُ لآخيـل أدنـى مـن يَـوَدُّ ومـن يُجَـلْ»

وأجلسـهم مـن فـوق فُـرْش تَـدَبَّجَتْ بِبُسْـطٍ مـن البِرْفِيـرِ نـادرة المثـل

وقـال لِفَطْرُقْـلٍ: «عليـك إذن لنـا بـأكبر دَنٍّ وَلْـتَفِضْ قِسْـمَةً الْجُعْـلِ

بكـأس لكـلٍّ مـن قـراح مَلِيَّـةٍ فمن تحت سقفي خير رهطٍ وَدَدْتُ حَلْ

فبـادر فَطْرُقْـلٌ وآخيـلُ عامـدٌ إلى وَضَمٍ قرب اللهيب الذي اشْتَعَلْ[31]

ومـد عليـه صُـلْبَ كـبشٍ وسَـخْلَةٍ كذا صُلْبَ خِرْنَوْصٍ سمينٍ لهم قَتَلْ

وَأَفْطُوْمِـذُوْنٌ ممسـكٌ وهـو خـازل ويـنظم فـي تلـك السـفافيد مـا خـزل

وفَطْرُقْـلٌ ذو الهمَّـات يضـرم وقـده إلـى أن لهيـب النـارِ بُـدِّدَ واضـمحلْ

فألقى على الجمرِ السفافيد تحتَها قـوائمُ والملـحَ الـذكيَّ بهـا جبـل٣٢

ولمـا اسـتتم النضـجُ مـد سـماطَه وثَـمَّ قفـاعَ الخبـز فَطْرُقْـلُ قـد حمـل

لكـل مـن الأضـيافِ قـدَّم قَفْعَـةً وآخيـلُ توزيـعُ اللحـوم بـه اشـتغلْ

تُجـاهَ أُذِيـسٍ جالسًـا لرفيقـه أشـار فباسترضـاءِ آل العلـى اسـتهلْ

فللنـار ألقـى خيـر لحـمٍ ضـحيةً ومُـدَّتْ أيـاديهم وكُلُّهُـمُ أَكَـلْ٣٣

ولمـا انتهـوا آيـاسُ أومـأ داعيًـا فنِكْسَ فأُوذِيسٌ أحاطَ بما سألْ٣٤

ففـي كأسـه صَـبَّ الْمُـدَامَ مُـرَدِّدًا بها نخبَ آخيلٍ ومن ثَمَّةَ ارتجلْ: ٣٥

«سـلامٌ أخيـلٌ لا بحاجـةِ مطعـم نُـرَى فلـدينا خيـر زاد مُيَسَّـرِ٣٦

ففـي خَـيْمِ أَتْرِيـذٍ يفـيض شَـهِيُّهُ وعنـدك منـه كـلُّ أطيـبَ أفخـرِ

وما الآنَ آنُ القول في طيب مأكلٍ وقـد راعنـا وقـع الـبلاء الْمُـدَثِّرِ

وإنـا لفـي ريـبٍ بـأمر سـفيننا أتَهْلِـكُ أم تنجـو إذا لـم تُشَـمِّرِ

فقد عسكر الطرواد في حلفائهم لديها وقد أَوْرَوْا لهيبَ مُسَعَّرِ
يلوح لهم أنَّا وَهَيْنَا وأنَّنَا سنلقى عليها حتفنا بِتَقَهْقُرِ
وذا زفس أورى البرقَ فوق يمينهم دليلًا به يشتد ساعد هَكْطُرِ
فأصبح لا يَرْعَى إلهًا خلافه ويرمقنا طُرًّا بعينِ مُحَقِّرِ
ويدعو فتاة الفجر تَبْرُزُ عاجلًا ليقطع أطراف السفين ويبتري٣٧
ويَذْكِي بها النيران ثم إزاءها يُذَبِّحُ كلَّ العسكرِ المتضوِّرِ
تَحَدَّمَ غيظًا واستشاط وخَشْيَتِي يُتَاحُ له فوزٌ فيفرِي ويفتري
ونهلِك في منأًى عن الوطن الذي غَذَا الخيل في مرجٍ من الروض أخضر
فهُبَّ ابن فيلا إن ترُم نصر قومِنَا وإن يكُ جلَّ الخطب واشتدَّ وانبري
ستندم لكن لاتَ حين ندامة فذا الحين حين الكر والذب فافكِرِ
أما قال فيلا يومَ فارقْتَ إفثِيا إلى جيش أتريذٍ: «بُنَيَّ تَبَصَّرِ
أثينا وهيرا تُولِيَانِكَ نُصرةً إذا شاءتا لكن على جاشك اصبرِ
فبالحلم كل الخير والفتنة اطّرِحْ رعاية كل الشيب والمُرْدِ تذخر»
نعم ذاك قولٌ قاله الشيخُ إنما تناسيتَه فاذعن وقومَك فانصرِ
وعِ الآن قولي إذ أَعُدُّ نفائسًا سَيَحْبُوكَ أتريذٌ بأعظم مظهر
مناضدَ سبعًا لم ترَ النار جُدَّدًا وعشرين طَسًّا ساطعاتٍ لمنظر
ومن ذهبٍ يغلو شواقِلَ عشرة وجُرْدَ جيادٍ تَأْلَفُ السبق ضُمَّرِ
فتحرزها اثني عشْر أجردَ سلهبًا حَبَتْهُ كُنُوزًا في السباق المُكَرَّرِ

كنوزًا إذا ما نالها أيُّمَا امرئٍ   ترفَّع عن شكوى شجيةٍ مُعْسِرِ

وسبع غوانٍ فُقْنَ حُسنًا وصنعةً   من اللّاءِ من لَسْبُسْ سَبَيْتَ بأبترِ

وكُنَّ له سهمًا وذلك عندما   تَوَلّيْتَهَا تحت الطعان المدمر

كذاك بريسًا مُقْسِمًا ومُثَقَّلًا   يقول إليها القربَ لم يَتَصَوَّرِ

فهذي صلاتُ اليوم تُحْرِزُهَا وإنْ   نَنَلْ دَكَّ إليونٍ بحكمٍ مُقَدَّرِ

نُضارًا وصفرًا تُؤْتَ ملءَ سفينة   وعند اقتسام السبي بالغِيدِ تظفر

بعشرينَ حسنًا فُقْنَ بعد هِلَانَةٍ   تَحُزْ بانتقاها خيرةَ الْمُتَخَيِّرِ

وإمَّا رجعنا للخصيبة أرغُسِ   يرومك صهرًا بالمقام الْمُوَقَّرِ

تُجَلُّ كأُورِسْتَ الحبيب الذي نشا   بأرغدِ عَيْشٍ في يَسَارٍ مُوَقَّرِ

ثلاثٌ بناتُ الْمَلْكِ أَخْرِيسَثِيمَةٌ   ولَوْذِيقُ أَفْيَانَاسُ من ترضَ تخترِ

وليس بباغٍ مهرها ويزيدُها   ندًى لم يَجُدْ فيهِ أَبٌ مُنْذُ أَدْهُرِ

فتُنزلِها في دار فِيلا وفوق ذا   مدائن سبعٌ فوق بَرٍّ مُعَمَّرِ

فِرِيسُ التَقَى إيرا الزُّهُورِ وإِنْيُفَا   وقَرْذَمِلَا أَنْثَا الفجاج الْمُنَوَّرِ

وإيفيةُ الحسناءُ فيداسُ كرمةٍ   تجاه فِلُوسَ الكل في جرف أبحُر

تجل بأهليها كَرَبٌّ خطورةً   وتُحْرِزُ مذخور الخراج المقرَّر

غنمًا وأبقارًا تناهى عديدها   فتلك الهدايا فاترك الغيظَ واحضُر

ولكنما إن كنتَ أَشْرِبْتُ بغضَه   وإن تزدري هذي الهباتِ وتسخر

فرقَّ لقوم سوف تُحْرِزُ رفعة   كربٌ لديهم أُحْرِجُوا في المعسكر

ونَلْ ذروةَ المجد الرفيع مخلّدًا   بمقتل هكطورَ الفتى الباسل الجري

إليـــك تـــدنَّى حانقًـــا مُتَوَهِّطًـــا ويزعم ما في القوم نِدٌّ به حَرِي»٣٨

قـال آخيـلُ: «يـا أذيـس المـؤانسْ لـــيَ فاســـمَعْ فـــإنني لا أُلَابـــسْ

لـــي مقـــالٌ فلـــن أحـــولنَّ عنـــه فَعِـــهِ واطـــرحنَّ عنـــك الوســـاوسْ

مـــن يقـــل غيـــر مـــا تَـــيَقَّنَ فِكْـــرَا كـان عنـدي مـن الجحـيم أَشَـرَّا٣٩

فالـذي قـد أَسْـرَرْتُ هـاكم جهـارًا لجميـــع الإغريـــق لســـتُ بنـــاكِسْ

مـــا بأَتْرِيـــذَ والأغـــارِقِ جَمْعًـــا مَنْ حُقوقَ الأبطال بالحقِّ يَرْعَى٤٠

فَلَـــدَيْهِم ســـيَّان قـــرمٌ عنيـــد وجبـــانٌ عـــن الـــوغى متقـــاعسْ٤١

ولـــديهم ســـهم الفتـــى الصـــنديد مثـــلُ ســـهمِ الهيابـــة الرعديـــدِ

والـــردى يحصـــدُ الجميـــعَ ســـواءٌ متقي الهول والجسورُ الحمارِسْ٤٢

أيَّ نفـعٍ جنيـتُ مـن قهـرِ نفسـي واقتحـــام الأهـــوال فتكًـــا ببأســـي

كنـــت كـــالطيرِ للفـــراخ يُـــوَافِي بطعـامٍ عـن نفسـه هـو حـابس٤٣

كـم ليـالٍ أحييـتُ كـم مـن نهـار باصـــطكاك القنـــا أثـــرت أُوَارِي

كـل هـذا حفظًـا لعـرضِ نسـاكُم ولكم خُضْتُ فادحات الدَّرَاهِسْ٤٤

إثنتـــي عشْـــرة مـــدائنَ بحـــرًا نِلْـــتُ ثـــم الطـــرواد أأقلقـــتُ بَـــرَّا

حيـــث عشـــرًا وبلـــدة ثـــم دَمَّـــرْ تُ ومنهـا قسـرًا سـلبتُ النفـائس٤٥

ولأتريـــذَ سُـــقْتُ كـــلَّ الغنـــائم وَهْـوَ بـين السَّـفْنِ بـالأمن قـائمْ

فحبـــا الصـــيد والقُيـــول يســـيرًا وبِجُـلِّ الأسـلاب قـد ظـلَّ آنِـسْ

إنمـــا مـــن جمـــيعهم مـــا اســـتردَّا أنـا مـن دونهـم بسـهمي اسْـتَبَدَّا٤٦

وإلـــى زوجتـــي اســـتطال فدعْـــه   يتمتــــع بقربهــــا وينـــــافسْ٤٧

فعـــلام الإغريـــق هـــاجوا ومـــاجُوا   وبحـــرب الطـــرواد ثـــار العَجـــاج

أفمـــا فـــي اطِّـــلَابِ هيلانـــةٍ قـــد   جـــاء أتريـــذ بالكُمَـــاةِ القَـــوَامِسْ٤٨

كــــل شــــهم لِعِرْسِــــهِ يَتَــــوَدَّدْ   لــــم يكــــن ذا بِــــالْأَتْرِذَيْنِ مقيــــدْ

وبعرســـي أنـــا كَلِفْـــتُ وإن لـــم   تـــكُ إلا مـــن الســـبايا العطـــامس٤٩

إن أتريـــذَ غَـــلَّ ســـهميَ مِنِّـــي   مثلمـــا غرَّنـــي فلـــن يخـــدعني

بـــك أُوذِيـــسُ والملـــوكِ لـــدرء الـــ   ـــضَّيْمِ عنـــه فليعقـــدنَّ المجـــالسْ٥٠

بَعْـدَ بُعْـدِي كـم جـاء أمـرًا خطيـرًا   رفـــع الســـورَ ثـــم مَـــدَّ الحفيـــرَا

ثـــم شـــاد الأبـــواب لكـــن أراه   مـــن لقـــا هَكْطُـــرَ المـــدمر راعـــسْ٥١

قـــطُّ مـــا جـــاز هكطـــر الـــزانَ قـــبلَا   لا ولا بـــاب إِسْـــكِيَا اجتـــاز فعـــلَا

بـــل إزاءَ الحصـــون ظـــل يُبـــاري   عنـــدما كنـــتُ فـــي صـــدور الفـــوارس

للقـــائي بـــالحرب يومًـــا تـــربصْ   كـــاد يُصْـمَى لكـــن نجـــا وتملَّـــص٥٢

بيـــد أنـــي لا أَبْغِـــيَنَّ لـــه بعْـــ   ـــد كفاحًـــا فـــالعود بعـــد الحنـــادسْ٥٣

فلـــــزفس وســـــائر الأربـــــاب   سأُضَـــحِّي غـــدًا قبيـــل المـــآب

وإذا شـــــئتمُ ارْقُـــــبُنَّ ســـــفيني   جُسْـنَ قلـبَ العُبـاب أيَّ جوائسْ٥٤

بثقيـــل الأحمـــال تمخـــر مخـــرا   وبهـــا الأردمـــون تخـــرق بحـــرا٥٥

وإذا شـــاء فُوسِـــذٌ ثالـــث الأ   يَّـــام فـــي إِفْثِيَـــا رَسَـــوْنَ أَوَانِـــسْ

فبهـــا قـــد غـــادرت مـــالًا وفيـــرًا   وإليـــــه أضـــــم كســـــبًا كثيـــــرًا

ذهبًــا ســـاطعًا حديـــدًا وصـــفرًا والســـبايا ذات القـــدود المـــوائسْ

كـل هـذا أحـرزت سـهمًا حـلالًا وأغـــــاممنون أجـــــاز وغـــــالًا

أبلغـــوه قـــولي جَهـــارًا ليُخْـــزَى إن رأى بعـــد أن يـــدسَّ الدســـائسْ

وهـــو مهمـــا عتـــا ولـــم يتهيَّـــبْ ذل عـــن أن يـــدنو ووجهـــيَ يقـــرَب

لا يـــرومن بعـــدُ قـــولي وفعلـــي لا يُطِيلَنَّ لي الحديث الخُلَابِسْ٥٦

وَلْيَسِـــــيرَنَّ للهـــــلاك ثبـــــورَا إن زفسًـــا أبـــاد منـــه الشـــعورا

هـــو عنـــدي كشـــعرة باحتقـــارٍ وأنـا كُـلَّ مـا بـه جـاد بـاخسْ٥٧

لـو حبـاني عشـرًا وعشـرين مِـثْلًا للـــذي رام والـــذي حـــاز فعـــلًا

أو حبـاني مـا قـد حـوت أرْخُمِينَـا أو حوت طِيبَةُ القصور الطوائسْ٥٨

تلـك فـي مصـرَ رحبـة الأبـواب مئـــةٌ قـــد علـــون مثـــل الروابـــي

مئتـــا فـــارس علـــى مركبـــات وخيـول فـي كـل بـاب حـوارسْ٥٩

أو حبـــاني عـــدَّ الهبـــا والرمـــال لـــن أحـــولَنَّ عـــن بعيـــد اعتزالـــي

لـــن أحِلّـــنَّ وســـط ناديـــه حتـــى شـر عقبـى يلقـى لتلـك المـدانس

بنتُـــه لـــو كَعَفْرُذِيـــتَ ســـناءً أو أثينـــا الجـــلال كانـــت ذكـــاء

لـــن أرومَنَّهَـــا فغيـــري يلقـــى مـن يُجَـارِي هـواه بـين الأراغـسْ

فـــإذا عـــدت ســـالمًا لِـــبِلَادي ثَـــمَّ فِـــيلَا كُـــفْءٌ لكـــل مـــرادي

فَبِهِـــيلَاذَةٍ وفـــي إِفْثِيَـــا عنـــ ـــدَ الصـــناديد لا تَقِـــلُّ العـــرائس

أَتَنَقَّـــى مـــنهن مـــن أتمنـــى وبزاهـــــي جمالهـــــا أَتَهَنَّـــــا

تلـــك لـــي زوجـــةٌ حـــلال تلينـــي في رياش الشيخ الجليل المُـؤَانِسْ

لا يوازي الحياة مالٌ توفر ... ضمن إليون قبل سوق المعسكر

لا ولا كُلُّ ما بِفِيثُسَ في هَيْـ ... ـكَلِ فِيبُسْ رب السهام الطوامسْ٦٠

يتسنَّى بالسيف كسب عجول ... وغنيم مناضد وخيول

إنما النفس لا تعود إذا جا ... زت خلال الأسنان يوم الدلامسْ٦١

أنبأتني ثِيتِيسُ أمي حقًّا ... أنني للردى سبيلين ألقى

خالدَ المجد بعد موت قريب ... أو طويل الحياة والذكر طامسْ٦٢

ذاك فيما إذا طلبت الطعانا ... ثُمَّ هذا إن أبتغي الأوطانا

ومرامي حَثُّ الأراغِسِ طُرًّا ... أن يَئُوبُوا إلى الديار نواكسْ

فاذهبوا أخبروا الأَخَاءَةَ جدًّا ... لن تنالُنَّ بالطراود قصدًا

زفسُ ألقى على القلوب يد الأمـ ... ـنِ وبالنفس ظل من فوق حارس

أبلِغُوا والبلاغ شأن الشيب ... ينظروا في خلاف رأيٍ مصيب

فعساهم ينجون إذ أخطأوا في ... طلبي لست بينهم قَطُّ دائس

وفنكسٌ هنا يبيت وإمَّا ... رام عودًا معي غدًا فَنِعِمَّا

بسفيني سأقلعنَّ يقينًا ... عند طَرِّ الصباح غير مُلايِسْ»٦٣

فاستتم الحديث والقومُ طُرًّا ... بوجوم خالوا التصلبَ مرًّا

ثم فينكس والدموع هوامٍ ... لاشتداد الوبال قال مُصِرًّا: ٦٤

«إن تكن عن تَحَدُّمٍ واحتدادِ ... راغبًا عن لقاء جيش الأعادي

وطلبت المآبَ يا ابني المُفَدَّى ... كيف ألقى على بِعَادِك صبرا

فمعــي قــد بُعِثْــتَ للحــرب لمَّــا رام فـــيلا تَـــؤُمُّ أتريـــذَ قـــدمَا٦٥

باعتنـــائِي أُنْمِيـــكَ فَعَّـــالَ فِعْـــلٍ وخطيبًـــا قـــوَّالَ قـــولٍ أَبَـــرَّا٦٦

يانعًـــا كنـــت جـــاهلًا للطِّعَـــانِ حيــث تبــدو شــجاعة الشُّــجْعَانِ

وكـــذا جـــاهلًا مفـــاوض شُـــورا نــا وفيهــا يعلــو أخــو الــرأي فخــرَا

لا فلـــن أَلْبَـــثَنَّ عنـــكَ بعيـــدَا لـــو حبـــاني رَبٌّ شـــبابًا جديـــدَا

ومحـــا شَـــيْبَتِي فعـــدتُ كَيَـــوْمِ فيــه أَبْحَــرْتُ مــن هِــلَاذَةَ قَسْــرَا

يــوم مــن فــرط غــيظ آمِنْطُــورِ فــرع أُرْمِــينَ والــدي وأميــري٦٧

هاربًـا جئـت مُـذْ سـعيتُ إلـى جـا ريـــةٍ رام رغـــم أُمِّـــيَ نُكْـــرا

فأشـــارت أمـــي بهـــا لـــيَ حتـــى تَمْقُـــتَ الشـــيخ إن رأتنـــيَ مَقْتَـــا

وعلـــى ركبتـــيَّ صُـــغْرًا ترامـــتْ فأطعـــتُ الهـــوى ولَبَّيْـــتُ أمـــرا

فـــدرى بـــي أبـــي وبـــاللعن مـــالَا وبنـــاتِ الـــرَّدَى اســـتغاثَ وقـــالَا

«ركبتيــــهِ لا يَعْلُـــــوَنَّ غـــــلامٌ كـــان منـــه» وقـــام ينـــذُر نـــذرَا

فاسـتجاب الـدعاء زفسُ الجحـيمِ وفُرْسُـــفِينُ هـــول كـــل عظـــيم٦٨

فحـدا بـي غيظـي فكـدت أوافيــ ــه بســـيفٍ يَبْتَـــتُّ بطنًـــا وظهـــرَا

إنمـــا راحَ بعـــض آل الخلـــودِ يُخْمِـدُ الغـيظ مـن فـؤادي الحديـدِ

خشـيةً أن يقـال مـا بـين قـومي ذلكـــم كـــان قاتـــل الأبِ كِبْـــرَا

غيــر أنــي أَنِفْــتُ طــول المقــام ضـــمن صـــرحٍ فيـــه أبـــي باحتـــدامِ

بيـــد أن الخُـــلَّانَ والأهـــل رامـــوا بالتمـــاسٍ أن لا أغـــادِرَ قصـــرا

ذبحـوا للشِّـوَا العجـولَ السِّـمانا والخنـــانيص فـــي لظـــى بُركانـــا٦٩

وخِرافًا وخمرة الشيخ صَبُّوا | بأباريقه وطابوا مقرَّا

وأقاموا حولي ليالي تسعًا | إن ينم واحدٌ فآخر يسعى

ولدى باب غرفتي وبباب الـ | ـدَّارِ لم يُطْفِئُوا مدى الليل جمرا

غير أني بِعَاشِرِ الأيام | والدياجي قد خيَّمت بالظلامِ

فَلِأَبْوَابِ حجرتي عامدًا قُمـ | ـتُ وقد أوصدت فكسرتُ كَسْرَا

وعلى الفور جُزْتُ باب الدَّارِ | خافيًا عن نَوَاقِدِ الأبصار

وطلبت الفرارَ في بَرِّ هِيلَا | ذَةَ أعدُو لإِفْئِيَا مستمرًّا

فلقيتُ المليك فِيلَا الحليما | وعليه نزلت ضيفًا كريمَا

وَدَّنِي وُدَّ رَبِّ مالٍ وفيرٍ | بتناهي المشيب أنتج بِكْرَا

فحباني مالًا وشعبًا كثيرَا | وبقوم الذَّولُونِ قُمْتُ أميرَا

لك وُدِّي من ثَمَّ تدري تناهى | وبجُهدي بلغتَ ما أنت قدرَا

لم تكن ترتضي بغير طعامي | جالسًا فوق ركبتي وأمامي

أقطع اللحم باعتناءٍ وأَعْطِيـ | ـكَ بِكَفِّي هَذِي وأسقيكَ خمرَا

ولكم قد قذفتَ من فيك راحًا | فَبَلَلْتَ الثِّيَابَ مني مِزَاحًا ٧٠

ولكم قد أجهدتُ بالقهرِ نفسي | ولكم قد لقيتُ بالجهد قهرَا

عالمًا كنت أنَّ آل الرشادِ | حرموني من لَذَّةِ الأولادِ ٧١

فبك ابنًا قد رُمْتُ آخيلُ حتى | تدفع العارَ إن عراني وتَدْرَا

فاكظم الغيظ لا تر الحقد أبقَى | إن نفس الأرباب تَذْعَنُ رِفْقَا ٧٢

ولهـــم ذروة الفضـــائل والمَجْـــ ـــدِ وبــأس الــذراع فــالرفقُ أحــرى
إن يقــم خاشــعٌ لهــم يتضـــرعْ فالضــحايا والنــذرُ والخمــر تشــفعْ
إن زفسًــا بناتُـــه الصـــلوات الـــ ـــلَّاءِ تعـــدو ورِفْقَـــهُ تَتَحَـــرَّى
هــن عُــرْجٌ جُعْـدُ الوجـوهِ وحُسْـرُ يَتَعَقَّـــبْنَ زلـــةً حـــين تعـــرو
إنمـا زلـةٌ لهـا السـبقُ مـذ كـا نـت خطاها أشـد وقعًـا وأجـرى٧٣
تنهـبُ الأرضَ حيـث تُلْقِـي الوَبَـالَا يَتَتَبَّعْنَهَـــا فَيَشْـــفَيْنَ حـــالَا
فالـــذي عنـــدما يوافينـــه يُبْـــ ـــدِي احترامًـا فعنـه يـدفعنَ ضُـرًّا
إنمـا الويـل للـذي صـدَّ صـدًّا فَلِـــزَفْسَ يَعُـــدْنَ يطلُـــبْنَ رِفْـــدا
يتطلـــبن زلـــةً منـــه تُهْمِـــي فـــوق ذاك العـــاتي وبـــالًا أَمَـــرَّا
فـــاتَّقِيهِنَّ يـــا آخيـــلُ احترامَـــا يَتَّقِـــيهِنَّ كـــل قِـــرْمٍ تَسَـــامَى
ويقينًـــا لـــو أن أتريـــذ لـــم يُسْـــ ـــدِ الهـدايا الغـراء تُـذْخَرُ ذُخْـرَا
أو توانى عن ذكر ما سوف يُسْدَى بعـد هـذا أو ظـل يشـتدُّ حقـدَا
لـم أَرُمْ منـك نُصرة القـوم مهما اشْـ ـتَدَّ فـيهم وقـع الرَزِيَّـةِ عُسْـرَا٧٤
إنمـــا الآن قـــد حبـــا وســـيحبو مُرْسِـلًا فـي بلاغِـهِ مـن تُحِـبُّ
فخيـار السَّـرَاةِ جـاءوك فـاذعَنْ وخُـذِ الآنَ مـن بلاغـي ذِكْـرِي:٧٥
قـد أتانـا عـن سـالف الأبطـال عنـدما الغـيظُ كـادَ صـدرَ الرجـالِ
أنهـــم بـــين نَيْـــلِ غُـــرٍّ الهـــدايا والتمـــاسٍ كـــانوا يلينـــون صُـــغْرَا
وبـــذكراي حـــادثٌ مَـــرَّ قِـــدْمَا هـــاكَمُوهُ كمـــا جـــرى وأَلَمَّـــا
ذاك لما الكُوريـتُ ثـاروا علـى الإيـ ـتُولِ والحـرب وقعهـا اشـتدَّ حَـرَّا

تحـــت أســـوار قَالِـــذَوْنَ تلاقَـــى ذلـك الجمـعُ واسـتباحوا الشـقاقَا

فترامـــى الْكُورِيـــتُ يَبْغُـــونَ فتحًـــا وترامـــى الإيتُـــولُ يَخْشَـــوْنَ غـــدرًا

ذلــكَ الخطــبَ أرطمــيسُ أثــارتْ حنقًــا مــن وِينَــاسَ والحــربُ ثــارتْ

إذ تغاضَـــى عـــن أن يُقَـــدِّمَ بـــاكو رَةَ زرع لهــــا وأغفــــلَ بِـــــرًّا٧٦

والضـــحايا المئـــاتِ لمـــا أتاهـــا لجميـــع الأربـــاب أذكـــى ســـواها

غفلـــةً أم تغـــافلًا كـــان منـــه ذلـــك الأمـــر إنمـــا كـــان وزرًا

فأثـــارت بـــالغيظِ خرنـــوصَ بِـــرٍّ لأراضـــيه حيـــثُ عـــاث بكبـــرِ

بعُتُـــوٍّ يجتـــثُّ أصـــلًا وفرعًـــا ويُبيـــدُ الأشـــجارَ غصـــنًا وزهـــرًا

فـــابن وِينَـــاسَ مِيلِيَغْـــرُ التقـــاه قـــاتلًا بعـــد أن أعـــد سُـــرَاهُ

مـــن بـــلاد الجـــوار رهـــطَ رُمـــاةٍ بكـــلابٍ لِتَـــذْعَرَ الـــوحشَ ذُعْـــرًا

رائعًـــا كـــان لـــم يكـــن باليســـير صَـــدُّهُ فـــي ســـلاحِ نَـــذْرٍ يســـيرِ٧٧

قتلـــوه مـــن بعـــد قتـــلِ كثيـــرِ واســـتتب الشـــقاق مـــن ثَـــمَّ جهـــرًا

بنـــزاعٍ يبغُـــون رأسًـــا وجِلْـــدًا ذاك مـــا أَرْطَمِـــيسُ رامَتْـــهُ حِقْـــدًا

وبهـــم طالمـــا سَـــطَا مِيلِيَغْـــرُ نـــال قـــومُ الإيتـــول فـــوزًا ونصـــرًا

فالأعـــادي ولـــو يزيـــدون عـــدًّا مـــا اســـتطاعوا أن يبلغـــوا الســـور حـــدًّا

إنمـــا الغـــيظ وَهْـــوَ يعبـــثُ بالعُـــ ـــقَّالِ بالكيـــدِ منـــه أوغـــرَ صَـــدْرًا

فأثارتـــــه نفـــــرةً واحتـــــدامًا أَلْثِيَـــا أُمُّـــهُ فعـــافَ الصِّـــدَامَا

وبـــــذاتِ الجمـــــال إِكْلِيُبَطْـــــرا زوجِـــه قـــد خـــلا وعـــافَ المَكَـــرَّا

(أمُّها غادة العُلَى مَرْفِيسَا | من بناتِ الْمَهِيبِ إيفِينُوسَا
وأبوها إيذاسُ أعظم قَرْمٍ | كان ذاك الزمانَ في الأرض طُرًّا
صال حتى على أَفُلّونَ لمّا | رام مَرْفِيسَ منفذًا فيه سهمَا
أبواها من ثَمَّ قد لَقَّبَاهَا | أَلْكِيُونَا لحادثٍ كان مُرَّا
حيثُ مَرْفِيسُ فِيبُسٌ قد بغاها | مثلَمَا قبل أَلْكِيُونَا سباها
فبكت تَلْتَظِي بشدة بؤسٍ | ودعت بِنْتَهَا كذلِكَ ذِكْرَا)٧٨
حانقًا مِيلِيَغْرُ من ثَمَّ ظَلَّا | عندها نار سُخطِه يتصلّى٧٩
ذاك مذ أَلْثِيَا لقتلِ أخيها | أوسعته لعنًا وشتمًا وزَجْرَا٨٠
تضرب الأرض حِدَّةً بيديها | ثم تدعو سخطًا على رُكْبَتَيْهَا
وأَذِيسًا وفُرْسُفِينا تنادي | أن يذيقا ابنَها حمامًا أشرَّا
لإرينيسَ في دجى الظّلُمَاتِ | بأريبا انتهى صدى الصلواتِ٨١
ثم قضَّ العدى الحصونَ وفي الأبـ | ـوابِ عَجَّ العجاجُ طعنًا ونحرَا
فإلى مِيلِيْغَر شيبُ البلاد | بعثوا بالكهان لاستنجاد
وَعَدُوهُ خمسين فدانَ حقلٍ | حيثما شاءَهَا وكرمًا أَغَرَّا
وَوِنَاسٍ الشيخُ الجليل أبوه | جاثِيًا عند بابِه يرجوه
والشقيقاتُ أَلْثِيَا نفسها والصحبُ | والأهلُ وهو يزداد نَفْرَا
ظلَّ حتى ببابه الحرب شبَّتْ | خُرِقَ السور ثُمَّةَ النارُ شَبَّتْ
فتبدَّت لديه زوجتُه الْمَيْـ | ـسَاءُ للرفق منه تسألُ عُذْرَا
وتريه كم من وبالٍ تُعَانِي | بلدةٌ ذُلِّلَتْ بِحَرِّ الطِّعَانِ

للمبـــاني حَرْقًــا وللقَـــوْمِ ذَبحًـــا والغـــواني والْوُلْـــدِ ذُلًّا وأســـرَا٨٢
رَقَّ وارتـــدَّ يَرْفُـــدُ الصَّـــحْبَ رَفْـــدَا شَــكَّ وَاشْــتَدَّ وَالْعِــدَى صَــدَّ صَــدًّا
ولهـــذا مـــا نـــال غُـــرَّ الهـــدايا ولــئن كــان ســام أعــداهُ كَسْــرَا
صــاحِ قُــمْ لا تكُــن كــذاك عنــادا قبــل أن تَلْهَــبَ الســفينُ اتِّقَــادَا
والهــدايا فاقبــلْ وسِــرْ معنــا يُعْــ ــــلُوكَ طُــــرًّا مقـــامَ رَبٍّ أَبَــــرًّا
فــإذا جئــت عــن مرامــك آنِــسْ لصـــدامٍ بـــه تُـــزِيحُ الـــدراهِسْ٨٣
لـــن يُنيلـــوك مـــا أنـــالوك تَـــوًّا لـو تُبِيـدُ الأعـداءَ بَـرًّا وبَحْـرَا»٨٤
قـال آخيـل: «أيهـا الشـيخُ صـبرَا لـــيس بـــي حاجـــة لمـــا تَتَحَـــرَّى
إن زفسًـــا أجلَّنِـــي وســـيحمي سُــفُنِي بــي مــا دمــتُ بــالعيش آنِــسْ
هـاك فصـلَ الخطـابِ لا تُهْـمِ دَمْعَـا وتَسُــمْنِي فــي حُــبِّ أَتْرِيــذَ صَــدْعَا
لا تُحِبَّنَّـــــهُ وأنـــــت حبيبـــــي إن تكـــن مـــن محبَّتِـــي غيـــر بـــائس
فـــاقْلِيَنَّ الـــذي قلانِـــي حتمَـــا ومعـي احكُـمْ أشَـاطِرَنَّكَ حُكْمَـا٨٥
هـــؤلاءِ الـــبَلَاغَ يُنْمُـــونَ حـــالًا وهُنَـــا بِـــتْ علـــى وتيـــرِ الطَّنَـــافِسْ
فـــإذا الفجـــر لاح نبحـــث فيمـــا نرتَئِيـــــهِ لنغتـــــدي أو نُقِيمَـــــا»٨٦
ولِفَطْرُقْـــلَ مُومِئًـــا قـــال يـــأتي بفـراشٍ غَـضٍّ لتمضـي النَّـوَاطِسْ٨٧
هـــب آيـــاسُ قـــال: «أوذيـــسُ هَيَّـــا لا أرى هكـــــذا المُنَـــــى يَتَهَيَّـــــا
وعلينـــا نُنْمِـــي الجـــواب وإن ســـا ءَ فـــإن الإغريـــق ظلـــوا بِهَـــاجِسْ
إن آخيـــل قـــد تصـــلَّبَ طبعَـــا وأدانـــي الخُـــلَّانِ مـــا ظـــل يرعـــى

عظّمُوهُ مِن فوق كل عظيم وَهْوَ عاتٍ جافٍ ظلومٌ قُنَاعِسْ٨٨

كم أخ يفتدون بالمال وَابْنِ ويظل الجاني برَغْدٍ وأَمْنِ

وأهالي المقتول إن أحرزوا المـا لَ وفيرًا عَفَوْا وعافُوا الْمَرَاجِسْ٨٩

قلبك اكمَدَّ حانقًا لفتاةِ وأتينا نَحْبُوكَ سَبْعَ بناتِ

وعدا الغيدَ باهراتِ العطايا سَكِّنِ الرَّوْعَ ألقِ عنكَ الهواجسْ

عن جميع الإغريق جئنا إليكا بغيةً أن نرى أحبَّ لديكا

نحن في بيتك الذي أنت فيه فاحترمْه وارعَ الضيوف وآنسْ» ٩٠

قال آخيل: «يا أياسُ أراكا فُهْتَ حقًّا بما حواه نُهَاكَا

بيد أني لم أنس أَتْرِيذَ يُزْرِي بي كأني فيكم دخيلٌ مُخَالِسْ

كلما هاج ذكر ذلك فكري يتلظى قلبي ويُوغَرُ صدري

فاذهبا بَلِّغَا فلا قمتُ حتى دون خيمي تعثو العُداةُ الغَطَارِسْ

فهنا ألتقي ابن فِرْيَامَ مهما صال بالبطش مستجيشًا وأَدْمَى

بعد أن يَهْلِكَ الأراغسُ ذبحًا وبكُلِّ السَّفِينِ تذكُو المقابسْ» ٩١

ثم قاموا من ثَمَّ للقرُبات بكئوس للخمر مزدَوِجَات

فأراقوا وللسفائنِ عادت رسلُهُم تقتفي لأوذيسَ إثْرَا

والجواري بأمر فَطْرُقْلَ قُمْنَ لِفِنِكْسٍ غضَّ الفراش أقمنَ

من جلود النعاجِ تحت غطاءٍ وبَهِيُّ الكتان يُسْبَلُ سِتْرَا

ثم فِينِكْسُ نامَ يرقب صبحا وأخيلٌ إلى الزوايا تنحَّى

وذُمِيذا من لَسْبُس بنت فُرْيَا سَ تليه في مرقدٍ شِيدَ خِدْرَا

ثـم فَطْرُقْـلُ فـي الخبـاء المقابـل ... وَلِيَتْـــهُ إيفِـــيسُ ذات الشـــمائل

مــن آخيــل أُنيلَهَــا مــذ غــزا إسْــ ... ــكِيرُسًا مــن إيفِـسْ وأحــرز وَفْــرَا

وإذ الوفــد خَــيْمَ أَتْرِيــذَ حــلَّا ... نهــض الجمــع مكرِمًــا ومُجِــلَّا

وأتــوهم بــأكؤسٍ مــن نضــارٍ ... متقصِّـــين أمـــرهم كيـــف قـــرَّا

وأَغَــامَمْنُونُ اســتهلَّ الســؤالَا ... «قـلْ أُذِيـسٌ فَخْـرَ الإخـاءة حـالا

أأرعــوي مقــبلًا لصــد الأعــادي ... أم بغُـــلِّ الأحقــاد يُكْمِــنُ شــرًّا»

قــال: «بــل غيظــه العنيــف أشــدُّ ... عــن حبــاءٍ تحبــو وعنــك يصــد

ويقــول اشــدُدْنَ فــيمن ســواه ... لنجــاة الســفينِ والجــيش أزرا

وعلــى جملــة الملــوك يشــير ... أن يئوبــوا لأهلهــم ويســيروا

ولقــد قــال ســوف يقــذِفُ للبحْـ ... ــرِ بأشــراعه ويقفُــلُ فجــرًا٩٢

قــال إليــونُ لا مــرام إليهــا ... إن زفسًــا ألقــى يديــهِ عليهــا

وقلـوب الفرسـان فيهـا لقـد شَـ ... ـدَّدَ هــذا مــا قــال طَيًّـا ونشـرَا

وأياسًـا كـذاك فَيْجَيْـكَ فاسـأل ... مـا وعـوه وثَـمَّ فِيـنِكْسُ قـد ظـلْ

معــه راجعًــا يســير إذا مــا ... رام لا مُحْرجًـا غـدًا فهـو أدرى»٩٣

فأصــاخوا وكلهــم بســكينهْ ... ذُعِــرُوا لاضــطرام تلــك الضــغينهْ

وأطـالوا الوجـوم والصـمت حتـى ... هـب ذُومِيـذُ صـائحًا: «يـا ابـن أَتْـرَا

حبـذا لـو لـم تبـغِ يـا ذا الجـلال ... صــلحَ آخيــل بالهبــات الغــوالي

هــو عــاتٍ بنفســه وغشــومٌ ... ولقــد زدتَــه عتــوًّا وجبــرًا٩٤

فلندعـــــه وشـــــأنه أأقامَـــــا	أم مضـى سـوف يَقْحَمَـنَّ الصِّـدَامَا
ذاك لمَّـا تهيجـه الـنفس أم تَـدْ	عُـوهُ آلُ العلـى فيـأتي مِكَـرَّا
فاسـتريحوا ذا الآن وَأْتُـوا الرُّقَـادا	إذ جميعًـا طبنـا شـرابًا وزادَا
فبهــذا تُؤْتَــوْنَ قــوَّة بــأسٍ	وغـدا الفجـر فاسـطُرِ الجنـد سـطرًا
والعجـالَ اصْـفُفَنْ أمـام السَّـفِينِ	ثـمَّ فـي الصـدر أَوْرِ نـارَ الْمَنُـونِ»٩٥
جـاهروا بالثنـا أراقـوا وكـلٌّ	راح يـأتي فراشـه مسـتقرَّا

هوامش

(١) لقد أكثر علماء الأدب والفصاحة من إطراء بلاغة الخطب المُدَوَّنَةِ في هذا النشيد، ولا سيما في شطره الأخير أثناء التقاء آخيل بوفد الإغريق، وقد كتبوا في ذلك الرسائل المطولة وأوردوا منها الأمثلة الكثيرة أنموذجًا ليتحداه طلبة الخطابة مما سننبه عليه في مواضعه.

(٢) الرعدة والفرار رفيقان متلازمان، وهما هنا مُجَسَّمَانِ كما في سائر المواضع.

(٣) الدبور الريح الغربية كما لا يخفى. ولقد اعتُرِض على هوميروس بقوله: إنها تهب من إثراقا حالة كون مهبها يتجه إلى إثراقا لا منها. وقد رد أفستاثيوس هذا الاعتراض بقوله: إن هوميروس قال هذا القول إما جريًا على ما تداولته أساطير ذلك الزمان من أن في تلك البلاد

ملتقى الرياح، وإما نظرًا إلى موقع طروادة منها وكلا الفرضين يذهبان بالاعتراض.

(٤) إن تشبيه الفؤاد المضطرب بالموج الذي تقذفه الأنواء إلى ما وراء الجرف لمن أبدع ما قيل في هذا الباب. وقال هوميروس في النشيد الثاني والعشرين بلسان زوجة هكطور: وقلبي خافقٌ حتى يكاد يطير ... ولا يقل عن قولي هوميروس قول الشنفرى:

ولا خَــرِقٍ هَيــقٍ كــأن فــؤادهُ   يظــلُّ بــه المكــاء يعلــو ويســفُلُ

فالخرق: الدهش، والهيق: الظليم (ذكر النعام) والمكاء: طائر. شبه الفؤاد المرتجف بشيءٍ مع طائر يعلو به مرة ويسفل به أخرى. ومثل هذا قول صاحب عفراء:

كــأن قطــاة علقــت بجناحهــا   علــى كبــدي مــن شــدة الخفقــانِ

(٥) أي إن أغاممنون عهد إلى الدعاة بحشد القوم إلى مجلس الشورى ثم بلَّغ بنفسه فيمن حوله وطافوا وهم يبلغون في أطراف الجيش وينادون كلًّا باسمه همسًا. وإنما أمر بالهمس دون النداء لئلَّا يسود الهرج فينكشف أمرهم للأعداء.

(٦) لعل المطالع اللبيب يَدَّكِرُ أن هنا خطابًا ألقاه أغاممنون بلفظه ومعناه في النشيد الثاني وأنه تذرع به هنالك إلى إغراء الجيش على الذود والهجوم دون العود والوجوم على ما يوهم ظاهر العبارة. ولهذا

تشعبت آراء الشُّرَّاحِ في القصد من هذا التكرار، ففريق إلى أنه نحا هنا ذلك النحو وفريق إلى أنه لا يصدق هنا ما صدق هناك. وليس من غرضنا الانتصار إلى إحدى الفئتين وإنما نرى أنه مهما يكن من صحة أحد الرأيين فالنتيجة واحدة لأن الشاعر أحسن التصرف فحصل الغرض من كلا الخطابين.

(٧) كأن المتنبي عارض هذا المعنى بقوله:

الـرأي قبـل شـجاعة الشـجعانِ هــو أولٌ ولهــا المحــل الثــاني

وهو كقول أبي تمام:السيف أصدق أنباء من الكتبِ

(٨) الجدود أي الشواطئ، وهي في الأصل بعبارة معناها قرب البحر وقد فسَّرها أكثر النقلة بقولهم: «الراسية على الشواطئ» كما فسرناها نحن على أننا إذا اعتبرنا العبارة تهكمًا على أغاممنون كما قال بعضهم كان مراد ذيوميذ أن يقول: «إنك إنما أرسيت سفنك أدنى إلى اليم منها إلى الجرف ليسهل عليك الفرار عند الاضطرار» وعلى هذا يجب أن يقال «في العباب» عوض الجدود.

(٩) إذا ذهبنا مذهب القائلين بتواطؤ الزعماء مع أغاممنون على أخذ الجند خدعةً كما فعلوا في النشيد الثاني، فهذا التواطؤ يشفع في كل تحامل ذيوميذ على أغاممنون. وإذا ذهبنا مع الفريق الآخر إلى أن الشؤم بلغ حَدَّهُ من نفس أغاممنون ولم ينوِ إلا ما قال، فخطاب ذيوميذ

أبلغ وأوقع إذ تكون حدة الشباب وشدة البأس ساقتاه إلى المجاهرة بكل ما في ضميره وكان كلامه مرآة تنعكس عنها ضمائر مغاوير الفتيان لذلك العهد. فشرع يبث رأيه بلا مبالاة وغير متحامل بل متزلفًا بعض التزلف ثم استطرد إلى إثبات الحق المنصوص له بالاعتراض لأنه من مخولات دستور الشورى (وحكمهم وإن كان ملكيًّا فهو دستوري شوروي على ما تقدم) ثم اغتنمها فرصةً للوم أغاممنون على سابق تعنيفه إياه. وكأن تلك الذكرى هاجت به نزق الصبا فنبذ واجب الرعاية والاحترام، وتمادى فصرح بكل ما استكن بضميره على غير عبء ولا مداهنة وانتهى باستمداد النصر من لدن رب النصر وكَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ فكان له تخلص حسن ولولاه عُدَّ مدعاه الأخير طيشًا وحمقًا.

(١٠) لا بدع أن يشهد نسطور ببأس ذيوميذ وهو الذي دون سائر الأبطال استهدف للبلاء فأنقذه من مخالب الموت.

(١١) حكمةٌ نطق بها نسطور فسارت مسير الأمثال، ولا بد لبيان متانتها ومكانتها من إيراد مفادها المقصود. فلا بد للمرء من وازع يزعه وهو شرعه، ومن كنٍّ يأوي إليه وهو مأواه ووطنه، ومن فرقة يمتزج بها وهي أسرته وآل بيته. فإذا لم تجمع له تلك المزايا فهو المتشرد الفوضوي الجانح إلى بث النفاق ودس الشقاق. وحسبك بها من معرَّة تأباها نفس كل كريم. وكأن نسطور قال بعبارة أخرى أن الساعي بالفتن والقلاقل كالعَرِيِّ من شعائر الشرع والوطنية وإباء النفس. فدل بقوله على

استحكام روابط الدستور عندهم وألمع إلى هول النزاع وما وراءَه من سوء المصير.

(١٢) وفق نسطور بخطابه بين مرام الزعيمين ذيوميذ وأغاممنون، فامتدح الأول بما فيه ونبهه بألطف تعبير إلى اجتناب شطط قد تسوقه إليه رعونة صباه، ثم أتى بتلك الحكمة كأن وراءها قولًا خطيرًا. ولم يكن في الحقيقة وراءَها شيءٌ جلل وإنما أتى بها تذرعًا إلى إبكامهم جميعًا وإنفاذ بغيته. ولم يكن يحسن لديه إعلان تلك البغية على رءوس الملأ رعايةً لأغاممنون؛ فأشار عليه بعد القول بوجوب إقامة الحرس بإيلام وليمة للشيب دون الشبان، فأعاد فيها الكلام ونال المرام على ما سيجيء.

(١٣) أذكوا المذاكي أي أشعلوا النيران.

(١٤) أراد نسطور بقوله أن يعلم أغاممنون أن جل ما يرمي إليه بأقواله وأفعاله رعاية مكانة ذلك الزعيم ومصلحته. وهي عبارة كثيرًا ما كانوا يستعملونها في أغانيهم وترانيمهم لآلهتهم.

(١٥) ترى من أمثال هذا البيت أن زفس كان الآمر المطلق وإن تعددت الآلهة. يولي الملوك ويتصرف بالكون كيف يشاء وليس من يقوى على معارضته.

(١٦) هذه أمنية نسطور التي حام حولها في مجلسين قبل أن يبوح بها لأغاممنون ألا وهي حمله على استرضاء آخيل وإحكام الوئام.

(١٧) الطس والطست والطشت: لإناء الغسيل معرب طست بالفارسية. شرع أوذيس في تعداد التحف التي أعدها أغاممنون لآخيل إذا هو ارعوى وهبَّ إلى نصرة الجيش فبدأ بالمناضد. وقد جعلنا المنضدة بمعنى المنصة أو النضد الذي يُرفع عليه متاع البيت تعريبًا لكلمة (Τριπους) ومعناها ذات الأرجل الثلاث ومنها أخذ الإفرنج كلمة Trépied, Tripod وأمثالهما بسائر اللغات. وليس عندنا ما يقابلها إلا السيبة المستعملة في سوريا للمرقاة المؤلفة من ثلاث قوائم متصلة بقرص في أعلاها. وهذه أيضًا من أوضاع العامة معربة سه پا بالفارسية ومعناها ثلاث أرجل. إلا أنه وإن اتفقت الكلمتان بالتركيب الوضعي فلا تتفقان بتأدية المراد.

كانت المناضد كثيرة الاستعمال عند اليونان، وقد وردت مرارًا في شعر هوميروس والجم الغفير من كتابهم، وهي منقوشة في كثير من رسومهم وممثلة في عادياتهم. وهي ضروب شتى تُسْتَعْمَلُ لمقاصد مختلفة وجميعها قائمة على ثلاث قوائم يعلوها إناءٌ له مقبضان من طرفيه. فمنها ما كان بمثابة القدور أو المراجل التي تعلو النار. ومنها ما كان لمزج الخمر بالماء وربما كان مراد الشاعر أحد هذين النوعين، الأول: لقوله إنها لم تَرَ نارًا، والثاني: لمقارنتها بالطسوت، وكلا النوعين مما كان يُتهادى به أو يُعطى مكافأة للمبرزين في الألعاب. ومنها ما كان للزينة في البيوت. ومنها ما يُتَّخَذُ في الهياكل للزينة أو للاستعمال أثناء

التضحية والاستخارة. وكثيرًا ما اتخذوها أيضًا موائد وكراسي وأقاموها وسط البيوت أو علقوها على الجدران وهلُمَّ جرًّا.

(١٨) يقدرون قيمة الشاقل الذهبي في ذلك الزمن بنحو أربعة آلاف فرنك؛ فعلى هذا يكون في جملة ما أعد أغاممنون لاسترضاء آخيل أربعون ألف فرنك ذهبًا.

(١٩) ذهب أفستاثيوس إلى أنه يُستفاد من هذه العبارة أنهم كانوا يتراهنون سباقًا أثناء الحرب وربما كان ذلك في مآتم بعض الأبطال، وإلا لو كانت تلك الجياد من ذوات السبق قبل الحرب لكانت هرمت وباتت غير صالحة للهدية. ويحسن بنا أن نذكر في هذا المقام أن سباقهم لم يكن كسباق العرب على ظهور الخيل بل كان جريًا بالعجال. أما من حيث شيوع تلك العادة عندهم فلم تكن تقل عنها عند العرب ولقد طالما أورثت النزاع والخصام كما سنرى في النشيد الثالث والعشرين على أنه لم يتصل بنا أنها كانت باعث حرب دامت أربعين عامًا كحرب بني عبس وفزارة على إثر سباق داحس والغبراء.

(٢٠) لا يكاد هوميروس يمدح امرأة صبيحة الوجنتين إلا إذا كانت صَناع اليدين، وكثيرًا ما يضيف إلى نعم الخلَّاق محاسن الأخلاق بخلاف شعرائنا الأقدمين، وقل الحديثين أيضًا كأن المرأة إذا رزقت الجمال بلغت الكمال، فعسى أن يكون لنا من شعر جاهلي أعمى ما يرشدنا إلى سبيل ضللناه ونحن في حضارتنا مبصرون.

(٢١) أورست ابن أغاممنون.

(٢٢) المهر منذ القدم من حقوق العروس وأبيها أو من قام مقامه من ذويها، ولم يَصِرْ من حقوق الزوج في بعض الأحوال إلا في عصرنا أو ما ماثل ما ذكره هيرودوتس عن زواج البابليات، إذ كانوا يجمعون الأوانس الفتيات والعوانس اللائي طال بهن القعود مرةً كل سنة، فيجتمع إليهنَّ كل عَزَبٍ وطالب، ثم يُنادى بأجملهنَّ وتدفع للدافع المهر الأعظم. ثم يُنادى بمن تليها حسنًا وهكذا إلى أن تنفق الجميلات فيؤخذ مهرهن جميعًا، ويُنادى بالباقيات مع إضافة مبلغ إلى كل منهنَّ وتُدفع الفتاة التي لم ترزق الجمال للقانع بأيسر مبلغ إلى أن تتم المناقصة في الدور الثاني كما تمت المزايدة في الدور الأول. وهكذا فالجميلات يمهرن رفيقاتهن. وعلى كلٍّ فليس من المهر شيءٌ للعرائس وذويهن، بل يؤدى لفريق من الأزواج ما يؤخذ من الفريق الآخر. على أن هذه الحكمة لم تُؤْثَرْ إلا عن بابل. وأما العبرانيون والعرب فكانوا كاليونان. والمهر مهران أحدهما للأهل والآخر للفتاة. فإبراهيم الخليل أهدى خرصًا من ذهب وسوارين إلى رفقة خطيبة ابنه إسحاق (تك ٢٤: ٢٢) ويعقوب خدم لابان سبع سنين بمهر ابنته ليا وسبعًا أُخر بمهر أختها راحيل (تك ٢٩: ١٨–٣٠). والمهر في جاهلية العرب كان في الغالب لأبي البنت أو أهلها، حتى لقد كانوا إذا وُلِدَ لأحدهم بنتٌ يقولون له: «هنيئًا لك النافجة» أي المُعظمة لمالك لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفج. وربما تجاوز الأهل

عن المهر لابنتهم إذا كانوا من ذوي اليسار. والظاهر أن العرب لم يكونوا جميعًا على مذهب واحد من هذه الوجهة؛ إذ لو كانوا كلهم يرجون السعة وازدياد الثروة من وراء البنات لما فشت بين الكثير من قبائلهم عادة الوأد أو دفن البنات وهُنَّ حيَّات.

أما القول بزواج البنت فكان لأبيها أو وليها يزوجها ممن أراد كما كانت العادة عند اليونان بقول أغاممنون، وربما رجعوا إلى خيار الابنة أو أكرهوها في خيارها كما روي عن ليلى عشيقة المجنون. قال صاحب الأغاني: «لما شهر أمر الجنون وليلى وتناشد الناس شعره فيها خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرًا من الإبل وراعيها فقال أهلها: نحن مُخَيِّرُوهَا بينكما فمن اختارت تزوجته، ودخلوا إليها فقالوا: واللهِ لئن لم تختاري وردًا لنمثلنَّ بك فقال المجنون:

ألا يـا ليـل إن مُلِّكْـتِ فينـا خيـارك فـانظري لمـن الخيـارُ

ولا تسـتبدلي منـي دنيـا ولا برمًـا إذا حـب القتـارُ

يهـرول فـي الصـغير إذا رآه وتعجـزهُ ملمـاتٌ كبـارُ

فاختارت وردًا فتزوجته على كره منها». ينبئك هذا السياق أن خيار البنت لم يكن حقيقةً لها إلا في حالات مخصوصة.

ولما جاء الإسلام أقر المهر والخيار كليهما للابنة وجعلهما لها حقًّا يضمن لها الراحة بعد الزواج. وقسم المهر إلى قسمين العاجل وهو ما يُؤَدَّى لها عند الزواج والآجل وهو ما تُعْطَاهُ فيما إذا طُلِّقَتْ فتستعين به على المعيشة بعد الطلاق.

(٢٣) المنوِّر: المُخرج نَوره أي زهرهُ.

(٢٤) آذيس: إله الجحيم والموت لا تنفع الزُّلفى إليه؛ ولذلك لم تكن له عندهم عبادة ولم يشيدوا له الهياكل. كانوا يرسمونه على أوضاع شتى وهو فيهن جميعًا قابض على صولجان وعلى رأسه خوذة.

(٢٥) قد يلوح للمطالع أن أغاممنون سام نفسه حطة وذلًّا بهذا الخطاب؛ لأنه شرع في الإقرار والاستغفار، ثم استطرد إلى استعطاف خصمه بالتحف السنية. على أنه في نظر الحكيم لا يزداد إلا وقارًا واعتبارًا؛ لأنه إذا كان نسطور أتى حكمة بإرشاده ونصحه فقد كانت حكمة أغاممنون أعظم بإذعانه وانتصاحه، والمقر بالخطأ لا يقل فضلًا عن المنبِّه إليه. وترى من انتقاء تلك الهدايا أن أغاممنون كما قال أفستاثيوس لم يدع مطمعًا لأخيل إلا وعد بسَدِّهِ. فالذهب يُسكن من غيظه لو طمحت أبصاره إلى الثروة والمال. والسبايا الحسان وبنت الملك الأعظم تستميل قلبه لو كان مشغوفًا بربات الجمال. والمدائن السبع وما يتبعها من أبهة الملك تُبَرِّدُ من حزازة صدره إذا كان طامحًا ببصره إلى عظمة الملك وواسع السلطان. وعلى الجملة فقد استجمع

أغاممنون كل كفارة يتصورها خصمه جديرة به. نقول: وأعظمها تزلفه إليه بعد ذلك الشموخ وتلك الألفة.



آذيس إله الجحيم.

(٢٦) لقد أتى الشاعر حكمة باختيار أفراد هذا الوفد للمسير إلى آخيل. ففينكس أستاذه وهو أكثر الناس نفوذًا وحرمة لديه. وأياس

أبسل القوم بعده ويجمعهما نسب باتصالهما إلى آياك. وأذيس داهيتهم. وهذيوس وأريباطس فَيجاهم المكرمان. فكأنه سير إليه الأبوة والبأس. والحكمة والدهاء. والحرمة والرعاية.

(٢٧) تلك سنَّة دينية كان لا بد منها قبل الشروع في الأعمال الخطيرة، وقد ذكرها هوميروس مرارًا ذكرًا إجماليًّا وفصَّل هنا تفصيلًا لم يفصله في غير موضع. ذلك أنهم بعد أن غسلوا أيديهم دارت الفتية السقاة عليهم بكئوس الراح فكانوا يسقونهم بعد أن يمزُّوا منها أي يشربوا نهلًا قليلًا، وتلك عادة شرقية لا نعلم مصدرها وإنما نعلم أن تحتها مغزيين: أحدهما أن الساقي إذا شرب من الكأس التي بيده أمن المسقي على نفسه من سمٍّ يُدَسُّ فيها. ولا يزال سقاة العجم وأواسط آسيا يُجرون هذا المجرى في إسقاء القهوة وغيرها. ولا شك أنها بقية عادة قديمة تأصَّلَت فكانت مصدر تلك السنة اليونانية. والثاني: وكنا نود أن نضرب عنه تأدبًا لولا وجوب ذكره إتمامًا للفائدة، وهو جنوح شارب الخمرة إلى التلذذ برشفها من كأس امتزجت بشيءٍ من رضاب الساقي والسقاة في بلاد المشرق من خيرة الغلمان ونخبة الحسان. وقد سلف (ن ٥) أن زفس رفع غنيميذ بن أطروس ملك طروادة إلى السماء فجعله ساقيًا لفرط جماله.

(٢٨) ذكرنا أن الوفد مؤلَّف من خمسة نفر، ثم قلنا الآن «رسولا القوم» وهنا محل خلاف بين المترجمين؛ لأن الضمير في سار في

الأصل يحتمل أن يكون للمثنى والجمع، والأكثرون على أنه للمثنى؛ فالرسولان بهذا الاعتبار أوذيس وأياس وأما فينكس فإنما أُرْسِلَ عونًا لهما، والفيجان رفيقان لا بد منهما في كل رسالة.

(٢٩) محيط البرايا: لقب من ألقاب زفس.

(٣٠) قالت العرب: الغناء والغزف بآلات الطرب من أشرف الصناعات لأن صاحبها يتوصل بها إلى مجالسة الأمراء ومنادمة الملوك. وأما هوميروس فزادها شرفًا على ذلك بأن جعلها صناعة الملوك أنفسهم، وأشرف من ذلك أن جعلها للتغني بأعمال الأبطال وكبار الرجال، ولا مجلس أعظم هيبةً من مجلس بطل باسل وزعيم يتضرم لبُّه للجهاد ويقعده عند الكيد والعناد. فإن ثناه القعود عن منازلة الفرسان فلا يطربه ويخفف عناه إلا ترداد ذكراهم على هزج الألحان. ولا نديم أوفى وأكفى من رفيق كفطرقل ذي حمية وبأس يرضى بسراءِ صاحبه وضرائه فيتخذ بؤسه بؤسًا ونعيمه نعيمًا.

(٣١) الوضم: الخشبة يقطع عليها اللحم.

(٣٢) الملح الذكي في الأصل الملح العلي أو الإلهي أي المقدس، وصفه هوميروس بهذا الوصف لأنه يقي الطعام من الفساد؛ وعلى هذا قول السيد المسيح: أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبماذا يُمَلَّحُ. ومن هذا القبيل تسمية المصريين الملح بالمصلح.



آخيل يضرب على قيثاره وراءه فطرقل وتجاهه جاريتان.

(٣٣) هذه وليمة أولمتها ملوك لملوك، ولقد كاد يأنف بعض نقلة الإفرنج من ترجمتها زعمًا منهم بأن فيها غضًّا من شأن الضيف والمضيف، فهنالك الوفد يدخل على آخيل ولا حجاب لديه، فيقوم لهم ويصافحهم مصافحة الخلان ويجلسهم إليه ويولم لهم بيديه، وهنا صديقه فطرقل وحوذيه أفطوميذون يعاوناوته معاونة الأصدقاء دون معاونة الأتباع، فآخيل يقوم مقام النَدَل (خدام الأكل) وفطرقل مقام الطهاة (الطباخين)

ولا غلام بينهم ولا عبد رقيق. تلك معيشة أولئك الملوك على سذاجتها ومع هذا فلم تأنف التواريخ من تدوين أعمالهم والشعراء من التغني ببسط حالهم. ولقد كانت تلك السذاجة في جاهلية كل أمة كما يتبين من التوراة ومن آثار العرب وحسبنا الرجوع بنظرنا إلى معلقة شيخ شعرائنا الكندي وهو لم يأنف على كونه من أبناء الملوك أن ينحر بيده ناقته بل افتخر في موضع آخر بقوله:

نمـشُّ بـأعراف الجيـاد أكفَّنـا إذا نحـن قمنـا عـن شـواء مهضـبِ

(٣٤) لا عجب أن يكون أياس أول الداعين إلى الكلام وهو أحدث الوفد سنًّا وأعظمهم بأسًا وأحرهم دمًا، فطبيعيٌّ أن يُعالَ صبرًا قبل رفاقه. وأما دعاؤه فينكس قبل الجميع فلعلمه بما له من دالة التربية على آخيل. وأما مبادرة أوذيس إلى الخطاب قبل فينكس فدهاء منه لأن أوذيس كان رأس الوفد فكان يجدر به أن يكون أول المتكلمين مع ما عنده من حسن التصرف، واستبقى فينكس مُتَّكَأً يستند إليه إذا أخفق مسعاه.

(٣٥) النخب: الشربة من الخمر يشرب الرجل لصحة عشيره وليست كلمة «النخب» مذكورة بلفظها في الأصل ولكنها مُسْتَفَادَةٌ من سياق الحديث إذ يقول عوضًا عن «مرددًا بها نخب آخيل» «مستقبلًا بها آخيل».

(٣٦) بدا أوذيس خطابه لآخيل بالسلام والعتاب كما فعل أمية بن الصلت إذ قال مخاطبًا لسيف ذي يزن تُبَّع حمير:

سـلامٌ أيهـا الملـك اليمـاني　　　لقـد غلـب البعـاد علـى التـداني

(٣٧) كانوا يزينون مقدم سفائنهم بصور الآلهة فبقوله: «يقطع أطراف السفين» يشير إلى أنه يروم قطع تلك الصور وإحرازها ذخرًا ثمينًا يفتخر به ويعلقه في هياكل بلاده جريًا على عادتهم قربةً من الظافر لمعبوده.

(٣٨) خطاب أوذيس هذا هو أول حلقة من الخطب التي دارت بين آخيل ووفد الإغريق والتي يتمثل بها الأدباء فيتخذونها أنموذجًا لمناهج الخطابة. وحسبنا في هذا المقام إيراد مطالعة دلاموت عدو هوميروس. قال: لا خطب في الإلياذة أوقع وأدل على بلاغة هوميروس وعظمته من خطب هذا الوفد فإنها بصرف النظر عن كونها من لوازم المقام فإن فيها من حسن الوضع ودقة الانتظام ما يزيد المطالع رغبة في مطالعتها وارتياحًا إليها. يشرع أوذيس في الخطاب فيحيط بحكمته بمقتضيات الحال وترتاح الفكرة إلى حسن انتقاء براهينه وحججه. فيجيب آخيل بحرية تشف عن إباء عظيم فترتفع بالفكر إلى عواطف الأبطال. فيأتي فينكس برقته فيتأثر القلب لكلامه. وهنالك يختتم أياس الجلسة بأنفة تشف عن عظمةٍ وإباءٍ. فتنفض الجلسة والعقل متلهب بهذا التعاقب البديع. ولا ريب أن هذا الترتيب يدل على عظمة الشاعر

وتسلطه على تحويل الفكرة كيفما يشاء بحسن تنسيق مادته. وإنني لعلى يقين أنه ليس في الإمكان أن يكون إنموذج لحسن التنسيق خيرًا من هذا. اهـ. قال پوپ بعد إيراد ما تقدم: لا شهادة أعظم من هذه الشهادة على مكانة هوميروس لأنها كما ترى صادرة من كاتب اشتهر بعدوانه له وتحامله عليه.

(٣٩) ألمع آخيل هنا إلى دهاء أوذيس الذي يُلْجِئُهُ إلى تقليب الكلام على أوجه شتى تَذَرُّعًا لنيل بغيته، فأراد آخيل أن يفهمه أنه من وجه غير غافل عن دهائه ومن وجه آخر يصرح مفصحًا عما يخالج فكرته ليس إلا. وهو كلام ينطبق كل الانطباق على صفة الفتى الباسل ربيب المجد والحرية. قال قيس بن رفاعة الأنصاري:

أنا النذير لكم مني مجاهرةً   كي لا أُلامَ على نَهْيٍ وإنذارِ

وقال ميمون بن مبارك لعمر بن عبد العزيز: قل لي في وجهي ما أكره.

(٤٠) قال عنترة:

حلمت فما عرفتم حق حلمي   ولا ذكرت عشيرتكم ودادي

ولعنترة كلام كثير بهذا المعنى كقوله:

ولاقيت العدى وحفظت قومًا   أضاعوني ولم يراعوا جنابي

وقوله:

أذكر قومي ظلمَهم لي وبغيَهم وقلة إنصافي على القرب والبعدِ

بنيت لهم بالسيف مجدًا مُشَيَّدًا فلما تناهى مجدُهم هدموا مجدي

(٤١) قال السندي:

ولن يستوي عند الملمات إن عرت صبورٌ على لأوائها وجَزُوعُ

(٤٢) الحمارس: المقدام، هذا المعنى مع اختلاف قليل وارد كثيرًا في شعر العرب كقولهم:

وما إن أرى الدهر في صرفه يغادر من شارخ أو يفَن

(٤٣) انتقد بعض الشُّرَّاحِ ضرب هذا المثل لما فيه من اللين والرقة والمقام مقام شدة وعنف وهو انتقاد غير سديد إذ لا شيءَ أقرب إلى تصور الحنِق المستشيط من سابق رأفة احتفظ بها على غير بارٍّ بذمامه ونابذ حقوق وفائه.

(٤٤) الدراهس: الشدائد.

(٤٥) لأنهم قبل بلوغ إليون عاصمة الطرواد كانوا عاثوا في أرضها ودمروا بلادها، يردد آخيل ذكرى بطشه ترديد عنترة بقوله:

طرقت ديار كندة وهي تدوِي دَوِيَّ الرعد من ركضِ الجيادِ

وبَدَّدْتُ الفوارسَ في رُباها بطعن مثل أفواه المزادِ

وخثعمُ قد صبحناها صباحًا بكورًا قبلما نادى المنادي

غَـدَوْا لمـا رَأَوْا مـن حـدِّ سـيفي نـذير المـوت فـي الأرواح حـادِ
وعـــدنا بالنِّهـــاب وبالســـبايا وبالأســـرى تكبَّـــلُ بالصـــفادِ

(٤٦) كانت العادة عند اليونان كما كانت عند العرب أن يتولى زعيم القوم توزيع الغنائم، وغيظ آخيل هنا ووجده أشبه شيءٍ بغيظ العباس بن مرداس إلا أنه أشد وأقوى. ذلك أنه لما وزع نبي المسلمين غنائم حنين واستقل العباس سهمه أنشد:

كانـــت نهابًـــا تلافيتهـــا بِكَرِّي على المُهر في الأجرعِ
وإيقـــاظيَ القـــوم أن يرقـــدوا إذا هجـع النـاس لـم أهجـعِ
فأصـــبح نهبـــي ونهـــب العبيـــد بـــين عيينـــة والأقـــرعِ
وقد كنت في الحرب ذا تدروءٍ فلـم أَعْـطَ شـيئًا ولـم أَمْنَـعِ
ومـا كـان حصـن ولا حـابسٌ يفوقـان مـرداس فـي المجمـعِ
ومـا كنـت دون امـرئٍ منهمـا ومـن تضـعِ اليـوم لا يُرْفَـعِ

قال صاحب الأغاني: وقال رسول الله ﷺ: اقطعوا عني لسانه. وأمر بأن يُعْطَى من النساء والنعم ما يرضيه ليمسك فأُعْطِيَ.

(٤٧) دعا آخيل بريسا السبية زوجته لأنه كان مصممًا على اتخاذها زوجة لا لأنها كانت زوجته فعلًا.

(٤٨) القوامس: جمع قومس وهو الأمير، وفي كتب اللغة: القومس الأمير والقُمَّس الرجل الشريف. ولم تنبه أئمة اللغة على هاتين اللفظتين ولا أقرب من أن يكونا من (Comes) اللاتينية بمعنى الرفيق، ومنها كلمة كُونْت باللغات الإفرنجية للقب الشرف المعروف إذ كان أصحاب هذا اللقب مصاحبين للملوك وندماءَ لهم.

(٤٩) العطامس: جمع عطموس وهي المرأة الجميلة، هنا دليل آخر على احترامهم للسبايا في بعض الأحيان كما أشرنا في النشيد الأول فإن آخيل لم يأنف أن جعلها بالنسبة إليه كهيلانة بالنسبة إلى منيلاوس.

(٥٠) يتهكم على أوذيس وسائر الملوك، ويتكلم بأنفة الظافر بخصمه الذي يعلم أنه لا يسد مسدَّه أحد.

(٥١) الراعس: المرتعش.

(٥٢) في ذلك إشارة إلى واقعة جرت بين آخيل وهكطور قبل حوادث الإلياذة.

(٥٣) أي إنه عزم أن يقلع إلى بلاده فجر ليلته.

(٥٤) جسن قلب العباب: أي شققنه، من غريب وصف السفن المواخر في البحر قول طرفة:

يشق عباب البحر حيزومها بها ... كما قسم الترب المغايل باليدِ

وحيزوم السفينة صدرها. والمقابلة ضربٌ من المقامرة للعرب كانوا فيه يجمعون التراب ويدفنون فيه شيئًا ويعمد أحدهم وهو المغايل إلى شقه شطرين ثم يسأل عن الدفين في أيهما، فإذا أصاب المسئول قمر: أي ربح. شبه شق السفن الماء بشق المغايل التراب المجموع بيده.

(٥٥) الأردمون النوتية.

(٥٦) الخلابس: الحديث الرقيق والكذب.

(٥٧) قد اختلف المفسرون في معنى كلمة (Χαρος) التي عرَّبناها «بشعرة» فمنهم من فسرها بهذا المعنى، ومنهم من فسرها بقاريٍّ نسبةً إلى طائفة القاريين الذين كانوا من سكنة بيوتيا وكانوا يوصفون كزنكانة هذه الأيام (وهم النوَر أو الغجر) بالخسة والبذاء لا يعاهدون ولا يواثقون، بل شأنهم شأن المرتزقة يؤجرون أنفسهم لموالاة المستأجر بالمال. وكلا المعنيين يصحُّ وضعًا للتعبير عن مرام آخيل. أما المعنى الأول فعندنا مثيله قول المتنبي:

أي محـــــــل أرتقـــــي أي عظـــــــيم أتَّقـــــي

وكلمـــا قـــد خلـــق اللـــــه ومـــا لـــم يخلـــق

محتقـــر فـــي همتـــي كشـــعرة فـــي مفرقـــي

وأما المعنى الثاني فكثير في كلام الشعراء من كل الملل إذ يحملهم التحامل على أفراد أمة أو عشيرة على رميها كلها بالسبة والاحتقار كقول موزون بن عُمير:

يا باغي اللؤم إن اللؤم محتدهُ   بنو قريظ إذا شابت نواصيها

تبلى عظام بني سكن إذا دفنت   تحت التراب ولا تبلى مخازيها

وقول الآخر:

لا تمدحنَّ بني سعد فإنهم   نفوك عنهم وبعض القول مسموعُ

لو انَّ قتلى تميم كلهم نشروا   فأثبتوك لقيل الأمر مصنوعُ

وأما بالنظر إلى الحقيقة التاريخية فقد قال لويريڤوست: إنه لا يمكن أن يكون مراد هوميروس المعنى الثاني لأن القاريين لم يتسفلوا إلى تلك المهانة إلا بعد زمن هوميروس، وقد ذهب بعض المفسرين إلى رفض المعنيين وفسروا تلك الكلمة بالموت فيكون المعنى: هو عندي مثل الحمام بغيضٌ إلخ.

(٥٨) الطوائس: الجميلة. وأرخومينا بلدة قديمة كانت في بيوتيا وعلى أطلالها الآن بلدة قلباكي.

(٥٩) يدلك هذا الكلام على معرفة هوميروس بأحوال مصر، فوصفه لثبس (طيبة أو طيوا) يقارب وصف هيرودوتس وغيره من المؤرخين.

(٦٠) الطوامس: البعيدة، فينوس اسم ذلفوس القديم. كان ذلك الهيكل يحوي من الرياش والذهب ما لا يحويه هيكل في العالم لتوارد النذور إليه من كل صقع ونادٍ فكانت التماثيل فيه من الذهب الصرف بقدر الإنسان والحيوان.

(٦١) الدلامس: الداهية، والمراد بها الموت. وقوله: خلال الأسنان كقول العرب: فاضت الروح من بين الشفتين، علمت مما مر أن آخيل هو الفتى المؤثر الموت على الحياة في طلب العلى والفخار، وهو إنما ينقلب هنا عن رأيه لا رغبةً في الحياة بل تشفيًا من عدوه وضنًّا عليه بنصرته.

(٦٢) هذا مما يعظم قدر آخيل في تصور القارئ؛ لأنه لم يأت الحرب كسائر الأبطال معللًا نفسه بالفوز والنجاة معًا، بل أقدم وهو على يقين أنه لا يخرج منها سالمًا.

(٦٣) الملايس: البطيء، إلى هنا انتهى كلام آخيل الفتى الغضوب ولو اجتمعت مهرة الرسامين على استخراج رسمه لم تمثل لنا بصورة أملأ من هذه الصورة. رأيناهُ يشرع في الحديث شروع المترفع الناشئ منشأ ذوي الحسب والنسب أَنُوفًا وَاجِدًا أول أمره وجدًا لا يشط به عن منهج الصواب، بل يتكلم بنوع من الإناءة والتروي رعايةً لأضيافه. فيذكرهم بما لقي من الإجحاف، ولا يكاد يذكر اسم أتريذ حتى يلهبه الغيظ فيندفق كالسيل المنهمر ويستطرق إلى التهكم على سائر الأقيال

ثم إلى الوعيد والقول بالقفول إلى الأوطان حيث يعيش قرير العين والبال. وكأن ذلك بعيد على مخيلته صورة حرمانه من المجد الباذخ فيتضور ويتهور وينهال بالسباب على أغاممنون وينبذ بأنفة واحتقار هباته وأمواله. ثم كأنه يتنبه إذ ذاك إلى تهوره فيجهد النفس بالتظاهر بالراحة والسكون فيرجع ويشير مرة أخرى إلى ما يلقى في بلاده من السعة ورغد العيش، ولا يرى وسيلة أروى لغليله وأشفى لنفسه من الإعراض عن تزلف خصمه ردًّا لكيده في نحره، فيتهدد بسرعة الإياب وذلك على ما يعلم أشد عقاب لخصمه.

(٦٤) لم يكن يجدر بأحد غير فينكس أن يجيب آخيل بعد ما ظهر منه من التصلب.

(٦٥) قالوا: إنه لما أرسل فيلا ابنه آخيل إلى الحرب كان في الثانية عشرة من عمره فيكون إذا ذاك في الثانية والعشرين. وكلام هوميروس هنا يدل على أن أستاذه إنما كان فينكس. قال أفستاثيوس: ويتضح من ثَمَّ أن ما قيل من أن آخيل كان ربيب خيرون إنما كان من مخترعات الأعصُر التالية لزمن هوميروس.

قلت: وكيف يمكن أن يكون أقبل إلى طروادة وعمره لا يربو على الاثني عشر عامًا وله امرأة وولد.

(٦٦) ما أحسن ما قال تأبط شرًّا بهذا المعنى:

سبَّاق غايات مَجْدٍ في عشيرته　　　مرجِّع الصوت هدًّا بين إرفاقِ

(٦٧) كان أرمين هذا ابن قرقافوس ملك الذولون في ثساليا وهو مؤسس مدينة أورمينيوم.

(٦٨) لقد ذهب بعضهم إلى أن المراد بزفس الجحيم إله الجحيم على الإطلاق فيكون إذ ذاك آذيس، وقيل: بل معناه الإله الأكبر لأن زفس كان رب الأرباب يمتد سلطانه إلى كل الأرجاء وإن كانت إقامته في السماء، وهذا ينطبق على معتقدهم بوحدة الخالق، وقد أضيف هنا إلى الجحيم لطباق المعنى. ولكن كون فُرُوسرفين امرأة آذيس يؤيد القول الأول.

(٦٩) لظى بركان أي النار لأن بركان (هيفست) هو إله النار واللفظة العربية مأخوذة من ڤولكان وهو هيفست اللاتين.

(٧٠) اعترض بعض الشراح على هوميروس لإتيانه على هذا التعبير بزعمهم أن فيه بعض الغلظة التي يأنفها التصور. ولا أراها غلظة في الكلام عن طفل ولا سيما في عصر جاهلي، بل هي ذكرى وخير ذكرى لربيب شَبَّ بين يدي أستاذه وأنساه عنفوان الصبا مرارة طفوليته على ذلك الأستاذ.

(٧١) جاء في القرآن: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي التوراة ترغيب كثير في كثرة النسل إذ وعد الله إبراهيم أن يجعل ذريته

بعدد نجوم السماء ورمل البحر. وفي الحديث: «لا رهبانية في الإسلام» إشفاقًا من ضياع النسل مع ورود مدح الرهبان في القرآن. وكان العرب في الإسلام يعتزون بأبنائهم وينذرون النذور استزادة لذراريهم كما نذر عبد المطلب لئن ولد له عشرة ولد ليذبحنَّ أحدهم قربانًا. ولا يزال هذا دأب الناس في كل ملة حتى يومنا هذا. ولا يُستثنى إلا ما أُخذ من وجه الزهد والورع كالتبتل في بعض الأديان. أما الرغبة عن الضنو من طريق الفلسفة فقلَّ من يقول فيه قول أبي العلاء:

هـــذا جنـــاهُ أبـــي علـــيَّ　　　ومـــا جنيـــت علـــى أحـــدْ

(٧٢) قال بعضهم:

ولا أحمـل الحقـد القـديم علـيهم　　　وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

ومن هذا القبيل قول مالك بن أسماء:

نخلـت لـهُ نفسـي النصيحة إنـه　　　عنـد الشـدائد تـذهب الأحقـادُ

وقول عبدة بن الطبيب:

ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم　　　إن الضـــغائن للقرابـــة تُوضَـــعُ

(٧٣) لم يجسم هوميروس تجسيمًا أبدع من هذا التجسيم، فإنه جعل الصلوات بنات زفس بالنفس. قال فينكس ذلك تهويلًا على آخيل لإبائه إجابة ملتمسهم فذكره أنهن بنات الرب القدير، ووضعهنَّ بالمقابلة مع الزلة إشارةً إلى أنهن يتشفعن في الخطأ ويلتمسن الصفح. وقال: إنهنَّ

عُرجٌ وجعد الوجوه وحُسْرٌ إشارةً إلى ضعفن وحزنهن وبطئهن. وهن مع ذلك يتعقبن أُخْتَهُنَّ الزلة أو الخطيئة. (وقد فسرها بعضهم بالإهانة أو الشقاء) ليدفعن ضرَّها ويَتَلَافَيْنَ شرها وهي كما ترى في البيت التالي بخلافهن قوية الجسم خفيفة البدن ولا يغنيها ذلك عنهن شيئًا لأن زفس من ورائهن.

(٧٤) لو رأينا في استعطاف آخيل بالهدايا مجرد الإطماع بالمال لكان في ذلك ضعة من قدره على أنها لما كانت شعارًا للفخر وذل الملتمس كانت مرقاة لإعلاء شأنه وإبلاغه منال الرفعة قبل منال الثروة.

قال المعري:

إن الهدايا كرامات لصاحبها إن كنَّ لسن لإسرافٍ وأطماعِ

(٧٥) قال لبيد:

وفي غابر الأيام ما يَعِظُ الفتى ولا خير في من لم تَعِظْهُ تجاربهْ

(٧٦) كانت باكورة الزرع في زمن هوميروس تُقَدَّمُ إلى أرطميس ثم صارت بعد ذلك إلى ذيونا.

(٧٧) يسير الأولى: بمعنى السهل، والثانية: بمعنى القليل.

(٧٨) أشار الشاعر بهذه الأبيات الستة إلى خرافة من خرافاتهم مؤداها أن ألكيونة ابنة أيولس علق بها أفلون فسباها، ولما توفي بعلها ألقت بنفسها إلى البحر فمسختها ثيتيس طائرًا. ثم إن أفلون سبى بعد

ذلك مرفيسا والدة ألثيا زوجة مليغر، فثارت الحمية برأس إيذاس بعل مرفيسا فهب لقتال أفلون وانتهى الأمر بأن خُيِّرَتْ بين أفلون وإيذاس فاختارت زوجها على عشيقها وأعيدت إليه، فلقبت ابنتها كليوبطرا بلقب ألكيونة لتشابه الحادثتين وكان الأولى أن تلقب به نفسها.

ذكر رواة العرب حادثة سبي كانت العاقبة فيها عكس ما كان من أمر ألكيونة. ذلك أن النعمان سبى ذراري بني تميم لامتناعهم عن دفع الإتاوة فلما دفعوها لأخيه الريان خيَّر السبايا بين رجالهن وسُبَاتِهِنَّ، وكانت بينهن بنت قيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها. قال الميداني: فنذر أبوها ليدفننَّ كل بنت تولد له فازداد وأد البنات بعد أن كاد يتلاشى من بين العرب قبل الإسلام.

(٧٩) يتصلى يتسعر ويتحرق.

(٨٠) يشير هذا البيت إلى أن أَلْثِيَا والدة مليغر كانت من قبيلة أعداء زوجها، وكانت لها يد في اشتداد الفتنة بين قبيلتين متناسبتين. ولنا في تاريخ اليونان والرومان والعرب أمثلة شتى على تناسب القبائل المتعادية والمتصافية التي تصبح متعادية بعد ذلك التناسب. فإن والدة طفقير أخي أياس كانت أخت فريام ملك طروادة، وقراء رواية هوراس لراسين الفرنسي يعلمون أن أخت هوراس الروماني كانت خطيبة كورياس الألبي، وجليلة بنت مرة وأخت جساس كانت امرأة كليب الذي قتله جساس فأثار حرب البسوس الشهيرة في كتب العرب.

(٨١) أرينيس ومعناها المنتقمة: إلهة تتولى تعذيب الخطاة. وأريبا ومعناه الظلمات: يفيد على إطلاقه الجحيم وإنما هو نهر فيها. وكان أخا الليل (والليل إلهة أنثى) فتزوجها فولدت له النهار ثم كان في جملة العصاة على زفس فمسخه نهرًا وأهبطه إلى الجحيم.

(٨٢) لا يزال شاعرنا كلما سنحت سانحة يبوح بميله إلى بنات الجنس الضعيف وإعظامه قدر الزوجية. فقد أرانا هنا رجلًا حانقًا متحدمًا غيظًا تألَّب عليه أبوه وأمه وذوو قرباه وخلانه واستعطفوه بكل وسيلة فعادوا جميعًا خاسرين ولم يلتوِ ويَلِنْ إلا لالتماس زوجته. والوسيلة التي تَذَرَّعَ بها الشاعر لإجابة ملتمسها من أرقِّ ما تتصوره العقول وأبعد ما تتخيله المدارك، أبرزت له كل ذلك بكلام موجز مثلت له به حالة البلاد المأخوذة عنوةً فلم تُبق شيئًا يقال بعد قولها:

للمبـــاني حرقًـــا وللقـــوم ذبحًـــا   والغـــواني والولـــد ذلًّا وأســـرَا

قال الشاعر العربي:

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولَدوا   والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

(٨٣) الدراهس: الشدائد. أي لو جئت من تلقاء نفسك لما أصبت مغنمًا. أراد بذلك أن يستعجله للكفاح.

(٨٤) من كلام إبراهيم بن العباس:

إذا أنت لـم تملـك أخاك بقلبـه   وخافتـــك آمـــالٌ بـــه ومطالـــبُ

غدوت بـه مُرَّ المـذاق وأَجْلَبَـتْ عليـك بـه فـي النائبـاتِ العواقـبُ

قد انتُقد على هوميروس أن أطال الكلام بلسان فينكس بما تجاوز حدود الاعتدال. وهو انتقاد في محله لو لم يكن الحديث في ساعة من الليل قد سكن فيها الناس عن الحرب، ولو لم يكن يصلح أن يتخذ فينكس ذلك الإسهاب وسيلة لإخماد غضب آخيل لما يعلمه من عُتُوِّهِ وتصلبه. ثم إنه ضرب له مثلا رجلًا ليس في التاريخ من تُشبه أخلاقه أخلاق آخيل نظيره وهو ميليغر الإيتولي. وهذه القصة وإن اعْتُرِضَ على إيرادِهَا في هذا الموضع فهي في حد نفسها قطعة تاريخية استنار بها كثيرون من الكتاب كسائر ما ورد في شعر هوميروس. ويرى أنصار صاحبنا ونحن في جملتهم أن له من وراء ما تقدم شافعًا عظيمًا يشفع له بهذا الخلل إن كان ثَمَّةَ خلل.

(٨٥) يقول آخيل قول ربيعة بن مقروم الضبي:

أخـوك أخـوك مـن تـدنو وترجـو مودتـــه وإن دُعـــي اســـتجابا

إذا حاربـت حـارب مـن تُعَـادِي وزاد ســـلاحه منـــك اقترابًـــا

يؤاســـي فـــي كريهتـــه ويـــدنو إذا مـــا ضـــالع الحـــدثان نابَـــا

ومثله قول الآخر:

ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضـــر عـــدوٍّ أو لنفـــعِ صـــديق

(٨٦) قال أفستاثيوس: حثيما نظرت إلى كلام آخيل رأيت فيه تلك الطباع ممثلة تمثيلا. فإنه لما أجاب أوذيس أجابه بكلام فظ متهددًا بالقفول إلى الأوطان في فجر ليلته. على أنه لان بعض اللين لفينكس ثم بعد كلام أياس نراه عزم على التربص ولكن لا لنجدة الإغريق بل للذود عن حوض نفسه. وهكذا فقد أخذت سَوْرَةُ الغيظ تخمد خمودًا قليلًا ولولا ذلك لظهر بمظهر الوحوش دون الناس وقد أخذ الشاعر على نفسه أن يخفف من شدته بالتتابع على مقتضى المجرى الطبيعي. ولو رأيناه أذعن دفعة واحدة للاح لنا تناقض عظيم بين ذلك اللين وذلك الخلق العنيف ولتأثر المُطَالِعُ من سرعة انتقاله من الغيظ إلى اللين.

(٨٧) النواطس: الرسل.

(٨٨) القناعس: العظيم الخلق، من كلام محمد بن عبد الله الأزدي:

وحسبك من جهل وسوء صنيعةٍ ... معاداة ذي القربى وإن قيل قاطعُ

ومثله قول كثير:

بصاحب لك ما داليته غلظت ... منه النواحي وإن عاتبته جحدا

وقول الآخر:

إذا سُمْتُهُ وصل القرابة سَامَنِي ... قطيعتها تلك السفاهة والظلمُ

وأحسن من كل ذلك قول إبراهيم بن العباس:

دعوتك من بلوى أَلَمَّتْ ضرورةً فأوقدت من ضغن عليَّ سعيرها

وإني إذا أدعوك عند ملمة كداعية عند القبور نصيرها

(٨٩) قال أفستاثيوس: إنه كان من عرفهم أن القاتل يُجلى عن بلاده سنة واحدة على أنه قد كان يتسنى له أن يسترضي أهالي المقتول بدية يدفعها إليهم فلا يُنفى من وطنه. تَذَرَّعَ بذلك أياس ليعنف آخيل على حقده لسبب هو دون القتل بكثير. وإن أياس بكلامه هذا القليل أفاد كثيرًا وكان أشد إلحاحًا على آخيل من سائر المتكلمين، كانت الدية فاشية عند العرب في الجاهلية وقد تَخَرَّصَ كُتَّابُهُمْ في أصلها تَخَرُّصَاتٍ كثيرة فقال بعضهم: إن أول من سنها عبد المطلب جد صاحب الشريعة الإسلامية لأنه نحر مئة من الإبل فداءً عن ابنه عبد الله. وقيل: بل أول من سن ذلك أبو يسار العدواني. وقيل: بل عامر بن الظرب. والصحيح أنها كانت فاشية بينهم قَبْلَ من ذُكِرَ بِأَزْمَانٍ. وكانت على أوضاع شتى، فتقل وتكثر على مقتضى الأحوال ونسبة القاتل إلى القتيل. قال صاحب «الأغاني»: إن الغطاريف من الأزد كانوا يأخذون للمقتول منهم ديتين ولا يعطون إلا دية واحدة (١٢: ٥٠) وربما أبى أهل المقتول الدية على الإطلاق كما أبى قوم كليب أخذ ديته فثارت على أثر ذلك حرب بكر وتغلب. ولما جاء الإسلام أقر الدية ولكنه وضع لها أصولًا يُجْرَى عليها وقواعد يُرجع إليها في كل حال من الأحوال.

(٩٠) قال الشاعر العربي:

نزيـل القـوم أعظمهـم حقوقًـا		وحـــق اللهِ فـــي حـــق النزيـــل

(٩١) هذا آخر خطاب ألقاه آخيل على الوفد، فنراه بأوله أذعن إذعان الموافق لما رأى من صحة حجج أياس، ثم عاد فهاج غيظًا لتخيله ذكر أغاممنون شأن الجريح الذي يسكن ألمه حتى يمس بموضع الجرح. وهو مع ذلك في ما نرى أقرب للين منه قبلا إذ عزم على الإقامة في موضعه بعد إصراره على الرحيل وهي خطوة كبيرة للرضاء والارعواء كما لا يخفى.

(٩٢) الأشراع جمع شرَعة وهي السفينة.

(٩٣) لم يبلغ أوذيس أغاممنون إلا جواب آخيل الأول وهو عزمه على الرحيل، ولم يقل شيئًا عن جوابه الأخير الذي عول فيه على البقاء وهي حكمة من أوذيس؛ لأن آخيل إنما قال بعزمه على البقاء للذود عن حوض نفسه دون الإغريق؛ إذ لم يرم أن يهب لقتال هكطور إلا بعد أن يكون قد نكل بأغاممنون وجماعته فكان من حسن دهاء أوذيس ألَّا يجعل أغاممنون يُؤَمِّلُ بعون يأتيه من لدى آخيل ليشتد عزمه وعزم جماعته بأنفسهم.

(٩٤) قال أبو الأسود:

بُليـــتُ بصـــاحبٍ أن أدنُ شـــبرًا		يزدنـــي فـــي تباعـــده ذراعَـــا

أبـــت نفســـي لـــه إلا اتِّباعًـــا		وتـــأبى نفســـه إلا امتناعَـــا

ومن قول طرفة في معلقته:

فما لي أراني وابن عميَ مالكًا ... متى أدنُ منه ينأَ عني ويبعدِ

ومن لطيف كنايات ابن الرومي وقد شبه مخاطبهُ بالسهم:

تودّدتُ حتى لم أجد متودَّدًا ... وأفنيت أقلامي عتابًا مردَدًا

كأنيَ أستدني بك ابن حنيةٍ ... إذا النزع أدناه من الصدر أبعدَا

(٩٥) هذا ذيوميذ الباسل والفتى المضطرم بنار الشبيبة والبأس يفصل الخطابَ ولم يكن يجدر بغيره أن يجاهر بهذا الاستغناء عن آخيل، وليست بأول مرة أثبت فيها قوله بفعله فأتى خطابه هذا خير ختام لهذا النشيد.

النشيد العاشر

أوذيس وذيوميذ يتجسَّسَانِ العدوَّ ليلًا

مُجْمَلُهُ

اضطربت أفكار أغاممنون لخيبة مسعاه في استرضاء آخيل، فلم يهجع طول ليله بل لبث يطوف في المعسكر ويوقظ القواد متبصرًا في السبل المؤدية إلى سلامة الجيش وفوزه على الأعداء. وكان أخوه منيلاوس أرِقًا نظيره فأتاه يشد أزره وينفذ أمره، فأوقظا زعماء الجيش وذهب منيلاوس ونسطور وأوذيس وذيوميذ يتفقدون الحرس فَأَلْفَوْهُمْ متيقظين فخطب فيهم نسطور ثم عقد مجلس الزعماء وأقروا بطلب نسطور على تجسس معسكر الأعداء. وألقوا عبء القيام بتلك المهمة إلى ذيوميذ وأوذيس فذهبا تحت جنح الظلام.

وكان الطرواد قد فعلوا في معسكرهم فعل الإغريق فأنفذ هكطور ذواون يتجسس ليلا. فقبض اليونانيان على الطروادي واستنبآه نبأ جماعته. ولما قضيا وطرهما منه قتلاه وسارا إلى مضارب الثراقيين فَأَلْفَيَاهُمْ نيامًا فقتل ذيوميذ ملكَهم ريسوس وألحقا به اثني عشر جنديًّا من أجناده ثم رجعا بخيله. فاستيقظ الطرواد مذعورين ولكنهم لم يفوزوا

بطائل من القاتلَيْن. فاختفى الإغريق بهما واسْتَقْصَوُا الخبر فأخبراهم بما كان.

مجرى وقائع هذا النشيد في الليلة التي جرت بها وقائع النشيد السابق ومشهدها في المعسكرين.

النشيد العاشر١

دون السفائن والدُّجَى قد خَيَّمَا	هجم الهجوعُ على الجيوش مُنَوِّمَا
فتمتعوا بهنيئه لكنَّما	أتريذُ يأرَق بالهواجس مفعَما٢
كقرين هيرا إن أقام مهيِّئًا	بردًا وسيلًا في البلاد عرمرمَا٣
أو رام يستر ثلجُه وجه الثرى	أو تَفْغَرُ الحربُ المهدِّمَةُ الفَمَا٤
في الجو تقصِفُ وامضاتُ بروقِه	كفؤادِ أَتْرِيذٍ يهيج تَضَرُّمَا
لمعسكر الطروادِ يُلْفِتُ تارة	فيرى مقابِسَهُمْ بذيَّاك الحما
وعجيجَهم وصدى ترسُّلِهم على الـ	ـشَّبَّابِ والقصب الرخيم ترنُّما
فيعود مذعورًا وطورًا ينثني	نحو السفائن ثم يُحْجِمُ مرغَمَا
وشعوره بأصولها وفروعِها	يجتثُّ مبتهلًا لزفس تظلّما
ويُصَعِّدُ الزفراتِ من لُبِّ الحشا	متبصِّرًا فيما عسى أن يُلْهَمَا
فبدا له أنَّ الصواب بملتقى	نسطورَ عَالَّ لديه رأيًا أقوَمَا
ولعله بحجاه يدرِك منفَذًا	يُوقَى به الإغريقُ شرًّا أعظَمَا

فاشتد منتصبًا وأدرع موثِقًا ... خِفَّيْهِ في رِجْلَيْهِ وَثْقًا مُحْكَمًا

وعليه ألقى جلد قَسْوَرَةٍ إلى ... عَقِبَيْهِ يسترُه وقَالَ اللّهْذَمَا٥

وقضى مَنِيلَا ليلَه أرِقًا علَى ... قلق يفكِّرُ ساهدًا متألِّمَا

يخشى على القومِ الأُلَى خاضوا العُبَا ... بَ لأجله وأَتَوْا يُرِيقُونَ الدِّما

فعلى عريض الظهرِ ألقى مسرعًا ... بردًا بَهِيًّا جلدَ فهدٍ مُعْلِمَا٦

وتَرِيكَةُ الفولاذ تعلو رأسه ... وبصُلب راحته السنان مقوَّما

وعَدَا ليُوقِظَ سيدَ القوم الذي ... كعظيم ربٍّ فيهم قد عُظِّمَا٧

ألفاه في راس السفائن قائمًا ... مستبشرًا لقدومه مستلئمَا

فبدا مَنِيلَا بالخطاب: «أخي لِمَا ... ذا أنت مُدَّرِعٌ أتبغي سيِّدا

متجسِّسًا يأتي العُداة وخشيتي ... أن لا ترى قَرِمًا يُلَبِّي مفرَدا

ولئن وقعتَ عليه في قلب الدجى ... فلذاك قلب لا يُرَاعُ من الرَّدَى»

فأجاب: «أنت بحاجة وكذا أنا ... لمُصِيبِ رأيٍ نبتغيه مُنْجِدَا

أفلا ترى زَفسًا تغيَّر مؤثِرًا ... قربان هَكْطُرَ فاجتباه مؤيِّدا

ما خلتُ ما بُلِّغْتُ قَرِمًا غيرَه ... أمثال هذا الويل أنزلَ في العدى

ما كان للأرباب يُنْسَبُ مَوْلِدًا ... وأنالنا الويلاتِ تُذْكَرُ سرمَدَا٨

فامض ادع آياسًا وإيذُمِنًا كذا ... كَ أنا إلى نسطورَ أذهب مُقْعِدَا

فعساه في الحراس يُنْفِذُ أمرَه ... مذ فيهمُ قد كان أرفع سؤدُدا

وعليهم من قبلُ أمَّرنا ابنَه ... والشهم مريونًا» فقال وقد عدا

«أفبانتظارك أَلْبَثَنَّ لديهما ... أم أُبْلِغَنَّ وأَرْجِعَنَّ مُخَوِّدَا»٩

قــال: «ابــق ثَمَّــةَ فالمعســكر سُــبْلُهُ   شتى وأخشى أن نُضَلَّ بها الهدى[١٠]

سِــرْ صــائحًا بــالجيش يصــحُ مناشــدًا   كُـــلًّا أبـــاه ومُنْتَمَـــاهُ مَحْتِـــدَا

عَظِّمْـــهُ لا متعظمًـــا واجهـــد فزَفـــ   ـس منذ نشأتنا قضى أن نُجْهَدَا»[١١]

فكـــذا أغـــاممنون حَـــضَّ شـــقيقَه   ولِخَــيْمِ نســطورَ الحكــيم تقــدَّما

ألفـــاه قـــرب خيامـــه وســـفينه   وَسِنًا على غض الفراش قد ارتمى

وتليـــه شِـــكَّتُهُ البهيـــة خـــوذةٌ   والجــوبُ والرمحــانِ ثَمَّــةَ قُوَّمَــا

وكـــذاك لَأْمَتُـــهُ التـــي يجـــري بهـــا   للحرب في صدر الفوارس مُقْدِمَا

شـــيخٌ ومـــا أيامـــه بمُذِلّـــةٍ   لقـواه بـل ظـلَّ الكمـيَّ الْأَيْهَمَـا[١٢]

فَصَــحَا يُمِيــلُ الــرأس متكئًــا علــى   يـــده وأَترِيـــذًا دعَـــا مســـتفهما

«مــن أنــت مــن بــين السـفائن والحِمَـا   والناسُ ناموا في الدجى قد أسأدا[١٣]

أفرمــت بعــض الصــحب أم حراســنا   لا تأتِني بالصمتِ قل لك ما بدا»[١٤]

فأجــاب: «يــا نَسْــطُورُ يــا فخــر الأرا   غِـسِ ذا أغـاممنون فاعرفْـه اغتـدى

زَفْــسٌ يهيــل علــيَّ مــن دون الــورى   جهدا مدى عُمُرِي يدومُ على المدى

ولقــد جفــا طرفــي الهجــوع وســاقني   قَلَقِــي فجئتُــك قاصــدًا مُسْــتَنْجِدَا

أبـــدًا يـــؤرِّقني وبـــالُ رجالنـــا   والحــرب قائمــةٌ ومــرجعهم غــدا

فــالنفس بــي جاشــت وقلبــي خــافقٌ   ومفاصــلي ارتعــدت وعزمــي بُــدِّدَا

أفــلا أتيـــتَ وأنـــت مثلـــي ســـاهدٌ   تمضي إلى الحراس كي نَتَفَقَّدَا[١٥]

فلعلهـــم فـــي جُهـــدهم ونُعاســـهم   تركـــوا خِفَـــارَتَهُمْ وبـــاتوا رُقَّـــدَا

فمعســـــكر الأعــــداء ذاك ورُبَّمَـــا فــي الليــل أورى حربَــه مُتَمَــرِّدَا»
فأجــاب نســطورٌ: «أيــا مــولى الــورى ما خلتُ زَفْسَ مرامَ هَكْطُرَ مُسْعِدَا
ولســوف يأخــذه العنــاءُ إذ ارعــوى آخيــلُ يُخمِــد غيظَــه المتوقِّــدا
وَلْنَمْضِـــيَنَّ فــــإنني لــــك تـــابع فنقــيم هاتيــك الســراةَ الهُجَّــدَا
ذا الــــرمح ذُومِيـــــذًا وأُوذِيسًـــا وآ يــاسَ الســريعَ ومِـيجِسَ الْمُتَجَلِّـدَا
ولنطلـــــبنَّ الملــــكَ إيــــذُمِنًا وآ يــاسَ الكبيـرَ ففـي السـفائِنِ أَبْعَـدَا
وكــــذا مَنِـــيلاس الــــذي أجللتــــه ولــئن تُغَــظْ فســألتقيه منــدِّدَا
مــا كــان أجــدَرَهُ يليــك محرِّضًــا أبطالنــــا متزَلِّفًــــا متـــــودِّدَا
أفـــيهجعنَّ ويتـــركنَّ لــــك العَنـــا والــرُّزءُ بــرَّح والوَبــالُ تَشَــدَّدَا»
فأجــاب أتريــذٌ: «نعــم يــا شــيخ كــم قــبلًا ســألتُك أن تليــهِ مُفَنِّــدَا١٦
قــد ينثنــي حينًــا ويلبَــثُ مُحْجِمًــا لا غفلـــةً وتقاعسًـــا وتعمـــدَا
لكنــــه أبــــدًا يُبـــارِي مـــوقفي حتى يكون بحسنِ مسراي اقتدى
وقــد اغتــدى قبلِــي وقــد أرســلتُه بطـلاب أقيـالٍ أتيـتَ معـدِّدَا١٧
أقبِــلْ نُــوَافِهِم لــدى الحــراسِ فــي الــ أبواب حيث لهم ضربت الموعدا»
فأجــاب نســطور: «ومــا مِــنْ لائــمٍ يعصـيه إن يـأتِ الجنـودَ مشـدِّدا»
ثـــم انثنـــى للـــدِّرْعِ يلبَسُـــهَا وللـــ ـــحِقَّيْنِ يوثــق محكمًــا بعُرَاهُمَــا
ورداؤه بُـــرْدٌ مـــن الصـــوف الكَثِيـــ ـــفِ مــبطن بِبَهِــيِّ فِرْفِيــرٍ ســما
بعـــراه شـــد يقـــلُّ رمحًـــا ســـاطعًا فـــولاذه ثـــم الســـفائن يمَّمَـــا
ومضــى يصــيح فكــان أوَّلُ مــن دعــا أُوذِيـــسُ ذيَّــاك الهمــامَ الأحكَمــا

فإذا به والصوتُ يخرق لُبَّه   من باب خيمَتِهِ عدا متكلِّما

«فعلام ما بين السفائن والحِمَا   هذا التجول والظلام تلبَّدا»

فأجاب نسطور: «مَهٍ وانظر لما   جيشَ الأراغسِ بالهلاك تهدَّدا

إِلْحَقْ بنا ندع السَّرَاةَ ونرتئي   أنكر أم تأوي الكتائب شردا»

فلخَيْمِهِ أوذيس بالعجل انثنى   وأتى بمِجْوَبِهِ وأدلج معْهما

لحِما ابن تِيذِيسٍ مضوْا فإذا به   بسلاحه تحت الفلا قد هوَّما

ووسادُهُ زُرْبِيَّةٌ ملفوفةٌ   وفراشه من جلد ثورٍ أسحَمَا[18]

ورفاقه من حوله بهجوعهم   كُلٌّ تَوَسَّدَ تُرسَه متجشِّما[19]

ورماحهم أعقابها تحت الثَّرى   وظُبَا أسنَّتِهَا تَأَلَّقُ في السما[20]

فإليه نسطور تدنَّى مُمْسِكًا   عقبيه ثم دعا يصيح تَهَكُّمَا

«قم يا ابن تيذيسٍ أليلَك كله   تكرَى ومن لَغَبِ العِدى ارتفع الصدى

أفخِلْتَ جيشهم إزاء سفيننا   في السهل فوق هضابه قد أنجدا»

هب ابن تِيذِيسٍ وقال: «لَكَمْ أرى   يا شيخُ نفسك قد جهدتَ مُنَكَّدَا

أفما بأبناءِ الأخاءَةِ فتيةٌ   يَسْعَوْنَ في استنهاض قومك رُوَّدَا

لكن أبيتَ سوى الجهاد ذريعةً   وعظيم بأسك للجهاد تعوَّدا»

فأجاب نسطورٌ: «أصبت فإنَّ لي   وُلْدًا وغلمانًا تُلَبِّي المقصِدا

لكننا في موقف حَرِجٍ على   أمضى من المُوسى حياةً أو رَدَى[21]

فاذهب وأنت فتًى وتكفيني العنا   أيقظ أياسَ ومِيجِسًا مسترفِدا»

فعليــه ألقــى جلــدَ قســورة إلــى عقِبيــه يســتره وقَــلَّ اللهــذما
فمضــى أتــى بهمــا وجمعُهُــمُ جــرى يمضــي إلــى حُرَّاسِــهِم مســتعلما
فبــدا لهــم زعمــاؤهم فــي يقظــة بســلاحهم كـلٌّ حِمـاه قـد حمـى
مثــل النــواهس فــي الحظــائر سُــهَّدٌ حول الخرافِ وسبعُ بَرٍّ هَمْهَمَا٢٢
فــالوحش منحــدر مــن الشُّــمِّ العلــى فــي غابــه ودُجَــى الظــلام تَقَتَّمَــا
والنــاس تقحَــم والكــلاب بصَــيْحَةٍ مـن حولـه فـي الليـل كـي لا يَقْحَمَـا
فــالنوم يهجــرهم كمــا هجــر الأَلَــى خفروا الجنود بجنح ليل أظلما٢٣
أبــدًا بــذاك الســهلِ يحــدق طــرفهم مصـغين خـوف عـدوِّهم أن يَـدْهَمَا
فـــاهتز نســـطورٌ لـــرؤيتهم علـــى حـــذرٍ وقـــال مطيِّبًـــا متبســـمًا
«إيـــهٍ بَنِـــيَّ خفَـــرتم فتيقظـــوا أو لا فنمســـي للأعــادي مــوردا»
واجتــاز مــن ثَــمَّ الحفيــرَ وخلفَــه صـيدُ السُّـرَى حتـى تَبِـتَّ وتُبْرِمَـا
وكــذلك الشــهم ابــن نســطورٍ ومِــرْ يُونًـا لـذاك المنتـدى اسـتدعوهما
حلــوا محــلًّا لــم تدنســه الــدِّمَا حيث التوى لليل هَكْطُرُ مُحجِما٢٤
فهنــاك مجلســهم تــألّف وانبــرى نسـطورُ يفتـتح الحـديثَ المفحِمـا
«أَبِكُــمْ فتًــى صــحبي بثَبْــتِ جنانــه عبءَ التجسسِ في العداة تقلّدا٢٥
فعســى يفــاجئُ مــنهم فــردًا نــأى أو عـــنهم يـــروي حـــديثًا أُورِدَا
ويـــرى أَعَــزْمُهُمُ التثبـــتُ للـــوغى قــرب الســفائن شــدةً وتوقــدَا
أم عــودةٌ لــديارِهم مــن بعــدما قــد أعملــوا فينــا قنًــا ومُهَنَّــدا
وعســاه يســمع ثــمَّ يرجــع ذاخــرًا فـي الأرض ذكـرًا والسـماءِ مخلـدا

وكــذاك نحبــوه جَــدًا لــم يَحْــوِهِ ... أحــدٌ ولــم يظفــر بــذيَّاك الجَــدا

مــن كــل قيــلٍ فــي السـفائن نعجـةٌ ... ســوداء ترضـع خيـر جـدي أسـودا

ويكــون فــي كــل الــولائم والمــآ ... دِبِ من ذوي القربى الأعزَّ المُفْتَدَى»

فالصــمتُ طــال بهــم فصــاح ذِيومِـذٌ ... «قلبــي يحــدِّثني بــأن أتجــردا

فأنــا أيــا نســطور أختــرق العِــدى ... فهــم بمقربــةٍ ولــن أتــردَّدا

لكــن معــي إن ســار مــن أصــحابنا ... أحــدٌ أَزِيــدُ تشــددًا وتجلــدا

إذ حيــث ســارَ اثنــان بعضُــهما بَــدَا ... لا شــك أدرك للمَــرام وأرشــدا

والفــردُ لــو نظــر الســدادَ فربمــا اعــ ... ـتاص السدادُ على حجاهُ وعُقِّدَا»[٢٦]

فلَحَاقَـــهُ الجــمُّ الغفيـــرُ تَطَلّبُـــوا ... ذاك الأيــاسُ وذا الأيــاسُ كلاهمــا

وكــذا ابــن نســطورٍ ومِرْيُــونُ الفتــى ... وكــذا مَنِــيلَا مَــن لِأَتْــراسَ انتمــى

أُذِيــسُ ذيَّــاك الهمــام أخــو النهــى ... من لاختراق سرى العداة تحدَّمَا٢٧

كــــلٌّ يــــروم لِحَاقَــــهُ لكنَّمَــــا ... أَتْرِيــذُهُمْ حســمَ الجــدالِ مُحَكِّمَـا

«لــك يــا ذيوميــذُ الخيــارُ فخــذ إذن ... مَــنْ رُمْــتَ أبسَــلَهُمْ وأطــولَهم يــدَا

لكــن حــذارِ بــأن تعــافَ جــديرَهم ... عطفًا على من كان أكرمَ مولدَا»٢٨

فبــــذاك أتريــــذٌ أشــــار ترفُّقًــــا ... بأخيـه قـال: «لـي الخيـار إذا غـدَا

أفــــلا أرى مــــولى أثينــــا أُوذِسًــــا ... والعـزمَ والـرأيَ الـرجيحَ مُسَـدَّدَا٢٩

وإذا بقلــــب النــــار كنــــتُ رفيقَــــه ... فبحزمــه نلقــى لمخرَجِنَــا مــدى»

فأجـــاب أوذيـــسٌ: «مـــهٍ لا تَمْــدَحَنْ ... أو تَقْـــدَحَنَّ مُخَفِّضًـــا ومُصَـــعِّدَا

قد قمتَ ما بين الأغارِق خاطبًا … وجميعُهُم عرفوا الصحيحَ المسنَدَا

فالليلُ من أثلاثِهِ ثُلُثَيْنِ قَدْ … أفنى وأبقى منه ثلثًا أَوْحَدَا

والفجر دانٍ والظلامُ مُسَارِعٌ … والنجم مالَ فقُمْ فقد قصُر المدى»[٣٠]

نهضا وبالعَدَدِ الثقيل تدججا … والشهم ثَرسِيمِيذُ قام إليهما

أعطى ذِيُومِيذًا حسامًا قاطعًا … حدَّاه مُذْ قد كان أعزلَ أقدما

ومِجَنَّهُ وتَرِيكَةً جلديةً … ملساءَ للفتيان كانت مَعْلَمَا

وأُذِيسَ مِرْيونٌ أعار سلاحَهُ … قوسًا وجُعْبَتَهُ وسيفًا مِخْذَمَا ٣١

وتريكة جلدية بلفائفٍ … من داخلٍ من فوق صوفٍ أنعَمَا

وأُدِيرَ من سِنِّ الخَرَانِيصِ البَهِيْ … صَفٌّ عليها خارجًا قد نُظِّمَا

قد كان عَفْطُولِيقُ في إيلِيُّنٍ … من صرح آمنطورَ أحرزَ مَغْنَمَا

ولأَمْفِدَامَاسٍ بإسْقَنْدَا حَبَا … فَبِهَا على مُولُوسَ ضيفًا أنعمَا

وأنالها مُولُوسُ مِرْيُونَ ابنَه … وكذاك مريونٌ لأوذِسَ سَلَّمَا ٣٢

فكذا بِرَوَّاعِ السلاح تقدَّما … وإذا بطير سار عن يمناهما

رَخَمٌ أثينَا سَيَّرَتْهُ وفي الدجى … سَمِعَا وما رَأَيَا يصيح مُنَغِّمَا

فاهتز أوذيسٌ له مستبشرًا … ووعا وخيرَ الفألِ فيه توسَّمَا: ٣٣

«يا بنت رب الْجَوْبِ كم أوليتني … عونًا جميع مسالكي قد مَهَّدَا

فالآن غوثَك مذ علمتِ مآربي … ولنا أتيحي العودَ عودًا أحمدَا

فنُجَشِّمَ الطروادَ قبل مآبِنا … مَضَضًا يذيقهم النكالَ مؤبَّدَا»

ثم انبرى ذَومِيذُ يدعو بعده … «يا بنت زفس كذا اسمعي مني النِّدَا

ومعي فسيري مثلما في ثِيبَةٍ ... رافقت قبلًا تِيذيُوسَ الأمجدَا
لما كتائبنا ثغورَ أسوفُسٍ ... حَلّتْ إلى أبناءِ قُدْمُسَ أوفِدَا ٣٤
فقضى مآل رسالة سلميةٍ ... ثم انثنى فَوَلِيتِهِ فَتَسَوَّدَا
وقضى العجاب بعوده فكما أثي ... واليتِ لي كوني الرفيقَ المرشدا
ولقد نذرتُ ضحية بتبيعة ... جبهاءَ ما رفعوا إليها المضمَدا ٣٥
ولقد نذرتُ كذاك نذرًا صادقًا ... من فوق قرنيها أذُرُّ العَسْجَدَا»
دَعَوَا وسارا بعد بَثِّ دُعَاهُمَا ... ولدى أثينا حلَّ صوت دُعَاهُمَا
وتقدما أسدين بين ظلائمٍ ... وجماجمٍ وملاحم تلقاهما
أما الطراود فانبرى هَكْطُورُهُمْ ... يدعو الأماثل خشيةً أن يهجعوا
حتى إذا التأموا بمجلسِه ارتأى ... أمرًا فقال لهم وكلٌّ يسمع
«من منكم إن يؤتَ خيرَ هديةٍ ... عهدًا يعاهدني يُلَبِّي المطلَبَا
فينال أكرم سَلْهَبَيْنِ لدى العدى ... وأعزَّ مركبةٍ يَجِلُّ بها الحبا ٣٦
ويفوز بالشرف الرفيع إذا مضى ... يتجسَّسُ الأعداء في طلب النَّبَا
أهُمُ على ما عُوِّدُوا من يَقْظَةٍ ... أم هَدَّ عزمهم النكالُ منكِّبًا
والعَيُّ أقعدهم وقد أنِفُوا السُّهَا ... دَ مُعَوِّلِينَ على التملص مهربَا»
صَمَتُوا فقامَ فتًى دَعَوْا ذُولُون أو ... مِيذٍ فبرَّز بالنفائس يَطمعُ
فَيْجٌ توفَّر عنده بخزائنٍ ... فولاذُه ونُضارُه الْمُتَجَمِّعُ
ووحيد والده لخمسِ شقائق ... أعداهم جريًا ووجهًا أشنعُ

قـال: «اصـغَ هكطـورٌ فـإن بخـاطري جأشًـا يحـدثني بـأن أتأهَّبَـا
وأسـيرَ للأسـطول ليلـيَ راصـدًا حركـاتِهِم متحسِّسًـا مترقِّبَـا
فـارفع عصـاك إذن وأقسـمْ مُـثْقِلًا أنـي أُثَـابُ إذا عزمـتُ مُأَوِّبَـا
بجيـاد آخيـلٍ ومركبـةٍ بهـا فـولاذُه الصـلبُ المُؤَلّـقُ رُكِّبَـا
فأسـير مخترقًـا إلـى لُـبِّ الحِمَـا أعتـانُ ثـم لَأَبْلُغَـنَّ المركَبـا٣٧
حيـث الملـوكُ لـدى أَغَـامَمْنُونَ قـد رأوْا الفـرار أو التـربصَ أرغَبـا
مـا كنـت تعلـم دَيْـدُبَانًا جـاهلا حتى لِظَنِّكَ بي أكون مخيِّبًا»٣٨
رفـع العصـا بيديـه هَكْطُـرُ مقسِـمًا «إِسْتَشْـهِدَنَّ علـيَّ زفـسَ المُرهِبـا
لـن يعلـون سـواك خيـلَ أخيـلَ بـل سـتنالها منـي حـلالًا طيبًـا»٣٩
مـا كـان هكطـورٌ لِيُقسـم صـادقًا لكنـه ذولـون شـدد يُقْنِـعُ
عجـلًا مضـى يـأتي بقـوس فـارجٍ وبفـرو ذئـبٍ أبـيضٍ يتلفَّـعُ٤٠
وبمِغْفَـرِ السـنجابِ يسـتر رأسـه وسـنانُ عاملـه المثقَّـف يلمَـعُ
لمواقـف الأسـطولِ سـار وإنمـا هيهـاتِ مـن تلـك الرسـالةِ يرجـع
حتـى إذا بَـرِحَ الحمـا والخيـلَ والـ ـفرسان جَـدَّ مسـيرَه يتسـرَّع
فـرآه أُوذِسُ قـال: «يـا ذُومِيـدُ ذا عـين مـن الأعـداء جـاء مُحَجَّبَـا
أتـرى أتـى كـي يَرْقُـبَ الأسـطول أو مـن عُـدَّةِ القتلـى يَغُـلَّ ويَسْـلُبَا
دعـه إذن حتـى يمـر أمامنـا فعليـه نقبِضُ حيث يُحْـرَجُ مـذهبا
لكـن إذا مـا اجتازنـا عـدوًا ولـم ندركـه بـالرمح اقْتَفِيـهِ مصـوِّبَا
واقطـع سـبيل قفولـه لرجالـه وإلـى السـفائن رُدَّهُ متعقبـا»

فتواريا زحفًا على القتلى على   جَدَدِ الطريق وذاك جهلًا يهرع

حتى تناءى قيدَ ثَلْمٍ قاطعًا   مما تُثَلِّمُهُ البغالُ وتقطع ٤١

(إن البغال لِشَقِّ قلب الأرض في الـ   ـمحراث من بقر الزراعة أَنْفَعُ)

فتقفَّياه فحَلَّ وقع خطاهما   في سمعه فلوى الخُطَى يَسَّمَّعُ

أملًا بأن سعاة هَكْطُرَ وُجِّهَتْ   بلحاقه فأتت تَجِدُّ وتسرع

لكن على مرمى القنا عرَف العدى   فجرى وكلٌّ منهما يتتبع

كالخَيْطَلَيْنِ مُثَقَّفَيْنِ تَأَثَّرَا   في الغاب أرنبةً وخشفًا يرتع ٤٢

ذو الناب بالناب الحديد مُرَوِّعٌ   والخشف يثأجُ واثبًا يتروَّع ٤٣

فَصَلَاهُ عن جيش الطراودِ نائيًا   حتى على العُسَّاسِ أوشك يُدْفَعُ

دفعت فَلاسُ ذِيُومِذًا بعزيمة   كي لا يصول عليه قَرْمٌ أمنعُ

ويكون ذاك القرم أوَّلَ طاعن   وذِيُومِذٌ بالطعن تالٍ يتبع

هز القناة وقال: «قف أو لا فَخُذْ   تؤتيك أنْبُكَ الحمامَ مُقَرَّبَا

فرمى يُصَرِّحُ فوق كاهِلِهِ بِهَا   عمدًا فغاصت في الثرى تترعرع ٤٤

فانهدَّ ممتقعًا وأُوْقِفَ هالعًا   مُصْطَكَّةٌ أسنانُه يَتَلَعْلَعُ ٤٥

وَثَبَا عليه ومن يديه أمسكا   هُ فقال يشهق باكيًا يَتَخَضَّعُ

«عفوًا وتُجْزَلُ فديتي ذهبًا وصُفْـ   ـرًا والحديد مُثَقَّفًا ومُصَلَّبَا

وأبي يُنِيلُكُمَا الغنى إمَّا درى   أني على الأسطول حيٌّ في الخِبَا»

فأجاب أوذيسٌ بحكم دهائه   «فاسكن ولا تخش الردى مُتَهَيِّبًا[٤٦]

قــل صــادقًا مــا جئــتَ ترقــب مفــردًا   والنـــاس نـــاموا والظـــلامُ تَقَطَّبَـــا
أفجئــتَ تســلُب أم بغــى بــك هَكْطُــرٌ   عينًـــا لموقفنـــا أُسِـــيرَ لِيَرْقُبَـــا
أم جئــت مــن تلقــاءِ نفســك خابطًــا»   فأجــاب يخفُــق جازعًــا يَتَهَلّــعُ
«بــل هكطــرٌ أغــرى وأورثنــي الــبلا   إعــدادُه صِــلَةً يَجِــلُّ بهــا الحِبــا
أفـــراسَ آخيـــلٍ ومركبـــةً بهـــا   فـــولاذُه الصـــلبُ الْمُؤَلّـــقُ رُكِّبَـــا
لأســـير والليـــلُ ادْلَهَـــمَّ مســـارعًا   لمواقـف الأعـداءِ فـي طلـب النَّبـا
أســـفينَكم صُـــنْتُمْ كســـابق عهـــدكم   أم هـــد عـــزمكم الوبـــالُ مُنَكِّبَـــا
والعـــي أقعـــدكم تعـــافون السُّـــهَا   د معـوِّلين علـى الـتملص مهربـا»
فأجـاب مبتسـمًا أُذِيـسُ: «نعـم فقـد   أُطْمِعْــتَ فــي صِــلَةٍ تعِــزُّ تَطَلّبَــا
لكنمـــا هيهـــات إِنْسِـــيٌّ علـــى   تلـــك الجيـــاد يُطيـــق أن يتغلبـــا
إلا أخيـــل وذلـــك ابـــن إلهـــة   فاصدُق وقل لي أين هَكْطُرُ كَوْكَبَا
وســـلاحه وخيولـــه وعيونُـــه   ومعســـكرُ الطـــرواد أيـــن تَرَتَّبَـــا
أعلمـــت عـــزمهم التـــربُّصَ للـــوغى   قـــرب الســـفائنِ شـــدةً وتصـــلّبا
أم عـــودةً لـــديارهم مـــن بعـــدِ مَـــا   قد أعملوا فينا الحسام الأشهبا»٤٧
فأجــاب ذولــونٌ: «سأصــدقُك النبــا   عـن كـل مـا قـد رُمْـتَ تعلـم مُعْرِبَـا
هكطـورُ عـن لغـب الـوغى فـي عُزْلَـةٍ   مــن نخبــةِ الزعمــاء أَلّــفَ موكِبــا
وهنــاك فــي شــوراه أهــلُ المنتــدى   يقضون حول ضريح إيلُو المُجْتَبَى
لــم ينظِمــوا حرسًــا علــى جنبــاتهم   لكـــنَّ جيشـــهم الهجـــوعَ تجنَّبَـــا
وأقــام مــن حــول المقــابس ســاهدًا   متكاثفًـــا متيقِّظًـــا متألِّبـــا

لكنما الحلفاءُ ليس وراءهم ولد وأزواجٌ تُرَامُ فَتُسْتَبَى

أَلْقَوْا على الطَّرْوَادِ عِبْءَ هُجُودِهِمْ ولفيفُهُم عذبَ الهجوع استعذبا»[48]

فأجاب أوذيسٌ: «وهل هُمْ جملةً أم كلُّ قومٍ في حماه تَكَتَّبَا»

فأجاب: «من بعد اقتراع قُيُولِهِمْ في الجُرْفِ عسكر قاريًا قد طنَّبَا

وكذا رماة فِيُونيا وفَلَاسِجٍ قَفْقُونَةٍ والكل يهجع مُتْعَبَا

وكذلك اللِّيلِيجُ ثم بِثِمْبَرَا قد حل فَيْلَقَ لِيقِيَا فوق الربى

وكماة خيل مِيُونيا وفَرِيجِيا وهناك عسكر مِيسِيَا آلُ الظِّبَى[49]

وعلام ذا التنقيبُ دونكما الهدى إن تطلبا ثَمَّ الولوجَ وترغبا

فهنا الثَّراقَةُ جيشهم توًّا أتى طَرَفَ الحِمَا حَلّوا مكانًا أقرَبَا

ومليكهم رِيسُوسُ خِلْتُ خيولَه كالثلج نُصْعًا والعواصف هُبَّبَا

وعجيب مركبةٍ تُنِيرُ بعَسْجَدٍ حول اللُّجَيْنِ على سلاحٍ أعجبا

ما كان يجدُر صُنْعُهُ ونَضَارُهُ بالإنسِ بل ويَزِينُ ربًّا أَهْيَبَا

فبِيَ اقصدا الأسطول إما شئتُما أو لا وثاقي فاشدُدَاهُ واذهبا

وتحققا أصدقتُ فيما قلتُه أم رمتُ عمدًا أن أروغ وأكذِبا»

فعدا ذيوميذٌ يحملق صارخًا «لا تجعلنَّ لك التملص مأربَا

بك قد ظفرنا لا ترُم لك نجوةً ولئن بذلت لنا البلاغَ الأصوبا

فإذا حييت مُسَرَّحًا أو مُفْتَدًى فلسوف ترجع راقِبًا أو مُحْرِبَا

لكن إذا أُورِدْتَ في العَجَلِ الرَّدَى بين الأخاءَةِ لن تَرُودَ وتضرِبا»

فأشـــار ذولـــونٌ لعارضـــه يَمَـــ ـــسُ بكفــه متشــفعًا يتضـــرع

لكـــنْ ذيوميـــدٌ علـــى العنـــق انثنـــى بحسـامه الْعَضَـلَيْنِ قطعًـا يَقْطَـعُ ٥٠

فـالرأس أهـوى للحضـيض مصـدَّعًا مـذ كـان يهتـف صـارخًا يتصـدَّع

وكـــلا ذيوميــــدٍ وأوذِسَ عامِــــدٌ لتريكـــةٍ والقـــوسَ منـــه يَنْـــزَعُ

وكـذاك جلـدَ الـذئب والـرمحَ الطَّوِيــ ــلَ وكلهـا أوذيـسُ أمسـك يرفـع

نــــذرًا لآثينــــا يقـــدِّم هاتفًـــا «يا ربة اقْتَبِلِي السلاح مُخَضَّبَا ٥١

مــن كــل آل الخلــد أبنــاءِ العلــى فلأنـــتِ أول مـــن نـــروم تقرُّبَـــا

وبِنَــا إلــى حيــث الثَّرَاقَــةِ عســكروا بخيــولهم ســيري فلــن نَتَحَسَّــبَا»

وبجـــذع طرفـــاءٍ أنـــاطَ مُكَثِّفًـــا قصـــبًا وأوراقًـــا عليهـــا تُجْمَـــعُ

سِــمَةً بَغَــى فــي جــنح ذَيَّــاكَ الــدُّجَى لهمـــا فـــلا تخفـــى بـــه وتُضَـــيَّعُ

وتقـــدَّما بـــين القواضـــب والـــدِّمَا فـإذا الثراقَـةُ بـالهجوع تمتَّعُـوا ٥٢

وإزاءَهــم فــوق الحضــيض ســلاحُهُمْ ســطرًا ثلاثــةَ أســطُر قــد جمَّعُــوا

وإزاءَ كـــلِّ فتًـــى جـــواداهُ وفـــي قلــب الكُمــاة ملــيكُهم متمنِّــع

ووراء مركبـــــةٍ تليـــــهِ أُوثِقَـــــتْ أفراسُـــهُ الأنجـــابُ لا تتفـــزَّعُ

فهنـــاك أُوذِسُ كـــان أوَّل باصـــرٍ فـــإلى ذيوميـــذٍ أشـــار يُشَـــجِّعُ

«هـــاك الكَمِـــيَّ وهاكَهـــا أفراسَـــه ذولـــونُ لـــم يَـــكُ مائنًـــا متكـــذِّبا

فالبـأس بأسـك صُـلْ فأنـت مُـدَجَّجٌ أو شـــأنُنَا ذا اليـــومَ أن نَتَنَكَّبَـــا

حُـــلَّ الجيـــاد وإن تشـــأ فأَحُلَّهـــا واضـرب بأعنـاق الرجـال مقضِّـبَا»

ويـــدَ ابـــن تِيـــذِيُس أثينـــا شَـــدَّدَتْ فـانقضَّ أسـبابَ الرقـابِ يُقَطِّـعُ

سَـيْفٌ فَـرَى ودَمٌ جَـرَى صَـبَغَ الثَّـرَى وَتَصَـــدُّعٌ وَتَوَجُّـــعٌ وَتَفَجُّـــعُ

كالليـــث فاجـــأ ثُلَّـــةً لـــم يرعَهَـــا راعٍ فمزَّقهـا ومـا هـو مُقْلِـعُ٥٣

مـا زال يـبطُش فاتكًـا حتـى فـرى بحسـامه اثنـي عشـر قَرمًـا يَصْـدَعُ

وأُذِيـــسُ ثَمَّـــةَ كلمـــا قُتِـــلَ امـــرُؤٌ عقبيـه يَقْـبِضُ والطريـقَ يوسِّـع

حرصًـا علـى الخيـل التـي مـا عُـوِّدَتْ عـدوًا علـى القتلـى فـلا تَتَضَعْضَـعُ

حتـى إلـى رِيسُـوسَ ثالـثِ عَشْـرِهِمْ بلغـا فجندلـه ذِيُومِـذُ يصـرَع

أرداه وهـــو مُصَـــعِّدٌ زفراتِـــه قَلِـــقٌ لِطَيْـــفٍ زارَه يتجـــزَّع

طيفًـا بشـكل ذِيُومِـذٍ فـالاسُ قـد بَعَثَـتْ على رأسِ المليك يُوَقِّعُ٥٤

وأُذِيـسُ حـلَّ الخيـل يقرِنهـا بمِضْـ ـمَدِهَا وجَـدَّ بهـا يسـير ويُقْلِـعُ

وبقوســه يســتاقها مــذ فاتــه سـوطٌ بمركبـة أُنِـيطَ مُرَصَّـعُ

حتـى نـأى فـدعا ذِيُومِـذَ صـافِرًا لكـن ذِيُومِـذُ ظـلَّ لا يتزعـزع٥٥

متـردِدًا أبجـذعها يَجْتَـرُّ مَـرْ كبـةً سـلاحُ رِسُـوسَ فيهـا يسطَع

أم بـين كلتـا راحتيـه يُقِلُّهَـا أم غُصَّـةَ المـوت الثَّـرَاقِ يُجَـرِّعُ

وإذا بفـالاسٍ إليـه دنـت تقـو لُ: «ذِيُومِـذٌ قـد حـان أن تتأوَّبـا

فلـرُبَّ رَبٍّ يـوقِظ الطـرواد فـي عجـلٍ فتُخْـرَجَ للهزيمـة مُرْعَبَـا»

فـوعى ذيومـذُ صـوتَها ثـم اعتلـى عَجَـلًا وأُوذِسُ بالحَنِيَّـةِ يقـرع٥٦

فـإلى الحمـى طـارا ورَبُّ النـور فِيـ ـبُسُ راقِـبٌ حركاتِهَـا متطلِّـع

لـم تَخْفَـهُ فـالَاسُ ذُومِيـذًا تَلِـي فـانقضَّ محتـدمًا وراح يُفَـزِّعُ

وإفُوقُنَـــا مـــن آلِ رِيسُـــوسٍ ومُـــرْ   شِدَ قومه في الحال نبَّه يُجْزِعُ[57]

فـــرأى يَهُـــبُ تـــذعُّرًا مـــا قـــد جـــرى   فـــدعا رســـوسَ رفيقَـــه يتوجَّـــع

النـــاسُ تخـــبِطُ بالـــدماءِ أمامَـــه   والخيـــلُ مربطهـــا لديـــه بَلْقَـــعُ

فتهافـــت الطَّـــرْوَادُ بـــين ضَـــجِيجِهِمْ   مُتَـــذَعِّرِينَ لِمـــا رأوه وأَسْـــمِعُوا

واســـتعظموا قِحَـــةً بهـــا هَجَـــمَ العِـــدَى   فسَـــطَوْا وللأَســـطول لـــيلًا أزمعـــوا

وذِيُومِـــذٌ وأُذِيـــسُ لمَّـــا بُلِّغَـــا الـــ   أســـلابَ حيـــث اسْـــتُبْقِيَتْ تُسْـــتَوْدَعُ

وَثَـــبَ ابـــن تِيـــذِيسٍ تَنَاوَلَهَـــا وفـــي   عَجَـــلٍ إلـــى أوذيـــسَ أقبـــلَ يـــدفع

ثـــم اعتلـــى والخيـــلَ ســـاط فطُيِّـــرَتْ   للقـــوم يحملهـــا الطريـــق المَهْيَـــعُ[58]

وبهـــم بـــدا نســـطور أَوَّلَ ســـامعٍ   قال «اسمعُوا يا صحبِ حدسي ما نَبا[59]

قـــد دَبَّ فـــي أذنـــي وقلبـــي مُنْبِئِـــي   خَبَـــبٌ بِكَبْكَبَـــةِ الجيـــاد مُدَبْـــدِبَا[60]

فعســـى ذيوميـــذٌ وأوذسُ أقبـــلا   ومن العدى خيرَ الجياد استصحبا

أخشـــى التألّـــب فـــي العـــداة عليهمـــا   فعســـاهما ببليـــةٍ لـــم يُنْكَبَـــا»

مـــا كـــاد نســـطورٌ يُـــتِمُّ كلامـــه   حتـــى مـــن البطلـــين هَـــلَّ المطلـــع

فتـــرجَّلا والكـــل جـــاء مُسَـــلِّمًا   بيمينـــه وصـــدى المـــديح يُرَجِّـــعُ[61]

فبـــدا بهـــم نســـطور أول ســـائل   والكـــل مُصْـــغٍ للنبـــا متوقِّـــع

«يـــا فخـــرَ آخـــايَ المبجَّـــل أوذِسًـــا   هـــذي الجيـــادُ فقـــل أكانـــت مكسَـــبَا

أم رَبُّ خلـــد ســـاقها صـــلةً أرى   كالشـــمسِ تلهَـــبُ بالشـــعاع تلهُّبـــا

فلقـــد هَرِمْـــتُ وخُضْـــتُ كـــل كريهـــة   وأبيـــتُ عمـــري عزلـــةً وتحجُّبـــا

لكننـــي لـــم أَلْـــفِ عمـــري مثلَهـــا   فلـــرُبَّ رَبٍّ مُجْتَـــبِ لكمـــا حبَـــا

فكلاكما للرَّبِّ زفسَ وبنتِه فالاسَ كان مقرَّبًا ومحبَّبًا»

فأجابه أوذيسُ: «يا نسطورُ يا شرف الأخاءةِ والحكيمَ الأنجبا

فالرب والأربابُ آلُ كرامةٍ لو شاء أتحفنا جيادًا أطيَبَا

لكنَّ هذي الخيل إثراقيةٌ جاءت حديثًا فانظرَنْ وتَعَجَّبَا

فذِيُومِذُ المقدام أردى قَيْلَهُمْ وإزاءَه اثني عشْر قَرمًا خَضَّبَا

وكذا بثالثِ عشرهم فُزْنَا وكَا ن إلى السفائن قادمًا متقرِّبا

عينٌ أسِيرَ لهَكْطُرٍ ورفاقه مستطلعًا أخبارنا متطلِبا»

واجتاز بالخيلِ الحفيرَ بغبطةٍ وكذا الجميع على المسرَّة أجمعوا

صحبوه حتى خيمةٍ لذيومِذٍ والخيلَ فيها في المرابطِ أودعوا

وهناك في الحب الشَّهِيّ جيادُه بمذاودٍ نُصِبَتْ لديها رُتَّعُ

ومضى أُذِيسُ بمنتهى أشراعه أسلابَ ذولونَ الخضيبةَ يشرَع[٦٢]

نذرا يُعِدُّ بها وكلٌّ منهما في البحر خاض مسارعًا يستنقِع

ساقيه والفخذين يغسِلُ دالِكًا عنُقًا بها عرقٌ يسيل ويَهْمَعُ

حتى إذا ما اليمُّ رطَّب جسمَه للمِسْبَحِ المصقولِ بادر ينزَع

مستأنفًا غُسْلًا به متطيِّبًا زيتًا به الجسم المرطَّب يمرع[٦٣]

ثم اغتدى لطعامه وهناك ضا في الدَّنِّ بالخمر الشهيَّة مُتْرَعُ

منها يريق بأكؤسٍ مملوءَةٍ نذرًا لآثينا بها يتشفَّعُ

هوامش

(١) نظمنا هذا النشيد على بحر واحد كأنه قصيدة واحدة قسمناها إلى قسمين: القسم الأول لوصف مجلس الإغريق وما تقدمه ووليه. والقسم الثاني لوصف مجلس الطرواد وما كان من بعده إلى آخر النشيد، وجعلنا كلًّا من القصيدتين على قافيتين: إحداهما للأبيات المتضمنة قص الخبر، والثانية لأبيات الإنشاء أو الخطاب والجواب؛ فكأن القارئ يقرأ قصيدة واحدة في أربع قصائد، وهو نسق لم نره في نظم شعرائنا ولعله يقع موقع القبول عند كرام القراء.

(٢) لا يفتتح هوميروس نشيدًا إلا ويأتي فيه ببينة على سمو تصوره. فلقد رأيناه في استهلال النشيد الثاني يشير إلى عظمة الإله الأكبر وإلى تنبهه إلى أحوال الخلق، فيأخذ الناسَ والآلهةَ الهجوعُ ليلًا وهو لا تأخذه سنة ولا نوم. ونراه هنا يمثل تيقظ الزعيم المقدام بين البشر بمثل ذلك التيقظ والتنبه. فقد هجع الجيش واستعذبوا الرقاد وأما أغاممنون فهو قَلِقٌ أَرِقٌ تنتابه الهواجس، يفكر في أمر جيشه ومصيره ويتشوف إلى وسيلة يدرأ بها الخطب المُلِمَّ. فليس مقامه هنا مقام الملك المعتز بباذخ مجده بل موقف الأب الرءوف الساهر على أبنائه. وهي عظةٌ من جملة عظات هوميروس التي افتخر بها الأقدمون وتَمَثَّلَ بها المتأخرون.

(٣) قرين هيرا: زفس – وهو من غريب التعبير الهوميري ونادره – كثيرًا ما سُمع في كلام العرب تكنية الرجل بابنته كتكنية الخليفة عثمان بأبي ليلى وتميم الداري بأبي رقية أو أمه كقول الفرزدق في زين العابدين: «هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله». وربما انتسب فارسهم إلى أخته فوق من تقدم. ولكنه لم يرد عنهم التعريف بالزوجة إلا أن يراد به التعظيم في أحوال خاصة كأن يقولوا في الإمام عليٍّ: زوج فاطمة الزهراء. وهذا بخلاف قول هوميروس «زوج هيرا» إذ لم يُرِدْ تعريفه بها ولا تعظيمه، وإنما هو على ما يظهر اصطلاح مألوف في عصره.

(٤) إن هوميروس على كثرة تشابيهه قليل الاستعارات ومع ذلك فإذا أتى باستعارة فإنما يوردها بأسلوب يطابق الواقع ويلِذُّ للسامع وأي أسلوب في وصف الحرب أبدع من استعارة الفم المفغور لالتهامِ أشلاء الرجال وأجساد الأبطال.

(٥) القسورة: الأسد، واللهذم: الرمح.

(٦) قال أفستاثيوس: إن منيلاوس إنما تَرَدَّى بفروة الفهد كما تردى أخوه أغاممنون بجلد الأسد؛ لأنهما إنما ذهبا في طلب مهمة لا في قصد قتال. ولا أظنها إلا هفوةً منه لأننا سنرى ذيوميذ البطل المقدام يتناول على منكبيه جلد الفهد أثناء هبوبه من النوم وهو إنما يتقلده كما يتقلد السلاح ويخيل له أنه ذاهب للقاء العدو، وأبلغ من ذلك أننا رأينا

فاريس في النشيد الثالث متقدمًا إلى براز منيلاوس وعلى كتفيه فروة فهد.

(٧) سيد القوم: أي أغاممنون. يسعى منيلاوس سعي أغاممنون كأن خَاطِرَيِ الأخوين تواردا على أمر واحد. ولكن السبب في تواردهما مختلف فهذا لأنه زعيم الجند وذاك لأنه سبب الحرب.

(٨) لقد علمت أن كثيرين من أبطال اليونان لهم علاقة نسب بالآلهة وأما هكطور فكان بشرًا قحًّا. ولعل أغاممنون أراد بقوله: «ما كان للأرباب ينسب مولدًا» أن يشير إشارة خفية إلى آخيل، وأمه كما تقدم من بنات البحر.

(٩) لديهما أي لدى ترسيميذ ابن نسطور ومريون. والتخويد: الإسراع في السير.

(١٠) يؤخذ من هذا البيت وأشباهه كما مر بك في أول النشيد الثالث والرابع أن النظام العسكري كان بالغًا مبلغًا عظيمًا في ذلك الزمان؛ لأن السفائن كانت مركزة تركيزًا حسنًا صفوفًا منفصلة بعضها عن بعض يتيسر لهم الخروج منها واللِّيَاذُ إليها والإقلاع بها على أهون سبيل، والمعسكر أمامها مرتبًا على أحسن نسق صفوفًا لا يختلط بعضها ببعض، فلا يستحوذ عليها الاضطراب والاختباط في الهجوم والدفاع.

(١١) تقدمت لنا أمثلة كثيرة تشير إلى تساوي الأجناد وإن اختلفت الأنساب وتباينت الأصول. وهنا عظةٌ أخرى من أغاممنون لأخيه يحظر عليه بها أن يتعظم وإن كان عظيمًا، وأما قوله: «فزفس منذ نشأتنا قضى أن نجهدا» فهو اعتقاد معظم الأمم منذ نشأتها. فالتوراة والإنجيل والقرآن وأشعار الأقدمين مشحونة بما يصرح بالاعتقاد بأن هذه الدنيا إنما هي دار عناء وشقاء. وما أحسن ما قال المعري بهذا المعنى:

تعبٌ كلها الحياة فما أعـ ـجبُ إلا من راغب في ازديادِ

إن حزنًا في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلادِ

(١٢) كثيرًا ما يتغنى شيوخ العرب ببأسهم تغني أغاممنون ببأس نسطور. قال المرار بن المنقذ:

عجبٌ خولة إذ تنكرني أم رأت خولة شيخًا قد كَبِرْ

وكساهُ الدهر سبًّا ناصعًا وتَحَنَّى الظهرُ منه فَأُطِرْ

أن تري شيبًا فإني ماجدٌ ذو بلاءٍ حسن غير غُمُرْ

وقال حرثان ذو الأصبع العدواني:

إن تزعما أنني كبرت فلم ألف بخيلًا نِكسًا ولا ورعَا

(١٣) أسأد: أي أغذ في السير.

(١٤) يؤخذ من هذا البيت أن شعار الليل لم يكن معروفًا في ذلك الزمن وإلا لما اضطر نسطور أن يسأل هذه الأسئلة، بل كان حسبه

أن ينطق بذلك الشعار، أقدم ما وصل إلينا من تاريخ العرب قبل الهجرة وبعدها يشير إلى أنه كان معروفًا في جاهليتهم. فقد كان شعار تنوخ لما نزلوا الحيرة «يا آل عبد الله» ولهذا سموا العباد (أغاني جزء ١١: ١٦٢) وقال علي بن برهان الدين في السيرة الحلبية (جزء ٢: ١٦٤) في الكلام على غزوة أحد: «فبينما المسلمون قد شُغِلُوا بالنهب والأسر» إذ دخلت خيول المشركين تنادي فرسانها بشعارها «يا للعزى يا لهبل» ووضعوا السيوف في المسلمين. إلخ.

(١٥) يظهر من سياق الحديث أن نسطور كان نائمًا عند قدوم أغاممنون فقوله له: «وأنت مثلي ساهدٌ» إنما هو من باب التلطف والرعاية ولقد يمكن أن يكون حقيقةً مستيقظًا لأنه كان السابق في الخطاب.

(١٦) مفنِّدًا: أي لائمًا.

(١٧) لا يذكر الشاعر منيلاوس مع أخيه إلَّا ويلتمس وسيلة لإبراز حنان أغاممنون على أخيه وشدة تعلقه به، حتى لقد ذهب حبُّه الأخوي مذهب الأمثال. ولا دفاع عن أخٍ أجمل من دفاع أغاممنون هنا فإنه أشار إلى تيقظ أخيه وأدبه وطاعته بقوله: إنه إذا أحجم فلا يحجم غفلةً وتقاعسًا بل رعايةً لأخيه الأكبر والتماسًا لأوامره وتمثلًا به، قال كل ذلك أغاممنون ولم يمسَسْ بشيءٍ نسطورَ بل زاده إجلالًا وتوقيرًا؛ إذ

شرع في الموافقة على كلامه وتصويب رأيه ثم تملَّصَ من لومه ألطف تملص.

(١٨) الزربية: الطنفسة، ويقول أهل العراق اليوم «الزولية»، ولم أرَ لها استعمالًا في كتب اللغة ولعلها تصحيف الزربية أو إفسادها. والأسحم: الأسود.

(١٩) لا يصف الشاعر حالة من الأحوال إلا ويُلبسها لبوسها. أرانا نسطور هاجعًا وهو شيخ أضعفته الأيام فأبرزه على فراشه أعزل من كل سلاح لا قبل له بحمله على فراش النوم. ولما أتى بنا إلى ذيوميذ وهو الفتى الصحيح الجسم القوي البنية هيأهُ لنا مُضطجِعًا بسلاحه متهيئًا لأول ملمة ينتدب إليها. وكذلك لما وصف أرق أغاممنون صور لنا أرق الراعي الساهر على خرافه القلق عليها. بخلاف أرق منيلاوس فهو أرق المضطرب المتألم لكوارث الزمان والمشفق من انفلات الفرص من بين يديه.

(٢٠) حسبنا في بيان لطف هذا المعنى ورقة هذا الإغراق البديعي أن نورد رواية لا بأس من تفكهة القارئ بها. ذلك أن السلطان محمود الغزنوي كان يتقنص يومًا بحاشية عظيمة فيها العظماء والأمراء والعلماء والشعراء، وكان له مضرب بديع الشكل عجيب الصنعة يقوم على عمود طويل، فاستحسن أن يأمر الشعراء بوصف ذلك المضرب وعموده الشائق، فقال العنصري قصيدة وثنَّى العسجدي بأخرى وقال

غيرهم مقاطيع وأشعارًا، وأما الفردوسي الملقب بهوميروس الفرس فأحرز السبق ببيت واحد تكاد تخاله أخذه حرفًا بحرف من أستاذه هوميروس اليونان وهو:

فرُو شد بما هي وبَر شدْ بماهْ ... بـــنِ نيـــزه وقبَّـــهٔ باركـــاهْ

ومعناه أن رأس العقب بلغ أسفله إلى السمكة (التي عليها الثور الحامل الأرض على قرنيه) وأن قبة الملك بلغ أعلاها القمر. وزاد بيت الفردوسي حسنًا بما فيه من الطي والنشر والجناس بين ماهي (السمكة) وماه (القمر) وتعريبه شعرًا:

الكعب يدنو وتعلو قبة الملكِ ... من السماكين حتى مربض السمكِ

وقد اضطررنا إلى ما ترى من التصرف حفظًا للجناس المذكور. وليس دون البيتين قوةً ومتانة بيت السموأل بوصف جبله وصفًا شبيهًا بوصف رماح هوميروس وعمود الفردوسي وهو قوله:

رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرعٌ لا يُنال طويلُ

فإن لم نحكم بتوارد الخواطر بين هؤلاء الفحول جميعًا فنحكم بلا ريب أن الفردوسي إن كان ناقلًا فهو ناقل عن السموأل دون هوميروس لقرب المأخذ بين قمر الفردوسي ونجم السموأل، ولا غرو فكل الصيد في جوف الفرى، فكلاهما في سماء أبيهما هوميروس.

(٢١) أي إن موقفنا بات حرجًا كأننا على صراط أَحَدَّ من الموسى فلم يبق إلا أن نميل إلى الجانب الواحد فنحيا أو إلى الجانب الآخر فنموت. «كراكب لجةٍ إما وإما».

(٢٢) النواهس: الكلاب.

(٢٣) لما كان اليونان في حالة ضنك وشدة، كان هذا التشبيه أصدق وصف لحالهم فالحماة من الحيوان هم الحراس، والخراف الجند، والوحش المنحدر من الغاب هو هكطور، وجلبة الناس والكلاب اضطراب المعسكر، وكل ذلك صحيح المقابلة تام التمثيل.

(٢٤) زعم بعض المفسرين أن نسطور إنما اجتاز الحفير برهط الزعماء تنشيطًا للحراس؛ ليريهم أنهم لم يكونوا في موقف حرج. ولا نرى حاجة لهذا التخريج لأن الشاعر فسَّر الكلام بنفسه إذ قال: «حلوا محلًّا لم تدنسه الدما» ولقد رأيت مرارًا أن الورع وجهتهم في كل أعمالهم فاجتنبوا دنس الدماء عبادةً وتقربًا إلى آلهتهم.

(٢٥) إن في سؤال نسطور على هذا النمط لحكمةً لا تخفى، إذ لو تكلف بنفسه انتقاء المتجسسين لهاج ريبةً في النفوس وحسدًا لا حاجة إليه خصوصًا أن من ينتدب لهذه المهمة وإن كان له بذلك رفعة ومجدٌ فهو بلا ريب مسوق إلى التهلكة ربما أوردته حتفه. فإلقاء الخيار إلى الجند يدفع عنه مظنة الإيثار فيفسح المجال لطالب الفخار على خيرةٍ منه.

(٢٦) قال محمد الورَّاق:

إن اللبيــب إذا تفــرق أمــره فتــق الأمــور منــاظرًا ومشــاورَا
وأخــو الجهالــة يســتبد برأيــه فتــراه يعتســف الأمــور مخــاطرَا

ومثله قول الآخر:

خليليَّ ليس الرأي في جنب واحدٍ أشــيرا علــيَّ اليــوم مــا تريــانِ

وأحسن منهما:

اقـرن برأيـك رأي غيـرك واستشِـر فــالحق لا يخفــى علــى اثنــينِ
المــــرءُ مــــرآة تريــــه وجهــــهُ ويــــرى قفــــاهُ بجمــــع مــــرآتينِ

(٢٧) يظهر من هذا السياق ومن غيره أن تجسس الأعداء في تلك الأزمان لم يكن على ما نراه عليه في هذه الأيام. فهو لعهدنا مهمة يقوم بعبئها نفر من عامة الجند. وكان لذلك العهد مفخرة يتسابق إليها الملوك والرؤساء، وقد ورد مثل ذلك في أسفار العهد القديم إذ ذهب جدعون في سفر القضاة متجسسًا في معسكر المديانيين وهو إذ ذاك زعيم جند الإسرائيليين. وفي تواريخ العرب أنه لما خرج النبي من المدينة قادمًا لفتح مكة خرج من مكة ثلاثة من عظمائها متجسسين وهم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي.

(٢٨) يؤخذ من كلام أغاممنون أنهم كانوا ينظرون إلى الحسب والنسب نظر جاهلية العرب فأراد ألا يكون ذلك مانعًا يمنع ذيوميذ من

تخير رفيق يكون أطول يدًا وأقوى جأشًا بصرف النظر عن أصله وفصله، ولقد رمى بذلك إلى منعه عن انتقاء أخيه منيلاوس إشفاقًا عليه لما علمت من شدة شغفه بأخيه.

(٢٩) كان أوذيس يلقب بمولى أثينا إلهة الحكمة لحسن تدبره، وهي مأثرة امتاز بها ولم يكن له فيها منازع، ولهذا وقع خيار ذيوميذ عليه موقع صواب من وجهين: الأول لأنه إنما صرح بإيثاره على من سواه لحكمته لا لبأسه فلم يبق باعث الحسد من سواه، إذ لم يكن له مثيل بالحكمة والدربة إلا نسطور ونسطور شيخ هرم لا يصح انتدابه لهذه المهمة. والثاني إشعارًا بأن المهام الخطيرة أحوج إلى أصالة الرأي منها إلى البأس وهي عظةٌ من صفوة عظات الشاعر.

(٣٠) إن التناسب جَلِيٌّ في كل أقوال هوميروس فإذا أمعنت النظر في ما سبق في النشيد التاسع وهذا النشيد من خروج الوفد إلى آخيل ورجوعه ونوم الجند وانعقاد المجلس وإصدار القرار؛ علمت أنه لا بد أن يكون الشاعر قد قاس بحكمته الزمن اللازم لانقضاء تلك الحوادث فمضى من الليل ثلثاه. ثم إنه غير خافٍ أنَّ أصلح وقت لتجسس معسكر عدوٍّ إنما هو الثلث الأخير من الليل حيث تكون العيون قد هجعت بثقلة النوم. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الشاعر راعى الزمن اللازم لخمود تلك المقابس المشتعلة رأينا في كل كلامه تناسقًا وتناسبًا لا تشوبهما شائبة.

(٣١) ومن دقة التصور وحسن التناسق أيضًا وصف نوع سلاح كل من العينين فذيوميذ وهو بطل مقدام قُلِّدَ سيفًا قاطع الحدين لأنه المتصدر للقتال المتصدي للأبطال، فالسيف سلاح المقاتل صدرًا بصدر لا بد له منه على كل حال. وأما أوذيس وهو دونه صبرًا وقوة فلا بد له من قوس ونبال فهي أصلح لمن لا قبل له بقوى الفتيان. وأما الخوذة الجلدية فلكليهما خير في ذلك الليل من ترائك المعدن لأنها أستر لهم فلا تنبه ببريقها حرس العدو.

(٣٢) نرى الشاعر كَلِفًا بذكر تواريخ بعض القطع من عُدد جماعته كَكَلِفِهِ، بذكر أنسابهم. فهو هنا يذكر تاريخ تلك التريكة كما لو كانت ذات شأن يجب تدوينه، ولا بدع فجاهلية القوم كانوا يفخرون بقدم سلاحهم كما يفخرون بقدم الجدود والجياد، وليس ذلك منحصرًا في يونان هوميروس بل لنا أمثال عليه كثيرة عند قومنا العرب، فإن ذا الفقار سيف علي بن أبي طالب والأبجر فرس عنترة العبسي جرت الأمثال بتاريخهما ووصفهما وأمثالهما كثير.

(٣٣) يتفاءل أوذيس تفاؤل أبي نواس بقوله:

فـالطير تخبرنـا والطيـر صـادقةٌ عن طيـب عيش وعن طيـبٍ من العمرِ

(٣٤) أي إن تيذيوس أبو ذيوميذ أوفد إلى أبناء قدموس إلخ. وقدموس هذا في أساطيرهم ملك من ملوكهم وحقيقة الأمر أن قدموس ليس سوى اسم وهمي، وأبناء قدموس المذكورون إنما هم جالية فينيقية

استوطنت سواحل اليونان وعلمتهم البحارة وشيئًا كثيرًا من الصنائع. والكلمة فينيقية الأصل ومادتها في العربية كمادتها الفينيقية بمعنى القدم. وقد تكون من مادة קדם (قِدِم) العبرانية بمعنى المشرق. فكأنهم أرادوا أن يقولوا قدماء الفينيقيين أو المشارقة فقالوا: أبناء قدموس ولذلك أمثلة كثيرة في التاريخ. ويرى فورستر (**Forster**)

في جغرافيته التاريخية لبلاد العرب أنه يراد بقدموس على ما في تاريخ أسطرابون قبيلة عربية هي نفس قِدْمَة المذكورة في التوراة. ولعلنا لا نعدم بعد هذا مؤرخًا يثبت أن أجداد اليونان البيوتيين بنو قدامة العرب من قضاعة القحطانية.

(٣٥) التبيعة: البقرة في سنتها الأولى، والجبهاء: العريضة الجبهة، والمضمد: النير؛ أي إنها كما جاء في سورة البقرة: لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ.

(٣٦) السهلب الجواد الطويل وفي الأصل: «جوادين أجيدين» أي طويلي العنق، وإنما اخترنا السهلب على الأجيد لأنه قد يُراد به الأجيد أيضًا وهي صفة ممدوحة في الخيل وكثيرة الورود في شعر العرب. قال زيد الخيل:

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى   تخبُّ نزائعًا خبب الذئابِ

جلبنا كل أجردَ أعوجيٍّ   وسلهبة كخافية العقابِ

قلنا: إن من مميزات لغتنا العربية توفر تعبيراتها الجاهلية والفطرية فهي بهذا المعنى أوسع لغة ولا تحاشي لغة هوميروس إذ كثيرًا ما يضطره الأمر كما يضطر كتبة الإفرنج الآن إلى تأدية معنى بكلمات نؤديهن جميعًا بكلمة واحدة، كقولنا هنا: السلهب أو الأجيد للجواد الطويل العنق، واستعمالنا قبل أبيات قليلة التبيعة للبقرة ابنة سنة والجبهاء العريضة الجبهة وأشباه ذلك أكثر من أن تُحْصَى. أما الحكم في كون ذلك من محسنات لغتنا ففيه نظر.

(٣٧) أعتان: أتجسس أو أصير عينًا.

(٣٨) الديدبان: الرقيب والحارس والعين أي الربيئة، معربة ديده بان بالفارسية.

(٣٩) كثيرًا ما رأينا عند ذكر الطرواد والإغريق تباينًا في وصف حالتهم إذا عمدوا إلى عمل واحد، ويظهر للمُنْعِمِ النظر أن الشاعر لم يتعد خطته خطوة واحدة في كل شعره. فقد أرانا عند افتتاح النشيد الثالث انتظام الإغريق وتبريزهم على الطرواد بالفنون الحربية، وأرانا بأماكن أخرى بالإشارة والتصريح ما كان من الحكم الشوروي عند اليونان والحكم الاستبدادي عند الطرواد. ولنا هنا مثال من ألطف الأمثلة أثبته الشاعر تلميحًا لا تصريحًا وقد تنبَّه إليه أكثر الشراح لشدة جلائه ودقة برهانه. ذلك أنه لما عزم الإغريق على اعتيان أعدائهم عقدوا مجلسًا وقام فيهم شيخ حكيم يبث رأيه ويدعو الأبطال للقيام بتلك المهمة وأما

الطرواد فيتكلم فيهم هكطور كلام المستبد المطلق. والإغريق يَعِدُونَ صاحب تلك المهمة بمال يسير وشرف كثير والطرواد يعدون بعطاء جزيل ولكنه عزيز المنال بعيد المطلب. والإغريق يتصدى أبطالهم لتلك المهمة طلبًا للفخار والطرواد يقوم ذولون بينهم طمعًا بالمال الغرار. فيتقدم أوذيس وذيوميذ ببأس وتروٍّ، ويتقدم ذولون بتهور وغرور. كل ذلك من الطباق العجيب دلالة على دستور القومين. وزد عليه أن بطلي اليونان لم يلتمسا عهدًا من نسطور على البر بعهده وذولون أخذ على هكطور العهد الوثيق والأيمان المغلظة. ونسطور وعد ما في الإمكان وهكطور وعد بما فوق وسعه.

(٤٠) القوس الفارج: البائنة عن الوتر وفي الأصل اليوناني: قوس حدباء.

(٤١) يُستفاد من كلام هوميروس في عدة مواضع يصف بها الحراثة والحراثين أن هذا الفن كان منذ ثلاثة آلاف سنة أرقى منه اليوم في كثير من الأقطار الشرقية.

(٤٢) الخيطل: كلب الصيد.

(٤٣) الحديد: أي الحاد، ويثأج: أي يصيح، ويتروع: يتخوف.

(٤٤) يصرح: أي يخطئ، وتترعرع: تهتز.

(٤٥) في كثير من شعر هوميروس مماثلات بين شعره وحكايته، ومن جملتها هذا البيت فإذا سمعه سامع عن الأصل تصور هيئة المرتعش خوفًا والمتهيب رعدة، ولقد حاولنا التشبه به في بضعة مواضع كما أشرنا قبلًا.

(٤٦) هذا كلام قاله أوذيس لو قاله ذيوميذ لأفسده؛ فإنه في ظاهره تأمين لذولون على حياته، وسنرى أنهما لم يُؤَمِّنَاهُ عليها بل هدرَا دمَه، ولا شك أن ذولون على اضطرابه أخذ المعنى على ما يريد لا على ما أراده أوذيس؛ لأن قوله: «لا تخش الردى» مع ما فيه من التطمين لا يفيد تمام التأمين فقتلهما له بعد ذلك ليس بحنث ولا بخيانة على اعتقادهما.

(٤٧) ما أجمل الإقرار بالحق ولا سيما إذا نطق به العدو لعدوه، فترى في كل إنشاد هوميروس أنه لم يكن عدو منهم يبخس قدر عدوه كقول أوذيس هنا قد أعملوا فينا الحسام الأشهبا، وليس هذا بالقليل في كلام شعرائنا الأقدمين كقول بعضهم:

سقيناهم كأسًا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

(٤٨) التمس الشاعر حجة ونعم الحجة لهجوع حلفاء الطرواد تقريبًا لصدق روايته عن ولوج أوذيس وذيوميذ بينهم؛ إذ لو كانوا متيقظين تيقظ الطرواد لما تيسر لهم ذلك.

(٤٩) آل الظبى: أي أصحاب الأسنة.

(٥٠) لعل القارئ يتوهم أن قتل ذولون مُخِلٌّ بشرائع ذلك الزمان لأنه كان فيجًا على ما تقدم أي رسولًا، وربما كانت صفته هذه هي التي جرأته على غير شهرة سابقة له في القتال على الإقدام على تلك التهلكة على أنه لا يخفى أنه لم يأتِ بصفة رسول بل بصفة رصد خفي، ولسنا نرى شرعًا حتى في أيامنا هذه يرفق بالجواسيس.

(٥١) لم يَرِدْ في التاريخ قبل هذا الموضع وما تقدم في النشيد السابع ذكر سلاح أُهدي أو نُذِرَ لإله من الآلهة، ولكنَّ له ذكرًا كثيرًا في أزمنة مختلفة وأمم شتى بعد عهد هوميروس، ومن ذلك ما ورد في أخبار جاهلية العرب عن إهداء الحارث بن أبي شمر سيفين يقال لأحدهما: مخذم وللآخر: رسوب إلى القلَّس صنم بني طيء، وظلَّا معلقين عليه حتى أرسل نبي الإسلام عليَّ بن أبي طالب في سرية إلى طيء في السنة العاشرة من الهجرة وأمره أن يهدم الصنم، فسار إليهم وأغار عليهم فغنم وسبى وكسر الصنم وأخذ السيفين وحملهما إلى النبي.

(٥٢) قال بشر:

وأما تميم تميم بني مرّ فألفاهمُ القوم رُوبي نياما

(٥٣) قال أبو مسلم الخراساني مفتخرًا باستئصال شأفة الأمويين:

ما زلت أسعى بجهدي في دمارهم والقوم في غفلةٍ بالشام قد رقدوا
حتى طرقتُهمُ بالسيف فانتبهوا من نومة لم يَنَمْهَا قبلهم أحدُ

ومن رعى غنمًا في أرض مسبعةٍ ونام عنها تولى رعيَهَا الأسدُ

(٥٤) لقد يستغرب المطالع كيف تسنى لذيوميذ أن يفتك كل هذا الفتك ولم يشعر به أحد ولكن الشاعر سبق فقال: إنهم كانوا متفرقين كلٌّ إلى جانب جوادَيه ومركبته فسهل عليه أن يبطش بكل فرد على حدته قبل أن يستيقظ الآخر. ولنا هنا برؤيا ريسوس ملكهم تصرف جميل يُستفاد منه بأسلوب شعري أن رؤياه لِطَيْفِ ذيوميذ واقفًا على رأسه إنما كان يقظة لا حلمًا فعاجله ذيوميذ بالقتل قبل أن يتمكن من استنفار قومه والدفاع عن نفسه والإيقاع بذيوميذ، وما صدق على ريسوس لا يبعد أن يصدق على سائر القتلى.

(٥٥) ليس في ما نعلم ذكر للصفير ليلًا بين المتجسسين واللصوص والشرطة قبل هذا الموضع.

(٥٦) الحنية: أي القوس.



أثينا إلهة الحكمة.

(٥٧) يرى الناظر إلى كلام هوميروس نظرًا رمزيًّا أن مراده بهذه الأبيات أن أثينا نبهت ذيوميذ إلى الكف؛ أي إنه كان من الحكمة وقد

دنا الفجر أن يرتد إلى قومه قبل أن يشعر به الأعداء، وأن أفلون أيقظ الثراقة أي إنه تجلى الصباح، وأفلون إله النور كما لا يخفى.

(٥٨) المهيع: الواسع.

(٥٩) نبا: أي أخطأ، لربما يستغرب المطالع أن يكون نسطور أول سامع لخبب الخيل على هرمه الذي يقضي بضعف حاسة السمع، ولكنه لم يفتنا أن نسطور كان أعظم القوم تشوفًا إل استطلاع نتيجة تلك البعثة؛ لأنه المشير بها الملقي بذيوميذ وأوذيس إلى تلك التهلكة، المتنبه كل التنبه والمحصي الدقائق والثواني، ومع ذلك فليس في كل سياق الحديث ما يشير إلى ضعف حاسة من حواسه.

(٦٠) لو قرأ المطالع هذا البيت في الأصل اليوناني لرأى من مماثلة لفظه لمعناه ما يكاد يسمعه صوت وقع الجياد، ولعل في الترجمة العربية رائحة من تلك المماثلة التي حاول إثباتها كثير من الشعراء ولم يفلح منهم فلاح هوميروس إلا ڤرجيليوس بقوله: **Quadrupedante putrem quatit ungula campum** (أنياذة ن٨: ب٥٩٦).

(٦١) التسليم باليمنى أيضًا من جملة ما سبق هوميروس سائر الكتبة بالنص عليه، وكان نبي الإسلام يُسَلِّمُ بيمينه ويبايعه الناس بيمينه، والمصافحة للسلام وغيره قديمة جدًّا عند العرب يدل عليها لفظها، فقد كانوا يتصافحون عند عقد البيع، ولا يزالون يفعلون ذلك في بلاد العجم

والعراق وبعض بلاد المشرق، ومن ذلك أخذت لفظة المُبايعة للاعتراف بحكم الخلفاء، وكانوا يتصافحون أيضًا لعقد المواثيق وإبرام العهود من ذلك أن ولي البنت كان يمدُّ يده إلى خاطبها إذا أراد أن يزوجها منه.

(٦٢) يشرع: يرفع.

(٦٣) يمرع: يدهن.

النشيد الحادي عشر

المعركة الثالثة

مُجْمَلهُ

لما بدت كوكبة الصباح سير زفس «الفتنة» فهاج الجيشان للقتال فشكَّ أغاممنون بسلاحه واندفع بجيشه تحت رعاية أثينا وهيرا. وأما الطرواد فأخذ زفس بيدهم وتربص هكطور لصد هجمات الأعداء فالتحمت الحرب وأبرز أغاممنون من البسالة ما دُهش له الطرواد فالتووا أمامه وهو يتعقبهم ويفتك فيهم. فذهبت إيريس ببلاغ زفس إلى هكطور تأمره باعتزال الحرب حتى يصاب أغاممنون بجرح أليم. وما عتم أن جرح أغاممنون فاندفع هكطور وشدد عزائم جيشه فكادوا يظهرون على الإغريق. وانبرى ذيوميذ لهكطور فصدهُ وإذا بفاريس قد أطار على ذيوميذ سهمًا أقعده. فبادر أوذيس لإغاثته وظلَّ يناضل حتى جرحه صوقوس وكاد يهلك لو لم يسرع إليه أياس ومنيلاوس. وانقض أياس على قلب الجيش الطروادي فهزمه فأسرع هكطور إليه من طرف الميسرة فانهالت السهام على أياس كالمطر وجرح وقتل من زعماء الإغريق الجمُّ الغفير. وكان أخيل يرقب عن بعد فأرسل فطرقل يتبين ما كان من أمرهم فقص عليه نسطور ما نال القوم من الجهد والعناء، فعاد فطرقل إلى أخيل يتوسل إليه أن ينهض بنفسه أو يلبسه سلاحه ليخدع به الأعداء ويرعبهم.

مجرى وقائع هذا النشيد في اليوم الثامن والعشرين لافتتاح الإلياذة وستستمر وقائع هذا اليوم إلى النشيد الثامن عشر. ومشهد الحوادث في ساحة القتال.

النشيد الحادي عشر[1]

لما بدت غزالة الصباح ... تنهض من مرقدها الفياح

وغادرت طيثون ذا الوجه الوضي ... حتى على الجنة والناس تضي[2]

سيَّر زفس فتنة الوبال ... بيدها معالم القتال[3]

فانتصبت منتصف الأسطول في ... مركب أوذيس الكبير المشرف

لتبلغ الفزعة كل العسكر ... حتى أخيل وأياس الأكبر

إذ خيما وربطا القلاسا ... في الجانبين شدة وباسا[4]

فدمدمت تدوي دوي الرعد ... وشددتهم للقا المشتد

فآثروا الحرب وثقل المحن ... على المآب لعزيز الوطن

فقام أتريذ بهم وصاحا ... بالقوم كي يُقوِّموا السلاحا

وشكَّ في فولاذه الأغر ... يلبس خفيه ببادي الأمر

وحول ساقيه بقدتين ... أوثق حالا بعرى اللجين

ولبس الدرع البهية التي ... أهديها من قبل سير الحملة

من ملك قبريس كنير النَّاءِي ... تذكرة لمحكم الولاء[5]

مـــذ نبـــأ الإقـــلاع للطـــرواد ... علـــى الســـفين شـــاع فـــي الـــبلاد
مـن أبـدع السـطور فيهـا اثنـا عشـر ... مـــن النضـــار شـــائقات للنظـــر
ومـن نحـاس أبـيض عشـرون مـع ... عشـــرة أســـحم فـــولاذ ســـطع
وفـي كـلا الجنبـين حتـى العنـق ... ثـلاث حيـات مـن الوشـي النقـي
حكـت بقلـب الغـيم أقـواس قـزح ... بنبـأ زفـس مـن السـما طـرح٦
ثـــم علـــى كاهلـــه أتريـــذ قـــد ... ألقـــى حســـامًا بشـــعاعه اتقـــد
كلبـاه والحـزام مـن أبهـى الـذهب ... وغمـده مـن فضـة فيهـا العجـب٧
وقـــل تُرْسًـــا شـــائقًا بهيـــا ... يســـتر كـــل جســـمه قويـــا
عليـــه دارت حلقـــات لامعـــه ... عشـر مـن الصـفر البهـي سـاطعه
وفيـــه عشـــرون مـــن الحرابـــي ... مـــن النحـــاس الأبـــيض اللهـــاب٨
فـي وسـطها حربـاء فـولاذ أغـر ... يبـدو بهـا الغرغـون رواع النظـر
وحولـه الهـول ورسـم الرِّعـدة ... والـــدرع شـــدت بحـــزام فضـــة٩
يلتـــف فـــي ثعبـــان روع أزرق ... مثلـــث الـــرأس وحيـــد العنـــق
مـــن ثـــم للمغفـــر أتريـــذ عمـــد ... يلبســـه مـــن بعـــد هاتيـــك العـــدد
مربـــع الـــرأس بعـــرف أملـــس ... من شعر خيـل هـاج فـوق القـونس١٠
وقـــــل رمحـــــين مثقفـــــين ... حتـــى أعـــالي الجـــو ســـاطعين١١
والرعـــد إجـــلالا لـــه وشـــرفا ... بـــأمر آثينـــا وهيـــرا قصـــفا
فـــأمرت فرســـانه السُّيَّاســـا ... تـــنظم قـــرب الخنـــدق الأفراســـا
وانـــدفعوا ماشـــين بالســـلاح ... بـــين صـــياح طـــرة الصـــباح

فــانتظم الأبطــال قــرب الخنــدق تجــري وراءهــم عجــال الفيلــق
وزفـــس بيــــنهم أثــــار اللغبــــا يمطــــر طــــلا بـــدم مخضـــبا١٢
أمــا بنــو الطــرواد فــوق الهضــب فــانتظموا مــن حــول هكطــور الأبــي
وحـــول فوليـــذامس المعصـــوم وآنيــــاس المجتبــــى العظــــيم
وحـــول فوليــــب وآكامـــــاس فتــى حكــى الأربــاب آل البــاس
والقـــيم المحمـــود آغنـــورا ثلاثــــة مــــن ولــــد أنطينــــورا
وهكطـــر فـــي صـــدرهم يـــدور فـــي يــــده مِجَنَّـــه الكبيــــر
يخــوض فـــي ســـاقتهم فيـــأمر فيختفـــي ثـــم بصــــدر يصــــدر
ككوكــب الهــول الــذي يســتتر فــي الغــيم حينًــا ثــم حينًــا يظهــر
يســـطع بالحديـــد والفـــولاذ كبــرق زفــس اللامــع الجبــاذ١٣
فعنـــد ذاك اشـــتبك الجيشـــان وثـــار نقـــع الضـــرب والطعـــان
فكلهـــم مثـــل الـــذئاب انـــدفعوا ولـــم يكـــن مـــن للفـــرار ينـــزع
تبتــــت الـــرءوس والأجســـاد كســــنبل يبتتــــه الحصـــاد١٤
مـــذ نظمـــوا بـــزرعهم صـــفين فــــي طرفيــــه متقــــابلين
ولــم يكــن يشــهد تلــك الملحمــه بالبشـــر إلا الفتنـــة المهدمـــه
وفـــي الألمـــب ســـائر الأربـــاب بشــــائق القصـــور باحتجــــاب
ولـــومهم لـــزفس طـــرا بـــاد لميلــــه لنصــــرة الطــــرواد
لكـــن زفـــس لـــيس بالمبـــالي يعتــــز فــــي عليــــاه بـــاعتزال

يحـــيط بـــالطرواد والأســـطول والحـــرب والقاتـــل والمقتـــول

مـــن البـــزوغ لارتفـــاع المشـــرق جنـــد تـــردى وســـهام تلتقـــي

وآن مـــا الحطـــاب يضـــوى تعبـــا فـــي غابـــه وظمـــأ وســـغبا

ويطلـــب الراحـــة بعـــد الغائلـــه مهيئًـــا طعامـــه بالقائلـــه١٥

تألـــب الإغريـــق باشـــتداد وخرقـــوا كتائـــب الطـــرواد

فـــي صـــدرهم يجـــري أغـــاممنون تســـير فـــي يمينـــه المنـــون

جنـــدل أبيـــانور راعـــي الأمـــم فتبعـــه الســـائق ويلـــوس الكمـــي

مـــن فـــوق مركبتـــه وثبًـــا وثـــب يلقـــى أغـــاممنون مشـــتد الغضـــب

لكنمـــا أتريـــذ فـــي الجبـــين طعنـــه برمحـــه المتـــين

فخـــرق المغفـــر والعظـــم ســـحق وبـــدد الـــدماغ والهامـــة دق

عراهمـــا فلبثـــا ميتـــين لاســـتر فـــوق ناصـــع الصـــدرين

ثـــم انثنـــى يســـطو علـــى إسوســـا مـــن ولـــد فريـــام وأنطفوســـا

فـــذلك ابـــن غـــادة خليلـــه لكـــن ذامـــن زوجـــه الحليلـــه١٦

قـــد ركبـــا مركبـــة فـــذاكا ســـاق وهـــذا ولـــي العراكـــا

كليهمـــا قِـــدْمًا أخيـــل دهمـــا بطـــور إيـــذا يرعيـــان الغنمـــا

بيـــانع الخيـــزور أوثقهمـــا ونـــال فديـــة وأطلقهمـــا

والآن أتريـــذ إسوسًـــا قـــتلا بطعنـــة فـــي ثديـــه فجنـــدلا

وأنطفـــوس بحســـامه قطـــع أذنـــه قطعًـــا فلـــلأرض وقـــع

فشـــائق الشـــكة منهمـــا ســـلب يـــذكر مـــن أمرهمـــا ماضـــي العجـــب

إذ كــان قــد رآهمــا فــي الســفن بــأمر آخيـــل بـــذاك الـــزمن١٧

وصـــائلا مشـــى كليـــث داهـــم خِشَـــفَةً واهنـــة العـــزائم١٨

يســحقها برائــع الأنيــاب فــي كناســـها ســـحقًا بـــلا تكلـــف

والأم تلـــك الظبيـــة المرتجفــه لا حيلـــة لهـــا برفـــد الخِشَـــفَهْ

مرتاعـــةً ملتاعـــةً تبغـــى المفـــر في الغاب تجري بين ملتف الشجر

تلهـــث عَيًّـــا وتســـيل عرقًـــا هالعـــةً مـــن هـــول ذاك الملتقـــى

كـذاك فـي الطـرواد لـم يكـن أحـد لولـــدي فريـــام يبـــذل المـــدد

ولّـــوا لـــدى الأراغـــس الفـــرارا وخلفهـــم أتريـــذ بأسًـــا ثـــارا

فيســـــندرا وإيفلوخًـــــا دهمـــــا علـــى مطـــا مركبـــة قـــد هزمـــا

مـــن ولـــد أنطيمـــاخس مـــن منعـــا هيلانـــــةً لزوجهـــــا أن ترجعـــــا

إذ كـــان فـــاريس رشـــاه ووهـــب مـــالا وفيـــرا مـــن متـــاع وذهـــب١٩

فعنـــدما لـــديهما مثـــل الأســـد لاح الجيـاد جمحـت تحـت العـدد

وارتجفـــت أيـــديهما فوقفـــت أعنـــــةٌ بهـــــا ســـــناء ســـــطعت

فســجدا مــن فــوق ذاك المجلــس وصـــــرخا بذلـــــة الملـــــتمس

«العفـــو والفـــداء فـــالتبر الأغـــر والصـــفر والحديـــد طُـــرًّا مـــدخر

فأنطمـــاخ يجـــزل الهـــدايا إن نبـــق حيـــين علـــى الخلايـــا» ٢٠

وبكيـــا تـــذللا وصـــغرا فلقيـــا منـــه الجـــواب المـــرا

«ألـــيس أنطمـــاخ والـــدكما بمجلـــس الطـــرواد يومًـــا حكمـــا

بقتل أوذيس ومينيلا وقد ... جاءا رسولين وبالكيد اتقد
ستلقيان الآن شر غدره» ... وطاعنًا فيسندرًا بصدره
جندله من فرق عرش العجله ... فإيفلوخ بخفيف العجله
رام انهزامًا وإلى الأرض وثب ... لكن أغاممنون بالسيف انتصب
بضربة عليه بالعزم اندفع ... ورأسه مع الذراعين قطع
دفعه للأرض مثل الخشبهْ ... وراح يجري بعظيم الكبكبهْ
تتبعه كتائب الأجناد ... حيث تكثفت سُرى الأعادي
فبطش الغلمانُ بالغلمان ... وفتك الفرسانُ بالفرسان ٢١
وتحت وقع الخيل نقع ثارا ... في السهل للجو ذرا الغبارا
وثم أتريذ يحض الجندا ... مقتضبًا مقتفيًا مشتدا
هب على الأعداء مثل النار ... شبت بغابٍ غضة الأشجار ٢٢
تثيرها الريح وفي كل مهب ... تلهم كل ما أمامها انتصب
أمامه الطرواد ولوا جزعا ... وسيفه الرءوس قطعًا قطعا
وجامحات الخيل بالعجال ... تضرب في السهل بلا رجال
تندب ما ألمَّ بالفرسان ... تحت عجاج الضرب والطعان
أشهى هم الآن إلى العقبان ... منه إلى حلائل النسوان
وزفس هكطور عن النقع حجب ... وعن ضجيج القوم في ذاك اللجب
وعن مدى النبال والنجيع ... وعن تلاحم بهم فظيع
وظل أتريذ على أعقابهم ... مشددًا يضرب في رقابهم

فدفعوا للتين ثم اجتازوا — في وسط السهل وفيه انحازوا٢٣

لقبر إيلو ذلك الدردنسي — يبغون إليون بحر النفس

وإثرهم أتريذ دومًا جاري — ملطخًا بالدم والغبار

يصيح حتى أبلغ الفرسانا — أبواب إسكية ثم الزانا

فوقفوا يبغون جمع الشمل — وصحبهم تبعثروا في السهل

مثل العجول ذعرت فرارا — والليث في الليل لقد أغارا

فأيها أصابه سحقه — محطمًا بنابه عنقه

يمتص لا مكتفيًا دماءه — يزرد لا مشتفيًا أحشاءه

كذا أغاممنون أصمى وسفك — بساقة العدى بمن لاقى فتك

ولوا ومشتدا عليهم حملا — بالرمح يردي بطلا فبطلا

ما بين مصروع من العجال — أهوى وَمُسْلَنْقٍ على الرمال

وعندما قارب إدراك البلد — وسوره الشاهق في ذاك اللدد

من قبة السماء كالبرق انحدر — زفس وفي إيذا بعلياه استقر

صاح بذات أجنح النضار — بيده عمود برق وار

قال: «فطيري إيرس الرشيقهْ — وأبلغي هكطورًا الحقيقهْ

فطالما أتريذ في صدر السرى — يبطش فيهم فاتكًا مدمرا

فليعتزل وليلق عبء الصد — على سواه من سراة الجند

لكن إذا بطعنة فاهقة — أصيب أو برمية خارقة

وراح يعلو سدة العجال ... هكطور أُوليَ نصرة القتال

لأولينه اشتداد البأس ... يكسحهم حتى غروب الشمس

لموقف الأسطول يسفك الدما ... حتى يرى قدس الدجى قد خيما»

هبت هبوب الريح من إيذا إلى ... إليون هكطور توافي عجلا

ألفته في مركبةٍ منتصبا ... قالت: «أيا هكطور خذ مني النبا

يا عد زفس بالرسالة ... أنفذني فاستمع المقالةْ

فطالما أتريذ في صدر السرى ... يبطش فيكم فاتكًا مدمرا

فاعتزلن وألق عبء الصد ... على سواك من سراة الجند

لكن إذا بطعنةٍ فاهقة ... أصيب أو برميةٍ خارقة

وراح يعلو سدة العجال ... هكطور تُؤتى الفوز في القتال

ليؤتينك اشتداد البأس ... تكسحهم حتى غروب الشمس

لموقف الأسطول تسفك الدما ... حتى ترى قدس الدجى قد خيما»

غابت وهكطور إلى الأرض وثب ... يهز أطراف القنا بادي الغضب

يرمح في كل السرى مستنهضا ... مدججًا مشددًا محرضا

فانقلبوا لساحة الهيجاء ... مقابلين زمر الأعداء

واعتصب الإغريق واصطفوا فرق ... واشتدت الحرب وأتريذ انطلق

مبرزًا عن سائر الشجعان ... مروعًا في ذلك الميدان

ولي فقلن يا بنات الشعر ... من جاء يلقاه ببدء الأمر

ذاك ابن أنطينور الطويل ... أفيدماس الباسل النبيل

سبط لِكِيْسيْسَ أبي ثيانو   من شاع ذكرًا حسنها الفتان

لديه في إثراقة الغنيم   والخصب طفلا شب في النعيم

وعند ما ترعرع استبقاه   في حجره وبنته أعطاه٢٤

لكنه غادرها على الأثر   مذ شاع عن حرب الأراغس الخبر

أتى لفرقوت بثنتي عشره   سفينةً ينزل فيها عسكره

من ثم إليون أتاها برا   فذا الذي أتريذ رام كبرا

تقابلا حتى دنا التلاقي   فزجه أتريذ بالمزراق

فصرح الزج وفي الحال انثنى   أفيدماس وبعنف طعنا٢٥

أصاب تحت الدرع بالحزام   فدفع العامل باحتدام

وظل لا يفلته من يده   معتمدًا على قوى عضده

في عروة اللجين بالوسط استوى   وكالرصاص اللدن في الحال التوى

فعند ذا أتريذ كالليث وثب   وذلك الرامح بالرمح اجتذب

واجتره منه وبالسيف قطع   عنقه فغائر الطرف وقع

يهجع مصروعًا هجوع الأبد   بذبه عن قومه والبلد

وأويحه عن عرسه الفتية   في البعد قد أميت شر ميتة

نأى وما إن كاد وهو ناءي   يبلو شعار الحب والوفاء

لها الصلات الغر قد كان ادخر   مبتدئًا ب مئة من البعر

وبحماه العنز والغنيم   لم يحصها عد ولا تقويم

خيرهـــا منهـــا بـــألف رأس ... والآن أتريـــذ الشـــديد البـــأس

جندلـــه مجـــردًا مـــن شـــكته ... يرجـــع فيهـــا لســـرايا حملتـــه

فالخطـــب لاح لأخيـــه الأكبـــر ... قـــاوون الفتـــاك والشـــهم السـري

فـــذاب بشـــا وأسًـــا عليـــه ... وأســـود نـــور الشـــمس فـــي عينيـــه

فانســـاب لا يـــراه أتريـــذ حـــذا ... صـــفحته والـــرمح فيـــه أنفـــذا

فخـــرق الـــزج الحديـــد الحـــد ... مـــؤخر الســـاعد تحـــت الزنـــد

وصـــاح يـــدعو صـــحبه إليـــه ... مجتـــذبًا أخـــاه مـــن رجليـــه

وفوقـــه قـــد أســـبل المجنـــا ... يـــدفع ضـــربًا ويقيـــه طعنـــا

فارتـــاع أتريـــذ ولكـــن مـــا ارتـــدع ... ثـــم علـــى قـــاوون بـــالعزم انـــدفع

طعنـــــه بالعامـــــل الـــــرَّوَّاع ... طعنـــة مقـــدام طويـــل البـــاع

علـــى أخيـــه خـــر ميتًـــا فضـــرب ... عنقـــه بالســـيف والـــرأس اقتضـــب

وهكـــذا فـــالأخوان انحـــدرا ... لـــدار آذيـــس بحكـــم قـــدرا

وظـــل أتريـــذ الـــوغى يبـــارى ... بالســـيف والعامـــل والحجـــار

يخـــوض مـــا بـــين الأعـــادي صـــائلا ... ودمـــه الســـخين يجـــري ســـائلا

حتـــى إذا مـــا ذلـــك الســـيل انقطـــع ... ويـــبس الجـــرح تـــولاه الوجـــع

واخترقـــــت قـــــواه آلام ولا ... آلام ســـهم خـــارق قـــد أرســـلا

ترمـــي بـــه بنـــات هيـــرا الظلـــم ... ألالثيـــات التـــي لا تـــرحم

ينفـــذ بـــالأعراض والإرمـــاض ... ويصـــدع المـــرأة بالمخـــاض٢٦

بشـــدة البـــث اعتلـــى ملتاعـــا ... وقـــال للتبـــع «ابتـــغ الأشـــراعا»

وصـاح بالصـوت الجهـور العـالي «يـا صـحب يـا قيـول يـا أبطـالي

علـيكم الآن بإبعـاد العـدى عـن موقـف الأسـطول والفـوز بـدا

فـإن زفـس قـد أبـى إصـداري بصـدركم لآخـر النهـار»٢٧

فطـارت الخيـل بسـوط السـائق تجـري وأتريـذ بقلـب خـافق

صـدورهن قـد كسـين زبـدا ونقـع وقعهـن للجـو اغتـدى

ومـذ رأى هكطـور أتريـذ التـوى فصـوته كالرعـد بـالقوم دوى:٢٨

«يـا آل دردانـوس والطـروادا ويـا بنـي ليقيـة الأمجـادا

إيـه فـأنتم قـادة الهيجـاء وسـادة الإيقـاع والإبـلاء

أبسـل مـن فـي القـوم طـرا غربـا وزفـس لـي نصـرًا مبينًـا وهبـا

شـدوا علـى الإغريـق بالعجـال وادخـروا مجـدًا بـلا زوال»

فهاجـت النفـوس بالجحافـل هياجهـا فـي أنفـس الخياطـل

يثيرهـا صـاحبها هياجًـا فـي إثـر خرنـوص وليـث فاجـا٢٩

وهكـذا هكطـور عـد آرس أثـار طـروادًا علـى الأراغـس٣٠

وهـو بصـدر جيشـه يثـور بشـدة البـأس بهـم يسـير

كأنـه الإعصـار مـن فـوق انـدفق وفـي عبـاب البحـر قلـب اليـم شـق

فيـا تـرى مـن أولا وآخـرا أبـاد مـذ زفـس تـولى ناصـرا

أولهـم كـان الفتـى آسـيس فعفطنـوس وكـذا أوفيـتس

فـابن قليطـيس زلفـس أورس وآغـلاوس وأوفلطـيس

وهيفنـــويس وإيســـمن الســـري وكلهـــم مـــن زعمـــاء العســـكر

لكنمـــا قـــتلاه بـــين الجنـــد فتلـــك لا تحصـــى بحصـــر العـــد

هـــب بهـــم ولا هبـــوب العاصـــفه تثيرهـــا أنـــواء ريـــح قاصـــفه

فتـــدفع الـــدبور غيمـــا ركمـــا نوطوس في السحاب لما هجما ٣١

فتفلـــق الـــيم وتنشـــر الزبـــد كمـا رءوس القـوم هكطـور حصـد

فاشتد وقع الخطب والأمر انجلى وكـادت الإغريـق تضـوى فشـلا

فصـاح أوذيـس: «ذيوميـذ عـلا م بأسـنا ولـى بـرزءٍ ثقـلا ٣٢

لـئن يفـز أعـداؤنا بالسـفن وأخزيـة العـار وثقـل المحـن

هـي فكـرَّنَّ معـي: «قـال ومـا يهـولني العـدو مهمـا ازدحمـا

لكننـا هيهـات أن نـؤتى الظفـر فإنمـا الطـرواد زفـس قـد نصـر»

كـر وثمبـريس فـي الشـدي رمـى فخـر لـلأرض وأوذس هجمـا

وتبعـه مليـون أيضًـا قـتلا وغادراهمـا علـى تلـك الفـلا

لا يشـهدان الكـر والنـزالا وانثنيـا مـن بعـد ذا وصـالا

نظيـر خرنوصـين كاسـرين علـى كـلاب الصـيد مرتـدين

فـاعملا بـين الأعـادي الأسـلا واهتـزت الإغريـق طـرا جـذلا

ثمـة عنـق فارسـين ضـربا واسـتلبا مركبـةً قـد ركبـا

مـن ولـد ميروفـوس مـن فرقـوت أبسـل مـن فـي القـوم مـن رتـوت ٣٣

قـد عصـيا أباهمـا العرافـا واتبعـا إلـى الـوغى الأحلافـا

سـاقهما داعـي الـردى فـأقبلا علـى ذيوميـذ الفتـى فجنـدلا

أخمـــد أنفاســـهما وراحـــا مـــن بعـــد ذا يســـتلب الســـلاحا
وأوذس جنــــدل هوفيـــداما وهيفريخـًــا يصـــطلي احتـــداما
وزفـــس فـــي إيـــذة بالمرصـــاد فـــوازن القـــوات فـــي الأعـــادي
فاصـطدم الأبطـال مـن كـل الفـرق وزمـــر العـــدى ذيوميـــذ اختـــرق
وغســـطروف بـــن فيـــون جرحـــا برمحـــه فـــي حُقِّـــه فانطرحـــا
قــد خــاض مغتــرًّا ســرى الطلائــع برجلـــه يخـــوض فـــي المعـــامع
والخيـل والسـائق فـي السـاقة قـد ظلــت وعنــه انقطعــت عــرى المــدد
هنـــاك هكطـــور رأى وانصـــدعا وصـــاح فـــي الأبطـــال ثـــم انـــدفعا
وانـدفعت مـن خلقـه كـل السـرى حتـــى ذيوميـــذ الهمـــام ذعـــرا
قـــال: «أرى هكطـــور رواع المـــلا يـــا أوذس فـــورًا علينـــا أقـــبلا
قـــف ندفعنـــه» وبـــالعزم وقـــف مســـددًا ونحـــو رأســـه قـــذف
ففـــوق رأس البيضـــة الـــرمح وقـــع لكنمـــا الفـــولاذ فـــولاذًا دفـــع
والقـــونس المثلـــث الأطـــراف عـــن رأســـه رد الســـنان الجـــافي
ذلــك مــن فيبــوس فضــل أعظــم فهـــو بـــذا المغفـــر قـــدمًا مـــنعم
وارتـد هكطـور وبـالجمع اخـتلط وفـــوق ركبتيـــه لـــلأرض ســـقط
ليـــده مســـتندًا حيـــث التـــوى وأظلمـــت عينـــاه منهـــد القـــوى
وريثمـــا هـــب ذيوميـــذ وشـــب يطلــب رمحــه وفــي الأرض نشــب
أفـــاق هكطـــور وبـــالفور اعتلـــى وســاق بــين الجمــع يــأبى الأجــلا

فصاح ذوميذ وبالقناة ... جرى: «أأيضًا فزت بالنجاة

يا كلب كاد عاملي يصميكا ... لو لم يبادر فيبس يقيكا

لستَ تؤمُّ الحرب عفوًا أبدا ... إلا به مسترفدًا مستنجدا

لكنني سوف ألقيك الردى ... إن تؤتني الأرباب يومًا مددا

قد فاتك الفوت فرح والآنا ... سأبتغي سواك أيًّا كانا»

ولاستلاب ابن فيون عكفا ... فجرد اللأمة ثم انعطفا

مقتلعًا مغفره ثم المجن ... إذا بإسكندر خلسة كمن

فَأَتْكَأَ القوس على العمود ... في قبر إيلو الشيخ فخر الصيد

وأرسل السهم فشق القدما ... وغاص في الأرض بسيال الدما

وزوج هيلانة من حيث ولج ... في ذلك الكمين في الحال خرج

مقهقهًا مبتهجًا مفتخرا ... «لم أخطئ المرمى وسهمي صدرا

يا حبذا لو غاص في أحشاكا ... ليأمن الطرواد من ملقاكا

أنت الذي كلهم منك ارتعد ... كرِعدة الماعز من بطش الأسد» ٣٤

أما ذيوميذ فجاش وانثنى ... قال: «وما غرك يا وجه الخنا

سددت مغترًّا بذي القوس ألا ... ما جئتني وجهًا لوجه مقبلا

حتى ترى يا أخسأ النُّبَّال ... أنك لا تعد في الرجال

وأنها لن تدفعن عنك الأسا ... وإنما حاملها زير نسا

أنا لك السر بإدراك القدم ... مني وهل يذعر ذا أهل الهمم

ما ضر سهم خاسئ رعديد ... يهلع كالأوغاد أو كالغيد

وأيـــن أنـــت مـــن مرامـــي أســـلي ينفــذن مــذ يصـــدرن ســـهم الأجــل

أزواج مـــن خـــر مـــنهم أيـــامى وولــــدهم فــــي بؤســــهم يتــــامى

ودمهــــم يســــرب والأجســــاد يبيـــــدها فــــي أرضــــها الفســــاد

وحـــولهم طيــــر الفــــلا تحـــوم مـــن بعــــد أزواج بهـــم تهـــيم»

وانقـــض أوذيـــس يقيـــه فجلـــس يخرج ذاك السهم من حيث انحبس

فاشــــتدت الآلام فيــــه فـــاعتلى وقـال للسـائق: «عـد بـي عجـلا»

فبـــات أوذيـــس كـــذا منفـــردا لـــيس لـــه مـــن يبتغيـــه عضـــدا

مـذ شـمل الرعـب قلـوب الأرغـس فنفســـه نـــاجى بحـــر الـــنفس

«ويـــلاه مـــا الحيلـــة إن أنهـــزم فالعـــار كـــل العـــار بـــين الأمـــم

وإن تربصــــت وزفـــس الأعظــــم بـــــدد قــــومي فمصــــيري أشــــأم

لا كنت يا هاجس دعني هل ترى غيـر الجبـان الـنكس ولّـى مـدبرا

ولــــيس للباســــل أن يبــــالي أصـــاب أم أصـــيب فـــي النـــزال»

وبينمـــا يجـــول ذا بفكـــره مكتئبًــــا مفكــــرًا بــــأمره

إذا بـــدراع العـــدى تجمهـــروا وبيـــنهم أس بلاهـــم حصـــروا٣٥

كفتيــــة بزمـــرة الكــــلاب تقـــنص خرنوصًـــا بـــبطن الغـــاب

فيبـــرز الـــوحش ويصـــلي غضـــبا ويشـــحذ النـــاب ويبـــدو مرعبـــا

يصـــر بالأســـنان والقنـــاص قـــد داروا عليـــه وهـــو بـــالغيظ اتقـــد

فمـــا هـــم يخشـــون منـــه الـــدركا وهـــو بمـــن أصـــاب مـــنهم فتكـــا

وهكــذا أوذيــس بــالرمح وثــب وذيفيــت بــين كتفيــه ضــرب
ثُــمَّ ثــوون وأنــوم قــتلا فجــاءه خرســيذم مشــتعلا
فهــب مــن مركبــةٍ يبغيــه وأوذس فــي الحــال يلتقيــه
رمــاه تحــت التــرس فــي ســرته فخــر مصــروعًا علــى راحتــه
ثــم انثنــى وابــن هفــاس طعنــا خــربس يلقيــه صــريعًا مثخنــا
فــانقض صــوقوس أخــوه الأيهــم وصــاح يــدوي: «يــا أذيــس القــيم
يــا زبــدة الإقــدام والــدهاء فــاليوم تبلــي أيمــا إبــلاء
إمــا حمــام ولــدي هفــاس والســلب والفخــار بــين النــاس
هــذا وإمــا مــن قنــاتي الــردى» ثــم أتــاه طاعنًــا مســددا
فنافــذ الســنان فــي التــرس مــرق واللحم تحت الدرع بالخصر اخترق
لكــن أبــت فــالاس بالخفــاء نفــوذه لــداخل الأحشــاء
ولــم يفــت أوذيــس أن الجرحــا مــا كــان قتــالا لــذا تنحــى
وصاح في صوقوس يا هذا الشقي شــر بلــى منــي ســوف تلتقــي
ألجــأتني حينًــا إلــى تــرك اللقــا لكــن بــك الحتــف البهــيم أحــذقا
وبصــقيل عــاملي إن تقتــل لآذس الــنفس تــدم والفخــر لــي»٣٦
فارتاع صوقوس وقد رام الهرب موليًــا لكــن أوذيــس وثــب
ورمحــه مــا بــين كتفيــه ولــج ومن شعاب الصدر في الحال خرج
فخــر فــي صلصــلة الحديــد وأوذس مرتفــع الهديــد
«صوقوس ما أنجتك هبات المفر فــالموت أعــدى منــك جريًــا وأشــر

ويحك لم يتح لوالديكا أن يغمضا يوم الرَّدي عينيكا
خلوت للطير فظفر ينشب والأجنح الغضة ضربًا تضرب٣٧
لكنني إن مت فالإغريق غصَّ بهم في مأتمي الطريق»
واجْتَرَّ من مجنه والشاكلهْ سنان صوقوس بتلك الغائلهْ
فجرت الدماء واشتد الألم وحوله جيش العدى طرا هجم
فلاشتداد الخطب عاد القهقرى وصاح يدوي صوته حتى السرى
دعا ثلاثًا يطلب الغياثا وعى منيلا صوته ثلاثًا
مال إلى رفيقه أياس قال: «أيا أياس رب الباس
صوت أذيس أذني حالا طرق كأنما أخرج ما بين الفرق
وشددت أزمتها عليه هي نبادر عجلا إليه
أخاف مهما صال يضوى مفردا فنرث الأحزان عنه سرمدا»
وسار أولا منيلا وتلا أياس كالأرباب أبناء العلى٣٨
فألفيا أوذيس والطرواد قد تَكَأْكَأُوا عليه عَدًّا وَعُدَدْ
كأنهم من حوله ثعالب على الجبال إيلا تراقب
في الإيل القناص سهمًا أنشبا لكنه ما نال منه الأربا
فغاب عن مرآه والثعالي من حوله تجري على التوالي
تروم فتكًا وهو لا يرام يجري ولا يلويه الازدحام
فطالما تجري به قوائمه لا تلتوي لجرحه عَزَائمُهْ

لكن إذا ما الدم في الجرح بَرَدْ   وعن خفيف لجري بالعَيِّ قَعَدْ
فازت به في الطود فوق الغاب   إذا بليثٍ فاتكٍ قضاب
يذعرها ذعرًا فتلوي هربا   وهو به يخلو منالا طيبًا
كذا أذيس وهو ما بين العدى   عن نفسه يدفع بالرمح الردى
بادر آياس بذياك المجن   كالبرج يحميه وقد كان وهن
ففرت الطرواد في كل مفر   ثم منيلا لذراعه ابتدر ٣٩
واجتره من بين تلك القتله   وتبعه أدنى إليه العجله
وصال آياس ودروقل قتل   نَغْلٌ لفريام وفندوقوس فل
ثم لسندرًا وفيراس رمى   كذاك فيلرت يفجر الدما
كالسيل من شم الجبال اندفقا   تمطره أنواء زفس غدقا
يفيض للسهل زُعابًا يندفع   والأرز والملول عنفًا يقتلع
ولعباب البحر يدفع الزبد   كما أياس اشتد فيهم واتقد
طغا بذاك السهل كالزعاب   يبتت ظهر الركب والركاب
وهكطر في ثغر إسكامندر   يصول في صدر الجناح الأيسر
يقضب الأعناق وسط الفيلق   ولا يرى نكال هذي الفِرق
وقد علا لديه صوت اللغب   حول إذومن ونسطور الأبي
وهو بمركبته محتدم   كتائب الفتيان حطمًا يحطم
لكنما جيشهما ما برحا   يدفع حتى ماخوون جرحا
قد كان كالليث يصول وإذا   في كتفه اليمين سهم أنفذا

مثلث الأطراف للإسكندر ... زوج هلانة الجميل الشعر

فقوم أرغوس أولو الإقدام ... خافوا انقلاب موقف الصدام

فيفتك العدى بذياك البطل ... فصاح إيذومين بادي الوجل

«نسطور يا ذا المجد والجلال ... هي فهبن على العجال

وسر وسوقن إلى الأسطول ... بماخوون الماجد النبيل

هذا النطاسي الذي يستخرج ... سهمًا بكرات الصدام يولج

وفوقه يذر بلسم الشفا ... بجحفل يقاس إن تألفا» ٤٠

فهب نسطور وما إن كذبا ... وبابن أسقليب حالا ذهبا ٤١

وساط والجياد كالطير سعت ... تتوق للرجوع من حيث أتت

وقبريون تبع هكطور عرف ... منقلب الطرواد في ذاك الطرف

أبصرهم من فوق عرش العجله ... إزاء هكطور لذا أوعز له

«نحن هنا في طرف المعسكر ... نفتك فتك الباسل المدمر

وثم آياس المنايا نشرا ... والخيل والفرسان ذعرًا ذَعَرا

نعم فذا مجنه الكبير ... من حول كتفيه أرى يدور

فقم نسق لمأذق الهيجاء ... حيث علت عجاجة الأعداء

هناك حيث اصطدم الشجعان ... تلاحم المشاة والفرسان»

وشدد السوط على الجياد ... فاندفعت لساحة الجلاد

تخبط بالقتلى وباليلامق ... على نجيع من خطاها دافق

حتـــى جناحـــا ســـدة المركبـــة وقوســـها مـــن تحـــت تلـــك الســـدة

تخضــــبت دمًـــا بنقـــع فـــائر مـــن دور دولاب ووقـــع حـــافر٤٢

وهكطـــر للفتـــك يصـــلى نـــارا فغـــار مـــا بـــين العـــدى وثـــارا

يطعـــن فـــيهم قـــاتلا مجنـــدلا حتـــى ســـراياهم جميعًـــا بلـــبلا

وظـــل كـــرات الـــوغى يجـــاري بالســـــيف والعامـــــل والحجـــــار

وهـــو علـــى ذيالـــك البـــأس أبـــى لقـــــاء آيــــاس لـــــذا تنكبـــــا

خشـــية أن يغـــاظ زفـــس إن بـــرز لفـــارس أبســـل منـــه وأعـــز٤٣

لكـــن زفـــس فـــي المقـــام الأرفـــع روع آيـــــاس بهـــــول المصـــــرع

فدهشًـــا أطـــرق والجـــوب علـــى كاهلـــه ألقـــى وعـــاد وجـــلا

بطرفـــه جـــيش العـــدى يبـــاري يخطـــو وينثنـــي كـــوحش ضـــاري

وخطـــوة فخطـــوة يلـــوي القـــدم كأنـــه الضـــيغم فـــي الليـــل هجـــم

والنـــاس والكـــلاب فـــي الأســـحار تحـــرس حـــول عُنَّـــةِ الأبقـــار٤٤

تســـهر كـــل الليـــل كـــي لا يرتعـــا بشـــحمها ولحمهـــا ويرجعـــا٤٥

يـــنقض مـــدفوعًا بفـــرط الســـغب لكـــــن يفوتـــــه نـــــوال الأرب

يصـــــده وبـــــل مـــــن النبـــــال ولهـــــب المقـــــابس المنهـــــال

حتـــى إذا مـــا الفجـــر لاح أحجمـــا مكتئبًـــــا مرتعـــــدًا محتـــــدما

وهكـــذا أيـــاس ملتاعًـــا نـــأى عـــن ســـاحة القتـــالِ والعَـــودَ ارتـــأى

لموقـــف الســـفائن الحـــدباء يخشـــى عليهـــا كَـــرَّةَ الأعـــداء

يمشـــي الهوينـــا مثـــل جـــأب دخـــلا زرعًـــا مـــن الحنطـــة يبغـــى أُكُـــلا٤٦

فتنهض الصبية بالعصي — تسحق فوق متنه القوي
لكنه ما كان كي يكترثا — بلَغَب الصبية مهما عبثا
يلبث في تلك المراعي يرتع — وينثني مذ يكتفي ويشبع
وهكذا الطرواد والأحلاف — من حول آياس بعزم طافوا
وهو يصدهم بجوب أكبر — ألبس سبعة جلود بقر
يحجم حينًا ثم حينًا يهجم — ببأسه المعتاد ثم يهزم
وصدهم في كل ذاك الزمن — صدًّا ذريعًا عن بلوغ السفن
يحجز مشتدًّا على الأعادي — بين الأخائيِّين والطرواد
وصيب النيازك القتالهْ — عليه من أيدي العدى منهاله
فبعضها عن شدة العزم حذف — يغل غلا وعلى الترس يقف
وبعضها عنه منالا قصرا — مرتكزًا يغوص في قلب الثرى٤٧
ولم يكد يراه أوريفيل — حتى انبرى لرفده يصول
أتاه لا يعبأ بالسهام — تنهال فوقه كوبل هام
وأرسل المزراق من حيث انطلق — وآفمون القرم في العنف اخترق
كبده مزق ثم راحا — يسلبه الشكة والسلاحا
فانتهز الفرصة فاريس وقد — أشغل أوريفيل في تلك العدد
في حقه أنفذ سهمًا فانكسر — نضيه والدم بالجرح انفجر٤٨
لصحبه التوى ببراح الألم — يأبى الردى وصاح يُنهِض الهمم

«يـا نخبـة الأبطـال جنـد البـاس	قفـوا ادفعـوا الحمـام عـن أيـاس
وحولــه تــألبوا فخشــيتي	يصـميه وبـل مـن سـهام صـبت»
ومـذ لـذلك النـداء انصـدعوا	حـول أريفيـل الجـريح اجتمعـوا
ودون أيـد جلـن بالعوامـل	يلامـق أُلْصِـقن بالكواهـل٤٩
وانضـم آيـاس إلـيهم وانقلـب	واشـتد وقـع الحـرب والطعـن انتشـب
وكـان آخيـل علـى البعـد رقـب	وفـي مـؤخر السـفينة انتصـب٥٠
يشـهد مـا قـد حـل بالأبطـال	مـن قومـه مـن محـن القتـال
أبصـر نسـطور الحكـيم انطلقـا	علـى الجيـاد السـابحات عرقـا
مـع مـاخوون ينهـب الطريقـا	فعـرف السـائق والرفيقـا
صـاح بفطرقـل فمـن خيمتـه	لبـى وهـذا مبتـدا محنتـه٥١
كـآرس مـن بابـه صـاح: «ومـا	رمـت ابـن فـيلا مـن نـدائي للحمـا»
قـال أخيـل: «يـا أود الخلـق لـي	قـد بلـغ الإغريـق أقصـى الفشـل
علـى دنـي ركبتـي صـغرا	سـينحنون سـائلين عـذرا
والآن نسـطورا قصـدن مسـرعا	واسـأله مـع أي جـريح رجعـا
مـا إن نظـرت وجهـه لكنـه	أشـبه مـاخوون طبقًـا متنـه٥٢
قـد مـرت الجيـاد مـن أمـامي	طـائرة لمضـرب الخيـام»
ولـم يكـد يـتم حتـى كـرا	فطرقـل يعـدو ويلبـي الأمـرا
ونسـطر ومـاخوون وصـلا	خيمـة نسـطر بهـا تـرجلا
وتـابع الشـيخ أريميـدون حـل	جيـاده وذهبـا بـلا مهـل

ينشـــفان العـــرق الســـيالا على نسـيم البحـر ثـم مـالا

لخيمـة الشـيخ وفيهـا جلسـا وهيكميـــذا بنـــت أرسينوســـا

(تلـك الربحلـة البديعـة الشـعر لنســطر كانــت نصــيبًا مــدخر

أهـــديها جـــزاء رأي أصـــوبا لمـــا أخيـــل تينـــدوس خربـــا)

قامـت لإعـداد الشـراب عامـدهْ لـــديهما تنصـــب أبهـــى مائـــدهْ

جميلـــة مصـــقولة القـــوائم زرقاءهـــا تنبـــذ لـــوم اللائـــم

مـن ثـم ألقـت فوقهـا دسـيعهْ مؤلـــق نحاســـها بديعـــهْ٥٣

ومزجـت فيهـا علـى الفـور البصـل وخـالص الـدقيق مـع صـافي العسـل

ووضـــعت إزاءهـــا كوبًـــا أغـــر كـان لـدى نسـطور مـن قبـل السـفر

وهـــو علـــى قـــائمتين انتصـــبا وبمســـامير النضـــار التهبـــا

وفـوق كـل مـن عـراه الأربـع طيـر حمـام مـن نضـار ألمـع

وذلـك الكـوب إذا مـا يطفـح هيهـات غيـر نسـطر يزحـزح

لكنمـا ذيالـك الشـيخ الصـفي يحملــه حمــلا بــلا تكلــف٥٤

وراحـــت الصـــبية الســـبيهْ بحســـنها كالربـــة الســـنيهْ

تصـب فيـه خمـر إفرمنـا علـى مـــاء وفوقـــه تفـــت عجـــلا

بمبـرد النحـاس جـبن السـخل وتقتـل المـزيج خيـر قتـل٥٥

وفوقـــه ذرت دقيقًـــا صـــافي ثـــم دعتهمـــا للارتشـــاف

فشـــربا وارتويـــا وجلســـا وبأطـــاريف الحـــديث أَنِســـا

إذا بفطرقل كرب ظهرا   في الباب فالشيخ رأى وابتدرا

وقام عن سدته الوقادهْ   بيده يأخذ حكم العادهْ

ثم دعاه للجلوس فأبى   وقال: «يا مُريد زفس الأنجبا

عفوًا فلست بملبي الأمر   فشأن آخيل نظيري تدري

قد يصطلي عفوًا بسورة الغضب   ويتهم البريء عن غير سببْ

سيرني أسأل منك الخبرا   بأي مجروح أتيت مدبرا

سأقفلن راجعًا ذا الحينا   مذ قد عرفت الشهم ماخوونا»

فقال نسطور: «وأين يلقى   أخيل بالإغريق هذا الرفقا

أما رأى أن فناهم باد   واشتملوا بحلة الحداد

وخير من فيهم ففي الأشراع   بين جريح وطريح ناعي

فذا أبو البأس ذيوميذ البطل   ألمه السهم وبالرغم قفلْ

وذاك أوذيس وأتريذ خرقْ   جسمهما العامل والدم اندفقْ

وهاك أوريفيل بالعنف انكسرْ   بفخذه نبل به الجرح انفجرْ

وها هنا ترى الكمي الباسلا   به جريحًا جئت توًّا قافلا

لكن آخيل على شدته   ليس يبالي ببني لحمته[٥٦]

أمتقاعسًا يظل حتى؟   يبتتنا سيف الأعادي بتا

وتلهب النيران بالأسطول   تبيدها بالجند والقيول

وا أسفا الشباب وَلّى ومضى   والبأس والإقدام عني أعرضا

وفاتني الإبلاء والإيقاع   كما استطالت قبل مني الباع[٥٧]

يـــوم الإليـــون علـــى صـــوارنا ســـطوا فأججنـــا لظـــى أوارنـــا
صـــلنا علـــيهم واغتنمنـــا البقـــرا فجاءنـــــا إيتـــــومن مســـــتعرا
ابـــن هفيـــروخ الـــذي قـــد كانـــا يحكـــم فـــي أليـــذة الســـكانا
فنـــال منـــي طعنـــة نـــال الـــردى بهـــا وولـــى القـــوم طـــرا شـــردا
وخلــت الأنعــام فــي الســهل لنــا خمســـون ســـربًا مـــاعزًا مســـمنا
ومثلهـــا مـــن أحســـن الأبقـــور ومثلهـــا مـــن أســـمن الخنزيـــر
ومثـل ذا الغنـيم سـقنا فـي الغلـس ومئـــة أيضًـــا وخمســـين فـــرسْ
شـــقراء طـــرا ترضـــع الأمْهـــارا ســـقنا لفيلـــوس نـــؤُم الـــدارا
كنـــت فتـــى واهتـــز نـــيلا طربـــا أبـــي لعـــودي غانمًـــا مكتســـبا
وصــاحت الــدعاة فــي مــن طلبــا مـــن ذمـــة الأعـــداء مـــالا ســـلبا
فاحتشـــدوا واقتســـموا القلـــيلا وذاك نـــــذر مـــــن كثيـــر نـــــيلا
حيـــث الإفيـــون علـــى قلتنـــا صـــالوا بفيلـــوس علـــى جملتنـــا
وقبـــل ذا بـــأحؤل قـــد صـــالا هرقـــل فينـــا يـــذبح الأبطـــالا
ومـن بنـى نـيلا وكـانوا اثنـي عشـرْ ســواي لــم يبــق لديــه ابــن ذكــرْ
فزادنـــا العـــدو غـــدرًا واعتســـفْ وبأســـــاليب اللـــــدَّادات قـــــذفْ
وفـي اقتسـام الكسـب نـيلا أفـرزا قطيـــع أبقـــارٍ لـــــه وأحـــــرزا
ســـرب شـــياه برعاتهـــا التـــي أبقـــى لـــه ترعـــى ثـــلاث مئـــة
فذمـــة الأعـــداء كانـــت مثقلـــهْ لـــــه بـــــدين رام أن يحصـــــلهْ

إذ كان قد أرسل للسباق — أربعةً من أكرم العِتَاق

يَامُلُ أن يفوز بالرهان — بقدرهم وندب الفرسان٥٨

لكن مولى الناس أفغياسا — معتسفًا قد حبس الأفراسا

كذلك المركبة الغراء — والسائق المستاء فَذًّا جاء

لذاك نيلا اغتم والوفر ادخر — ووزع الباقي بعدل وأمر

بأن نضحي لبني الأرباب — شكرًا على أطايب الأسلاب

وثالث الأيام فاجانا العدى — بخيلهم لا يحصرون عددا

والملينان قائدا الفرسان — غران للطعان جاهلان

وفي ثغور ألفيا في طرف — فيلوس قامت فوق تل مشرف

بلدة إثريون حاصروها — يبغون بالعنوة أن يفنوها

وفي الدياجي انحدرت أثينا — وهم بذاك السهل يضربونا

ونبهتنا للوبال المحدق — فهم بالهمة كل الفيلق

وخالني نيلا صبيًّا غِرًّا — وخاف أن أكر فيمن كرًّا

فخيلي الجياد أخفى وحظر — عَليَّ أن أجري على ذاك الأثر

فراجلا بعونها سرت ولي — كان لدى الفرسان أسمى منزل٥٩

سرنا إلى حيث لدى آرينسا — يصبُّ نهر قد دعوا مينيسا

للفجر ظلت ترقب الخيالةْ — تعقبها كتائب الرجالةْ

ثم تكتبنا وعند الظهر — طرًّا نزلنا فوق قُدسِ الثغر

من ثم أعددنا الضحايا الغرا — لزفس نستمد منه النصرا

وألـشس التهـر لـه أذكينـا … عجـلا كـذا بـآخر ضـحينا

لفوسـذ وعجلـة تبيعـةْ … لربـة الحكمـة والشـفيعةْ

ثـم تناولنـا الطعـام ورقـد … كـل مـدججًا علـى ذاك الجـدد

وحالمـا بـراح مـن خبائهـا … لـلأرض أرسـلت سَـنا ضـيائها ٦٠

بـزفس لـذنا وأثينـا ومضـى … للحـرب جيشـنا علـى ذاك الفضـا

أمـا الإِفيِّـون فحـول البلـد … تـألبوا بِعَـدَدٍ وعُـدِدِ

فتحًـا يرومـون ولكـن نظـروا … شـدة آريـس بنـا وذعـروا

فـأول الفرسـان مطعونًـا وقـعْ … بنصـل رمحـي عنـدما نحـوي انـدفعْ

(مليـوس وهـو صـهر أفغيـاس … وبعـل آغاميـذة الإينـاس

مـن كنـه نبـت الأرض طـرًّا سـبرت … وللعقـاقير جميعًـا خبـرت)

جندلتـه فخـر مـن مركبتـه … وواثبًـا علـوت فـي منصـتهْ

وصـلت صـدرا لجـيش والأعـداء … وَلّـوْا وفـيهم علـت الضوضـاء

راعهـم أن زعـيم العجـل … وأبسـل الأبطـال بـالحتف بُلـي

وفـيهم هَبَبْـتُ كالإعصـار … أذبـح كـل سـارح وسـار

وفـوق خمسـين مـن العجـال … بمئـة مـن أمنـع الأبطـال

فتكـت طاعنًـا وأوليـت الـردى … ومـنهم اغتنمـت تلـك العُـدَدا

وكـدت أولـي ولـدي أكتـورا … ومليئـا بعـاملي الثبـورا

لكنمـا جـدهما فوسـيذ فـي … مكثـف الضـباب فيهمـا خفـي

ولم نزل نكسأهم في السهل   ونصر زفس فوقنا يستعلي

نذبحهم ونسلب السلاحا   والخيل فينا تنهب البطاحا

حتى وطئنا أرض بفراسا النعم   وصخر أولينيسَ ◌َ◌َذلك الأشم

وعند تل آلس أثينا   بدت لعود عاجل تدعونا

عدنا ولكن بعد ما بمخفقي   حتفًا لقي آخر جندي بقي

وفي مآبنا الأخائيونا   شكرًا وحمدًا كلهم يسدونا

لزفس في الأرباب أبناء العلى   وللفتى نسطور ما بين الملا

فذاك أني كان يوم المحن   إن لم يكن كالحلم ماضي الزمن٦١

لكن أخيل ليس بالشفيق   وسوف يبكي نكبة الإغريق

فاذكر منتيوس وما قال لكا   في إفثيا الفيحاء مذ أرسلكا

ألم أكن وأوذس في القصر   نسمع ما تسمعه من أمر

يوم ذهبنا نحشد العمالا   بين الأخائيين والأبطالا

ودار فيلا كنت مع أبيكا   فيها وآخيل الفتى يليكا

والشيخ فيلا في فناء الدار   مؤجج فيها لهيب النار

يحرق أفخاذًا من الثيران   لزفس يسترضيه بالقربان

وفوقها يريق من كأس الذهب   مدامة سوداء من صافي العنب

وأنتم اللحوم تقطعونا   من مدخل الباب نظرتمونا

فقام آخيل وفي أيدينا   أمسك راحبًا بنا يدعونا

وإذ قضينا من شرابٍ صافي   وخير زاد حق للأضياف

إليكما وجهت قولي علنا | فرمتما اللحاق في الحال بنا
فقال فيلا لأخيل: «يا بني | بَرِّز على الأقران يوم الطعن»
«ثم منتيوس تلا يقول | «رفيقك الباسل ذا أخيل
«فاقك بأسًا نسبًا وقدرا | وزدته عمرًا وزدت خُبرًا
«فانصحه خيرًا وله كن مرشدا | يطع لما تريه من سبل الهدى»٦٢
فذاك أمر الشيخ لكني أرى | أنك قد نسيت أمرًا أَمَرا
بلغ أخيل قبل إدراك الدرك | قولي عساه مصغيًا يذعن لك
فَرُبَّ رَبٍّ مال للترفق | والخير في نصح الرفيق المشفق
وإن يكن يخشى حلول البؤس | بوحي ثيتيس له عن زفس٦٣
فبك فليبعث مع المرامدهْ | عسى بكم لنا تتم الفائدهْ
والبس سلاحه عسى الطرواد | يروعهم لذلك الجلاد
إن نظروه فيك والإغريق | يبدو لهم للراحة الطريق
جيشك إذ مل من القعود | يبطش في جيش العدى المجهود
بذا تقي السفين والخيم وعن | عاتقنا تدرأ أثقال المحن»٦٤
لذاك فطرقل أسًا تفطرا | وكر يبتغي أخيل مخبرا
وإذ لأشراع أذيس عرضا | حيث أقام القوم ديوان القضا
حيث أحلوا مجلس الأعيان | ونصبوا مذابح القربان
بدا أريفيل لديه عارجا | من ساحة الحرب جريحًا عارجا٦٥

يرشــح مــن جبينــه ســيل عــرقْ والســهم بــاد عضــل الحــق اختــرقْ
والــدم أســودا ســخينًا يجــري لكنــــه معتصــــم بالصــــبر
فــرق فطرقــل لــذاك المنظــر وقــال ملتاعًــا لهــول المخبــر
«وا أســفا يــا زبــدة الأغــارق أتهلكــنكم ظبــى المخــافق٦٦
عــن داركــم نــائين والأصــحاب لتــذهبوا مطــاعم الكــلاب
قــل لــي أريفيــل: أفــي الإغريــق بقيــة لِعِبــرِ ذا المضــيق؟
أم ثقلــت وطــأة هكطــور فــلا مــرد للخــزي الوبيــل فشــلا»
قــال: «فبــل قــد قضــي الأمــر ولا منــاص وانظــر تلــق خيــر النــبلا
بــين جــريح وطــريح غــادي وقــوة الطــرواد فــي ازديــاد
هــي أغثنــي واصــحبني للخــيم وأخــرج الســهم يــزل عنــي الألــم
والجــرح فاغســله بمــاء فــاتر واســكب عليــه بلســم القنــاطر
ســر حفظــت عــن أخيــل وهــو عــن أســتاذه خيــرون فــي ماضــي الــزمن
أمــا طبيبانــا فَفُــوْذَا ليْــرُ مــا بــين دُرَّاع العــدى محصــور
ومــاخوون ذاك بــادي العطــب فــي حاجــة أضــحى إلــى التطبــب»
فقــال فطرقــل: «ســرى الوبــال ويــلاه مــا الحيلــة والمــآل
فهــا أنــا أمضــي إلــى أخيــل أبلــغ قــول نســطر النبيــل
لكــن أرانــي عنــك غيــر نــاء وأنــت تحــت الأزمــة الــلأواء»
ومــن ذراعيــه بلطــف حملــهْ ولخيامــه ســليمًا أوصــلهْ
ومــذ لــدى الأتبــاع فــي القــرب ظهــر مــدوا لــه الفــراش مــن جلــد البقــر

ألقـــاه فطرقـــل عليـــه وقطـــع بالسيف نصل السهم من حيث وقع

وغســـل الجـــرح وَعِزْقًـــا مُـــرًّا بيـــــده فَـــــتَّ وحـــــالا ذَرَّا

فالتـــأم الجـــرح وأوقـــف الـــدم وأورفيـــــل زال عنـــــه الألـــــم

هوامش

(١) أراحنا الشاعر أثناء نشيدين متتاليين من معامع القتال وجندلة الأبطال. فأتى في النشيد التاسع على ما مر بك من بعثة الوفد إلى أخيل، وفي العاشر على بث الأرصاد وما كان من أمرهم. فَفَكَّه القارئ تفكهة شوقته إلى استئناف قصص وقائع الحرب فاستأنف أبدع استئناف، وأعدَّ السامع لمواقع شداد بمقدمة في هذا النشيد وطأ بها توطئة عجيبة؛ لاشتداد الأزمة على الفريقين، وارتفاع الصيحة بما لم يسبق له مثيل، إذ جعل الفتنة هي الرافعة معالم القتال، وهيرا وأثينا هما المرعدتان المبرقتان لاشتداد الوبال. وأطال بوصف أغاممنون إنباءً بما سيكون له من الهيبة والجلال، وما سيبديه من شديد البأس وعزة النفس عند اشتباك الرجال، فكان كلامه من أوله إلى آخره كسلسلة آخذ بعضها برقاب بعض لا تفوتك حلقة منها إلا وترسخ في ذهنك وتتلوها حلقة أخرى تحل محلها وتزيد في رونقها، فقد غادرنا القومين في آخر النشيد الثامن متيقظين ليلهم مترصدين حلول الفجر لإعادة الكرة، فكان لا بد

إذًن عند بزوغ الفجر بعد حصول ما حصل من أن يندفعوا جميعًا كالسيل المنهمر، ولم يفت هوميروس ذلك فدفعهم على ما ترى.

(٢) الجنة الجن. عبرنا بقولنا غزالة الصباح عن الفجر وهو في معتقدهم من إناث آلهتهم وطيثون زوجها كان في الأصل إنسيًّا من بني لومذون أبي فريام، فعشقته إلاهة الفجر لجماله واستأذنت زفس فاتخذته بعلا.

(٣) إن إيفاد زفس ربة الفتنة لهو من قبيل احتدام الجيشين وتحرقهما للحرب – ذكر الشاعر في هذا البيت معالم القتال ولم يذكر ما هي على أنه يستفاد مما جاء في النشيد الثامن، أنه كان لهم نوع من الراية الحمراء يرفعونها استنفارًا للحرب، والاحمرار إشارة على سفك الدم والبيت الذي أشرنا إليه هو قوله يصف أغاممنون:

فخاض صفوف الخيم والفلك رافعًا بساعده بردًا من الخز أحمرا

والظاهر من كلام هوميروس أن اللواء إذا عقد لكبير قوم فمن مظاهر عظمة ذلك الكبير أن يرفعه بيده كما فعل أغاممنون فيما تقدم، وكما فعلت الفتنة هنا وهي ربت على ما علمت. وهذا شأن جميع الأمم في تلك العصور وما وليها من أيام الجاهلية؛ إذ لم يكن يعهد بالراية إلا لرئيس همام وفارس مقدام. قال صاحب السيرة الحلبية وغيرهُ من مؤرخي العرب: «إن راية بني هاشم (يوم بدر) أي التي كان يقال لها في الحرب: العقاب. ويقال لها: راية الرؤساء ولا يحملها في الحرب إلا رئيس القوم

كانت لأبي سفيان أو لرئيس مثله، ولغيبة أبي سفيان في العير حملها السائب لشرفه». وقال في موضع آخر: «ودفع ﷺ اللواء وكان أبيض إلى مصعب بن عمير. وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوان؛ إحداهما مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويقال لها: العقاب وكانت من مرط لعائشة». وفي غزوة أُحد: «عقد ﷺ ثلاثة ألوية؛ لواء للأوس وكان بيد أسيد بن خضير، ولواء للمهاجرين وكان بيد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولواء للخزرج وكان بيد الحباب بن المنذر». وكان للعرب أعلام كثيرة في زمن السلم ينصبونها على أبواب بيوتهم؛ لتعرف بها، وكانوا يفتخرون بالرايات الصفر ثم الحمر؛ أما الأولى فلأنها كانت لملوك اليمن، وأما الثانية فلأنها كانت لأهل الحجاز. وفي أوائل الإسلام اتخذوا الراية السوداء والراية البيضاء؛ لأن راية صاحب الشريعة كانت سوداء، وكان له أيضًا راية بيضاء كما تقدم، فلما تولى الأمويون رجعوا إلى راية الحجاز الحمراء. وأما العباسيون فإنهم اتخذوا الراية السوداء اقتداءً بصاحب الشريعة وحزنًا على شهدائهم ولهذا سُمّوا بالمسوّدة؛ لأن السواد كان شعارهم حتى في ملابسهم فلما عدل المأمون عن لبس السواد اتخذ الراية الخضراء. وأما دعاة الدولة العلوية والطالبيون من بني هاشم فكانت رايتهم بيضاء؛ ولذلك سموا بالمبيضة.

(٤) قلاس: جمع قِلس، وهو حبل السفينة – هذا تكرار لما جاء في النشيد الثامن وهو قوله:

وأشــراع أخيــل وأيــاس أرســيت   علــى طرفيــه شــدةً وتبســلا

(٥) لا يحيد الشاعر في شيءٍ من روايته عن الحقائق التاريخية مع كثرة ما يذكر من الوهميات الشعرية والخرافات الميثولوجية، فقد أفادنا بهذا البيت وإفادته صحيحة أن ملك قبرص لم يكن بينهم؛ لأن القبرصيين لم يلجوا تلك الحرب. وفي إهداء تلك الدرع إلى أغاممنون إفادة أخرى تاريخية وهي أن معادن قبرص كانت كثيرة منذ تلك الأيام.

(٦) لا يخفى على المُطالع اللبيب من هذا الكلام أن رؤية قوس قزح كانت تشير إلى أمر ذي بال عند قدماء اليونان، كما كانت عند الإسرائيليين بعد أن جعله الباري عز وجل وثيقة لأبينا نوح، بامتناع حدوث الطوفان مرة أخرى. ولعل هوميروس أخذ تلك الرواية مشوَّهة في رحلته إلى مصر لأنه سيذكر (ن ١٧) أنه لم يكن بشير خير بل نذير سوء.

(٧) كلبا السيف هما المسماران في قائمه.

(٨) الحرابي جمع حرباء والمراد بها هنا قُتر الترس أي مساميره.

(٩) لما أراد الشاعر أن يظهر أغاممنون بكل مظاهر العظمة والجلال أطنب، حتى في وصف شكته وجعل مجنه شبيهًا بترس زفس كما مر بنا في النشيد الثامن.

(١٠) عرف المغفر: ناصية الخوذة والقونس بيضتها.

(١١) قال مزرّد بن ضرار السعدي يصف شكته على نحو ما وصف هوميروس سلاح أغاممنون:

ومســـــفوحةٌ فضفاضـــــةٌ تبعيـــــةٌ وآهـــا القتيـــر تجتويهـــا المعابـــلُ

دلاصٌ كظهـــر النـــون لا يســـتطيعها ســـنانٌ ولا تلـك الحظـاء الـدواخلُ

موشـــحة بيضـــاءُ دانٍ حبيكهـــا لهـا حلـقٌ بعـد الأنامـل فاضـلُ

مشـــهرةٌ تحنـــي الأصـــابع نحوهـــا إذا جُمعـت يـوم الحفـاظ القبائـلُ

وتســـبغةٌ فـــي تركـــة حميريـــةٍ دُلامصـة تـرفض عنهـا الجنـادلُ

كـأن شـعاع الشـمس فـي حجراتهـا مصـابيح رهبـان زهتهـا القنـادلُ

وجَوب يرى كالشمس في طخية الدجى وأبـيض مـاضٍ فـي الضـريبة قاصـلُ

سُـلاف حديـد مـا يـزال حسـامه ذليقًـا وقدتـه القـرون الأوائـلُ

وأملـس هنـديٌّ متـى يعـلُ حـدّهُ ذرى البيض لا تسلم عليه الكواهلُ

إذا مـا عـدا العـادي بـه نحـو قِرنـه وقـد سـامهُ قـولا فـدتك المناصـلُ

ألسـت نقيًـا مـا تُليـق بـه الـذرى ولا أنت إن طالت بك الكف ناكلُ

حسـام خفـي الجـرس عنـد اسـتلاله صـفيحته ممـا تنقـى الصـياقلُ

ومطـرد لـدن الكعـوب كأنمـا تغشـاه منبـاع مـن الزيـت سـائلُ

أصـمُّ إذا مـا هـزَّ مـارت سـراته كمـا مـار ثعبـان الرمـال الموائـلُ

لـه فـارطٌ ماضـي الغـرار كأنـه هـلال بـدا فـي ظلمـة الليـل ناحـلُ

شرع في وصف الدرع فقال: إنها مصبوبة واسعة من الدروع التبعية تكرهها السهام؛ لصلابتها. وهي دلاص، أي: سهلة لينة لا تنفذ فيها الأسنة. موشحة حسنة السبك. يشار إليها بالأصابع لشهرتها – ثم أتى على وصف الخوذة، فذكر التسبغة، وهي نسيج الحلق الذي يكون تحت البيضة. ثم الخوذة فنسبها إلى حمير، وقال: إنها على كونها دلامصة، أي: لينة، ترفضّ عنها الجنادل، وهي لصفائها إذا أصابتها الأشعة تألقت في جوانبها كالمصابيح – ثم ذكر الجوب وهو الترس بشطر واحد، وانتقل إلى السيف فوصف حده القاطع وحديده النقي القديم وأطال بوصف فعله في الحروب – وانتهى بالرمح فقال: إنه مطرد، أي: مضطرب للينه تخال الزيت سائلا عليه للمعانه، يمور لمرونته كالثعبان المحاذر، وكأنه لشدة لمعان حده القاطع هلال يسطع في الظلام الحالك.

(١٢) إن أمثلة مطر الدم كثيرة في تواريخ الأقدمين، وكلٌّ ينتحل لها تفسيرًا ليس من الصحة على شيءٍ حتى قال بعضهم: إن ذلك الطل كان حقيقة أحمر لتبخره من دماء القتلى، وهو قولهم في زمن كان العلم فيه قاصرًا عن إثبات الخلاف. ولقد ذهب بعض العلماء العصريين أنه قد يمكن أن يكون الطل الأحمر منبعثًا من أجساد نوع من الفراش، إذن نقف من بيضة وتطاير في الهواء خرجت منه مادة حمراء. ومهما يكن من

هذه التأويل فسقوط الطل الأحمر كان في عرف كل الأمم إشارة إلى سفك الدماء.

(١٣) لقد أحسن الشاعر وأي إحسان بوصف زعيم الطرواد بهذه الخفة والهمة الشماء، بعد أن وصف زعيم الإغريق بتلك الهيبة والعظمة الغراء. فهذا فتًى في ريعان الصبا يقود كتائب لم تبلغ شأوًا مذكورًا في الانتظام الجندي، فلا بد له من أن يخترق الصفوف، وينادي بالحتوف، وذلك كهلٌ زعيم أمم بلغ منها التفنن مبلغًا عظيمًا وحسبه أن يشددها بمثاله فتقتفي أثره وتسير على منواله.

(١٤) قال بوب: لا ندرك جمال هذا التشبيه إلا إذا علمنا كيف كانوا يزرعون ويحصدون؛ ذلك أن الزراع أو الحصاد كانوا ينقسمون شطرين متساويين، يشرعان في العمل من طرفي الحقل فيلتقيان في وسطه، فهذا كثيرًا ما كان يحصل التسابق والتنافس بينهما لبلوغ كل من الفئتين حده قبل الفئة الأخرى، وهو تشبيه صادق كل الصدق على جيشين زاحفين كلٌّ من وجهته.

(١٥) يستدل من هذا الكلام أنهم لم يكونوا يحسبون ساعات الليل والنهار، إلا بأعمال يعملونها فيها أو أحوال تتهيأ عنها كبزوغ الفجر وارتفاع الشمس. فضحوة النهار من الباب الثاني وراحة الحطاب من الباب الأول. وساعات النهار عند العرب جميعها مأخوذ من معانٍ تدل عليها، وهي المجموعة بقول الشاعر العصري الشيخ ناصيف اليازجي:

أول ســـــاعة مـــــن النهــــارِ هـــي البكـــور والبـــزوغ طـــاري

والــرأد والضــحى المتــوع بعــدُ ظهيـــرة ثـــم الـــزوال عـــدُّوا

ثــم الأصــيل العصــر ثــم الطفــلُ وبالحـــدور والغـــروب تكمـــلُ

ومثل ذلك قوله في ساعات الليل:

أول ســاعة مــن الليــل الشــفق وبعــدها العشــوة يتلوهــا الغســق

فهـــدْأة ثمـــة شـــرع ثـــم قـــلْ جـــنح وزُلفـــة هزيـــع يـــا رجـــل

وبعـــــد ذاك غــــبش وســــحرُ والفجــر والصــبح الــذي ينفجــرُ

وكلها تدل على معان مخصوصة كما ترى.

(١٦) يستفاد من هذا الموضع، وعدة مواضع أخرى في هوميروس أنهم لم يكونوا يفرقون كثيرًا بين أبناء الحلائل والخلائل، فابن الهوى عندهم يكاد يكون كالابن الشرعي. ولقد ذهب بعض الشراح إلى أن هوميروس جعل بين الفريقين تلك المساواة؛ لأنه لم يكن له أبٌ معروف على أن هذا الظن بعيد الاحتمال؛ لأن هوميروس لم يسلك بشيءٍ في شعره على هوى نفس معلوم، بل مثل أحوال عصره وأطوار أبنائه على علاتها، ولم يصدق شاعر صدقه من هذا القبيل.

(١٧) هذه رواية من جملة الروايات التي زين بها الشاعر شعره، فاستفاد منها المطالع إفادات ثلاثًا؛ الاطلاع على قصة من قصصهم، والتفكهة بواقعة يشتغل الفكر بها برهة عن مناظر الفتك والسفك، وترديد

ذكر آخيل بطل الرواية النائي حتى الآن عن مضارب السيوف ومواقع الطعان.

(١٨) الخشفة: جمع خشف، وهو ولد الظبي.

(١٩) يعلم المُطالع أن بدء الإلياذة في السنة العاشرة لحرب طروادة، ولكن من تصفحها من أولها إلى آخرها علم منها أمورًا كثيرة جرت قبل ذلك الزمن، أشار إليها الشاعر إشارة لطيفة، كإشارته هنا إلى ما كان من أنطيماخوس، من قوله بمنع الطرواد عن إرجاع هيلانة إلى زوجها، فيعلم من ذلك ومما سيأتي بعد أبيات بلسان أغاممنون أنهم أوفدوا وفودًا إلى الطرواد لحسم الخلاف صلحًا قبل الإقدام على الحرب.

(٢٠) هذا هو القول الذي قاله ذولون في النشيد السابق توسلا إلى أوذيس وذيوميذ أن يعفوا عنه.

(٢١) قال عنترة:

ودنت كباشٌ من كباشٍ تصطلي ... نار الكريهة أو تخوض لظاها

ودنا الشجاع من الشجاع وأشرقت ... سمر الرماح على اختلاف قناها

(٢٢) قال أبو النجم العجلي:

إنّا لتعمل في الرءوس سيوفنا ... عمل الحريق بيابس الحلفاء

ومثله قول عنترة:

إذ أدبروا فعملنا في ظهورهم ما تعمل النار في الحلفا فتحترقُ

(٢٣) اختلف المفسرون بموقع ذلك التين فمن قائل: إنها التلة المحاذية للبرج التي أشار إليها الشاعر في النشيد السادس، ومن قائل: إنها بقعة وعرة مزروعة تينًا في ذلك السهل، وهذا مذهب إسطرابون القائل: إن اليونان إنما دخلوا إليون من ذلك الموضع.

(٢٤) إذا كان أفيداماس سبط كيسيس، أي: ابن بنته، وكيسيس أبو ثيانو الحسناء، وأزوجه من أختها، فيكون أفيداماس زوج خالته، كما ترى، ولم يكن ذلك منكرًا عندهم.

(٢٥) صرح، أي: أخطأ.

(٢٦) هذا من جملة التشابيه الصادقة على شدة الألم، والكثيرة الورود في أسفار العهد القديم، ومع ذلك فقد انتُقد على هوميروس إيراده لوصف آلام بطل مقدام في ميدان الصدام، ولعله أحسن وقعًا في كلام أوس بن حجر؛ إذ شبه الأصوات في الحرب ترتفع تارة وتنقطع أخرى بصوت المجاهدة في الولادة بقوله:

لها صرخةٌ ثم إسكاتةٌ كما طرقت بنفاسٍ بكر

الإليثيات بنات هيرا، وكانت هيرا إلاهة الزواج وكن إلاهات الولادة والنفاس، كانوا يمثلونهن وبأيديهن سهام تنفذ في أحشاء المرأة

ساعة مخاطها، ولهن مزية أخرى وهي أنهن يسهلن الولادة، وأما شعراء اليونان المتأخرون فلم يذكروا منهنَّ إلا واحدة ذهبوا إلى أنها نفس أرطميس.

(٢٧) لم يكن ارتداد أغاممنون عن موقف القتال بأقل عظمة من اندفاعه بصدر الجند، فإنه على شدة ألمه دفع قومه وبشرهم بالفوز بعبارة تشير إلى أن جرحه لم يكن قتالا ليطمئنوا ولا يأخذهم القنوط لاحتجابه.

(٢٨) هنا انتقل بنا الشاعر من بطش أغاممنون إلى بطش هكطور، ولقد رأينا فيما مضى أن زفس أمره ألا يتقدم إلا إذا اعتزل أغاممنون القتال، فأتمر بذلك الأمر، وزاد ذلك في عظمة أغاممنون حتى في بُعده عن مواقف الرجال واصطكاك النبال.

(٢٩) مهما أنصف الشاعر أعداء قومه بوصف بسالتهم، فإن في نفسه أثرة للإغريق لا تكاد تخفى، فقد مثلهم لنا هنا ملتوين أمام الأعداء، ولكن التواء الليث أمام الكلاب، التي يثيرها أصحابها عليه، وقد جرى هذا المجرى في أكثر الإلياذة.

(٣٠) العد هو النظير.

(٣١) نوطوس: ريح الشمال كما تقدم.

(٣٢) مر بنا أن أوذيس كان مواليًا لذيوميذ في كل النشيد السابق، وكان الموقف موقف تجسس لا موقف حرب، وها هو الآن

موالٍ له في هذا المحل، لا لأنه أبسل القوم؛ ولكن لأن الموقف موقف تهلكة والبسالة فيه أحوج إلى الرأي والحكمة منه في كل موقف.

(٣٣) الرت: السيد والمقدام.

(٣٤) أرانا الشاعر غير مرة أن رمي النبال لم يكن محل فخار لسراة الأبطال، ثم إنه لم يرنا في كل إنشاده بطلا يقهقه قهقهة فاريس، وإن كانوا يتهكمون بعضٌ على بعض في عدة مواقع، ومع أن فاريس هو الفاتك هنا وذيوميذ هو المفتوك به، فإنك ترى من خطاب الجارح وجواب المجروح ما يشير إشارة بينة إلى عجزٍ ورقاعة في الأول وإنفة وشجاعة في الثاني.

(٣٥) قد رأينا الشاعر يشير حينًا بعد حين إلى ما تقدم تلك المواقع من الحوادث، كما أنه يشير إلى ما عقب تلك الحرب مما لم يدخله في منظومته، حتى لا تفوت المطَّلِع على شعره فائتة من الحقائق الجلى، سابقة كانت أو لاحقة، فإن في وصفه أوذيس بكونه أس بلاء الطرواد إشارة إلى الرواية التاريخية، القاضية بأنه هو الذي تسبب في آخر الأمر في فتح إليون، وقهر الطرواد باحتياله على مفاجأتهم بنفر من الجند أدخلهم إليون بالفرس الخشبي المشهور.

(٣٦) لله در أبي الفوارس القائل:

لــي النفــوس وللطيــر اللحــوم وللــ ــوحش العظــام وللخيالــة الســلبُ

(٣٧) زاد عنترة زيادة حسنة على هذا المعنى بقوله:

وأجساد قوم يسكن الطير حولها إلى أن يرى وحش الفلاة فينفرُ

(٣٨) حينما يبرز الشاعر أياس يبرزه رجل فعل لا رجل قول، فهو على شدة بأسه قليل الكلام، يصمت حيث ينطق غيره، ولا يضيع ثانية من الزمن في الخطاب؛ حيث تستفزه الكوارث للبطش والإقدام، فهنا منيلاوس يستغيثه فيبادر ويقول بسرعة الإقدام ما لا يعبَّر عنه بكثرة الكلام.

(٣٩) لا يخفى على المطالع اللبيب ما في هذه التشابيه من دقة المغزى، ورقة المعنى، فالأيل أوذيس، والثعالب الطرواد، والليث الفاتك آياس.

(٤٠) كان ماخاوون طبيبًا وجراحًا. ولنا هنا من كلام إيذومين ما يدل على شدة رعايتهم للأطباء، فلقد رأينا الملوك تتألم لجراحها، والأبطال تخر أفرادًا وزمرًا، ولم نر منهم إشفاقًا يوازي هذا الإشفاق على ماخاوون، وقد ابنَّا في غير هذا الموضع مكانة الطب والأطباء عندهم، وهنا لنا دليل آخر على صحة ذلك القول.

(٤١) أسقليب أبو ماخاوون. انظر رسمه: ١

(٤٢) قال أبو الطيب المتنبي وأحسن:

وخاض بالسيف بحر الموت خلفهم وكان منه إلى الكعبين زاخرهُ

حتى انتهى الفرس الجاري وما وقعت في الأرض من جثث القتلى حوافرهُ

ولشعراء العرب تصرف كثير بمثل هذا المعنى، قال عنترة:

والخيـــل ســـود الوجـــوه كالحـــةٌ   تخـــوض بحـــر الهـــلاك والخطـــرِ

وله أيضًا:

وعـــاد بـــي فرســـي يمشـــي فتعثـــرهُ   جمـــاجمٌ نثـــرت بـــالبيض والأســـلِ

وأحسن من ذلك قولهُ:

حتـــى رأيـــت الخيـــل بعـــد ســـوادها   حمـــر الجلـــود خضـــبن مـــن جرحاهـــا

يعثـــرن فـــي نقـــع النجيـــع جـــوافلا   ويطـــأن مـــن نـــار الـــوغى عظماهـــا

ومثله قول الحصين المري:

لـدن غـدوة حتى أتى الليـل ما تـرى   مـــن الخيـــل إلا خارجيًّـــا مســـوَّما

يطـأن مـن القتلـى ومـن قصـد القنـا   خبـــارًا فمـــا يجـــرين إلا تجشُّـــما

ولأبي تمام من هذا القبيل:

واكتســـت ضـــمر الجيـــاد المـــذاكي   مـــن لبـــاس الهيجـــا دمًـــا وحميمـــا

(٤٣) هذا البيت ساقط من بعض النسخ ولعله دخيل.

(٤٤) العنة للبقر: هي الحظيرة.

(٤٥) لقد أحسن امرؤ القيس بوصف اللحم والشحم بقوله:

وظـــلَّ العـــذارى يـــرتمين بلحمهـــا   وشـــحم كهـــداب الـــدمقس المفتَّـــل

(٤٦) الجأب: الحمار – قد كان هذا التشبيه على بلاغته مما انتُقد بسطه على هوميروس، على أنه فات المنتقدين أن الشاعر يتكلم بلسان قوم لم يكن الحمار ممتهنًا في عرفهم، ولا شك أن هذا الامتهان حديث العهد، فإن العرب – وهم أرباب الأنفة – لم يأنفوا من أن يلقبوا الخليفة مروان بالحمار إعظامًا لبأسه وصبره على المكاره والشدائد. وفي التوراة أن يعقوب لما بارك أبناءه لقب ابنه إيساكر بالحمار الضخم، وأي مثال أصدق من هذا المثال لوصف بطل كأياس، تتألب عليه الجموع فلا يبالي، بل يثبت في مكانه ثبوت الحمار الجائع العابث بالزرع، فلا تهوله عصي الصبية وزعقاتهم، ولا ينثني إلا وقد قضى وطرهُ كما ترى في الأبيات التالية.

(٤٧) لم أرَ وصفًا شعريًّا لبطل من الأبطال في الإلياذة وغيرها أبلغ من وصف أياس في هذا الموضع، فإن الشاعر أبرزه في أول أمره دهشًا مطرقًا هامًّا على الرجوع بصولة زفس الإله الأعظم، ولم يكن شيءٌ يتهيب له لولا تلك الهيبة العلوية، وهو مع ذلك يباري العدو وينثني خطوة فخطوة ملتويًا كالضيغم، تتألب عليه الرجال من كل صوب، فلا يهوله تألبها، وتنهال عليه النبال، فلا يروعه انهيالها، ويلبث صابرًا ليلته حتى إذا لاح الصباح ولم يبلغ منيته ارتد كئيبًا يحرّقه الغيظ، ولم يكفه الدفاع عن نفسه بل بقي وهو في تلك التهلكة يفكر في رد هجمات الأعداء عن السفن، فكان يلتوي أمامهم، ويمشي الهوينا غير مرتاع لوبل

نبالهم ومر قتالهم، كأنهم نسبةً إليه غلمان تكأكأت على حمار يرعى زرعًا وقد برّح به السغب، فيحجم ويهجم بثبات ولا ثبات الأسود، فحمى نفسه وقومه وسفنه وفعل وحده ما تعجز عنه الفيالق، وألقى في قلوب العدى هيبة ولا هيبة كل جيشه المجتمع، ومع كل هذا فلم تغن بلاغة شاعرنا وحسن تصرفه عن انتقاد المنتقدين.

(٤٨) النضي: النصل.

(٤٩) اليلامق: التروس.

(٥٠) ينتقل بنا الشاعر هنا كجاري عادته إلى مشهد آخر بعد أن أطال في ذكر الفتك والسفك والكر والفر، فيوطئ لنا بأسلوب حسن إلى ارعواء آخيل، فالأزمة قد اشتدت في جيش الإغريق، وباتوا على شفا جرف المهالك، واعتزل الكفاح خيرة حكمائهم؛ كنسطور، وأوذيس، وأمرائهم؛ كأغاممنون، وذيوميذ، وأوريفيل، وبرحت بهم الجراح فأمسوا لا يصلحون للكر والكفاح، وزد على ذلك إعراض الآلهة عنهم، وموالاة زفس لأعدائهم، فكانت من ثم جميع الظواهر تشير إلى شر العقبى، وهو تصرف بديع من الشاعر؛ بغية أن يزيد في هيبة آخيل، ويظهر شدة حاجتهم إليه، ويبرز فطرقل بمظهر لا يفوقه مظهر إنسان بالحماسة والغيرة والحنان، وأخيرًا بالبأس وحسن السياسة.

(٥١) أي: محنة فطرقل. في ذلك إشارة إلى أن فطرقل سيقتل على ما سيجيئ.

(٥٢) متنه: بدل بعض من كل من مخاوون – كل كلمة من كلام آخيل تمثل شدة الغيظ وحدة الحقد والكيد، فهو مع كل ما نال الإغريق من الفشل لم يرق لهم، ولم يخفف من ثورة غضبه ولا يزال جانحًا إلى الانتقام، ولا شك أنه أبصر كل ما حلَّ بهم فلم يحرك فيه كل ذلك عاطفة، وإن كان أحب استطلاع أمر ماخاوون فذلك لود خاص به، وقد تعددت أقاويل الشراح في سبب ذلك الود ولم يقل أحد منهم في ما نعلم إن ماخاوون كان أقرب إلى أخيل بصناعته من سائر الجند؛ لأن آخيل وإن لم يكن بنفسه طبيبًا معروفًا في زمانه فلقد كان يسره أن ينتمي إلى زمرة الأطباء لما كان لهم من المكانة على ما رأي، ولا شك أنه كان قد درس تلك الصناعة وأخذ منها شيئًا كثيرًا عن أستاذه خيرون وكانت له معرفة خاصة ببعض أسرارها كما سيأتي بعد أبيات.

(٥٣) الدسيعة: الجفنة الكبيرة.

(٥٤) تضاربت أقاويل الشراح في هذا القول؛ إذ لا يعقل أن نسطور وهو شيخ عاجز يقوى على حمل ما لا يحمله غيره، ولا أخال هذين البيتين إلا دخيلين، وهما من الإلياذة نفسها ومعناهما منقول عن محل آخر.

(٥٥) السخل: هنا العنز.

(٥٦) اللحمة: القرابة.

(٥٧) لا ينفك نسطور يتحسر على شبابه تحسر منصور النمري بقوله:

ما تنقضي حسرةٌ مني ولا جزعُ إذا ذكرت شبابًا ليس يرتجعُ

بان الشباب وفاتتني بشرته صروف دهر وأيام لها خدعُ

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبعُ

ويفتخر بسابق بأسه افتخار معارك ابن مرة العبدي بقوله:

أتطمع في هضمي لدن شاب عارضي وقد كنت آبي الضيم إذ أنا امردُ

(٥٨) الندب: هو خطر الرهان في السباق، وهي عادة كانت جارية لهم كما كانت في جاهلية العرب، ويقال: إنهم كانوا يجرون فيها على غير نمط السباق في الألعاب الأولمبية التي شاع أمرها بعد ذلك الزمان.

(٥٩) بعونها: أي بعون أثينا، وهي وليته ووليَّة أوذيس في كل مغازيهما.

(٦٠) براح علم للشمس، والجدد في البيت السابق الشاطئ والعجلة التبيعة في البيت الذي قبله العجلة لحول واحد.



هرقل ساعة راحة.

(٦١) هذا من التشابيه المتواترة في كل الألسنة، قال أبو تمام:

ثـم انقضـت تلـك السـنون وأهلهـا فكأنهـا وكـأنهم أحـلامُ

ومثله قول البحتري:

وأيامنـــا فيـــك اللـــواتي تصـــرمت   مـع الوصــل أضـغاثٌ وأحــلام نـائم

(٦٢) إنما ذكر نسطور فطرقل بذلك ليبين له أنه لا يبرئه من تبعة تقاعد آخيل ليزيده همة على استنهاض همته.

(٦٣) هذا تهكم لطيف على آخيل ورميٌ له بالجبن؛ لأن ثيتيس كانت أوحت إلى ابنها أنه يقتل في هذه الحرب، وهي أبلغ عبارة نطق بها نسطور في كل هذا الخطاب وأدعاها إلى استنفاره.

(٦٤) إن هذا الخطاب مع ما في مقدمته وخاتمته من الحكم البليغة لا يخلو من دواعي الانتقاد؛ لإسهاب نسطور بحديث طويل عريض لم يكن له موضع هنا؛ لأن الموقف موقف حرج، لا مجال فيه لهذا الإكثار مهما دافع المدافعون عن شاعرنا، ولكن فيه مع ذلك خلا الفوائد التاريخية فائدة أخلاقية تعلمنا أن الشيخ العاجز يجنح إلى كثرة الكلام مهما وفرت حكمته وعظمت مهابته. وإذ لا يبقى له سبيل إلى إتيان الأعمال الخطيرة، وإبراز الهمم الكبيرة، فلا أقل من أن يفخر بما سبق له من صلب الذراع وطويل الباع.

(٦٥) عارجا الأولى من العرج، والثانية من العروج، أي: الميل.

(٦٦) ظبي المخافق، أي: مناصل السيوف.

النشيد الثاني عشر

واقعة الخندق

مُجْمَلهُ

استظهر الطرواد على الإغريق، فدفعوهم إلى داخل معقلهم، وهزموهم إلى سفنهم، وألقى هكطور الرعب في قلوبهم، فخارت عزائمهم وهانت قواهم، أما هكطور فدفعته الحمية إلى اجتياز السور والخندق إلى السفن، فهيأ قومه لذلك، وارتأى فوليداماس أن يترجل الجميع ويندفعوا مرة واحدة مشاة، فاستصوب الطرواد رأيه، وتكتبوا خمس كتائب، كل كتيبة بزعامة رئيسها إلا أسيوس فإنه ظل على مركبته فقتل، ولما اندفع الطرواد إلى أبواب المعقل وقف لصدهم بطلان من أبطال اليونان، فأبرزا من البسالة ما يفوق الوصف، وإذ أوشك هكطور أن ينقض على المعقل ظهر لهم على ميسرة الجيش الطروادي نسر ممسك بمخالبه حيةً حيّة، فارتاع فوليداماس لذلك وأشار بالكف عن القتال، فوبخه هكطور ولبث على كرته فثبت الإغريق في موقفهم وأمطروا على الطرواد وبل نبال وامتاز الآياسان بالبأس والبطش بين الإغريق، كما امتاز سرفيدون وغلوكوس بين الليقيين نجاد الطرواد، ثم جرح غلوكوس فانهزم، وبقي سرفيدون وحده، فخرق السور وفتح منفذًا فيه لجماعته فكادوا ينفذون فيه لولا بسالة آياس، فكثر الفتك والقتل فانحاز حينئذ زفس إلى الطرواد، وتقدم

هكطور ورمي بصخر على أحد الأبواب فسحقه وولج مع كل جيشه معسكر الإغريق، ولم يزل يتعقبهم إلى أن لجأوا إلى سفنهم.

النشيد الثاني عشر

فطرقـــل عنـــد أريفيـــل بخيمتـــه ... يعنـــى بـــه ويداويـــه بحكمتـــه

والحرب فـي مـأزق ضـاقت مسـالكه ... علـى الفـريقين ألقـى ثقـل وطأتـه

أمـا الأغـارق فالحصـن المتـين بنـوا ... والخنـدق احتفـروا مـن حـول خطتـه

ليـــدفعوا عـــن خلايـــاهم ومحملهـــا ... مـــن الغنـــائم مـــا يغلـــو بقيمتـــه

•••

لكـنهم حـين شـادوا سـورهم غفلـوا ... عـن الضـحايا مئـات بـئس مـا فعلـوا

فمـــا إذا هـــو واقـــيهم بمنعتـــه ... مـن الأعـادي إذا كـروا وإن حملـوا

فـــلا يقـــوم بنـــاءٌ لا تحـــيط بـــه ... عـــين العنايـــة إلا شـــابه الخلـــل١

قـد دام مـا دام هكطـور ومـا بقيـت ... إليـــون واشـــتد آخيـــل بنفرتـــه

•••

وعنـــدما فتحـــت إليـــون وانـــدثرت ... مـن بعـد عشـرة أعـوام بهـا حصـرت

والأرغســـيون هاتيـــك السـفائن فــي ... من عـاش منهم إلـى أوطـانهم مخرت

فوســـيذ فـــورًا وآفلـــون انحـــدرا ... وكـــل أنهـــار إيـــذا فوقـــه انحـــدرت

ريســـوس روديـــس قـــاريس إيســـفس ... والهفتفـــور بضـــافي ســـيل ضـــفته

•••

والإســــكندر إغرانيــــق يتبعــــه ... وســـيمويس انجلـــى يهـــوي تدفعـــه

عـن جنـة سـطعت أو بيضـة لمعـت … أَو قِـرن ربٍّ بـذاك الجـد مصـرعه[2]

وفيـــبس حـــول الأنهـــار قاطبـــة … عليـــه تســـعة أيـــام تزعزعـــه

وزفـــس أمطـــر شـــؤبوبًا يقوضـــه … للبحـــر يقذفـــه فـــي قعـــر لجتـــه

•••

وفوســـذ وعصـــا الأنـــواء فـــي يـــده … يطغـــي الســـيول عليـــه فـــي توقـــده

يـــدك أركانـــه مـــن أســـها وبهـــا … للـــيم يقـــذف معتـــزًّا بســـؤدده

يستأصـل الصـخر منهـا والجذوع إلى … أن ساوت الجرف في مألوف معهده

فأسـبل الرمـل يعلوهـا وقـد رجـع الـ … ـأنهار كـلٌّ إلـى محـدود جِدَّتِـهِ

•••

ذاك الـذي سـوف يبديـه لنـا القـدر … والآن مـن حولـه الطـروادة اسـتعروا[3]

تـــرتج أبراجـــه مـــن عنـــف كـــرِّهم … والأرغسيون في الأسطول قد حصروا

يـروعهم سـخط زفـس مـذ أصـابهم … وهكطـــر ذاك أس الـــروع والخطـــر

لا زال يعصـف فـيهم مثـل عاصـفة … وقـــوم طـــروادة اشـــتدوا لشـــدته

•••

كـأن خرنـوص بَـرٍّ صـال أو أسـدا … لـم يعبـأن بجمـع حولـه احتشـدا

بـه تحـيط السـرايا والكـلاب وقـد … أهمـت حواليـه مـن أسـهامها بـردا[4]

فيســـتجيش بقلـــب لا يروعـــه … بـأس فـلا يلتـوي للخطـب مرتعـدا

بـل ينثني وهـو حيـث انقـض منقبضًـا … أو صـال شـقت سـراياهم لصـولته

•••

كـذاك هـاج بهـم هكطـور ينـدفق … يصيح في القوم هَبُّوا الخندق اخترقوا

لكنما خيله في الجرف جازعةً ... ترددت مذ تراءى دونها العمق

وأطرقت صاهلات لا تطيق به ... وثبًا فتجتاز أو عدوًا فتنطلق

وكيف تعدو وحول السور هاويةٌ ... يحوطها السد إحكامًا لمنعته

•••

هيهات تحت العجال الخيل تقطعها ... لكنما لمشاة الجيش مرجعها

لذاك فوليدماس جاء هكطر والـ ... ـفرسان نادى بقرب الفوز يطمعها

«يا هكطر يا سراة الجند كيف ترى ... فوق الحفير جياد الخيل ندفعها

وراءه السور والأركان قد رفعت ... أوتادها غضةً من ضمن سدته

•••

فكيف ننزل في هذي العجال إلى ... هذا الشفير ولا نلقى به فشلا

لئن ننل من لدى زفس إبادتهم ... ونشر خزيهم فليهلكوا عجلا

فإن عبرنا وصدونا لوهدته ... فأيُّ رُزءٍ يوافينا وأي بلا

والحق أصدقكم لن ينجون بنا ... ناج لإليون ينمي شر محنته

•••

فالرأي عندي أن نبقِي الجياد لدى ... سُيَّاسِها عند هذا الحد حيث بدا

ونحن نتبع هكطورًا بجملتنا ... مكثفين على أكتافنا العددا

فالأرغسيون إما حان مصرعهم ... لن يستطيعوا سبيلا للقا أبدا»

فلم يكد ينتهي والقول راقهم ... حتى ترجل هكطور لساعته

•••

وكل فرسانهم ألقوا عجالهم ... لساسة الخيل تستبقي حيالهم

تقام في الجرف صفًّا واحدًا وهم فيالقًا خمسةً صفوا رجالهم

فقاد أولها هكطور أولهم كذاك فوليدماسٌ من أمالهم

وقبريون وقد أبقى الجياد لدى فتًى لهكطور من أعراض فتيته٥

•••

كتيبة تلك ضمت جلهم عددا جندًا تمد إلى كيد العداة يدا

وقاد ثانيها فاريس يصحبه ألقاث ثم أغينور الذي اتقدا

وحاز ثالثها من ولد ملكهم فريام قرمان مقدامين قد عهدا

هيلينس ثم ذيفوب الذي طلعت سيماء آل العُلى تزهو بطلعته

•••

كذا ابن هرطاقس آسيس البطل من ثقف الجُرد للهيجاء يشتعل

من بر آرسبة من جد سيلس قد جرى عليها إلى إليون ينتقل٦

وانضم رابعها جيشًا على حدةٍ لأمر أنياس رب البأس يمتثل

وآكماس ابن أنطينور يصحبه أخوه أرخليخ كانا بصحبته

•••

وخامس الفرق الغراء قد جمعت أحلافهم ولسرفيدون قد خضعت

وعسطروف بغى عونًا له وكذا غلوكسًا تلك صيدُ الحملة اندفعت

كماة بأس بلا هكطور وقعهم في الحرب أيان أطراف القنا وقعت

قد قصر الكل عن إدراك شأوهم وقصروا جملة عن شأو سطوته

•••

وعندما التأموا تزهو يلامقهم تقدموا ومرام النفس سائقهم

وأيقنـــوا أن أعـــداهم وقـــد وهنـــوا　　تبيـــدهم فـــي خلايـــاهم مخـــافقهم٧

بصـــدق فوليـــدماس كلهـــم وثقـــوا　　علـى اخـتلاف سـراهم وهـو صـادقهم

سـوى ابـن هرطـاقس مـا زال معتليًـا　　يليـــه حوذيُـــهُ مـــن فـــوق ســـدته٨

•••

أم الســـفائن مغتـــرًّا علـــى حمـــق　　بخيلـــه وبشـــر الحتـــف لـــم يثـــق

فلــن يــرى بعــد إليونًــا ويفخــر بــل　　بـرمح إيـذومن حكـم القضـاء لقـي٩

يُسرى السفين مضى حيث الأغارق قد　　آبـوا بخـيلهم مـن أفسـح الطـرق

أغـــار تتبعـــه الأجنـــاد لا غِبَّـــةً　　وأيقنـت فـي العـدى فـوزا بغارتـه

•••

للبـاب كـروا ومصـراعاه مـا زلجـا　　بـل فيـه قـوم يبـاري مـن عـدا ونجـا

ودونــه مــن بنــي اللافيــث يحرســه　　قرمـا نكـال علـى هـز القنـا درجـا

ليـــنطس عـــد آريـــس وفولفـــت　　لصـــده وقفـــا فيـــه ومـــا اختلجـــا

قامـــا كأنهمـــا ملولتـــان علـــى　　طـود وقـد قامتـا مـن فـوق قمتـه

•••

فـإن أصـلهما فـي الأرض ينتشـر　　ولا يروعهمـــا ريـــح ولا مطـــر

تربصـــا للقـــاه لا يهولهمـــا　　أنصـــاره وإن اشـــتدوا وإن كثـــروا

فكـــر يتلـــوه يـــامين وآدمـــس　　كـذا ثـوون وأورسـت الأولـى اشـتهروا

وإينمـــاوس تعلـــوهم يلامقهـــم　　وجيشـــهم لغبًـــا داوٍ بصـــيحته

•••

والأرغســـيان لا يلويهمـــا الجـــزع　　صاحا بمن ضمن ذاك المعقل امتنعوا

فمـا أجـاب مجيـب والتـووا قلقًـا وكـاد جـيش العـدى للسـور ينـدفع

فبـرزا خـارج الأبـواب وانفـردا مكـافحين وأسـهام العـدى تقـع

وفـوق صـدريهما الفـولاذ متقـد يصـل للوبـل يهمـي فـوق صـفحته

•••

كـأن فـي الشـم خرنوصـين قـد ذعـرا بـين الخياطـل والقنـاص مـذ حصـرا

فيسـحقان بـبطن الغـاب مـا لقيـا كيـدا ويستأصـلان الفـرع والشـجرا

ويعليـان صـريف النـاب مـا بقيـا حيـين لـم يلقيـا فـي المعـرك القـدرا

فهكـذا اشـتد ذان الباسـلان ومـا ريعـا لكـل قـوى جـيش وكثرتـه

•••

كانـا علـى ثقـةٍ مـن بـأس ذرعهمـا وبـأس مـن قـام فـوق السـور خلفهمـا

جنـد مُدافعـةٌ بـالعنف دافعـةٌ وبلا من الصخر من فوق العداة همى

ومـن كـلا الجحفلـين الرمـي منطلـق علـى الرءوس بغيـث بالنبـال طمـا١٠

كصـيب الـثلج تنهـال الغيـوم بـه والنـوء هـب فتهمـي تحـت هبتـه١١

•••

والبيض ترجع عن وقع الحجار صدى للجـو عنهـا وعـن أجوابهـم صـعدا١٢

ففـات آسيسًـا مـا كـان أملـه فصـاح يلطـم يضـويه العنـا كمـدا

«أكنـت يـا زفـس خـدَّاعًا وكيـف أرى قـرمين فـذين لـم نبلغهمـا أمـدا

مثـل الزنـابير ذبـت عـن خشـارمها والنحـل لا يتخلـى عـن خليتـه

•••

فلـن يكفـا تـرى إلا إذا صُـرِعا أو بـين فتـاك أيـدينا إذا وقعـا»١٣

لكـــن زفـــس وهكطـــورًا بنصـــرته من دونهم خص ذاك الصوت ما سمعا[14]

وسـائر الجـيش لـم ينفـك مضـطرمًا بأسًـا علـى سـائر الأبـواب منـدفعا

مـن لـي بإلهـام ذي علـم فينبئنـي كـم هامـةٍ وقعت فـي حَـرٍّ وقعتـه ١٥

•••

من كل فج لدى السور الأوار علا وارتـاع للخطـب أهلـوه وقـد ثقـلا

فلـم يروا غير حسن الذود من مددٍ ورهـط أنصارهم في الخلد قد وجلا

لكنمـا ولـدا اللافيـث حولهمـا قد أعملا في الأعادي السيف والأسلا

واجتـاح فولفـت دامـاس مبتـدرًا بطعنـةٍ نفـذت فـي بطـن خوذتـه

•••

ما صدها ذلك الفولاذ بل خرقتْ حتى الدماغ وأم الرأس قد سحقتْ

مـن ثـم أتبعـه فيلـون يلحقـه أرمين عن طعنةٍ في جوفه مرقتْ

كذا لينطس في لدن القناة مشى رمى وفي خصر هيفوماخس فهقتْ

فاستل من غمده السيف الحديد وفي قلـب العـدى كـر يلقـي روع كرتـه

•••

فانطفـأت فـرى يلقيـه منقلبـا مـن ثـم كـر ومنيـون الفتـى اقتضـبا

واجتاح أورست تُسقى الأرضُ من دمه والقـرم يـامين ثـم اسـتقبل السـلبا

وهكـذا فتيـا اللافيـث قـد فتكـا فتكًـا ذريعًـا وحـازا بعـده النشـبا

وهكطـر إثـره الفتيـان لا غبـةٌ وإثـر فوليـدماس تحـت إمرتـه

•••

(كتيبـة تلـك ضـمت جلهـم عـددا جنـدا تمـد إلـى كيـد العـداة يـدا)

كـــادت حفيــرهم تجتــاز عـــابرةً إذا بطيــر لهــا تحــت الســماء بــدا
فاستوقفت جزعًـا فـي الجـرف حـائرةً تطيـر أو هـو عـن يُسـرى السـرى وردا
نسـر مخالبـه فـي الجـو قـد نشـبت بــأفعوان خضــيبٍ تحـــت قبضـــته

•••

فــالأفعوان وفيـــه لـــم يـــزل رمـــق مـا بـين أظفـاره فـي الجـو يصـطفق
حتـى عليـه التـوى بـالعنف يلسـعه فـي بـارز الصـدر حيـث التفـت العنـق
فصـــاح عـــن ألـــم مـــر وأفلتـــه وراح تحـــت مهـــب الـــريح ينطلـــق
والأفعــوان هــوى لــلأرض مختضـبًا حيـــا وطــــروادة ارتاعـــت لرؤيتـــه

•••

فتلـك مـن زفـس نجـوى رامهـا علنـا ونحـــو قـــرمهم فوليـــدماس دنـــا
وقـال: «عُـوِّدتَ هكطـورٌ معارضـتي إذا اقترحـــت مقـــالا بيننـــا حســـنا
لا يجـــدرن بنـــا أن نســـتطيل إلـــى مـــداك أو نرتئـــي مـــا لا يلـــوح لنـــا
لكننـــــي كيفمـــــا دارت مباحثنـــــا مهمـا أقـل فمقـالي ثـق بصـحته١٦

•••

لا خيـر بالفتـك فـي الإغريـق بالسـفن إن صـح حدسـي ففيـه فـادح المحـن
ألـم نـر النسـر يسـرى الجـيش مرتفعًـا بحيـــة حيـــة مشـــتدة الإحـــن
أمـــا رأينـــاه ألقاهـــا مخضـــبة فريســـة تلـــك فاتتـــه ولـــم تهـــن
ولـم تكـن لفـراخ قـد خلـون بهـا بـــوكره فـــانثنى يخلـــو بخيبتـــه

•••

وهكـــذا فلـــئن نظفـــر بســـورهم وخـــرق أبوابـــه خرقًـــا بـــرغمهم

ولـو هزمنـاهم لـن يـرجعن بنـا ا ا	أجنـاد مـن حيـث كـروا بانتظـامهم
بـل سـوف نلـوى شـتاتًا تـاركين لهـم	جنـدًا تمزقهـا نيـران كيـدهم
فـذاك تفسـير هـذا النجـو يخبـره	أخو الهدى تهتدي الدنيا بخبرته»١٧

•••

فمـال هكطـور شـزرًا وهـو يلتهـب	غيظًـا وقـال: «ألالإحجـام تنتـدب
فإن تكن قلت ما قد قلت عن ثقةٍ	لا شـك رشـدك أبنـاء العلـى سـلبوا
لأنـت أولـى بـرأي أصـوب فعـلا	م رمـت أنـي قضـايا زفـس أجتنـب
تلـك القضـايا التـي بلغتهـا سـلفًا	مـذ مـال بـالرأس إعلانًـا لنصـرته

•••

أرمـت أنـي أطيـع الطيـر إن رمحـت	سـيان تعلـم عنـدي كيفمـا سـرحت
لمطلع الشمس عن يمناي إن سنحت	أو يسـرتي لـدياجي الغـرب إن برحـت
فـلا نطـيعن إلا مـن أطـاع جميـع الـ	ـجن والإنـس والـدنيا بـه انتصـحت
ولـيس للمـرء مـن فـأل يـدين لـه	خير من الذود عن أوطان نشأته١٨

•••

عـلام تخشـى الـوغى جبنًـا وتضـطرب	وأنـت فـي الأمـن لـن ينتابـك العطـب
فلسـت بـالقرم يـأتي مؤقفًـا حرجًـا	حتـى ولـو جملـةً أجنادنـا نكبـوا١٩
لكـن إذا مـا اعتزلـت الحـرب مجتنبًـا	أو مـا بنصـحك رمـت الجنـد تجتنـب
واغتـر مـن قومنـا فـرد لقولـك ذا	فاعلم فروحك في رمحي وطعنته»٢٠

•••

وكـر والجـيش طـرا إثـره حمـلا	وزفـس مـن طـور إيـذا ريحـه حمـلا

هبـت بعثيرهـا مـن فـوقهم ومضـت تذروه فوق العدى توليهم الوجلا٢١

فتلـك مـن فضـل زفـس نصـرة وثقـوا بهـا وفـي بأسـهم واستقبلوا القللا٢٢

فهـدموها وأطـراف الوشـيع رمـوا والمعقـل ابتـدروا ثغـرًا لثغرتـه

•••

وزعزعـوا صـخر أركـان بـدت عمـدا مـن تحـت أبراجـه قامـت لهـا سـندا

وشـددوا العـزم فـي استئصـالها أمـلا بمنفـذ منـه يؤتـون العـدى الشـددا

لكنمـا عسـكر الإغريـق ظـل علـى أبراجـه مسـتجيش العـزم مجتهـدا

مـدت يلامقهـم حصـنًا يـذود بـه يرمـي العـداة الأولى آلـوا بخذلتـه٢٣

•••

آيـاس يجـري وآيـاس علـى القلـل يستنهضـان السـرى بـالقول والعمـل

طـورًا بلـين حـديث للأولـى اعتزلـوا وتـارة بمـلام الفـارس الوجـل

«يـا أول الصـيد أبطـالا وثـانيهم بأسًـا ومـن لـم يخـول قـوة البطـل

لـم يمـنح الكـل بأسًـا واحـدًا ولكـم فـي يومنـا الـذود كـل جهـد طاقتـه

•••

عـرفتم ضـيق هـذا الموقـف الحـرج لا تلتـون بقلـب هـد مختـلج

لا يصـدعنكم قـرم يسـوقكم إلـى سـفينكم فـي خـائر المهـج

بـل شـددوا بعضـكم بعضًـا ولا تهنـوا لعـل زفـس منيـل النصـر والفـرج

بـه نـذل عـدوًّا قـد ألـم بنـا يصـمى ويـذبح حتـى بـاب بلدتـه»

•••

فهـاج قولهمـا الأجنـاد فاعتصـبوا وماج من فوق ذاك المعقـل اللجـب

حجــارة مــن كــلا الصــوبين طــائرة … في الجو في موقف الجيشين تنسكب
كــأن يــوم شــتاء زفــس كــان لــه … بــالقر فيــه علــى كيــد الــورى أرب
فتسـكن الـريح والـثلج الكثيـف علـى … وجــه الثــرى صــبيًّا هــام بوفرتــه

•••

يهمـي فيسـتر وجـه السـهل والجـبلا … والمــرج والــزرع والأريــاف والســبلا
والثغـر حيـث زغـاب المـوج يمحقـه … وســائر الأرض منــه ألبســت حلــلا
لكــن هكطــور والطــرواد مــا ظفــروا … بالســور والبــاب بــالمزلاج قــد قفــلا
إلا بهمــــة ســــرفيدون هيجــــه … أبــوه زفــس ببــادي بــأس همتــه

•••

جرى كليـث علـى سـرب الثيـار جـرى … أمامــه مجــوب فــولاذه بهــرا
مؤلـــق مســـتدير دق صـــانعه … قتيــره دق حــذق يــدهش البصــرا
مــبطن بجلــود الثــور دار علــى … أطرافــه قضــب مــن عســجد نشــرا
بــه مشــى بيديــه عــاملان مضــى … عُجْبًــا يهزهمــا أثنــاء مشــيته٢٤

•••

كضــيغم بــين شــم الراســيات ربــي … وبرحـــت بحشـــاه آفـــة الســـغب
يــنقض حتــى مبــاني النــاس مبتغيًــا … فريســـة بفـــؤاد غيـــر مضـــطرب
لا ينثنــي لكــلاب الحــي إن نبحــت … أم بادرتــه رعــاة القــوم بالقُضُــب
ولــيس يرجــع إلا نــائلا وطــرا … أو هالكًــا بقنــاهم قبــل عودتــه

•••

وهكــذا انقــض ســرفيدون ممتحنــا … خرق المراقب والسور الذي حصنا[٢٥]

فقال لابن هُفُوْلُوخٍ: «علام ترى في ليقيا كان صدر القوم مجلسنا
والكأس تُتْرَعُ واللحم السمين لنا والناس مثل بني العليا تبجلنا
علام في ثغر زنثٍ أرضنا اتسعت والكرم والزرع يسقى ملء حاجته

•••

فلا يسوغ لنا إلا التربص في صدر السرى حيث نلنا منتهى الشرف
حتى كتائبنا تعتز قائلة «نعم الملوك علوا عن حطة الضعف»
«فليهنأوا بسمين اللحم مأكلهم والراح إذ وقفوا في موقف التلف»
وهل ترى لو أبينا الكر ننقذ من وخط الشيب وموت بعد وخطته

•••

لو كان ذا عُفْتُ شر الحرب والحرب وما بغيتك في ذا المأقِطِ اللجب٢٧
لكنما الموت منه لا مناص وقد يأتي بأي سبيل كان أو سبب٢٨
فلنقدمن فإن المجد راقبنا أو راقب من سقانا غُصَّة النُّوب»٢٩
لبى غلوكس لا يرتاع مطلبه وكر تتبعه أبطال أمَّته

•••

فهال مرآهما مينستسًا وهما هَمَّا إلى برجه بالعزم واقتحما
فسرح الطرف حول السور مبتغيًا قرمًا يروم به عونًا يصدهما
ألفى الأياسين لا يضويهما تعب قد بارح الخيم طفقير يرومهما
ولم يكن من سبيل للنداء على ما اشتد من لغبٍ يصمي بضجته

•••

حيث الطرواد قد ثاروا بمعترك يبغون إدراك دك السور للدرك

وفـي اليلامـق والبـيض المعـذب والـ ... أبواب قـرع دوى في قبـة الفلـك٣٠
فصـــاح مينســـتس بـــالفيج ثـــوطس ... وقـــال: «طـــر بمقـــالي غيـــر مرتبـــك
وادع الأياســـين أو مهمـــا بـــدا لهمـــا ... فليـــأت آيـــاس يرفـــدني بنجدتـــه٣١

•••

والـرأي هـذا فعنـدي موقـف الخطـر ... وقـــوم ليقيـــة انقضـــوا علـــى أثـــري
وإن يكـن جـل وقـع الخطـب عنـدهما ... فليـــأتني ابـــن تلامـــون أبـــو الظفـــر
وليـأت طفقيـر رب القـوس يصـحبه» ... فأسـرع الفـيج ينمـي صـحة الخبـر
قـال: «ابـن فيتـيس حينًـا يرومكمـا ... كليكمـــــا فأجيبـــــاه لدعوتـــــه

•••

والـــرأي ذا فلديـــه موقـــف الخطـــر ... إذ قـــوم ليقيـــة انقضـــوا علـــى الأثـــر
وإن يكـن جـل وقـع الخطـب عنـدكما ... فليأتـــه ابـــن تلامـــون أبـــو الظفـــر
وليـأت طفقيـر رب القـوس يصـحبه» ... لبـــى كبيرهمـــا يجـــري بـــلا حـــذر
ومـــال نحـــو ابـــن ويلـــوسٍ يشـــدده ... ليحسـن الـذود فـيهم حين غيبتـه: ٣٢

•••

«قـف يـا أيـاس وفوليميـذ لا تهنـا ... وحرضـا الجنـد لا تـأب الـوغى جبنـا
أمضـــي فـــأبلو بأعـــداء هنـــاك عتـــوا ... وإن دفعـــتهم دفعًـــا رجعـــت هنـــا
وســـار يصـــحب طفقيـــر الفتـــى معـــه ... أخـــاه وابـــن أبيـــه النابـــل الفطنـــا
كـــذلك الشـــهم فنـــديون متبـــع ... وراء طفقيـــر يجـــري فـــي حنيتـــه٣٣

•••

مـن داخـل السـور أمـوه ومـا برحـا ... فـي برجـه فـإذا بـالأمر قـد فـدحا

وقوم ليقية مثل العواصف قد ... تسلقوا بوحى يشتد أي وحى

فقل آياس صخرًا هائلا وعلى ... أفكلس خل سرفيدونهم طرحا

جلمودة من رجال العصر ما رفعت ... يدا فتى رب بأس في شبيبته

•••

فذلك الصخر من ضمن الوشيع رفع ... رحاه ثم على رأس العدو دفع

فدق هامته من تحت خوذته ... فغائصًا من على البرج المتين وقع

كذاك أبصر طفقير غلوكس قد ... رام التسلق مشتد القوى وطلع

وقد بدت يده البيضاء عارية ... فأرسل السهم يعروها برميته

•••

فشب للأرض واهي العزم يستتر ... كي لا يرى الجرح أعداه ويفتخروا

فأثقل الغم سرفيدون حين رأى ... منآه لكنه ما ناله الضجر

وألقماوون ثسطور أصاب فلم ... يقف وعاجله بالرمح يبتدر

واجتر عامله من صدره فهوى ... يصل فولاذه من فوق جثته

•••

من ثم بين يديه ممسكًا جذبا ... إحدى دعائم سطح السور فاضطربا

وأسقطت من أعالي الحصن وانكشفت ... عن منفذ لبني طروادة رحبا

فانقض آياس يبغيه وبادره ... طفقير يرمي بسهم فيه ما نشبا

حزام جنته الكبرى أصاب فلم ... ينفذ وزفس تلافاه بقدرته [٣٤]

•••

لم يرض موت ابنه قرب السفين ولا ... نكاله وأياس ثار مشتعلا

وكـر يطعـن والـرمح الحديـد مضـى ... فـي ترسـه وإلـى الأعضـاء مـا وصـلا

فصـدَّ يرجـع سـرفيدون بعـض خطـى ... عن خطة السـور لكـن لـم يهـن وجـلا

بـل ظـل يأمـل نصـرًا وانثنـى عجـلا ... يصـيح فـي مـن تـلاه مـن عشـيرته

•••

«يـا قـوم ليقيـة هـل خـار عـزمكم ... فقـد فتحـت سـبيلا فـي وجـوهكم

وهـل تيسـر لـي مـا صـلت منفـردًا ... أمهـد السـبل للأشـراع دونكـم٣٥

هيوا اتبعوني فخير الأمر ما اجتمعت ... علـى تطلبـه القـوات تلتـئم»

فجملـة وجلـوا مـن عـذل ملكهـم ... وفـار فـائرهم مـن حـول فورتـه

•••

والـدانويون قـد ضـموا كتـائبهم ... مـن داخـل السـور لا يلـوون غـاربهم

فمـا هـم دافعـوا أعـدائهم صـببًا ... عـن ثغـرة جعلـوا فيهـا مضـاربهم

ولا أولئـك مـنهم نـائلو وطـرٍ ... ولا سـبيل ليحتلـوا مـراكبهم

ولـيس يفصـلهم إلا الفواصـل فـي الـ ... ـسور الذي اشتبكوا من حول فرجته

•••

كـزارعين بحقـل بعـد مـا قسـما ... تنازعـا كـل شـبر فـي حـدودهما

ولا يظـلان فـي جهـدٍ وفـي عمـلٍ ... حتـى يوازنـه المقيـاس بينهمـا ٣٦

كـذا تعادلـت القـوات يسـرب مـن ... كـلا الفـريقين سـيالا نجيعهمـا

كـم جنـة سـحقت فـي صـدر حاملها ... ولأمـةٍ خرقـت مـن تحـت جنتـه

•••

وكـم فتًـى مـدبر قـد بـان كاهلـه ... فالسـهم واصـله والـرمح قاتلـه٣٧

ومـا اسـتطاع بنـو الطـرواد صـدهم بـل اسـتوى فـي مجـال الفتـك هائلـه
كمـرأة عالـت الأطفـال عادلـة قـد أمسـكت عـود ميـزان تعادلـه
لا تخسـر الصـوف مثقـالا تضـن بـه عـن العيـار الـذي ألقـت بكفتـه٣٨

•••

لكـن زفـس ذرى المجـد الرفيـع ذخـر لهكطـر فـإلى الحصـن المنيـع عبـر
فكـر أولهـم كـرًّا يصـيح بهـم «إيـه فَكُـرُّوا بنـي الطـرواد خيـر مكـر
والسـور فـاخترقوا والنـار مضـرمةً ألقـوا فـلا تبـق مـن أسـطولهم وتـذر»
فهاجـت الـنفس والسـور المنيـع رمـوا يهـز كـل فتًـى رُمْحًـا براحتـه

•••

وهكطـر حجـرًا فـي البـاب قـد ثقـلا محـدد الـرأس ضـخم قعـره حمـلا
جلمـود صـخر إذا مـا رام يحملـه قرمـان مـن خيـر مـا فـي عصـر نـارجلا
مـا بلغـا رفعـه إلا بجهـدهما من صـفحة الأرض حتى يبلـغ العجـلا
لكـن هكطـور يرحـوه بغيـر عنًـا إذ زفـس أذهـب عنـه كـل ثقلتـه٣٩

•••

نظيـر جـزة كـبش خـف محملهـا هيهـات فـي راحـة الراعـي تثقلهـا
كـذاك صـخرته هكطـور محتـدمًا عنفًـا رماهـا لصـفق البـاب يرسـلها٤٠
قـد أحكمـوا قفـل مصـراعيه إذ رتجـا حتـى يعـز علـى الأعـداء مـدخلها
وقـد تعـارض قفـلاه ووسـطهما ثقـب تخلـل مـزلاج بفرضـته

•••

فهكطـر مـذ أتـاه أثبـت القـدما مفرجًـا بـين سـاقيه رحـا ورمـى

فراح ما بين صفقيه وقد سحق الـ ـقفلين ينفذ والصفقان قد حطما

والرزتان استطارت قائماتهما والباب يصرف من عنف به صدما

فانقض هكطور بالفولاذ متشحًا كالليل يذعر ذعرًا في دجنته

•••

يهز بين يديه عامليه ولا يصده غير رب عندما حملا

واجتاز وثبًا وعيناه شرارهما وارٍ وألفت يدعو قومه عجلا

تلوه ما بين عاد قد تسلق أو في الباب جار لداوي الصوت ممتثلا

والأرغسيون للأسطول قد لجأوا في مأزق ضاق مشتد بأزمته

هوامش

(١) هذا أشبه شيء بقول المزامير: إن لم يَبْنِ الرب البيت فباطلا يتعب البناؤون، وإن لم يحرس الرب المدينة فباطلا يسهر الحرَّاس، ويقرب منه قول الشاعر العربي:

كذلك من لم يشكر الله لم تزل معالمه من بعد ساحته تعفو

(٢) قرن رب، أي: نظير رب، وهي صفة كثيرًا ما يصف بها هوميروس أبطاله الأشداء، وقد خص سيمويس من بين الأنهار بالجنن والبيض، أي: الدروع والخوذ المنقذفة مع مياهه؛ لكثرة ما وقع فيه من القتلى بدوران رحى الحرب على ضفتيه.

(٣) تلك إشارة من جملة إشارات الشاعر إلى ما كان مزمعًا أن يقع بعد الحصار، وقد أدخلها هنا بمعرض نبوءة سبقت الإشارة إليها في النشيد السابع، والظاهر أنه في زمن هوميروس لم يكن لذلك السور من أثر باق، أو هو خرافة تناقلت إلى أيامه، ولا حاجة إلى إعادة ما قدمنا في هذا الشأن في النشيد السابق المذكور، وإنما نجتزئ هنا بالتنبيه إلى الأسلوب البديع، الذي اتخذه صاحب الإلياذة إلى محق آثار ذلك السور، فجعل الأمر متأتيًا عن تعاون الآلهة، وليس بالأمر العسير عليهم أن يبيدوه، وأتى بكل هذا بصورة رمزية تفيد أن اليونان في زمانه كانوا يدركون جانبًا من أسرار الطبيعة، فإن فيبوس وهو الشمس يحول الأنهار، وزفس وهو في بعض الأحوال الرقيع يهمي الأمطار، وفوسيذ وهو البحر الهدار يثير الأنواء في البحار، كل ذلك من الأصول العلمية التي يحسن تأويلها حتى في أيامنا هذه.

(٤) قد خالف الشاعر عادته هنا بتشبيه هكطور بطل الطرواد بالليث بين الكلاب مع دوام إثرته لقومه، ولكنه لا يبقى محل للاستغراب إذا علمنا أن مراده أن يشدد الأزمة على الإغريق، وينكل بهم تنكيلا، حتى إذا هب آخيل إلى نصرتهم وفاز بقتل هكطور كان له بذلك فخر على فخر، وزادت أناشيد الإلياذة وآخيل بطلها بلاغة على بلاغة.

(٥) قبريون هذا حوذي هكطور، وإذ كان بطلا باسلا استبقى المركبة لفتى آخر من أعراض الفتية، وتولى قيادة كتيبة من الجيش مع

هكطور، وليعلم المطالع أنه شتان ما بين حوذي ذلك الزمان والحوذي في أيامنا، فسائق المركبة إذ ذاك كان رفيقًا وقرينًا لصاحبها، يشبَّه به اليوم رديف العرب في البادية كما تقدم.



فوليداماس يشير إلى هكطور أن لا يجتاز الخندق راكبًا.

(٦) جد سيلس، أي: ضفة نهر سيلس وشاطئه.

(٧) الخلايا: السفن، والمخافق: السيوف.

(٨) ابن هرطاقس، أي: أسيوس.

(٩) تلك إشارة إلى مقتل أسيوس في النشيد التالي.

(١٠) شبه معقر بن حمار البارقي الرءوس المضروبة عند التقاء الجيشين بالحدج النقيف، وهو الحنظل المشقوق بقوله:

كـأن جمـاجم الأبطـال لمـا تلاقينـا ضـحًى حـدجٌ نقيـفُ

(١١) شبه النبال المتطايرة بالثلج المتناثر، ومثله قول أبي العيَّال الهذلي إذ شبهها بالسنبل:

فترى النبـال تغيـر فـي أقطارهـا شُمسًـا كـأن نصـالهنَّ السـنبلُ

وأحسن منه قول العبسي، إذ ذكر السيوف والسهام والدروع، وشبه السهام بالجراد، قال:

يـدعون عنتـر والسـهام كأنهـا لمع البوارق في السحاب المظلمِ

يـدعون عنتـر والسـهام كأنهـا طـشُّ الجـراد على مشـارع حـوّمِ

يـدعون عنتـر والسـهام كأنهـا حـدق الضفادع في غدير ديجـمِ

(١٢) الأجواب: جمع جوب التروس. والبيض: الخوَذ.

(١٣) إن خطاب أسيوس لزفس من باب الكفر والاستطالة، ولعل الشاعر وطأ به ليجعل قتل أسيوس في ما يلي عقابًا على كفره، كما زعم بعض المفسرين. ولا أرى هذا التفسير ثبتًا؛ لأنه يلوح أن لوم الآلهة ساعة الغضب لم يكن بالخطأ القاتل، ولنا في الإلياذة أمثلة كثيرة على ذلك فقد جاء مثل هذا الكلام بخطاب ذيوميذ في النشيد الثالث إذ يقول:

من كل آل الخلد مثلك لم يكن يــا زفــس معتســفٌ بمقدوراتـــهِ

ونفس أغاممنون الزعيم الورع رمى زفس بالكذب والخداع مرتين بقوله في النشيد الثاني والنشيد الحادي عشر:

فمــان ومــا أغــراه فيمــا رمانيــا وأمثـــــال ذلـــــك كثيـــــرة

(١٤) قوله: «وهكطورًا بنصرته من دونهم خص». جملة معترضة.

(١٥) كل انتقال من الخبر إلى الاستفهام كما ترى في هذا البيت يشير إلى أمر خطير يليه، وأكثر ما يستعمل الشاعر ذلك عند تعداد أسماء كثيرة لا بد في استحضارها من ذاكرة يحكها محكٌّ جديد.

(١٦) نرى فرقًا بينًا بين خطاب فوليداماس هنا وخطابه السابق في هذا النشيد، فقد تكلم هنالك كلام الآمر الناطق بالحق، الذي يجب أن يتبع فيبدي رأيه بلا تزلف غير متوقع لومًا واعتراضًا، وأما هنا فيشرع في التلطف والاستعطاف؛ لأنه موقن أنه وإن نطق بالحق والصواب كما نطق في الموضع الأول، فهو هناك مثبتٌ أمرًا يميل إليه هكطور وموردٌ هنا رأيًا يعلم أن نفس هكطور تأباه؛ لأنه قد عيل صبرًا، ولا يرى إلا الساعة التي بها يبدد جيش أعدائه حالة كون فوليداماس يأمره تطيرًا بذلك النجو أن يكف عنه، فكان لا بد من ثم من توطئة يستميله بها.

(١٧) النجو: السر — العيافة، أو زجر الطير والتفاؤل والتشاؤم بوُجهتها في الطيران من أقدم المعتقدات، وهي ليست من استنباط اليونان بل أخذوها فيما أخذوا عمن تقدمهم من البابليين والأشوريين، على أنه لم يكن لها عند اليونان ذلك الشأن الخطير، الذي كان لها بعد حين عند الرومان والعرب، حيث كانت من أسمى خصائص الكهان، فكان الرومان ينتدبون لها رجالا من ذوي الوجاهة والكرامة، وكانت في جاهلية العرب لبني فهد يتكهنون بها كيف شاءوا، والظاهر أن اليهود عملوا بها زمنًا بدليل تحريمها في سفر اللاويين، ولم تنتسخ من بين العرب إلا بقوة الدين، وفي الحديث: «لا طِيرة في الإسلام».

والمشهور من طريقة العرب في العيافة أنهم كانوا يرمون الطائر بالحصاة، أو يصيحون به فإن ولَّى القوم ميامنه تفاءلوا به وإن ولاهم مياسره تشاءموا، ومنه قولهم التيمن والتشاؤم توقعًا لخيرٍ أو شر من اليمين والشمال، وكانوا إذا أرادوا السفر خرجوا من الغلَس والطير في مواقعها على الأرض والشجر، فيطيرونها فإن أخذت يمينًا أخذوا يمينًا، وإن أخذت شمالا أخذوا شمالا، وإلى ذلك يشير امرؤ القيس بقوله:

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكلِ

وكانوا يسمون الطائر الآخذ من اليسار إلى اليمين سانحًا، والآخذ من اليمين إلى اليسار بارحًا، وربما تشاءموا أو تفاءلوا لظهور طائر بصرف النظر عن وجهة طيرانه، وأكثر التشاؤم بالغراب، وأضافوه إلى البين،

فقالوا: غراب البين، وزعموا أن منه الغربة والاغتراب، ولهم في ذلك أشعار لا تحصى في الجاهلية والإسلام، فمن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي، وفيه ما يشير إلى إنكار ذلك المعتقد.

زعــم العــواذل أن فرقتنــا غــدًا وبــذاك أنبأنــا الغــراب الأســودُ

وأكثر التفاؤل بطير القارية، وهو طائر قليل الانتشار في باديتهم؛ قصير الرجلين، طويل المنقار، أخضر الظهر يستبشرون برؤيته للمطر، كأنه رسول الغيث، وقد يتيمنون به لقضاء الحاجات.

ولكن الشعراء تلاعبوا في هذه المزاعم وأمثالها واشتقوا لكل طائر من اسمه ما يدل على الخير أو الشر، فإذا شاء الشاعر جعل العقاب عقبى خير وإن شاءَ جعله عقبى شر، وإن شاء جعل الحمام حِمامًا، أي: موتًا وإن شاء قال: حُمَّ اللقاء، وهلمَّ جرًّا، وقد يختلط على الرواة كثير من مقاصد الشعراء بطول العهد أو للاختلاف في الرواية، فمن هؤلاء الرواة من زعم مثلا أن الأخيل وهو الشقرَّاق طائر شؤم، إذا وقع على بعير يئسوا منه، وإن كان سالمًا وإذا لقيه المسافر تَطَّير، واستشهدوا ببيت الفرزدق القائل لناقته قَطَن:

إذا قَطــنٌ بلغتنيــه ابــن مــدركٍ فلاقيت من طير العراقيب أخيلا

فقالوا: إن العرب تسمي كل طائر تتطير منه الإبل طير العراقيب؛ لأنه يعرقبها، ومثل ذلك قول أعرابي:

رينــي وعلمــي بــالأمور وشــيمتي فمــا طــائري فيهــا عليــك بــأخيلا

ومنهم من استشهد ببيت الفرزدق هذا لعكس المعنى، وأورده ببعض خلاف وهو:

إذا قطنٌ بلغتنيه ابن مدرك فلاقيت من طير الأخائل أخيلا

وقال: إنه يدعو لناقته بأن تلاقي هذا الطائر المبارك إذا بلغته ابن مدرك (انظر المطالعة التالية).

(١٨) علمت مما تقدم مذهبهم في التسعد والتشاؤم، وفي قول هكطور الآن ما يدلك على أن الأخذ بذلك المذهب لم يكن من مفروضات الاعتقاد الديني، وإلا لما جاهر هكطور بنبذه، وهو من أشد القوم استمساكًا بأذيال دينه، ولم يعدم الناس في كل عصر قيام أفراد يفندون خرافاتهم ويندون بها، فقد روي عن شيشرون الخطيب الروماني أنه وضع كتابًا مخصوصًا في تسفيه مزاعم العافة، مع أنه كان بنفسه عائفًا، ومن هذا القبيل قول لبيد:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

وطرق الحصى ضربٌ آخر من التكهن عند العرب، ومثله قول طرفة بن العبد:

إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه وخلِّ الهوينا جانبًا متنائيا

ولا يمعنك الطير مما أردته فقد خط في الألواح ما كنت لاقيا

وإلى مثل ذلك يشير أبو تمام في قصيدته التي التزم بها الرد على المنجمين إذ يقول:

ابـن الروايـة بـل ابـن النجـوم ومـا صـاغوه مـن زخـرف فيهـا ومـن كـذبِ
تخرصًـــا وأحاديثًـــا ملفقـــةً ليســت بنبــعٍ إذا عُــدّت ولا غــربِ

(١٩) يرمي هكطور فوليداماس بالجبن ويعنفه على ما قال، ويقول له تهكمًا: إنه بمأمن من القتل؛ لأنه لا يعرض نفسه لمواقف المهالك، وليس من المغاوير المعدودين تتأثره المنايا في الحرب على حد قول العبسي:

وأمـــا القـــائلون قتيـــل حـــربٍ فـــذلك مصـــرع البطـــل الجليـــد

(٢٠) رأينا فوليداماس في أوائل هذا النشيد يرتئي الرأي الحسن بترجل الجند واستبقاء المركبات لدى ساسة الخيل، فيأتمر الجميع بأمره حتى هكطور، ولا يشذ عنه إلا ريسوس؛ لحماقة كانت برأسه، وإنا لنراه هنا يرتئي رأيًّا آخر تسوقه إلى بثه حكمته وسابق خبرته، فيتثنى إليه هكطور مقرعًا تقريعًا عنيفًا، بخطاب تشف كل كلمة منه عن جذوة نار ملتهبة في صدره، تحرقه للبطش بالأعداء وقد آنس من قوتهم وهنًا وفتورًا ورمى رفيقه فوليداماس بالعجز وهو يعلم أنه أطول باعًا منه في تلك التآويل، ولجأ إقناعًا للجند بفساد تفسير فوليداماس إلى تذكيرهم بأنه وافاه البلاغ اليقين من زفس بالنصر المبين، فلا محل بعد ذلك للتفاؤل بسانح أو التشاؤم ببارح، ولو لم يشتد تلك الشدة على

فوليداماس ويوطد ما له من الهيبة والنفوذ، لانحلت عزائم الجيش بعد ما سمعوه من بطل مغوار يعتقدون به الحكمة والبأس. كل ذلك من بديع تصرف الشاعر فإنه أنبأ بما سيكون من وجه وأوضح من وجه آخر ما يسعر صدر هكطور من البأس الذي لا يرده مرد.

(٢١) لو قال الشاعر: اصطلى الأوار، وتعالى الغبار، لأفاد المراد ونطق بحقيقة لا بد منها بتصادم جيشين، ولكن أبت بلاغته كجاري عادته إلا أن يفرغ الكلام بقالب شعري تمكينًا لوقعه في النفوس، فقال: إن زفس هو الذي نشر ذلك العثير، وأبرز ذلك المظهر الرهيب.

(٢٢) أي: قلل السور.

(٢٣) جعل هوميروس حصون الإغريق يلامقهم، أي: تروسهم، وأبلغ من ذلك جعل المعاقل من الرماح والسيوف، كقول لبيد:

معاقلنـــا التـــي نـــأوي إليهـــا   بنـــات الأعوجيـــة والســـيوفُ

وقد جمع ربيعة بن مقروم المعنَيين بقوله:

وثغـــر مخـــوف أقمنـــا بـــه   يهـــاب بـــه غيرنـــا أن يقيمـــا

جعلنـــا الســـيوف بـــه والرمـــاحَ   معاقلنـــا والحديـــد النظيمـــا

(٢٤) كلما أراد الشاعر أن يهيئ بطلا لعمل خطير يشرع في تنبيه المطالع، فيصفه وصفًا فخيمًا؛ ليصدق عليه ما يلي من المقال، وهذا سرفيدون الذي يصدر لبراز فطرقل، لا بد أن يكون من صفوة الفرسان، ولهذا نبهنا الشاعر إليه بمقال مخصوص.

(٢٥) المراقب: قلل السور.

(٢٦) هذا المعنى كثير الورود في حماسيات العرب، وهو مكرر كثيرًا في شعر عنترة، كقوله:

إذ لا أبادر في المضيق فوارسي حتى أوكل بالرعيل الأولِ

وقوله:

وأكرَّ فيهم في لهيب شعاعها وأكون أول وافد يصلاها
وأكون أول ضارب بمهندٍ يفري الجماجم لا يريد سواها
وأكون أول فارس يغشى الوغى فأقود أول فارس يغشاها

وأبلغ منه قول الأعشى:

وإذا تجيء كتيبةٌ ملمومةٌ يخشى الكماة الدارعون نزالها
كنت المقدّم غير لابس جنة بالسيف يضرب معلمًا أبطالها

(٢٧) وهذا من المعاني المطروقة كثيرًا في الشعر، كقول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقول عنترة:

وعرفـــت أن منيتـــي أن تـــأتني   لا ينجنـــي منهـــا الفـــرار الأســـرعُ

وقول أبي فراس الحمداني:

إذا لـم يكـن ينجي الفرار مـن الـردى   علـى حالـة فالصـبر أرجـى وأكـرمُ

(٢٨) كقولهم:

ومـن لـم يمـت بالسـيف مـات بغيـره   تعــددت الأســباب والمــوت واحــدُ

(٢٩) إن في خطاب سرفيدون لغلوكوس لأنفةً وعظمة تنبه إليهما أكثر الشراح، قالوا: إنه لما كانت الملوك قوادًا للجيش في ذلك الزمان كان من المفروض عليهم أن يعرضوا أنفسهم إلى المخاطر، ويستنهضوا الهمم باستقبال العدو في صدر الفيالق وفاءً بما ينالونه من رعايتهم وإكرامهم، وهكذا فقد قال سرفيدون: يعظمنا قومنا تعظيم الآلهة، فعارٌ علينا أن نتصرف تصرف البشر، بل علينا أن نتفوق عليهم، فنفضلهم بهمتنا وفضيلتنا، كما فضلناهم بمقامنا، وهو كلام يتضمن إباء نفس ما فوقه إباء، وينطوي تحته العدل والوفاء وهكذا، فالعدل لمقابلة المثل بالمثل والوفاء لمقابلة رعاية الرعية لولي أمرها بالإكرام والأنفة؛ لازدراء الموت والتهالك في سبيل المجد

(٣٠) البيض المعذب، أي: الخوذ ذوات العذبات.

(٣١) حيثما ورد ذكر أياس وحده، فهو يفيد أياس الكبير ابن تيلامون.

(٣٢) ابن ويلوس: أياس الصغير.

(٣٣) الحنية: القوس، أي: قوس طفقير – قد استنجد مينستس بأياس وطفقير؛ لأن الأول أبسلهم، وطفقير أرماهم، فذلك للقرب، وهذا للبعد.

(٣٤) الجنة: الترس.

(٣٥) أي: إنني مهما اشتددت بأسًا، فيستحيل عليَّ وحدي تمهيد السبيل إلى السفن أمامكم.

(٣٦) حسبنا استلفات نظر المطالع اللبيب إلى صحة هذا التشبيه وصدقه على جيشين متلاحمين لا يبلغ أحدهما من الآخر أربًا.

(٣٧) الجنة: الترس، واللأمة: الدرع – قال أبو الطيب:

كـم مقلـة ولغـت فيهـا أسـنتهُ ومهجـة ولجـت فيهـا بـواترهُ

وحـائن لعبـت سـمر الرمـاح بـه فـالعيش هـاجره والنسـر زائـرهُ

(٣٨) قال أفستاثيوس: كان من المأثور عند القدماء أن الشاعر إنما أتى بهذا التشبيه تخليدًا لذكر والدته، وإعلانًا لحرصها على الصدق والعدل؛ لأنها كانت أرملة تكد وتجد؛ لتعول نفسها بعرق جبينها، وهو تشبيه بالغ في العدل؛ لأنه ما من شيء يوضح القسط كالقسطاس، وأبلغ

من ذلك أنه لم يجعله بيد ذات ثروة ومقام؛ لأنها في الغالب لا تكون ميالة إلى تمام التوازن، ولا بيد أمة مملوكة؛ لأنها لا تكون حريصة على ذلك الإنصاف، ولكن بيد امرأة فقيرة تكد لتعيش بالستر والحلال، فهي لا تغش ولا تُغش؛ فتحرر ميزانيها تحرير الصادق المتيقظ.

(٣٩) لنا هنا شاهد آخر على أثرة الشاعر لقومه، فإن الحجر الذي رفعه أياس إنما رفعه بقوة ذراعيه، وهذا حجر هكطور لا يتسنى له رفعه إلا بعون زفس.

(٤٠) صفق الباب: مصراعه.

النشيد الثالث عشر
الواقعة الرابعة

مُجْمَلهُ

دفع زفس هكطور وأنصاره إلى الثغر فاشتد الكفاح.

وغـادرهم فـي لظـى نـارِهِ وحـوَّل وقـاد أبصـارِهِ

ففتك الطرواد بالإغريق، وهاجت العاطفة فوسيذ فهمَّ خفيةً عن زفس بمعاونة الإغريق، فاتخذ هيئة كلخاس العرَّاف، واستنهض همة الآياسين ونفرًا من المقاتلة، فالتف الإغريق حول آياس بن تيلامون، وقاتلوا قتالا مرًّا فصدوا هكطور وأتباعه، فجرح هكطور ودفع عن مرسى السفن بعد أن قتل أمفياخوس، وامتعض فوسيذ لموت هذا البطل، فهب مرة أخرى وتمثل لأيذومين بهيئة ثواس وألهب لبه، فشك في سلاحه وسار بمريون حوذيه إلى ميسرة الجيش وظل الآياسان في القلب، فاصطدم الجيشان وخرت القتلى أفواجًا، وزفس منحرف إلى الطرواد وفوسيذ إلى الإغريق، وكان ذلك اليوم يوم أيذومين فبرز ببسالة أحرز بها قصب السبق وجندل الأبطال وهزم الأقيال، وكادت ترجح كفة النصر للإغريق، فتثبت هكطور بموقفه وتألبت عليه الأعداء فلم تفز منه بطائل، وزحف عليه الآياسان بجيشهما وانهالت النبال كالمطر على الطرواد، حتى كادوا ينهزمون، فأشار فوليداماس بجمع الزعماء؛ للوقوف على

رأيهم فيما إذا كان الأولى لهم أن يتقهقروا، أو يتصبروا فخاض هكطور الصفوف وعنف أخاه فاريس، ثم انقضا معًا انقضاض الأسود، فلم يظفرا بخرق كتائب الإغريق فالتقى الجيشان.

وعــجُّ الخميســـين شــق الفضــا إلى حيث في الجوّ زفس اضا

مجرى وقائع هذا النشيد في اليوم الثامن والعشرين أيضًا، ومشهدها بين معقل الإغريق والساحل.

النشيد الثالث عشر

إلى الثغر هكطور زفس دفع وأنصــــاره والكفـــاح صـــدع

وغـــادرهم فـــي لظـــى نـــاره وحـــــوَّل وقّـــــاد أبصـــــاره

لإثراقـــةٍ أرض خيـــر الجيـــاد وميســـة مهـــد قـــروم الجـــلاد

ونحـــو الإفوملـــغ أهـــل الفطـــن أبـــاة النفـــوس غـــذاة اللـــبن[1]

ونحـــو الأبيـــين رهـــط الكمـــال وعـــن حصـــن إليـــون صـــد ومـــال

ومـــا كـــان يخطـــر فـــي بالـــه بـــأن بنـــي الخلـــد مـــن آلـــه

يثـــور بهـــم أحـــد ويقـــوم لنصـــــرة أي فريـــــق يـــــروم

ولكـــن مزعـــزع ركـــن الثـــرى فســـيذ جميـــع الـــبلا أبصـــرا

لقـد كـان شـق عبـاب البحـار وأقبـــــل يرقـــــب حـــــر الأوار

وَامَّ ســـــمثراق أَمَّ الشــــجر لأشـــمخ طـــود بهـــا واســـتقر

فلاحــت لــه كــل إيــذا وأبصــر ســفين البحـــار وإليـــون والبـــر

وأحـدق مسـتعجبًا وهـو عـابس وشــق عليـــه نكـــال الأراغـــس

فهـــبَّ مـــن القمـــة الـــوعرهْ بـــنفس علـــى زفـــس مســـتعرهْ

وتحـت خطـاه ارتجـاج شـديدْ لــه الشــم والغــاب طــرا تميــدْ[2]

ثلاثًا خطا في الذرى الشاسعهْ فـــأدرك إيغـــاس فـــي الرابعـــهْ[3]

هنالـك شـيدت صـروح النضـار لـــه خالـــدات بقعـــر البخـــار

فشـــــد لشــــائق مركبتـــــهْ جيـــــادًا تطيـــــر بمرحلتـــــهْ

حوافرهـــــا ذُكْـــــرَةٌ تلمـــــع وعســـــجد أعرافهـــــا يســـــطع

وحـــــل بـــــإبريز شـــــكته وســـــوط النضـــــار بســـــدته

فراحـت بقلـب العبـاب تلـجْ لهـــا الـــيم مبتهجًـــا ينفـــرجْ

وخلــق البحـــار وقـــد شـــعرا بوطـــــأة مـــــولاه إذ عبـــــرا

مـــن القعـــر حيتانـــه تثـــب لمـــــرآه يأخـــــذها الطـــــرب

فطـارت بجـذع بهـا اتصـلا ومـــا ســـيم فـــولاذه بلـــلا

ســراعًا بهــا خيلهــا رامحــات لتبلغـــه الســـفن الراســـيات

وفـي اللـج مـا بـين تينيـذس وذات الجلاميـــــد أمبـــــرس

توسـط مـن تحـت ذاك الطريـق على البحر في القعر كهف عميق

هنالـــك أوقفهـــا ثـــم حـــلا ومـد لهـا علـف الخلـد حـلا
وقيـــــدها ذهبًـــــا يبهـــــر فلـــيس يحـــل ولا يكســـر ٤
لتلبـــث ثـــم لـــه بانتظـــار ونحـو الأغـارق بـالنفس سـار ٥
فـألفى الطـراود قـد هرعـوا علـى إثـر هكطـور وانـدفعوا
بصـوت جهيـر وقلـب يفـور كنـــار تثـــور ونـــوء يـــدور
يرومـون أخـذ الأسـاطيل قهـرا وذبـــح الأخـــاءة ثمـــة طـــرا
ولكـــن فوســـيذ مـــن قبضـــا علـى الأرض مـن فـوره اعترضـا
مـــن الـــيم أم الأراغـــس رفقـــا فماثـل كلخـاس شـكلا ونطقـا
ونحـو الأياسـين مـال بحـدهْ فزادهمـــا شـــدةً فـــوق شـــدهْ
«أيـــاس أيـــاس ألا فـــاحملا فحملكمـــا فيـــه درء الـــبلا
ألا فـــاذكرا شـــأو بأســـكما نعـم وانبـذا الرعـب خلفكمـا
فلســت بخـاش ذراع العـدى وإن كثفـــوا حولنـــا العـــددا
فهـم حيثمـا عبـروا السـور جهـرا يصـــدهم قومنـــا الغـــر قهـــرا
ولكنمـــا خشـــيتي هـــا هنـــا وهكطـــور كالنـــار ثـــار بنـــا
يفـاخر أن كـان مـن نسـل زفـس فـــرب إلاه يقـــوم ببـــأس
ويوليكمـا العـزم فـي ملتقـاه وضـــم القيـــول لكـــف أذاه

يغـــادر أســـطولكم فشـــلا وإن كـان أغـراه مـولى العلـى»٦

ومـــن ثـــم مســـهما بعصـــاه وأولاهمـــا قـــوة مـــن قـــواه

شـــديد ذراع وثبـــت قـــدمْ وخفـــة جســـم وكـــل الهمـــمْ

وحـــالا تـــوارى بســـرعة صـــقر على الفور ينقض من صلد صخر

ويـرمح طـي الجنـاح الخفيـف إلـى الـواد فـي إثـر طيـر ضـعيف

ففيـــه أحـــس أيـــاس الصـــغير ونبَّـــه يـــدعو أيـــاس الكبيـــر:٧

«مـن الخلـد لا شـك ربٌّ نهـضْ وماثـــــل عرافنـــــا لغـــــرضْ

لنـوري الأوار ونحمـي السـفينا فمـا هـو كلخـاس فـاعلم يقينـا

تبينـــت وهـــو يســـير خطـــاه وأمـــــر يســـــير بيـــــان الإلاه

فنفســي ماجــت لســفك الــدم وهاجـت يـدي وعـدت قـدمي»

فقـال: «نعـم، وأنـا الآن أَلْفِـي برمحـــي تهتـــز للفتـــك كفِّـــي

ورجلـــي بـــي شـــدة تثـــب وروحـــي للنقـــع تضـــطرب

تحرقنـــــي لبـــــراز يجـــــل مـع القـرم هكطـور مـن لا يكـل»

فـــــذاك حـــــديثهما طربـــــا وفوســـــيذ قلبهمـــــا ألهبـــــا

وراح لســـاقة جـــيش الأراغـــسْ يشـــدد كـــل فتـــى متقـــاعسْ

فقامـــت مفاصـــلهم تنـــتعشْ وكانـــت علـــى عيِّهـــا تـــرتعشْ

إزاء الأســـاطيل يضـــوون غمـــا وبالســـور جـــيش العـــدو ألمـــا

يــرون ويــذرون دمعًــا ســخينا وبــالحتف قــد أصــبحوا موقنيــا

ففوســـــيذ بيـــــنهم انــــدفقا يحـــــــثهم فِرَقًـــــا فِرَقـــــا

وبــادر يــدعو قــروم الرجــال كلــيطس طفقيــر ربِّ النبــال

وفينيــل ذيفيــر فخــر الكمــاة وثــاوس مريــون هــول العــداة

كـــــذا أنطلـــــوخ وبكـــــتهم بقـــــول أثـــــار عـــــزيمتهم

«ألا أي عــــار أرى أي عــــار أفتيتنــــا يــــا حمــــاة الــــذمار

ظننــت بكــم إن ثبــتم جهــادا وقايـــة أســـطولكم أن يقـــادا

وإلا فــإن تجبنــوا فــي الكفــاحْ ففجـــر انتصـــار الطـــرواد لاحْ

أتبصــر عينــي عجابًــا خطيــرا تيقنـــت ربـــاه أن لـــن يصـــيرا

علينـــا الطـــراود منتصـــرهْ وهـــم قبـــل إيَّلَـــة فـــررهْ

تتيـــــه بعجـــــز بغاباتهـــــا ولا عـــــزم يـــــدفع آفاتهـــــا

إلـى أن تـروح بسـوق النصـيب طعــام ابــن آوى وفهــد وذيــب

أهــم هــم ولــم يــك مَــنْ مــنهم إلينـــا ولـــو لحظـــة يقحـــم

أهــم هــم وقــد غــادروا البلــدا وســـاموا عمارتنـــا النكـــدا

وذاك لان المليــــــك عثـــــرْ فغــيظ الجنــود وســيموا الضــجرْ

فحـــول ســـفائنهم يـــذبحونا وللـــذود عـــنهن لا ينهضـــونا

وهب أن أتريذ كان امتطى ... بإغضاب آخيل متن الخطا

هلموا بنا نتلافى العرضْ ... فعقل أخي الفضل يأبى المرضْ

وليس جديرًا بصيد الرجال ... مغادرة الكر يوم النزال

ولا أعذل النكس إن قعدا ... ولست بعاذركم أبدا

تقاعسكم سيزيد البلا ... ألا فاذكروا العار بين الملا

ألا تنظرون الصدام الشديدا ... وهكطور ذاك العميد العنيدا

بأرتاجنا فاز والقفل حطمْ ... وحول السفائن صال وصمم»٨

فهاجوا وحول الأياسين ضمت ... كتائبهم للصدام وهمت٩

صفوفًا تشوق انتظامًا أريسا ... وفالاس يوم تثير الوطيسا

تربص صيد جماهيرهمْ ... لصد العداة وهكطورهمْ

نصال القنا لنصال القنا ... وفوق المجنِّ المجنُّ انحنى

وَبِالْمِغْفَرِ الْمِغْفَرُ اتصلا ... وقد لاصق البطل البطلا

برصهم الخوذ اللامعات ... تلاقت تموج بها العذبات

ومن دون صلد أناملهمْ ... تلاقي اهتزاز عواملهمْ

فهبوا بهنَّ بثبت جنان ... تضرم نارًا لحر الطعان

وهب الطراود والتصقوا ... وفي الصدر هكطور مندفق

كجلمود صخر قد انتزعا ... من الشم سيل به اندفعا

له الغاب مرتجة ترتجف ... إلى القعر حيث بعنف يقف ١٠

وقد كاد هكطور يسفك سفكا ... على الخيم والفلك للبحر فتكا

ولما بتلك الصفوف اصطدمْ ... على رغمه ثبطته القدمْ

وجيش الأخاءة هم إليه ... يهيل القنا والسيوف عليه

فصدوه وانكفأ القهقرى ... يصيح ويدعو قيول السرى

«طراودتي وبني ليقيا ... ويا آل دردانس الأصفيا

قفوا فالعدو قريبًا يدينْ ... وإن رُصَّ رَصَّ الحصار المتين ١١

لئن كان خير بني الخلد طُرًّا ... نعم بعل هيرا المعظم قدرا ١٢

هو الدافعي لنكال العدى ... فإن لهم بسناني الردى»

فهاجوا لذا النطق نفسًا وَلُبًّا ... وبرز ذيفوب يختال عجبا

بجنته مستجيش القوى كرْ ... يحث الخطى وبها يتسترْ

فلقاه مريون صلد سنانهْ ... فمد المجن اتقاء طعانهْ

فمن نصله الرمح عنفًا تكسرْ ... ومريون بين ذويه تقهقرْ

مغيظًا لرمح قد انصدعا ... ونجوى العدو المبين معا

وللفلك والخيم حالا سعى ... يروم قناة بها استودعا

وقوم أخاي بكرتهم ... يعج الفضاء بصيحتهم

وطفقيـــر أول مـــن ظهـــرا بـــإمبريوس الفتـــى ظفـــرا

(هو ابن لمنطور حاوي الجياد بفيذيـــة كـــان قبـــل الجهـــاد

وزوجٌ لميديسكســـتا الجميلـــه فتـــاةٌ لفريـــام غيـــر حليلـــه ١٣

فعنـــد انتشـــاب الـــوغى قفـــلا لإليـــون حيـــث كمـــا بطـــلا

وحـــل لفريـــام ضـــيفًا كريمـــا علـــى حرمـــةٍ كبنيـــه مقيمـــا

فـــأرداه طفقيـــر بـــالأذن وجـــر القنـــاة ولـــم ينـــثن»

فخـــر كـــدردارة نبتـــت علـــى رأس طـــودٍ بـــه ثبتـــت

يميـل بهـا النصـل حـين بـرى بغـض الغصـون لوجـه الثـرى

كـــذلك إمبريـــوس التـــوى بصلصـلة الـدِّرع واهـي القـوى

وطفقيـــر هـــمَّ يـــروم الســـلب ولكـــن هكطـــور حـــالًا وثـــب

وأقبـــل يرميـــه بالعامـــل وطفقيـــر مـــا كـــان بالغافـــل

تنحـــى فـــراح الســـنان يطيـــر لصـــدر الفتـــى أمفمـــاخ المقيـــر

«فتًـــى أقطيـــاط أبـــوه وكانـــا لأقطـور ينسب نسلا وشانا» ١٤

فخـــر يصـــلُّ وهكطـــور كـــرًّا ليســـلب خوذتـــه حيـــث خـــرًّا

ولكـــن آيـــاس عاملـــه أَطِيـــر عليـــه يعاجلـــه

فلـم يبلـغ الـرمح جسـمًا تـردَّى حديـدًا يصـد العوامـل صـدا

ولكـــن بمـــتن المجـــن وقـــع وهكطـور بـالعنف رغمًـا دفـع

فظل القتيلان حيث هما ... وقوم أخاي خلوا بهما

ففي أمفماخ منست الموقر ... وإستيخيس قفلا المعسكر

وإمبريوس إلا ياسان سارا ... به يقدحان احتداما شرارا

كليثين من تحت ناب الكلاب ... قد انتزعا سخلة وسط غاب

لغض الغياض قد احتملاها ... وما بين فكيهما أعلياها

كذا بين أيديهما رفعا ... وشائق شكته انتزعا

وظل ابن ويلوس يشتد حقدا ... لقتل الفتى أمفماخ المفدَّى

فهامة إمبريوس اقتضب ... رحا ورماها شديد الغضب

فدارت ولا كرة حيث مرت ... وتلقاء هكطور في الترب قرت[15]

وفوسيذ منتقمًا لحفيده ... يعد لطرواد شر وعيده[16]

فهب إلى الفلك والخيم يجري ... يهيج النفوس لوقع أمر

فأبصر إيذومنًا قفلا ... إلى الحرب من بعد ما اعتزلا

يعالج حينًا فتًى طرحا ... ببطن شظيته جرحا

فمن بعد أن حملوه إلى ... خيامهم عجلًا عجلا

وألقاه إيذومنٌ للإسى ... لخيمته جدَّ بادي الأسى[17]

يشك بها بثقيل السلاح ... ويقبل مقتحمًا للكفاح[18]

تلقـــاه فوســـيذ يعـــدو ببـــاس بشـــكل ابـــن أنـــذرمون ثـــواس

ثـواس الـذي كـان ملكًـا كبيـرا وســـاد الإتـــول أميـــرًا خطيـــرا

علـــى كالدونـــة أم الجبـــال كـــذلك فلورونـــةٍ بـــالجلال

فقـــال: «أإيـــذومنٌ أيـــن مـــا لفيـــف الأخـــاءة قـــد زعمـــا

ببـــأسٍ يقـــدُّ الطـــرواد قـــدًّا وعيـــدٌ أراه قـــد انهـــدَّ هـــدًّا»

أجـاب: «ولسـت أرى أن يـلام بنـــا أحـــد لاعتـــزال الصـــدام

كررنـا جميعًـا ومـا مـن أحـد عـــن الحـــرب جبنًـــا وذلًّا قعـــد

فلا شـك زفس القدير استطابا نكـــالًا وعـــارًا لنـــا واغترابـــا

ثـــواس وأنـــت الفتـــى الباســـل بنصـــحك يسترشـــد الخامـــل

فـــلا تـــألون برشـــدك جهـــدا وحـــض الفـــوارس فـــردًا ففـــردا»

فقـــال: «أإيـــذومنٌ مـــن بغـــى قعـودًا عـن الكـر فـي ذا الـوغى

عســـى أن يعـــز عليـــه المـــآب ويبقـــى هنـــا مضـــغة للكـــلاب

فشـــك وهـــي اتلنـــى مســـرعا عســـى الفـــوز فـــي أن نكـــر معـــا

فـأعجز مـا فـي الرجـال لـدى تكـــافلهم يحـــرزون القـــوى

وزد أننـــا بقـــروم الرجـــال إذا اشتدَّت الحرب لسنا نبالي»

ولمـــا انتهـــى راح وجهتـــهُ وإيـــــــذومنٌ أمَّ خيمتـــــــه

فـــألقى زهـــيَّ الســـلاح عليـــه وهـــبَّ بـــرمحين بـــين يديـــه

كصـــاعقةٍ زفـــس مـــن عنـــده | علـــى الأرض يـــدفع مـــن زنـــده
يطيـــر لهـــا فـــي الألمـــب شـــرر | فينبـــئ بالشـــؤم بـــين البشـــر
شـــعاع حكتـــه علـــى صـــدره | صـــفائحه الغُـــر فـــي كـــرِّه
فأبصـــر تابعـــه الشـــهم أضـــحى | لـدى الخيم يطلب من ثَمَّ رمحا
فصاح «ابن مولوس مريون حبي | أعـز الفـوارس مـن كـل صـحبي
عـــلام برحـــت الصـــدام الأصـــم | أصـــابك ســـهمٌ وزاد الألـــم
أم الآن تحمـــل لـــي خبـــرا | ألســـت ترانـــي مســـتعرا
أبيـــت التخلـــف بـــين خيـــامي | ويـــدفعني عـــاملي وحســـامي»
فقـــال: «أتيـــت نعـــم عـــاجلا | أرى فـــي خيامـــك لـــي عـــاملا
فـــإن قنـــاتي قـــد انقعـــرت | علـى تـرس ذيفـوب وانكسـرت»
فقال: «هنا خيمتي ادخل تنقى | قنـــاةً وإن شـــئت عشـــرين تلقـــى
صـــفوفًا بهـــا علقـــت ســـاطعات | بأكنافهـــا مـــن ســـلاح العـــداة
لأنـــي مقـــتحمٌ أبـــدا | بـــوجهي وجـــه عُلُـــوج العـــدى[19]
ففيهـــا تـــروس وفيهـــا رمـــاح | وبـيض ولامٌ بزاهـي الصـفاح»[20]
أجـاب: «وفـي خيمتـي وبفلكـي | ســـلاحٌ كثيـــرٌ ذخـــرت بفتكـــي
ولكنـــه والعـــدو اســـتطال | عســـير المنـــال لبعـــد المجـــال

وإنـــي مثلــــك افتخـــر بـــــأني بأســــي أدّكـــــر
وأنـــي يــــوم الطعــــان أرى إذ التحم النقع صدر السرى٢١
فغيــرك إن أبــل قــد لا يرانــي ولكـــن إيـــذومنًا قـــد بلانـــي»
فقــال: «ومثلــي مــن خبــرك فلســت لتُنمــي لــي خبــرك٢٢
علمــت بأنــا إذا مــا أقمنــا كمينًــا لــه صــفوةَ الــبهم رمنــا
هنالـك حيـث يكـون المحـك فيعرف من صك ممن فتك٢٣
هنالـك حيـث الجبـان امتقـع ومـــن جوفـــه قلبـــهُ ينخلـــع
بمهجتـــــه هلعًـــــا يحقــــق ومــن خشــية المــوت يصــطفق
وتصــــطك أســــنانه ويقـــف فتقعـــــده ركـــــبٌ ترتجـــــف
وأمــا الجَسُــورُ فلــيس ليعبــا ولا يتغيــــــر لونًــــــا وقلبــــــا
يعــال وقــد رصــد القــوم صــبرا إلـى الكـر والـبطش طعنًـا ونحـرا
هنالــك مــن ذا الــذي يجــد عليـــــك ســـــبيلًا فينتقـــــد
فإمــا طعنــت وإمــا ضــربت قريبًـــا إذن أو بعيـــدًا أصـــبت
فلــيس بظهــرك وقــع ســلاح وصــدرك ذاك محــط الرمــاح٢٤
ولكــن دع البحــث فــي صــدد نــــلام عليــــه ولا نجتــــدي
هلــم ادخلــنَّ عزيــزًا مكينــا ومن خيمتي اقتل سنانًا متينا»٢٥
لـــئن يـــرم مـــا مثلـــه نابـــل وإن كــر فهــو الفتــى الباســل

فهم كفء هكطور مهما طغى فلــن يــبلغن بهــم مــا بغــى
ومهمـا يكـن عزمـه لـن يهونـا عليــه المنــال فيــوري الســفينا
فــلا نالهــا غيــر زفــس إذا رماهـــا بمقبـــاس نـــار الأذى
ولا بشــرٌ مــن جميــع البشــر يؤلمُـــــهُ عامــــلٌ وحجــــرْ
ويغـذي نتـاج الثـرى مسـتمرًّا يطيــــق لآيـــاس ذلًّا وقهـــرا
ولـيس بغيـر السـباق يطـال ولـو نفـس آخيـل بـالعزم صـال
فقـــم فنســـير إذا لليســـار لنـولي أو نحـن نـولى الفخـار»
ومريـون حـالًا كـرب القتـال تقـدم يجـري إلـى حيـث قـال
ودون الطـــراود مـــذ ظهـــرا يضـــرَّم إيـــذومنٌ شـــررا
وتابعُـــهُ بالســـلاح المتـــين ترامـــوا بكبحهمـــا مجمعـــين
هنـاك السـرى اشـتبكت والغبـار إزاء الســـفائن للجـــو ثـــار
وقـد سـتر السـبل سـحقٌ رفيـع فتنســـفه لعبـــاب الرقيـــع
كـأن الريـاح قـد اصـطدمت بنـــوءٍ تفـــاقم فالتطمـــت
كـذا اشـتبكوا فـوق تلـك الفـلا وقارنـــت الأســـل الأســـلا
رمـاح تمـزق صـدر الرجـال وأفئـــدةٌ لهبـــت للنـــزال
ولمـع الـدروع وغـر التـروس وزهـر الترائـك فـوق الـرءوس

وقــد عــانق الفيلــق الفيلقــا		بمنظـــره يبهـــر الحـــدقا

ولـيس سـوى الفاتـك الباسـل		يســر لــذا المشــهد الهائــل

وكــلٌ مــن ابنــي قــرونس رام		خــلاف مــرام أخيــه الهمــام٢٦

فــزفس لإعــزاز شــأن أخيــل		لهكطــور كــان مليًّــا يميــل٢٧

ولكنــه لــم يشــأ أن يبيــدا		بــإليون قــوم الأخــاء بعيــدا

بـل اختـار إجـلال ثيتـيس قـدرا		كـذاك أخيـل ابنهـا الشـهم جهـرا

وفوسـيذ سـرًّا مـن البحـر هبَّـا		ليحيـي الأراغـس نفسًـا وقلبـا

يؤلمــه أن زفــس جنــف		علـيهم ونحـو العـداة انحـرف

همـا ابنـا أبٍ واحـدٍ لـيس إلا		وثــم التكــافؤ فرعًــا وأصــلا

ولكنمــا البكــر زفــس غــدا		وقـد فـاق علمًـا وطـال يـدا٢٨

لــذلك فوســيذ مــا جســرا		بجــيش الأراغــس أن يظهــرا

فجـاب يخـوض الصـفوف خفيًّـا		يماثــل بــين الكمــاة كميًّــا

وأورى الإلاهــان نــار نكــال		لــه بسـطا حبـل حـربٍ سـجال

بأطرافــه كلهــم وقعــوا		فقطعهــم وهــو لا يقطــع

وخــرت ســراة كتــائبهم		لديــه بعنــف تجــاذبهم٢٩

هنالــك إيــذومنُ ســخطا		وإن كـان بالشـيب قـد وخطـا

لقلــب العــداة بثبــت القــدم		دعــا قومُــه حنقًــا وهجــم

وهـــدَّ عـــزائمهم مـــذ قتـــل بكرتـــــه أثريـــــون البطـــــل
فتًـــى مـــن قبيســـة قـــد أقـــبلا حـــديثًا ونيـــل العلـــى أمَّـــلا
بكســـندرا ربَّـــة الحســـن هـــام فخاطـــب فريـــام فـــي ذا المـــرام
ومـا سـاق مهـرًا لهـا بـل وعـد بقهـــر العـــدو وحفـــظ البلـــد
ومـذ وعـد الشـيخ أبهـى بناتـه يزوجـــه انقـــض فـــوق عداتـــه
مضـــــى شـــــامخًا بعزيمتـــــه فلـــم يقـــه صـــلب جنَّتِـــهِ
وغـــار الســـنان بمهجتـــه فخـــر يصـــل بشـــكته
فنـــاداه إيـــذومنُ يفتخـــر «أيـــا أثريـــون لـــئن تنتصـــر
فتتبـــع خبـــرك بـــالخبر علمتـــك خيـــر بنـــي البشـــر
فـإن كـان فريـام أبـدى العهـود فـــنحن نبـــرُّ كـــذا بـــالوعود
علـــى دك إليـــون إن نلنـــا فعهـــدك نوثقـــه علنـــا
ونجعـل عرسـك أجمـل بنـت لأتريـــذ مـــن أرغليـــذة تـــأتي
هلـم إلـى الفلـك نبـدي القـرار فأحماؤنـا لـن يشـابوا بعـار٣٠
ومـــن ثـــم وافـــاه مجتـــذبًا بســـاقٍ فـــزاد العـــدى لغبـــا
وآســـيُّسٌ راجـــلًا أقـــبلا ليـــنقمَ وانقـــضَّ مشـــتعلا
ومِـــنْ خلفـــه الخيـــل يحرســـها فتـــى قـــد عـــلاه تنفســـها

فهـــمَّ وإيــــذومنٌ ســـبقا بــــزج بحلقومــــه مرقـــا
فمـــال أمـــام الجيـــاد يصـــرُّ بأســـنانه للحضـــيض يخـــرُّ
كــــأرزة طــــودٍ وحورتـــــهِ وملّولـــــةٍ فــــوق قنَّتــــهِ
تميـــل بفـــأسٍ لهـــا شـــحذوا لصـــنع الســـفائن تتخـــذ
وســـائقه ظـــل مضـــطربا وحـــاز فلـــم ينهـــزم هربـــا
ورمـح ابـن نسـطور وافـى يميـذ بأحشـــائه فـــوق درع الحديـــد
فأهوى إلى الأرض يشهق شهقا وأفراســـه أنطلـــوخ تلقَّـــى
وســـار بهـــا للحمـــى مغنمـــا وذيفـــوب إيـــذومنًا يمَّمـــا
لآســـيسٍ هـــبَّ يطلـــب ثـــارا مشـــى وعليـــه الســـنان أطـــارا
وإيـــذومنُ مـــذ رآه تقـــدَّم وزجَّ فتحـــت المجـــن تلملـــم
«مجـــنٌّ يغشـــيه جلـــد البقـــر وفـــولاذه ســـاطعٌ للنظـــر
لـــه مقبضـــان متـــينٌ كبيـــر يحـــفٌّ القتيـــر بـــه مســـتدير»
فلامـس بطـن السـنان المجنَّـا وطـار ومـن وقعـه التُّـرس رنَّـا
وغـــلَّ ومـــا طـــاش إذ صـــدرا إلـــى ابـــن هفاســـس إفســـينرا
فأنفـــذ يصـــميه بالكبـــد وذيفـــوب يشـــهد عـــن بعـــد
فـــراح بخيلـــة مفتخـــر يصـــيح بنعـــرة منتصـــر
«نعـم دم آسـيس مـا انهـدر وإن أم آذيـس هـول البشـر

سيأمن ضمن المقام العميق   لأني أتبعته برفيق»
فساء الأراغس ذاك النعير   وأورى حشا أنطلوخ السعير
على بثه راح والصبر عيلا   يقي بالمجن الخليل القتيلا ٣١
وآلسطرٌ ومكستُ أسيرا   به للسفائن يعلي الزفيرا
وإيذومنٌ ظل في حزمه   يكر بعزمٍ على عزمه
فإمَّا ليردي كميًّا ببأسه   وإما ليفدي ذويه بنفسه
أصاب سليلًا لزفس الأغر   بألقاثٍ بن إسيت اشتهر
لأنخيس قد كان صهرًا صفيًّا   على بنته البكر هيفوذميا
فتاةٌ بصرحهما أبواها   بمنزل قلبهما أنزلاها
وما كان بين لدات الزمان   لها مثلٌ في العذارى الحسان
وفاقت بوشي وعقلٍ وحسنِ   كما فاق ذاك بضربٍ وطعن
فزفّتْ إليه ولكنَّما   أبى الربُّ فوسيذ أن يسلما
فحل قواه وغشى البصر   فضاق المفر وحال المكر
وظل بغير حراكٍ مقيم   كركنٍ مكينٍ وجذعٍ عظيم
بدرعٍ مرارًا وفته الردى   فلم تقه الآن طعن العدى
فمزقها الزج مذ رشقا   وفي الصدر من دونها مرقا

فصلت وخر وكيف المناص   وفي قلبه العامل اللدن غاص

وعود السنان إلى الكعب ماد   بعنف اشتداد وجيب الفؤاد٣٢

وما زال يهتز حتى تلاشى   وإيذومنٌ صاح يشتدُّ جاشا

«أذيفوب ها قد فرى ساعدي   ثلاثة صيدٍ لقا واحدِ

علام التشدق أقبل هنا   فتعلم أي ابن زفس أنا

ألم يأتك العلم عن نسبي   وأن ذقليون كان أبي

وأهل إقريط مينوس جدي   بزفس أبيه رقى طود مجد

وأن بإقريط باعي شديده   لملكي دانت شعوب عديده

أتيت أريك هنا وأباك   وكل الطراود سبل الهلاك»

فنازع ذيفوب في أمره   مرامان ردَّد في فكره

أيبرز فذًا إلى ملتقاه   أم الرأي أن يلتجي لسواه

فعوَّل في شدة المعمعة   يلوذ بأنياس يأتي معه

فألفاه في طرف الفيلق   تقاعد من شدة الحنق٣٣

يؤلمُهُ أن فريام أزرى   به وبإقدامه لم يبرَّا

فوافاه قال: «إذن فهلمَّا   أأنياس صدر الطراود علما٣٤

فإن كنت ترعى حقوق النسب   فذا صهرك الآن بادي العطب

فكم بك في سالف الزمن   وقد كنت طفلًا قديمًا عني

وألقـــاث إيـــذومنٌ أدركـــا فقـــم ذُبَّ عنـــه فقـــد هلكـــا»

فهـاج بأنيـاس لـبُّ الحشـا ونحـو العـدو الألـد مشـى

وإيـذومن مستجيشًـا مكـث ولـم يرتعـد كـالغلام الحـدث

أقـام كخرنـوص بـرٍ خبـرْ قـواهُ فقـام بطـودٍ أغـرْ

بمنفـرجٍ فـي البـراح تـربَّص ليرقـب مـن جـاءه يتقـنص

فيلهـب عينًـا ويعقـفُ ظهـرا ويشـحذ نابًـا ويكمـن شـرًّا

ويـذخر بطشًـا بعيـد المنـال لـذبح الكـلاب وكـبح الرجـال٣٥

كـذلك إيـذومنٌ وقفـا لأنيـاس مـذ حنقًـا زحفـا

ونـادى الرفـاق بصـوتٍ جهيـر كـذيفيز مريـون ذاك الجسـور

وآفـارسٍ عسـقلاف البطـل كـذا أنطلـوخ وصـاح: «العجـل

هلمـوا رفـاقي فلـيس لـديَّا معـينٌ وأنيـاس خـفَّ إليَّـا

هـو القـرم يبلـي بجـمٍّ غفيـرِ ومـا زال غـض الشـباب النضـيرِ

خشيت ولم أخش لو كان تربى وذا العزم عزمي وذا القلب قلبي

فـلا شـكَّ كـان النـزال سـجال فإمَّـا يعـالَ وإمَّـا أعـال»

فحـرَّكهم عامـلٌ واحـدُ وهـزمهم الجلـل الوافـدُ

فهبـوا إليـه بأصـنافهم وأجـوابهم فـوق أكتـافهم

وأنيــاس صــاح بمــن لمحــا ينــادي الســراة بــذاك الــوحي
فهــبَّ أغينــور ذيفــوب فــارس ومـن خلفهـم هـبَّ كـل القـوامس
كما تبع الكبش سرب الشياه تعـاف المراعــي لــورد الميــاه
وأنيــاس بــادي الســرور رقــب كما هزَّ راعي الغنم الطرب٣٦
ومــن حــول ألقــاثٍ اصــطدموا صـــدام الكواســـر وازدحمـــوا
وفــوق الصــدور دروعٌ تصــلُّ بضـــربٍ يحـــلُّ وطعـــنٍ يفـــلُّ
وأفـــتكهم كـــان إيـــذومنا وأنيـــاس كـــل لكـــلٍ دنـــا
كـــآريس فـــي بأســـه انـــدفقا وأنيـــــاس عاملـــــه ســــبقا
فأبصـــر إيـــذومنٌ واحتفـــز وفـي الأرض راسُ السـنان ارتكـز
فلـــم تـــك بالطعنـــة الصـــادره وإن أنفـــذتها يـــدٌ قـــادرة٣٧
وبـــالرمح إيـــذومنٌ رشـــقا علـــى وينمـــاس فمـــا زهقـــا
ففي الـدرع غـاص وشـقَّ الحشـا فخـــر علـــى الأرض مرتعشـــا
وإيـذومنُ اجتـرَّ ذاك المثقـف وهـــــمَّ يجـــــرده فتوقــــفْ
فـــإن الســـهام عليـــه همـــت وبـــالعي أعضـــاؤه وهنـــت
فـــلا قـــوةٌ لالتقـــاط الزِّجـــاج ولا لفـــرارٍ بـــذاك العجـــاج٣٨
ولكـــن فيـــه بقيـــة حـــزم بهـا يـدفع الحتـف عنـه ويصـمي
وذيفـــوب أبصـــره يتقهقـــر وقـد كـان حقـدًا عليـه تسـعر٣٩

وزج فطاش السنان وطار ... إلى عسقلاف ابن رب البدار

فحل بعاتقه فتلقى ... براحته الأرض يخفق خفقا

ولم يدر آريس أن فتاه ... بذا الملتقى فارقته الحياه

لقد كان فوق الألمب احتجب ... تحيط به سحبٌ من ذهب

هنالك زفس بحكم القدر ... على الخالدين القتال حظر

وحول القتيل الوغى صدعا ... وذيفوب مغفرة انتزعا

ولكن كآريس مريون خف ... على يده بالقناة قذف

فَمِنهُ التريكة في الحال فرَّت ... وصلت على الأرض حيث استقرت

وهب إليه هبوب العقاب ... ومن يده الرمح جر وآب

وفوليت بين يديه رفع ... أخاه القتيل وفيه رجع

إلى حيث سائقه قد تخلّفْ ... بمركبةٍ دونها الخيل أوقف

فراحت لإليون فيه تطير ... على ألمٍ ودمٍ وزفير

وسائرهم فوق ذاك الفجاج ... يعجُّ بهم بالصدام العجاج

فآفارس بن قليطور راما ... بأنياس فتكًا فألقى الحماما

فأنياس من فوره وثبا ... برمحٍ بحلقومه نشبا

فمالت على الصدر هامته ... وأهوى المجنُّ وخوذته

وأحدق فيه ظلام الرَّدى فأخمد أنفاسه سرمدا

ورام ثوون فرارًا فأحدق به أنطلوخ وكاهله شق

بطعنته ابتتَّ حبل الكتد فمستلقيًا في التراب رقد ٤٠

يمدُّ ذراعيه مستنجدا وقاتله ينزع العددا

وينظر حوليه في صخبه فكرَّ الطراود في طلبه

وفوق المجن العريض البديع ظباتٌ حدادٌ وقرعٌ ذريع

وما مسَّه من ظباهم ضرر ففوسيذ واقيه كل الخطر

وما ارتاع فانصاع بل ظل فيهم يجيل مثقفه ويليهم

يفكر إما يزج وإما يشق الصفوف بسيفٍ أصمَّا

وأما أداماس آسيُّسا فأدرك ما بالخفا هجسا

فزجَّ برمحٍ إليه يطير فغاص بقلب المجن الكبير

وفوسيذ يأبى منيَّته فأوقف في الترس طعنته

وعود القناة وفيه انصدع فشطرٌ إلى الأرض منه وقع

وشطرُ بمتن المجن التصق حكى وتدًا باللهيب احترق

وأما أداماس فانقلبا إلى قومه يتقي العطبا

ولكن مريون مذ كان أعدى له بالسنان الشحيذ تصدَّى

فأنفذ حيث أريس يهيل على الإنس موتًا أليمًا وبيل

بأســـــفل حالبـــــه فســــــقط إلـى الأرض مصـطفقًا وخـبط ٤١

كثـــورٍ علـــى جبـــلٍ ربطـــا بعنـــفٍ علـــى رغمـــه ضـــغطا

ومـا دام هـذا الوجيـب وطـال سـوى لحظـاتٍ قصـارٍ قـلالْ

فما انتزع الرمح حتى انسدل علـــى مقلتيـــه ظـــلام الأجـــل

وهيليـــنسٌ صـــدغ ذيفيـــر فـــل بســـيفٍ بإثراقـــةٍ قـــد صـــقلْ

أطـــار تريكتـــهُ تتـــدحرج إلـــى قومـــه بالـــدماء تضـــرَّج

بهـا مـن ذويـه خـلا نفـر وأظلـم فـي عينـه البصـر

فشـــق فـــؤاد منـــيلا الأســـى وأقبـــلَ يطلـــبُ هيلينســـا

وهـــزَّ القنـــاة وذاك حنـــى حَنيَّتَـــهُ ومعًـــا طعنـــا ٤٢

فهيليـــنسٌ ســـهمه نشـــبا بلأمـــة أتريـــذ ثـــم نبـــا

وحلّـــقَ وانطـــاد ثُـــمَّ وقـــع كما الحب بين المذاري اندفع[43]

وذو الـزَّرع فـي بيـدرٍ عـاجلا ذرى الحُمُّـص اليـبس والبـاقلي

فبـين الريـاح وجهـد المـذري تـدافُعُ حـبٍ إلـى الأرض يجـري

ولكـــنَّ رمـــحَ منـــيلا اســـتقر بكـــفٍّ بهـــا لا يـــزال الـــوترْ

فأَنْفِـذ منها وفـي القـوس غاصـا فـــأمَّ ذويـــه يـــروم الخلاصـــا

فوافـاهم النصـل فـي يـده يقـــوضُ ركـــن تجلـــده

فأقب فورًا أغينور يخرج   برقّتِه النصل من حيث أولج

ومن صوف مقلاع تابعه حل   ضمادًا على ذلك الجرح أسبل[٤٤]

وفيسندر انقض متقدا   وللحتف ساقته أيدي الرَّدى

لديك منيلا رماه القدر   لتعمل فيه حسام الظفر

كلا البطلين مشى ورشق   ولكن رمح منيلا زهق

وفيسندرٌ رمحه وقعا   على الترس لكنَّه ارتدعا

بفولاذه الصلب ما صدرا   ومن كعب نصلته انكسرا

ولكن فيسندرًا طربا   لما خال من نيله الأربا

فسلَّ منيلا حسامًا ترصَّع   قتير لجينٍ بهي وأسرع

وذلك تحت المجن قبض   على فأسه وإليه ركض[٤٥]

بفولاذها بدعت عملا   وزيتون مقبضها صقلا

فما كان إلا أن اقتربا   وكل بشدته ضربا

فمن بيضة الخوذة الفأس حلّتْ   على عذباتٍ بهنَّ تحلّتْ

ولكن منيلًا بطعنته   أحلَّ السنان بجبهته

فأولج والعظم سحقًا سحق   ومن مقلتيه النجيع اندفق

وطيرتا بخضيب الدَّمِ   من الرأس حتى ثرى القدمِ

فقوس ظهرا وخرَّ صريعا   وقاتلُهُ الصَّدْرَ داس سريعا

وجــرده مــن بهــي الســلاح ومفتخـــرًا صـــاح أي صـــياح:

«ألا يــا طـــراودةٌ يــا لئــام ويــا ظمئـــين لـــورد الصـــدام

ألا هكــــذا ســــتعافون قهـــرا ســـفائننا الـــلّاء يمخـــرن مخـــرا

عـــلام إضـــافةُ عـــارٍ لعـــار تحـــريتم يـــا كـــلاب الشـــنَّارِ

فهـلا غنيـتم عـن الغـدر نفسـا وهـــلّا خشـــيتم إثـــارة زفســـا

إلاه القــرى مــن ســيهدم هــدما ديـــــاركم إذ جنيـــــتم ظلمــــا

وزوجـــي لمــا رعــتكم ضــيوفا فـــررتم بهـــا والكنـــوز صـــنوفا

ألا مـا اجتـزأتم بمـا قـد سـبق لتـوروا السـفين وتـردوا الفـرق

فـلالا ومهمـا اضـطرمتم غـرورا سـتلقون تحـت العجـاج الثُّبـورا

أيـا زفـس يـا مـن بسـامي النهـى علـى الإنـس والجـن طـرًّا سـما

بقـــدرتك استعصـــم المكـــره فكيـــف تلـــي زمـــرًا غـــدره

جنـوا وسـيجنون طـول الـزَّمن ولا يرتـــوون وغـــي وفـــتن

فـرقص السـرور وعـذب المنـام وطيـــب الأغـــاني وكـــلُّ هيـــام

وكـــل ســـرورٍ وإن طمحـــا لـــه المـــرء فـــوق شـــرور الـــوحي

فـــلا بـــدَّ صـــاحبُهُ أن يمـــلّا ولكن من العيث طروادة لا»٤٦

ولمـــــا أتـــــم مقالتـــــه وجـــــرد ذلـــــك شـــــكته

وأدلـــى بهـــا لرفيـــق بطـــل وعــــاد فبــــرز بـــين الأَول
فهرفليـــون بـــن فيلـــيمن بـــدا للقواضـــب لا ينثنـــي
وراء أبيــــه لإليـــون قـــدما أتـــى ليـــوافي القضـــاء الملمّـــا
فبـــادر أتريـــذ فـــي طعنتـــه فلـــم ينفـــذ الـــرمح فـــي جنتـــه
ونحـــو ذويـــه التـــوى ينظـــر حواليـــه خـــوف العـــدى تغـــدر
فمـــا كـــاد ينصـــاع حتـــى تلقَّـــى مثقـــف مريـــون يخـــرق حُقَّـــا
بـــأيمن فخذيـــه بـــالعظم مـــرًّا وشـــــق مثانتـــــه واســـــتمرًّا
فـــأقعى ووجـــه التـــراب تـــروَّى دمًـــا وارتمـــى دودةً تتلـــوَّى٤٧
فألفــــاه خلَّانـــــه بالحضـــــيض بطـــرفٍ غضـــيض وروحٍ تفـــيض
فحــــف بــــه البفلغــــون ذووه وبـــــين أكفهـــــم رفعـــــوه
وألقــــوه مـــــن فــــوق مركبــــة يهـــــدهم فـــــادح المحنـــــة
لإليــــون ســـــاروا أمـــــامهم أبــــــوه مآقيــــــه تنســــــجم
فـــــإذ ذاك مقتلـــــه عظمــــــا علـــى نفـــس فـــاريس فاقتحمـــا
لقـــد كـــان قـــبلا نـــزيلًا لديـــه فشـــقَّ عظـــيم المصـــاب عليـــه
فـــزج وكـــان هنـــاك فتـــى بــــــأوخينرٍ بيــــــنهم نُعتــــــا
همــــامٌ بقـــورنشٍ ذو ريـــاش وأيقـــن بـــالحتف منـــذ اســـتجاش
لأن أبـــــاه فليـــــذ النبيـــــل مـــرارًا لـــه قـــال قبـــل الرحيـــل

«فإمَّـا الحمـام بـداءٍ عضـال وإمَّا لدى الفلك يوم القتال»٤٨

فلـــم يـــرض داءً يؤرقْـــهُ وعـــذلًا وحزنًـــا يحرقُـــهُ

فجـاء وفـاريس فيـه فتـك بـزجٍ تلجلـج تحـت الحنـك

فـأودى علـى لهـب الغمـرات وهـام علـى أوجـهِ الظلمـات

هنـا كاللّهيـب السُّـرى اقتتلـوا وهكطـــور مقـــتلهم يجهـــل

ولـم يـدر أن يسـار السَّـفين عثـت بذويـه أيـادي المنـون

وكـاد العـدى يحـرزون الظفـر وفوســيذ فــيهم يهــيج الزُّمــر

فــإن مزعــزع ركــن الثــرى لنصــرتهم بقــواه انبــرى٤٩

وهكطـور مـازال حيـث انـدفع بهـم أوَّلًا والصـفاق اقتلـع٥٠

هنالـك حيـث جـرى حنقـا وفيلـــق دراعهـــم خرقـــا

وحيـــث ســـفين فروطســـلاس لقـــد قرنـــت بخلايـــا أيـــاس

وقـد جـذبت لجـدود البحـار تحـاذي أدانـي ارتفـاع الحصـار

هنـاك الفـوارس والخيـل مالـت بجملتهـــا للصـــدام فجالـــت

هنالـك هكطـور كالنـار شـبًّا علـى فلكهـم فتلقـوه غضـبى

وصـــدوه عنهـــا ومـــا ظفـــروا بإجلائـــه فلـــه صـــبروا

بصـــــدرهم زعمـــــاؤهم تخـــوض المنايـــا وتقـــتحم

هنـــاك البيوتـــة جنـــد أثينـــا بصـــدر طلائعهـــم يصـــدرونا
منســـتس قائـــدهم وفـــداس يليـــه وإســـتيخيس وبيـــاس
ومسترســـلو الـــلأم يونـــانهم تصـــدَّر للطعـــن فتيـــانُهم٥١
إلـيهم قـد انضـم قـرب الخلايـا بنـــو أفـــش بلفيـــف الســـرايا
وميـــدون فـــي قـــومهم آمـــر وفـــوذرقس البطـــل القـــاهر
(فميـدون كـان فتًـى رب بـاس لويلـــوس مـــن غيـــر أَم أيـــاس
بهـا هـام ويلـوس مـن غيـر حـل وميـدون عـن مـوطن الأهـل أجلـي
لفيلاقـــةٍ كـــان مـــذ قـــتلا أخـــا عـــرس والـــده رحـــلا
فهاجـت لـذا إريفـيس اسـتعارا فـأخلى الـبلاد وعـاف الـديارا
وفـوذرقس بـن إفقلـوس كانـا سـليلًا لفـيلاقسٍ عـزَّ شـانا)
ويصـــحبهم باســـلو لقريـــا ومبجـــيس قـــاد بنـــي إيفيـــا
لإمرتـــه كلهـــم ذعنـــا وإدراقـــسٍ ولأمفينـــا
وأمـــا الأياســـان فانـــدفقا معًـــا لحظـــةً قـــط مـــا افترقـــا
كثـورين فـي مـزرعٍ أسـحمين بنبـــرٍ لقـــد قرنـــا كفـــؤين
جـرى محـرث الأرض خلفهمـا بعـــزمٍ تعـــادل بينهمـــا
فيـــثلم ثلمًـــا وينثنيـــان وصـــدراهما رقًـــا يرشـــحان٥٢
ولكـن لـدى ابـن تلامـون ثـارت عصـــابة بـــأسٍ حواليـــه دارت

لجنتـــــه تتنـــــاوب حمــــــلا لتخفض من ثقلة العي حملا٥٣

وأمــا رجــال ابــن ويلــس فمــا جـــروا خلفـــه عنـــدما هجمـــا

فمـــا لبنـــــي لقريـــا مهــــج بصـــدر الكتائـــب كـــي يلجـــوا

فلــيس لهــم خــوذٌ ســابحات علـى صـلب فولاذهـا العـذبات

ولـيس لهـم جـنٌ مـن صـفاح أديــــرت ولا أســـــلٌ ورمــــاح

ولكــــنهم أقبلــــوا للقتــــال بتلــك القســي وتلــك النبــال

وتلـك المخـاذف تحكـم جـدلًا من الصوف تمطر في الحرب وبلا

بعـــدَّتهم تلــــك هــــم أبــــدا نكـال كتائـب جـيش العـدى٥٤

فظـل مجيلـو السـلاح الكثيـر يصـــدون أعـــداءهم بالصـــدور

وهــم خلفهــم جحفــلًا ثانيــا يظـــــــل وبـــــــالهم هاميـــــــا

فربــك وجــه العــدو الألــد وأوهـــــى عزيمتـــــه والجلـــــد

وكــــاد الطــــرواد ينكفئونــــا إلـــى حصـــن إليـــون مكتئبينـــا

ولكـــــن فوليـــــدماس ســــبق فصـــاح بهكطـــور بـــين الفـــرق

عتـــوت فـــلا ترعـــوي لمقـــال أأنـــت ســـبوقٌ بكـــل مجـــال

أمذ كنت هكطور تسمو بعزمك زعمـــت بأنـــك فقـــت بعلمـــك

ألــم تــر آل الخلــود العظــام ينيلـــون هـــذا فخـــار الصـــدام

ويؤتــون ذلــك صــوتًا رقيقــا وقيثـــارةً ثـــم رقصًـــا أنيقـــا

وذيَّــاك زفــس الحكــيم يــزين يثاقـــب فكـــرٍ وعقـــلٍ رزيـــن

فـــذيَّاك ذيَّـــاك خـــابرُ تقســـه وواقـي الـذمار ونـافع جنسـه٥٥

إذن خـــذ مقـــالي رأيًـــا صـــوابا فحولـــك ثـــار القتـــال التهابـــا

فأصـــحابنا منـــذ عبـــر الحصـــار هـــم بـــين معتـــزل لا يبـــاري

ونـــزرٍ لجـــيش العـــدى صـــدرا وحـــول الســـفائن قـــد ذعـــرا

فعدوا عقدن من الصيد محضر لنبحـــث فيمـــا بـــه نتـــدبَّر

أبـــا لفلـــك فتكًـــا بزحـــفٍ وكـــرْ لعـــلَّ إلاهًـــا بنيـــل الظفـــر

أم العـــود عـــنهن منقلبينـــا ونحـــن بأرواحنـــا ســـالمونا

فـــإني أخشـــى إيثـــار الأعـــادي لنكبـــة أمـــس بحـــر الجـــلاد

هنـــا قـــرب فلكهـــم رجـــل مـــن الفتـــك لا يرتـــوي بطـــل

وظنـــي لا يلبـــث طـــويلا فيبرز للحرب سخطًا وبيلا»٥٦

تلقَّـــاه هكطـــور رأيًـــا مصـــيبا وقـــال لفولـــدماس مجيبـــا:٥٧

«هنـــا أوقفـــنَّ خيـــار الجنـــود إلـــى أن أكـــرَّ أنـــا وأعـــود

أثيـــر بقـــومي نـــار الكفـــاح وأرشـــدهم لســـبيل الصـــلاح»

وهـــب بخوذتـــه يســـتطير كطـودٍ مـن الـثلج راح يسـير٥٨

وخـــاض يصـــيح بصـــوتٍ جفـــا صـــفوف الطـــراود والحلفـــا

فكـــلٌ أصــاخ لوقـــع النـــدا ومــن حــول فوليــدماس عــدا
وعــن آدمــاس بــن آسيُّســا يســائل عــن هيلنــوس الهمــام
وذيفــوب لكــن أتــيح القضــا وآســـيُّسٍ نجـــل هرطافســـا
فمــن بطــلٍ بطعــان الأراغــس فــبعضٌ جــريحٌ وبعــضٌ قضــى
ومــن باســلٍ لــم تغلــه المنــون قتيــلٍ أمــام الســفائن راكــس
فأبصـــر فاريسًـــا المجتبـــى جــريحٍ بأكنــاف تلــك الحصــون
يكـــر ويـــدفعهم للقتـــال يســـار الجنـــاحين ملتهبـــا
«ألا يــا شــقيًّا بــديع الجمــال فعاجلـــــه بـــــأمر مقـــــال
ألا أيـــن ذيفـــوب هيليـــنس وعشَّــاق خــدَّاعَ غيــد الــدَّلال
كــذا آدمــاس بــن آسيُّســا كــذا أثريــون الفتــى الأكــيس
أشــماء إليــون تــم المصــاب وآســـيُّسٌ نجـــل هرطاقســـا
فقــال كــربٍ يفــيض جمــالا بك اليوم حتمًا يحوق الخراب»
أفي مثل ذا اليوم بأسي أنسى «أخــي أالبــريء اتهمــت محــالا
فمذ سرت بالقوم قرب العماره وأمـــي مـــا ولـــدتني نكســـا
فمــن رمــت مــن دون هيلينســا فـــنحن هنـــا بطعـــانٍ وغـــاره
بنـا الآن سـر حيـث شئت فإنَّـا وذيفــوب عــنهم ورثنــا الأســى

وحقــك لــن نبــرحن الرهانــا وزفــس مــن الحتــف صــانهما

فمهمــا عتــا القــرم لــن يجــدا لــك التــابعون قراعًــا وطعنــا

لــذا لان هكطــور ثــم زحــف نكـــر إلـــى أن تكـــلَّ قوانـــا

وحيــث الفتــى قبريــون ضــرب سبيلًا إلى البطش إن جهدا» **٥٩**

بأمســــهما أقــــبلا بــــدلا وفاريس حيث اصطكاك الحجف

ونجـــلا هفتيـــون قـــد ثبتـــا وفلقـــيس ثـــار وأرثـــيس هـــب

وفوليـــدماس وفلمـــيس كـــرًّا وفولفـــتٌ ذو الجـــلال اســـتقرًّا

وذان جريحـــان قـــد رغمـــا مـــروس وعســـقانيوس الفتـــى

وزفــس إلــى الحــرب حثهمــا لـــرهطٍ لعســـقانيا رحـــلا ٦٠

كــأن مــن الجــو نــوءًا شــديد وجمــع الســرى واحــدًا هجمــا

يعيـــث ببـــرٍّ ويهـــوي لبحـــر بــه زفــس يقــذف طــيَّ الرَّعيــدْ

فيـــركم موجًـــا ويزيـــد يمـــا ويــدوي بصــعقة هــولٍ ويجــري

فــذاك انــدفاع لفيــف السُّرى تـــدافع مرتفعًـــا مـــدلهمًّا ٦١

صــفوفٌ تــدفع دُهــم صــفوف علـــى أثـــر الصـــيد مستبشـــرا

وهكطــورهم عــدُّ آريــس فــي تـــألق فولاذهـــا للحُتُـــوف

مشـــى بمجـــنٍ جلـــود البقـــر زعـــامتهم بـــاهر الشـــرف

ومــن حــول صــدغيه خوذتــه كســـته وفـــولاذه قـــد بهـــرْ

وهكطـور بـين الطلائـع هـام تهـــيجُ فتســـطعُ جبهتُـــهُ

دنـا جـائلًا يسـبر القـوم سـبرا يـرى هـل يـذلهم اليـوم قهـرا

فمـــا راعهـــم هولُـــهُ وتقـــدَّم أيـاس يحـث الخطـى وتكلـم

«هلـم إلـي وألـق الوسـاوس عـلام كـذا رمت ذعـر الأراغـس

بلونـا القتـال بثبـت الخطـى ولكنَّمـا صـوت زفـس سـطا

توهمت أن تنهـب الفلـك نهبـا وفينـــا أكـــف تقـــيهنَّ ذبَّـــا

وتســـبق مفتتحـــاتٍ حمـــاكم ومغتنمـــاتٍ جزيـــل غنـــاكم

ولـم يبـق ظنـي إلَّا اليسـير أهكطـور حتـى فـرارا تطيـر

تلـوذ بـزفس وكـل إلـه ليجـري خيلـك جـري البـزاه

فتلقيك خوف العدو المفاجي بـإليون تحـت غمـام العجـاج»

ومـا كـاد يفـرغ حتـى تـراءى بقلـب الفضـا طـائرٌ يتنـاءى

هـو النسـر مـن فـوق هامتـه يبشـــر خيـــرًا بحومتـــه

فضـج الأراغـس للفـأل بشـرا لمـا أنسـوا فيـه مـن خير بُشـرى

ولكـنَّ هكطـور حـالًا أجـاب «أثرثـارة زاغ غـثَّ الخطـاب٦٢

هرفـت أيـاس بمـا قلتـه وقـد خـاب مـا أنـت أمَّلْتَـهْ

ألا ليـت لـي أن أقـول بنفسـي بـأني مـن ولـد هيـرا وزفـس

ويـا ليـت لـي بـاعتزازي يقينـا كعـــــزة آفلّـــــنٍ وأثينــــــا
كمــا أننـــي مـــوقنٌ بـبـــوار لفيــف الأخــاءة فــي ذا النهــار
فإمـا اغتـررت وعرَّضـت نفسـك لرمحي تؤتى على الرغم بؤسك
يمــزق جلــدك ماضــي ســناني فتلقى لـدى الفلك ميت الهوان
وفي شحمك الغض واللحم ترتع نــواهس إليــون والطيــر تشــبع»
ومــن ثــم هــم وفــيهم تصــدر وفــي إثــره زعمــاء المعســكر
بهــم خلفــه ارتفــع الصــخب ومــن خلفهــم جحفــلٌ لجــب
وجــيش الأخــاءة بأسًــا تــدرَّع بموقفـــه ظَـــلَّ لا يتزعـــزع
تــربَّص يلقــى عُلــوج العــدى بنقــعٍ لقلــب الفضــا صــعدا
وعــج الخميســين شــقَّ الفضــا إلى حيث في الجو زفس أضا

هوامش

(١) الأفوملغة: قبيلة من السكيثيين، كان معظم غذائهم لبن الخيل، وكانت مواطنهم على رواية إسطرابون في شمالي أوروبا– تضاربت الأقوال في تحويل أنظار زفس عن مواقف القتال؛ فمن قائل: إنه إنما حوَّل نظره عن الطرواد إيذانًا بنصرة الإغريق، ومن قائل عكس هذا القول، على أننا لا نرى سبيلا لكل هذا التأويل، فإن الشاعر يمثل بزفس عظمة الخالق، فيجدر به إذن حينًا بعد حين أن ينظر إلى أمم أخرى، كما

رأيناه فيما سلف شخص إلى الأثيوبيين، وغادر المتحاربين وشأنهم إذ لا يعسر على مدبر الأكوان أن يتطلع إلى أحوال الخلق في آن واحد على حد قول الشاعر:

لـــيس علـــى الله بمســـتنكرٍ   أن يجمـــع العـــالم فـــي واحـــدِ

(٢) في التوراة: اللهمَّ عند خروجك قدام شعبك، عند بروزك في القفرسلاه رجفت الأرض قطرت السماء من وجه إله سيناء من وجه الله إله إسرائيل (مز ٦٧).

(٣) إيغاس هذه كانت على رواية إسطرابون جزيرة وعرة، بين تينوس وصافس، وكان فيها هيكل لفوسيذ إلاه البحر — يتصور المطالع هيبة فوسيذ بارتجاج الغاب والجبال تحت قدميه، وسيزيد ذلك هيبةً ما سيأتي من وصفه ووصف مركبته، وهي تشق قلب العباب والحيتان تتواثب من حولها جذلا به إلى آخر ما سترى مما يغني عن البيان، وإن وثوبه من أعلى قمم سمثراقة إلى إيغاس بثلاث خطوات يذكرنا بما جاء عندنا من الأثر عن خطوات أبينا آدم؛ إذ كان يجتاز من عدن إلى سرنديب خطوة واحدة، أو كما قال الثعلبي في قصص الأنبياء: إن خطوته كانت مسير ثلاثة أيام.

(٤) الخيل الطيارة كثيرة في أساطير الأمم، وعندنا في أقاصيص ألف ليلة وليلة من غرائب سرعة الفرس السحري ما لا يقصر عن خيل إلاه البحار، بل ربما يربو عليه بأن فرسنا لا يشعر بحاجة الطعام

والشراب، وليس له قيد يقيد به، ولعل صاحب ألف ليلة وليلة قرأ أو سمع شيئًا من إنشاد الإلياذة، فأفرغها لنا بقالب يشبه أن يكون جديدًا.

(٥) لا أرى الباعث على اتخاذ فوسيذ ذلك الطريق للحلول ما بين جيش الإغريق، إلا أن يكون الشاعر قصد أن يزين شعره بتلك التصورات البديعة التي ترتاح إليها نفس السامع، ولا سيما في عصر كعصره كان الناس فيه أقرب إلى التشوف، إلى تلك الغرائب، وإلا فما كان على فوسيذ إلا أن يخطو خطوة خامسة، فيحل حيث شاء.

(٦) إن في كلام فوسيذ هذا لدربةً ودهاءً، فإنه إذ كان يمثل بطلا من أبطال الإغريق لم يكن يجدر به إلا أن يأتي حكمة يمكن أن تؤثر عنه، ولا عبارة أقوى من عبارته لاستنهاض همم ذينك البطلين الباسلين؛ إذ أثبت لهما أن الجيش في كل أطرافه بمأمن من الفشل إلا في موقفهما لشدة بطش هكطور، وإذ كانا يعلمان أن هكطور مندفع بقوة علوية ألقى في صدريهما أمل تحيز بعض الآلهة إلى الإغريق، وأثبت قوله بالفعل بما أوحي إلى صغيرهما كما سترى.

(٧) تساءل البعض عن سبب تنبه أياس الصغير قبل أياس الكبير لتلك القوة الخارقة! فقال بعضهم وهو قولٌ حسن: إن أياس بن تيلامون بطل مقدام لا يهاب الموت، وهو كالبرج الثابت لا يتزعزع، ولهذا كان قليل التنبه لما سوى دفع الكرات، وخوض الغمرات حالة كون أياس الصغير خفيف الروح والجسد، فهو أولى بسبق النظر.

(٨) صمم، أي: فتك — من الحكمة في هذا الكلام أن نسب قائله وهن الجيش إلى سأم ألمّ بهم؛ لنزاع سبق بين أغاممنون وآخيل، لا لفتور في هممهم، فكأنه التمس لهم من أنفسهم عذرًا على ذلك الفتور، وفتح لهم مخرجًا يخرجون منه على أهون سبيل.

(٩) لا بأس بتفكهة القارئ برواية رواها فلوتارخوس وفيلوستراتوس وغيرهما، قالوا: إن غانكتور بن أمفيداماس ملك أوبيا أجرى بمأتم أبيه ألعابًا ومخاطرات كثيرة، كجاري عادتهم وخص الشعر بجائزة سنية، فدارت المشاعرة بين هوميروس وهسيودس، وأنشد كل منهما أبياتًا من نظمه، فكانت الغلبة بكل الإنشاد لهوميروس باتفاق الجمع، وكان فانيذس أخو الميت من جملة المحكمين، فأمر كلا من الشاعرين بإنشاد أجود شعره في ظنه، فأنشد هسيودس شيئًا من مطلع نشيده الثاني، وأنشد هوميروس الأبيات التالية، فآثر فانيذس كلام هسيودس السلمي على شعر هوميروس الحربي خلافًا لإجماع الحضور على تفضيل شعر هوميروس، وحكم بالجائزة لهسيودس، وعلى هذا انهال جميع الشراح على فانيذس باللوم والسباب، ولم يكن منهم إلا من أورد هذه الرواية، وإن تكن غير ثبتة مع ثبوت إقامة أسواقهم العكاظية هذه.

(١٠) لو قرأت هذين البيتين في الأصل اليوناني لظننت أنك تسمع هدير ذلك السيل المندفق، والصخر المتحدر فوقه ترتجف لانحداره الغاب، ولسمعت صوت اندفاعه الدفعة الأخيرة ووقوفه فجأة،

وصدى صوته بعد ذلك الوقوف، ولعل لنا حظًّا طفيفًا من مشاكلة شعر الشاعر اليوناني، أما التشبيه بحد نفسه فلا يفوقه تشبيه في كل إلياذة هوميروس وغيرها، وأي وصف أليق بوصف هكطور المنقض كالشهاب الثاقب والمندفق كالسيل الزاغب، إلى أن تتألب جماهير الإغريق حول الأياسين فتصده دفعة واحدة، وتقف به وقوفًا لم يكن بالبال والخيال، ولقد أجهد شعراء الرومان والإفرنج قرائحهم بالتشبه بهوميروس بنظم هذا المعنى، ولكنهم لم يدركوا شأوه، ولم يصيبوا المرمى إصابته، ولم يحسن منهم أحد إحسان شيخ شعراء العرب القائل في معلقته بوصف جواده:

مكـرٍّ مفَـرٍّ مقبـلٍ مـدبرٍ معًـا كجلمود صخرٍ حطه السيل من علِ

على أن امرأ القيس زاد في المعنى الإقبال والإدبار، وأغفل ارتجاف الغاب والوقوف.

(١١) الحصار: المعقل، وقول هكطور: إنهم رصوا كالحصار المتين شهادة أخرى بانتظام فيالقهم، وتشبيه الجيش المتألب بالبنيان المرصوص كثير في كلام العرب، وفي الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا».

(١٢) لقد عرَّف هوميروس هنا زفس مرة أخرى بزوجه، وقد أشرنا إلى ذلك في النشيد العاشر:

(١٣) ذكرنا في ما تقدم أن أبناء السفاح لم يكونوا على شيءٍ من الحِّطة التي نالتهم في ما ولي عهد هوميروس، وهنا شاهد على أن بنات السفاح لم يكنَّ دونهم في المنزلة، ولولا ذلك لحاذر هوميروس أن يقول: إن مديسكستا كانت زوجة لزعيم من كبار الجيش، ولا يستخرج من كلام هوميروس كيف كانت حالة المسافحات لذلك العهد، ولم يقل أكانت والدة مديسكستا خصيصة به، أم كانت كبغايا العرب اللواتي كن يبحن أنفسهن لكثيرين، فإذا ولدن اجتمع إليهنَّ أولئك الرجال، فكان المولود لمن ألحقته به منهم، كما فعلت أم عمرو بن العاص؛ إذ كانت بغية وكان قد لازمها العاص، وأبو لهب، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، فألحقت المولود بالعاص؛ لأنه كان ينفق على بناتها «السيرة الحلبية ١: ٤٦».

(١٤) أقطور: لقب لفوسيذ إلاه البحر، ومعناه القائد والدليل.

(١٥) قال عمر بن كلثوم يشبه الرءوس المقطوعة بالكرات التي يدحرجها الغلمان الشداد في مطمئن من الأرض:

يدهدون الرءوس كما تدهدي   حزاورةٌ بأبطحها الكرينا

(١٦) حفيد فوسيذ، أي: أمفيماخس.

(١٧) الأسى: جمع آسي الأطباء، ويظهر من هذه العبارة أن أطباءهم كانوا كثيرين، أو كان لكل قبيلة منهم أطباء معلومون فضلًا عن

ماخاوون وفوذالير، اللذين كانت لهما رئاسة الأطباء؛ لأنا رأينا فيما تقدم أن أخيل وفطرقل كان لهما أيضًا إلمام بفن الطب.

(١٨) من عادة الشاعر إذا أراد أن يبرز بأس بطل من أبطاله أن يأتي بمقدمة تمثل أخلاقه تمثيلًا، وهو هنا يريد أن يبرز لنا أيذومنياوس، وهو ملك ذو شأن قد وخط الشيب عارضه، ولكن فيه بقية بأس لمكافحة الأبطال، وإنا لنراه هنا قبل بداره إلى القتال، يعني بفتى جريح يؤاسيه ويداويه، ومما جاء في الأثر أنه لما اجتمعت الملوك للحرب طلب أيذومنياوس مشاطرة أغاممنون الزعامة الكبرى، ينبئنا ذلك بما كان له من علو المنزلة وبسطة الجاه، وهو على رفعة شأنه محب لجنده شفيق عليهم كما رأيت، وقد أنبأنا الشاعر بتلك الأخلاق دون أن يصرح بها.

(١٩) كقول أبي تمام:

حرامٌ على أرماحنا طعن مدبر وتندقّ قدمًا في الصدور صدورها

محرمة أعجاز خيلي على القنا محللة لباتها ونحورها

(٢٠) كان من أعظم مفاخرهم أن يذخر الفارس منهم شيئًا كثيرًا من سلاح أعدائه، وكلما كثر سلبه عظم قدره بين ذويه، فلا تعجب بعد ذلك إذا رأيناهم في معمعة القتال يكبون على قتلاهم ليجردوا سلاحهم، وإن كان الأعداء محدقين بهم من كل صوب «راجع ن١».

(٢١) قال عنترة:

ما زلت ألقي صدور الخيل مندفقًا بالطعن حتى يضجَّ السرج واللببُ

(٢٢) خبرك الأولى بمعنى عرفك.

(٢٣) صك، أي: جبن.

(٢٤) قال العلوي صاحب الزنج:

يلقــى الســيوف بنحــره وبوجهــه ويقــيم هامتــه مقــام المغفــر

ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا فعقرت وكن المجد إن لم تعقرِ

(٢٥) اقتل، أي: اختر.

(٢٦) قرونس هو زحل كما تقدم، والمراد بابنيه زفس وفوسيذ كما سترى.

(٢٧) مفاد ذلك: أن زفس كان يروم أن ينكل هكطور بالإغريق، حتى تضيق عليهم المسالك، فينهض أخيل لنصرتهم، ويكون فوزهم عن يده، فينال أخيل بذلك المقام الأرفع والفخر الأعظم.

(٢٨) إن إيثار البكر على سائر الأبناء من سنن الطبيعة التي استنت بها كل البشر، حتى لقد استن بها الآلهة أنفسهم، ولا سيما حيث ليس في الأسرة إلا موضع واحد للملك، فلا يصح أن يستأثر به سوى واحد، ولا يصلح أن يكون هذا الواحد إلا البكر لسبقه في الرشد، فإذا كان ذلك نظامًا مأثورًا فلا سبيل بعده إلى النزاع، وهذا هو الأصل في إيثار البكر على إخوته، ومن ثم سرت العادة إلى ذوي المقامات، ومنهم

إلى سائر الناس، وسرت على مناهج شتى مرجعها جميعًا إلى إيثار البكر على إخوته حسًّا ومعنًى، وعلى هذا كان اليهود يخصون البكر ببركة أبيه، ويضاعفون سهمه في الميراث، أما العرب فالظاهر أنهم لم يزيدوا في حقوق البكورة شيئًا كثيرًا عما كان عندهم؛ لحرمة التقدم في السن من الرعاية المعنوية، ومع هذا فقد كان البكر يستأثر بما لا يحتمل القسمة من متروكات أبيه، ولكن الإسلام ساوى بين البنين جميعًا.

(٢٩) أي استعارة أجمل من هذه الاستعارة لفئتين متحاربتين متلاحمتين تلاحمًا لا يكاد يفرق فيه بين القاهر والمقهور، والملتوي والمنصور، فالحرب بينهما يتجاذبان أطرافها كحبل

بأطرافـــــه كلهـــــم وقعـــــوا فقطعهـــــم وهـــــو لا يقطـــــعُ

وهي من استعارات هوميروس القليلة بإزاء تشابيهه، ولكنها ليست في شيءٍ دونهن قوة واستحكامًا.

(٣٠) لا يخفى ما في هذا الكلام من التهكم على خطيب ابنة فريام القتيل، ولقد عيب هوميروس على عبارات كهذه؛ إذ ليس من الإباء وشيم النفوس الكبيرة أن تتهكم على عدو ظفرت به، ولا سيما بعد موته، ولكنه قد يشفع لشاعرنا أنه إنما كان يصور أخلاق بني زمانه؛ حسنها وقبيحها، فهي عادة جرت لهم فأثبتها على علاتها.

(٣١) أي: خوفًا عليه من الأعداء أن يجردوه سلاحه ويخلوا بجيشه.

(٣٢) الوجيب: الخفقان – لقد آلى بعض الشراح على أنفسهم أن يفسروا كل كلمة من كلام هوميروس تفاسير طويلة عريضة، لم تمر على مخيلته، كاستنتاج بعضهم من كلامه هذا أنه كان أول عالم بعلم التشريح، واستنتاج البعض الآخر أنه لم يكن يعرف منه شيئًا، وشرَّح كلٌّ لإثبات مدعاة قلب الإنسان، وأفاض بما يخرج كل الخروج عن هذا البحث، أَوَ لا يكفي ما في هذا الكلام على ظاهره من البلاغة حتى نتأول له التآويل التي ما أنزل الله بها من سلطان؟

(٣٣) من المعلوم أن فرجيليوس الشاعر الروماني بنى منظومته على مثال إلياذة هوميروس، وجعل بطلها آنياس، كما جعل هوميروس بطله الأعظم أخيل، وكأني بفرجيليوس وقف عند هذا البيت وهو يتلو الإلياذة، فكان له منه المحرك الأول لنظم الإنياذة «نسبة إلى أنياس»، لأنه كان متواترًا على ألسنة الناس خبر نبوءةٍ يزعمون أنها كانت شائعة في أيام حرب طروادة، تشير إلى أن فريام كان عالمًا أن آنياس وذريته سيحكمون بلاد الطرواد، وكلام هوميروس هنا يؤيد هذا القول، ولما كان من المأثور تاريخيًّا أن آنياس كان رأس الأسرة الرومانية بعد تلك الحرب لا يبعد أن تلك النبوءة لم تكن شائعة في أيام الحرب، بل تصورها القوم كأنها كانت عندما حققها التاريخ – ومهما يكن من صحة هذا الزعم، فلا

عجب أن يكون فريام – وهذا اعتقاده – حذرًا من أنياس نازعًا إلى الغض من قدره وأن يكون أنياس حانقًا ساخطًا معتزلًا كما قال الشاعر: «في طرف الفيلق».

(٣٤) كثيرًا ما يطلق الشاعر لقب الطرواد عليهم وعلى حلفائهم، كما يطلق لقب الإخاءة والأراغس على جميع المحاصرين، وأنياس هذا بطلٌ مغوار، قال فيلوستراتوس: إنه لم يكن دون هكطور بشيءٍ إلَّا بشدة البأس، ولكنه كان يفوقه حكمةً ويساويه في كل ما سوى ذلك، وكان شاعرًا بما كان له في القدر بعد دك طروادة لا يعرف الخوف ولا تروعه الحروب. وإذا أحدق به خطر لا يتزعزع صوابه ولا يتغير، فكما أن هكطور كان ساعد الطرواد كان آنياس رأسهم يدبر أمورهم بدراية فوق تدبير هكطور باندفاعه وبأسه. وكلا البطلين متشابهان سنًا وشكلًا، وأنياس وإن كان أقل بأسًا وإقدامًا فقد كان أربط جأشًا وأثبت عزيمة.

(٣٥) قال لبيد يصف البقرة الوحشية دافعةً عن نفسها هجمات الرماة وكلابهم بما يشبه دفاع خرنوص هوميروس:

فَتَوَجَّسَتْ رِزَّ الأنيسِ، فَرَاعَهَا ... عَنْ ظَهْرِ غَيبٍ، والأنيسُ سَقَامُهَا

فَغَدَتْ، كِلا الفَرجَينِ تَحْسِبُ أَنّه ... مَوْلى المَخَافَةِ، خَلْفُها وَأَمَامُهَا

حَتى إذا يَئِسَ الرّمَاةُ، وأَرْسَلُوا ... غُضفًا دَوَاجِنَ، قَافِلًا أَعْصَامُهَا

فَلَحِقْنَ، واعْتَكَرَتْ لَهَا مَدَرِيّةٌ ... كالسَّمْهَرِيّةِ حَدُّها وَتَمَامُهَا

لِتَذُودَهُنّ، وَأَيْقَنَتْ إنْ لَمْ تَذُدْ ... أَنْ قَدْ أَحَمَّ مَعَ الحُتُوفِ حِمَامُهَا

فتَقَصّدَتْ منها كَسابِ، فضرِّجتْ بِـدَمٍ، وَغُـودِرَ فـي المَكَـرّ سُـخَامُهَا

قال: إن البقرة تسمعت صوت الرماة القادمين لصيدها فراعها ذلك، واستعدت للقاء، فلما عجز الرماة عنها بسهامهم أرسلوا عليها الكلاب، فرأت أنه لا بد من الدفاع، فقابلت تلك الكلاب بقرن كالرمح، وقتلت منها كلبتين تدعى إحداهما كساب، والأخرى سحام.

(٣٦) يعلم الرعاة أنه كلما كثر شرب الماشية كانت أقرب إلى الصحة، ولهذا يسرون إذا اندفعت للموارد بعد الاكتفاء من المراعي، وهذا الذي أشار إليه هوميروس بقوله: «هز راعي الغنم الطرب».

(٣٧) الصادرة: المصيبة النافذة.

(٣٨) الزِّجاج: جمع الزج، وهو السنان.

(٣٩) إذا أشار الشاعر إلى أمر مشهور في عصره، فقلما يفصله تفصيلًا كافيًا، مثال ذلك ما تقدم معنا في الكلام على آنياس، ومثله قوله هنا: إن ذيفوب تسعر حقدًا على أيذومين، ولم يذكر السبب لاشتهاره في زمانه، ذلك أنه كما قال أفستاثيوس: كان بين أيذومين وذيفوب رقابة غرام، وقد كان كل منهما طامعًا بهيلانة المسببة، وهذا القول يطابق كلام فرجيليوس؛ إذ ذكر أنه بعد موت فاريس زفَّت هيلانة إلى ذيفوب.

(٤٠) الكتد: ما بين الكاهل إلى الظهر.

(٤١) إن في هذا البيت في الأصل اليوناني من المشاكلة الشعرية ما يكاد يريك ذلك القتيل، وقد انقطعت أنفاسه ولعل في الترجمة العربية رائحة من ذلك.

(٤٢) الحنية: القوس، أي أن أحدهما طعن برمحه، والآخر أنفذ سهمًا.

(٤٣) انطاد: علا في الجو صعدًا.

(٤٤) ليس في الإلياذة ذكر للمقلاع أو المخذفة إلا مرتين في هذا النشيد، ولهذا ذهب بعض الشراح إلى أن الكلمة هنا تفيد معنى آخر، ولكن هذا الزعم غير ثبت؛ لأن المقلاع من أقدم آلات الحرب، وإن لم يكن كثير الاستعمال عندهم، فلأنه لم يكن له مجال واسع مع النبال والرماح، ولقد رأيناهم مع ذلك يقذفون الصخور عن قرب بأيديهم، فالحجر إذن كان من جملة أسلحتهم ولعلهم لم يكونوا أحكموا رمي المخذفة إحكام داود النبي قاتل جليات.

(٤٥) ما قيل عن المقلاع يصلح أن يقال هنا عن الفأس؛ لأنها كانت قليلة الاستعمال، تعتبر سلاحًا خشنًا لا يستخدمه الجنود المنتظمون بعد إتقانهم الطعن بالرماح والضرب بالسيوف والفأس كانت مع ذلك سلاح الأمازونة.

(٤٦) حيثما تكلم منيلاوس رأينا كلامه يشف عن حزازة نفس ليست في صدر غيره، ألا وهو الجريح الذي لم يصب بجرحه سواه، فإذا تشفَّى بعض التشفي من قتيل طريح أو عدو جريح فما ذلك ليروي غلة صدره، وهو ما زال بعيدًا عن نيل بغيته القصوى يتألم تألم صاحب الجميل، الذي نبذ أجره وبخس قدره، وقوبل بأشنع الغيلات، وكأنه يبرد غلالة لبِّه بملامة زفس؛ لاعتقاده أنه بقدرته استعصم المكرة الغدوة، ثم كأن ذلك الملام لا يغنيه فتيلًا، ولا يشفي له غليلًا، فيرجع إلى وصف عدوه بكلام وإن كان سهلًا بسيطًا فهو أمر ما وُصف به إنسان، وأشر ما دل على الغدر والنكران؛ إذ لا أدل على الظلم من ملالة المرء أمورًا طيبة حلالًا كالرقص والنوم والغناء والسرور، مع عدم ارتوائه من أمور أخرى متعبة مزعجة محرمة كالغيث والفساد – ويجمل بنا في هذا المقام أن ننبه إلى أن الرقص كان عندهم على نوعين؛ أحدهما: الرقص الممدوح للفرسان والفتيان، وهو الذي سنته لهم أثينا، والآخر: رقص الخلاعة والتهتك ولا شك أن منيلاوس أراد هنا النوع الأول.

(٤٧) ليس تلوّي هرفليون ألمًا، كتلوي صخر الخضري صبابةً بالمنازل؛ إذ يقول:

ألـــوَّى حيـــازيمي بهـــن صـــبابةً   كمـــا تتطـــوَّى الحيـــةُ المتشـــرقُ

(٤٨) هنا فتًى كأخيل يقدم على الحرب مع علمه بأنه يقتل فيها، ولكن شتان ما هذا العلم وعلم أخيل، فأخيل أنبأته أمه بعمر مديد وعيش

رغيد، إذا لبث في مكانه فآثر قصر الحياة مع المجد الأثيل والعناء على طولها مع العمر الطويل والرخاء، وأوخينور أنبأه أبوه بالموت بداء عضال إذا تقاعد عن الحرب، وكل فتى يؤثر الموت في ساحة النزال على الهلاك على فراش الأوجاع بداء عضال.

(٤٩) مزعزع ركن الثرى: لقب من ألقاب فوسيذ إله البحار، كانوا يمثلونه بصور شتى، وهو في أكثرها إما ممتطٍ صهوة مركبة بهيئة صدفة تجرها جياد البحر، وبه تحيط الحور الحسان، وإما راكب دلفينه كما ترى في الرسم، والصولجان المثلث الأطراف ملازم له في كل صورة.

(٥٠) يريد صفاق الأبواب.

(٥١) اللأم الدروع – اليونان ملة هاجرت إلى أغيالة قبل حرب طروادة بنحو مئتي عام، ورجعت إلى بلادها في الأتيكة بعد تلك الحرب بمئتي عام، وبقي اسمهم عليهم وما هم إلا فرقة من تلك الأمم المتضافرة، ومن الغريب أن العرب أطلقوا اسمهم على جميع تلك الملل مع أن من تقدمهم من الرومان وغيرهم لم يغلبوا هذا التغليب.

(٥٢) أي: تشبيه أصدق لبطلين متساويين قوة وشدة من هذا التشبيه، وإن كان لا يشبه به في أيامنا فلم يكن هوميروس ليبالي برقة أبناء هذا الزمان.

(٥٣) الجنة: الترس، كما لا يخفى، وإذا كانت تلك العصابة تتناوب حمل تلك الجنة؛ لتخفض من ثقلتها حينًا بعد حين عن أياس، فلأن ثقلتها كانت شيئًا مذكورًا لأنها وأمثالها كانت تستر جميع الجسم، فلا بدع أن تكون ثقيلة مزعجة، ولا سيما في حين يكل فيه أشد السواعد لكثرة كره وقتاله.

(٥٤) نعلم من هذه الأبيات أن كل فرقة أتت بسلاحها الذي لها في أوطانها، فمنهم السيافة والرماحة، ومنهم النبال وحملة المخاذف، أي: المقاليع، ولا بدع أن يكون هؤلاء بلا دروع لقلة احتياجهم إلى ملاقاة الأعداء صدرًا لصدر.

(٥٥) أي: صاحب الفكر الثاقب والعقل الرزين، كانوا يعتقدون أن الآلهة تقسم على الناس الأخلاق، كما توزع عليهم الأرزاق، وفي مثل هذا المعنى يقول لبيد العامري:

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علّامها

وإذا الأمانة قسمت في معشرٍ أوفى بأوفر حظنا قسامها



فوسيذ أو فوسيذون.

(٥٦) تلك إشارة إلى أخيل، يهيئ الشاعر المطالع لرؤية أخيل بأعظم مظاهر الهيبة والجلالة، هنالك يوفد الإغريق له الوفود لاسترضائه، وهنا أشد الأعداء بأسا كفوليداماس وهكطور يقفان عند ذكر اسمه، وعما قليل سنراهم منهزمين لرؤية فطرقل شاكًّا بسلاحه ظنًّا منهم أنه هو هو.

(٥٧) هنا في بعض النسخ بيت يقول: إن هكطور وثب إلى الأرض من مركبته. وإغفال هذا البيت من نسخ أخرى صواب؛ لأن سياق الكلام يدل على ترك الطرواد عجالهم خلف الحفير، فذل كالبيت إذن دخيل في الإلياذة.

(٥٨) لو أُخذ معنى الشطر الأخير على ظاهره لكان بلا ريب أبرد من الثلج المشبه به هكطور، ولكن المقصود منه لا بد أن يكون إشارة إلى بريق سلاحه أو ارتجاف قونس خوذته؛ إذ يلقبه هوميروس في مواضع كثيرة بهياج الخوذة.

(٥٩) ترى من كلام الأخوين ما بين أخلاقهما من الفرق، فهنالك هكطور العتي الصارم، يشدد المقال ويلوم حين لا محل للوم، وهنا فاريس أخوه يطلطف كجاري عادته ويؤانس مؤانسة الأخ الأصغر والعشيق الأمهر.

(٦٠) نعلم من هنا أنه كما كان البحر مفتوحًا للإغريق، تأتيهم به النجدة والذخيرة كان البر مفتوحًا للطرواد يتناوب في طريقه نجَّادهم.

(٦١) قال عنترة وأجاد بتشبيه الجيش بالبحر والنصال بأمواجه:

وفاض عليَّ بحرٌ من رجالٍ بأمواج من السمر الدقاقِ

(٦٢) لم يكن ذلك النسر ليروع هكطور؛ لأنه على ما تقدم في النشيد السابق لم يكن كثير الاعتقاد بالطيرة.

النشيد الرابع عشر

مكر هيرا ببعلها زفس

مُجْمَلهُ

كان نسطور في المعسكر يعنى بتمريض ماخاوون الجريح، فخرق آذانه قرع الحراب فارتاع وخرج من مضربه يتشوف، فشهد مشهدًا هاله ولقيه أغاممنون وأوذيس وذيوميذ وكلهم جريح، فتشاوروا فرأى أغاممنون أن الغنيمة في الهزيمة لميل زفس إلى الأعداء، فقبح أوذيس رأيه وارتأى ذيوميذ وجوب العودة إلى ساحة القتال لعلهم إذا عادوا بين أجنادهم يثبرون بهم ثائر الحمية فكان كذلك. وظهر فوسيذ بهيئة جندي شيخ ونشط أغاممنون وثبت الإغريق، وكانت هيرا قد ارتاعت لانحراف بعلها زفس إلى الطرواد، فتهيأت لأعمال الحيلة فاستعارت حزام الزهرة ومضت إلى لمنوس، والتمست معاونة «الكرى» أخي «الموت» على زفس، فتمنع الكرى بادئ بدء عن إجابة سؤلها فلم تزل تخادعه حتى أذعن لها وسكب طله على عيني زفس فاستولى عليه السبات بين يديها، وطيرت الخبر إلى فوسيذ فاغتنمها فرصة خير فرصة ودفع الإغريق، فقضوا على الطرواد وجرح إياس هكطور فأقصاه أتباعه عن موقف النزال، وطلبه الإغريق فلم ينالوا منه مأربًا، وهناك ازداد الإغريق بأسًا ففتكوا بأعدائهم

وصدوهم وأبعدوهم عن مواقف السفن وملأوا السهل أشلاء من قتلاهم لانهزم الطرواد من أمامهم وأياس في أعقابهم تخر الأبطال بين ذراعيه.

يبتدئ هذا النشيد وينتهي أيضًا في اليوم الثامن والعشرين ومشهد وقائعه في مضارب اليونان فطور إيذا ثم في ساحة القتال.

النشيد الرابع عشر

كـان نسـطور لـدى كـأس الشـراب مصـغيًا يسـمع عُجًّـا واصـطخاب
فلمـا خـاوون قـال: «أفكـر فمـا علّـة يـنجم عـن قـرع الحـراب
حـول تلـك الفلـك فتيـان الـوحي نقعهـــم يعلـــو مـــهٍ لا تبرحـــا
واشـــرب الخمـــرة صـــرفًا ريثمـــا هيكميـذا لـك تحمـي المسـبحا١

وتنقي الجرح من هذا الخضاب

•••

وأنـــا مـــاض أرى مـــاذا جـــرى بالسـري» واقتـال ترسًـا أكبـرا٢
كـــان ترســـيميذ قـــد غـــادره مـــؤثرًا تـــرس أبيـــه نســـطرا
وعلـــى رمـــحٍ طويـــلٍ قبضـــا بســـنانٍ قـــاطعٍ صـــفرًا أضـــا
وإلـــى البـــاب عـــدا مستشـــرفًا فلـــهُ لاح القضـــا أيُّ قضـــا

ببني الإغريق قد جلَّ المصاب

•••

دفعـــوا دون عـــدوٍ منـــدفع خلفهـم مـن خلفـه السـور صـدع

لبـــث الشـــيخ علـــى هاجســـه خامـــد الجـــأش كبحـــرٍ متســـع

بـــدنو النَّـــوء فـــي الجـــو شـــعر يمُّـــهُ فأربـــدَّ لونًـــا واكفهـــر

لا يعـــجُّ المـــوجُ فيـــه مـــائلا أي ميـــلٍ قبـــل مـــا زفـــس انتهـــر

ريحه تنقضُّ من فوق العباب٣

•••

هكـذا الشـيخ علـى أمـرين جـاش لبلـوغ الجيش مـن فـوق الرشـاش٤

ألحاقًـــــــا بأغـــــــاممنون أم بالحواشي حيثما اصطك الكباش٥

فعلـــــى ذاك أخيـــــرًا عـــــوَّلا واشـــتباك الســـمر يصـــمي النـــبلا

يقـــرع الجنـــات فـــي دراعهـــم أبتـــرٌ مـــاضٍ ورمـــحٌ صـــقلا

نافذ الحدين ريَّان الذباب٦

•••

فـــإذا فـــي الثغـــر جرحـــى الأمـــرا مـــن بنـــي زفـــس تـــراءوا زمـــرا

كذيوميـــــذ وأوذيـــــس وأتـــــ ـــريذ مـــن فلكهـــم أمُّـــوا السُّـــرى

فلكهـم عـن موقـف الطعـن المبيـد أرسـيت بـالجرف فـي بـونٍ بعيـد

درنهـــا للســـهل فلـــكٌ أدنيـــت دونهـــنَّ السُّـــورُ بالإحكـــام شـــيد

معقلًا يمنع أن جَدَّ الطلاب

•••

ذلـك الجـرف العـريض المتسـع كـل هاتيـك الخلايـا مـا وسـع

خـوف تضـييق مجـالٍ حـال مـن دونهـــا فيـــه الســـرايا تجتمـــع

فصـــفوفًا كـــنَ فـــي ذاك الخلـــيج بيـــنهن الـــنفس فـــي الصـــيد تهـــيج

فـــانبروا كـــلٌ علـــى عامِلِـــه يتوكـــأ راقبًـــا عـــجَّ الأجـــيج

وإذا بالشيخ نسطور المجاب

•••

فـــالتظوا طـــرًّا لمـــرآه أســـى وأغـــاممنون نـــادى يئســـا:

«يـا ابـن نـيلا فـدوة الإغريـق لـم عـدت مـن قـرع القنـا محترسـا

خشـــيتي ويـــلاه إنفـــاذ وعيـــد ذلـــك الفتَّـــاك هكطـــور العنيـــد

يـــوم فـــي شـــوراه آلـــى أنـــه يحـــرق الأشـــراع والقـــوم يبيـــد

قبل أن ينوي لإليون المآب

•••

وعـــده ربـــاه فيـــه اليـــوم بـــر وفـــؤاد الجـــيش بـــالغيظ اســـتعر

كأخيـــل كلهـــم لاح وقـــد عـــذلوني وأبـــوا دفـــع الضـــرر»٧

قـال: «هـا قـد قضـي الأمـر فـلا نفـس زفـسٍ دافـعٌ هـذا الـبلا

ذلـــك الســـور بـــه منعتنـــا وتـــراه انـــدكّ والنقـــع عـــلا

ولدى الأسطول ميدان الضراب

•••

فأجـل طرفـك فـي كـل طـرف لا تـرى أيـن بنـا جـلَّ التلـف

حيثمـــا تنظـــر فـــالقتلى هـــوت وهديـد القـوم فـي الجـو قصـف

فلنـــرم رأيًـــا بـــه نـــؤتى الفـــلاح إن يكـن ذا الحـين للـرَّأي صـلاح

إنمـــا الحكمـــةُ فـــي عزلتنـــا ما على المجروح إتيان الكفاح»٨

فأغاممنون ملتاعًا أجاب:

•••

«إن يكـن ذيَّالـك السـور الخطيـر» مـا وقـى ضـرًّا ولا صـدَّ الحفيـر
أو تكـن خابـت أمانينـا بـه بعـد إجهـاد قـوى الجيـش الكثيـر
أو يكـن ثـار الـوغى دون السَّـفين إنمـا مـن زفـس ذا الـذل المهـين
نصـره عاينـت قـبلًا مثلمـا قد شهدت اليوم ذا الخذل المبين

موقنًا بالحتف في دار اغتراب

•••

غـل أيـدينا وأعـدانا الثقـال عـز آل الخلـد إجـلالًا أنـال
فلنجـرَّنَّ مـن الأسـطول مـا كـان أدنـاه إلـى الجـرف مجـال
وبقلـب البحـر نرسـيه إلـى أن نـرى جـيش الـدياجي أقـبلا
فـإذا أوقـفَ كـرَّات العـدى سـائر الفلـك اجتـذبنا عجـلا

وكفينا شر فضَّاح العذاب

•••

ففـرار المـرء أولـى أبـدا من نكـال الأسـر في أيـدي العـدى
لـيس عـارٌ لا ولا فـي الليـل أن يتـوارى المـرء عـن خطـب بـدا»٩
قـال أوذيـس وبـالغيظ اشـتعل: «يـا أخـا العـي فمـا هـذا الملـل
لـك أولـى إمـرةُ الأنكـاس لا إمـرةٌ فـي الـبهم مـن كـلِ بطـلْ

شيخهم يبطش كالغض الشباب١٠

•••

زفـس قـد علمنـا سـل السـيوف بصـبانا وإلـى يـوم الحتـوف»١١

أبنـــا رمـــت ارتـــدادًا وتـــرى   بحمـــا إليـــون قتلانـــا ألـــوف

مــه فــلا يســمع ســوانا بــالفرق   نطــق عجــز مــا بــه قــط نطــق

لا أخُــــــو ذوقٍ ولا قيـــــلٌ ولا   قائـــدٌ مِثْلَـــكَ للحـــرب انـــدفق

جيشه الجرَّار كاللّب اللّباب١٢

•••

أإلـــى الـــيم نســـوق الأغربـــه   والـوغى للجـو أعلـى صـخبه١٣

إنمـــا الأعـــداء ذي منيـــتهم   ولـــئن فـــازوا بحكـــم الغلبـــه

فــإذا مــا نحــن باشــرنا العمــل   مــا الــذي يــدفع أهــوال الفشــل

وإذا الأجنــــاد مــــن خلفهــــم   أبصـــرونا وجلـــوا أي وجـــل

والتووا ... لا لا فما هذا الصواب»١٤

•••

قـــال أتريـــذ: «لقـــد كلمتنـــي   بمقـــالٍ فيـــه قـــد كلّمتنـــي١٥

أنـــا لا أرغـــم قســـرًا جنـــدنا   أن يســـوقوا راســـيات السُّـــفُنِ

فلـــيقم أيكـــم لا فـــرق إن   كـان غـض العمـر أو شـيخًا مسـن

ويوافينـــــا بـــــرأيٍ صـــــالحٍ   أتلقَّـــاه بقلـــب مطمـــئن»١٦

فانبرى يلقي ذيوميذ الخطاب:

•••

«ذونـك انظـر فهنـا المـرء المـراد   فاســتمعه إن تــرم قــول السَّــدادْ

لا يغيظـــنكم نصـــح فتًـــى   فبــه فخــرًا ســما فضــلُ الــتلادْ

فــأبى تيــذيس الشــهم الصــحيح   مــن لــه فــي ثيبــةٍ ســامي الضَّــريح

جــــدُّهُ فرثـــوس فـــي أفلورنـــا وكليـدونا حـوى الملـك الفسـيح

وبها مغناه بالإعزاز طاب

•••

ولـــــده أغـــــريسٌ ثـــم مـــــلاس وونـــوسٌ خيـــرهم عزمًـــا وبـــاس

ذاك جـــدي ظـــلَّ فـــي أوطانـــه وأبـى أرغـوس مـذ أَجلـي داس١٧

قـــدرٌ مـــن زفـــس والأربـــاب كـــان فلــــهُ تيــــذيسٌ بـــــالرَّغم دانْ

ثــــم فــــي غربتــــه تــــمَّ علــــى بنــت أدرســـت لـــه عقـــد القـــران

وثوى في منزلٍ زاهي الرحاب

•••

ملـك الأريـاف واحتـاز الحقـول خصـــبةً فيهـــا مواشـــيه تجـــول

وبهـــــز الـــــرمح مـــــا ماثلـــــه أحـــدٌ والحـــقَّ تـــدرون أقـــولْ

فـــإذا مـــا كنـــت بـــالفرعِ الضـــئيل لا ولا فـــي الحـــرب مهيابًـــا ذليـــل

ولـــــذا لا تحقـــــروا قـــــولي إن قلـــت للهيجـــاء فلنلـــق الســـبيل

ولئن ظلت دمانا بانسراب

•••

فالضـــرورات لهـــا حكـــمٌ عظـــيم إنمـــا عـــن موقـــف الطعـــن نقـــيم

بـــــاعتزال فيــــــه لا يـــــدركنا فـي الـوغى جـرحٌ علـى جـرحٍ ألـيم

نـــدفع الجنـــد ونـــدعو للمـــدد من هوى النفس به جبنًا قعد»١٨

فأصـــاخوا ووعـــوا حتـــى انتهـــى وجـــروا والقلـــب بـــالحزم اتقـــد

خلف أتريذ بقلبٍ لا يهاب

•••

إنمـا فوسـيذ عـن قـربٍ رقـب　　فحكـى شـيخًا جلـيلًا واقتـرب

وأغـاممنون وافـى قابضًـا　　يـده اليمنـى بـروَّاع الغضـب

قـال: «يـا أتريـذ آخيـل الحقـود　　فـرحٌ بالفتـك فـي بُهـم الجنـودْ

فليمـت وليضـمحلّنَّ علـى　　غيـهِ واعلـم فأبنـاء الخلـود

لم يسوموك قلي يولي العقاب

•••

سـوف يربـدُّ علـى السَّـهلِ الغبـار　　ببنـي الطـرواد يبغـون الفـرار»

ثـم مـن دونهـم انقـضَّ علـى　　هـدةٍ كالرعـد تشـتدُّ وسـار

بصـديدٍ صـاح مـن صـدر حديـد　　عـن وحـي تسـعة آلافٍ يزيـد

بـل وحـي عشـرة آلافٍ إذا　　صـدَّ يـوم الطّعـنِ درَّاعُ الحديـد

فالتظى الإغريق للحرب التهاب:

•••

من ذرى الأولمب عن عرش النضار　　نهضـت تلفـت هيـرا لـلأوار»١٩

فأخاهـا أبصـرت منـدفعًا　　وحبـورًا قلبهـا الميمـون طـار٢٠

ولإيـذا أرسـلت طـرف المهـا　　فـرأت زفـس الـذي ألّمهـا

فـرَّ معتـزًا علـى قنَّتـه　　فكّـرَت فـي هـاجسٍ كلّمهـا٢١

علها تغريه في أمرِ عجاب

•••

فارتـأت مـذ أعملـت فكرتهـا　　لتعـدَّن لـه زينتهـا

فــــإذا مـــا جاءهــــا مفتتنًــــا   بســــــناها أنفــــذت حيلتهــــا

وعلـــى عينيـــه إن تلـــق السـبيل   سـكبت روح السـبات المسـتطيل

ثـــم أمَّـــتْ غرفـــةً شـــادَ لهـــا   نجلهـا الصَّـانع هيفسـت النَّبيــلْ

لسواها قطّ لا يفتح بابْ

•••

فـــوق أبـــراجٍ علـــت أرتاجُهـــا   لا يـــرى إلا لهـــا مزلاجُهـــا٢٢

أقفلـت مـذ دخلـت ثـم خلـت   بطيــــوبٍ نفحهــــا وهَّاجهــــا

طهــــرت أعضــــاءها بــــالعنبر   ثــم بالزَّيــتِ العلــي الأذفــر٢٣

أرجٌ أيَّــــــان مســــــته يــــــدٌ   فــاح مــن قبَّــة زفــس الأكبــر

عابقًا في الأرض يسمو للسحاب

•••

وانثنــت تجــدل بــرَّاق الضــفور   بيـــديها بعـــد تســـريح الشـــعور

نظمتهــــــا حلقًــــــا هدَّابــــــة   فـوق ذاك الـرَّاس فتانًـا يـدور٢٤

وارتـــدت مســـبلةً بـــردًا رقيـــق   صـــنع آثينـــا بـــه وشـــيٌّ أنيـــق

بعـــرى العســـجد زرَّت وانثنـــت   لنطـــاق يشـــمل القـــد الرشـــيق

مئة أهدابه غُرٌّ العصاب

•••

ثـــم قـــرطين جمـــالًا شـــائقين   مهـــلًا ناطـــت بكلتـــا الأذنـــين

كــــل شــــنفٍ بيتيمــــاتٍ ثــــلا   ثٍ بـديع الصـنع غـض المقلتـين

ونقـــابُ الحســـن وهَّـــاج علـــى   رأسـها كالشـمس فـي جـوف الفـلا

ثـــم خفَّـــا أوثقـــت يســـطع فـــي كـــل رجـــلٍ بســـناها اشـــتعلا

وانبرت تبرز من طي الحجاب٢٥

•••

ثـــم عفردوذيـــت نادتهـــا إلـــى عزلـةٍ عـن كـل أربـاب العلـى٢٦

ولهـــا قالـــت: «أتصـــغين إذن أم تســـوميني ابنتـــاه الفشـــلا

حنقًـــا منـــي لإيثـــار الأخـــاء مـذ بنـي الطـرواد أوليـت الـولاء»

فأجابـــت: «كـــل أمـــرٍ رمتـــه كـــان مقضـــيًّا بطيـــبٍ ورضـــاءْ

إن يطق أو كان مما يستجاب»

•••

قالـــت الربـــة والحيلـــة قـــد أكمنـت: «إيـهٍ إذن منـك المـدد

لهـــب الشـــهوة والحـــب الـــذي بقلـوب الجـن والإنـس اتقـد٢٧

لأقاصـي الأرض أزمعـت ارتحـال لأوافـــي أبـــوي رهـــط الكمـــال

أوقيـــانوس وتيثـــيس اللذيـــ ـــن أشـبَّاني علـى كـف الـدلالْ

فعسى أرأبُ مصدوعَ الشعاب

•••

طـال عهـد الكيـد فـي بعـدهما واطـــراح الـــود فـــي حقـــدهما

لهمـــا مـــذ قبـــل ألقتنـــي ريـــا عنيـــا بـــي منتهـــى جهـــدهما

عنـــدما أقرونسًـــا زفـــس العظـــيم غل تحت الأرض والبحر العقيم٢٨

فـــإذا بـــاللين وســـدتهما وسـد الحب فلـي الفضـل العمـيم

وذرى الحظوى ومرعي الجناب»

•••

فأجابتهـــا ببشـــرٍ وابتســـام: «أو مِثلـــي لا يلبِّـــي ذا المـــرام

كيـــف لا يـــا ربـــةً زفـــس لهـــا بســـط الـــذراعين مفتونًـــا وهـــامْ»

ثـم حلّـت مـن على الصَّدر النطاق معلـــم الطـــرز موشـــى بانتســـاق

تعلـــق اللـــذات فـــي أكنافـــه مـــن هـــوى نفـــسٍ ووجـــدٍ واشـــتياق

وأطاريف الحديث المستطاب

•••

وبـــه مـــن كـــل خـــلاب الشـــعور منطـــقٌ يعبـــث بالشـــيخ الوقـــور

بيـــــد الرَّبـــــةِ ألقتـــــه وقـــــا لت ببشرٍ شفَّ عن بادي السرور:

«دونـــك الآن انتطـــاق المعلمـــا كـــل حـــرزٍ رمـــت فيـــه رُســـما٢٩

فعلـــى صـــدرك أخفيـــه فقـــد لاح لـي فـي الغيـب أن قـد حتمـا

لك بالإقبال من قبل الإياب»

•••

بســـمت هيـــرا لـــه مستبشـــره ثـــم ضـــمته وأمَّـــا الزُّهـــره

فانثنـــت تـــأوي إلـــى منزلهـــا ثـــم هيـــرا انبعثـــت منحـــدره

مـن ذرى الأولمـب كـالبرق تطيـر لإفيريَّـا علـى الـروض النضـير

فإماثيَّـــــا فـــــأطوادٍ بإثـــــ ـــراقةٍ فرســـانها الـــبهم تغيـــرْ

واكتست ثلجًا يغشيه الضَّبابْ

•••

كـــل ذاك البـــون طافتـــه ولـــم تطـــأ الأرض بوضَّـــاح القـــدم

وجــرت مــن شــم آثــوس إلــى حيــث يــم البحــر بــالموج الــتطم

بلغــت مــن بعــد تطــواف الــبلاد لمنسًــا حيــث ثــواس الفضــل ســاد

فبهــا قــرَّت بمــلء البشــر إذ لقيت فيها أخا الموت الرقاد. ٣٠

فتلقته بألفاظٍ عذاب:

•••

«يــا وَلــي الجــن والإنــس ومــن قد حباني الفضل في ماضي الزمن

زدنــــي الآن عليــــه منــــة تــولني للــدهر مــذخور المــنن

ألق لي في مقلتي زفس السُّبات إن على زندي بوجد الحب بات

ولـــك العهـــد إذا لبيتنـــي صــلةٌ مــن دونهــا غــرُّ الصــلات

من لباب التبر عرشٌ لا يعاب

•••

يُفــرغ الصــنعة فيــه والحكــم نجلـي الأعـرج هيفسـت الحكـم

ويليــــه مــــدوسُ تبســــطه زمــن الأدبــة مــن تحــت القــدم»

قــال: «مهــلًا» وحلــى النــوم لديــه «أي ربٍ شــئت أســتولي عليــه

ومجـــاري أوقيـــانوس الـــذي كــل شــيءٍ كــان منــه وإليــه ٣١

لي تعنو أبدًا دون ارتياب

•••

بيــد أنــي زفــس لا أولــي الكــرى أبــــدًا إلا إذا مــــا أمــــرا

حكمــةً علّمتنــي مــن قبــل مُــذ طرفــه الحــوَّاط طيفــي خــدَّرا

يــــوم إليــــون هرقــــل اكتســــحا ومضــــى يقلــــع عنهــــا فرحــــا

زفـس بـي أغفلـت حتـى تنزلـي بابنـــه القـــوَّام خطبًـــا فـــدحا

ثم هجت البحر فورًا باضطراب

•••

وهرقـــلٌ بـــين تبـــريحٍ وضـــيق حـلَّ قوصًـا لا يـرى فيهـا صـديق

فعلــى الأربــاب بــالغيظ التظــى زفـس لمَّـا هـبَّ فـيهم يسـتفيقْ

هــدهم هــدًّا ومــن دون الجميــع في اطلابي هاجه السخط الفظيع

كــاد يلقينــي مــن الجــو إلــى لجـة البحـر إلـى القعـر صـريع

إنما الظلمة حالت باحتجاب

•••

لـذت فيهـا وهـي حيـث الليـل قـر هابهـــا كـــل إلاهٍ وبشـــر ٣٢

فتـــروَّى زفـــس فـــي حدتـــه ورعـــى حرمتهـــا ثـــم غفـــر

أو بعـد الخبـر ذا رمـت المحـال» فأجابتــــه بــــدلٍ وجــــلال:

«أكــذا ظنــك غيظًــا يلتظــي ألــزفسٍ جــيش طــرواد تخــالْ

كابنه يدنيهم فضل انتساب٣٣

•••

إيــه قــم أعطــك زوجًــا تسـتباح بهجة إحدى الخريدات الصباح٣٤

تلــك ســعديك فســيثيا وكــم رمتهــا وَجْــدًا مســاءً وصــباح»

قــال يهتــز حبــورًا: «أقســمي لــي بإسـتكس الرَّهيــب الأعظــم

وضــعي كفيــك كفًّــا فــي الثـرى ثــم كفًّــا فــوق بحــرٍ مظلــم

يشهد الأيمان أربابٌ رهاب٣٥

•••

أن تعـــدي لـــي زوجًـــا تســـتباح بهجـةً إحـدى الخريـدات المـلاح

فتنيلينـــــــي فســـــيثيًّا التـــــي أتمنَّاهـــا مســـاءً وصـــباح»٣٦

أشـهدت تقسـم بـالحلف العظـيم حفـل أقـرونس أربـاب الجحـيم

جملــة الطيطــان والقــوم الأولــى رهطهـم فـي قعـر طـر طـارٍ يقـيم

أنَّها لم تؤتهِ قولًا كذاب٣٧

•••

ثــم طــارا تحــت أذيــال الغمــام وســـريعًا أدركـــا حـــد الختـــامْ

مــن علــى لمنــوس حتــى لمبــرو س إلـــى إيـــذا الينـــابيع العظـــامْ

فلدى لقطوس حيث الوحش ذاع غــادرا البحــر وســارا فــي البقــاع

وفـــروع الغـــاب مـــن وقعهمـــا قلقـت تـرتجُّ فـي تلـك البقـاع٣٨

وبتلك الغاب رب النوم غاب

•••

واختفـى عـن مقلتـي زفـس علـى أرزةٍ شـــمَّاء تعلـــو فـــي الفـــلا

حــل فــي مشــتك الأغصــان طيــ ــرًا رخـيم الصـوت يـأوي الجـبلا

قــد دعــاه الجِــنُّ خلقـيس العبـر وقمنـــــديس يســـــميه البشـــــر

رقيـــت هيـــرا أعـــالي غرغـــرو س وزفـــسٌ مـــن معاليـــه نظـــر

فلها وجدًا كيوم الوصل ذاب

•••

يــوم فــي الخفيــة عــن أمٍ وأب علقـــا حبـــا وفـــازا بـــالأرب

قال: «لم جئت وغادرت الألمـ ـب وأين الجرد» قالت:«لا عجب[39]
لأقاصـي الأرض أزمعـت ارتحـال لأوافـي أبـوي رهـط الكمـالّ

أوقيـانوس وتيثـيس اللذيـ ـن أشباني علـى كـفِّ الـدَّلالّ

فعسى ألأم مصدوع الشعاب

•••

طـال عهـد الكيـد فـي بعـدهما واطـراح الـود فـي حقـدهما

وعلـى مركبتـي أسـعى علـى الـ ـبر والبحـر إلـى رفـدهما

بيـد أنـي الجـرد أبقيـت لـدى سـفح إيـذامنك أبغـي المـددا

خـوف أن يأخـذك الغـيظ إذا خفيـةً أزمعـت أبغـي منتـدى

أوقيانوس إيابًا وذهاب»

•••

فلهـا ركـام غـيم الجـو قـال: «سوف تمضين فما ضاق الجال

إنمـا الآن بنـا هبـي إذن نتعـاطى حلـو لـذات الوصـال

قـطّ مـا أرقنـي حـرُّ اضـطرام مثلمـا حرقنـي اليـوم الغـرام

قـط مـا إن همـت فـي إنسـيَّةٍ قبـل أو جنيـةٍ هـذا الهيـام

لا أحاشي كل ربَّات النقاب

•••

لا أحاشـي زوج إكسـيون مـن ولـدت فيرثيسًـا رب الفطـن

أوذنيَّـا بنـت أكـريس التـي ولـدت فرسيُّسًـا فـرد الـزمن[40]

لا أحاشـي بنـت فيـنكس التـي ردمنثًـا ومنوسًـا ربَّـتِ

أو بشـبسٍ ألقمينـا الحسـن مـن حبلـت لـي بهرقـل القـوَّة

أو سميلا أم ذيون الشراب٤١

•••

لا وذيميتيـر مـا قـطّ بهـا همـتُ أولًا طونـةٍ ذات البهـا٤٢

لا ولا فـي حسـنك الفتـان مـا قـطّ كـاليوم فـؤادي ولهـا»

فأجابـت تكمـن الحيلـة: «هـل لوصـال الحـب فـي إيـذا محـل

أفمـا الـدنيا ترانـا علنًـا أولًا ربٌ رآنـا وقَفَـلْ

وديار الخلد بالأنباء جابْ

•••

أي دارٍ لـك آتـي أيَّ دار بعـد أن يلحقنـي هـذا الشـنَّار

إنمـا تعلـم هيفسـت ابنـك الـ ـصانع الحـاذق شـيَّاد المنـار

غرفـةً محكمـة الأبـواب شـاد لـك قامـت فـوق أركـان العمـاد

فـإلى سـترتها هـي بنـا إن يكـن لا بـد مـن هـذا المـراد

أكف في الخلوة فضاح المعاب»

•••

قـال: «لا تخشـى هنـا وشي رقيـب مـن بنـي الإنسـان أو ربٍ رهيـب

لأظلـن غمامًـا شـائقًا مـن نضـار دونـه الشـمس تغيـب»

ضـمها والأرض جـادت بـالربيع مـن خـزام نشـر ريَّـاه يـذيع

وحواشـي زعفـرانٍ كسـيت حنـدقوقًا بلـه الطـل البـديع

يتلالا تحت منثور الحباب

•••

بهمـا النـور عـن الأرض ارتفـع وغمـام التبـر بـالنور سـطع

وحبـاب القطـر مـن أكنافـه كحبـوب الـدر لـلأرض وقـع٤٣

فـأبو الأربـاب فـي ظـل النعـيم هكـذا ظـلَّ علـى إيـذا مقـيم

خامـد الحـس بـذرعي عرسـه بهجـوعٍ وغـرامٍ فـي نظـيم

رطب أزهارٍ علت بسطًا رطاب٤٤

•••

ولميـدان الـوغى عـذبُ الكـرى جـد للأسـطول ينمـي الخبـرا

ولفوسـيذ دنـا قـال: «أيـا ملكًـا زعـزع أركـان الثـرى

كلـل الإغريـق بالمجـد الخطيـر وابـل مـا شئت ولـو حينًـا يسـير

خلبـت هيـرا نُهـى زفـس وفـي قربهـا يهجـع بـالطّرفِ القريـرْ

وعلى جفنيه طلى بانسكاب»

•••

ثـم جـد السـير يسـعى فـي الـورى وانبرى فوسيذ في صدر السُّرى٤٥

صـاح مشـتدًّا علـى شـدَّتهِ: «أأخـائيين مـا آهًـا أرى

ألهكطـور نتـيحن الظفـر يحـرز الأسـطول والمجـد الأغـر

تلكـم منيتـهُ اغتـرَّ بهـا مـذ رأى آخيـل بالحقـد استعر

وعن الهيجاء أمسى باجتناب

•••

قـط مـا منـآه أولانـا البـوار إي نعـم لـو كلنـا كـلٌ أثـار

فأصـــيخوا الآن طـــرًّا وانهضـــوا يحمـــل الكبَّـــار أجوابًـــا كبـــار
تسـطع الخـوذات فـي هامـاتهم وطـوال السـمر فـي راحـاتهم
وأولـو العـزم الأولـى جنـاتهم صـغرت فلينبـذوا جنـاتهم٤٦
للأولي يثقلهم هول الصعاب
•••
فـاتبعوني واحملـوا طـرًّا فـلا صـدَّنا هكطـور مهمـا اشـتعلا»
فأصـاخوا جملـة وانقـض فـي إثـره للحـرب رهـط النـبلا
وذيوميـذ وأوذيـس الفـلاح وأغـاممنون فـي دامـي الجـراح
رتبـوا الجنـد ومـا أقعـدهم دمهـم بـل وازنـوا حمـل السـلاح
وبهم جابوا يعبُّون العيابْ
•••
فبـدا ذو الطـول بالحمـل الكثيـف وضـعيف العـزم بالثقـل الخفيـف
وبلـوا شـكتهم حتـى إذا وازنوهـا انـدفعوا الـدفع العنيـف
صـدرهم فوسـيذ فـي راحتـه عامـلٌ كـالبرق فـي حدتـه
لـيس مـن كـفءٍ يلاقيـه بـه بـل تـراع الخلـق مـن رؤيتـه
إنما هكطور لم يبغ انسياب
•••
كتـب الطـرواد مشـتد النـداء مثلمـا فوسـيذ نـادى بـالبلاء
فكـلا القـرمين قـوَّام فـذا بـين طـروادٍ وهـذا فـي الأخـاء٤٧
زحـف الجيشـان والبحـر اصـطفق قاصفًا والجيش بالجيش التصق٤٨

ولـــدى عجهـــم عـــجُّ العبـــا ب إذا المـوج على الجـرف انـدفق

بشمالٍ لم يكن طيَّ الحسابْ

•••

لـم تكـن فـي جنـب هـذات الفـرق عنـدما الكـلُّ علـى الكـلِّ انطلـق

تـــذكر النيـــران فـــي زهزمـــةٍ حـين بطـن الغـاب بالشـم احتـرق

لا ولا صَهْصَـــلقُ الـــريح اكتنـــف باسـق الملـول مـن كـل طـرف٤٩

فـــالتقى الجمعـــان فـــي صـــدرهم واثبًـــا هكطـــور بـــالرمح قـــذف

لأياسٍ مذ إلى ملقاه آب

•••

نشـــب الـــرمح بقلـــب المحملـــين حيـــث بالصـــدر اســـتطالا ضـــخمين

محمـــلٌ للتـــرس لاقـــى محمـــلا لحســـامٍ بحرابـــي اللجـــين

وقيـــاه شـــرَّ تلـــك الطعنـــة والتـــوى هكطـــور بـــادي الخيبـــة

يتقـــي فـــي قومـــه هـــول الـــردى وأيـــاسٌ بـــأبي الهمَّـــة

إثره انقضَّ كخطّاف الشهاب

•••

ولجلمـــود مـــن الصـــخر عمـــد من صفًا بدِّدَ في تلك الجدد٥٠

(بعضـه قـد ظـل مـا بـين الخطـى وأقـــيم الـــبعض للفلـــك ســـند)

فرحـــاه فمضـــى وهـــو يثـــور مثلمـــا دوَّامـــة الوغـــد تـــدور٥١

وعلـــى جنـــة هكطـــور لـــدى عنقـــه فـــي صـــدره أهـــوى يمـــور

فهوى منقلبًا أي انقلاب

•••

فكمـــا ملولـــة الطـــود اقتلـــع زفـــس والأنـــواء بـــالعنف دفـــع

وفشـا مـن حولهـا الكبريـت فـي صـادع الريحـة والعـجُّ ارتفـع٥٢

وقلـــوب النـــاس فـــي جيرتهـــا خفقـــت رعبًـــا لـــدى رؤيتهـــا

هكـــذا هكطـــور فـــي ســـقطته أفلـــت الصـــعدة مـــن شـــدَّتها

والتوى مستلقيًا فوق التراب

•••

ظلـــت الخـــوذة والتـــرس لديـــه وصـــدى شـــكته صـــلَّ عليـــه

وبنـــو الإغريـــق فـــي نعـــرتهم هرعـــت أفـــواجهم تجـــري إليـــه

بغيـــةً أن يظفـــروا فيـــه وقـــد أمطـروا الأســهم تهمـي كـالبَرَد

إنمـــا لـــم يـــدركوا بغيـــتهم إذ سـعى كـالبرق يؤتيـه المـدد

نخبة الطرواد والغر الصحاب

•••

أسـبلوا مـن حولـه صـلد المجـان ووقـــوه هـــول هطـــال الطعـــان

بيـــــنهم فوليـــــدماسٌ وكـــــذا آنيـــاسٌ وغلوكـــوس الجنـــان

ثـــم ســـرفيدون قـــوَّام بنـــي ليقيـــا ثـــم أغينـــور السَّـــني

حملـــوه حيـــث ظلـــت جـــرده فـــي ذرا عـــن قـــرع تلـــك الجـــنن

وإلى إليون ساروا باكتئاب

•••

فعلـــى مركبـــةٍ فيـــه تســـير حملـــوه وهـــو مشـــتد الزفيـــر

وأتــوا شــفَّاف زنــث الملتــوي بمجــارٍ صــبَّها زفــس القــدير
وضــعوه ثــم والمــاء الــدفاق بــاردًا صــبُّوا عليــه فأفــاق
وجثــا يفــتح عينيــه ومــن دمــه الأســود قــيءٌ وانــدفاق
جاريًا من فيه ينصبُّ انصباب
•••
ثــم فــوق التُّــرب مغشــيًّا عليــه خــرَّ والظلمــة غشَّــت مقلتيــهْ
صــدمةٌ مــا ارتــاح مــن صــعقتها زمنًــــا إلا لتـــــوهي ركبتيــــه
وبنــو الإغريــق مــذ هكطــور راح هــاج فــي ألبــابهم وجــد الكفــاح
وابــن ويلــوس أيــاسٌ كــرَّ فــي عامــل ثقــف مــن شــهبِ الرمــاح
كعبه يهتز في صدر الكعاب
•••
شق ذاك الرمح من تحت الكتف خصــر قــرم بســتنيوس عــرف
أمُّــه الحــوارء نــاييس التــي لأنــوف قبــل كانــت تزدلــف
راودتــه حــين وافــى قــدمًا جــرف ســتنيويس يرعــى الغنمــا
ونتــاج الحــب ذيــاك الفتــى رمــح آيــاس حشــاه اخترمــا
وحواليه اختضامٌ واختضاب
•••
فجــــرى فوليـــدماسٌ وأطـــار عــاملًا صــلدًا لأخــذ الثَّــار ثــار
فعلــــى كاهــــل إفروثــــونرٍ غــاص يلقيــه مغشَّــى بالغبــار
صــرخ الظــافر والفخــر انتحــل: «لـم يطش رمح ابن فنثوس البطل

شـق مـن قلـب العـدى قلـب فتـى موكئًــا يلقيــه أيــان ارتحــل

لمثاوي صرح آذيس الرحاب»**٥٣**

•••

فـالتظى الإغريـق مـن هـذا النعيـر سـيَّما الفتَّــاك آيــاس الكبيــرْ

دونــه خــرَّ الفتــى فــانقضَّ فــي طلــب القاتــل بــالرمح الشــهير

فـــالتوى فوليـــدماسٌ ونجـــا ولأرخيلـــوخ فـــورًا عرجـــا**٥٤**

خـــرق البأديـــل مـــن مفصـــله وبقلـــب العظـــم فيـــه أولجـــا

قاضبًا أعصابهُ شرَّ اقتضاب

•••

خـــر والهامـــة قبـــل القـــدم لخضـيب التـرب أهـوت ترتمـي

وأيـــاسٌ صـــاح فـــي نعرتـــه: «يـا ابـن فنشـوس المليـك الأعظـم

قـــل ألـــم أفتـــك بعلـــجٍ أكبـــر كـان كفـوء ابـن أريليـق الجـري**٥٥**

إي نعـــم مـــا لاح لـــي إلا فتًـــى عـــالي الهمَّـــة ســـامي المعشـــرِ

ولأنطينور يدنيه اقتراب

•••

فهـو لا شـك ابنـه القـرم البطـل أو أخـوه الشـهم ثقَّـاف الأسـل»

قـــال مـــا قـــال أيـــاسٌ عالمًـــا قبـل ذاك القـول مـن كـان قتـل

فحشـى الطـرواد بالبـث التهـب وأخـــو الميـــت كامـــاس وثـــب

ورمـــى يـــردي فرومـــاخ الـــذي جثَّـةَ المقتـول قـد كـان سـحب

ثم نادى بأساليب السباب

•••

«يا بنـي الإغريـق حـذَّاف النبـال وأولي الـدعوى غـرورًا واختيـال٥٦

لـم تكـن كـل المنايـا سـهمنا فلكـم منهـا نصـيبٌ ومنـال

أفمـا خلـتم فرومـاخ السـري بعـد أرخيلـوخ بـالحتف حـري

أفمـا كـل امـرئ مـنكم صـبا لأخٍ مـن بعـده مثَّئـر

أبدًا مرتقبٍ قطع الرقاب»٥٧

•••

حـرق الإغريـق ذيَّـاك الفخـار سـيَّما الملـك فنـيلاس فثـار

وأكامـاس رمـى لكـن أكـا مـاس ولّـى يبتغـي سـبل الفـرار

فبـإليونيُّس الـرُّمح صـدر فـرع فربـاس الوحيـد المـدَّخرْ

مجتبـى هـرمس فـي طـروادةٍ مـن حبـاه بغنـيمٍ وبقـر

وعليه هال موفور الرغاب

•••

خـرق الحاجـب والعـين قـذف وبلـب العظـم فـي الـرَّاس وقـف

خـرَّ للتـرب يديـه باسـطًا وفنـيلاس انتضـى السـيف وخـف

قطـع الهامـة فـي خوذتهـا فهـوت والـرمح فـي مقلتهـا

وحكـت فـي كفـه خشخاشـةً قطعـت تجتـثُّ مـن منبتهـا

قال يعليها على ذاك النصاب

•••

«أصـدقوا طـرواد هـول الخبـر والديـه يـذرفا الـدمع الـذري

مثلمـــا عـــرس فرومـــاخ إذا　　آبــت الإغريــق بعــد الظفــر

لا تــراه ســار حــين الجــيش ســار　　وبــه تحظــى بهاتيــك الــديار»

نظــر الطــرواد مــن حــولهم　　يبتغــي كــلٌ ســبيلًا لقــرار

ثم ولوا بارتعادٍ وارتعاب

•••

يــا بنــات الــرب زفــس مــن علــى　　قمــة الأولمــب يشــهدن المــلا

لــي فقلــن الآن مــن خلتنــه　　بيــنهم شــق الصــفوف الأولا

مــذ إلــى الإغريــق إبَّــان النــزال　　كِفَّــة الرجحــان فوســيذ أمــالْ

ذاك آيـــاس علـــى هـــرتيس　　فــرع غرتيَّــاس بالبــدء اســتطال

والمسيُّون عليه بانتحاب

•••

ثـــم أنطيلـــوخ فلقـــيس قتـــل　　وعلــى مرميــرس الهــول حمــلْ

ثـــم مريـــون مريسًـــا وكـــذا　　هيفتيـــون بحـــد الســـيف فـــلْ

ثـــم طفقيـــر فريفيـــت ضـــرب　　وفروثـــوون واحتـــاز الســـلب

ومنـــــــيلا رام هيفيرينـــــــرا　　ومــن الشــاكلة الجــوف اقتضــب

فمن الجرح هوت روح المصاب

•••

إنمــا أعــدى فتــى بــين الســرى　　لــم يكــن إلَّا أيــاس الأصــغرا

كــر فــي إثــر العــدى مســتقبلا　　جيشـــهم فاجتاحـــه مســـتدبرا

حيثمــا خفــت خطــاه أدركــا　　طالــب النجــوى وفيــه فتكــا

خـــرَّت الـــدرَّاع فـــي كراتـــه تترامـــى مـــن خمـــيس هلكـــا
سامه زفس انخذالا وانقلاب

هوامش

(١) غسل النساء للرجال ووقوفهن في خدمتهم أثناء استحمامهم من جملة ما اتخذ قدماء اليونان من عادات الأشوريين وغيرهم من ملل الشرق، ولقد أكثر هوميروس من ذكر ذلك في الأوديسة، وهو على ما يظهر من غرابته عادةٌ لا تزال مألوفة في أطراف البلاد الشرقية؛ كإيران والهند وبعض البلاد العثمانية، وقد شاعت لعهد قريب في قلب البلاد الأمريكية فإن في مدن منها؛ كشيكاغو ونيويورك تقوم الدالكات من النساء مقام الرجال في بعض الحمامات المعروفة بالحمامات التركية، وليس هذا بأغرب من عادة سقطت من أوروبا منذ نحو قرن، حيث كانت عقائل الفرنسيس وفتياتهم يتخذن غلمانًا يلبسونهن ملابسهنَّ، أما الآن فقد اقتصرن منهم على المزينين والضافرين عوضًا عن المزينات والضافرات.

(٢) هذا نسطور الحكيم يتدبر كل شأن، ولا يلهيه شيءٌ عن شيءٍ فهو بحنانه، يعطف على مجاريح الزعماء ويعني بأمرهم، وبثاقب فكرته وسابق اختياره يتأمل في وسيلة لتفريج الأزمات ودفع النكبات. وهو على هرمه لا يقعده العجز والضعف عن خوض الصفوف وورد

الحتوف، فبعد أن أمن على حياة ماخاوون تدرع ببقية بأسه، واندفع اندفاع الفتى اليافع ولم يَهله ثقل ترس ترسيميذ ابنه فعدا به إلى الباب متطلعًا، ثم انطلق انطلاق المستبسل على ما — سنرى — كل هذا من بدائع متممات الخطة التي اختطها هوميروس لنفسه بأن يجعل الرسم مصداق المرسوم بكلياته وجزئياته.

(٣) لا صورة بين صور الطبيعة بجملتها أوقع في النفس من هذه الصورة؛ لوقوف الحائر المتردد بين أمرين قبل التعويل على أحدهما، فصدر المتردد أو فكره كبحر، اكفهر الجو فوقه قبل أن تعبث به الأنواء، فيربد ويسود مرتجا غير متجه إلى وجهة معلومة إلى أن تهيجه العاصفة، فتجري به أمواجه على مجراها، وفي منظومات شعرائنا من وصف حالة المتردد الحذر شيءٌ كثير كقولهم:

كريشة في مهب الريح ساقطة ... لا تستقر على حال من القلقِ

وقول مضرس بن ربعي:

كأن على ذي الظن عينًا بصيرة ... بمنطقه أو منظرٍ هو ناظره

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم ... من الخوف لا تخفى عليه سرائره

على أنه ليس في شيء منها يقاس بتشبيه هوميروس.

(٤) المراد بالرشاش انهيال النصال إشارة إلى اشتداد القتال.

(٥) الكباش: الأبطال، أي: إن نسطور تردد بين أن يلحق بأغاممنون، وهو جريح كما مر بك في النشيد الحادي عشر، أو يقصد الجند حيث حمي وطيس الحرب فعول على اللحاق بأغاممنون كما سيأتي.

(٦) الجنات: التروس. والذباب: الحد.

(٧) لا ينسب أغاممنون كشفة قومه لضعف وعجز فيهم، أو لشدة وبطش في أعدائهم بل لامتناعهم عن الإبلاء حقدًا عليه لتحامله على أخيل، وهو تخلص حسن من تبعة الفشل، وتصرف أحسن من الشاعر إذ يرسم حينًا بعد حين في ذهن المطالع عظمة أخيل وسمو مكانته.

(٨) يشير نسطور عليهم باعتزال القتال وتدبر الأمور في خلوة؛ لأنهم لما كانوا جميعًا جرحى كانوا أصلح لبث الرأي والتشاور منه لخوض ميدان القتال.

(٩) ليس في شعر فرسان العرب ما يشير إلى إيثار الهزيمة على الأسر، واستحسان الفرار في مثل هذا الموقف إلا أن يكون القول ممن وصف بالجبن، ولم تسبق له سابقة بخوض ميادين القتال، وأكثره على سبيل المجون كقول أبي دلامة:

ألا لا تلمنـــي أن فـــررت فـــإنني   أخـــاف علـــى بطيختـــي أن تحطمـــا

فلـو أنني أبتـاع في السـوق مثلهـا   وجـــدك مـــا باليـــت أن أتقـــدما

ومنه قول الآخر:

يقــول لــي الأميــر بغيــر علــم ... تقــدم حــين جــد بنــا المــراسُ

ومــالي إن أطعتــك مــن حيــاة ... ومــالي غيــر هــذا الــرأس راسُ

وأما ما قيل في وجوب التروي وعدم محاولة المحال فكثير كقول ورد بن زياد:

وإذا تـوعر بعـض مـا تسـعى لـه ... فاركب من الأمر الذي هو أسهلُ

ومثله قول بعض بني الحارث بن كعب:

لعمرك ما صبر الفتى في أموره ... بحتم إذا ما الأمر جلَّ عن الصبر

وقول عمرو بن معدي كرب:

إذا لــم تســتطع شـيئًا فدعــهُ ... وجـــاوزه إلـــى مـــا تســـتطيعُ

وقول عمرو بن ضبيعة:

ألا ليقـل مـن شـاء مـا شـاء إنمـا ... يلام الفتى في ما استطاع من الأمر

لما فتح نسطور باب البحث، كان من الحكمة أن يكون أغاممنون أول خاطب فيهم، فشرع في التملص ثانية من تبعة الفشل وألقاها هنا على عاتق زفس، ثم أبدى رأيًا لا يسعني مع كل إعجابي بشعر

صاحبنا أن أستحسن إيراده هنا، لأنه سبق له إبداء مثل هذا الرأي مرتين في النشيد الثاني والنشيد التاسع، فإن كل مراده التواري عن وجه العدو فهو غير جديد به وإن كان استجلاء ميل أصحابه، ففي ما مر ما يغني عن الإعادة، ولا أرى وجهًا لدفع ضعف القول إذا كان لا بد من دفعه إلا أن يكون قاصدًا أن موقف الزعماء مختلف هنا عن سابق مواقفهم؛ إذ كانوا قبلًا بعافيتهم وسلاحهم، وهم الآن مصابون بجراح برحت بأجسادهم وأنهكت قواهم، فهم أقرب إلى اليأس منه إلى البأس.

(١٠) قال لبيد:

فبنى لنا بيتًا رفيعًا سمكه ... فما إليه كهلها وغلامها

ومثله قول السموأل:

وما قل من كانت بقاياه مثلنا ... شباب تسامى للعلى وكهولُ

وقال حاتم بن سحيم وأجاد:

ألا هل أتى أهل العراق مناخنا ... نقسم بين الناس بؤسي وأنعما

بأبيض معقود به التاج ماجد ... وفتيان صدق لا يهابون مقدما

ونضرب صنديد الكتيبة في الوغى ... وتركب أطراف الرماح تكرُّما

ومثله قول عمرو بن كلثوم:

نصبنا مثل رهوة ذات حد ... محافظة وكنا السابقينا

بشبانٍ يرون القتل مجدًا ... وشيبٍ في الحروب مجربينا

وأمثال ذلك كثيرة.

(١١) قال النابغة الجعدي:

وإنـا لقـومٌ مـا نعـود خيلنـا إذا مـا التقينـا أن تحيـد وتنفـرا

ولـيس بمعـروف لنـا أن نردهـا صـحاحًا ولا مسـتنكرًا أن تعقـرا

(١٢) أي: كله صفوة شجعان.

(١٣) الأغربة: جمع غراب. السفن والصخب الجلبة.

(١٤) لعل الشاعر وطأ بذلك الضعف في كلام أغاممنون لهذه الشدة في كلام أوذيس، ثم لا تفوتن القارئ الحكم التي أنطق بها أوذيس، ولم تكن تصلح لسواه، فكلهم مغوار باسل، ولكن شتان بين بسالة وبسالة، ففتاهم يندفع إلى القتال حبًّا بالقتال، وكهلهم الحكيم كأوذيس يتحمس حماسة الفتيان ولكنه يبني كل أعماله على الحكمة والتروي، كما رأيت فلا يأمر بالتثبت إلا لعلمه بسوء مصير الإدبار في مثل ذلك الحين.

(١٥) كلمتني الأولى بمعنى جرحتني.

(١٦) قال أفستاثيوس: إن ذلك من قبيل عادة كانت لقدماء الأثينيين؛ إذ كانوا لدى اشتداد الأزمات ينادي مناديهم فيدعو كل أبناء

الوطن من أي فئة كانوا ومهما كان سنهم إلى إبداء رأيهم بلا تكلف ولا محاذرة.

(١٧) يشير هوميروس في الشطر الأخير من هذا البيت إلى رواية كانت شائعة في زمانه، وهي أن تيذيس أبا ذيوميذ قتل أحد إخوته ثم غادر بلاده فارًّا إلى أرغوس، على أن الشاعر لطف الهزيمة فعبر عنها بالجلاء وأغفل ذكر القتل على الإطلاق، وهو من لطيف تصرف الأبناء في ذكر مساوئ آبائهم، ثم جعل ذيوميذ ينتحل لأبيه عذرًا في البيت التالي بإلقاء عبء الأمر على القضاء والقدر. قال ثوبة بن المفرس الخنوت:

تجوز المصيبات الفتى وهو عاجزٌ ويلعب صرف الدهرِ بالحازمِ الجلدِ

وقال ابن الرومي:

طامن حشاك فان دهرك موقعٌ بك ما تخاف من الأمور وتكره

وإذا حذرت من الأمور مقدرًا وفررت منه فنحوه تتوجهُ

(١٨) لم يفت المتقدمين أن يخطئوا هوميروس على إدراج مقدمة لخطاب ذيوميذ، زعموا أنه لم يكن لها باعث؛ إذ كان كلهم عالمًا بحسبه ونسبه، وهو لا شك أمر غريب لو جرى من شاعر في هذا العصر على أنه لم يكن منه بدٌّ في تلك الأعصار، حيث كانوا يرددون ذكر أنسابهم ووقائع آبائهم وأجدادهم في كل حديث، فهي محط فخارهم

وفكاهتهم في كل مكان؛ سواءٌ في ذلك أكانوا في ساحة القتال أم في مناضلة وجدال أو في مسامرة ومشاورة لا يكل راويها، ولا يمل سامعها فكأنما غذوها مع اللبن فألفوها بل شغفوا بها، وهو شأن أكثر الأمم في زمن جاهليتها وأبان شبوبيتها، ألا ترى أن شعرنا الجاهلي لا تكاد تخلو منه قصيدة من هذه الأقاصيص وتلك الحماسة، وهذا شعر السموأل والشنفري وأصحاب المعلقات وأمثالهم مشحونة بمثل هذه الحماسيات، وإليك منها مثالًا من معلقة عمرو بن كلثوم:

ورثنـا مجـد علقمـة بـن سـيفٍ أبـاح لنـا حصـون المجـد دينـا

ورثـت مهلهـلًا والخيـر منـه زهيـرًا نعـم ذخـر الـذاخرينا

وعتابًـا وكلثومًـا جميعًـا هـم نلنـا تـراث الأكرمينـا

وذا البـرة الـذي حـدثت عنـه بـه نحمـى ونحمـي المحجرينـا

ومنـا قبلـه السـاعي كليـبٌ فـأي المجـد إلا قـد ولينـا

ثم إن لذيوميذ باعثًا آخر على إيراد نسبه، فإنه لما بدأ نسطور فاقترح البحث وعقبه أغاممنون فأبدى رأيًا لم يستحسنه أوذيس فاستأنف أغاممنون الكلام، كان من الجدير به أن يستفز ذيوميذ؛ لأنه شعر بميل نسطور وأوذيس، ولم يعلم بعد ما يكون من ميل ذيوميذ فتكلم وعرَّض تعريضًا يشعر منه أنه يود أن يسمع رأي ذيوميذ، وإلا فلم تكن ثمة حاجة إلى قوله:

فلـيقم أيكـم لا فـرق إن كـان غـض العمـر أو شـيخًا مسـن

ولما كان ذيوميذ موقنًا بصحة رأيه، وإن كان أصغرهم وطَّأ لحديثه توطئة حسنة بالإشارة إلى سمو نسبه؛ ليكون كلامه أوقع في نفوسهم، فلا يأنسون الحطة من الاستكانة إلى فتى حديث السن، فقضى الشاعر فرضًا ساميًا وتكلم بلسان الجميع، وأفاد المطالع فائدة كبرى؛ إذ أوضح له أنه لا يُستخف بالرأي الأصيل وإن كان صادرًا من غير أهله بين أهله، ذلك على حد قولنا: لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال.

(١٩) لقد مرت بك أساليب وأعاجيب يتفنن الشاعر في تغيير المناظر واستهواء المشاعر تفكهة لسامع شعره، واستجماعًا لأساطير زمانه، ووصف الخلق، والخُلق وتميل العلويات والسفليات، وفي الجملة لوصف كل ما يدركه الحس وتشعر به المخيلة، على أنه ليس في كل إنشاده أسطورة أعجب وأغرب من الحكاية الآتية، وهي على ما فيها من دقيق التصور الذي تحار له الألباب لم تخلُ من انتقاد حساد هوميروس، ولكن غاية ما آخذوه به أن الرواية غير معقولة، فهي كثيرة الأغراب بمعانيها بعيدة الاحتمال، كأن سائر خرافات الأولين مبنية على النص المعقول، ومهما يكن من محل هذا الانتقاد وسواء كانت حكاية هيرا وبعلها زفس من مخترعات الشاعر، كما يزعم البعض، أو من روايات أزمان متقدمة على زمانه، كما ثبت في الأثر، فإن فيها فضلًا عن المحاسن الشعرية كنزًا من فلسفة الأخلاق وأثرًا تاريخيًّا لأمور كثيرة يعسر الاطلاع عليها في غيرها، ولا أظنني مخطئًا بجعلها على علاتها في

المقام الأول بين كل أقاصيص شاعرنا غير مستثنٍ سوى وداع هكطور لامرأته في النشيد السادس.

(٢٠) قوله: أخاها، أي: فوسيذ نصير الإغريق.

(٢١) كلمها بمعنى ألمها، أي: إنه لما أعيت الحيلة هيرا باستمالة زفس إلى جانب الإغريق، ويئست من إعلاء شأنهم بقوة السلاح عمدت إلى سلاح الضعيف، ألا وهو الحيلة التي يغل بها ذراع المرأة الضئيل عضلات سواعد الرجال.

(٢٢) الارتاج: الأبواب. والمزلاج: القفل.

(٢٣) جعلنا العنبر تعريب إمبروسيا (Αμβροπχ) لتشابه اللفظتين وتقارب مدلولهما، والكلمة اليونانية مؤلفة من كلمتين معناهما عديم الموت، أي: الخالد والأصل في استعمالها للدلالة على طعام الآلهة، لا يموت آكله ولو كان حيوانًا كالخيل السماوية، ثم تُوسع في استعمالها للدلالة على طيب الآلهة، ومواد أخرى مما يستعمله بنو الخلد، ولعل للكلمة العربية علاقة باللفظة اليونانية لما بينهما من الشبه– يستفاد من هذا البيت أن عادة التطيب كانت مألوفة بين اليونان، وسترى من تطييب ملابس أخيل في النشيد الثامن عشر أنها لم تكن منحصرة بالنساء، وقد كان ذلك شأنها في جميع أمم الشرق، ومن أمثال سليمان الحكيم: «إن الدهن والبخور يفرحان القلب». وللعرب في الجاهلية والإسلام شغفٌ عظيم بالطيب وتفننٌ باستعماله. قال امرؤ القيس:

إذا قامتـا تضـوع المسـك منهمـا نسـيم الصـبا جـاءت بريـا القرنفـلِ

وقال أيضًا:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضـحى لـم تنتطق عـن تفضـلِ

ومن قول المرار بن منقذ:

وهــي لــو يعصــر مــن أردانهــا عبــق المســك لكانــت تنعصــر

وقال الأخطل:

كأنمـا المسـك يهبـو بـين أرجلنـا ممـا تضـوع مـن ناجودهـا الجـاري

والنساء البدويات في الجاهلية كن يتطيبن وتدَّخّر كل منهن قشوة طيب، وهي قفة من خوص تجعل فيها أداتها وتحملها معها، وكانت الطيوب من مواد متنوعة؛ كالمسك، والعنبر، والمر، واللبان، والأفاويه العطرية مما يستورد من بلاد الهند، أو يستنبت في اليمن وأفخر طيوبهم الغالية، وهي مزيج من أنواع مختلفة، قال الأبشيهي في المستطرف: قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم»، وذكر المقريزي: «إن خلفاء الفاطميين كانوا يصرفون لبعض رجال دولتهم مبلغًا من الطيب يوميًّا حتى يتطيبوا به قبل دخولهم على الخليفة»، وأورد صاحب الأغاني أسماء بعض المولعين بالطيب كمحمد بن أبي العباس قال: «كان يغلف لحيته بأوراقٍ من الغالية، فتسيل على

ثيابه فتصير مسمرة، فلقبه أهل البصرة أبا الدبس». وروي عن ابن عباس أنه كان يطلي جسده، وكان ابن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب رائحته، وبلغ حب التطيب من العرب أنه جرت للبنات عادة بالوقوف للفتيان وبأيديهن الخلوق، أي: الطيب يخلقنهم به، أي: يطيبهم عند رجوعهم من الغزوات.

(٢٤) ترى من وصف ضفر الشعر في هذين البيتين أنه لم يكن يختلف عنه كثيرًا في أيامنا، وكانت نساء العرب في الجاهلية يجمرن شعرهن، أي: يجمعنه ويعقدنه في قفاهنَّ، ويرجلنه، أي: يسرحنه ويضفرنه غدائر وذوائب، ولا يزلن يفعلن ذلك في البادية، ويغلب عندهن أن تستر المرأة شعرها بمنديل ونحوه. وأما العذارى فلا يحرجن على ستر الشعر بل كثيرًا ما يبرزنه، ولا سيما القصَّة وهي طرَّة تقص من المفرق وتبرز فوق الجبين، وأحسن ما وصل إلينا من وصف شعر النساء بمثل ما وصفه هوميروس قول امرئ القيس في معلقته:

وفرعٍ يزين المتن أسود فاحمٍ ... أثيث كقنو النخلة المتعثكلِ

غدائرها مستشزراتٌ إلى العلى ... تضل العقاص في مثنًى ومرسلِ

قال: إن شعرها يزين ظهرها إذا أرسلته عليه، ثم شبهه بعذق النخلة؛ لأثاثته وكثافته وربما أراد به فوق ذلك تجعدهُ، وقال: إن غدائر ذلك الشعر أو ضفائره مستشزرة، أي: مرتفعة إلى فوق بما يفيد شدها كجاري عادتهن بخيوط على الرأس، وأن العقاص، أي: تقاصيب ذلك

الشعر تغيب في شعر بعضه مثني على الرأس وبعضه مرسل على الظهر لوفرته.

(٢٥) هذه ربةٌ بل زوجة تتهيأ لاختلاب لب بعلها توصلًا إلى قضاء وطرٍ تسعى إليه، فهي إذن تبرز مستكملة لديه جميع معدات الزينة، ومع هذا فقد رأيت أنها بعد أن تطيبت لم تتجاوز من الحلي الشنوف، ومن الكساء البُرد والبرقع والنطاق، مع ما فيها من الوشي والحاشية، ولا يزيد على ذلك إلا الخف الخفيف، ولو كان في ما يستحب من حلي النساء وملابسهنَّ شيءٌ فوق ما ذكر لما أغفل هوميروس ذكره، فيتضح مما تقدم أن بذخ المشارقة من البابليين ومن جاورهم، والمصريين ومن خالطهم من اليهود، وغيرهم لم يفشُ وباؤه في بلاد اليونان إلا في ما ولي عصر هوميروس، برزت هيرا عطلًا حتى من حلي بنات البادية الجاهليات، فما هي بالمتختمة بإصبعها ولا سوار في ساعدها، ولا معضد في معصمها، ولا حجل في رجلها، ولا خلخال، وليس في عنقها قلادة، ولا خزام في أنفها، ولا كحل في عينيها، ولا وشم في وجهها وصدرها ويديها، وليس لديها حقاب تجمع فيها حليها، وما يتبعه من أدوات الزينة، ولا يثقلها شيءٌ كثير مما كانت تتأنق به بنات إسرائيل من الخلاخل، والأهداب، والأهلة، والنطفات، والأسورة، والرُّعل، والعصائب، والمصاعيد، والمناطق، وآنية الطيب، والأحراز، والخواتم،

وأخراص الأنوف، والخلع، والعطف، والمحازم، والأكياس والوذائل، والأقمصة، والتيجان، والأزر (اشعيا – ٢٣).

ومما يستلفت النظر أن هوميروس لا يذكر المرآة كأن المراءِ لم تشع بين اليونان إلا بعد حين، ثم انتشرت ذلك الانتشار العظيم في كل صقع وناد، حتى لم يكن بخلو منها خدر ولا خباء في بادية العرب، وتغنى بها شعراء الجاهلية، قال سويد بن أبي كاهل اليشكري:

تمـــنح المـــرآة وجهًـــا واضـــحًا ... مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع

صـــافي اللـــون وطرفًـــا ســـاجيًا ... أكحـــل العينـــين مـــا فيـــه قمـــع

وقرونًـــــا ســـــابغًا أطرافهـــــا ... غللتهـــا ريـــح مســـكٍ ذي قنـــع

(٢٦) عفرذيت: من أسماء الزهرة كما تقدم

(٢٧) لما كانت الزهرة إلاهة الغرام استنجدتها هيرا لتقوى على استذلال زفس بسطوته القهارة، غير أنها إذ كانت تخشى أن الزهرة تأبى عليها ذلك إذا علمت أن المراد زفس انتحلت سببًا آخر، وما أمهر النساء في انتحال الأسباب، فادَّعت أنها إنما تريد التوفيق بين الأوقيانوس وزوجته تيثيس.

(٢٨) ريا في البيت السابق: الأرض – تقدمت الإشارة إلى خلع زفس لأبيه قرونس (ن ٨).

(٢٩) هذا نطاق الزهرة الذي كان يعتقد اليونان بتعجزات أفعاله في الأفئدة، وهي أحبولة لم تخل من مثلها أساطير ملة من ملل الأرض، فإن المرأة ميالة بالطبع إلى اختلاب الألباب، فإذا عجزت بجمالها عمدت إلى مقالها، وإن أعيتها الحيل الأرضية لجأت إلى القوى السماوية، فكان ذلك سبب ابتداع طلاسم الغرام ورقاه وتعاويذه على اختلاف أنواعها من محمول وملبوس ومأكول ومشروب، وغير هذا مما استعمل منه العرب كسائر الملل شيئًا كثيرًا، على أن أبدعها استنباطًا هذا النطاق الذي وضعه هوميروس على صدر الزهرة، فتناولته أيدي الشعراء من الخلَف، ورامت النسخ على منواله، فقالت مثل قول هوميروس وغير قوله بلغات شتى وصور مختلفة: لا موضع لها هنا. وحسبنا إيراد استعارة بديعة لبوالو في منظومته «الصناعة الشعرية» إذ قال يمدح هوميروس:

On dirait que pour plaire, instruit par la nature, IIomere ait a Venus, derobe sa cienture.

ومعنا: كأن هوميروس وقد ثقفته الطبيعة استلب نطاق الزهرة؛ ليختلب به الألباب، فشتان على ما رأيت من خصائص هذا النطاق بينه وبين حوط الجاهليات، وهو النطاق الذي كن يتخذنه من خيط مفتول من لونين أسود وأحمر يضعن فيه شيئًا من الخرز، فيشددنه إلى وسطهنَّ حرزًا من إصابة العين.

(٣٠) تضاربت أقوال الشراح في ما حمل هوميروس على جعل مقر «الرقاد» بلمتوس، فمن قائل إن منابت الكرامة كانت كثيرة فيها، فكانت من ثَمَّ جديرة أن تكون مثوى «الرقاد»، ومن قائل إن لمنوس كانت موطن معشوقة «الرقاد» فسيثيا فكان يأوي إليها حبًّا بها، ومن قائل إن ذلك وقع اتفاقًا بشعر هوميروس، وهو قول غير معقول بالنظر إلى سياق الحديث، ومن يعلم بعد ما تقدم أن هوميروس لم يقل ما قال تهكمًا على اللمنوسيين، وإن كانت ظواهر فعالهم تدل على بطش وإقدام، ومثل ذلك ما جاء في شعر أريوستو إذ جعل الملاك يجد «الشقاق» في أحد الأديرة. وقول بوالو في منظومته لوترين "**Lutrin**" إذ جعل مقر الترف في غرف منامة الرهبان بدير القديس برنردوس (بوب).

وأما القول بأن الرقاد أخو الموت فكثير في كلام الأقدمين، فمن ذلك ما روى بلوترخوس عن سقراط أنه قال: **Ο θανατος εστι πχραπλησιος τω υπνώ βαθυτχτω** ومثله قول فرجيليوس **et consanguineus Leli sopor ...** (لويريفرست) قلت: وكل هذا بمعنى قول هوميروس ومثله قول العرب «الموت أخو النوم»؛ لأنه يشبهه في ركود الحواس، وقولهم: «نام نومةً بلا حلم» بمعنى قولهم مات. وعليه قول المعري:

أراني الكرى أني أصبحت بناجذ ... إلا أن أحـــلام الرقـــاد ضـــلالُ

وبين الردى والنوم قربى ونسبةٌ وشتان برءٌ للنفوس وإعلالُ

(٣١) كان معتقد اليونان أن منشأ كل شيءٍ من الأوقيانوس، ومرجع كل شيءٍ إليه، ولهذا دعوا البحر «الأب الأكبر» لأن أصل الكائنات سائل ولا بد من السائل لحياة كل مخلوق، فالجرثومة الحيوانية سائلة والنباتات تغتذي برطوبة الأرض والشمس والكواكب، وإن كانت باعتقادهم نارًا فهي تتغذى بالأبخرة المتصاعدة من الماء، ولهذا كان الماء أصل كل المخلوقات عندهم.

(٣٢) أتى الشاعر في مواضع شتى على ذكر مكانة الليل، وقال هنا: إنه حيثما حل ظلامه «هابه كل إلاه وبشر»، ولم يستثن حتى زفس كبير الآلهة؛ لأن الظلام كان باعتقادهم متقدمًا في وجوده على النور فهو جدير برعاية كل متأخر عنه، ولهذا كان زفس يرعى له حرمةً جريًا على سنة احترام الفتى للشيخ والحديث للقديم.

(٣٣) أرادت هيرا أن تخمد خشية «الرقاد» من زفس، فقالت: إن زفس لا يبالي بالطرواد مبالاته بهرقل؛ لأن هرقل كان ابنه فكان خليقًا به أن ينقم له، وأما الطرواد فلا نسب يدنيهم إليه، فما هم حقيقون بتلك المبالاة ولا جديرون بتلك الموالاة.

(٣٤) البهجات أو الخرائد كائنات علوية تقدم ذكرهن ورسمهنَّ (ن٥). وكان «الرقاد» هائمًا بإحداهن فأطعمته هيرا بها، ومن نادر الاتفاق أن لفظ (Χαριτες) اليوناني ولفظ الخريدة العربي واحد،

وذلك مع عدم وجود مسوغ للقول بأن أحدهما منقولٌ عن الآخر، ومع ذلك فورودهما لمعنى متقارب في اللغتين مما يستلفت نظر الناظرين في التعريب؛ ولهذا أضفنا كلمة الخريدات هنا مع أن لفظة البهجات أكفى وأدل على المرام.

(٣٥) كان الآلهة إذا أقسموا بمياه الستكس، وهو نهر الجحيم كانت يمينهم أبر الإيمان، ولم يكتف «الرقاد» باستحلاف هيرا به بل رغب إليها أن تلقى إحدى كفيها على الأرض والأخرى على البحر استغلاظًا ليمينها؛ إذ تكون جميع الكائنات من جامد وسائر ومنظور وغير منظور شاهدة عليها، وما بعد تلك اليمين يمين مغلظة.

(٣٦) إن التكرار وإن كان مكروهًا فله هنا وقعٌ لطيف، فإن هيرا لما بلغت ذكر معشوقة «الرقاد» أخذت بمجامع لبه، فأراد أن يستوثق من جهة بصحة أحلامه، وأن يتلذذ بذكرها من جهة أخرى غير مبال بما وعدت هيرا من عرش ومدوس ولا مكترث بعد هذا الوعد بوعيد زفس ولسان حاله يقول قول ابن الفارض:

أعد ذكر من أهوى ولو بملامي فـإن أحاديـث الحبيـب مـدامي

(٣٧) الطيطان أبناء أورانوس وجيا (أي السماء والأرض)، ومن جملتهم يافت وهيفريون وقرونوس (زحل) أبو زفس. تألبوا بزعامة قرونوس على أبيهم أورانوس فخلعوه ثم كان بينهم وبين قرونوس خلاف أدى بهم

إلى محاربته، وكادوا يظفرون به لو لم يقم زفس ويشد أزره، فظفر بهم وطرحهم في وادي الظلمات.

(٣٨) قال الشاعر: إنهما طارا، ثم قال: إن فروع الغاب، قلقت: ترتج من وقعهما. قال أفستاثيوس: إن الشاعر لم يرد أنها ارتجت لوقع أرجلهما عليها بل حرمةً وتهيبًا لإلاهين عبرا فوقها.

(٣٩) الجرد: الخيل —— كان زفس قد علق بحب هيرا، فاجتمعا خفيةً ونار الغرام مستعرة في فؤاده، فلما اتخذها زوجة لم يكن بدٌّ من انطفاء تلك الجذوة على توالي الأيام، ولكنها عادت هنا فاضطرمت بفضل نطاق الزهرة، ولهذا تغاضى عن إقبالها عليه بلا استئذان، وكأنه أشفق أن لا تأتيه على مركبتها السماوية فبادرها بالسؤال عن خيلها.

(٤٠) ليس لفرسيس هذا ذكرٌ في غير هذا الموضع من الإلياذة، ويظهر من نعته بفرد الزمن أنه كان ذا شهرة طائرة في زمن هوميروسن فهو على رواية مؤسس مملكة ميكينا نحو سنة ١٤٣٠ ق.م. وهو صاحب فيغاسوس الفرس الطيَّار الذي ركبه بليروفون إذ سبق لقتل الخميرة.

(٤١) ذيون اليونان هو باخوس الرومان إلاه المسكر. انظر رسمه ١

(٤٢) ذيميتير اليونان هي سيربس الرومان إلاهة الزراعة. انظر رسمه ٢



محاربة زفس للطيطان وهو يرميهم بصواعقه.

(٤٣) لا أرى في الشعر تصورًا أجمل من مفاد هذين البيتين، ولعل بيتي الصاحب بن عباد لا يقصران عنهما كثيرًا بقوله:

أقبــل الجــو فــي غلائــل نــور	وتهــــادى بلؤلـــؤ منثـــور
فكـــأن الســـماء صـــارت الأر	ض فصـــار النثـــار مـــن كـــافورِ

(٤٤) تلك رواية تناول هوميروس جرثومة خبرها عن السلف من المصريين واليونان، وشاد عليها بناءً شاهقًا رصعه بزخرف تتقاصر عن ابتداعه مدارك كل شاعر سواء، وكأني به قد آلى على نفسه أن يثبت أن: «التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها»، وأن يبين مواطن الضعف من الذكور ومواضع القوة من الإناث والوسائل التي تتذرع بها النساء؛ لبلوغ مآربهن واستذلال رجالهنَّ، فكأنه يقول إذا دان كبير الآلهة صاغرًا لزوجته، وما هي بالزوجة الوحيدة فما قولك بوحدان البشر كبارهم وصغارهم.

كانت هيرا جانحة بكليتها إلى نصرة الإغريق وقد سدت السبل في وجهها لما كان من ميل زفس إلى الطرواد، فلم يكن لها بد لبلوغ أمنيتها من إحدى ثلاث؛ إما أن تقوى عليه وهو صاحب الحول والطول، وإما أن تفحمه وهو رب الحجة والبرهان، وإما أن تصيب منه غفلة فتأخذه على غرة وهو الحذر اليقظ. فتخيرت الخطة الثالثة على بعد شقتها لعلمها أن عامل الجمال إذا غشي بصر الحكيم وأنفذ فيه سهم الغرام غشي على بصيرته فتتمكن منه الغفلة والذهول.

فقامت لساعتها وأخذت تتأهب تأهب الواثق بالفوز المبين. ومن ثم أخذ الشاعر يصف دقائق حركاتها وسكناتها بما يجب أن يتخذ عبرة للمعتبرين والمعتبرات. عمدت إلى التبرج والتزين فانفردت إلى عزلة لا تنفذ إليها أنظار إنسي ولا جني. وأوصدت باب حجرتها بمزلاج لا يرمقه بصر غير بصرها كأنه أراد أن يقول: إن الحياء زينة النساء فمن قامت منهنَّ إلى إعداد زينتها فلتحتجب عن الأبصار، وإن الرجال أشغف ما يكونون بالنساء إذا برزن لهم بثوب الاحتشام.



فرسيس: والفرس الطيار.

والتهتك يطفئ جذوة الغرام، وليس للمرأة أن تحقر قدر التزين لزوجها فإنما زينتها وحليها له لا لسواه، وهي عظة حسنة للواتي يتبرجن ويتبهرجن لكل رجل غير رجالهنَّ كأن الزوج غير خليق بالنظر إلى حلاوة امرأته وحليها ما لم يتوسل إلى ذلك بوجود قريب أو غريب، ولما خرجت

هيرا بذلك المظهر البديع وعلمت أن لها به درعًا، ولا درع الفولاذ الصلب بقي عليها أن تتقلد السلاح الذي تقاتل به بنات جنسها، فمالت إلى الزهرة وسألتها أن تلقي إليها حينًا من الزمن «نطاق الغرام» وانتحلت لذلك سببًا يتسار به النساء ويسارِرن به رجالهن، وهو الكلام في شقاق الأزواج، ولم يكن لهيرا أن تختلق سببًا أوقع في قلب الزهرة وزفس من ذلك السبب فادعت أنها راغبة في التوفيق بين «الأوقيانوس وامرأته»، فأمنت غيرة الزهرة؛ إذ لم يكن لها حاجة بذلك الشيخ الهرم ودرأت شبهة زفس؛ إذ كان يعلم بصحة ذلك الخلاف، وأن لهيرا مأربًا حقيقيًّا في إزالته وفاءً بجميل سابق لذينك الزوجين عليها.

وإن لنطاق الحب هنا فضلًا عن بدائع محاسنه مزيةً أخرى يجدر بنا التنبيه إليها، وهي أن الشاعر جعله تكملة لمحاسن المرأة، إذ لا يكفي أن تكون حسنة البزة جميلة الخلق، بل لا بد أن تكون على خُلق تسترق به قلب الرجل وأن لا تحفر مجاملته بلين القول، شأن اللواتي يترفعن عن التودد إلى رجالهنَّ خوفًا من أطماعهم بهن أو طلبًا للتخفيف من سلطتهم عليهنَّ، ويغيب عنهن أن مكامن الأحقاد وراء الكلام الخشن وعذب المقال يزيل الضغائن من صدور سليطات النساء وظلام الرجال.

ولما استتمت هيرا معدات الهجوم والدفاع، وأيقنت بالفوز صرفت همها إلى بلوغ وسيلة تمكنها من التلذذ بثمرته، فسعت إلى «الرقاد» علمًا منها أن زفس لا تؤخذ غرته إلا إذا هجع، فلم تزل بالرقاد

حتى استمالته كما مر بك ولم تأت زفس إلا وقد تمهدت لديها جميع العقبات.

ولما ظفرت بالتسلط على مجامع لبه وأفضى الأمر بينهما إلى المداعبة أظهرت وأظهر من حب التستر ما يجب أن يكون أمثولة لذوات البعولة وذوي الزوجات، الذين قد يتجاوزون آداب المجاملة أمام الأجانب فيتعدون حرمة المحاسنة إلى التداعب ويثبون وثبة واحدة من كثرة الأدب إلى قلة الأدب. وأما ما يراه بعض الشراح من المغازي الرمزية في هذه الحكاية فلا أحب أن أجهد النفس في البحث فيه بل لا أحب أن أراه، فخيرٌ عندي أن أرى زفس، وهو أبو الأرباب قد بسط ذلك الفراش الوتير من نبات الأرض الفياح وأسبل من فوقه تلك الكلة الشائقة من غمام النضار يتساقط من أكنافها حباب القطر، كحبوب الدر من أن أسعى وراء خيال تراءى لهم في مخيلاتهم، فقالوا: إن زفس ممثل الرقيع وهيرا ممثلة الهواء، فلما اجتمعا أخرجا نبات الأرض وفقًا لمعتقدهم، فإن التوجيه حسن لو كان بنا حاجة إليه، ولو كان في رقة المعنى الظاهر، وما يحتاج معه إلى التأويل والتخريج وقس على ذلك سائر ما تأولوه مما يشوه محاسن الرواية.

(٤٥) لما قضى «الرقاد» مهمته، لم يبق محل لبقائه في المعسكر، ولهذا قال الشاعر: «ثم جد السير يسعى في الورى»؛ لأنه لا محل للرقاد في ساحة الكر والجلاد، ولم يكن فوسيذ ليجسر أن يندفع

في صدر الإغريق وزفس في يقظته، فانتهز فرصة تلك الغفلة من زفس لمعاضدة هيرا على قضاء لبانتها فتصدر في الجيش، ومع ذلك فإنه لم يقاتل بنفسه وانحصرت مؤازرته بالحث والتحريض كما سنرى.

(٤٦) الجنات: التروس تلك حكمة بإلقاء التروس الكبيرة والسلاح الثقيل لذوي البأس والقوة، خصوصًا أنه كان من شرعهم أن يعاقب الجندي الذي يرجع بلا ترس، وأما الذي يلقي عنه سيفه ورمحه، فلا عقاب عليه؛ ذلك لأنهم كانوا يؤثرون وسائل الدفاع على وسائل الهجوم، ويقدمون حفظ النفس على قتل العدو. قال كثير:

على ابن أبي العاصي دلاصٌ حصينة ... أجــاد المــريء نســجها وأذالهــا

يــود ضــعيف القــوم حمــل قتيرهــا ... ويســتطلع القــرم الأشــم احتمالهــا

والدلاص: الدرع. والقتير: مساميرها.

(٤٧) حيثما أورد الشاعر ذكر هكطور فإنه قرن ذكره بالبسالة والإقدام، وتفنن بوصفه بالتشابيه والاستعارات والكنايات؛ ليرفع مقامه في نظر السامع والمطالع، ولكنه ذكره هنا ذكرًا بسيطًا فجعله في مقدمة الطرواد بمنزلة فوسيذ بمقدمة الإغريق، أي: إنه جعله قرينًا لرب قهار، فكان هذا الذكر البسيط أبلغ وصف لبسالته في كل الإلياذة، وفيه توطئة للمغالاة بقوة ساعد إياس الذي كاد يظفر بهكطور على كونه بتلك المثابة العليا.

(٤٨) انتقل الشاعر من مظهر ترف وسكون إلى مظهر شدة وجلبة فغير اللهجة، كجاري عادته تنبيهًا للسامع قبل الإتيان على مشهد الحرب، فأخذ يكثر من التشابيه المتوالية كما سنرى، أما اصطفاق البحر عند اصطدام الجيشين على ما ذكر في هذا البيت فقد قال أفستاثيوس: إنه إنما كان معجزة بقوة فوسيذ رب البحر فإن أمواجه تلاطمت هيبةً له.

(٤٩) أي: إنه بجانب عج الجيشين لم يكن عج البحر شيئًا مذكورًا، ولا زهزمة النيران المضطربة ببطن الغاب على رءوس الجبال، ولا عصف الرياح المتلاعبة بالشجر، فجمع بهذه التشابيه الثلاثة بين الماء والنار والهواء.

(٥٠) أي: إنه أخذ حجرًا من الحجارة المتبعثرة في تلك الطرق.

(٥١) الوغد: الولد. واللعب بالدوامة، وهي الفلكة يرميها الصبي بخيط أو بغير خيط، فتدوم على الأرض، أي: تدور على نفسها وهي من أقدم لعب الصبيان. ويقال: لها بلغة عامة سوريا البلبل وتسمى بمصر النحلة.

(٥٢) المراد هنا اقتلاع الملولة، أو تحطيمها بالصاعقة، يُعلم ذلك من ذكر الكبريت والرائحة الصادعة في البيت التالي.

(٥٣) يريد أن يقول: إن رمحي بات موكئًا يتوكأ عليه القتيل، إذا انحدر إلى الجحيم وظاهر المراد من هذه العبارة أن الرمح أصاب كاهله

فاخترق البدن وبرز من الجهة الأخرى، ولا يخفى ما في قول الظافر هذا من التهكم والتشفي.

(٥٤) أي: الرمح.

(٥٥) ابن أريليق: هو أفروثونور القتيل الإغريقي.

(٥٦) حذاف النبال: تعريب (ιομωρος) وهي لفظة مركبة من كلمتين، فالفريق الأكبر من المترجمين يجعلها مؤلمة من ιος وμωρος فتكون بالمعنى الذي عربناها به، ومنهم من يجعل اللفظ الأول منها مأخوذًا من (ια) بمعنى صوت، فيكون معناها حينئذٍ ذوي الجلبة والصوت المرتفع، وهي على كلا الحالين كلمة قذف؛ لأن المقاتلة بالنبال أحط شأنًا، وأدنى بأسًا من المقاتلة بالسيوف والرماح، أما وجه السباب في المعنى الثاني فواضح.

(٥٧) أي: أفما كل منكم يروم أن يكون له من يأخذ بثأره إذا قتل، كما أخذت بثأر أخي أرخيلوخ.

النشيد الخامس عشر
الواقعة الخامسة وبسالة أياس

مُجْمَلهُ

تجـاوزت الطـرواد حـد الخنـادق يصـلمهم فيهـا حسـام الأغـارقِ

فاستيقظ زفس وعلم أن حيلة هيرا قد جازت عليه، فانهال عليها بالتقريع والتونيب، فادعت أن فوسيذ نكل بالطرواد منبعثًا بمجرد هوى نفسه، فأمرها باستدعاء إيريس وأفلون وإنفاذهما لاستنهاض الطرواد، فرجعت إلى السماء وأطالت على مسمع الآلهة شكواها من زفس، وأنبأت آريس بما كان من موت ابنه عسقلاف، فهاج آريس وماج فثبتطته آثينا، وطار أفلون وإيريس إلى إيذا عملًا بأمر زفس، فبعث بإيريس إلى حومة الوغى تتوعد فوسيذ، فاضطر إلى مغادرة ساحة القتال وعاد أفلون بهكطور مستعرًا بالغيظ والبسالة بعد أن بسط أفلون مجنه أمام الإغريق وهد قلوبهم بمنظره، فانقضت الطروادة على الإغريق وذبحوهم ذبحًا، فالتوى الإغريق إلى معسكرهم وتقدم هكطور بجيشه يصحبهم أفلون، فاجتازوا الخندق ووقع الرعب في قلوب الإغريق فتضرع نسطور إلى زفس فأرعد وأبرق، فتفاءل الطرواد بذلك، وما زال هكطور متقدمًا بفيلقه حتى بلغ السفن. وكان فطرقل يشهد كل هذا من مضرب أوريفيل فجدَّ

مسرعًا إلى أخيل يستنهضه ليفزغ لقومه، وقام الإغريق فقاتلوا قتال الأسود على أنهم ما لبثوا أن اضطروا إلى الهزيمة فانثنى آياس بنزر من صحبه وثبت أمام الطرواد، واشتد القتال ثانيةً فخرت الأبطال من الفريقين، وحال آياس دون بلوغ الطرواد سفن قومه، وهمَّ هكطور بإحراق السفن وكان يبلغ منها مأربه لو لم يقف آياس فيصد الأبطال ويجندل الرجال.

لا تزال وقائع هذا النشيد في اليوم الثامن والعشرين.

النشيد الخامس عشر

تجاوزت الطرواد حد الخنادق ... يصلمهم فيها حسام الأغارق

وحول العجال استوقفوا وتألفوا ... برعدة مذعورٍ وصفرة خافق

ومن طور إيذا هبَّ زفس ودونه ... صفيته هيرا فهاج ظنونه[1]

وألفت والإغريق أبصر عقبوا ... عداهم وفوسيذ ببطن الفيالق

وأبصر هكطورًا به القوم أحدقا ... ومن فيه سيَّال النجيع تدفقا

على الترب ملقى خامد الحس خافقًا ... وما صرعته كف أضرع خافق[2]

فهزت أبا الأرباب والناس رأفة ... ولاحت لهيرا منه بالغيظ نظرة

وقال: «نعم هكطور مكرًا أَبَنْتَه ... عن الحرب فارتاعوا لقرع المخافق

تحدثني نفسي أهيل عقوبتي ... فتجنين قبل القوم عقبى الخديعة

أفاتك أن علقت قبل مهانةً ... بلب رقيع الجو بين البوارق

وغلت بصلد القيد من عسجد القدم يـداك وسـندانان فـي أخمـص القـدم

وآل العلـى حوليـك ذلـوا وأشـفقوا وهـل كـان مـن يوليـك نصـرة شـافق

ولـو فعلـوا ألقيـت أيهـم اجتـرا مـن السـدة العليـا صـريعًا إلـى الثـرى

ومـا كـان هـذا خافضًـا غضـبي لمـا أنلـت هـرقلًا فـي السـنين السَّـوابق

بـه رمـت سـوءًا ثـم أهببـت شـمألا تقاذفـــه الأنـــواء فيهـــا مـــنكلا

وأحللتـــه قوصًـــا ومنهـــا أعدتـــه لأرغـوس مَمنُـوًّا بـأدهى البوائـق٣

ألا اذّكـري تلـك الشـئون وجـانبي مخـــاتلتي فيمـــا ابتغيـــت بجـــانبي

برحـت مقـام الخلـد تشـجينني جوًى فلـيس بمغـنٍ عنـك مكـر المنـافق»

أجابتـــه هيـــرا تقشـــعر تظلمًـــا: «يمينًـا علـيَّ الأرض تشـهدُ والسـما

وتحتهمـــا إســـتكس يشـــهد يمُّـــه يمـــين لنـــا لـــم يأتهـــا غيـــر صـــادق

ورأسـك والعقـد الـذي بيننـا ولـم يكـن قسـمي إلَّا إذا أثقـل القسـم٤

لـئن سـام فوسـيذ الطـراود ذلـةً فمـا كـان مبعـوثي ولا كـان لاحقـي

ومـــا ســـاقه إلَّا فـــؤادٌ تفطـــرا لجـيش لـدى أسـطوله قـد تـذعرَّا٥

فمرنـــي فأمضـــي بـــالبلاغ فينثنـــي لحيـث قضـى زفـس مثيـر الصـواعق»

فهـش لهـا زفـس وقـال بمنتـدى بنـي الخلـد لـو رأيـي ارتأيـت مؤبَّـدا

ففوسـيذ مهـم كـان مـن نزعاتـه لأذعـــن وانقـــاد انقيـــاد الموافـــق

فـإن كنـت أخلصـت المقـال فبـادري لمـــؤتمر الأربـــاب ألقـــي أوامـــري

فتحضــر إيــريس الرشــيقة عــاجلًا وفيبـــوس هيَّـــال النبـــال الـــذوالق

فأنفذ إيريسًا لفوسيذ مبلغًا — إلى يمِّه يأوي ويطرح الوغى

وفيبوس هكطورًا يسكن روعهُ — ويوليه حزمًا لاختراق الحزائق٦

فيكتسح الإغريق يكساهم إلى — أساطيل آخيل فيشفق للبلا

ويرسل فطرقلًا فيفتك فيهم — ويدمي وصمي في لباب الغرانق٧

ويجتاح سرفيدون قري ويقحم — ويبطش للأسوار يصمي ويهزم٨

فيطعنه هكطور طعنة قاتلٍ — فينهض آخيلٌ بهبَّة حانق

ويقتل هكطورًا ومن ثم تلبث — أخاءة في الطرواد تعثو وتعبث

إلى حين آثينا تتيح بحذقها — لهم فتح إليونٍ بحكمة حاذق

على أنَّني ما دام آخيل لم ينل — مناه فلن أولي الأغارقة الأمل

ولست براضٍ أن يقوم برفدهم — من الخلد قوَّامٌ بتلك المضايق

بذلك قد عاهدت ثيتيس عندما — ترامت ومسَّت ركبتي تظلما

لإعزاز آخيلٍ دعتني ترفقًا — فأومأت بالإيجاب إيماء رافق»٩

فلبته هيرا واستطارت بلحظة — إلى قمة الأولمب من طور إيذة

كفكرٍ يجوب الشرق والغرب طارقًا — بلادًا وفيه ذكر تلك المطارق١٠

وأمت سراة الخلد في منتداهم — بمربع زفسٍ في سمو علاهم

فمذ أبصروها جملةً نهضوا لها — وقارًا وحيَّوا بالكئوس الدَّوافق

أبت رشف هاتيك الكئوس وإنما — لكأس ثميس الحسن مالت تكرُّمًا١١

فتلك إليها سارعت مستقصةً: — «أرى جئتنا في غصة المتضايق

فلا غير زفس راعك اليوم غاضبًا» — فقالت: «دعي عنك التحري جانبا

عرفـــت عتـــوًّا شـــأنه وصـــلابةً | فعـودي إلـى بسـط الطعـام الشـوائق
وفـي أدبـة الأربـاب مجـدًا تصـدَّري | أبـــشكم مـــن خبـــره شـــرَّ مخبـــرِ
أمـورٌ قضـاها أزعجـت كـل آدبٍ | مـن الإنـس والجـن الكـرام المعـارق
ومـن ثـم حلـت عرشـها ولفـيفهم | تـألم مـن زفـسٍ وزفـس مخـيفهم
فهشـت ولكـن عـن جبـينٍ مقطـبٍ | علـى سـود أجفـانٍ بحمـرِ الحمـالق
وقالـت وجمـر الغـيظ ميزهـا: «فـوا | حماقتنـا فـي كـبح زفـس ومـا نـوى
وأحمـق منـه زعمنـا خفـض جأشـه | بمـــأزق بـــأس أو بقـــول ممـــاذق
ولكنـــه فـــي عـــز عزلتـــه ولا | يبـــالي ادعـــاءً أنـــه فوقنـــا عـــلا
وأن لـه بـالبطش فـيكم سـوابقًا | فـــذوقوا نكـــالًا عاديـــات اللواحـــق
فهـذا أريـسٌ قـيم الحـرب نابـه | مصـــابٌ ومـــا أدراكـــم مـــا أصـــابه
أعـز البرايـا عسـقلاف سـليله | صـريعٌ ومـا أغنـاه ظهـر اليلامـق»١٢
فهـب أريـسٌ ثـائر الجـأش لاطمـا | بكفيـــه فخذيـــه يولـــول ناقمـــا:
«أيـا معشـر الأولمـب لا تلحـونني | إذا مـا لثـأر ابنـي أثـرت مرافقـي
سـأنزل لـو صـم الصـواعق تنـزل | وفـوق خضـيب التـرب صـعقًا أجنـدل»
وأوعـز للهـول العظـيم ورعـدةٍ | بإعـداد هاتيـك الخيـول العتـائق١٣
وشـك ببـرَّاق السـلاح ولـو مضـى | لأرعـد زفـسٌ فـي الألمـب وأومضـا
ولكـن أثينـا مـن علـى عرشـها انبـرت | إليـه تلافـي هـول تلـك الطـوارق
وهبَّـت إلـى تلـك التريكـة تقتلـع | عـن الـرَّأس والجـوب المحـدَّب تنتـزع

وعامله الجباذ من صلد كفه … أماطت تريه شر تلك المزالق:[14]
«تعست وما أغواك هل فاتك الندا … وأصممت واخترت الهلاك المؤبَّدا
أغادرك الحس المنبه والحيا … وأصدق نطقٍ قاله خير ناطق
ألم تفقه الأنباء هيرا بها أتت … ومنذ يسير زفس بالنفس غادرت
أشاقك أن تمضي وقد هدَّك البلا … وترجع موقوذ الخطوب النواعق
وتدفع زفسًا للألمب ممعضا … وعن جملة القومين أغضى وأعرضا
فيحطمنا حطمًا وما هو بيننا … إذا ما اقترفنا أو برئنا بفارق
فجأشك خَفِّض واكظمنَّ فكم بطل … من ابنك خيرٌ جندلته ظبا الأسل
وهل من سبيلٍ دافعٍ غصص الرَّدى … عن الخلق ما امتدَّت حياة الخلائق»[15]
فأجلس مرغومًا وهيرا بحقَّة … من المجلس انسابت لموقف عزلة
ونادت أفلونًا وإيريس خارجًا … وقالت: «ألا سيرا بحقة بارق
وزفسًا بأعلى إيذة الآن وافيا … يلقنكما الأمر الذي كان خافيا»
وعادت وحلت عرشها فتسابقا … لإيذة في جهد الكدود المسابق[16]
فما لبثا أن أدركاه بأنور … ذرى غرغروسٍ في غمامٍ معنبر
وما غيظ أن جاءاه إذ لبَّيا ندا … صفيَّته هيرا بإذعان واثق
فقال: «أإريس الرشيقة فاسبقي … لفوسيذ بالأنباء مني واصدقي
وقولي له عن موقف الحرب ينثني … لشورى العلى أو يمه المتلاصق
فإن لم يرد إلا اتباع مراده … ليفكر بما يوليه شر عناده
فليس بكفئي ما استطال فإن لي … مزية بكر بالمكانة سابق[17]

ولكنـــه مـــا زال يطلـــب إســـوتي وإن قلــق الأربـــاب طـــرًّا لخشــيتي»

فلبـت وطـارت فـي قضـاء بلاغـه مصـــفقةً مثـــل الريـــاح الصـــوافق

ومـن طـور إيـذا كالعواصـف هبـت ومـــا لبثــت أن ثغـــر إليـــون حلـــت

كما انهال غيث الثلج والبرد الذي بـه الـريح هبـت مـن غيـومٍ غـوادق

وفوسيذ نـادت: «يا محيط العوالم أتيتـــك مـــن زفـــسٍ بأنبـــاء صـــارم

فيـأمر أن تـأبى المعـامع لاحقًـا بشـورى العلـى أو لجـك المتلاحـق

فـإن لـم تـرد إلا اتبـاع مرادكـا ســـيأتيك مقتصًّـــا لشـــر عنادكـــا

فإيـاك والعصـيان إنَّ لـه سـمت مزيَّـــةَ بكـــرٍ بالمكانـــة ســـابق

وأنـت علـى هـذا المسـاواة تـزعم وإن أكبـر الارباب طـرًّا وأعظمـوا»

فـأن أنـين السـأم ثـم أجابهـا: «لـئن ساد خلقًا فهـو فـظ الخلائـق

أيـزعم إرغامي وقـد ضـمَّنا النسب ثلاثـة إخـوان لنـا إقرنـوس أب١٨

ريـا أمنـا طـرًّا وثالثنـا غـدا اذيـس ولـي المـوت بـين الودائـق١٩

ثلاثـة أقسـامٍ جميـع العـوالم قســمنا اقتراعًــا بالقــداح الــرَّواغم

فنـال أذيـسٌ ظلمـةَ المـوت قسـمةً وفـزت ببحـرٍ مزبـدِ الـيم دافـق

وزفـس لـه الأفـلاك والغيم والسـما ليهنـأ قريـر العـين فيهـا معظّمـا

فـإن ذرى الأولمـب والأرض بيننـا مشـاعٌ فـلا ألـوي لـه حبـل عـاتقي

فمهمـا سـما بأسًـا ومجـدًا وسـؤددا فلســـت بمرتـــاعٍ ولا أبســـط اليـــدا

ليطبـق علـى أبنائـه وبناتـه يــدينوا ويرتــاحوا ارتيــاح المطــابق»

أجابت: «وهل هذا المقال اقوله … له علنًا أو هل لديك بديله

تحامقت لكن ذو الحصافة يرعوي … وينبذ عنه خلّة المتحامق

وللسن فضلٌ فالموارد سرمدا … حوارس بكرٍ أحرز السبق مولدًا»٢٠

فقال: «نعم بالحق فهت وخير ما … يكون رسولٌ عالمٌ بالحقائق

سأذعن كرهًا لاعج الغيظ مكمنا … لكبر إلاهٍ لم يكن فوق ما أنا

ولكنَّ لي قولًا بقلبي أقوله … فعيه إلى يوم انبتات العلائق:

على رغم فالاسٍ وهيرا وهرمس … ورغمي وهيفست الملي المرأّس

إذا صان إليونًا وصد عداتها … سنفتق فتقًا ليس زفس براتق»

وأقلع يبغي لجَّة البحر فاستعر … لمنآه أبناء الأخاء على الأثر

وزفس لآفلون قال: «ألا إذن … لهكطور طِرْ في مثل لحظة رامق

ففوسيذ في بطن العباب قد التجا … ومن نار غيظي في حزازته نجا

وإلا لأهمت فاتكات أكفنا … بنا عرفا يهمي به كل عارق٢١

وكان اصطدامٌ بالعوالم يحدق … ويزعج أرباب الجحيم ويقلق

فيا نعم مسعاه له ولعزّتي … فإنّا كفينا فلق تلك الفلائق٢٢

وهج جوبي المزدان في حلق الذّهب … فلا يبق في الإغريق الأمن ارتعب

ومِلْ نحو هكطورٍ فشدده يندفع … وراءهم للفلك خلف الخنادق

فإن تم هذا كله سوف أنظر … بأمرهم فيما عساي أقدر»

فلبّى أفلون وطار كباشق … على الورق منقض بشم الشّواهق

فهكطور ألفى جالسًا وقد انتعش … يحاط به والرشح جفَّ وما ارتعش

رعاية زفسٍ أسكنت زفراته — فقال أفلّونٌ بلهجة وامق:

«علام ابن فريامٍ بجهد التقاعد — أمثلك من يوهيه جهد المجاهدِ

أبرَّح فيك الغمُّ قل» فأجابه — بصوتٍ خفيف الجأش خافي المناطق:

«أيا خير ربٍ جاءني الآن يسأل — فمن أنت قل هل كنت أمري تجهل

أياس وقد أقبلت أذبح قومه — بجلمودةٍ كالطود أقبل راشقي

فغيَّب إحساسي فضاق تنفسي — وأيقنت أني زائرٌ دار آذس»٢٣

فقال أفلّون: «اطمإنَّ وطب وثق — فزفس إليك الآن بالبِشرِ سائقي

أنا فيبسٌ رب الحسام المذهب — فهل بعد ذا ترتاع من هول مضرب٢٤

فكم صنت إليونًا وصنتك فامتثل — وهبَّ لإعمال الطعان الموارقِ

أثر جملة الفرسان بالخيل يقبلوا — على موقف الأسطول والسيَّف يعملوا

أمامكم أجري أمهد سبلها — وأهزم أبطال الأخاء البطارق»

أفلون هاتيك العزائم مانح — وهكطور للإبلاء والحرب جانح

كمهرٍ عتيٍّ فاض مطعمه على — مرابطه ينتها وهو جامح

ويضرب في قلب المفاوز طافحًا — إلى حيث وجه الأرض بالسيل طافح

يروض فيه إثر ما اعتاد نفسه — ويطرب أن تبدوا لديه الضحاضح٢٥

ويشمخ مختالًا بشائق حسنه — يطير وأعراف النَّواصي سوابحُ

وتجري به من نفسها خطواته — إلى حيث غصَّت بالحجور المسارح[26]

كذا كان هكطورٌ بنصرة فيبس — يسوق سرى فرسانه ويكافح

كأن كلاب الصَّيد والصِّيد أقبلت   على سخلةٍ أو إيلٍ وهو سارح٢٧
وقاه ببطن الغاب جلمود صخرةٍ   وما خطَّ في الأقدار يصميه ذابح٢٨
فأقبل في إثر الصديد غضنفرٌ   فولّوا ولم تغن النفوس الطوامح
كذا كانت الإغريق خلف عداتها   بسمرٍ وبيضٍ باتراتٍ تكاشح
فلما بدا هكطور في حومة الوغى   بهم قلقت رعبًا تجيش الجوانح
فهب ثواس الفضل من زانه النُّهى   ونطقٌ فصيحٌ بالحصافة راجح
ثواس الذي ما بالإتولة عده   إذا هو بالبتَّار أو هو رامحُ
وما فاقه بين السَّراة بلاغةً   سوى النَّزر إن فاضت تسيل القرائح
فصاح: «أجل ربَّاه لاح لناظري   عجابٌ فذا هكطور ذو البأس لائح
حسبنا أياس اجتاحه بصفاته   فها هو وافى تنقيه الجوائح٢٩
فثم إلاهٌ صانه لتروعنا   به مثلما قبلًا عرتنا المذابح
فهاكم سداد القول فأتمروا له: لتمض إلى الفلك الجموع الجوامح
ونحن أولي العزم الصحيح نصده   عسى في عوالينا له اليوم كابح
فمهما عتا واشتد ظني يرعوي   وتثنيه عن خرق الجيوش الجوارح»
أصاخوا ولبُّوا واسجاش أولو العزم   يعبُّون أبطال المقاتلة البُهم
وحول أياس استبسلوا وإذومنٍ   وطفقير مريونٍ وميجيس ذي الحزمِ
بصد العدى آلوا وأعراض قومهم   مضت تتوارى فوق لفلكهم السُّحم٣٠
وأبناء طرواد تكثَّف جيشهم   رصيصًا وهكطورٌ يحثُّ خطى العظم
ومن دونه فيبوس وسط غمامةٍ   يعد مغازي ذلك الفيلق الدهم

وفي يده الجوب المروع الذي بدت حرابيهُ من تحت هدَّابه الضخم٣١

هي الجنة الكبرى لزفس أعدها هفست لإرعاب الخليقة والنقم

تكاثفت الإغريق يلتف جيشهم وفي ملتقى الجيشين عجٌ إلى النجمِ

طعانٌ مضت عن كل ساعد أيهم ووبل سهامٍ عن بطون الكلى يهمي٣٢

فمن نافذٍ في صدر كل مدججٍ من المرد فهاقٍ سريَّتُهُ تصمي

ومن ناشبٍ في التُّرب قبل بلوغهم وإن طار غرثانًا على العظم واللحم٣٣

تساوت مرامي الطعنوالفتك ما استوت بغير حراكٍ جنة النوب الدهم٣٤

ولما على الإغريق فيبوس هاجها وصاح بهم صوتًا يهد قوى الجسم

تخلعت الأحشاء في مهجاتهم وولّوا يزيد الرعب وهمًا على وهمِ

كأنهم الأبقار والضأن أجفلت يفاجئها ليثان في الدجن القتمِ

فتذهب أشتاتًا وفي كل مهمةٍ تضلّ ولا راعٍ يدافع أو يحمي

وفيبوس في أعقابهم دافع العدى وفي كل قرمٍ قد أحلّ قنا قرم

فهكطور إستيخيسا كرَّ قاتلا زعيم البيوتيين مدَّرعي اللأم

وثنَّى بأركيسيل عد منستس وإيناس وافاهم مدون الفتى يرمي

(مدون بن ويلوسٍ لغير حليلةٍ بفيلاقةٍ قد كان في غربة السَّأم

بها ظلَّ في منفاهُ مذ راح قاتلًا أخا إريفيسٍ زوج ويلوس ذي الحكم)

وثنَّى بياسوس بن إسفيل بوفلٍ زعيم الأثينيين والبطل الشهم

وفوليدماس اجتاح ميكست صادرًا بصدر السُّرى يرمي وقلب العدى يُدمي

وفوليـــت إخيوسًـــا وكـــرَّ أغينـــرٌ　　فجنـــدل إقلـــونيس الشـــيم الشـــم
وذيـــوخس ولّـــى ففـــاريس زجَّـــه　　بمزراقـهِ فـي الكتـف ينفـذ فـي العظـم
وأقبــت الطــرواد للســلب مغنمًــا　　وهــزمن الإغريـق فـي ذلـك الهـزم٣٥
فولّــوا فلــولًا للحفيــر فســدهم　　إلـى السـور والأعـداء لاهـون بـالغنم
فصـاح بهـم هكطـور صيحة حـانقٍ:　　إلى الفلك فالأسلاب من رامها خصمي
ومـن غـادر الأسـطول أوليتـه الـردى　　وأهليــه والإخــوان غــادرت بــاليتم
فلا يضرمون النار من تحت جسمه　　وللكلب يبقى مطعمًا شائق الطعم»٣٦
وسـاط جيـاد الخيـل فانـدفعت بـه　　ليستنهض الهمَّات في العسكر الجم
وفـي إثـره كـرَّت عجـالهم علـى　　هديــدٍ نمــا للجــو عــزمهم ينمــي
أمـامهم فيبـوس فـي خفَّـة الطـرف　　يهـدم حافـات الحفيـر بـلا عنـف
برجليــه هاتيــك الــتلال تســاقطت　　إلى جوفه حتى استوى الجوف بالجرف
سـبيل لهـم إن يقـذف السـهم نابـلٌ　　فما اجتازه ذيَّالك السهم بالقدف٣٧
عليه مضى يجري صفوفًا خميسهم　　وبــالجوب فيبــوسٌ أمــامهم يكفــي
فقــوض ذاك الســور لا متكلفًــا　　كطفـلٍ بجـرف البحـر يلهـو بـلا إلـف
بنــى لاعبًــا بالرَّمــل تــلًّا وســامهُ　　برجليه أو كفَّيه خسفًا على خسف٣٨
كــذا يــا أفلــون نقضــت معــاقلًا　　بتشــييدها كــان العنــا فـائق الوصـف
وسـقت بنـي أرغـوس للفلـك حيثمـا　　دنـوا فاستجاشـوا ثـم صـفًّا غلى صـف
وصــاحوا يمــدون الأكــف تضــرعًا　　إلــى زمــر الأربــاب للرفـق واللطـف
ونســطور قــوَّام الأخــاءة رافعًــا　　ذراعيــه للزرقــاء صــاح علــى لهــف:

«لـئن كانـت الإغريـق قبـل توسَّـلت إليـك أيـا زفـس بعـودٍ لـدى الزَّحـف

وسوق سمان الضأن والثور أحرقت وأومـأت بالإيجـاب إيمـاءك العرفـي

فـلا تـنس يـا مـولى الألمـب وصـنهم من الحتف واصرف عنهم فادح الصرف

فأُسمع زفسٌ صوت نسطور ضارعًا وأسمع رعدًا في الفضا داوي القصف

وأمـا بنـو الطـرواد فاشـتدَّ عـزمهم وكـرُّوا بجـيشٍ ثـائر الجـأش ملتـف

وجـازوا علـى الخيـل الحصـار بنعـرةٍ لفلك العدى فاصطكت الكف بالكف

كـأنهم الأمـواج والنـوء سـاقها فتعلـو صـفاح الفلـك تعبـث بالسـجف

فمـن حـاذفٍ فـوق العجـال بعامـلٍ تـذلّق حـدَّاه وأنفـذ بالحـذف

ومـن قـاذف بالفلـك في أسـل ثـوت هنـاك لحـرب البحـر تنـذر بـالحتف

ظـل فطرقـل أورفيـل يجـاري بينمـا النقـع ثـائرٌ بالحصـار ٣٩

برقيـق الحـديث يلهيـه حينًـا ويـداوي كلومـه ويـداري

إنمـا عنـدما رأى الطـروادا عبـروا السـور بالعجـال طـرادا

وجيـوش الإغريـق ولّـت شـتاتًا بصـياحٍ وذلـةٍ وانكسـار

صـاح بالويـل لاطمًـا فخذيـه بـدموعٍ تنهـال مـن عينيـه:

«أورفيـلٌ لا بـد لـي أنثنـي عنـ ـك وإن كنـت لـي بفـرط اضـطرار

بـك فلـيعن مـن صـحابك غيـري وأنـا ذاهـبٌ بخفَّـةِ سـيري

جـل وقـع الـبلا فعـلَّ أخـيلًا إن أهجـه يهـج لـدفع الشَّـنار

رُبَّ رَبٍ أنـالني منـه سـمعا فكـلام الصَّـديق يحسـن وقعـا»

ثــم جــدَّ المســير يبغيــه والإغـــ ـــريق ظلّــت بفلكهـــا بانحصـــار

فخمـــيس العـــدى وإن قـــلَّ عـــدًّا مـــا اســـتطاعوا إليـــه دفعًـــا وصـــدًّا

وهـــو لـــم يلـــق للسَّـــفين وللخيـــ ـــمِ ســـبيلًا بكشـــفةٍ وانتصـــار

بـل تسـاوت بهـم مرامـي الكفـاح كاســتواءِ الخطــوط فــي الألــواحِ

ســـطرتها كـــفٌ أنـــارت أثينـــا بـــذكاء لوشـــرِ فلـــك البحـــار ٤٠

هكـــذا حـــول ذلـــك الأســـطول قــد تســاوى اشــتداد تلــك القيــول

وترامــى هكطــور قــرب غــرابٍ وأيــاسٌ رمــى الأســودِ الضَّــواري ٤١

لا أيـــاسٌ يطيـــق دفـــع كمـــي كـــرَّ يســـطو بعـــون ربٍّ قـــوي

لا وهكطـــور لـــم يكـــن للخلايـــا مـــن ســـبيلٍ يلقـــى لـــدس النَّـــار

وقليطـــور هـــم فـــي مقبـــاس فتلقَّـــى فـــي الصَّـــدر رمـــح أيـــاس

خــرَّ تحــت الصَّــليل والنــار فــرَّت مــن يديــه والنقــع فــي التــرب جــاري

فتلظـــى هكطـــور لمَّـــا رآه ودعـــا كالرَّعيـــد يـــذوي نـــداه: ٤٢

«آل طــرواد يــا بنــي ليقيــا يــا دردنيـــين دافعـــي الأخطـــار

إيــه ضــاق المجــال كــرُّوا جميعــا فـــابن إقليطيـــوس خـــرَّ صـــريعا

بـــادروا لا تجردنـــه الأعـــادي واحملـــوه فـــاليوم يـــوم البـــدار»

ورمـــى طاعنًـــا أيـــاس فخابـــا إنمـــا الـــرمح لقرفـــون أصـــابا

لأيـــاسٍ قـــد كـــان خيـــرَ رفيـــقٍ ونزيـــلٍ لـــه برحـــبِ الـــدَّارِ

مـــن قثيـــرا مهـــاجرًا جـــاء قـــبلا مـــذ لقيـــلٍ بهـــا تعمَّـــدَ قـــتلا

لــم يــزل فــي ولاء آيــاس حتَّــى صـــرعته نوافـــذ الأقـــدار

خــــر مســــتلقيًا أمــــام الغــــراب يتلـــوَّى تمرُّغًــــا فـــي التـــراب

وظبـــاة القنـــاة هامتـــه شـــــ ـــجَّت وآيـاس صـاح فـي طفقـار:

«أي قــرمٍ أخــي أجــل أي قــرم جــاء هكطــور بيننــا الآن يصــمي

ابـــن نســـطورَ مـــن أقـام لــدينا مثـل آل القربـى عزيـز المنـار٤٣

أيـــن قـــوس فيبـــوس قبـل حباكـا أيــن تلــك النبــال تنمــي الهلاكــا»

هـــم طفقيـــر بالحنيَّـــة والجعــــ ـــبة يهمـــي الســـهام كالأمطـــارِ

ورمـــى ينفــذ القضـــا المقــدورا بقليطـــــوسٍ بـــــن فيســــــينورا

كـان بـين الجيـوش سـاق مغيـرًا جــــرد فوليــــدماسٍ المغــــوار

حثَّهـا حيـث ثـارَ يعلـو العجـاج وجيـــوش الطـــرواد هـــاجوا ومـــاجوا

طامعًـا مـنهم ومـن لـدن هكطـو ر بكســـب الثنـــا ونيـــل الفخـــار

خـــرقَ الســـهم جيـــده يرديـــه ورمتـــه المنـــون رغـــم ذويـــه

خـــرَّ لـــلأرض والجيـــادُ أغـــارت جامحـاتٍ بـين العجـال الجـواري

جـــدَّ يجـــري فوليـــدماس ســـريعًا ولأســـــتينووس ألقـــــى الصُّـــــروعا

قـال: «لا تنأيـا ابـن إفروطيـا عــ ـــني فـــإني مـــاضٍ أثيـــر أواري»

ثـم ألقـى طفقيـر فـي القـوس نـبلا يبتغـــي فـــي نفـــس هكطـــور قـــتلا

لـــو رمـــاه وأنفـــذ الســـهم فيـــه لانتهـــت حـــربهم بـــذاك النهـــار

إنمـــا زفـــس وهـــو بالغيـــب أدرى لـــم يشـــأ أن ينـــال طفقيـــر نصـــرا

كـان طـيَّ الخفـاء هكطـور يرعـى فوقـــاه شـــرَّ المنـــون الطـــواري

هـــم طفقيـــر راميًـــا فتبتـــت وتـــر القـــوس وهـــي لـــلأرض فـــرَّت
ومضـــى الســـهم طائشًـــا فتلظَّـــى مستشـــــيطًا وصـــــاح بالإدبـــــار:
«ثـــم رب أيـــاس يـــأبى القلاحـــا تلـــك قـــوسٌ أوترتهـــا ذا الصـــبَّاحا
كـم بهـا رمـت خـرق صـدر عـدوٍ وأراهـــــا مفتلـــــة الأوتـــــار»
قـال: «دعهـا فـإن ربًّـا حسـودًا نبلهـــا افتـــلَّ راغبًـــا أن تبيـــدا
خلهـــا واحتمـــل مجنًـــا ورمحًـــا ثـــم كُـــرَّنَّ بالقنـــا الخطَّـــار
نـاد فـي القـوم يثبتـوا فـي الجهـاد ويـــذودوا لكـــبح جـــيش الأعـــادي
لا ينيلـــــوهم الســـــفائن إلا بعـــد قـــرع القنـــا وفتـــك الشـــفار»
كـــر طفقيـــر للخيـــام فـــألقى قوســـه والســـلاح فـــورًا تنقـــى
خـــوذةً أرســـلت لهـــا عـــذباتٌ ســـــابحاتٌ يفرعهـــا الطيَّـــــار
ومجنًّـــا ألقـــى علـــى عاتقيـــه وجلـــود الأبقـــار دارت عليـــه
وقنـــاةً شـــحيذة الحـــد وانقـــ ـــض يجـاري أيـاس فـي المضـمار
فـــرآه هكطـــور ألقـــى النبـــالا فعـــلا صـــوته الجهـــور وقـــالا:
«آل طـرواد يـا بنـي ليقيـا يـا دردنيـــين ســـادة الأمصـــار
حـول هـاتي السـفائن الحـدباء لا تكلّـــوا فـــاليوم يـــوم الـــبلاء
هـــاكم النَّابِـــلَ النَّبيـــلَ وزفـــسٌ كـــاده أحـــدقت بـــه أبصـــاري
لـم يكـن فـي الأنـام أمـرًا عسـيرا أن يقولـوا مـن زفـس وإلـى نصـيرا٤٤
ففريـــقٌ لـــذروة المجـــد يرقـــى وفريـــقٌ يشـــقى بـــذل البـــوارِ
صـانا اليـوم والعـدى سـام قهـرا كثفـــوا للعمـــارة الجـــيش كـــرًّا

وليموتن بالجهاد سعيدًا   بطل الذود عن عزيز الذمار ٤٥

فإذا أقلع الأراغس ذلا   في سفينٍ بها يؤمُّون أهلا

ظلَّ في الأمن زوجُهُ وبنوهُ   وبنوهم في سالمات الديار»

فاستجاشت بهم جميع النفوس   وأياسٌ نادى بوجهٍ عبوس:

«أي عارٍ قد أصبح اليوم فينا   محدقًا يا أراغسًا أيُّ عارِ

لا مناصٌ لنا فإمَّا المنايا   لا وإمَّا بالذود صون الخلايا ٤٦

أفإن نالهنَّ هكطور خلتم   عودةً للديار فوق القفار

أفما جاءكم دويُّ نداه   وبحرق السفين يغري سراه

ليس للرَّقصِ قام يدعوهم بل   لاشتباك القناة بالبتَّارِ

ما لنا غير أن نكرُّ سريعًا   نرد الحتف أو نعيش جميعا

ذاك خيرٌ من جهد حربٍ سجالٍ   أجهدتنا بدار إيه بدار

فالعدى دوننا بقرع البئوس»   فاستجاشوا لدفع تلك البئوس ٤٧

وتلاقوا وصوت هكطور يدوي   وأياسٍ كالضيغم الزءار

فرمى ذاك إسخذيُّوسَ مولى   فوقيا والحمام في الحال أولى

ورمى ذا لورذماس بن أنطيـ   ـنور رأس المشاة زاهي الشعار

والسري الفتى أطوس القليني   فولداماسُ ساقهُ للمنون

قيل إيفيةٍ وإلف محبيسٍ   فمحيسُ انثنى لأخذ الثَّارِ

ورماه لكنَّما الطروادي   صد والرمح غل بين الأعادي

قد وقاه فيبوس لكن مضى الرُّمـ ـحُ إلى صدر فارسٍ جبَّار
ذاك إقرسمسٌ فخرَّ قتيلا ومجيس احتاز السلاح الصقيلا
فدهاه ذو البأس ذو لفس لمفس من بني لومذونٍ القهَّار
زجَّه طاعنًا بجوبٍ كبير صدَّ عن درعه بصلد القتير
لأمةٌ تلك قبل صانت أباه فيليوسًا في سالف الأعصارِ
تحفةٌ من أُفيت كانت سنيَّه نالها فيليوس منه هديَّهْ
حين وافى إفيرة حيث يجري سيلييس المغبوط في الأنهار
ومجيس انثنى وزج فمزَّق قونس المغفر الذي يتألّق
دفع الرمح للثرى عذباتٍ قد كساها البرفير ثوب احمرار
وذلفسٌ ما زال بالفوز يطمع ومنيلًا لرفد ميجيس يهرع
ما رآه ذلفس حين أتاه وهو عادٍ عن عينه متواري
أنفذ الرمح فيه ظهرًا لصدر فعلى الأرض خرَّ والنَّقعُ يجري
والمليكان ثمَّ ينتزعان الـ ـعدد الشَّائقاتِ للأنظار
صاح هكطور في بني لومذونا سيَّما ميلنيف هيقيطوونا
فارسٌ من فرقوط قبل الوغى قد كان يرعى بها سوام الصوار٤٨
ثم لمَّا الأسطول حلَّ البلادا فلإليون ثائرَ الجأشِ عادا
ولفريام كان ضيفًا كريمًا ودَّه ودَّ ولده الأظهار
قال يرميه بالملام العنيف: «أثوى الجبن في حشا ميلنيف
أفما مقتل ابن عمك يوري في حشاك اللهيف ذاكي الشرار

أفمـــا خلـــتهم ترامـــوا عليـــه ... لانتـــزاع الســـلاح مـــن عاتقيـــه

فـاتبعني لـم يبـق فـي الحـرب بـدٌّ ... مــن وقــوع الغــرار فــوق الغــرار ٤٩

نتبـــارى ليهلكـــوا خاســـئينا ... أو يـــدكوا بموتنـــا إليونـــا»

خـــفَّ يجـــري وخلفَـــهُ ميلنيـــفٌ ... كـــإلاهٍ يجـــري علـــى الآثـــارِ

صـاح آيـاس فـي جيـوش الأخـاء: ... «صـــحب صـــبرًا تـــدرَّعوا بالحيـــاء

ولـــيقم بعضـــكم بحرمـــة بعـــضٍ ... وتوالـــوا فـــي فـــادح الأدعـــار ٥٠

متقـــي العـــار ذو الحيـــاء يقينـــا ... ظـــلَّ أدنـــى إلـــى النجـــاة أمينـــا

أنمـــا لا فخـــار يبقـــى ولا أمـــ ... ـــن لـــنكس يـــوم الـــوغى فـــرَّار» ٥١

فـــبهم ثـــارت الخميَّـــةُ طـــرًّا ... بفـــؤادٍ للـــذَّود يلهـــب جمـــرا

وأقـــاموا حـــول السَّـــفائن بـــالفو ... لاذ حصـــنًا مؤلّـــقَ الأنـــوارِ

إنمـــا زفـــس دافـــع الطَّـــروادِ ... ومنـــيلاسُ أنطلـــوخ يُنـــادي:

«أبغـض الشـباب والجـري والبـأ ... س يجاريـــك بيننـــا مـــن مجـــاري

أفمـا رمـت فـي الطـرواد قرمـا ... بظبـــاة القنـــاة يرمـــى فيصـــمَى»

هاجـــهُ وانثنـــى فبـــرَّزَ كـــرًّا ... أنطلـــوخٌ كالضَّـــيغم الهصَّـــارِ

مشـــرئبًا جـــرى وقـــد زجَّ زجًّـــا ... وخمـــيس العـــداةِ قـــد عـــجَّ عجَّـــا

فـالتووا والقنـاة قـد أنشـبت فـي ... ميلنيـــفَ المنـــتقض كالتَّيَّـــارِ

خرقـــت ثديـــهُ فخـــرَّ قتـــيلا ... وعليـــه الســـلاح صـــلَّ صـــليلا

وابـــن نســـطور هـــمَّ ينتـــزع الشـــ ... ـــكَّةَ لا ينثنـــي لوقـــع الحـــرارِ

كالسَّلوقي ظبيةً رامَ غنما … وهي عند الكناس بالسَّهمِ ترمى

فرآه هكطورٌ فانقضَّ يجري … لا يُبالي بالعسكر الجرَّارِ

فلمرآة أنطلوخُ ارتاعا … ثم من ساحة القتال انصاعا

لم يقف لانقضاء كرَّتهِ بل … فرَّ من وجهه حثيث الفرار

مثلَ وحشٍ سطا بقلب المراعي … يقتل الكلب أو يبيد الرَّاعي

ثم ينصاع قبل أن تقبل النَّا … س عليه بفزعةٍ وانتهارِ

فتقفَّوا آثاره بالصَّديد … وبوبل من النبال شديدِ

وهو لا ينثني وما زال حتَّى … قرَّ في صحبة أمين القرار

زفس هذي أقداره المنويَّه … نافذاتٌ أحكامها مرعية **٥٢**

فترامى الطرواد للفلك مثل الـ … أسد تنقضُّ في طلاب الرَّميَّهْ

نالهم نصره وذلّ عداهم … فرماهم بعاديات الرزيَّه

لابن فريام أحرز المجد حتَّى … يضْرِمَ النَّارَ في السَّفِينِ الرَّسيَّهْ

كلُّ هذا استجابةً لدعاءٍ … أنفذته ثيتيس أسُّ البليَّه

فقضى زفسُ بالنَوائب حتَّى … يبصر النار ألهبتْ بخليَّه

فيزيح الطرواد عنها ويولي … قومَ أرغوسَ نصرةً علويَّه

فبهذا قضى وهكطور أغرى … للأساطيل واريًا بالحميَّه

كرَّ يحكي آريس ذا الرمح أو نا … رًا بغابٍ شبَّت بشمٍّ عليه

فمُهُ مزبدٌ وعيناه نارٌ … ثارتا من أجفانه الوحشيَّه

وحوالي صدغيه هاجت هياجًا … خوذةٌ بالبريق أجَّتْ بهيَّه

من عباب الرَّقيع زفس وقاه | ورعاه من دون كل البريَّه
إنما يومُهُ دنا وأثينا | بابن فيلا أدنت إليه المنيَّة
كرَّ حيث الصفوف رصَّت كثافًا | وتلالتْ مناصل السَّمهريَّه٥٣
وبغى خرقهم فصدَّته جندٌ | كالبناء المرصوص صفَّت سويه
لبثوا لا يروعهم منه كرٌّ | لا ولا همَّةٌ وكفٌّ قويَّه
كصفاةٍ بالثغْرِ ليست تُبالي | برياحٍ وموجةٍ مائيَّهْ٥٤
لاهبًا هب ناحيًا كل نحوٍ | بسراهم كجمرة محميَّه
ودهاهم كما دها الموج في اليـ | ـمِّ غرابًا بهبة نويه٥٥
بشراعٍ بالريح منتفخاتٍ | وصفاحٍ بغثيه مغشيَّه٥٦
فتلوح المنون منبعثاتٍ | دانياتٍ لأعين النُّوتيَّه
هكذا كانت الأغارق تنتا | بُ حشاها شجيَّةٌ وشجيَّه
ثار فيهم كالليث بين صوارٍ | راتعٍ في جدود هورٍ عذيَّه٥٧
لا تطيق الرُّعاة ذودًا فيجري | بينه وهي رعدة ضاويَّهْ٥٨
يقنص الليث منه ثورا وباقيـ | ـه فلولًا يفرُّ في البريه
هكذا فرَّت الأراغس منه | بل ومن زفس ذي القضايا الخفيه
فل هكطور منهم فارسًا فـ | ـذا فولوا بأضلعٍ محنيه
فيرفيت الذي أتى من مكينا | وابن قفريس الذميم الطويه
لهرقلٍ من لدن أفرستس المـ | ـلك مضى بالرسائل الوديه

لـــم يكـــن فيرفيـــت مثـــل أبيـــه بـــل حميـــد الخـــلال ذو ألمعيَّـــه

فـــاق بـــين الأقـــران عَـــدوًا بأسًـــا ثـــم حلّتـــه حكمـــةٌ ورويـــه

فلهـذا قـد نـال هكطـور فـي مقـ ـتله المجـد فـي السـرى الدردنيـه

هـــمَّ فـــي جنـــةٍ إلـــى قدميـــه قـــد تثنَّـــت أهـــدابها المثنيَّـــه

حصنهُ في الكفاح كانت وصدَّت عنـــه تحـــت القـــراع كـــل أذيَّـــه

ملفتًـــا كـــان فـــالتوى بخطـــاه عـــاثرًا فـــي أطرافهـــا الملويَّـــه

خـــر مســـتلقيًا فصـــلَّت عليـــه خـــــوذةٌ كللتـــــه فولاذيـــــه

خـفَّ هكطـور منقـذًا رمحـه فـي صـــدره بـــين جنـــد كـــل الســـريه

فتلظّـــوا أسًـــى ولكنَّـــه لـــم يبـــق فـــيهم لرفـــده مـــن بقيـــه

لجـــأوا فـــي صـــفاح أوَّل صـــفٍ مـــن خلايـــا العمـــارة الأرغســـيه

والعدى في الأعقاب تضرب حتى حصـــروهم حـــول الخيـــام الخليَّـــه

وقفـــوا ثـــم عصـــبةً أوقفـــتهم خشـــية العـــار والمنايـــا الدنيـــه

وتوالـــوا بعـــضٌ يحـــرض بعضًـــا بعجـــيج للجـــو أعلـــى دويَّـــه

ومـــلاذ الكمـــاة نســـطور يستحـــ ـــلف كـــلا بالأهـــل والعصـــبيه:

صحب لا تشغلوا بالكم ألسن الخلـ ـــق وذودوا ذود الرجـــال الأبيَّـــه

واذكـــروا الولـــد والنســـاء وملكًـــا لكـــم فـــي تلـــك الـــديار القصـــيَّه

واذكـــروا أهلكـــم أمـــاتوا بـــادوا أم هــم فــي قيــد الحيــاة الرَّضــيه٥٩

لا تزيـــدوا الشـــكوى بحـــق عيـــال لبثـــت خلفكـــم ثبـــت الشـــكيه»

فاسجاشـــت نفوســـهم وأثينـــا قشـــعت عـــنهم الغيـــوم المليـــه

سحب صبها ركامًا عليهم   رب هولٍ دجنةً ليليَّه

بدَّدتها قفاض في السهل والأسـ   ـطول نورا أشعةٍ شمسيه

فلهم لاح ثائر الجأش هكطو   ر بجندٍ تكر طرواديه

ولهم لاح من توانى عن الحر   ب ومن خاضها بصادق نيه

وأياسٌ بعزة النفس يأبى   عزلة في المواقف العسكريه

غادر الجند ثم حثَّ خُطَاه   في سُطوح السفائن الصَّدريه

رمحه طوله اثنتان وعشرو   ن ذراعًا للكرَّة البحريه

نافذ النصل محكم الوصل زَاهٍ   بحرابيه الحسان الزَّهيه

كر يعدو كفارسٍ كر يعلو   أربعًا من عتاق جردٍ سويَّه٦٠

ضمها ثم حثها في طريق الـ   ـخلق في السهل حثَّةً سلهبيه

وضواحي البلاد غصت رجالًا   ونساءً تجل تلك المزيه

وهو في جريها بغير عناءٍ   واثبٌ من مطيةٍ لمطيه٦١

هكذا طار بالسفين أياسٌ   داوي الصوت للذرى الجويه

يستثير النفوس للفتك ذودًا   عن أساطيلهم بنفسٍ جريه

وابن فريام رامح مثل نسرٍ   شق أسراب طير برٍ شقيه

يدهم الرهو والغرانيق والبـ   ـط بأكناف جدةٍ نهريه

هكذا عن سراه برز هكطو   ر يؤم السفائن الدانويه

زفس أغراه دافعًا مستثيرًا   خلفه سائر الجنود الكفيه

فتلاقـــوا كـــأنهم مـــا تلاقـــوا | قبـــل مـــا بـــين عامـــلٍ وحنيـــه
لـو رأيـت النفـوس كيـف تلظَّـت | قلـــت ذي كـــرةٌ لهـــم أوليـــه
والأمـــاني هجـــن مختلفـــاتٍ | ففريـــقٌ يـــرى المنـــون جليـــه
وفريـقٌ يـرى الأعـادي اضـمحلت | والخلايـــا براســـخ الأمنيـــه
وابـن فريـام كالشـهاب انبـرى يقـ | ـــبض أطـــراف مركـــبٍ مرخيَّـــه
مركـــبٌ فيـــه جـــاء أفرطســـيلا | س بـــلا عـــودةٍ عليـــه هنيـــه٦٢
حولـه اسـتحكم الـتلاحم لا تـر | ويهـــم الشـــهب والحنايـــا الرويـــه
بـــل ترامـــوا بمديـــةٍ وســـنانٍ | رق حـــدَّه والســـيوف الوضـــيه
كـم حسـامٍ أهـوى بكـف كمـي | أو بكتـــف الفـــوارس المرميـــه
والثـرى اسـودَّ وابـن فريـام قـد قـا | م علـى الفلـك صـائحًا بالبقيـه:
«دونكـــم نـــاركم وكـــروا كثافًـــا | إنمـا اليـوم زفـس يرعـى الرعيـه
إنمـا اليـوم يـوم قشـع الرزايـا | واحـــتلال الســـفائن المحميَّـــه
أوســعتنا مــذ أوفــدوها خطوبًــا | رغـــم آل الميـــامن العليـــه
حـــال بينـــي وبينهـــا بجنـــودي | جـــبن هيَّـــة الشـــيوخ الغبيـــه
إن يكـن زفـس قبـل أعمـى حجانـا | فلـه اليـوم بـالهجوم مشـيه»٦٣
فاستشـــاطوا وأقبلـــوا وأيـــاسٌ | حولـــه الرَّمـــي كـــالغيوث الحبيَّـــه
ســـئم العـــيش لا يطيـــق ثبوتًـــا | فـــالتوى نحـــو مجلـــس البحريَّـــه
(مقعـدٌ قـاس سـبع أقـدام طـولٍ | وعليـــه ملَّاحـــةُ الجنديَّـــه)
ظـــل مســـتطلعًا يصـــد بـــرمح | مـــن ترامـــى مـــنهم بنـــارِ ذكيـــه

داويًا صوته: «ألا صحب كروا	يا بني دانووسٍ الآريه٦٤
حصنكم باسكم وليس سواه	خلفكم نجدةٌ بجندٍ عتيَّه
لا ولا معقلٌ يصد المنايا	إن ترامت به الجنود القميَّه
لا ولا بلدةٌ نلوذ إليها	وبها نبتغي عصابًا وليَّه
قد نأينا عن الديار وأضحى	دوننا البحر والأعادي العديه
فالأمان الأمان بين أكفٍ	فاتكاتٍ لا في الأكف البطيَّه٦٥
ثم هز القنا وهكطور يغري	صحبه بالمقابس الناريَّه
ما تصدَّى بها فتًى منهم حـ	ـتى تخلَّى بمهجةٍ مفريَّه
فأياسٌ برمحه أهبط اثني	عشر قرمًا للظلمة الأبديهْ

هوامش

(١) انتقل بنا الشاعر إلى مشهد جديد مثل به يقظة زفس بعد هجوعه تمثيلًا، يهيئ للسامع هيئة الصاحي من سكرته، المستفيق من غفلته، الحَنِق لسقوطه في أحبولة نصبت له خفيةً بيدٍ عجزت عن البروز لوجهه، فتستجمع حواسه لملاقاة ما فات والاقتصاص ممن ألقى عليه ذلك السبات. تلك كانت حالة زفس عند هبوبه من النوم جعلها الشاعر توطئة لإيراد حوادث أحيا بها جانبًا كبيرًا من آثار قومه كما سترى.

(٢) الأضرع: الجبان. والنجيع في البيت السابق: الدم.

(٣) لقد مرت الإشارة إلى هذه الأسطورة في النشيد السابق؛ إذ ذكرها «الرقاد» وذكر هيرا بما ناله من عقاب زفس، وزاد الشاعر هنا ما نال هيرا من ذلك العقاب، وقد تهافت الشراح على حل معميات ذلك العقاب حلًّا رمزيًّا بما يطول معه الشرح.

(٤) ما قرأت هذه اليمين مرة إلا تذكرت أيمان بني كعب في العراق العجمي لعهدنا هذا، فإن هيرا قد غلظت الحلف فأقسمت بالأرض والسماء والإستكس، وما يعد اليمين بهن يمين مغلظة، وكأنني بزفس مع هذا لم يجنح إلى التصديق إلا حين أقسمت برأسه والعقد، أي: عقد النكاح. وهكذا الكعبي إذا أقسم بالله فلا يزعم ولا يتوهم غيرهُ أنه صادق، ولكنه لا يقسم برأس شيخ عشيرته إلَّا صادقًا، فإذا اتهم بسرقة أو جناية وسيق أمام الشيخ واستحلف وأراد الإنكار قال: «والله وبالله لم أفعل.» فكأنه لم يزد على قوله لم أفعل، فإذا أعيد عليه السؤال قال: «والنبي والوصي.» أو «وحق محمد وعلي.» فإذا أراد إغلاظ يمينه قال: «وحق العباس.» وإذا بقيت شبهة في صدقه وأراد درأها أقسم برأس شيخه، وهو أعظم أيمانهم لا يقسمها أحدهم إلا صادقًا —— والسبب في ذلك أنه إذا ظهر كذب الحالف برأس الشيخ كان عقابه القتل، فالشيخ يقتص لنفسه عاجلًا حالة كونه لو أقسم الرجل كاذبًا بالعباس ومن فوقه إلى الخالق جل وعلا، فعقابه مؤجل إلى يوم الحشر حيث يقتص صاحب القسم من الحانث بيمينه، والرهبة من الحد العاجل

بيد المخلوق أوقع منها في النفس من الحد الآجل بيد الخالق، وقد كان أعظم الأقسام في جاهليتنا ذمة العرب لا يُحلف بها إلا عن صدق. قال متمم بن نويرة:

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت تحت الإزار قتلت يا ابن الأوزرِ

أدعوته بالله ثم قتلته لو هو دعاك بذمة لم يغدرِ

(٥) تملصت هيرا تملص الداهية بيمينها، فلم تنكر علمها بما كان وأشركت فوسيذ بالذنب ولم تزده جرمًا؛ لأن موآزرته للإغريق كانت ظاهرة بل التمست له عذرًا بأن الرأفة هي التي دفعته إلى الأخذ بيدهم، فأقسمت ولم تكذب. ثم تزلفت إلى زفس ولم تلبث أن استمالته بقولها: إنها متأهبة لقضاء أوامره، وهي لا تزال تنوي إنفاذ مأربها كما سترى فيما يلي، وذلك منتهى الدهاء في النساء.

(٦) الحزائق: الجماعات.

(٧) الغرانق: الفتيان.

(٨) كان سرفيدون من أبناء زفس وستأتي تتمة سيرته في النشيد التالي.

(٩) يشير زفس في مقاله هذا إلى ما سيكون، وهو يلهج فيه لهجة العزيز القدير جل شأنه الذي «إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون». وقد كثر الأخذ والرد بين الشراح في ما إذا كان هوميروس

مخطئًا أو مصيبًا بالأنباء بما سيعقب تلك الحوادث، فزعم قومٌ أن علم المطالع بها ولو مجملًا يذهب بشيءٍ من طلاوتها عند وقوعها، وقال آخرون ونحن في عدادهم: إن الأمر بخلاف ما زعم الفريق الأول؛ لأن هوميروس لا يورد قصة غرامية لا يستوقف فيها نظر المطالع إلا في نهايتها، وإنما يقص على معتقد أهل زمانه تاريخًا مشهورًا، فإشارته هنا إلى ما سيقع ليست إلا توطئة يرتاح المطالع إلى الوقوف بها إجمالًا على ما سيقع تفصيلًا. وتزيد على ذلك أنها ليست بأول ولا آخر مرة رأينا فيها الشاعر يورد مثل هذه النبوءات، فهي على ما نرى من مزينات قصصه ومثبتات اعتقادات ذلك الزمان، وهي خطة اتخذها كتَّاب جميع الكتب القديمة منزلة كانت أو غير منزلة، ولا يخفى ما فيها فضلًا عما تقدم من شدة التأثير في النفس بإثبات عظمة الناطق بها واقتداره، وهي محسنة أخرى من محسنات الشعر.

(١٠) لم يغادر هوميروس آبدة ولا شاردة من بدائع الطبيعة إلا أشار إليها ودونها، وهو هنا قد وصف السرعة بما لا سبيل بعده إلى مزيد، فقد رأيناه ورأينا سائر الشعراء يشبهون بسرعة الطائر والريح والبرق وما أشبه، ولكننا لو أضفنا إلى تشابيههم سرعة الكهرباء والنور لما كانت شيئًا بالنسبة إلى سرعة الفكر الذي يجوب السموات والأرض وما فيهن بلحظة من الزمن، وما بساط الريح بإزائه بالشيء المذكور، قال ابن المعتز بمثل هذا المعنى مع اقتضاب:

أسرع من ماءٍ إلى تصويبِ ... ومن وقوع لحظه المريبِ

(١١) يؤخذ من هذين البيتين أن الآلهة كانوا في مجلس أنس وطرب. يشير هوميروس هنا إلى أن ثميس وهي إلاهة العدل هي التي كانت تتصدر في مآدب الآلهة وحفلاتهم، فما أحراها أن تتصدر في محافل البشر.

(١٢) اليلامق: التروس، لا تزال هيرا محفظة على زفس ناقمة منهُ، وهو الآن في يقظته فلا تستطيع أن تخالف أمرهُ فتغفل إبلاغ رسالته، فهي ستبلغها بعد أبيات مقتضبة اقتضابًا، ولكنها آلت على نفسها قبل ذلك أن تثير حقد سائر الآلهة عليه لعلها تبلغ منه مأربًا بوسيلة أخرى، وهي من وجه تشير إلى اقتداره وضعفهم ومن وجه آخر تبالغ في وصف استبداده وتعسفه؛ لتزيدهم نفرة واشمئزازًا وهو نوع من أنواع تشفي الضعيف من القوي إذا قصرت باعه عن مسه بسوءٍ.

(١٣) يمثل هوميروس الهول والرعدة بشخصين، وهما ماردان في خدمة أريس إلاه الحرب.

(١٤) الجباذ: القواطع. والمزالق: الزلات. لما كان آريس إلاه الحرب كان أقرب إلى الطيش ممن سواه، وهيرا تعلم ذلك فأرادت أن تهوره ووجهت مقالها إليه، وكاد يتهور بإغضاب زفس لو لم تقم أثينا

وتصده، ولم يكن بين الآلهة أجدر منها بذلك؛ لأنها إلاهة الحكمة، ولا يخفى ما في كل ذلك من اتساع المغزى.

(١٥) يشير بذلك إلى أنه لم يكن بد من موت عسقلاف، قالت: ذلك تخفيفًا لألم أريس أبيه. وما أكثر هذا المعنى في الشعر. قال الإبيرد الرباحي:

وكل امرئٍ يومًا سيلقى حمامه ... وإن نأت الدعوى وطال به العمرُ

وقال المتنبي:

كثير حياة المرء مثل قليلها ... يزول ويبقي عمرها مثل ذاهبِ

ومثله قول الآخر:

وكل ابن أنثى لو تطاول عهده ... إلى الغاية القصوى فللقبر ذاهبُ

(١٦) تسابقا، أي: أفلون وإيريس.

(١٧) كان ثالوث اليونان مؤلفًا من زفس وفوسيذ وأذيس وهم ثلاثة أشقاء، أكبرهم زفس ولهذا كانت له مزية كبيرة على أخويه بحق البكورة، وسترى من كلام فوسيذ بعد أبيات كيف اقتسموا حكم العوالم.

(١٨) أقرنوس أو قرونوس: هو زحل كما تقدم، يقول فوسيذ: إنه هو وزفس وأذيس ثلاثة إخوان أشقاء ضمهم النسب، فلا مزية لزفس على الآخرين إلا الرئاسة التي خولته إياها البكورة كما أشار زفس بنفسه. قال الشريف الرضي يخاطب القادر بالله الخليفة العباسي:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا	في دوحة العلياء لا نتفرَّقُ
ما بينا يوم الفخار تفاوتٌ	أبدًا كلانا في المفاخر معرِقُ
إلا الخلافة قدمتك فإنني	أنا عاطل منها وأنت مطوَّقُ

(١٩) الودائق: ج وديقة، ومعناها: شدة الحر.

(٢٠) الموارد: جمع مارد. كانوا يعتقدون أن لكل بكر حرَّاسًا من الموارد يحرسونه، فيدرأون عنه الضيم ويعينونه على قضاء حوائجه. راجع ما قلناه بشأن البكورة (ن ١٣) قال عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين يشكو شكوى فوسيذ من زفس:

يقول أنا الكبير فعظموني	ألا ثكلتك أمك من كبيرِ
إذا كان الصغير أعم نفعًا	وأجلد عنه نائبة الأمورِ
ولم يأت الكبير بيوم خير	فما فضل الكبير على الصغيرِ

(٢١) العارق: العرق.

(٢٢) الفلائق: الدواهي.

(٢٣) أي: أيقنت أني مائت لا محالة؛ لأنه لا بد لكل ميت من المرور بمملكة إذيس إلاه الجحيم.

(٢٤) فيبوس هو نفس أفلون كما تقدم.

(٢٥) الضحاضح: رقارق المياه.

(٢٦) أي: حيث غصت المراعي بإناث الخيل —— إن هذا التشبيه بديع في نفسه كما لا يخفى، ولكن هذه الأبيات قد مرت في النشيد السادس، وهي أطبق هناك على فاريس منها هنا على هكطور. وقد ذكرنا في الحواشي وجه موافقتها لفاريس ولعل هذا التكرار دخيلٌ خصوصًا أن في ما يلي تشبيهًا لهكطور بالغضنفر لا يبقى معه حاجة إلى زيادة.

(٢٧) الصيد: جمع أَصْيَد، وهو السيد. والسخلة هنا: العنزة.

(٢٨) تعلم من الشطر الأخير من هذا البيت أنهم كانوا يعتقدون أن العناية الإلهية ترمق بنظرها الحيوان الأعجم، وتعين أجله ونُعني به عنايتها بالإنسان، وهو اعتقاد نَصَّت عليه جميع الكتب المنزلة؛ ففي التوراة: إن رفق الباري عز وجل بالحيوان كان من جملة الدواعي لإرجاء خراب نينوى؛ إذ جاء في سفر يونان: «أفلا أشفق على نينوى المدينة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من أناس لا يعرفون يمينهم من شمائلهم ما عدا بهائم كثيرة» (يونان ١١:١٤)، وفي الإنجيل نص أصرح بقوله في أنجيل متى في الفصل العاشر: «أليس عصفوران يباعان بفلس ولا يسقط أحدهما إلى الأرض إلا بإذن أبيكم»، وفي القرآن نصوص شتى منها قوله: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ. (سورة الملك)

(٢٩) الجوائح: الدواهي، أي: حسبنا أن أياس قتله بصخرته، فإذا هو حيٌّ يرزق.

(٣٠) أي: إن أبطال الإغريق وقفوا لصد العدو، وأما أعراضهم، أي: ضعفاؤهم فلجأوا إلى السفن، وهنا انعكست آية القتال فبات الغالب مغلوبًا، وحمل الطرواد على الإغريق حملةً أوهنت قواهم، فكانت موقعة أبدع الشاعر في وصفها إبداعًا، ومهد لها تمهيدًا ينطبق على معتقد أبناء ذلك الزمان ويلذ للمطالع بعدهم في كل زمان، لم يقل قولًا بسيطًا أنه لما اشتدت الأزمة بالطرواد لاحتجاب هكطور الجريح وهنت عزائمهم، وما زالوا يلتوون صاغرين أمام الإغريق حتى انتعش هكطور، وانثنى فيهم انثناء المستبسل فاندفع واندفعوا وراءه، حتى كان ما كان بل أفرغ ذلك بقالب شعري، فقال: إنه لما غادر فوسيذ ساحة الوغى مضطرًا بوعيد زفس صغرت نفوس الإغريق، وقدم فيبوس في صدر الطرواد، فغاب نصير الإغريق وقام للطرواد نصير يماثله فصار الأولون إلى مصير الآخرين، وقد تصرف الشاعر بكل ذلك تصرفًا يقرب الوهم من الحس وترتاح إليه النفس.

(٣١) الجوب: الترس. والحرابي: المسامير. والجنة في البيت التالي: الترس أيضًا.

(٣٢) الكلى: جمع كلية، ويراد بها القسي.

(٣٣) غرثانًا، أي: جائعًا ومفاد هذين البيتين أن السهام المتطائرة كان بعضها ينفذ في صدور الفتية المدججة بالسلاح فيفهق بالدم، وبعضها ينشب في الترب قبل أن يبلغهم، وقد وصف هنا السهام بالتضور جوعًا للحم الأبطال، وهي استعارة حسنة عندنا كثير من أمثالها كقول الجميح:

فـــي كفـــه لدنـــة مثقفـــة   فيهـــا ســـنان محـــرب لحـــمُ

يقول: إن سنان رمحه محرَّب، أي: مغيظ (قال الأصمعي: ومنها سميت الحرب حربًا؛ لأن أهلها يحرب بعضهم على بعض، أي: يغتاظ) ولحم، أي: قرم إلى اللحم، ومثله قول عنترة:

فدونك يا عمرو بن ودٍ ولا تحل   فرمحـي ظمـآن لـدم الأشـاوسِ

(٣٤) أي: إنه لم يظفر أحد الفريقين بالآخر قبل تحريك ترس زفس.

(٣٥) الهزم: السهل.

(٣٦) أي: لا تحرق جثته بعد موته، وهو عار عندهم كبير كما علمت.

(٣٧) أي: إن فيبوس لما ردم الخندق بمادة التلال القائمة على حافة ونساوى جوف الحفير بجرفه، فتح للطرواد طريقًا على مسافة أكثر من مرمى نبل.

(٣٨) لما فرغ فيبوس من ردم الخندق، وفتح للطرواد سبيلًا «عليه مضى يجري صفوفًا خميسهم» بقي عليه أن يهدم السور؛ لينفسح لهم المجال فقوض أركانه غير متكلف، كما يخسف الطفل كثيبة من الرمل يلهو لاعبًا برفعها ودفعها، وليس في الإمكان إيراد تشبيه كهذا التشبيه في هذا الموضع، ولا أصح منه معنى لتمثيل سور يتداعى فتتقوض أركانه بلحظة من الزمن، ويزيده رونقًا أن وجه المقابلة بالرمل مأخوذ مما يلوح لنظر المطالع؛ إذ السور قائم على الجرف فوق كثبان من الرمال، فالمقابلة مستعارة مما يلوح لدينا لأول وهلة.

(٣٩) الحصار: السور، انتقل بنا الشاعر إلى موقعة فريدة في بابها وهي ترامي الفريقين حول السفن وهي راسية، فلا هي بحرية ولا هي برية، وكأنه أشفق أن يمل القارئ طول هذه المواقع فرجع به إلى فطرقل الذي أتى أوريفيل مداويًا ومداريًا في النشيد الحادي عشر، فكانت بذلك فائدتان للمطالع أولاهما: التفكهة والاستراحة من عناء ذكر القاتل والمقتول فتمضي عليه برهة قبل أن يستأنف الشاعر وصف الموقعة التالية، فيتلقاها المطالع بلا عناء، والثانية: التذكير بفطرقل وأخيل وإعداد الفكر لتلقيهما والحين ساحة القتال.

(٤٠) أي: إن الفريقين تساويا في مرامي الكفاح كاستواء الخطوط في الألواح تسطرها كف صانع حاذق ببناء السفن، فلا ميل فيها

ولا عوج، إشارة إلى أن كفة النصر لم تمل هنا أقل ميل إلى جهة دون أخرى.

(٤١) الغراب: السفينة.

(٤٢) يدوي صوت هكطور كالرعد دوي صوت عنترة إذ قال:

وصــرخت فــيهم صــرخة عبســيةً　　　كالرعـد تـدوي فـي قلـوب العسـكرِ

(٤٣) عبارةٌ مطروقةٌ كثيرًا بوصف المبالغة بإكرام الضيف، قال العتبي يذكر الأمير أبا الفوارس لما قدم على السلطان محمود الغزنوي: وأقام عليه قرابة ثلاثة أشهر ضيفًا لا يتميز عن الأدنيين أرحامًا وشيجة وأنسابًا قريبة.

(٤٤) أي: إن ظواهر الحال تشير إشارة بينة إلى من يراعه زفس ومن الا يرعاه، أراد أن يقول كفة النصر راجعة لنا فتقدموا ولا تخشوا ضميرا.

(٤٥) أنشد المفضل الضبي إبراهيم بن عبد الله بن الحسين في المعركة يوم حمل فقُتل وكان آخر العهد به:

أقــول لفتيــان العشــي تروحــوا　　　على الجرد في أفواههنَّ الشكائمُ

قفوا وقفة من يحيى لا يخر بعدها　　　ومــن يحتــرم لا تتبعــه اللــوائمُ

وهل أنت إن باعدت نفسك منهمُ　　　لتســلم فيمــا بعــد ذاك لســالمُ

(٤٦) الخلايا: السفن، قال عنترة:

ولأجهـدن علـى اللقـاء لكـي أرى　　　مــا أرتجيــه أو يحــين قضــاءي

(٤٧) بئوس الأولى: جمع بأس، والثانية جمع بؤس، أبرز لنا الشاعر هذين الزعيمين المغوارين هكطور وإياس كلًّا على قومه خطابةُ بما واقق موقفه، فهكطور وقد افتر له ثغر النصر ووثق برعاية زفس يستنهض الهمم ويمنّي صبه بالحظ الأسمى والسعادة الكبرى للميت والحي، فالمقتول يخلف ذكرًا حميدًا ويموت سعيدًا ميتة «بطل الذود عن عزيز الذمار»، وله الحظ الأوفى أنه إذا هلك «ظل بالأمن زوجه وبنوهُ وبنوهم بسالمات الديار»، وذلك غاية ما يرى لقوم ضيق عليهم الأعداء وحصروهم ببلادهم، فلا حاث يحثهم على الاستبسال في ميدان النزال أعظم من الرجاء بنيل تلك الأمنية، وقد اجترأ الشاعر هنا بذكر عاقبة النصر لبلد المحصور؛ لأن الطرواد في موقف الفوز، ولا يخفى أنه أشار في النشيد التاسع أبلغ إشارة وأوجزها إلى عاقبة الخذلان إذ قال:

للمبــاني حرقًــا وللقــوم ذبحًــا　　　والغــواني والولــد ذلًّا وأســرا

وأما أياس فقد جمع خطابه أبلغ ما يقال لدفع جمعٍ منكوب، وجيشٍ مغلوب، فإنه صور له الرزايا المحدقة به من كل صوب من حرمان العودة إلى الأوطان، والموت موت الذل والهوان وذهاب السفن طعمة للنار وخلود الخيبة والعار ولا أمل لقتيلهم الهالك بسيف الطرواد أسيرًا أو مهزومًا بحظ قتيل الطرواد الهالك كرًّا وهجومًا، فلا واقي لهم إذن وقد

سدت في وجوههم جميع السبل ولا أمل لهم بمدد يأتيهم إلا التفاني في صد غارة العدو. وختم الخطاب بكلمة تبعث فيهم روح الحمية، وتستحث النفوس الخاملة، فقال: إن الطرواد دونكم بأسًا، فذكرهم سابق نصرهم بأوجز عبارة، وهو في الجملة خطاب لا يتصور أو في منه بالمرام في مثل هذا المقام.

(٤٨) الصوار: قطيع البقر.

(٤٩) الغرار: الحد.

(٥٠) الأدعار: جمع دعر، الشرور.

(٥١) أي: إن الجبان أقرب إلى النجاة؛ لأنه لا يقذف بنفسه إلى المخاطر ولكنه لا يخلف ذكرًا حميدًا. قال المتنبي:

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلةٍ فلا تستعدنَّ الحسام اليمانيا

ولا تستطيلنَّ الرماح لغارةٍ ولا تستجيدنَّ العتاق المذاكيا

فما ينفع الأسد الحياءُ من الطوى ولا تتقي حتى تكون ضواريا

(٥٢) سيشرع الشاعر هنا في وصف آخر موقعة من مواقع هكطور العظمى؛ ولهذا أبرزه بأعظم مظاهر البأس والإقدام، ودفعه إلى ساحة الصدام وعليه رهبة الظافر الفتَّاك، عيناه تقدحان شرارًا وفمه يزبد غيظًا واستعارًا كأنه إلاه الحرب قوة واقتدارًا، وكأن غضبه أوأر شرار، أو نوء آثار لجج البحار، وهو يعيث بجيش العدو عيث الأسد بصوار

الأبقار، فلا يخفى أن الشاعر يرتفع بذهن المطالع مع تلك التشابيه المتعاقبة إلى حيث لا يبلغ التصور مع أي وصف كان لو خلا من هذا الزحف الخلاب.

زفس كبير الآلهة، يمثلونه غالبًا جالسًا على عرش من عاج، والصولجان بيسراه والصاعقة بيمناه وإلى جانب العرش نسر.



زفس.

(٥٣) قال الطرماح:

كل مستأنسٍ إلى الموت قد خا ضَ إليها بالسيف كل مخاضِ

وقال العباس بن مرداس:

أشد على الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها

(٥٤) الصفاة: الصخرة.

(٥٥) الغراب: السفينة.

(٥٦) الغثي: زبد الموج.

(٥٧) الجدود: الشواطئ. والهور: مستنقع المياه.

(٥٨) بينه، أي: بين الصوار، وهو القطيع.

(٥٩) أي: اذكروا أهلكم من كان منهم حيًّا ومن مات فادِّكار الأحياء يهيج العواطف، ويثير الحنان فيبعث على الإقدام، وادكار الأموات يبعث على الأنفة من العار، وطلب الفخار، والحرص على استبقاء الذكر الجميل، وقد جمع نسطور بهذا الخطاب الوجيز كل ما يمكن أن يقال وعدًا ووعيدًا لبث روح الحمية في الجند.

(٦٠) أي: كفارس يركب أربعة من جياد الخيل.

(٦١) المطية: الظهر، إن هذا التشبيه فضلًا عما فيه من لطف التمثيل ينبئنا أن فن الفروسية كان بالغًا أعظم المبالغ في زمن هوميروس،

حتى لقد كان يتأتى لبعض مروضي الجياد أن يثقفوها تثقيفًا يصعب الإتيان بمثله في هذا الزمن؛ إذ كان الفارس الواحد يسوق أربعة منها، ويثب من متن أحدها إلى متن الآخر وهي مغيرة، ويؤخذ من قوله: «حثها بطريق الخلق إلخ» أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك كما يفعل فرسان الملاعب في هذا الزمن، ولعلهم كانوا يفعلونه للافتخار دون التكسب.

أورد الشاعر هذا التشبيه بلسانه لا بلسان المتحاربين، فلا يصح إذن أن يكون دليلًا على نبوغهم في ترويض الخيل إلى هذا الحد أيام الحرب الطروادية، وللشاعر أن يشبه مجريات الأعصار الغابرة بما شاء من أحوال زمانه ومكانه على شرط أن لا يرويها عن أبناء تلك الأعصار.

(٦٢) إنما أحل الشاعر هكطور بمركب أفروطسيلاس دون سواه لئلَّا يضطر إلى رمي أحد زعماء الإغريق بالجبن والخذلان، وأما أفروطسيلاس فقد قتل قبل حين ولا بأس على أحد منهم بحلول هكطور سفينته (أفستاثيوس).

(٦٣) إن خطاب هكطور مع ما فيه من نخوة القائد المعتادة في مثل هذه الحال يشف عن أمرين؛ أحدهما: شعور هكطور بموالاة زفس في كل مواقع النهار، وإعلان ذلك بملء الحمد والشكر. والثاني: رغبته في رد ما ربما يعترض عليه به من الإحجام عن مهاجمة السفائن حتى يومه، فتملص من تلك التبعة بإلقائها من وجه على عاتق شيوخ قومه الجبناء، وإحالتها من وجه آخر على مشيئة زفس.

(٦٤) الآرية: نسبة إلى آريس إلاه الحرب.

(٦٥) إن موقف أياس وخطابه منذرًا بالهلاك وممنيًا بالظفر لأشبه شيءٍ بموقف طارق بن زياد بعد أن انحدر من الجبل المنسوب إليه، قاصدًا غزو الأندلس بأمر موسى بن نصير، فقدم رودريغ لمحاربته بجيش جرار. قال ابن خلكان: فحث طارق المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة، ثم قال: أيها الناس، أين المفر والبحر ورائكم والعدو من أمامكم، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ... إلخ.

النشيد السادس عشر

المعركة السادسة ومقتل فطرقل

مُجْمَلهُ

دخل فطرقل على أخيل ووقف لديه موقف الضارع الباكي يتوسل إليه أن يسلحه بسلاحه ليذهب لمقاتلة الطرواد، فأجابه أخيل إلى طلبه على شريطة أن لا يتجاوز الحدود بل يصد الطرواد عن السفن، ولا يتقدم إلى ما وراء ذلك، وكانت الأعداء قد تألبت على آياس وخارت قواه فجعل يتقهقر، وأضرمت النار بإحدى السفن وأخيل ينظر ذلك؛ فنادى فطرقل وهو يشك في سلاحه وأمره بسرعة المسير، فركب مركبة أخيل وإلى جانبه أفطوميذون رفيقه وحوذيه يسوق الجياد الخالدات، وجمع أخيل قومه المرامد وخطب فيهم ودعا وصلى فانقض بهم فطرقل على الأعداء فهزمهم، وأطفأ النيران المضطرمة بالسفن، وجرى أياس في طلب هكطور فاجتاز الطرواد وهم مدبرون الخندق، وفطرقل في أعقابهم يثير الكفاح ويعمل السلاح ولم يقف في وجه فطرقل من الطرواد إلا زعيم الليقبين، وكان زفس ينقذه من يد فطرقل لو لم تتصدَّ هيرا فتمنعه، فاحتدم غلوكوس الليقي وتقدم بقومه صيانة لجثة زعيمهم فما أغناهم ذلك من شيء بل انتهى الأمر بالتوائهم، واستيلاء الإغريق على أسلاب ذلك الزعيم، وأما جثته فطار بها أفلون إلى ليقيا، فثمل فطرقل بخمرة

الانتصار، ولم يأخذ بأمر أخيل بل تعقب الأعداء في هزيمتهم، وهمَّ بتسلق أسوار المدينة فدفعه أفلون وأرسل إليه هكطور، فقتل فطرقل حوذي هكطور فتقدم أفلون بنفسه وضرب فطرقل وجرده من سلاحه، فبات أعزل لا يقوى على الدفاع فطعنه أوفرب وأجهز عليه هكطور، وجرى في طلب خيل أخيل، فأرخى لها أفطوميذ الأعنة فطارت به وتوارت.

وليست لتدرك بين الملا عناقٌ بها زفس فيلا حبا

وقائع هذا النشيد أيضًا في اليوم الثامن والعشرين.

النشيد السادس عشر

بذاك الغراب استطار الوحى وفطرقل نحو أخيل عدا

تساقط عيناه دمعًا سخينًا كأسحم ماءٍ بصخرٍ جرى[1]

فهزت أخيل لرؤيتهِ عواطف رفقٍ وفرط أسى

فمال إليه وقال: «إذن أفطرقل قل لي علام الشجى

•••

شهقت كطفلٍ جرت تسرع ومن دونها أمها تهرع

فتعلق في ذيل أثوابها ومقلتها صببًا تهمع

وترسل طرفًا بليلًا إليها عساه بذلتها يشفعُ

وتجذبها وهي ضارعةٌ لتحملها فتكفَّ البكا

•••

أعندك من إفثيا خبر ... له قومنا وأنا نذعر

فإن منتيوس ما زال حيًّا ... بذلك قد أنبأ الأثرُ

وفيلاكذا بمرامده ... عزيزٌ وإمرته ائتمروا

همامان لا شك موتهما ... بلاءٌ علينا وأي بلا٢

•••

أم انتابك البث حزنًا على ... لفيف الأخاءة مذ فشلا

تجاه عمارتهم جيشهم ... جزاء مظالمه خذلا

فبح بحقي ضميرك لي ... أحط بالذي رمته عجلا»

فقال وصعَّد أنفاسه: ... «أجلْ يا أشدَّ قروم الورى

•••

دع الكيد فالخطب جلَّ وقد ... تدفق نقع جراح العمد

ذيوميذ أقعده دمه ... وأوذيس رب الطعان قعد

وأتريذ ألّمه جرحه ... كذاك أريفيل ألقى العدد

أحاطت بهم بسفائنهم ... لضمد الجراح خيار الإسى٣

•••

وأنت على الكيد صلد الفؤاد ... فلا كان لي قط هذا العناد

أيا فاسد الباس قل لي لمن ... تعد اشتداد البئوس الشداد

إذا لـم تـزح عـن لفيـف الأخـاء عمـيم الـبلاء بيـوم الطِّـراد٤

فـلالا فمـا أنـت مـن بشـرٍ ولسـت ابـن فـيلا الفـوارس لا

•••

وثيتـيس ليسـت بأمـك أصـلا بـل اخترت في لجة البحر أصلا

ومـن كبـد الصـخر كنـت وليـدًا لأن فـؤادك كالصـخر فعـلا٥

فإمَّـا خشـيت المقـادير فيمـا روت لـك أمـك عـن زفـس نقـلا

فبـي فـابعثنَّ وفـي إمرتـي لفيـف المرامـد أسـد الشَّـرى

•••

عسـى بسـلاحك إن أقبـل يخـالوك وافيـتهم تصـطلي

فينجـو الأخـاء وطـروادةٌ تفـرُّ وكربتنـا تنجلـي٦

ونكتسـح القـوم نكسـأهم لإليـون بـالبيض والأسـل

فإنَّـا ولـيس بنـا مـن عيـاءٍ نبـدد جيشًـا رمـاه العيـا»

•••

لتلـك أمانيـه عـن دفـع نفـس إلى الحتـف ساقته في يوم بؤس

فَـأَنَّ أخيـل وقـال لـه: «أفطرقـل حدسـك لـيس بحدسـي

فلسـت لأخشـى المقـادير فيمـا روت لـي أمـي عـن حكـم زفـس

ولكـن بـي غصـة حرَّقـت فـؤادي الكلـيم بحـر اللظـى

•••

ومـا زلـت ألهـب منـذ انتصـب زعـيم السُّـرى وفتـاتي اغتصـب

وما هو إلّا قريني مقامًا — وما هي الأجزاء النَّصب

حباءٌ حباني الأراغس لما — فتحت البلاد ونالوا الأرب

وأتريذ معتسفًا رامها — كأني دخيلٌ بذاك الحما

•••

ولكن لنغض عن الغابر — ونلهُ بموقفنا الحاضر

فإني وإن كنت آليتُ قبلًا — بأن لا ألين إلى الآخر

إلى أن تحيط بفلكي العدى — وتبدو لديَّ ظبا الباتر

فما كان للمرء مهما الّتَظَى — بأن يكمن الغيظ طول المدى[٧]

•••

فقم بسلاحي وسر بالمرامد — فقد أدرك الفلك جيش الطراود

وبالثغر قد حصروا قومنا — فضاق عليهم مجال المجاهد

وإليون خلفهم اندفعت — كأن لها النصر ألقى المقالد

وما لقيت بطلائعهم — تريكة آخيل تلقي السنا

•••

فلو أن أتريذ لم يعتسف — لما خلت جيش العداة يقف

وولوا وصرعى كتائبهم — ببطن حفائرنا ترتجف

وها هم أحاطوا بدرَّاعنا — وعنهم ذيوميذ عنفًا صرف

وليس براحته عاملٌ — يهيج احتدامًا لدفع الأذى

•••

ولـيس لأتريـذ مـن قـبح نطـق … بـه نفثـات الخبائـث يُلقـي

ولكـن لهكطـور صـوتٌ دوى … يشـقُّ الفضـاء بغـربٍ وشـرقِ

وقـد فـاز بالنَّصـر أعـداؤنا … وضـحوا وعجـوا ونـادوا بسبق

فَكُـرَّ وقِ الفلـك مـن نـارهم … لبلغنـا الـوطن المرتجـى

•••

لأمـري ائتمـر ومرامـي أجـر … فتحـرز لـي كـلَّ مجـدٍ وفخـر

وتحمـل لـي بـالجلال فتـاتي … علـى تحـف ونفـائس غـرٍّ

عـن الفلـك صـدَّ العـدو وعـد … ولـو زفـس أولاك أعظـم نصـرِ

ولا تنـدفع فـي العـدى مفـردًا … فتـبخس قـدري بـين الـورى

•••

ولا يـدفعنَّك طـيش القتـال … لإليـون بـالجيش تحـت النبـال

فـربَّ إلاهٍ ولـي العـداة … كفيبـوس أخلـى الألمـب وصـال

إذن حالمـا الأمـن تضـمنُهُ … لأسـطولنا وتصـدُّ الرجـال

فعـد ودَع الحـرب يضـرمها … سـواك وبـادر إلـيَّ هُنـا

•••

أيـا زفـس ربَّ العلـى يـا أثينـا … وفيبوسًـا السـادة الأعظمينـا

أبيـدوا الطـرواد فـوق الأخـاء … ة يفنـوا بـرمتهم صـاغرينا

ولا يبـق حيًّـا سـوانا بـإليو … ن تخلـو وَدكًّـا نـدك الحصـونا»٨

فـذاك حـديثهما هـا هنـا … وثمـة عـزم أيـاس ارتخـى

•••

توالـــت عليـــه طعـــان العـــدى وزفـــس قُـــوَى بأســـه بـــدَّدا

وفـــــوق تريكتـــــه انهملـــــت نبـــالهم شاســـعات الصـــدى

ويســــــراه بــــــالجوب قائمـــــةٌ يكـــاد مـــن العـــي يلـــوي يـــدا٩

ومـــا كـــل جـــيش العـــدى بقنـــاه بدافعـــــه عـــــنهم القهقـــــري

•••

وفـــــوق جوارحـــــه العـــــرقُ مـــن الجهـــد كالسَّـــيل ينـــدفق

فشــــــق تــــــردد أنفاســــــه عليـــــه وقـــــد كـــــاد يختنـــــق

وســــيم علــــى أزمـــــةٍ أزمـــــةً وزاد علــــى القلــــق القلــــقُ

ألا ليـــت شـــعري كيـــف الأوار عـلا الفلـك قلـن قيـان العلـى١٠

•••

لآيـــاس هكطـــور جريًـــا جـــرى وعاملـــــه بالحســـــام بـــــرى

فـــــأهوى الســـــنان بثعلبـــــه يصـــلٌ صـــليلًا لوجـــه الثـــرى١١

فبــــات أيـــاس بعـــودٍ ضـــئيلٍ وفـــي ســـخط آل العلـــى شـــعرا

وقـــد خـــال زفـــس بـــرى دونـــه عمـــاد القتـــال لنصـــر العـــدى

•••

لـــذاك التـــوى عـــن مرامـــي الظبـــا وبالفلـــك أورى العـــدى اللهبـــا

بكــــل الغــــراب الســــعير فشـــا وفـــي ســـطح وجهتـــه نشـــبا١٢

فصــــاح أخيــــل لــــذا لاطمًـــا بكفيــــه فخذيــــه مضــــطربا:

«بـدار أفطرقـل يـا فـرع زفـس — بـــدار أيـــا فارسًـــا قـــد ســـما

•••

أرى الفلـــك بالنـــار تلتهـــب — وأعـــــداؤنا جملـــــةً وثبـــــوا

فـــوا لهفـــي هـــل ينالونهـــا — ويمنـــع فـــي وجهنـــا الهـــرب

فقـــم بســـلاحي إذن ريثمـــا — أعبـــي كتائبنـــا واذهبـــوا»١٣

ففطرقـــل شـــك بزاهـــي ســـلاحٍ — ببـــرَّاق فـــولاذه قـــد أضـــا

•••

فـــأوثق خفـــين بالقـــدمين — بســاقيه شــدت عــرًى مــن لجــين

وألقـــى علـــى صـــدره لأمـــةً — لآخيـــل روَّعـــة الفيلقـــين

وألقـــى حســـامًا يرصِّـــعه — قتيـــر لجـــينٍ علـــى العـــاتقينْ

وجنتـــه تلـــك ذات الوبـــالِ — تناولهـــا ثـــم فيهـــا اكتمـــى

•••

وتلـــك التريكـــة والعـــذبات — تطيـــر بقونســـها ســـابحات١٤

رماهـــا علـــى ثبـــت هامتـــه — تـــذل لرؤيتهـــا العزمـــات

وقـــام يهـــز قنيًّـــا ثقـــالًا — تخـــفُّ عليـــه لـــدى الأزمـــات

كـــذا غيـــر صـــلد قنـــاة أخيـــل — جميـــع ســـلاح أخيـــل حـــوى١٥

•••

فمـــا كـــان فـــي القـــوم غيـــر أخيـــل — فتًـــى ذلـــك الـــرمح مـــنهم يجيـــل

وعاملـــه زانـــةُ قطعـــت — بقنـــة فليـــون عـــودًا ثقيـــل١٦

وخيـــرون أهـــدى لفـــيلا ســـلاحًا على رقبـــات العـــداة وبيـــلْ

ومـــذ شـــك فطرقـــل أفطمـــذًا لشـــد الجيـــاد ســـريعًا دعـــا

•••

فتًـى كـان يـوم انتيـاب الشـدد وليًّـــا وفيًّـــا لـــه وســـند١٧

ومـــا كـــان يرعـــى فتًـــى مثلـــه مـن الصيد بعـد ابـن فـيلا أحـد

فهـــــب لـــــزنش يقرنـــــه ببـــــاليسٍ ببهـــــي العـــــدد

جـــــوادان عنقـــــاء أمهمـــــا وقـد علقـت مـن نسـيم الهـوا

•••

نعـم تلـك فوذرغـةٌ وهـي تسـعى علـى ضـفَّة الأقيـانُس ترعـى

كـذا حَمَلَـتْ والجـوادان شـبًّا كعاصـفة الـريح جريًـا وطبعـا

وللنيـــر شـــدَّ فـــداس الـــذي أخيـــل بـــإيتين نـــال ســـقعا

جـــوادٌ وإن كـــان رهـــن الـــردى فجـري جيـاد الخلـود جـرى١٨

•••

وبـــالخيم طـــار أخيـــل وصـــاح يعبـــــي مرامـــــده للكفـــــاح

فهبـوا كسـرب الـذئاب الكواســـ ـــر يدفعـه البـأس دفـع الريـاح

ممـــزق فـــوق الـــذرى إيَّـــلًا وأفواههـــا داميـــاتُ الصـــفاح

وتنضـــم جيشًـــا جـــرى والفًـــا بســـلط اللســـان بمـــاءٍ حـــلا

•••

فتنبـــذ فـــي المـــاء تلـــك الـــدما وتـــروي ولا ترتخـــي همـمـــا١٩

كــذا حــول فطرقــل كبــارهم ... لفــــــيفهم دار وانتظمــــــا

وبيـــنهم خـــلٌّ زفـــس أخيـــل ... يحـض الكمـاة حمـاة الحمـا

بخمســـين فلكًـــا أتـــى بهـــم ... بخمســـين كـــل غـــرابٍ أتـــى

•••

بخمســـة صـــيدٍ بهـــم وثقـــا ... بإمرتــــه كفــــل الفيلقـــا

فـــأولى جرائـــدهم نظمـــت ... بـــإمرة مينســـتيوس اللقـــا

(هو ابن الجدول إسفر خيوس الـ ... ـــذي كـــان مـــن زفـــسٍ انبثقـــا

ولكنمـــا أمـــه فولـــدورا الــــ ... ـــجميلة وابنـــة فـــيلا النهـــى

•••

ومـــن بعـــد ذاك الإلاه بغاهـــا ... بـــروس بـــن فيريـــرسٍ وحباهـــا

فكانـــت لـــه علنًـــا زوجـــةً ... وشـــاع بـــأن فتـــاه فتاهـــا)

وثانيـــة الفـــرق انتظمـــت ... لأفـدور مـن جـل بأسًـا وجاهـا

هـــو ابـــن فُلِيْمِيلَـــةَ ابنـــةِ فـــيلا ... س مـــن ولدتـــه بشـــرخ الصـــبا

•••

بديعـــة حســـنٍ بمغنـــى الطـــرب ... بهـــا هـــرمسٌ بـــالغرام التهـــب

رآهـــا تغنـــي وتـــرقص بـــين الــــ ... عذارى لدى ذات قوس الذهب ٢٠

فقاتـــل أرغـــوص هـــام بهـــا ... وفي ذروة القصر فيها احتجب ٢١

وأولـــــدها ولـــــدًا نابغًـــــا ... إذا مـــا عـــدا وإذا مـــا رمـــى

•••

ولمـا تبـدَّى لشـمس النهـار وثـم إليثيـةُ بانتظـار[٢٢]

إخكلـيس أكطـور أنزلهـا بمنزلـه بأجـل شـعار

وفـي حجـر فـيلاس ظـل الغـلام يشـبُّ ربيبًـا عزيـز المنـار

وثالثـةُ الفـرق اجتمعـت لفينـدر بـن ممـال الفتـى

•••

فتًـى لـم يفقـه بهـز القنـا بهـم غيـر فطرقـل إن طعنـا

وفيـنكس رابـع قـوَّادهم هـو الفـارس الشـيخ إلـف العنـا

وخامسـهم ألقميـذ بـن الفيـ ـس مـن عاديـات الـوغى امتحنـا

كـذلك آخيـل كتَّـبهم وصـاح يثبـتهم للـوغى:

•••

«مرامـدة ادّكـروا كـم علـى عـداكم صـديد الوعيـد عـلا

فكلكـم عـاذلي كلّمـا حنقـت وكـلٌ قلـى وتـلا:

«أيـا ظالمًـا يـا ابـن فـيلا فأمـ ـك قـد أرضـعت مـرةً وقـلا

«تصـلبت لبًّـا وقسـرًا حجـرت رفاقـك عـن أشـرف الملتقـى

•••

«هلـم بنـا للـديار وإلا فمـاذا التحامـل حقـدًا وغـلا»

لتلـك أقـاويلكم جملـةً فـدنكم جـذوة الحـرب تصـلى

وتلـك أمـانيكم فليكـرَّ إليهـا الـذي كـان للكـر أهـلا»

فهبـــوا ولبَّـــوا ملـــيكهم كتائـــب رُصَّـــت كـــرصٍّ البنـــا

•••

كصـــخرٍ بصـــخرٍ قـــد اتصـــلا بحـــائط دارٍ ســـمت للعلـــى

وأحكِـــم بناؤهـــا رصـــفها فلســـيت تبـــالي بنـــوءٍ ولا

كـــذاك تألـــب جيشـــهم وقـــد لاصـــق البطـــلُ الـــبطلا

وبـــالخوذة الخـــوذة اشـــتبكت وفـوق المجـن المجـنُّ انحنـى٢٣

•••

بهبـــتهم عـــذباتُ القـــوانس تلاقــت تمــوج بهــام القــوامس

وفطرقـــل شـــك وأفطمـــذٌ وقــد بــرزا لالتقــاء الــدَّراهس

همامـــان همُّهمـــا واحـــدٌ نكــال العــدو بصــدر الفــوارس

وأمــا أخيــل فلمَّــا اســتتم انــ ـــتظامهم للخيـــام انثنـــى

•••

هنـــاك غطـــاء خزانتـــه أمـــاط يـــؤج ببهجتـــه

فتلـــك الخزانـــة قـــد أتحفتـــه بهـــا أمـــه يـــوم غزوتـــه

وقـــد شـــحنتها بأرديـــةٍ تصـــد الهـــواء بهبتـــه

وأكســـية وطنـــافس غـــرٍّ تشـــوق برؤيتهـــا مـــن رأى

•••

فـــأخرج كوبًـــا بـــديعًا ســـناه بــه لــيس يشــرب خمــرًا ســواه

لـــزفس بـــه الـــرَّاح ترفـــع صـــرفًا وتهـــرق مـــن دون كـــل إلاه

بنـــــار الكباريــــــت طهـــــره وغمَّســـــــه بنقـــــي الميــــــاه

ومــن بعــد غســل يديــه بــه الخمــ ــــر ســوداء صــبَّ بكــل اعتنــاء

•••

وبـــــين الســــرى قــــام يرفعـــــه ويعلـــــو لـــــــزفس تضـــــرُّعه

يشـــير بعينيـــه نحـــو الســـماء وزفــــــس يــــــراه ويســــــمعه:

«أيـا زفـس رب الـددون ومـولى الـ ــــفلاسج مـــن بـــان مربعـــه٢٤

ويـــا ملكًـــا بددونـــه حيـــث أز مهـــرَّ علـــى القـــوم قـــرُّ الشـــتا

•••

وحيـــث ســـرى الســـلة الســـهد رواتــك مــن حولــك احتشــدوا٢٥

فلـــم يغســـلوا لهـــم قـــدمًا وغيـــر الثـــرى مـــا لهـــم مرقـــدُ

دعوتـــــك قـــــبلًا فـــــأعزتني بـــذل الأخـــاء وقـــد جهـــدوا

ألا فاســــــتجبني أيضًـــــا ولا تخيبنـــــي يـــــا ســـــميع الـــــدعا

•••

فهـــا أنـــا مـــا بـــين فلكـــي مقـــيم فيزمـــع فطرقـــل خلـــي الحمـــيم

يقـــــود مرامـــــدتي للـــــوغى فخولــه نصــرًا أزفــس العظــيم

وصـــــلبه لبًّـــــا فـــــيعلم هكطـــــو ر هــل هــو كفــؤٌ لــرغم الغــريم

وهـــــل لا يكـــــر ويـــــبطش إلَّا إذا مـــــا وراء أخيـــــل انبـــــرى

•••

وشــــدده حتَّـــى إذا مـــا انتصـــر وعــن موقــف الفلــك زال الخطــر

يــــأوب إلـــيَّ هنــــا ســــالمًا بعســــكره وســــلاحي الأغـــر»

لـــزفس دعـــاء أخيـــل رقـــى وزفـــس وعـــى جـــابرًا وكســـر

فخـــوَّل فطرقـــل صـــون الخلايـــا وأمـــــا ســــــلامته فـــــأبى

•••

وأمـــا أخيـــل فمـــذ أكمـــلا فــــروض عبادتــــه قفــــلا

بموضـــعه الكـــوب أودع ثـــم إلـــى بـــاب خيمتـــه أقـــبلا

وظــــل هنالــــك مرتقبًــــا منازلـــة الجحفـــل الجحفـــلا

وفطرقـــل والجـــيش منـــتظمٌ بإمرتـــه للكفـــاح مشـــى

•••

كـــأنهم الـــدبر ثـــار يمـــور وخشـــرمه بســـبيل العبـــور

وثمـــة ولـــدٌ تحثحثـــه ليبعـــث منتشـــرًا بالشـــرور

يمـــر علـــى جهلـــه عـــابرٌ فيدفعـــه فعليـــه يثـــور

يـــذب عـــن البـــيض مستبســـلًا حديـدًا لحمـاتِ شـديد القـوى٢٦

•••

ســـرى المرمـــدون بشـــدتهم كـــذا انبعثـــوا مـــن عمـــارتهم

وفطرقـــل يصـــرخ مـــذ أقبلـــوا يعـــج الفضـــاء بضـــجتهم:

«مراميـــد لـــيس لقـــوم أخيـــل بـــأن ينثنـــوا عـــن عـــزيمتهم

علينـــا ونحـــن ســـراه بـــأن نجـــلَّ أجـــلَّ فتـــى بالسُّـــرى

•••

لـــيعلم أتريـــذُ مـــا اجترحـــا بحـــط أشـــد قـــروم الـــوحى»

فهاجـــت لـــذاك حميـــتهم وكلهـــم للقـــا طمحـــا

وكـــرُّوا وصـــاحوا وصـــيحتهم صـــداها بفلكهـــم صـــدحا

وفطرقـــل يزهـــو وأفطمـــذٌ بصـــدرهم ببهـــي الحلـــى

•••

فخـــار الطـــرواد وارتعبـــوا لمنظـــر فطرقـــل واضـــطربوا

وخـــالوا أخيـــل ارعـــوى مقـــبلًا علـــيهم وقـــد فاتـــه الغضـــب

فكلهـــم التـــاع مستشـــرفًا يـــرى كيـــف ينجـــو بـــه الهـــربُ

ومعظمهـــم عـــجَّ حيـــث غـــراب فروطســـلاس الأبـــي رســـا

•••

هنالـــك فطرقـــل حيـــث خطـــاه وأرســـل يقـــذف صـــلد القنـــاه

فـأدرك بـالكتف فيـرخم مـولى الـ ـــفيونة صـــيد الجيـــاد العتـــاه

بهـم مـن أميـدون مـن جـدٍّ أكسـ ـــيُّس خـــفَّ معتصـــمًا بقـــواه

فخـــرَّ وخـــارت كتائبـــه وولـــوا شـــتاتًا بعـــرض الفـــلا

•••

مقابســـهم غـــادروا بالتهـــاب وقـد لهمـت نصـف ذاك الغـراب

ففطرقـــل أخمـــدها والعـــدى تبـــدَّد شـــملهم باصـــطخاب

وهـــبَّ الأخـــاء بتلـــك الخلايـــا وهـــدة نعـــرتهم للســـحابْ

عـــن الفلـــك شـــتَّ العـــدوُّ وقـــد بـــدا فـــرجٌ بعـــد طـــول العنـــا

•••

كـــأن مثيـــر الصـــواعق بـــدد سـحابًا بـه شـامخ الطـود يربـد

فتبـدوا الضـواحي وشُـمُّ الرَّواسـي وبطـــن الوهـــاد ونجـــدٌ وفدفـــد

وينفـــتح الجـــو والنـــور يلقـــي بلـــب الرقيـــع شـــعاعًا توقّـــد٢٧

ولكنمـــا الحـــرب مـــا بلغـــت بشـــدَّتها غايـــة المنتهـــى

•••

فطـروادةً سـاق حكـم اضـطرار فغـادرت الفلـك تبغـي الفـرار

وظلّـــت تـــذود وفـــي إثرهـــا علـى كـل قـرمٍ عميـدٌ أغـارْ

وفطرقـل فـي صـدر جنـد الأخـاء علـى عرليـق السـنان أطـار

فأنفـــذ فـــي حقـــه والجًـــا إلـى العظـم فـانقض فـوق الثَّـرى

•••

وخـــرَّ ثـــواس بـــرمح منيـــل وعـن صـدره الجـوب كـان أميـلْ

وأمفقـــل رام مجـــيس ولكـــن مجـيس تلقَّـى بـرمح صـقيل

فبتَّـــت قلـــب شـــظيَّته فخـر غضـيض الجفـون قتيـل

وأنطـيلخٌ شـق خصـر أتمنـــ ـــيسًا فلـدى قدميـه التـوى

•••

فحـرَّق مـاريس مـوت أخيـه فخـــفَّ لجثتـــه ليقيـــه

وقـــد كـــاد يطعـــن أنطيلخًـــا ولكـــن بـــدا ترســـميذ يليـــه

فبـــادر عاتقـــه بســـنانٍ فـرى اللحـم والعظـم ينفـذ فيـه

فخرَّ وصلَّ بشكته ... وعينيه غشى ظلام الردى

•••

كلا الأخوين رمى الأخوان ... فمن ولد نسطور ذي الفضل ذان

وذانك فرعا أميسودرٍ ... سليل خميرة هول الزمان[٢٨]

حليفا ودادٍ لسرفيذنٍ ... وشهمان قرمان يوم الطعان

هما لأريبا كذا انحدرا ... وقد غادرا قرع صم القنا[٢٩]

•••

كذاك أياس بن ويلوس كر ... إذا إقليوبول حيًّا ظهر

تربَّك يبغي الفرار فوافى ... أياس بماضي غرارٍ أغر

فواراه في جيده فقراه ... وأخرج يلهب والقرم خر

وليقون رام فنيلا وكلٌّ ... رمى وكلا العاملين نبا

•••

فكرَّا وكلٌّ براحته ... حسامٌ فخفَّ بضربته

فعامل ذاك أصاب التريكـ ... ـة فانقضَّ من كعب قبضته

ولكن فنيلا فرى الجيد والرأ ... س علق يهوي بجلدته

فغادره نور مقلته ... وفوق الحضيض صريعًا هوى

•••

ومريون مذ أقبل السهل ينهب ... أكاماس أدرك إذ همَّ يركب

فألقى بعاتقه طعنةً ... فجندل عن طرفه النور يحجب

وإيـــــذومنٌ إرمـــــاس أصــــاب بفيـــه وفيـــه الســـرية غيَّـــب
فشــقفت العظــم تحــت الــدماغ وأســـنانه فلقلـــت فـــي اللثـــى

•••

فمـــن منخريـــه النجيـــع تفجـــر ومـن فيـه والطـرف بالـدم محمـر
ومـن فوقـه المـوت ألقـى سـحابًا كثيفًـــا بســـترته قـــد تســـتر
وجـــيش الطـــراود ولّـــى شـــتاتًا وقـد فاتـه البـأس والـذب والكـر
وإثـــرهم انقـــض جنـــد الأخـــاء وكـــل زعـــيمٍ زعيمًـــا فـــرى

•••

كســرب ذئـــابٍ بشـــم الخبـــال قـد انقـضَّ يبغـي قطيـع السـخال
وقـــد فرَّقتـــه الرعـــاة بجبـــلٍ فيدهمـــه بفســـيح المجـــال
ويـــــبطش فيـــــه يمزقـــــه ولـــيس لـــه مهجـــةٌ للنضـــال
فـــذا شـــأنهم وأيـــاس حشـــاه لإدراك هكطـــور فيـــه التظـــى

•••

ولكـــن هكطـــور وهـــو الهمـــام وقـــد حنَّكتـــه ضـــروب الصـــدام
أصـــــاخ بســـــترة جنَّتــــــه لقـــرع القنـــا وهزيـــز الســـهام
وقـــد شـــهد النصـــر رجحانـــه لقـــوم العـــداة فهـــام وحـــام
تثبَّـــت يفكـــر فـــي صـــحبه يـــروم لهـــم نجـــوةً ترتجـــى

•••

فمـن موقـف الفلـك بـالعنف ثـار هديــد الــوغى وصــديد الفــرار

كمـا انـدفع الغـيم بـالجو فـي يـو	م صــحوٍ بــه زفــس نــوءًا أطــار

وفيلــق إليــون قــد فــرَّ حتــى الــ	ــــحفير بغيـــر هـــدًى وقـــرارْ

بهكطـــورهم جمحـــت جـــرده	فألقتـــه عـــنهم بعيـــد المـــدى

•••

وبيـــنهم بـــات ذاك الحفيـــر	لهــم حــاجزًا عــن حثيــث المسـير

فكــم مــن عجــالٍ بــه ســحقت	وقـــد غادرتهـــا الجيـــاد تطيـــر

وفطرقـــــل يُنخـــــي كتائبـــــه	لســحق جيــوشِ العــدى ويغيــر

فولّـــوا بعـــرض الفـــلا شـــرَّدًا	وقـــد ولولـــوا والفـــؤاد وهـــى

•••

فعــــجَّ عجـــاجهم للسَّـــحابْ	وفطرقــل يطلــب لــبَّ العبــاب

فكـم فـارسٍ بـات تحـت العجـال	وقــد خــرَّ يخفــق فــوق التُّــراب

وكــم فــرسٍ غــادر المركبــاتِ	تخـــبُّ ووجهـــة إليـــون آبْ

ولــم تــك جــردُ أخيــل لتعبــا	بــذاك الحفيــر العميــق الهــوى

•••

تعدَّتـــــهُ كـــــالبرق رامحـــــةً	مــن الجــرف للجــرف ســابحةً

سـلاهب خلـدٍ بنـو الخلـد كانـت	لفـــيلا الفـــوارس مانحـــــةً

ومهجـــةُ فطرقـــل مـــا لبثـــت	لإدراك هكطـــــور طامحـــــةً

ولكــن هكطــور والخيــل شــطت	بـــه جامحـــات الصـــدور نـــأى

•••

وخـــيلهم وهـــي منطلقـــه تغيـــر وتصـــهل مندفقـــه

كـــأن الغيـــوم بيـــوم خريـــفٍ بنـــوءٍ علـــى الأرض منطبقـــه

فيهمـــر زفـــس الســـيول انتقامًـــا مـــن الخلـــق إذ تنبـــذ الشـــفقه

وتقضـــي القضـــاة بمجلســـها ولا قســـط فـــي حكمهـــا والقضـــا

•••

وقـــد فاتهـــا حمقًـــا أن تهـــاب بنـي الخلـد إن نهضـت للعقـاب

فتطغـى مجـاري الميـاه وتطمـو الـ ـسيولُ وتـنقض فـوق الهضـاب

تغـــادر شـــمَّ الجبـــال زعابًـــا إلـى البحـر يعلـو لظهـر زعـاب

تعيـث وتفسـد فـي الأرض حتَّـى عنـا النَّـاس يصـبح طـرًّا هبـا٣٠

•••

وفطرقـــل بـــين الصـــدور صـــدر وسـاق إلـى الفلـك تلـك الزمـر

علـــى رغمهـــم دون عـــودتهم لإليـــون حـــال وأجـــرى العبـــر

وجنـــدهم بـــين مرســـى الخلايـــا وســيموسٍ والحصــار حصــر٣١

وصـــــال وأوَّل صـــــولته علـــى أفرنـــوس الهمـــام ســـطا

•••

بـــدا صـــدره تحـــت جنَّتـــه وفطرقـــل خـــفَّ بطعنتـــهِ

فجندلـــه لا حـــراك بـــه وأهـــوى يصـــلُّ بشـــكته

وثنـــى بشســـطور إيـــنفس لمـــا تلملـــم مـــن فـــوق ســـدَّته

تضعضــع خوفًــا فــأرخى العنــان وفطرقــل فــي إثــره مضــى٣٢

•••

بصــفحة وجنتــه الــرمح ألقــى فغــاص وشــقَّ النَّواجــذ شــقًّا

ومــــن ثمـــة اجتـــرَّه بالســـنان عـن العـرش بـالرمح يلصـق لصـقا

كما اصطاد بالشص من فوق صخرٍ فتـى سـمك البحـر والشـص دقـا

فألقـــاه والـــرمح يفغـــر فـــاه علـى وجهـه ثـم عنـه اغتـدى

•••

فـــإريال ألفـــى إليـــه ابتـــدر فبــــادره قاذفًــــا بحجــــر

فحـــــل بـــــبطن تريكتـــــه وهامتـــه شـــقَّ ثـــم انحـــدر

فخــرَّ صــريعًا ومــن حولــه الــ ــحمام مبيــد الحيــاة انتشــر

ومـــن ثـــمَّ أتبعـــه بقـــرومٍ علـى بعضـهم بعضـهم قـد ثـوى

•••

فمـــنهم إريمـــاس أمفـــوطروس وإيفلـــط إيفـــيسٌ إيخيـــوس

وإطلـــوفلتم فـــريس كـــذاك فليميـــل أرغـــيس إيفـــوس

فلمـــا رأى صـــحبه ســـرفذون بهــم لعبــت عاديــات البئــوس

تحـــدَّم يصـــرخ فـــي قومـــه: «فــوا عــاركم يــا بنــي ليقيــا

•••

قفــوا لا تفــرُّوا عــلام الوجــل فـــإني أطلـــب هـــذا البطـــلْ

لأعلـم مـن ذا الـذي عـاث فينـا ومنـــا العديـــد الـــوفير قتـــل»

ترجَّل يعدو وفطرقل لمَّا   رآه ترجَّل ثم حملْ

كأنهما عندما اصطدما   عقابان من فوق صخرٍ نتا

•••

يهبَّان هِبَّة مظفر   بعقف المخالب والمنسر[33]

يصرَّان صرصرة ويشبَّا   ن من فوق ذيَّالك الحجرِ

وزفس بعزلته راقبٌ   فهاج به الرفق بالبشر

فقال لهيرا شقيقته   وزوجته: «آه حل القضا

•••

أرى سرفذون أحبَّ العباد   إليَّ بعامل فطرقل بادْ

ينازع قلبي أمران إمَّا   مواراته عن مجال الجلادْ

وإلقاؤه وهو حيّ مفدى   إلى قومه في خصيب البلاد

وإما السماح بمقتله   فيبلغ فطرقل منه المنى»

•••

فقالت: «وأي مقال تقول   أيا ابن قرونس قيل القيول

فتًى من بني الموت حكم الردى   رماه وأنت تجوز الأصول

فأنفذ مرامك إن رمت لكن   بنو الخلد لا يظهرون القبول

فدونك مني مقالة حقٍ   فألق مقالي بسامي الحجى

•••

إذا سرفذون إلى الأهل حيَّا   أعدت فآل العلى تتهيَّا

وتطلب إنقاذ أبنائها … من الحتف مثلك شيئًا فشيئا

فإن أنت أحببته سمتهم … على مضض الكيد غيظًا وغيًّا

فخل حنوَّك واأذن إذن … ففطرقل ينفذ حكمًا مضى

•••

فإن غادرته الحياة وباد … مر الموت فورًا وعذب الرقاد

إلى ليقيا يحملاه سريعًا … لإخوته والصحاب البعاد

فيدفن في اللحد حرًّا كريمًا … ونصبُ الكرام عليه يشادْ

فذاك جزاء الأولى جاهدوا … وماتوا كرامًا ونعم الجزا»

•••

فأذعن زفس لها ثمَّ أمطر … على الأرض طلًّا من الدم أحمر ٣٤

قيامًا بإجلال فرعٍ حبيبٍ … سيردى غريبًا وفطرقل يفخر

فكرًّا وفطرقل ثرسملًا … رمى بالصفاق فمن فوره خر

تلا سرفذون بسوق الجياد … وكان حليف الصبا المرتضى

•••

وعامله سرفذون قذف … ولكن بكتف فداس وقف

فخرَّ لوجه الثرى صاهلًا … وقد زهقت روحه وارتجف

فأزعج مصرعه الفرسين … فشبَّا ونيرهما قد قصفْ

وصرع عنانيهما التف فاستـ … ـل أفطمذّ سيفه وانتضى

•••

وخـــف وبـــت ربـــاط الجـــواد فعـــادا لروعهمـــا والطـــراد
وعـاد الكميـان للضـرب والطعـ ـن في حومة الحرب قرمي عناد
رمـــى ســـرفذون مثقفــــه فعـن كتـف فطرقـل يسـراه حـاد
ولكـــنَّ فطرقـــل عاملـــه أطـــار ومـــا إن أطـــار ســـدى

•••

ففــي ســرفذون الســنان انتشــب على عضـل القلـب حيـث انتصب
فـــأهوى يصـــر أمـــام العجـــال بأســـنانه والحضـــيض اختضـــب
كملولـــــــةٍ أو كصفصـــــــافةٍ وباســـقةِ الأرز فـــوق الهضـــب
بهـا نفـذ الحـد فـي كـفِّ وشـا ر فلـكٍ متـين الجـذوع بـرى٣٥

•••

وخـــرَّ كثـــورٍ بصـــدر الصـــوار عتـــا وعليـــه الغضـــنفر ثـــار
ومـــن تحـــت صـــكَّةِ أنيابـــه يخـــور إلـــى أن تـــرجَّ القفـــار
كـــذا خـــر مـــولى بنـــي ليقيـــا ومـن كـفِّ فطرقـل ألفـى البـوار
ولكنَّـــــــــه بتجلّـــــــــدِهِ عـــلا صـــوتُهُ بجهيـــرِ النِّـــدا:

•••

«ألا يـــا غلـــوكس خيـــر أليـــفِ لـذا الحـين حـين الصـدام العنيـفِ
لـــئن كنـــت ذا مهجـــةٍ وجنـــانٍ فـــلا تَصـــبُ إلَّا لقـــرع السُّـــيُوفِ
أثـــر بقيـــول بنـــي ليقيـــا لـــدى ســـرفذون أوار الحتـــوف
وذودنَّ عنـــي وللحـــرب ألهِـــبْ قُلـــوبَ السُّـــرى بســـعير الجـــذى

•••

وإلّا وبهـــم العـــدى صـــرعوني وجنـدلت فـي وجـه هـذي السـفين

ســأورثك الــدَّهر خزيًــا وعــارًا إذا مـا العـدى شِـكّتي سـلبوني»

ومـــن ثـــم أخمـــد أنفاســـه وأغمـض عينيـه سـتر المنـون٣٦

وفطرقـــل داس علـــى صـــدره لينتـــزع العامـــل الممتهـــى٣٧

•••

فـــأخرج يعلـــق ذاك العضـــل بحـــد الســـنان وروح البطـــل

وهـــم المرامـــد فـــي عجـــلٍ ليسـتوقفوا الجـرد تحـت العجـل

عتـــاقٌ وغادرهـــا فارســـاها فحثحثهـــا للفـــرار الوجـــل

وأمـــا غلـــوكس فالتـــاع بثًّـــا لـذاك النـدا وحشـاه انفـأى٣٨

•••

لقـد بسـط الكـفَّ فـوق الـذراع ولـــيس بـــه قـــوةٌ للـــدفاع

فمـــا زال يؤلمُـــهُ نبـــل طفقيـــ ـــر لمـا تسـلق فـوق القـلاع

فألفـت يـدعو أفلّـون ربَّ السِّـ ـهام: «ألا رب جـد باسـتماع

فحيـث تكـن أنـت يبلغـك صـوتُ كئيـبٍ تلهَّـف مثلـي أنـا

•••

أفــي ليقيــا كنــت أرضِ اليســار أم اختـــرت إليـــون دار قـــرارْ

فأنــت تــرى ألمــي وجراحــي وســيل دمٍ مــن ذراعــي فــارْ

تثقــلُ كتفــي مــن هــز رمحــي إذا مــا عــلا بالبــدار الغبــار

وذا سـرفذون العميـد ابـن زفـس وما صـانه زفـس ألفـى التـوى٣٩

•••

فـآلامي الآن سـكن وخفـف وبأسًـا أنلنـي والـدم جفـف

لكـي اسـتحثَّ بنـي ليقيـا وحـول القتيـل الرمـاح نكشـف»

دعـا فاسـتجيب الـدعا ومسـيل الـدماء على الفـور بـالجرح أوقف

وآلامـه سـكنت وحشـاه ببـأس شـديدٍ ذكـا واصـطلى

•••

فمالـت بـه هـزَّةُ الطـرب لمـا نـال مـن بلغـة الأرب

بصـيد بنـي ليقيـا طـافي يستنـ ـهض الـبهم للـذَّود والطلـب

وبـين الطّـراود جـال فمـال لفوليـدماس الهمـام الأبـي

وأنيـاس ألقـى فحـثَّ وخـفَّ إلـى آغنـور الفتـى المُجتبـى

•••

وهكطـور وافـى بقلـب الحديـد يـؤج فصـاح بصـوتٍ شـديد:

«أشـأنك هكطـور عـن حلفائـ ـك تغضي وصـيد سـراهم تبيـد

بحبـك قـد هلكـوا وعـداهم عـن الأهـل والـدَّار بـون بعيـد

فـذا سـرفذون المليـك الـذي حـوى البـأس والعـدل غضًّـا ذوى

•••

أريـس براحـة فطرقـل قـد رمـاه وحرَّقنـا بالكمـد

ألا مـا كـررتم وقلـبكم الـ ـتياعًا بحـرِّ الأوار اتقـد

ألا مـــا خشـــيتم أن المرامـــ ـــد ينتزعـــون زهـــيَّ العـــدد
ويولونـــه الـــذّلّ منـــا انتقامًـــا لـــبهمٍ أبـــدنا بغـــر الظبـــا»

•••

فهـــدَّ الطّـــراود ذاكـــي اللهـــف على سـرفذون وفـاض الأسـف
فقـد كـان وهـو دخيـلٌ بهـم لهـم منعـةً مـن عـوادي التلـف
مشـى إثـره الـبهم جيشًـا ولـيس لـه بهـم شـبهٌ أو خلـف
فهـاجوا وهكطـور فـي صـدرهم تحـدم غيظًـا يحـث الخطـى

•••

ولكـن فطرقـل بـين الأخـاء عـدا يسـتحثهم للقـاء
وأقبـل يـدعو الأياسـين لكـن فـؤاد الأياسـين يـذكو اصـطلاء:
«ألا الآن دونكمـا الـذود مـذ كنـ ـتما خيـر كـل قـروم الـبلاء
فـذا سـرفذون الفتـى مـن إلـى الـ ـمعاقل قبـل الجميـع رقـى

•••

عسـى أن نفـوز بجثتـه نجردهـا لمذلّتـه
ونفـري بحـد الغـرار الأولـى يـذبُّون مـن جنـد عصـبته»
فهبَّـا ومـن كـل صـوبٍ تكثَّـ ـف جـيشٌ يجـيش بهمتـه
وحـول القتيـل اصـطدامٌ عنيـفٌ وعـجٌ مخيـفٌ وصـلُّ الشـبا ٤٠

•••

بنـو ليقيـا ولفيـف الطـراود وجنـدُ الأخـاء وجـيش المرامـد

جمـــــيعهم انـــــدفعوا دفعـــــة بصلصـــــلةٍ ووحـــــي متصـــــاعد

وزفـــس علـــى فرعـــه حســـرةً تحـــرَّق يبغـــي اشـــتداد الشـــدائد

فأحـــدق فـــيهم وقـــد كيـــد كيـــدًا وأســـبل ســـتر ظـــلامٍ دجـــا ٤١

•••

ففـي البـدء جـيش القتيـل انـدفق وصـــدَّ الأخـــاء الحـــداد الحـــدق

فبـــين المرامـــد خـــر إفيجـــ ـــيُّس بـــن أغكلـــيس فخـــر الفـــرق

لقـــد كـــان قـــبلًا ببوذيـــةٍ فغادرهـــا تحـــت جـــرمٍ ســـبقْ

مضـــى فاتكًـــا بـــابن عـــمٍ لـــه وعنـــد ثتـــيس وفـــيلا التجـــا

•••

إلـــى حـــرب طـــروادةٍ ســـيَّراه لآخيـــل خـــرَّاق جـــيش الكمـــاه

لقـــد رام ســـلب القتيـــل وهكطـــو ر فـــورًا بجلمـــود صـــخرٍ رمـــاه

وهامتــــــــــــه بتريكتــــــــــــه لشـــــطرين شـــــقَّ فـــــألفى رداه

ومـــن فـــوره خـــرَّ فـــوق القتيـــل وحـــرَّق فطرقـــل فـــرط الشـــدَّا ٤٢

•••

حكى مذ مضى في الطلائع صقرا لديـــه الزَّرازيـــر يفـــررن فـــرَّا

وســـرب العقـــاعق مـــن وجهـــه شـــتاتًا تســـاق بـــه حيـــث كـــرَّا

فســعديك يــا ابــن منتيــوس هزَّمـــ ـــت كـــلَّ فتًـــى هالعًـــا مقشـــعرا

بنـــي ليقيـــا والطـــراود طـــرًّا قهـــرت انتقامًـــا لإلـــفٍ كبـــا

•••

وعنــــق ابــــن إيثــــيمنٍ إســــتنيل دققــت بصــــخرٍ قــذفت ثقيــلْ

ففـــرَّ الطـــراود فـــي وجههـــم كـــذلك هكطـــور ولّـــى ذليـــل

إلـــى أن أبينـــوا علـــى روعهـــم علـى بعـد مرمـى سـنانٍ صـقيل

علـى العنــف يرمـي بــه طـاعنٌ بـدار الـوغى أو بعـرض اللّهـى٤٣

•••

ولكـــن غلـــوكس ثـــم انثنـــى وعــاد فأعمـــل شـــهب القنـــا

وأصـمى بثكلـيس خلوكـون مـن بهـــــيلاذةٍ ناعمًـــــا ســــكنا

ومـا كـان بـين الطّـراود مـن حكـــاه بهـــم ثـــروةً وغنـــى

لقـد كـاد يرمـي غلـوكس لمَّـا وراء العـــداة حثيثًـــا ســـعى

•••

فعـــاد غلـــوكس والـــرُّمح زج وفـي الصَّـدر حـدُّ السـنان ولـج

علـى بأسـه خـرَّ فارتجَّـت الأر ضُ والتهبـــت بذويـــه المهـــج

ولكـــنَّ جـــيش العـــدى فرحًـــا تكثَّـــف مـــن حولـــه وابـــتهج

وأمَّـــا الأخـــاء فلـــم ينثنـــوا بـــل انـــدفعوا كزعـــابٍ طغـــا٤٤

•••

ومريـــون بـــين العـــدى ظفـــرا بقـــــرمٍ بلوغـــــونسٍ شـــــهرا

هــو ابــن أنيطــور كــاهن زفــس بإيـــذا ومـــن مثلـــه وقـــرا

أصـيب علـى مقتـل الأذن فانقـ ـضَّ لا رمـقٌ فيـه فـوق الثَّـرى

فبـــادر أنيـــاس يطعـــن مريـــو ن لكـــنَّ ذاك الســـنان هفـــا٤٥

•••

لقـــد كـــان مريـــون مســـتترا بجنَّتــــــه عنـــــدما ابتـــــدرا

فمـــال عـــن الـــرمح والنَّصـــل زلّ ومـــن خلفـــهِ للحضـــيض ســـرى

وظـــــلَّ هنالـــــك مرتعشًـــــا علـــى ذلـــك العـــزم إذ خـــدرا

رمتـــه ذراعٌ لهـــا البـــأس ينمـــي فأنفـــذ لكـــن بـــبطن النقـــا٤٦

•••

وأنيـــاس صـــاح مغيظًـــا: «أجـــل أمريـــون فاتـــك ســـهم الأجـــل

وإلا فمهمـــا تفوَّقـــت رقصًـــا لـو النَّصـل وافـاك عزمـك فـل»٤٧

فقــال: «أأنيــاس هيهــات تصــمي جميـــع العـــداة وأنـــت بطـــل

وأنـــت رهـــين الحمـــام عســـى أصـيبك مهمـا حشـاك عسـا٤٨

•••

فإمَّـــا زمتـــك طبـــا أســـلي وقـــد أدركتـــك انتهـــى أملـــي

فـــلا شـــك تهـــبط فـــي فشـــلٍ لآذيـــس روحـــك والفخـــر لـــي»

ولكـــنَّ فطرقـــل ســـيءَ فقـــال يؤنـــــب مريـــــون بالعجـــــل:

«عـلام أخـي ذا المقـال المهـين وأنـــت بلوتـــك ســـامي النُّهـــى

•••

أتـــزعم أن حديـــد الكـــلام يصـــد الطـــراود يـــوم الصـــدام

فمـــاذا بـــدافعهم عـــن قتيـــلٍ حواليـــه تصـــطك لامٌ بـــلام

ولــن يرجعــوا عنــه حتَّــى يضــاف ... صـــريعًا لـــذاك الهمـــام همـــام
فللحـــرب فعـــلٌ وللســـلم قـــولٌ ... وهـــذا أوان الـــوغى لا اللغـــا»٤٩

•••

فخــفَّ ومريــون فــي الإثــر خــف ... كــربٌ وللجــيشِ جــيشٌ زحــف
وفـي السـهل للبـيض والسـمر قـرعٌ ... بفـــولاذهم وإهـــاب الحجـــف٥٠
كــــأن بــــأذرِع حطّابـــةٍ ... بغـــابٍ فئوسًـــا صـــداها قصـــف٥١
وحـــول القتيـــل اســـتطار العجـــاج ... ووبـــل الـــدما والنصـــال همـــى

•••

مـــن الـــرأس غشَّـــاه حتـــى القـــدم ... فمـــا كـــان يبصـــر بـــين الـــرمم
وفيلـــق كـــل فريـــقٍ لديـــه ... بهدَّتـــه الكفـــاح ازدحـــم
كـــأنهم بـــالربيع ذبـــابٌ ... يطـــنُّ طنينًـــا ببيـــت الـــنَّعم
وقـــد حـــام مـــن حـــول ألبانهـــا ... إذا مـــا الإنـــاء رآه امـــتلا٥٢

•••

وزفـــس بشـــامخ تلـــك الـــذرى ... عـــن الحـــرب مـــا حـــوَّل النظـــرا
ولكنَّـــه لـــم يـــزل راقبًـــا ... بمقتـــل فطرقـــل مفتكـــرا
يجيـــل بـــأمرين هاجســـه ... أيـــدفع هكطـــور مســـتعرا
فيقتلـــه فـــوق ذاك القتيـــل ... ويســـلبُ منـــه ســـلاحًا زهـــا

•••

أم الحـــرب عنفًـــا شـــديدًا يزيـــد ... وفيهـــا قـــروم الرجـــال يبيـــدْ

فعــوَّل أن يســتحث إلــى الفتــ	ــك بــالبهم إلــف أخيــل العميــد
فيــدفع هكطــور والجــيش طــرًّا	لإليــون مــن تحــت قــرع الحديــد
لــذلك أوهــن هكطــور قلبًــا	فهـــــبَّ لمركبـــــهِ واعتلـــــى

•••

وولـــى ونـــادى بهـــم بـــالفرار	وأوجــس مــن زفــس عنــه ازورار
درى أنَّ كفَّـــــــة ميزانـــــــهِ	أميلـــــت ودور الـــــدَّوائر دار
وعــزمُ بنــي ليقيــا خــار حتَّــى	غــدوا لا يقــرُّ لهــم مــن قــرارْ
وراعهـــم صـــرعُ ملكهـــم	فوَلّــوا وقــد جلّــتِ الأَربــى٥٣

•••

رأوه طعـــين الحشـــا جنـــدلا	ومـــن فوقـــه جثـــث النُّـــبّلا
حواليـــه خـــرَّ الصَّـــناديد لمـــا	قضــى زفــسُ أن يــذْلَهِمَّ الــبلا
فجـــرده قـــوم فطرقـــل شكّـــ	ـــتهُ وإلـــى فلكهـــم أرســـلا
فصـــاح بفيبـــوس زفـــس:«إذن	ألا يـــا ولـــيَّ الـــوداد كفـــى

•••

إلــى ســرفذون الأميــر الخطيــر	ســر الآن فــورًا وجــدَّ المســير
فـــإن جئتـــه فامضـــينَّ بـــه	إلــى عزلــةٍ قــرب مــاءٍ غزيــر
وطهــرهُ مــن دنــيس الــدم حــالًا	وأنزلــهُ فــي مــاء ذاك الغــدير
وبـــالعنبر ادهنـــه ثـــم اكســـه	ملابـــس لا يعتريهـــا الفنـــا

•••

لا ســـرع قـــادة كـــل العبـــاد إلــى التــوأمين الـرَّدى والرقـاد٥٤

بـــه ألـــقِ يحـــتملاه ســـريعًا لإخوتـــه والصـــحاب البعـــاد

فيــدفن فــي ليقيــا ضــمن لحــدٍ ونصـــبُ الكـــرام عليـــه يشـــاد

فـــذاك جـــزاء الأولـــى جاهـــدو ومــاتوا كرامًــا ونعــم الجــزاء»٥٥

•••

فلبـــى أفلّـــون طوعًـــا يســـير ومـــن طـــور إيـــذة هـــب يطيـــر

أتـــى ســـرفذون وســـار بـــه إلــى عزلــةٍ فــوق ســيلٍ غزيــر

وطهـــــره مـــــن دمٍ دانـــــسٍ ونقَّـــاه فـــي مـــاءِ ذاك الغـــدير

وطيَّبَـــــهُ عنبـــــرًا وكســـــاه ملابـــس لا يعتريهـــا الفنـــا

•••

لأســـرع قـــادة كـــل العبـــاد إلـــى التـــوأمين الـــردى والرقـــاد

بـــه راح يلقـــي فطـــارا بـــه لإخوتـــه والصـــحاب البعـــاد

ليـــدفن فـــي اللّحـــدِ حـــرًّا كريمًـــا ونصـــب الكـــرام عليـــه يُشـــادْ

فـــذاك جـــزاء الأولـــى جاهـــدوا ومـــاتوا كرامًـــا ونعـــم الجـــزا

•••

وفطرقـــل أفطمـــذا والخيـــول وراء العــدى حــثَّ فــوق الســهول

وبـــالنفس ألقـــى لتهلكـــةٍ وضـــلَّ ضـــلال الغبـــي الجهـــول

فلــو لأخيــل ارعــوى مــا انبــرت عليــه عــوادي الحمــام تصــول

ولكـــن زفـــس إذا مـــا نـــوى فمــا للــورى رد مــا قــد نــوى٥٦

•••

فقــــد يــــدفع الفـــارس الــــبطلا ليوليـــــه الـــــذلّ والفشـــــلا

لـــذلك فطرقـــل حـــث وأغـــرى ليبلـــغ فـــي كـــره الأجـــلا

ألا قـــل أفطرقـــل مـــن آخـــرًا ومـــن أنـــت جندلتـــه أوّلًا:

عـــدا وبأذرســـت ثـــم بـــأوطو نـــووس وإيخيكلـــوس بـــدا

•••

كـــذاك ابـــن مينـــاس فيـــريم ثمـــا فلـــرتس ثـــم إفســـتور أصـــمى

وإيـــــلاس موليًـــــا ميلنفًـــــا وســـائرهم للهزيمـــة همًّـــا

وكـــان الأخـــاءة إليـــون يفتــــ ـــتحون بهمَّـــة فطرقـــل رغمـــا

ولكـن رقـى الحصـن فيبـوس ينـوي لــه الشــرَّ والحصــن منــه وقــى

•••

ثلاثًـــا لـــركن الحصـــار انـــدفع وفيبـــوس عنـــه ثلاثًـــا دفـــع

براحتـــــه صـــــدَّ جنَّتـــــهُ فمـــا ارتـــدَّ عـــن عزمـــه وارتـــدع

بـــل انقـــض رابعـــةً كـــإلاهٍ فمـــا خـــال إلّا الـــدويَّ ارتفـــع

وفيبـوس صـاح: «ألا عـدْ أيـا فـر ع زفـس فمـا لـك ذا المنتسـا٥٧

•••

فما دك إليون في الغيب لك ولا لأخيـــل الـــذي فضـــلك»

تقهقـــر فطرقـــل مضـــطربًا لخشـــيته ســـخط ذاك الملـــك

وهكطـــور فـــي بـــاب إســـكيةٍ علـــى جـــرده فـــاكرٌ بالـــدرك

أيـــدفعها للجهـــاد أم القـــو   م يجمـع للــذود خلــف الربــى

•••

وإذ كـــان يفكـــر مضـــطربا   إليــــه أفلــــون اقتربــــا

دنـا وحكـى خـال هكطـور آسـ   ـيُّسًا فــرع ديمــاس منتــدبا

شـقيق لإيقـاب مـن ثغـر سـنغا   رسٍ بفريجـــا بشـــرخ الصـــبا

وصـاح: «عـلام اعتزلـت الكفـاح   أهكطـــور لـــيس بشـــأنك ذا

•••

فلـو زفـس لـي بقـواك حكـم   لأوليتـــك الآن مـــرَّ النـــدم

فعـد وجيـادك حـثَّ عسـى   وفطرقـل ترمـي بحـدٍّ أصـم»

لعـل أفلـوز يوليـك نصـراً   وفطرقـل ترمـى بحـدٍّ أصـم

ومـن ثـم عنـه الإلاه تـوارى   وكـالبرق بـين الجيـوش سـرى

•••

وهـد قلـوب الأخـاءة هـدًّا   وطـــروادةً بـــالولاء أمـــدًّا

وفـي قبريـون بـن فريـام صـاح   يـردُّ الجيـاد إلـى الحـرب ردًّا

فسـاط وهكطـور مـن دون كـل الـ   أراغـس يقصـد فطرقـل قصـدا

ولكـنَّ فطرقـل مـا ارتـاع بـل   ترجَّـــل محتفـــزًا للقـــا

•••

بيســراه عامــل رمــحٍ متــين   كــذا حجــرٌ خشــنٌ بــاليمين

رمـــاه فأخطـــأه ومضـــى   إلـى قبريـون أخيـه الأمـين

فأدركه وهو مستمسكٌ   بصرع أعتَّه بالجبين

فقض العظام على الحاجبين   وعيناه طيرتا للبرى٥٨

•••

فخر عن الخيل كالبرق يسري   إلى الأرض يهوي كابر قعرِ

وفطرقل صاح به ساخرًا: «فيا للباقته كيف يجري

فلو من سفينته واثبًا   إلى اليم غاص للجَّةِ بحر

لصاد حلزًّا ولو صدع النَّوءُ   يكفي الجماهير شرَّ الطوى٥٩

•••

لئن غاص بالبر من تي العجال   فغاصة طرواد نعم الرجال»

ومن ثمة انقضَّ فوق القتيل   كليثٍ بقلبِ الحظائر صال

فيدركه السهم في صدره   ويلقي به بأسه للوبال

فويحك فطرقل من صائلٍ   على قبريون تهيج صلا٦٠

•••

وهكطور عن خيله نزلا   وفي طلب الجثَّةِ اقتتلا

كليثين بينهما ظبيةٌ   بها فتكا فوق طودٍ علا

كِلا البطلين يهيج احتدامًا   ليعمل في نده الأسلا

فهكطور بالرأس مستمسكٌ   وفطرقلُ بالقدمين كذا

•••

وحولهما اصطدم الجحفلان   بنقع علا تحت قرع الطعان

كــأن الصــبا عرضــت للجنــوب   بغــابٍ تشــامخ فــوق القنــان

تزعــــزع دردارهـــــا والقــــرا   نيــا وكــذا الــزَّان بــين الرعــان٦١

فيلتـــفُّ غصــــنٌ بغصـــنٍ فينــــ   ـــقضُّ بــين حفيــفٍ وقصــفٍ دوى

•••

كــذا اشــتبكوا والــوغى التحمــا   يثيــــــرُ بهبَّتــــــهِ الهممـــــا

طعـــانٌ تشـــقُ الـــدُّروع وغيـــثُ   ســـهام بعـــرضِ الفـــلا التطمــا

وصــخر يقــض الترائــك حــول الــ   ــقتيل الــذي خــرَّ هــامي الــدما

ســـها عـــنهم تحـــت عثيـــرهم   وللـــدَّهر عـــن جـــرده قـــد لهـــا

•••

تســاوت مــراميهم مــا اســتوت   بــراح بقلــب الســما وعلــت٦٢

ولمَّـــا دنـــا آن حـــل الثيـــار   ومالــت فجنــدُ الأخــاء ارتمــت٦٣

ورغـــــم القضـــــاء بجثتــــهِ   خلــت وبهــا للبــراح جــرت٦٤

وشـــــكته انتزعــــت وانثنـــت   وفطرقــل كيــد العــداة انثــوى٦٥

•••

ثلاثًـــا كـــآريس كـــرَّ يصـــيح   بصــوتٍ دوي فــي الفضــاء الفســيح

ثلاثًـــا ثلاثـــة صـــيدٍ رمـــى   وأقبـــــل رابعـــــةً يســـــتبيح

فويبــك فطرقــل قــد قُضِــي الأمــ   ــرُ فــاليوم قتلــك حتمًــا أبــيح

وفيبـــوس وافـــاك منحـــدرًا   بظــل الســحاب بطــيٍّ الخفــا

•••

ومـــن خلفـــه جـــاء مســـتترا لـــذلك فطرقـــلُ مـــا شـــعرا

وألقـــى علـــى ظهـــره يـــده فعينـــــاه ألهبتـــــا شـــــررا

ودحــــرج لـــــلأرض خوذتـــــه أمـام خطـى الخيـل فـوق الثَّـرى

فصـــلّتْ ودنســـت العـــذباتُ بنقـــع الحضـــيض وســـيل الـــدما

•••

تريكـــة آخيـــل تلـــك ومـــا إلـــى الأرض قـــط هـــوت قـــدما

ولـــم تـــك إلا لـــذاك الجبـــين الـــ ـــذي بالفخـــار ســـما عظمـــا

وزفـــس قضـــى أن تجلـــل هامـــ ـــة هكطـــور لمَّـــا هنـــا أقـــدما

ولـــن تلبـــثنَّ لـــه غيـــر حـــينٍ لأنَّ الحمـــــام إليـــــه دنـــــا

•••

وعامـــلُ فطرقـــل فـــي كفِـــهِ تســـحق ينـــذر فـــي حتفـــهِ

وجنتـــــــه بحمائلهـــــــا أميلــت إلــى الأرض عــن كتفــه

وحلّـــت عـــن الصَّـــدر لأمتـــه بصـــــرف أفلّـــون لا صـــرفهِ

فـــأوقف يهلـــع رعبًـــا وخـــارت قـــواه وغشَّـــى حجـــاةُ العمـــى

•••

وثمـــة كـــان فتًـــى دردنـــي تفـــوَّق فـــي فتيـــةِ الـــزَّمنِ

بـــأوفرب فنشـــوس يُعـــرَفُ وهـــو أخـو البـأس والعـدو والحُصُـن٦٦

لقـــد كـــان وهـــو يكـــرُّ فتًـــى تحنكـــــه ســـــاحةُ المحـــــن

رمى عن صدور العجال من الصيـ ـد عشرين قرمًا لظهر الحشى٦٧

•••

فـــذلك ذلـــك فطرقـــل قـــد أتـــاك وظهـــرك بـــالرُّمح قـــد

وذلـــــك أول قـــــرمٍ رمـــــاك ولكنـــه خـــاب فيمـــا قصـــد

فعاملـــه اجتـــرَّ ثـــم جـــرى يفـــر إلـــى قومـــه وارتعـــد

لقــد ســمته الرعــب حتــى اتقــى وإن كنـــت أعـــزل لا تتقـــي

•••

ولكـــن فطرقـــل هـــد قـــواه ســـنان القنـــاة وروع الإلاه

لـــذاك تنصَّـــل خـــوف المنـــون إلـــى صـــحبه لائـــذًا بســـراه

وهكطـــور لمَّـــا رآه جريحًـــا تقفَّـــاه بيـــنهم ورمـــاه

فشـــق الصـــفاق لأحشـــائه فخـــر وقلـــب ذويـــه ذكـــا

•••

كـأن علـى الشـم خرنـوص بـر دهـاه علـى الـورد ليـثٌ فكـر

وفـــي طلـــب الوشـــل اقتـــتلا فمـا انكفأ الليـث حتَّى انتصر٦٨

كـذلك هكطـور فطرقـل أصـمى وهـــدَّ بـــه صـــائحًا وافتخـــر:

«زعمـت أفطرقـل أن لـك الجـ ـوَّ مـن فـوق إليوننـا قـد خـلا

•••

أخلـــت بـــدكَّ معاقلنـــا تفـــوزُ وســـبي عقائلنـــا

لقومـــك بالفلـــك تحملهـــنَّ أفاتـــك طعـــن ذوابلنـــا

تعسـت ألـم تـدر أن بهكطـو ر تنسـاب جـرد صـواهلنا
ليرفـع عـنهنَّ ذلّـة رقٍّ بـرمحٍ بقلـبِ العـداة مضـى

•••

هلكـت فـرح مطعمًـا للصـقور فهـلّا كفـاك أخيـل الثبـور
كـأني بـه قـال حـين الـوداع بتلـك الخيـام مقـال الغـرور:
«إلى الفلك فطرقل لا عود ما لم تمـنِّ العـداة بـأدهى الشـرور
«تمـزق عـن صـدر هكطـور درعًـا كسـتها الـدماء خضـيب الكسـا»

•••

أجـل قولـه ذاك مـذ أرسـلك وأنـت اغتـررت بمـا قـال لـك»
أجـاب علـى زفـرات المنـون: «على العجب فوزك قـد حملـك
بصـولة زفـس وفيبـوس فطـرق ل لا بـأس هكطـور حتمـا هلـك
همـا عرَّيـاني مـن عـدَّتي وإلّا أريتُـك قطـع الطّلـى٦٩

•••

بعشـرين هكطـور مثلـك لا أبـالي إذا مـا الغبـار عـلا
أصـلمهم وسـنان قنـاتي شـحيذٌ لهـم يحمـلُ الأجـلا
فـإن الـردى وابـن لاطونـة وأوفـرب هـم علتـي والـبلا٧٠
ومـا كنـت أنـت بطعنـك لـي سـوى ثالـثٍ قـد تـلا ونـي٧١

•••

ومنـي خـذ نبـأ صـدقا ففطرقـل بـالحق قـد نطقـا

فمـا أنـت بعـدي حـيٌّ طـويلًا فـإن الـردى بـك قـد أحـدقا

وقـد حـان حينـك فاشـق بـه قريبًـا بكـف أخيـل اللقـا»٧٢

ومـن ثـم أسـبل ظـلَّ الظّـلامِ عليـه سـتارَ الـرَّدى فطفـا٧٣

•••

هـوت روحـه صـببًا تسـتطير لـرب الجحـيم بـوادي الزَّفيـر

هنالـك تنـدب حكـم القضـاء وتلـك القـوى والشَّـباب النضـير

وهكطـور مـا زال يـزري بـه: «عـلام بحتفـي كنـت النـذير

فمـن قـال عمـرُ ابـن ثيتـيس لا بحـد قنـاتي قبلـي انقضـى»

•••

وعاملـهُ اجتـرَّ مـن صـدره وألقـاه فيـه علـى ظهـرهِ

وفـي نفسـه قتـل أفطمـذٍ فأقبـل يـنقضُّ فـي إثـره

ولكـنَّ إلـف أخيـل بخيـل أخيـل تـوارى علـى قهـره

وليسـت لنـدرك بـين المـلا عتـاقٌ بهـا زفـس فـيلا حبـا

هوامش

(١) أي: كالماء الأسود المنبثق من الصخر، ولا يخفى أن الماء لا يكون أسود، وإنما أراد الماء المنفجر من الصخر الأسود فيشف عن الصخر فيظهر بلونه، وذلك على نحو ما جرت به عادة العرب من تشبيه

الدمع بالدم والعندم، واستعارتهما له إشارةً إلى حمرة العين، وأكثر ما يكون ذلك في كلام المولدين، كقول عز الدين الموصلي:

ملفقٌ مظهر سري وشان دمي لما جرى من عيوني أو وشا ندمي

وأحسن منه قول الآخر:

ولئن بكيناه يحق لنا أولًا ففي سعة من العذر

فلمثله بكت العيون دمًا ولمثله جمدت فلا تجري

(٢) منتيوس والد فطرقل، وفيلا والد أخيل كما علمت، ولقد قدم أخيل على نكبة قومه جزعه على أبيه وأبي حبيبه فطرقل، يدلك ذلك على منزلة برهم بالوالدين.

(٣) الإسى: جمع آسى الأطباء.

(٤) قال معن بن أوس:

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أي كفٍّ تبدلُ

وفي الناس إن رثت حبالك واصلٌ وفي الأرض عن دار العلى متحولُ

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقلُ

وأقرب من هذا لقول هوميروس قول جرير:

بأي نجاد تحمل السيف بعدما قطعت القوى من محمل كان باقيا

بأي سنان تطعن القوم بعدما نزعت سنانًا من قناتك ماضيًا

(٥) تشبيه الفؤاد بالصخر والحديد وما أشبه كثير في كلام الشعراء، كقول عنترة:

خلقــت مــن الحديــد أشــد قلبًــا ... فكيـف أخـاف مـن بـيض وسـمرِ

ومثله قوله:

خلقــت مــن الجبــال أشــد قلبًــا ... وقـد تفنـى الجبـال ولسـت أفنـى

ومن هذا القبيل قول بعضهم:

أمــرُّ بــالحجر القاســي فألثمــه ... لأن قلبـك قـاسٍ يشـبه الحجـرا

(٦) قال المعرى:

تهـاب الأعـادي بأسـهُ وهـو سـاكنٌ ... كما هيب مس الجمر قبل اضطرامه

وقوله:

ويضــحي والحديــد عليــه شــاكٍ ... وتكفيــــه مهابتــــه النــــزالا

ومثلهُ قول عنترة:

ولــو أرســلتُ رمحــي مــع جبــانٍ ... لكـــان بهيبتـــي يلقـــى الســـباعا

(٧) قال الرضي:

لويــت إلــى ود العشــيرة جــانبي ... علــى كظــم داءٍ بيننــا متفــاقمِ

ونمـت عـن الأضـغان حين تلاحمـت ... جوائـف هاتيـك النـدوب القـدائمِ

وأوطـأت أقـوال الوشـاة أخامصـي ... وقـد كـان سـمعي مـدرجًا للنمـائمِ

وسـالمت لمـا طالـت الحـرب بيننـا ... إذا لـم تظفـرك الحـروب فسـالمِ

(٨) جرى على ألسنة القوم منذ القدم ذكر تواد أخيل وفطرقل وتواثقهما مجرى الأمثال، حتى لقد روي أنه لما شخص الاسكندر لزيارة أضرحة أبطال اليونان الهالكين بحرب طروادة أخذ إكليلًا، فوضعه على قبر أخيل فعمد صديقه هفستبون إلى إكليل آخر فوضعه على قبر فطرقل إشارة إلى أنه مقيم على ولاء الإسكندر إقامة فطرقل على ولاء أخيل. ويروى عن الإسكندر إذ ذاك قوله: إن أخيل أدرك منتهى السعادة بصديق كفطرقل يتفانى بحبه حيًّا، وشاعر كهوميروس يخلد ذكره ميتًا. وإن لنا هنا بمحاورة أخيل وفطرقل رسمًا ناطقًا رصعه الشاعر بلآلي تصوراته فمثل البطلين تمثيلًا.

يتفطر فؤاد فطرقل لهفًا على مصاب قومه فيقبل على أخيل فتخنقه العبرة، فتهز أخيل عواطف الرفق لرؤيته على تلك الحال، وهو الفتى الصلد الفؤاد الذي لم يهتز رفقًا لصرع الألوف من قومه وتمزيق فيالقهم، فكأن تلك العبرات المتساقطة من مقلتي حبيبه كانت أحر على فؤاده من نيران الأعداء اللاهبة بسفن اليونان، ثم بادره بالخطاب فكان أول ما افتتح به كلامه بعد سؤاله عن حاله ذلك التشبيه الذي يتدفق رقة وحنانًا، وهو وإن يكن مرَّ على بصر كل شاعر قبل هوميروس وبعده، فلم نر أحدًا أفرغه بذلك القالب البديع على سذاجته غير هوميروس، ومن ذا الذي لم ير طفلة تعلق باكية بثوب أمها لأمر تروم، فلا الأم تقوى على صدها بالعنف مهما كانت شواغلها، ولا الطفلة تعرف ملاذًا غيرها تلوذ

إليه، فلا تجد لأمها عذرًا عن قضاء حاجتها، وهي في نظرها المصدر والمآل القادرة القاهرة المطيعة المطاعة في كل الأحوال، ثم أخذ أخيل يستطلع فطرقل طلع أمره فافتتح بالسؤال عن والد صديقه، ثم عن والده فيلا، كأنهما الشاغل الصحيح الذي يشغله وثنى استطرادًا بالسؤال عن قومه، كأنه إنما فعل ذلك رعاية لحبيبه.

أما فطرقل فلم يكن يهجس في صدره إلا أمر واحد صرف نفسه إليه بِكُلِّيتِها، وهو استنفار أخيل لنصرة قومه فأراد أن ينهال عليه بالتونيب والتنديد بدالة الود، فوطأ بتعظيم المصاب، فذكر ما ألمَّ بزعماء الجند مبتدئًا بذيوميذ لما كان يعلم من علو منزلته في نظر أخيل، وأتى خلسةً بين الأواخر على ذكر أغاممنون بلقبه أتريذ دون اسمه، وذلك اللقب كما علمت يتناول أغاممنون وأخاه منيلاوس كأنما أراد أن يخفف ثقل وطأة ذلك الاسم على مسامع أخيل. وباقي كلام فطرقل مع ما فيه من التوبيخ والتهكم يشف عن إكبارٍ لبأس أخيل عظيم؛ إذ يلقي بين يديه فوز الإغريق واندحارهم فهو وحده كفؤ لصد جيش عجزت عنه الدول المتألبة والكتائب المتكتبة، وأعظم من ذلك أنه إذ أراد أن يسد على أخيل جميع المخارج رغب إليه إذا أبى إلا الاعتزال أن يقلده سلاحه، وينفذه لنجدة القوم، فتأخذ الأعداء الرعدة لمرأى ذلك السلاح ظنًّا منهم أن أخيل قد أقبل وما بعد هذا إطراءٌ للمخاطب وتفانٍ للمتكلم.

وأما أخيل فأول ما شرع به جوابًا على هذا الخطاب دفع تهمة فطرقل؛ إذ رماه بالجبن بقوله:

فأمـــا خشـــيت المقـــادير فيمـــا روت لـك أمـك عـن زفـس نقـلا

فبـــي فـــابعثنَّ وفـــي إمرتـــي لفيـــف المرامـــد أســـد الشـــرى

ثم أعاد عليه سبب اعتزاله حقدًا على أغاممنون، وكأن عبارات فطرقل أصابت منفذًا في فؤاده، فأجابه إلى بعض ما سأل وأذن له بتقلد سلاحه، وهنا هاجته الحمية فتحفز وتحمس وافتخر بما له من البأس، ولم يذكر بالشماتة إلا ذيوميذ وأغاممنون؛ أما الأول: فلأنه كان مقدامًا مغوارًا يؤخذ مما تقدم أنه كان بينه وبين أخيل شيءٌ من التحاسد الخفي؛ إذ لم يكن ذيوميذ من اللاجئين إلى استرضاء أخيل. وأما الثاني: فلسابق سخطه عليه. ولهذا وصفه بعبارة تحقير أجلَّ عنها ذيوميذ، ولما انتهى أخيل من تلك المقدمة أخذ يلقي أوامره على فطرقل فحظر عليه بعد صد العدو عن السفن أن يندفع بطيش القتال إلى ما وراء الحصون؛ لأنه إنما كان يود أن يكون هو القاتل لهكطور الفاتح لبلاده فضلًا عما كان يخشى من أن لا يكون فطرقل كفؤًا لتلك الصدمة فيقتل فيكون الرزء رزئين؛ قتل الصديق الحميم، وذهاب السلاح سلبًا للعدو اللدود، ولم تكد تمر على مخيلة أخيل تلك الهواجس حتى زاحمته بلابل الأفكار، وعاودته قوارس الكيد فختم داعيًا باضمحلال صديقه وعدوه، وهو شأن

اللدود الذي يطوحه كيده إلى الإيقاع بما طالته يده فيعمي الغيظ باصرته وبصيرته وذلك مصداق جانب من صفات ذلك البطل الباسل.

(٩) الجوب: الترس. والتريكة: الخوذة.

(١٠) القيان: ربَّاب الإنشاد انظر رسمهنَ ١. هنا مثال آخر لانتقالات هوميروس البديعية عندما يشرع في شرح أمر خطير.

(١١) ثعلب الرمح: عوده.

(١٢) الغراب: السفينة، ووجهته مقدمها أو صدرها.

(١٣) رأينا فيما مضى كم تزلف القوم إلى أخيل، وأتوه صاغرين مستجبرين، فكانوا كأنهم يكلمون صخرًا أصم، ولم يلن بعض اللين حتى استصرخه فطرقل بهامي العبرات، وما هو هنا إن رأى بعينه اللهب المضطرم بالسفن حتى استفزته الحمية من تلقاء نفسه فَأَنَّ وتلهف وانقلب يستعجل فطرقل ويكتب جنوده، كل تلك مشاهد أعدها الشاعر بدقة شعوره، فأفاد المطالع أن الأمور تؤتى من أبوابها، فما وساطة ألف وسيط بمؤثرة تأثير عاطفة يثيرها صديق حميم، وما أثارة تلك العاطفة بشيء إزاء تمثيل المشهد حيًّا يراه الإنسان بعينه.، وإن رؤية فقير ذي عاهة يتضور جوعًا وهو عارٍ بقارعة الطريق لتكلمك كلامًا لا تستوفيه بلاغة ألف شفيع يندب لديك حالة ذلك المسكين.

(١٤) التريكة: الخوذة. والعذبات: أهدابها المتدلية. والقونس: بيضة الخوذة.

(١٥) أي: إنه استلأم بلأمة أخيل (أي: درعه) وتقلد كل سلاحه إلا قناتهُ، فقد كان يصعب اعتقالها لثقلها إلا على أخيل، تلك مزية أخرى من المزايا التي تفرد بها أخيل.

(١٦) فليون: جبل بتساليا.

(١٧) قوله: فتًى، أي: أفطميذ.

(١٨) لما كان دأب الشاعر أن يميز أخيل في كل شئونه، فقد ألبس مركبته من الزخرف حلة شائقة، وجعل جواديها زنثس وباليس من جياد الخلد، ثم جعلهما من نتاج العنقاء (وهي في الأصل «هربية» Αρπψα مخلوق خرافي ذو جناحين) والنسيم، ثم قرن إليهما احتياطًا جوادًا ثالثًا من جياد الخيل الفانية، وأشار إلى أن أخيل نال ذلك الجواد الشهير بإحدى غزواته.

والاعتقاد بوجود خيل من نتاج الريح قديم ذكره بلينيوس وغيره، وليس عندنا مما يشبهها بعض الشبه إلا الفرس المسحور بألف ليلة وليلة، وأما عنقاء مغرب أو العنقاء المغرب فهي عند العرب طائر معروف الاسم مجهول الجسم، كانوا يستعيرونها للإخبار عن الأمر الباطل، وفي ذلك يقول أبو نواس:

وما خبره إلا كعنقاء مغربٍ ... تصور في بسط الملوك وفي المثل

يحدث عنها الناس من غير رؤيةٍ تـرى صـورة مـا أن نمـرَّ وأن تحـل

ولهذا اتخذناها لتعريب «الهربية» اليونانية الدالة على الطائر الخرافي السابق الذكر.

(١٩) لم يكن له بعد أن تمادى على المرامدة زمن العطلة، وهم يتحرقون لنصرة قومهم إلا أن يشبههم وهم واثبون للكفاح بالذئاب الكاسرة، ويستطرد إلى ذلك الوصف الرائع.

(٢٠) ذات قوس الذهب من ألقاب أرطميس.

(٢١) قاتل أرغوص، هو: هرمس، وأرغوص هذا هو من ولد أيناخوس ورابع ملوك أرغوس، كان الغالب عندهم في المنازل الكبيرة أن يجعلوا غرف النساء في أعالي البناء، وبعبارة أخرى كان الحرم في الطبقة العليا، قال أفستاثيوس: كان اللقدموثيون يدعون الغرف العليا أوا (ωα) ومعناها أيضًا البيض، ولعل الخرافة القائلة: إن هيلانة ولدت من بيضة نشأت من هذا المعنى.

(٢٢) إليثية ابنة هيرا، كانت في اعتقادهم تحضر ساعة المخاض حتى تلد المرأة، ولعلها ليليت أوميليتا البابليين ربة الليل والولادة.

(٢٣) مرَّ هذا الوصف في النشيد الثالث عشر.

(٢٤) بان هنا بمعنى بعد، والمربع: المقام، والددون، والفلاسج: امتان.

(٢٥) السلة: رواة زفس أو مفسرو أوامره. كان الكهنة ينتحلون هذا اللقب لأنفسهم في الاستخارة وغيرها.

(٢٦) الحمات: ج حُمة، إبر النحل والدبر، جماعة النحل والزنابير، والمراد هنا الزنابير، وخشرمه خليته أو بيته، من معجزات هوميروس أنه إذا شبه أمرًا كبيرًا بشيء صغير هيأه بصورة تنطبع في النفس، فما تشبيه الجنود البواسل بالأسود الكواسر بأوقع في النظر من تلك الزنابير الحقيرة، وهي تأثره تلك الثورات وكلٌّ منها.

يـــذب عـــن البـــيض مستبســـلًا   حديـــد الحمـــات شـــديد القـــوى

وللشنفري أبيات جميلة بهذا المعنى أوردناها في النشيد الثاني.

(٢٧) كل ذلك إشارة إلى انفراج الأزمة عن الإغريق.

(٢٨) الخميرة: حيوان خرافي مر ذكره ورسمه في النشيد السادس.

(٢٩) أريبا: محل الظلمات في الجحيم.

(٣٠) يرى بعض الشراح إشارة في الأبيات السالفة إلى الطوفان الذي كان يعتقده القدماء، وهو موافق لما نصت عليه التوراة، وسببه هنا كسببه هناك تمادي الناس في الغي والشرور.

(٣١) الخلايا: السفن، والحصار: السور، أي: حال فطرقل بين الطرواديين وإليون، وحصرهم بين مرسى السفن ونهر سيمويس.

(٣٢) أي: فأذن لفطرقل أن ينفذ حكم القدر القاضي بموت سرفيذون قتيلًا بساحة القتال — كان سرفيذون أعظم محتدا وأشرف مولدًا من جميع زعماء الفريقين؛ لأنه لم يكن من أبناء زفس بطل سواه في تلك الحرب، ولهذا أطال الشاعر في حكاية مقتله كما سترى، وأطنب في ما مضى وما سيأتي من مدح صفاته إجلالًا لقدره، فهو حيثما ظهر الفتى الباسل والقائد الحكيم، لا يشوب محامدهُ منقصة، فما هو بحقد أخيل ولا بتسرع ذيوميذ، وهو مع فصاحته بالكلام رجل بطش وإقدام، ولقد غاظ مقتله زفس فوق مقتل كل بطل سواه حتى أراد أن يحول عنه حكم القضاء السابق النافذ بقتله فتصدت لزفس زوجته هيرا وأثبتت له أنه لا بد من نفوذ القضاء المبرم وإلا لقامت قيامة الأرباب، وسعى كل منهم في الإفراج عن ولده، وهنا بحث للشراح طويل في القضاء والقدر باعتقاد الأقدمين، فقالوا إن كان نفوذ القضاء حتمًا، فليس لزفس وهو الذي سطر لوحه المحفوظ أن يمحوه، وإلا فلا معنى لوجوده، وليس المقام مقام إطالة في هذا الباب فقد تقدم لنا كلام بهذا المعنى، ولهوميروس كلام كثير يشير إلى أن أعمال البشر إنما هي الباعث على انصباب الويلات وتفاقم الشرور.

(٣٣) المظفر: الآخذ بظفره.

(٣٤) لقد مرت على حرب طروادة وزمن هوميروس ألوف السنين، وعامة الناس لا تزال تعتقد أن المطر المحمر دليلًا على غضب

إلاهي، مع أن رد ذلك الاحمرار إلى أسباب طبيعية قديم جدًّا، وقد مر بنا مثل هذا المطر الدموي في النشيد الحادي عشر.

(٣٥) أي: إن القتيل سقط سقوط إحدى هذه الشجر وقد قطعها بناء السفن.

(٣٦) كثيرًا ما يستعمل هوميروس أمثال هذه الاستعارة للتعبير عن الموت، كقوله: أسبل الموت سترهُ وخيم ظلام الحمام، ومن هذا القبيل قوله قبل أبيات: ومن حوله انتشر الحمام مبيد الحياة، وكلها استعارات لطيفة يألفها الذوق، ولها في العربية أمثالٌ من أرقها قول بعضهم:

ورنقـــت المنيـــة فهـــي ظـــلٌ　　　علـــى الأبطـــال دانيـــة الجنـــاحِ

قال في أساس البلاغة: فيه بيان جلي أن ترنيق المنية مستعار من ترنيق الطائر (أي: رفرفته وخفقه بجناحيه)؛ حيث جعل المنية كبعض الطير المرنقة بأن وصفها بوصفه من التظليل ودنو الجناح.

(٣٧) الممتهى: الصقيل

(٣٨) انفأى: انفطر.

(٣٩) التَّوى: الهلاك.

(٤٠) الشبا: حدود المناصل، وهي جمع شباة.

(٤١) في الأصل: «سترة ليل دجا»، إشارة لطيفة إلى الغبار المنتشر من تلاحم القوم حول القتيل.

(٤٢) الشدا: الحر، ويراد به هنا الغيظ.

(٤٣) اللهى: جمع لهوة، والمراد بها هنا الألعاب والملاهي.

(٤٤) أي: كالسيل المتدفق.

(٤٥) هفا أي: طاش.



هيرا زوجة زفس.

(٤٦) النقا: الرمل.

(٤٧) يقول له ذلك تهكمًا عليه، لأن قوم مريون الأكربتيين كأنهم مشهورين بالرقص.

(٤٨) عسا: غلظ واشتد.

(٤٩) اللغا: الكلام، وفي الأصل «ما هذا أوان القول بل أوان الفعل»، وهي عبارة جرت مجرى الأمثال في أكثر اللغات يقول اللاتين: **Non verbes, sed facto opus est**. ومن هذا القبيل قول العرب في أمثالهم: هذا أوان شدكم فشدُّوا. وقولهم: هذا أوان الشد فاشتدي زيم.

(٥٠) إهاب الحجف: جلد التروس.

(٥١) حطابة: جمع حطاب.

(٥٢) قد تقدم لنا مثل هذا المعنى، وهو من التشابيه التي عيب عليها الشاعر على غير حجة، ثبتة راجع ما قلناه بهذا الصدد (ن٢)

(٥٣) أي: عظمت الشدة.

(٥٤) قال في النشيد الرابع عشر: إن الموت والرقاد أخوان، وزاد هنا أنهما توأمان.

(٥٥) في أقاصيص اليونان إن سرفيذون قاتل أخاه مينوس على ملك اكريت، فغلبه مينوس عليها فبرحها وبعض أشياعه إلى ليقيا وغلب زعماء بعض أطرافها عليها، واستقل بها ملكًا وتوفي بها وكان قبره معروفًا في تلك الأزمان. وإذ كان من شأن هوميروس أن لا يخرج بشعره في شيءٍ عن روايات عصره التاريخية صاغ لدفنه في ليقيا بعد مقتله في طروادة ذلك القالب الجميل.

وليس في الأمر غرابة؛ لأن القدماء كانوا كأبناء زماننا حريصين على دفن جثثهم في بلادهم ولعين بإقامة الأنصاب عليها؛ ولذلك أمثلة شتى في أهرام مصر وتوراة الإسرائيليين وكتب العرب، فإن إبراهيم الخليل ضم يوم وفاته إلى مدفن امرأته سارة، وحفيده يعقوب استحلف ابنه يوسف أن لا يدفنه في مصر، فأرسله إلى مدافن آبائه في بلاده، ولم يرو للعرب ولعٌ وشغفٌ بمثل هذا، كاليهود والمصريين بل كانوا إذا بعدت الشقة أبقوا الميت في مكانه، كما استبقوا هاشمًا جد صاحب الشريعة في غزة عند وفاته بها، ومع هذا فكان يستحب عندهم جمع الأقارب في موضع. قال صاحب مشكاة المصابيح في الحديث: ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «ادفنوا إليه من مات من أهلي». وفي الحديث عن جابر أنه قال: لما كان يوم أحد جاءت عمتي بأبي لتدفنه في مقابرنا فنادى منادي رسول الله ﷺ: «ردوا القتلى إلى مضاجعهم» كل هذا يدل على أنهم كانوا يستحبون جمع موتى العشيرة إذا لم يكن هناك مشقة وعناء. وأما إقامة النصب على القبور فلم ترو عن عرب الجاهلية، ومع هذا فقد رُوي استحسان جعل علامة على القبر يعرف بها، وذلك كما روى صاحب (مشكاة المصابيح): لقوله عليه الصلاة والسلام: «أعلم بالحجر قبر أخي».

(٥٦) قال السموأل:

ولسنا بأول من فاته ... على رفقه بعض ما يطلبُ

وقـد يـدرك الأمـر غيـر الأريـب وقــد يصــرع الحــولَ القلــبُ
ولكـــن لهــا آمــر قـــادرٌ إذا حــاول الأمــر لا يُغلــبُ

وما أحسن ما تمثل به الخليفة عمر وهو على المنبر:
هــوِّن عليــك فــإن الأمــور بكــــف الإلـــه مقاديرهــــا
فلــــيس بآتيــــك منهيُّهــــا ولا قاصــــرٌ عنــــك مأمورهــــا

وقال عبد الله بن يزيد الهلالي:
مـا أقـرب الأشـياء حـين يسـوقها قـــدر وأبعـــدها إذا لـــم تقـــدرِ

(٥٧) أي: تلك الشقة البعيدة.

(٥٨) البرى: التراب.

(٥٩) الطوى: الجوع شبه سقوطه من سدة المركبة يهوي إلى الأرض بالصياد الواثب من السفينة إلى قعر البحر، ثم قال: لو وثب تلك الوثبة لصاد من المحار ما يقري الجماهير، ولم يعبأ بتلاطم الأمواج واستطرد بقوله في البيت التالي إن كان هذا غوصه بالبر من ظهر المركبة، فلا ريب أن في الطرواد غاصة مهرة، وفي هذا الكلام من التهكم على القتيل ما لا يخفى. ولهذا ذهب البعض إلى أن هذا التشبيه دخيل في ثنايا الأصل خصوصًا أن ليس من شأن فطرقل أن يتهكم هذا التهكم وهو القائل قبل أبيات:
عــلامَ أخــي ذا الكــلام المهــين وإنـــي بلوتـــك ســـامي النهـــى

(٦٠) الصلاء: النار فكأنه قال تتحرق.

(٦١) الرعان: الجبال، ج رعن، وما قبل ذلك أسماء أشجار.

(٦٢) براح: علم للشمس.

(٦٣) أي: لما مالت الشمس للمغيب. هكذا كانوا يعبرون عن ساعات النهار راجع شرح النشيد الحادي عشر.

(٦٤) للبراح، أي: للعراء.

(٦٥) انتوى: بمعنى نوى.

(٦٦) جمع: حصان.

(٦٧) الحثى: التراب.

(٦٨) الوشل: الماء.

(٦٩) الطلى: الرقاب.

(٧٠) ابن لاطونة: أي فيبوس.

(٧١) وني: فتر وضعف.

(٧٢) كانوا يعتقدون أنه إذا احتضر المرء خفَّت نفسه، وأدرك المغيبات فتنبأ ولهذا أنبأ فطرقل ساعة موته بموت هكطور قتيلًا بذراع أخيل.

(٧٣) طفا: مات.

النشيد السابع عشر

المعركة السابعة حول جثة فطرقل

مُجْمَلهُ

تحرق منيلاوس لقتل فطرقل فتقدم يدافع عن جثته وكان أوفرب يجردها من السلاح فقتله منيلاوس، وإذا بهكطور مقبلٌ بإيعاز أفلُّون فتقهقر منيلاوس واستعان بآياس، فأقبل آياس وهكطور يوشك أن يقطع رأس فطرقل فصده آياس فأقبل غلوكوس يؤنب هكطور لتخليه عن سرفيذون والتوائه أمام آياس، فشك هكطور بسلاح أخيل ونادى صحبه فانقضوا مع الإغريق وفزع لمنيلاوس الأبطال من قومه والتحم القتال حول القتيل، وكلهم طامع في الاستيلاء على شأوه، فالتوت الطرواد أمام إياس ولم يكن النبأ قد طار بعد إلى أخيل بمقتل حبيبه، ولما توارت جياد أخيل عن ميدان الحرب ذرفت الدموع حزنًا على فطرقل، فرَّق لها زفس وأهبط عليها قوة جديدة فانثنى أفطوميذ بها إلى ساحة القتال، ثم ألقى بالأعنَّة إلى رفيقه القيميذ وأخذ يقاتل راجلًا فاندفع هكطور وأنياس ونفرٌ من أبطال الطرواد في طلب تلك الجياد، واشتد الكر والفر وجرت جياد أخيل مسرعة فتوارت بالمركبة عن الطرواد، وأخذت أثينا بيد منيلاوس وأفلُّون بيد هكطور وأرعد زفس فأرعب الإغريق فاستظهر عليهم الأعداء، وأرسل منيلاوس ينمي إلى أخيل موت فطرقل ونكبة الإغريق، وظل

الأياسان يدفعان العدو عن جثة القتيل فسار بها منيلاوس ومريون إلى المعسكر، وانهزمت الإغريق إلى ما وراء خندقهم.

وغـادرت فـي الحـاف والحفيـر　　　مـا انهـال مـن سـلاحها الكثيـرِ

وقائع هذا النشيد في مساء اليوم الثامن والعشرين.

النشيد السابع عشر

لـم يخـف إلـف آرسٍ منـيلا　　　هـلاك فطرقـل الفتـى قتـيلا١

فخـف فـي صـدر السـرى إليـه　　　بعـدةٍ تألقـت عليـه

ودار حولـه العـدى يبـاري　　　كأنـه ثنيَّـةُ الصـوار٢

قـد نتجـت بكـرًا عليـه حنـت　　　وانعطفـت مـن حولـه وأنـت

قناتـه وجوبـه الثقـيلا　　　مـدَّ يـروم للعـدى تنكـيلا

لكـن أوفـرب الفتـى مـا زال فـي　　　فطرقـل فـاكرًا بـذاك الموقـف

لـذا علـى مقربـةٍ منـه وقـف　　　يخاطـب الشـهم منـيلا بصـلف:

«يـا إلـف زفـس سـيد القبيـل　　　تخـل لـي عـن شـلو ذا القتيـل

إذ كنـت فـي الطّـرواد والأحـلاف　　　أوَّل طـاعنٍ لـه حـذّاف

فخلنـي أحـرز جميـل الشَّـرف　　　أولًا فـأيقن بوبيـل التلـف»

فـــنفس أتريـــذ ذكـــت توقّـــدا وصـاح: «يـا زفـس الأب المسـوَّدا

مـــا أقـــبح الغـــرور بـــالنفوس فمــا حكـــى كِبــر بنـــي فنشــوس

لا خـــيلاء اليبـــر والليـــث ولا رت الفـــلا المغـــوار روَّع المـــلا

لكِـــنَّ هـــذا الكبـــرَ والغـــرورا مــا وقيــا الفتــى هفيــر ينــورا[٣]

لـــم تهنـــه غضاضـــة الشـــباب لمَّـــا تصـــدَّى لـــي بالســـباب

وقـــال إنـــي ســـاعةَ الإبـــلاء أجــبن مـــن فـــي زمـــرة الأخـــاء

غـــدًا ولا عرسًـــا وأمـــا وأبـــا يبتهجـــــون بلقـــــاه طربـــــا

فـــدن إذن وولِّ مـــن أمـــامي فلـيس يغنـي العجـب مـن إقـدامي

ولـذ إلـى قومـك مـن قبـل اللقـا أولًا فوقع الخطب يشفي الحمقا»

فلـــم يـــزد أوفـــرب إلا حنقًـــا وصـاح: «يـا أتريـذ أدركـت الشـقا

غـــرَّك أن بـــات أخـــي صـــريعا لتؤخـــــذن بدمـــــه ســـــريعا

فعرسـه الهـدي فـي أقصـى الغـرف أرملـة باتـت ومـا كـادت تُـزَف[٤]

وقـــد أذقـــت أبويـــه غصصـــا ظـــلَّ بهـــا عيشـــهما منغصـــا

لكـــن ســـأروي غلّـــةَ الحـــدادِ حـــين بعيـــد العـــود للـــبلاد

لـــدى فـــرنثيس وفنشـــوس يـــرى رأسك والسلاح في تلك الذرى[٥]

والآن فصـــل القـــول فالبـــدارُ يعقبـــهُ الفـــوز أو الفـــرار»

وأطلـق الـرُّمح ففـي الجـوب وقـع لكن عن النحاس في الحال ارتدع

فـــزفس أتريـــذ دعـــا وشـــهرا نصـــلًا وأوفـــرب يســـير القهقـــري

وزج زج واثـــــــقٍ عميـــــــــد فقطـــع النَّصـــلُ حبـــال الجيـــد

فصـــل لمـــا خـــرَّ والنقـــع جـــرى يكســـو بـــديع الشـــعر ثوبًـــا أحمـــرا

غـــدائر كشـــعر حـــورا العـــين ضـــفرن بـــالعين وبـــاللجين٦

كأنـــه فـــرخٌ مـــن الزَّيتـــون غـــضٍّ علـــى مجتمـــع العيـــون

ينعشـــه النســـيم والزهـــور بيضـــاء فـــي فروعـــه تمـــور

لكنمـــا الإعصـــار فـــورًا هبَّـــت فاستأصـــلته مـــن زوايـــا العزلـــة٧

فخـــر أوفـــرب يحـــاكي مـــذ وثـــب عليـــه أتريـــذ لإحـــراز الســـلبْ

ولـــم يكـــن فـــي قـــوم أوفـــرب أحـــد يلقـــى منـــيلا وهـــو يخلـــو بالعـــدد

كأنـــه ضـــيغم غـــابٍ وثقـــا ببأســـه وفـــي الصـــوار انـــدفقا٨

ففـــرس الغـــرة منهـــا وســـحق عنقهـــا مـــا بـــين نابيـــه ودق٩

ومـــزَّق الأحشـــاء وامـــتص الـــدما والناس والكلاب عجت في الحما

لا تســـتطيع الـــذود عنهـــا فـــالجزع مـــن رؤيـــة الليـــث قلوبهـــا خلـــع

وكـــاد أتريـــذ يفـــوز بـــالمنى لكـــن ذكـــت غيـــرة فيبـــوس هنـــا١٠

كقـــيم الكيكـــون ميتـــيس نهـــض: «وصاح يا هطور أخطأت الغرض[١١]

جريـــت تبغـــي خيـــل آخيـــل ولا يبلـــغ مـــنهنَّ ســـواه الأمـــلا

ألا تـــرى أتريـــذ عـــن فطرقـــل ذب وأبســـل الطـــرواد أوفـــرب ضـــرب»

ثـــم مضـــى عنـــه وفـــي الجيـــش ذهـــب وقلـــب هكطـــور مـــن البـــث التهـــب

سـرَّحَ مـا بـين الجمـوع النَّظـرا ... وثمـة القـرمين حـالًا أبصـرا

ذاك صـريعٌ دمـه ينفجـر ... وذا إلـى تجريـده مبتـدر١٢

فثـار يحكـي نـار هيفسـت التـي ... مـا إن خبـت قـطّ إذا مـا هبَّـتِ

وانقـض فـي صـدر السُّرى مـدججًا ... بهـدَّةٍ لهـا منـيلا اختلجـا

فهـاج بثًّـا نفسـه ينـاجي: ... «مـا حيلتـي فـي القـدر المفـاجي

أأبـرح الآن وذا فطرقـل مـن ... في الذود عن عرضي وافته المحن

فمـن مـن الإغريـق لـو رآنـي ... أحجمـت عنـه الآن مـا لحـاني

وإن دعتنـي عـزة الـنفس إلـى ... كفـاح هكطـور الـذي قـد حمـلا

فخلـف هكطـور بنـو الطـرواد ... طـرًّا علـى أنـي بـانفراد ...

لا كان ذا الهاجس من لاقى الأولى ... صـانتهم آل العلـى لاقـى الـبلا

بحكـم آل الخلـد هكطـور هجـم ... فمـن يلـومني إذا ألـوي القـدم

آه ولـو لـي صـوت آيـاس نمـي ... لاقتحمـت دهـم الرزايـا هممـي

أنـا وآيـاس نخـوض الشـددا ... حتـى ولـو ربُّ للقيانـا بـدا

بشـلو فطرقـل إلـى أخـيلا ... نمضي فيمسي خطبنا محمولا»١٣

وبينمـا هاجسـه يثـور ... وافى العدى في صـدرهم هكطـور

فغـادر الجثَّـةَ ثـمَّ انصـاعا ... ملتفتًـا إلـيهم ملتاعًـا

كالليـث للمـربط يومًـا لاحـا ... فقابـل النبـاح والرماحـا

وارتــد مغتمًّــا علــى الأعقــاب كمــا انثنــى أتريــذ باكتئــاب ١٤

حتــى إذا فــي قومــه حــل وقــف مستشــرفًا يطلــب آيــاس وخــف

لمــا رآه قــام أقصــى الميســره مســتنفرًا إلــى الصــدام عســكره

وهـــدهم فيبـــوس طـــرًّا رعبــا صــاح: «ألا فــورًا أيــاس هبَّــا

نــذود عــن فطرقــل حــول جثتــه فــإن هكطــور خــلا بشــكته

لعلنــا وإن عــرت عــن العــدد لإلفــه آخيــل نمضــي بالجســد»

فهــاج آيــاس أسًــى ثــم انطلــق يجــري وأتريــذ إلــى صــدر الفــرق

فألفيــا هكطــور ثــم جــرَّدا شــكة فطرقــل وجــر الجســدا

ليأخـــذ الهامـــة باقتضـــاب ويـــدفع الجثـــة للكـــلاب

يجوبــه كــالبرج آيــاس جــرى فعـاد هكطـور إلـى قلـب السُّرى

ثـم اعتلـى وصـاح: «ألقـوا لـي فـي إليون ذا السلاح يسمو شرفي١٥

لكـن أيـاس بسـط الجـوب علـى جثـــة فطرقـــل ومـــا تقلقـــلا

كلبـــوةٍ فـــي الغـــاب بالأشـــبال حلّـــت فبالكمـــاة لا تبـــالي

تقطـــب الجفـــن علـــى مقلتهـــا صـــائلةً تحمـــي حمـــا فتيتهـــا١٦

وقـــام أتريـــذ لـــدى أياســـا يـــذكو حشـــاه كَأْبـــةً وباســـا

فجــاء هكطــور غلــوكس الفتــى قيـــل بنـــي ليقيـــةٍ مبكتـــا

صـــاح بـــه يرمقـــه ازورارا: «مـــا كنـــت إلَّا هالعًـــا فـــرَّارا

يعــزي لــك البــأس جزافًــا إنمــا حالــك شــفت عــن فــؤادٍ أحجمــا

ألــك فــي جماعــة الطــرواد مــن دوننــا حمايــة الــبلاد

فقومنــا فــي وجــه أبطــال العــدى لــن يقفــوا حــول الحصــون أبــدا

إذ قــد أطــالوا الحــرب والإبــلاء ولــــم يوافــــوا فــــيكم وفــــاء

ويحــك أنــى بــك عــرض الجنــد خيــرًا ترجــي بعــد هــذا الصــدِّ١٧

وضـــيفك الحبيـــب ســـرفذونا غـــادرت غنمًـــا للأخائيينـــا

وقــاكم مــن أزمــة الــدَّراهس ومــا وقيتــه مــن النــواهس١٨

فــــرأي الآن علــــى أصـــحابي بــــأن يعــــدوا أهبــــة المــــآب

عـــنكم إلـــى الأوطـــان ينثنونـــا فينـــزل الويـــل علـــى إليونـــا

فلــو لكــم بســالة الشــجعانِ فــي ذودهــم عــن ســاحة الأوطــانِ

لجملــة صــلنا ونحــو البلــد ســرنا بفطرقــل بــلا تــردد١٩

بســـرفذون والســـلاح الأزهـــرِ يؤمنـــا العـــدى بـــلا تـــأخرِ

إذ إن فطرقـــل أعـــزُّ النـــاس لـــدى أخيـــل القـــرم رب البـــاس

لكـــن لآيـــاس الـــذي تـــراهُ وهنـــت عزمًـــا قبـــل أن تلقـــاه

هيهـــات هيهـــات فلـــن تنفـــردا لـــه وتـــدري أنـــه أســـمى يـــدا»

فقـــال منعمًـــا حديـــد النظـــر: «كفـــاك يـــا غلـــوكس أن تفتـــري

خلتــك ذا عقــلٍ رجــيحٍ قــد ســما فـــق بـــين ليقيـــةٍ إن حكمـــا

لكــن أرى الخــلاف فيمــا تــزعم أنـــي لـــدى أيـــاس جبنًـــا أحجـــم

ما راعني الطعن ولا وقع خطى جرد الوغى لكنما زفس سطا

وهو ولي الأمر قد يخذل من يحث للإقدام في حر الفتن٢٠

فادن إليَّ الآن واشهد تنظر ذا اليوم من هكطور حق المخبر

أكان مهيابًا كما تقول أم هو محراب وغى يصول

يذلّ قسرًا كلَّ صنديدٍ بطل للذود عن جثة فطرقل حمل»

وصاح يعلو صوته بين الزمر: «طرواد ليقيون أبناء الظفر

يا آل دردانوس هبوا وقفوا بأسكم فذاك ذاك الموقف

وإنني ماضٍ أشك مقبلا بعدة القرم أخيل عجلا

تلك التي سلبت من فطرقل» ثم انثنى يعدو حثيث الرجل

فصحبة أدرك من بعد أمد من قبل أن تبلغ إليون العدد

فثم عن وقع القنا بمعزل ألقى لهم شكته في العجل

يأمرهم أن يحملوها للبلد وشك في سلاح أخيل وجد٢١

ذاك سلاحٌ ليس بعروه البلا حباهُ آل الخلد فيلا البطلا

ولابنهِ مذ شاخ تلك العدد ظلت ولن يشيخ فيها الولد٢٢

وعندما هكطور زفسٌ نظرا معتزلًا بدرع آخيل انبرى

آجال رأسه بنجوى نفسه: «واويحه شت الرَّدى عن حدسهِ

هكطور قد كاد يوافيك الأجل وأنت في حلةِ روَّاع الملل

صرعت إلفه النبيل الأبسلا ونلت عنفًا منه تلك الحللا

لكنني موليك نصري السامي جزاء ما أوتيك من حمامي
إذ لن ترى في صرحك ارتياحا عرسك كي تلقي لها السلاحا»
ومؤمنًا بجفنهِ زفس اعتدل فناسبت أعضاء هكطور الحُلل٢٣
وحل آريس به فاحتدما فتكًا وبالبأس حشاه اضطرما
فهبَّ بالأحلاف بالهديد يسطع بالنحاس والحديد
يخوض في صفوفهم مشتدًّا يحث للإيقاع فردًا فردا
كمستليس وغلوكس الجري وثرسلوخ ثم ميدون السَّري
وعسطروف ثم هيفوثوسا فرقيس ذيسينور إخروميسا
كذلك العرَّاف إينوموسا يثير في أحشاهم النفوسا:
«سمعًا أيا قبائلًا عديده أحلافنا والجيرة العميدة
لم أدعكم من دوركم طرًا أنا لتلبثوا حشدًا بلا جدوى هنا
بل لتصولوا في لقا الأعادي ذودًا عن النسوة والأولاد
أنفدت رزق الجند زادًا وجدا لكم لتعملوا القنا المجرَّدا
فاندفعوا بالبأس في وجه العدى والحرب إمَّا ظفرٌ إما ردى
فأيكم أياس صد وانثنى بشلو فطرقل ولو ميتًا لنا
أحيوه نصف الغنم مني أجرا وهو قريني شرفًا وقدرا»
فقوَّموا السلاح فوق الساعد واندفعوا دفعة صفٍّ واحد

لينقـــذوا الجثـــة مـــن أيـــاس وأويـــبهم فـــي ذلـــك الوســـواس
فكـــم كمـــي مـــنهم سيمســـي مـن فـوق فطرقـل فقيـد الحـس
وبمنـــيلا صـــاح آيـــاس: «ألا مـا خلـت أنـا قـد بلغنـا الأجـلا
مـا جزعـي لشـلو فطرقـل لـدي كجزعـــي الآن عليـــك وعلـــي
فـــإن فطرقـــل قريبًـــا يغتـــدي للطيـــر طعمًـــا وكـــلاب البلـــد
وذا غمـام الحـرب فوقنـا انطبـق هكطور وهو حيثما حل حرق٢٤
فقـــم ونـــاد صـــفوة الأبطـــال لعلهـــم يســـعون للنضـــال»
فصـــاح أتريـــذ بهـــم يقـــول: «يـا صـحبُ يـا رتـوت يـا قيـول
يـا مـن علـى موائـد ابنـي أتـرا مـن قسـمة الجنـد رشـفتم خمـرا
ومـن حبـاكم زفـس عـالي القـدر فقمـــتم بـــين السُّـــري بـــالأمر
كيـف أراكـم وعجـاج القسـطل يسـتر عنـي كـل جنـد الجحفـل
فطرقـل كـاد الغضـف والضـواري ينهشـــنه هبُّـــوا لـــدرء العـــار»
فمـا انتهـى حتـى ابـن ويلـوس عـدا أولهـــم ملبيًـــا ذاك النـــدا٢٥
تـــلاه إيـــذومين ثـــم القـــرم مريـــون والكـــل تباعًـــا همـــوا
كمـــاة بـــاسٍ لا يحـــيط الفكـــر بعـــــدِّهم فـــــانبثوا وكـــــرُّوا
ونحـــوهم جنـــد العـــدى تقـــدموا فـي صـدرهم هكطـور ذاك الأيهـم
بهـــدةٍ مثـــل عجـــيج البحـــر يقـــذف بـــالموج لثغـــر النهـــر
فتـــدفع الأمـــواج فـــوق الجـــرف منتشـــراتٍ بشـــديد القصـــف

ودون هاتيــك الجيــوش الوافــده تقــدم الإغريــق نفسًــا واحــده

حــول القتيــل كثفــوا الأجوابــا وزفــس ألقــى فــوقهم ضــبابا

يســـتر بـــرَّاق الترائـــك التـــي أجــت وأغــراهم بصــون الجثَّــة

لأن فطرقـــل عزيـــزًا حســـبا لديـــه منـــذ لأخيـــل انتســـبا

فكـــره الإغضـــاء عنـــه حينـــا فيشـــبع الكـــلاب فـــي إليونـــا

ودفـــع الإغريـــق بـــدء الأمـــر فـــانهزموا عـــن ميـــتهم بالقســـر

ولــم يســمهم مــن الضــر ســوى أن القتيـل ظـل فـي أيـدي العـدى

لكنمــا أيــاس فــي الحــال انثنــى بهــم وفــي طليعــة الجــيش دنــا

أيــاس مــن بعــد أخيــل كانــا أجملهــم وجهًــا وأعلــى شــانا

فــانقض كــالرتِّ بغــابٍ عربــدا والغضــف والفتيــة طــرًّا بــدَّدا٢٦

كــذا تبــددت لديــه الفــرق لمــا بفطرقــل جميعًــا أحــدقوا

إذ يحســبون منتهــى فخــارهم بحملــه فــورًا إلــى ديــارهم

وكــان هيفوثــوس الشــهم الأبــر فــرع الفلاســجي ليثــوس الأغــر

أدار حـــول قـــدم القتيـــل حمالـــة وهـــم بـــالقفول

يجتـــره لـــداخل البـــلاد تقربًـــا لســـادة الطـــرواد

فكـــان ذا علـــى الفتـــى وبـــالا لـــم يملكـــوا لدفعـــه مجـــالا

إذ إن آيـاس علـى الفـور زحـف ثـم علـى الخـوذة بـالرمح قـذف

فخـرق الـدماغ هـول المضـرب فانهـال بالـدماء فـوق الثعلـب٢٧

فأفلتـــت مـــن يـــده الحمالـــه وخـر فـوق الميـت لا محالـة٢٨

ويـــا لهـــا عليـــه مـــن مصـــيبه فـي البعـد عـن لريسـة الخصـيبة

إذ لـــم يـــتح لـــه إداء الشـــكر لأبويـــه قصـــر ذاك العمـــرِ

فهـبَّ هكطـور وبـالرُّمح حـذف لكـنَّ آيـاس عـن النصـل انحـرف

فحـــل فـــي بأديـــل إسكيذيُّســـا همـــام فوقيـــا فتـــى إيفيتســـا

قـــد كـــان يرعـــى أممًـــا كثيـــره بالجـــاه فـــي فانوفـــه الشـــهيره

فصــلَّ مــذ خــرَّ صــريعًا يرتجــف وبـرز السـنان مـن فـوق الكتـف

وهـــب إيـــاس وفـــرقيس ضـــرب إذ دون هيفوثـوسٍ كـان انتصـب

فنفـــذ الســـنان فـــي مهجتـــه بالـــدرعِ يلقيـــه علـــى راحتـــه

فانهزمـــت طليعـــة الطـــرواد وبيـــنهم هكطـــور أيضًـــا عـــادي

والأرغســـيون وراهـــم عربـــدوا وبـــالقتيلين خلـــوا فجـــرَّدوا٢٩

وكـــادت الطـــرواد تلـــوي ذعـــرا ونحـــو إليـــون تفـــرُّ قســـرا

ويظفـــر الأغـــارق انتصـــارا وإن يكـــن زفـــس لهـــم قهـــارا

لكـن فيبـوس انبـرى علـى الأثـر وفـي مثـال ابـن إفيتـوس ظهـر

(ألفـيج فبريفـاس مـن شـاخ لـدى أبيـه ذاك الشـيخ رغَّـام العِـدى

لـــه انتمـــت إصـــالةُ الآراء) فحـــث أنيـــاس علـــى الإبـــلاء:

«أمـا أتـاك كيـف تُحمـى الـدارُ حتـــى ولـــو قاومـــت الأقـــدار

بـالكر مثـل كـرة القـوم الأولـى		بلـوت فـي طـي زمـانٍ قـد خـلا
بـالعزم والإقـدام جـدُّوا الجـدَّا		وبـاسِ أجنـادٍ تقـلُّ عـدَّا
زفـس لنـا أحـرز مـذخور الظفـر		وكلكـم أحجـم بـالجبن وفـر»
فلـم يفـت أنيـاس لمَّـا أحـدقا		بأنـه رب السـهام مطلقـا
فصـاح يعلـو صـوتُهُ الهـدار:		«هكطـور يـا طـرواد يـا أنصـارُ
العـار كـل العـار أن نرتـدَّا		تجـاه إليـون بعـزمٍ هُـدَّا
والآن لـي لاحَ مـن الأربـاب		رب تصـدَّى لـي بالخطـاب
وقـال: إنَّ زفـس قـيم الظفـر		ظهيرنـا إيـهٍ فأحسـنوا المكـر
فطرقـل ذا لا تـدعوا الإغريقـا		يلقـوا بـه لفلكهـم طريقـا»
وانقـضَّ فـي صـدرهم ووقفـا		والجـيش مـن وراه طـرًّا زحفـا
فـزجَّ عـن سـاعد بـاسٍ قـاس		يـردي ليقـريط بـن آرسـباس
وكـان ليقوميـذ إلفُـهُ يـرى		فهاجـه البـث ونحـوه جـرى
وأرسـل العامـل رميًـا يرمـي		أفيسـوون بـن هفـاس القـرمِ
فحـل فـي كبـده فانطرحـا		وكـان مـن فيونـةٍ قـد برحـا
ولـم يكـن مـن بعـد عسـطروف		فتًـى حكـاه فـي أولـى الصـفوف
فثـار عسـطروف ثـم وثبـا		فلـم ينـل مـن الأخـاء مأربـا
تـدرعوا بشـدَّة البـؤوس		وراء معقـلٍ مـن التـروس

وبسطوا من حول فطرقل القنا إذا بآياس يصيح علنا:

«عن شلو فطرقل إلى الوراء لا تلتووا يا معشر الأخاء

ولا تهبَّنَّ إلى الأمام بل حوله ذودن بالإقدام»

فاشتبكوا والنقع كالسيل جرى فألبس الحضيض ثوبًا أحمرا

وانبسطت فوق الثرى الأشلاء رُصَّتْ كثافًا ما لها إحصاء

أقلهم قتلى الأخائيينا إذ هم قاموا متكاثفينا

يدرأ بعضٌ وافد المنون عن بعضهم كراسخ الحصون

والتحم القتال كالأوار وانتشرت سحابة الغبار

حتى كأن الشمس بادت والقمر مما لدى فطرقل في الجو انتشر

لكنَّهم في سائر الأطراف تلاحموا تحت رقيعٍ صافِ

لا غيم يعلو الأرض والجبالا والشمس يزهو نورها جمالا

بينهم بونٌ فهم يبلونا غبًّا وهول الحرب يتقونا ٣٠

وظلمة النقع بحر الحرب ما فتكت إلَّا بجند القلب

وولدا نسطور في الجناح ما شعرا بالنبأ الفضَّاح ٣١

بل حسبا فطرقل في الصدور حيًّا دهى الأعداء بالثبورِ

جيشُهما انحل فخلف الجحفل ظلَّا يذودان اتقاء الفشل

بأمر نسطور الحكيم عملا إذ بهما إلى الخلايا أرسلا

ودام حول جثة الجديل مشتجر الرماح للأصيل

حتـى وهـت أعضـاء تلـك الفـرق   مــن عيهــا وســبحت بــالعرق

فـــالتوت الرَّكبـــة والشـــظيه   خــارت تقــلُ القــدمَ المضــويَّه

وكفَّـــتِ الكـــفُّ وكُـــفَّ البصـــر   والجســـم طـــرًّا ســـابحٌ معفَّـــر

تـــألبوا تألـــب الأتبـــاع   بـــأمر سَـــيِّدٍ لهـــم مطـــاع

داروا حـــوالي جلـــد ثـــورٍ مـــدًّا   والشـــحم ســـيَّالٌ عليـــه امتـــدًّا

تجــاذبوا حتــى الــبلال نضــحا   والشـحم للجلـد مليًّـا رشـحا٣٢

وهكـــذا تجـــاذب القومـــان   جثَّـــةَ فطرقـــلَ بجهـــد العـــاني

قـــومٌ بـــه أســـطولهم يبغونـــا   ولحمـــا إليـــون آخرونـــا

بيـــنهم قـــد حمـــي الـــوطيس   بهمـــةٍ مـــا عليهـــا آريـــس

ولا رمتهـــا آن الاحتـــدام   فـــالاس بالتثريـــب والمـــلام٣٣

يـــومٌ بـــه زفـــس علـــى الأجنـــاد   والخيـــل أورى جـــذوة الجهـــاد

والحـــرب فـــي بـــونٍ عـــن الســـفين   أجـــت علـــى مقربـــة الحصـــون

لـــذاك لـــم يحـــط أخيـــل علمـــا   بمـــا بفطرقـــل هنـــا ألمَّـــا

بـــل ظنـــه حيًّـــا أتـــى الابوابـــا   فينثنـــي ويحســـن المآبـــا

إذ لـم يكـن فـي الغيـب أن البلـدا   لبـــأس فطرقـــل يـــدين أبـــدا

حتــى ولــو أخيــلٌ انقــضَّ معــه   ذلـــك ســـرٌ مـــن ثتـــيسٍ ســـمعهْ

أوحـت إليـه غيـب زفـس فـي القـدر   مخفيـــةً مصـــاب إلفـــه الأبـــر

هناك ظل نافذ السنان ... يصمي فيصطكُّ به القومان
يشجع الإغريق بعضٌ بعضا: ... «للفلك عود العار أنى نرضى
خيرٌ لنا يا قوم أن ينشقَّا ... جوف الثرى وفيه طرًا نلقى
من أن نرى قتيلنا يغيبُ ... بين العدى وسعينا يخيب»
وضجت الطرواد في الصفوف: ... «لا تنثنوا عن موقف الحتوف
حتى ولو طرًّا أبادنا القدر ... من حول فطرقل وفاتنا الظفر
وفي الرقيع طار فوق المعمعه ... لقبَّة النحاس صوت القعقعه ٣٤
هذا وصافنات آخيل انبرت ... في عزلةٍ تذرف دمعًا مذدرت
بأن روَّاض متونها هلك ... وفيه هكطور أخو البأس فتك ٣٥
لم يجد أفطميذ سوط الجبر ... على تلطفٍ بها أو زجرِ
وقد أبت تسير نحو البحر ... للفلك أو نحو السرى أن تجري
بل لبثت صماء كالعمود ... على ضريح سيد عميد
أو قبر ذات عزةٍ وشان ... وأطرقت في الأرض بالبحران ٣٦
وهي لدى المركبة العجيبة ... بلا حراكٍ تندب المصيبه
والدمع من بين مآقيها جرى ... من كبدٍ حرى إلى وجه الثرى
وانبسطت أعراقها المخضبه ... مسدولةً من فوق عرش المركبه
فلأساها رق زفس وانعطف ... وهاج رأسه على ذاك اللّهف
وقال في نجواه: «أوَّاه لما ... بكم حبونا الملك فيلا قدما

فهـو مليـكٌ لبنـي المـوت انتمـى وأنــــتم لا هـــــرمٌ ولا فنــــا

ويحكـــم أكـــان ذا فـــي القـــدر حتـــى تمنـــوا بشـــقاء البشـــر

إذ لــــيس فيمـــا دب أو تنفـــا أشـقى مـن الإنسـان بؤسًـا وأسـى

لكـــن مـــهٍ فلـــن يـرى هكطــور بكـــم علـــى مركبـــةٍ يغيـــرُ

فلـــن أَتِـــيْحَنَّ لــــه هـــذا كفـــى أن تـــاه فـــي درع أخيـــل شـــرفا

وهـا أنـا فـي هـول ذيـاك اللجـب مـــوليكم قـــوة قلـــبٍ وركـــب

لتنقـــذوا مـــن ســـاحة الهيجـــاء ســـائقكم للســـفن الحـــدباء

إذ قـــد أتحـــت الفتـــك والتنكـــيلا للقـــوم حتـــى يبلغـــوا الأســـطولا

حتـــى يـــوافي الغـــروب المـــؤنس مـن ثـم يتلـوه الظـلام الأقـدس٣٧

ونفـــخ القـــوة فيهـــا فمضـــت وعـــن نواصـــيها غبـــارًا نفضـــت

طـــارت وأفطميـــذُ مـــنقضٌ بهـــا مثـل العقـاب البـط فـي الجـو دهـا

لـــم يثنـــه البـــثُ علـــى الرَّفيـــق عـــن موقـــفِ الطـــرواد والإغريـــق

كـــــرًّا وفـــــرًّا جُـــــرُدُه تطيـــــر وهـــو علـــى غيـــر هـــدًى يســـيرُ

يهـــزمهم ولـــيس يصـــمي أحـــدا مـــذ ظـــلَّ فـــي كرســـيه منفـــردا

إذ لـــم يكـــن فـــي حيـــز الإمكـــان تـــــدبر العنـــــان والســـــنان٣٨

أبصـره الشـهم ابـن لا يـرق فهـب ومـن ورائـه علـى الفـور انتصـب

قـــال: «أأفطميـــذ مـــن أغواكـــا» وأي ربٍّ ســـــالبٌ هـــــداكا

دفعـــت مفـــردًا بصـــدر الفيلـــق   آه علـــى إلفـــك فـــالتحف لقـــي
أورده الـــردى ابـــن فريـــام وظـــل   يعتـــز مـــذ بشـــوب أخيـــل رفـــل»
قـــال أألقميـــذ مـــن فـــي الجنـــد   يثيـــر أو يكـــبح جـــرد الخلـــد
سـواك مـن بعـد الفتـى فطرقـل مـن   آل العلـــى حـــاكى ذكـــاء وفطـــن
لكنمــــا فطرقــــل أوَّاه مضــــى   ينفـذ فيـه المـوت أحكـام القضـا
فـــدونك الصـــروع والســـوط هنـــا   حتـى علـى الأعـداء أنقـضُّ أنـا»
فاحتـــلَّ ألقميـــذ بطـــن العـــرش   وأفطميـــذ انحـــاز عنـــه يمشـــي
فصـــاح هكطـــور لـــدى مـــرآه   ذاك بأنيـــاس الـــذي حـــاذاه
وقـــال: «يـــا أنيـــاس يـــا عضـــيدي   انظـــر فقـــد أبصـــرت مـــن بعيـــد
مطهَّمــــي أخيــــل منقــــادين   لســـائقين فـــي الـــوغى غـــرَّينِ
فإن تكـن أنـت ظهيـري في الطّلب   أحرزهمـا غنمًـا ويـا نعـم السَّـلبْ
فمـــا لســـائقيهما مـــن شـــدة   علـــى لقائنـــا ودفـــع الصـــدمة»
فـــانقض آيـــاس ومـــا تـــرددا   وانـــدفعا قـــرمين قـــد توقـــدا
بجـــنٍ فيهـــا علـــى ســـبت البقـــر   صـفائح النحـاس تبهـر النظـر ٣٩
معهمـــا اســـتطار إخـــروميُّس   وذو المحاســـن الفتـــى إريـــتس
طـــرًّا بغـــوا بالفارســـين شـــرًّا   والعـود فـي تلـك العتـاق ذخـرا
ضـــلّوا فمـــا هـــم قـــطّ راجعونـــا   مـــا لـــم يريقـــوا الـــدم خاســـرينا
زفـــس دعـــا يضـــرع أفطميـــذ   فاشـــتد ثـــم صـــاح: «ألقميـــذ:

«بهذه الجياد قربي ظلَّا   بعاتقي أنفاسها تحلَّا ٤٠
فإنما هكطور لا ينفك ما   لم ينل النصر ويسفك الدما
ويدفع الجياد والجنودا   يفلّها مبددًا مبيدا
أو إننا في صدر جيش النبلا   نظفر فيه خاسرًا مذللا»
من ثم صاح: «يا أياس الأكبرا   ويا منيلا يا أياس الأصغرا
عن جثة القتيل عبء الصد   ألقوا به لخير بهم الجند
وأدركونا نحن حيَّان وقد   برَّز هكطور وأنياس وفد
بصفوة الطرواد طرًّا أقبلوا   ونحونا كل قواهم حولوا
لكنني أبلي ولا أبالي   على ولاء زفسٍ اتكاي» ٤١
رمى ورمحه مضى يغلُّ   وفي حشا إريتسٍ يحلُّ
ما صدَّه المجنُّ بل منه مرق   إلى نجاده وأحشاه اخترق
فهبَّ هبةً ومن ثم انحرف   مسلنقيًا والنصل مرتجًّا وقف
كأنما ذو شدَّةٍ وبأس   قابل ثورًا بشحيذ الفأس
من منبت القرنين بت العرقا   فهبَّ ثم خرَّ ثم اسلنقى
فخف هكطور وفورًا طعنا   لكن أفطميذ في الحال انحنى
فذهب السنان من فوق الكتف   مرتكزًا في الأرض عنفًا يرتجف
وأوشك القرمان يصطكان   بالسيف دون الرمح والسنان

لـولا إلا ياسـان اللـذان انـدفعا ... لرفـد أفطميـذ لمـا سـمعا

فارتـاع هكطـور وصـاحباه ... وانقلبـا والميـت غـادراه

منطرحًـا ممـزَّق الأحشـاء ... فهـبَّ أفطميـذ كـالأنواء

وجـرد العـدة عنـه وابتـدر ... يصيح: «عن قلبي انجلى بعض الكدر

وإن يكـن فطرقـل لا يقـاس ... بـذا الفتـى ولـو بـلاه النـاس»

ووضـع العـدة فـوق العجلـه ... ثـم اعتلـى منتصـبًا بالعجلـه

مخضـب اليـدين والـرجلين ... كالليـث ثـورًا رضَّ بـالكفين

هنـاك عـج حـول فطرقـل الـوحى ... يثيـر خطبًـا فادحًـا مبرحًـا

وانحـدرت فـالاس مـن أعلـى السـما ... بـأمر زفـس لإراقـة الـدما

أنفـذها لتنصـر الأخـاء ... إذ شـاء أن يبـدل القضـاء

وسـط سـحابةٍ مـن البرفيـر ... حلـت علـى شـأنٍ لهـا خطيـر

كـأن فـي قلـب السـما قـوس قـزح ... ألقـاه زفـس منبئًـا بمـا سـمح٤٢

ينـذر بـالحرب وقـر العـام ... وأزمـة الحـارث والسـوام٤٣

فانخرطـت بيـنهم فـي السـحب ... تحـثهم مـن طـي تلـك الحجـب

ثـم حكـت فيـنكس شـيخًا أكمـلا ... تخاطـب الشـهم منـيلا أولا:

«العـار والشـنار أن تمزقـا ... غضف العدى خل أخيل الأصدقا

قـم لا يزعزعـك هزيـع الحـرب ... وصـل مثيـرًا بـأس كـل الشـعب»

قـال: «أجـل يـا أبتـا الشـيخ ألا ... ليـت أثينـا عضـدي فـي ذا الـبلا

حتـــى تبـــين وابـــل النبـــال عنـي ففطرقـل أقـي فـي الحـال

فـــإن موتـــه فـــؤادي فطـــرا لكنمـا هكطـور كالنـار انبـرى

ولــم يــزل يعمــل بــاري الحــدِّ لأن زفـــس خصَّـــه بالمجـــد»

فطربـــت إذ ذاك ممـــا وجَّهـــا دعـاءه قبـل بنـي الخلـد لهـا

فشـــددت بـــالحزم منكبيـــه وصـــلّبت بـــالعزم ركبتيـــه

وحـام حـول الميـت حيـث انبعثـا كأنـه الـذباب غرثانًـا عثـا ٤٤

يدفعـــه المـــرء فـــلا يظـــلُّ يمـــتصُّ مـــن دمٍ لديـــه يحلـــو

كـذا منـيلا الـدم بالبـأس سـفك بنصـل رمـحٍ حيثمـا حـل فتـك

وكـان فـي الطـرواد علـجٌ يسـعى بفـــودس بـــن إيتيـــون يـــدعى

ذو دولـــةٍ وصـــولةٍ يجلـــه هكطــور وهــو ضــيفُهُ وخلّــهُ

لـــم يـــرع مثلـــه فتًـــى فـــذاكا أورده أتريــــذٌ الهلاكــــا ٤٥

ولـى فغـاص النصـل فـي نجـاده لجوفـه يمـرق مـن فـؤاده

فخـــر والعـــدة صـــلت وعـــدا يجتـره أتريـذ مـن بـين العـدى

فجـــاء آفلـــون هكطـــور علـــى شـكل ابـن آسـيوس فيـنفس العـلا

مـــن صـــرح آميدوســـة قـــديما ضـيفًا لهكطـور أتـى كريمـا ٤٦

فقـال: «مـن هكطـور يخشـاك إذا حـاذرت مـن سـطوة أتريـذ الأذى

مـا إن عهـدت البـأس فيـه قـبلا وهـو تـراه قـد جـرى وأبلـى

واجتــر مــن بــين ســراكم مفــردا   جثــة فــودس الــذي أولــى الــردى»
غشَّــى ابــن فريــام غمــام الغــم   فــانقضَّ يجــري بالســلاح الجــم
إذ ذاك زفـــس هـــزَّ للإرهـــاب   مجنَّـــه البـــاهر ذا الهـــداب
فغشــيت إيــذة دهــم الســحب   بــالبرق والرعــد المخــوف المرهــب
يشـــير للطـــرواد بالغنيمـــه   ولبنـــي الإغريـــق بالهزيمـــه
ولّـــى فنـــيلاس البيـــوتي أوَّلا   مذ كان في صدر السرى مستقبلا
فزجـــه فوليـــدماس الباســـل   فشــق حتــى العظــم منــه الكاهــل
وانقــض هكطــور وليطــوس ضــرب   بقبضـــة الكـــف فـــولّى وهـــرب
ملتفتًــا مــن كــل صــوب يئســا   مــن ملتقــى العــدى بزنــد ييســا
فــي إثــره هكطــور كــالبرق ركــض   لكــن إيــذومين فــي الحــال اعتــرض
بطعنـــةٍ بالشـــدي كـــادت تنشـــب   لكــن بــبطن الــدرع قــض الثعلــب
فصـــاحت الطـــرواد والمطعـــون   زجَّ فمـــا أصـــيب إيـــذومين
قـــد كـــان واقفًـــا علـــى مركبتـــه   فمـــال والنصـــل مضـــى بشـــدَّته
إلـــى فتـــى مريـــون قيرانوســـا   تابعـــه الأمـــين مـــن لقطوســـا
كـــان إذومـــين مـــن الخيـــام   قــد جــاء عاديًــا علــى الأقــدام
وأوشـــك الطـــرواد يحرزونـــا   بموتـــه نصـــرًا لهـــم مبينـــا
لكـــن قيرانـــوس وافـــى بالعجـــل   إليــه فــامتطى علــى خيــر العجــل
مــن العــدى أنجــاه لكــن مــا نجــا   ونصـــل هكطـــور بفيـــه ولجـــا

فـي الفلـك تحـت الأذن والأسـنانا ... سـحَّق ثـم استأصـل اللسـانا

فَخـرَّ والعنـان مـن يديـه ... أهـوى فمريـون انحنـى عليـه

تنـاول الصـرع وإيـذومينا ... دعا: «ألا سط واطلب السفينا٤٧

أمـا رأيـت النصـر عنَّـا ولّـى ... فمـا إليـه مـن سـبيل أصـلا»

فخـفَّ نحـو الفلـك بالجيـاد ... مرتعـدًا منخلـع الفـؤاد

رأى منـيلا وأيـاس حـالا ... أنَّ العـدى زفـس إلـيهم مـالا

وقـد حبـاهم ببتـات النصـر ... فصـاح آيـاس بضـيق الصـدر:

«ذو العلـم ويـلا والجهـول أبصـرا ... زفـس اجتبى اليـوم العـدى ونصـرا

فكـلٌّ سـهمٍ مـنهم طـار قتـل ... سـيَّان إن رمـاه نكـسٌ أو بطـل

فإنمـا زفـس هـو المصـوب ... وسـهمنا يطـيش حيـث يـذهب٤٨

فلنفكـرن الآن مهمـا كانـا ... بـرد فطرقـل إلـى حمانـا

لعـل جنـدنا تسـر طربًـا ... بعودنـا فيـه وإن سـاء النَّبـا

هـدَّهم لا شـك فـرطُ الحـزنِ ... لمـا رأوا مـن هـول هـذي المحـن

فمـا يخـالون بنـا مـن شـدَّة ... لصـد هكطـور بهـذي الشـدة

بـل حسـبوه لـن يكـفَّ حتـى ... يعلـو الخلايـا والسـرى يبتتـا

آهًـا ألا نلقـى لنـا رسـولا ... يطيـر بالأنبـاء لابـن فـيلا

ظنـي بـه لا زال يجهـل الخبـر ... بقتـل إلـف ودَّ مـن فـوق البشـر

أوَّاه لكـــن كيـــف بالوصـــول	فمــا إلــى الرســول مــن ســبيل

فحجـــب الظـــلام بانســـدال	علــى الســرى والخيــل والعجــال

يـــا زفـــس أيهـــا الإلاه الأكبـــر	أَنِـرْ علـى الإغريـق حتـى يبصـروا

مـن جـوك امحـق حنـدس الـديجور	ثم امحهم إن شئت وسط النور»[٤٩]

فـــرق للـــدموع زفـــس وانصـــدع	وبـــدد الضـــباب والغـــيم قشـــع

وســـطعت فـــي ســـاحة الكفـــاح	شـــمس العلـــى بنورهـــا الوضَّـــاح

فصـــاح آيـــاس: «منـــيلا هيَّـــا	علّـــك أنطيلـــوخ تلقـــى حيَّـــا

فقـــل لـــه بـــالخبر المشـــئوم	يمضـي إلـى أخيـل الغشـوم» ٥٠

لبـــى منـــيلا ومضـــى كالضَّـــاري	أجلـــي عـــن حظـــائر الأبقـــار

صـــدَّته غضـــفٌ ورعـــاةٌ ظلـــت	ترصـــده الليـــل ومـــا تخلـــت

ولـــم تـــبح لـــه ســـمين الشَّـــحمِ	فصـــدَّ غرثانًـــا لـــذاك اللحـــم

تهمـي عليـه فـي الظـلام الـدامس	شـــهب القنـــا ولهـــب المقـــابس

لـــم يجـــده البـــاس وقبـــل الفجـــر	ممتعضًـــا ولـــى بكيـــد النَّحـــرِ

كـــذاك فطرقـــل منـــيلا كرهـــا	غـادر يخشـى وقـع خطـبٍ أدهـى

يخشـى إذا الإغريـق هـدَّ الجـزع	ولّــوا وفــي أيــدي العــداة يقــع

فصـــاح: «يـــا أيـــاس يـــا مريـــون	يـــا زعمـــاء الجـــيش لا تبينـــوا

وادكـــروا أخـــلاق فطرقـــل وكـــم	برقّـــة الجانـــب للكـــل اتَّســـم

واويحـــه كـــم مـــن يـــدٍ بيضـــاء	لـــه قبيـــل الحتـــف بالقضـــاء»

ثـم انبـرى مستشـرفًا حيـث جـرى كالنســر أحــدق الطيــور بصــرا

ذاك الـــذي مـــن قلّـــةِ السَّـــحاب أبصـــر خرنقًـــا بـــوعر الغـــاب٥١

ومـن عبـاب الجـو كـالبرق انحـدر وأنشـب المنسَـرَ فـي لمـح البصـر

كـــذا منـــيلا لحظـــك النقَّـــادا سـرَّحت مـا بـين السـرى ارتيـادا

عـــل ابـــن نســـطور لـــديك يبـــدو حيًّـــا فتجـــري نحـــوه وتعـــدو

إذا بـــــه ميســـــرةَ الأجنـــــاد يســـــتنهض الهمـــــات للجهـــــاد

فخـف نحـوه وصـاح: «ادن تـرى يـــا أنطلـــوخ الصـــادع المفطـــرا

خطـــبٌ بنـــا يـــا ليتـــه مـــا حـــلَّا جـــل وظنـــي بـــك تـــدري جـــلَّا

تـــدري لنـــا أعـــدَّ زفـــس العـــارا وانحـــاز عنَّـــا للعـــدى انتصـــارا

فطرقـــل ذيـــاك الهمـــام الأروع ميـــتٌ وهـــدَّ القـــوم منـــه المصـــرع

طـــر لأخيـــل علّـــه فـــي حســـرته يـــنهض فـــي طـــلاب عـــاري جثتـــه

قـــل ســـوف يلقـــى جســـمه مجـــردا لأن هكطـــور اســـتباح العـــددا»

أصـــــاخ أنطلـــــوخ واقشـــــعرَّا وظـــلَّ صـــامتًا يطيـــل الفكـــرا

ففـــاض دمعـــه وقلبـــه انخلـــع وصوته الهدَّار في الحال انقطع٥٢

لكنَّـــــه لبَّـــــى منـــــيلا وهـــــرعْ مـــن بعـــدما ســـلاحه حـــالًا نـــزع

ألقـــى بـــه للـــوذق الجـــواد ظهيـــــره وســـــائق الجيـــــاد

وغـــادر العســـكر والـــدَّمع همـــى بنبـــأٍ جـــلَّ وخطـــبٍ دهمـــا

أبعدت أنطلوخ يا منيلا ولم تقم مقامه بديلا

ساء بني فيلوس أن قد نزحا عنهم وجهد العي فيهم برَّحا

أمَّر فيهم ثرسميذ المجتبى ونحو فطرقل عدا منقلبا

ولم يقف حتَّى الأياسين أتى فقال: قد أنفذت للفلك فتى

أنفذت أنطلوخ بالأنباء إلى أخيل المستبدِ الناءي

لكن على هكطور مهما اشتعلا غلا فهل نراه يبلي أعزلا

إذن علينا عهدةُ التبصُّر بحمل فطرقل إلى المعسكرِ

والعود عن مشتجر السيوف تملصًا من داهم الحتوف»

قال أياس بن تلامون: «أجل بمثل هذا القول من قال عقلْ

أنت ومريون احملا الفقيدا واندفعا عنَّا به بعيدا

خلفكما نقارع الأعادي صدًّا لهكطور وللطّرّوادِ

إني وآياس الفتى قرنان بالبأس واسمًا متشابهان

فكم كبحنا قبل علجًا أروعا وكم تحالفنا على الكر معا»

وما انتهى حتَّى سريعًا عمدا ورفعا الجثَّة ثم ابتعدا

فضجت الطرواد ثم اندفعت كالغضف دون فتية الصيد سعت

تعقَّبت رتًّا جريحًا طمعت فيه فمال نحوها فجزعت

وانهزمت يدفع بعضٌ بعضا كعسكر الطرواد لمَّا انقضا

تأثروا الإغريق بالمغاول نفحًا وخزًا بظبى العوامل[53]

حتـى إذا ضـاق المجـال انعطفـا　　كـلا الأياسـين لهـم ووقفـا
فـامتقعوا لونًـا وخـاروا ووهـوا　　وجملـة عـن طلـب الشـلو سـهوا
وذانـك القرمـان نحـو الفلـك　　خفًّـا بـه فثـار نقـع الفتـك
كالنـار شبت تحت قصف الريح　　فـي بلـدٍ جـم الـذرى فسـيح
فالتهمـت منـازل السـكان　　وهـدر النـوءُ علـى المبـاني
ذلـك عـجُّ الجـيش والخيـول　　خلفهمـا فـي طلـب الأسـطول
ولبثـا بالشـلو يجريـان　　كمـا مـن الشـم جـرى بغـلان
جـدًّا بجـذع حمـلا متـين　　أعـدَّ فـوق الغـاب للسـفين
تـوغلا بشـدةٍ فـي الـوغر　　بعـرقٍ فـي الجهـدِ رشـحًا يجـري
أمَّـا الأياسـان فَمِـن خلفهمـا　　قـد حكيـا فـي بطـنِ وادٍ علمـا٥٤
في وجه مجرى النهر جبارًا يقف　　فصـاغرًا عنـه سـريعًا ينعطـف
كـذا الأياسـان بوجـه الفـرق　　صـدًّا سـرايا جيشـها المنـدفق
لكنمـا الطـرواد ظلّـوا فـي العقـب　　أنيـاس يغـريهم وهكطـور يثـب
قرمـان ضـجت لهمـا الجيـوش　　وانهزمـت بالرُّعـب تسـتجيش
حكـوا سـحابةً مـن الـزرازر　　ولّـت لـدى منظـر صـقرٍ كاسـر
رأت بـه موتًـا لهـا زؤامـا　　فانهزمـت مـن وجهـه انهزامـا
كـذلك الإغريـق فـي كشـفتها　　مـذعورةً ولّـت علـى ذلتهـا

وغـادرت فـي الحـاف والحفيـر   مـا انهـال مـن سـلاحها الكثيـر
ولـيس هـذا منتهـى القتـال   وعبـثِ الأزمـة والوبـال٥٥

هوامش

(١) كل هذا النشيد مصاولة وكفاح، لا تتخلله نكات وغرائب كسائر إنشاد الإلياذة فهو وحيد في بابه بهذا المعنى، ولقد افتتحه الشاعر بالتغني بأعمال منيلاوس؛ لأنه لم يكن يجدر بهذا الفارس وهو المستنفر إلى حرب طروادة إلا أن يستلفت الأنظار ببأسه وإقدامه وسمو صفاته حينًا بعد حين، وقد لقبه الشاعر بإلف آريس إلاه الحرب إشارةً إلى أنه لم يكن بالفتى الهيَّاب كما زعم بعض أعدائه.

(٢) الثنية: البقرة الفتية.

(٣) هيفيرينور ابن فنثووس وشقيق أوفرب قتله منيلاوس (ن١٤).

(٤) العرس الهدي: العروس حين زفافها تُهدى إلى زوجها. وقوله: «في أقصى الغرف» إشارة إلى إقامتها في الحرم. راجع ما قيل بهذا الباب في حواشي النشيد السابق.

(٥) فرنثيس: أم هفيرينور.

(٦) العين: الذهب، واللجين: الفضة. ذكرنا في ما تقدم أن فتيان بعض قبائلهم كانوا يرسلون شعورهم أو يضفرونها كبدو العرب (ن:٢)،

ولكننا لم نر قبل هذا أن غدائر الفتيان كانت تضفر بالفضة والذهب يتخذونها حلية كحلي النساء، على أن في جاهلية الأمم كثيرًا من أمثلة تحلي الرجال بالشنوف والخلاخل وسائر أنواع الحلي، ولا أخال الرجل في أول أمره إلا متخذًا الحلي لنفسه قبل المرأة؛ إذ كان يستأثر بقوته بكل ما يروقه ثم أخذ يتجاوز عنها إلى المرأة من باب الإثرة أيضًا؛ إذ جعل يأنس بالنظر إليها وهي رفيقته فوق ما كان يأنس بالتلبس بها بنفسه، وكان كلما تقدم في الحضارة ينبذ منها جانبًا إلى أن استبقى منها السهل الذي لا يزعجه حمله كالخواتم والسلاسل، وأبقى لها ما يوجب الحرص والأذى وثقب الأذان.

(٧) كثيرًا ما يشبه الشاعر البطل الخار صريعًا في ساحة القتال بالشجر الشامخ الفروع المتين الجذور كالأرز والملول، وأما تشبيهه أوفرب بفرخ الزيتون الغض فإنما كان لجماله وغدائره المسترسلة، وهي مضفورة بالفضة والنضار. قولوا: إنه كان لفيثاغورس شغف خاص بهذه الأبيات يتغنى بها على نغم القيثار حتى تمادى به هذا الشغف، فادعى أنه أوفرب بالذات قمصت إليه نفسه بعد موته.

(٨) الصوار: قطيع البقر.

(٩) غرة الشيء: خياره.

(١٠) يراد بأتريذ هنا: منيلاوس.

(١١) أي: إنه تشبه بميتيس زعيم الكيكونيين.

(١٢) أي: منيلاوس وأوفرب.

(١٣) أعجب كثيرون من الشراح بكلام منيلاوس في هذا الموقف وهو يناجي نفسه، ولا بدع فإن فيه من براعة تصرف الشاعر ما لا يكاد يتصوره شاعر آخر، أقبل هكطور تتبعه سرايا قومه فأوجس منيلاوس خيفة في نفسه فتردد في الاستواء أمام ذلك الجيش العرمرم، ولم يأخذه الرعب حتى مر على ذهنه أن لهكطور وجنده عضدًا إلاهيًّا لا تصده قوى البشر، ومع هذا كله فقد تمنى أن يكون إياس إلى جانبه فلا يبالي إذ ذاك بذلك الجيش الجرار ولو تقدمهم بطله المغوار وفيبوس الرب القهار، وفي هذا التدرج ما فيه من الفخر لمنيلاوس وإياس كليهما.

(١٤) يقال: رب انكسار خير من انتصار. وهكذا فإن ارتداد منيلاوس كالليث الملتوي أمام الرماح والنباح لا يغض من شأنه شيئًا.

(١٥) أي: سلاح أخيل. أرسل هكطور ذلك السلاح إلى إليون قبل أن يتقلده ليراه قومه ويكون نبأ لهم عظيمًا.

(١٦) قال عنترة

ولي بأس مفتول الذراعين خادر   يدافع عن أشباله ويحامي

(١٧) عرض الجند، أي: عامتهم.

(١٨) الدراهس: الشدائد، والنواهس: الكلاب. يقول غلوكوس هذا القول؛ لأنه لم يكن يعلم ما كان من أمر سرفيذون وذهاب أفلون به ليدفنه بأمر زفس في وطنه.

(١٩) أي: نحو إليون.

(٢٠) قال بعضهم:

وما كل ما يخشى الفتى نازلٌ به	ولا كل ما يرجو الفتى هو نائلُ
فوالله ما فرطت في جنب حيلةٍ	ولكنه ما قدر الله نازلُ
وقد يسلم الإنسان من حيث يتقي	ويؤتى الفتى من أمنه وهو غافلُ

(٢١) ذهب القدماء إلى أنه كان من مهارة هوميروس أن أوقع سلاح أخيل مغنمًا بيد هكطور؛ ليتساوى البطلان، وإلا لما كان لأخيل الفخر بقتل هكطور، وسلاح أخيل صنع الآلهة وسلاح هكطور صنع البشر، وهنا أمر آخر يحسن التنبيه إليه وهو أن الشاعر وطأ بهذه المقدمة إلى الإتيان على الوصف البديع للسلاح الذي سيصنعه هيفست لأخيل في النشيد التالي.

(٢٢) أي: لن يبلغ سن الشيخوخة؛ لأنه سيقتل شابًا.

(٢٣) لا يفوت الشاعر محل انتقاد إلا ويتنبه إليه ويتلافاه؛ إذ قد يمكن أن يعترض بأن عدة معدة لرجل لا تحسن لكبر أو صغر أو قصر

أو طول لرجل آخر، فقال الشاعر: إن زفس جعلها كأنما صنعت لهكطور، وهو القدير على أكثر من ذلك.

(٢٤) يشبه هكطور بغمام الحرب، وهو تشبيه غريب؛ ولهذا ذهب بعضهم إلى أن هذا البيت دخيل. قلت: ولا أراه غريبًا بتصرفه به هذا التصرف.

(٢٥) ابن ويلوس هو إياس الأصغر، كان أول قادم، إما لأنه كان أعداهم كما تقدم، وإما لأنه كان إلف إياس الأكبر، فكان أول مجيب لندائه.

(٢٦) الرت: الخنزير. والغضف: الكلاب.

(٢٧) ثعلب الرمح: عوده.

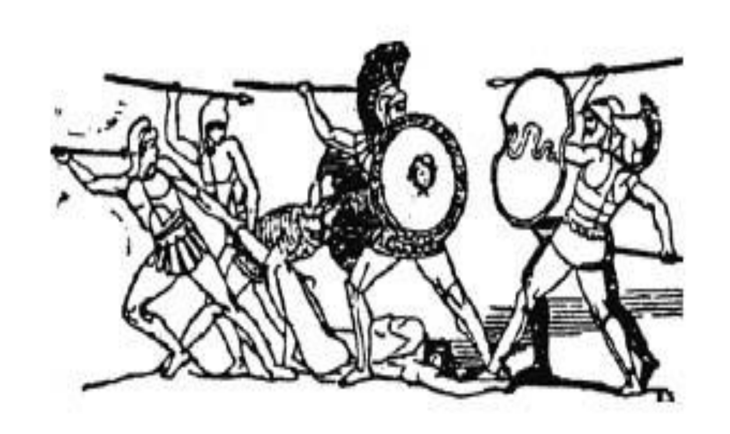
(٢٨) أي: حمالة السيف التي أراد أن يجر بها جثة فطرقل.

(٢٩) أي: فرقيس وهيفوثوس.

(٣٠) غبًّا، أي: حينًا بعد حين.

(٣١) ترسيميذ وانطيلوخ.

(٣٢) يعلمنا هوميروس هنا كيف كانوا يبسطون الجلود، وهو أول من ذكر ذلك فيما نعلم.



القتال حول جثة فطرقل.

(٣٣) أي: إن فالاس وهي آثينا ربة الحكمة لا تجد مرمى للوم والتثريب، وإن كانت مغيظة، تلك إشارةٌ إلى أن حدة الغيظ تدفع حتى البصير الحكيم إلى كشف معايب غيره، وهي طرفة من طرف هوميروس الكثيرة.

(٣٤) أي: إلى السماء.

(٣٥) لا عجب إذا مثل لنا هوميروس جياد أخيل تذرف العبرات أسًى وحزنًا على فطرقلٍ، وهي من الجياد الخالدة، فلقد روى الرواة في كل الأعصر أن الخيل تبكي وتتحرق لهفةً على فرسانها، ذكر أمثال هذا أرسطاليس ولبيناس، وذكر سولينوس مثله عن الفيلة إذا أخذت من مواطنها، وقال هذا القول عن الحيوان بعض المتأخرين، وقد حذا حذو هوميروس باستبكاء الجياد فرجيليوس فقال:

Post bellalor equus, Positis insignibus Æthon

It lacrymans, guttisque humectat grandibus ora

وأما شعراء الإفرنج فقد لطفوا المعنى؛ إذ أضربوا عن ذرف الدموع وعبروا عن جزن الخيل بجمود العين وتنكيس الرأس، وما أشبه كقول راسين في روايته فدر

L’œil morne maintenant et la lète baissée

Semblaient se conformer à sa triste pensée

وممن استبكى الخيل من شعرائنا عنترة العبسي بقوله:

ولقد تركت المهر يدمي نحره حتى التقتني الخيل ثاني جدعم

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

فازورَّ من وقع القنا بلبانه فشكا إليَّ بعبرة وتحمحمِ

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

وأما استبكاء الحمام والورق وما أشبه من الطيور فقد صار في لغتنا من المبتذلات السواقط.

(٣٦) إن عادة إقامة النُّصب على قبور الأموات رجالًا ونساءً قديمة جدًّا كما ترى. راجع النشيد السابق.

(٣٧) سبق لنا ذكر السبب في تقديس الظلام (ن١٤).

(٣٨) لما قتل فطرقل أصبح أفطميذ منفردًا في كرسي المركبة، فكان يغير بغير هدى على الأعداء فيهزمهم، ولا يقتل أحدًا منهم؛ إذ لم يكن بإمكانه أن يكافح ويطارد في آن واحد.

(٣٩) الجنن: التروس، والسبت: الجلد المصنوع.

(٤٠) يقول لا تبعد عني بالجياد بل سر دائمًا على مقربة مني حتى أشعر بنفسها على عاتقي.

(٤١) حيثما نظرنا إلى الإلياذة رأينا فيها الأدلة الساطعة على خالص الاعتقاد بالقضاء والقدر، ووجوب التسليم إلى العناية على حد قول المعري:

سلم إلى الله فكل الذي ساءك أو سرَّك من عنده

(٤٢) قوس قزح هنا نذير سوءٌ لا يشير خير كما جاء في التوراة.

(٤٣) القر: اشتداد البرد، والسوام: الدواب والأنعام.

(٤٤) الغرثان: الجائع، وعثا: أفسد.

(٤٥) لعل الإتيان بفودس هنا ومقتله مقصودان من الشاعر بإزاء قدوم فطرقل ومقتله؛ لأن هذا خليل أخيل بطل الإغريق، وذاك خليل هكطور بطل الطرواد.

(٤٦) أي: أسيوس الذي تمثل أفلون بهيأته.

(٤٧) الصرع: العنان.

(٤٨) قال البحتري:

متوقـــد يفـــري بـــأول ضـــربة ... مـا أدركـت ولـو أنهـا فـي يـذبلِ

وإذا أصـــاب فكـــي شـــيءٍ مقتـــل ... وإذا أصـيب فمـا لـهُ مـن مقتـلِ

(٤٩) لما كان الجو قد أربد واكفهر بما كثف زفس فيه من الضباب، وتصاعد من الغبار المتكاثف كالسحاب، سدت سبل البطش في أوجه الأبطال، فقال أياس في دعائه هذا القول البديع؛ إذ لم يلتمس نجاةً لنفسه ولقومه، ولا عونًا علويًّا يستمده من زفس، بل جل ما رام وتمنى أن تنقشع السحب فيتسع له المجال للكفاح، ولا حرج عليه بعد ذلك إذا مات قتيلًا وهو يجاهد ويطارد.

(٥٠) الغشوم: الظالم وقع اختيار أياس على أنطيلوخ بن نسطور؛ لكونه صديقًا حميمًا لأخيل.

(٥١) الخرنق: ولد الأرنب.

(٥٢) لا وصف أبلغ للحزن من هذا الوصف الوجيز: اقشعرارٌ، وصمتٌ، وفكرة، ودمعٌ، وانخلاع قلب، وانقطاع صوت.

(٥٣) المغاول: السيوف، وظبي العوامل: نصال الرماح.

(٥٤) العلم هنا الجبل.



أياس الكبير يحمل فطرقل ليدفعه إلى منيلا ومريون.

(٥٥) إن التشابيه الشائقة متلازَّة متزاحمة في آخر هذا النشيد، تزاحم الفرسان في حومة الميدان، وحسب المطالع أن يعيد النظر عليها، فيرى بدائع التراكيب وغرائب الأساليب قد تطايرت من قريحة الشاعر بأبياتٍ قصار تطاير النبال عن سواعد الأبطال.

النشيد الثامن عشر

تفجع أخيل على فطرقل ووصف الترس الذي صنعه له إلاه النار

مُجْمَلُهُ

جرى أنطيلوخ إلى أخيل فأنبأه بموت فطرقل، فبكى أخيل وانتحب، وأخذ منه الحزن كل مأخذ، فسمعت أمه ثيتيس أنينه وهي في لجة البحر، فصعدت إليه مع بنات الماء فأخذت تصبره وهو لا يتصبر، ولا يرى إلا الانتقام لرفيقه وحبيبه، وكان فطرقل قد ذهب بسلاح أخيل فبقي أعزل لا قبل له بالتقاء الأعداء على تلك الحال، فثبطته أمه ريثما تحضر له شكةً في اليوم التالي مع صنع إلاه النار، فصرفت زميلاتها وصعدت إلى الأولمب فتلاحم الجيشان حول جثة القتيل، وكاد هكطور يظفر بها لو لم تأت إيريس من قبل هيرا، وتأمر أخيل بالإقبال من بعيد على الطرواد، فأقبل إلى حافة الخندق وصاح ثلاث صيحات فارتاع الطرواد وانهزموا وخلا الإغريق بجثة فطرقل، وأتوا بها قبيل المغرب إلى خيمة أخيل، وعقد الطرواد مجلسهم فأشار فوليداماس بالتحصن في المدينة فأبى هكطور إلا البقاء خارجها، فقضوا ليلتهم متيقظين والإغريق وأخيل يندبون فطرقل فغسلوه وطيبوه، وأما ثيتيس فدخلت صرح إلاه النار فرحبت بها زوجته، ثم أتاها بنفسه فبثت له شكواها والتمست

سلاحًا لابنها، فدخل معمله واصطنع الترس العجيب والدرع والخوذة والخفين وألقى بهن إليها، «فاندفعت بها اندفاع الصقر».

وقائع هذا النشيد في اليوم التاسع والعشرين وليلة الثلاثين، ومجرى حوادثه في مضارب أخيل وفي منزل إلاه النار.

النشيد الثامن عشر

صـــدامهم كـــأوار النـــار محتـــدم … وأنطلـــوخ بـــه قـــد خفَّـــت القـــدم

ألفى أخيل لدى الأسطول يخبط في … بحرانـــه قلقًـــا ممَّـــا بـــدا لهـــم[1]

يـئن وهـو ينـاجي الـنفس مضـطربًا: … «ويـــلا عـــلام أرى الأرغوســـة انهزمـــوا

ولّــوا عباديــد نحــو الفلــك شــاردةً … هل جلَّ خطبٌ به الأرباب قد حكموا[2]

خطــبٌ بــه أوعــزت ثيتــيس قائلــةً: … «بُهـمُ المرامـد يلقـى الحتـف خيـرهم[3]

«يغيـب عنـه ضـياء الشـمس فاتكـةً … بـه الأعــادي وحــيٌ أنــت عنــدهم»

لا شــك فطرقــل أودى ويحــه أفلــم … أقــل لــه دونــك النيــران تضــطرم

أخمــد شــــرارتها وارتــــدَّ مجتنبًـــا … هكطــور لا تنخــرط إيَّــاك وســطهم»

تلــك الهــواجس هاجــت بثَّــه فــإذا … بـــأنطلوخ بـــدا والـــدمع ينســـجم

قال: «ابن فيلا مصـابٌ قد دهمنا به … يـا حبَّـذا لـو بنـو العليـاء مـا دهمـوا

فطرقـــل ملقـــى وهكطـــورٌ بشـــكتِهِ … والجسـم عـارٍ عليـه النقـعُ ملـتحم»[4]

فمــا انتهــى أنطلــوخٌ مــن مقالتــه … حتــى محيَّــا أخيــلٍ غشَّــت الغمــم[5]

وفـــوق طلعتـــه الغـــراء وهامتـــه براحتيـــــه ســــــناجًا ذرَّ يلــــــتطم٦

فاســود منــه محيــاه وقــد علقــت بطيـــب أثوابـــه آثـــاره الســـحم٧

أكـــب يشـــغل ميـــدانًا بقامتـــه تمرُّغًـا وهــو زاهــي الشــعر يصــطلم٨

وحولـــه انطلقـــت تبكـــي مولولـــةً تلك السَّبايا التي غصَّت بها الخيم٩

غيـــدٌ أخيـــلُ وفطرقـــلٌ بيأســـهما قـد أحـرزا سـلمًا يـا حبَّـذا السَّـلم١٠

لطمـــن بـــض صـــدورٍ والتـــوين أسًـــى فسـحً مـن أنطلـوخ المـدمع الـرَّذم١١

ذرعيــه أمســك حتــى لا يثــور أسًــى ونحــره يلــج الصَّمصــامةُ الخــذم١٢

فـأنَّ عــن ألــمٍ مــن ضــيمه فمضــى حتـى لثيتـيس ذاك الضـيم والألـم١٣

فصــعدت مــن عبــاب البحــر زفرتهــا حيــث اســتقرَّ أبوهــا نيــرس الهــرم١٤

وحولهـــا ثـــم فـــي الأعمـــاق قائمـــةً فـــي الـــيم كـــلُّ بنـــات الـــيم تلتـــئم

غلوكــــةٌ قيمــــذوكا ثاليــــا وثــــوا وآليـــا مـــن بعـــين الحـــور تتســـم

صـــــفيةٌ نيســـــيا أكتـــــا قموثـــــوةٌ لمنـــــورةٌ ذروسٌ فـــــانوب أمفـــــنمُ

أمفيثـــوا ذينمينـــا ذكســـمينا ذتـــو غلاطيا الحسن من شاعت لها الشيم

وحولهـــا ياريـــا ميليـــت آغبيـــا فيـــروز قليـــانرا إفـــروط تـــزدحم

وأفســـذيس نميـــريتيس قلينســـا أماثيـــا مـــن بشـــعرٍ زانهـــا وســـموا

يانـــاسُ يـــا نيـــر إقليمـــين أورثيـــا ما يير والكلُّ ضمن الكهف ينتظم١٥

كهـفُ لهـا أبـيض حسـنًا فـارتكمن بـه وفيـــه كـــل بنـــات البحـــر تـــرتكم

ولـــولن ولولـــة ثـــم الـــتطمن معًـــا وولولـــت عـــن فـــؤادٍ كـــاد ينفصـــم

صـاحت: «أخيَّـات سـمعًا وانتـبهن إذا لنقمـــةٍ قـــد عرتنـــي دونهـــا الـــنقم

ويــلاه ويــلاه مــن أمٍ لقــرم وغــى — عــن شــأوه قصَّــر الأبطــال كلهــم

أنشــأته مثــل غصــنٍ طــاب منبتــه — في روضـةٍ فإذا بالسـادة اختصـموا١٦

بالفلــك أنفذتــه للحــرب واحربــا — والآن مــوطن فــيلا دونــه حَــرَمُ١٧

مــا زال حيًّـا عليـه الشـمس سـاطعةٌ — وفــي حشاشــتهِ مــن ضــيمه ضــرم

لا أســتطيع لــه عونًــا وهــا أنــذا — فــورًا لرؤيتــه ذا الحــين أغتــنم

أرى الحبيــب فــأدري مــا ألــم بــه — مـن محنـةٍ وهـو عـن قـرع القنـا وجـم»

وغــادرت كهفهــا يصــحبنها وغــدا — أمــامهنَّ عبــاب البحــر ينقســم

حتـى إذا مـا بلغـن السَّـهل سـرن إلـى — حيـث المرامـد تلـك الفلـك قـد نظمـوا

وحيــث حوليــه قــد أرسـوا عمـارتهم — فأســمعت زفــراتٍ هاجهــا الســأمُ

دنــت وأنــت وضــمَّت رأســه لهفًــا — وكلمتــه تجــاري دمعهــا الكلــم:١٨

«بنـي مـاذا الأسـى مـا الـدمع تذرفـه — بُــحْ لــي فبثُّــك عنــي لــيس يكتــتم

ألا تــرى زفــس ذاك الوعــد بــرَّ بــه — لمَّــا بســطت لــه كفيــك تظلــم

ناشـدته مـذ عـن الإغريـق بنـت إذن — فـي وجـه فلكهـم كيـدًا يكيـدهم»١٩

فـأنَّ عـن كبـدٍ حـرَّى وقـال: «أجـل — قــد بــر ويــلاه فيمــا قــد أذاقهــم

لكــن إذا اخترمــت أبطــال صــيدهم — مـا نـالني والفتـى فطرقـل مختـرم؟٢٠

فطرقــل أرفعهــم شــأنًا وأعلقهــم — بمهجتــي لا تضــاهيه قــرومهم

بهــامتي كنــت أفديــه فــوا لهفــي — عدمتُــهُ مثلمــا كبــارهم عــدموا

مـن بعـد مصـرعه فـي صـلد شـكَّته — هكطور ذو القونس الطيَّار محتكم٢١

سلاح خلدٍ من الأرباب أهديه ... فيلا فما حصرت تقويمه القيم

فيضًا أنالوه لمَّا كنت قسمته ... يا حبَّذا لو له إنسيَّة قسموا٢٢

فلو بقيت ببطن البحر قاطنةً ... ما نلت من إنس أهل الأرض ضيمهم

وما تألمت لابنٍ لن يأوب إلى ... أوطانه وهو بحر الموت يقتحم

لا عيش لي فسناني اليوم تنفذه ... كِفِّي لهكطور عن فطرقل أنتقم»

صاحت وسحَّت على الخدَّين عبرتها: ... «إذا حياتك كادت آه تنصرم

هلاك هكطور يتلوه هلاكك لا ... مرًى» فقال: «إذن يا حبَّذا الشبم٢٣

يا حبَّذا الموت إذ غلت يدي سلقًا ... عن صون إلفي لمَّا اشتدَّت الإزمُ

فطرقل أودى ولم أبرز لجانبه ... أقيه من صدماتٍ تحتها اصطدموا

فلم أصدَّ زؤام الموت عنه ولم ... أرد عن فتيةٍ هكطور فلّهم

فالموت فالموت لا عودٌ ولا وطنٌ ... إذ لم أهبَّ إلى الهيجا أصونهم

حملًا على الأرض لا جدوى لثقلته ... ظللت دون أساطيلي تجاههم

لئن يفق بسداد الرأي بعضهم ... فإنني بقراع الصم فقتهم

فلتهلك الفتنة الدّهما التي عبثت ... بالجن والإنس حتى افتلَّ شملهم

وليهلك الغيظ من بين الأنام فكم ... أغرى وأوغر منقادًا حكيمهم

كالشهد في الصدر يجري وهو منتفخٌ ... مثل الدخان به أهل العيون عموا

أتريذ حدَّ مني غيظًا وذاك خلا ... فلنغض ولنمض مهما برَّح الأضم٢٤

نعم سأطلب هكطور الذي فتكت ... كفَّاه في قمَّةٍ تعنو لها القمم

حتى إذا شاء زفسٌ في بطانته ... موتي فإن حياتي تلك دونهم

هرقــل لــم يغــن عنــه بأســه وولا   زفــسٍ فــأودى وإن أولــوه ودَّهــم

أصــابه كيــد هيــرا والقضــاء إذن   فلأُلــق ميتًــا إذا كانــت كــذا القســم

ولـيس مـن شـاغلٍ ذا اليـوم يشـغلني   إلَّا ادخــار علًــى تســمو بــه الهمــم

والــدردنيَّات بضَّــات الصــدور يــرى   لهــنَّ دمــعٌ ســخينٌ جريــه ديــم[25]

يمسحن ما سحَّ عن غض الخدود وقد   هاجــت تلهفهــنَّ الأبــؤس الــدهم

يعلمــن أن اعتزالــي طــال فــاغتنم الــ   أعــداء بــوني وإنــي الآن بيــنهم

مـا أنـت مهمـا بـذلت النصـح مـانعتي»   قالت: «أجل أحكمت في قولك الحكم[26]

وافخــر مــن عــن ســراياه وأســرته   أزاح بالبــأس خطبًــا جــلَّ هــالهم

لكــنَّ شــكتك الغــراء فــاز بهــا الــ   ــعدى وهكطــور فيهــا الآن متســمُ

مــا خلتــه يتمــادى عهــده زمنًــا   علمــت ســاعته حانــت ومــا علمــوا

فــلا تلــج لجــج الهيجــاء مقتحمًــا   حتــى ترانــي غــدًا والفجــر يبتســم

فـي شـكةٍ مـن لـدى هيفسـت شـائقة   أعــود فأبــل بهــا وافتــلَّ جمعهــم»

وغادرتْــه وقالــت للحســان: «إلــى   مَ الشــيخ والــدنا بالصــبر معتصــم

لجــن العبــاب إذن بلغنــه وأنــا   هيفسـت أطلـب فهـو العهـد يحتـرم»

فغصــن وهــي اســتطارت تبتغــي مــددًا   في الخلد حيث استقر المجد والعظم

مــا زالــت الطــرواد تحــت القســطل   مــن وجــه هكطــور المــدمر تنجلــي

بلغــت علــى صــلقاتها أســطولها   وقتيلهــا تحــت النبــال الهمَّــل

كشــارة هكطــور هــب يرومــه   بعجالــه ولفيــف ذاك الجحفــل

أحنــى ثلاثًــا قابضًــا قدميــه وهـــ ـــو يصـيح يـا جنـد الطـراود أقبلـي

وكـــذا ثلاثًـــا صـــدَّه عـــزم الأيـــا ســـين المـــذلل عـــزم كـــل مـــذلل

لكنـــه مـــا انفـــك عـــن عزماتـــه متـــدرعًا بزمـــاع قـــرمٍ قيـــلِ

متربصًـــا طـــورًا يهـــدُّ وتـــارةً يلـــج العبـــاب بكـــرَّة المستبســـلِ

لـــم يبلغـــا أربًـــا بـــه لكنَّـــه مـــن حـــول ذاك الشـــلو لـــم يتحـــوَّلِ

كالليـــث ضـــوره الطـــوى بفريســـةٍ يخلـــو ويـــزري بالرعـــاة البسَّـــل

ولربمـــا بمنـــاه عـــاد مظفَّـــرًا لـو لـم تلـح إيـريس تـرمح مـن عـل

أمـت أخيـل مـن الألمـب فأقبلـت كـــالريح تنـــذر بالوبـــال المقبـــل

هيـــرا أســـارتها فلـــم يعلـــم بهـــا زفـــسٌ ولا أربـــاب ذاك المحفـــل

قالـت: «أخيـل وأنـت مغـوار الـوغى للـــذود عـــن فطرقـــل كـــرَّ وعجـــل

دون السـفائن تحـت مشـتجر القنـا حوليـــه كـــم قـــرمٍ يخـــرُّ مجنـــدلِ

مـــا بـــين حـــامٍ يستشـــيط وحـــائمٍ بالشـــلو إليونًـــا يـــروم ويصـــطلي

وأشـــدهم هكطـــور يدفعـــه المـــرا م لفصـــل هامتـــه وبـــت المفصـــل

مـن ثـم تعـرض للهـوان علـى القنـا أفتلبـــثنَّ عـــن الكفـــاح بمعـــزل

كـــرَّن أو فطرقـــل بـــين نـــواهسٍ فـــي ســـاحة الأعـــداء جثتـــه تلـــي

فـــإذا بهـــا عبثـــت فأيَّـــة حطـــة أبـــدًا تســـومك ذلـــة المتـــذلل»

فأجـاب: «إيـريسٌ ومـن أسـراك لـي» قالـت: «حليلة زفس ذي الطَّول العلي

لـم يـدر بـي زفـسٌ وسـائر مـن ثـوى بـــذرى ألمـــبٍ بـــالثلوج مكلـــل»

فأجـاب: «آه وكيـف أقـتحمُ الـوغى وأخـــوضُ لجتهـــا براحـــة أعـــزل

ملـك العـدى عـددي وأمـي حتمهـا ... أبقـــي هنـــا بتـــربص المتحمـــل

حتـــى أراهـــا أقبلـــت فـــي شـــكة ... قـــد دقهـــا هيفســـت أعظـــم صـــيقل

أولا فــــأي فتــــى بشــــكته أرى ... غرضـي خـلاف مجـن آيـاس الملـي

وأيــاس مــن حــول القتيــل إخالــه ... قـد حـام يطعـن فـي الخميـس الأول»

قالــت: «علمنــا كــل ذلــك إنمــا ... إن تبـــد للطـــرواد دون المعقـــل

ذعـروا وصـحبك يانسـون بجهـدهم ... فعلـى البـروز لـدى سـراهم عـول

ضـاقت منافسـهم وفـي دار الـوحى ... هيهـــات تؤمـــل راحـــةٌ لمؤمـــل»

طـــارت فهـــبَّ فألبســـته مجنهـــا ... فـــالاس فـــي هدَّابـــه المسترســـل

وعلـــى محيَّـــاه غمامـــة عســـجدٍ ... ألقـــت يفـــيض لهـــا لهيـــب المشـــعل

فكأنمـــا بلـــدٌ بقلـــب جزيـــرةٍ ... حصـرت عـلا منـه الـدُّخان المعتلـي

خرجـت بنـوه إلـى مبـارزة العـدى ... وقضـــوا نهـــارهم بقـــرع الأنصـــل

حتـــى إذا برحـــت بـــراح تألَّقـــت ... نيـــرانهم مـــن تحـــت ليـــلٍ أليـــل٢٧

أمـــلًا بجيـــرتهم تـــرى فتمـــدَّهم ... بعمـــارةٍ تجلـــي العـــدوَّ المبتلـــى

وكـــذا أخيـــل لهيـــب هامتـــه ســـما ... حتـــى الرقيـــع لمقلـــة المتأمـــل

فـوق الحفيـر أقـام لا يطـأ الـوغى ... إذ عـــن مقالـــة أمـــه لـــم يغفـــل

بـالقوم صـاح وصـوت فـالاسٍ عـلا ... فتقلقـــــل الأعـــــداءُ أيَّ تقلقـــــل

كالصـور خلـف السـور ينفخـه العـدى ... تحـت الحصـار تبينـوا الصـوت الجلـي

صــدعوا وأعــراف الجيــاد تطــايرت ... جزعًـــا وفـــرت خـــيلهم بتجفـــل

بعجالها انقلبت تفر بساقةٍ | ذعرت لذياك اللهيب المنجلي
من حول هامته أثينا أجَّجت | ذاك السعير يروع عين المجتلي
فوق الحفير علا ثلاثًا صوته | وكذا ثلاثًا أجفلوا بتبلبل
وتجندل اثنا عشر من أبطالهم | برماحهم تحت العجال العجل٢٨
فخلا بفطرقل الأغارق وانثنوا | نائين عن مرمى الرماح الدبل
وضعوه فوق سريره وتقاطرت | خلانه تبكي لهول المقتل
وافاهم آخيل منتحبًا على | إلفٍ به لعبت حدود المنصلِ
هو ساقه للحرب فوق جياده | لكنه وا ويحه لم يقفل
فهناك هيرا أنقذت شمس العلى | فتخللت بطن العباب لتختلي
فتشبَّط الإغريق عن هجماتهم | وتربَّصوا تحت الظلام المسبل
تخلفت الطرواد لما الدجى أربدا | مغيرًا وحلوا من عجالهم الجردا
وقوفًا قبيل الزاد حشدًا تألفوا | ولم يجلسوا رعبًا وإن أثقلوا جهدا
لقد هالهم أن ابن فيلا بدا لهم | وبعد اعتزال الحرب قد عاد مشتدًّا
بهم فولداماس الحكيم ابن فنثس | تبدَّى خطيبًا يفقه الحل والعقدا
نظورٌ لما يأتي خبيرٌ بما مضى | ولي لهكطور ومن رهطه عدًّا
لقد ولدا في ليلةٍ بيد أنَّه | بدا دونه بأسًا كما فاته رشدا
فقال: «أصيحابي اقتفنَّ نصيحتي» | هلموا إلى إليون ذا الحين نرتدَّا
لدى الفلك في ذا السهل للفجر لا أرى | مقامًا وعنا السور تدرون قد ندَّا
لقد كانت الأرغوس أسهل مأخذا | وآخيل مشتدٌّ بعزلته حقدا

وكــم شــاقني إذ ذاك ليلــي بقربهــا ... علــى أمــلٍ بــالقرب أن نبلــغ القصــدا
ولكننـــــي أخشـــــى وأدري بأنـــــه ... بحدَّتــه لــن يرضــينَّ هنــا الحــدَّا
يجــوز مرامــي الجحفلــين مغــادرًا ... ليمتلــك الأســوار والأهــل والولــدا
صــدقتكم نصــحًا فسـيروا بنـا فـإن ... يكـفَّ فـذاك الليـل فـي وجهـه اسـودَّا
ولكـن إذا مـا أصـبح الصـبح وانبـرى ... بعدتـــه أيقنتمـــوه الفتـــى الفـــردا
لإليـون مـن ولّـى فمستبشـرًا نجـا ... ويشـبع طيـر الجـو والغضـف مـن يـردى
فـلا طرقـت هـذي النـوازل مسـمعي ... ولكــن علمــي ذا وإن ســاءكم جــدَّا
إذا فلـنقم فـي الليـل حشـدًا مكثفًـا ... بـــإليون أســـباب الوقايـــة نعتـــدَّا
فأبراجهــا الشــما وأرتاجهــا التــي ... بأصـفاقها زلجـن نجلـي بهـا الوفـدا ٢٩
وعنـد بـزوغ الفجـر بالعـدد الأولـى ... تــألقن نبــدو فــوق معقلنــا حشــدا
فهيهـــات آخيـــل يفـــوز إذا بـــدا ... بممتنــع الأســوار مهمــا عــلا جهــدا
يعـود إذا مـا أجهـد الخيـل حولهـا ... مغــارًا إلــى أســطوله لاهبًــا وجــدا
ستفرسـه غضـف الكـلاب قبيـل أن ... يحــلَّ بهــنَّ اليــوم أو يعمــل الحــدَّا»
فأحـدق شـزرًا فيـه هكطـور صـارخًا: ... «لقــد جئــت أمــرًا فولداماســنا إدًّا
أنــدخل إليونًــا فهــلَّا عييــت مــن ... مقامــك مــن خلــف المعاقــل منهــدًّا
لقـد مـلأ الأسـماع مـا أرضـنا حـوت ... نضــارًا بهيــا أو نحاسًــا بهــا صــلدا
وقـد نفـدت جلـى الكنـوز وبـددت ... فلســت لهــا تلقــى بأفنائهــا عهــدا
بإفريجيـــا بيعـــت وأرض ميونـــةٍ ... علــى حــين عنَّــا زفــس منتقمًــا صــدَّا

وهـا هـو عنـي الآن راضٍ منيلنـي مـن النصـر مـا للفلـك يطـردهم طـردا

تعست فصه لا تخدع الجند لن يروا برأيـك نصـحًا أو أردَّهـم ردَّا

هلمـوا إذن للـزَّاد لا تتشـتتوا وكـل فتًـى فـي حينـه يحسـن الرصـدا

ومن بات في خوفٍ على المال فليقم ويجمـع لديـه المـال يطعمـه الجنـدا

فخبـرٌ لنـا نلهـو بـه جملـةً ولا نمتـع بـالأموال أعـداءنا اللـدا

وإن طـرَّ وجـهُ الصـبح دجـج جيشـنا فتعقـد دون الفلـك كرتـه العقـدا

فـإن كـرَّ آخيـلٌ إلـى سـاحة الـوغى رأى عجبًـا مـن قبـلِ أن يـرد الـوردا

أبـارزه لا هالعًـا أو موليًـا ولا بـد منـا ماجـدٌ يحـرز المجـدا

لكـل همـام كانـت الحـرب مـنهلا فكم بطل فيها يصدٌّ العدى أصدى ٣٠

فضـجت لـه الطـرواد جهـلًا ومـا دروا بـأن أثينـا قـد أضـلتهم عمـدا

وهكطـور طـرًّا وافقـوا يغفلـون مـا لهـم فولـداماسٌ بحكمتـه أبـدى

ومـالوا ومـا زالـوا بمـلء انتظـامهم لـزادٍ لهـم مـا بـين تلـك السـرى مـدًّا

وأمـا بنـو الإغريـق آنـاء لـيلهم فقـد لبثـوا فـي مـأتم هـدَّهم هـدًّا

وبيـنهم آخيـل فـي زفراتـه يحـن لفطرقـلٍ وقـد أكبـر الفقـدا

علـى صـدر ذاك الإلـف ألقـى أكفـه يحـاكي إذا مـا أحـدق الأسـد الـوردا

كـأن بـبطن الغـاب أشـباله بهـا خـلا قـانصٌ فاربـدَّ واشـتدَّ واحتـدَّا

وهـبَّ علـى آثـاره بحـزازةٍ تحـدره وهـدًّا وتصـعده نجـدا

فصـاح: «ألا ربَّـاه واعظـم موعـدٍ وعدت منتيوسًا ولن أصدق الوعدا ٣١

بمنزلـه عاهدتـه لأفـنطس أعيـد ابنـه مـن بعـد أن يقهـر الضـدَّا

ويهدم إليونًا ويرجع غانمًا ... وهيهات زفسٌ كلَّ آمالنا أسدى
بإليون قد خط القضاء بأنَّ من ... دماء كلينا الأرض محمرة تندى
فلن يتلقاني أبي الشيخ عائدًا ... وثيتيس أمي بعد أن أعظما البعدا
أفطرقل مذ سيقت لذا الترب أعظمي ... وبعدك لي قد خط أن أنزل اللحدا
فلست متما مأتمًا لك قبل أن ... أذيق الرَّدى هكطور قاتلك الجلدا
وشكَّتُهُ تلقى لديك ورأسه ... فأذكي لك النيران مدَّخرًا حمدا
ومن حولها اثني عشر رأسًا بصارمي ... أقضب من طروادة فتيةً مردا[٣٢]
فظل إذن ملقى لدى الفلك ريثما ... أبرُّ فذا عهدي ولن أخلف العهدا
فكم ثمَّ طرواديَّةً دردنيَّةً ... سبينا بدارٍ بأسنا فوقها امتدَّا
ينحن عليك اليوم والليل كله ... ويلطمن بض الصدر والنحر والخدا»
وأوعز أن يعلى على النار مرجلٌ ... وفي غسل جسم الميت من حينهم يبدا
فلبوا وفيه الماء صبوا وأشبعوا ... له النار تذكو من جوانبه وقدا
ولما غلى في ساطع القدر ماؤهم ... ففي غسله جدُّوا وقد أحسنوا الجدا
ونقوه من تلك الدماء وبادروا ... لزيتٍ كثيفٍ يدلكون به الجلدا
وفي كل جرحٍ أفرغوا بلسمًا مضى ... لتسعة أعوامٍ تقادمه عهدا
وألقوه من فوق السرير وأسبلوا ... من الرأس حتى تحت أقدامه بردا
ومن فوقه سترٌ من النسج أبيضٌ ... وناحوا وآخيل مدى ليلهم سهدا[٣٣]
فقال لهيرا زفس في قبَّة العلى: ... «فلحت فآخيلٌ لقد أنف الصدا

فـلا ريـب فـي أن الأغـارق قـد نمـوا إليك وأضحى منك طارفهم تلدا» ٣٤

فقالـت: «ألا يـا ظالمًـا قـد هـزأت بي وللإنس تلقى الإنس قد أحسنوا العضدا

ولـم يبلغـوا مـن راسـخ العلـم علمنـا ولا مثلنـا أوتـوا بأرضـهم الخلـدا

وإنـي وإن مـا كنـت أسـمى إلاهـةٍ وبعلـي أخـي مـن لا أقـيس بـه نـدا٣٥

فلـم أعـط أن أولـي الطـراود ذلـةً ولا قـوم أرغـوسٍ أنيـل هنـا رفـدا»

•••

ذاك الحـديث فـي السـماء يجـري ونحـو هيفسـتٍ ثتـيس تجـري

حيـث بنـي الأعـرج زاهـي القصـر صـرحًا مـن النحـاس عـالي القـدر٣٦

في الخلد يسمو راسخًا للدهر

ألفتـه سـح عرقًـا فـوَّارا يـدير منفخًـا ويـذكي نـارا

مناضـدًا عشـرين قـد أدارا علـى الجـدار تبهـر الأبصـارا٣٧

مرفوعةً على عجال تبر

حتـى بهـا بأعجـب العجـاب مـن نفسـها لمجلـس الأربـاب

تسـرع بالـذهاب والإيـاب تمـت سـوى مقـابض الأجنـاب

مع عراها الشائقات الغر

أمامـه قـد حمـي الـوطيس يشـغله إذ أقبلـت ثيتـيس

فأبصـرتها عرسـه خـاريس فبـادت بقرعهـا تمـيسُ

وصافحتها بعظيم البشر:

«يـا ربـة المقنعـة المسـدوله ثيتـيسُ يـا خلتنـا الجليلـه

عـلام أنـت عنـدنا نزيلـه علـى خـلاف عـادةٍ جميلـه

هيي بنا حيث الضيوف نقري»

وأجلســــتها طلقـــة الإينـــــاس عرشًـــا بـــديعًا محكـــم القيـــاس

قتيــــره مــــن اللجـــين القاســـي ذا مـــوطئ لأرجـــل الجـــلاس٣٨

وزوجها نادت بصوت الجهر:

«هيفست قـم ثيتيس عونك ابتغت» فقـــال: «أهـــلا بإلاهـــةٍ ســـمتْ٣٩

تلـك التـي الكربـة عنـي فرَّجـت لمـا مـن السـماء بـي أمـي رمـت

تكتم عاهتي بشرِّ الكبرِ

فهـــي وافـــر ينومـــة الإحســـان بنـــت المحـــيط الجـــازر الهتـــانِ

بالبشــــر والأنــــس تلقتــــاني أولا فمــــا كــــان إذن أشــــقاني

ووارتاني في عباب القعر

حللــت كهفًــا حولــه قــد دارا مجــرى الخضــم مزبــدًا هــدَّارا

كــم صــغت فيــه لهمــا ســوارا خواتمًــــــا قلائــــــدًا أزرارا

تسعة أعوامٍ بطي الستر

ســـواهما فـــي الأرض والســـماء لا أحـــــدٌ درى مقـــام النـــائي

همـــا همـــا قـــد خففـــا شـــقائي والآن ثيتــــيس هنــــا إزائــــي

أني أأدي حق فرض الشكر

خـــاريس وافيهـــا بواجـــب القـــرى حتـــى أريـــح منفخـــي وأحضـــرا»

وغـــادر العـــلاة عنهـــا مـــدبرا تخمـــع ســـاقاه بـــه فـــأخَّرا٤٠

منفاخه عن حر واري الجمر

وأودع العـــــدة درج فضـــــة يعمـــد مـــن ثـــم إلـــى إســـفنجة

يمســـح صـــدره وعـــالي الجبهـــة كـــذا يديـــه ومتـــين الرقيـــة

ثم اكتسى بردًا وعاد يسري

بصـــولجانٍ شـــائقٍ صـــلبٍ ذهـــب معتمـــدًا علـــى وصـــيفتي ذهـــب٤١
أعطيتـــا صـــوتًا وعقـــلًا وأدب لخدمـــة الأربـــاب فـــي كـــل أرب

كغادتين ازدانتا بالفكر

وليتـا هيفسـت مـن حيـث انثنـى حتـى إلـى ثيتـيس بالجهـد دنـا
حـل علـى عـرشٍ بهـيٍ معلنـا ترحابـه لهـا ومـن ثـم انحنـى

مصافحًا لها بقول الحر:

«يا ربة المقنعة المسدوله ثيتـيس يـا خلتنـا الجليلـه
عـلام أنـت عنـدنا نزيلـه علـى خـلاف عـادة جميلـه

مري فإنني رهين الأمر»

قالت تسيل الدمع: «هل مثلي ترى شـقية مـا بـين ربـات الـورى
دون بنـات المـاء زفـس قـدَّرا علـي أن أصـيب بعـلًا بشـرا

فيلا وأمضى أمره بالقسر

فـيلا لقـد أقعـده فـرط الكبـر عجـزًا وزفـس كـادني كيـدًا أمـر
أعطيـت نجـلًا فـاق أبطـال البشـر أنشـأته كالغصـن فـي روضٍ أغـر٤٢

فثارت الحرب على ما تدري

أنقذتـه فـي الفلـك للطعـان آه فلـن يعـود للأوطـان
قصَّـر عـن إمـداده بنـاني حيًّـا ولكـن ثـائر الأشـجان

يرى سنا الشمس قصير العمر

حبتـه غـادةً بنـو الآخـاء جـزاء حسـن الـذود والإبـلاء
فرامهـا أتريـذ بالـدهاء أقعـده الكيـد عـن الهيجـاء

فشهر الطرواد سيف النصر

ودفعـــوا الإغريـــق للأســـطول فهبـــت الصـــيد إلـــى أخيـــل

تطمعـــــه بنائـــــلٍ جزيـــــل أبـــى قبـــول تحفـــة القيـــول

لكن دعا فطرقل للمكر

ألبســــه شـــــكّتهُ ســـــلاحا فهـــبَّ فـــي أصـــحابه وراحـــا

فكـــافحوا عـــداهم كفاحـــا لســـور إليـــونهم اكتســـاحا

فأوشكت تعنو لهم بالقهر

لكنمـــا فيبـــوس فطرقـــل قتـــل لمـــا رآه مـــزَّق الجـــيش وفـــل

وخـــوَّل النَّصـــر لهكطـــور البطـــل لـــذاك بـــادرت إليـــك بالعجـــل

أبسط فوق ركبتيك عذري

أحســـن إذن لولـــدي الحبيـــب مـــن ســـيلاقي المـــوت عـــن قريـــب

بخـــوذةٍ ومجـــوبٍ عجيـــب ولأمـــةٍ مـــع حـــذًا قشـــيب٤٣

تحرز ثنائي وجميل الأجر»

قـال: «اطمئنـي آه لـو يـوم القـدر يتـــاح أن أقيـــه أهـــوال الخطـــر

كمـا يتـاح الآن فـي هـذا المقـر إعـــداد عـــدةٍ لـــه أي نظـــر

إلى سناها بسواها يُزري»

ثـــم مضـــى يـــدير نحـــو الكـــور منافخًـــا دارت بـــلا مـــدير

فأجَّجـــت بمثـــل لمـــح النـــور عشـــرين موقـــدًا لظـــى الســـعير

تفرغ ما يحتاجه بالقدر

تهـــب طـــورًا هبَّـــة الأنـــواء وتـــارة تـــنفخ بالإبطـــاء

ثـــم رمـــى بالعســـجد الوضـــاء للنَّـــار فـــوق الفضـــة الغـــراء

فوق فلزه وصلد الصفر

وإذ دحـــى ســـندانه المهـــيلا ففـــي يـــدٍ مطرقـــه الثقـــيلا

وفـــي يـــدٍ ملقاطـــه الطـــويلا أعلـــى وقـــام شـــاغلًا مشـــغولا

يشرع في المجن بدء الأمر

تـــرسُ عظـــيمٌ شـــائق الأوصـــاف وطوقـــه البهـــي فـــوق الحـــاف٤٤

يكنفـــــه مثلّـــــث الأطـــــراف علـــى حمائـــل اللّجـــين الصَّـــافي

يزهو على خمس طباق الظهر

أودعـــــه نقشًـــــا بـــــه تحـــــار لحســـــنه الأنظـــــار والأفكـــــار

فـــــالأرض والســـــماء والبحـــــار مـــــنهن لاحـــــت فوقـــــه الآثـــــار

وساطع الشمس وتم البدر

وصـــــاغ فيـــــه جملـــــة الـــــدراري مثـــــل الثريَّـــــا الجمَّـــــةِ الأنـــــوار

والـــــدبران ولقـــــا الجبـــــار دبٍّ دعـــــــوا مركبـــــــةً دوَّار

من دونها لا يرتوي بالبحر٤٥

وبلـــــدتين غصـــــتا بالنـــــاس إحـــــداهما بالبشـــــر والإينـــــاس

زف بهـــا الزوجـــان بـــالأعراس بـــين غنـــاء وســـنا مقبـــاس

ورقص فتيةٍ لهت وصقر٤٦

ونغمـــــة الربـــــاب والشـــــباب تصـــدح والنســـاء فـــي الأعتـــاب

وقفـــــن للزَّفَّـــــة بالإعجـــــاب وغيـــر هـــذا الحشـــد بانتصـــاب

حشدٌ بشوراهم عسير الحصر

هنالـــك اثنـــان اســـتطالا جـــدلا لديـــة حـــقّ قتيـــلٍ قـــتلا

هـــذا ادعـــى إيفاءهـــا مكمَّـــلا يعلـــن ذاك الأمـــر مـــا بـــين المـــلا

وذاك منكرٌ أشد النكر

كلاهمـــا يطلـــب حكـــم القاضـــي   والنـــــاس بـــــين ســــــاخطٍ وراضِ

ضــــجوا لأي ســـــاعة التقاضـــــي   أحســـــــن والفيـــــوج بـــــاعتراض

تأمر بالصمت لحسم الأمر

هنالـــك الشـــيوخ مـــن ضـــمن حـــرم   علـــى مقاعـــدٍ مـــن الصـــخر الأصـــم

قـــاموا بأيـــديهم علـــى مـــرأى الأمـــم   صـــــوالج الفيـــــوج يبـــــدون الحكـــــم

قاضين عن روايةٍ وخبر

فـــــــردًا ففــــــردًا الأحكامــــــا   أمـــــام هاتيـــــك الســـــرى قيامـــــا

وشـــــــاقلان ذهبًــــــا تمامًــــــا   بيـــــنهم قـــــد أودعـــــت إكرامـــــا

لمن محا بالعدل شَير الوزر٤٧

والبلـــدة الأخـــرى هفســـت رســـما   جيشـــين حولهـــا عليهـــا هجمـــا

جـــيشٌ لقـــد آلـــى بـــأن تُهـــدَّما   وذاك نصـــف المـــال يبغـــي مغنمـــا

وأهلها تحصَّنوا بالسر

كميـــــــنهم بيـــــــنهم أعـــــــدُّوا   وفـــــوق ســـــورهم أقـــــام الولـــــد

والأهـــل والشـــيوخ ثـــم امتـــدُّوا   أمـــــامهم ربُّ الكفـــــاح الصَّـــــلد

كذا أثينا ملجأ المضطر

(كلاهمـــا مـــن ذهـــبٍ وضَّـــاح   بالجســــم والملـــــبس والســــلاح

تراهمـــا العـــين علـــى البـــراح   أعظـــم قـــدًّا مـــن ســـرى الكفـــاح

ما مسَّ آل الخلد شين الصغر)

فبلغـــوا جـــدَّة نهـــرٍ جـــاري   مـــورد غـــر الشـــاء والثيـــار٤٨

فوقفـــوا بـــالرُّمح والبتَّـــار   وأرصـــدوا عينـــين للصُّـــوار٤٩

ليرقبا عند ورود النهر

فأقبلت أمام راعيين بنغمـــــة المزمــــار لاهيــــين
عـــن ذلـــك الكمـــين غـــافلين فوثبـــوا وقتلـــوا الغـــرَّين

ونحروا السوام شرَّ النحر

فارتفعـــت عجـــاعج الضوضـــاء فبلغـــت مســـامع الأعـــداء
فـــأقبلوا بغـــارةٍ شـــعواء واشـــتبكوا وانهـــال باللقـــاء

غيثٌ من النصال فوق الثغر

بيـــنهم فتنـــة والغوغـــاء كـــذا مبيـــد الأمـــم القضـــاء
يعلـــو علـــى كاهلـــه رداء تســـيل مـــن أطرافـــه الـــدماء

يفر عن هذا وذاك يفري

وآخـــرًا أمســـك بالأقـــدام يـــزيح عـــن مواقـــف الصـــدام٥٠
تلـــك رســـوم بـــذكا الرســـام تـــرى علـــى المجـــن كالأجســـام

تسحب موتاها وبريًا تبري

ودون هـــذا الرســـم رســـم حقـــل خصـــبٍ ثلاثًـــا حرثـــوا بالفعـــل
رجالـــه قامـــت بعـــبء الشـــغل قـــد عمقـــوا الـــثلم بســـطرٍ عـــدل

يرتشفون من لذيذ الخمر٥١

فـــي منتهـــى الأرض انبـــرى غـــلام إذا انقضـــى ثلمهـــم التَّمـــام
نـــاولهم كاسًـــا وهـــم قيـــام فـــانقلبوا ونيـــرهم أقـــاموا

بكل وجهةٍ بملء الصبر

والأرض ســـوداء تلـــوح للنظـــر وإن تكـــن مـــن ذهـــبٍ تلـــك الصـــور
كأنمـــا الفـــلاح فـــي الحـــال عبـــر نعـــم فـــذي معجـــزةٌ ممَّـــن قـــدر

أن يخضع العسر لأمر اليسر

وقربـــــه يــــانع زرعٍ بـــادي دارت بـــه مناجـــل الحصَّـــاد

ومـــن وراهـــا زمـــرة الأولاد تجمـــع مـــا يُلقـــى علـــى التمـــادي

وخلفهم ثلاثةٌ تستقري

تضـم مـا ألقـوا لهـم ضـمن حـزم وثـم رب الأرض مـا بـين الحشـم

قـد قـام صـامتًا يـرى تلـك الهمـم معتمـدًا علـى عصـاه فابتسـم

ينظر بالبشر لوفر الذخر

وتحـت سـنديانةٍ قـام النـدل يهيئـون الـزَّاد فـي ذاك المحـل٥٢

قـد ذبحـوا ثـورًا بـه الكـل اشـتغل وعـاونتهم النسـاء فـي العمـل

على لحومه الدقيق تذري

كـذاك كـرمٌ بـدوالي ذهـب قامـت فمالـت تحـت ثقـل العنـب

سـمكه مـن فضـةٍ لـم تشـب قـد سـطرت دون وشـيعٍ أشـهب٥٣

يكنفها وخندقٍ مغبر

لـيس لـه إلَّا طريـقٌ رسـما يعبـره الكـرام أيَّـام النمـا

وللـرد تبـدي والعـذارى الهممـا تجنـي وفـي السـلال تلقـي كـل مـا

جنته من قطفٍ ذكا محمر٥٤

بيـنهم فتـى بعـود قامـا مـرددًا بنقـره الأنغامـا

نشـيد لينـوس الـذي تسـامى فـرددوا النشـيد والأقـداما٥٥

في الأرض دقوا وفق ذاك النقر

ودون ذا سـربٌ مـن الثيـار مـن الفلـز ومـن النضـار

منـدفعٌ يـزار للبـراري يـرى لـدى نهـرٍ علـى مجـار

محاطةٍ بالقصب المخضر

رعاتـــه أربعـــةٌ مـــن عســـجد وتســـــعةٌ كلابـــــه للرصـــــد

وثـــم ليثـــان مروعـــا المشـــهد قـــد فرســـا ثـــورًا فكـــرَّت تغتـــدي

رعاته وغضفه في الإثر

قـــد مزَّقـــاه مغنمًـــا بينهمـــا وازدردا الأحشـــاء وامتصَّـــا الـــدما

فـــأوغر الرعـــاة مـــن خلفهمـــا كلابهـــم فهالهـــا بطشـــهما

هرَّت رهدَّها شديد الذعر

ودون ذا فـــي مرجـــة خضـــراء صـــرائفٌ محكمـــة البنـــاء٥٦

لـــدى حظـــائرٍ تســـرُّ الـــراءي بـــين مراتـــعٍ لغـــر الشـــاء

كذا غياضِ فوق روض نضر

وقـــرب هـــذا رســـم مغنـــى طـــرب كأنـــه نـــادٍ بـــديع العجـــب

ألـــف فـــي أكنـــوس ذيـــذال الأبـــي لحـــظ أريانـــا بماضـــي الحقـــب٥٧

من فتيةٍ ومن عذارى زهر

رداهـــم المنســـوج كالزيـــت بـــرق وبرقـــع الحســـان بالحســـن نطـــق

وحلـــيهم ســـيفٌ مـــن التبـــر انطلـــق علـــى نجـــادٍ فضـــة هيفســـت دق

لكن حليهن تاج زهر٥٨

تعاضـــدوا بـــالكف والإبهـــام فرقصـــوا بـــالعلم والإلمـــام

كـــأنهم بحقـــة الأقـــدام محـــال خـــزَّافٍ رمـــاه الرامـــي٥٩

ثم جروا سطرٌ وراء سطر

حـــولهم حشـــدٌ وفـــي وســـطهم قـــام مغـــنٍ بشـــجي الـــنغم

إن نقـــر العـــود فمـــن بيـــنهم قرمـــان دارا بخفيـــف القـــدم

رقصًا يرددان لحن الشعر

وعنـــد مـــا أتـــم هاتيـــك البـــدع	مجاري المحيط في الحاف وضع ٦٠
فأكمـــل المجـــن مـــن ثـــم ابتـــدع	درعًـــا ســـناها كســـنا الشـــمس ســـطع

ما صلحت إلا لذاك الصدر

وخـــــوذةً بقـــــونسٍ جميـــــل	مـــــن عســـــجدٍ ومحمـــــلٍ ثقيـــــل
لاقـــت لـــذاك البطـــل الجليـــل	ومـــــن نحـــــاسٍ لـــــينٍ مصـــــقول

طرَّق خفين تمام البر

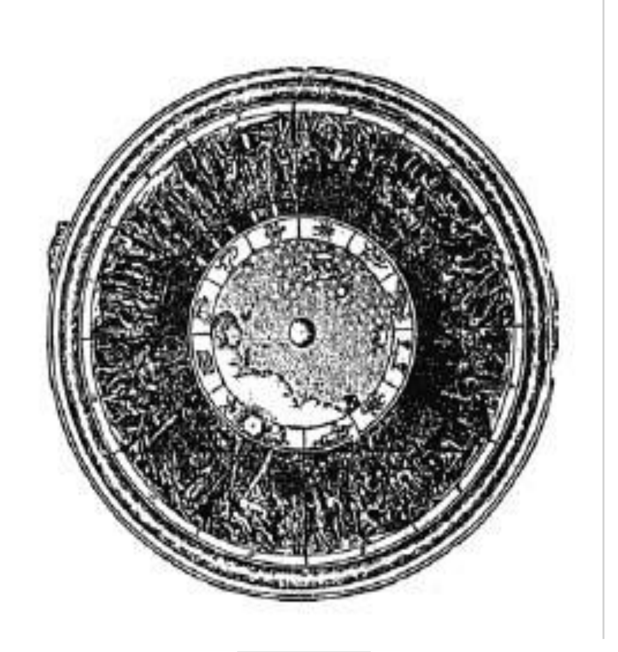
وإذ أتـــمَّ كـــل تلـــك الغـــرر	ألقـــى بهـــا لأم آخيـــل الســـري
مـــن لـــدن ربٍّ تحفـــةً للبشـــر	فانحـــدرت مـــن الألمـــب الأزهـــر

واندفعت بها اندفاع الصقر

ترس أخيل

مقسومًا إلى اثني عشر جزءًا

- ثلثه منها لبلدة مسالمة: (١) حفلة زفاف، (٢) مجلس شورى، (٣) مجلس قضاء.
- وثلثه لبلدة محاربة: (٤) حصار، (٥) رعاة وكمين، (٦) قتال.
- وثلثه للزراعة: (٧) حراثة، (٨) حصاد، (٩) كرمة.
- وثلثه لرعاية المواشي: (١٠) سباع وأنعام، (١١) خراف، (١٢) رقص وطرب.



(ترس أخيل).

هذا هو الترس العجيب الذي أطنب هوميروس بوصفه، وكأنه لم يكتف بجعله إسطرلابًا للأفلاك، فأودعه جميع مخلوقات الله من أجرام وسماء ويبس وماء، وأخالهُ اختار الترس مستودعًا لتلك البدائع دون سواه من قطع السلاح؛ لأنه كان من عادتهم أن يزخرفوا تروسهم رسوم ونقوش. وقد نسب لهسيودس الشاعر وصفٌ من هذا القبيل، ثم أنه فضلًا عن ذلك لم يكن يصلح سواه لرسم الكون بأجمعه، وهو سواءٌ كان بيضيًّا كما

ذهب البعض أو مدورًا كما هو في الرسم يصح به تمثيل كروية الأرض والسماء.

ولقد أصاب هذا الترس من نقد النقاد وهذر الحساد ما أصاب غيره من اللآلئ الهوميرية، كقولهم مثلًا: إنه لم يكن يعقل أن المناضد تدور من نفسها على عجالها، كأنه لا يسوغ لشاعر يروي أعجوبة لرب باعتقاده قدير أن يتصور أمرًا تقول الشعراء أعظم منه لبشر باعتقادهم قصير الباع مقيد الذراع، كقول أبي الطيب لسيف الدولة:

إذا كـان مـا تنويـه فعـلًا مضـارعًا   مضى قبل أن تلقى عليه الجوازمُ

وقوله في محمد بن زريق الطرسوسي:

لـو كـان ذو القـرنين أعمـل رأيـه   لمـا أتـى الظلمـات صـرن شموسـا

أو كـان لـج البحـر مثـل يمينـه   مـا انشـق حتـى جـاز فيـه موسـى

أو كـان للنيـران ضـوء جبينـه   عُبـدت فكـان العـالمون مجوسـا

وإذا أردنا مجاراتهم وأتينا الأمر من حيث أتوه طلبًا لإثبات الممكن المعقول، أفلا يكون ذلك ممكنًا ونحن نرى من ألاعيب الصبية ما يسير بنفسه، والعجب أن الذين قالوا هذا القول صمتوا عن مغالاة الشاعر بارتجاج السموات، وزلزال الأرضين، وانفجار البحار بإشارة من أربابهم ذوي الهيبة والاقتدار، وكقولهم: إن الترس لم يكن ليتسع لكل تلك الرسوم والنقوش البارزة، كأنه لم يكن بوسع ذلك الصيقل العلوي أن

يكبر ويصغر حسبما يشاء، وهي كما تراها بادية على رسم صغير مع أنه يؤخذ من نص هوميروس وغيره أن مجانهم كان كبيرها يستر الجسم من الرأس إلى ما تحت الركبة.

وقد أثبتنا هنا صورة الرسم الذي صنع ليوپ فأدرجه بترجمته الإنكليزية المطبوعة سنة ١٧٢٠ وإليك تفصيله تتمة للفائدة:

الظاهر من كلام هوميروس أنه شرع في بسط المعدن خمس طبقات فأكمل المجن وطوقه طوقًا.

يكنفـــــه مثلـــــث الأطـــــراف   علـى حمائـل اللجـين الصـافي

ثم أخذ يرسم وينقش فبدأ به من وسطه فرسم فيه الأرض، وفي دائرة من حولها القمر والكواكب، وفي دائرة أخرى الشمس والبروج، وجعل ما وراء ذلك دائرة أكبر أودعها المألوف من أحوال البشر فكانت اثني عشر جزءًا.

الجزء الأول: البلدة المسالمة

وبلـــــدتين غصـــــتا بالنـــــاس   إحــداهما بالبشــر والإينــاس ...

ترى في الرسم العروسين يتقدمهما حملة المصابيح ويكنفهما الراقصون والراقصات ووراءهما العزفة والمغنون.

ونغمـــــةُ الرَّبـــــابِ والشـــــباب   تصــدح والنســاء فــي الأعتــاب

وقفن للزفة بالإعجاب

الجزء الثاني: مجلس شورى الأمة

هنالـــك اثنـــان اســـتطالا جـــدلا لديـــةٍ حـــق قتيـــل قـــتلا ...

رسم فيه والد القتيل والقائد والشهود والحضور، والمدعي والمتهم.

كلاهمـــا يطلـــب حكـــم القاضـــي والنـــاس بـــين ســـاخطٍ وراض

وهذا الجزء مع الذي يليه في حلقة واحدة، وفيها المجال يتسع لتصور أمهر المصورين.

الجزء الثالث: مجلس الشيوخ أو القضاء

هنالـك الشـيوخ مـن ضـمن حـرم علـى مقاعـدٍ مـن الصـخر الأصـم

الشيوخ في وسط الرسم يتكلم أحدهم واقفًا وقد هم الآخر بالوقوف ليشرع في الكلام، والجمع محدق بهم بين سامع ومنفرج.

الجزء الرابع: البلدة المحاربة

والبلـدة الأخـرى هفسـت رسـما جيشـين حولهـا عليهـا هجمـا

جـيشٌ لقـد آلـى بـأن تهـدَّما وذاك نصـف المـال يبغـي مغنمـا

وأهلها تحصنوا في السر

يعبر عن البلدة بما يبدوا للنظر من مجموع الرسم وزعماء الجيشين أمام الأسوار، أخذ فريق منهم بمقابض السيوف وهم ينظرون

إلى البلد إشارة إلى أنهم يرومون فتحه عنوة، والفريق الآخر يهون عليهم الأمر وينهاهم عن ذلك، أما أهالي البلد فقد ذعروا.

... ... وفـــوق ســـورهم أقـــام الولـــد

والأهـــل والشـــيوخ ثـــم امتـــدُّوا أمـــامهم ربُّ الكفـــاح الصـــلد

كذا أثينا ملجأ المضطر

وقد ميز الشاعر بين رسوم الآلهة ورسوم البشر كما جرت به عادة أبناء ذلك الزمان، فأفرد لرب الحرب وربة الحكمة وصفًا خاصًّا وجعلهما أعظم قدًّا كما كانا أرفع قدرًا.

الجزء الخامس: الكمين

فبلغـــوا جـــدَّة نهـــرٍ جـــاري مـــورد غـــر الشـــاء والثيـــار ...

إن اعتراض هذا القسم بين الذي تقدمه والذي يليه يمثل أويقات الراحة والسكون في زمان الحرب، فإن فيه نهرًا وعلى إحدى ضفتيه شجر تتفيأ الجنود بظله، وعلى الضفة المقابلة رقيبان يرصدان الماشية.

فأقبلـــت أمـــام راعيـــين بنغمـــة المزمـــار لاهيـــين

عن ذلك الكمين غافلين

الجزء السادس: القتال

فوثبوا وقتلوا الغرين ...

في صدر الرسم الراعيان قتيلان والسوام منحورة وباقيه صدام وكفاح واهم ما فيه صورة «القضاء مبيد الأمم».

يعلـــــو علـــــى كاهلــــــه رداء   تســـيل مـــــن أطرافـــــه الـــدماء

الجزء السابع: الحرث

ودون هـــذا الرَّســـم رســـم حقـــل   خصـــبٍ ثلاثًـــا حرثـــوا بالفعـــل ...

في الرسم صورة الحرث والحارث وأرضه وآلات الزراعة، وأبدع ما فيه من مؤثرات النظم الهوميري ذلك الغلام الذي قام في طرف الأرض المحروثة.

... ...   إذا انتهـــــى ثلمهـــــم التمـــــام

نـــاولهم كأسًـــا وهـــم قيـــام   فـــانقلبوا ونيـــرهم أقـــاموا

بكل وجهةٍ بملء الصبرِ

الجزء الثامن: الحصاد

وقربـــــه يـــــانع زرعٍ بـــــادِ   دارت بـــه مناجـــل الحصـــاد ...

فالحصاد في صدر الرسم محولون وجوههم نحو الجمع المحدق بهم، وخلفهم الفعلة والأولاد يجمعون ويرزمون، وفي وسط الرسم رب الأرض قام بينهم آمرًا مطاعًا يشير بعصاه وتليهم سنديانة قام تحتها الخدم.

... ...   يهيئـــون الـــزاد فـــي ذاك المحـــل

قد ذبحوا ثورًا به الكلُّ اشتغل   وعاونتهم النساء في العمل

على لحومه الدقيق تذري

الجزء التاسع: الكرمة

كذاك كرمٌ بدوالي ذهب   قامت فمالت تحت ثقل العنب

هنا الكرمة بدواليها وقطوفها ووشيعها وسمكها وخندقها وفيها الغلمان والعذارى.

تجني وفي السلال تلقى كلما   جنته من قطفٍ ذكا محمرِّ

وبينهم فتى ينقر عوده وينشدوهم إذا غناهم صوتًا طربوا.

فرددوا النشيد والأقداما   بالأرض دقوا وفق ذاك النقرِ

ليس على المجن رسم أوقع في النفس من هذا.

الجزء العاشر: الحيوانات

ودون ذا سربٌ من الثيار   ... مندفع يزأر للبراري ...

سوام ورعاة وكلاب وسباع، فالأسود في وجه الرسم قبض أحدها على ثور والآخر آخذ في تمزيق ثور آخر، والرعاة تثير الكلاب للذود

عن القطيع، وأمام هذا المشهد مشهد قطيع آخر منهزم رعبًا ووراءه رعاته وكلابه والنهر في ما وراء ذلك.

الجزء الحادي عشر: الخراف

ودون ذا فـــي مرجـــة خضـــراء　　　صـــــرائفٌ محكمـــــة البنـــــاءِ
لـــدى حظـــائرٍ تســـرُّ الرائـــي　　　بـــين مراتـــعٍ لغـــر الشـــاءِ
كذا غياض فوق روض نضرِ

لم يكن للشاعر بد بعد هول منظر الجزء السابق من إراحة المخيلة بمشهد عزلة وسكون، تسرح فيها الفكرة بين مناظر الطبيعة، فأتى بهذا التخيل البديع.

الجزء الثاني عشر: المرقص

وقـرب هـذا رسـم مغنـى طـرب　　　كأنـــه نـــادٍ بـــديع العجـــب ...

جعل هوميروس هذا المشهد خاتمة المشاهد التي نقشها على ظهر المجن، وحسب المطالع الرجوع إلى المتن شرحًا وافيًا للإعجاب بهذا المنظر الراقص المرقص، فالفتية والعذارى بأبهى الملابس، حلي الفتية السيوف وحلي العذارى أكاليل الزهر وقد:

تعاضـــــدوا بـــالكفِّ والإبهـــام　　　فرقصـــــوا بـــــالعلم والإلمـــــام
كـــــأنهم بحقـــــة الأقـــــدام　　　محـــال خـــزافٍ رمـــاه الرامـــي
ثم جروا سطر وراء سطرِ

وهناك على ربوة صاحب العود يضرب ويطرب ثم هو:

إن نقـــر العـــود فمـــن بيـــنهم قرمـــان دارا بخفيـــف القـــدم

رقصًا يرددان لحن الشعر

أفلا يليق أن تتخذ هذه خطة تتبع حتى في أيامنا هذه.

حاشية المجن

وعنـــدما أكمـــل هاتيـــك البـــدع مجاري المحيط في الحاف وضع

لم يزد الشاعر على هذا الكلام بوصف حاشية المجن، وفيه ما يغني عن الإطناب وقد استبقى المحيط إلى الحاشية تتكنف المجن كما تكنف المياه اليابسة، فكان مجنه جامعًا رسوم العالمين من علويات وسفليات.

هوامش

(١) الأسطول بمعنى الطائفة من السفن معرب Ζτολος (ستولس) باليونانية.

(٢) عباديد، أي: شراذم ذاهبين في كل وجه.

(٣) البهم: الأبطال ج: بَهمة.

(٤) يتخذ الإفرنج هذين البيتين مثالًا لبلاغة الإيجاز ودقة التعبير، فإن أنطلوخ أنبأ أخيل بمقتل فطرقل، وذكر اسم القاتل وفوزه بسلاح أخيل، وتجريد جثة القتيل والتحام الحرب من حولها، ذلك كله ببيت واحد وطأ له ببيت آخر هيأه فيه لسماع ذلك الخطب الجلل، ونبه إلى أن ذلك، إنما كان بمشيئةٍ لا مردَّ لقضائها فكأنه قال له فوق هذا بوجوب التَّأَسِّي والإذعان.

يتمثل اليونان بهذين البيتين كما يتمثل اللاتين بقول يوليوس قيصر veni, vidi, vici. ومعناها: أتيت فرأيت فظفرت. وهي كلمات ثلاث كتبها إلى مجلس الشيوخ بروميه عندما حمل فائزًا من مصر على بلاد مثربداتس في آسيا فاكتسحها.

وعندنا في العربية أمثلة كثيرة لجمع المفاد الطويل بالكلام القليل، كقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل بشطر واحد.

وقول بعضهم:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا فسام صبرًا فأعيى نيلهُ فقضى

فجمع الغرام من النظرة إلى الحسرة إلى الصبر إلى القبر.

وقول شوقي الشاعر العصري:

نظـــــرةٌ فابتســـــامة فســـــلامٌ فكـــــلام فموعـــــد فلقـــــاءٌ

والإيجاز في محله كالإطناب في محله منتهى البلاغة، فالموقف موقف سرعة واهتمام، لا موقف بحث وكلام كما مر بنا في النشيد التاسع؛ إذ أوفد الوفود إلى أخيل، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث يقضون به ليلتهم والحرب خامدة والأعين هاجدة بظلام الليل.

ثم إن في بلاغ أنطلوخ نكتة أخرى قَلَّ من ينتبه إليها، وهي أنه أخبر أخيل بمقتل حبيبه فطرقل بعبارة لا تثقل على السمع، فقال: «هكطور ملقى» ولم يقل: ميت أو قتيل؛ كقوله في سائر المواضع.

(٥) الغمم: جمع غمة، أي: الأكدار.

(٦) السناج: ما يعلق على الحائط من أثر الدخان، وفي الأصل «ذر رمادًا أسود» ولعلنا أصبنا بقولنا: السناج.

كان القدماء من أمم الشرق يذرون الرماد على رءوسهم عند حلول المصائب، ويتمرغون على التراب ويجلسون على المزابل، وسيرد ذكر ذلك ببيان أجلى في النشيد الثاني والعشرين.

(٧) السحم: السود ج: أسحم. تقدم ذكر الطيب (ن: ١٤).

(٨) ليس في الإلياذة كلها ما يفيد أن أخيل كان جبارًا عظيم الجثة، كعمالقتنا وعليه فلا أرى بقوله هنا: «يشغل ميدانًا بقامته» إلا إشارة بغلوٍّ للفسحة التي كان يتمرغ عليها.

(٩) قالوا في سبب ولولة السبابا: إنهن فعلن ذلك؛ إما حزنًا على فطرقل؛ لأنه كان يعاملهن بالتؤدة والرفق؛ لما عرف به من الدعة والحنان، وإما لأنهن انتهزتها فرصة لندب حالهن وهن في ربقة الأسر. قلت: والأولى أن يقال: إنهن إنما فعلن ذلك جريًا على العادة المألوفة في ذلك الزمان، من ندب الميت والولولة عليه على ما هو جارٍ في زماننا في مصر وغيرها من بلاد الشرق، حتى لقد تُستأجر النادبات فينحن ويولولن وهن لا يعرفن الميت، وليس بهن عاطفة حنان عليه، وسنرى ذلك بأكثر إيضاح في النشيد الأخير بمأتم هكطور.

(١٠) السلم: الأسر والأسير.

(١١) الرذم: السيال.

(١٢) الصمصامة الخذم: السيف القاطع. أي: إن أنطلوخ أمسك بذراعي أخيل؛ لئلا يولج أخيل سيفه بنحره فيقتل نفسه من شدة الحزن.

(١٣) لما كانت ثيتيس والدة أخيل من بنات البحر —— وهن كما علمت من زمرة الآلهة —— لم يكن بالعسير عليها أن تسمع أنين ابنها، وهي في قعر البحر.



بنت الماء.

(١٤) نيرس: هو الماء، ثم مثل شخصًا فجعل رب الماء أو ملك الماء — قلما تخلو أساطير أمة من قوم يأوون إلى قاع البحار، ويساكنون أسماكها ونيناتها، وعندنا في ألف ليلة وليلة من أخبار السمندل ملك البحر وقومه ما يربو على أقاصيص نيرس وبناته.

(١٥) يمثلون بنات اليم ممتطيات ركوبة يسمونها فرس البحر يرسمونه بصور مختلفة، والغالب إما أن يجعلوه بوجه إنسان أو يصوروه كما ترى في الرسم.

(١٦) المراد بالسادة: الآلهة.

(١٧) أي: حرم عليه الرجوع إلى موطن فيلا أبيه.

(١٨) يقال في هذا البيت ما تقدم في أول هذا النشيد عن خطاب أنطيلوخ، فقد جمع فيه عواطف الأمهات وحركاتهن بأبلغ ما يمكن من الإيجاز وصدق التعبير.

(١٩) جهلت ثيتيس أو تجاهلت موت فطرقل، وقالت له تخفيفًا لوطأة الحزن عليه: إن كنت تتضور لهفةً وأسًى على مصاب الإغريق، فقد كنت أنت المتسبب به؛ إذ توسلت إلى زفس أن يذيقهم مر العذاب، فها هو منيلك مرامك فتفجعك إذن عبثٌ وفضول.

(٢٠) ما: استفهامية.

(٢١) القونس: بيضة الخوذة، وذو القونس الطيار لقب من ألقاب هكطور، وقد عبرنا عنه في غير هذا الموضع بلفظ هيَّاج التريكة، أي: الخوذة.

(٢٢) أي: إن الأرباب أهدوا ذلك السلاح إلى فيلا والد أخيل إكرامًا لثيتيس لا لفيلا نفسه.

(٢٣) الشبم: الموت.

(٢٤) المصائب مرآة المعايب، يتصف المرءُ بصفة يمقته لأجلها الناس، فلا يبالي حتى إذا نالته من ورائها مصيبة أفاق، ورأى تلك الصفة بأقبح مظاهرها، وهكذا فإن أخيل لم ينثن لنصائح نسطور وفينكس

وأوذيس، وعمي عن رؤية كل ما قالوه بشأن شر الفتنة ووبال الغيظ، فلم يفقه شيئًا من كلامهم حتى ضربته الرزية بحليف وده فطرقل، فتنبه من تلقاء نفسه وقال ما قال بوصف الفتنة والغضب.

(٢٥) يقول: إن الدردنيات أي نساء طروادة سيبتئسن لما أولاهنَّ من المصائب بقتل أزواجهنَّ.

(٢٦) أطال الشراح الكلام على ما حوى جواب أخيل لأمه في هاتين القطعتين من روائع الألفاظ وبدائع المعاني، فإن فيهما مرآة ناطقة بشعائر الشهم الأبي العظيم، والصديق الوفي الحميم، والابن الشفيق الكريم يتأفف ويلوم نفسه على تقاعده، وينسى ما كان من أذى أغاممنون ويغضي عن زلة منه مضت، ويلعن الفتنة والغضب، ويقدم على خوض ميدان القتال غير منثنٍ ولا هيَّاب، ولو علم أنه سيلقى حتفه يتمنى لو افتدى فطرقل برأسه أو مات عقابًا له؛ لتقاعده عن البروز مع صديقه كتفًا لكتف، يتفجع لغمة والدته ويتمنى لو لم يعرفها والدهُ؛ لأنها لو لم تلد ابنها الإنسي وهي جنِّية لما عرفت الضيم والأسى، ثم أنه لا يتمثل وهو البطل الباسل إلا بالبطل العظيم هرقل الذي طبقت شهرته الآفاق، وهو مع تلك الأنفة الشماء والشعور بطول باعه لا يأنف من الإقرار أن بين قومه أفرادًا يفوقونه حكمة وسدادًا، وهو إقرار يزيد قوله في الفخر وقعًا ورجحانًا. لم أر لأخيل في كل إنشاد الإلياذة كلامًا يشف عن دقة إحساس ورقة عاطفة واستسلام للقضاء المبرم كهذا الكلام حتى إنه لما استطرد

إلى التهديد والوعيد لم يقل بجندلة الأبطال وصرع الأقيال بل أشار إلى ما يعقبها من نحيب النساء، وذرف العبرات ومسح ما سح منها على الوجنات. وليقل حساد هوميروس بعد هذا: إن أخيل لم يكن إلا بطل كر وقلب صخر.

معارضة

بين بعض ما جاء من قول بطل العرب موافقًا لقول بطل اليونان في هذا الموضع

قال أخيل:

وليهلك الغيظ من بين الأنام فكم أغـرى وأوغـر منقـادًا حكـيمهمُ

وقال عنترة:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتبُ ولا ينـال العلى مـن طبعه الغضبُ

قال أخيل:

ولـيس مـن شـاغل ذا اليوم يشغلني إلا ادخـارُ علًـى تسـمو بـه الهمـمُ

وقال عنترة:

دعني أجد إلى العلياء في الطلب وأبلـغ الغايـة القصـوى مـن الرتـبِ

قال أخيل:

والـدردنيات بضَّـات الصـدورُ يـرى لهـنَّ دمـعٌ سـخينٌ جريـهُ دِيـمُ

يمسحن ما سح عن غض الخدود هاجـت تلهفهـن الأبـؤس الـدهم

وفد

وقال أيضًا بعد أبيات:

فكـــم ثـــم طروادیـــةً دردنیـــةً سـبینا بـدارٍ بأسـنا فوقهـا امتـدَّا

یـنحن علیـك الیـوم واللیـل كلـه ویلطمن بضً الصدر والنحر والخدَّا

وقال عنترة:

ســـلي عنـــا الفـــزاریین لمـــا شـــفینا مـــن فوارســـها الكبـــودا

وخلینـــا نســـاءهم حیـــارى قبیـل الصـبح یلطمـن الخـدودا

وقال أیضًا:

ویـــل لشـــیبان إذا صـــبحتها وأرسـلت بـیض الظبـى شـعاعها

وخـاض رمحـي فـي حشـاها وغـدا یشـك مـن دروعهـا أضـلاعها

وأصـــبحت نســـاؤها نوادبًـــا علـى رجـال تشـتكي نزاعهـا

وقال:

وحولـــك نســـوة ینـــدبن حزنًـــا ویهـــتكن البراقـــع واللقاعـــا

قال أخیل:

یعلمـن أن اعتزالـي طـال فـاغتنم الـ أعـداءُ بـوني وإنـي الآن بیـنهمُ

وقال عنترة:

سـكتُّ فغـر أعـدائي السـكوتُ وظنـوني لأهلـي قـد نسـیتُ

قال ذلك وهو في موقف موجدة واعتزال كموقف أخيل؛ إذ خرج عن قومه غضبان فنزل على بني عامر وأقام فيهم، فأغارت هوازن وجشم على ديار عبس فأرسلوا يستمدون عنترة، فأبى وامتنع حتى إذا عظم الخطب على بني عبس خرجت إليه جماعة من نساء القبيلة، وطلبن إليه أن ينهض معهنَّ لمقاومة العدو وإلا تشتت شمل العشيرة، فاحتمس ونهض وأنشد أبياتًا استهلها بالبيت السالف الذكر.

قال أخيل:

حتى إذا شاء زفسٌ في بطانته ... موتي فإن حياتي تلك دونهمُ

هرقل لم يغن عنه بأسه وولا ... زفس فأودى وإن أولوه ودهمُ

أصابه كيد هيرا والقضاء إذن ... فلألق ميتًا إذا كانت كذا القِسمُ

وقال عنترة:

إذا كان أمر الله أمرًا يقدرُ ... فكيف يفر المرء منه ويحذرُ

ومن ذا يرد الموت أو يدفع القضا ... وضربته محتومةٌ ليس تعبرُ

قال أخيل:

فطرقل ارفعهم شأنًا وأعلقهم ... بمهجتي لا تضاهيه قرومهمُ

بهامتي كنت أفديه فوا لهفي ... عدمته مثلما كبارهم عدموا

نعم سأطلب هكطور الذي فتكت ... كفاه في قمةٍ تعنو لها القممُ

وقال عنترة في رثاء زهير بن جذيمة العبسي:

تولى زهير والمقانب حوله ... قتيلًا وأطراف الرماح الشواجرِ

وكـان أجـل النـاس قـدرًا وقـد غـدا	أجـــل قتيـــل زار أهـــل المقـــابر
فوا أسفا كيف اشتفى قلب خالد	بتـاج بنـي عـبس كـرام العشـائر
وكيـف أنـام الليـل مـن دون ثـائره	وقد كان ذخري في الخطوب الكبائر

وإن من تصفح ديوان عنترة ليعجب من كثرة المشاكلة بين كلامه وكلام أخيل، وقد أوردنا شيئًا من ذلك في مواضعه، وأضربنا عن ذكر الكثير خوف الإطالة، وإننا مثبتون الآن أبياتًا قالها عنترة في رثاء مالك بن زهير العبسي صديقه، يرى المطالع اللبيب شبهها القريب برثاء أخيل لفطرقل في هذا النشيد، ومواضع أخرى من الإلياذة:

فللـه عينًـا مـن رأى مثـل مالـكٍ	عقيـرة قـوم أن جـرى فرسـانِ
فليتهمـا لـم يجريـا نصـف غلـوةٍ	وليتهمـا لـم يرسـلا لرهـان
وقـد جلبـا حينًـا لمصـرع مالـك	وكـان كريمًـا ماجـدًا لهجـان
وكـان لـدى الهيجـاء يحمـي ذمارهـا	ويطعـن عنـد الكـر كـل طعـان
به كنت أسطو حينما جدت العدى	غـداة اللقـا نحـوي بكـل يمـان
فقـد هـد ركنـي فقـدهُ ومصـابه	وخلـى فـؤادي دائـم الخفقـان
فـوا أسـفا كيـف انثنـى عـن جـواده	ومـا كـان سـيفي عنـده وسـناني
رمـاه بسـهم المـوت رامٍ مصـممٌ	فيـا ليتـه لمـا رمـاه رمـاني
فسـوف تـرى إن كنـت بعـدك باقيًـا	وأمكننـي دهـر وطـول زمـان
وأقسـم حقًّـا لـو بقيـت لنظـرةٍ	لقـرَّت بهـا عينـاك حـين تـراني

(٢٧) برحت براح، أي: غابت الشمس. يقول: إن الدخان يعلو من الجزيرة نهارًا، فإذا غابت الشمس ظهرت النيران؛ لأن النار لا ترى عن بعد نهارًا، فلا يظهر اللهيب حتى تغيب الشمس، وذلك على نحو ما جاء في سفر الخروج: وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود من غمام ليهديهم الطريق وليلًا في عمود من نار ليضيء لهم ليسيروا نهارًا وليلًا (خر١٣:٢١).

وما أحسن ما قال أبو تمام وقد ذكر ضوء النهار وظلمة الدخان في الحريق:

ضوءٌ من النهار والظلماءُ عاكفةٌ   وظلمة من دخان في ضحى شحبِ

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت   والشمس واجبة من ذا ولم تجبِ

كانوا يتفاهمون بالإشارات النارية، كما يتفاهمون الآن على أسلاك البرق، والنار المقصودة هنا إنما هي نار الحرب، وقد كان لها شأن عظيم في جاهلية العرب وأوائل الإسلام، ومنها النار التي أوقدها سهل بن صباح العبسي في حصار بعلبك. قال: فطلعت إلى ذروة الجبل فعلوته، وأشرفت على العسكرين، وجعلت النظر إلى حربهم وقتالهم وقد طمعت الروم في العرب ... فأسرعت إلى جراثيم الشجر، فجعلت أكسرها وأعبي الحطب بعضه على بعض، وعمدت إلى زناد كان معي فأوقدت النار وعببت حطبًا أخضر ويابسًا، حتى علا منه دخان عظيم،

وكانت علامتنا إذا أردنا أن يجتمع بعضنا إلى بعض بأرض الشام في الليل وقود النار وإنارة الدخان. قال: فما هو أن علا الدخان وتصاعد إلى الأفق حتى نظر إليه سعيد بن زيد وأصحابه، وضرار بن الأزور وأصحابه، فنادى بعضهم بعضًا الحقوا الأمير أبا عبيدة (الواقدي).

لم أر في الإلياذة إلا نارين من النيران المعروفة عند العرب؛ وهما نار الحرب هذه، ونار القرى ذكرت تلميحًا غير مرة ولا ريب أنه كان لهم نيران أخرى لم يذكرها الشاعر، أما نيران العرب فكثيرة جمع جلها الشيخ ناصيف اليازجي بقوله:

أول نار عندهم نار القرى	وذكر نار الوسم بعدها جرى
ونار الاستسقاء والتحالف	والصيد والحرب لدى التزاحف
ونار غدر وسلامة تعد	ونار راحل كذا نار الأسد
والنار للسليم والفداء	فجملة النيران هؤلاء

فنار القرى كانت توقد للضيوف إذا حضروا أو إرشادًا لهم إلى محل الضيافة، ونار الوسم هي التي توقد ليحمى بها الميسم التي كانوا يسمون بها إبل الملوك لترد الماءَ أولًا، ونار الاستسقاء كانوا يوقدونها تبركًا طلبًا للمطر أخذًا عن المجوس، ونار التحالف توقد عن التحالف على أمر، ونار الصيد توقد للظباء لتعشى أبصارها، ونار الحرب توقد على جبل إعلامًا للأحلاف الأباعد كما ذكر هوميروس، ونار الغدر كانوا يوقدونها بمنى أيام الحج إذا غدر الرجل بصاحبه، ثم يقولون: هذه غدرة

فلان، ونار السلامة توقد للقادم من سفر سالمًا، ونار الراحل توقد للمسافر إذا لم يحبوا أن يعود، ونار الأسد توقد عند الخوف من سطوة الأسد حتى إذا رآها ينفر منها، ونار السليم، أي: الملسوع توقد له ويكره على السهر على ضوئها، ونار الفداء توقد لنساء الأشراف كانوا إذا سبيت نساء الأشراف منهم وفد وهنَّ يخرجوهن ليلًا ويوقدون لهن نارًا يستضئن بها.

(٢٨) ذلك مبلغ ذعرهم رهبةً من أخيل حتى تبلبلت الرجال وانقلبت الجياد بالعجال، واختلط عليهم الأمر فباتوا لا يعون أمرًا، وكانت نصالهم تنفذ في صدورهم فتصرعهم بأيديهم وهم لا يشعرون.

(٢٩) الأرتاج: الأبواب، والأصفاق: المصاريع، وزلجن: قفلن.

(٣٠) أصدى: مات.

(٣١) منتيوس: والد فطرقل.

(٣٢) هذا نذر ينذره أخيل قبل أن يقيم مأتم هكطور، وسير به كما سترى. وفي أخبار العرب كثير من أمثال ذلك في أيام الجاهلية والإسلام، روي أنه لما قُتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد، وكان قاتله وحشي مولى جبير بن مطعم، عظم قتله على صاحب الشريعة الإسلامية، فنذر أن يقتل به سبعين رجلًا من قريش وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة.

(٣٣) يبسط لنا الشاعر في الأبيات السالفة كيف كانوا يغسلون الميت ويطيبونه ويكفنونه.

(٣٤) نموا: نسبوا. والطارف: الحديث، والتلد: القديم. لا يخفى ما في هذا البيت من التهكم الظاهر والوعيد الخفي.

(٣٥) كان زفس بعل هيرا وأخاها. قالت: إني وإن كنت أعظم الآلهة وبعلي الذي هو أخي أسمى إلاه، فلم يسعني أن أنصر أوليائي الإغريق، ولا أن أخذل أعداءهم الطرواد، كأنها قالت: إنك لا تذخر لي رعاية ولا تحفظ لي حرمة. يمثل هوميروس تنافر الزوجين بخلوتهما وإن كانا في مصاف الآلهة.

(٣٦) الأعرج لقب هيفست، ويلقب أيضًا بالحداد، وهو إلاه النار، ومطرق الصواعق ومثير البراكين، لقب بالأعرج لأنه ولد قبيح الصورة فألقت به أمه من أعالي السماء كما سيأتي بعد أبيات —— هذا سبب تلقيبه بالأعرج بحسب نص الرواية الميثوليجية، أما سبب تلقيبه بالحداد فمأخوذ من صناعته، على أن الباحثين في التعليل الرمزي لأصل العبارات ذهبوا في ذلك مذاهب نعتمد منها على رواية هرقليذس؛ إذ قال: إن هيفست ممثل النار، وأبوه زفس ممثل الأثير، وأمه هيرا ممثلة الهوا فالنار سقطت إلى الأرض من الهواء والرقيع، إما بفعل الصواعق، وإما بوجه آخر. لقب بالأعرج؛ لأن النار لا تشتعل بلا وقود كما أن الأعرج لا يستطيع المشي ما لم يستند إلى عضد يعضده. وأما قول

هيفست عن نفسه في ما يلي: إنه لولا ثيتيس وأفرينومة لكان هلك، فتأويله أنه لو لم تقع النار في محل يمكن حفظها فيه لاضمحلت وتلاشت – قيل: أخذ اليونان عبادته عن المصريين حيث كان يسمى فتالي، وإلاه النار عند البلاسجة والطرواد، ثم الرومان تدعى فستا تطرقت إليهم عبادتها من الفرس. ومن الغريب أن يكون هذا التشابه بين المعبودين وأحدهما ذكر والأخرى أنثى، والأغرب من ذلك أن أول صيقل لجميع المصنوعات الحديدية والنحاسية في التوراة هو توبل قاين (تك٤: ٢٢) وتوبال أو طوبال باللغات التترية، ومنها التركية الأغرج وقين باللغات السامية ومنها العربية الحداد وكلاهما لقب هيفست مع أن توبل قاين كان قبل عهد هوميروس بحسب نص التوراة بنحو ألفي عام، ولم أر من انتبه إلى هذا التفسير مع أنهم بحثوا فيه بحثًا طويلًا واستخرجوا أصل قاين السامي.



هيفست إلاه النار.

(٣٧) تقدم لنا بحث وافٍ في المناضد ن٩.

(٣٨) قتيره، أي: مساميره.

(٣٩) مما يروى عن سبيل التفكه أن أفلاطون كان في صغره مغرمًا بنظم الشعر تحدثه نفسه بالتشبه بهوميروس، فينظم القصيدة، ثم

يقابلها بمنظومات هوميروس فيظهر له البون الشاسع فيعدل عنها إلى غيرها، وهكذا إلى أن تحقق أنه لم يكن ذا سليقة شعرية سامية، فأخذ منه اليأس كل مأخذ، وجمع كل ما سطر من الشعر وألقى به إلى النار. على أنه لم يتمالك وهو على تلك الحال أن ذكر شيئًا من منظوم هوميروس نفسه فعلق بذهنه هذا الشطر، ولكنه عوضًا عن أن يقول:

هيفست قم ثيتيس عونك ابتغت

قال:

هيفست أفلاطون عونك ابتغي

قالوا: وهذا هو السبب في كراهة أفلاطون للشعر وتنديده به شأن من تقبح على الحسناء جمالها لاعتصامها عليه.

(٤٠) العلاة: السندان.

(٤١) الوصيفة: الجارية.

(٤٢) تشبه ثيتيس ابنها أخيل بالغصن. وما أحسن ما قالت الخنساء في نفسها وفي أخيها صخر:

كنا كغصنين في جرثومة بسقا ... حينًا على خير ما ينمى لهُ الشجرُ

حتى إذا قيل قد طالت عروقهما ... وطاب غرسهما واستوثق الثمرُ

أخنى على واحد ريب الزمان وما ... يبقي الزمان على شيءٍ ولا يذرُ

(٤٣) المجوب: الترس. والأمة: الدرع. والقشيب: الجديد.

(٤٤) الحاف: جمع حافَّة.

(٤٥) أي: من دون تلك الدراري.

(٤٦) رسم بلدتين إحداهما دار سلم والأخرى دار حرب لتحسن المقابلة، ثم مثل أحسن ما يحصل أثناء السلم في الواحدة، وأقبح ما يحدث أثناء الحرب في الأخرى، فأخذ أعظم مزايا البلد الأمين، فأورد أفراح الأعراس وإقامة القسطاس للعدل بالناس كما سترى.

زعم الأقدمون أنه أشار إلى أثينا؛ لأنها كانت السابقة إلى وضع سنن الزواج وهي أول بلدة عندهم جُعل فيها عقاب القاتل القتل.

(٤٧) في الأبيات السالفة قطعة تاريخية بوصف هيئة تقاضيهم في تلك الأيام.

اختلف النقلة بقوله: «وشاقلان ... أودعت إكرامًا لمن محا بالعدل شر الوزر». فقال بعضهم: إن ذينك الشاقلين يعطيان للقاضي الناطق بالحكم العادل، وقال الآخرون، وهو الأصلح: إنهما يعطيان لمن ثبت الحق في جانبه.

(٤٨) الجدة: الثغر.

(٤٩) العين: الرقيب. والصوار: القطيع.

(٥٠) لا فائدة من مجاراة الشراح على التخرص لمعرفة البلدة التي أشار إليها الشاعر دارًا للحرب، ولعله لم يشر إلى محل معين، ولكنه لا بد من الإشارة إلى براعة الشاعر بالإحاطة بأسباب الحرب ووقائعها ولواحقها بهذا الإيجاز البديع، وأبدع منه وصف القضاء قبل الانتقال إلى مشهد آخر، فلقبه «بمبيد الأمم» وهيأه بصورة شخص يعلو كاهله رداء تسيل الدماء من أطرافه، وهو بلا سبب معقول يفر عن هذا، ويفري ذاك ويمسك بقدمي الآخر يزيحه عن موقف الصدام، وأي: وصف يصدق عليه كهذا الوصف اللهم إلا أن يكون قول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ثمتــه ومــن تخطــئ يعمــر فيهــرم

(٥١) انتقل الشاعر إلى منظر آخر، أبان فيه أنه لم يكن بالقرع والصرع أعلم منه بالزرع والضرع فوصف الحالة الزراعية بدقائقها، كأنه آلى على نفسه أن لا يطرق بابًا إلا ويلج مكتشفًا كل ما بدا وراءه، وما استتر كأنه استجمع له في صدره كلَّ ما وسع زمانه من مكنونات العقل ومذخورات النقل.

(٥٢) الندل: خدمة الطعام.

(٥٣) السمك: الأوتاد. والوشيع: الحجار المعروف بالسياج.

(٥٤) القطف: العنقود.

(٥٥) لينوس في أساطيرهم أول من نطق بالشعر، أبوه أفلون أو هرمس (عطارد) وأمه قليوبا أو أورانيا، كان معلمًا لهرقل وثميريس وأرفيوس، فانتهر هرقل يومًا لتلاهيه فضربه هرقل ضربة كانت القاضية عليه، ويقول الثيبيون بوجود لينوس آخر أقدم من هذا كان يناظر أفلون بالإنشاد فاهلكه أفلون.

وكان من عادة اليونان أن يقيموا للينوس مأتمًا سنويًا ينحرون فيه عليه، كما يقام مأتم عاشوراء في هذه الأيام، ذلك ما أشار إليه هوميروس بقوله: «نشيد لينوس إلخ».

(٥٦) الصرائف: الأكواخ.

(٥٧) ذيذال: شخص خرافي ينسبون إليه كثيرًا من خوارق الأعمال، ويزعمون أن النساء لم يكنَّ يرقصن مع الرجال، فأخذ سبعة فتيان وسبع فتيات فعلمهم الرقص على النمط الذي يشير إليه هوميروس، ولا يزال مستعملًا في بلاد اليونان، وإني إخال الكدريل الإفرنجي ضربًا منه.

(٥٨) وأي حلي أبهج من تلك الحلي: للرجال السيوف، وللعذارى تيجان الزهر.

(٥٩) المحال: جمع محالة، وهي الدولاب.

(٦٠) إلى هنا انتهى الشاعر من وصف الترس، فأودعه من مكنونات الطبيعة ما لم يبق معه موضع لإسهاب، فأتى على سائر القطع موجزًا كل الإيجاز بعد هذا الإطناب الوحيد في شكله الفريد في بابه.

النشيد التاسع عشر

مصالحة أغاممنون وأخيل

مُجْمَلُهُ

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد   من يمه يبرز فوق العباد

حتى انبرت ثيتيس إلى ابنها أخيل بالشكة التي اصطنعها إلاه النار وحسنت له مصالحة أغاممنون، وأفرغت بمنخري فطرقل مادة تحفظها من الفساد أثناء غيابه، فحشد أخيل الجمع وتصالح مع أغاممنون وأنبأ القوم أنه على أهبة القتال في تلك الساعة، فاعترف أغاممنون بخطئه وألقى تبعة فعلته على القضاء والقدر، ورغب إلى أخيل أن ينتظر ريثما يؤتى له بالتحف التي مر تعدادها، فأبى أخيل إلا الكر بلا توان لما بلغ منه الغيظ على مقتل حبيبه فطرقل، فاعترضه أوذيس محتجًّا أنه لا بد للجيش من تناول الطعام، ودعا أخيل إلى الغذاء في مضرب أغاممنون فآلى أخيل أن لا يذوق طعامًا قبل الأخذ بثأر فطرقل، فأكل الجيش وأحضرت تحف أغاممنون ومعها بريسا سبية أخيل، وأقسم أغاممنون أمام الجمع أنه لم يمسسها أثناء إقامتها عنده، وأرسلت التحف إلى خيام أخيل وأخذت الجواري وبريسا يبكين فطرقل ويندبنه، وأخيل كل تلك الآونة متوجع متفجع لا يرى إلا القتال ومن حوله الملوك يرومون له تعزية، فلا يتعزى بل يندب وينتحب كالطفل، ثم تقدم أخيل

بالجيش مستلمًا درع هيفست وشد أفطوميذ الخيل إلى مركبته فاعتلى، وعنف الجياد فنطق أحدها وأنبأه بمصرعه القريب فلم يعبأ بنبوته.

وحث في صدر السرى جرده بهدة تدوي بتلك النجاد

مجرى الوقائع في اليوم الثلاثين.

النشيد التاسع عشر

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمه يبرز فوق البلاد ١

يرمقه معبودها والعباد

حتى انبرت دون الخلايا ثتيس في تحف الرب هفستٍ تميس ٢

فأبصرت آخيل فوق الثرى معانقًا فطرقل واري الفؤاد

•••

يشهق بالعبرة هامي الجفون وحوله أصحابه يندبون

وسطهم حلت بتلك الشجون

ويده اجترَّت وقالت: «ألا مهما طما الخطب وطمَّ البلا

دع ثم فطرقل على الترب إذ في قدر الأرباب بالغيب باد

•••

بني قم وارفل أتاك السلاح من لدن هيفستٍ زهي الصفاح ٣

ما قط إنسيٌّ به قبل لاح»

من ثم ألقته لديه فصل وهدَّ قلب المرمدون الوجل ٤

لم يستطيعوا رمق أنواره بل عنه صدوا جملة بارتعاد

•••

لكنما آخيل مذ أحدقا فيه حشاه غلّه مزَّقا

وطرفه نارًا ذكت ألقا

مستبشرًا قلبه في يديه ينظر بالبشر مليًّا إليه

وقال يا أماه ليست سوى تحفة ربٍّ جاد فيما أجاد

•••

هيهات إنسيٌّ كذا يبتدع وها أنا من ساعتي أدَّرِع

لكن فؤادي جملةً ينخلع

لهاجسي بالشلو إنَّ الذباب يعيث ما بين جراح الذباب٥

وينشر الدود به عابثًا فيعتري جسم الحبيب الفساد»٦

•••

قالت: «دع الفكرة إني أزيل عنه جراثيم الذباب الوبيل

تلك التي تنهش لحم القتيل

حتى ولو عامًا هنا الجسم ظل ما خلت ذا التشويه إلَّا اضمحل

فناد للشورى كبار السرى وصاف أتريذ وألق العناد

•••

وشك وألبس ثوب بأسٍ منيع» وألهبته بالزماع الذريع

ثم انثنت تلفت نحو الصريع

في منخريه أفرغت عنبرا وسلسبيلًا صافيًا أحمرا

ليسلم الجسم وفورًا جرى آخيل فوق الجرف يذكوا تقاد٧

•••

وصــاح صــوتًا بالســرايا قصــف فكلهـــم لســـبي مجيبًـــا وزف

حتى الذي بالفلك دومًا وقف

ومـن علـى السـكان ظـل المقـيم ومــن علــى الأرزاق كــان الــزعيم

طـرًّا إلـى الشُّـورى سـعوا مـذ بـدا آخيـــل للهيجـــاء بعـــد البعـــاد٨

•••

ثمــــة مــــا عــــتم أن عرجــــا يعــــرج أوذيــــس إمــــام الحجــــا

كذا ذيوميذ الفتى المرتجى

توكـــأ علـــى كعـــوب الرمـــاح بشـــدة الضـــيم وهـــول الجـــراح

تصـــدَّرا فـــي النـــاد ثـــم انبـــرى بعـــــدهما أتريـــــذ ربُّ القيـــــاد

•••

أثقلـــه جـــرح كـــوون الهمـــام يـــوم عـــلا النقـــع بحـــر الصـــدام

وما إن انضموا وتم النظام

حتــى بهــم آخيــل فــورًا نهــض وصــاح: «يــا أتريــذ بــئس الغــرض

مـا كـان أولـى السـلم مـا بيننـا مـذ ثـارت الأحقـاد تـوري الزنـاد

•••

يـا حبَّـذا لـو يـوم كـدت العـداه بقهـــر لرنيســـا وســـبي الفتـــاه

من أرطميس فخر صيد الرماه

أدركهـا فـي الفلـك سـهم الـردى لمـا بنـا جلـت خطـوب العـدى

وعضـــت التـــرب صـــناديدنا ونالـــت الطـــرواد منـــا المـــراد

•••

أقعـــدني الغـــلُّ ببـــون بعيـــد تلـك إذا عقبـى الخصـام الشـديد

يذكرها الإغريق دهرًا مديد

قـد فـدح الأمـر فـدع مـا ذهـب ولـنغض ولنخمـد سـعير الغضـب

فلسـت بالحـافظ حقـدًا مضـى فقـــم إذن أضـــرم أوار الجهـــاد

•••

واحمـل علـى الأعـداء حتـى أرى أتطلـب الأسـطول تلـك السـرى

لكنني أدري ومثلي دري

أن الـــذي مـــنهم هزيمًـــا نجـــا مـن عـاملي يـأنس حيـث التجـا»٩

فضـــجَّت الإغريـــق بشـــرًا لـــه إذ غـــادر الأضـــغان تـــوًّا وعـــاد

•••

فقـــام أتريـــذ ولـــم يمتثـــل في الوسـط بـل مـن عرشـه يرتجـل:

«يا صحب أتباع أريس المذل

يـــا دانويُّـــون اصـــمتوا للختـــام فلـــيس بـــاللائق قطـــع الكـــلام

فكـــلُّ نـــادٍ قـــد عـــلا ضـــجةً لا مســـتفيدٌ فيـــه ممـــن أفـــاد

•••

مهمـا عـلا صـوت خطيـبٍ خطـب واتقـدت نـار حجـاه اضـطرب١٠

آخيل لبيت إلى ما انتدب

فاصـغوا فكـم لمـتم بمـرِّ الكـلام ولـــم أكـــن أهـــلًا لـــذاك المـــلام

مـا الـذنب ذنبـي حـين حرمانـه فتاتـــه إذ قـــد حرمـــت الرشـــاد

•••

بـل ذنـب زفـس ذا وذنـب القـدر والظلمـــة الـــدهماء ذات العبـــر

فهم هم أعموا عليَّ البصر

ومـا تـرى قـد كـان فـي طـاقتي　　　لمـــا اســـتباحت فتنـــةٌ بـــاحتي

فتـــاة زفـــس تلـــك غـــدَّارةٌ　　　تقـود مـن شـاءت وليسـت تقـاد١١

•••

تجري وفوق الترب ليست تدوس　　　لكنهـــا تهشـــم شُـــمَّ الـــرءوس

وتبتلي الناس بدهم البئوس

وزفـــس قـــوَّام الـــدني والعلـــى　　　أدركـــه منهـــا عمـــيم الـــبلا

مـــذ بهرقـــل ألقمينـــا أتـــى الـــ　　　ـــمخاض فـــي ثيبـــة ذات العمـــاد

•••

زوجتـــه والـــت وثيـــق الـــولاء　　　فأعملـــت فيـــه دهـــاء النســـاء١٢

إذ قال معتزًّا بدار البقاء:

«أربـــاب يـــا ربَّـــات ســـمعًا لمـــا　　　نفســـي تنـــاجيني بـــأن يعلمـــا

«رأس المواليـــــــد إليثيَّـــــــةٌ　　　تـــرئس هـــذا اليـــوم أســـمى ولاد١٣

•••

«فـــي الإنـــس مـــن ذريتـــي أيهـــم　　　بالبـــأس فـــيهم ســـائدًا يحكـــم»

قالت له هيرا الدَّها تكتم:

«كـذبت لـن تنفـذ هـذا المقـال　　　أو لا فأيمانـــك أغلـــظ ثقـــال

«بـــأن مـــن تلقيـــه إنســـيةٌ　　　ذا اليوم منك الإنس بالبأس ساد»

•••

فـــأغلظ الأيمـــان زفـــسٌ ومـــا　　　أدرك مغزاهـــا فيـــا بئســـما

فاندفعت هيرا كسيل طما

تجــري وتــدري أن فــي أرغــا عــرس ســـتينيل فتـــى فرســـا

حبلى شهورًا قد خلت وهي في أوائـــل السَّـــابع دون ازديــــاد

•••

فولـدتها الطفـل مـن قبـل حـين واسـتوقفت فـي ألقمينـا الجنـين

وزفس جاءت بالبلاغ اليقين:

«يـا قـاذف البـرق اسـمعني فقـد أقبـل مـن نسـلك ذاك الولـد١٤

إفرســـتسٌ يـــدعى وحـــق لـــه أن يحكـــم الإغريـــق أنَّـــى أراد»

•••

فنفســه جاشــت علــى قهرهــا وفتنــــةً أمســـك مـــن شـــعرها

آلى بأن تُنْفَى مدى دهرها

مـن مجلـس الأولمـب والأصـفياء ومـــن رقيـــع بالـــدراري أضـــاء

وللشـــرى ألقـــى بهـــا قاذفًـــا مـن بعـدما بـالكف عنفـا أمـاد١٥

•••

وكـم تلظّـى زفـس لمـا احـتكم إفرســـتسٌ ثـــم فتـــاه حكـــم

يسومه الأمر بجافي العظم

كـــذاك لمـــا للخلايـــا انـــدفق هكطـور يصـمي بـين تلـك الفـرق

مـــا كـــان لـــي طاقـــةُ ردٍّ لهـــا لكنمـا لـي الآن حسـن ارتـداد١٦

•••

أضـلني زفـس وعقلـي انحـرف لكــن لــك اليـوم تهـال الطـرف

فكر إن تزحف فكلٌ زحف

وكـــل مـــا أمـــس أذيـــسٌ وعـــد — لا زال طـــرًّا لـــك عنـــدي معـــد

فـــإن تشـــأ فالبـــث يســـيرًا تـــرى — وإن تعـــل صـــبرًا لقـــرع الصـــعاد

•••

فليحضـــرن الآن تلـــك الغـــرر — قـــومي مـــن الفلـــك وعينًـــا تقـــر»١٧

فقال: «يا أتريذ مولى البشر

أنـــت ولـــيُّ الأمـــر والمرجـــع — إن شـــئت فـــامنح أو تشـــأ فـــامنع١٨

لكنمـــا ذا الحـــين حـــين الـــوغى — فـــلا نضـــع بـــاللّغو وقـــت الجـــلاد

•••

مكرُّنـــا تـــدرون مـــا أنجـــزا — كـــروا تـــروا آخـــيلكم بـــرزا

بعامل يفري ولن يعجزا

كـــروا وكـــل مـــنكم فليصـــل — مبـــارزًا مـــنهم كميًّـــا عتـــل»١٩

فقـــال محتجًّـــا علـــى قولـــه — أوذيـــس ذو الحكمـــة رب الســـداد:

•••

«آخيـــل يـــا عـــد ســـراة الخلـــود — مهمـــا تحـــدَّمت فخـــل الجنـــود

لا تدفعن الجيش دون الحدود

وهـــم صـــيامٌ فـــإذا النقـــع ثـــار — واصـــطدم الجيشـــان تحـــت الغبـــار

وهاجـــت الأربـــاب كـــل الســـرى — يطـــول لا ريبـــة أمـــر الطـــراد

•••

فمـــر إذن يـــؤتى بـــزاد وراح — فـــذاك يـــولي البـــأس يـــوم الكفـــاح

فمن إلى المغرب منذ الصباح

يقـــوى علـــى الإبـــلاء فـــوق الســـغب — مهمـــا علـــت همتـــه والتهـــب٢٠

ينهكـــه العَـــيُّ علـــى رغمـــه وهـو بـلا قُـوتٍ ضـئيلٌ وصـاد٢١

•••

لكنَّـــه إمَّـــا اكتفـــى وارتـــوى نهـــاره قاتـــل جـــمَّ القـــوى

بقلبِ بأسٍ لم ينله الطّوى

ولا يبـــالي باصـــطدام الطغـــام مـــن غـــرَّة الكـــرة حتـــى الختـــام

فـــوزِع الجنـــد علـــى فلكهـــم ومـــر إذن يـــؤتى بـــراحٍ وزاد٢٢

•••

وليحضـــرن أتريـــذ للمجلـــس مـا لـك مـن ذخـرٍ حـوى أنفـس

في مشهد القوم به تانس

وواقفًـــا بالجنـــد فليحلـــف أن بريســـا قـــط لـــم يعـــرف

مـــن ثـــم فـــي خيمتـــه فلـــيقم مأدبـــةً تضـــمن صـــافي التـــواد

•••

ويحســـم الأمـــر فترضـــى إذا تطيـــب نفسًـــا وتعـــاف الأذى

وأنت يا أتريذ من بعد ذا

أنصـــف فمـــن قـــوَّام قـــومٍ أهـــان لا بـــدع إن يسترضـــه كـــل آن»

فقـــال أتريـــذ: «أيـــا أوذسٌ أدَّيـــت بالحكمـــة كـــل المفـــاد

•••

أجـــل يمينـــي صـــادقًا أحلـــف أمـــــام ربٍ كنههـــــا يعـــــرف

ولست بالحانث لكن قفوا

وأنـــت يـــا آخيـــل مهمـــا اســـتطار فـــي لبـــك الـــذاكي شـــرار الأوار

مــه ريثمــا تبــدو الهــدايا هنــا　　فنبــــرم العقـــد لعهـــد الـــوداد

•••

وأنــت يــا أوذيــس بــالأمر ســر　　مــن نخبــة الفتيــان وفــدًا أســر

للفلك يأتونا بذخرٍ ذخر

أعددتــــه لابــــن أيــــاك أنــــا　　وتلثبيــــوس يضــــحي لنــــا٢٣

رتٌ لزفسٍ ولشمس العلى　　واستقدموا كل السبابا الخراد»٢٤

•••

فقــال: «يــا أتريــذ هــذا المجــال　　نخوضــه بعــد اصــطدام الرجــال

في هدنةٍ تبدو عقيب القتال

إذ تســكن الغلــة فــي مهجتــي　　أمــا تــرى صــيد ســرى الحملــة

صــرعى فــرى الحديــد أجســادها　　مــذ زفــس هكطــورٌ بــه القــوم كــاد

•••

شــاقكما الــزاد فــلا لــن أحــول　　أحــرض الآن جميــع القيــول٢٥

للكر لا زادٌ قبيل القفول

نؤجــل الأدبــة حتــى المغيــب　　مــن بعــد أن نــنقم عمــن أصــيب

فــالقوت والمشــرب لــن يــدخلا　　فمي وما إن خضت تلك الوهاد

•••

كيــف وفــي الخيمــة إلفــي يــرى　　مخضَّــبًا بحــــد نصــــل فــــرى

من حوله الصحب بدمع جرى

قــــد حوَّلــــوا رجليــــه للمــــدخل　　آه فلــن يحلــو ذا اليــوم لــي٢٦

إلَّا انفجــار النقــع والــبطش والــ　　إبــلاء بــين الزفــرات الشــداد»

•••

فقـال أوذيـس: «ابـن فـيلا أجـل قـد فقتنـي بأسًـا وفقـت الملـل

لكن لي فضل رشاد أجل

حنكنـي العمـر وطـول اختبـار فـانظر إلـى قـولي بعـين اعتبـار

تضـوى القـوى أيـان تمضـي القنـا في الهـام كالسـنبل وقـت الحصـاد

•••

ولا يهـون الأمـر حتـى يميـل ميزانـه زفـس لأمـر جليـل

فليس للإغريق ندب القتيل

بالصـوم إذ فـي كـل يـومٍ تخـر قـتلاهم أنَّـى إذن نسـتقر

نـدفن قتلانـا ونبكـي أسًـى يومًـا ولا نضـوي ونـألوا اجتهـاد

•••

ومـن يعيشـوا بعـد ذاك القـراع علـيهم أن لا يظلـوا جيـاع

ليدركوا قهر العدى بالزَّماع

فـذاك رأيـي لا تطيعـوا سـواه مـن ظـلَّ بـين الفلـك وافـى بـلاه

نكـر طـرًا كـرَّ عـزمٍ علـى أعـدائنا روَّاض جـرد الجيـاد»

•••

ومـا انتهـى أوذيـس حتـى انـدفع فـي ولـد نسـطورٍ إمـام الـورع

ثواس ميجيس ومريون مع

ليقومـذٍ يصـحبهم ميلنيـف فسـارعوا طـرًّا بسـير خفيـف

خـيم أغـاممنون أمـوا إلـى أوذيـس ينقـادون أيَّ انقيـاد

•••

عــادوا بمــا أتريــذ فيهــا اذخــر		مناضــدٌ ســبعٌ تشــوق النظــر

يكنفها عشرون طسًّا أغر

ومـن بنـات السـبي سـبع حسـان		قــد أبلغــتهن بريســا الثمــان

طــرًّا تــثقفن بصــنع النســا		كــذلك اثنــا عشــر رأسًــا جــواد

•••

أمــامهم أوذيــس فــي عشــرة		شــواقل مــن ذهــبٍ عُــدَّت

سائرهم في سائر التحفة

ســاروا وألقوهــا أمــام الحضــور		فقــام أتريــذ المليــك الوقــور

وثلثبيــوس هنــاك انبــرى		إليــه والخرنــوص فــي الحـال قـاد

•••

مــن ثــم أتريــذ انتضــى مديــةً		إزاء غمــد الســيف ملويــةً

أدى فروضًا صان مرعيَّة

ناصـية الخرنـوص مـذ قـص مَـد		يديــه مــن زفــس يــروم المــدد

وســائر الإغريــق أصــغوا لــه		يعتقــدون الخيــر خيــر اعتقــاد

•••

ثــم تــلا ينظــر نحــو العلــي:		«بــزفس إنــي مقســمٌ أوَّلا

أجل آل الخلد بين الملا

بــالأرض والشــمس كــذا أقسـم		وببنــات النــار مــن تعلــم

حقــائق الأمــر وتحــت الثــرى		بكيــدها الحــالف زورا يكــاد

•••

أن بريســا لبثــت بــاحترام		مـا قـط مسـتها يـدي فـي الخيـام

لا لفراش أو لأمر يرام

وإن أمـن فلألـق كـل الخطـوب شأن الـذي يقسم وهـو الكـذوب»

وعنــق ذاك الــرت رميًــا رمــى فــورًا بنصــل ســاطع الحــد حــاد

•••

وتلشبيـــوس تلقـــى الـــذبيح يطرحــه فــي قعــر بحــر فســيح

في اليم للأسماك قوتًا أبيح٢٧

فصـاح بـين الجمـع آخيـل: «كـم يـا زفـس فـوق الخلـق هلـت الـنقم

لـــو لـــم تشـــأ نكبـــة أبطالنـــا مــا ســامني أتريــذ قــطّ احتــداد

•••

كــلّا ولا حمقًــا فتــاتي اســتباح لكــن مضــى الماضــي وآن الـرواح

هبوا إلى زادكم بارتياح

ثـــم علـــى أعـــدائنا نحمـــل طـرًّا» كـذاك انصـراف المحفـل

وارفضــت الجنــد وكــل مضــى يجــري إلــى أســطوله باشــتداد

•••

وقــوم آخيــل حثيثــي القــدم ســـاروا بـــذياك الحبـــا للخـــيم

وأجلسوا الغيد وبعض الحشم

سـاقوا جيـاد الخيـل بـين الجمـوع فانــدفعت تــذري بريســا الــدموع

مـذ أبصـرت فطرقـل قـد مزقـت أعضـاءه صـم الحـدود الحـداد

•••

أهــوت عليــه بالبكــا والعويــل تلطــم ذيــاك المحيــا الجميــل

وصدرها البض وجيدا أميل

كأنهـــا الزهـــرة فـــي المشـــهد جللهـــا فـــرعٌ هـــوى عســـجدي

صـاحت: «أيـا فطرقـل ويـلاه يـا خـــلَّ فتـــاة لازمتهـــا النـــآد٢٨

•••

ألـــم أغـــادرك قبيـــل الـــذهاب حيًّـــا فألقيتـــك عنـــد المـــآب

ميتًا فكم يتلو مصابي مصاب

أبـــي وأمـــي أنكحـــاني فتـــى قـــد أبصـــرته مقلتـــي ميتـــا

دون الحصـــون اخترمتـــه القنـــا مكافحًـــا يحســـن عنَّـــا الـــذياد

•••

وإخـــوتي لمَّـــا اســـتطار الغبـــار ثلاثـــةً بـــادوا بـــذاك النهـــار

وعاث آخيل بتلك الديار

بلـــدة مينـــيس العظـــيم اكتســـح وفـــي التحـــام الحـــرب بعلْـــي ذبـــح

ولـــم تـــبح لـــي آه فطرقـــل أن أهمـــي عليـــه عبـــرات الحـــداد

•••

عللتنـــــي أن أخـــــيلًا يســـــير لإفثيـــا بـــي فـــوق فتـــك تطيـــر

يولم للأفراح حتى أصير

عرسًـا لـه يـا معـدن اللطـف آه عليك أهمي الدمع طول الحياة»[٢٩]

وانفجـــرت أجفانهـــا وانبـــرت كـــل الســـبايا حولهـــا باحتشـــاد

•••

ينـــدبن فـــي الظـــاهر فطرقـــل بـــل ينـــدبن خطبًـــا جـــل فـــيهن حـــل٣٠

وحول آخيل سراة الملل

ساعون في استرضائه أن ينال شيئًا من القوت فبالبث قال:

«أستحلف الأحباب أن يرعووا ولا يسوموا ما أقول انتقاد

•••

لا قوت لا شرب فقتل الحبيب أجج في قلبي أوار اللهيب

أصوم حتى الشمس عنا تغيب

وليس يؤذيني طول انتظار» وصرف القوم وظل الكبار

أتريذ أتريذ أذيسٌ ونسطور إذومين فنكس الجواد٣١

•••

ظلوا وراموا سلوةً تجمل يلهوا بها وا بُعد ما أملوا

سلوانه أن الوغى تثقل

وطأتها فكّرَ في نفسه وأن مغتمًّا على بؤسه

وصاح: «واويك يا ذا الذي قد كنت لي إلفًا وثيق العهاد

•••

كم قبل في خيمي بذلت الهمم في أدبةٍ تقيم يوم النقم٣٢

مذ طلب الجيش العدى واقتحم

وأنت ذا الآن طعين طريح كلَّا فنفسي الزاد لا تستبيح

ما عشت لن ينتابني حادثٌ يبدو كما ذا الحادث اليوم باد

•••

كلا ولو يومًا أتاني النبا أن أبي في إفثيا قد خبا

ذاك الذي بالدمع دومًا صبا

لابن نأي عنه بدار اغتراب فيها يثير الحرب تحت الحزاب

وذاك مــــن آثـــار هيلانـــة　　أس الرزايـــا والعـــوادي الغـــواد

•••

كـلَّا ولـو أنبتـت فرعـي الوحيـد　　نفطـــولم رب الجمـــال الفريـــد

إن لم يمت للآن أضحى فقيد

أملـت لكــن خـاب كـل الأمـل　　أنـــي بـــإليون أوافـــي الأجـــل

أودي بعيـدًا عـن حمـى أرغـس　　وأنـــت يـــا فطرقـــل حـــيٌّ تـــزاد

•••

إسكيرسًـــا أملـــت أن تطلبـــا　　حيـــث تـــرى نفطولمًـــا قـــد ربـــا

أمَّلت من ثمة أن تذهبا

لإفثيـــا فـــي فلكـــك الأســـحم　　ليـــده تـــدلي بمـــا ينتمـــي

لــي مــن عقــار أو ســبايا ومــن　　منـــازل شـــاقت وكـــل العتـــاد

•••

فـإن فـيلا الهـمَّ لا شـك مـات　　أو إنـه فـي جـرف اللحـد بـات

يشفق دومًا أن توافي الثقات

مبلغـــة حتفـــي لـــه بغتـــة»　　وجـاد بالـدمع وهـم جملـة٣٣

هـــزتهم الـــذكرى لأوطـــانهم　　وكلهـــم بفـــائض الـــدمع جـــاد

•••

فـــرقَّ زفـــس لهـــم وانثنـــى　　نحـــو أثينـــا رفقـــه معلنـــا:

«لم يا ابنتي ألقيت عبء العنا

بالشـــهم آخيـــل ألـــم أَلِّفِـــهِ　　فـــي خيمـــه يبكـــي علـــى إِلْفِـــهِ

كلهـــم لاهـــون فـــي زادهـــم　　وهـــو عـــن الخمـــرة والـــزاد صـــاد

•••

هبـي اسـكبي العنبـر والكـوثرا   فـي صـدره الضَّـامر كـي يصـبرا»

فانبعثت من شم تلك الذرى

كنسـر بحـر فـي عظـيم الجنـاح   يـدوي بسـاحات الرقيـع الفسـاح

قـد هاجهـا زفـس وفـي نفسـها   ودٌ لآخيـل فـلا تسـتزاد

•••

فأفرغـت فـي صـدره كـوثرا   وعنبـر الخلـد لكـي يصـبرا

والجيش يستلئم مستبشرا

عـادت إلـى صـرح أبيهـا الرَّفيـع   ومـن خـلال الفلـك هـب الجميـع

فانتشـروا كـالثلج فـي شـمألٍ   ترمـي بـه فامتـدَّ أيَّ امتـداد

•••

ترائـكٌ تسـطع مـن فـوق هـام   مـن دونهـا زان العـوالي ولام

وصم أجواب تصد الحمام٣٤

فطفقـت تبسـم تلـك البطـاح   يشـق فيهـا الجـو لمـع السـلاح

وارتجـت الأرض لوقـع الخطـى   وصـبر آخيـل اعتـراه النفـاد

•••

أسـنانه صـرَّت صـريرًا وطـار   مـن لحـظ عينيـه أوار الشـرار

ولبة للبطش بالقوم ثار

وسـطهم هـبَّ إلـى شـكَّته   مـن فضـل هيفسـت ومـن صـنعته

فـزرَّ خفيـه لسـاقيه فـي   عـرى لجـينٍ شـائقاتٍ جـداد

•••

ثـم كسـا الصـدر بـدرعٍ تنيـر | وبـين كتفيـه الحسـام الخطيـر

من فضةٍ قد دق فيه القتير

والجوب ذاك الجوب أنَّى ارتفع | كالبـدر بـدر الـتم نـورًا سـطع

فـي قبـة الجـو مضـى لامعًـا | ينيـر أطـراف الرقيـع البعـاد

•••

كأنـه والنـوء عنفًـا قصـف | حتـى إلـى الـيم بفلـكٍ قـذف

وعن مجال الأمن فيه انحرف

لهيـب نـارٍ فـي محـل اعتـزال | يبصـره المـلاح فـوق الجبـال

وبعـد هـذا خـوذة قـد غـدت | ككوكـبٍ فـي أفـق الجـو غـاد

•••

قونسـها الـواري عليـه أدار | هيفسـت تزهـو عـذبات النضـار

ثمت في الشكة آخيل دار

يخبرهـا هـل وافقـت جسـمه | أو أزعجـت فـي ثقلهـا عزمـه

إذا بهـا مثـل الجنـاحين قـد | خفـت بهـا يرتـاد كـل ارتيـاد

•••

وسـل مـن غمـدٍ سـنانا صـقيل | يثقـل كـل الـبهم إلا أخيـل

أهداه خيرون لفيلا الجليل

قناتـه قـد كـان قبـل انتقـى | مـن رعـن فليـون ليـوم اللقـا٣٥

مرَّانـةٌ شـماء أهوالهـا | عادت على الأبطال أدهى معاد٣٦

•••

وأفطميذ الخيل في الحال شد وألقميذ ببهي العدد

فألجمت والصرع لما استند

للعرش أفطميذ في الكبكبه في سوطه هبَّ إلى المركبه

تلاه آخيل كشمس الضحى عدته تزهو وتجلو السواد

•••

بصوتيه الهدَّار بالجرد صاح: «يا نسل فوذرغة نسل الفلاح

زنث أباليس بجنح النجاح

بي للحمى عودا إذا ما ارتويت لا تتركاني إن أمت ثم ميت

نظير فطرقل» فزنث انحنى يطرق بالمضمد تحت القلاد٣٧

•••

قال وهيرا خوَّلته المقال وللثرى أعرافه بانسدال:

«أجل أخيل اليوم شرَّ النزال

نقيك لكن المنايا إليك دنت ولم نجن بهذا عليك

لكنما الجاني إلاه سطا وقدرٌ ما ردَّه قط راد٣٨

•••

فإن يكن فطرقل قد جردا فلا لعجز من كلينا بدا

ليطونةٌ تلك فتاها اعتدى٣٩

رماه في صدر السرى إذ أغار يولي ابن فريام شعار الفخار

فالريح إن نسبق فإن الرَّدى في الغيب محتومٌ فلا يستعاد

•••

لا بدَّ أن يصميك تحت النصال ربٌّ وقرمٌ بقوى الرَّب صال»٤٠

وصوته أخفت بنات الوبال

فمـا بحـرفٍ بعـد هـذا نطـق — فقـال آخيـل بمـلء الحنـق:

«لـم بـالرَّدى يـا زنـث أنبـأتني — فمنـك ذا المنطـق لا يسـتجاد

•••

فلسـت بالجاهـل حكمًـا مضـى — علـيَّ بـالموت غريبًـا قضـى

فـلا أبـالي لا ولـن أعرضـا — حتـى أرى الطـرواد سـيموا الجـزع

وثقلـة العـي عليـه تقـع» — وحـث فـي صـدر السـرى جـرده

بهدَّة تدوي بتلك النجاد

هوامش

(١) الجساد: الزعفران، والمراد به الزعفران الأحمر الذي ينبت في بلاد اليونان وجبال أوروبا. راجع ما قلناه بهذا الصدد ن ٨. مثل الفجر شخصًا يبرز من يم البحر مشتملًا بثوب يشبه الزعفران باحمراره.

(٢) الخلايا: السفن.

(٣) إن القول بإهداء الآلهة شيئًا من أسلحتهم للبشر قديمٌ وكثيرٌ باعتقاد الأمم الخالية، وقد أشار هوميروس إلى ذلك غير مرة ووصف السلاح الذي أنعم به زفس على فيلا أبي أخيل، ووصف فرجيليوس السلاح الذي ألقت به الزهرة إلى ابنها آنياس، وفي الفصل الخامس عشر من سفر المكابيين الثاني وافى أرميا النبي يهوذا بالرؤيا: «وناوله

سيفًا من ذهب وقال: خذ هذا السيف المقدس هبة من عند الله به تحطم الأعداء» ع١٥ و١٦. ورواية التوراة لا تتعدى حالة الرؤى العادية على أن فيها إشارة إلى شيوع ذلك المعتقد؛ إذ لا يحلم بشيء غير معروف أو مسموع.

(٤) أي: فصل السلاح وارعب المرمدون قوم أخيل.

(٥) الذباب الأولى: الهوام المعروف، والثانية يراد بها: حدود المناصل.

(٦) كانوا يحتفظون كل الاحتفاظ بجثة الميت؛ لئلَّا يدركها الفساد قبل أن تحرق أو تدفن، ولهذا ترى الشاعر حريصًا على تدوين ذلك المعتقد، وحيثما أراد حفظ كرامة ميت تذرع بكل الوسائل لحفظ جثته نقية سليمة، فيستعين بالآلهة لئلَّا يتجاوز المعقول بعرفهم، فهنا ثيتيس تباشر الأمر بنفسها، كما عني زفس وغيره من الآلهة بحفظ جثة سرفيدون في النشيد السادس عشر، وسترى الزهرة وأفلون محتاطين بجثة هكطور في النشيد الثاني والعشرين — أما قولهم أن ثيتيس حفظت جثة فطرقل من الفساد لأنها من بنات البحر، فيفيد أنهم ملحوه فحفظوه، وهذا من باب التكلف الذي لا حاجة بنا إليه خصوصًا وأنه قال بعد هذا: إنها أفرغت بمنخري القتيل العنبر والسلسبيل.

(٧) كانوا يعتقدون بوجود مأكول ومشروب للآلهة يدعون الأول Αμβροδνχ (أمبرُوسيا) وهو مادة لطيفة لذيذة الطعم تقتل الموت

فيخلد آكلها، وقد تقدم ذكرها (ن ١٤). والثاني Νεχταρ (نكتار) وهو نوع من الخمر الأحمر شائقٌ بطعمه ولونه ذكيٌّ برائحته وكلاهما مضاد للفساد، وقد عربنا الأول بالعنبر لتقارب اللفظين، والثاني بالسلسبيل لتقارب المادتين، وربما يحسن تعريب هذا بالكوثر كما سيأتي بعد أبيات.

(٨) يقول: إن جميع الجيش التفَّ متهافتًا للقتال إجابة لنداء أخيل حتى الذين كانوا يقعدون عن الهيجاء جبنًا، فيلجأون إلى السفن أو يقيمون على سكان السفينة، أي: دفتها أو يتولون تقسيم أرزاق الجند، كل ذلك لما كان لصوته من الوقع في نفوسهم.

(٩) أي: إنه لا ينجو من بطشه إلا من فاز بالهزيمة فيأنس بذلك الفوز —— إن في كلام أخيل من الأنفة وعلو الهمة ما شاء؛ إذ أغضى عن كل ما مضى وهو لا يرى إلا الثأر ودفع العار.

(١٠) أي: يضطرب الخطيب للّغط والغوغاء.

(١١) أي: الفتنة بنت زفس.

(١٢) أغرت الفتنة هيرا فخدعت هيرا زفس، كما أغرت الحية حواء فخدعت حواء آدم.

(١٣) إلاهة المواليد، وقد تقدم ذكرها.

(١٤) لأن فرسيس والده من نسل زفس.

(١٥) لا نكاد نجد أمة من أمم الأقدمين لا تعتقد بوجود ملاك كإبليس أُهبط من السماء فكان على الأرض علة السرور والبلاء، وهذه «فتنة» هنا بنت زفس ألقى بها زفس من قبة الزرقاء إلى وجه الغبراء، فكان منها ما كان وقد رأينا فيما مضى كيف نكل زفس بالطيطان (ن ١٤).

(١٦) لها، أي: للفتنة، يشير إلى أنها استولت عليه حتى غاظ أخيل على كره منه ولم يكن في ذلك مختارًا.

(١٧) إن موقف أغاممنون هنا لمن أحرج المواقف؛ إذ لا بد له من الاعتذار والاسترضاء مع الاحتفاظ بهيبة الملك ورئاسة الزعماء فجمع بين الأمرين، قام ولا قيام غيره بل لبث على سدته يخطب واسترعى الأسماع وأطال الكلام في إلقاء تبعة ما فات على الآلهة والقضاء، ووصف الفتنة ذلك الوصف البليغ تهوينًا على أخيل، ثم مثل بفعلها مع من هو أعظم شأنًا منه ومن أخيل، (أي: زفس وهيرا)، ونص الخرافة القائلة: إن زفس أنبأ الملأ الأعلى يوم ميلاد هرقل أن أول مولود من نسله بين البشر في ذلك اليوم سيكون ملكًا عظيمًا، فاستوثقت منه هيرا زوجته بالأيمان ليبرنَّ بذلك الوعد، وولدت زوج ابن فرسيس بن زفس في أول شهرها السابع فاضطر زفس إلى توليته بدلًا من هرقل، ثم كان ما كان من أمرهما مما أثبتناه في النشيد الثامن، وقد قصد أغاممنون بهذا الإسهاب تحويل غيظ أخيل بما لا يحط من قدر كليهما، ولما أنس

تحقيق مرامه وتأثير كلامه أمر بإحضار الطرف التي أعدها لأخيل، وهو دهاء ما فوقه دهاء.

(١٨) من أحسن ما قيل بهذا المعنى قول أبي نواس:

يرجو ويخشى حالتيك الورى كأنك الجنة والنارُ

(١٩) الكمي العتل: الفارس الشديد.

(٢٠) السغب: الجوع.

(٢١) صاد، أي: عطشان.

(٢٢) يشبه كلام أوذيس هنا خطاب أبي عبيدة بن الجرَّاح في جند المسلمين، وهو على حصار بعلبك. قال غياث بن عدي الطائي: فلما صلينا صلاة الفجر نادى مناد من قبل أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه يقول: عزيمةٌ مني على كل رجل من المسلمين لا يبرز إلى حرب هؤلاء القوم حتى يبرز إلى رحله، ويصلح له طعامًا حارًّا يأكله، ليكون بذلك شديدًا على لقاء العدو (الواقدي).

(٢٣) إياك نجد أخيل وقد مرَّ مثل هذه التكنية بالجد دون الأب.

(٢٤) الرت: الخنزير، كان من عادتهم أن يضحوا بخنزير في بعض الأحوال، فأخذ الرومان عنهم تلك العادة وجعلوا التضحية بالخنزير دليلًا على التحالف والتواثق

(٢٥) يريد بقوله: شافكما، أغاممنون وأوذيس.

(٢٦) تلك عادة كانت متبعة في أزمانهم.

(٢٧) القوا بجثة الخنزير إلى البحر؛ لأنه كان محرمًا عليهم أكل الذبائح التي تنحر توثيقًا لأيمان.

(٢٨) النآد: الداهية والمصيبة.

(٢٩) إن في ندب بريسا قطعة تاريخية تمثل حالة السبايا في تلك الأزمان، هنا سبية أميرة قتل أخيلُ بعلَها وأخوتها، ودمر بلادها تعلل النفس باتخاذه بعلًا؛ إذ لم يكن لها إلا الرضاء بذلك أو الاستسلام للرق المؤبد، ولا شك أن فتاةً هذا شأنها في عصرنا يغلب أن تؤثر الرق، على أن لكل زمان أخلاقًا وعادات بل كانت بريسا تذرف عبرات الشجى على رجل كان بعلها بنيل تلك الأمنية، وقد باحت بها في الختام تذكيرًا لأخيل بوعده لعله ينجزه، وقد أُرجعت الآن إليه وصارت في قبضة يديه.

(٣٠) لم يكن نواح السبايا كنواح بريسا؛ إذ لم يكن فيهن من يطمع بالعتق والنجاة من الرق.

(٣١) قوله: أتريذ وأتريذ، أي: أغاممنون ومنيلاوس.

(٣٢) لا عجب أن يتذكر أخيل في هذا الموقف همة فطرقل في المآدب والجند لاهون بطعامهم، ولعل هذه الذكرى كانت سببًا آخر لامتناعه عن مشاركة القوم في طعامهم.

(٣٣) كان فطرقل خليلًا كفؤًا حسبًا ونسبًا وسنًّا وبأسًا، وهو مع هذا يلازم أخيل ملازمة الأخ النصوح والخادم المطيع، يقرأ أوامره بعينه فيلي الأمر قبل أن ينطلق من شفتي أخيل، وهذا أخيل رواع الأبطال يبكي بكاء الأطفال، ويتمنى لو أتيح له أن يفديه برأسه وأبيه ووحيده، وأن يموت دونه وهو حي، يقوم لأبي أخيل مقام الولد ولابنه مقام الوالد، فلا عجب بعد هذا أن تضرب الأمثال مدى الدهور بهذا التواد، ولقد جمع أخيل برثائه خليله فطرقل رثاء الأبيرد الرياحي بقوله:

فليتك كنت الحي في الناس نادبًا — وكنت أنا الميت الذي غيب القبرُ

ورثاء كعب بن سعد الغنوي بقوله:

أخ كان يكفيني وكان يعينني — على نائبات الدهر حين تنوب

وقول الحادرة:

أفبعد من ولدت نسيبة أشتكي — ذو المنية لو أرى أتوجعُ

ولقد علمت ولا محالة أنني — للحادثات فهل تريني أجزعُ

وقول الهذلي:

فوالله لا أنساك ما عشت ليلة — صفيَّ من الإخوان والولد الحتم

وقول الآخر:

أجاري لو نفس فدت نفس ميت — فديتك مسرورًا بنفسي وماليا

وقد كنت أرجو أن أمَلَّاك حِقْبَة — فحال قضاءُ الله دون قضائيا

ألا ليمت من شاء بعدك إنما | عليك من الأقدار كان حذاريا

وقول البحتري:

فوا أسفا ألَّا أكون شهدته | فخاست شمالي عنده ويميني

وإلا لقيت الموت أحمر دونه | كما كان يلقى الدهر أغبر دوني

وإن بقائي بعده لخيانة | وما كنت يومًا قبله بخئون

وقول الحطيئة:

ولو عشت لم أملل حياتي فإن تمت | فما في حياتي بعد موتك طائلُ

(٣٤) الترائك: الخوذ، والعوالي: الرماح، واللام: مخفف اللام الدروع، والأجواب: التروس.

(٣٥) أي: من جبال فليون.

(٣٦) يظهر أنهم كانوا أحيانًا يتخذون غمدًا لسنان الرمح، كما يتخذ الغمد لنصل السيف — ترى من هذه الأبيات أن رمح أخيل لم يكن صنع هيفست بخلاف سائر قطع سلاحه، وقد مرَّ أن فطرقل ذهب بكل شكة أخيل الأولى ما عدا هذا الرمح؛ لأنه لم يكن يقوى على حمله فبقي عند أخيل، ولم يكن بهيفست حاجة إلى اصطناع رمح آخر وخصوصًا أن هيفست كان حدادًا، ولم يكن نجارًا ليصنع القناة.

لا يفوتن القارئ النظر إلى هيبة مشهد أخيل وهو يشك بسلاحه.

(٣٧) أردنا بالقلاد حلقة المضمد وهو النير.

(٣٨) يمثلون الأقدار إلاهات إناثًا ثلاثًا بأيديهن المغزل يغزلن عيها الأعمار، ثم يقطعن حبال الحياة عند حلول الأجل، ولهنَّ شأن عظيم في أعمال الخلق ورقابة العالم والثواب والعقاب، يذكرهن هوميروس مرة واحدة بصيغة الجمع (ن٢٤) وفي ما سوى ذلك يعبر عن القدر بإلاهة واحدة.

(٣٩) فتى ليطونة، أي: ابنها هو أفلون.

(٤٠) رأينا فيما تقدم جوادي أخيل يذرفان الدمع حزنًا على فطرقل، وها هنا أحدهما يتكلم بل ويتنبأ — ولا غرو فإن الشاعر أعد السامع لرواية الغرائب عن هذين الجوادين منذ ذكرهما لأول مرة؛ إذ قال: إنهما من جياد الخلد، فكان لا بد أن يميزهما عن سائر الخيل تمييزه للآلهة عن البشر، ثم هو ينسب إلى هيرا إيلاءهما قوة الكلام ليقلل من غرابة الرواية.



الأقدار أو إلاهات القدر.

إن أمثال هذا الكلام المروي عن الحيوانات كثيرة عند الأقدمين، فقد روي بلينوس كلامًا لثورين، ولا نساوي بتلك الحيوانات حمارة بلعام وظبية القاع، فكلامهما لا يزال مرويًّا باعتقاد.

النشيد العشرون

تحفز الآلهة للقتال وبطش أخيل

مُجْمَلُهُ

عقد زفس مجلسه وأذن للآلهة بمعاضدة أي شاؤا من الفريقين، فانحازت هيرا وأثينا وفوسيذ وهيفست إلى الإغريق، وآذيس وأفلون وأرطميس ولاطونة وزنثس والزهرة على الطرواد، فاتخذ أفلون هيئة ليقاوون وحث آنياس على البروز لأخيل، فرامت هيرا أن تنفذ فوسيذ وأثينا لشد أزر أخيل ولكن أفلون رأى أن الأجدر بهم أن تجتنب الآلهة قتال البشر وترقبهم عن بعد، ولما رأى أخيل آنياس مقبلًا عليه أنذره بالقتل إن لم يرجع فأبى إلا مبارزة أخيل، وكاد يهلك لو لم يبادر فوسيذ إلى إنقاذه فغشي على بصر أخيل، فاحتدم أخيل غيظًا وأقدم يستحث صحبه على الفتك بالأعداء، وهكطور من الجهة الأخرى يستنهض همم صحبه وهم بالإقبال على أخيل لو لم يصده أفلون، فرجع وانقض أخيل على الطرواد يذبحهم ذبحًا حتى فتك بأحد أبناء فريام الملك، فلم يتمالك هكطور عن الكر للطلب بثأر أخيه، وكاد البطلان يصطدمان لو لم ينقذ أفلون هكطور ويواريه في سحابة، ولما لم ينل أخيل منالًا من هكطور جعل يبطش يمنة ويسرةً بجنود الطرواد حتى جرت مركبته فوق القتلى.

وبراحتيـــــه وقـــــد تخضـــــبتا   تقـع العجـاج علـى الـدما جمـدا

مجرى هذه الواقعة في اليوم الثلاثين أيضًا.

النشيد العشرون [1]

لك يا ابن فيلا الباسل احتشدا ... حوليك قومك ينظم العددا

أنتم إزاء الفلك قابلكم ... فوق الهضاب يعج جيش عدى

وثميس زفس دعا فأنفذها ... تدعو ذويه لمجلس عقدا[2]

طارت من الأولمب جائبة ... كل الورى تستقدم العمدا[3]

•••

لبوا وغير الأوقيانس لا ... نهرٌ تخلف بل جروا عجلا[4]

لم يبق من حورية سكنت ... نبعًا جرى أو جدولا جدلا

أو غابة أو روضةً نضرت ... إلّا سعت فورًا لتمتثلا

فإذا بهم والصَّرح غصَّ بهم ... من حول زفس بمحفلٍ حشدا

•••

جلسوا على سدد تفيض سنا ... لأبيه هيفست النبيل بنى

ومزعزع الأرضين من لجج الـ ... أعماق هبَّ ملبيًّا علنا[5]

ثم انبرى إذ قرَّ وسطهم ... مستفسرًا عمَّا دعاه هنا:

«يا ذا الذي يرمي الصَّواعق ما ... أفضى لحشد بني العلى وبدا

•••

أبـــذينك القـــومين تفتكـــر والحـــرب بيـــنهم ستشـــعر»

فأجــاب ركــام الغيــوم: «نعــم أدركــت مــا علقــت بــه الفكــر

مــا زلــت دومًــا عانيًــا بهــم حتــى ولــو هلكــوا ولــو دمــروا

فأنــا أســرح نــاظري جــذلًا فــوق الألمــب إذا اللظــى اتقــدا

•••

وجمـيعكم بـين السـرى انقسـموا وبســـلك أي شـــئتم انتظمـــوا

مــا خلــت طــروادًا تطيــق لقــا آخيـــل لـــو فـــذًا بـــدا لهـــم

مــرآه راعهــم فكيــف وقــد أضــحى علــى فطرقــل يحتــدم

لا بـــدع إن دك الحصـــون وإن قصـد القضـاء خـلاف مـا قصـدا»٦

•••

فـــبهم أوار الفتنـــة التهبـــا وتطـــايروا كـــل كمـــا رغبـــا

للفلــك هيــرا أســرعت وكــذا فـــالاس ثمـــة فوســـيذ ذهبـــا

وكـــذلك القـــوام هـــرمس والـــ ـــجبار هيفســـت القـــوي عقبـــا

يجــري يخمــع لا تطيــق لــه ســاقاه حمــلًا إن جــرى وعــدا

•••

وأريـــس ربُّ القـــونس القلـــق أمَّ الطـــراود بـــادي الحنـــق

مـــع أرطمـــيسٍ فـــي كنانتهـــا مـع عفرذيـت المبسـم الطلـق٧

وكــذاك لاطونــا وزنــث جــرى مـــن ضـــفتيه جـــري منـــدفق

وكــذاك فيبــوسٌ مــن انســدلت تزهــو غــدائره لكــل مــدى٨

•••

وقبيــل مــا آل العلــى انحــدروا كــرت ســرى الإغريــق تفتخــر

آخيــل عــاد عقيــب عزلتــه ولهــول رؤيتــه العــدى صــغروا

ألفــوه مشــتدًا بشــكته كــأريس هــول الإنــس يســتعر

وبنــو العلــى بالنــاس مــا اشــتبكوا حتــى غمــام الفتنــة التبــدا

•••

فــالاس بــين الثغــر والحفــر صــاحت تشــدد جملــة الزمــر

وأريــس هــبَّ هبــوب عاصــفة يغــري طــراوده علــى الأثــر

بهضــاب ســيموس يهــدُّ وفــي قبــل المعاقــل واري الشــرر

فكــذلك الأربــاب فتنــتهم صــدعت وزفــس مــن العلــى رعــدا

•••

فتنــوا ســرى الجيشــين فاصــطدما وفســيذ هــزَّ الأرض محتــدما

فــارتج إيــذا مــن دعائمــه حتــى أمــاد بميــده القممــا

وتزعزعــت طــروادة وغــدا بالفلــك وجــه الــيم ملتطمــا

حتــى بجــوف الأرض آذس عــن عــرش الجحــيم اهتــزَّ مرتعــدا

•••

بالويــل صــاح وهالــه الخبــر يخشــى فجــاج الأرض تنفجــر

ومنــازل الظلمــات ظــاهرة تبــدو يراهــا الجــن والبشــر

تلــك الوهـــاد الـــلاء مخبرهـــا حتـــى بنـــو العليـــا لـــه ذعـــروا
ولـــــذاك زلـــزال العـــــوالم إن بسرى العلى عـادي الشـقاق عـدا

•••

لفسـيذ ملـك الهـول مـذ ظهـرا فيبـــوس بـــين ســـهامه صـــدرا
ولهـــــرمسٍ لاطونـــــةٌ بـــــرزت وإلـــــى أثينـــــا آرس انحـــــدرا
ولـزوجِ زفـس بـدت شـقيقة مـن فـــي القاصـــيات ســـهامه نشـــرا
هـــي أرطمـــيس تميـــد ســـاطعةً قـــوس النضـــار بكفهـــا ميـــدا٩

•••

وعلـى هفسـت انقـض مصـطفقا ذيالـــك النهـــر الـــذي انـــدفقا
في الخلد زنث جرى اسمه وكذا بالإســـكندر فـــي الـــورى انطلقـــا
هـــذي هـــي الأربـــاب فتنـــتهم وأخيـــل ظـــلَّ يـــؤج محترقـــا
للقـــاء هكطـــور وخـــرق ســـرى تلـــك الكتائـــب صـــبره نفـــدا

•••

يـــذكر ليـــروي فـــي تحدُّمـــه رب الـــوغى السَّـــفاك مـــن دمـــه
لكـــــن فيبوسًـــــا أثـــــار لـــــه أنيـــاس يعصـــم بـــأس معصـــمه
فـــي شـــكل ليقـــاوون خاطبـــه: «أنيـــاس أيـــن صـــلى تعظمـــه
آليـــــت للطـــــرواد مرتشـــــفًا لتلاقـــين أخيـــل منفـــردًا»١٠

•••

قـــال: «ابـــن فريـــام عـــلام علـــى رغمـــي إليـــه تســـوقني عجـــلا

ليســـت بـــأول مـــرة ثبتـــت قـــدمي لديـــه فـــأمني فشـــلا

فـــي إيـــذة مـــن وجـــه صـــعدته وليـــت قـــبلًا هالعًـــا وجـــلا

لمـــا اســـتباح صـــوارنا ورمـــى لرئيســـة وفـــداس مضـــطهدا١١

•••

لكـــن زفـــس مشـــددا زكـــى وقـــواي أنقـــذني مـــن العطـــب

أولًا فكـــان أبـــادني عجـــلا وأمامـــه فـــالاس فـــي الحجـــب

توليـــه نصـــرتها ليقتضـــب الـــ ـــليليغ والطـــرواد بالقضـــب

مـــا كـــان إنســـيٌّ لـــه كفـــؤًا وبنـــو العلـــى كـــانوا لـــه عضـــدا

•••

إن يـــرم صـــانوه وحيـــث رمـــى طـــارت مناصـــله تســـيل دمـــا

فلـــو أنهـــم مـــا بيننـــا عـــدلوا مـــا ســـامني ذلًّا كمـــا زعمـــا

حتـــى ولـــو صـــلبت مفاصـــله مثـــل النحـــاس وصـــال واقتحمـــا»

فأجـاب فيبـوس: «ادع أنـت إذن رهطًـــا بأكنـــاف العلـــى خلـــدا

•••

فلعفرذيـــت ســـاقك النســـب ولبنـــت شـــيخ البحـــر ينتســـب

فـــإذن لـــك الرجحـــان عـــن ثقـــة حســـبًا وزفـــس لعفرذيـــت أبُ

فهلـــم بـــادره بنصـــلك لا يأخـــذك مـــن نعراتـــه الرعـــب»

مـــن ثـــم أفـــرغ فيـــه قدرتـــه فـــانقضَّ لا يرتـــدُّ مبتعـــدا

•••

فرأتـــه هيــرا بـــارزًا يثـــب — مـــن جيشـــه لأخيـــل يقتـــرب

فـــدعت إليهـــا مـــن بطانتهـــا — مـــن نصـــرة الأرغوســـة اطلبـــوا

قالـــت: «أثينـــا فُوســـذُ انْتَبِهـــا — لِمَـــآلِ حَـــرْبٍ دُونَهـــا الحَـــرَبُ

أنيـــاس رام أخيـــل مـــدّرعًا — بأسًـــا علـــى فيبـــوس معتمـــدا

•••

فيبـــوس فلنـــدفع بـــلا مهـــل — أو بعضًـــا فـــورًا أخيـــل يلـــي

ويخولنـــــه فـــــوق شـــــدته — بأسًـــا ويعصـــمه مـــن الوجـــل

فيـــرى عيانًـــا صـــيد أســـرتنا — أولـــوه ودًّا جـــل عـــن مثـــل

وجميـــع أحـــلاف الطـــراود مـــا — هـــالوا وعنًّـــا يقصـــرون يـــدا

•••

أفمـــا انحـــدرنا للكفـــاح هنـــا — لنقـــي أخيـــل اليـــوم كـــل عنـــا

فـــإذا كتمنـــا الأمـــر ثـــم بـــدا — فـــي وجهـــه ربٌّ عتـــا جبنـــا١٢

فمنـــــاظر الأربـــــاب مرعبـــــةٌ — ولأي إنســـــيٍّ بـــــدت وهنـــــا

مـــن ثـــم فليـــرد الحمـــام كمـــا — غـــزل القضـــاء ســـنيه مـــذ وجـــدا»

•••

فأجـاب فوسـيذ: «دعـي الشـطط — مـــا كـــان شـــأنك أعهـــد الغلطـــا

مـــا رمـــت إذ كنَّـــا أشـــدَّ قـــوًى — حـــرب العبـــاد نلـــي فننخرطـــا

للإنـــس خلـــي الحـــرب نرقبهـــا — مـــن فـــوق ذاك التـــل طـــي غطـــا

وإذا أريـــس وفيـــبس اعتـــديا — فـــورًا عمـــدنا مثلمـــا عمـــدا

•••

وأخيـــــل إن ردا وإن ردعـــــا فهنـــاك بـــأس أكفنـــا صـــدعا

وهنـــاك ظنــي للعلـــى هلعًـــا نلقاهمـــا لســـرى العلـــى رجعـــا»

مـــن ثـــم فوســــيذٌ بأســــرته هرعـوا إلـى السـور الـذي ارتفعـا

ســور لأجــل هرقــل قبــل بنــت فـــالاس والطـــرواد مـــذ جهـــدا

•••

مِـن وَجْـهِ وَحـشِ البَحـرِ فيـهِ لَجا لمَـــا عَلَيـــهِ هاجمًـــا خَرَجـــا

فهنـــاك فوســــيذٌ بمـــن معـــه فــي طــي حجــب غمامــةٍ ولجــا

وإلــى ريــاض هضــاب ســيميس فيبـــــوس مـــــال وآرس عرجـــــا

بجميـــع أنصـــار الطـــراود مـــن حوليهمـــا فـــوق الربـــى قعـــدا

•••

وكـــذا مـــن الصـــويين قائمـــة لبثـــت ســـرى الأربـــاب ناقمـــةً

ظلـــت عنـــاك بظـــل عزلتهـــا عـــن ســـاحة الهيجـــاء واجمـــة

لكـــن زفـــس بعـــرش عزتـــه قـــاضٍ بـــأن تـــنقضَّ هاجمـــةً

وصـــفائع الجيشـــين ســـاطعة أجَّـــت ونقـــع خطاهمـــا صـــعدا

•••

والأرض تحــت الرجــل والعجــل مـــادت لوطـــأة هاتـــه الملـــل

مـــن كـــل جـــيش زفَّ مقتحمـــا بطـــلٌ تحـــدَّم أيمـــا بطـــل

أنيـــاس رب البـــأس قابلـــه آخيـــل رب البـــيض والأســـل

هـــز القنـــاة مبـــرزًا وعـــدا　　أنيـــاس فـــي الميـــدان منجـــردا

•••

فـــي رأســـه أعـــراف خوذتـــه　　قـــد هـــاج يرفـــع صـــلد جنتـــه
فـــانقضَّ آخيـــل كليـــث شـــرى　　نهـــض الجمـــوع لكســـر شـــوكته
فزعـــت لهـــم كـــل الـــبلاد فلـــم　　يعبـــأ وظـــلَّ علـــى ســـكينته
حتـــى رمـــاه بهـــم فتيـــتهم　　بقنًـــا فأحـــدق مرغيًـــا زبـــدا

•••

حنقًـــا تقـــدَّم فـــاغرا فمـــه　　يصـــلي بمهجتـــه تضـــرُّمه
أســـنانه صـــرَّت ومقلتـــه　　بشـــرارها تـــذكي تحدُّمـــه
ولذيلـــه فـــي صـــفحتيه غـــدا　　قـــرع يـــروع مـــن توســـمه
فيهـــب منقضًـــا ليهلـــك أو　　ليبيـــد مـــن أبطـــالهم عـــددا

•••

فلـــذاك آخيـــل تحرقـــه　　للقـــاء أنيـــاسٍ يشـــوقه
حتـــى إذا ضـــاق المجـــال أتـــا　　هـ مخاطبًـــا بـــالعنف يرمقـــه:
«أنيـــاس جيشـــك لـــم أراك كـــذا　　بـــرزت عنـــه إلـــيَّ تســـبقه
أزعمـــت فريامًـــا يشـــاطراك الـــ　　أحكـــام فـــي طـــروادةٍ أبـــدا

•••

كـــلَّا فلـــن يجزيـــك ذاك فمـــا　　هـــو قاصـــرٌ حكمًـــا بمـــا حكمـــا
كـــلَّا وإن مـــا بـــي ظفـــرت هنـــا　　فلديـــه أبنـــاء ســـموا عظمـــا

ولعلــه إن بـــي فســكت إذن   مــن أرضــه لــك يجــزل الكرمــا
بقعًــا زهــت كرمًــا ومزرعهــا   خصــب فتحشــد كــل مــا حصــدا

•••

هيهــات تــدرك هــا هنــا الأربــا   أفمـــا لـــواك مثقفـــي هربـــا
أفمــا ادّكــرت اليــوم يــوم علــى   إيـــذا فـــررت لـــديَّ مضـــطربا
إذ عــن ســوامك قــد فصــلتك لــم   تنفـــت فـــردت وراءك الهضـــبا
فلجـــأت فـــي لرنيســـة وأنـــا   هـــدَّمت مـــن لرنيســـة العمـــدا

•••

زفـــسٌ وآثينـــا بعونهمـــا   إذ واصـــلاني عـــدت مغتنمـــا
وســبيت منهــا الغيــد مســتلبًا   حريـــة متعنهـــا قـــدما
لكـــن زفـــس وآلـــه حفظـــوا   أنيـــاس حتـــى ناجيًـــا ســـلما
وإخــالهم ذا الحــين مــا عبئــوا   فيـــه فصـــانوه كمـــا اعتقـــدا

•••

فــارجع نصــحتك بــين قومــك لا   تتصـــدَّ لـــي فتســـام شـــرَّ بـــلا
فـــالغر لـــيس بـــذاعن أبـــدا   إلا إذا بهوانـــــه اتصـــــلا»
قال: «ابن فيلا لست أعجز عن   فـــظ الكـــلام فـــذلك ابتـــذلا
أزعمـــت إرعـــابي بقولـــك ذا   أو خلــت تلقــى هــا هنــا ولــدا

•••

إن غـــاب عـــن أبصـــارنا الأثـــر   مـــا غـــاب عنَّـــا العلـــم والخبـــر

فنقــد روى الــراوون قبــل لنــا   آثــار أســلافٍ لنــا اشــتهروا
لأيــاك إمَّــا كنــت متصــلًا   وكــذا لثيتــيس كمــا ذكــروا
للزهـــرة الغـــرَّاء منتســـبي   والشــهم انخــيسٌ أبــي عهــدا

•••

لا بــد إحــدى الأســرتين تــرى   ذا اليــوم نادبــةً فتــى قهــرا
مــا كــان لغــو القــول فاصــلنا   عــن موقـف الطعـن الـذي اسـتعرا
ولــئن تــرم تحقيــق نســبتنا   وفقًــا لمــا قــد ذاع وانتشــرا
فــاعلم فــدردنوس وهــو فتــى   زفــسٍ بنــي دردانيــا بلــدا

•••

إليــون فــي ذيَّالــك الــزمن   فـي عـرض هـذا السـهل لـم تكـن
والنــاس قــد كانــت منــازلهم   فـي سـفح إيـذا الشـامخ القـنن
مـن ثـم دردانـوس منـه نشـا الـ   ـــمولى إرخثــونٌ فتــى الفطــن
أثــرى الــورى طــرًّا مســارحه   مرحـــت بهـــنَّ خيولـــه رغـــدا

•••

ألــفٌ وألفــا حجــرة ســرحت   مــن خلفهــا أفلاؤهــا مرحــت
بريــاس هــام ببعضــها فحكــى   مهـرًا نواصـيه لقـد سـبحت١٣
فعلقـن بـاثني عشـر مـا سـحقت   قمــم الســنابل حيثمــا رمحــت
وإذا هبــين علــى البحــار فمــن   فــوق الميــاه وثــبن مطــردا

•••

هــــذا إرخشـــونٌ ومنـــه نمـــا أطـــروس مـــن طـــروادةً حكمـــا
إيلـــوس عســـاراقسٌ وكـــذا غانيمـــــذٌ أبنـــــاؤه العظمـــــا
غانيمـــــذ لجمـــــال طلعتـــــه رفعتـــــه أبنــــاء العلـــــى فســـما
ليكـــون ســـاقي زفـــس بيـــنهم فلـــذاك فـــي أولمـــبهم ســـعدا١٤

•••

إيلـــوس كـــان للومـــذون أبـــا وللومـــذون طثـــونٌ انتســـبا
وكـــذاك فريـــام قليطـــيسٌ هيقيطـــوون ولمـــبس النجبـــا
وبنجـــل عســـاراقس عرفـــوا قـــافيس جـــدي مـــن عـــلا رتبـــا
فـــأبي ابنـــه أنخـــيس كـــان كمـــا فريـــام هكطـــوْر فتـــاه غـــدا

•••

هـــذا فخـــاري نســـبتي ودمـــي ولـــزفس ذلـــك قـــيم الأمـــم
إن شـــاء أعلـــى همَّـــة وإذا مـــا شـــاء أوهـــن عـــالي الهمـــم
فهنـــا مجـــال الطعـــن لـــيس لنـــا كالولـــد فيـــه ســـاقط الكلـــم
فلســـان كـــل فتًـــى بفيـــه يـــرى ذلقًـــا ومهمـــا يبتغـــي ســـردا

•••

ميـــدان هـــذا اللغـــو متســـع وســـبابهم مـــن أســـمعوا ســـمعوا
إن نبـــغ يشـــحن لغونـــا فلكًـــا مئـــة أرادمـــه ولا يســـع١٥
فعـــلام كـــامرأتين أشـــربتا ســـفهًا بموقـــع حطـــة نقـــع

شتمًا تقاذفتا بقارعة   كذبًا على صدق بغير هدى

•••

كلَّا فلست برائعي جزعا   أقبل نجل صم النصال معا»

من ثم أرسل رمحه فمضى   وعلى المجن سنانه وقعا

فعليه صلَّ وفوق هامته   آخيل صلد مجنه رفعا

قد خاف أن الرمح يخرقه   لكنما ذا الخوف كان سدى

•••

هيهات عجز الإنس يعمل في   ما أولت الأرباب من تحف

وقف السنان على النضار فلم   ينفذ ولولا ذاك لم يقف

خمسٌ طباق الترس طرَّقها   هيفست تدفع آفة التلف

نضد اثنتين من الفلز على   ظهر المجن ونعم ما نضدا

•••

وعليهما لوحٌ من الذهب   ومن النحاس صفيحتا عجب

خرق النحاس النصل يرجع عن   لوح النضار رجوع مضطرب

فرمى أخيل سنانه فمضى   في جوب أنياسٍ ولم يخب

في صفحةٍ حيث النحاس عليـ   ـه السبت رقَّ وطائرًا صردا[١٦]

•••

متلملمًا أنياس مستترا   مدَّ المجن أمامه حذرا

فقناة فليون به نفذت   والجوب ماد يصلُّ منكسرا[١٧]

والنصــــل أنيـــاسٌ رآه إلــــى وجـه الثـرى عـن وجهـه صـدرا
فلـق الحضـيض يغـلٌ مرتعشًـا فيــه وكــاد يفلــق الكتــدا١٨

•••

فنجـا ولكــن صــدره انتفضـا وأخيــل صــاح ودونــه اعترضــا
ســلَّ الحســام وفــي حزازتــه أنيــاس هائــل صــخرةٍ قبضــا
بطلـين تجهـض فـي زمانـك ذا فبهــا بغيــر تكلــف نهضــا
ومزعــزع الأرضــين بأســهما مـن حيـث فـرَّ مراقبًـا شـهدا١٩

•••

لــــولاه أنيــــاسٌ بحدتــــه لرمــى أخيــل بصــلد صــخرته
ولكــان صــان أخيــل مجوبــه أو خـــوذة لمعـــت بجبهتــــه
ولكـان سـيف أخيـل فـي يـده أنيــاس أدنــى مــن منيتَّـــه
لكــــن فوســــيذا بأســــرته فـي الحـال صـاح ينيلـه المـددا:

•••

«أنيـــاس آخيـــل ســـيقتله أســـفًا ونحـــو أذيـــس يرســـله
فيبـــوس أغـــواه فـــدان لـــه جهــــلًا وذا فيبــــوس يغفلــــه
فعـــلام وهـــو البـــر تدهمـــه نـــوب الأنـــام ونحـــن نهملـــه
مـا قـط عـن بـث الفـروض لهـا بــين العبــاد لكــل مــن عبــدا

•••

لا شـكَّ زفـس يغـاظ إن سـفكا دمعـــه أخيـــل فـــاتقوا الملكـــا

يـأبى القضـاء لـه الهـلاك هنـا وسـليل دردانـوس مـا هلكـا
أو كيـف دردانـوس أسـرته طـرًّا تبيـد وتـألف الـدركا
وهـو الـذي مـن نسـل زفـس لـه فـي الإنـس عهـد الـود قـد عقـدا

•••

فعلـى بنـي فريـام قـد غضـبا زفـسٌ وأنيـاس اجتبـى وحبـا
فلـذاك سـوف يسـود محتكمًـا بـين الطـراود كيفمـا رغبـا
وبنـوه ثـم بنـوهم وكـذا مـن بعـدهم مـن ولـدهم نجبا» ٢٠
قالـت لـه هيـرا: «برأيـك رم أو نجـوةً أو كشـفة وردى ٢١

•••

لكنمـا فـالاس أقسـمت ولكـم أنـا أقسـمت مـن جهتـي
أن لا نعـين بنـي الطّـراود لـو إليـون بـالنيران ألهبـت»
فـانقض فوسـيذٌ لمشـتجر الـ أرمـاح حيـث الصـم صلصـلت
حيـث ابـن أنخـيس بصـخرته وحسـامه آخيـل قـد جـردا

•••

فلـدى أخيـل غمامـةً نشـرا غشـيت نـواظره فمـا نظـرا
ومـن المجـن اجتـر زانتـه وأمامـه ألقـى بهـا وجـرى
وبوثبـةٍ فـوق الرجـال ومـن فـوق العجـال بنـده عبـرا
فـإذا بـه طـرف الكتائـب حيـ ـث معسـكر القفقونـة انتضـدا

•••

قال: «ابن أنخيس وأي سري ... أعماك فاستهدفت للخطر
آخيل آل الخلد تؤثره ... ولقد عداك فكن على حذر
أولا فدار أذيس تبلغها ... بالقسر عمَّا خطّ في القدر
وسواه في الإغريق لا بطلٌ ... تلقى إذا لاقيته الشددا

•••

وإذا القضاء أباده فجل ... صدر الكتائب باطشًا وصل»
من ثم غادره بموقفه ... وخلاف هذا القول لم يقل
وأنار حول أخيل فانقشعت ... تلك الغياهب عنه في العجل
فرأى وصعد حر زفرته ... لهفًا يناجي النفس والخلدا:

•••

«رباه أيَّ عجيبة رمقا ... طرفي فذا رمحي الذي انطلقا
لا أبصر القرم الذي طعنت ... كفي أروم هلاكه حمقًا
قد خلت أنياس انتمى خطأ ... لبني العلى فإذا به صدقا
إن ينج حينًا حسبه فرجٌ ... ابدًا فهذا الورد لن يردا٢٢

•••

ولأدفعن كتائبي وأنا ... لي عنه في بهم العداة غنى»
ومضى يجوب صفوف فيلقه ... علنًا يمنيهم بليل منى:
«هلَّا رأيت بني أخاي هنا ... كل امرئ منهم فتًى طعنا
ما كان لي ما صلت منفردًا ... أردي وأحطم جحفلًا أجدا٢٣

•••

لا آرسٌ ذا الجمـــع إن هجمـــوا　　أو نفــــس فــــالاسٍ تصـــــدُّهم

ســأكرُّ مــا ثبتــت قــوى قــدمي　　ويـــدي أصـــول بهـــم ولا أجـــم

وأخـــوض كـــل ســـرى كتـــائبهم　　فـــي همـــة مـــن دونهـــا الهمـــم

خـا خلـت مـن يلقـى ظبـي أسـلي　　هـــذا اللقـــاء هنيهـــةً حمـــدا

•••

فهنـــا أخيـــل يحـــثُّ عصـــبته　　وهنـــــاك هكطـــــورٌ بطانتـــــه:

«نـــبلاء طـــرواد أخيـــل فـــلا　　تخشـــــوا تبجحـــــه وصـــــولته

وأنـــا أطيـــق كـــذاك عـــن حمـــقٍ　　رهـــطُ الخلـــود أهـــين حرمتـــه

لكــــن إذا بـــدت القنـــا علنًـــا　　بـــات الهمـــام أمـــامهم خـــردا٢٤

•••

إن قــال بعـض القـول ثـم وفـى　　فبســـــائر الأقـــــوال قـــــد هرفـــــا

فلأبـــــرزنَّ لــــــه لـــــو التهبـــــت　　كالنـــــار كفَّـــــاه كمـــــا وصـــــفا

كالنـــــار لـــــو كفَّـــــا ألهبتـــــا　　أو كالحديـد الصـلب لـو وقفـا»

فارتـــــدت الطـــــرواد مســـــبلةً　　ســـــمر القنـــــا مشـــــتدة جلـــــدا

•••

وتكثفـــــوا وعـــــلا هديـــــدهم　　لكـــــن جـــــرى فيبـــــوس بيـــــنهم

قــال: «ابــن فريــام أخيــل علــى　　جـــــدة هنـــــا إيَّـــــاك تقـــــتحم

قابلــه فــي قلــب السُّــرى أبــدًا　　إذ غــــص بالـــــدَّرَّاع حشـــــدهم

أو لا فـــإن فاتتـــك صـــعدته ... ماعنـك حـدُّ حسـامه شـردا»٢٥

•••

فارتـــاع هكطـــورٌ لمـــا ســـمعا ... وانصـــاع بـــين جنـــوده هلعـــا

وأخيـــل صـــاح تـــروع هدتـــه ... وبعزمـــه بـــين العـــدى انـــدفعا

بســـليل أطرنـــت إفيتـــين ... مـن خيـر صـيد جنـودهم شـرعا

فـــي ســـفح إيمـــولٍ بهيـــذة ذا ... ت الخصـب مـن حوريـةٍ ولـدا

•••

لاقـــاه آخيـــلٌ بكرَّتـــه ... بـــالرمح يفلـــق صـــلب هامتـــه

فهـوى يصـلُّ سـلاحه وعـدا ... آخيـــل مفتخـــرًا بنصـــرته:

«يـا أشـجع الأبطـال أنـت هنـا ... ميـتٌ نـأى عـن أرض نشـأته

عن بحر غيفس حيث هيلس والـ ... ـهدَّار هرمس قد سقى الجددا»٢٦

•••

غشـــى ظـــلام المـــوت مقلتـــه ... والمركبـــات تـــرضُّ جثتـــه

وأخيـــل ذيمـــول بـــن انطنـــر ... ذا البـــاس أورده منيتـــه

فـي الصـدغ وارى رمحـه فمضـى ... للعظـــم مخترقًـــا تريكتـــه

قـــضَّ الـــدماغ فقضـــه بطـــلا ... واري العزيمـــة باســـلًا نجـــدا

•••

وهفودمـــاس رمـــاه مـــذ وثبـــا ... عـــن خيلـــه متملصًـــا هربـــا

فـــي ظهـــره فأكـــبَّ يـــزار مثـــ ... ـــل الثـــور قيـــد لفوســـذٍ قربـــا

ومزعــزع الأرضــين يجــذل فــي		هيليقـــةٍ لعجيجـــه طربـــا٢٧
وكــذاك عــج هفودمــاس إلــى		أن فارقـــت أنفاســـه الجســـدا

•••

ومــن ثــم آخيــل انثنــى وسـعى		وفليـــذر ابـــن ملـــيكهم صـــرعا
مـــن ولـــد فريـــامٍ وأحـــدثهم		ســـنًّا وأعــــداهم إذا طلعــــا
وأحــــبهم طــــرًّا إليـــه لـــذا		منــع الــوغى عنــه فمــا امتنعــا
فجـرى بصــدر الجـيش مفتخـرًا		فــي عـــدوه حمقًــا ومــا رشــدا

•••

آخيــــل وافـــــاه بعدوتــــه		فــي الظهــر ينفــذ حــدَّ صــعدته
حيـــث النجـــاد هنـــاك يكنفـــه		حلـــق النضـــار ووصـــل لأمتـــه
نفــــذ الســــنان إزاء ســــرَّته		فأكـــبَّ يشــــهق فــــوق ركبتـــه
أمعـــاؤه انـــدلعت فأمســـكها		بأكفـــــه لـــــلأرض مســـــتندا

•••

فـــرآه هكطـــور فهـــاج أســـى		فـــورًا وعينيـــه الظـــلام كســـا
فـــانقضَّ مثـــل النـــار يؤلمـــه		أن ظـــل مـــن آخيـــل محترســـا
بشــحيذ منصــله انبــرى ومضــى		يجـــري أخيـــل وباللقـــا أنســـا
قـال: «اطمئنـي نفـس هـاك بـدا		مــن قــد أذاب حشاشــتي كمــدا

•••

ذا قاتـــل الخـــل الحبيـــب دنـــا		فعســى هنــا فصــل الخطــاب لنــا

مـا بعـد هـذا القـرب مـن فـرج   بلياذنـــا بـــالجيش يفصـــلنا»

ومـن ثـم أحـدق ثـم صـاح بـه: «هـيَّ ادن فـالموت الـزؤام هنـا»

فأجابـــه مـــن غيـــر مـــا جـــزعٍ:   «أفخلـت تلقـى هـا هنـا ولـدا؟

•••

لـــن تجزعنـــي هاتـــه الكلـــم   لـن يعجزنـي شـتم مـن شـتموا

لـن أبخسـنك طـول باعـك لا   إذ فقتنـــي والـــبهم كلهـــم

لكنمـــا الأربـــاب عصـــمتنا   يؤتـــون مـــن شـــاءوا ولاءهـــم

ولعـــل ذا النصـــل الشـــحيذ إذا   وافـــاك فـــي أحشـــائك اطـــردا»

•••

ورمـى القنـاة وفـي الخفـا وقفـت   فـــالاس تـــنفخ حينمـــا حـــذفت

رجعـــت لـــدى قدميـــه ســـاقطةً   وعـن ابـن فيلافـي الهـوى انحرفـت

فعـــدا أخيـــلٌ ثـــائرًا حنقًـــا   فـي هـدةٍ بـين السـرى قصـفت

لكـــــن فيبوسًـــــا بقدرتـــــه   وولائـــــه هكطـــــورًا افتقـــــدا

•••

بغمامـــــةٍ دهمـــــاء حجبـــــه   وأخيـــــل منقضًّـــــا تعقبـــــه

فعـــدا ثلاثًـــا ضـــاربًا حنقًـــا   بطـــن الغمـــام يضـــيع مضـــربه

ثـــم انبـــرى كـــالرَّب رابعـــة   بهديـــــده يـــــوري تلهبـــــه:

«ذي نجـوةٌ أخـرى وذاك جـدا   فيبـــوس يـــا كلبًـــا وأيُّ جـــدا٢٨١

•••

مـا خضـت نقـع الحـرب مزدلفـا   إلَّا لجـــأت لعونـــه ســـلفا

فلـئن أتـل نصـر الأولـى نصـروا   مـا عـدت إلـى منـك منتصـفا

والآن لـي بســواك عنــك غنــى   فـي كـل مـا بلغـت يـدي وكفـى»

وبجيـــد ذريـــوفٍ مثقَّفـــه   وارى فـأهوى يكـدم الثـأدا٢٩

•••

وســـليل فيليتـــور الـــبطلا   ذيموخسًـا وافـى وقـد قفـلا

فـــي طعنـــةٍ نفـــذت بركبتـــه   فرمتـــه ثـــم بســـيفه حمـــلا

وعليـه أجهـز ثـم كـرَّ علـى   ولـــدي بيـــاسٍ عمـــدة النـــبلا

ألقـــرم دردانـــوس يصـــحبه   لوغـوس مـن لوقـوده فئـدا٣٠

•••

فكلاهمـــا كانـــا بمركبـــة   وكلاهمـــا خـــرَّا بصلصـــلة

هـــذا يـــراه بالحســـام وذا   بمثقـــف للمـــوت منصـــلت

وغـدا فـلاح فتـى ألسـطر أطـ   ـــروس لديـــه بقلـــب معمعـــة

فلركبتـــي آخيـــل مرتميًـــا   أحنـى ومنهـدَّ القـوى سـجدا

•••

قـال: «اعـف وارفـق بالصبا كرمـا   مـذ كنـت تربـك واحقـن دمـا»

وا جهلـــه قـــد فاتـــه حمقًـــا   أنَّ ابـن فـيلا قـط مـا رحمـا

لندائـــه مـــا رقَّ يســـمع بـــل   بحســـامه ذك النـــدا حســـما

في طعنة فهقت بسيل دمٍ   واستخرجت من جوفه الكبدا

•••

من ثم من موليس اقتربا   وبصعدة ذاك الفتى ضربا

خرقته من أذن إلى أذنٍ   فأكب فوق الأرض منقلبا

وتلاه إيخكلوس آغنرٍ   بمهندٍ في رأسه نشيا

والسيف حتى كعب مقبضه   بدم القتيل بكفه ومدا[٣١]

•••

وبزند ذوقليون البطل   وارى السنان بمجمع العضل

فأميل ساعده بثقلته   فثوى يراقب وافد الأجل

بحسامه آخيل هامته   أنأى بخوذته ولم يمل

متناثرًا طار الدماغ ومنـ   ـه الجسم ظلَّ هناك منجردا

•••

وتلاه رغموس بن فيرس من   كانت له إثراق خير وطن

فسنانه آخيل أنفذ في   رئتيه لمَّا بالسنان طعن

فارتاع آريثوس سائقه   فلوى العنان وللفرار ركن

في ظهره آخيل بادره   فأكبَّ والخيل انثنت زؤدا[٣٢]

•••

هذا أخيل وتلك سطوته   كالرب صال تروع صولته

حيث انبرى أجرى سيول دمٍ   واجتاحت الأعداء كرَّته

مثـــل اللهيـــب بقنـــةٍ كســـيت	أجمًـــا بهـــا تشـــتدُّ هبتـــه
حيـث الريـاح جـرت بـه الـتهم الـ	أشـــجار يحطـــم كيفمـــا وقـــدا

•••

وكأنمـــا فـــي بيـــدرٍ طرقـــا	ثـــوران فـــوق الســـنبل انطلقـــا
يبســـط الشـــعير لـــديهما فغـــدا	بخطاهمـــا ينـــدق منســـحقا
داســـا وعجًّـــا تحـــت نيرهمـــا	ومـــن الســـنابل حبُّهـــا انـــدفقا[33]
وكـــذا بمركبـــةٍ أخيـــل جـــرى	فمضـــت تـــدوس الـــبهم والـــزردا

•••

ومـــن المحـــالات النجيـــع غـــدا	ومـــن الحـــوافر طـــائرًا أمـــدا
متفجـــرًا ســـيلًا يخضـــب ذا	ك الجـذع تحـت الخيـل والعـددا[34]
وأخيـــل للشـــرف الرفيـــع وللـــ	ـــعز المنيـــع بـــه المـــرام حـــدا
وبراحتيـــه وقـــد تخضَّـــبتا	نقـع العجـاج علـى الـدما جمـدا[35]

هوامش

(١) إن من ضعف عجزة الشعراء أن يفرغوا جعبة تصوراتهم في بدء قصائدهم، فلا تأتي على ربع المنظومة إلا وترى مخيلة الناظم قد فرغت من كل معنى بليغ أو تصور مبتكر، وهذه الإلياذة تقرأها من أولها إلى آخرها فلا تفرغ من نشيد منها وتشرع في تلاوة الآخر حتى تخال الشاعر كالفارس المتضور للحرب بعد الراحة المستطيلة لم ينفد شيء

من قواه المدخرة، فإذا كرر معنى قائمًا يكرره بزيادة أو تعديل يشوق السامع، وإذا أعاد نوعًا من الإطراء، فإنما يبعده ليأتي بأحسن منه، وإذا أكثر من ذكر شيءٍ فلا يزعجك بالإطناب الممل فينوع الأساليب وينتقل تنقلا بنسيك ما كان من ذلك الإطناب والإسهاب بل يشوقك أن تتمنى لو زادك منه، فجميع شعره كسلم لا تبرح درجة منه حتى تطأ درجة أعلى.

رأيناه يصف بسالة أخيل وهو بمعزل عن مواقع الكفاح، ومشتجر السلاح بما يسوق إلى الظن أنه لم يبق ولم يذر، وأنه سيبدو بعض الضعف بوصفه حاملًا على الأعداء وسترى في ما يلي أن ما قيل قليل بالنسبة إلى ما سيقال، نسب في أوائل الإلياذة فشل الإغريق إلى اعتزاله حتى اضطروا إلى إيفاد الوفود إليه، فلم يفلحوا (ن ٩)، ثم فاز الطرواد ذلك الفوز المبين فكادوا يلتوون فشلًا لمجرد توهمهم أن أخيل يراهم، (ن ١٣) ثم ارتدوا مخذولين وكان يحطم بعضهم بعضًا لمجرد نظرهم إلى سلاحه ومركبته، (ن ١٦) وما هو أن أشرف عليهم أعزل وصاح بهم صوتًا حتى تخلعت قلوبهم وولوا مدبرين (ن ١٨).

تلك هيبة أخيل ولم يأت بعد أمرًا مذكورًا فما عسى أن يفعل وقد أقبل مدججًا بسلاحه؟ لم يبق وهو يخوض تلك الغمرات إلا أن ترتج السموات والأرضون، وتهيج البحار وتفيض الأنهار وتنقض الأرباب

لمواقع الضراب، ذلك ما سيبسطه الشاعر استجماعًا لأساطير ذلك الزمان.

(٢) ثميس إلاهة العدل، لم يكن ألبق منها لتأدية الرسالة.

(٣) العمد: الرؤساء، والمقصود الآلهة.

(٤) الأوقيانوس أصل الأصول وأبو جميع الأرباب، أطالوا البحث في سبب تخلفه بما لا محل لبسطه هنا، وكفى بكونه الأب الهرم المعتزل سببًا لاجتناب حفلات البنين.

(٥) يريد بمزعزع الأرضين: فوسيذ.

(٦) انتقد البعض على هوميروس قوله هذا؛ إذ لا يمكن تحويل القضاء باعتقادهم، وأطال آخرون في الدفاع عنه، ولا أرى وجهًا لذلك الانتقاد، فالرجل يتكلم بالشعر، ولا يتسع مجال للتأويل والتخريج اتساعه للشاعر، وفضلًا عن ذلك فقد جاء مثل هذا الكلام في الشعر والنثر حتى وفي الكتب المنزلة. قال ابن هانئ للخليفة المعز لدين الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فافعل فأنت الواحد القهار

فكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار

وقال أبو الطيب المتنبي في ممدوحه ابن زريق:

بشر تصور غاية في آية ... تنفي الظنون وتفسد التقييسا

لو كان صادف رأس عازر سيفه ... في يوم معركة لأعيا عيسى

ومثل ذلك قول المعري وقد تكلم بلسان منجمي زمانه، وكأنه عبر تعبيرًا هوميريًّا إذ قال:

إذا البـــرجيس والمـــريخ رامـــا   ســوى مـا رمـت خانهمـا الكيـانٌ

والبرجيس المشترى، أو زفس، والمريخ آريس إلاه الحرب كما لا يخفى.

(٧) عفرذيت هي الزهرة، يمثلونها عريانة على صورٍ شتى.

(٨) علل أفستاثيوس سبب انحياز كل من الآلهة إلى أحد الفريقين تعليلًا لطيفًا قال: جعل هوميروس في جانب الإغريق هيرا وأثينا وفوسيذ وهرمس وهيفست، أما هيرا فلأن من خصائصها حفظ العلائق الزوجية ومعاقبة الخائن، ومعلومٌ أن سبب الحرب خيانة زوجة وعشيقها، وأما أثينا فلأنها إلاهة الحكمة والحرب ومن جملة شئونها تعقب الغادر، وفوسيذ إلاه البحار وكان اليونان في عداد أتباعه لكون معظمهم سكنة جزر وسواحل بحار، وهرمس من مزاياه النظر في خدع الحرب ومعلوم أن الإغريق لم يظفروا بطروادة إلا بخدعة أوذيس وحصانه الخشبي، وهيفست عدو الفسقة والفجار ورب الصناعة فسبب ميله إلى الإغريق ظاهر.

وجعل في جانب الطرواد آريس والزهرة وأرطميس ولاطونة وزنتس وفيبوس، فآريس رب الحرب ومن خصاله السلب والنهب وقد بدأ بهما الطرواد، والزهرة ربة الجمال والفسق وأمرها مع هيلانة وفاريس مشهور، وأرطميس من جملة مميزاتها الرقص وكان الطرواد أمهر فيه من اليونان، وزنتس نهر طروادي فهو أولى بقومه، وفيبوس رب النبال وجل اعتماد الطرواد كان على رماتهم، وأما لاطونة فما من سبب ظاهر لانحيازها إلى الطرواد إلا أن تكون مالت إليهم مشوقة بميل أولادها.

(٩) إن لهوميروس تنبهًا غريبًا إلى كل منقول ومعقول حتى أثناء الخوض في أبعد الخرافات، فقد أنزل في قتال الآلهة كل شيء منزلته، قال أفستاثيوس: برز أفلُّون لفوسيذ؛ لأن أحدهما ممثل الرطوبة والآخر اليبوسة. وبرز آريس لأثينا؛ لأنه ممثل الغلظة، وهي ممثلة الحكمة. وبرزت هيرا لأرطميس إشارة إلى تضاد الزيجة والعزوبة. وهيفست وزنتس يمثلان النار والماء.

ويظهر من سياق الكلام أن الآلهة تهيأوا كما تقدم، كلٌّ لنده وتحفزوا تحفزًا ولم يتقاتلوا، وهذا موضع انتقاد عظيم على هوميروس؛ إذ لم تسفر هذه المقدمات الهائلة عن نتائج طائلة، ولكن هذا الانتقاد مدفوعٌ بقتالهم في النشيد التالي.



الزهرة.

(١٠) أي: أقسمت للطرواد وأنت ترتشف الكأس.

(١١) الصوار: قطيع البقر – كم من قطعة تاريخية ورواية خرافية حفظ لنا هوميروس بإدماجها في منظوماته، كقوله في هذا الموضع: إن أخيل غزا لرئيسة وفداس.

(١٢) أي: إذا كتمنا عن أخيل ولاءنا له ثم بدا له ربٌّ من الأرباب فربما يهوله فيجبن.

(١٣) برياس أو بوريس ريح الشمال، وهو من جملة الآلهة، وقد تقدم ذكره.

(١٤) مرَّ ذكر غنيمذ ورسمه ن ٥١.

(١٥) الأرادم: الملَّاحون.

(١٦) السبت: جلد الترس. وصرد: نفذ.

(١٧) فليون: هو الجبل الذي قطعت منه قناة أخيل على ما مرَّ.

(١٨) الكتد: مجتمع الكتفين أو الكاهل.

(١٩) مزعزع الأرض: لقب من ألقاب فوسيذ إلاه الجحيم.

(٢٠) هنا رواية تاريخية بحتة سبكها هوميروس بقالب نبوءه أنطق بها فوسيذ، ذلك أن أعقاب أنياس كانوا لعهد هوميروس يحكمون قسمًا عظيمًا من بلاد طروادة، اتصل إليهم الملك بانقراض سلالة فريام بعد أن دك الإغريق حصون إليون ودمروها، وكان من أمر آنياس عند تبديد شمل القوم أن استقل أباه الهَرِمِ أنخيس على كاهله ولاذ بالهزيمة، ثم جمع زمرة من شذاذ قومه وأبحر بهم يطلب أرضًا ينزل بها فساقته الأقدار إلى قرطاجة ومنها إلى إيطاليا، فأنزله الملك لاتينوس منزلًا رحبًا وزوجه ابنته لافينيا في خبر طويل ثم استخلفه على الملك، وقد زعموا أن من عقبه

روملوس مؤسس رومة ولهذا كان يفخر قياصرة الرومان بإعلاء نسبهم إليه.

وكان اسم أنياس في زمن هوميروس مرادفًا للبسالة والورع والبر بالوالدين، ولهذا وسط هوميروس فوسيذ في أمر مع أن فوسيذ كان عدوًّا لدودًا للطرواد إشارة إلى أن العناية الإلهية لا تهمل عبدًا برًّا وبشرًا اتقى.

ولا يخفى أن آنياس هذا هو بطل منظومة فرجيليوس الكبرى حذا فيها حذو هوميروس بوصف بسالة آنياس، ونقل منها نبوءة هوميروس حرفًا حرفًا وأطنب بتقوى آنياس إطنابًا لم يبلغه أحد من الشعراء.

(٢١) الكشفة: الفشل، تقول: افعل ما شئت فلك أن تنجيه أو تهلكه.

(٢٢) أي: لن يعرض نفسه بعد للقائي.

(٢٣) أجدا: أي قويًّا.

(٢٤) الخرد: الجبان.

(٢٥) الصعدة: سنان الرمح.

(٢٦) الجدد: جمع جدة وهي الساحل والشاطئ.

(٢٧) هيليقة بلدة كانت في أخايا، وكان فيه هيكل لفوسيذ يحتفلون فيه سنويًا بنحر ثور، فإذا عج الثور وهم يقودونه للذبح تفاءلوا

خيرًا وأيقنوا بنيل بغيتهم، وإن لم يعج تشاءموا وأيقنوا بسخط معبودهم فاسترضوه بوسيلة أخرى.

(٢٨) الجد: الكرم. يقول: فيبوس وقاك بكرمه وفضله.

(٢٩) الثأد: الثرى.

(٣٠) فئد: اضطرب فؤاده خوفًا.

(٣١) ومد: حمي.

(٣٢) زؤدا: رعبًا.

(٣٣) لا يزال الزراع في كثير من أرياف مصر، وبلاد العراق، وبعض أطراف سوريا، وغيرهنَّ من بلاد الشرق يدرسون الحبوب كما كانت تدرس منذ ثلاثة آلاف عام

(٣٤) قال أبو الطيب:

تــركن هــام بنــي عــوفٍ وثعلبــةٍ	علــى رءوس بــلا نــاس مغــافرهُ
وخاض بالسيف بحر الموت خلفهمُ	وكــان منــه إلــى الكعبــين زاخــرهُ
حتى انتهى الفرس الجاري وما وقعت	في الأرض من جثث القتلى حوافره

(٣٥) يشبه ختام هذا النشيد ما اختتم به الشاعر النشيد السابع عشر، من حيث تزاحم التشابيه وتراصها بعض فوق بعض، وله أمثال ذلك في بعض أثناء النظم إذا انتقل من باب إلى آخر، كأنه إذا اختتم

بحثه بقيت قريحته ملأى بالتصورات فيفرغ منها ما شاء إلى أن تطيب نفسه.

النشيد الحادي والعشرون

وقائع أخيل وقتال الآلهة

مُجْمَلُهُ

انهزم الطرواد أمام أخيل حتى بلغوا ضفة نهر زنثس، وساد بينهم الرعب فاندفع بعضهم إلى المدينة وألقى الجم الغفير منهم بأنفسهم إلى النهر، وقبض أخيل على اثني عشر فتى غض الشباب ليقتلهم بدم فطرقل، ثم التقى بليقاوون بن فريام فقتله وطرحه في النهر، فحنق النهر وحث عسطروف على قتاله فظفر به أخيل وقتل كثيرين من صحبه، فسالت الدماء في النهر وارتفعت فيه الأشلاء، ثم هاج وماج وطغى على أخيل ليغرقه، واستغاث أخيل زفس فبادرت أثينا وفوسيذ لإغاثته، فنجا من طغيان زنثس، فاستصرخ ذلك النهر نهر سيمويس المحاذي له وتألبا على إغراق أخيل، فكاد يهلك لو لم تبادر هيرا إلى إنقاذ ابنها إلاه النار أخذًا بيده، فانقض هيفست واشتعل وألهب الضفتين وجفف المياه الطاغية في السهل، فالتمس النهر رحمة هيرا صاغرًا فتشفعت له، وهناك انحدر الآلهة إلى حومة الوغى والتحم القتال بينهم، فبرزت أثينا لإلاه الحرب وصرعته وبادرت الزهرة فذهبت به، فتعقبتها أثينا ولطمتها، وبرز فوسيذ إلى أفلُّون، ثم انبرت هيرا فلطمت أرطميس واجترت من على كتفيها قوسها وكنانتها، فشكت أرطميس أمرها إلى أبيها زفس فطيب خاطرها وسكن بلبالها، ثم دخل أفلون إلى إليون ورجعت الآلهة إلى

الأولمب وظل أخيل مندفقًا كالسيل وفريام يراه من فوق البرج فأمر الحرس بفتح الأبواب ليتسنى لشذاذ الجيش المنهزمين أن يدخلوا، وأنهض أفلون البطل أغينور فتربص للقاء أخيل، وكاد يهلك لو لم يبادر أفلون لإغاثته فواراه ثم تمثل بهيئته وانهزم أمامه فأبعده عن الحصون حتى لجأ جميع الطرواد إلى مدينتهم.

«ولم ينج إلا حثيث الخطا»

لا تزال وقائع هذا النشيد في اليوم الثلاثين.

النشيد الحادي والعشرون[1]

لـدى ثغـر زنـث الـذي انـدفقا ... زلالًا ومـــن زفـــسٍ انبثقـــا[2]

أخيـــل جيـــوش العـــدى بـــدَّدا ... فشـــــطرٌ تـــــدافع مرتعـــــدا

لإليـــون فـــوق الســـهول التـــي ... بهـــا أمـــس أرغوســـةٌ ولّـــت

وهامـــت بقلـــبٍ قـــد انخلعـــا ... وهكطـــور مـــن خلفهـــا انـــدفعا

وفـــوق الطـــراود هيـــرا البخـــار ... أثـــارت لتـــثقلهم بـــالفرار[3]

وشـطرٌ بمجـرى الميـاه العميـق ... ترامـــى بصلصـــلةٍ وشـــهيق

يمـــوج بفضـــي مـــوجٍ يمـــور ... لـــه يقصـــف الـــيم حتـــى الثغـــور

صـــراخٌ شـــديدٌ ورجـــع صـــدى ... وجنـــدٌ ترامـــوا بغيـــر هـــدى

كـــأنهم بحثيـــث المفـــر ... جـــراد مـــن النـــار للنهـــر فـــر

يثور اللهيب على أثره ... فيلجأ للماء من شرره٤

كذاك أخيل الطرواد ساق ... إلى زنث فوق المجاري العماق

خليطًا بهم غصَّ ذاك المجال ... كباش رجال وجرد عجال٥

وألقى بعامله فاستند ... على أثلةٍ فوق تلك الجدد

وكرَّ بصارمه المنتضى ... كربٍّ بدهم البئوس قضى

وخاض العباب يبت الرقابا ... ويقتل كل كميٍّ أصابا٦

وما ثم إلَّا زفير كماه ... ونقعٌ يخضب وجه المياه

فمن وجهه اندفعوا بالثبور ... إلى النهر والتجأوا للصخور

كأنهم سمك ذعرا ... لدلفين هولٍ وراه جرى

فأم الشقوق بثغرٍ أمين ... لينجو من شر موتٍ مبين

ولمَّا من الفتك كلت يداه ... ونال مناه بكيد العداه

من اللجة استخرج اثني عشر ... غلامًا كخشف الفلاة اقشعر

وكل فتى بزهي نطاقه ... هنالك أحكم شد وثاقه

لفطرقل كفارةً تدخر ... إلى الفلك أرسلهم ثم كر

إذا بلقاوون قد خرجا ... من النهر يحسب أن قد نجا

(هو ابن لفريام كان أسر ... أخيل قديمًا بليلٍ عبر

دهاه إلى تينةٍ قد عمد ... بأرض أبيه بنصلٍ أحد

وغض الغصون لقد قطعا ... لأكناف مركبة صنعا

وأركبـــــه معـــــه الســـــفنا فبيـــــع بلمنـــــوس ممتهنـــــا

هنـاك ابـن إيسـون منـه شـراه وإيتـــين الإمبروســـي افتـــداه

وأرســله بعــد بــذل الكــرم لأرض أرســبا فمنهــا انهـــزم

وعــاش قريــرًا لثــاني عشــر نهــار بأوطانــه حيــث قــر

فســيق بحكــم إلاه عظــيم لآخيـــل ينفـــذه للجحـــيم)

ومـا عبـر النهـر حتـى سـحق قـــواه العيـــاء وســـح العـــرق

فـألقى علـى الجـرف شـكته قنًـــا ومجنًـــا وخوذتـــه

وألفـــاه آخيـــل مرتعشـــا فبـــادره صـــائحًا دهشـــا:

«لعينـــي ربَّـــاه لاح العجـــاب أمــن أرض لمنــوس ذا القــرم آب

إذن مــن أبــدت بــبهم الجنــود مــن اللجــج الــدهم ســوف يعــود

نعــم آب والــيم مــا عاقــه وإن عـــاق بـــالرغم أرفاقـــه

إذن حــد ذا النصــل فليجــرعن لـــنعلم هـــل بعـــد ذا يـــرجعن

أو الأرض هدَّامـــة العزمـــات تبيدنَّـــه كرثيـــث الرفـــات»

فهـــاجس آخيـــل ذا هجســـا وذيَّـــاك نجوتـــه التمســـا

دنـــا يرتمـــي فـــوق ركبتـــه وآخيـــل أومـــا بصـــعدته

فـأهوى وعـن ظهـره انحرفـت وفـــي الأرض غرثانـــة وقفـــت٧

فمـــدَّ لقـــاوون كلتـــا يديـــه يمـــسُّ بإحـــداهما ركبتيـــه

وتلك بها النصل عنفًا قبض   وصاح: «أخيل أصبت الغرض
فها أنذا لاثمٌ ركبتيكا   فرق لمرءٍ ذليلٍ لديكا
عليك له حقَّ حقُّ الولاء   فقد ذاق زادك قبل الجلاء٨
قبيل المسير بهذا الأسير   يباع بلمنوس عبدًا كسير
نعم بي ظفرت بروضٍ أغن   وأنأيتني عن أبي والوطن
وما نلت من ثمني المستفاد   سوى مئة من عجول البلاد
فإن تعف عني فحقُّ الفداء   مئاتٌ ثلاث وصدق الولاء
نهاري ثاني عشر نهار   به عدت بعد العوادي الكبار
وقد ساقني ليديك القدر   فكم قد قلاني مولى البشر
أجل آه أمي لعيشٍ قصير   لقد ولدتني وويلٍ كثير
(لووثوةٌ بنت ألتيس من   على ثغر سستينويس قطن
وشاخ بفيداسةٍ حيث ساد   قروم الليغ رجال الجلاد)
لفريام زوجًا غدت ولكم   له غيرها زوجةٌ مذ حكم
فَأَوْلَدَهَا عنده ولدين   وأنت ستثكلها البطلين
فليذر من كإلاه صدر   برأس المشاة بأسك خر
وبي قد رمى بعض آل العلى   إليك لأجرع كأس البلا
ألا ما رحمت فكنت العتيقا   فلست لهكطور تدري شقيقا
وما ولدتني أمُّ فتى   حشاك لفطرقل قد فتَّا»

كـذاك لقـاوون ألقـى الخطـاب ... ذلـــيلًا فأُســـمِع مـــر الجـــواب:

«تعســـت فـــلا تـــذكرن الفـــدا ... ففطرقـــل قبلـــك قـــد فقـــدا

فكـــم بكـــم قبـــل مـــن بطـــل ... أســـرت وبعـــت ولـــم أقتـــل

ولكننـــي اليـــوم أيَّـــا رمـــاه ... بقبضـــــــة كفـــــــي أيُّ إلاه

يبيـــــد ذلـــــيلًا ولا ســــيمًا ... بنـو الملـك فريـام حـامي الحمـى

فمت صاح مت ودع الحسرات ... ففطرقـــل أرفـــع شـــأنًا ومـــات

ألـم تـر قـدِّي وهـذا الجمـال ... وفيلا أبي الشيخ شخص الكمال

وأمــي مــن الخالــدات العظــام ... ومـــا كـــل ذا ليقينـــي الحمـــام

ولا فـــرق إمَّـــا نهـــارًا يتـــاح ... وإمـــا مســـاءً وإمَّـــا صـــباح

فـــلا بـــد قـــرمٌ بنصـــلٍ يطيـــر ... يجنـــدلني أو بســـهم طريـــر»٩

فخـــر لقـــاوون ممتقعـــا ... ومـــن جوفـــه لبـــه انخلعـــا

وعـــاف القنـــاة ومـــد يديـــه ... وآخيـل فـي الحـال مـال عليـه

بسـيف بحديـه غـاص بصـدره ... بترقـوة الجيـد مـن تحـت نحـره

فخـــر علـــى وجهـــه والتـــوى ... ووجـه الثـرى مـن دمـاه ارتـوى

وآخيـــل ألقـــاه مـــن قدمـــه ... إلـــى النهـــر مختضـــبًا بدمـــه

وصـاح: «فـرح مطعمًـا للسـمك ... يمـــص بهـــامي الجـــراح دمـــك

فـــلا أم ثـــم عليـــك تصـــيح ... هنـــا الإســـكمندر فيـــك يســـيح

فيلقيــك للبحــر حيــث يــدب إليــك مــن اللــج حــوتٌ يشــب

ومن شحمك الغض يؤتى الغذا أجـــل فلتبيـــدنَّ طـــرًّا كـــذا

تفــرون دونـــي وســـيفي يفـــل كـــذاك بــــإليونكم نســــتقل

فلــيس بــــواقيكم النهــــر ذا بقضــــي مجــــراه شــــر الأذى

ولا مـا ذبحـتم لـه مـن عجـول ولا مـا طـرحتم بـه مـن خيـول١٠

نعــم ســـتبيدون طـــرًّا هنـــا فـــداء لـــذي البـــأس فطرقلنـــا

وجنـــدٍ بســـيفكم قتلـــوا وآخيــــل إذ ذاك معتــــزل»

كـذا قـال والنهـر زاد احتـداما وفكـــر كيـــف ينـــال المرامـــا

وكيـــف بصـــد أخيـــل يزيـــل عــن القــوم شــرَّ الهــلاك الوبيــل

ولكـــن آخيـــل بــــالرمح زف على عسطروف سليل الشرف١١

(هــو ابــن فليغــون مــن نســبا لأكســـيسٍ وإلـــى فيربـــا

فأكسـيس النهـر قـد كـان هـام بهـــا فحبتـــه بـــذاك الغــلام١٢

ألا وهـي ذات المكـان المكـين وبكـــر بنـــاتٍ لـــدى أكســـمين)

لــه عســطروف بــواري الزمــاع تــــربَّص محتــــدمًا لا يــــراع

برمحيـــه قـــام يـــروم لقـــاه وزنـــث ببـــأسٍ شـــديدٍ حبـــاه

وكـم كـاد زنـث أخيـل بمـا بـــه مـــن خيـــار الجنـــود رمـــى

ولمـــا تـــدانى بـــذاك البـــراح كـــلا البطلـــين فآخيـــل صـــاح:

«أيـا ذا الـذي لـم يرعـه جـلاد أخيـل فمـن أنـت مـن أي نـاد

فويـــل أَبٍ لـــم يهبنـــي ابنـــه فـــلا شـــك ينهكـــه حزنـــه»

فقـــال: «ومـــا بانتســـابي تـــروم فـــداري البعيـــدة دار القـــروم

فيونـــا الخصـــيبة منهـــا الرجـــال معـــي أقبلـــوا برمـــاحٍ طـــوال

ومنـــذ بلغـــت لهـــذا المقـــر ببهمـــي ذا اليـــوم حـــادي عشـــر

وجـــدي أكســـيسٌ خيـــر نهـــر بمـــاء زلالٍ علـــى الأرض يجـــري

وأنبئـــت أنـــي ســـليل فتـــاه فليغـــون ذي البـــأس رب القنـــاه

فأقبـــل إلـــيَّ» فأومـــا أخيـــل عليـــه بعـــود القنـــاة الطويـــل

فـــزجَّ هنـــا عســـطروف إليـــه بكلتـــا قناتيـــه مـــن راحتيـــه

وقـــد كـــان يحكـــم زج النصـــال بكـــفٍّ يمـــينٍ وكـــفٍّ شـــمال

فنصـــلٌ بظهـــر المجـــن وقـــع بعســـجد هيفســـت حيـــث ارتـــدع

ونصـــلٌ ذراع أخيـــل قشـــر فمنـــه يســـير النجيـــع انفجـــر

وغـــلَّ يغـــوص بفـــرط ظمـــاه إلـــى النقـــع فـــوق الحضـــيض إزاه

فآخيـــل بـــالرمح فـــورًا قـــذف فطـــاش إلـــى الجـــرف حيـــث وقـــف

وغـــاص إلـــى وســـطه باضـــطراب مـــن العنـــف يـــرتجُّ فـــوق التـــراب

فســـلَّ أخيـــل حســـامًا صـــقيلا علـــى جنبـــه الصـــلب كـــان أمـــيلا

ورام الفيـــوني اقـــتلاع القنـــاه ثلاثًـــا فخابـــت ثلاثًـــا منـــاه

ولمـــا انثنـــى خاســـرًا وبـــدا عيـــاه إلـــى كســـرها عمـــدا

لولهــا ولكــن أخيــل وثــب ... عليـــه ببتـــاره وضـــرب
فخـــر وأجفانـــه انطبقـــت ... ولـــلأرض أحشـــاؤه انـــدفقت
ففـــي صـــدره داس يـــدخر ... صـــفائحه وهـــو يفتخـــر:
«هنـا مـت فلـيس يهـون علـى ... بنـي النهـر حـرب سـليل العلـى
فـإن كنـت مـن نسـل نهـرٍ كبيـر ... فـإني مـن آل زفـس القـدير
أبـي قيـل المرمـدون الحميـد ... أبـوه أيـاك بـن زفـس المجيـد
لـزفس عنـا كـل ربٍّ فخـور ... وأبنـاؤه فـوق ولـد النهـور
فـذا زنـث دونـك هيهـات أن ... يقيـك ويـدفع عنـك المحـن
ومـن ذا الـذي دون زفـس يقـف ... ومنـه أخلـوس يرتجـف١٣
ونفـس المحـيط أبـي كـل بحـر ... ونهـر وينبـوع مـاء وبئـر»
إذا زفـس مـن جـوه رعـدا ... تـراه بلجتـه ارتعـدا»
وجـرَّ مثقفـه وهنـاك ... ثـوى عسـطروف بغيـر حـراك
علـى الجـرف مـن حولـه تنـدفق ... ميـاه بنينانهـا تصـطفق١٤
تقـاطر منـدفعات لديـه ... لكـي تـنهش الشـحم مـن رئتيـه
وقـوم الفيونـة مـذ أبصـروا ... زعـيمهم دمـه يهـدر
وزنـد أخيـل رمـاه قتـيلا ... لديـه علـى زنـث ولـوا فلـولا
وخلقهـم ابـن أيـاك انطلـق ... يبيـد القـروم بتلـك الفـرق
كثـر سـيلخ ميـدنٍ إينيوسـا ... أفيلسـت عسـطيفل ثرسيوسـا

كــذا إمنســوس ولــولا تصــدى   لــه النهــر فــلَّ الجمــوع وأردى

تصـــدى لـــه حانقًـــا وخـــرج   بـــزي فتًـــى مـــن عبـــاب اللجـــج

وصــاح بصــوتٍ دوى بالجــدود: «آخيـــل رعتـــك ســـراة الخلـــود

لقــد فقــت بالبــأس بهــم الزمــر   كمـــا فقـــتهم بعتـــوٍّ وشـــر

إذا زفــس أولاك قهــر العــدى   أمــا لــك فــي الســهل كــل المــدى

فــدعني فســيلي هــذا الــدفاق   بأشـــلاء قتلـــى الطـــراود ضـــاق

فـــلا منقـــذٌ لغصـــيص زعابـــة   إلـــى البحـــر ممتزجًـــا بعبابـــة

كفـــاك صـــدقتك فتـــكٌ ذريـــع   فقــد راعنــي منــك هــذا الصــنيع»

فقــال: «أمــرت وأنــت المطــاع   أيــا إســكمندر فــي تــي البقــاع

علــى أنــه لــيس لــي مــن مــرد   إلـــى أن أردهـــم للبـــد

وهكطــور ألقــى ببــأسٍ شــديد   يبيـــد بـــه أو حيـــاتي يبيـــد»

وهـــب كـــرب وراهـــم يصـــول   فصـــاح بفيبـــوس زنـــث يقـــول:

«أيــا رب قــوس اللجــين الأغــر   أفاتـــك مطلـــب زفـــس الأبـــر

أمـــا بـــك أرســـل معتمـــدا   إلـــى قـــوم طـــروادةٍ عضـــدا

تـــدافع حتـــى بـــراح تغيـــب   ويســيل ســتر الظــلام القريــب»١٥

وأَمَـــا أخيـــل فمـــا ارتـــدعا   وللنهـــر مـــن ثغـــره انـــدفعا

هنـــا لـــك زنـــث احتـــدامًا طنـــا   وأزبـــد منتفخًـــا ورغـــا

وثـــار وعـــجَّ كثـــورٍ يخـــور بتيـــــاره مستشـــــيطًا يمـــــور

وفـــاض علـــى جثـــث طرحـــا بمجـــــراه آخيـــــل مجترحًـــــا

فمـــن مـــات ألقـــاه فـــي ثغـــره ومـــــن عـــــاش واراه فـــــي قعـــــره

وحـول ابـن فـيلا جحافًـا جرافـا تـدافع حتـى علـى الجـوب طافـا١٦

بـــــه قـــــدماه تقلقلتـــــا فمـــــا بهمـــــا بعـــــد ذا ثبتـــــا

تشـــبَّث بالمهجـــة الزَّاهقـــه بـــــدردارةٍ غضَّـــــةٍ باســـــقه

فمالـــت وآصـــلها تتفكـــك إلـــى الأرض أهـــوت بـــه تتبتَّـــك

ويـــانع أغصـــانها انتشـــرا ووجـــه الحضـــيض بهـــا انقشـــرا

وظلّـت كجسـرٍ عظـيمٍ يحـول وصـــدَّت مجـاري تلـك السـيول

فريـــع أخيـــل وفـــرَّ يطيـــر إلـــى السـهل فيـــه حثيثًـا يســير

ولكـــــن تقفـــــاه ذاك الإلاه بتيَّـــــــاره المـــــــدلهم وراه

يـــروم لـــه ذلـــةً وانخـــذال فيكفـــي الطـــراود شـــرَّ الوبـــال

فخـــفَّ أخيـــل كطيـــر يـــدفّ علـــى بعـــد مرمـــى الرمـــاح يـــزفّ

كحالـــك نســـرٍ عثـــا بـــالطيور وقصَّـــر عنـــه هفيـــف الصـــقور

وراح يفـــرُّ علـــى ذعـــره يصـــلُ الســـلاح علـــى صـــدره

وفـي إثـره النهـر حيـث التـوى تعقبـــــــه طاغيًـــــــا ودوى

كـــأن امـــرأً بنضـــير الغيـــاض ســـقى بـــدفاق العيـــون الريـــاض

فطهَّـــر قبـــل انصـــباباته مجـــاري الميـــاه بمســـحاته

فما خلت إلَّا انبجاسًا تدفَّق ... تدافع فوق حصًى تترقرق

وخر خريرًا مذ انحدرا ... يسيح ودافعه قصرا

كذا حيث دار أخيل يميل ... بآثاره زنث سدَّ السبيل

ولا بدع فالناس لا قبلا ... لهم أبدًا بموالي الملا

فكم مرةٍ بخطاه تربَّص ... لزنث يرى هل إذن يتخلّص

وهل كلُّ آل العلى اعتصبوا ... عليه ليخذله الهرب

فما كان من زنث إلَّا ارتفع ... إلى كتفيه بتلك الترع

فهب ومحتفزًا وثبا ... بأزمته فعلا الهضبا

ولكنَّ زنث التراب جرف ... فموقف آخيل فيه انخسف

هناك التوت هلعًا ركبتاه ... فأنَّ وصاح يروم النجاه:

«أيا زفس هل لا إلاه قدير ... يرقّ لحالي به أستجير

فإن أنج من زنث فلينزل ... عليَّ بلا النوب الهمل

فليس بآل العلى جملة ... كأمي من سامني ذلةً

فكم خدعتني بقول الكذوب ... وكم زعمت باشتداد الخطوب

بأني قبالة هذي الحصون ... بسهم أفلون ألقى المنون

علام بعامل هكطور لا ... هلكت وأخبره البطلا

لو اجتاحني وسلاحي سلب ... لقيل همامٌ همامًا ضرب

على أنني اليوم في ذا المكان أموت بذا النهر موت الهوان

كراعي خنانيص غرٍّ ولج خليجًا فما منه قط خرج»١٧

فلما انتهى فوسذٌ أسرعا لنجدته وأثينا معا

بهيئة إنس له اعترضا وبالأنس راحته قبضا

فخاطبه فوسذٌ أولًا: «ألا يا ابن فيلا دع الوجلا

إلاهان رفدك راما هنا أثينا بحكمتها وأنا

بنا زفس أسرى إذن فاسمع وكلَّ نصائحنا فاتبع

فزنث ستلقيه عاف أذاكا وما كان في الغيب فيه رداكا

فلا تغمد السيف حتَّى ترى بإليون جيش العدى انحصرا

وهكطور تصمي وللسفن تعود بمجدٍ رفيع سني»

هما انقلبا للعلى والبطل بجملته للكفاح اشتعل

ومن حوله السهل حيث لمح بما فاض من زنث طرًّا سبح

غشا بسلاحٍ عليه يطوف وأشلاء قتلى ابترتها السيوف

فكرَّ وما بعد ذا ناله خمولٌ وزنث فما هاله

أثينا أنالته عزمًا جديد فما راعه بعد منه الهديد

فبرَّح بالنهر ذاك الغرور فزاد اضطرابًا وعجَّ يفور

وصاح بسمويس مستنجدا: «أَخَيَّ هلمَّ فعجزي بدا

هلمَّ كلانا هنا نعتصب على رجلٍ واحدٍ ونثب

وإلَّا فمعقـــل فريـــام ذل   لـه والطـراود سـيموا الفشـل

هلـم وفـض بـالعيون الكبـار   وأجـر السـيول غـزارًا غـزار

وفـض الصـخور علـى الشـجر   فتفتـر عزمـة ذا المفتـري

عتـا مسـتبدًّا كـربٌ فخـور   وعـاث اعتسـافًا يهيـل الثبـور

فـلا نـال فـي حسـنه وقـواه   ولا بصـفائحه مبتغـاه

سـيلبث ذاك السـلاح المتـين   بقعـر الميـاه دفـين الغـرين١٨

وأطمـر بالرَّمـل ذاك الجسـد   عليـه يهـال قضـيض الزبـد

هنـاك يقـيم بشـر مقامـه   فـلا يهتـدي قومُـهُ لعظامـه

وأكفـيهم عـبء قبـر يشـاد   لـه يـوم يلتزمـون الحـداد»

ومـن ثـم هـاج عليـه ومـاج   ودمـدم يـدوي بـذاك الفجـاج

رغـا زبـدًا ودمًـا وخبـث   وتيـاره احمـرَّ تحـت الجثـث١٩

ومـاد بآخيـل يضـطرب   وهيـرا بسـدَّتها ترقـب

فصـاحت تولـول مـذ أطبقـا   عليـه فأوشـك أن يغرقـا:

«بنـيَّ حبيبـي الأعيـرج طـر   فقرنـك زنـث فقيـه اسـتعر٢٠

هلـم انجـدنًّا بنـارٍ تثـور   وأغـري الجنـوب أنـا والـدبور

مـن اليـم بـالنوء تصـطدمان   فـتلهم نـارك كـل مكـان

تـذيق الطـراود دهـم البئـوس   وتفنـي صـفائحهم والـرءوس

فـــلا تبـــق فـــي ثغـــره شـــجرا وفـــي قلبـــه انقـــضَّ مســـتعرا

ولا يغرينـــــــك لا بفديـــــــد ولا بالتمـــــاسٍ ولا بوعيــــد٢١

ولا تخمـــــدنَّ أوار الســـــعير إلـــى أن أصـــيح بصـــوت جهيـــر»

فـــأرَّث بالســـهل نـــارًا ذكـــت بأشـــــلائهم أوَّلًا فتكـــــت

كمـــاةٌ رمـــاهم أخيـــل العنيـــد ومـــا كـــان أكثـــر ذاك العديـــد

فمـــا خلـــت إلَّا لثـــرى يبســـا وطغيـــان زنـــث بـــه انحبســـا

كـــروضٍ ســـقاه الحيـــاء تهـــفٌ شـــمال خريـــفٍ بـــه فيجـــفٌ

فيجـــــذل زارعـــــه طربـــــا: ومـــن ثـــم هيفســـت ملتهبـــا

أدار علـــى زنـــث نـــار الشـــرار فثـــــار بمجـــــراه واري الأوار

فـــدرداره بـــاد مـــن أصـــلهِ بصفصـــــافه وكـــــذا أثلـــــه

كـذا السـعد والسـدر والخيـزران بآصـــلها والفـــروع الحســـان

برمَّتهـــــا اتقـــــدت شـــــررا فلـــم تبـــق عينًـــا ولا أثـــرا

وأســـــماكه كـــــل حيتانهـــــا وحيَّاتهـــــا فـــــوق نينانهـــــا

تغـــوص فلـــولًا بضـــيق الـــنفس لهـــول المهـــب وحـــر القـــبس

وفـي قلـب زنـث اسـتطار يعيـث حمـــيم الصـــلا فـــدعا يســـتغيث:

«هيفســـت بنـــارك مـــالي قبـــل فـــــأي إلاه تطلبـــــت ذل

كفـي كـفَّ وليفتـك ابـن أيـاكـا بطـــرادةٍ فيـــذيع الهلاكـــا

فمـا لـي وهـذا الوبـال الألـد» كـذا صـاح لكـن هفسـتُ اسـتبد

وأج بغـــدران زنـــث ففـــار   كقـــدرٍ تفـــور بنـــارٍ تثـــار
يسـيح بهـا شـحم رتٍّ سـمين   علـــى حافهـــا يســـرةً ويمـــين
ومـــن تحتهـــا يـــابس الحطـــب   بموقـــــده قـــــدح اللهـــــب
كـــذا زنـــث لمَّـــا بـــه اشـــتعلا   ســـعير هفســـت عـــلا وغـــلا
ولـــم يجـــر بـــل فـــار متقـــدا   فهيـــرا دعـــا يطلـــب المـــددا:
«عـــلام بحقـــك دون ســـوايا   ســـليلك هـــبَّ يـــروم أذايـــا
أمـــن كـــل أنصـــار طـــرواد هـــل   تخـــالين أنـــي المســـيء الأضـــل
فـــإن شـــئت لا جئـــتهم بعـــد ذا   كفـــاه كفـــى فليكـــفَّ الأذى
ولـــن أبتغـــي بعـــد رفـــدهم   بـــاك نعـــم علنًـــا أقســـم
ولـــو كـــل طـــروادة احترقـــت   بنـــار الأخـــاءة وامَّحَقَـــت»
فهيرا استجابت وصاحت: «كفى   بُنـــيَّ فقـــف ذاك حـــد الجفـــا
فمـــا فـــوق ذا جـــاز أن نشـــجنا   بني الخلد من أجل قوم الفنا»٢٢
فأخمـــد هيفســـت نيرانـــه   وأجـــرى كـــذا زنـــث غدرانـــه
وهيـــرا بغـــل مرارتهـــا   إليـــه ســـعت بوســـاطتها
فـــتمَّ بكشـــفه زنـــث الوفـــاق   وثـــار بـــآل الخلـــود الشـــقاق
فقامـــت لهـــم ضـــجةٌ وعجـــيج   مـــن الأرض للجـــو يعلـــي الضـــجيج
وزفـــس لفتنـــتهم والصـــخب   لقـــد هـــزه بعـــلاه الطـــرب٢٣

ومــا لبــث الخطــب أن فــدحا فهبـــوا يثيـــرون تلـــك الـــوحى

وأولهـــــم خــــارق الجـــــنن أريـــــس تصـــــدَّر للفـــــتن

أثينـــا أتـــى بشـــحيذ الـــدباب وصاح: «اخسئي يا ذباب الكلاب٢٤

عـــلام بنـــا هجـــت هـــذا اللـــدد بشـــر عتـــوٍّ عـــدا كـــل حـــد

أأنســـيت يـــوم ذيوميـــذ صـــال علـــــيَّ وأغريتـــــه للنضـــــال

وســـــددت عاملـــــه فاســـــتطار ومـــزَّق جلـــدي فثـــارٌ بشـــار»٢٥

وإذ ذاك عاملـــــــه دفعـــــــا ففـــي ظهـــر مجوبهـــا دفعـــا

مجـــنٌ وهيهـــات تفعـــل بـــه صـــواعق زفـــس علـــى غضـــبه

فمـــا كـــان إلَّا أن التـــوت وجلمـــود صـــخرٍ تناولـــت

هنالـــك ذا الصـــخر منـــذ القـــديم لتلـــك المعـــالم حـــدًّا أقـــيم

ثـــوى هـــائلًا حالكًـــا خشـــنا رمتـــه بـــه بيســـير العنـــا

فحلقومـــــه دق فانقلبـــــا وســـبعة أفديـــةٍ حجبـــا٢٦

فعقـــر بـــالترب ذاك الشـــعر وصـــل الســـلاح عليـــه وصـــر

فصـــاحت إذ ابتســـمت جـــذلا: «جهلـــت ومـــا الحـــق أن تجهـــلا

وفاتـــك حمقًـــا ســـمو قوايـــا فأقبلـــت مســـتهدفًا لبلايـــا

فـــذق مـــن صـــلى أمـــك اللعنـــات لظـــى أزمـــاتٍ علـــى أزمـــات٢٧

جـــزاء اطراحـــك رفـــد الأخـــاء وعـــون الطـــراود أس البـــلاء»

وعنـــه بألحاظهـــا أعرضـــت هنـــا عفرذيـــت لـــه عرضـــت

وقادتــه مــن يــده تتــدفق دمــاه بحــسٍّ تضعضــع يشــهق

وهيــرا علــى البعــد تبصــرها فصــاحت بفــالاس توغرهــا:

«ألا فــانظري قحــة الزهــرة تفــاقم والحــرب مســتعرة٢٨

عليــك بهــا فلقــد أدبــرت بــآريس هــو المــلا وجــرت»

فهمَّــت أثينــا وقــد طفحــا لــذا لــبُّ مهجتهــا فرحــا

براحتهــا صــدرها لطمــت فخـارت قـوى عزمهـا وارتمـت٢٩

كــذا عفرذيــت وآريــس ظــلا طــريحين فــوق التُّــراب وذلَّا

همــا لبثــا بعنــا وزفيــر وفـالاس صـاحت بـداري النَّعيـر:

«كـذا فليبـد مـن لطـرواد مـال وســام الأغــارق شــرَّ النكــال

فلــو أن جملــة أنصــارهم إلــى الحــرب ثــاروا بكبَّــارهم

بعــزم كمــا عفرذيــت بــدت لنجــدة آريــس مــذ عربــدت

لكــف القتــال العنيــف الوبيــل وإليـون دكـت لعهـدٍ طويـل»٣٠

فهيــرا لــذا ابتســمت واســتطار إلـى سـيد النـور ربُّ البحـار:٣١

«أوار ســراة العلــى مضــطرم لمــاذا إذن نحــن لا نصــطدم

أنرضــى الهــون وعــار القفــول لقبَّــة زفــس بهــذا الخمــول

إلـى الحـرب فيبـوس قـم وتهيَّـا فإنــك أحــدث سِــنًّا فهيَّــا

تقــدَّمت عهــدًا وزدت اختبــار فبــادر فحقــك بــدء البــدار٣٢

فهــلَّا ادكــرت أأحمــق كــم بـــإليون بـــرَّح فينـــا الألـــم

بنـا زفـس أرسـل دون الجميـع إلـــى لومـــدون فجئنـــا نطيـــع

لنعمــــل عامًــــا بخدمتــــه فنقـــــبض معلـــــوم أجرتـــــه

فشدت الحصون الحسان الفساح تعـــــزُّ امتناعًـــــا ولا تســــتباح

وأنـــت ســـرحت بتلـــك البقـــر علـى شـم إيـذا الكثيـف الشـجر

ولمـــا عنـــا جهـــدنا اكـــتملا وحـــان لنـــا نقـــبض البـــدلا

وأقبلـــــت الســــاع بــــالفرج أبـــى لومـــدون لمـــا نرتجـــي٣٣

فأرســـلنا خاســـئين وأقســـم وهـــــمَّ بآذننـــــا أن تصـــــلّم

وهــمَّ بغلــك رجـــلًا وزنـــدا وبيعــك فـــي جـــزر البحـــر عبـــدا

تعمَّــــــد شـــــر خيانتنـــــا فعـــــدنا بغـــــل حزازتنـــــا

أمـن أجـل هـذا وليـت بنيـه ولـــم تنـــتقم مثلنـــا مـــن ذويـــه

لنُفْنِــــي طـــــروادة الكـــــافرة وأبناءهـــا والنســـا الطـــاهرة» ٣٤

فقـــال: «أفوســـيذ هـــل خلتنـــي قصـــير الحجـــى فاقـــد الفطـــن

فمـن أجـل مـن أنـا أبـرز لـك أمـــن أجـــل إنـــسٍ ثـــواه الـــدَّرك

ومـا الإنـس فـي الأرضِ إلا ورق تـــــراه نشـــــا يانعًـــــا وبســـــق

معيشـــته مـــن نتـــاج الثـــرى ولكنـــــه صـــــاغرًا دثـــــرا٣٥

فــدعنا إذن مــن ويــل النضــال ودعـــم يجولـــوا بحـــربٍ ســـجال»

وعنـــه تقهقـــر محتجبـــا لقـــاء أخـــي زفـــس مجتنبـــا

فلاحت هناك له أختـه قنيص الضَّواري تبكته: ٣٦

«أراك انهزمت أرامي السهام وخوَّلت فوسيذ كلَّ المرام

لماذا برزت بقوسٍ طحور وأبرزت بين الصدور الغرور ٣٧

فهل بعد ذلك ذا تزعم بباسك فوسيذ تقتحم»

فصدَّ ولم يلق بنت شفه وهيرا استطارت بها الأنفه

على أرطميس انثنت بالخطاب تعنفها بشديد السباب

وصاحت: «أيا كلبةً يا وقاح أفي ظل وجهي هذا الصياح

ستصلين نيران غيظي وإن برزت بقوسٍ لغيري ترن

جُعلت نعم لبوةً للنسا تنيلين من شئت مُر الأسى ٣٨

ألا ما فتكت بوحشٍ ربا بشم الجبال وغر الظبا

وعفت البروز بحمق الشطط لمن لا تطيقين لقياه قط

أرمت إذن خبر هول المكر خذيها إذن عبرةً تُعتبر»

هنا قبضت مذ تدنَّت إليها بيسرى يديها على معصميها

ومالت بيمنى على منكبيها تجرد قوسًا تؤجُّ عليها

وباسمةً أذنها ضربت بتلك الكنانة فاضطربت

ودارت بجملتها تنتثر وأسهامها دونها تنتشر

وغادرت القوس وانهزمت بذلّتها والدموع همت

كورقـــاء يـــذعرها وجـــه صـــقر تـــزفّ لتلجـــأ فـــي شـــق صـــخر

ومـــا كـــان قبـــل لـــه قـــدرا بهـــا قـــط أن ينشـــب المنســـرا

وصـــاح بلاطونـــةٍ هـــرمس: «بحربـــك هـــل خلتنـــي آنـــس

فمـــن رام عـــرس أبـــي الســـحب بســـوءٍ فقـــد ضـــلَّ فـــي مـــذهبي

فـــأمي بنـــي الخلـــد وافتخـــري علـــيَّ ببأســـك والظفـــر» ٣٩

ففـــورًا لجمـــع النبـــال انبـــرت عـــن الأرض مـــن حيـــث قـــد نثـــرت

وســـارت علـــى أثـــر ابنتهـــا بفارجهـــا وكنانتهـــا ٤٠

وإذ للألمـــب أتـــت أرطمـــيس بقصـــر النحـــاس تبـــدَّت تمـــيس

بعبرتهـــا أقبلـــت تســـبح علـــى ركبتـــي زفـــس تنطـــرح

ومـــن حولهـــا البرقـــع العنبـــري تـــألق يســـطع للنظـــر

إلـــى صـــدره ضـــمَّها وابتـــدر يهـــش لهـــا واســـتقصَّ الخبـــر:

«مـن الخلـد مـن ذا عليـك افتـرى كمـــا لـــو أتيـــت ابنتـــي منكـــرا»

فقالـت: «أبـي تلـك زوجـك مـن أثـارت بـــآل الســـماء الفـــتن»

كـــذا بحـــديثهما اشـــتغلا وفيبـــوس طـــروادةً دخـــلا

لـــئلَّا يـــدكّ العـــداة الحصـــار بـــرغم القضـــاء بـــذاك النهـــار

وســـائر آل العلـــى رجعـــوا لأولمـــبهم حيثمـــا اجتمعـــوا

لـــدى زفـــس ذاك بنصـــرته طـــروبٌ وذا بحزازتـــه

وظـــلَّ أخيـــل بحـــر الجـــلاد يبيـــد كمـــاة العـــدى والجيـــاد

وحيـــث بـــدا لهـــم فتكـــا بهـــــم ودمـــــاءهم ســـــفكا
كنـار بغـيظ بنـي الخلـد شبَّت ببلـــدة قـــوم عصـــاةٍ فهبَّـــت
وأعلـــت دخانًـــا رقـــى للرَّقيـــع فسـيم الجميـع الـبلاء الفظيـع٤١
وفـــي البـــرج فريـــام منتصـــبا علـــى البعـــد آخيـــل قـــد رقبـــا
إذا بـــالطراود قـــد ذعـــروا وكلهـــــم شـــــردًا أدبـــــروا
فمــــن ثـــم مكتئبًـــا نـــزلا يحـــــذر حراســــه وجـــــلا:
«ألا فـــافتحوا كـــلَّ أبـــوابكم إلـــــى أن تـــــدوس بأعتـــــابكم
فلـول السـرى. فأخيـل هجـم مغيـــرًا ووا هـــول هـــاتي الـــنقم
وإن لجـــأ الجنـــد طـــرًّا إلـــى معاقلنـــــا فـــــاقفلوا عجـــــلا
لـــئلَّا يحـــلَّ بحـــر العـــراك أخيـــل بهـــا وهنـــاك الهـــلاك»
ففـتح فـي الحـال كـل رتـاج وقـــد رفعـــوا منـــه كـــل زلاج٤٢
وشـــذَّاذ طـــروادةٍ شـــرَّد قضيضًـــــا قلاعهـــــم وردوا
يغشـــيهم نقعهـــم والصـــدَّى يحـــرق مهجـــتهم كمـــدا٤٣
وفيبـــوس خـــفَّ أمـــامهم يســــهل ثــــم انهــــزامهم
وراهـــم أخيـــل حديـــد الفـــؤاد يجيـــل حـــدود الحديـــد الحـــداد
وكـــاد يجـــوز بعســـكره معـــــاقلهم بتســـــعُّره
فـــأغرى أفلـــون آغنـــرا أخـــا العزمـــات ابـــن أنطنـــرا

وألهب بالبأس مهجته … وبالسحب حلَّ قبالته

إلى زانه قربه استندا … ليدرأ عنه ثقيل الرَّدى

لآخيل آغنرُ وقفا … ولكنَّه مع ذا ارتجفا

وفي نفسه قال: «إن أجم … لآخيل آه وأنهزم

كما جندنا هلعًا هربت … لديه فمنقي لا شك بت

وإن أعتزلهم وشأنهم … وآخيل مكتسح لهم

واضرب بذا السَّهل مجتهدا … حثيثًا لإيذة مبتعدا

وفي بعض آجامه أستتر … نهاري ومن بعد ذا أنحدر

وفي النَّهر أغسل رشيح العرق … وأرجع لإليون عند الغسق

أفز ناجيًا – لا فماذا الصَّواب … ولا لا علام أنا بارتياب

أليس يراني طلبت الخلاص … فينقضُّ إثري وأين المناص

ومن أين لي عدوه وقوى … بها الخلق طرًّا لديه سوا

إذا فلأقف دون هذي القلاع … للقياه محتفزًا للدفاع

فليس له غير نفسٍ تنال … وجسمٍ يشق بحد النبال٤٤

نعم زفس عظّمه إنما … علمنا لقوم الفناء انتمى»٤٥

ومن ثم تحت السلاح تلملم … بقلبٍ لحرب ابن فيلا تضرَّم

كبيرٍ قد انقضَّ من أجمه … على قانص واري العزمه

فلا يلتوي لشديد النباح … ولا للصياح ولا للسلاح

ولــيس يـــذلّ ولـــو نفـــذا … بعاتقـــه منصــــلٌ شــــحذا

فإمَّــــا البلــــوغ لمنيتــــه … وإمَّـــــا ليــــوم منيتــــه

كـــذاك ابـــن أنطنـــر لبثـــا … لصــــد أخيـــل ومـــا اكترثـــا

فهـــزَّ القنـــاة ومـــدَّ المجنَّـــا … وصـــاح: «ابـــن فـيلا هنـا أقبلنـا

فهـــل خلـــت ذا اليـــوم إليوننـــا … تـــذلّ فتبلـــغ منهـــا المنـــى

تعســـت فمـــن دون ذا غمـــرات … تمنَّـــى بهـــا وكمـــاةٌ ثقـــات

أبـــاةٌ حمـــاةٌ لأوطـــانهم … وأولادهـــم ولنســـوانهم٤٦

إذن أنـت أنـت سـتلقى رداكـا … هنـا اليـوم مهمـا اسـتطالت قواكـا»

وآخيـــل بـــالرمح فـــورًا طعـــن … ففـــي ســـاقه بالصـــفائح رن

ومرتـــدعًا بالفضـــاء انطلـــق … وكيـــف نحـــاس هفســـت يشـــق

فهـــمَّ ابـــن آيـــاك يســـتعر … وكـــاد بـــآغنر يظفـــر

ولكـن فيبـوس فـي الحـال حـال … فحجبـــه بغيـــومٍ ثقـــال

وأرســـلته ســـالمًا يـــذهب … أمينًـــا ومـــا مســـه عطـــب

وجـــاء آخيـــل بحيلتـــه … كـــآغنرٍ تحـــت هيئتـــه

لديـه علـى السَّـهل ولـي يهـيم … لينئيـه عـن فـل جـيشٍ هـزيم

وراوغـــه طـــيَّ بـــونٍ قليـــل … ليطمعـــه بـــارتواء الغليـــل٤٧

علـــى إســـكمندر راح يجـــد … وآخيـــل فـــي إثـــره مبتعـــد

وطـــــــروادة بمناســــــــرها	وهلّـــع جنـــد عســـاكرها٤٨
لهـــم لاح فـــي بعـــده الفـــرج	بغيـــر هـــدى ســـورهم ولجـــوا٤٩
لـــدى البـــاب لا أحـــدٌ أحـــدا	تـــــربَّص يرقـــــبُ مفتقـــــدا
لـــيعلم مـــن بـــاد ممَّـــن ســـلم	وكلهـــــم هـــــالعٌ منهـــــزم
فغصَّـــت وماجـــت بهـــم لغطـــا	ولـــم يـــنج إلَّا حثيـــث الخطـــى

هوامش

(١) ترى من مجمل هذا النشيد أنه كله قراع وصراع، فتخال أنك مقبل على تلاوة وصف معارك؛ كالتي سلفت فتتشاءم بالملل لكثرة الخوض بهذه المواقع، على أنك لا تكاد تتلو بعض أبيات حتى ترى أنك في روض من التصور بديع لم يحط البصر بشيء من مثله في سائر الإنشاد، ولهذا قيل: إن قوة الابتداع الفكري والاختراع الشعري لم تتوفر لشاعر توفرها لهوميروس في هذا النشيد.

يشتد هنا الكفاح ولا اشتداده في ما سلف: أبطال تتحرق، وأشلاء تتمزق، وأنهار تتدفق، ونار وماء وأرض وسماء، ومعمعة بين الثرى والسحاب تتجاول فيها البشر وتتصاول الأرباب، كأن كل ما في السماء والأرض جذوة نار اتقدت إجلالًا لبطل الرواية، كل هذه أمور على غرابتها وبعدها عن مألوف الذوق العصري تشوق المطالع وتلذ السامع لما يرى

فيها من التفنن في التبويب وتطبيق المقول على المعقول بعرف أبناء تلك القرون.

(٢) زنث أو زنثس (Ξανθος) ومعناها الأشقر أو الأصفر نهر في طروادة، قال هوميروس في موضع آخر: إن الآلهة يسمونه بهذا الاسم ويدعوه البشر إسكمندر. واسمه الآن مندرسو وقرق كوزلر.

قال: إنه انبثق من زفس؛ لأن زفس ممثل السماء ومنها تنهمل الأمطار فتملأ الأنهار.

(٣) تثير هيرا البخار لأنها ممثلة الهواء.

(٤) كان من عادتهم إذا انتاب الجراد مزارعهم أن يوقدوا له نيرانًا عظيمة، فينهزم منها مندفعًا إلى الماء، وقد دفعه هوميروس هنا إلى النهر كما دفع في التوراة إلى البحر، وكما زفاه في البر بجير بن بجرة بقوله:

كـأنهم والخيـل تتبـع فلهـم ... جـرادٌ زفتـه الـريح يـوم ضـباب

إذا ما فرغنا من ضراب كتيبة ... سمونا لأخرى غيرها بضراب

(٥) أي: أبطال رجال، وجياد مركبات.

(٦) قال عنترة:

بحسـامٍ كلمـا جردتـهُ ... بيمينـي كيفمـا مـال قطـع

(٧) غرثانة، أي: جائعة للفتك. وهي استعارة مر نظيرها (ن ٨ ون ١٥).

(٨) كان من مألوفهم حفظ كرامة النزيل، كما كانت عادة العرب، ولا تزال في البادية، فمن ذاق زادك فقد وجبت عليك رعايته وامتنع عليك الغدر به وأصبح متذممًا بك وجارًا لك. قال قائد بن سليم الأسدي:

فنعشت قومك والذين تذمموا   بك غير مختشعٍ ولا متضائلِ

ومثله قول حسان بن نشبة:

أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم   وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا

قال ابن الأعرابي: «والعرب تحلف بالملح والماء تعظيمًا لهما، ويقال بين الرجلين: ملحٌ وملحة، أي: حرمة وذمام. ويقال: مالحت فلانًا، أي: آكلته، وهي الممالحة».

(٩) في كلام أخيل من الحماسة وحقر الموت ما يدل على ما وعى صدره من الهمة الشماء والنفس الأبَّاء، يقول: إنه لا بد أن يفاجئه الموت فلا يبالي به أيان أتاه، ثم يختتم بقوله: إنه لا بد أن يجند له بطل من الأبطال بنصل يطير أو بسهم طرير إشارة إلى أنه لا يجسر أحد أن

يقابله وجهًا لوجه، بل جل ما تبلغ الفرسان من قتاله أن تحذف بالنصال عليه عن بعد خوفًا من بطشه.

(١٠) كانوا في بعض الأحوال يطرحون في الأنهر جيادًا حيةً، وهي عبادةٌ ظلت شائعة في كثير من بلادهم، حتى زمن الرومان من بعد، وكما كان المصريون من قبل يلقون في النيل بأنواع الضحايا من الإنسان والحيوان إلى أن أبطلها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب؛ إذ أنفذ عمرو بن العاص علم بن سارية الخمس إلى المدينة، فلما قضى مهمته قال: «يا أمير المؤمنين إن عمروًا يسلم عليك، ويقول لك: إن القبط كانوا استنُّوا سنة في نيلهم كل سنة، وذلك أنهم كانوا إذا أبطأ عليهم الوفاء في النيل يأخذون جارية من أحسن الجوار، ويزينونها بأحسن زينة، ويرمونها في البحر، فيأتي الماء ويوفي النيل، وقد قرب ميقات ذلك، ولا يفعل عمرو شيئًا إلا بإذنك. فكتب عمر بن الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى نيل مصر، أما بعد فإن كنت مخلوقًا لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، وأنت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع، ولا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بحول الله وقوته فاجرِ كما كنت والسلام. وأمره أن يدفع الكتاب إلى عمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة ... وتوقف النيل عن الوفاء، وقد أيس الناس من الوفاء في تلك السنة فمضى عمرو إلى النيل وخاطبه ورمى فيه

كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما رماه فيه هاج البحر وزاد إلى فوق الحد ببركة عمر رضي الله عنه» (واقدي).

(١١) زف: أسرع.

(١٢) أكسيس نهر في مكدونيا كانوا يعدونه يدعى الآن وسترتزا.

(١٣) أخلويس: إلاهٌ نهر كانوا يعتقدون بقوته وجبروته.

(١٤) النينان: الحيتان والأسماك.

(١٥) براح: علم للشمس.

(١٦) جحاف جراف، أي: سيل جارف أخاذ يذهب بكل شيء. يقول: إن النهر طغا وتدافع وتدفق سيلًا جارفًا، واكتنف أخيل حتى طاف على ترسه، إن في الأصل اليوناني لهذه الأبيات من حكاية الصوت ما يدهش له السامع، ولعل في التعريب شبهًا أو أثرًا من تلك المشاكلة.

(١٧) إن في هذا الدعاء مرآة ينعكس عنها ما تكنه صدور الأبطال من الزماع، وطول الباع، وهو يشبه دعاء إياس (ن ١٧) إذ أربدَّ الجو وتكاثفت فيه الظلمات، وضاق الإغريق ذرعًا فقال مخاطبًا زفس:

من جوك امحق حندس الديجور ثم امحهم إن شئت وسط النور

تلك أمنيه أياس، وأخيل تمنى هنا لو رماه أفلون بسهم فأهلكه أو طعنه هكطور، فجندله ذلك خيرٌ له من أن يموت غريقًا لا يقوى على صراع ولا دفاع.

(١٨) الغرين: الطين.

(١٩) قال جرير:

وما زالت القتلى تمجُّ دماءها ‏ ‏ بدجلة حتى ماء دجلة اشكلُ

(٢٠) نريد بالأعيرج هيفست إلاه النار، وهو لقبٌ له كما مر (ن ١٨).

(٢١) الفديد: الصياح.

(٢٢) إن في قتال أخيل وزنثس على غرابته شيئًا من الحقيقة صاغها الشاعر.

(٢٣) لقد يعجب المطالع لطرب زفس وارتياحه لفتنة الآلهة، ويتشوف لمعرفة سبب ذلك الارتياح — قال افستانيوس: إن زفس وهو سيد المخلوقات ورب الطبيعة وما حوت من أرض وسماء وماء وهواء يرتاح إلى نزاع الآلهة؛ لأن توازن الاتفاق لا يحصل إلا بهذا الشقاق فالأرض في نزاع مع الماء والهواء مع الأرض والماء مع كليهما، والخلاف لا بد منه أبدًا بين الحر والبرد والرطوبة والجفاف، فيحصل من هذا التنازع تعادل في قوى الطبيعة والنتيجة خصب الأرض وارتداء السهول ولجبال بثوب الجمال والاعتدال.

(٢٤) ذباب الكلاب (Κυναμυια): لفظة تحقير كما لا يخفى، وقد تحاشى أكثر نقلة هوميروس ذكر ألفاظ كهذه، كما أسلفنا

غير مرة، إما لعجز في لغاتهم، وإما لوقوعها موقعًا خشنًا في الشعر، على أني رأيت أن لا أشوه الأصل بمثل هذا الخروج عن جادة الاستخراج.

(٢٥) يشير إلى حادثته مع ذيوميذ في النشيد الخامس؛ إذ طعنه ذيوميذ بإغراء أثينا.

(٢٦) أي: إن جسمه امتد على مسافة سبعة أفدنة، وهذا التعبير على ما فيه من الغلو ليس على شيء من الغرابة بإزاء ما في خرافات كتابنا من وصف ملائكتنا بل وبشرنا أيضًا؛ كالعمالقة وعوج بن عناق الذي كان يتناول السمك من البحر ويشويه في الشمس.

(٢٧) الصَّلَى: النَّار، وأم آرس هيرا: وهو كان منحازًا إلى فئة أعدائها فكأن نكبته كانت عقابًا لهُ على مخالفتها.

(٢٨) الزهرة: هي عفرذيت.

(٢٩) أي: إن أثينا لطمت براحتها صدر الزهرة.

(٣٠) تريد أن تقول: إن آرس والزهرة ضعيفا العزم واهيا العزيمة.

(٣١) أي: إلى فيبوس فوسيذ.

(٣٢) أي: إن الفتى الحدث أولى بالشروع في القتال لنزقه وحدته، فلا يتأنى ويتروى — فيبوس لقب أفلون إلاه النور، وله مزايا شتى ذكر هوميروس شيئًا منها كقوله: «رب السهام» و«مطرب الآلهة».

كانوا يمثلونه دائمًا بصورة فتى جميل الطلعة، ذي شعر طويل مرسل، وبيده قوسٌ وسهامٌ أو قيثارٌ كما ترى في الرسم.

(٣٣) الساع: الساعات، وقد مر ذكرها مؤلهة (ن ٥).

(٣٤) في أساطيرهم أن زفس غضب يومًا على أفلون وفوسيذ، فطردهما من السماء وأنفذهما خدمة لوميدون أبي فريام ملك طروادة بعد أن نزع منهما سلطان الأرباب، فبنيا له حصونها وأقاما له سدودها، أي: إن زفس سخر للوميدون الشمس والبحر فأعاناه بصفاء الجو وسكون البحر على إتمام العمل، وقد مرَّ ذكر هذه الخرافة في النشيد الخامس.

(٣٥) بسق: ارتفع، مر تشبيه الناس بورق الشجر في النشيد السادس ص٤٤٧، ولكنه أشار هناك إلى التلاشي والتجدد معًا؛ إذ قال:و

كـــلٌّ علـــى إثـــر كـــلٍّ مشـــى فجيـــلٌ تلاشـــى وجيـــلٌ نشـــا



فيبوس (أفلون).

وأما هنا فأكثر مرماه إلى الاضمحلال كقول يزيد بن الحكم:

مــا عــذر مــن هــو للمنــو ن وريبهـــا غـــرض رجـــيم

ويـــرى القـــرون أمامـــه همـــدوا كمـــا همـــد الهشـــيم

ويجــــرب الــــدنيا فـــلا بـــــؤس يـــــدوم ولا نعـــــيم

ومثله قول عدي بن زيد:

ثـــم أضـــحوا كـــأنهم ورقٌ جـــفَّ فـــالوت بـــه الصـــبا والـــدبور

وقول ربيعة بن مقروم:

وأضـــحت بتيمـــاء أجســـادهم يشـــبهها مـــن رآهـــا الهشـــيما

ويجري مجراه قول لبيد:

ومـا المـرء إلا كالشـهاب وضـوؤه يحـور رمـادًا بعـد إذ هـو سـاطع

(٣٦) أخت أفلون أرطميس، ولقبت بقنيص الضواري، أي: صيادتها؛ لأنها كانت إلاهة الصيد.

(٣٧) القوس الطحور: البعيدة المرمى. وقوله: الصدور، أي: صدور الجيش.

(٣٨) لقبت أرطميس (وهي ديانة الرومان على ما علمت) بلبوة النساء؛ لأنهم كانوا ينسبون إليها كل موت فجائي يصيب النساء، كما ينسبون إلى أفلون موت الرجال، وهي فضلًا عن ذلك ممثلة القمر ورقيبة المواليد لعلاقة القمر بالحمل والولادة.

(٣٩) قالوا: إن هرمس (عطارد) لا يقاتل لاطونة؛ لأنه كوكب، وهي إلاهة الظلام، وليس للكواكب أن تقاتل ظلام الليل؛ لأنه لولا الليل لما سطع للكواكب نور.

(٤٠) الفارج: القوس.

(٤١) كأني بهوميروس يشير بهذين البيتين إلى ما روي له أثناء إقامته في مصر عن سدوم وعمورة على ما جاء في التوراة، أو اتصلت إليه رواية هلاك عاد، قالوا: إنه لما رأى قوم عاد أنه لا غالب لهم من الناس تجبروا واحتقروهم، فبعث الله إليهم هودًا فأبوا أن يكفوا عن الظلم وكذبوا وتمادوا فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى هلكت مواشيهم وأصابهم الضر الشديد، ثم أهلكهم بنار كنار هوميروس انبعثت في الجو من غمامة سوداء، وكان أول من نظر ما في تلك السحابة امرأة منهم يقال لها: مهد، فصفقت بيديها ونادت بأعلى صوتها ويلكم عليكم بهود، فقد أتاكم العذاب وأنشدت:

إنـي أرى وسـط السـحاب نـارا ... تنشـر مـن ضـرامها الشـرارا

يسـوقها قـومٌ علـى خيـول ... تهتـف بالأصـوات والصـهيل

وهـي عـذاب يـال عـاد فـاعلموا ... فوحـدوا الله لكـي مـا تسـلموا

ثـم اسـتجيروا بـالنبي هـود ... نبـي رب واحـد معبـود

فقـد أتـاكم عـن قريـب داهيـه ... فلـيس تبقـي مـنكم مـن باقيـه

فلما أراد الله إهلاكهم أمر خازن الريح العقيم أن يخرج منها مقدار ثقب الخاتم، فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة،

فلم تدع من عاد أحدًا إلا أهلكته، وقد فصلنا هذه الرواية في دائرة المعارف (مجلد١١ :٤٢٨).

(٤٢) الرتاج: الباب، والزلاج: القفل.

(٤٣) الصدى: العطش، والنقع: الغبار.

(٤٤) من خرافات الميثولوجيين أنه لما ولد أخيل، أمسكته والدته برجله وغمسته بنهر الستكس، فبات السلاح لا يعمل في شيء من جسده إلا في عقبه؛ حيث حالت يد ولدته دون الماء — تلك خرافة قال المحققون: إنها لم تكن معروفة في زمن هوميروس، وإلا لما كان به حاجة إلى ذلك السلاح، وتلك الصفاح، ولما أثر له فضل مغوار الأبطال في حومة القتال.

(٤٥) المراد بقوم الفناء البشر، أي: إنه لا يستحيل قتله وهو إنسان.

(٤٦) قال الحطيئة وأجاد:

أولئك آباء الغريب وغانة الـ	ـصريخ ومأوى المرسلين الدرادق
أحلوا حياض الموت فوق جباههم	مكان النواصي من وجوه السوابق

(٤٧) أي: طاولة ولم يكن يبعد عنه كثيرًا.

(٤٨) مناسر الجيش طلائعه.

(٤٩) لو روى هذه الرواية مؤرخٌ لقال: فرَّ أغينور من وجه أخيل فاختفى في غابة، وشغل أخيل تعقبه عن صد الجيش فاتسع المجال للطرواد، فلجأوا منهزمين إلى معاقلهم، ولكن قول الشاعر غير قول المؤرخ.



النشيد الثاني والعشرون

مقتل هكطور

مُجْمَلُهُ

لم يبق من الطرواد خارج الأسوار إلا هكطور، فانقض أخيل عليه فشهد فريام ذلك واستحلف ابنه أن يتقي الخطر ويدخل السور فلم يصغ هكطور إلى كلام أبيه، فأخذت أمه هيقاب تتوسل إليه وتنذره بالخطر المحدق به فلبث مكانه لا يتزعزع تتقاذفه الأفكار، وإذا بأخيل كاد يدركه فانهزم مرتاعًا، فجرى أخيل في أثره حتى دار ثلاثًا حول إليون، فرقَّ زفس لهكطور ومال إلى إنقاذه فعارضته أثينا وأبت إلا إنفاذ القدر المحتوم، فأذعن زفس لها فاندفعت أثنيا من السماء وحاول أفلون أن ينقذ هكطور، فأخذ زفس فسطاسه فوزن قدر الفريقين، فإذا بأجل هكطور قد حل فتخلى عنه أفلون، وتمثلت أثينا بصورة ذيفوب أخي هكطور فحسنت له التربص لملاقاة أخيل، ولما التقى البطلان رام هكطور أن يتواثق وأخيل، على أن القاتل منهما لا يدنس جثة القتيل، فأبى أخيل مواثقته على شيء فتبارزا فأطلق هكطور رمحه فلم ينل من خصمه إربًا، فالتفت إلى أخيه وإذا به قد توارى فعرف الخدعة واستبسل وقاتل حتى خر صريعًا، وقبل أن تفيض روحه سأل آخيل أن يعيد جثته إلى أهله، فشتمه آخيل فتنبأ له هكطور ساعة الموت بالحمام القريب، فاجتمع الإغريق حول الجثة ومثلوا بها، ثم ربطها آخيل إلى مركبته ودار

بها حول البلد والطرواد ينظرون ويتوجعون والنساء يندبن وينتحبن، وكانت أنذروماخ امرأة هكطور غافلة لا تعلم بما جرى فسمعت عويل حماتها فصعدت إلى البرج تستطلع الخبر فرأت الجثة، فأغمي عليها ورثت زوجها رثاء تتفطر له الأكباد:

وكـــــل نســـــاء إليـــــونٍ ذرفـــــن لنوحهـــــا العبـــــرا

لم تنته حتى الآن حوادث اليوم الثلاثين.

النشيد الثاني والعشرون[1]

قضـــيض الجـــيش مـــذ ذعـــرا هزيمًـــــا كالظبـــــا نفـــــرا
إلـــى إليـــون حيـــث هنـــا ك خلـــف حصـــاره انحصـــرا
يجفـــف فـــي ظـــلال قـــلا عـــه عرقًـــا بـــه ســـبحت
كتائبـــــه ويـــــروي غلـــــة فيهـــــا قـــــد اســـــتعرا
وراءهـــــم الأخـــــاءة والـــــ ــــجواشن فـــي عـــواتقهم[2]
جـــــروا لكـــــنَّ هكطـــــورًا تـــــربَّص يرقـــــب القـــــدرا
لـــــدى أبـــــواب إســـــكيا قضـــــاء الشـــــؤم ثبَّطـــــه
وبـــــابن أيـــــاك آفلـــــون أحـــــدق يصـــــدق الخبـــــرا:[3]

•••

«عـــلام وأنـــت مـــن بشـــر جريـــت تجـــد فـــي أثـــري
أتجهـــــــل أننـــــــي ربٌّ فثـــــرت بلاهـــــب الشـــــرر

تركـــــت هنـــــاك طـــــروادًا تفــــــرُّ إلــــــى معاقلهـــــا
وجئـــــت هنــــا فــــلالا أن تفــــوز تعســــت بــــالظفر
فلســــت بمائـــــتٍ أبــــدًا» فقـــــال آخيـــــل متقــــدًا:
«أزجَّـــــاح الســــهام وشــــرَّ آل الخلـــــــد والكبـــــــــر
أرى أنــــأيتني عــــن ســــو رهــــــم مكــــــرًا وإلَا كــــــم
فتًـــى عـــضَّ الحضـــيض قبيـــ ـــــل مــــا بحصـــاره اســـتترا

•••

بغــــدرك للحمــــى دخلــــوا ومجــــــدي شـــــابه الخلـــــل
ولـــم تخـــش العقـــاب فـــآه لـــو بـــك كـــان لـــي قبـــل»
ونحــــو الســـــور راح بكبـــ ـــــــره يســــــعى كلهمـــــيم
مجـــــلٍّ بالعجــــال طـــوى المجـــــال وفاتـــــه الملـــــل٤
وكــــان الشــــيخ فريـــــامٌ علــــــى الأبـــــراج يرقبـــــه
فــــــلاح لـــــه بكرَّتـــــه عليــــه تســــطع الحلــــل
ككوكبـــــة الخريـــــف إذا بـــــديجور الـــــدجى ظهـــرت
تخــــال الزهـــــر لا نــــورٌ حواليهـــــا لهـــــا ظهـــــراه

•••

(دعوهــــا الكلـــب جبَّـــارا لمـــــا عـــــن شـــــؤمها دارا
تـــؤج وإنمــــا يصــــلى الــــ ـــــورى مــــن حرِّهــــا نــــارا)

فـــأنَّ الشـــيخ ملتطمًـــا ومـــدَّ يـــدي ضـــراعته
وهكطـــور الحبيـــب دعـــا ووجـــدًا قلبـــه فـــارا
ولكـــن ظـــلَّ هكطـــور لـــدى الأبـــواب محتـــدمًا
لحـــرب آخيـــل مضـــطرمًا ليـــدرأ باللقـــا العـــارا
فمـــدَّ أبـــوه كفيـــه إليـــه وصـــاح مكتئبًـــا:
حبيبـــي لا تقـــم فـــذا «لآخيـــل فتنـــدحرا٦

•••

نعـــم هـــو فـــائق عزمـــا فيؤتيـــك الـــردى رغمـــا
نعـــم ويـــلاه مـــا أعتـــا ه فـــي سـفك الـدما ظلمـا
فلـــو آل العلـــى ودو ه ودي خلـــت جثتـــه٧
كـــلاب البـــر والعقبـــا ن تـــنهش لحمهـــا حتمـــا
وفـــارق مهجتـــي ضـــيمٌ يبـــرح بـــي لولـــدٍ فـــي
أقاصـــي البحـــر وا لهفـــي عبيـــدًا بـــاع أو أصـــمى
وأيـــن الآن ليقـــاوو ن أيـــن فليـــذر فهنـــا
فلـــول الجـــيش لكنـــي لـــذينك لا أرى أثـــرا

•••

أفـــي جـــيش العـــداة همـــا لنجـــزل فـــي فـــدائها
نحاسًـــا أو نضـــارًا فـــي خـــزائن منزلـــي ركمـــا

فـــإن الشـــيخ ألتيسًـــا　　حبـــا مـــن قبـــل ابنتـــه

لووثـــا عـــين أزواجـــي　　جزيـــل كنـــوزه كرمـــا

أم انحـــــدرا بموتهمـــــا　　إلـــى ظلمـــات آذيـــس

وثـــم البـــث والحســـرا　　ت تـــــدهمني وأمَّهمـــــا

ولكـــن للعـــزاء تـــرى　　ســـبيلًا كـــل أســـرتنا

إذا لـــم يقـــض آخيـــل　　بموتـــك هـــا هنـــا الـــوطرا

•••

فلـــذ للســـور لـــذ عجـــلا　　حبيبـــي واتـــق الفشـــلا

وذد عـــن جنـــد طـــروادٍ　　ونســـوة جنـــدها النـــبلا

ولا تتعرضـــنَّ إلـــى الـــ　　ـــحمام بوجـــه آخيـــل

فتلبســـه حلـــى المجـــد الـــ　　ـــأثيل ويبلـــغ الأمـــلا

ورقَّ لوالـــــدٍ هـــــمٍّ　　نصـــوحٍ زفـــس قـــدَّر أن

يبيـــد بعيـــد أن يـــدها　　هـ كـــل بـــلا وأيُّ بـــلا٨

إبـــادة ولـــده طـــرًّا　　وذل بناتـــه أســـرًا

ونهـــب منـــازل فيهـــا　　العـــدو يعيـــث منتشـــرا

•••

وكنـــات بـــذلتها　　تجـــرُّ علـــى مرارتهـــا

وأطفـــال بكـــفِّ الظلـــ　　ـــم ترمـــي مـــن أســـرَّتها

هنـــاك أبـــوك تهلكـــه | الحتـــوف وســـوف تدركـــه
ببتَّـــار الأعـــادي أو | بســـهم مـــن كنانتهـــا
فـــأطرح دون أعتـــابي | تمزقنـــي كـــلابٌ قـــد
غـــذوت بظـــل أبـــوابي | حمـــاةٌ لـــي بجملتهـــا
دمـــي تمـــتصُّ ناهشـــةً | فتـــروي حـــرَّ غلّتهـــا
وثـــمَّ تنـــام مـــلأى دو | ن لحـــمٍ بينهـــا انتشـــرا

•••

لـــئن مـــات الفتـــى الجلـــد | وفيـــه أنفـــذ الحـــدَّ
صـــريعًا ظـــل لكـــن جـــ | ـــل فيـــه الحســـن والمجـــد
ولكـــن حيـــث شـــيخ العجـــ | ـــز حرمتـــه قـــد انتهكـــت
كـــلاب دســـن شـــيبته | وناصـــع لحيـــةٍ تبـــدو
فتلـــك النكبـــة الـــدهما | ء لا رزء يشـــاكلها
بمـــرء البـــؤس مـــا اشـــتدَّت | بـــه أرزاؤه الأد»٩
وظـــل ينـــوح مصـــطلمًا | بكفَّـــي عجـــزه شـــعرًا
وهكطـــور يصـــد كأنـــ | ـــه بأبيـــه مـــا شـــعرا

•••

هنالـــك أمـــه انـــدفعت | بهاطـــل عبـــرة همعـــت
لديـــه صـــدرها كشـــفت | وثـــدييها لـــه رفعـــت

وصـــاحت: «آه هكطـــورٌ بنـــيَّ ارفـــق بوالـــدة

وهـــذا الصـــدر فـــارغ فكـــم بعهـــد صـــباك قبـــل رعـــت

وهـــذا الشـــدي فـــاذكر كـــم رضـــعت فنحـــت مبتهجًـــا

تعـــال تعـــال فالأســـوا ر فـــي وجـــه العـــدى امتنعـــت

إليهـــا لـــذ وقاتـــل ذ لـــك العـــاتي بســـترتها

ولا تتربَّصـــن لـــه وحيـــدًا واتـــق الخطـــرا

•••

فـإن دمـك السـخين سـفك فـلا نعـشٌ يهيـأ لـك

تنـوح أنـا وعرسـك حـو لـه والحتـف قـد صـدعك

ولكـن تغتـدي عنـد الـ ـسفائن نائيًـا عنـا

طعامًـا للكـلاب بذلّـ ـةٍ فيهـا الشـقي هلـك» ١٠

كـذاك كلاهمـا انتحبـا ولكـن صـم هكطـورٌ

وظـل بوجـه ذاك القـ ـم لا يخشـى عنـا ودرك

كـأفعى الشـم حـول الوكـ ـر نقـع السـم فـي فمهـا

تـرى ملتفـة حنقًـا وتقـدح عينهـا شـررا

•••

وتلبـث فـي انتظـار فتـى عليهـا بالسـلاح أتـى

كمـا هكطـور فـي وجـه الـ ـعدو بأرضـه ثبتـا

فأتكـــا جوبـــه للســـو ر يخـــبط فـــي هواجســـه:
«لـــئن ألـــح الحصـــار ففـــو لداماسًـــــا أراه عتـــــا ١١
يعنفنـــي علـــى منعـــي الـــ ـــــطراود عـــن معـــاقلهم
وســـيف آخيـــل لاح لنـــا بـــذاك الليـــل متصـــلتا
فلـــم أفقـــه نصـــيحته وإن حســـنت وســـرت علـــى
مـــرام الـــنفس فامحقـــت ســـرايا الجـــيش وانكســـرا

•••

وربَّ معـــارضٍ جحـــد أمـــام الغيـــد والعمـــد١٢
يقـــول: «عتـــو هكطـــور الـــ ـــــمكابر علـــة الشـــدد
فكـــلَّا لـــن أعـــود إذن فإمـــا قتـــل آخيـــل
وإمَّـــا مصـــرعي بـــالعز فـــي ذودي عـــن البلـــد ...١٣
ومـــا ظنـــي إذا ألقـــي الـــ ـــــتَّريكة والمجـــنَّ هنـــا
وأتكـــئ عـــاملي للســـو ر منبعثًـــا بـــلا عـــدد
وأطمعـــه بـــرد هلانـــ ـــةٍ وجميـــع مـــا ذخـــرت
ومـــا فـــاريس قبـــل أتـــى بـــه فـــي الفلـــك وادَّخـــرا

•••

فتلـــك العلـــة الكبـــرى ليخـــل بهـــا بنـــو أتـــرا
وممَّـــا فـــي خزائننـــا نبـــيح لهـــم كـــذا شـــطرا

وكبـــار الشـــيوخ يميـــ   ـــن صـــدقٍ يغلظـــون لهـــم

بـــأنهم عليهـــا جمـــ   ـــلةً مـــا أســـبلوا ســـترا ١٤

شـــططت فتلـــك أضـــغاثٌ   بهـــا قلبـــي يحـــدثني

فعـــذري لـــن يـــروق لعيـــ   ـــنه إن ألـــتمس عـــذرا

فيـــبطش بـــي بغيـــر تـــرد   دٍ فأبيـــد كـــامرأةٍ

إذا عريـــت مـــن عـــدد   تصـــد الخطـــب حيـــث عـــرا

•••

فمـــا هـــذا المجـــال هنـــا   مجـــالٌ للحـــديث لنـــا

فأبـــذل فـــي الخطـــاب لـــه   عميـــق الســـر والعلنـــا

كمـــا شـــاق الحـــديث فتًـــى   وغانيـــةً بـــلا حـــرج

لـــدى ملولـــةٍ أو صخـــ   ـــرةٍ فـــي ظلهـــا أمنـــا

فلـــيس لنـــا ســـوى قـــرع الـــ   ـــنصال أجـــل بـــلا مهـــل

فيظفـــر مـــن أبـــو الأولمـــ   ـــب زفـــس دمـــاءه حقنـــا» ١٥

كـــذلك ثـــار هاجســـه   وآخيـــل بعاملـــه

كـــرب الحـــرب هيـــاج الـــ   ـــترائك للـــوغى ابتـــدرا

•••

بريـــق الـــدرع قـــد ســـطعا   عليـــه كبـــارقٍ لمعـــا

تـــألق أو كنـــور الشمـــ   ـــس فـــي كبـــد الســـما طعـــلا

وهكطـــــــور لرؤيتــــــــه تقطـــــع وصـــــل عزمتـــــه

ففــــــرَّ وخلفــــــه آخيـــــــ ـــل طيَّـــار الخطـــى انـــدفعا١٦

كبــــــاز يطلـــــب الورقـــــا ء وهــــــي تــــــزف هالعـــــةً

ومـــــا جـــــارى بـــــزاة الشـــم طيـــــرٌ فـــــي الفـــــلا ارتفعـــا

تعقبهـــــــــا بصرصـــــــــرة تـــــذيب لبـــــاب مهجتهـــــا

فراغـــــت وهـــــو مـــــنقضٌ بنافـــــذ مخلـــــبٍ شـــــهرا

•••

كـــــذا الأبـــــواب هكطـــــور تجـــــاوز وهـــــو مـــــذعور

تطيـــــر بـــــه خطـــــاه وهـــــ ـــو دون آخيـــــل مـــــدحور

فجـــــازا مرقـــــب الأرصـــــا د حتـــــى التينـــــة العظمـــــى

علـــى جـــدد العجـــال حيـــا ل خـــط فوقـــه الســـور١٧

إلـــى أن بلغـــا الحوضيـــ ـــن حيـــث المـــاء منـــبجسٌ

بينبـــــوعين مـــــن زنـــــثٍ تـــــؤم رباهمـــــا الحـــــور

فينبـــــوع ســـــخينٌ والـــــ ـــــبخار عليـــــه منتشـــــرٌ

وينبـــــوعٌ بمـــــاء كالـــــ ـــــجليد تخالـــــه انفجـــــرا١٨

•••

هنـــــاك مغاســـــل الصـــــخر لغســـــل ملابـــــس غـــــر

لهـــا قـــد كانـــت الغـــادا ت مـــن قبـــل الـــوغى تجـــري

تعـــــداها كــــلا البطليـــــ ـــــــن ذا عـــادٍ وذا تـــالٍ
شـــجاعٌ فـــرَّ ممـــن كـــا ن أشـــجع منـــه بـــالكر[١٩]
ومـــا انبريـــا بميـــدان الـــ ـــــرهان لجلـــد ثـــور أو
لـــذبحٍ يحـــرز العـــدا ء يـــوم الفـــوز بالنصـــر[٢٠]
ولكـــن الســـباق هنـــا علـــى أنفـــاس هكطـــور
ثلاثًـــا حـــول إليـــون إزاء حصـــارها عبـــرا

•••

كســـباق القياديـــد تغيـــر بمـــأتم الصـــيد[٢١]
إلـــى غـــرضٍ علـــى أمـــدٍ يقـــام لهـــنَّ محـــدود
وجـــائزة المجلـــي تلـــ ـــك إمـــا خبـــر منضـــدةٍ
وإمـــا غـــادةٌ مســـبيةٌ مـــن صـــفوة الغيـــد
وآل الخلـــد قاطبـــةً مـــن الأولمـــب راقبـــةٌ
فصـــاح أبـــو ســـراة الخلـــ ـــد والنـــاس المناكيـــد:
«أرى بشـــرًا أحـــب تعقـــ ـــبوه حـــول إليـــون
لهكطـــور الفتـــى الـــورع الـــ ـــفؤاد أراه منفطـــرا

•••

فكـــم فـــي إيـــذةٍ قـــدما وفـــي أبراجهـــا الشـــمَّا
بخيـــر الثـــور لـــي ضـــجى يســـيل اللحـــم والشـــحما

وهـــاكم خلفـــه آخيــــ ـــــل منقضًّـــا بخفتـــه

عليـــه فـــاحكموا فيمـــا عســـى أن نصـــدر الحكمـــا

أنرجعـــــه ســــــليمًا أم ببـــأس آخيـــل نهلكـــه»

فآثينـــا انبـــرت تحـــتج: «ذاك إذن غـــدا ظلمـــا

أتنقـــذ مـــن زؤام المـــو ت مـــن حـــتم القضـــاء لـــه

فـــإن تفعـــل فمـــا فـــي الخلـــ ـــد ربٌّ خلتـــه شـــكرا»

•••

فقـــال لهـــا أو السُّـــحب: «بغيظـــك لأقضـــي أربـــي

فمـــا شـــئت ابتغـــي عجـــلًا وســـيري وا أمنـــي غضـــبي»

فثـــارت فـــوق ثورتهـــا وطـــارت عـــن منصَّـــتها

وهكطــــورٌ وراه آخيـــــ ـــل ظـــل يجـــد فـــي الطلـــب

كأغضـــف رام ريمًـــا فـــي الـــ ـــكناس فهـــب منبعثًـــا٢٢

لديـــه ضـــاربًا فـــي الطـــو د بـــين مشـــاعب الهضـــب

فـــلا أزيـــاف تحميـــه ولا أيـــــكٌ يواريـــــه

وحيـــث جـــرى ففـــي أعقـــا بـــه داعـــي المنـــون جـــرى

•••

كـــذا هكطـــور مـــا وجـــدا ســـبيلا للنجـــاة بـــدا

فآخيـــل علـــى آثـــا ره مســـتظهر أبـــدا

فكــــم مـــــن مـــــرةٍ أبـــــوا ب إليـــــــون ومعقلهـــــــــا

بغـــــى لتهـــــال أســـــهمها بوجــــــه عـــــدوه بـــــــردا٢٣

وكــــم مـــــن مـــــرة آخيـــــ ـــــل قـــــام بوجهـــــه فعـــــدا

هزيمًــــا فـــــوق ذاك السهـــــ ـــــل عـــــن إليـــــون مبتعـــــدا

كمــا لــو فــي الكــرى طيــف بغـــــاك فـــــم تطـــــق هربًـــــا

وإمَّـــــا رمتـــــــه فصَّـــــــر ت عنــــه كيفمــــا صـــــدرا٢٤

•••

فــــلا هـــــذا نجـــــا هربــــا ولا ذا مــــــــــدركٌ أربــــــــا

وإنَّ بعـــــــدو هكطــــــــور بـــــــذيَّاك المـــــدى عجبــــــا

ولا بـــــــــدع فـــــــــآفلو ن أفـــــــرغ فيـــــه قدرتــــــه

وخفتـــــه لكـــــي لا يلـــــ ـــــتوي بفـــــراره تعبــــا٢٥

وآخيـــــل بعزَّتـــــه إلـــــى الأجنـــــــاد أومـــــــا أن

قفـــــوا كـــــي لا بهكطـــــورٍ يـــــرى نصـــــلٌ لهـــــم نشـــــبا

لـــئلَّا يحـــرز الشَّـــرف الـــ ـــــرَّفيع بقتلـــــه علنًـــــا

ســــواه فـــــلا ينـــــال فخـــــا ر ذاك اليـــــوم والظفـــــرا٢٦

•••

وإذ بلغـــــــا متابعـــــــةً إلـــــى العينـــــين رابعـــــةً

مـــــوازين النضـــــار أبـــــو الـــ ـــــعباد أقـــــام ســـــاطعةً

بهـــا قـــدحي ردًى ألقـــى   لـــــذا ســـــهمٌ وذا ســــهمٌ

ولاحـــت كفُّـــه فـــي وســـ   ــــطها فـــي الحـــال رافعـــةً

فهكطـــــورٌ أميلـــــت للـــــ   ــــجحيم هنـــــاك كفَّتـــــه

وفيــــبس صـــدَّ عنـــه وبـــا   درت فــــالاس هارعـــــةً[٢٧]

أتـــت آخيـــل قالـــت: «يـــا   حليـــف المجـــد حـــان لنـــا

بـــأن نحبـــو الخمـــيس بنصـــ   ــــرةٍ مـــا مثلهـــا انتصـــرا

•••

فهكطـــــــــورًا بشـــــــدَّته   نميـــــت بوجـــــه أســــرته

فيهلــــــك دون أســــــطول   الأخـــــاءة فـــــي مذلتــــه

ولـــن يجـــد المنـــاص ولـــو   أفلّـــــون ارتمـــــى وجـــــلًا

علـــى قـــدمي حفـــيظ الجـــو   ب مزدلفًـــــا لنجدتــــه[٢٨]

هنـــا قـــف واســـترح حتَّـــى   أوافيـــــــه وأغريـــــــه

بحربـــــك فـــــانثنى آخيـــــ   ــــل مبتهجًـــا بجملتـــه

وقـــام إلـــى القنـــاة هنـــا   ك مســـــتندًا وآثينـــــا

أتـــت هكطـــور فـــي زيٍ   بـــه ذيفـــوب قـــد شـــهرا[٢٩]

•••

وصـــاحت: «يـــا أَخَـــيَّ كفـــى   أرى آخيـــــل زاد جفـــــا

ســـــامك بالهزيمـــــة والــــ   ــــفرار أمامـــه الضـــعفا

فقـــف تتربصـــن لـــه   فيرجـــع خاســـئًا عنَّـــا»

فســـكن روعِ هكطـــورٍ   وقـــال لهـــا وقـــد وقفـــا:

قـــدرتك فـــوق ســـائر ولـــ   ـــد فريـــامٍ وإيقـــابٍ

فأنـــت شـــقيق هكطـــور الـــ   ـــشفيق ومـــن بـــه كلفـــا

وكيـــف وقـــد شـــهدت الخطـــ   ـــب والطـــرواد طـــرًّا فـــي

معـــاقلهم قـــد انحصـــروا   أتيـــت إلـــيَّ منحـــدرا»

•••

فقالـــت: «يـــا أَخَـــيَّ أبـــي   وأمـــي قـــبَّلا ركبـــي

وكـــل الصـــحب حولهمـــا   بقلـــب هـــد مكتئـــب

يـــروعهم روزي خـــا   رج الأســـوار فالتمســـوا

ســـكوني فـــي معـــاقلهم   بـــدمعٍ ســـحَّ منســـكب

أبـــت نفســـي البقـــاء وأنـــ   ـــت منفـــردٌ لآخيـــل

فأقبـــل نشـــحذنَّ لـــه   صـــقيل النصـــل والقضـــب

إخـــال دمـــاءه هـــدرت   برمحـــك أو لأســـرته

مضـــى فـــي جثتينـــا ظـــا   فـــرًا ودماءنـــا هـــدرا

•••

وراحـــت تحـــت ســـترتها   لنعمـــل كـــل خـــدعتها

تســـير أمامـــه فخطـــا   يجـــدُّ وراء خطوتهـــا

وحـــــين تقابـــــل الـــــبطلا ن صـــاح يقـــول هكطـــور:

آخيـــل هـــاك نفســـي الآ «ن جاشـــت فـــي حميَّتهـــا

أبـــت مـــن بعـــد أن تنصـــا ع هالعـــــةً كمـــا نفـــرت

ثلاثًــــا حـــــول إليــــونٍ أمامـــــك فـــــي هزيمتهـــــا

وإن الآن حـــــد الفصــــــــ ـــــل لكــــن فلـــنقم علنًـــــا

ونعقـــــد عقـــــد ميثـــــاقٍ ونقســـــم هـــــا هنـــــا جهـــــرا

•••

ونستشـــــهد بنـــــي الخلــــد علـــــى الأيمـــــان والعهــــد

فهـــم خيـــر الشـــهود علـــى الـــورى فـــي القـــرب والبعـــد

لـــئن أوتيـــت نصـــرًا مـــن لـــدى زفـــس فحســـبي أن

تمـــوت وأن تجـــرَّد مـــن زهـــي ســـلاحك الصـــلد

ولكنـــــــــي أزدك للـــــــــ ـــــــأخاءة لا هـــــــوان ولا

أذى عـــدني إذا فـــي مثـــ ـــل هـــذا صـــادق الوعـــد»

فأحـــدق فيـــه شـــزرًا يلـــ ـــتظي آخيـــل قـــال: «صـــهٍ

ولا تـــــذكر وفاقًـــــا لا وفـــــاق بينـــــا ذكــــرا

•••

أبـــين النـــاس والأســـد وفـــاقٌ محكـــم العقـــد

وهـــل خلـــت العـــه بـــين الـــذئب والنقـــد٣٠

فكـــــلٌّ قلبـــــه بضـــــغا	ئـــــن الأحقـــــاد مُتَّقِـــــدٌ
كقلـــبٍ بيننـــا فـــي غلـــ	ـــــة الأضـــــغان متقـــــد
ولا عهـــــــد لنـــــــا إلَّا	نصـــــال الصـــــم نعملهـــــا
فيجـــــرع آرس دم مـــــن	ثـــوى فـــي هاتـــه الجـــدد
فـــأبرز بـــالبراز لنـــا	قـــواك ولا منـــاص هنـــا
وقـــوِّم رمحـــك العـــالي	وأعمِـــل ســـيفك الـــذّكرا٣١

•••

أثينـــــــا الآن تبتـــــــدر	برمحـــــي منـــــك تثئـــــر
لـــبهمٍ قـــد أبـــدت وأنـــ	ـــت بالهيجـــاء تســـتعر»٣٢
وأطلـــق رمحـــه فمضـــى	وهكطـــور انحنـــى حـــذرًا
فجـــاوز رأســـه لـــلأر	ض لا ينتابـــــه ضـــــرر
ولكـــن بـــادرت فـــالا	س تنزعـــه علـــى عجـــلٍ
وترجعـــــه لآخيـــــل	وعـــن هكطـــور تســـتتر
فصـــاح فتـــى الطـــراود: «قـــد	شـــــطت وتـــــدَّعي زورًا
بعلـــمٍ مـــن لـــدى زفـــسٍ	بمـــا لـــي فـــي القضـــا ســـطرا

•••

ألفـــت المـــين والكـــذبا	لتثنـــي همَّتـــي رعبـــا
فلســـت بطـــاعنٍ ظهـــري	ولســـت بمنـــشنٍ هربـــا

ودونـــك للقـــا صـــدري إذا زفـــسٌ بـــذاك قضـــى
وذا رمحـــي عســـى ألقـــا هـ فـــي أحشـــاك منتصـــبا
فـــوا طـــرب الطـــراود إن تمـــت فلأنـــت آفـــتهم
وبعـــــدم حـــــربهم لا أز مـــــةً فيهـــا ولا حربـــا»
وزجَّ فطـــــار عاملـــــه لقلـــب مجـــن آخيـــل
وعنـــه ارتـــدَّ لا يلـــــ ـــقى العـــدو بنصـــله الضـــررا

•••

فهكطـــور التظـــى قهـــرا لنصـــلٍ زاهقًـــا طـــرًّا
فصـــاح يـــروم ذيفوبًـــا ويطلـــب صـــعدة أخـــرى٣٣
ولا أثـــــرٌ لـــــذيفوب يلـــوح لديـــه فاضـــطربت
جوارحـــه وأدرك كنـــــ ـــه ذاك النكـــر والمكـــرا
وصـــاح يقـــول: «وا لهفـــا أرى الأربـــاب قاضـــية
علـــيَّ فخلـــت ذيفوبًـــا إلـــيَّ مســـارعًا جهـــرا
فلـــم يتعـــدَّ أســـوار الـــ ـــحصار وتلـــك فـــالاس
علـــى عينـــي غشـــت والـــ ـــحمام أراه منتظـــرا

•••

فـــلا نجـــوى وزفـــس قضـــى وآفلـــون مـــا اعترضـــا
وكـــم قـــد أوليـــاني قبـــ ـــل ظـــلَّ حمايـــة ورضـــا

ولكـــــن القضــــــاء أتــــــى فـــــأهلًا بالقضــــــاء فــــــلا

مــــرد وخلتـــــه مــــا حـــــط مــــن هممـــــي ولا خفضـــــا٣٤

أمــــــوت بعــــــزةٍ تتـــــرى لأجيــــــــــال فأجيــــــــــال

ومجــــدٍ بـــــاذخ بـــــي فـــــو ق أبـــــراج العلـــــى نهضـــــا»٣٥

وســــلَّ حســـــامه مـــــن غمـــــ ــــــده بلباقـــــــةٍ ومضـــــــى

بقلــــــب لا تغيـــــــره الـــــــ ــــــخطوب ولا يـــــرى الغيـــــرا

•••

كنســـرٍ مـــن علـــى السـحب يــــزف إلــــى رُبــــى كثــــب

علــــى حمـــــلٍ يـــــرى أو أر نـــــبٍ فـــــي مشـــعب الهضــــب

وآخيـــــــل انبـــــرى متضـــــر مًـــــــا غيظًـــــــا بعزمتـــــــه

بجنتـــــه التــــي فـــــي الكـــــو ن أضـــــحت آيـــــة العجــــب

وخوذتــــه التـــــي مـــــن صنـــــ ـــــــع هيفســـــــت بهامتـــــــه

تهـــــــيج منيــــــــرةً ويهيـــــــــ ـــــج فيهـــــا قـــــونس الـــــذهب

وصـــــــعدته تــــــؤج كمــــــا بليــــــلٍ حالـــــكٍ ســـــطعت

تفـــوق الزهـــــر كوكبـــــة الــــــ ــــــمساء وتـــــبهج النظـــــرا٣٦

•••

فســـــرَّح طـــــرف مقلتـــــه بهكطــــــــــورٍ وشــــــــــكَّته

ليبصــــــر منفـــــذًا فيـــــه يـــــواري حــــد صـــــعدته٣٧

وهـــل تمضـــي النصـــال بعـــد ... ة فطرقـــــــل كـــــرَّ بهـــــا

ومـــا هـــي قـــط غيـــر ســـلا ... ح آخيـــــــــل ولأمتـــــــــه

فأبصـــــر بعـــــد حـــــين نحـــــ ... ــــره بــــــرزت مفاصــــــله

فبـــــين الجيـــــد والكتفيـــــ ... ــــن بـــــادره بطعنتـــــــه

فغـــاص ســـنانه فـــي مخـــ ... ــــرج الأرواح منتصــــــبًا

ولكـــن فـــي مجـــاري الصـــو ... ت والأنفـــاس مـــا صـــدرا

•••

فخـــــر وللثـــــرى ضـــــرجا ... وصـــاح آخيـــل مبتهجـــا:

«أخلـــت تعســـت فطـــرقلًا ... يبيـــــد هنـــــا ولا حرجـــــا

أغـــرك أننـــي قـــد كنـــ ... ــــت يـــا هكطـــور معتـــزلا

ولــــم تعلــــم لفطرقـــــلٍ ... ظهيــــرًا يقحــــم اللججـــــا

فتًـــــى وافـــــاك محتـــــدمًا ... مـــن الأشـــراع منتقمًـــــا

فبـــــدت ولـــــم تزعزعـــــه ... قـــــواك ولا لهـــــا اختلجـــــا

فـــرح طعـــم النـــواهس والـــ ... ــــصقور وثـــم فطرقـــلٌ

بمأتمـــه لفيـــف الجيـــ ... ــــش ســـار بحرمـــةٍ وســـرى»

•••

فقـــال بغصـــة الحتـــف: ... «بروحـــك مصـــرعي يكفـــي

بحرمـــة والـــديك وركـــ ... ــــبتيك عليـــك بـــاللطف

وخــذ مــا شــئت مــن أبــويَّ   مـــن ذهـــب ومـــن صـــفر
فـــلا تخلـــو الكـــلاب بجثـــ   ـــتي فـــي ذلـــك الجـــرف
وجـــد لهمـــا بجســـمي يـــذ   هبـــــان بـــــه لصـــــرحهما
فتحـــــرق أعظمـــــي وعلـــــيَّ   يهمـــــر وابـــــل الطـــــرف»
فصـــــاح آخيـــــل: «ويلـــــك لا   بحرمـــــــــة والـــــــــديَّ ولا
بقبلـــــــة ركبتـــــــيَّ تجـــــــا   ب يـــــا ذا الكلـــــب معتـــــذرا

•••

وددت لـــــو أننـــــي غضـــــبا   بلحمـــــك أقتـــــل الســـــغبا
لمـــــا جرعتنـــــي غصصًـــــا   ومـــــا أورثتنـــــي كربـــــا٣٨
فـــلا غيـــر الكـــلاب تشـــق   رأســـك لـــو هـــم بـــذلوا
فـــداءك عشـــر أو عشريـــ   ـــن فديـــة ميـــتٍ ذهبـــا
ولـــــو فريـــــام أدى ثقـــــ   ـــل جســـمك عســـجدًا صـــرفًا

فأمـــك حـــول نعشـــك لـــن   تفـــيض شـــجًى وتنتحبـــا»
فقـــــال بزاهـــــق الأنفـــــا   س: «آه أجـــــل بلوتـــــك ذا
جنـــــانٍ كالحديـــــد فلـــــن   يلـــــين أسًـــــى وينكســـــرا

•••

ألســــــت الآن تخشــــــى أن   يهـــال عليـــك غيـــث محـــن

وتـــنقم لـــي ســراة الخلـــ … ـــد منــك ولــو عقيــب زمــن

وتنكـــب يـــوم فـــاريس … وفيبـــــوس بإســـــكيا

بقتلــك يخمــدان صــلى احـــ … ـــتدام بـــالفؤاد كمـــن» ٣٩

وأســـبل فـــوق مقلتـــه … ظــــلام المـــوت ســـترته

وأمـــت روحـــه ســـقرًا … تطيـــر علـــى أسًـــى وشـــجن

وتنـــدب بأســـه وشـــبا … بـــه ومصـــيره فثـــوى

هنـــاك وصـــاح آخيـــل … بـــذاك الفـــوز مفتخـــرا:

•••

«ألا مـــت صـــاغرًا وأنـــا … أمـــوت إذا الحمـــام دنـــا

وروحـــي حـــين يقضـــي أمـــ … ـــر زفـــس تفـــارق البـــدنا»

وجـــر ســـنانه مـــن نحـــ … ـــره يلقيـــه فـــي طـــرفٍ

وجـــرده الســـلاح فنـــا … ل أبعـــد بغيـــةٍ ومنـــى

وأقبلـــت الأخـــاءة حـــو … ل ذاك القـــرم مكبـــرةً

جمـــالًا زان طلعتـــه … كـــلٌّ طعنـــةً طعنـــا ٤٠

يقـــول: «ألا اعجبـــوا مـــا كـــان … أروعـــه وقـــد أورى

ســـفائننا فهـــا هـــو لا … يـــروع ولا صـــلاه يـــرى»

•••

وآخيـــل مـــذ انتزعـــا … جميـــع ســـلاحه هرعـــا

يصـــيح بـــذروةٍ مـــن حيـــ ـــث ســـائر جيشـــه ســـمعا:

«ألا يـــا صـــحب يـــا أقيـــا ل فالأربـــاب قـــد دفعـــت

لكـــم مـــن زاد هـــولًا عـــن جميـــع الجـــيش مجتمعـــا

ألا مـــــا رمـــــتم إليـــــو ن بالبتـــــــار نـــــــدهمها

لـــنعلم مـــا عليـــه أهـــ ـــلها والخطـــب قـــد صـــدعا

أينصـــــــاعون منحازيـــــــ ـــن عـــن أبـــراج معقلهـــم

أم ارتـــأوا البقـــاء وثـــا بـــروا فـــي عـــزمهم كبـــرا

•••

عـــلام العـــزم قـــد هجســـا بصـــدري الكـــرَّ ملتمســـا

وفطرقـــــــل صـــــــريعٌ لا يفـــيض عليـــه دمـــع أســـى

ولا قبـــــــرٌ يواريـــــــه ولا أحبـــــــاب تبكيـــــــه

فنفســـي آه لـــن تنســـا ه مـــا بـــي رددت نفســـا

ســـأذكره ولـــو فـــي منـــ ـــتهى أعمـــاق آذيـــس

ولـــو كـــلٌّ ســـلا كـــلَّ الـــ ـــأنام هنـــاك إن حبســـا ٤١

بنـــا يـــا فتيـــة الإغريـــ ـــق ســـيروا للســـفين إذا

بهكطـــورٍ علـــى نغـــم الـــ ـــنشيد تفـــرج الكـــدرا:

•••

«قتلنـــا القـــرم هكطـــورا وعـــاد الجـــيش منصـــورا

فـــأين فتـــى الطـــراود مـــن ‏ كـــربٍ كـــان مقـــدورا»٤٢

وبـــالغ فـــي الهـــوان فشـــ ‏ ـــــق كعبيــــــه يشــــدهما

بســـــير للعجــــال وظــــلَّ ‏ رأس الميــــت مجـــــرورا٤٣

وحـــــل بعرشــــه وســــلا ‏ ح هكطـــــــور براحتـــــــه

وســـاق الجـــرد فانـــدفعت ‏ تثيـــــر النقـــع ديجـــورا

وحالـــك فـــرع تلـــك الهـــا ‏ مــــة الحســــناء منتشـــرٌ

عليهـــا وهــــي ســــائلة ‏ دماهـــا تلطـــم الحجـــرا

•••

كـــــذلك زفـــس ألقـــــاه ‏ هنـــــاك لهـــون أعـــــداه

يــــدنَّس حســــن طلعتــــه ‏ بعثيــــــر أرض منشــــــاه

وإيقــــــابٌ ببرقعهـــــــا ‏ رمــــت تبكـــي مولولــــةً

تقطـــع شـــعرها وتصيـــ ‏ ـــــح نائحــــةً لمـــــرآه

وفريـــــام لجانبهـــــــا ‏ يـــــئنُّ بغــــل حســــرته

وحولهمـــا عــــلا وبكـــلِّ ‏ تلـــــك الأرض منعـــــاه

وضــــج الجــــيش منتحبًــــا ‏ كمــــا لـــو كـــل إليـــون

ســــعير النــــار ألهبهـــــا ‏ وكـــــل ربوعهـــــا دمـــــرا

•••

وكــــاد الشـــيخ ينهـــزم ‏ مــــن الأبـــواب رغمهـــم

فصـــــدوه ومـــــا كـــــادوا وفـــــي أحشـــــائه ضـــــرم

فخـــر علـــى الســـماد تمـــر غًـــــا مســـــتحلفًا هـــــذا

وذلـــــك مســـــتغيثًا ثـــــم قـــــام يصـــــيح بيـــــنهم: ٤٤

بحقكـــــم دعـــــوني أبـــــ «ـــــرح الأبـــــراج منفـــــردًا

إلـــى فلـــك العـــداة ولـــو بعـــــادي الآن ســـــاءكم

لـــــدى ذيالـــــك العـــــاتي بشـــــيبي وانحنـــــا ظهـــــري

أذِلّ فربمـــــــا لهمـــــــا بعـــــين عنايـــــة نظـــــرا

•••

فـــــإن لـــــه أبًـــــا هِمًّـــــا نظيـــــري يـــــدرك الهَمَّـــــا

ويـــــا لخليفـــــةٍ أهمـــــت علينـــــا الأبـــــؤس الـــــدهما

ومهمـــا نـــالكم مـــن شـــر هـ فبلتـــــــي أدهـــــــى

فكـــم لـــي فـــي الشـــباب الغـــ ـــــض أفنـــى فتيـــةً بهمـــا

بكيـــــــتهم وأبكـــــــيهم ولكـــــن كـــــل حســـــرتهم

جميعًـــــا لا تـــــوازي حـــــز ن هكطـــــورٍ فـــــوا غمـــــا

أيـــا هكطـــور حزنـــك ســـو ف ينـــزل بـــي إلـــى قبـــري٤٥

ألا مـــــا بـــــين أذرعنـــــا صـــــرمت بموتـــــك العمـــــرا

•••

لكـــــان هنـــــا العـــــزا دارا فأشـــــبع لاعجًـــــا ثـــــارا

بقلـــــــب أبٍ وأمٍّ يـــــــذ | رفـــان الـــدمع مـــدرارا»
وغــــص بفـــائض العبـــرا | ت والحســـــرات منتحبًــــا
ومـــن حوليـــه دمـــع القـــو | م بحـــرا فـــاض ذخـــارا
وبـــــين نســـاء طـــرواد | بـــدت إيقـــاب نادبـــة:
بُنـــيَّ عـــلام أشـــقى بالـــ | «ـــحياة وألتظـــي نـــارا
وأنـــت بنـــي مـــت وكنـــ | ـــت فـــي يـــومي وفـــي ليلـــي
فخـــاري وابتهـــاجي وابـــ | ـــتهاج جميـــع مـــن حضـــرا

•••

وكنـــت ظهيرنـــا البـــرا | تشـــيد لقومـــك الفخـــرا
تكـــاد تكـــون بـــالإجلا | ل معبـــود الســـرى طـــرًّا
ودفّـــاع الـــبلا عـــن بهـــ | ـــم طـــرواد ونســـوتها
فهـــا قـــد غالـــك الحتـــف الـــ | ـــمريع بحكمـــه قســـرا»٤٦
وأمـــــا أنـــــــذروماخ | فمـــا إن جاءهـــا نبـــأ
بـــأن القـــرم هكطـــورًا | وراء حصـــــاره خـــــرًّا
وكانـــت فـــي أعـــالي القصـــ | ـــر تنســـج ثـــوب برفيـــرٍ
تبطنـــــه وتـــــنقش فـــــو | قـــه مـــن وشـــيها غـــررا

•••

وقـــد قامـــت جواريهـــا | لـــدى النيـــران تـــذكيها

وتحمـــي المـــاء فـــي قـــدرٍ   ليســـــبح زوجهـــا فيهـــا
فيـــا لمصـــابها لـــم تـــد   ر آثينـــــا بـــــه فتكـــــت
بكـــــف آخيـــــل لا غســـــلٌ   لبعـــــلٍ لـــــن يوافيهـــــا
فقامـــت ضـــجةٌ فـــي البـــر   ج بـــــين بكًـــــى وولولـــــةٍ
فخــــارت بـــــين بلبلـــــة   وأشـــــــجانٍ تلظيهـــــــا
وكفَّاهـــــا الوشــــيعة منـــــ   ـــهما ســـقطت بدهشـــتها[47]
وصــــاحت بالحســـــان وشعـــــ   ــــرهن جـــــدائلًا ضــــفرا:

•••

«ألا مـــــــنكن ثنتـــــــان   معــــــي فـــــورًا تســــيران
لننظـــر مـــا جـــرى فبُكـــى   حمـــــاتي هـــــاج أشـــــجاني
فقلبـــــي خـــــافقٌ حتـــــى   يكـــاد يطيـــر فـــوق فمـــي[48]
وثقلـــــة ركبتـــــي تكـــــا   د تطـــرح جســـمي العـــاني
أرى خطبًـــــا فظيعًـــــا دا   هيًـــــا أبنـــــاء فريـــــام
فـــلا طرقـــت نـــواعي الخطــــ   ــــب آه وآه آذانـــــــي
كـــــأني بـــــابن فـــــيلا   ل دون قفـــــول هكطـــــورٍ
وفـــي آثـــاره فـــي السهـــــ   ـــل صـــال عليـــه مهتصـــرًا

•••

نعـــــم هكطـــــور آه لا   يـــــذل لمحنـــــة أصـــــلا

ويقـــتحم المعـــامع فـــي الـــ ـــــــصدور ولا يـــــرى ذلَّا»

ومـــن ثـــم انبـــرت تعـــدو بغيـــــر هـــــدًى ونســـــوتها

جـــــرين وراءهــــا حتــــى علـــون المعقـــل الأعلـــى

فســـرَّحت النَّـــواظر فـــي الســـهول فـــلاح هكطـــورٌ

بـــه خيـــل ابـــن فـــيلا قـــد طـــوت واويلـــه الســـهلا

رأت وجفونهـــا انطبقـــت وفـــي أنفاســـها شـــهقت

وهـــوت فـــوق وجـــه الأر ض لا جبسًـــا ولا بصـــرا

•••

ومـــن فـــوق الثـــرى انتشـــرت حلـــيُّ الفـــرع وانتشـــرت٤٩

جـــدائل طـــرة وضـــفا ئـــر فـــي وفـــرة وفـــرت

وهُـــدَّاب الـــذوائب والـــ ـــشباك وخيـــر مقنعـــةٍ

لهـــا مـــن قبـــل عفروذيـــ ـــت يـــوم زفافهـــا ادَّخـــرت٥٠

وخفـــت وانبـــرت مـــن حـــو لهـــا أخـــوات هكطـــور

وكـــلُّ نســـاء إخوتـــه تجـــلُّ الخطـــب مـــذ نظـــرت

علـــى راحـــاتهن رفعـــ ـــنها والـــنفس زاهقـــةٌ

ومـــا لبثـــت أن انتعشـــت وغيـــث دموعهـــا انهمـــرا

•••

وصـــاحت تفطـــر المهجـــا: «أيـــا هكطـــور وا وهجـــا

أطالعـــك الشـــقي بطـــا لعـــي مـــن يومـــه امتزجـــا

ولـــدنا أنـــت فـــي طـــروا د بـــين قصـــور فريـــام

وفـــي ثيبـــا أنـــا فـــي صـــر ح إيتـــين لعـــيش شـــجى

نشـــأت وليتنـــي مـــا إن نشـــأت بنعمـــةٍ لأبـــي

فيـــا لِشـــقا ابنـــةٍ وشـــقا أبٍ بنشـــوئها ابتهجـــا

فأنـــت الآن يـــا هكطـــو ر منحـــدرٌ إلـــى ســـقرٍ

وزوجـــك أيمًـــا تبقـــى بصـــرحك تلتظـــي ســـقرا٥١

•••

وهـــذا الطفـــل فـــي المهـــد نتـــاج الغـــم والجهـــد

فلـــن تجديـــه نفعًـــا أنـــ ـــت وهـــو النفـــع لـــن يجـــدي

فـــإن هـــو مـــن خطـــوب الحـــر ب ينجـــو كـــم بـــلا وبـــلا

يحيـــق بـــه وكـــم عـــاتٍ تجـــاوز خطـــة الحـــدِّ

تعيـــث بـــه مطامعـــه فيســـلبه مزارعـــه

ومـــا إن لليتـــيم يـــرى صـــديقٌ صـــادق الـــود

فيطـــرق ذلـــة وتسيـــ ـــل أدمعـــه ويـــذهب فـــي

طـــلاب رفـــاق والـــده إذا مـــا ذل وافتقـــرا

•••

يجـــر رداء ذا خجـــلا ويســـحب بـــرد ذا وجـــلا

وإن مــــا نــــال مـــنهم نـــا ل كأسًــــا مــــا روت نهـــــلا

يبـــــــلُّ بمائهـــــا شفتيـــــــ ـــــه ظمآنًـــــا علـــــى ظمـــأٍ

وهيهـــــات اللّهـــــاة علـــــى صـــــــداها ترتـــــوي بلـــــــلا

وربَّ فتًـــــى فخــــورٍ فـــــي أبيــــــه وأمــــــه قحــــــةً

علـــــى الأدبـــــات يلطمــــــه ويصـــرخ فيـــه: «قـــم عجـــلا

لُعِنــــت فمـــا هنـــا لأبيـــــ ـــك حـــظ فـــي ولائمنـــا»٥٢

فيرجـــــــــع أســــــــتياناسٌ إلـــــــيَّ ينـــــــوح منتهـــــــرا

•••

بحجـــــــــــــر أبٍ وأي أب يغذيــــــه علــــــى الركـــــب

علـــى مــــخٍّ وشـــحمٍ مـــن ســـمين الضـــان قبـــل ربـــي

وإن أجفانـــــــه انطبقـــــت نعاسًــــــا وارتـــــوى لعبًـــــا

علـــــى راحـــــات مرضـــــعه ينـــــام بفرشــــــه القشـــــب

فأضـــــــحى الآن وا ويـــــــلا هـ إذ يتَّمتـــــــــــه طفـــــــــلًا

أيـــا هكطـــور إلـــف عنـــا عقيــــب اللهـــــو والطــــرب

دعــــــــوه أستياناسًــــــــا لـــــــذودك عــــــن معـــــاقلهم

وبــــــتَّ الآن طعــــم الغضـــــ ـــــف والديـــــدان محتقـــــرا٥٣

•••

وعريانًــــا لـــــدى الســــفن غــــــدوت بـــــزي ممـــــتهن

وكـــم مـــن حلـــةٍ لـــك فـــي الـــ	ـــديار تجـــلُّ عـــن ثمـــن
ســـــأطرحها جميعًــــا لـــــ	ــــلهيب ولـــــيس لـــــي أرب
بهـــا مـــن بعـــد أن حرمـــت	علـــــى ذيَّالـــــك البـــــدن
لتـــذهب حرمـــة لـــك مـــن	لـــــدى الطـــــرواد محرقـــــةً
لـــذودك طـــول عمـــرك عـــن	ذمـــــار الأهـــــل والـــــوطن»
كـــــــذلك أنـــــــذروماخُ	بلاهـــــب لبهـــــا ناحـــــت
وكـــــل نســـــاء إليـــــونٍ	ذرفـــن لنوحهـــا العبـــرا٥٤

هوامش

(١) الأولى: أنه بيت قصيد الإلياذة يتضمن أهم حوادثها فكل ما تقدمه توطئة له وكل ماوليه ذيل. بنيت الرواية على غضب آخيل وكيده، ويتلو ذلك في الخطورة مقتل هكطور، وكلا الأمرين باديان فيه بأجلى بيان.

والثانية: أنه جمع بين السهولة والبلاغة والشدة والرقة، وأحاط بكل ما يتسنى للمخيلة أن تدركه في جميع الأبواب التي طرقها الشاعر، فبينا تراه يصعد إلى قمم الهام المنتصبة على الهمم الشماء، إذا به ينحدر إلى أعمال القلب فيثير العواطف ويهيج البكاء؛ ولهذا قال كثيرون: إنه أجمل الإنشاد.

ولست أرى نشيدًا يصلح مثله أن يكون منظومة مستقلة لا تفتقر في تلاوتها إلى ما قبلها وما بعدها، فأناشد المطالع اللبيب إذا وقع نظره على هذه الحاشية أن يتصفح هذا النشيد دفعة واحدة من أوله إلى آخره، فإذا صدق ظني به وظني أنه بصدق فليقل لله در هوميروس على هذا الاستنباط البديع الغريب، وإلا فليقل سامح الله الناقل فقد قصر في التعريب.

(٢) الجواشن: التروس.

(٣) إياك جد آخيل كثيرًا ما يعرفه الشاعر به.

(٤) اللهميم: الجواد المبرز في الرهان. والمجلي: السابق. وسيأتي وصف سباقهم في النشيد التالي.

(٥) كثيرًا ما يشبه العرب السيد العظيم بين السادة الصغار بنور كبير بين أنوار ضئيلة، كما قال هوميروس في هذا الموضع.

قالت مريم بنت جرير ترثي أخاها:

كنا كأنجم ليل بينها قمرٌ ... يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

وقال جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك:

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم ... مثل النجوم هوى من بينها القمر

وقال أبو تمام:

كأن بني تمام يوم وفاته ... نجوم سماء خرَّ من بينها البدر

على أن هوميروس يصف هنا آخيل حيًّا ويزيد تشبيهه بلاغةً ما استطرد إليه في البيت التالي بقوله:تؤج وإنما يصلى الورى من حرها نارا

كأنه أراد أن يقول: إنه وإن شاق منظرهُ وعظمت هيبته ففيه النكال في الهيجاء والوبال على الأعداء.

(٦) فذًّا، أي: منفردًا.

(٧) يقول ودوه ودي تهكمًا، أي: أبغضوه بغضي.

(٨) أحس فريام بالخطر المحدق به، فتكلم كلام المتنبئ بما سيناله وبلاده من البلاء العميم بعد مقتل هكطور، وفوز الإغريق فسرد الدواهي الدهم التي تنتاب الأمة المغلوبة على بلادها، وقد سبق للشاعر مثل هذا المعنى في النشيد التاسع؛ إذ قال:

للمبـــاني حرقًـــا وللقـــوم ذبحًـــا والغـــواني والولـــد ذلًّا وأســـرا

ولكن الشاعر زاد هنا في التفصيل فأكثر بلسان فريام من ذكر الملمات الشداد كبحًا لجماح هكطور.

(٩) مهما قيل في استعطاف أب لابنه لا يمكن أن يقال أبلغ من خطاب فريام لهكطور، ملكٌ كبير وشيخٌ هرم ذو بسطة وجاه وسلطان، برحت به الأيام فهدَّت أركان همته وعزيمته وقوضت دعائم مجده، وناطت بقية آماله بولد يراه على قاب قوسين أو أدنى من الموت الزؤام، ومن وراء ذلك دك البلاد والفتك بالعباد فتتوالى عليه الذكرى لما سلف،

ويأخذه الإشفاق من الخطب الفادح القريب فيجمع بقية حواسه وينهض لدرء الخطب، وقلبه يتلظى تلهفًا على ابنه ومحط آماله، ثم على آله وبلاده ونفسه فيشرع في تحذير هكطور من خصمه الباسل، ولا يكد يذكر اسم ذلك الخصم حتى تتوارد على خاطره سوابق فتكه فيتوجع ويتفجع ويتمنى لو راحت جثته مطعمًا للطير والكلاب، وهو على كل ما ناله من المصاب يرى سبيلًا إلى العزاء إذا نجا هكطور من ذلك المأزق الحرج، ولما كان فريام على يقين أن هكطور لا يرضى عار الاحتجاب ولو انتصب له الموت التمس له عذرًا عظيمًا، بأن في لياذه إلى السور شرفًا أرفع ومجالًا أوسع لإبراز بأسه وقوة ساعده حيث يقيم مقاتلًا، فيذود عن البلاد والجند ويحفظ الأهل والولد، وشرح له بعد ذلك ما يكون من عقبى عناده لو بقي خارج السور، وأتى بكلام يخرق اللب على وصف ما يأول إليه أمر المنازل والمعاقل والبنين والبنات والأطفال والكنات، ثم أخذ في رثاء نفسه ووصف مآل أمره لما يعلم من حب هكطور له وبره به، واختتم بتلك المقابلة الفريدة بين هلاك الفتى قتيلًا خالد الأثر رفيع المنار، وهو يذود عن الأوطان، وموت الشيخ ذليلًا مغلول الذراع بأكناف الديار ميتة الضعة والهوان.

(١٠) لئن أتى فريام بأبلغ أقوال الرجال والآباء فقد أتت زوجته بأبلغ أقوال الأمهات والنساء، وكفى بكشف صدرها خطابًا ناطقًا لا تعادله بلاغة في مقال، ثم هي الأم الشفيقة لا تتفجع إلا على ابنها، وما

تئول إليه حالها من بعده، فلا تتخطى بكلامها هذا الحد فناحت نوح النساء، وناح فريام نوح الرجال وحفظة الذمار والملوك الكبار.

(١١) يقول ذلك إشارة إلى الجدال العنيف الذي جرى بينه وبين فوليداماس في النشيد الثامن عشر، حيث أشار عليه فوليداماس باللياذ إلى المعاقل فأبى هكطور واستكبر.

(١٢) الجحد: قليل الخير، والمراد بالعمد: الرؤساء.

(١٣) هذه آخر مبارزة في الإلياذة وبها تنتهي وقائعها، والمبارزات في ما سلف وإن كانت تعد بالعشرات فليست بحصر المعنى من باب البراز البحت إلا في ثلاثة مواضع؛ أولها: وأجدرها بالذكر براز منيلاوس وفاريس، في النشيد الثالث؛ إذ كان يترتب عليه حقن الدماء وإخماد الفتنة لو بر الطرواد بميثاقهم، وهو من وجه آخر براز معقول لوقوعه بين زوج سبية وسابيها. والثاني: وإن لم يكن أقلها خطورة فهو أقلها تأثيرًا بمجرى الوقائع؛ لأنه من المبارزات التي تقع كل حين بين المتبارزين في الحروب، لا يترتب عليها عقد سلام وغمد حسام، نعني به براز هكطور وإياس في النشيد السابع، والثالث: هو أعظمها براز هكطور وآخيل هذا لوقوعه بين بطلين، كلٌّ منهما عماد جبينه على الإطلاق. وهو وإن لم يكن من لوازمه كف الكفاح ووضع السلاح، فقد كانت فيه الضربة القاضية على فريق من المتحاربين.

وفي كتب العرب من مثل هذه المبارزات أشباه لا تحصى ببعض خلاف. ذكر صاحب الأغاني (١٠:٨٠) برازًا لجميل وتوبة من أجل بثينة نورده لغرابته، قال: «كان توبة قد خرج إلى الشام فمر ببني عذرة، فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه فشق ذلك على جميل، وذلك قبل أن يظهر حبه لها فقال له جميل: من أنت؟ فقال له: أنا توبة بن الحمير. قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فشدت عليه بثينة ملحفة مورسة فاتزر بها ثم صارعه فصرعه جميل، ثم قال: هل لك في النضال (رمي السهام)؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل، ثم قال: هل لك في السباق؟ فقال: نعم، فسابقه فسبقه جميل. وقال له توبة يا هذا إنما تفعل هذا بريح هذه الجالسة ولكن اهبط بنا الوادي فلما هبطا صرعه توبة ونضلهُ وسبقه»

وفي وقعة بدر الكبرى جرت مبارزات كثيرة بما يدل على شيوع تلك العادة في الجاهلية، ثم بقيت في الإسلام، وكان لها فيه شأن عظيم.

(١٤) أي: نعطيه علاوة على أموال هيلانة، وما أتى به فاريس يوم سباها نصف ما في خزائننا من أموالنا، ويقسم الشيوخ أنهم لم يخفوا شيئًا منها.

(١٥) تلك مناجاة هكطور لنفسه يتردد تردد الشاعر بقرب الأجل، ثم يؤثر الموت وهو يكافح العدو على النجاة نجوة الهزيمة والعار.

(١٦) قد كنت أود أن لا يشوه جمال هذا النشيد بفرار هكطور من وجه آخيل، ولا أراها إلا هفوة من أستاذنا هوميروس مهما أمكن أن يقال في الدفاع عنه، وسبحان المعصوم؛ لأن بطلًا كهكطور يتحرق نهاره وليله لقتال آخيل، ثم يناجي نفسه تلك المناجاة، ويعول على ورود كأس الحمام مؤثرًا ذلك على الهزيمة، ويتقدم لبراز خصمه، ثم ما هو أن رآه حتى فر منهزمًا، لا يجدر به أن يكون بمقام هكطور، ولقد التمس الشراح لهوميروس أعذارًا كثيرة منها قولهم: إنه لو لم يكن محل لهذا الفرار لما تحداه فرجيليوس، وجعل طورنوس يفر من وجه آنياس، ومع كل ذلك فما قرأت قط هذه الفقرة إلا وددت أن لا تكون.

(١٧) جدد العجال: طريق المركبات، ومرقب الأرصاد الموضع المشرف الذي كانوا يرقبون منه العدو.

(١٨) يظهر جليًا من كلام هوميروس أنه كان يجري إلى نهر زنثس ينبوع ماء حار، وليس كذلك الآن ولعل هذا الينبوع كان موجودًا في أيامه، فغار في الأرض بعد ذلك.

(١٩)

هزبرٌ مشى يبغي هزبرًا ومغلبًا ... من القوم يغشى باسل القوم أغلبا

(البحتري)

(٢٠) أي: لذبيحة يضحي بها.

(٢١) القياديد: الطوال من الحيوان، والمراد هنا الخيل. والصيد الزعماء — كان من عادتهم أن يتراهنوا ويتسابقوا في المآتم، كما سترى في النشيد التالي بمأتم فطرقل.

(٢٢) الأغضف: الكلب، وكناس: الريم أو الظبي بيته.

(٢٣) أي: إن هكطور كان يحاول أن يدفع آخيل إلى الحصون، حيث يمكن أن تدركه نبال الطرواد، وآخيل يقف بوجهه فيصده عن الجري وجهة إليون.

(٢٤) قال أبو النجم العجلي:

طيف سرى يخبط أفنان السمر   أنى اهتدى مضجع حيران حسر

ولم يكن إلا كما ارتد النظر   كالكوكب انقضَّ أو البرق خطر

بقدر ما تفر وجدي ونفر

(٢٥) كان آخيل أعدى أهل زمانه، فلم يكن من المعقول أنه يعجز عن إدراك هكطور، ولهذا قال الشاعر: إن أفلون أفرغ في هكطور قدرته فبطل العجب ودُفع الاعتراض، قال هذا حتى لا يقول: إن المنهزم بطلب النجاة أجد في السير من الساعي للانتقام.

(٢٦) في المقطوعة السابقة يحاول هكطور أن يدفع آخيل إلى مرمى النبال، وهنا آخيل يومئ إلى صحبه أن لا يرموه بنصل ولا بنبل، فذاك سابق فار يطلب النجدة، وهذا لاحق كار يأباها بل يخشاها؛ لأن له ثأرًا يود أن يأخذ به بيده لا بيد قومه وطمعًا بفخار يضن به على غيره.

(٢٧) أبو العباد: زفس، أي: إن زفس ألقى قدحي موت في كفتي ميزانه الذهبي؛ ليرى بموت أي البطلين يقضي، فهبطت كفة هكطور دلالة على أفول نجمه وحلول أجله. راجع ما تقدم في حواشي النشيد الثامن.

(٢٨) حفيظ الجوب: رب الترس وهو زفس، أي: نقتل هكطور ولو توسط له أفلون فترامى على قدمي زفس.

(٢٩) ذيفوب من إخوة هكطور.

(٣٠) النقد: صغار الغنم، ويراد بها الغنم على الإطلاق.

(٣١) قال بعضهم:

وردوا إليك الرسل والصلح ممكن	وقـالوا علـى غيـر القتـال سـلامُ
فلا قول إلا الضرب والطعن عندنا	ولا رســل إلا ذليــل وحســامُ

(٣٢) لا غرو أن يكون هذا التباين بين كلام هكطور وآخيل، فهكطور الفتى الباسل الورع الغيور على حفظ مقامه حيًّا وميتًا، وليست في صدره تلك الحزازة على آخيل، بل قد روى غلته بالفتك بفرسان

الإغريق، وآخيل المغوار الغضوب الواثق بالفوز عليه فلا يعاقده ويواثقه، ولا يبرد غله أن يظفر به حيًّا بل يسوقه الغيظ والثأر إلى أن يكسوه رداء الحطة والشنار ميتًا.

(٣٣) الصعدة: النصل

(٣٤) قال شبيب بن البرصاء:

دعيني أماجد في الحيوة فإنني إذا ما دعا داهي الوفاة مجيب

(٣٥) لا كلام أشد تأثيرًا من كلام هكطور هذا، تخلت عنه جميع القوى العلوية، فغادره أفلون وصرف زفس وجهه عنه، وأيقن بدنو أجله وهو لا يفكر ساعة موته إلا أن يموت ميتة البطل الباسل، عظيم الأجر خالد الذكر.

(٣٦) يريد بكوكبة المساء الزهرة، ويدعوها أيضًا كوكبة الصباح، وكوكبة الراعي.

(٣٧) كانت على هكطور شكة آخيل التي ألبسها فطرقل فلم يكن من سبيل لاختراقها بضرب وطعن، ولهذا تشوف آخيل وأحدق ليرى له منفذًا بجسم هكطور يطعنه به.

(٣٨) السغب الجوع. قال عمر بن أبي ربيعة عن لسان عائشة بنت طلحة:

حتى لو أستطيع مما قد فعلت بنا أكلت لحمك من غيظ وما نضجا

ويقرب منه قول ذو الأصبع العدواني:

لـو تشـربون دمـي لـم يـرو شـاربكم ولا دمـــاؤكم جمعًـــا تروينـــــي

(٣٩) يتنبأ هنا هكطور ساعة موته بدنو أجل آخيل، كما تنبأ فطرقل وهو يحتضر بدنو أجل هكطور، وفي هذا دليل آخر على أنهم كانوا يعتقدون أن نفس المحتضر تنطق بالمغيبات – وكأن هكطور يقول لآخيل قول الحارثة بن بدر:

يـا أيهـا الشـامت المبـدي عداوتـه مـا بالمنايـا التـي عيـرت مـن عـار

تـراك تنجـو سـليمًا مـن غوائلهـا هيهات لا بد أن يسري بك الساري

أو قول الفرزدق:

إذا مـا الـدهر جـر علـى أنـاسٍ كلاكلـــه أنـــاخ بآخرينـــا

فقـــل للشـــامتين بنـــا أفيقـــوا ســيلقى الشــامتون كمــا لقينــا

(٤٠) يستفاد من هذه العبارة وما أشبهها أنهم كانوا يمثلون بالقتلى، كسائر الأمم في العصور الخالية —— كانت المثلة كثيرة في جاهلية العرب، حتى لربما خرج النساء إلى ميدان القتال ومثلن بقتلى الأعداء أشنع مثله، قال ابن الأثير: «ووقعت هند وصويحباتها (في غزوة أحد) على القتلى يمثلن بهم، وقد اتخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خزمًا وقلائد». ولكن الإسلام بعد تلك الغزوة نهى على المثلة، ذلك أنه لما قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، ووقف عليه النبي

ﷺ وقد مثل به كان منظره موجعًا لقلبه فقال له: «رحمك الله أي عم، فقد كنت وصولًا للرحم فعولًا للخيرات، فلئن ظفرني الله بالقوم لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم». قال مؤرخو العرب: فنزلت الآية: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ فصبر النبي ونهى عن المثلة.

(٤١) أي: لن أنساه حتى ولو مت وانحدرت إلى أعمال الجحيم، حيث ينزل كل ميت وحيث ينسى كل إنسان جميع الناس – هذا آخيل ثمل بخمرة الانتصار يفتك بألد خصومه، وتذل له أعداؤه، وتبتهج به أحباؤه، فلم يبق من ثمة مانع يمنعه من دك معاقل الطرواد، وكلهم هالع رعبًا فيهم بالاندفاع إلى إليون مع جيشه المنتعش، وإذا بذكرى فطرقل تهيجه أسى فيرجئ ذلك إلى أن يتم الاحتفال بمأتم حبيبه، فيؤثر واجب الولاء على إبادة الأعداء، وهو تصرف من الشاعر بديع؛ إذ أسلف أن تدمير إليون لا يتم على يد آخيل فلم يكن يصح أن يخالف ماضي قوله، فالتمس لآخيل بالعودة عذرًا هو أجمل الأعذار.

(٤٢) إن سير الجماعات على نغم الإنشاد عادة متبعة منذ القدم في جميع الأمم، ولا سيما إذا كانوا سائرين في مهمة لأمر جلد، يشبه غناء الإغريق هنا وهم راجعون إلى سفائنهم. تغني بنات إسرائيل عند رجوع داود من مقتل جلياد الجبار الفلسطيني؛ إذ هتفن وقلن: «قتل شاول ألوفه وداود ربواته» (١مل١٨:٧)، والغالب في هذه الأغاني أن

تكون عبارات مختصرة تكرر وتردد مرارًا، كما هي العادة اليوم في بادية العرب، يقول واحد أو أكثر من المنشدين قسمًا منها ويردد الباقون ما بقي، وعلى هذا فلا أخال إلا آخيل منشدًا وحده قوله:

فلنـــــا القــــرم هكطــــورا　　وعــــاد الجــــيش منصــــورا

والباقون يرددون قوله:

فــــأين فتــــى الطــــراود مــــن　　كــــرب كــــان مقــــدورا

وتعرف هذه الأناشيد عند عرب البادية لعهدنا باسم «الهوسة» يدعونها بهذا الاسم؛ لأنهم يتهوسون به لأمر خطير، ولكل عشيرة منهم هوسة خاصة بها، فهوسة عنزة «القلايع ياسبقة. خيال العشوة مطرفي» يتحمسون بذلك على أخذ قلائع الفرسان. وهوسة شمر «وصبيان زوبع يا هلي» يقولون ذلك من باب المنافرة والحماسة. ولهم فضلًا عن ذلك هوسات ينظمونها عند مسيس الحاجة، كقول عشائر الهندية وهي تحارب مدحت باشا والي بغداد بقيادة شيخها وادي: «قم وادي وبغداد ارتجت» وهي عبارة يرددونها مئات وألوفًا من المرات.

(٤٣) شق آخيل كعبي هكطور ليربطه إلى المركبة فيجره، كما كان يروى في جاهلية العرب عن ربط الأسرى والقتلى بأذناب الخيل، وهي مبالغة في الهوان وغير جديرة بمخلوق يدعي أنه إنسان، ولكنه لم يكن بد من ذكر ذلك استكمالًا لعتو آخيل وجريه على مألوف ذلك العصر، ولربما تنبه القارئ مما رأى قبل هذا أنه حيث اضطر الشاعر إلى

ذكر شيء من الفظائع ذكرها استتمامًا للفائدة، ولكنه لا يلبث أن يستهجنها ويشمئز لها، كقوله في هذا الموضع: «وبالغ في الهوان» كأنه يريد أن يقول: إن الفظيع من الأعمال إنما يذكر تنفيرًا لناس منه وليس ارتياحًا لحفظ الرواية عنه.

(٤٤) كانت عادة الأقدمين إذا أصيبوا بمصيبة أن يذروا التراب على رءوسهم، ويجلسوا على الرماد والسماد، فإن أيوب لما ابتلي جلس على الرماد، ولما عاده أصحابه: «رفعوا أصواتهم وبكوا، وشق كلٌّ منهم رداءه، وذروا ترابًا فوق أرؤسهم نحو السماء، وجلسوا معه على الأرض» (أيوب ٢:١٢–١٣).

(٤٥) كثيرًا ما يقال هذا الكلام عند اشتداد الحزن على فقيد، قالت الخنساء:

فــــلا والله لا أنســـــاك حتـــــى	أفــارق مهجتــي ويشــق رمســي

(٤٦) ما أشبه رثاء إيقاب برثاء أم بسطام بن قيس لابنها بسطام المقتول يوم الشقيقة بين بني شيبان وبني ضبة بن أدّ، قالت:

ليبك ابن ذي الجدين قيس بن وائلٍ	فقــد بــان منهــا زينهــا وجمالهــا
إذا مــا غــدا فــيهم غــدوا وكــأنهم	نجــــوم ســــماء بيــــنهن هلالهــــا
عزيـــز المكـــر لا يهـــد جناحـــه	وليـــث إذا الفتيـــان زلـــت نعالهـــا
وحمـــال أثقـــال وعائـــد محجـــرٍ	نحـــل إليـــه كـــل ذاك رحالهـــا
سـيبكيك عــانٍ لـم يجـد مـن يفكـه	ويبكيــك فرســان الــوغى ورجالهــا

وتبكيك أسرى طالما قد فككتهم وأرملة ضاعت وضاع عيالها

مفرج حومات الخطوب ومدرك الـ ـحروب إذا صالت وعز صيالها

فقد ظفرت منا تميم بعثرة وتلك لعمري عثرة لا تنالها

(٤٧) الوشيعة: خشبة النسج.

(٤٨) راجع ما تقدم لنا بهذا المعنى (ن ٩). قال الشماخ:

وبات فؤادي مستخفًا كأنه خوافي عقاب بالجناح خفوق

ومن هذا القبيل قول عنترة:

كأن فؤادي يوم قمت مودعًا عبيلة مني هاربٌ يتفججُ

(٤٩) الفرع: الشعر.

(٥٠) يظهر من وصف هوميروس لحلي شعر النساء أنهنَّ كنَّ يجدلن شعرهن ويضفرن الوفرة التي في مقدمة الرأس، وحول الصدغين، ويلقينها مضفورة على قمة الرأس، ويجمعن إليها الذوائب، ويسبلن على كل ذلك شبكة تجمعه، ثم يضعن البرقع، أو القناع على الوجه، وفي ذلك من حسن الذوق ما لا يفوقه تفنن بنات عصرنا.

(٥١) من رثاء عاتكة بنت عمرو بن نفيل لزوجها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فتى طول عمري ما أرى مثله فتى	أكـرَّ وأحمـى فـي الهيـاج وأصـبرا
إذا شـرعت فيـه الأسـنة خاضـها	إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرا

(٥٢) تتلهف أنذروماخ على ما سينال ابنها اليتيم من الذل في الولائم، وذلك مصداق قول العرب «أضيع من الأيتام في موائد اللئام»– الظاهر من مواضع كثيرة في الإلياذة أن مآدب القوم كانت كثيرة الأشكال مختلفة الأحوال، يعنون بها ويفخرون، ولكنه لم يفصل أنواعها كما جاء أكثرها مفصلًا في كتب العرب، وقد جمعها صاحب مجمع البحرين بقوله:

للنفسـاء الخـرس والعقيقـة	للطفـل عنـد عـارف الحقيقـة
كـذلك الإعـذار للختـان	وذو الحـذاق حـافظ القـرآن
للخطبـة المِـلاك والوليمـه	للعـرس والميـت لـه الوضـيمه
وللبنـاء جعلـوا الـوكيرة	وهـلال رجـب العقيـره
وقيـل تحفـة لزائـر يـرد	وشـندخٌ لمـا يضـلُّ إذ وَجـد
كـذا نقيعـة القـدوم مـن سـفر	ثـم القـرى للضـيف عنـدما حضـر
وحيثمـا لـم يـك مـن ذاك سـبب	فإنهـا مأدبـة عنـد العـرب
وإن تعـم دعـوة فـالجفلى	تـدعى وإن خصـت فتلـك النقـرى

(٥٣) الغضف: الكلاب، ومعنى استياناس ملك المدينة، وهو الاسم الذي يسمي به الطرواد ابن هكطور، أما الاسم الذي كان يعرفه به أبواه فهو اسكمندريوس. (راجع ن ٦).

(٥٤) لا أحاول وصف بدائع المعاني بل معجزاتها في منائح أبي هكطور وأمه وامرأته، فقد تستحيل عليَّ توفيتها حقها، وإني مجتزئٌ باستلفات نظر المطالع إلى تصرف الشاعر، الذي لا يفوته جزئي ولا يغفل عن كلي فيضع كل شيء موضعه، كأن الشعر بين يديه طينة يجيل منها ما شاء لما شاء.

أبرز لنا بادئ بدء فريام الشيخ يستطلع طلع الأخبار شأن الملك الساهر على رعيته، فكان أول شاهد لمقتل ابنه فأخذه الجزع واليأس، وما بعد ذلك إلا أن يتمرغ على الأرض ويلتطم وينوح، ويهم بالإلقاء بنفسه إلى خارج الأسوار بغير هدى فرارًا إلى قاتل ابنه، يستوهبه إياه ميتًا ليحتفل بمأتمه قيامًا بواجب الملك القاضي بإجلال ذكر الأبطال، وواجب الأبوة القاضي بإعلاء ذكر البنين، ثم بدت لنا إيقاب تندب ابنها ندب الأمهات اللائي علمن بعجز رجالهن ورمين بكل أبصارهن إلى أبنائهن البارين بهن المشفقين عليهن، وإذ انتهى من ذلك مثل لنا أنذروماخ فكان بمرآها ومبكاها صورة ناطقة للمرأة الأيتم وبين يديها طفلٌ يتيم، لا يعي شيئًا من ذلك المصاب الأليم، وإنما ستكون حياته كلها ألمًا ومصابًا، فكان حزنها فوق حزن الأمهات والآباء، وبلاؤها فوق كل بلاء،

ولم يوقفها مع من وقف على السور؛ إذ أراد أن يبين أنها أشغل بزوجها منه بسواه حيًّا وميتًا، فهي تنسج له (أو لابنه) ثوبًا من البرفير، وبين يديها الجواري يعدون له الماء ليغتسل من غبار المعارك، وله بذلك مأرب آخر وهو أن يوطئ تلك التوطئة ليبلغها الخبر فجأة، فيكون له في نفسها ذلك الوقع ليرسم الحزن بأشقى حالاته، وما هي أن بصرت بزوجها صريعًا حتى شهقت «وأهوت فوق وجه الأرض لا حسًّا ولا بصرا»، وما انفتح جفناها حتى أخذت تنوح تلك المناحة التي تتفتت لها الأكباد، ويتفطر الجماد بعبارة ترى على سذاجتها صاعدة من لب الفؤاد.

النشيد الثالث والعشرون

مأتم فطرقل

مُجْمَلُهُ

شرع آخيل في التأهب لمأتم حبيبه فطرقل، فأمر بإعداد الطعام، فسأله أصحابه أن يغتسل من الدماء التي تخضب بها فأبى إلا أن يبقى على حاله إلى أن يدفنه، وبعد اللتيا والتي تناول شيئًا من الطعام في مضربه، ولكنه لم يغتسل وأرفض الجمع كل إلى مرقده، فظهر فطرقل في الرؤيا لآخيل وطلب إليه أن يعجل بدفنه، فمدَّ آخيل يده ليقبله فاستيقظ وإذا به حلمٌ، ولما بزغ الفجر أسرع الجند إلى جبل إيذة للاحتطاب فجمعوا الوقود وألقوا عليه الجثة، فقص آخيل شعره ليحرق مع القتيل، وذبح خيلًا واثني عشر فتى من الطرواد ليحرقوا فوق جاحمه، وأما هكطور فحفظته الزهرة وأفلون من الفساد، وأضرموا النار فلم تضطرم إلَّا قليلًا، فتضرَّع آخيل إلى الرياح فبادرت وأضرمت اللهيب، ولما احترقت الجثة جمعت العظام ودفنت، ثم تهيأوا للألعاب المعتادة وأعد آخيل الجوائز فتسابقوا بالعجال، ثم برزوا للكام والصراع والسباق عدوًا، والبراز بالسلاح والتخاطر بقذف الكرة والمناضلة وزج الرماح، وهكذا انتهت الحفلة.

ينتهي اليوم الثلاثون في أول هذا النشيد وفي الليلة التالية يظهر

فطرقل لآخيل، واليوم الحادي والثلاثون للاحتطاب، والثاني والثلاثون لإحراق الجثة، والثالث والثلاثون للألعاب، ومجرى ذلك على شاطئ البحر.

النشيد الثالث والعشرون[1]

إليـــون بالنحيـــب والحـــداد وفيلـــق الإغريـــق بارتـــداد
للثغـر والسـفين حيـث انتشـروا كـــل إلـــى أســطوله يبتـــدر
لكـــن أبـــى آخيـــل أن يـــنحلَّا خميســه بـــل فـــي ســراه ظـلَّا[2]
قامـت علـى انتظامهـا الصـفوف فصـاح وهـو بيـنهم يطـوق:
«مرميـد يـا فرسـان يـا رجـالي لا تفصلوا الخيل عن العجال[3]
بـل قربـوهنَّ بـذا المجـال نبكـي وترثـي غـرة الأبطـال
فطرقـل فالنـدب بـلا محـال فـرضٌ علـى ميـت صـريعٍ خـال
فـإن روينـا غلـة النكـال حلـت وهيأنـا بـلا بلبـال

وضيمةً نعدها في الحال»[4]

فهطلـت دمـوعهم جميعـا وخـفَّ آخيـل بهـم سـريعا
وحـول فطرقـل ثلاثًـا داروا بخـيلهم ودمعهـم مـدرار
تزيـدهم ثيتـيس حزنًـا عـيلا فولولـوا وأكثـروا العـويلا
حتى جرى ما سحَّ من تلك العبر غيثًا على السلاح والسهل انهمر

أمـــامهم آخيـــل بالنحيـــب   يشـــهق قـــرب خلـــه الحبيـــب

عليـــه ألقـــى يكبـــر المقالـــه   بيـــــنهم أكفـــــه القتالـــــه:

«أقريـــك يـــا فطـــرقلًا الســـلاما   وإن تهـــم فـــي ســـقرٍ هيامـــا

فهـــا أنـــا والجـــيش حـــولي قامـــا   أبـــرُّ بالوعـــد هنـــا تمامـــا

فســـاعدي هكطـــور ذلًّا ســـاما   وســـوف ألقيـــه هنـــا طعامـــا

للكلـــب يفـــري اللحـــم والعظامـــا   والنـــار إذ تـــذكو لـــك اضـــطراما

أذبـــح مـــن طـــروادة انتقامـــا   مـــن حولهـــا اثنـــي عشـــرًا كرامـــا»٥

وزاد وهـــو لاهـــبٌ ســـعيرا   علـــى هـــوان المجتبـــى هكطـــورا

فكبـــه لوجهـــه معفـــرا   حيال نعش الميت في وجه الثرى

مـــن ثـــم حلـــوا صـــاهلات الجـــرد   ونزعـــوا زاهـــي الســـلاح الصـــلد

وحـــول فلـــك ابـــن أيـــاك التـــأموا   وذلـــك الـــزاد الشـــهي اقتســـموا

فمـــن خـــرافٍ وثيـــارٍ غـــر   هالعـــةٍ تحقـــق عنـــد النحـــر

ومـــن عنـــوز ثاغيـــات ترتجـــف   أمامهـــا الجـــزار بالنصـــل يقـــف

ومـــن رتـــوتٍ صـــلدة الأنيـــاب   تســـيل شـــحمًا بـــاللظى اللهـــاب٦

دماؤهـــا كـــذا جـــرت ســـيولا   وأقبـــل الصـــيد إلـــى ابـــن فـــيلا

وذهبـــوا بـــه ومـــا كـــادوا لمـــا   علـــى حبيبـــه تلظّـــى ألمـــا

وإذ أتـــوا خـــيم أغاممنونـــا   صـــاحوا علـــى الفيـــوج أجمعينـــا

إن يرفعـــوا المرجـــل فـــوق النـــار   ويوســـعوا الجـــاحم بـــالأوار٧

لغسل ما لطّخه من الدم   لكن أبي يغلظ برَّ القسم:٨

«بحق زفس السائد المخلد   أقسم لا قطرة مسَّت جسدي

ما لم أشد ضريح خلي الأوحد   من بعد أن أحرقه في كمدي

حيث له أقص شعري العسجدي   مهما أعش فلن تلظى كبدي٩

أسَّى كهذا اللَّاعج المتقد   فأرضخ الآن على توقّدي

إلى اقتسام الزاد في ذا المشهد   لكن إذا طرَّ الصباح من غد

على ابن أتراس المليك الأمجدِ   أن ينفذ القوم بلا تردُّد

في طلب الوقود ثم نبتدي   بمأتم حقَّ لميتٍ يغتدي

من فوره إلى الظلام الأبدي   حتى إذا جثَّة ذاك السيد

ذابت وفزنا بجميل المقصد   للحرب عدنا بزهي العدد»

لبوا وكلٌّ هب يبغي الزادا   فنال منه سهمه المعتادا

حتى إذا ظماه ولّى والسَّغب   لخيمه في طلب النَّوم ذهب

وفي فجاج قرب جرف البحر   لدى دوي الموج فوق الثَّغرِ

آخيل والعي به قد برحا   ما بين جيش المرمدون انطرحا

أنهكه العدو ورا هكطورا   فنام في ظل الكرى قريرا

فروح فطرقل بطيف الحلم   قامت على هامته كالجسم

بقده والحلل المسدوله   وصوته والمقل الجميله١٠

قالـت: «آخيـل لـه طـاب الكـرى حتـى عـن الحبيـب غـضَّ النظـرا
أهملنـــي ميتًـــا فهـــلَّا ذكـــرا وداده لـــي وأنـــا حـــيٌّ أرى
بـــادر إلـــى دفنـــي حتـــى أعبـــرا أبـــواب آذيـــس ولا أحقَّـــرا
صـــدَّتني الأرواح عـــن أن أصـــدرا مـــا بيـــنهنَّ فـــأخوض الأنهـــرا
فرحـــت هائمًـــا بلجـــات الثـــرى وجئتـــك الآن ودمعـــي انهمـــرا
فـانهض وأعـدد لـي صـلى تسـعرا فبعــد ذا لــن أبــرحنَّ ســقرا١١
آه فقـــد فـــات زمـــان غبـــرا حيـــين فيـــه نعقـــد المـــؤتمرا
فـي عزلـةٍ فيهـا تحاشـينا السـرى منــذ نشــأت كــان هــذا القــدرا
فغـــالني وفيـــه قـــدمًا ســـطرا حتفك في أكناف سورٍ حصرا١٢
أجـب إذا ملتمسـي مهمـا جـرى فمثلمـــا معًـــا قضـــينا العمـــرا
مـن يـوم مينتيـوس بـي غـرًّا سـرى لصـــرح فـــيلا مـــن أفـــنطٍ مـــدبرا
مـــن وجـــه رهـــطٍ رامنـــي مثئـــرا لمَّـا قتلـت (وصـلي الجهـل عـرا
وقـــد لعبنـــا بالكعـــاب عســـكرا) فرعًـــا لأمفيـــدامسٍ مســـتكبرا١٣
ومثلمـــا قـــبلًا أبـــوك استبشـــرا بـــي فنشـــأت ناعمًـــا مـــوقَّرا
فـي حجـره كمـا نشـات الأصـغرا دع هكـــذا رفاتنـــا أن تقبـــرا
معًـا فـلا تنحـلَّ هاتيـك العـرى ولتلــق فــي حــقٍّ لــديك ادخــرا

من لدن ثيتيس نضارًا بهرا»١٤

فقـــال آخيـــل: «عـــلام يـــا منـــى نفســـي أتيتنـــي بـــذا البحـــث هنـــا

فكلّمـــا رمـــت ســـيجرى علنـــا فـــادنُ وعـــانقني فـــلا عـــج العنـــا

نوري ونروي بالعناق الشجنا»

ومـــــدَّ كفَّــــه إلـــــى العنــــاق لكنَّــــه فطرقــــل لـــــم يــــلاق

فروحـــه مثـــل الـــدخان طـــارت صـــافرةً وفـــي الثَّـــرى تـــوارت

فقـــام آخيـــل وكفَّيـــه صـــفق بدهشـــةٍ ثـــم لســـانه انطلـــق:

«نعـــم نعـــم ربَّـــاه حتـــى لســـقر يســـري مثالنـــا وأراح البشـــر

لكنمـــا الحيـــاة فـــي ذاك المقـــر لـــيس لهـــا بعـــد الممـــات مـــن أثـــر

فـــإن فطرقـــل مـــدى الليـــل ظهـــر بروحـــه لـــي بشـــقاءٍ وكـــدر

حكتـــه حتَّـــى قلـــت بـــالنفس ابتـــدر مقترحًـــا يـــأمرني بمـــا أمـــر»

ومـــا انتهـــى حتـــى جهيـــر النـــدب مـــن حولـــه عـــمَّ جميـــع الصـــحب

ولبـــث الـــدمع ســـخينًا يجـــري حتـــى بـــدا ورد بنـــان الفجـــر

هنـــا أغـــاممنون هـــبَّ حـــالا وأنفـــذ الرجـــال والبغـــالا

فبـــادروا فـــورًا إلـــى الـــذهاب بـــأمر مريـــون للاحتطـــاب

ســـاقوا يجـــدُّون إلـــى الجبـــال بقـــاطع الأفـــؤس والحبـــال

أمـــامهم تلـــك البغـــال مســـرعة متهمـــةٌ منجـــدةٌ مندفعـــه

ضـــاربةٌ فـــي وعـــر تلـــك الهضـــب وعقبـــات مشـــعبٍ فمشـــعب

حتـــى علـــت إيـــذة فـــي الصـــعيد فـــأعملوا مناصـــل الحديـــد

بشـــامخ الملـــول فـــالفروع خـــرت تشـــق تحتهـــا الجـــذوع

وقطعـــوه قطعًـــا وشـــدوا أحمـالهم مـن فـورهم وارتـدوا

واشــتاقت البغــال للســهول فانحـدرت فـي الـوعر بـالقفول

وراءهـا كـل فتـى جـذعًا حمـل أمـر لمريـون لـه الكـل امتثـل

والثغــر فيــه كدَّســوا الوقــودا وانتظمــوا مــن حولــه قعــودا

حيـــث آخيـــل رام أن يعينـــا مـــدفن فطرقـــل وفيـــه يـــدفنا

وصـــاح بالمرميـــد أن يجـــدُّوا وللعجـــال خـــيلهم يشـــدوا

وأن يشـك الكـل فـي السـلاح كـأنهم فـي حومـة الكفـاح

فسـارت العجـال فـي الميـدان بساســـةٍ وســـادةٍ فرســـان

خلفهـــم المشـــاة كالســـحاب وصـحب ذاك الميـت باكئـاب

ســاروا بــه تســتره النواصــي قصـت لـه دلالـة الإخـلاص١٥

ومـــن ورائهـــم آخيـــل رفعـــا هامـــة فطرقـــل بلـــبٍّ خلعـــا

وأنزلـــوه المنـــزل المعهـــودا وبـــادروا فهيَّـــأوا الوقـــودا

وعـــنهم آخيـــل منحـــازًا عـــدا لغـــرضٍ فـــي نفســـه مبتعـــدا

وقـــص فرعًـــا زاهيًـــا جمـــيلا للنهـــر إســـفرخيسٍ أطـــيلا١٦

وصـــاح محـــدقًا بلـــج الـــيم مضـــطرمًا يصـــلي أوار الغـــم:

«يـا نهـر إسـفرخيس الكبيـر وا خيبـــة القربـــان والنـــذور

نـذرًا لـك انتـوي أبـي شـعوري ومئـة مـن نخبـة الأبقـور١٧

ومـن ضـحايا الغـنم الـذكور خمسـين عنـد هيكـل البخـور

فــي مرجــك المقــدَّس المبــرور　　فــي القــرب مــن منبعــك المــأثور

بكـــل ذا آلـــى لـــدى مســـيري　　لـــــوطني بالبشـــــر والســـــرور

فمـــا اســـتجبت ســـؤل مســـتجير　　ولـــم تكـــن مـــن الـــرَّدى مجيـــري

ولـــن أدوس بـــاب تلـــك الـــدرر　　لـــذا علـــى فطرقـــل والســـعير

أطرح فرع وفرتي الموفور»

وبـــين كفـــي خلـــه ألقـــاه　　وجيشـــه طـــرًّا عـــلا بكـــاه

وأوشــكوا حتــى غــروب الشــمس　　أن ينـــــدبوا بكربـــــةٍ وبـــــؤس

لكـــنَّ آخيـــل لأتريـــذ دنـــا　　وصـــاح مـــا بـــين الجمـــوع علنـــا:

«أتريــذ قــد حــق لــك الخضــوع　　فمـــر إذن تكفكـــف الـــدموع

ومـــن هنـــا تنصـــرف الجمـــوع　　يهيئـــوا الـــزاد فـــلا يجوعـــوا

فـــإن مضـــوا فـــنحن نســـتطيع　　وصـــيدنا الأصـــول والفـــروع١٨

نحرق ميتًا ودَّه الجميع»

ففــضَّ أتريــذ الجمــوع فمضــت　　إلــى ســفينها وعــنهم أعرضــت

وحولــه ظلّــت ســراة الموكــب　　تــركم للميــت وقــود الحطــب

حتَّى لـه شـادوا علـى السـهل هـرم　　قياســـه عشـــرٌ وتســـعون قـــدم

ورفعـــــوا لقمـــــة الإبالـــــه　　فطـــرقلهم بـــأدمعٍ منهالـــه١٩

وســـلخوا الثيـــار والخرافانـــا　　ليحرقوهـــــا معـــــه قربانـــــا

وخـــفَّ آخيـــل لقطـــع الشـــحم　　يســـبله مـــن فـــوق ذاك الجســـم

وحولـــه ألقـــى بـــلا إبطـــاء　　　لحومهـــا وســـائر الأعضـــاء

مـن بعـد ذا صـب قـوارير العسـل　　　والزيـت فـوق نعـش ذيـاك البطـل

وزاد وهـــو لاهـــب الفـــؤاد　　　أربعـــةً مـــن ضُـــمَّرِ الجيـــاد

وفـــي كلابـــه التـــي فـــي نعمتـــه　　　قـد نشـأت أعمـل حـدَّ شـفرته

مـن تسـعةٍ مـن فـوره اثنـين ذبـح　　　وللوقـــود جثتيهمـــا طـــرح

وهـام الاثنـي عشـر بالسـيف قطـع　　　من بهـم إليـون وبئـس مـا صنـع٢٠

وأرَّث النيـــران حتَّـــى تلـــتهم　　　وصـاح والـدمع سـخينًا ينسـجم:

«أقريـــك يـــا فطـــرقلًا السَّـــلاما　　　وإن تهـــم فـــي ســـقرٍ هيامـــا

فهـا أنـا والجـيش حـولي قامـا　　　أبـــرُّ بالوعـــد هنـــا تمامـــا

وهـــا هنـــا تلـــتهم التهامـــا　　　نيرانـــك اثنـــي عشـــرًا كرامـــا

لكـــنَّ هكطـــور فـــلا ضـــراما　　　يـــذكى لـــه بـــل يغتـــدي طعامـــا

للكلب يفري اللحم والعظاما»٢١

لكنمـا الكـلاب لـم تـدن إلـى　　　جثـة هكطـور بهاتيـك الفـلا

فإنمـــا الزهـــرة بالمرصـــاد　　　تـــدفع كـــل صـــادرٍ وغـــاد

وأفرغـــت قدســـي عُطـــرِ الـــورد　　　فيـه فـلا يعطـب خلـف الجـرد

وفيـــبسٌ مـــن قبـــة الســـماء　　　جلّلـــه بغيمـــةٍ ســـوداء

حتـــى يظـــل تـــرف المجـــس　　　ولا يجـفَّ بشـعاع الشـمس٢٢

والنـار فـي الوقـود لـم تـذك ولا　　　أوارهـا مـن حـول فطرقـل عـلا

فلوسيلة آخيل عمدا … وانحاز عن جمهوره مبتعدا

واستنجد الدبور والشمالا … لتلهبا الإبالة اشتعالا

وتلهم الأجساد ثم نذرا … غرَّ الضحايا لهما وابتدرا

يريق فوق الأرض صرف الخمر … بكأس عسجدٍ تمام البر

وصوته إيريس لما سمعت … لمنتدى الرياح حالًا أسرعت

إذا بهم في مجلس السرور … على وليمةٍ لدى الدَّبور٢٣

فنهضوا طرًّا لها إجلالا … وانتدبوها للقرى احتفالا

فوقفت في عتبات الصخر … تأبى وقالت بجميل العذر:

«ما لي إلى الجلوس من سبيل … فإنني بنيَّة الرَّحيل

لشعب إثيوبية النبيل … فهو على المحيط بالتبجيل

ب مئة ضحًّى من العجول … لنا فلا ندحة من قفولي

وللشمال من لدى آخيل … وللدبور جئت كالرَّسول

لتعصفا بالقبس المشعول … تحت شلا فطرقلٍ القتيل

حيث بنو الإغريق بالعويل … ولهما جزاء ذا الجميل

آلى بنذرٍ شائق جزيل»

ثم توارت عنهما فقصفا … وبددا الغيوم حيث عصفا

وزمزما في لجة العباب … فهاج وجه اليم باضطراب

واندفعا في السهل يقصفان … فارتفعت زهزمة النيران

فـالنوء كـل الليـل فيهـا قـد قصـف وليلـــه آخيـــل ســـهرانًا وقـــف
خمــرًا بكــوب عســجدٍ مــزدوجِ يسقي الثرى من حب تبرٍ بهج٢٤
وهــو ينــاجي روح فطرقــل ومــن حــول ضــرام النــار بالبــث يــئن
فهـــي علـــى أعظمـــه تثـــور وهـــو لـــديها لاهبًـــا يـــدور
كوالـــدٍ يحـــرق أعظـــم ابنـــه بكفـــه مختنقًـــا بحزنـــه
على فراش العرس قد مات الفتى وقلـــب والديـــه حزنًـــا فتتـــا
وإذ بـدت بـالنور فـي أوج العلـى كوكبــة الصـــبح تبشـــر المـــلا
وخلفهـــا امتـــدَّ ســـناء الفجـــر بحلـة الجسـاد فـوق البحـر٢٥
أخمـــدت النيـــران والنـــوآن كهفهمـــا أمَّـــا يدمـــدمان
ببحـــر إثراقـــة مـــرًا فـــاختلج ملتطمًـا فـي يمـه المـوج وعـج٢٦
فارتـــاح آخيـــل إلـــى الهجـــوع فـــي عزلـــةٍ عـــن لغـــط الجمـــوع
أنهكـــه العـــي فبـــالنوم اســـتكن ولـم يكـد يـذوق لـذات الوسـن
حتـــى اســـتفاق لعجـــيج الجنـــد مـن حـول أتريـذ الـزعيم الجلـد
فهـــب ثـــم قـــام ثـــم ارتجـــلا: «أتريـذ يـا صـيد السـراة النـبلا
خمــركم الســوداء صــبوا عجــلا تخمـد وقـودًا باللهيـب اشـتعلا
ثـم اجمعـوا أعظـم فطرقـل الأولـى تبـرز إذ فـي الوسـط كـان اعتـزلا
(والنـاس والخيـل خليطًـا جعـلا فـي الحـاف فيـه لهـب النـار عـلا)
نودعهـــا حقًّـــا مـــن التبـــر غـــلا والشـــحم ســـتران عليهـــا أســـبلا

تبقـى بـذاك الحـق حتـى أنـزلا　　للظلمـات يـوم ألقـى الأجـلا

ولا تشـيدوا القبـر قبـرًا أمـثلا　　بـل فـاعتوا بـه اعتنـاءً مجمـلا

ومـن يعـش بعـدي مـن هـذا المـلا　　يشـد ضـريحًا شـائقًا مكمـلا»٢٧

لبـوه طـرًّا وأراقـوا الخمـرا　　حيـث ذكـت نـار الوقـود جمـرا

فجرفـت تـلا مـن الرمـاد　　وابتـدروا بغلّـة الفـؤاد

أعظمـه البيضـاء يجمعونـا　　وعبـرات الحـزن يـذرفونا

فأودعـت حقًّـا مـن التبـر غـلا　　والشـحم سـترين عليـه أسـبلا

ألقـوه فـي الخيـام تحـت أزر　　مـن النسـيج الشـائق الأغـر

ورسـموا فـي موضـع اللهيـب　　دائـرة الضـريح بالنحيـب

ووضـعوا الأسـاس ثـم رفعـوا　　تـلًّا مـن التـراب ثـم رجعـوا

الألعاب

فاسـتوقف الجمـع آخيـل وعمـد　　لرسـم مجلـسٍ بـه الكـل قعـد٢٨

واستحضـر الجـوائز السـنية　　آنيـة مناضـدًا بهيـه

والخيـل والبغـال والعجـولا　　والغيـد شـدت منطقًـا جمـيلا

وناصـع الحديـد مـن ثـم انطلـق　　يلقـي لـديهم أوَّلًا كـل السَّـبق٢٩

السباق

فللمجلـــي غـــادة حســـناء تفـــاخرت بوشـــيها النســـاء
ومعهـــا دســـيعةٌ ذات عـــرى قياســـها اثنـــان وعشـــرون جـــرى
وللمصـــلّي حجـــرةٌ مـــا ذللـــت فـــي عامهـــا الســـادس بغـــلًا حملـــت
وللمســـلي مرجـــلٌ قشـــيب مـــا تحتـــه بعـــد عـــلا اللّهيـــب
أربعـــةً يمـــلا بالمكيـــال وشـــاقلان ذهبًـــا للتّـــالي
وصـــلة المرتـــاح كـــوبٌ مـــزدوج من ذهبٍ في النار قطّ لم يلج ٣٠
وصـــاح يغـــري طـــالبي الرهـــان: «أتريـــذ يـــا أرغـــوس آل الشّـــان
هـــذي تـــرون تحـــف الفرســـان فلـــو تخاطرنـــا لميـــتٍ ثـــاني
أحـــرزت حتمًـــا خطـــر الرهـــان فمـــا جيـــادي مـــن نتـــاجٍ فـــاني
ولا لهـــا كفـــؤٌ بـــذا المكـــان بهـــا حبـــا فـــي غـــابر الزّمـــان
فوســـيذ فـــيلا فبهـــا حبـــاني لـــــذاك لا حاجـــةَ للبرهـــان
حتـــى بهـــا هـــذا العنـــا أعـــاني قـــد نـــد آه قـــابض العنـــان
ذاك الـــذي قـــد كـــان بالإحســـان يغســـل بالمـــاء بـــلا تـــواني
أعرافهـــا وأكثـــر الأحيـــان بالزيـــت يطليهـــا بجهـــد العـــاني
فهـــي هنـــا بـــدمعها الهتّـــان قـــد أســـبلت بفـــائض الأحـــزان
فـــوق الثـــرى نواصـــي التيجـــان فـــأنتم يـــا نخبـــة الفتيـــان

فمـــن يشــق مـــنكم بهـــذا الآن   بعجـــــلٍ محكمــــــة المبـــــاني

وخيله يبرز إلى الميدان»

ومـا انتهـى حتـى انبـرى السـوَّاق   إفميـــل أذميـــت الفتـــى الســـباق

روَّاض جــرد الخيــل هــب الأولا   ثـــم ذيوميـــذ أخـــو البـــاس تـــلا

بخيـل طـرواد التـي كـان اغتـنم   في الحرب من أنياس بالنصل الأصم

لمـــا أفلـــون وقـــى الطـــروادي   ينئيـــه عـــن مواقـــف الجـــلاد٣١

ثـــم ابـــن أتـــراس منـــيلا الأشـــقر   بفرســـــــي رهانـــــه يبتـــــدر

فـــــوذرغسٍ حصــــانه الثَّمــــين   وإيثيــــــا حجـــــر أغـــــاممنون

تلـــك التـــي بمضـــمد العجـــال   تشـــتاق خـــوض شاســـع المجـــال

كـــان ابـــن أنخـيس إخيفـول حبـا   بهــــا أغـــاممنون لمَّـــا انتـــدبا

للحــرب تحــت معقــل الطــرواد   قـــبلًا ليعفـــي مـــن عنـــا الجهـــاد

وفـــي ربـــى ســـكيونةٍ قريـــرا   يظـــلَّ معتـــدًّا غنًـــى وفيـــرا٣٢

وأنطلـــوخ رابعًـــا هـــب إلـــى   جيـــاده القـــب وشـــدَّ واعتلـــى٣٣

خيـــل عتـــاقٌ جمـــة الأعـــراف   مـــن فـــيلسٍ كريمـــة الأوصـــاف

إزاءه والـــــــده الجليـــــــل   نســـــطور قـــــام نحـــــوه يميـــــل

يرشــــده ويحســــن التعليمــــا   وإن يكـــن بنفســـه حكيمـــا: ٣٤

«بنـــيَّ قـــد ودَّك زفـــس وارتضـــى   وفوســـــذ وثقفـــا منـــذ الصـــبا

وعلمـــاك الجـــري بـــالجرد فـــلا   حاجـــة أن أزيـــدك العلـــم أنـــا

نبغت في استقبال نصبٍ يبتغى لكنمـا خيلـك يعروهـا البطـا٣٥

أخشى بها ينالك اليوم البلا وسائر الجياد أعدى في المدى

لكنك السَّابق في سبل الهدى أقدم إذن بحزم ميقاد الحجى

ولا تقف بنيَّ عن نيل الجزا فإنما الحطّاب نال المرتجى

بالحذق والصنعة ليس بالقوى كذلك الربان بالحذق سرى

بفلكه في البحر في وجه الهوى والفارس الفارس بالحذق رمى

فمن يشق بخيله ضلَّ وما تراه للسبيل في الجري اهتدى

وراح في البراح يجري وغدا لا يستطيع كبحها ولو بغى

لكنما الحاذق حتى لو على خيلٍ تراءت دون سبَّاق السرى

فالنصب نصب عينه دومًا يرى حتَّى لديه ينثني إلى الورا

لا يغفل العنان كيفما انثنى يديره بثبت كفٍّ وكذا

يرقب من أمامه قسرًا غدا وها أنا أريك حدَّ المنتهى

فالنصب هاك ليس في طي الخفا باعًا عن الحضيض فانظره نتا

جذعٌ ولم يعبث به دهرٌ خلا من شامخ الملول أو أرز الفلا

يعضده صخران أبيضا الصفا حيث طريق السهل ضاق والتوى

وحوله المضمار بالعدل استوى لعله قبرٌ به قيلٌ ثوى

أو علمًا كان قديمًا مثلما قد رامه آخيل ذا اليوم لنا

فإن تدنيت فسط وانحز إلى يسراك في الكرسي وصِح صوتًا دوى

والفـرس اليمـين سـق فـإن جـرى	أطلـــق عنانـــه بـــذيَّاك الفضـــا
وباليســار مـل إلـى النصـب هنـا	حتى تخال القطب والنصب سوى[٣٦]
وحـــاذر الصـــدمة بالصـــخر إذا	دنـوت كـيلا يعتـري الخيـل الأذى
أو يسحق النيـر فيشـمت العـدى	وأنــت بـين القـوم يغشـاك الحيـا
بنـيَّ كـن ثبتًـا فـإن نلـت المنـى	وجزتـــه ولـــم يضعضـــعك العيـــا
لا سـائقٌ جـاراك حتَّـى لـو عـدا	وراك أريـــون الجـــواد المجتبـــى
جـواد أدرسـت ومـن نسـل العلـى	أو خيـــل لومـــذونٍ التـــي حـــوى

بهذه الأصقاع تنهب الثرى»

كـذاك نسـطور ابنـه مـذ أرشـدا	عـــاد إلـــى مجلســـه وقعـــدا
وهـــبَّ خامسًـــا إلـــى الســباق	مريـــون فـــي جيـــاده العتـــاق
ثـــم اعتلــوا وطرحـــوا الأزلامـــا	يجيلهـــا آخيـــل استقســـاما
فســـهم أنطيلـــوخ أوَّلًا ظهـــر	فســـهم إفميـــل فأتريـــذ الأغـــر
وبعـــده مريـــون والأخيـــر	أبســـلهم ذيومـــذ الشـــهير
فـانتظموا صـفًّا وآخيـل اعتـرض	يـريهم فـي السـهل بـارز الغـرض٣٧
وأنفـــذ المحنـــك النبـــيلا	فيـــنكس روَّاض خيـــول فـــيلا
ليرقـب الفرسـان فـي المضـمار	وينثنـــي بصـــادق الأخبـــار
فرفعـــوا ســـياطهم وحثحثـــوا	جيـــادهم طـــرًّا معًـــا وانبعثـــوا
فانـدفعت تضـرب فـي السـهول	نائيـــة عـــن موقـــف الأســـطول

تحـــت الصـــدور ثـــائر الغبـــار كـــالغيم أو عجاجـــة الإعصـــار

أعرافهـــا تطيـــر فـــي الهـــواء وخلفهـــا العجـــال كـــالأنواء

حينـــا تـــرى بـــالأرض رامحـــات وتـــارةً فـــي الجـــو ســـابحات

وراءهـــا الفرســـان فـــوق الســـدد تحقـــق قلبًـــا لبلـــوغ الأمـــد

صـــاحوا فراحـــت بهـــم تغيـــر بعثيـــــرٍ فـــــوقهم يطيـــــر

وعنـــدما انتهـــت وعـــادت تجـــري منقلبـــاتٍ نحـــو ثغـــر البحـــر

هنـــاك ثـــارت همـــة الفتيـــان فـــأطلقوا أَزِمَّـــة العنـــان

فبـــرزت خيـــل ابـــن فيـــريس ولـــم تكـــد فإثرهـــا ذيوميـــذ هجـــم٣٨

بجـــرد طـــرواد فزفّـــت عقبـــه كأنهـــا راقيـــةٌ للمركبـــه

تـــنفخ فـــي عـــاتق إفميـــل الـــنفس حـــرًّا كأنـــه بظهـــره قـــبس

طـــارت وهامهـــا علـــى هامتـــه ألقـــت تباريـــه علـــى غارتـــه

حتـــى بهـــا أوشـــك أن يجتـــازا ذيومـــذٌ أو مثلـــه يمتـــازا

لكـــن فيبوسًـــا بســـخطه ســـطا والســـوط مـــن يديـــه حـــالًا أســـقطا٣٩

فخيلـــه ونـــت وتلـــك انطلقـــت ومـــلء عينيـــه الـــدموع انـــدفعت

ولـــم تفـــت فـــالاس تلـــك الحيلـــة فابتـــدرت تـــدرأ شـــرَّ الغيلـــه

أعـــادت الســـوط لـــه وجـــددت عزمًـــا بـــه جيـــاده تشـــدَّدت٤٠

ثـــم انبـــرت حانقـــةً وســـحقت مضـــمد إفميـــل وعنـــه انطلقـــت

فسقط المضمد والخيل جرت … جامحةً وفي البراح نفرت
ونفس إفميل على التراب … أهوى من الكرسي للدولاب
يسيل من فيه ومنخريه … نجيعه كذاك من يديه
وانفضخت جبهته حين وقع … وفاضت العبرة والصوت انقطع
ومن أمامه ذيوميذ اندفق … وسائر الخيل مبرزًا سبق
تفرغ آثينا القوى بالجرد … حتى تنيله أعالي المجد
تلا منيلا ففتى نسطورا … مطهميه سائقًا مغيرا
يصيح: «هلَّا تفرغان كلّما … عدوا لمثل الحين ذا أعطيتما
سبق ذيوميذ نعم لن أزعما … ففرساه اليوم طارت بهما
فالاس تعلي مجده لكنَّما … وراء أتريذ استفزًّا الهمما
فأدركاه أفلا أخجلتما … وإيثيا حجر جرت دونكما٤١
شأنكما السبق فلم أبطأتما … لأقسمنَّ وأبرَّن قسما
عن سابقات الخيل إن قصَّرتما … وغير أطراف الجزا لم تغنما
لا خلتما نسطور يعني بكما … بل بظبي أنصله أهلكتما
إيه إذن فانبعثا وعندما … تبلغ ذيَّاك المضيق المظلما
نعمل فيه حيلةً فنقحما … لمَّا أضلّه السبيل الأقوما»٤٢
فجزعا لهول ذاك الزجر … واندفعا حينًا ببطن البر
فأنطلوخ أبصر المضيقا … حيث السيول هدَّت الطريقا

وانحـــدرت جـــوارف الأمطـــار بهـــــوَةٍ تنــــذر بالأخطـــــار

بنفســه مــن ثــم أتريــذ انحــدر منفــردًا يخشــى لقــا الخيــل الأخــر

فأنطلوخ من على الكرسي انحرف وغـــادر المـــنهج يبغيــه وخـــف

فصـــاح أتريـــذ بمـــلء الجــزع: «أأنطلــــوخ لــــم أرك لا تعـــــي

جيــادك اكــبح للطريــق الأوســع فســوف تجتــاز بــذاك المهيــعِ٤٣

فإن تزاحمني كلانا نقع»

فلــم يصــخ وســاط ثــم انــدفعا بخيلـــــه كأنــــه مــــا ســــمعا

فاجتــاز مرمــى كــرةٍ قــد قــذفا بهـــا فتـــى بـــأسٍ عليهـــا أتلفـــا

فارتــدعت خيــل منــيلا القهقــري ولــم يســق خشــية خطــبٍ اكبــرا

خشـــية أن تصـــطدم العجـــال فتســـــقط العجـــال والرجـــال

وهكـــذا فـــي طلـــب الفخـــار تعفـــــر الأوجـــــه بالغبـــــار

وصـــاح أتريـــذ بغـــل الكـــدر: «أأنطلـــوخ بـــين كـــل البشـــر

مــا قــط حاكــاك شــقيٌ مفتــري نــدَّ عــن الإغريــق صــدق المخبــر

وهــم يخالونــك بالعقــل حــري فلـــن تفـــوزن مـــهٍ بـــالظفر

أو تقسم الآن أمام الزمر»

وفرســيه ســاط ثــم صــاح: «لا يورثكمـــا الغـــم حـــذار الملـــلا

دونكمـــا مـــذ كيـــان أثقـــلا ســنًا وســوف يجهــدان عجــلا»٤٤

فجزعـــا لصـــوته وثـــارا وأنطلـــوخ أدركـــا تكـــرارا

وظلـت الصـيد بتلـك الحلقـه ترقـب تلـك الضـمر المندفقـه
تنهـب قلـب السـهل والعجـاج للجـو مـن وقـع الخطـى وهَّـاج
وكـان عـنهم لليفـاع انعطفـا قيـل إكريـت ومنـه أشـرفا
فأبصـر الخيـل وهـم لـم يبصـروا وسـمع الصـوت الـذي يزدجـر
فعـرف الفـارس عـن بعـد الأمـد والأشـقر السـابق فـي تلـك الجـدد
فـي وجهـه الغـرَّة لاحـت كـالقمر فقـام ثـم صـاح يصـدق الخبـر:
«يـا صـحب يـا عصـابة الأقيـال ألكـم بـدا الـذي بـدا لـي
أرى جيـادًا بـرزت حيـالي وفارسًـا غيـر الـذي فـي البـال
فالسَّـابقات أصـبحت تـوالي لا شـكَّ ألفـت قـدرًا ذا بـال
رأيتهـا والنصـب بـادٍ عـال جازتـه والآن بـلا انفصـال
اسـرح الطـرف علـى الأطـلال كـأنني أسـعى إلـى المحـال
لا شـك عنـد العـود والإقبـال طـار العنـان مـن يـد الخيـال
أو جمحـت فيـه ولـم تبـال وقضَّـت النيـر وبالإجفـال
ولّـتْ فألقتـه علـى الرمـال قومـوا اجتلـوا حقـائق الأحـوال
فلـم أكـن ظنـي بالمغـالي وخلتنـي أبصـر فـي الأوالـي
قيـل الإتـول الشـائع الأفضـال روَّاض مـتن الجـرد ذا الأهـوال
ذيومذ القرم أخا المعالي»
هنـا ابـن ويلـوس لـه تصـدَّى وصـاح فيـه حانقًـا محتـدًّا:

«أإيـذمين لـم تكـن بالمنصـف ... هرفـت ألفيـك بمـا لـم تعـرف
فتلك تلك الخيل شم المعطف ... تنتهـب السـهل ومـا الأمـر خفـي
مـا كنت بـالغض الشباب الترف ... بـل شـاب أنظـارك عيـب الضـعف
والهـذر عـودت بقـول المرجـف ... أفقـت أهـل الحكـم فـي ذا الموقـف
حتـى تشـدَّقت بهـذا الصـلف ... فخيـل إفميـل نعـم لـم تختـف
بل لم تزل في الصَّدر لم تنحرف ... يـدير صـرعها بـلا تكلـف»
فقـال إيـذومين يصـلى حنقـا: ... «أيـاس تسـمو قحـةً وحمقـا
ومنطقًـا بكـل خبـثٍ ذلقـا ... وفـي سـوى ذاك عجـزت مطلقـا
فقـم وخـاطرني فـأيُّ صـدقا ... يحـرز قـدرا أو إنـاءً نمقـا
حتَّـى إذا أتريـذ عـدلا نطقـا ... هنـاك تـدري خاسـرًا ومنفقـا

أيَّ جوادٍ في الرهان سبقا»

فهـبَّ آيـاس علـى الأقـدام ... يثـور للجـواب باحتـدام
وكـادت الفتنـة تـذكو ضـرما ... لكـنَّ آخيـل تصـدَّى لهمـا
فقـال: «إيـذومين آيـاس كفـى ... لا كـان مـن مثلكمـا هـذا الجفـا
سـواكما لـو حـلَّ هـذا الموقفـا ... عنفتمـاه فاجلسـا وانعطفـا
أقبلـت الخيـل انظراهـا تعرفـا ... سـابقها مـن الـذي تخلفـا»٤٥
ثـم ذيوميـذ هنـاك لاحـا ... منتهبًـا بخيلـه البطاحـا
تسبح فـي الهـواء والسـوط علـى ... أكتافهـا والنقـع للجـو عـلا

وراءها مركبة المغار … تسطع بالنحاس والنضار

طارت فأضحى أثر الدولاب … يوشك أن يخفى على التراب

حتى إذا بينهم حل انتصب … ثم عن الكرسي للأرض وثب

ومن صدورها إلى الأرض اندفق … كذاك من أعرافها رشح العرق

والسوط للمضمد ألقى وابتدر … من فوره إستينلٌ إلى الخطر

فالبكر والدَّسيعة المكتسبه … ألقى لصحبه وحل المركبه٤٦

إذا بأنطلوخ للقوم بدا … قبل منيلا خدعةً لا مطردا

لكنه ما ند عنه وسبق … إلَّا كما الجواد بالنير التصق

(إذا لدى مركبة القيل اندفع … وذيله حول المحالات ارتفع)٤٧

قد كان مرمى كرةٍ عنه ابتعد … لكن مضى بإيثيا يجري وجد

ولو مجالهم يسيرًا طالا … لأحرز السبق وفخرًا نالا

ثم على مرمى مثقفٍ أتى … حوذيُّ إيذومين مريون الفتى

فليس ذا سلاهبٍ كرام … وليس بالمضمار ذا إلمام

وآخر الحلبة مقطوع الصله … لاح ابن أذميت يجر العجله

وخيله يسوق في مجنته … فرق آخيل لدى رؤيته

وصاح ناهضًا: «أرى الجديرا … بالسبق أضحى ها هنا الأخيرا

فلا نضع إقدامه المبرورا … ذلك نال الخطر الخطيرا٤٨

فلنجعل الثاني ذا الأميرا»٤٩

فاستصوبوا وكاد يعطي الحجرا   لو لم يعارض أنطلوخ جهرا

وصاح: «يا آخيل إني أنقم   منك إذا اعتديت فيما تحكم

تحرمني حقي وأنت تزعم   إفميل فيه الخيل وهو الأيهم

قد أصبحت عن السباق تحجم   فلو سراة الخلد عونًا منهم

رام لما كان أخيرًا يقدم   فإن به تعنى وأنت الأكرم

ففي خيامك المنال الأقوم   من ذهبٍ ومن نحاسٍ يركم

والغيد والخيل بها والنعم   أما له إن شئت فيها مغنم

من صلتي أوفى نعم وأعظم   عاجله بالبر إذن فتعلم

كل السرى أنك أنت المنعم   لكنني في مغنمي لا أرغم

ومن يعارضني به فالحكم   ما بيننا الصم بها نستعصم»

فهش آخيل له منتصبا   إذ كان إلف وده منذ الصبا

وقال: «مذ قد رمت أن أنيلا   من منزلي جائزةً إفميلا

فالآن يعطى الجوشن الثقيلا   جوشن عسطروفٍ الصقيلا ٥٠

ذاك الذي طرحته قتيلا   حلقه صفر زها جميلا

وهو جزاء خلته جليلا»

ثم إلى أفطومذ أشارا   فهبَّ من ساعته وسارا

وأحضر الدرع وإفميل حبا   بها ففاض جذلًا وطربا

لكن منيلا قام واري اللهب   على ابن نسطور وبادي الغضب

مــن كــف فــيج صــولجانًا قبضــا يأمر بالصـمت السرى مـذ نهضـا٥١

وصــاح: «أنطلــوخ يــا ذا العقــلِ لــم اجترحــت اليــوم شــرَّ الفعــل

وسمت شاني الخذل شر الخذل أحرجـــت خيلـــي وبخيـــلٍ خطـــل

جـزت سـراحيبي الكـرام الأصـل فيـــا ســـراة القـــوم آل الفضـــل

هيُّــوا افصــلوا مــا بيننــا بالعــدل كـــي لا يقـــال بعـــد هـــذا الفصـــل:

«غـدرًا منـيلا قـد غـدا يسـتعلي وأحـــرز الحجـــر بفضـــل النبـــل

«والبأس لا بالجري فوق السهل» وهـــاكم حكمـــي بـــذا المحـــل٥٢

ولا إخـــالني رهـــين العـــذل إذ إننـــي بـــالحق حكمـــي أملـــي

قــم أنطلـوخ وفـق عـرف الأهـل وقـــف هنـــا قـــرب الجيـــاد مثلـــي

والسوط ذا السوط الذي من قبل ســـقت بـــه اقـــبض بيـــدٍ وخـــل

يــدًا علــى الخيــل أمــام الكــل واخلـــف بهـــدَّام الـــورى الأجـــل

أنك لم تغدر ولم تحتل لي»

فقــال: «صــبرًا يــا منــيلا صــبرا جـــاوزتني ســـنًّا وفقـــت قـــدرا

فنـــزق الشـــباب تـــدري خيـــرا يـــدفع فـــورًا ويضـــلُّ الفكـــرا

جهــل الصــبا هــذا وأنــت أدرى فـــالطيش فيـــه علـــةٌ لا تبـــرا

أنــت إذن بــالعفو كنــت الأحــرى فـــدونك الحجـــر فخـــذها جهـــرا

وإن تشــأ زدت صــلاتٍ أخــرى فـــذاك خيـــرٌ لـــي يـــا ابـــن أتـــرا

مـــن أن تســـومني قِلَّـــى وهجـــرا وعنـــد آل الخلـــد أجنـــي وزرا»٥٣

وقادهـــا بيـــده يلقيهـــا إليـــه فـــاعتز بهـــا بـــديها
ومثلمـا السـنبل (والطـلُّ فـرش حبابـه فـي مائـد الـزرع) انـتعش٥٤
كـذاك يـا أتريـذ لُبُّـك انشـرح وغلـة الغـم علـى الفـور اطَّـرح
وقـال: «أنطلـوخ عفـت الغضـبا والآن لـي الإذعـان والغـيظ خبـا
قـد كنـت دومًا ذا حجًى مهـذبا لكنمـا بالعقـل قـد عـاث الصـبا
لا تخـدعن بعـد قـيلًا أنجبـا منـك فـلا سـواك فـورًا أذهبـا
غِلِّـي وقـد شـاهدت فيمـا ذهبـا كـم نَصـبًا عـانيتم ونَصـبا
أنـت وثرسـيميذ ذاك المجتبـى والشـيخ نسـطور وكنـت السَّـببا٥٥
عـذرك قـد قبلتـه مستصـوبا والحجـر لـي خـذها حـلالًا طيبـا
ليشـهد الإغريـق فـي هـذي الربـى أن جنـاني العسـف والكبـر أبـى»
ثـم إلـى رفيقـه نومونـا ألقـى بهـا فاقتادهـا مأمونـا
لـذاك بالمرجـل أتريـذ ذهـب وخـصَّ مريـون بشـاقلي ذهـب
إذ كـان تاليًـا أتـى علـى أمـد وصـلة المرتـاح لـم ينـل أحـد٥٦
لـذاك بـالكوب آخيـل راحـا يهـدي إلـى نسـطور ثـم صـاحا:
«خذ أيها الشيخ فهذا الذخر لك ذكـرًا لفطرقـل الـذي آه هلـك
ولـن تـراه بعـد فـي هـذي الـدرك إليـك قـد أهديتـه إذ أثقلـك
عجـزٌ فلـن تكـون ممـن اشـترك لا بلكـامٍ أو صـراع أو سـلك
في العدو والطعن بهذا المعترك»٥٧

والكـــوب ألقـــاه لــــه فطابـــا نفسًـــا ومـــن ســـاعته أجابـــا:

«بنــي قــد نطقــت بــالحق نعــم قــد وهــت الكــفُّ وخــارت القــدم

آه فيــا ليــت شــبابي مــا انصــرم ودام لـــي إقـــدام غـــابر القـــدم

لمـــا الإفيـــون ببفـــراس الـــنعم سـعوا إلـى دفـن عمـار نقـا الحكـم

وولـده قـد أجزلـوا والحشـد تـم جـــوائز الألعـــاب حتـــى تقتســـم

فلـم يكـن فـي كـل هاتيـك الأمـم مــنهم ومــن فيلــوس أربــاب الشــيم

كـذا مـن الإيتـول مـن معي انـتظم فإقلطوميـــذ بـــن إيـــنفس اصـــطدم

معــي لكامًــا فــانثنى واري الألــم ثـــم الفلـــوروني أنقـــاص هجـــم

نحوي صـراعًا فـانثنى بـادي النـدم ثـــم إفكلـــوس الفتـــى مـــن اتســـم

بعـــدوه قصَّـــر عنـــي واعتصـــم ثـــم بـــزج الـــرمح فـــيلاس الأشـــم

وفولـــذورًا جـــزت مـــأثور العظـــم لكننـــــي بســـــبق العجـــــال لـــــم

أفــز وإن كــان لــه القــدر الأهــم فولـــــدا أكتـــــور أدركـــــا العلـــــم

قبلـــي يغنمـــان خيـــر مغتـــنم والفـــوز للكثـــرة بالفضـــل حكـــم

والتوأمـــان انبريـــا فـــذا اقـــتحم بســـوطه وذا الأزمـــة اســـتلم٥٨

ذلـك شـأني كـان مـن قبـل الهـرم والآن للفتيـــــان إبـــــراز الهمـــــم

أتمــم إذن مــأتم إلفــك الأحــم وهـــا أنـــا أقبـــل بالبشـــر الأتـــم

ذخـرك إذ أكرمـت يـا نعـم الكـرم حرمـة شـيخٍ كـان مـن أهـل الحـرم

فلتجزك الأرباب موفور النعم»

فبعــد أن أصــغى إلــى نســطورا | آخيــل راح يخــرق الجمهــورا
مستحضــــرًا جــــائزة اللكــــام | بغــلًا عتــا فــي ســادس الأعــوام
مــاريض بــل يوشــك أن لا يقربــا | وقــدحًا لمــن عيانًــا غلبــا٥٩
وصــاح: «أي اثنــين فاقــا الجنــدا | وفــي أســاليب اللكــام اشــتدًّا
فليبـــرزا فـــذا الجـــزا أَعِـــدَّا | فمـــن بنصـــر فيـــبس أمـــدًّا
وشـــهد الجمـــع لـــه فيهـــدى | إليـــه ذا البغـــل القـــويُّ جـــدًّا

والكأس للمغلوب حقا يسدى»

فقـــام قـــرم باســـلٌ كبيـــر | إفيــوس فــانوف الفتــى الخبيــر
ألقــى علــى البغــل يــدًا وقــالا: | «يــا مــن يــروم القــدح ابــرز حــالا
فــلا ســواي البغــل مــنكم نــالا | فتًى ومثلي خاض ذا المجالا٦٠
حســـبي أن لا أحســـن القتـــالا | مــن ذا الــذي كــلَّ مجــالٍ جــالا
قلـــت وإنـــي صـــادقٌ مقـــالا | مـــن قـــام لـــي قطعتـــه أوصـــالا
وليعـــدد الصَّـــحب لـــه الرجـــالا | تحملـــــه مـــــثقلًا نكـــــالا»
فصـــمتوا طـــرًّا ســـوى فريـــال | عـــدُّ بنـــي الخلـــد أبـــي الأهـــوال
فــرع مكســت بــن طــلاووس ومــن | قــد كــان مــن أعظــم لُكَّــام الــزمن
قــد كــان فــي مــأتم أوذيــب ظهــر | فـــي ثيبـــةٍ وآل قـــدمسٍ قهـــر
ونحـــــوه ذيومــــذ مستنهضـــــا | بـــادر يبغـــي فـــوزه محرضـــا

شـدَّ لـه النطـاق حـول الخصـر والجُمع غشَّى جلد ثورٍ برِّي٦١

فنـــزلا الســـاحة يرفعـــان كفيهمـــا معًـــا ويلكمـــان

حتى هناك الجمع بالجمع اشتبك ورشح الأعضاء واصطك الحنك

فـانقضَّ إفيـوس وفريـال لطـم بوجهـه لطمـةَ صـنديدٍ غشـم

فلـم يطـق لهولهـا احتمـالا وارتجفـت أعضـاؤه ومـالا

كـالحوت والنـوء بشـمألٍ عصـف في الجرف بين زبد البحر ارتجف

لكـنَّ إفيـوس انحنـى عليـه يرفعـه مـا بـين سـاعديه

وصـحبه خفُّـوا بـه والتـوت سـاقاه والهامـة أيضًـا أهـوت

يسـيل وهـو لا يعـي شـعورا نجيعـه مـن فمـه غزيـرا

كـذا بـه سـاروا بمـلءِ اليـأس ولم يفتهم أخذ تلك الكاس٦٢

الصراع

ثـم انبـرى آخيـل للخطـاب منتـدبًا لثالـث الألعـاب

يـري القـروم تحـف الصـراع محثحثًـا لهولـه الـرَّوَّاع

للصـارع الفـائز مرجـل أغـر قيمتـه اثنـا عشـر مـن البقـر

وللصـريع غـادةٌ مروَّعـه قيمتهـا لا تتعـدَّى الأربعـه

وصاح: «يا أبطال من منكم رغب بخوض ذا الميدان حالًا ينتصب»

فقـام أولًا أيـاس الأكبـر ثـم أذيـس السـائس المـدبر

تمنطقا وبرزا بلا عدد والتقيا واشتبكا يدًا بيد

تلاصقا تلاصق الجسرين في السقف بالبناء قائمين

قد رسخا بحكمة البناء لصد فعل الغيث والأنواء

حتى عرى الأضلع كادت تنكسر والرشح سَّالٌ كغيثٍ منهم

وكلف الدماء حمرًا تجري على الصفاح وفقار الظهر٦٣

والكل وارٍ بأوار الأمل للفوز بالنصر وذاك المرجل

فلا أذيسٌ بأياسٍ ظفرا ولا أياس نال منه وطرا

فضجر الحضَّار أجمعونا فعند ذا صاح ابن تيلامونا:

«أذيس طال الأمر فارفعني هنا وإن تشأ رفعتك الآن أنا

وزفس موكولٌ له باقي العنا»

ثم على الفور أياسٌ رفعه ولم يكن ذاك لينسى خدعه

عنفًا على السَّاق أياسًا ضربا فالتوت الركبة ثم انقلبا٦٤

وفوق صدره أذيسٌ وقعا والجمع يستعجب مما صنعا

ثم أذيس رام أن يحتمله لكنَّه لم يقو أن يقلقله

حتى لوى الركبة والقرمان كلاهما خرًّا يعفَّران

ثالثةً همَّا بأن يصطدما لكنما الأمر آخيل حسما:

«كفى صراعًا وكفى أذيه كلاكما قد أبرز الحميَّه

فلكما الجزاء بالسويه كفًّا إذن لتبرز البقيه»

فســـــمعا وأمــــره أطاعـــــا   وانفصــــلا وغــــادرا الصــــراعا
ونفضـــا الغبـــار ثـــم لبســـا   كـــلٌ رداه ومضـــى فجلســـا٦٥

الحضر

وخطـــر الحضـــر آخيـــل أبـــرزا   حقًا مـن اللجين كـان أحـرزا٦٦
منمــــنم مكيلــــه ســــتًا وزن   مــا مثلــه حــق بــذياك الــزمن
زخرفـــه أبنـــاء صـــيدا وخـــرج   قـوم فنيقيـا بـه علـى اللجـج
حتّـى إذا لمنـوس جـاءوا وقفـوا   حيـث بـه القيـل ثـواس أتحفـوا
وإفـنس بـن إيسـنٍ بـين العـدى   بـه ابـن فريـام لقـاوون افتـدى
لـذاك فطرقـل عفـا عـن دمـه   والآن قـد أبـرز فـي مأتمـه
أعــــدَّه خليلـــــه للســــابق   وخيـــر ثـــورٍ قـــارحٍ للّاحـــق
وللأخيـر نصـف شـاقلٍ ذهـب   مـن ثـم يـبن القـوم ناهضًا خطب
وصـاح: «يـا سـراة مـن مـنكم رغـب   بخوض ذا الميدان حالًا ينتصب»
فانتصـــب ابـــن ويلـــسٍ أيـــاس   ثـــم أذيـــس اللبـــق النبـــراس
فـــأنطلوخ ســـابق الأتـــراب   وانتظمـوا صـفًا علـى اقتـراب
ولهـــم آخيـــل أعلـــن الغـــرض   فـانبعثوا انبعـاث عـداءٍ ركـض
إذا بآيـــاس ســـريعًا ســـبقا   لكـــن وراءه أذيـــس طبَّقـــا
يـــدنوا كمـــا النسَّـــاجة البديعـــه   لصـدرها قـد دنـت الوشـيعه٦٧

(إذا بهـــا بنولهـــا أمـــرَّتِ سـلكًا بـه تحـوك ثـم اجتـرَّت)

خطـاه فـي خطـى ابـن ويلـسٍ تقـع مـن قبلمـا العثيـر عـنهن ارتفـع

يجـــري علـــى أعقابـــه ونفســـه بـــرأس آيـــاس يثـــور قبســـه

والقـــوم طـــرًّا يرتجـــون الغلبـــه لـــه وضـــجوا وهـــو عـــادٍ عقبـــه

حتـــى إذا علـــى الختـــام أشـــرفا أذيـــس فـــالاس دعـــا وهتفـــا:

«عونـــك يـــا ربـــة قـــوي قـــدمي» وذلـك الـدعاء فـي الحـال نمـي

فشـــدَّدت بـــالعزم معصـــميه وخففـــت بجريـــه رجليـــه

وحـــين همَّـــا أن يصـــيبا الخطـــرا أيـــاس فـــالاس رمـــت فعثـــرا

أكـــبَّ فـــي خثـــي ثيـــارٍ ذبحـــا آخيـل فـي مـأتم فطرقـل ضـحى

بـــه امـــتلا فـــوه وأنفـــه وخـــف أذيـس أوَّلًا إلـى أولـى التحـف

وأســـرع ابـــن ويلـــسٍ يليـــه والخثـــي حشـــو أنفـــه وفيـــه

لقـــرن ذاك الثـــور حـــالًا مـــالا وصـاح وهـو يتفـل الـدمالا٦٨

«وا خيبـــة الهمـــة والإقـــدام فربـــةٌ تلـــك لـــوت أقـــدامي

وعـــن أذيـــس أبـــدًا تحـــامي كـــالأم منـــذ غـــابر الأيـــام»

فارتفعـــت قهقهـــة الجمهـــور وأنطلـــوخ صـــاح بالحضـــور

قـــال لهـــم مبتســـمًا مســـرورا وإن غـــدا مغنمـــه الأخيـــرا:

«هـلَّا أيـا صـحب خبـرتم خبـري آل العلـى تجـلُّ قـدر العمـر

أيـــاس فـــاتني نعـــم بنـــزر | لكــن أذيــس إلــفُ ذاك العصــر
شــيخٌ ولكـــن ذو جنـــانٍ نضـــر | مــا معــه قــطّ بهــذا الــدَّهر

خلا آخيل من مجارٍ يجري»٦٩

أجــاب آخيـــل لـــذا الإطـــراء: | «مـا كنـت مـدَّاحي بـلا جـزاء٧٠
لــذاك قــد زدتــك مــن حبــائي | نضــار نصــف شــاقلٍ وضَّــاءِ»
وعـــاجلًا نفحـــه بالـــذَّهب | فـراح معتـزًّا بمـلء الطـرب٧١

الطعان

ثــم أتــى بعامـــلٍ طويـــل | وخـــوذةٍ ومجـــوب ثقيـــل
سـلاح سـرفدونٍ الـذي اسـتلب | فطرقــل لمَّــا ذلــك القــرم غلــب
بــين الجمــوع طــرح الجميعــا | وصـــاح يستنهضـــهم ســـريعا:
ل مــن فــي القــوم قرمًــا صــد | فليبـــرزا بكـــل ماضـــي الحـــد
إلــى الطعــان بــين كــل الجنــد | ومـــن هنـــا ســـالت دمـــاء النـــد
بطعنــه فــوق الحديــد الصــلد | نعطيــه ســيف عســطروف الجلــد
ذاك الـــذي اكتســـبته بجـــدي | قتيـــره الفضـــيُّ زاهـــي الوقـــد
لكــن ســلاح ســرفدون نهــدي | إلـــى كليهمـــا شـــعار مجـــد
ولهمــا منــي جميــل الوعــد | فــي الخــيم أدبــة بضــافي الرغــد»
فقـــام آيـــاس التلامـــوني | ثـــم ذيوميـــذ الفتـــى الســـري

تسـلحا فـي طـرف الكتائـب وبـــرزا بـــروز ليـــثٍ واثـــب

يحتـــــدمان للقـــــا أوارا بـــــأعين قادحـــــةٍ شـــــرارا

تـــدانيا ووقـــع ذاك المنظـــر لهولـــه ارتـــاع جميـــع العســـكر

كـــرًّا ثلاثًـــا وثلاثًـــا أعلنـــا ظبـــي القنـــا ثـــم أيـــاسٌ طعنـــا

فخرق المجـوب لكـن مـا ولـج في الجسم بل في اللَّأمة الرمح اختلج

ثـــم ذيوميـــذ أجـــال العـــاملا بـــه أيـــاس طالبًـــا مقـــابلا

يرقـب فرصـة لشـتى الجيـد مـن تحـت تـرس ذلـك الصـنديد

فأشـفق القـوم علـى أيـاس وأمـروا بـالكف خـوف البـاس

وقسـمةِ الجـزاء بالسـواء لكـــن آخيـــل بـــلا إبطـــاء

ألقـى إلـى ذيومـذ الحسـاما والغمـد والنجـاد ثـم قامـا٧٢

الكرة

يلقـي علـى مـرأى جميـع الصـيد هائـــل أكـــرةٍ مـــن الحديـــد٧٣

كـــان بهـــا يقـــذف إيتيُّـــون مـــن قبـــل أن تدركـــه المنـــون

بـه أخـو البـأس آخيـل مـذ فتـك بفلكـــه اســـتقل كـــل مـــا ملـــك

فصـاح: «مـن بـذا الجـزاء طمعـا منـــك ألا مـــا الآن فـــورًا أســـرعا

فهـو لمـن أبعـد مرمـى رفعـا مهمـــا نمـــا مزرعـــه واتســـعا

مـا بعـد ذا خمسـة أعـوام سـعى لبلـــدٍ يبغـــي الحديـــد المودعـــا

لحــارث الأرض وللــذي رعــى   بل فيه ما يكفيه هذا المطمعا»٧٤

فهـــبَّ فوليفيـــتٌ الجبـــار   ثـــم ليـــنط الباســـل القهَّـــار

ثـــم أيـــاس الأكبـــر المغـــوار   والقـــرم إفيـــوس وصـــفًا داروا

أوَّلهـــم إفيـــوس ألقـــى بـــالكره   فانـــــدفعت دائـــــرةً منتشـــــره

فقهقــه الجمــع وبعــده قــذف   بهــا ليــنط ثــمَّ آيــاس وقــف

وإذ بعــــزم زنــــده مشـــتدًّا   رمـــى بهـــا مرماهمـــا تعـــدَّى

لكـــنَّ فوليفيـــت لمَّـــا ألقـــى   بهــا علــى الجميــع حــاز الســبقا

فانبعثـــت بمشـــهد الحضـــور   مبعــدةً عــن مجلــس الجمهــور

كبعــد مرمــى محجــن البقــار   يغـــلُّ فـــوق راتـــع الثيـــار

والجمــع ضــجَّ وبتلــك الصــلة   لفلكــــه أصــــحابُهُ بــــادرت

النضال٧٥

ثـــم آخيـــل صـــاح بالنُبَّـــال   يطمعهـــم بـــالأفؤس الغـــوالي

عشرين من صلد الحديد قد أعد   عشـرًا بحـدَّين كـذا عشـرًا بحـد

ثــم علــى مســافةٍ فــي الســهل   ســـاريةً أركـــز فـــوق الرَّمـــل

بمســــدٍ دقَّ عليهـــا علّقـــا   حمامـــةً برجلهـــا قـــد أوثقـــا٧٦

حتــى تكــون الغــرض المقصــودا   ثـــم دعـــا يســـتنهض الجنـــودا:

«الأفــؤس الأولــى لمــن أنــيلا   بـــأن يصـــيب الطـــائر الـــذليلا

وذي لمـــــن يخطئـــــه قلـــيلا ثـــم يصـــيب المســـد المفتـــولا»

فهـــبَّ طفقيـــر الأميـــر ونهـــض مريـــون تبـــع إيـــذمين واعتـــرض

فاستقســـما بخـــوذةٍ مـــن صـــفر فـــلاح طفقيـــر ببـــدء الأمـــر

بـــالعزم والزَّمـــاع ســـهمًا أرســـلا لكـــن عـــن النُّـــذور عفـــوًا غفـــلا

لفيـــبسٍ لـــم ينـــوِ عنـــدما عـــزم مـــن غـــرر القربـــان أكبـــار الغـــنم

فلـــم يصـــب بســـهمه الحمامـــه إذ إن فيبسًـــا بغـــى إرغامـــه

لكـن إزاء الرجـل فـي الحبـل وقـع مريشه والحبل في الحال انقطع٧٧

ومـال والطـائر مـذ نـال الفـرج حلّق في الجو وكل الجمع ضج

فانتـاش منـه القـوس مريـون وفـي يديـــه ســـهمه بـــلا توقّـــف

ومئـــة الخـــراف أبكـــارًا نـــذر ضـحيةً لـذي السـهام تُـدَّخر٧٨

ورشـــق النبـــل بـــلا اضـــطراب مســـددًا والطيـــر فـــي الســـحاب

فمـن جنـاح الطـائر السـهم بـرز ثـم لـدى مريـون فـي التـرب ارتكـز

والطيـــر فـــوق الـــدقل الموتـــود أهوى هديل الجنح لاوي الجيد٧٩

فخمـــــدت أنفاســـــه وهبطـــــا وللثـــرى عـــنهم بعيـــدًا ســـقطا

وأعـــين الجميـــع بانصـــباب عليـــه راقبتـــه باســـتعجاب

لـــذاك مريـــون الفئـــوس الأولا نـــال وباقيهـــا لطفقيـــر خـــلا٨٠

ثـــم آخيــــل عــــاملًا مثقفــــا ألقــى وألقــى مــرجلًا مزخرفــا
مزيَّنًـــــا بصـــــور الأزهـــــار لــم يعــل قــط بعــد فــوق النــار
جــــائزةً للــــرَّامح المجيــــد بالرشــق بالصــعاد مــن بعيــد٨١
فقــــام ذو الطــــول أغــــاممنون كــــذا انبــــرى منتصــــبًا مريــــون
فصــاح آخيــل: «وهــل منَّــا أحــد يجهــل يــا أتريــذ كــم فقــت العمــد
وكــم بــزج وقــى كنــت الأشــد إذن لــك الجــزاء بــالحق معــد
خــذه إلــى فلكــك مــن غيــر مــرد وإن تشأ ما شئت في هذا الصدد

فلنحب مريون بذا الرمح وقد»

بــذاك أتريــذ لــه أبــدى الرضــا والــرمح مريــون حبــاه فمضــى
ثــــم اســــتقلَّ الخطــــر النفيســــا يلقــي بــه للفــيج تثبيوســا٨٢

هوامش

(١) يرى الجم الغفير من شراح هوميروس وقرَّائه أن هذا النشيد والذي يليه لم يكونا في الأصل من الإلياذة، وإنما أضيفا إليها بعد حين، وحجتهم في ذلك أن وقائع الإلياذة انتهت بمقتل هكطور، وليس في هذين النشيدين شيءٌ من مواقع الطعان، ومواقف الجيشين حول إليون وهي محصورة؛ ولهذا خطأ بعضهم هوميروس على إضافة هذين النشيدين، وقال آخرون: بل هما من نظم شاعر آخر ألصقهما بالإلياذة.

وكلا القولين فيما أرى خطأ فاحش؛ أما القول بكونهما لشاعر متأخر فغير معقول، وأي قريحة تنتج من مثل هذه اللآلئ ولا تحرص على إحراز فخر ابتداعها فتنسبها إلى غيرها، وإن قيل: إنه ربما ذهب اسم الناظم ضياعًا بتقادم العهد فهوميروس أقدم عهدًا على ما يعلمون، وفضلًا عن ذلك فسلسة الإلياذة حلقات آخذ بعضها برقاب بعض، فحينما بدا تراخٍ ولو طفيف في تلاحمها ظهر ذلك ظهور الشمس كما أبنا الأمر في مواضعه. وأسلوب نظم هذين النشيدين ولغتهما والتصرف بمعانيهما وارتباط حوادثهما بما سلف، كل ذلك يؤيد القول بأنه لا يمكن أن يكون ناظمهما إلا ناظم ما تقدمهما من الإنشاد كما أسلفنا في المقدمة.

أما تخطئة هوميروس على إلحاقهما بالإلياذة فخطأ أعظم؛ لأنه لم يفت القارئ اللبيب أن موضوع المنظومة غضب آخيل، وليس مقتل هكطور، وذلك يبين من أول بيت في أول نشيد، فلو اقتطع الشاعر منظومته عند مقتل هكطور لكان في وقوفه نقصٌ يلام عليه؛ إذ لم يبد بعد من أوجه الغضب إلا أوجه العنف والانتقام، فلو وقف بنا الشاعر هنا لمثل لنا آخيل – وعليه بنيت كل المنظومة – وحشًا ضاريًا لا بطلًا أنوفًا أبيًّا تزينه على خشونة الأبطال مزايا أكرم الرجال – كان آخر عهدنا به يشق عقبي هكطور، فيشده إلى مركبته فيجرره على الثرى جر الهوان بعد أن شفى غلته بقتله، وهي فعلة لامه عليها نفس الشاعر، ولم تر بعد شيئًا من حلمه وسكينته وعفوه ورفقه بوالد هكطور الشيخ اليفن، ودفعه إليه

جثة ابنه لتدفن دفن الرفعة والإجلال، أفيكون النشيدان دخيلين لا أصليين، وفيهما هذه الحلية الرفيعة والحلة البديعة.

ثم لا يفوتن أولي الأدب أن هوميروس لم يكن راوية قصاصًا يحوم بالمطالع حول ضالته، وهي دفينة في ثنايا مخيلته ويظل يراوغه إلى آخر الرواية، حتى إذا استنزف صبره أبرزها له في الختام على أحد صورها، وغادره وشأنه يطلق لفكرته عنان التصور بقياس ما سيكون على ما كان، بل هو شاعر مؤرخ يفرغ التاريخ بقالب شعري، ويدون روايات كان معظمها معروفًا في عصره فوشاها ورصعها وما ابتدعها، وإنما ابتدع فيها أبكار المعاني، وشاعرٌ مهذب حكيم يأتيك بالحكمة من حيث لا تدري ويمثلها لك تمثيلًا فلا تُمحى من ذاكرتك، فينطق لك الحي والجماد وما هو منطق غير الخلق العظيم، وشاعرٌ عالم يحيطك علمًا بما بلغه عصره من معرفة، وما ادخره من علم ضاع لولاه، وشاعر مطرب مجيد اجتمعت فيه علاوة على ما تقدم كل مزايا الشعراء، فلم يكن من شأنه أن يبتر منظومته في آخر النشيد السابق ويلقي علينا عبء التكهن بما سيكون من مأتم فطرقل ومناحة هكطور، وما يتبع ذلك من فوائد لم يستبقها لهذا الموضع إلا لعلمه أن مدخر لها موضعها.

ولا بدَّ من التنبيه إلى فائدة أخرى لا تحصل إلا بتلاوة النشيدين الأخيرين، فلطالما رأينا الشاعر أثناء تدوين مواقعه يضع نفسه موضع سامعه، فإذا أنس منه مللًا من إطالة شرح فُكهة بقصة تعترض في

الحديث أو نكتة تلهيه هنيهة أو حكمة تصرف عنه العناء، فينتقل مع جليسه من باب إلى آخر، وهذا دأبه أبدًا حتى لا تأخذ السامع السآمة فيظل متشوقًا إلى ما يلي، متشوقًا إلى استتباع البحث، فإذا كان هذا شأنه في كل نشيد من إنشاده فما الظن بمجمل منظومته، لقد كان هوميروس أعظم من أن يجهل أن من أتى على تلاوة آلاف من الأبيات، ورأى ما رأى فيها من طراد، وجلاد، وأسنة حداد، وأزمات شداد، لا بد أن يتوق إلى الابتعاد عن مواقف الحرب، ويغادر الطعن، والضرب ليأنس بمشهد جديد يخفف به عن نفسه، ويسكن تأثر حسه، وإن لم يكن من محسنات هذين النشيدين إلا هذا لكفى.

(٢) الخميس: الجيش، والسرى: رؤساء الكتائب. رأينا في النشيد السابق أن آخيل قتل هكطور، وهم بالهجوم على إليون، ثم فكر بفطرقل فارتد بالجيش ليقيم له مأتمًا ويدفنه، فانحل عقد الإغريق، ورجع كلٌّ إلى سفينته، وأما هو فحفظ نظام جنده إجلالًا لرفيقه، وهذا ما يدعونه اليوم بتأدية واجب الشرف العسكري (Honneurs Militaires)

(٣) نظمنا هذا النشيد من بحر الرجز، واتبعنا فيه أسلوبًا جديدًا فجعلنا قوافيه في الخبر كسائر الأراجيز المزدوجة، أي: مصرَّعة شطرين شطرين، وأما في الإنشاء فأراجيزه مقفاة؛ إذ تتوالى القوافي إلى أن يتم الخطاب كما ترى في تعريب كلام آخيل هنا.

(٤) الوضيمة: طعام المأتم، وهي في اليونانية (Ταρον) ومعناها المدفن، ويراد بها طعام المأتم على الإطلاق سواء كان قبل الدفن، كما ترى هنا أو بعده، كما سيأتي في النشيد الأخير بمأتم هكطور، إن إقامة الولائم في المآتم عادة قديمة جدًّا أخذها الرومان عن اليونان، ووصفها شاعرهم فرجيليوس، ولا تزال متبعة في كثير من بلاد الشرق وأفريقية، وكان لها شأن في جاهلية العرب. راجع مآدب العرب (ن: ٢٢).

(٥) مما قال المهلهل بعد قتل أخيه كليب:

ولأوردن الخيـــل بطـــن أراكـــةٍ ولأقضـــين بفعـــل ذاك ديـــوني

ولأقـتلن حجـا حجًـا مـن بكـركم ولأبكـين بهـا جفـون عيـوني

حتـى تظـلَّ الحـاملات مخافـة مـن وقعنـا يقـذفن كـل جنـين

وما أبلغ ما قاله الإمام علي عند دفن امرأته فاطمة: «السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك، قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ورقَّ عنها تجلدي إلَّا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك، إنا لله وإنَّا إليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحقها السؤال واستخبرها الحال، هذا

ولم يطل العهد، ولم يخلُ منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم، فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين».

(٦) الرتوت: الخنازير.

(٧) الجاحم: الوقود.

(٨) كان القدماء يتفننون بمظاهر الحزن والحداد على الميت، فقد جاء في التوراة أمثال ذلك كلبس المسوح، والإمساك عن الأكل، والتمرغ في التراب، والامتناع عن الغسل، وفي أخبار عرب الجاهلية شيءٌ كثير من هذا القبيل، قالوا: إن المهلهل إذ بلغه خبر قتل أخيه كليب جز شعره، وقصر ثوبه، وهجر النساء، وترك الغزال، وحرم القمار والشراب إلى أن يأخذ بثأر أخيه، وكان العرب يحرمون الخمر على أنفسهم إلى أن يدركوا ثأرهم، وفي مثل ذلك يقول امرؤ القيس وقد ظفر ببني أسد ثائرًا بأبيه:

لا تسقيني الخمر إن لم يروا ... قتلي فئامًا بأبي الفاضلِ

حتى أبير الحي من مالكٍ ... قتلًا ومن بشرف من كاهلِ

ومن بني غنم بن ذودان إذ ... نقذف أعلاهم على السافلِ

نعلوهم بالبيض مسنونةً ... حتى يروا كالخشب الشائلِ

حلت لي الخمر وكنت امرأً ... عن شربها في شغل شاغلِ

(٩) أي: لن تتلظى بحذف التاء، وهو كثير في كلام العرب سواءٌ كانت التاء الأولى للتأنيث كما قال الفرزدق:

ألا قطـــع الـــرحمن ظهـــر مطيـــة أتتنـــا تمطـــى مـــن دمشـــق بخالـــد

أي تتمطى، أو للخطاب كما جاء في سورة النساء: «واتقوا الله الذي تساءلون به» أي: تتساءلون.

(١٠) إن في ظهور روح فطرقل لآخيل لمشهدًا جديدًا من أجمل مشاهد الإلياذة، والاعتقاد بظهور أرواح الأموات للأحياء نشأ مع نشوء الإنسان، ولا يزال في أكثر الملل والنحل، وقد أراد الشاعر هنا أن يبلغ بالسامع إلى منتهى درجات التواد والتواثق بين الخليلين، فلم يقف عند ذكر ما تقدم من تفاني فطرقل حيًّا بخدمة آخيل، ووفاء آخيل وتفجعه على فطرقل وتمنيه لو فداه بنفسه، واقتحامه غمرات الموت انتقامًا له واشتغاله مع كل الجيش بمأتمه، بل أراد أن يظهر أن ذلك الود الصميم لبث مستقرًّا في روح فطرقل بعد انفصالهما عن جسمه على حد قول بعضهم:

ولو وقفت ليلى بقبري وقد عفت معالمـــه واســـتفتحت بســـلام

لحنـــت إليهـــا بالتحيـــة رمتـــي ورنـــت بترجيـــع الســـلام عظـــامي

(١١) يتضح من هذه الأبيات أنهم كانوا يعتقدون أن لورع الأحياء دخلًا بسعادة الأموات، وهو ما لا يزال يعتقده فريق عظيم منا،

إلا أنهم يزعمون أن إقامة المأتم تعجل بتخفيف وطأة العذاب عن الميت، وقد تقدم أنه لا بد لكل نفس من أن تنحدر بعد الموت إلى الظلمات، ومن ثم فإما أن تبقى هناك وإما أن تعبر نهر الستكس إلى مقام الصلاح، وتظل الروح هائمة إلى أن يحرق الجسد أو يدفن، وإذا بلي الجسد في العراء فإن الروح تبقى مئة عام هائمة على وجهها.

ومن هذا القبيل ما كان يعتقد العرب من أنه إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره خرج من رأسه طائر يسمى الصدى، ويسميه بعضهم الهامة، فلا يزال يصيح على قبره اسقوني حتى يؤخذ بثأره، ومنهم من كان يزعم أن ذلك الطائر هو نفس الإنسان تنشط من جسمه إذا مات أو قتل، قال المجنون:

فلو تلتقي في الموت روحي وروحها ... ومن دون رمسينا من الأرض منكبُ

لظل صدى رمسي وإن كنت رمةً ... لصوت صدى ليلى يهش ويطربُ

وقال آخر:

فيا رب إن أهلك ولم ترو هامتي ... بليلى أمت لا قبر أعطش من قبري

ومن مزاعم العرب أيضًا أن الميت يبعث بجسده من قبره، فكان عندهم من لوازم رعايته أن يعقلوا ناقته عند قبره ويتركوها حتى تموت يزعمون أنه يركبها إذا بعث من القبر، وفي مثل ذلك قال المجنون يرثي أباه وقد مات قبل اختلاط المجنون وتشوشه:

عقلت على قبر الملوح ناقتي ... بذي السرح لما أن جفته أقاربه

ويسمون الناقة المعقولة هكذا البلية.

(١٢) كانوا يعتقدون أيضًا أن روح الميت لا تظهر للأحياء وتخاطبهم إلا أثناء هيامها في لجج الأرض، أي: قبل أن تنخرط بين الأرواح في سقر، وإذا خاطبتهم فقد تنجلي لها الغوامض فتنطق بما هو مكنون في الغيب، كإنباء فطرقل آخيل هنا بأنه قد سطر في القدر أن يقتل في أكناف سور إليون.

(١٣) أي: صففنا الكعاب عسكرًا نلعب بها، ولعب الكعاب إن لم يكن أقدم لعب الصبيان فهو بلا ريب من أقدمها.

(١٤) يرمي فطرقل بل روحه في هذا الكلام المؤثر إلى غايتين: أن يسارع آخيل إلى إقامة مأتمه، وأن يدفن رماد الخليلين في حق واحد حتى يظلا مجتمعين حيين وميتين. وهذا الأمر الأخير كان ولا يزال مطمع جميع المتحابين في كل ملة ودين. قال مجنون ليلى:

ألا ليتنا نحيا جميعًا وإن نمت ... نصير إذا متنا ضجيعين في قبر

ومثله قوله:

ولو شهدتني حين تأتي منيتي ... جلا سكرات الموت عني كلامها

فيا ليتنا نحيا جميعًا وإن نمت ... تجاور في الهلكى عظامي عظامها

راجع (ن ١٦).

(١٥) أسبل الجند على جثة فطرقل نواصي الشعور كما نسبل على النعش في أيامنا أكاليل الزهور، ولقد علمت مما مر أن عادة إطلاق الشعر كانت شائعة عندهم، كما كانت شائعة بين أكثر أمم المشرق كالعبرانيين، ومن وليهم من العمونيين والموابيين والأدوميين والعرب، وكما هي شائعة لعهدنا عند الصينيين وبعض قبائل البادية، وفي الأثر أن الإسكندر قص شعره حزنًا على صديقه هفستيون، كما فعل آخيل حزنًا على فطرقل، ومن الروايات المشهورة في كتب العرب أن المهلهل قص ناصيته حين بلغه خبر قتل كليب أخيه كما تقدم. وكانت النساء أيضًا يحلقن شعورهن حزنًا على الميت، ومعنى قولهم دعاءً على الرجل: «أمك حالق»، أنهم يدعون عليه بالموت، إلا أن قص الشعر لم يكن دائمًا إشعارًا بالحزن بل ربما كان لحادث آخر من نحو دهشة وفرح ووفاء بنذر وما أشبه، ويقص العرب أيضًا ناصية الأسير، وفي مثل ذلك قول الخنساء:

جززنـــا نواصـــي فرســـانها وكـــانوا يظنـــون أن لا تجـــزَّا

ومـن ظـن ممـن يلاقـي الحـروب بـأن لا يصـاب فقـد ظـن عجـزا

ومثله قول زهير في هرم بن سنان:

حـدب علـى المـولى الضـريك إذا نابـــت عليـــه نوائـــب الـــدهر

عظمـــت دســـيعته وفضـــله جـــز النواصـــي فـــي بنـــي بـــدرِ

ويقال عكس ذلك في الملل التي لم تكن تطلق شعر الرأس، فإنها إنما كانت تطلقه لأمر جلل، وهذا من قبيل الإمساك عن التزين مدة من الزمن في هذه الأيام لحلول مصاب، أما الطرواد فيظهر أنهم كانوا يقصون شعر الرأس ولكن بعضهم كان يتزين به أخذًا عن الإغريق، ولقد رأينا هكطور في النشيد الثالث يعير أخاه فاريس على إطالة شعر رأسه حلية.

(١٦) أسفرخيوس نهر في تساليا (اسمه الآن هلاذا) كانوا يعبدونه عبادة المصريين للنيل، وقد كان فيلا نذر له شعر آخيل كما نذر ممنون المصري شعره للنيل.

(١٧) الأبقور: البقر.

(١٨) أي: إنه أراد صرف الجموع ليتفرغ زعماء الجيش لإقامة مأتم فطرقل.

(١٩) الإبالة: حطب الوقود.

(٢٠) ذكر هوميروس قطع رءوس الاثني عشر فتى من أسرى الطرواد تدوينًا لجريهم على خطة ذبح الأسرى، ولكنه لم يفته أن أعلن استهجانه تلك العادة القبيحة، ولهذا استدرك بقوله: «وبئس ما صنع». كان العرب في جاهليتهم يقتلون الأسرى إلَّا من كان بينه وبين آسره موآكلة وممالحة فإنه يؤمَّن، وربما أخذوا عقال الأسير، أي: فكاكه

وأطلقوه بعد جز ناصيته، وكانت في مكة سوق لبيع السبايا والأسرى، أما السبايا فكنَّ يستبقين إماء وزوجات، وأما الأسرى فكانوا إلا فيما ندر يباعون لذوي الثأرات عليهم أو على عشائرهم، فيقتلون بمن قتلوا، أو يفتديهم ذووهم وأصحابهم بمال يدفعونه إلى آسريهم، وكان افتكاك الأسرى من أعظم مفاخرهم، قال الحارث بن حلزة اليشكري:

وفككنا غل امرأ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء

ولما جاء الإسلام بطل الأسر والسبي من الإسلام، وفي الحديث: «لا سبأ على عربي ولا سبأ في الإسلام ولا رق على عربي في الإسلام». ولكن الأسر والسبي ظلا مباحين للمسلم من غير المسلمين.

(٢١) كرر آخيل هنا نفس الخطاب الذي خاطب به فطرقل، ولكنه زاد عليه تشفيه من هكطور توطئة للأبيات التالية.

(٢٢) المراد من هذه الأبيات الخمسة أن جثة هكطور بقيت سليمة، فلو كان هوميروس مؤرخًا لقال: إن الهواء كان جافًا باردًا فلم يعترها الفساد، وكانت محاطة بالجند فلم تدنُ إليها الكلاب، ولكنه الشاعر المتصرف بالمعاني المتلاعب بالأفكار الموشي شعره برموز عصره، فأدخل فيبس والزهرة وجعلهما العانيين بحفظ الجثة، أما الأول فلأنه ممثل الشمس، وهي التي تتصاعد بحرارتها الغيوم فأظلته بسحابة حفظته من الحر، وأما الثانية فلأنها ربة الجمال، فكأنها هي التي أولته تلك المحاسن وهكطور مشهور بحسن طلعته وطلق محياه.

(٢٣) الدبور: الريح الغربية، والرياح كانت كسائر ممثلات الشاعر أشخاصًا ناطقة بل آلهة فائقة، وهي كالشمس ذكور لا أناث، ولهذا استعملنا لها هنا وفيما يأتي ضمي العاقل فقلنا: «إذا بهم» ولم نقل: بها أو بهنَّ.

ويؤخذ من هذا الموضع وأمثاله من الإلياذة أن الآلهة كانوا يكثرون من المآدب والمآكل، وهو دليل على أنها كانت في تلك الأعصر الخوالي من أعظم أسباب المسرات والملاهي.

(٢٤) الحب: الخابية، وهي الزير بعرف أهل مصر.

(٢٥) الجساد: الزعفران من غريب ما استلفت نظري مرارًا في شعر هوميروس تنبهه إلى الكلي والجزئي، مما يعلق بمعاني شعره، فإذا كرر قولًا أو معنى فلا بد أن يلصق به ما يلائمه ولو بإشارة خفية، فقد ألبس الفجر ثوب الجساد في النشيد الثامن فقال:

كسا الفجر وجه الأرض ثوبًا مزعفرا وزفس أبو الأرباب في أرفع الذرى

فكان المكسو وجه الأرض؛ لأنه كان يصف الأرباب وهم في معتصمهم العالي ينظرون إلى البر والبحر، وقال في النشيد التاسع عشر:

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمه يبرز فوق البلاد

حتى انبرت فوق الخلايا

فأبرز الفجر صاعدًا من اليم بتلك الحلة؛ لأنه كان يصف ثيتيس بنت البحر، وهي صاعدة من اليم فجر يومها، وهو هنا يقول:بحلة الجساد فوق البحر

لأن الموقف في ساحل بحر وبين السفن.



حرق جثة فطرقل.

(٢٦) لو جردنا هذا الكلام من حلته الشعرية لقلنا: إن الرياح كانت ساكنة، فلم تلتهب النيران، ثم ما لبثت الرياح أن عصفت فأضرمت الوقود وعلا اللهيب، حتى التهمت النار جثة فطرقل، ولكن

الشاعر حام حول هذا المعنى على جاري خطته، وإليك حل رموزه حسبما شرحها افستاثيوس قال: إن إيريس ممثلة قوس قزح تدل على الأمطار والرياح، ولهذا كانت هي الداعية للرياح فلُبّي نداؤها وقضيت حاجتها: «ونهضوا طرًّا لها إجلالًا» أي: إنه إذا ظهر قوس قزح تتحرك الرياح.

فوقفــت فــي عتبــات الصــخر تــأبى وقالــت بجميــل العــذرِ

مـا لـي إلـى الجلـوس مـن سـبيل فـــإنني بنيـــة الرحيـــلِ

أي: إن قوس قزح لا يقيم طويلًا ولكنه سريع الظهور سريع الزوال، وولجت المحيط أو الأوقيانوس. أي: إن مادة قوس قزح من الماء فلم يكن يصلح لها أن تمثل والجة في اليبس. وقوله:

إذا بهم (أي الرياح) في مجلس السرور علـــى وليمـــة لـــدى الـــدبور

إشارة إلى أن طبيعة الرياح واحدة أو أن الغالب في تلك البلاد هبوب الريح الغربية، وأما وقوف إيريس في عتبات الصخر وامتناعها عن ولوج كهفهم، فإشارة لطيفة إلى أن قوس قزح يظل سابحًا على سطح الأرض فلا يتخلل الأعماق.

(٢٧) أراد آخيل بقوله هذا أن ينفذ وصية فطرقل فيودع رماده في حق من الذهب ويدفنه، ثم لا يشاد الضريح على ما يجب إلا إذا مات آخيل وضم رفات أعظمه إلى رماد أعظم فطرقل، فيقام لهما ضريح

واحد، وهكذا فإنهم على ما ترى كانوا يجمعون بين حرق الجثث ودفن رفاتها، وقد تقدم لنا بحث في منشأ تلك العادة (ن ٧).

ومن بدائع فلسفة أبي العلاء المعري قوله مستحسنًا حرق الجثث:

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتهم ... وذاك أروح من طول التباريح

إن حرقوه فما يخشون من ضبع ... تسري إليه ولا خفي وتطريح

والنار أطيب من كافور ميتنا ... غبًّا وأذهب للنكراء والريح

(٢٨) أمامنا الآن بحثٌ جديد ووصف شائق للألعاب التي كانت تقام في المآتم، وقد أشار إليها في ما مر وهو الآن يفصلها ويبوبها، فشرع في السباق وأسهب فيه، ولا بدع فقد كان له المقام الأول في جاهلية معظم الأقوام.

(٢٩) السبق: جائزة السباق، ترى أن آخيل هو الذي يرأس هذه الحفلة مع أن الزعامة لأغاممنون، ولكن الشاعر خص آخيل بتولي هذه المهمة؛ لأن المأتم يكاد يكون مأتمه، وله خلا ذلك فخر النصر في ذلك اليوم، وقتل البطل المغوار هكطور الذي كانت ترتعد لهيبته فرائص الإغريق.

(٣٠) المجلي: هو السابق الأول من الخيل، والثاني المصلي، والثالث المسلي، والرابع المرتاح، وفي قول التالي وهكذا إلى العاشر،

فإن لكل منها اسمًا خاصًّا به، وأما في الأصل اليوناني فقد عبر عن المجلي بالأول، ثم بالثاني والثالث والرابع، ولم أر هذا التخصيص بأسماء خيل السباق في لغة غير لغتنا، وقد جمعها الشيخ ناصيف اليازجي بقوله:

أول سـابق هـو المجلـي ثـم المصـلي بعـدهُ المسـلي

تـالٍ ومرتـاح عليـه يقبـلُ والعـاطف الخطـيُّ والمؤمـلُ

كـذلك اللطـيم والسـكيت فـاحفظ فمـا أعطيـت قـد أعطيـتُ

(٣١) مر بيان ذلك في النشيد الخامس.

(٣٢) هنا إشارة إلى عادة كانت متبعة عند اليونان، ولها أمثلة بعدهم في تاريخ الرومان، ذلك أنه كان يقضي على كل رجل صحيح البدن أن يزحف في من زحف للحرب، وإذا بدا له أن يتخلف فعليه أن يقدم بدلًا عنه فرسًا أو فارسًا أو أكثر، وهو ما نعرف الآن بالبدل العسكري، ويؤخذ في بعض البلاد نقودًا، وكان البدل مألوفًا في جاهلية العرب، فإن أبا لهب بن عبد المطلب لم يحضر غزوة أُحد بل أرسل من ينوب عنه فيها.

(٣٣) الجياد القب: الضامرة الرقيقة الخصر، وفي الأصل السريعة.

(٣٤) علم القراء مما مر ما لنسطور الحكيم في نفس الشاعر من التجلة والإعظام، فهو دائمًا دائب على أن يجعل له في كل مقام مقالًا، وفي كل ميدان مجالًا؛ إظهارًا لفوائد فضله واستدرارًا لفرائد عقله ونبله، فلم يعدم وسيلة ينظمه بها بين فتية الفرسان في ميدان الرهان، فانطقه بهذا الخطاب الذي لم يكن يصح لغيره، فأوضح حالة الشيخ الذي إذا ضعفت ذراعه قويت حجته، وبهرت حكمته فيسد قوله المسند إلى مدخر دربته على توالي الأيام، مسد بأس ساعده الواهن بتقادم العهد وتتابع الأعوام، ومثل حالة الأب الحريص على تثقيف ولده المشفق عليه من الفشل أكثر من إشفاقه على نفسه من دنو الأجل، فلا تلوح له لائحة خير أو شر إلا ونبه إليها فمال به عنها، أو أقبل به عليها، حتى تكاد تخال أن البارز إلى ميدان السباق هو الأب دون الابن، وأنه هو الممتطي صهوة المركبة يميل بها يمينًا ويسرى، ويجاول ويصاول ويسارع ويصارع ويهب ولا هبوب ابنه انطلوخ، ورسم صورة الحكيم الذي يفرغ قصارى جهده بإفاضة روح حكمته على ولده من بعده، فيعلمهم أن الرأي قبل شجاعة الشجعان والفوز للعقل والجنان دون اليد والبنان، خطةٌ يختطها لهم بحياته يود أن يسيروا عليها بعد مماته، وهو غرس سيرينا الشاعر ثمره عما قليل، فإن جوادي انطلوخ، وإن لم يكونا من خيار الجياد فقد برزا بالطراد وفازا بالسبق فكأنما السابق حكمة نسطور دون همة أنطلوخ وفرسيه.

تلك هي الحيلة التي تذرع بها الشاعر لخرط نسطور بين هاته الفتية وما أجملها حيلة.

(٣٥) النصب: العلم المنصوب في منتهى الميدان.

(٣٦) المراد بالقطب: دولاب المركبة.

(٣٧) قوله: انتظموا صفًا فيه نظر، ذهب الأقدمون من رواة هوميروس إلى أن المتسابقين وقفوا صفًّا يتقدم فيه أحدهم على الآخر، وإلا لما كانت بهم حاجة إلى الاستقسام لو كانت مواقف الجميع متساوية، وقالت مدام داسيه بل وقفوا صفًّا متساويًا جنبًا لجنب، والفائدة من الوقوف أولًا أن للمتقدم مزية في قصر المسافة؛ إذ أن المضمار كان على شبه دائرة، وكلما بعد الراكب عن قطبها كان شوطه في الجري أبعد.

(٣٨) ابن فيريس أفميل.

(٣٩) لا يبرح من الذهن أن أفلون لا يزال ساخطًا على ذيوميذ لوقوفه في وجهه في النشيد الخامس.

(٤٠) أي: إنه أوقف الجياد وتناول السوط من على الأرض. وإنما وسط الشاعر فالاس إلاهة الحكمة ليصبح سبق ذيوميذ لأفميل في ما يلي.

(٤١) يقول عرب باديتنا: «راعي الفرس سابق، وراعي الحصان مسبوق». يريدون بذلك أن الحصان وإن كان أحيانًا أعدى من الحجر

فإنه يجد في جريه حتى يبلغها، فإذا أدركها بقي وراءها، ولم يتعدها، ولهذا يؤثرون في الغزو والسباق إناث الخيل على ذكورها.

ويستدل من كلام أنطيلوخ هنا أن الأمر كان بعكس ذلك عند اليونان؛ إذ أنه يعيب على جواديه سبق حجر منيلاوس وهي أنثى.

(٤٢) لقد أنكر بعض الشراح على هوميروس إنطاق أنطيلوخ جياده بهذا الخطاب، وما هذا الإنكار إلا لجهل هؤلاء المنكرين مزايا الذوق الشعري، والذي يخاطب الأطلال والآثار هو أولى بمخاطبة الجياد في حلبة المضمار، وإليك مثالًا من الحريري يخاطب به أبو زيد السروجي مطيته بنفس خطاب أنطيلوخ ونفسه فيحث حثه ويقسم قسمه قال:

سروج يا ناق فسيري وخدي	وأدلجي وأوبي واسئدي
حتى تطا خفاك مرعاها الندي	فتنعمي حينئذٍ وتسعدي
وتأمني أن تتهمي وتنجدي	إيه فدتك النوق جدي واجهدي
وافري أديم فدفدٍ ففدفدِ	واقتنعي بالنشح عند المورد
ولا تحطي دون ذاك المقصد	فقد حلفت حلفة المجتهد
بحرمة البيت الرفيع العمدِ	إنك إن أحللتني في بلدي

حللت مني بمحل الولدِ

(٤٣) المهيع: الطريق المتسع.

(٤٤) المذكي: الفرس المسن.

(٤٥) هذا مشهد آخر من مشاهد السباق لا بد منه في كل مضمار، فقد أبان الشاعر فيه حالة الواقف موقف الشاهد؛ إذ لا بد له من أن يتمنى الغلبة لفريق دون آخر، إما لضلعٍ له معه أو لغرض آخر، أو لميل تدفعه إليه نفسه، وهو لا يعلم مصدره، فلا غرابة إذن في مثل هذه الأحوال أن تتباين الأميال فيحصل الجدال، وقد يشتد فيعقبه القتال، وهذا ما أراد الشاعر إثباته، ولكنه جعله سليم العقبى بوساطة آخيل، ولو كان بين عبس وفزارة حكم كآخيل لما ثارت بينهم الحرب على إثر سباق داحس والغبراء.

(٤٦) استينيل رفيق ذيوميذ وحوذيه والخطر جائزة الرهان، أي: إن ذيوميذ وصل الأول، ولم يكن له معارض فبادر رفيقه إلى استلام الخطر المعد للمجلي، وهو الغادة البكر والدَّسيعة.

(٤٧) أي: إن أنطيلوخ كان بمزاحمته منيلاوس قد ابتعد عنه مسافة مرمى كرة (أو قرص)، أي: سبقه شوطًا غير يسير، ولكن منيلاوس جد وراءه فأدركه ولصق به، كما يلصق الجواد بمضمد المركبة، ويرتفع ذيله فوق دواليبها.

(٤٨) قوله: ذلك، أي: ذيوميذ.

(٤٩) لقد راعى آخيل بقوله هذا جانب الوجدان والرفق دون الحظ والعرف؛ لأن أفميل وهو من أشهر فرسانهم كانت خيله أجود خيلهم جميعًا، وكان السابق في الشوط الأول، وإنما تأخر عرضًا لحادث طرأ له.

(٥٠) الجوشن: الدرع، فارسية معربة بلفظها.

(٥١) كانوا إذا أراد أحدهم أن يخطب فيهم قبض على صولج وأشار به فيصمتوا، والغالب أن يتكلموا وبأيديهم صوالج الفيوج (وهم الرسل والمنادون)، وقد مرت أمثال ذلك (راجع ن ٢)

(٥٢) يقول: إذا حكمتم لي فاحكموا لي بالعدل، ولا تنحرفوا معي فتنيلوني الجزاء، لعلمكم إني أشد بأسًا من أنطيلوخ أو أرفع قدرًا منه فنحن في حلبة رهان فيجب أن نحسب متساويين.

(٥٣) يمثل لنا الشاعر أنطيلوخ بن نسطور الحكيم فتى طابت فطرته، وأحسنت تربيته، ولكن نزق الصبا، وحب الفخار يدفعانه إلى الاسترسال في الغلواء، على أنه لا يكاد ينبه إلى خطأه حتى يرعوي بكرم عنصره، ويرى أن تلافي الوصمة أقرب إلى العصمة، وأن الإقرار خيرًا من الإصرار وأبقى.

(٥٤) أي: إن منيلاوس انتعش انتعاش السنبل إذا فرش الطل حبابه على سنبله القائم في الزرع المائد.

(٥٥) يريد أن يقول: أعرف لكم صنيعكم بجهادكم معي في هذه الحرب، التي اضطرمت بسببي على هيلانة.

(٥٦) لم ينل أحد صلة المرتاح وهو الرابع؛ لأن جياد أفميل أتت رابعة وحكم له آخيل بالسبق كما رأيت، ثم حباه بصلة من عنده فبقي الكوب المعد للرابح بلا صاحب، ولم يكن أجدر به من نسطور فأهداه آخيل إليه، وإن لم يكن له دخل في ألعابهم، وهي مراعاة لا أوقع منها في محلها.

(٥٧) هذا سباق اليونان لا يكاد يختلف عن سباق العرب بشيء من كلياته، إلا أن هذا على صهوات الخيل وذاك على سدد العجال، والسباقان في ما سوى ذلك متشابهان، فالحلبة والخطر والمضمار والخدع والشهود كلها تتشابه في الفريقين، حتى لقد يتشابه ما يحتاله المتخاطرون لإحراز قصب السبق على غير السبيل المشروع، فإن أنطليوخ احتال بما رأيت على منيلاوس، وقد حصل ما يشبه ذلك في سباق داحس والغبراء؛ إذ عقد قرواش بن هانئ العبسي وحمل بن بدر الفزاري رهنًا على سباق هذين الفرسين، وكان أحدهما لقيس بن زهير العبسي والآخر لحذيفة بن بدر الفزاري، ثم أرسلوهما في المضمار، وكان حمل الفزاري قد أقام كمينًا في الطريق حتى إذا سبق داحس ينفره لتسبق الغبراء، فكان كذلك ووقع الخلاف بين الحيِّين، فنشبت على أثره حرب قتل فيها خلق كثير في حديث طويل ليس هذا موضعه، وهم يتشابهون

أيضًا بإرسال الخيل وحثها ومخاطبتها بأسمائها، إلى غير ذلك مما يكاد يستوي به أكثر الناس مهما تباعدوا.

(٥٨) هذا نسطور كجاري عادته بل كجاري عادة الشيوخ يذكِّر القوم، ويفاخرهم بماضيه حيث لا يسعه أن يتفوق عليهم بحاضره، أشار بحديثه إلى خطار سابق كان الرابح في كل أبوابه ما خلا السباق، واعتذر عن ذلك بغلبة الكثرة على القلة، وفي هذا القول إبهام لا يتضح للقارئ إلا إذا رجع إلى أصل هذه الحكاية في أساطيرهم، قالوا: إن مخاطر نسطور في ذلك الرهان كان فتى بل فتيان، لاصق أحدهما بالآخر منذ خلقا فلما برزا لسباق نسطور طلب أن يبرز معه فارس فذٌّ مثله، فالفارس له يدان ولهذين التوأمين أربع أيدٍ فلهما مزية على الفارس الفرد، فلم يعبأ القوم باعتراض نسطور فجرى معهما وقصر وهذا تفسير قوله:

والفوز للكثرة بالفضل

والتوأمـــان انبريـــا فـــذا افـــتحم   بســـــوطه وذا الأزمـــــة اســـــتلم

قال الراعي:

فلســـت بـــالأكثر مـــنهم حصـــى   وإنمـــــــا العـــــــزة للكـــــــاثر

(٥٩) ترى أن الجوائز في جميع الألعاب كانت توزع على الغالب والمغلوب، حتى إذا أحرز الظافر فخر الغلبة، وعاد بصلة نفيسة،

لا يحرم المغلوب صلة دونها تجبر كسرهُ وتثبت أنه من ذوي الخطارة؛ لأنه لا يتبارى إلا الأكفاء أو الذين يكادون يكونون كذلك.

(٦٠) لا يصلح أن يكون الرابح في هذا المجال إلا بغلًا يجاز بغلًا، وكأن هوميروس فطن لذلك فاختار للِّكام عتلًّا ضخم الجثة قوي الهامة، لم يكن له شيءٌ من الشأن في مضارب الفرسان، وأجاز هذا البغل بغلًا نظيرهُ.

(٦١) الجُمع: الكف حين تقبض. كان ذيوميذ صديق أفريال، ولهذا بادر إليه يحرضه وينشطه، ويلبسه لباس اللكام، فشد له النطاق على حقويه وأعطاه قفاز الجلد ليغشي به كفه كما يفعل المتلاكمون في هذه الأيام.

(٦٢) هذا بلا ريب أقبح أنواع الرياضة، ولا أعلم وجه الحكمة في بقائه حيًّا في بلاد تعد في مقدمة البلاد الحية، وأكثرها تفننًا في الألعاب الرياضية، ولا أرى له أثرًا في مخاطرات العرب في جاهليتهم.

(٦٣) يظهر من رؤية كف الدماء على جسدي المتصارعين أنه لم يكن عليهما من اللباس إلا السترة المعتادة في مثل هذه الأحوال، وهو ما لا يزال جاريًا في بلاد العجم بين مصارعيهم (أو بهلوانيتهم).

(٦٤) هذه خدعة كثيرة الاستعمال بين المتصارعين، وهي حيلة يلجأ إليها الأقل قوة، الأخف حركة، والعرب يقولون: ضربه الشغزبية أو

الشعربية، إذا لف ساقه على ساق خصمه، وتقول عامة أهل الشام: «فركشه» ويقولون في مصر: «شكةُ مقلبْ».

(٦٥) حكم آخيل للمتصارعين بالجزاء على السواء، ولم يقل الشاعر كيف تساوت القسمة؛ إذ كان الجزاء مرجلًا قيمته اثني عشر ثورًا، وسبية قيمتها أربعة من الثيران، ولقد استاءت عقيلة داسيه لهذا البخس في قدر بنات جنسها، ولكن فاتها أن المراد هنا سبية رقيقة والأرقاء من الذكور كانوا يباعون بتلك الأثمان وأبخس منها، وفاتها أيضًا أن هوميروس وإن ذكر للنساء حطة كما قال في هذا الموضع، فقد بوَّأ المرأة أعلى مراقي الرفعة في مواضع أخرى، أوليس هو القائل عن هيلانة:

ليس بدعًا أن كان هذا سناها وعليها تلاحمت أمتان

لا شك أن الصراع أقدم ما مر وما سيجيئ من الألعاب؛ لأنه الأصل في أسباب الهجوم والدفاع، كان له شأن عظيم عند العرب، كغيرهم وذكروا كثيرين ممن اشتهروا بقوة ذراعهم، وخفة بدنهم، ومن أشهرهم هلال بن الأشعر المازني ذكر له صاحب الأغاني وغيره أخبارًا من قبيل الخوارق بغرابتها.

(٦٦) الحضر: العدو أو الركض.

(٦٧) الوشيعة: خشبة الحائك، أي: إن أوذيس كان مطبقًا وراء أياس يكاد يلصق به، كما تكاد تلصق الوشيعة بصدر النساجة وهي تحوك، قال ذلك اطراءً لسرعة المتسابقين، ولا يخفى أن صناعة النسج

والحياكة كانت من خصائص النساء عند الأقدمين، ولهذا قال هوميروس: الحائكة، ولم يقل الحائك. ومثل ذلك قول المسيب بن علس؛ إذ شبه سرعة مطيته بسرعة يدي المرأة التي تحوك ثوبًا، وقد همت قبل المساء بإكمال جدَّاده، أي: باقي خيوطه:

مثــل الســريعة بــادرت جــدَّادها قبـــل المســـاء تهـــم بالإســـراع

(٦٨) الدمال: الخثي، أو روث الحيوان.

(٦٩) لم يكن أنطيلوخ بالفتى المكابر كما علمت من محاورته مع منيلاوس، ولكنه غالبًا ومغلوبًا فتًى لبقٌ متجمل بحكمة أبيه نسطور، التمس لنفسه عذرًا حسنًا بتقصيره عن ندبه، وختمه بمدح آخيل مدحًا استماله فيه إليه.

(٧٠) إنه وإن كانت الإلياذة خلوا من البحث في مدائح الشعراء وجوائز الملوك، فإنه يظهر من قوله: «ما كنت مدَّاحي بلا جزاء» وأمثالها أنهم كانوا يجيزون المدح بالمال الوافر نظير العرب، ولكنهم لم يغالوا فيه مغالاة أصحابنا سامحهم الله.

(٧١) الحضر أيضًا مما كان يتنافس به العرب، ولهم عدَّاءون مشهورون، كالشنفري، وشيبوب العبسي أخو عنترة، وتأبط شرًّا، ولكن أعداهم الحارث بن عمرو التميمي الملقب بسليك السلكة، قيل له ذلك؛ لأن أمه كانت تلقب بالسلكة، وهي أنثى الحجل، وكانت العرب تسميهُ سليك المقانب، وهي جماعات الخيل؛ لأنه كان أعدى العرب

على رجله لا تلحقه الخيل الجياد، وله بهذا المعنى أخبار عجيبة لا محل لإيرادها.

(٧٢) يستفاد من ثلاثة مواضع بيان الطعان، أنه لم يكن المقصود منه أن يقتل أحد المتطاعنين الآخر، بل أن يجرحه فقط؛ إذ قال أولًا: «إن الذي يسيل دم مباريه ينفح بالجزاء الأول». ولم يقل: إن الجزاء للقاتل، ثم جعل جزاء للطاعن والمطعون دلالة على أنهما يبقيان حيين، وأرانا الشاعر بعد ذلك أنهم كانوا يراقبون المتطاعنين، حتى إذا خيف البطش بأحدهما فصلوهما، كما يفعل بلعبة السيف والترس في بعض البلاد الشرقية وبالمتبارزين بالسيوف في بعض بلاد الغرب، ومهما كان من خشونة هذا البراز فهو أقل حماقة وأكثر معنى ولباقة من اللكام.

(٧٣) إن لفظة (Σολος) باليونانية لا تعني إلا كرة أو الكرة، كما عربناها ولا تفيد القرص كما فسرها الأكثرون، ولكن معناها قطعة حديد على الإطلاق، فعربناها بكرة لقرب اللفظة إلى مفهومنا وعرفنا، وفسروها بالقرص لقربها إلى لفظة (Δισχος) ومعناها القرص.

(٧٤) يقول: إن من ربح هذا الجزاء، فحديده يكفيه خمسة أعوام مئونة السعي إلى المدن في طلب الحديد لمحراث أو سكين، وما أشبه.

(٧٥) النضال: المباراة في رمي السهام.

(٧٦) المسد: الحبل.

(٧٧) مريشه، أي: سهمه المريش.

(٧٨) ذو السهام: أفلون.

(٧٩) الدقل: السنارية.

(٨٠) قد رأينا أن طفقير كان أرمى رماة الإغريق، ومع هذا فقد قصر في نضال مريون، وذلك لأنه اتكل على براعته ومعرفته، ولم يتوسل إلى مولاه فكان الفائز مريون، وإنما فاز بتقواه دون قواه، وهي حكمة ينبه إليها الشاعر كلما سنحت له سانحة، ولقد رأينا قبل بضعة أبيات أن أوذيس الكهل كان أعدى من فتيين، أطرأ الشاعر خفة أقدامهما مرارًا، ولكن أوذيس لم يتكل على خفة قدمه بل دعا فاستجيب دعاؤه. كان النضال من أسمى أسباب المنافسات في جاهلية العرب، وقد تقدم لنا ذكر نضال جميل وعتبة عشيقي بثينة (ن ٢٢).

(٨١) الصعاد: الحراب.

(٨٢) أحسن الشاعر أيما إحسان باستبقاء أغاممنون إلى آخر الحفلة، واستنهاضه للخطار بأمر يتبارى به الملوك والزعماء، فأدى الشاعر مفادًا كثيرًا بهذا الكلام الوجيز؛ إذ أثبت أنه لم يكن يليق بأغاممنون، وإليه منتهى الرئاسة أن يبقى بمعزل عن القوم، فلا بد أن يمتاز بأمر خطير، ولم يكن يجدر به أيضًا إلا أن يهتم لمأتم فطرقل رعايةً

لآخيل، ولم يكن يصح أن تختتم الحفلة على غير يده ففعل وكان الفائز، ثم وجب على آخيل بعد هذا أن يرعى حرمة أغاممنون فأجله وحكم له بالجزاء فورًا، وهي مجاملة لم يبدها لأحد غير أغاممنون، فثبت من كل ما تقدم أن التصافي قد أحكم بين الخصمين وزالت كل أسباب الخلاف.

النشيد الرابع والعشرون

إعادة جثة هكطور إلى أهله

مُجْمَلُهُ

أرفض جيش الإغريق إلى سفنهم يستطيبون الزاد والرقاد.

وظل آخيل والكرى قاتل الأسى   بـــذكراه فطـــرقلًا يؤرقـــه الســـهدُ

ولما لاح الصباح دار ثلاثًا حول قبر فطرقل بجثة هكطور، فعطفت الآلهة على هكطور وسعت في إنفاذ هرمس لرفع الجثة، فعارضتهم هيرا وأثينا، فاستدعى زفس ثيتيس فحاسنها وأنبأها بأنه يود أن يعيد آخيلُ جثة هكطور إلى والده الشيخ، فذهبت ثيتيس بالأمر فاستمع آخيل مطيعًا، ثم أنفذ زفس إيريس إلى فريام يأمره بافتداء ابنه، فأخبر فريام امرأته بذلك فعارضته، ولم تذعن حتى اطمأنت برؤية نسر أرسله زفس، فركب فريام مركبته واستصحب أذيوس وأدركه هرمس في السهل ورافقه حتى أدخله إلى خيمة آخيل ولم يشعر به أحد، فقبل آخيل الفداء وسلم فريام الجثة وودعه أحد عشر يومًا ليتسنى له القيام بمأتمه، ولما أظلم الليل أيقظ هرمس فريام وسار به قافلًا إلى إليون، ولما قارب البلد أبصرت كسندرة ابنته جثة أخيها يعود بها أبوها، فصاحت وناحت واندفع الناس أفواجًا لملاقاة ملكهم، فدخل فريام واستقبله الجمهور، ورثت هكطورَ امرأتُه أندروماخُ وأمه إيقاب وامرأة أخيه هيلانة، ثم بادر الجمع

إلى الاحتطاب وأضرموا النار وقضوا بالمأتم عشرة أيام، ثم جمعوا عظامه ودفنوها في قبر أعدوه له.

ولهـم قسـم المليـك طعامـا كـان فـي مـأتم الفقيـد ختامـا

يستغرق هذا النشيد ثلاثة وعشرين يومًا منها اثنا عشر يومًا أثناء إقامة جثة هكطور خيمة آخيل، وأحد عشر يومًا مدة الهدنة ومجرى الحوادث في خيمة آخيل وإليون.

النشيد الرابع والعشرون[1]

إلى الفلك لما ارفضَّ ذيَّالك الحشد تفـرق يبغـي الـزاد والوسـن الجنـد

وظـلَّ آخيـل والكـرى قاتـل الأسـى بـذكراه فطـرقلًا يؤرقـه السـهد

ينـوح علـى إقدامـه وزماعـه وكـل سـجاياه لخـاطره تبـدو

ويـذكر كـم حربًـا بهـا جُهـدا معًـا وكـم بعبـاب البحـر نالهمـا الجهـد

يكـب فيسـتلقي يسـيرًا فينثنـي علـى صـفحتيه والهـواجس تشـتدُّ

فيـنهض ملتاعًـا تسـح دموعُـه وفي الجرف يجري جري من فاته الرشد

فهـام إلـى أن أبلـج الفجـرُ سـاطعًا بـه يستضـيء البحـر والغـور والنَّجـد

لمركبـه شـدَّ الجيـاد وخلفـه لقـد شـدَّ هكطـور علـى التـرب يمتـدُّ

علـى قبـر فطرقـلٍ ثلاثًـا بـه جـرى وعـاد ابتغـاء النَّـوم للخـيم يرتـدُّ

وغـادر هكطـورًا مكبًّـا علـى الثـرى ولكـن فيبوسًـا بـه هاجـه الوجـد

فمدَّ عليه عسجدي مجنه ... فلا مَسَّهُ ضرٌّ ولا مُزِّق الجلدُ[٢]

فساءت بني العليا مهانته لذا ... لدى هرمسٍ طرًّا بإنقاذه جدُّوا[٣]

على أن آثينا وهيرا وفوسذًا ... تصدوا ولكن ليس يجديهم الصد

(على قدس إليونٍ وفريام لبهم ... وأقوامه ما زال يلهبه الحقد

ففاريس سام الرَّبَّتين مهانةً ... بمرعاه قدمًا وهو غضٌّ الصبا وغدُ

غدا قاضيًا بالفضل للرَّبة التي ... أباحت له بئس المنى ومضت تغدو)[٤]

ومذ لاح ثاني عشر فجرٍ مقاله ... أفلون ألقى يستشيط ويحتدُّ:

«بني الخلد آل الجور كم ساق سخلةٍ ... وثورٍ لكم هكطور من قبل أحرقا

فها هو ميتٌ ليس من تستفزُّه ... لإنقاذه نفسٌ تجيش ترفقا

فترمقه زوجٌ وأمٌّ ووالد ... وطفلٌ وشعبٌ هام وجدًا ليرمقا

يقومون بالفرض الأخير وحوله ... تألق نيران الوقود تألقا

فآخيل آثرتم وآخيل ما أرى ... به أثرًا للدين والعدل مطلقا

كليثٍ غشومٍ فاتكٍ متغشمرٍ ... دهى السرب منقضًّا وعاث ومزَّقا

فما هو ذو رفقٍ وقد غادر التقى ... نعم والحيا أس السعادة والشقا

فقد يفقد المرء ابنه وشقيقه ... وخِلًّا فيبكي ناحبًا متحرقا

فيسلو وللأقدار حكمٌ إذا مضى ... رأيناه قلب الخلق للصبر شوقا[٥]

وهذا آخيل منذ قَتْلِ عدوه ... يجرره حول الضريح معلقا

فما ذا ليجديه ومهما عتا فهل ... بأمنٍ غدا من أن نغاظ ونحنقا

ونسـتاء مـن إفراطـه بإسـاءةٍ ... لجسـمٍ فقيـد الحـس بـالترب ألحقـا»

فصاحت بـه هيـرا: «ولـو كفـؤًا غـدا ... لآخيـل هكطـور مقالـك صـدقا

فـذاك غـذت إنسـيةٌ بلبانهـا ... وذا ربـةٌ ربَّـت وفـي المجـد أعرقـا

بحجـري قـد أنشـأتها وأبحتهـا ... لفـيلا الـذي مرقـاة وذكـم رقـى

حضـرتم جميعًـا للزفـاف وليمـة ... بهـا كلكـم حـول الطعـام تأنَّقـا

وقد كنت بالقيثار في العرس عازفًا ... أربَّ الخنى إلف الأولي نبذوا التقى»٦

فعارضـها زفـسٌ وقـال لهـا: «قفـي ... أهيـرا وأبنـاء العلـى لا تعنفـي

فهكطـور لـن نـرى كآخيـل إنمـا ... بـإليون لا مـرء كهكطـور نصـطفي

مـدى عمـره لـم يسـه عـن قرباتـه ... لنـا وعـن التبجيـل لـم يتوقَّـف٧

ولـم يخـل يومًـا مـذبحي مـن مدامـةٍ ... وشـحمٍ وإيـلامٍ بحسـن تصـرُّفِ

ومـا أنـا بـاغٍ أن نواريـه خفيـةً ... فمـا الأمـر عـن آخيـل قـط ليختفـي

فثيتـيس بالمرصـاد فـي كـل سـاعةٍ ... علـيَّ بهـا أسترضـها بتلطـف

فيقبـل مـن فريـام آخيـل فديـة ... ويـدفع هكطـورًا إليـه ويكتفـي»

فـإيريس هبَّـت كالريـاح تغـوص فـي ... خضـم عبـاب البحـر يـدوي لهـا الجـدُّ

ومـا بـين سـاموس وإمبـرسٍ مضـت ... إلـى القعـر حيـث اليـم فـي اللّـج مربـدُّ

كما دون قرن الثَّور غاصت رصاصةٌ ... لأسـماكه فيهـا المنيـة تعتـدُّ٨

فثيتـيس ألفـت فـي غيابـة كهفهـا ... وحشـد بنـات المـاء مـن حولهـا عقـد٩

تنـوح علـى ابـنٍ فـي بعيـد اغترابـه ... مـن المـوت فـي طـرواد لـيس لـه بـد

فصاحت أثيتيس انهضي زفس ذو النهى ... لقـاءك يبغـي فاسـتطيري إلـى اللقـا»

فقالت: «وماذا رام ذو الطَّول إنني أنــا أتحاشــى مجلــس الخلــد والبقــا
ولكن بنـا سيري فمهمـا يهـج أسًى فــؤادي ففــي زفــس الجــلال تحقَّقــا
ومهمــا يكــن مــن نطقــه ومقالــه بغيــر صــوابٍ لــن يفــوه وينطقــا»
وإيـريس سـارت وهـي طـارت وراءهـا عليهــا نقــابٌ حالــك اللــون مســودُ
أمامهـــا انشـــقَّ العبـــاب فهبَّتـــا من الجرف للعلياء حيث ثوى الخلد
وحيـــث ميـــامين العلـــى منتـــداهم بــه زفــس رب المجــد كللــه المجــد
لـدى زفـس فـورًا أجلسـتها بعرشـها أثينـــا وهيـــرا أقبلـــت نحوهـــا تعـــدو
وهشَّـــت تعزيهـــا وألقـــت بكفتهـــا لهـــا قـــدحًا يزهـــو بعســـجده الوقـــد
ولمَّـا قضـت منـه ارتشـافًا وأرجعـت لهيـرا فـزفسٌ صـاح يبلـغ مـا القصـد:
«أثيتـــيسُ إنـــي بالتياعـــك عـــالمٌ وقـــد جئتنـــي طوعًـــا فبغيتـــي اعرفـــي
ســراةُ العلـى شـقَّ الشـقاق لفيفهـا لتســـــعة أيـــــامٍ ولـــــم تتـــــألف
وهـرمس حثثـت أن يسـير بخلسـةٍ بجثـــة هكطـــور الصـــريع فتشـــتفي
ومـذ رمـت أستصـفيك ودًا وحرمـةً لآخيـــل أبغـــي فضـــل هـــذا التعطـــف
فطيـــري إليـــه بلغـــي غـــيظ قومنـــا ومـــن فوقـــه غيظـــي وفـــرط تأســـفي
فهكطورًا استبقى لدى الفلك حانقًا ليرجعـــه خـــوف الســـخط إن يتخـــوَّف
وهـــا أنـــا إيريسًـــا لفريـــام منقـــذٌ ليمضـي إلـى الأسـطول حـق الفـدا يفـي
فيتحـف آخـيلا بمـا طـاب قلبـه بـــه مـــن عتـــاد شـــائق ومزخـــرف»
فلبت وهبَّت من ذرى الطود تنثني لخـــيم ابنهـــا القتـــه أكمـــده الكمـــد

وقـد ذبـح الأنصـار إذ ذاك نعجـةً   وداروا حواليـه وزادهـم مـدُّوا
فخفَّـت تحاذيـه ومنهـا تزلَّفـا   تـدور علـى أعطافـه الكـف والزنـد
وقالت: «إلى مَ القلب تقضم كأبةً   ولا زاد تبغـي أو فراشًـا منمقـا١٠
ولا بـأس أن تلهـو آخيـل بغـادةٍ   فسـهم المنايـا موشـكٌ أن يفوقـا١١
بُنَـيَّ وزفـس اختصَّـني برسـالة   فحقـدك أربـاب السـيادة أقلقـا
فغيظـوا وزفـس اشـتدَّ يلهـب غيظـه   لحفظـك هكطـورًا لـدى الفلـك موثقـا
بـه ادفـع وخـذ عنـه الفكـاك بديلـه»   فقـال: «قضـى زفـسٌ ولا ريـب مشـفقًا
ليـات إذن مـن يبـذل المـال فديـةً   فيرجـع فيـه شـائقًا ومشـوقا»١٢
فهـذا حـديث الأم في الفلـك وابنهـا   وزفس دعا إيريس قال لها: «ادلفي١٣
بلاغي مـن شـم الأولمب بـه اذهبي   وفريـام فـي إليـون بـالأمر كلفـي
ليذهب إلى الأسطول هكطور يفتدي   وآخيـل يسترضـي وبـالغرِّ يتحـفِ
ولا يمـض معـه غيـر فـيجٍ معمـر   لسـوق بغـال المركـب الآن مسـعف
ويرجـع فيهـا قـافلًا بابنـه الـذي   قـد اجتـاح آخيـل بحـد المثقَّـف
ولا يضطرب خوفًا ولا يرهب الرَّدى   فقاتـل أرغـوصٍ نسـير فيقتفـي
فـذاك دليـلٌ معـه يـذهب آمنًـا   لمنـزل آخيـل بـآمن موقـف١٤
وآخيـل لـن يغتالـه متعسـفًا   ويحميـه ممـن رامـه بتعسـف
فـلا هـو ذو جهـلٍ ولا ذو حماقـةٍ   ولا نابـذ التقـوى بشـر التعجـرف١٥
فـإيريس مثـل الـريح فريـام يمَّمـت   فألفتـه وسـط الـدَّار مـن حولـه الولـد
ولـم تلـف غيـر النـوح بلـت ثيـابهم   دمـوعهم والعـزم بـالحزن منهـد

وفريام مما قد حثا متمرغًا — يدنسه خثي ويكنفه برد١٦
وفي صرحه كنَّاته وبناته — ينحن لبهم بعدهم عظم البعد١٧
تدنَّت إليه وهو منتفض أسًى — برعدته مما به برَّح الفقد
وقالت برفق: «يا ابن دردانسٍ فلا — تخف فبأنباء الأسى لم أكلف
ولكن بخير العلم زفس أسارني — نعم وهو أسمى مشفقٍ لك منصف
يقول امض للأسطول هكطورًا افتدى — وآخيل فاسترضى وبالغر أتحف١٨
ولا معك يمضي غير فيجٍ معمرٍ — لسوق بغال المركب الآن مسعفٍ١٩
فيرجع فيها قافلًا بابنك الذي — قد اجتاح آخيل بحد المثقف
ولا تضطرب خوفًا ولا ترهب الرَّدى — فقاتل أرغوصٍ يسير فتقتفي
فذاك دليلٌ معه تذهب آمنًا — لمنزل آخيل بآمن موقف
فآخيل لن يؤذيك منه تعسفٌ — ويمنع حتمًا عنك كل تعسف
فلا هو ذو جهلٍ ولا ذو حماقةٍ — ولا نابذ التقوى بشر التعجرف
ولكنَّه يرعى ولا ريب حرمةً — لمن جاءه في ذلّةِ المتزلف»
طارت وفريام لساعته أمر — أبناءه لتعدَّ مركبة السفر
ولها تشدَّ بغالها وتعلّق الـ — ـزنبيل ثم لحجرة النوم انحدر
هي غرفةٌ عطريةٌ جدرانها — شماء بالأرز ازدهى بنيانها
قد كان ثم أعدَّ كل نفيسةٍ — وثمينةٍ يشتاق رؤيتها البصر
إيقاب نادى قال: «من شم العلى — زفسٌ إليَّ إلاهةً قد أرسلا

لأسـير للأسـطول وابنـي أفتـدي وآخيـل أتحـف مـا يشـاء مـن الغـرر

فـإذن بفكـرك لـي سـريعًا صـرحي أمـا أنـا فلـذاك غايـة مطمحـي

والقلـب يـدفعني إلـى فلـك العـدى وجيوشـهم» قالـت ومـدمعها انهمـر:

«ويـلاه أيـن حجـى عرفـت بـه لـدى طـروادةٍ حتـى وفـي قـوم العـدى

أتسـير وحـدك للسـفين إلـى فتًـى لـك كـم فتًـى بطـلٍ همـامٍ قـد قهـر

لا شـك قلبـك كالحديـد ألا تـرى آخيـل غـدَّارًا عتـا وتجبَّـرا

فلـئن رآك أتيـت لا رفـقٌ ولا عطـفٌ لديـه وخلتـه فـورًا غـدر

فلننـدبن بصـرحنا فـي معـزل فسوى الهـوان لـه القضـا لـم يغـزل ٢٠

ولـه الهـلاك أتـيح منـذ ولدتـه فـي البعـد عنـا لا تبللـه العبـر

وفريسـةً للغضـف ويـلا يغتـدي بحمـا عتـيٍّ ظـالمٍ متمـرد

مـن لـي بـذا السـفاك أقضـم كبـده قضـمًا فـلا أبقـي عليـه ولا أذر ٢١

إن يقـض هكطـور فـلا نكسًـا قضـى لكـن لكـل كريهـة متعرضـا

فـي الـذود عـن طـروادةٍ ونسـائها مـا انتابـه جـزعٌ ولا عـرف المفـر» ٢٢

فأجابهـا بجـلال ربٍّ عُظِّمـا: «خلـي المـلام فقـد نويـت مصـمما

لـن تصـرفي عزمـي فـلا تقفـي إذن كوقـوف طيـر الشـؤم فـي هـذا المقـر

لـو جـاءني بـالأمر عـراف هنـا أو كـاهنٌ أو عـائفٌ متكهنـا

لرغبـت عنـه وقلـت ذلـك كـاذبٌ وصـرفت فـورًا عـن مقالتـه النظـر

لكـن تلـك إلاهـة أبصـرتها وسـمعتها وبـذا اليقـين أطعتهـا

ولقـد رضـيت بـأن يـوافيني الـردى بـين العـدى إن كـان ذا حكـم القـدر

فلئن أضم ابني الحبيب وغلتي ... أشفي ليفتك بي آخيل بذلتي»

ثم الخزائن قام يفتح مخرجًا ... من كل منضود بهنَّ اثني عشر

من بردها ونقابها وشعارها ... وكذاك من زربيها ودثارها

وأعدَّ من ذهبٍ شواقل عشرة ... وكذا جفانًا أربعًا كان ادَّخر

ومنصتين كذلك الكأس التي ... إثراقةٌ قدمًا إليه أهدت

وبها حبته وافدًا برسالةٍ ... فأضافها لفكاك هكطور الأبر

وتكأكأ الطرواد في أبوابه ... فمضى يعنفهم بمر خطابه:

«عني أيا قوم الهوان افرنقعوا ... أفلم يبرح في مقامكم الكدر

أو ما لكم من تندبون بدوركم ... حتى تزيدوني أسًى بزفيركم

أوليس حسبي أن يلظيني أسًى ... زفس وأبسل فتيتي هكطور خر

ولسوف تلفون إلا ذي كل الأذى ... إذ بتم مذ مات أسهل مأخذا

لا أبصرت عيناي دك معاقلي ... من لي برجي قبل ذلك في سقر»

واستاقهم بالصَّولجان فأدبروا ... من وجهه وبنيه أقبل يزجر٢٣

هيلينسًا فاريس هيفوثوسًا ... فمون ذيفوبًا أغاثون الأغر

أنطيفنًا فوليت سفَّاك الدما ... وكذاك تاسعهم ذيوس الأيهما٢٤

ألقى أوامره عليهم ساخطًا ... حنقًا وكلهم بحدته انتهر:

«عجلًا أولد السوء يا رهط الفشل ... يا ليتكم طرًّا فدا ذاك البطل

ويلاه واعظم الشقاء فكم فتى ... لي كان في إليون قرمٍ ذي خطر

لـم يبـق لـي أحـدٌ فـلا لهفـاه لا | مسطور ذاك القرن قرن بني العلى٢٥
وأبـو الفـوارس إطرويـل ومنيتـي | هكطـور مـن ربًّـا غـدًا بـين البشـر
قـد كـان أشـبه بـابن ربٍ معـرق | منـه بمولـودٍ لإنسـيٍّ شـقي
طـرًّا أبـادهم الـوغى مسـتبقيًا | لـي زمـرة وأقبحهـا بـين الزمـر
رنَّامـةً رقَّاصـةً كذَّابـةً | وبنـي الـبلاد سـوامها سـلَّابة٢٦
أفـلا شـددتم مركبـي ونضـدتم | هـذا المتـاع لكـي أسـير علـى الأثـر»
جـزع البنـون لزجـره وتـألبوا | ولشـد مركبـة البغـال تـأهبوا
طيَّـارةٌ صـنعت حـديثًا وازدهـت | فبسطحها الزنبيل فـي الحـال اسـتقر
والنيـر نيـر الـبقس كـان علـى الوتـد | محقوقـفٌ فـي ظهـره حلـق العـدد
فـأتوا بـه وكـذاك بالسـير الـذي | فيـه وتسـعة أذرع طـولًا قـدر
بـالنير رأس الجـذع حـالًا أدخلـوا | والسـير حوليـه ثلاثًـا حوَّلـوا
من تحت ذاك الجذع أحكم عقده | مـن ثـم كلهـم إلـى الصَّـرح ابتـدر٢٧
منـه اسـتقلوا يشـحنون المركبـه | بفكـاك هكطـور لآخيـل هبـه
قرنـوا لهـا بغلـين مـن ميسـيةٍ | فريـام نـال هديـةً وبهـا افتخـر
من بعد ذا عمدوا إلى فرسين في | أكنـاف عنَّتـه غـذا بتلطـف٢٨
فبنفسـه مـع فيجـه فـي صـرجه | في الحال شدهما ولم يرع الكبر٢٩
وأتتـه إيقـاب يحزقهـا النصـب | بشـهي صـرف الـراح فـي كـأس الـذهب
وقفـت أمـام الخيـل تندبـه إلـى | صـب المدامـة قبـل أن يلـج الخطـر
قالت: «إليك الكأس خذها واسكب | زلفـى وحسـن العـود مـن زفـس اطلـب

مـن زفـس مـن إليـون يرمـق طرفـه   مـن طـود إيـذا حيـث فـي علياه قـر

تمضـي علـى رغمـي فسـله يرسـل   لـك طيـره الميمـون ذا الطـول العلـي

فـإذا أتـاك إلـى يمينـك سـانحًا   ورأيتـه جئـت العـداة بـلا حـذر ٣٠

لكنمـا إن ظـلَّ زفـسٌ معرضـا   وبـذي الرسـالة منـه لـم يبـد الرضـا

لا أغرينَّـك أن تسـير لفلكهـم   مهمـا رغبـت ولـب مهجتـك اسـتعر»

فأجابهـا: «لـن أعصينك يـا امـرأة   بسـط الأكـف لـزفس نعـم التوطئـه

فلعلـه عطفًـا يـرق» وأمـره   فـورًا لجاريـةٍ بخدمتـه صـدر

فـدنت بـإبريقٍ وطـسٍّ تـذهب   مـاء الطهـور علـى يديـه تسـكب

والكـأس مـن بعـد الوضـوء أراقهـا   فـوق الحضـيض لـزفس دفَّـاع الضـرر

وإلـى السـماء أقـام ينظـر واقفًـا   فـي وسـط تلـك الـدار يصـرخ هاتفًـا:

«أأبـا العـوالم زفـس مـن إيـذا عـلا   يـا مـن لأمـر جلالـه الكـل ائتمـر

سَكِّنْ آخيـل فلـي يـرق وأرسـل   لـي طيـرك الميمـون ذا الطـول العلـي

فـإذا أتـاني عـن يمينـي سـانحًا   ورأيتـه جئـت العـداة بـلا حـذر»

فـدعاءه زفـس اسـتجاب وأرسـلا   فـي الحـال أصـدق كـل أطيـار الفـلا

نسـرًا زفيفًـا كاسـرًا ذا قتمـةٍ   بالأسـمر الفتـاك فـي العـرف اشـتهر

جنحـاه قـد نشـرا كصـفقي حجـرة   شـماء فـي صـرح الغنـا مبنيـة

فتنسـم الطـرواد خيـر ظهـوره   لمـا يمينًـا فـوق إليـون ظهـر

فهنـاك فريـامٌ لسـاعته علـى   كرسـيه بحميـل بشـراه اعتلـى

واستاقها فمضت تغير بداره   ورتاجها من وقع ذاك الجري صر٣١
وأمامه حثّ البغال وأسرعا   إيذوس معتليًا محالًا أربعا٣٢
جريًا بإليونٍ وكل ذويه في الـ   آثار تندب ندب من ميتًا قبر
حتى إذا اجتازا بأسواق البلد   للسهل جدًّا لا يحوطهما أحد
وإلى ديارهم انثنى الأبناء والـ   أصهار مع كل الجماهير الأخر
لما رأى زفس والشيخان قد ولجا   في السهل رقَّ لفريامٍ وهاج شجا
نادى ابنه هرمس المحبوب قال: «لكم   أحببت بين بني الإنسان أن تلجا
وإن تشأ تستجبهم فاصحبنَّ إذن   فريام فهو إلى الأسطول قد خرجا
لا يعلمنَّ به بين الملا أحدٌ   حتى إذا جاء آخيلا فلا حرجا»
لبَّاه قاتل أرغوصٍ وفي عجلٍ   خفيه أوثق في رجليه مبتهجا
(خفان من عنبر صيغا ومن ذهب   في البحر والبر مثل الريح قد درجا)٣٣
والصولجان الذي يلقي السبات على   من شاء أو يوقظ الوسنان إن خلجا٣٤
به مضى مثل لمح الطرف ينزل في   تلك السهول بجرف البحر مدلجا
وراح يحكي أميرًا جدَّ نحوهما   عذاره خط في شرخ الصبا بلجا٣٥
وقبر إيلوس لمَّا جاوزا وقفا   وقد أغار على الغبراء جيش دجى
همَّا بأن يوردا للنهر خيلهما   مع البغال فهبَّ الفيج منزعجا
رأى الإله فنادى: «يا ابن دردنس   تروَّ وانظر وقفنا موقفًا حرجا
أرى امرأً جاءنا بالحتف هل هربًا   نلوي الجياد وفورًا نطلب الفرجا
أو فوق ركبته نحني ومرحمةً   نرجو عساه لنا أن يستجيب رجا»

فارتـاع فريـام خوفًـا واقشـعرَّ أسًـى   وقـد غـدا مزبئـر الشـعر ملتعجـا
لكـن دنـا هـرمس يهـوي علـى يـده   يلقـي السـؤال بلـين القـول ممتزجـا:
«عـلام يـا أبتـا والنـاس قـد وسـنت   بـذي البغـال وهـذي الخيـل ترتحـل٣٦
هنـا الأخـاءة هـلَّا خفـت شـرهم   وكلهـم لـك بالعـدوان مشـتعل
مـا بالـك الآن لـو وافـاك أيهـم   بـذا الريـاش وسـتر الليـل منسـدل
ما كنت غضَّ ضبابٍ والرفيق أرى   شيخًا فما لك في دفع الأذى قبل
فلا تخف ضرري بل فالق بي عضدًا   لـك انبـرى وأبـاه فيـك يمتثـل»٣٧
فقال فريام يعلوه الجلال: «أجل   بنـي غيـر مقـال الحـق لـم تقـل
لكن أرى بعض آل الخلد قد بسطوا   علـيَّ كفهـم فـي الموقـف الجلـل
إلـيَّ أسـروا بسـيَّار نظيـرك ذي   قـد وحسـن وعقـل نـادر المثـل
أهلًا وطوبى لأهلٍ أنت فرعهم»   فقال: «يا شيخ خير القول ترتجل
فأطلعني طلع الأمر أين ترى   يساق في الليل هذا الحليُّ والحلل
أتطلبنَّ بقاصي الدَّار مؤتمنًا   لهنَّ أم كلَّ إليون عرا الوجل
فرمتم هجرها لما نأى وقضى   هول الأخاءة هكطور ابنك البطل»
فقال: «من أنت من أي الأرومة يا   من ذكر حتف ابني المنتاب يبسط لي»
أجاب: «يا شيخ هل ذاك امتحانك لي   إذ جئت خبري عن هكطور أمتثل٣٨
فكم بصرت به للفلك مكتسئًا   جيش الأخاء وسيف الحتف يمتشل٣٩
وكم رأينا وأكبرنا ومانعنا   آخيل غيظًا على أتريذ نقتتل

فــي قــوم أعوانــه وافيــت منتظمًــا بفلكــــه وإلــــى المرميــــد أتصــــل
أبـي فلقطـور مـن أهـل اليسـار غـدا شــيخًا حكــاك بنــوه ســبعةً كملــوا
فعنـــده ســـتةٌ ظلـــوا وســـابعهم أنـا حملـت مـع الإغريـق مـذ حملـوا
لمـا اقترعنـا فسـهمي دون أسـهمهم بـــدا فـــأمر آخيـــل جئـــت أمتثـــل
والآن أنفـــذني للســـهل مرتقبًـــا فقـد عـرا القـوم مـن كـف الـوغى الملـل
سـيحملون علـى إليـون مـن غـدهم والصيد عن ردعهم ضاقت بها الحيل»
فقـال فريـام: «إمـا كنـت منتسـبًا إلـى ابـن آيـاك فاصـدقني بـلا مهـل
أجسـم هكطـور آخيـل رمـى قطعًـا للغضف أم قرب تلك الفلك لم يزل»[٤٠]
فقـال: «لا منسرٌ لا نـاب عـاث بـه لكـــنَّ جثتـــه للخـــيم قـــد حملـــوا
في القرب من فلك آخيل لقد بزغ ـــنا عشـــر فجـــرًا عليـــه وهـــو معتقـــل
فـــلا عـــراه فســـادٌ أو تخللـــه دود تخلـل بهمًـا فـي الـوغى قتلـوا
وكلمـا طـر فجـرٌ حـول صـاحبه آخيـل طـاف بـه بـالعنف يجتـذل [٤١]
لتعجـــبنَّ إذا أبصـــرته ترفًـــا لا تقـــع دنســـه والجـــرح منـــدمل
كـم طعنـةٍ فهقـت فيـه قـد انـدملت كـأن آل العلـى تلـك الـدِّما غسـلوا
لا شــك ودوه حتــى بعــد مصــرعه عـن ذلـك البطـل القهـار مـا غفلـوا»
فطاب قلبًا وصاح الشيخ: «وا ولدا يـا حبـذا البـر للأربـاب مـن عمـل
لم ينس ما عاش أرباب الألمب ولا هـم أغفلـوه ولـو بعـد انقضـا الأجـل
فهذه الكأس خذ مني وكن عضدي بعــون آل العلــى فــي هــذه الســبل
حتـــى لخيمـــة آخيـــل تبلغنـــي» فقـال هـرمس: «ليسـت شـيمتي النحـل

مهما أكن حدثًا ما أنت تطمعني ... بنائلٍ عن آخيل خفيةً تصل
أخشاه والنَّفس تأبى أن تمدَّ يدي ... لسلبه إن عقبى ذلك الفشل٤٢
لأصحبنك حتى لو بغيت إلى ... بلاد أرغوس ذات الشأن تنتقل
وليس برًا وبحرًا ما ظللت على ... عهدي تمسك من كف العدى الأسل»
وهب هرمس للكرسي واستلم الـ ... ـعنان والسوط ثم استاق منتهجا
وهِمَّة الخيل أورى والبغال وبالـ ... ـحفير حالًا لأسوار الحمى اتَّلَجا٤٣
ألفى العيون أعدَّت زادها فعلى ... أجفانهم صب تهجاعًا بها اندمجا٤٤
وراح يفتح أرتاج الحصار بلا ... عنا ويدفع أزلاجًا بها زلجا٤٥
وبالهدايا وفريامٍ ومركبه ... أم الخيام وفي بطن الحمى زلجا٤٦
حتى إلى الخيمة الشما التي رفع الـ ... ـمرميد لابن أياكٍ ملكهم عرجا
من أسؤق السر وشيدت تحت أغمية ... من المروج بها البردي قد مرجا
وحولها الدار شيدت تحت أعمدةٍ ... والباب مزلاج سروٍ واحدٌ رتجا٤٧
ثلاثة منهم بالعنف تدفعه ... لكنما دفعه آخيل ما زعجا
بوجه فريام خفَّ الرب يفتحه ... وبالهدايا إلى ذاك الفنا ولجا
وصاح من بعد ذا لما ترجل: «يا ... ذا الشيخ هرمس من والاك لا رجل
أبي نصيرًا إليك اليوم أنفذني ... وها أنا الآن ماضٍ عنك أنفصل
لن أظهرنَّ لآخيل فما لبني الـ ... ـعلى جهارًا ولاء الإنس تبتذل
وأنت رح وانطرح من فوق ركبته ... وسله رفقًا عسى يصغي لما تسلُ

وباســـم فـــيلا وثيتـــيسٍ ونفطلـــمٍ   ناشـــده يـــرنُ لـــدمعٍ منـــك ينهمـــل٤٨

•••

هكـــذا هـــرمسٌ أتـــم الخطابـــا   وتـــوارى إلـــى الألمـــب وآبـــا٤٩

فعدا الشيخ راجلًا وأنابا

إيذيوسًـــا فظـــل عنـــد العجـــال   عانيًـــا فـــي جيادهـــا والبغـــال

ومضـــى يقصـــد ابـــن فـــيلا فألفـــا   هـ تنحَّـــى وعنـــه أنـــأى الصـــحابا

•••

مـــا لديـــه غيـــر الفتـــى أفطميـــذ   وكـــــذا فـــــرع آرس ألقميـــــذ

كان عن زاده ورشف النبيذ

قـــام والـــزاد لا يـــزال لديـــه   وهمـــا قائمـــان بـــين يديـــه

كلهـــم مـــا رأوه فانســـل وانصـــ   ـــب علـــى ركبتـــي آخيـــل انصـــبابا

•••

ويديـــه اللتـــين كـــم مـــن فتـــى جـــل   مـــن بنيـــه أبادتـــا قبـــل قبَّـــل

دهشوا عندما على الفور أقبل

دهشـــة القـــوم مـــن وفـــود غريـــب   ســـاقه فـــادح القضـــاء المريـــب

قـــاتلًا مـــن بـــلاده فـــرَّ يلجـــا   لـــديار امـــرئٍ تعلّـــى جنابـــا٥٠

•••

فأجـــالوا الأبصـــار باســـتعجاب   وهـــو ألقـــى خطابـــه باكتئـــاب:

«يا ابن فيلا مقرَّب الأرباب

اذكـــر اذكـــر بشـــيبتي والـــدًا لـــك   درك العجـــــز آه مثلـــــي أدرك

ربَّ جـــارٍ أصـــابه بـــبلاءٍ   وهـــو لا عـــون صـــدَّ عنـــه المصـــابا

•••

إنمـــا للســـرور يلقـــى ســـبيلا   ذاك إن أبلغـــوه حيًّـــا آخـــيلا

فيرجي له معادًا جميلا

ليـــراه مـــن بعـــد طـــول اغتـــراب   وأنـــا آه ألتظـــي بالتهـــاب

كـــم فتًـــى باســـلٍ بـــإليون لـــي كـــا   ن فطـــرًّا بـــادوا وأضـــحوا ترابـــا

•••

عنـــدما جـــاءت الأخـــاءة بحـــرا   حســـبوا لـــي خمســـين عـــدًّا وحصـــرا

من نساءٍ شتًّى وتسعة عشرا

عصـــبةً إخـــوةً أشـــقاء كـــانوا   جلهـــم بالجهـــاد للحتـــف دانـــوا

واحـــدٌ ظـــل مـــنهم بـــذيادٍ   عـــن ســـرانا يقـــي الـــبلاد الخرابـــا

•••

ذاك هكطـــور مـــن قتلـــت أخيـــرا   وهـــو يحمـــي ذمـــاره والعشـــيرا

ذاك ما ساقني هنا مستجيرا

فأممـــت الأســـطول فـــي ذا الســـبيل   ولقـــد جئـــت بالفكـــاك الجزيـــل

فســـراة العلـــى آخيـــل اتقـــي وار   فـــق بحـــالي واذكـــر أبـــاك اهتيابـــا

•••

لا جـــدير فـــي الخلـــق بـــالرفق مثلـــي   لا ولا فـــي الـــورى امـــرؤٌ ذُلّ ذُلّـــي

هذه الكف أس بؤسي وخذلي

وبهـــا ابنـــي أضـــحى قتـــيلًا جـــديلا   وأنـــا قـــد قبلتهـــا تقبـــيلا»٥١

فبـــذا الشـــيخ هـــاج مـــدمع آخيـــ   ـــل لـــذكرى أبيـــه فـــيلا اكتئابـــا

•••

فبرفـــقٍ أنـــآه عنـــه وأجـــرى   عبـــراتٍ ســـحت علـــى الفـــور حـــرَّى

فكلا القيمين ناح لذكرى

ذا لهكطور ساجدًا لآخيلا وآخيـــل فطرقـــل يبكـــي وفـــيلا

لبثـــا ينحبـــان ثمـــة حتَّـــى لهمـــا اهتـــزت الســـقوف انتحابـــا

•••

وآخيـــــل لمــــا روى بنحيبـــــه غلّـــه قـــام مغضـــيًا عـــن كروبـــه

أنهض الشيخ رافقًا بمشيبه

ولـــه وجـــه الخطـــاب فقـــالا: «إي نعـــم ســـامك القضـــاء وبـــالا

كيف قل لم تخف فجئت إلى الفلـ ـــك وحيـــدًا لمـــن بنيـــك انتابـــا

•••

لـك قلـبٌ مثـل الحديـد الصـليب فـانهض اجلـس ولنبـق طـي القلـوب

غصص النفس لاشتداد الخطوب

لـيس يجـدي بكاؤنـا والنحيـب فالرزايـــا لكـــل مـــرءٍ نصـــيب

ليس يخلو سوى بني الخلد من هـ ـــمٍّ ولكـــن لنـــا أعـــدُّوا العـــذابا

•••

فبأعتـــاب زفـــس قارورتـــان ذي لخيـــرٍ وذي لشـــرِّ الهـــوان

فيهما كل قسمة الإنسان

فالـــذي منهمـــا مزيجًـــا أنـــالا زفـــس يلقـــي خيـــرًا ويلقـــي وبـــالا

والـــذي لا ينـــال إلَّا مـــن الشَّـــ ـــرِّ فتنتابـــه الخطـــوب انتيابـــا

•••

بطـــواه يطـــوي الـــبلاد كلـــيلا تائهًـــا فـــي عـــرض الفـــلاة ذلـــيلا

من بني الخلد والورى مخذولا٥٢

فلفـــيلا الأربـــاب خيـــر الهبـــات أجزلـــوا مـــذ بـــدا لهـــذي الحيـــاة

فــاق جاهًــا وثــروةً وعلــى المــر ميــد أضــحى قــيلًا مطاعًــا مجابــا

•••

ولــئن كــان فانيًــا وابــن فــان أنكحــــوه إلاهـــــةً ذات شـــــان

وعلى ذا منوه بالأشجان

بحمــاه لــم يعــط قــط بنينــا بعــــده فــــي بـــلاده يحكمونــــا

فرعـــه واحـــدٌ سيقضـــي قريبًـــا غيـــر مجـــدٍ مشـــيبه حـــين شـــابا

•••

كيـف أجـدي وقـد شـططت ديـارا وبـــــإليون قمـــــت والهـــــول دارا

لك أهمي وآلك الأكدارا

وكـــذا أنـــت فـــد روى الراوونـــا لـــك يـــا شـــيخ طالعًـــا ميمونـــا

كنـــت ذا دولـــةٍ ومـــالٍ وأبنـــا ءٍ بشـــرخ الصـــبا ســـموا أنجابـــا

•••

مـــن ذرى لســـبسٍ مقـــر مقـــار لفريجـــا لجـــرف هـــذي البحـــار٥٣

سدت جم القوى رفيع المنار

إنمـــا منـــذ ذا القتـــال الوبيـــل لا تـــــرى غيـــــر قاتـــــلٍ وقتيـــــل

فاعتصــم بــالعزاء لا تجعــل الضيــ ـــم أسًـــى فيـــه تقطـــع الأحقابـــا

•••

لـيس يجـديك حـزن هكطـور نفعـا لـــن تقيمنَّـــه بـــذرفك دمعـــا٥٤

رب خطب إليك من بعد يسعى»٥٥

قــال يحكــي فريــام آل الخلــود: «يــا ابــن فــيلا لا تــدعني للقعــود

إن هكطــور فــي خيامــك لا قبــ ــر يواريــه فــي التــراب احتجابــا

•••

أعطنيـــــه حتـــــى بعينـــــي أراه وجزيـــل النفـــائس اقبـــل فـــداه

فبها قد أتيت أبغي شلاه

منـك يـا مـن حيـا قـد اسـتبقاني انظـــر النـــور ســـاطعًا بالأمـــان

فبهـا اهنـا عسـاك ترجـع لـلأو طـان مـن بعـد مـا نأيـت اغترابـا»

•••

عنـد هـذا آخيـل أحـدق شـزرا قـال: «يـا شـيخ لا تغظنـي قسـرا

لك هكطور سوف يعطى فصبرا

بنـت شـيخ البحـار أمـي أتتنـي مـن لـدى زفـس أمـره بلّغتنـي

وأنـــا عـــالمٌ بـــأن إلاهًـــا بـك حتَّـى الأسـطول جـاء فغابـا

•••

أي مـرء ولـو بشـرخ الشـباب يخـرق الجـيش قاصـدًا أبـوابي

عن عيون العيون طيَّ الحجاب

أو أزلاجنـــا لـــه يتهيـــا دفعهـا اصـمت إن شـئت تلبـث حيـا

لا تهجنـي فـزفس أعصـي ولا أر عـى ذلـيلًا همَّـا وشـيخًا مصـابا»٥٦

•••

جـزع الشـيخ للوعيـد مطيعـا وآخيـل كالليـث هـبَّ سـريعا

غادر الخيم آمرًا متبوعا

معـــه مـــن رفاقـــه تبعـــان بعـــد فطرقـــل أقـــرب الفتيـــان

أفطميـذٌ وألقميـذ أخـو العـز م جميعًـا عـدوا وجـازوا البابـا

•••

ذلـك الفـيج أدخلـوا وأحلّـوا مجلسًـا والبغـال والخيـل حلّـوا

ومن المركب الرياش استقلوا

غيـــر بـــردين شـــائقين جمـــالا وشـــــعارٍ مزخـــــرفٍ يـــــتلالا

رام آخيـــل أن يكفَّـــن هكطـــو ر بهـــا عنـــدما يتـــيح المآبـــا

•••

والجـواري لغسـل هكطـور نـادى ولتطييبـــــه هنـــــاك بعـــــادا

خشيةً أن يرى الأب ابنًا أبادا

فيثـــور الأوار ضـــمن فـــؤاده وآخيـــل يشـــتد داعـــي اشـــتداده

وبــه يعمـــل الظبـــي لا يبـــالي أنهـــى زفـــس أم أنيـــل العقابـــا

•••

غســـلته وطيبتـــه الجـــواري وببــــردٍ كفَّنَّـــــه وشـــــعار٥٧

وآخيل ألقاه خلف الدار

فـــوق نعـــشٍ وذان باســـتعجال رفعـــاه لظهـــر كبـــرى العجـــال

عنــد هــذا بكــى آخيــل وفطرقــ ـــل دعــا قــال: «لا تســمني عتابــا

•••

لا تغــظ إن بلــج آذيــس ينمــى لــك أنــي أعــدت هكطــور رغمــا

فأبوه أدَّى الفكاك الأتما

وأنـــا منـــه ســـهمك المعتـــادا ســوف أبقــي» وللصــريفة عــادا٥٨

حـلَّ فـي عرشـه البهـي لـدى الحـا ئــط يلقــي ألفــاظ نطــقٍ عــذابا:

•••

«لـك يـا شـيخ قـد أعيـد فتاكـا وهـــو فـــي نعشـــه فنـــل مبتغاكـــا

فإذا الفجر بكرةً وافاكا

فمليًّـــا تـــراه عنـــد المعـــاد إنمـــا الآن حـــان وقـــت الـــزَّاد

فنيوبـا لـم تسـه عـن زادهـا فـي صـرحها مـذ أصـابها مـا أصـابا٥٩

•••

ولـدها اثنـا عشـرٌ بريـع الخيـاة فتيـــةٌ ســـتةٌ وســـتٌّ بنـــات

فتكتْ أرطميس بالغادات

وبقـــوس اللجـــين فيبـــوس أردى وأبـــاد الفتيـــان غيظًـــا وحقـــدا

ذاك إذ فـاخرت نيوبـا لطونـا الـــ ـــحسن يومًـا بضـنوها إعجابـا٦٠

•••

فلهـا اثنـا عشـر وتلـك اثنـان إنمـــا قـــد أفنـــاهم هـــذان

أنهرًا تسعةً بموت الهوان

لبثـــوا لا قبـــر فـــزفس جهـــارا مســـخ النـــاس حـــولهم أحجـــارا

وســـراة الخلـــود عاشـــر يـــومٍ دفنـــوهم والأم تجـــرع صـــابا

•••

شـعرت بـالطَّوى بجهـد البكـاء وهـــي لـــلآن تلتظـــي بشـــقاء٦١

نالها من لدى سراة السماء

بعـد أن أصـبحت بسـيفيل صـخرا بجبـــالٍ شـــمٍّ يـــروِّعن ذعـــرا

حيث مثوى الحور اللواتي على جر ف أخلُّـــوسٍ لهـــا الـــرَّقص طابـــا

•••

وكـــذا نحـــن زادنـــا نأتيـــه وابنـــك القـــرم بـــاكرًا تبكيـــه

عندما للبلاد ترجع فيه

فهنـاك الـدموع مـا شـئت تهمـر» ثـــم شـــاةً بيضـــاء أقبـــل ينحـــر

وذووه مـــن بعـــد أن ســـلخوها أربوهـــا وســـقَّدوا الآرابـــا٦٢

•••

واشـــتووها بلاهـــب النيـــران ثـــم مـــدوا الشـــواء فـــوق الخـــوان

والفتى أفطميذ للضيفان

وزع الخبـــز بالقفـــاع امتثـــالا وآخيـــل اللحـــوم قســـم حـــالا

والأيـادي مـدت إلـى الـزاد حتـى أنفـــوا الـــزاد جملـــةً والشـــرابا

•••

وابـــن دردانـــسٍ آخيـــل تأمَّـــل يعظـم القـد والجمـال المكمَّـل٦٣

ومحيًّا الأرباب إن هو أقبل

وآخيـــل فريـــام أعظـــم قـــدرا لوقـــارٍ ومنطـــقٍ زان فكـــرا

لبشـــا برهـــة وكـــلٌ بكـــلٍّ محـــدق مكبـــر لـــه اســـتعجابا

•••

ثـم فريـام قـال: «آخيـل دعنـا بلذيـــذ الهجـــوع ذا الحـــين نهنـــا

فأنا لم أغمض لعيني جفنا

مـذ قضـى هالكًـا بسـاعدك ابنـي بـل ببثـي مـا زلـت أشـقى بحزنـي

أتلـوَّى علـى الـدمال بصـحن الــ ـــدار أصـلى لظـى الأسـى اللهابـا

•••

إن أذق زادك الـــذي لـــي تهيـــأ أو ترانـــي رشـــفت كـــأس الحميَّـــا

فإلى الآن لم أذق قط شيئًا»

فآخيـل فـي الحـال أصـدر جهـرا للحواشـــي واللســـبيات أمـــرا

أن يعـدوا فـي البـاب فرشًـا ويلقـوا لحـــف البرفيـــر الحســـان قشـــابا

•••

ويمـــدوا فـــوق الفـــراش الزرابـــي وعليهـــا مكثـــف الأثـــواب٦٤

فالجواري جرين للأعتاب

معهـــن المصـــباح للبـــاب رحـــن وفراشـــين فـــي المجـــاز طـــرحن

ولفريـــام قـــال إذ ذاك آخيـــ ـــل يريـــه مخافـــةً وارتيابـــا:

•••

«أيهـا الشـيخ خارجًـا نـم قريـرا خشـــيةً أن تلقـــى بخيمـــي أميـــرا

قادمًا في الدجى هنا مستشيرا

فهنـــا فـــي أبحاثنـــا نســـتفيد ذاك عـــرف جـــرى عليـــه الصـــيد

فـإذا مـا رأوك فـي الليـل أتريـ ـذ درى والأمـور باتـت صـعابا٦٥

•••

ولعـــل المليـــك يرجـــي الفكاكـــا فقـــل الآن لـــي صـــريحًا مناكـــا٦٦

كم نهارًا تبغي لدفن فتاكا

قـل فنفسـي أصـدُّ عـن أهـوائي وأرد الســـرى عـــن الإبـــلاء»

فعلـــى ذا فريـــام وهـــو يحـــاكي بوقـــارٍ ربًّـــا مهيبًـــا أجابـــا:

•••

«إن تـبح أن حفلـة الـدفن تجـرى تلـــك آخيـــل منّـــةٌ منـــك تتـــرى

قد حصرنا تدري بإليون حصرا

والمـــدى شاســـعٌ لقطـــع الوفـــود بالرَّواســـي والرعـــب هـــد جنـــودي

ولنـــا للبكـــاء تســـعة أيَّـــا مٍ بهـــا نـــذرف الـــدموع انســـكابا

•••

ثـــم يـــومٌ للـــدفن والإيـــلام ثـــم يـــومٌ للـــرَّمس والإتمـــام

وإذا ما اقتضت دواعي الخصام

نتهيـــا للحـــرب إن نـــأت فجـــرا بعـــد هـــذي الأيـــام ثـــاني عشـــرا»

قـال: «مـا شـئت فليكن وبهـذا الـ ـحين نلـوي عنـد الحـروب الحرابـا»

•••

ثــمَّ يمنــى فريــام أمســك عهــدا لوفـــاقٍ جـــرى وأبـــرم عقـــدا٦٧

خشيةً أن يسومه الرعب جهدا

عنــد هــذا فريــام والفــيج قامــا وبظــــل الـــرواق بـــالأمن نامـــا

وآخيــــل فـــي عزلـــةٍ بحمـــاه وبريســـا طيـــب الهجـــوع اســـتطابا

•••

وجميـــع الأربـــاب والنـــاس طـــرًّا هجعـــوا والظـــلام أســـبل ســـترا

إنما ظل هرمسٌ لا يكرى

فـــاكرًا فـــي فريـــام كيـــف يبـــين عـــن حمـــى القـــوم لا تـــراه العيـــون

فعلـــى رأســـه اســـتقرَّ ونـــادا هُ: «أيـا شـيخ هـل أمنـت الطلابـا

•••

نمــت بــين العــدى بــأمن آخيــل ولقـــد جـــدت بالعطـــاء الجزيـــل

لافتكاك ابنك الكريم النبيل

إن تلاقـــي هنـــا أغاممنونـــا والســـرى كـــدت ولـــدك الباقينـــا

عنـــك يعطونـــه ثلاثـــة أضـــعا ف الـذي قـد أديـت مـالًا لبابـا»٦٨

•••

قــام فريــام يــنهض الفــيج رعبــا ولشـــد العجـــال هـــرمس هبَّـــا

وبها جدَّ ينهب السهل نهبا

لا يـراهم مـن ذلـك الجـيش رائـي فـــأتوا آمنـــين مجـــرى المـــاء

فـوق جـرفٍ فيـه تـدفَّق زنـث الـ ـــمنتمي نشـــأةً لـــزفس انتســـابا

•••

لأعـالي الأولمـب هـرمس راحـا وبـــدا برقـــع الجســـاد صـــباحا

فهنا الشيخان استباحا النواحا

ثـــم حثَّـــا الجيـــاد نحـــو الـــبلاد وبغـــالًا قلّـــت جـــديل الجـــلاد

جريـــا لا يراهمـــا بعـــد مـــرء أو فتـــاةٌ فـــي الأهـــل حيـــث اجتابـــا

•••

•••

بهمـــا مـــا درى بـــذاك المجـــال غيـــر كســـندرا فتـــاة الـــدلال

من تجلّت كعفرذيت الجمال

أشـرفت مـن فرغـام فـوق الوهـاد فأباهـــا رأت وذاك المنـــادي

وأخاهـــا رأت علـــى نعشـــه فيـــ ـــه اذلعبَّـــت بغالـــهُ إِذْلِعْبَابـــا ٦٩

•••

ولولـــت والـــدموع مـــلء المـــآقي ثـــم جـــدَّت تصـــيح فـــي الأســـواق:

«يا رفيقات يا خيار الرفاق

إن تكونوا حييتم هكطورا وهو حيٌّ بعوده منصورا

وجـــذلتم بملتقـــاه جميعًـــا فانهضـــوا رحبـــوا بـــه ترحابـــا»

•••

•••

أكبـروا الخطـب والأسـى والوبـالا وإلـــى البـــاب بـــادروا اســـتقبالا

كلهم كلهم نسا ورجالا

وأمـــام الجميـــع زوجٌ حليلـــه أعظمـــت خطبـــه وأم جليلـــه

بعويـــلٍ وقطـــع شـــعرٍ ونـــدبٍ جاءتـــا الـــنعش تلمســـان النطابـــا ٧٠

•••

وحواليهمـــا الجمـــوع تبـــوح بأســـاها وبالنحيـــب تصـــيح

أوشكوا كلَّ يومهم أن ينوحوا

بين تلك الأبواب من حول نعشه إنما الشيخ صاح من فوق عرشه:

«افتحوا لي السبيل للصَّرح من ثـ ـمَّ اسكبوا الدمع فوقه تسكابا»

•••

فله وسعوا الطريق فجدًّا وأتى القصر خلفه القوم حشدا

وضعوا الميت فوق نعشٍ أعدًّا

وأقاموا حوليه نَدَّابينا بشجي الأنغام توري الشجونا ٧١

ينشدون الرثاء بين نساء وفق ذاك النشيد نُحْنَ كِئابا

•••

وانبرت أوَّلًا فعمَّ العويل أنذروماخ والدموع تسيل

فعلى رأسه ترامت تقول:

«مُتَّ بعلاه بالشباب النضير وأنا أيِّمٌ بهذي القصور

وهنا الطفل طفلنا ونتاج الـ ـحزن لن يدركنَّ آه الشبابا

•••

•••

قبل ذاك الزَّمان خلت الديارا أصبحت قفرةً وباتت دمارا

إن تمت لا سواك يحمي الذمارا

وجميع البنين والأطفال والعذارى والمحصنات الخوالي

سوف يمسين في الخلايا سبايا وأنا بينهنَّ وا أوصابا

•••

•••

وكذا أنت يا بنيَّ ستمسي حيث أمسي تعنو بذلٍّ وبؤسِ

لفتًى ظالمِ عتا ذي بأس

أو عدوٍّ سيم الوبال الثقيلا يتوخَّى لك الحمام الوبيلا

بك يلقي من فوق برج فيشفي غلة كادت النفوس الغضابا

•••

بابن هكطور يشتفي في انتقام لأب أو أخ رمى أو غلام

فهمامًا قد كان أيَّ همام

ولكم باسلٍ بجيش الأعادي كدم الأرض دونه في الجهاد[٧٢]

فلهذا بكته طرواد طرًّا وعليه الفؤاد بالبث ذابا

•••

جلَّ عن واجب التأسّي أساكا ولقد هدَّ والديك رداكا

إنما لي فوق الجميع شجاكا[٧٣]

آه لو فهت لي ببعض الكلام تبسط الكفَّ لي أوان الحمام

لتذكرته نهاري وليلي ودموعي تنصب عمري انصبابا»

•••

ثم غصَّت بفائض الزفرات والعذارى يجُدن بالعبرات

ثم صاحت إيقاب: «وا حسراتي

وا أعزَّ البنين وا هكطورا كم رعتك الأرباب حيًّا قريرا

وهي من بعد فاجعات المنايا بك تعني تجلة وثوابا

•••

بأقاصي البحار في إمبروس أو بساموس أو ربى لمنوس

باع من فتيتي آخيل البئوس

كل من في يديه أضحى أسيرا إنما أنت مذ رماك مغيرا

بك ما زال طائفًا حول رمس لخليلٍ أنفذت فيه الذبابا[٧٤]

•••

كـل هـذا لـم يحـي ذاك الخلـيلا وأمـــــامي أراك رطبًـــــا جمـــــيلا

مثلما لو ذا الحين رحت قتيلا

مثـــل مـــن فيـــبسٌ أبـــاد بســـهم دقَّ عـــن صـــولج الحنيـــة يرمـــي»٧٥

وعـــلا النـــوح ثـــم هيلانـــةٌ ثـــا لثـــةً ولولـــت تـــزيح النقابـــا:

•••

يـا أحـمَّ الأصـهار إلـف الـوداد أعلـــق الأهـــل كلهـــم بفـــؤادي

لم أر مذ عشرين عامًا بلادي

منـــذ فـــاريس مجتبـــى الخالـــدينا ســـاقني قادمًـــا إلـــى إليونـــا

ليتنـــي قبـــل أن أفـــارق شـــعبي وبنـــي أســـرتي انشـــعبت انشـــعابا٧٦

•••

شـأنك الرفـق بـي لقـد كـان دومـا قـــطَّ مـــا ســـمتني المهانـــة يومـــا

وإذا كادني سبابًا ولوما

أيُّ صـــهرٍ أو زوجـــه أو شـــقيقه أو حمـــاتي إيقـــاب تلـــك الشـــفيقه

(غيـر فريـام مـن بـدا كـأب لـي) كنـــت رفقًـــا عنـــي تـــزيح الســـبابا

•••

سـوف أبكيـك سـوف أبكـي شـقائي لـــيس لـــي راحـــمٌ وإلـــف ولاء

قد قلاني الجميع فوق بلائي»٧٧

وبكـت والجمـوع ناحـت جميعـا ثـــم فريـــام صـــاح فـــيهم ســـريعا:

«يـا سـراة الطـرواد قومـوا فسـيروا واجمعـــوا وافـــر الوقـــود احتطابـــا

•••

لا تخـــافوا مـــن الأخـــاءة غـــدرا فآخيـــل لـــي قـــال أن لـــن يكـــرَّا

قبل فجرٍ يلوح ثاني عشرا»

أســـرعوا جملـــةً لشـــد البغـــال وقـــوي الثيـــران حـــول العجـــال

ثـــم ســـاروا بهـــنَّ فـــورًا وجـــدُّوا وإلـــى الســـور أقبلـــوا أســـرابا

•••

أنهـــرًا تســـعةً بجمـــع الضـــرام لبثـــوا ثـــمَّ عاشـــر الأيـــام

رفعوا الميت والعيون هوام

فـــرق ذاك الوقـــود ثـــم النـــارا أضـــرموها بـــه تـــؤجُّ أوارا

ولهـــم حـــين لاح ورد بنـــان الـــ ـــفجر مـــن حولـــه أقـــاموا عصـــابا

•••

حيـــث هبـــت لواهـــب النيـــران أخمـــدوها بصـــرف خمـــر الـــدنان

ولفيف الإخوان والخلان

جمعـوا كـلَّ أعظـم الميـت جمعـا بكئيـــب الفـــؤاد يـــذرون دمعـــا

أودعوهـــا مـــن ثـــمَّ حـــقَّ لجـــينٍ وكســـــوة برفيـــــرهم جلبابـــــا

•••

أنزلوهـــا فـــي حفـــرةٍ حفروهـــا وبجلمـــــود صـــــخرهم طمروهـــــا

ثم شادوا الضريح إذ دفنوها

وحواليـــــه أوقفـــــوا الأرصـــــادا مـــن ســـراة الســـرى قرومًـــا شـــدادا

خشـــيةً مـــن عـــدوهم أن يفـــاجي بغتـــــةً حـــــين غفلـــــةٍ واحتســـــابا

•••

وإذ القبـــــر أكملـــــوا وأتمـــــوا صـــــرح ذاك المليـــك فريـــام أمـــوا

حيث حوليه للعزاء انضموا

ولهـــــم هيَّـــــأ المليـــــك طعامـــــا كـــــان فـــــي مـــــأتم الفقيـــــد ختامـــــا

تتمة حوادث الإلياذة

يتشوف القارئ وقد أتم تلاوة الإلياذة إلى الإلمام بمآل الأعيان من أولئك الرجال، وهاتيك النسوة، وما كان من عقبى الحرب المضطرمة بين الإغريق والطرواد، مما هو مرويٌّ في الأثر.

بنيت الإلياذة على غيظ آخيل، فأخذ الشاعر بجميع أطراف ذلك الغيظ، حتى إذا قضى وطره استتم خبره ختم الكلام.

وإننا موردون الآن بأوجز عبارة ما كان من خاتمة الحرب ومصير كبار القوم.

لما انقضت الموادعة استأنف الفريقان القتال؛ وإذ أعيت الإغريق الحيلة في فتح إليون لجأوا إلى خدعة هيأها لهم داهيتهم أوذيس، فصنعوا حصانًا كبيرًا من خشب على شكل كبش مما كان يستعمل في الحروب، ونصبوه لدى أبواب البلد، وفيه الكماة المدججون بالسلاح، ومن جملتهم صاحب الخدعة وذيوميذ ونيفطوليم ابن آخيل، وكان قد لحق بقومه في أخريات أيام الحرب، وهو بعد صبي، ثم تظاهروا بالسأم والملل والتأهب للانصراف فانخدع الطرواد وخرجوا فأدخلوا الحصان، فلما كان الليل خرج منه رجال كمينه وقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب،

فدخل الإغريق البلد ودمروه واستباحوه نهبًا وقتلًا وسبيًا، ولم ينجُ إلا نفرٌ قليل ممن لاذ بالهزيمة.

أما آخيل فقتل قبل فتح البلد بسهم رماه به فاريس فأصابه بعقبه، فتنازع أوذيس وإياس الكبير على سلاحه ففاز به أوذيس فغيظ أياس وانتحر كيدًا.

وأما سائر الزعماء فتفرقوا وعادوا كلٌّ إلى بلاده ولكنهم تجرعوا مضض الأهوال وهلك معظمهم.

فأغاممنون غدرت به زوجته ومعشوقها اغَستوس، وكان قد استعملهُ أغاممنون على بلاده أثناء غيابه.

وأخوه منيلاوس رجع بامرأته هيلانة، فوصل بلاده بعد عناء ثمانية أعوام، ولم يقم طويلًا حتى مات.

وذيوميذ كاد يصيبه من غدر زوجته ما أصاب أغاممنون لو لم يلجأ على الفرار، فشخص إلى إيطاليا بشرذمة من أتباعه وبنى فيها عدة مدائن.

وإياس الصغير عصفت الريح بسفائنه، وهو راجع بها فأغرقتها، فلاذ إلى صخر وقف عليه، ثم ما لبث الصخر أن انشق تحت قدميه فمات غرقًا.

وأوذيس لعبت بسفنه العواصف فهام عشرة أعوام على وجه المياه في حديث طويل بنى عليه هوميروس منظومته «الأوذيسية»، وكانت امرأته بديعة الجمال طاهرة الذيل فطمع بها عظماء قومها، فحاولت وطاولت إلى أن عاد زوجها فشكت إليه أمرها فقتلهم جميعًا، ومات أوذيس قتيلًا بيد ابنه تليغون قتله في معركة وهو لا يعلم أنه أبوه.

ونسطور عاد إلى بلاده سالمًا فقضى بقية أيامه بأمن وسلام.

أما فريام ملك طروادة فذبحه نيفطوليم بن آخيل أمام الهيكل بعد فتح إليون، وابنه فاريس مات قتيلًا قبل الفتح.

وزوجه إيقاب كانت في سهم أوذيس عند اقتسام السبايا فاسترقها.

وابنته كسندرا كانت من سبايا أغاممنون.

وكنته أنذروماخ امرأة هكطور استأثر بها ابن آخيل، وعاد بها إلى بلاده وتزوجها ثم طلقها، وأزوجها هيلينوس أحد أبناء فريام، وأما ابنها استياناس فألقى به ابن آخيل عند فتح البلد من شاهق، كما كانت تقول متشائمة وهي تندب هكطور (ن ٢٤).

وهيلانة بقيت مع منيلاوس في إسبارطة إلى أن توفي فاضطرت إلى مغادرة البلاد، فذهبت إلى رودس فشنقتها إحدى أرامل الأبطال الذين هلكوا بحصار إليون.

وأوفر رجال القومين حظًّا وأحسنهم منقلبًا كان أنياس بطل منظومة فرجيليوس، فإنه تمكن من الفرار وأسس دولة كبيرة كما تقدم (ن ٢٠).

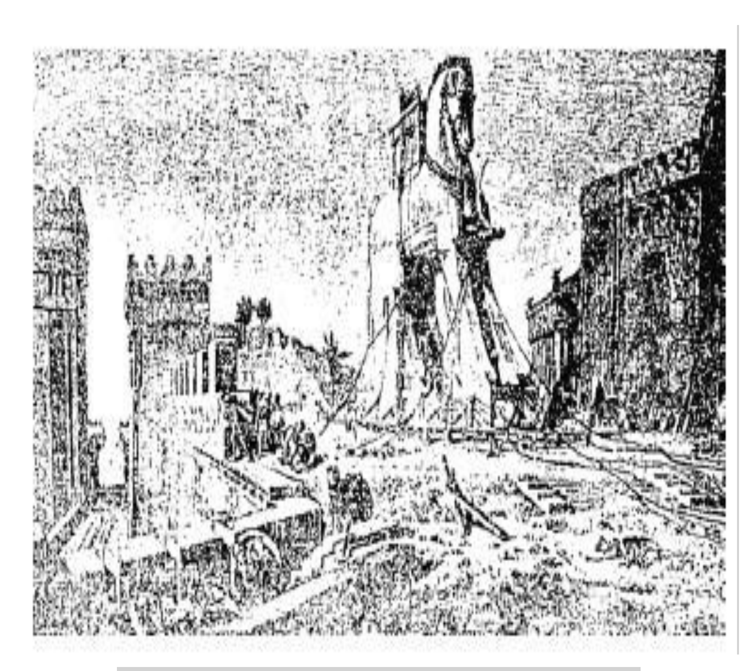
هوامش

(١) يتضمن القسم الأول من هذا النشيد وصف حالة آخيل بعد أداء ما عليه من واجب الأخاء وقضاء حق الوفاء بمأتم فطرقل وانثناءه إلى جثة قاتله هكطور يسومها الذل والهوان، وقيام الآلهة للبحث في هذا الأمر. وقد جعلنا قوافيه مختلفة باختلاف السياق والموضوع.

(٢) مضى على مقتل هكطور اثنا عشر يومًا وهي مدة تنحل فيها أعضاء الجثث وتفسد، ولم يكن هوميروس ليجهل أنه يعترض عليه بمثل هذا فاستدرك بقوله:

أن أفلون حفظه «ومد عليه عسجدي مجنه فلا مَسَّه ضرٌّ ولا مزق الجلد»

وهو قول إذا أخذ على ظاهره يستفاد منه أن فيبوس وهو ربٌّ قدير حفظ الجثة من الفساد، وإذا لجأنا إلى التأويل قلنا: إن فيبوس (أو أفلون) ممثل الشمس ومن جملة مزاياه أنه ولي الطب والأطباء، وآخيل مريد خيرون رأس الأطباء، فأما أن يكون آخيل عالج الجثة بدواء يقيها الفساد ريثما يروي غلته بزيادتها هوانًا وتحقيرًا، وإما أن يكون بعض عبدة أفلون فعل ذلك، وعلى كل حال بطلت الغرابة ببقاء الجثة سالمة طول هذه المدة، وهي غاية الشاعر.



رسم وهمي للحصان الخشبي الذي اصطنعه أوذيس.

(٣) هرمس رسول الآلهة.

(٤) أراد بقوله: «الربة التي أباحت له بئس المنى» الزهرة وإن لم يسمها، وفي هذه الأبيات الثلاثة إشارة إلى خرافة قديمة. قالوا: إنه لما حملت إيقاب بفاريس رأت في الحلم أن في أحشائها جذوة نار تلتهب فتضطرم بها أسيا وأروبا، فقصت رؤياها على زوجها فريام فلما ولد الولد هم فريام بإهلاكه، فوارته إيقاب عنه وائتمنت عليه رعاةً في جبل إيذا، فشب بينهم يرى الأنعام، وفي تلك الأثناء حدث الخلاف المشهور في

أساطيرهم بين أثينا وهيرا والزهرة، فتقاضين إلى فاريس ورغبن إليه أن يحكم في جمالهنَّ فاستمالته الزهرة ربة الهيام فقضى لها.

(٥) يجمع معنى هذين البيتين قول الشاعر العربي:

بليت وفقدان الحبيب بليةٌ وكم من كريم يبتلى ثم يصبرُ

(٦) تقول هيرا: إن هكطور ليس كفؤا لآخيل، فلا يجب أن نحفل به وننزله منزلة آخيل؛ لأن ذلك إنسيٌّ ابن إنسية، وهذا وإن كان إنسيًّا فأمه من بنات الخلود، ثم أيدت قولها بذكر الحفلة التي أقيمت لزفاف ثيتيس إلى فيلا، ولا بأس من إيراد هذه القصة: كانت ثيتيس أجمل بنات الماء فهام بها الأرباب، وفي مقدمتهم زفس وأخواه أفلون وفوسيذ، وكادوا يختصمون عليها لو لم يروا في علم الغيب أنها ستلد أبنًا يفوق أباه سطوةً وجاهًا، فأحجم الأرباب عنها وقضوا بزفها إلى إنسي، فتولت هيرا الأمر واختارت لها فيلا بعلًا، فأبت ثيتيس بادئ بدءٍ أن تكون عرسه، ثم اضطرت إلى القبول في حديث طويل، وأقيمت للزفاف حفلة شائقة حضرها جميع الأرباب إلَّا «الفتنة»؛ لأن زفس كان قد أجلاها من السماء وأقصاها عن محافلهم، فنقمت عليهم وأضمرت السوء، ثم انتهزت فرصة غفلة منهم وطرحت بينهم تفاحة ذهبية نقش عليها: «هذه لأجمل الربات» فادعتها هيرا وأثينا والزهرة، وتخاصمن إلى فاريس فقضى للزهرة كما تقدم.

(٧) القربات جمع قربة، ما يتقرَّب به إلى المعبود من برٍّ وطاعة.

(٨) أي: إن إيريس غاصت في اليم كما تغوص الرصاصة المعلقة بالشص إذا طرح الشص في البحر لصيد السمك، وقرن الثور طافٍ على وجه الماء.

كان صيَّادوهم كصيادي هذا الزمان يربطون رصاصة فوق الشص لتغوص به في الماء، ولكنهم كانوا يتخذون قطعة من قرن أو نحوه بدلًا من قطعة الفلين، وما أشبهها مما يعلق الآن على مسافة من الشص ليبقى طافيًا على وجه الماء، ويستدل باضطرابه على نشوب الشص بالسمكة.

(٩) الغيابة: القعر.

(١٠) القضم: الأكل والكسر بأطراف الأسنان، وقضم القلب كأبة وحزنًا استعارة غريبة، ولكنها ذات وقع، ولم أر لها مثلًا في العربية منع ورود قضم الجمر وعض الأصابع غيظًا أو حزنًا، كقول أبي الطيب:

تقضم الجمر والحديد الأعادي ... دونه قضم سكر الأهواز

أو كقول الوأواء الدمشقي:

واسترجعت سألت عني فقيل لها ... ما فيه من رمق دقت يدًا بيد

وأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسقت ... وردًا وعضت على العناب بالبرد

(١١) زعم البعض أن هذه العبارة دخيلة في الإلياذة؛ لأن هوميروس أحرص الشعراء على أدب الأخلاق فلم يكن من شأنه أن ينطق والدة آخيل بهذه العبارة الدسمة، ولكن من تأمل في مجريات ذلك

العصر عصر الزهرة، لا يعجب لورود عبارة كهذه، بل يعجب لإسباله الستار على الكثير مما هو أعظم وأدسم، ويعلم أن هوميروس كان أرقى أهل زمانه عفَّة وأدبًا، فثيتيس قد قالت قولًا مرت عليه وانتقلت منه مسرعة إلى بحث آخر، وليس الأمر كذلك عند رواة الأقدمين من الكلدان إلى المصريين إلى العبرانيين إلى اليونان إلى الرومان إلى العرب، فهوميروس بهذا المعنى أسبلهم سترًا وأحرصهم.

(١٢) هذا جواب مقتضب من آخيل يذعن فيه حالًا لإشارة أمه، إذعانًا لمطلب زفس فلا يطاول ولا يحاول بل يبادر إلى الرضوخ بلا ممانعة، فكأن نفسه طابت وروى معظم غلته بتدنيس جثة هكطور، والآمر زفس ولا مرد لأمره فأجاب صاغرًا لعلمه أن المكابرة لا تجدي، وقد أحسن الشاعر بجعل هذا الحكم صادرًا من زفس وإلا فلم يكن ثمة سبيل لحمل آخيل على إخماد سورة غضبه وإجابة فريام إلى طلبه.

(١٣) ادلفي: أسرعي.

(١٤) قاتل أرغوص هو هرمس سفير الآلهة كما قدمنا، كان علاوة على اختصاصه بالسفارة رب المنطق والفصاحة، وكانوا يمثلونه تارةً بصورة رجل تنبعث من فيه سلاسل تعلق بأذان السامعين، وطورًا بصورة فتى جميل الطلعة على رأسه قبعة وله جناحان على كاهليه، وجناحان بعقبيه، وفي يده صولجان الفيوج يلتف عليه أفعوانان — رأينا الشاعر في كل ما مر يرمي إلى إكبار آخيل وإعظام شأن اليونان، وهنا قد كادت

الإلياذة تبلغ حد الختام، فأراد أن يبقى الأمران في ذهن السامع فاستنبط هذه القصة فبلغ بها مراميه، أما آخيل فلا أسمى لإكباره من جمع الآلهة للبحث في أمره واشتغال سكان السماء والأرض في استمالته وتسكين غيظه، وأما الإغريق فقد أبدى الشاعر ضمنًا ما كانوا عليه من اليقظة والانتظام حتى لم يكن مخلوق دون الآلهة يصلح أن يخترق صفوفهم، ويبلغ آخيل سالمًا وإن كانوا في زمن موادعة ومأتم عظيم.



هرمس (عطارد) سفير الآلهة ورب المنطق والفصاحة.

(١٥) كانوا يقولون: إن أسبابًا ثلاثة تحمل الإنسان على إتيان الخطيئة، وهي الجهل والحماقة والكفر، أو قلة الورع، ولم يكن آخيل على شيءٍ من ذلك فلا بد إذن من أن يرضخ لأمر زفس.

(١٦) أي: إنه كان متمرغًا بالدمال ولابسًا مسحًا — راجع ما قلنا بهذا الصدد (ن ٢٢).

(١٧) البهم: الأبطال.

(١٨) أي: أتحفه بالهدايا الغر فكاكًا لهكطور.

(١٩) أي: لا يذهب معك غير فيج، أي: رسول مسن يعينك على سوق بغال المركبة

(٢٠) تقدم (ن ٢٠) ذكر غزل العمر، وغزل الهوان هنا من ذاك القبيل.

(٢١) تقدم لنا ذكر شواهد بهذا المعنى (ن ٢٢)، تمنت أم هكطور أن تأكل كبد آخيل، وقد فعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان تلك الفعلة بعد إيقاب بنحو ألفي عام، وكان ذلك في غزوة أحد التي تقدم ذكرها؛ إذ بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب، وتناولت كبده فلاكتها ومضغتها فلم تقدر أن تسيغها فلفظتها، ومن قبيل تحرُّق إيقاب تحدم سلافة بنت سعد بن سهيل؛ إذ نذرت حين قتل عاصم بن ثابت

ابنها يوم أحد المذكور لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر. قال عنترة:

وإنـي قـد شـربت دم الأعـادي   بأقحـــاف الـــرءوس ومـــا رويـــتُ

(٢٢) رسم الشاعر بحديث فريام وإيقاب صورة الزوجين أضعفهما كرور الأعوام، وانتابتهما الرزايا العظام، فيتشاكيان ويتشاوران، فالرجل قانطٌ من حياته لا يرى إلا أن يموت ببقية من سالف مجده قرير العين ببلوغ أمنية يتمناها، والمرأة وقد عدمت العون والنصير ترى حياتها بحياة ذلك الزوج، فبرزت إيقاب هنا بصورة المرأة الظنون والأم الحنون والزوجة الشفيقة على زوجها المشفقة على نفسها، علمت أنه متكل على زفس بذهابه إلى العدو، فلم تعبأ بهذا الاتكال، بل ربما توهمت أنها حيلة اختلقها فريام ليخفف عنها، فشكت وبكت ولامت وقامت تحول بينه وبين أمنيته، وأعظمت عليه الأمر حتى إذا أتت على ذكر آخيل قاتل ابنها ثار بها ثائر الغيظ، فنددت وعددت، فإذا به كله قبائح، ولما أتت على وصف ابنها أسبل الحنو ستره على بصرها فلم تر فيه إلا الجلال والكمال، وأنساها الحب الوالدي فراره من وجه آخيل، فوصفته وصف الخنساء بقولها:

يا صخر أنت فتى مجدٍ ومكرمةٍ   تغشى الطعان إذا ما أحجم البطلُ

كالليث يحمي عرينًا دون أشبله   ثبت الجنان إذا ما زعزع الأسل

خطـاب أنديـة شـهاد أنجيـة   لا واهـن حـين تلقـاه ولا وهـلُ

ضخم الدسيعة سهل حين تطرقه		لا فاحش يرم نكس ولا خطلُ

(٢٣) علمت أن فريام كان ملكًا رفيع الشأن عظيم السلطان كثير الولد قوي الجند، أخنى عليه الدهر فزعزع أركان مملكته، وضعضع أحوال دولته، وعاث العدو ببلاده، وبطش بأولاده، وأراه هكطور وهو مطمح أبصاره وحامي ذماره قتيلًا يسام شر الهوان، فلا بدع بعد ذلك أن يرى النور ظلامًا ويفقد الرشد وتنهال شتائمه على القريب والبعيد، كأن الأرض في عينه بقعة سوداء لا تحمل إليه إلا الأعداء وهذا منتهى الجزع.

(٢٤) عربنا كلمتي (**Διον αγαυον**) بذيوس الأبهم أو الباسل على ما جرى عليه الأكثرون، ولكن بعض النقلة جعلوا العلم الكلمة الثانية، فقالوا: أغابون الإلهي أو العظيم. وهكذا قال مونتي (**Agavo di divina sembianza**).

(٢٥) القرن: السيد، والقِرن المقارن الكفوء.

(٢٦) الرنام: المترنم.

(٢٧) يصف الشاعر عنا أجزاء المركبة وكيفية إعدادها، فالمراد بالزنبيل صندوق من القصب وما أشبهه يلقى على المركبة، إما مجلسًا للركاب، وإما محملًا للمتاع، والنير كنير الحرَّاثة وفي أعلاه حلق تمر به الأعنة منفصلة إلى فكي الحيوانين، والسير الذي يناط بالنير كان يبلغ

طوله تسعة أذرع؛ لأنه كان يلف ثلاث مرار حول الجسر أو الجذع (العريش)، وهكذا فكانت الحيوانات تجر المركبة بالجذع وليس بالسيور.

(٢٨) العنة: الحظيرة.

(٢٩) لا بد من التنبيه هنا إلى أن فريام ذهب بمركبتين إحداهما تحمل الرياش والمتاع المعد لفكاك هكطور وتجرها البغال، والأخرى لركبوه وتجرها الجياد.

(٣٠) تقدم لنا ذكر السانح والبارح (ن ١٢).

(٣١) الرتاج: الباب الكبير.

(٣٢) المحال: الدواليب أو العجل، كانت مركبات الحمل على أربعة دواليب، ومركبات الركوب والحرب على دولابين.

(٣٣) العنبر: هو تلك المادة السماوية التي تقدم الكلام عليها (ن ١٤). والظاهر أنه يكاد يستعمل لكل غرض من أغراض الآلهة، فهو طعامهم كما ذكر في غير موضع، وطعام خيلهم كما مر في النشيد الخامس، وطيبهم الذي يتطيبون به؛ إذ تطيبت به هيرا (ن ١٤)، ودواؤهم؛ إذ استعملته ثيتيس (ن ١٩)، مضادًّا للفساد فأفرغته في منخري فطرقل وهو قتيل، وهو هنا داخل في ملبسهم، ولا يسهل علينا

تأويل كل تلك المزاعم على اختلافها إلا إذا رجعنا إلى معنى اللفظة في الأصل وعرفنا أنها تفيد الخلود.

(٣٤) خلج: حرك، أشباه هذا الصولجان كثيرة في روايات القُصاص، حتى وبعض المؤرخين وليس هذا الصولجان الذي يتصف باليقظة والوسن بأعجب من خاتم المارد الذي يعمل كل نوع من المعجزات، أو القضيب الذي يحرك بساط الريح ويطيره، وهلمَّ جرًّا.

(٣٥) البلج: الطلق المحيا.

(٣٦) لا يزال شبان الترك وغيرهم من أبناء الشرق إذا خاطبوا شيخًا قالوا له: يا أبتاه، كما قال هرمس. فيقال لهم: يا بنيَّ، كما أجاب فريام فيما يلي.

(٣٧) يمتثل: يتصور.

(٣٨) أمتثل: أُبَيِّن.

(٣٩) امتشل السيف: استله.

(٤٠) لا غرو أن يشفق فريام من طرح جثة ابنه هكطور للغضف، أي: الكلاب لما كان يعلم من تحدم آخيل غيظًا عليه. في تواريخ العرب أن سليمان بن علي عم السفاح العباسي قتل بالبصرة جماعة من بني أمية، وأمر بهم فجروا بأرجلهم وألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب.

(٤١) يجتذل: يطرب.

(٤٢) كأني بهوميروس وهو ينظم هذين البيتين، قد ألقى بروح النبوءة أمثولة على الجم الغفير من عمال حكومات هذا الزمان ينبئهم بها، كيف كانت أداب الأمور في زمانه، وعظة يقيدهم بها إن كل صلة ينفح بها التابع، فتمد إليها يده خفية عن المتبوع تعد رشوة وسرقة، وكل رشوة تؤخذ إنما تعد اختلاسًا من بيت المال؛ لأنها توجب نقصًا في دخله؛ إذ لو قبل هرمس هدية فريام وأخذ منه الكأس لنقصت من التحف المهداة إلى آخيل.

(٤٣) أتلج: ولج.

(٤٤) أي: ألفى الأرصاد متأهبة لتناول الطعام، فصب الهجوع على أجفانها هذا التعبير الأخير من التعبيرات الهوميرية المألوفة.

(٤٥) الأرتاج: الأبواب، والأزلاج: الأقفال، وزلج الباب: أغلقه بالأزلاج. والمراد بالحصار: السور الذي بناه الإغريق وراء السفن.

(٤٦) زلج: خف وأسرع.

(٤٧) الأغمية: السقوف. والمزلاج: المغلاق، ورتج: أقفل. يصف لنا الشاعر خيمة آخيل أو صريفته؛ إذ لم تكن مصنوعة من القماش بل كانت مبنية من سوق شجر السرو ومسقوفة بالبردي، (وفي الأصل القصب ذي الزغب) المقطوع من تلك المروج تحيط بها دار متسعة قائمة على أعمدة. ويستفاد من هذا الوصف، ومما تقدمه في

النشيد التاسع أنها كانت مقسمة عدة أقسام ففيها الحرم، وفيها المضيف، وفيها غرف أخرى، فلما أوفد أوذيس وجماعته لاسترضاء آخيل وبات فينكس عنده أفرزت له غرفة وبات فطرقل وحظيته بغرفة، وآخيل بغرفة أخرى هذا خلا منازل السبايا، والمضيف الأكبر، وهي أشبه شيءٍ بصرائف شيوخ العرب النازلين في البقاع الزراعية كبر العراق لأيامنا هذه إلا أن الغالب في هذه الصرائف أن يكون المضيف فيها منزلًا متسعًا منفصلًا عن الحرم.

ولا شك أن أمثال هذه الصرائف لم يكن يقام إلا للزعماء في أزمنة الحصار الطوال.

(٤٨) أي: ناشده باسم أبيه وأمه وابنه.

(٤٩) قضى هرمس رسالته وأبلغ فريام سلفًا إلى منزل آخيل، ثم توارى وقفل عنه راجعًا.

يرى حفظة التوراة لأول وهلة شبهًا غريبًا بين رسالة هرمس ورسالة الملاك الذي رافق طوبيا، وقد أرسله أبوه إلى غلبيلوس بمدينة راجيس بأرض الماديين، وهو يجهل الطريق: «فبينما خرج طوبيا إذا بفتى بهي قد وقف مشمرًا كأنه متأهب للمسير فسلم عليه، وهو يجهل أنه ملاك الله، وقال: من أين أقبلت يا فتى الخير؟ قال: أنا من بني إسرائيل. فقال له طوبيا: وهل تعرف الطريق الآخذة إلى بلاد الماديين؟ قال: أعرفها، وقد سلكت جميع طرقها مرارًا كثيرة، وكنت نازلًا باخينا غابيلوس المقيم

براجيس مدينة الماديين». فدخل طوبيا بالملاك على أبيه فسأله أن يذهب بابنه دليلًا إلى راجيس على أن يؤدي له أجرته: «فقال له الملاك: آخذه وأعود به إليك؟ فقال له: أخبرني من أي عشيرة؟ ومن أي سبط أنت؟ فقال له رافائيل الملاك: أفي نسب الأجير حاجتك؟ أم في الأجير الذي يذهب مع ابنك؟ ولكن لكي لا أقلق بالك أنا عزريا بن حننيا العظيم». فرافق طوبيا وجرت المعجزات على يده ورجع به سالمًا إلى والديه، ولما سئل أن يأخذ أجرته قال: «إني رافائيل الملاك ...، والآن قد حان لي أن أرجع إلى من أرسلني ...، وبعد أن قال هذا ارتفع عن أبصارهم، فلم يعودوا يعاينونه بعد ذلك». (سفر طوبيا، فصل: ٥ – ١٢). وأمثال ظهور الملائكة للبشر كثيرة في التوراة والإنجيل والقرآن، كقوله: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. ولهذا قال بعض الشراح: إن هوميروس أخذ هذه الرواية عن التوراة؛ إذ كان عالمًا بما تلقنه من اليهود أثناء إقامته بمصر أن الباري عز وجل قد ينفذ ملائكته رسلًا إلى البشر.

ولا أخال هذا الزعم صادقًا في كلياته، وإن أمكن صدقه في هذه الرواية؛ لأن الاعتقاد بالصلة بين الخالق والمخلوق عامٌّ لجميع الأديان منزلة كانت أو غير منزلة، فإنشاد هوميروس لا يكاد يخلو منها نشيد من مخاطبة أو رسالة بين الآلهة والبشر، وجميع الآثار الباقية من كتاب اليونان الذين أحاطوا علمًا بمعتقدات اليهود أو لم يحيطوا ملأى بمثل

هذه الروايات، فضلًا عن روايات من هم أقدم منهم من المصريين والكلدان والأشوريين.

(٥٠) أي: إن آخيل وأصحابه دهشوا لرؤية فريام قادمًا عليهم، وليس بحسبانهم أنه قادم كما يدهش القوم في دار رجل ذي عزوة وشأن إذا دخل عليهم فجأة رجل جانٍ يطلب اللياذ، فهم على ما ترى كأبناء البادية؛ إذ كانوا ولا يزالون يحمون الصريخ وينزلونه منزلة الجار والنزيل، وإن عظمت جنايته وضعفت عزوته. قال الكميت:

وجيش نصير جاءنا عن جناية ... فكان علينا واجبًا أن يزورا

أي: أن يكرم ويؤخذ بيده، ومثله قول سليم بن محرز:

ونمنع سرب الجار إن رامه العدى ... جهارًا بخطي تهز سلاهبه

وقول عنترة:

وإني لأحمي الجار في كل زلة ... وأفرح بالضيف المقيم وأبهجُ

(٥١) مهما رسم الرسامون من مثال لمنتهى الشقاء والذل، فما هم بآتين بمثل هذا المشهد المهيب: ملكٌ نبيلٌ، وشيخٌ جليلٌ يجرر شيبه على قمي فتى فتاك، ويقبل اليد التي سلبته نعيم الدنيا، وبطشت بولدٍ هم صفوة أبطال زمانهم، ومهما شحذت القرائح فما هي بمنتجة أبلغ من خطاب فريام لآخيل وأوقع منه في النفس حتى هاج مدمع ذلك القلب الصلب، فاجأ فريام آخيل وقومه وما أحسوا إلا أن هو بينهم، فبهتوا

فانسل وأهوى على ركبتي آخيل، وأخذ يقبل يديه، وقبل أن يبسط مرامه افتتح كلامه بقول يلين الجلمود؛ إذ أمر على مخيلته بعبارة وجيزة ذكرى أبيه فيلا، وهو كما علمت أعز الناس على آخيل وقد أدركه العجز وكساه الشيب حلة الجلال، ثم قابل بين حالته وحالة ذلك الشيخ الناءِ، فإذا هو أجدر بالرفق بما لا يقاس، ثم مر عجلًا على ذكر مقتل أبنائه حتى إذا أنس من آخيل ارتياحًا أتى على ذكر هكطور ومقتله، ولم يذكر من مناقبه إلا أنه كان يحمي ذماره وعشيرته، وليست سواها منقبة تعلي قدره لدى آخيل وتعطفه عليه، وإن كان عدوه الألد ووطَّأ للختام بتكرار ذكر فيلا، واختتم بعبارة أخذت بجميع أطراف المذلة والتعاسة وهي قوله:

هذه الكف أسُّ بؤسي وذلي

وبها ابني أضحى قتيلًا جديلا   وأنا قد قبلتها تقبيلا

فلا بدع بعد ذلك أن ينتحب آخيل على عزة نفسه، وقد نصبت لعينيه كل هاتيك الرسوم.

(**٥٢**) يقول: إن في أعتاب زفس قارورتين (أو دنين)؛ قارورة جعل فيها شراب الخير، وقارورة شراب الشر، فيسقي الناس؛ إما من إحداهما، وإما من كلتيهما، فالذي يُسقَى مزيجًا من الخير والشر يلقى خيرًا ويلقى شرًّا، والذي يسقى من الشر لا يلقى إلا الشر والشقاء.

وفي هذا التوزيع حكمة صادقة قَلَّ من ينتبه إليها، وهي أنه لم يقل بوجود بشر يسقى من قارورة الخير وحدها إشارة إلى أنه لا راحة تامة لأحد من بني الإنسان.

هذه خرافة من خرافات القوم، ولكنها تتضمن حقيقة راسخة، وفيها استعارة لطيفة ورد أمثالها في التوراة؛ إذ ذكر صاحب المزامير كأسًا بيد الحق جلَّ جلاله، ونكاد نجد في كلام شعرائنا كأسًا لكل محمود ومكروه، قال عنترة:

لا تسقني كأس الحياة بذلة … بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ

وقال ابن الفارض:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي … وكأسي محيا من عن الحسن جلّتِ

ومن مرويات الزمخشري:

ما أرجي بالعيش بعد أناسٍ … قد أراهم سقوا بكأس حلاق

والمراد بكأس حلاق: الموت.

(٥٣) كانت مملكة فريام ممتدة من سواحل بحر هيلا (الدردنيل) شمالًا إلى لسبوس جنوبًا إلى فريجيا شرقًا، وذكر إسطرابون أنها كانت تسع ممالك منضمة جميعًا تحت لواء فريام، فقول هوميروس هنا قول عالم بجغرافية زمانه محقق.

(٥٤) قال أراكة:

لعمري لئن أتبعت عينك ما مضى به الدهر أو ساق الحمام إلى القبر
لتفتقــدن مــاء الشــئون بأســره وإن كنـت تمـريهنَّ مـن ثـبج البحـر
تأمـل فـإن كـان البكـا رد هالكـا على أحدٍ فاجهد بكاك على عمرو

(٥٥) لقد أكبر الشاعر بطله آخيل بهذا العطف على فريام فوق إكباره إياه بسائر ما قال؛ إذ أبرزه هنا ذا عاطفة وحكمة وحنان فبات المستعطَفُ المستعطِف، وهي براعة من الشاعر نادرة المثال؛ إذ أضاف إلى مناقبه منقبة هي أعظمهن وأبعدهن عن ذهن المطالع، فلا يأتي على ختام الإلياذة إلا وقد رسخ في تصوره أن آخيل من أعاظم الخلق بأسًا وكرامة وعزة وشهامة، وهو وإن كان صعب المقاد صلب الجنان، فلا يخلو عنصره من أصفى جواهر الكرم والورع والإحسان.

(٥٦) عيون العيون: نواظر الأرصاد. هذه آخر شرارة قذفها آخيل عن زناد غضبه الذي بنيت عليه الرواية، وهنا خبت ناره فبات دعة وكرمًا بعد ذلك الاحتدام الوهاج.

(٥٧) قد علمت مما مر من التمثيل بجثة هكطور ووعيد آخيل وهديده، أنه كان ينوي لها شر النيات، أما الآن وقد انطفأت جذوة غيظه وارعوى إلى الصواب، فقد رجع إلى إجراء الواجب بعرفهم من رعاية جثث الموتى، فأمر بتكفينه وتطييبه على ما يليق بمقامه. تلك كانت حالة العرب في جاهليتهم فقد كانوا إذا اشتد بهم الكيد يمثلون بالقتلى مثلة

قبيحة، ولكنهم كانوا فيما سوى ذلك يحترمون جثث القتلى ولو من أعدائهم. قد جاء في الأثر أن جسَّاسًا لما قتل كليبًا وضع على جثته حجارًا لئلا تأكلها السباع. والتمثيل بالقتلى مما نهى عنه الإسلام كما تقدم، وفي الحديث عن عائشة: «كسر عظم الميت ككسره حيًّا» أي: إنه لا يهان كما لا يهان الحي. ومن مرويات الحديث أيضًا: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خيرٌ له من أن يجلس على قبر» ومن هذا القبيل قول المعري:

خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيحٌ بنا وإن قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والأجداد

(٥٨) حبذا لو ذكر الشاعر في جملة خطاب آخيل لفطرقل أمر زفس بالتخلي عن هكطور؛ لأن ذلك يجمل عذره لديه، فهو أقرب إلى إظهار الاضطرار من قبول الفكاك واستبقاء سهم فطرقل منه.

(٥٩) أشار آخيل إلى قصة مشهورة في خرافاتهم مؤاساةً لفريام، وحثًّا له على تناول الزاد؛ ذلك أن نيوبا ابنة الطنطال وامرأة أمفيون ملك ثيبة كانت تعتز بكثرة أولادها، وهم ستة بنين وست بنات، ففاخرت بهم لاطونة عشيقة زفس، ولم يكن للاطونة سوى ولدين فيبوس (الشمس)، وأرطميس (القمر)، فحنقت لاطونة وأغرت ولديها فقتلا جميع أولاد نيوبا، فلبثوا تسعة أيام مجندلين على التراب بدمائهم لا يضمهم لحد؛ لأن زفس كان يمسخ كل من دنا إليهم حجرًا، ولما كان اليوم العاشر

دفنتهم الآلهة، ثم مُسخت نيوبا، كما تحولت امرأة لوط نصب ملح على ما جاء في التوراة (تك ١٩:٢٦)، ولكن نيوبا بقيت على كونها جمادًا تتألم.

يقول آخيل لفريام: إن مصاب نيوبا بأولادها فوق مصابك، ومع ذلك فقد شعرت بالجوع وأكلت، فهذا وقت الطعام، وللنوح والبكاء وقت آخر.



نيوبا وأحد أولادها.

(٦٠) الضنو: الأولاد.

(٦١) الطوى: الجوع.

(٦٢) أربوها: قطعوها، والآراب: القطع، وسفدوا: شكوا في السفافيد.

(٦٣) ابن دردانوس: فريام.

(٦٤) الزرابي: الطنافس والبسط.

(٦٥) يقول آخيل: إنه قد جرت عادة الزعماء (بعد مقتل هكطور) أن يجتمعوا لديه يتشاورون في أمرهم، ولهذا أمر أن يعد فراش فريام خارج الساباط لئلا يراه أحد، فيعلم به أغاممنون والجيش فيصعب عليه الخلاص بعد ذلك.

قصد الشاعر بقوله هذا أن يثبت مرة أخرى كرم أخلاق آخيل، وأن يعيد ذكرى ما له من علو المقام بين الرؤساء، وإن لم تكن الرئاسة له وأن يوطئ توطئة حسنة لما يلي؛ إذ لو كان فريام داخل الخيمة لما تيسر له الفرار ليلًا كما سيجيئ.

(٦٦) يرجي: يؤخر، وأراد بالمليك أغاممنون.

(٦٧) التواثق بالتصافح قديم العهد. راجع مطالعتنا بهذا الباب (ن ١٠).

(٦٨) أي: إذا درى بك أغاممنون وقومه بذلوا لآخيل ثلاثة أضعاف ما بذلت، وأخذوك فقتلوك فتزيد مصاب أبنائك الباقين بعد هكطور.

(٦٩) إذلعبت: جدت.

(٧٠) النطاب: الرأس، أي: رأس هكطور.

(٧١) يظهر من كلام هوميروس في هذا الموضع ومن مظان في التوراة وكتب العرب أن النياحة كانت مهنة تحترف بها طائفة من الناس، وهي من لوازم المآتم، وقد ذكر صاحب الأغاني جماعة كانت هذه مهنتهم كابن سريج وغريض وغيرهما، وفضلًا عن ذلك كان النساء يندبن الموتى صارخات ومغنيات وعازفات. ذكر ابن الأثير وغيره من مؤرخي العرب أن نساء المشركين خرجن بعد غزوة بدر وبأيديهنَّ الدفوف ينقرن عليها ويندبن الموتى، وقد قضت الحضارة على هذه العادة فتلاشت من أكثر البلاد، وهي مع ذلك لا تزال فاشية في الأقاليم المصرية وبعض البلاد الشرقية.

(٧٢) كدم الأرض للقتيل، وعض الثرى، وأكل التراب من المجاز المألوف في أكثر الألسنة، قال عنترة:

كـم شـجاع دنـا إلـيَّ ونـادى   يـا لقـومي أنـا الشـجاع المهيـب

مـا دعـاني إلا مضـى يكـدم الأر   ض وقـد شـققت عليـه الجيـوب

(٧٣) لا غرو أن تقول أندروماخ: إن مصابها بهكطور فوق مصاب أبيه وأمه وسائر ذويه، وهو قول يصدق على كل أيِّم، قالت جليلة بنت مرة ترثي زوجها كليبًا:

يـا قتـيلًا قـوض الـدهر بـه	سـقف بيتـي جميعًـا مـن علِ
ورمـاني قتلـه مـن كثـبٍ	رميـة المصـمي بـه المستأصـل
يـا نسـائي دونكـنَّ اليـوم قـد	خصـني الـدهر بـرزءٍ معضـل
خصـني قتـل كليـب بلظًـى	مـن ورائـي ولظًـى مسـتقبل
ليتـه كـان دمًـا فـاحتلبوا	دررًا منـه دمـي مـن أكحلـي

(٧٤) الذباب: حد النصل، أشارت بقولها: لخليل إلى فطرقل.

(٧٥) الصولج: الفضة، والحنية: القوس، أي: لا أزال أراك رطبًا جميلًا غير مشوَّه بالجراح، ولا معفر بالتراب، كمن أماته فيبوس بسهم دقيق رماه به عن قوسه اللجيني، أو بعبارة أخرى كمن مات حتف أنفه.

(٧٦) انشعبت: مت.

(٧٧) لا حاجة بنا إلى إيراد مطالعة على مناحة زوجة هكطور وأمه وامرأة أخيه، فقد تقدم لنا كلام بهذا المعنى (ن ٢٢) يصدق مجملًا على هذا الموضع، وإنما تنبه إلى أن الشاعر لم يُنطق فريام هنا بشيءٍ مما أنطقه هناك؛ لأنه لم يكن لكلامه موضع بعد أن أفرغ كنانة حزنه في كل أجزاء هذا النشيد، ولم يكن بد من إنطاق هيلانة؛ لأنه لا يصح أن

تختتم المنظومة وقد سدل عليها ستار النسيان وهي سبب كل هذا البلاء، وهكذا فإن الشاعر جعل الوصف كاملًا والحزن شاملًا واختتم هذا النشيد، وفيه ختام الإلياذة بمشهد من أشد المشاهد تأثيرًا في النفوس، فالأمة كلها قائمة قاعدة للاحتفاء بملقى هكطور ميتًا، وشقيقته كلها جزع وحزن قلقة على شرفات الأبراج، وأبوه الشيخ الهرم عائد به بعد أن خاطر بحياته لأجل جثته، وزوجه ترثي رثاء الأيم المتوقعة غدرات الزمان، وأمه تندب الجمال والكمال وتئن أنين الرءوم، وهيلانة تنوح نوح الفاقدة النصير الموقنة بسوء المصير، وعلى الجملة فإن الدنيا برمتها متمثلة للقارئ عناء وشقاء.

(٧٨) لم يطل الشاعر في وصف مأتم هكطور؛ لأنه لم يبق محل لذلك بعد أن أسهب ذلك الإسهاب في مأتم فطرقل.

الفهرس

الالياذه

هذا الكتاب :

اختلف المؤرخون في اسم صاحب الإلياذة، ولكنهم متفقون على أن «هوميروس» لقبٌ لُقِّب به لأمر جلل تخلل حياته فعرف به، وأهمل اسمه على نحو ما اتفق لكثيرين من شعرائنا الذين غلبت ألقابهم على أسمائهم كطرفة بن العبد والنابغة والفرزدق والأخطل والمتنبي وأبي العلاء، وللكتَّاب أقوالٌ مختلفة في ذلك اللقب .

ولهذا حاموا حول اللفظة اليونانية وجعلوا يستنبطون من معانيها ما شاءوا، فمن قائل أنه لما كانت كلمة هوميروس بمعنى الرهينة غلب عليه هذا اللقب لوقوعه أسيرًا في حربٍ ، ومنهم من يقول بل أخذ إلى كولوفون، وقال آخرون: «بل وقع أسيرًا في قبضة الفرس»، ومن قائل: أن معنى الاسم «المتكلم في المجلس» أي: الخطيب أو المشير ، وكل ما يُستخرج من هذا الاجتهاد يصح أن يتفق لصاحبنا.